المستطرف

في كل فن مستظرف

لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي
٧٩٠-٨٥٠هـ



تحقيق
الدكتور/ مصطفى محمد الذهبي

دار الحديث
القاهرة

المُسْتَطْرَفُ

فِي كُلِّ فَنٍّ مُسْتَظْرَفِ

اسم الكتـــاب : المستطرف في كل فن مستظرف

اسم المؤلـــف : شهاب الدين محمد الأبشيهى

اسم المحقـــق : دكتور مصطفى محمد الذهبى

القطـــــع : ٢٠×٢٨سم

عدد الصفحـات : ٦٨٠ صفحة

عدد المجـلدات : مجلد واحد

سنة الطبـــع : ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

رقـــم الإيـــداع : ٩٩٦٨ / ٢٠٠٠م

دار الحديث

طبع . نشر . توزيع

١٤٠ شارع جوهر القائد أمام جامعة الأزهر تليفون ٥١١٣٠٣٦/ ٥٩١٨٧١٩/ ٥٩١٩٦٩٧ فاكس ٥٩١٩٦٩٧

المستطرف

في كل فن مستظرف

لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي
٧٩٠ - ٨٥٠ هـ

تحقيق
دكتور مصطفى محمد حسين الذهبي

دار الحديث
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله تعالى على جزيل نواله، وصلى اللّهم على سيدنا محمد وآله.

وبعد: فإن كتاب «**المستطرف**» للواعظ المحدث الأديب، شهاب الدين محمد بن أحمد، أبو الفتح ، المحلى، الشافعى، الأبشيهى يعد من أطرف وأظرف الكتب الأدبية والدينية والتاريخية.. جمع فيه مؤلفه الكثير من نوادر الأخبار والأشعار والخطب والمواعظ والحكم ، وقد وصفه حاجى خليفة فى كتابه «كشف الظنون» خير وصف فقال:

«...وهو يشتمل على كل فن ظريف، وفيه الاستدلال بآيات من القرآن، وأحاديث صحيحة، وحكايات حسنة عن الأخيار، ونقل فيه كثيرًا مما أودعه الزمخشرى فى «ربيع الأبرار»، وابن عبد ربه فى «العقد»، وفيه لطائف عديدة من منتخبات الكتب المفيدة، وأودعه من الأمثال والنوادر الهزلية والغرائب والدقائق والأشعار والرقائق، وجعله مشتملاً على أبواب عدتها أربعة وثمانون».

ولد المؤلف فى «أبشويه» وهى قرية تقع فى غربى مصر وإليها ينتسب، وكانت ولادته سنة ٧٩٠ هجرية، ثم انتقل إلى القاهرة، وحضر دروس الحافظ جلال الدين البليقينى، وولى خطابة بلده. وحج سنة ٨١٤ هجرية، وله كتاب «أطواق الأزهار على صدور الأنهار». وتوفى - رحمه الله - سنة ٨٥٠ هجرية[(١)].

ويتلخص عملى فى التحقيق فى النقاط التالية:

١ - قمت بقابلة الكتاب على عدة نسخ مطبوعة قديمة وحديثة فوجدت الكثير من النقص والخلل، فأثبته فى مطانه، دون الإشارة إلى ذلك.

٢ - ضبطت النسخة ضبطًا تامًا ونسقتها ووضعت علامات الترقيم ليسهل على القارئ الاستفادة منه.

٣ - شرحت الألفاظ الغريبة الواردة فى النص، من كتب اللغة المتداولة.

٤ - خرّجت الآيات القرآنية ووضعتها بين قوسين مزهرين، هكذا: ﴿﴾.

٥- خرجت الأحاديث النبوية، وهى كثيرة، قدر الاستطاعة.

٥ - نسبت بعض الأبيات الشعرية إلى قائليها.

الدكتور مصطفى محمد الذهبى

١٥ من شهر الله المحرم ١٤٢١ هجرية

---

(١) انظر: الضوء اللامع ١٠٩/٧، حاجى خليفة ١٦٧٣، معجم المؤلفين ٢٢/٩.

مقدمة المؤلف

الحمد لله الملك العظيم العليّ الكبير، الغنى الحميد اللطيف الخبير، المنفرد بالعز والبقاء والإرادة والتدبير، الحى العليم الذى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير. أحمده حمدَ عبدٍ معترفٍ بالعجز والتقصير، وأشكره على ما أعان عليه من قصد ويسَّر من عسير. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ولا مشير. ولا ظهير له ولا وزير.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله البشير النذير، السراج المنير، المبعوث إلى كافة الخلق من غنى وفقير، ومأمور وأمير. صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير، وينجو بها فى الآخرة من عذاب السعير. وحسبنا الله ونعم الوكيل، فنعم المولى ونعم النصير.

أما بعد

فقد رأيت جماعة من ذوى الهمم، جمعوا أشياء كثيرة من الآداب، والمواعظ، والحكم. وبسطوا مجلدات فى التواريخ، والنوادر، والأخبار، والحكايات، واللطائف، ورقائق الأشعار، وألفوا فى ذلك كتبًا كثيرة، تفرد كل منها بفرائد لم تكن فى غيره من الكتب محصورة. فاستخرت الله تعالى، وجمعت من مجموعها هذا المجموع اللطيف، وجعلته مشتملاً على كل فن ظريف، وسمّيته «**المستطرف فى كل فن مستظرف**»، واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم، وأحاديث صحيحة، من أحاديث النبى الكريم، وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار، ونقلت فيه كثيرًا مما أودعه الزمخشرى فى كتابه (ربيع الأبرار)، وكثيرًا مما نقله ابن عبد ربه فى كتابه (العقد الفريد)، ورجوت أن يجد مُطَالِعه فيه كل ما يقصد ويريد، وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة، من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة، وأودعته من الأحاديث النبوية. والأمثال الشعرية، والألفاظ اللغوية، والحكايات الجدّية، والنوادر الهزلية، ومن الغرائب والدقائق، والأشعار والرقائق، ما تشنف بذكره الأسماع، وتقر برؤيته العيون، وينشرح بمطالعته كل قلب محزون.

مِن كَلِّ معنى يكادُ الميت يفهمُهُ ... حُسْنًا ويعشقه القِرْطَاسُ والقلمُ

وجعلته يشتمل على أربعة وثمانين بابًا، من أحسن الفنون، متوّجة بألفاظ كأنها الدرّ المكنون كما قال بعضهم شعرًا فى المعنى:

ففى كُلِّ بابٍ منه دُرٌّ مؤلفٌ ... كنَظْمِ عُقُودٍ زيَّنَتْهَا الجواهرُ

فإنْ نَظِمَ العقدُ الذى فيه جوهرٌ ... على غيرِ تأليفٍ فمَا الدُّرُّ فَاخِرُ

وضمنته كل لطيفة، ونظمتُه بكل ظريفة، وقرنتُ الأصول فيه بالفصول، ورجوت أن يتيسر لى ما رُمْتُهُ من الأصول، وجعلتُ أبوابه مقدمة، وفصلتها فى مواضعها مرتبة منظمة، ليقصد الطالب إلى كل باب منها عند الاحتياج إليه، ويعرف مكانه بالاستدلال عليه، فيجد كل معنى فى بابه إن شاء الله تعالى. والله المسئول فى تيسير المطلوب. وأن يلهم الناظر فيه ستر ما يراه من خلل وعيوب. إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. وهذه فهرست الكتاب، والله سبحانه المهون للصعاب.

الباب الرابع: فى العلم، والأدب، وفضل العالم والمتعلم.

الباب الخامس: فى الآداب، والحكم، وما أشبه ذلك.

الباب السادس: فى الأمثال السائرة، وفيه فصول.

الباب السابع: فى البيان، والبلاغة، والفصاحة، وذكر الفصحاء، من الرجال، والنساء، وفيه فصول.

الباب الثامن: فى الأجوبة المسكتة والمستحسنة، ورشقات اللسان، وما جرى مجرى ذلك.

الباب التاسع: فى ذكر الخطب، والخطباء، والشعراء، وسرقاتهم، وكبوات الجياد، وهفوات الأمجاد.

الباب العاشر: فى التوكل على اللّه تعالى، والرضا بما قسم، والقناعة، وذم الحرص، والطمع وما أشبه ذلك، وفيه فصول.

الباب الحادى عشر: فى المشورة، والنصيحة، والتجارب، والنظر فى العواقب.

الباب الثانى عشر: فى الوصايا الحسنة، والمواعظ المستحسنة، وما أشبه ذلك.

الباب الثالث عشر: فى الصمت، وصون اللسان، والنهى عن الغيبة، والسعى بالنميمة، ومدح العزلة، وذم الشهوة، وفيه فصول.

الباب الرابع عشر: فى الملك، والسلطان، وطاعة ولاة أمور الإسلام، وما يجب للسلطان على الرعية، وما يجب لهم عليه.

الباب الخامس عشر: فيما يجب على من صحب السلطان، والتحذير من صحبته.

الباب السادس عشر: فى الوزراء وصفاتهم، وأحوالهم، وما أشبه ذلك.

الباب السابع عشر: فى ذكر الحجاب، والولاية، وما فيها من الغرر والخطر.

الباب الثامن عشر: فيما جاء فى القضاء وذكر القضاة، وقبول الرشوة والهدية على الحكم، وما يتعلق بالديون، وذكر القصاص، والمتصوفة، وفيه فصول.

الباب التاسع عشر: فى العدل، والإحسان، والإنصاف وغير ذلك.

الباب العشرون: فى الظلم وشؤمه، وسوء عواقبه، وذكر الظلمة وأحوالهم، وغير ذلك.

الباب الحادى والعشرون: فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال، وسيرة السلطان فى استجباء الخراج، وأحكام أهل الذمة، وفيه فصلان.

الباب الثانى والعشرون: فى اصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وقضاء حوائج المسلمين، وإدخال السرور عليهم.

الباب الثالث والعشرون: فى محاسن الأخلاق ومساويها.

الباب الرابع والعشرون: فى حسن المعاشرة والمودة، والأخوة، والزيارة، وما أشبه ذلك.

الباب الخامس والعشرون: فى الشفقة على خلق اللّه تعالى، والرحمة بهم، وفضل الشفاعة، وإصلاح ذات البين، وفيه فصلان.

الباب السادس والعشرون: فى الحياء، والتواضع ولين الجانب، وخفض الجناح، وفيه فصلان.

الباب السابع والعشرون: فى العجب، والكبر، والخيلاء وما أشبه ذلك.

الباب الثامن والعشرون: فى الفخر، والمفاخرة، والتفاضل، والتفاوت.

الباب التاسع والعشرون: فى الشرف والسؤدد، وعلو الهمة.

الباب الثلاثون: فى الخير، والصلاح، وذكر السادة الصحابة، وذكر الأولياء، والصالحين رضى اللّه عنهم أجمعين.

الباب الحادى والثلاثون: فى مناقب الصالحين، وكرامات الأولياء رضى اللّه عنهم.

الباب الثانى والثلاثون: فى ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش، والوقاحة، والسفاهة.

الباب الثالث والثلاثون: فى الجود، والسخاء، والكرم، ومكارم الأخلاق، واصطناع المعروف، وذكر الأمجاد، وأحاديث الأجواد.

الباب الرابع والثلاثون: فى البخل، والشح، وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم.

الباب الخامس والثلاثون: فى الطعام وآدابه، والضيافة وآداب المضيف والضيف، وأخبار الأكلة، وما جاء عنهم، وغير ذلك.

الباب السادس والثلاثون: فى العفو، والحلم، والصفح، وكظم الغيظ، والاعتذار، وقبول المعذرة، والعتاب، وما أشبه ذلك.

الباب السابع والثلاثون: فى الوفاء بالوعد، وحسن العهد، ورعاية الذمم.

الباب الثامن والثلاثون: فى كتمان السر وتحصينه، وذم إفشائه.

الباب التاسع والثلاثون: فى الغدر، والخيانة، والسرقة، والعداوة، والبغضاء، والحسد، وفيه فصول.

الباب الأربعون: فى الشجاعة وثمرتها، والحروب وتدبيرها، وفضل الجهاد، وشدة البأس، والتحريض على القتال، وفيه فصول.

الباب الحادى والأربعون: فى ذكر أسماء الشجعان، وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم، وذكر الجبناء وأخبارهم، وذم الجبن.

الباب الثانى والأربعون: فى المدح، والثناء وشكر النعمة، والمكافأة، وفيه فصول.

الباب الثالث والأربعون: فى الهجاء ومقدماته.

الباب الرابع والأربعون: فى الصدق، والكذب، وفيه فصلان.

الباب الخامس والأربعون: فى بر الوالدين، وذم العقوق، وذكر الأولاد، وما يجب لهم وعليهم، وصلة الرحم والقرابات، وذكر الأنساب، وفيه فصول.

الباب السادس والأربعون: فى الخلق، وصفاتهم، وأحوالهم، وذكر الحسن، والقبح، والطول، والقصر، والألوان، واللباس، وما أشبه ذلك.

الباب السابع والأربعون: فى ذكر الحُلى، والمصوغ، والطيبَ والتطيب، وما جاء فى التختّم.

الباب الثامن والأربعون: فى الشباب، والشيب، والصحة، والعافية، وأخبار المعمرين، وما أشبه ذلك، وفيه فصول.

الباب التاسع والأربعون: فى الأسماء، والكنى، والألقاب، وما استحسن منها.

الباب الخمسون: فى الأسفار، والاغتراب، وما قيل فى الوداع، والفراق، والحث على ترك الإقامة بدار الهوان، وحب الوطن، والحنين إلى الأوطان.

الباب الحادى والخمسون: فى ذكر الغنى، وحب المال، والافتخار بجمعه.

الباب الثانى والخمسون: فى ذكر الفقر، ومدحه.

الباب الثالث والخمسون: فى ذكر التلطف فى السؤال، وذكر من سُئل فجاد.

الباب الرابع والخمسون: فى ذكر الهدايا، والتحف، وما أشبه ذلك.

الباب الخامس والخمسون: فى العمل، والكسب، والصناعات، والحرب، والعجز، والتوانى، وما أشبه ذلك.

الباب السادس والخمسون: فى شكوى الزمان، وانقلابه بأهله، والصبر على المكاره، والتسلي عن نوائب الدهر، وفيه ثلاثة فصول.

الباب السابع والخمسون: فيما جاء فى اليسر بعد العسر، والفرج بعد الشدة، والسرور بعد الحزن، ونحو ذلك.

الباب الثامن والخمسون: فى ذكر العبيد، والاماء، والخدم، وفيه فصلان.

الباب التاسع والخمسون: فى أخبار العرب، وذكر غرائب من عوائدهم، وعجائب أمرهم.

الباب الستون: فى الكهانة، والقيافة، والزجر، والعرافة، والفأل، والطيرة، والفراسة، والنوم، والرؤيا.

الباب الحادى والستون: فى الحيل، والخدائع المتوصلة بها إلى بلوغ المقاصد، والتيقظ، والتبصر، ونحو ذلك.

الباب الثانى والستون: فى ذكر الدواب، والوحوش، والطير، والحشرات، مرتبًا على حروف المعجم.

الباب الثالث والستون: فى ذكر من عجائب المخلوقات، وصفاتهم.

الباب الرابع والستون: فى خلق الجان وصفاتهم.

الباب الخامس والستون: فى ذكر البحار وما فيها من العجائب، وذكر الأنهار، والآبار، وفيه فصول.

الباب السادس والستون: فى ذكر عجائب الأرض، وما فيها من الجبال، والبلدان وغرائب البنيان، وفيه فصول.

الباب السابع والستون: فى ذكر المعادن، والأحجار، وخواصها.

الباب الثامن والستون: فى ذكر الأصوات، والألحان، وذكر الغناء، واختلاف الناس، ومن كرهه واستحسنه.

الباب التاسع والستون: فى ذكر المغنين، والمطربين وأخبارهم، ونوادر الجلساء فى مجالس الخلفاء.

الباب السبعون: فى ذكر القينات، والأغانى.

الباب الحادى والسبعون: فى ذكر العشق ومن بُلِيَ به، والافتخار به، والعفاف، وأخبار من مات بالعشق، وما فى معنى ذلك، وفيه فصول.

الباب الثانى والسبعون: فى ذكر رقائق الشعر، والمواليا، والدوبيت، وكان كان، والموشحات، والزجل، والقومة، والألغاز، ومدح الأسماء والصفات، وفيه فصول.

الباب الثالث والسبعون: فى ذكر النساء وصفاتهن، ونكاحهن، وطلاقهن، وما يمدح وما يذم من عشرتهم، وفيه فصول.

الباب الرابع والسبعون: فى ذم الخمر وتحريمها والنهى عنها.

الباب الخامس والسبعون: فى المزاح، والنهى عنه، وما جاء فى الترخيص فيه، والبسط، والتنعم، وفيه فصول.

الباب السادس والسبعون: فى النوادر، والحكايات، وفيه فصول.

الباب السابع والسبعون: فى الدعاء، وآدابه، وشروطه، وفيه فصول.

الباب الثامن والسبعون: فى القضاء والقدر، وأحكامهما، والتوكل على الله تعالى.

الباب التاسع والسبعون: فى التوبة، وشروطها، والندم والاستغفار.

الباب الثمانون: فى ذكر الأمراض والعلل، والطب، والدواء، من السنة، والعيادة وثوابهـا، ومـا أشبه ذلـك، وفيه فصول.

الباب الحادى والثمانون: فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر، وأحواله.

الباب الثانى والثمانون: فى الصبر، والتأسى، والتعازى، والمراثى، ونحو ذلك، وفيه فصول.

الباب الثالث والثمانون: فى ذكر الدنيا، وأحوالها، وتقلبها بأهلها، والزهد فيها ونحو ذلك.

الباب الرابع والثمانون: فى فضل الصلاة على النبى صلى اللّٰه عليه وسلم.

وهو آخر الأبواب ختمتها بالصلاة على سيد العباد أرجو بذلك شفاعته صلى اللّٰه عليه وسلم يوم المعاد.

الباب الأول فى مبانى الإسلام وفيه خمسة فصول

الفصل الأول فى الإخلاص لله تعالى والثناء عليه

وهو أن تعلم أن اللّه تعالى واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ندَّ له، أبديٌّ دائم، لا أول لوجوده، ولا آخر لأبديته، قيوم لا يفنيه الأبد، ولا يغيره الأمد، بل هو الأول والآخر، والظاهر، والباطن، منزه عن الجسمية ليس كمثله شيء وهو فوق كل شيء، فوقيَّته لا تزيده بعدًا عن عباده، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، وهو معكم أينما كنتم.

لا يشابه قربه قرب الأجسام، كما لا يشابه ذاته ذوات الأجرام، منزَّه عن أن يحدَّه زمان، مقدَّس عن أن يحيط به مكان، تراه أبصار الأبرار، فى دار القرار على ما دلت عليه الآيات والأخبار. حيٌّ قادرٌ جبار قاهر لا يعتريه عجز ولا قصور، ولا تأخذه سنة [1] ولا نوم، له الملك والملكوت والعزة والجبروت.

خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا تحصى مقدوراته، ولا تتناهى معلوماته، عالم بجميع المعلومات، لا يعزب[2] عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات. يعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وخفيات السرائر، مريد للكائنات، مدبر للحادثات، لا يجرى فى ملكه قليل ولا كثير، ولا جليل ولا حقير، خير أو شر، نفع أو ضر إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو المبدى المعيد الفاعل لما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا مهرب لعبد من معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته. لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا، سميع بصير، متكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه، وكل ما سواه سبحانه وتعالى فهو حادث، أوجده بقدرته، وما من حركة وسكون إلا وله فى ذلك حكمة دالة على وحدانيته. قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾[3] الآية، وقال أبو العتاهية:

فيا عَجبًا كيف يُعْصَى الإلـ ... ـهُ أم كيفَ يَجْحدهُ الجاحدُ

وفى كُلِّ شىءٍ له آيةَ ... تدلُّ على أنَّهُ الواحِدُ

وللّه فى كُلِّ تحريكةٍ ... وتسكينةٍ فى الورَى شاهدُ

وقال غيره:

كل ما ترتقى إليه بوهمٍ ... من جلالٍ وقدرةٍ وسناءِ

فالذى أبدعَ البريَّة[4] أعلى ... منه سبحانَهُ مُبْدِعِ الأشْيَاءِ

وقال على رضى اللّه عنه فى بعض وصايا لولده: اعلم يا بنى أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد لا يضاده فى ملكه أحد.

وعنه عليه الصلاة والسلام: كل ما يتصور فى الأذهان، فاللّه سبحانه بخلافه.

وقال لبيد بن ربيعة:

ألا كلُّ شىءٍ ما خلا اللّه بَاطلُ ... وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائِلُ

---

(١) سِنة: فتور يسبق النوم.

(٢) يعزب: يغيب ويبعد.

(٣) سورة البقرة: ١٦٤.

(٤) البرِيَة: الخلق .

وكلُّ ابنِ أنثى لو تطاولَ عمرُهُ إلى الغاية القصوى فللقبرِ آيلُ
وكلُّ أناسٍ سوف تدخلُ بينهم دُويهيَّةٌ[١] تصفَرُّ منها الأناملُ
وكل امرىءٍ يومًا سيعْرَف سَعْيُهُ إذا حُصِّلَتْ عند الإلهِ الحصائِلُ

وروى أن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم قال وهو على المنبر: «إن أشعر كلمة قالتها العرب: ألا كل شىء ما خلا اللّٰه باطل»[٣].

ثم بعد هذا الاعتقاد: الإقرار بالشهادة بأن محمدًا رسول اللّٰه بعثه برسالته إلى الخلائق كافة، وجعله خاتم الأنبياء، ونسخ بشريعته الشرائع، وجعله سيد البشر، والشفيع المشفع فى المحشر، وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة، فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت من سؤال منكر ونكير، وهما ملكان من ملائكة اللّٰه تعالى يسألان العبد فى قبره عن التوحيد والرسالة، ويقولان له: مَنْ ربك؟ وما دينك؟ ومَنْ نبيك؟ ويؤمن بعذاب القبر، وأنه حق، وأن الميزان حق، والصراط حق، والحساب حق، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن اللّٰه تعالى يُدْخل الجنة من يشاء بغير حساب، وهم المقربون، وأنه يُخرج عُصاة الموحدين من النار، بعد الانتقام، حتى لا يبقى فى جهنم مَنْ فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ويؤمن بشفاعة العلماء، ثم بشفاعة الشهداء، وأن يعتقد فضل الصحابة رضى اللّٰه تعالى عنهم، ويحسن الظنَّ بجميعهم، على ما وردت به الأخبار، وشهدت به الآثار، فمَنِ اعتقد جميع ذلك مؤمنًا فهو من أهل الحق والسنة، مُفارقٌ لعصابة الضلال والبدع.

رزقنا اللّٰه الثبات على هذه العقيدة وجعلنا من أهلها، ووفقنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها، إنه سميع مجيب.

فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الإسلام الخمسة، قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا اللّٰه، وأن محمدًا رسول اللّٰه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً»[٤] .

الفصل الثانى فى الصلاة وفضلها

قال اللّٰه تعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للّٰه قَانِتِينَ**﴾ [٢]، وقال تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾[٥] ، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**﴾[٦] .

واختلفوا فى اشتقاق اسم الصلاة مِمَّ هو؟ فقيل: هو من الدعاء، وتسمية الصلاة دعاءً معروفة فى كلام العرب، فسُمِّيت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء، وقيل: سميت بذلك من الرحمة قال اللّٰه تعالى: ﴿**إِنَّ اللّٰه وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾[٦] ، فهى من اللّٰه رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الناس دعاء، قال صلى اللّٰه عليه وسلم: «اللّهمَّ صَلِّ على آل أبى أوفى» أى: ارحمهم. وقيل: سميت بذلك من الاستقامة، من قولهم: صليتَ العود على النار إذا قَوَّمْتَهُ.

---

(١) دويهة: تصغير داهية وهى المصيبة.
(٢) سورة البقرة:٢٣٨.
(٣) أخرجه: البخارى فى المناقب ٣٨٤١.
(٤) أخرجه: البخارى فى الإيمان ٨.
(٥) سورة البقرة:٤٣.
(٦) سورة الأحزاب:٥٦.
(٦) سورة النساء: ١٠٣.

والصلاة تقيم العبد على طاعة اللّه وخدمته، وتنهاه عن خلافه، قال اللّه تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾ (١) . وقيل: لأنها صلة بين العبد وربه، وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «علم الإيمان الصلاة، فمَنْ فرغ لها قلبه، وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن». وعن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه قال وهو على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام، وما أكمل للّه تعالى صلاة! قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتمُّ ركوعها وسجودها وخشوعها، وتواضعه وإقباله على اللّه فيها. وقالت عائشة رضى اللّه عنه: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه.

وقيل للحسن: ما بال المتهجِّدين (٢) من أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: لأنهم خلَوا بالرحمن، فألبسهم نورًا من نوره.

وقال بعضهم: لا تفوت أحدًا صلاة فى جماعة إلا بذنب. وكانت رابعة العدوية تصلى فى اليوم والليلة، ألف ركعة وتقول: واللّه ما أريد بها ثوابًا، ولكن ليسر ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: انظروا إلى امرأة من أمتى، هذا عملها فى اليوم والليلة.

وقال بعضهم: صليت خلف ذى النون المصرى فلما أراد أن يكبِّر رفع يديه وقال: اللّه ثم بَهَت، وبقى كأنه جسد لا روح فيه إعظامًا لربه جل وعلا، ثم قال: اللّه أكبر فظننت أن قلبى انخلع من هيبة تكبيره.

وقيل: أوحي اللّه تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود كذب من ادَّعى محبتى، وإذا جنَّ عليه الليل نام عنى، أليس كل محبٍ يحبُّ الخلوة بحبيبه؟ ولعبد اللّه بن المبارك رضى اللّه تعالى عنه:

إذا ما الليلُ أظلمَ كَابَدُوه ... فيسفِرُ عنهم وهم ركوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهُم فقاموا ... وأهلُ الأمنِ فى الدنيا هُجُوعُ

وكان سيدى الشيخ الإمام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم التكريرى - رحمه اللّه - كثيرًا ما يتمثل بهذه الأبيات:

يا أيها الراقدُ كم ترقدُ ... قم يا حبيبى قد دنا الموعدُ
وخذْ من الليلِ ولو ساعةً ... تحظى إذا ما هَجَعَ الرُّقَّدُ
مَنْ نامَ حتى ينقضى ليلَه ... لم يبلَغِ المنزَلَ لو يجهدُ

وكان سيدى أويس القرني لا ينام ليله ويقول: ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتر؟ وقال حذيفة رضى اللّه عنه: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. وقال هشام بن عروة: كان أبى يطيل المكتوبة، ويقول: هى رأس المال. وقال أبو الطفيل: سمعت أبا بكر الصديق رضى اللّه تعالى عنه يقول: يا أيها الناس قوموا إلى نيرانكم فاطفئوها(٣) ، سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «الصلاةُ إلى الصلاةِ كفَّارةٌ لما بينهما ما اجتُنِبَتِ الكبائر»(٤) . وجزَّأ محمد بن المنكدر عليه وعلى أمه وعلى أخته الليل أثلاثًا، فماتت أخته، فجزأه عليه وعلى أمه، فماتت أمه فقام الليل كله.

وكان مسلم بن بشار إذا أراد أن يصلى فى بيته يقول لأهله: تحدثوا فلست أسمع حديثكم. وكان إذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام، فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا. ووقع حريق إلى جنبه وهو فى

(١) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٢) المتهجدين: المصلين ليلاً.

(٣) لأن الصلاة تثلج صدر الإنسان وتجمعله مرتاح البال.

(٤) أخرجه: أحمد فى المسند ٩٠٩٢.

الصلاة فما شعر به حتى أطفئ. وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير في المسجد الحرام يحسبه جذعًا منصوبًا لطول انتصابه في الصلاة. وكانت العصافير تقع على ظهر إبراهيم بن شريك وهو ساجد كما تقع على الحائط.

وختم القرآن في ركعة واحدة من الأئمة: عثمان بن عفان، وتميم الدارى، وسعيد بن جبير، وأبو حنيفة رضى اللّه تعالى عنهم. ورأى الأوزاعى شابًا بين القبر والمنبر فلما طلع الفجر استلقى ثم قال: عند الصباح يحمد القوم السرى[1] ، فقال: يا ابن أخى لك ولأصحابك لا للجمالين. وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه فى الصلاة، فقيل له: كيف تصبر؟ فقال: بلغنى أن الفساق يتصبرون تحت السياط ليقال: فلان صبور، وأنا بين يدى ربى، أفلا أصبر على ذباب يقع علىَّ؟. وقال أبو صفوان بن عوانة: ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض وهو قائم يصلى فى القمر كأنه يشبه الملائكة.

وقال الحسن: ما كان فى هذه الأمة أعبد من فاطمة عليها السلام بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كانت تقوم بالأسحار، حتى تورمت قدماها.

وقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى تورمت قدماه، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وكانت دموعه تقع فى مصلاه كوكف المطر[2] .

وكان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يسمع لقلبه خفقان وغليان. هذا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الإجلال والإكرام وشرف المقام، فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الآثام. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لرجل قال له: ادع اللّه أن يجعلنى رفيقك فى الجنة، فقال: «أعنِّى على نفسك بكثرة السجود»[3] . وقال حاتم الأصم رحمه اللّه تعالى: فاتتنى صلاة الجماعة مرة فعزَّانى أبو إسحاق البخارى وحده، ولو مات لى ولد لَعَزَّانى أكثر من عشرة آلاف؛ لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا. وكان السلف رضى اللّه تعالى عنهم، يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى، وسبعًا إذا فاتتهم الجماعة. وقال ابن عباس رضى اللّه عنهما: ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه. وأنشد بعضهم:

خسر الذى تركَ الصلاةَ وخابا ... وأبى معادًا صالحًا ومآبا

إن كان يجحدُها فحسبُكَ أنه ... أضْحَى بربِّك كافرًا مُرْتابا

أو كان يتركها لنوع تكاسلِ ... غطَّى على وَجْهِ الصوابِ حجابا

فالشافعيُّ ومالكٌ رأيا له ... إنْ لم يَتُبْ حدَّ الحسامِ عقابا

والرأىُ عندى للإمامِ عذابُه ... بجميعِ تأديبٍ يراهُ صوابا

اللّهم أعِنّا على الصلاة، وتقبَّلْها منا بكرمك ولا تجعلنا من الغافلين، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

[فضل السواك والأذان]

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل ذكر شيء من فضل السواك والأذان.

---

(١) السُّرى: السير ليلاً

(٢) وكُف المطر: هطْله.

(٣) مسلم فى الصلاة ٤٨٩.

. أما **السواك**: فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» [١] وقال أيضًا: «صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك». وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام ليتهجد شاص فاه بالسواك. وقال صلى الله عليه وسلم: «السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب»[٢] ، وعنه صلى الله عليه وسلم قال: «لو يعلم الناس ما فى السواك لبات مع الرجل فى لحافه». وقال أيضًا: «أفواهكم طرقٌ لكلام ربكم فنظفوها»[٣] .

والاختيار فى السواك أن يكون بعود الأراك، ويجزى بغيره من العيدان وبالسعد والأشنان، والخرقة الخشنة، وغير ذلك مما ينظف، ويستاك عرضًا مبتدئًا بالجانب الأيمن من فيه، وينوى به الإتيان بالسنة، والسواك بعود الزيتون يزيل الحفر من الأسنان.

وقال الأصحاب: يقول عند السواك: اللهم بارك لى فيه يا أرحم الراحمين. ويستاك فى ظاهر الأسنان وباطنها، ويمر السواك على أطراف أسنانه وأضراسه وسقف حلقه إمرارًا لطيفًا، ويستاك بعود متوسط لا شديد اليبوسة، ولا شديد اللين، فإن اشتد يبسه لينه بالماء. وقد قيل: إن من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت، ويسهل خروج الروح.

وأما الأذان: فقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه» قيل فى قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾[٤] : نزلت فى المؤذنين. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «يغفر الله للمؤذن مدى صوته، ويشهد له ما سمعه، من رطب ويابس»[٥] . وعن معاوية رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة»[٦] . رواه مسلم. وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين»[٧] . رواه البخارى ومسلم. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنسٌ، ولا شيءٌ إلا شهد له يومَ القيامة»[٨] رواه البخارى، والأحاديث فى فضله كثيرة مشهورة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث فى الزكاة وفضلها

قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة فى مواضع شتى فى كتابه، قال الله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾[٩] ، وقال تعالى: ﴿**رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ**﴾[١٠] ، وقال تعالى: ﴿**وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾[١١] .

---

(١) أخرجه: البخارى فى الجمعة ٨٨٧.
(٢) أخرجه: البخارى فى الصوم.
(٣) أخرجه: ابن ماجه فى الطهارة وسننها.
(٤) سورة فصلت:٣٣.
(٥) أخرجه: النسائى فى الأذان ٦٤٥.
(٦) أخرجه: مسلم فى الصلاة ٣٨٧.
(٧) أخرجه: البخارى فى الأذان ٦٠٨.
(٨) أخرجه: البخارى فى الأذان ٦٠٩.
(٩) سورة البقرة:٤٣.
(١٠) سورة النور:٣٧.
(١١) سورة البينة:٥.

وعن بريدة رضى اللّٰه تعالى عنه عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «ما حبس قومٌ الزكـاةَ إلا حبـس اللّٰـه عنهم القطْرَ»[١] . وعن عائشة رضى اللّٰه عنها عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم: «ما خالطت الزكـاة مـالاً قـط إلا أهلَكَتْهُ». وعن ابن عباس رضى اللّٰه تعالى عنهما عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم قال: «مَنْ كان عنده مـا يُزكـى، ولم يزك، ومَنْ كان عنده ما يحج، ولم يحج سأل الرَّجعة»، يعنى قوله تعالى: ﴿**قَـالَ رَبِّ ارْجِعُونِـي لَعَلِّي أَعْمَـلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾[٢] .

وَلنلْحِقْ بهذا الفصل ذكر شيء من الصدقة وفضلها، وما جاء فيها، وما أعد اللّٰه تعالى للمتصدقين مـن الأجر والثواب ودفع البلاء.

قال اللّٰه تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**﴾[٣] ، وقال تعالى: ﴿**وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ**﴾[٤] الآية.

والآيات الكريمة فى ذلك كثيرة، والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة. وروى الترمذى فى جامعه بسنده عـن عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص رضى اللّٰه عنهما قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «خير الأصحـاب عنـد اللّٰه خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند اللّٰه خيرهم لجاره»[٥] ، وفى صحيح مسلم وموطأ مالك وجامع الـترمذى عن أبى هريرة رضى اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «ما نقص مال من صدقة» أو قال: «مـا نقصت صدقة من مال، وما زاد اللّٰه عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع عبدٌ إلا رفعه اللّٰه تعالى»[٦] .

ودخلت امرأة شلاء[٧] على عائشة رضى اللّٰه عنها فقالت: كان أبى يحب الصدقة وأمى تبغضهـا، لم تتصـدق فى عمرها إلا بقطعة شحم وخلقة. فرأيت فى المنام كـأن القيامـة قـد قـامت، وكـانت أمـى قـد غطـت عورتهـا بالخلقة، وفى يدها الشحمة تلحسها من العطش، فذهبت إلى أبى وهو على حافة حـوض يسـقى النـاس، فطلبـت منه قدحًا من ماء فسقيت أمى، فنوديت من فوقى: ألا مَنْ سقاها فشل اللّٰه يدها، فانتبهت كما ترين.

ووقف سائل على امرأة وهى تتعشى، فقامت فوضَعَتْ لقمـةً فـى فيـه، ثـم بكـرت إلى زوجهـا فـى مزرعتـه، فوضعت ولدها عنده، وقامت لحاجة تريد قضاءها فاختلسه الذئب فوقفـت وقـالت: يـا رب ولـدى. فأتاهـا آتٍ فأخذ بعنق الذئب فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر. فقال لها: هذه اللقمة بتلك اللقمة التى وضعتها فـى فم السائل.

وعشش ورشان فى شجرةٍ فى دار رجل، فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له أخـذ أفـراخ ذلك الورشان، ففعل ذلك مرارًا، وكلما فرخ الورشان أخذوا أفراخـه. فشـكا الورشـان ذلـك إلى سـليمان عليـه السلام وقال: يا رسول اللّٰه أردتُ أن يكون لى أولاد يذكرون اللّٰه تعالى من بعدى فأخذ الرجل بـأمر امرأتـه، ثـم أعاد الورشان الشكوى فقال سليمان لشيطانين: إذا رأيتماه يصعد الشجرة فشـقاه نصفـين، فلمـا أراد الرجـل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير، ثم صعد، وأخذ الأفراخ على عادته، فشكا الورشـان ذلك إلى سليمان عليه السلام، فقال للشيطانين: ألم تفعلا ما أمرتكمـا بـه؟ فقـالا: اعترضنـا ملكـان فطرحانـا فـى الخافقين.

وقال النخعى: كانوا يرون أن الرجل الظلوم إذا تصدق بشيء دفع عنه البلاء. وكان الرجل يضع الصدقـة فـى يد الفقير، ويتمثل قائمًا بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائل.

(١) القطر: المطر.
(٢) سورة المؤمنون:٩٩ - ١٠٠.
(٣) سورة يوسف:٨٨.
(٤) سورة الأحزاب:٣٥.
(٥) أخرجه: الترمذى فى البر والصلة ١٩٤٤.
(٦) أخرجه: مالك فى الجامع ١٨٨٥.
(٧) شلاَّء: مشلولة اليد.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصدقة تسد سبعين بابًا من الشر». وعنه صلى الله عليه وسلم قال: «ردوا صدمة البلاء، ولو بمثل رأس الطائر من طعام». وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ردوا مذمة السائل ولو بظلف[١] محرق» وعنه أيضًا صلى الله عليه وسلم: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[٢].

وقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه: مَنْ رَدَّ خائبًا لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام. وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يناول المسكين بيده. وعنه صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يكسو مسلمًا ثوبًا، إلا كان في حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة». وقال عبد العزيز بن عمير: الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه. وعن الربيع بن خثيم أنه خرج في ليلة شاتية وعليه برنس خز[٣]، فرأى سائلاً فأعطاه إياه، وتلا قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٤]. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلى البر، وإن سوء الخلق شؤم، وحسن الملكة نَماء، والصدقة تدفع ميتة السوء»[٥].

قال يحيى بن معاذ: ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا من الصدقة. وعن عمر رضى الله عنه: إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة: أنا أفضلكن. وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تداركوا الهموم والغموم بالصدقات، يدفع الله ضرَّكم وينصركم على عدوكم». وعن عبيد بن عمير قال: يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، فمَنْ أطعم لله أشبعه الله، ومن سقى لله سقاه الله، ومن كسا لله كساه الله. وقال الشعبي: مَنْ لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه.

وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه؛ فإن لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهنًا أو غيره ما ينتفع به، فإنْ لم يكن عنده شيء أعطاه كحلاً أو أخرج إبرة وخيطًا فرقع بهما ثوب السائل.

ووجه رجل ابنه في تجارة فمضت أشهر و لم يقع له على خبر فتصدق برغيفين، وأرخ ذلك اليوم، فلما كان بعد سنة، رجع ابنه سالمًا رابحًا، فسأله أبوه: هل أصابك في سفرك بلاء؟ قال: نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر، وغرقت في جملة الناس وإذا بشابين أخذاني فطرحاني على الشط، وقالا لي: قل لوالدك هذا برغيفين، فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك؟

وقال علي رضى الله عنه وكرّم الله وجهه: إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به حيث تحتاج إليه فاغتنم حمله إياه، ولله در القائل حيث قال:

يَبكي على الذاهبِ من مالـه ... وإنّما يَبقى الـذى يَذهـبُ

وحُكي أن رجلاً عَبَدَ الله سبعين سنة فبينما هو في معبده ذات ليلة وقفت به امرأة جميلة فسألته أن يفتح لها، وكانت ليلة شاتية، فلم يلتفت إليها، وأقبل على عبادته. فولَّت المرأة فنظر إليها فأعجبته فملكت قلبه، وسلبت لبه، فترك العبادة وتبعها، وقال: إلى أين؟ فقالت: إلى حيث أريد. فقال: هيهات صار المراد مريدًا، والأحرار عبيدًا، ثم جذبها فأدخلها مكانه فأقامت عنده سبعة أيام، فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة، وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام، فبكى حتى غشي عليه. فلما أفاق قالت له: يا هذا والله أنت ما عصيت الله

---

(١) الظلف: للمواشي ما يقابل القدم البشرية.

(٢) أخرجه: البخاري في الزكاة ١٤١٣.

(٣) الخز: الحرير.

(٤) سورة آل عمران: ٩٢.

(٥) أخرجه: أحمد في المسند ١٥٦٤٩.

مع غيرى، وأنا ما عصيت الله مع غيرك، وإنى أرى فى وجهك أثر الصلاح، فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرنى. قال: فخرج هائمًا على وجهه فآواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان، وكان بالقرب منهم راهب يبعث إليهم فى كل ليلة بعشرة أرغفة، فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز، فمد ذلك الرجل العاصى يده فأخذ رغيفًا فبقى منهم رجلاً لم يأخذ شيئًا، فقال: أين رغيفى؟ فقال الغلام: قد فرقت عليكم العشرة، فقال: أبيت طاويًا[١]، فبكى الرجل العاصى، وناول الرغيف لصاحبه، وقال لنفسه: أنا أحق أن أبيت طاويًا لأننى عاص وهذا مطيع، فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك. فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: هذا رجل فرّ من ذنبه وجاء طائعًا؛ وقالت ملائكة العذاب: بل هو رجل عاص، فأوحى الله تعالى إليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليال فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة، فأوحى الله إليهم أن زنوا معصية السبع ليال بالرغيف الذى آثر به على نفسه، فوزنوا ذلك فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة وقبل الله توبته.

وحكى أن رجلاً جلس يومًا يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية، فوقف سائل ببابه فخرج إليه وانتهره، فذهب، فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت نعمته، وطلق زوجته وتزوجت بعده برجل آخر، فجلس يأكل معها فى بعض الأيام، وبين أيديهما دجاجة مشوية، وإذا بسائل يطرق الباب، فقال الرجل لزوجته: إدفعى إليه هذه الدجاجة. فخرجت بها إليه فإذا هو زوجها الأول فدفعت إليه الدجاجة، ورجعت وهى باكية، فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته: أن السائل كان زوجها، وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذى انتهره زوجها الأول، فقال لها زوجها: أنا والله ذلك السائل.

وذُكر عن مكحول أن رجلاً أتى إلى أبى هريرة رضى الله عنه فقال: ادع الله لابنى فقد وقع فى نفسى الخوف من هلاكه. فقال له: ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائى وأنجع وأسرع إجابة؟ قال: بلى. قال: تصدق عنه بصدقة تنوى بها نجاة ولدك وسلامة ما معه. فخرج الرجل من عنده وتصدق على سائل بدرهم وقال: هذا لخلاص ولدى وسلامته وما معه. فنادى فى تلك الساعة مناد فى البحر: ألا إن الفداء مقبول، وزيد مغاث، فلما قدم سأله أبوه عن حاله فقال: يا أبت لقد رأيت فى البحر عجبًا يوم كذا وكذا فى وقت كذا وكذا - وهو اليوم تصدق فيه والده عنه بالدرهم - وذلك أنّا أشرفنا على الهلاك والتلف فسمعنا صوتًا من الهواء: ألا إن الفداء مقبول، وزيد مغاث، وجاءنا رجال عليهم ثيابٌ بيض فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا، وسلمنا، وصرنا بخير أجمعين.

والآثار والحكايات فى ذلك كثيرة، وفيما أشرت إليه كفاية لمن وعى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، والله أعلم.

الفصل الرابع فى الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢] قيل: الصوم عموم، وخصوص، وخصوص الخصوص. فصوم العموم هو كف البطن والفرج وسائر الجوارح عن قصد الشهوة. وصوم الخصوص هو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام. وصوم خصوص الخصوص، هو صوم القلب عن الهمم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية.

(١) طاوياً: شديد الجوع.

(٢) سورة البقرة:١٨٣.

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «زكاة الجسد الصيام». وعنه صلى اللّه عليه وسلم: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه»(١) وقال وكيع في قوله تعالى: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾ (٢) إنها أيام الصوم، تركوا فيها الأكل والشرب. وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «من أفطر يومًا في رمضان من غير رخصة رخصها اللّه لم يَقْضِ عنه صيام الدهر». وروى في صحيح النسائي عنه أيضًا صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغُلِّقَتْ أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين»(٣) .

وروى الزهري: أن تسبيحة واحدة في شهر رمضان أفضل من ألف تسبيحة في غيره. وروى عن قتادة أنه كان يقول: مَنْ لم يُغْفَرْ له في شهر رمضان فلن يُغْفَرَ له في غيره. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لو يعلم الناس ما في شهر رمضان من الخير لتمنت أمتي أن يكون رمضان السنة كلها، ولو أذن اللّه للسموات والأرض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة»، وقال صلى اللّه عليه وسلم: «ليس من عبدٍ يصلي في ليلة من شهر رمضان إلا كتب اللّه له بكل ركعة ألفًا وخمسمائة حسنة، وبني له بيتًا في الجنة من ياقوته حمراء، لها سبعون ألف باب، لكل باب منها مصراعان من ذهب، وله بكل سجدة يسجدها شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام»، وقال صلى اللّه عليه وسلم: «إن لكل صائم دعوة فإذا أراد أن تقبل فليقل في كل ليلة عند فطره: يا واسع المغفرة اغفر لي».

وعن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه: من صام يومًا من رمضان خرج من ذنوبه كيَوْمَ ولدته أمه، فإذا انسلخ عنه الشهر وهو حي لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول، ومن عطش نفسه للّه في يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقًا على اللّه أن يرويه يوم القيامة. وقال بعضهم: الصيام زكاة البدن، ومَنْ صام الدهر فقد وهب نفسه للّه تعالى.

وروى في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»(٤) وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر، كصيام الدهر، وهي الأيام البيض، وهي الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، من كل شهر».

وفي صحيح البخاري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه». وفضل الصوم غزير؛ لأنه خصه اللّه تعالى بالإضافة إليه كما ثبت في الصحيح من الحديث عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال مخبرًا عن ربه عز وجل: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به».

وقد يكتفي في فضله بهذا الحديث الجليل، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل.

---

(١) أخرجه: مسلم في الصيام ١١٥١.

(٢) سورة الحاقة: ٢٤.

(٣) أخرجه: البخاري في كتاب الصوم ١٨٩٩.

(٤) أخرجه: احمد في المسند ٨٩٤٤.

الفصل الخامس فى الحج وفضله

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾(١)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ومن خرج من بيته حاجًا أو معتمرًا فمات أجرى الله له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة». وقال صلى الله عليه وسلم:« من استطاع الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًا، وإن شاء نصرانيًا»(٢) . وفى الحديث:« إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة». وفيه: «أعظم الناس ذنبًا من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له» وهو أفضل يوم فى الدنيا، وفى الخبر: «أن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة، وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق»(٣) . وجاء فى الحديث الصحيح: أن آدم عليه الصلاة والسلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام.

وقال مجاهد: إن الحجاج إذا قدموا مكة لحقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الإبل، وصافحوا ركبان الحمر، واعتنقوا المشاة اعتناقًا. وكان من سنة السلف رضى الله عنهم أن يشيعوا الغزاة، ويستقبلوا الحجاج، ويقبلوهم بين أعينهم، ويسألوهم الدعاء لهم، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام.

وعن النبى صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف، فإن نقصوا كملهم الله تعالى من الملائكة، وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة، فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها، حتى تدخل الجنة فيدخل معها».

وحكى أن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبى محمد بن حمدان، حجت سنة ست وثمان وثلثمائة فصارت تاريخًا مذكورًا؛ قيل: إنها سقت أهل الموسم كله السويق بالطبرزد والثلج، واستصحبت البقول المزروعة فى المراكن على الجمال، وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار، ولم تستصبح فيها وعندها إلا بشموع العنبر، وأعتقت ثلاثمائة عبد، ومائتى جارية، وأغنت الفقراء والمجاورين.

ولما بنى آدم عليه الصلاة والسلام البيت قال: يا رب إن لكل عامل أجرًا فما أجر عملى؟ قال: إن طفت به غفرت لك ذنوبك. قال: زدنى. قال: جعلته قبلةً لك ولأولادك، قال: يا رب زدنى. قال: أغفر لكل من استغفرنى من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك. قال: يا رب حسبى.

وفى الحديث: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(٤) . وقيل للحسن: ما الحج المبرور؟ قال: أن ترجع زاهدًا فى الدنيا راغبًا فى الآخرة. وأول من كسا الكعبة الديباج (٥) عبد الله بن الزبير وكانت كسوتها المسوح والأنطاع (٦) وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم.

وكان حكيم بن حزام يقدم عشية عرفة ومعه مائة بدنة، ومائة رقبة، فيعتق الرقاب عشية عرفة، وينحر البدن يوم النحر، وكان يطوف بالبيت فيقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نعم الرب، ونعم الإله، أحبه وأخشاه.

ورؤى الحسن بن على رضى الله عنهما يطوف بالبيت ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم وضع خده على المقام فجعل يبكى ويقول: عُبَيْدُك ببابك، خُوَيْدمك ببابك، سائلك ببابك، مُسَيْكينك ببابك. يردد ذلك مرارًا، ثم انصرف رضى الله عنه فمرّ بمساكين معهم فلق خبز يأكلون، فسلم عليهم فدعوه إلى الطعام، فجلس معهم

(١) سورة آل عمران:٩٧.
(٢) أخرجه: الدارمى فى المناسك ١٧٨٥.
(٣) أخرجه: الترمذى فى الحج ٩٦١.
(٤) أخرجه: البخارى فى الحج ١٧٧٣.
(٥)الديباج: كلمة فارسية، تطلق على نوع من الحرير الفاخر.
(٦)المسوح: جمع مسح ، أقمشة من الشعر وهى زهيدة القيمة وكذلك الأنطاع.

وقال: لولا أنه صدقة لأكلت معكم، ثم قال: قوموا بنا إلى منزلى. فتوجهوا معه فأطعمهم وكساهم، وأمر لهم بدراهم.

وحج عبد الله بن جعفر رضى الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشى على رجليه حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكًا، وحملهم على ثلاثين راحلة، وأمر لهم بثلاثين ألفًا وقال: أعتقتهم لله تعالى لعله يعتقنى من النار. وقال الحسن بن على رضى الله عنهما: إنى لأستحى من ربى أن ألقاه و لم أمش إلى بيته. فمشى من المدينة إلى مكة عشرين مرة.

ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حيان الضرير حين لم يهد إليه الحجاج شيئًا:

كأنَّ الحجيجَ الآنَ لم يقربوا منى … و لم يحملوا منها سواكًا ولا نعلا
أتَوْنا فما جادوا بعودِ أراكةٍ[١] … ولا وضعوا فى كفِّ طفلٍ لنا نقلا

وقال غيره:

يحجون بالمال الذى يجمعونَهُ … حرامًا إلى بيت العتيقِ المحرمِ
ويزعمُ كلٌّ منهمُ أن وِزْرَهُ … يُحَطّ ولكن فوقه فى جَهَنَّمِ

وقال آخر:

حجَّ فى الدهر حجة … حجَّ فيها وأحرما
وأتانا من الحجا … زكما راح مُحْرِما
فهو ذو الحجة الذى … ما توقّى مُحْرَما

وتخاصم بدوى مع حاج عند منصرف الناس فقيل له: أتخاصم رجلاً من الحجاج؟! فقال:

يحجُّ لكيما يغفر اللّه ذنبَهُ … ويرجع قد حطت عليه ذنوبُ

وقال أبو الشمقمق:

إذا حججت بمالٍ أصلُهُ دَنَسٌ … فما حججتَ ولكن حَجَّتِ العيرُ[٢]
ما يقبلُ اللّهُ إلاّ كلَّ طَيبةٍ … ما كلُّ مَنْ حجَّ بَيْتَ اللّهِ مَبْرورُ

والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) الأراك: من عظام شجر الشوك ترعاه الإبل.

(٢) أى: الأبل.

الباب الثانى فى العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك

نص اللّه سبحانه وتعالى فى محكم كتابه العزيز ومنزل خطابه الوجيز على شرف العقل، وقد ضرب اللّه سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها، وبيَّن بدائع مصنوعاته وشرحها، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١] ، وروى عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «أول ما خلق اللّه تعالى العقل، فقال له: أقبل، فأقبل. ثم قال له: أَدْبِرْ. فقال عزَّ من قائل: وعزتى وجلالى ما خلقت خلقًا أعز علىَّ منك، بك آخذ وبك أعطى، وبك أحاسب وبك أعاقب».

وقال أهل المعرفة والعمل: العقل جوهر مضئ خلقه اللّه عزَّ وجلَّ فى الدماغ، وجعل نوره فى القلب يدرك به المعلومات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة.

واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما. فأما الأول فهو العقل الغريزى المشترك بين العقلاء، وأما الثانى فهو العقل التجريبى وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع. وباعتبار هذه الحالة يقال: إن الشيخ أكمل عقلاً، وأتم دراية، وإن صاحب التجارب أكثر فهمًا وأرجح معرفة. ولهذا قيل: مَنْ بيَّضت الحوادث سواد لمته، وأخلقت التجارب لباس جدته، وأراه اللّه تعالى لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأقضيته، كان جديرًا برزانة العقل ورجاحة الدراية.

وقد يخص اللّه تعالى بألطافه الخفية مَنْ يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل، وزيادة معرفة، تخرجه عن حدِّ الاكتساب، ويصير بها راجحًا على ذوى التجارب والآداب، ويدل على ذلك قصة يحيى ابن زكريا عليهما السلام فيما أخبر اللّه تعالى به فى محكم كتابه العزيز حيث يقول: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[٢] . فمَن سبقت له سابقة من اللّه تعالى فى قسم السعادة وأدركته عناية أزلية أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديثَ السن قليل التجربة، كما نقل فى قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبى حيث رَدَّ حكم أبيه داود عليه السلام فى أمر الغنم والحرث، وشرْح ذلك فيما نقله المفسرون: أن رجلين دخلا على داود عليه السلام: أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب حرث، فقال أحدهما: إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثى فأهلكته و لم تبق لى فيه شيئًا، فقال داود عليه السلام: الغنم لصاحب الحرث عوضًا عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرَّا على سليمان عليه السلام، وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة فقال لهما: ما حكم بينكما الملك؟ فذكرا له ذلك فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فعادا إلى داود عليه السلام، وقالا له ما قاله ولده سليمان عليه السلام. فدعاه داود عليه السلام وقال له: ما هو الأرفق بالفريقين؟ فقال سليمان: تسلم الغنم إلى صاحب الحرث - وكان الحرث كرمًا قد تدلت عناقيده فى قول أكثر المفسرين - فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها، وينتفع بدرها ونسلها، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به، فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التى كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه، سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها، وتسلم كرمه كما كان بعناقيده وصورته. فقال له داود: القضاء كما قلت، وحكم به كما قال سليمان عليه السلام.

---

(١) سورة النحل:١٢.

(٢) سورة مريم:١٢.

وفى هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿**وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾(١) فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانية، وألطاف إلهية.

وإذا قذف الله تعالى شيئًا من أنوار مواهبه فى قلب مَنْ يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب، ورجح على ذوى التجارب والاكتساب فى كثير من الأسباب.

ويستدل على حصول كمال العقل فى الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته فإن المشاهدة من خصائص الأجسام؛ فأقول: يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة منها: ميله إلى محاسن الأخلاق، وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته فى إسداء صنائع المعروف، وتجنّبه ما يكسبه عارًا(٢) ويورثه سوء السمعة. وقد قيل لبعض الحكماء: بم يُعرفُ عقل الرجل؟ فقال: بقلة سقطه فى الكلام، وكثرة إصابته فيه، فقيل له: فإن كان غائبًا؟ فقال: بإحدى ثلاث: إما برسوله، وإما بكتابه، وإما بهديَّته، فإن رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان همته، فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها.

وقيل: من أكبر الأشياء شهادةً على عقل الرجل حسن مداراته للناس، ويكفى أن حسن المدارة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه. فإنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَن حُرِم مُداراةَ الناس فقد حرم التوفيق» فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق. وقالوا: العاقل الذى يحسن المدارة مع أهل زمانه. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجنة مائة درجة، تسعة وتسعون منها لأهل العقل، وواحدة لسائر الناس».

وقال على بن عبيدة: العقل ملك، والخصال رعية، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها. فسمعه أعرابى فقال: هذا كلام يقطر عسله. وقيل: بأيدى العقول تمسك أعنة النفوس، وكل شىء إذا كثر رخص، إلا العقل فإنه كلما كثر غلا. وقيل: لكل شىء غاية وحدٌّ، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار فى المروج.

واختلف الحكماء فى ماهيته، فقال قوم: هو نور وضعه الله طبعًا وغريزة فى القلب كالنور فى العين، وهو يزيد وينقص، ويذهب ويعود، وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور. وعَمَى القلب كعَمَى البصر قال الله تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾(٣) وقيل: محل العقل الدماغ، وهو قول أبى حنيفة رحمه الله تعالى. وذهب جماعة إلى أنه فى القلب كما روى عن الشافعى رحمه الله تعالى: ﴿**فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾(٤) وبقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ**﴾(٥) أى: عقل. وقالوا: التجربة مرآة العقل. ولذلك حُمِدت آراءُ المشايخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سَهْم، ولا يسقط لهم فَهْم، وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع، فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة. قال الشاعر:

ألم تَـرَ أن العقـلَ زَيْـنٌ لأهلـه ... ولكِنْ تمامُ العقـلِ طـولُ التجـاربِ

---

(١) سورة الأنبياء: ٧٨ - ٩٧.

(٢) العار: الشئ الشنيع المستقبح الذى يُعيَّر به الإنسان الذى يأتى مثل هذه الأفعال السيئة.

(٣) سورة الحج: ٤٦.

(٤) سورة الحج: ٤٦.

(٥) سورة ق: ٣٧.

وقال آخر:

إذا طال عمرُ المرءِ فى غيرِ آفةٍ ... أفادَتْ له الأيامُ كرّها (١) عَقلا

وقال عامر بن عبد قيس: إذا عَقَّلك عقلُك عما لا يعنيك فأنت عاقل. ويقال: لا شرف إلا شرف العقل، ولا غنى إلا غنى النفس. وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان، كما يعيش الأسد بقوته حيث كان.

قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقلٌ فإنّهُ ... وإنْ كان ذا بيتٍ على النّاس هَيِّنُ

ومَن كان ذا عقلٍ أُجلَّ لعقلِه ... وأفضل عَقْلٍ عقلُ مَنْ يتديَّنُ

وقالوا: العاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الريح، والجاهل تبطره أدنى منزلة، كالحشيش يحركه أدنى ريح. وقيل لعلى رضى اللّٰه تعالى عنه: صِفْ لنا العاقل. قال: هو الذى يضع الشىء مواضعه. قيل: فصف لنا الجاهل. قال: فقد فعلت، يعنى الذى لا يضع الشىء مواضعه.

وقال المنصور لولده: خذ عنى ثنتين: لا تَقُلْ من غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير. وقال اردشير: أربعة تحتاج إلى أربعة؛ الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة. وقال كسرى أنو شروان: أربعة تؤدى إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأى إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير. وقال القاسم بن محمد: من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه، كان حتفه من أغلب الخصال عليه. وقيل: أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه. وقيل: ثلاثة هُنَّ رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد فى المعيشة، والتحبب إلى الناس. وقيل: من أعجب برأى نفسه، بطُل رأيه، ومن ترك الاستماع من ذوى العقول مات عقله. وعن عمرو بن العاص رضى اللّٰه تعالى عنه أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صغارًا، وأرحمهم كبارًا. وقيل: العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق.

وقيل: لا ينبغى للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت، ولا طعامًا حتى يستمرئه، ولا يثق بخليل حتى يستقرضه. وقيل: طول اللحية أمان من العقل. وسئل بعضهم: أيما أحمد فى الصبا: الحياء، أم الخوف؟ قال: الحياء؛ لأن الحياء يدل على العقل، والخوف يدل على الجبن. وقيل: غضب العاقل على فعله، وغضب الجاهل على قوله. وقال أبو الدرداء رضى اللّٰه عنه: قال لى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «يا عويمر ازدد عقلاً تَزْدَدْ من اللّٰه تعالى قُربًا» قلت: بأبى وأمى ومَنْ لى بالعقل؟ قال: «اجتنب محارم اللّٰه تعالى، وأدِّ فرائض اللّٰه تعالى تكن عاقلاً ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزدد فى الدنيا عقلاً، وتزدد من اللّٰه قربًا وعزًّا». وحكى بعض أهل المعرفة قال: حياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالعلم. ويروى عن على بن أبى طالب كرم اللّٰه وجهه أن كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها:

إنَّ المكارمَ أخلاقٌ مُطَهَّرةٌ ... فالعقلُ أوّلُها والدينُ ثانيها

والعِلمُ ثالثُها والحِلْمُ رابعُها ... والجودُ خامسُها والعُرفُ ساديها

والبرُّ سابعُها والصبرُ ثامنُها ... والشكر تاسعُها واللينُ عاشيها

والعينُ تعلمُ من عينَىْ مُحدِّثِهَا ... إنْ كان من حزبها أو من أعاديها

والنفسُ تعلم أنى لا أصدِّقُها ... ولستُ أرشدُ إلا حين أعصيها

---

(١) الكر: الرجوع وهنا بمعنى التعاقب.

وقال بعض الحكماء: العاقل مَنْ عقله فى إرشاد، ورأيه فى إمداد، فقوله سديد، وفعله حميد، والجاهل من جهله فى إغراء، فقوله سقيم، وفعله ذميم، ولا يكفى فى الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته، وتسريح لحيته، وكثرة صلفته ونظافة بزته، إذ كم مِن كنيفٍ [1] مبيض، وجلد مفضض. وقد قال الأصمعى: رأيت بالبصرة شيخًا له منظر حسن، وعليه ثياب فاخرة، وحوله حاشية وهرج، وعنده دخل وخرج، فأردت أن اختبر عقله فسلمت عليه وقلت له: ما كنية سيدنا؟ فقال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين. قال الأصمعى: فضحكت منه، وعلمت قلة عقله، وكثرة جهله، و لم يدفع ذلك عنه غزارة خرجه ودخله. وقد يكون الرجل موسومًا بالعقل مرقومًا بعين الفضل فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله، وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله.

وقيل: إن إياس بن معاوية القاضى كان من أكابر العقلاء، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها، فكان من جملة الوقائع التى صدرت منه، وشهدت له بالعقل الراجح، والفكر القادح، أنه كان فى زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة فاتفق أن رجلاً أراد أن يحج فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيسًا فيه جملة من الذهب، ثم حج. فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره، وجحده، فجاء إلى القاضى إياس، وقص عليه القصة، فقال القاضى: هل أخبرت بذلك أحدًا غيرى؟ قال: لا. قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إلىّ؟ قال: لا. قال: انصرف واكتم أمرك ثم عد إلىّ بعد غد. فانصرف، ثم إن القاضى دعا ذلك الرجلِ المستودع فقال له: قد حصل عندى أموال كثيرة، ورأيت أن أودعها عندك، فاذهب وهيّئ لها موضعًا حصينًا. فمضى ذلك الرجل. وحضَر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل فقال له القاضى إياس: امض إلى خصمك، واطلب منه وديعتك، فإن جحدك فقل له: امض معى إلى القاضى إياس، أتحاكم أنا وأنت عنده. فلما جاء إليه دفع وديعته، فجاء إلى القاضى وأعلمه بذلك، ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضى طامعًا فى تسليم المال فسبه القاضى وطرده. وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره.

ولما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها، فقالوا: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض، فتمكننا الغرة منهم، والوثبة عليهم. وعقدوا لذلك المشورات، وتراجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر، وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة والرأى غائبًا عنهم، فقالوا: من الحزم عَرْضُ الرأى عليه. فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صوابًا، فسألوه عن علة ذلك، فقال: فى الغد أخبركم إن شاء اللّه تعالى. فلما أصبحوا أتوا إليه. وقالوا: قد وعدتنا أن تخبرنا فى هذا اليوم بما عوَّلنا عليه، فقال: سمعًا وطاعة، وأمر بإحضار كلبين عظيمين، كان قد أعدَّهما ثم حرَّش بينهما، وحرَّض كل واحد منهما على الآخر، فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما، فلما بلغ الغاية فتح باب بيت عنده، وأرسل على الكلبين ذئبًا كان قد أعده لذلك، فلما أبصراه تركا ما كانا عليه، وتألفت قلوبهما، ووثبا جميعًا على الذئب فقتلاه، فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال: مَثَلُكُم مع المسلمين، مَثَلُ هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدوٌّ من غيرهم، فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم، وتآلفوا على العدو، فاستحسنوا قوله، واستصوبوا رأيه. فهذه صفة العقلاء.

وأما ذم الحمق: فقد قال ابن الأعرابى: الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت، فكأنه كاسِدُ العقل والرأى، فلا يشاور ولا يلتفت إليه فى أمر من الأمور. والحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة، وهو داء دواؤه الموت. قال الشاعر:

---

(١) الكنيف: الساتر أو الحظيرة، وهنا جاءت اسمًا للمرحاض.

لكـــلِّ داءٍ دَواءٌ يُســـتَطبُّ بِـــه إلاّ الحمَاقـةَ أعيَـــتْ مَـــنْ يُدَاوِيهَـــا

والحمق مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى، إذ حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل». ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة، بطول اللحية؛ لأن مخرجها من الدماغ، فمن أفرط طول لحيته قلَّ دماغه، ومن قلَّ دماغه، قل عقله، ومن قل عقله فهو أحمق. وأما صفته من حيث الأفعال، فترك نظره فى العواقب، وثقته بمن لا يعرفه، والعجب، وكثرة الكلام، وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات، والخلو من العلم، والعجلة، والخفة، والسفه، والظلم، والغفلة، والسهو، والخيلاء، إن استغنى بطر، وإن افتقر قنط، وإن قال أفحش، وإن سئل بَخُلَ، وإن سأل ألَحَّ، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك قهقه، وإن بكى صرخ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها فى كثير من الناس، فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق.

قال عيسى عليه السلام: عالجت الأبرص والأكمة فأبرأتهما، وعالجت الأحمق فأعيانى.

والسكوت عن الأحمق جوابه. ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر، فقال: حجر على حجر.

وحكى أن أحمقين اصطحبا فى طريق، فقال أحدهما للآخر: تعال نَتَمَنَّ على الله، فإن الطريق تُقْطَعُ بالحديث، فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها، وصوفها. وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك، حتى لا تترك منها شيئًا. قال: ويحك أهذا من حق الصحبة، وحرمة العشرة؟! فتصايحا، وتخاصما، واشتدت الخصومة حتى تماسكا بالأطواق ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما، فطلع عليها شيخُ بَحَمِار، عليه زقّان [1] من عسل، فحدثاه بحديثهما، فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب، ثم قال: صبَّ الله دمى مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين.

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: كان رجل يتعبد فى صومعة فأمطرت السماء وأعشبت الأرض فرأى حماره يرعى فى ذلك العشب فقال: يا رب لو كان لك حمار لرعيته مع حمارى هذا، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فَهَمَّ أن يدعو عليه فأوحى الله إليه لا تَدْعُ عليه فإنى أجازى العباد على قدر عقولهم.

ويقال: فلان ذو حمق وافر، وعقل نافر، ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه.

وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمّقته[2] فقال:

ومـا هَوَجـى يـا هنـد إلا سـجية أجرّ لها ذيلى بحسن الخلائق

ولو شئت خادعت الفتى عن قلوصه[3] ولاطمت فى البطحاء من كل

ويقال للأبله السليم القلب: هو من بقر الجنة لا ينطح، ولا يرمح، والأحمق المؤذى: هو من بقر سَقَر. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) الزِّق: وعاء جلدى للعسل والخمر وغيرهما.

(٢) حمّقته: نَسبَته إلى الحمق.

(٣) القلوص: المركوب من فتىّ الإبل.

الباب الثالث فى القرآن وفضله وحرمته وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(١)، وسمى الله تعالى القرآن كريمًا فقال تعالى: ﴿لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾(٢)، وسمّاه حكيمًا فقال تعالى: ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾(٣)، وسمّاه مجيدًا فقال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾(٤). أنزله الله تعالى على سيد الأنام وخاتم الأنبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته، وعن الإتيان بآية من مثله، قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٦)، فهو النور المبين، والحق المستبين، لا شيء أسطع من أعلامه ولا أصدع من أحكامه، ولا أفصح من بلاغته، ولا أرجح من فصاحته، ولا أكثر من إفادته، ولا ألذ من تلاوته.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «القرآن فيه خبر مَنْ قبلكم، ونبأ مَنْ بعدكم، وحكم ما بينكم». وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم: «أصفرُ(٧) البيوت بيتٌ صِفْر من كتاب اللـه تعالى». وقال الشعبى: الذى يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه عز وجل.

وَوَفِدَ غالب بن صعصعة على على بن أبى طالب كرم الله وجهه ومعه ابنه الفرزدق فقال له: من أنت؟ قال: غالب بن صعصعة. قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم. قال: فما فعلت بإبلك؟ قال: أذهبتها النوائب، وزعزّتها الحقوق. قال: ذلك خير سبلها. ثم قال له: يا أبا الأخطل(٨) من هذا الذى معك؟ قال: ابنى وهو شاعر. قال: علمه القرآن فهو خير له من الشعر. فكان ذلك فى نفس الفرزدق حتى قيَّد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه فى سنة. وفى ذلك قال:

وما صَبَّ رجلى فى حديدِ مجاشع(٩) ... مع القيد إلا حاجةٌ لى أريدها

وقال أنس رضى الله عنه: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بنى لا تغفل عن قراءة القرآن إذا أصبحت وإذا أمسيت؛ فإن القرآن يحيى القلب الميت، وينهى عن الفحشاء والمنكر». وحكى الزمخشرى فى كتابه «ربيع الأبرار» قال: ومن حكايات الحشوية(١٠) ما قيل: إن إبراهيم الخواص مرّ بمصروع فأذن فى أذنه فناداه الشيطان فى جوفه: دعنى أقتله فإنه يقول القرآن مخلوق. وكان سفيان الثورى رحمه الله تعالى إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة، وأقبل على قراءة القرآن.

وكان الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى إذا دخل شهر رمضان يفرّ من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم، ويقبل على القراءة فى المصحف. وكان أبو حنيفة والشعبى رحمهما الله تعالى يختمان فى رمضان ستين ختمة. وقال على رضى الله تعالى عنه: مَنْ قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات اللـه هزوا.

---

(١) سورة القمر:١٧.
(٢) سورة الواقعة:٧٧.
(٣) سورة يس:١.
(٤) سورة ق:١.
(٥) سورة البقرة:٢٣.
(٦) سورة الإسراء:٨٨.. وظهيراً: معيناً ونصيراً.
(٧) أصفر البيوت: أخلاها.
(٨) هذا وهم من المؤلف ولعله : يا أبا همام.
(٩) مجاشع: أحد أجداد الفرزدق.
(١٠) الحشوية: قوم ينسبون إلى حشو الكلام ولغوه.

وقال الشعبى: اللسان عدل على الأذن والقلب فاقرأ قراءة تسمعها أذنك ويفهمها قلبك. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أن أحدًا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظم اللّه». وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل: يا رسول اللّه وما جلاؤها؟ قال: «قراءة القرآن، وذكر الموت».

وقال عمر بن ميمون: مَنْ نشر مصحفًا حين يصلى الصبح فقرأ مائة آية، رفع اللّه له مثل عمل جميع أهل الدنيا. وقال على كرم اللّه وجهه: مَنْ قرأ القرآن وهو قائم فى الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة، ومَنْ قرأ وهو جالس فى الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة، ومَنْ قرأه فى غير صلاة وهو على وضوء فخمسٌ وعشرون حسنة، ومَنْ قرأه على غير وضوء، فعشر حسنات.

وقال ابن عباس رضى اللّه عنهما: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحَبُّ إلىَّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة[1]، وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «اقرأوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»، وعن صالح المرى قال: قرأت القرآن على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى المنام، فقال لى: يا صالح هذه القراءة فأين البكاء؟. وكان عثمان رضى اللّه عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى طسم نبأ موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختتم ليلة الخميس.

وعن على رضى اللّه عنه: لا خير فى عبادة لا فقه فيها، ولا خير فى قراءة لا تدبُّر فيها. وكان عكرمة بن أبى جهل رضى اللّه تعالى عنه -ولعن أباه- إذا نشر المصحف أغمى عليه، ويقول: هو كلام ربى. وأبطأت عائشة رضى اللّه عنها على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليلة فقال: «ما حبسك؟» قالت: قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتًا منه، فقام فاستمع إليه طويلاً ثم قال: «هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد للّه الذى جعل فى أمتى مثله».

وقال ابن عيينة: رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى المنام فقلت: يا رسول اللّه قد اختلفت علىّ القراءات فعلى قراءة مَن تأمرنى؟ فقال على قراءة أبى عمرو. وعن أبى عمرو: إنى لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة رضى اللّه عنهم أجمعين، فقرأت عليهم، فاشدد بها يدك. فينبغى للإنسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلاً ونهارًا سفرًا أو حضرًا.

وقال الشيخ محيى الدين النووى رحمه اللّه تعالى فى كتابه «الأذكار»: قد كان للسلف رضى اللّه عنهم عادات مختلفة فى القدر الذى يختمون فيه فكانت جماعة منهم يختمون فى كل شهر ختمة، وآخرون فى كل عشر ليال ختمة، وآخرون فى كل ثلاث ليال ختمة. وكان كثيرون فى كل يوم وليلة ختمة، وختم جماعة فى كل يوم وليلة ختمتين، وختم بعضهم فى اليوم والليلة ثمانى ختمات، أربعًا فى الليل وأربعًا فى النهار. وروى أن مجاهدًا رحمه اللّه تعالى كان يختم القرآن فى شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء. وأما الذين ختموا القرآن فى ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمنهم عثمان بن عفان، وتميم الدارى، وسعيد بن جبير رضى اللّه عنهم. وروينا فى مسند الإمام المجمع على حفظه وجلالته وإتقانه وبراعته أبى محمد رحمه اللّه عن سعد بن أبى وقاص رضى اللّه عنه قال: «إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وإذا وافق أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى». قال الدارمى: هذا حديث حسن عن سعد. وأفضل القراءة ما كان فى الصلاة، وأما فى غير الصلاة

---

(١) هذرمة: سرعة فى القراءة.

فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير منه أفضل من الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما قراءة النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح، ولا كراهة في وقت من الأوقات، ولا فى أوقات النهى عن الصلاة. ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة، وقيل: إن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن، وإن الرحمة تنزل عند ختمه، ويستحبّ الدعاء عقب الختم استحبابًا مؤكدًا تأكيدًا شديدًا.

ويجب على القارئ الإخلاص فى قراءته، وأن يريد بها وجه اللّه تعالى، وأن لا يقصد بها توصلاً إلى شئ سوى ذلك، وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر فى ذهنه أنه يناجي ربه سبحانه وتعالى، ويتلو كتابه فيقرأ على حالة مَنْ يرى اللّه تعالى، فإن اللّه يراه.

وينبغي للقارئ إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك، وأن يكون شأنه الخشوع والتدبير والخضوع فهذا هو المقصود والمطلوب، وبه تنشرح الصدور، ويتيسر المرغوب، ودلائله أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر.

وقد كان الواحد من السلف رضى اللّه عنهم يتلو آية واحدة، ليلة كاملة يتدبرها.

ويستحب البكاء والتباكى لمن لا يقدر على البكاء، فإن البكاء عند القراءة صفة العارفين، وشعار عباد اللّه الصالحين، قال اللّه تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[1] . وقال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف إبراهيم الخواص رضى اللّه عنه: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبُّر، وخلو البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة، وآثار بفضيلة الإسرار. قال العلماء: إن أراد القارئ بالإسرار بُعْد الرياء فهو أفضل فى حق مَنْ يخاف ذلك، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذى غيره من مصلٍّ، أو نائم، أو غيرهما. والأحاديث فى فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة، ومَنْ أراد الزيادة فلينظر فى كتاب «التبيان فى آداب حملة القرآن» لشيخ مشايخ الإسلام محيى الدين النووى - قدس اللّه روحه ونوَّر ضريحه - وقد جاء فى فضل القرآن أحاديث كثيرة.

وروى فى فضل قراءة سورة من القرآن فى اليوم والليلة فضل كبيرة منها يس، وتبارك الملك، والواقعة، والدخان. فعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «من قرأ يس فى يوم وليلة ابتغاء وجه اللّه تعالى غفر له»[2] ، وفى رواية له: «من قرأ سورة الدخان فى ليلة أصبح مغفورًا له». وفى رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضى اللّه عنهما سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة» وعن جابر رضى اللّه عنه قال: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا ينام كل ليلة حتى يقرأ: ﴿الم تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ ﴿تَبَارَكَ الْمُلْكُ﴾. وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أنه قال: من قرأ فى ليلة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ﴾، كانت كعدل نصف القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، كانت له كعدل ربع القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّه أَحَدٌ﴾ كان له كعدل الثلث.

والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة، وقد أشرنا إلى المقاصد منها، واللّه تعالى أعلم بالصواب، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سورة الإسراء:١٠٩.

(٢) أخرجه: الترمذى فى فضائل القرآن (٣٨٨٧).

الباب الرابع فى العلم والآدب وفضل العالم والمتعلم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٢)، وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعلموا العلم فإنَّ تعلمه لله حسنة، ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنة، والمؤنس فى الوحشة، والمحدث فى الخلوة، والجليس فى الوحدة، والصاحب فى الغربة، والدليل على السراء، والمعين على الضراء، والزين عند الإخلاء، والسلاح على الأعداء، وبالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار فى الدرجات العلى، ومجالسة الملوك فى الدنيا، ومرافقة الأبرار فى الآخرة، والفكر فى العلم يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، وبالعلم توصل الأرحام، وتفصل الأحكام، وبه يعرف الحلال والحرام، وبالعلم يعرف الله ويوحد، وبالعلم يطاع الله ويعبد».

قيل: العلم درك حقائق الأشياء مسموعًا ومعقولاً. وقال النبى صلى الله عليه وسلم: «خير الدنيا والآخرة مع العلم، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل».وعنه عليه الصلاة والسلام: «يوزن مداد العلماء، ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر، وَلَغَدْوَةٌ فى طلب العلم أحبُّ إلى الله من مائة غزوة، ولا يخرج أحد فى طلب العلم، إلاَّ وملك موكل به يبشِّره بالجنة، ومن مات وميراثه المحابر والأقلام، دخل الجنّة».

وقال على كرم الله وجهه: أقل الناس قيمة أقلهم علمًا. وقال أيضًا رضى الله عنه: العلم نهر، والحكمة بحر، والعلماء حول النهر يطوفون، والحكماء وسط البحر يغوصون، والعارفون فى سفن النجاة يسيرون(٣).

وقال موسى عليه السلام فى مناجاته: إلهى مَنْ أحب الناس إليك؟ قال: عالم يطلب علمًا. وقال بعض السلف رضى الله عنهم: العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للسان. وقيل: العالم طبيب هذه الأمة، والدنيا داؤها، فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرئ غيره. وسئل الشعبى عن مسألة فقال: لا علم لى بها. فقيل له: ألا تستحى؟ فقال: ولم أستحى مما لم تستح الملائكة منه حين قالت: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا﴾.

وعن النبى صلى الله عليه وسلم: «فضل العالم على العابد، كفضلى على أدناكم»(٤) وروى: «كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»(٥) . وقال على كرم الله وجهه: من نصب نفسه للناس إمامًا فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته، قبل تأديبه بلسانه. وقيل: مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالأجلال من مؤدب الناس ومعلمهم. وأنشدوا:(٦)

يا أيها الرجلُ المعلِّمُ غيرَهُ ... هلاَّ لنفسِك كان التعليمُ
تَصِفُ الدواءَ لذِى السِّقَامِ وذِى ... كيما يصحَّ به وأنت سَقيمُ
ونراك تصلحُ بالرشَادِ عقولَنا ... أبدًا وأنت من الرشادِ عديمُ
فابدأ بنفسِك فَانْهِهَا عن غَيِّها(٧) ... فإذا انتهَتْ عنه فأنت حَكيمُ
فهناك يُقبَلُ ما تقول ويُهْتَدَى ... بالقولِ منك وينفعُ التعليمُ

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.
(٢) سورة المجادلة: ١١.
(٣) يسيرون: يقيسون ولعل الأصواب: يعبرون.
(٤) الدارمى فى المقدمة ٢٨٩.
(٥) الترمذى فى العلم ٢٦٨٢.
(٦) تنسب الأبيات لأبى الأسود الدؤلى.
(٧) الغى: الضلال.

لا تَنْـهَ عـن خُلُـقٍ وتـأتىَ مثلَـهُ ... عـارٌ عليـكَ إذا فعلـتَ عظيـمُ

وقال بعضهم:

إنـى رأيـتَ النـاسَ فـى عصرنـا ... لا يطلبـونَ العِلْـمَ للعلـمِ

إلا مباهـاةً لأصحابـهِ ... وعُـدةً للغـشِّ والظلـمِ

ونظر رجل إلى امرأته وهى صاعدة فى السلم فقال لها: أنت طالق إن صعدت، وطالق إن نزلت، وطالق إن وقفت. فرمت نفسها إلى الأرض فقال لها: فداكِ أبى وأمى، إن مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة فى أحكامهم. وقال النبى صلى اللّٰه عليه وسلم: «هلاك أمتى فى شيئين: تَرْك العلم، وجَمْع المال». وسئل رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم عن أفضل الأعمال فقال: «العلم باللّٰه، والفقه فى دينه» وكررها عليه فقال: يا رسول اللّٰه أسألك عن العمل فتخبرنى عن العلم؟! فقال: «إن العلم ينفعك معه قليل العمل، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل». وقال عيسى عليه السلام: مَنْ عَلِمَ وعَمِلَ عُدّ فى الملكوت الأعظم عظيمًا. وقال الخليل عليه السلام: العلوم أقفال، والأسئلة مفاتيحها. وعنه عليه السلام: زلة العالم مضروب بها الطبل، وزلة الجاهل يخفيها الجهل. وقال الحسن: رأيت أقوامًا من أصحاب رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقولون: من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فاطلبوا العلم طلبًا لا يضرُّ بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا يضر بالعلم.

وقال يزيد بن ميسرة: مَنْ أراد بعلمه وجه اللّٰه تعالى أقبل اللّٰه بوجهه ووجوه العباد إليه، ومَنْ أراد بعلمه غير وجه اللّٰه، صرف اللّٰه وجهه ووجوه العباد عنه. وعن أنس رضى اللّٰه عنه عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «ألا أخبركم بأجود الأجواد؟» قالوا: بلى يا رسول اللّٰه. قال: «اللّٰه أجود الأجواد وأنا أجود ولد آدم، وأجود من بعدى رجل علم علمًا فنشره، يبعث يوم القيامة أمة واحدة، ورجل جاد بنفسه فى سبيل اللّٰه حتى قتل». وقال الثورى: كان يقال: العالم الفاجر فتنة لكل مفتون. وعن الفضيل رحمه اللّٰه تعالى أنه قال: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم حيث أنزله اللّٰه إذًا لخضعت لهم رقاب الجبابرة، وانقاد لهم الناس، وكانوا لهم تبعًا، ولكنهم أذلوا أنفسهم، وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا، فهانهوا وذلوا. إنا للّٰه وإنا إليه راجعون، فَأَعْظِمْ بها من مصيبةً، واللّٰه أعلم.

وللقاضى العلامة أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى وقد أحسن كل الإحسان، كأنما طرزت فى خُلَعٍ حِسَان:

وَلَم أقضِ حقَّ العلـم إن كنـتُ كلّمـا ... بَـدَا طمعًـا صيرَّتـه لى سُـلَما

و لم أبتـذلْ فـى خدمـة العلم مُهْجَتِـى ... لأِخْـدِمَ مـن لاقيـتُ لكـن لأخْدَمَـا

أأشـقى بـه غَرسًـا وأجْنِيـهِ ذِلَـةَ ... إذًا فاتبـاعُ الجهـلِ قـد كـان أسْـلمَا

فـإن قلـتَ زنـدُ العلـم كـابٍ فإنمـا ... كبـا حـين لم نحـرسْ حمـاه وأظلمَـا

ولـو أن أهـلَ العلـمِ صـانَوه صـانهم ... ولـو عظّمُـوه فـى النفـوس لعُظّمَـا

ولكـنْ أهـانوه فهـانوا ودنّسـوا ... محيـاه بالأطمـاع حتّـى تجهّمـا[1]

(١) تجهّم: عبس فى وجهه وكلح.

وقيل: مَنْ لم يتعلم فى صغره لم يتقدم فى كبره. وقال الفضيل: شر العلماء من يجالس الأمراء، وخير الأمراء من يجالس العلماء. وقال لقمان: جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بماء السماء.

وقيل: من عُرِف بالحكمة لاحظته العيونُ بالوقار. وكان ابن مسعود رضى الله عنه إذا رأى طالبى العلم قال: مرحبًا بكم ينابيع الحكمة، ومصابيح الظلمة، خلقان الثياب، جدد القلوب، رياحين كل قبيلة. وقال على رضى الله عنه: كفى بالعلم شرفًا أن يدعيه مَنْ لا يحسنه، ويفرح به إذ نسب إليه، وكفى بالجهل ضعة[1] أن يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه. وعن النبى صلى الله عليه وسلم: «ما أتى الله أحدًا علمًا إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحدًا». ودعا بعضهم لآخر فقال: جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية، وممن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمله. وعن عمر رضى الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «على باب الجنة شجرة تحمل ثمارًا كثُدَى النساء يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب، والناس عطاش»، وعن ابن مسعود رضى الله عنه: مَنْ تعلّم بابًا من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبيًا. وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ويل لأمتى من علماء السوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها، لا أربح الله تجارتهم».

العلمُ أنفسُ شىءٍ أنتَ ذاخِرُهُ ... مَن يدرسِ العلمَ لم تَدْرُسْ مفاخرُهُ
أقبِلْ على العلمِ واستقبِلْ مَقَاصدَهُ ... فأوّلُ العلمِ إقبالٌ وآخرُهُ

قال الشعبى: دخلت على الحجاج حين قدم العراق فسألنى عن اسمي فأخبرته ثم قال: يا شعبى كيف علمك بكتاب الله؟ قلت: عنى يؤخذ. قال: كيف علمك بالفرائض؟ قلت: إلىّ فيها المنتهى، قال: كيف علمك بأنساب الناس؟ قلت: أنا الفيصل فيها. قال: كيف علمك بالشعر؟ قلت: أنا ديوانه، قال: لله أبوك. وفرض لى أموالاً وسودنى على قومى، فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعاليك همدان، وخرجت وأنا سيدهم. قال البستى:

إذا لم يَزِدْ عِلْمُ الفتى قلبَه هُدىً ... وسيرتَه عدلاً وأخلاقَه حُسنا
فبَشِّرْهُ أنَّ اللّه أولاه فتنةً ... تغشِّيه حرمانًا وتوسِعُهُ حزنا

وقال الهيثم بن جميل: شهدت مالك بن أنس رضى الله عنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال فى اثنتين وثلاثين منها: لا أدرى. وقال الأوزاعى: شكت النواويس إلى الله تعالى ما تجد من نتن ريح الكفار فأوحى إليها: بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه. وقال على رضى الله عنه: من افتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض. ولصالح اللخمى:

تعلّمْ إذا ما كنتَ لَسْتَ بعالمٍ ... فما العلمُ إلا عند أهلِ التَعلّم
تعلّمْ فإنَّ العلمَ أزينُ للفتى ... من الحلّةِ الحَسْناءِ عندَ التكلّم

ودخل عبد الله بن المسلم الهذلى على المهدى فى القراء فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل فى الرماة فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل فى المغنين فأخذ كذلك، ثم دخل فى القصاص فأخذ كذلك، فقال المهدى: لم أر كاليوم أجمع لما يجمع الله فى أحد منك.

وملّ جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه فى بيت، فرقى السطح، وجعل يستمع من كوّة حتى وقع عليه الثلج فصبر فشكر الله له ذلك فجعله إمام الحكماء، لا يختلفون فى شىء إلا صدورا عن رأيه.

---

(١) الضعة: الذل والهوان والصغار.

وشكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ فقال له: استعن على الحفظ بترك المعاصى، فأنشأ يقول(١):

شكوتُ إلى وكيعِ سُوءَ حِفظِى ... فأرشَدَنى إلى تَرْكِ المعَاصى
وذلك أن حِفْظَ العلمِ فَضْلٌ ... وفَضْلُ اللّهِ لا يُؤتى لعَاصِى

ووجد فى بعض الآثار عن بعضهم أنه قال: إذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب، أو المصحف، أو ابتداء القراءة فى كل شيء أردت: بسم اللّه، وسبحان اللّه، ولا إله إلا اللّه، واللّه أكبر، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم، عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الآبدين ودهر الداهرين، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قيل: وإذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كلا صلاة مكتوبة: آمنت باللّه الواحد الأحد الحق لا شريك له، وكفرت بما سواه.

ومن فوائد سيدى الشيخ صالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل رحمه اللّه تعالى في الحفظ: يقرأ فى كل يوم عشر مرات: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾(٢)، يا حى يا قيوم، يا رب موسى وهارون، ويا رب إبراهيم ويا رب محمد صلى اللّه عليه وسلم، ألْزِمْنى الفهم، وارزقنى العلم، والحكمة والعقل، برحمتك يا أرحم الراحمين.

وعن أبى يوسف قال: مات لى ولد فأمرت مَنْ يتولى دفنه، ولم أَدَعْ مجلس أبى حنيفة خوفًا أن يفوتنى منه يوم. وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخارى، حتى كان يقال: إن حديثًا لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث. وقال البخارى رحمه اللّه تعالى: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتى ألف حديث غير صحيح. وقال: ما وضعت فى كتابى الصحيح حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك، وصليت ركعتين، وقال: أخرجته من ستمائة ألف حديث، وصنفته فى ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بينى وبين اللّه تعالى.

وقال مجاهد: أتينا عمر بن عبد العزيز لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه. وكان يقال: الليث بن سعد رحمه اللّه تعالى ذهب علمه كله بموته، ولهذا قال الشافعى لما قدم مصر بعد موته: واللّه لأنت أعلم من مالك، وإنما أصحابك ضيعوك. وقال الليث بن سعد: ما هلك عالم قط إلا ذهب ثلثا علمه ولو حرص الناس. ويقال: إذا سئل العالم فلا تجب أنت فإن ذلك استخفاف بالسائل والمسؤل. وقيل: مَن خدم المحابر خدمته المنابر.

لا تدخر غير العلوم ... فإنها نِعْمَ الذخائِرْ
فالمرء لو ربح البقاء ... مع الجهالة كان خاسِرْ

وللشافعى رضى اللّه عنه تعالى عنه:

أخى لن تنالَ العلمَ إلا بستّة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيانِ
ذكاءٌ وحرصٌ واجتهادٌ وبلغةٌ(٣) ... وصحبةَ أستاذٍ وطول زمانِ

(١) الأبيات للإمام الشافعى ووكيع هذا أستاذه المشهور.

(٢) سورة الأنبياء: ٧٩.

(٣) البُلغة: القناعة بالقليل.

وقال الزهرى. العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة، وعامر الشعبى بالكوفة، والحسن البصرى بالبصرة، ومكحول بالشام. وقال بعضهم: العلماء سُرُج الأزمنة كل عالم سراج يستضئ به أهل عصره. وقيل لإبراهيم بن عيينة: أى الناس أطول ندامة؟ قال: أما فى الدنيا فصانع المعروف إلى مَنْ لا يشكره، وأما فى الآخرة فعالم مفرط.

كُن عالمًا وَارْضَ بصَفِّ النِّعال ... ولا تكن صدرًا بغير الكمالْ
فإن تصدَّرْت بلا آلةٍ ... صَيَّرْتَ ذاك الصدّر صفَّ النعالْ

وقيل: لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام جاء عصفور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة ثم حط على ورك الخضر ثم طار فنظر الخضر إلى موسى عليه السلام وقال: يا نبى الله إن هذا العصفور يقول: يا موسى أنت على علم من علم الله علمكه الله لا يعلمه الخضر، والخضر على علم من علم الله علمه الله إياه لا تعلمه أنت، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله، لا تعلمه أنت، ولا الخضر. وما علمى، وعلم الخضر فى علم الله إلا كهذه القطرة من هذا البحر. قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[2] . قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: خلق الله تعالى أربعين ألف عالم، الإنس والجن عالمان، والبواقى لا يعلمها إلا هو.

وقال موسى عليه السلام: يا رب قد قلت للسموات والأرض: ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين، فلو لم تطعك السموات والأرض ماذا كنت فاعلاً بهم؟ قال: يا موسى كنت آمر دابة من دوابى أن تبتلعهما. قال موسى: يا رب وأين تلك الدابة؟ قال: فى مرج من مروجى. قال موسى: يا رب وأين ذلك المرج؟ قال: فى علم من علمى لا يعلمه إلا أنا.

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى فكرة فقال: «فيم تفكرون، تفكروا فى خلق الله، ولا تفكروا فى الله، فإن الله خلق من جانب الغرب أرضًا يقال لها: البيضاء تقطعها الشمس فى أربعين يومًا فيها خَلْقٌ ما عصوا الله طرفة عين». فقال ابن عمر: يا رسول الله أين إبليس منهم؟ قال: «ما علموا بإبليس خُلِقَ، أم لا» قال: أمن بنى آدم؟ قال: «ما علموا بآدم خلق، أم لا». فهذه كلها مما أعدها الله فى علم غيبه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3] .

وقال قتادة: لو كان أحد منا مكتفيًا من العلم لاكتفى نبى الله موسى عليه السلام إذا قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[4] . وقال الحكماء: أفضل العلم وقوف العالم عند علمه. وقال بعضهم: ليس العلم ما خزنته الدفاتر، وإنما العلم ما خزنته الصدور. وقيل: العلم يؤدى إلى التصدير. وقيل: مَنْ تواضع للعم ناله، ومن لم يتواضع له لم ينله. وقيل: مَنْ برق علمه، برق وجهه، ومَن لم يستفد بالعلم مالاً اكتسب به جمالاً، والعلم نور وهدى، والجهل غى وردى. وقال بعضهم: العالم يعرف الجاهل، والجاهل لا يعرف العالم؛ لأن العالم كان جاهلاً والجاهل لم يكن عالمًا. وقيل: أربعة يسودون العبد: العلم، والأدب، والصدق، والأمانة.

وقيل: أهل العراق أطلب الناس للعلم. وقال حماد بن سلمة: مثل الذى يطلب الحديث ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها. ولإبراهيم بن خلف المهرانى:

---

(١) سورة البقرة:٢٥٥.
(٢) سورة المدثر:٣١.
(٣) سورة يس:٨٢ - ٨٣.
(٤) سورة الكهف:٦٦.

النحو يصلح من لسان الألكن[١] والمرء تكرمه إذا لم يلحن[٢]
وإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها منها مقيم الألسن

وقال على بن بشار:

رأيت لسان المرء آية عقله وعنوانه فانظر بماذا تعنونُ
ولا تعدُ إصلاح اللسان فإنه يخبِّر عمَّا عنده ويُبيِّنُ
ويعجبنى زىُّ الفتى وجمالُه فيسقط من عينىَّ ساعة يلحنُ

ودخل أعرابى السوق فوجدهم يلحنون فقال: سبحان اللّه يلحنون ويربحون؟ وكلم أبو موسى بعض قواده فلحن فقال: لم لا تنظر فى العربية؟ فقال: بلغنى أن مَنْ نظر فيها قل كلامه. فقال: ويحك لأن يقل كلامك بالصواب، خير لك من أن يكثر كلامك بالخطأ. وكان يقال: مجالسة الجاهل مرض للعاقل. وقال أبو الأسود الدؤلى: إذا أردت أن تعذب عالمًا فاقرن به جاهلاً. وقال الشاعر:

جهلتَ ولا تدرى بأنك جاهلٌ ومَنْ لى بأنْ تدرى بأنك لا تدرى

وقال رجل للحسن: أنا أفصح الناس. قال: لا تقل هذا. قال: فخذ علىّ كلمة واحدة. قال هذه واحدة. أبو جهل كناه المسلمون بذلك، كانت قريش تكنيه أبا الحكم، فقال حسان رضى اللّه تعالى عنه:

النّاس كنَوه أبَا حَكيم واللّهُ كنّاه أبَا جَهْلِ

وأما ما جاء فى الأدب فقد قال بعض الحكماء: العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام. وقال على كرم اللّه وجهه: الأدب كنز عند الحاجة عون على المروءة، صاحب فى المجلس، أنيس فى الوحدة، تعمر به القلوب الواهية[٣]، وتحيا به الألباب الميتة، وينال به الطالبون ما حاولوا. وقيل: عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح. وحكى أن رجلاً تكلم بين يدى المأمون فأحسن فقال: ابن من أنت؟ قال: ابن الأدب يا أمير المؤمنين. قال: نعم النسب انتسبت إليه. ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت، لا من حيث ينبت، ومن يحث يوجد لا من حيث يولد. قال الشاعر:

كَن ابنَ مَنْ شِئتَ واكتسِبْ أدبًا يغنيك محمودُه عن النسبِ
إنَّ الفتَى مَنْ يقولُ ها أنا ذا ليس الفتى مَنْ يقولُ كان أبِى

وقال بعض الحكماء: من كَثُرَ أدبه، كَثُرَ شرفه وإن كان وضيعًا، وبَعُدَ صيته وإن كان خاملاً، وساد وإن كان غريبًا، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيراً. قال بعض الشعراء:

لكلِّ شىءٍ زينةٌ فى الوَرَى وزينةَ المرءِ تَمامُ الأدبِ
قد يشرفُ المرءُ بآدابِه فينا وإن كان وضيعَ النسبِ

وقال بعض الأعاجم مفتخرًا:

ما لىَ عقلى وهمتى حسبى ما أنا مولى وما أنا عربى
إذا انتمى مُنْتَمٍ إلى أحدٍ فإننى منتمٍ إلى أدبى

---

(١) اللكن: ثقل اللسان كالعجمة.

(٢) اللحن: هو الخطأ فى الكلام وله معانٍ عدة لعل أهمها إبعاد الكلام عن وجهه.

(٣) الواهية: المضناة، المتعبة .

وقيل: الفضل بالعقل والأدب، لا بالأصل والحسب. وقيل: المرء بفضيلته لا بفصيلته، وبكماله لا بجماله، وبآدابه لا بثيابه. وقيل لرجل: من أدبك؟ قال: رأيت جهل الجهال قبيحًا فاجتنبته فتأدبت. ومن أدب ولده صغيرًا سُرَّ به كبيرًا. ومن عرف الأدب اكتسب به المال والجاه. خير الخلال الأدب، وشر المقال الكذب. وقيل لبقراط: ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له؟ قال: كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذى ليس بناطق.

ودخل أبو العالية على ابن عباس رضى اللّٰه عنهما فأقعده معه على السرير وأقعد رجالاً من قريش تحته فرأى سوء نظرهم إليه، وحموضة وجوههم فقال: ما لكم تنظرون إلىّ نظر الشحيح[1] إلى الغريم[2] المفلس. هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير، ويرفع المملوك على المولى، ويقعد العبيد على الأسرة. وقال جالينوس: إن الابن الوضيع إذا كان أديبًا كان نقص أبيه زائدًا فى منزلته، وابن الشريف إذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائدًا فى سقوطه. وقيل: أحسن الأدب أن لا يفتخر المرء بأدبه. وسمع معاوية رجلاً يقول: أنا غريب. فقال: كلا الغريب مَن لا أدب له. ويقال: إذا فاتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب. ولعبد الملك بن صالح:

فى الناس قومٌ أضاعوا مجدَ أوّلهم ... ما فى المكارم والتقوى لهم أربُ

سوءُ التأدُّبِ أراداهم وأرذلهم ... وقد يزين صحيحَ المنصب الأدبُ

وقيل: أربعة تسوّد العبد: الأدب، والعلم، والصدق، والأمانة. وقال بعض الحكماء: خمسة لا تتم إلا بخمسة: لا يتم الحسب إلا بالأدب، ولا يتم الجمال إلابالحلاوة، ولا يتم الغنى إلا بالجود، ولا يتم البطش إلا بالجراءة، ولا يتم الجهاد إلا بالتوفيق. واللّٰه أعلم.

---

(١) الشحيح: البخيل.

(٢) الغريم: المقتضى بدين.

الباب الخامس فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك

قال الحكماء: إذا أراد اللّه بعبد خيرًا ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه فى الدين، وعضده باليقين، فاكتفى بالكفاف[١]، واكتسى بالعفاف. وإذا أراد به شرًّا حبَّب إليه المال، وبسط منه الآمال، وشغله بدنياه، ووكله إلى هواه، فركب الفساد، وظلم العباد.

الثقة باللّه أزكى أمل، والتوكل عليه أوفى عمل، من لم يكن له من دينه واعظ، لم تنفعه المواعظ، من سره الفساد ساءه المعاد، كل يحصد ما زرع ويجزى بما صنع، لا يغرنك صحة نفسك، وسلامة أمسك، فمدة العمر قليلة، وصحة النفس مستحيلة، من أطاع هواه باع دينه بدنياه، ثمرة العلوم العمل بالمعلوم، من رضى بقضاء اللّه لم يسخطه أحد، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد، أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه، خير الناس من أخرج الحرص من قلبه، وعصى هواه فى طاعة ربه، نصرة الحق شرف، ونصرة الباطل سرف.

البخيل حارس نعمته، وخازن لورثته. من لزم الطمع عدم الورع. إذا ذهب الحياء حلَّ البلاء. علم لا ينفع كدواء لا ينجع. من جهل المرء أن يعصى ربه فى طاعة هواه، ويهين نفسه فى إكرام دنياه. أيام الدهر ثلاثة: يوم مضى لا يعود إليك، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك، ويوم مستقبل لا تدرى ما حاله ولا تعرف من أهله. من كَثُر ابتهاجه بالمواهب، اشتد انزعاجه للمصائب. لا تبت على غير وصية وإن كنت من جسمك فى صحة، ومن عمرك فى فسحة. عظ المسئ بحسن أفعالك، وُدلَّ على الجميل بجميل خلالك. إياك وفضولَ الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن. لا يجد العجول فرحًا، ولا الغضوب سرورًا، ولا الملول[٢] صديقًا.

حسن النية من العبادة، وحسن الجلوس من السياسة[٣]. من زاد فى خلقه، نقص من حظه. من ائتمن الزمان خانه. أظهر الناس محبة، أحسنهم لقاء. لا يكمل لإنسان دينه، حتى يكون فيه أربع خصال: يقطع رجاءه مما فى أيدى الناس. ويسمع شتم نفسه ويصبر، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ويثق بمواعيد اللّه. وإياك والحسدَ فإنه يفسد الدين، ويضعف اليقين، ويذهب المروءة.

قيل لأفلاطون: ما الشيء الذى لا يحسن أن يقال وإن كان حقًّا، قال: مدح الإنسان نفسه. أربعة تؤدى إلى أربعة: الصمت إلى السلامة، والبرّ إلى الكرامة، والجود إلى السيادة، والشكر إلى الزيادة. من ساء تدبيره أهلكه جده. الغرة ثمرة الجهل. آفة القوّة استضعاف الخصم. آفة النعم قبح المن. آفة الذنب حسن الظن. الحزم أسد الأراء، والغفلة أضر الأعداء.

من قعد عن حيلته أقامته الشدائد، ومن نام عن عدوّه أيقظته المكايد. من قرَّب السفلة وأطرح ذوى الأحساب والمروءات استحق الخذلان. من عفا تفضل. من كظم غيظه فقد حلم. من حلم فقد صبر، ومن صبر فقد ظفر. من ملك نفسه عند أربع حرمه اللّه على النار: حين يغضب، وحين يرغب، وحين يرهب، وحين يشتهى. من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما، ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما. كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل. كل امرئ يعرف بقوله، ويُوصف بفعله، فقُلْ سديدًا، وافعل حميدًا. من عرف شأنه، وحفظ لسانه، وأعرض عما لا يعنيه، وكف عن عرض أخيه، دامت سلامته، وقلت ندامته. كن صموتًا وصدوقًا، فالصمت حرز، والصدق عز. من أكثر مقاله سئم، ومن أكثر

---

(١) الكفاف: القليل مما يكفى الإنسان.

(٢) المَلول: كثير الملل سريعه.

(٣) السياسة هنا : التدبير والمدارة.

سؤاله حرم، من استخف بإخوانه خذل، ومن اجترأ على سلطانه قتل. ما عز من أذل جيرانه، ولا سعد من حرم إخوانه. خير النوال ما وصل قبل السؤال. أولى الناس بالنوال أزهدهم فى السؤال.

من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه. من غاظك بقبيح الشتم منه، فعظه بحسن الحلم عنه. من يبخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه. إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطنع إليك فانشره. من جاور الكرام أمن من الإعدام. من طاب أصله زكا فرعه. من أنكر الصنيعة استوجب القطيعة. من مَنَّ بمعروفه سقط شكره، ومن أعجب بعمله حبط[1] أجره. من رضى من نفسه بالإساءة، شَهد على أصله بالرداءة، من رجع فى هبته بالغ فى خسته. من رقى فى درجات الهمم عظم فى عيون الأمم. من كبرت همته كثرت قيمته. من ساء خلقه ضاق رزقه. من صدق فى مقاله زاد فى جماله. من هان عليه المال توجهت إليه الآمال. من جاد بماله جل، ومن جاد بعرضه ذل.

خير المال ما أخذ فى الحلال وصرف فى النوال، وشر المال ما أخذ من الحرام وصرف فى الآثام. أفضل المعروف إغاثة الملهوف. من تمام المروءة أن تنسى الحق لك، وتذكر الحق عليك، وتستكبر الإساءة منك وتستصغرها من غيرك. من أحسن المكارم عفو المقتدر. جود الرجل يحبِّبُهُ إلى أصدقائه، وبخله يبغضه إلى أودَّائه[2]. لا تسئ إلى من أحسن إليك، ولا تعن على من أنعم عليك. من كثر ظلمه واعتداؤه قَرُب هلاكه وفناؤه. من طال تعديه كثرت أعاديه. شر الناس من ينصر الظلوم ويخذل المظلوم. من حفر حُفَيرًا لأخيه كان حتفه فيه. من سل سيف العدوان أُغْمِد فى رأسه.

من لم يرحم العبرة سلب النعمة، ومن لم يقل العثرة سلب القدرة. لا تحاج[3] من يذهلك خوفه، ويملكك سيفه. صمت تسلم به، خير من نطق تندم عليه. من قال ما لا ينبغى، سمع ما لا يشتهى. جرح الكلام أصعب من جرح الحسام. من سكت عن جاهل فقد أوسعه جوابًا، وأوجعه عتابًا. من أمات شهوته أحيا مروءته. من كثرت عوارفه كثرت معارفه. من لم تقبل توبته عظمت خطيئته. إياك والبغى فإنه يصرع الرجال، ويقطع الآجال.

الناس فى الخير أربعة أقسام: منهم من يفعله ابتداء، ومنهم من يفعله اقتداء، ومنهم من يتركه حرمانًا، ومنهم من يتركه استحسانًا، فمن فعله ابتداء فهو كريم، ومن فعله اقتداء فهو حكيم، ومن تركه حرمانًا فهو شقى، ومن تركه استحسانًا فهو دنئ. من سالم سلم، ومن قدم الخير غنم. من لزم الرقاد عدم المراد، ومن دام كسله خاب أمله.

العجول مخطئ وإن ملك، والمتأنى مصيب وإن هلك. من إمارات الخذلان معاداة الإخوان. اسْتِفْسَاد الصديق من عدم التوفيق. الرفق مفتاح الرزق. من نظر فى العواقب سلم من النوائب، ومن أسرع فى الجواب أخطأ فى الصواب. من ركب العجل أدركه الزلل. من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه. من قلت فضائله ضعفت وسائله. من فعل ما شاء لقى ما ساء مِن كثر اعتباره قل عثاره. من ركب جده غلب ضده. القليل مع التدبير أبقى من الكثير مع التبذير. ظن العاقل أصح من يقين الجاهل. قليل تحمد آخرته خير من كثير تذم عاقبته. من خاف سطوتك تمنى موتتك. إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل. من أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه. من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة. لا تشتك ضعفك إلى عدوك فإنك تشمته بك وتطمعه فيك. من لم يعمل لنفسه عمل للناس، ومن لم يصبر على كده صبر على الإفلاس. من أفشى سره أفسد أمره.

---

(١) حبط: خسر.

(٢) أودَّائه: أصحاب وده، وأصدقاؤه.

(٣) المحاجة: المجادلة وعرض الحجج.

الحازم من حفظ ما فى يده، و لم يؤخر شغل يومه لغده. من طلب ما لا يكون طال تعبه. لا تفتح بابًا يعييك سده، ولا ترم سهمًا يعجزك رده. سوء التدبير سبب التدمير. اغمد سيفك ما ناب عنك لسانك. ليس العجب من جاهل يصحب جاهلاً، ولكن العجب من عاقل يصحبه، لأن كل شئ يفر من ضده، ويميل إلى جنسه. إذا نزل القدر بطل الحذر. رب عطب تحت طلب، ومنية تحت أمنية.

لا يخلو المرء من ودود يمدح، وعدو يقدح. الجوع خير من الخضوع. الكذوب متهم وإن صدقت لهجته، ووضحت حجته. من طاوعه طرفه اشتد حتفه[1] . من لم تُسَر حياته لم تغم وفاته. من أعظم الذنوب تحسين العيوب. الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية[2] .

إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل. من ساءت أخلاقه طاب فراقه. من حسنت خصاله طاب وصاله. بعدٌ يورث الصفا خير من قرب يوجب الجفا. اللسان سيف قاطع لا يؤمن من حده، والكلام سهم نافذ لا يمكن رده. من اطلع على جاره انهتكت حجب أستاره. أجهل الناس من قل صوابه وكثر إعجابه. أظهر الناس نفاقًا من أمر بالطاعة و لم يأتمر بها، ونهى عن المعصية و لم ينته عنها. من سلا[3] عن المسلوب كمن لم يسلب، ومن صبر على النكبة كمن لا ينكب. الفضيلة بكثرة الآداب لا بفراهة الدواب. من زادت شهوته نقصت مروءته. من عرف بشئ نُسِبَ إليه، ومن اعتاد شيئًا حرص عليه. عند الجدال يظهر فضل الرجال. من أخر الأكل لذ طعامه، ومن أخر النوم طاب منامه.

موت فى دولة وعز خير من حياة فى ذلة وعجز. مقاساة الفقر هى الموت الأحمر، ومسألة الناس هى العار الأكبر. حق يضر خير من باطل يسر. كم من مرغوب فيه يسوء ولا يسر، ومرهوب منه ينفع ولا يضر. عثرة الرِّجْل تزيل القدم، وعثرة اللسان تزيل النعم. المزاح يورث الضغائن. من حلم ساد، ومن تفهم ازداد. معاشرة ذوى الألباب عمارة القلوب. شر ما صحب المرء الحسد. ربما أصاب الأعمى رشده وأخطأ البصير قصده. اليأس خير من التضرع إلى الناس. لا تكن ضاحكًا فى غير عجب ولا ماشيًا فى غير أرب. من سعى بالنميمة حذره القريب، ومقته الغريب. الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استبد برأيه. أشرف الغنى ترك المنى.

من ضاق خلقه ملَّهُ أهله. الحسد للصديق من سقم المودة. كل الناس راض عن عقله. دنياك كلها وقتك الذى أنت فيه. استر سوءة أخيك لما يعلم فيك. خمول الذكر أسنى من الذكر الذميم. العجلة أخت الندامة. من كرم أصله لان قلبه. ومن قل لبه زاد عجبه. ربما أدرك بالظن الصواب. ليس لمعجب رأى، ولا لمتكبر صديق. سل عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار. لا تعادين أحدًا فإنك لا تخلو من عدواة جاهل أو عاقل. فالحذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل. ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه. من قل سروره كان الموت راحته.

لا تردن على ذِى خطأ خطأه فيستفيد منك علمًا، ويتخذك عدوًّا. استحى مِنْ ذمِّ مَنْ لو كان حاضرًا لبالغت فى مدحه، ومدحِ مَنْ لو كان غائبًا لسارعت إلى ذمه.

وقيل: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضة، والمخالفة توجب العداوة، والمتابعة توجب الألفة، والعدل يوجب اجتماع القلوب، والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المباعدة،

---

(١) الحتف: الهلاك.

(٢) البالية: أى بعظام الأجداث المهترئة.

(٣) سلا يسلو : نسى وطابت نفسه بعد حزن.

والانبساط يوجب المؤانسة، والانقباض يوجب الوحشة، والكبر[١] يوجب المقت، والتواضع يوجب الرفعة، والجود يوجب المدح، والبخل يوجب الذم، والتوانى يوجب التضييع، والحزم يوجب السرور، والحذر يوجب السلامة، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة، وبالتأنى تسهل المطالب، وبحسن المعاشرة تدوم المحبة، وبخفض الجانب تأنس النفوس، وبسعة خلق المرء يطيب عيشه، والاستهانة توجب التباعد، وبكثرة الصمت تكون الهيبة، وبعدل المنطلق تجلب الجلالة، وبالنصفة[٢] تكثر المواصلة، وبالإفضال يعظم القدر، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال، وباحتمال المؤمن يحبب السؤدد، وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه، وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة، وبترك ما لا يعنيك يتم لك الفضل.

وَاعْلَمْ أنَّ السياسة تكسو أهلها المحبة. ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة. والنظر فى العواقب نجاة. ومن لم يحلم ندم، ومن صبر غنم، ومن سكت سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن أطاع هواه ضلَّ. ومع العجلة الندامة، ومع التأنى السلامة. وزارع البرِّ يحصد السرور، وصاحب العقل مغبوط، وصداقة الجاهل تعب. إذا جهلت فاسأل، وإذا زللت فارجع، وإذا أسأت فاندم، وإذا ندمت فاقلع. المروءات كلها تبع للعقل، والرأى تبع للتجربة، والعقل أصله التثبت، وثمرته السلامة، والأعمال كلها تتبع القدر. واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب:

من التوارة: من قنع شبع.

ومن الإنجيل: من اعتزل نجا.

ومن الزبور[٣] : من سكت سلم.

ومن القرآن: ﴿**وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّه فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[٤] .

واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات:

لا تحمل بطنك ما لا يطيق، ولا تعمل عملاً لا ينفعك، ولا تغتر بامرأة، ولا تثق بمال ولو كثر. واللَّه تعالى أعلم.

(١) الكبر: الغطرسة.

(٢) النصفة: الإنصاف وهو تأدية الحقوق.

(٣) الزبور: الكتاب الذين أنزل على نبى الله داود.

(٤) سورة آل عمران: ١٠١.

الباب السادس فى الأمثال السائرة وفيه فصول

الفصل الأول فيما جاء من ذلك فى القرآن العظيم وأحاديث النبى الكريم

اعلم أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه، وحلى بجواهره كتابه، وقد نطق كتاب الله تعالى - وهو أشرف الكتب المنزلة - بكثير منها، و لم يخل كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وهو أفصح العرب لسانًا، وأكلمهم بيانًا، فكم فى إيراده وإصداره من مثل يعجز عن مباراته فى البلاغة كل بطل، وسنذكر إن شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمولدين والعامة.

فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[١]، ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾[٢]، ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[٣]، ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[٤]، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾[٥]، ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[٦]، ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٧]، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[٨]، ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾[٩]، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾[١٠]، ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١١]، ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[١٢]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[١٣]، ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾[١٤]، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾[١٥]، ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[١٦]، ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾[١٧]، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[١٨]، ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾[١٩]، ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٢٠]، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾[٢١]، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٢٢]، ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[٢٣]، ﴿لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾[٢٤]، ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾[٢٥]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[٢٦]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[٢٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾[٢٨]، ﴿لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[٢٩]، ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ

---

(١) سورة آل عمران:٩٢.
(٢) سورة يوسف:٥١.
(٣) سورة يوسف:٤١.
(٤) سورة هود:٨١.
(٥) سورة الأعراف:٩٥.
(٦) سورة النجم:٥٨.
(٧) سورة البقرة:٤٤.
(٨) سورة سبأ:٥٤.
(٩) سورة الأنعام:٦٧.
(١٠) سورة الإسراء:٨٤.
(١١) سورة النساء:١٩.
(١٢) سورة النساء:١٩.
(١٣) سورة المدثر:٣٨.
(١٤) سورة الأنعام:٤٤.
(١٥) سورة المائدة:٩٩.
(١٦) سورة البقرة:٢٤٩.
(١٧) سورة التوبة:٩١.
(١٨) سورة الحشر:١٤.
(١٩) سورة الرحمن:٦٠.
(٢٠) سورة فاطر:١٤.
(٢١) سورة الأنفال:٢٣.
(٢٢) سورة الروم:٣٢.
(٢٣) سورة البقرة:٢٨٦.
(٢٤) سورة المائدة:١٠٠.
(٢٥) سورة الشعراء:٢١.
(٢٦) سورة ص:٢٤.
(٢٧) سورة الصف:٢.
(٢٨) سورة النساء:٤٩.
(٢٩) سورة المائدة:١٠١.

رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[١] ، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[٢] ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[٣] ، ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٤] ، ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٥] ، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[٦] ، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[٧] ، ﴿يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾[٨] ، ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾[٩] ، ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١٠] ، ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾[١١] ، ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾[١٢] ، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[١٣] ، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[١٤] ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[١٥] ، ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾[١٦] ، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[١٧] ، ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾[١٨] ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[١٩] ، ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٢٠] ، ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾[٢١] ، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[٢٢] ، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[٢٣] ، ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ﴾[٢٤] ، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[٢٥] ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٢٦] ، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾[٢٧] .

ومن الأمثال من الحديث النبوى: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ من نوى. نية المرئ خير من عمله. آفة العلم النسيان. من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنه. إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. أنزلوا الناس منازلهم. اليد العليا خير من اليد السفلى. من مات غريبًا مات شهيدًا. مطل[٢٨] الغنى ظلم. يد الله مع الجماعة. الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق. من غشنا فليس منا. سيد القوم خادمهم. الحياء شعبة من الإيمان. تخيروا لنطفكم. ابدأ بنفسك ثم بمن تعول. حدث عن البحر ولا حرج. المجالس بالأمانات. كل ميسر لما خلق له. اطلبوا الخير من حسان الوجوه. إياك وما يعتذر منه. الوحدة خير من جليس السوء. استعينوا على الحوائج بالكتمان. الندم توبة. لا يكون المؤمن طعانًا ولا لعانًا. دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. من كثر سواد قوم فهو منهم. انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا. انتظار الفرج عبادة. كاد الفقر أن يكون كفرًا. نعم صومعة الرجل بيته. الأعمال بخواتيمها.

---

(١) سورة يس:٤٦.
(٢) سورة الأنعام:٢٨.
(٣) سورة المؤمنون:٩٠.
(٤) سورة المائدة:٩٨.
(٥) سورة المؤمنون: ٧٥.
(٦) سورة الغاشية:٢١ - ٢٢.
(٧) سورة الزخرف:٢٣.
(٨) سورة الزخرف:٣٨.
(٩) سورة الزخرف:٣٨.
(١٠) سورة الذاريات:٣٦.
(١١) سورة الأعراف:١٨٧.
(١٢) سورة النجم:٣٢.
(١٣) سورة الرحمن:٢٩.
(١٤) سورة المرسلات:٥٠.
(١٥) سورة الأنعام:١٣٢.
(١٦) سورة المزمل:١٠.
(١٧) سورة الجاثية:١٥.
(١٨) سورة الأعراف:١٥٥.
(١٩) سورة الحشر:٢.
(٢٠) سورة الواقعة:٧٦.
(٢١) سورة الملك:٣.
(٢٢) سورة ص:٨٨.
(٢٣) سورة الفرقان:٦٧.
(٢٥) سورة الرحمن:٢٦.
(٢٤) سورة الصافات:٦١.
(٢٦) سورة آل عمران:١٨٥.
(٢٧) سورة الطور:١٥.
(٢٨) المطل: التسويف والتأخير.

الفصل الثانى فى أمثال العرب

إن من البيان لسحرا. إن الجواد يعثر. إن البلاء موكل بالمنطق. إن أخا الهيجاء من يسعى معك، ومن يضر نفسه لينفعك. أنف في السماء وأست فى الماء. إن الذليل الذى ليست له عضد. أى الرجال المهذب. إنما هو كبرق خلب[1] . إذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم. إياك أعنى فاسمعى يا جارة. إن لم يكن وفاق ففراق. إنك لا تجنى من الشوك العنب. إذا حان القضاء ضاق الفضاء. إن المناكح خيرها الأبكار. إذا كنت مناطحًا فناطح بذوات القرون. أوى إلى ركن بلا قواعد. إياك أن تضرب بلسانك عنقك. أكلٌ وحمدٌ خير من أكل وذم. آفة المروءة خلف الوعد. إذا قلت له: زن طأطأ رأسه وحزن. إذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تقض له حتى يأتيك خصمه فلعله فقئت عيناه. ترك الذنب أيسر من طلب التوبة. اتق شر من تحسن إليه. الناس إخوان وشتى فى الشيم. بلغ السيل الزبى. أجع كلبك يتبعك. حافظ على الصديق ولو فى الحريق. اشتدى أزمة تنفرجى. أتبع السيئة الحسنة تمحها. الخيل أعرف بفرسانها. رمتنى بطرفها وانسلت. رب رمية من غير رام. الرباح مع السماح. رب أكلة تمنع أكلات. استراح من لا عقل له. رب أخ لم تلده أمك. رب طمع أدى إلى عطب. ربما كان السكوت جوابًا. رب ملوم لا ذنب له. رب عين أنم من لسان. رحم الله من هدانى إلى عيوبى. ركوب الخنافس ولا المشى على الطنافس[2] . سبق السيف العذل[3] . زوج من عود خير من قعود. سبَّك من بلَّغك السب. سحابة صيف عن قليل تقشع. شر أيام الديك يوم تغسل رجلاه. طاعة النساء ندامة. اطلب تظفر. طرف الفتى يخبر عن لسانه. ظاهر العتاب خير من باطن الحقد. عند الصباح يحمد القوى السُّرى. والظلم مرتعه وخيم. عند النطاح يغلب الكبش الأجم[4]

العَبْد يُقَرَعُ بالعصا والحُرُّ تَكْفِيه الملامه

اعقل وتوكل. العتاب قبل العقاب. عند الرهان تعرف السوابق. عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان. عند النازلة تعرف أخاك. فى القمر ضياء، والشمس أضوأ منه. القول ما قالت حذام. لقد أسمعت لو ناديت حيًا. أقلل طعامك يحمد منامك. كل فتاة بأبيها معجبة. كل كلب ببابه نبَّاح. كاد العروس أن يكون ملكًا. كثرة العتاب توجب البغضاء. أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع. الكلام أنثى، والجواب ذكر. كل إناء يرشح بما فيه. كما تزرع تحصد. كل امرئ فى بيته صبى. كلب جوَّال خير من أسد رابض. لقد ذل من بالت عليه الثعالب. ليس الخبر كالعيان. لكل صارم نبوة، ولكل جواد كبوة. لكل قادم دهشة. لعل لها عذرًا وأنت تلوم. لكل ساقطة لاقطة. لكل مقام مقال. لك لسان من رطب ويدان من خشب. للباطل جولة ثم يضمحل. ليست النائحة الثكلى مثل المستأجرة. لكل غد طعام. لكل دهر دولة ورجال. لا عطر بعد عروس. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. لا يضر السحاب نباح الكلاب. لا تَقْتَن من كلب سوء جروًا. مقتل الرجل بين فكيه. ما حكَّ جلدك مثل ظفرك. من عتب على الدهر طال عتبه. معاتبة الإخوان خير من فقدهم. النفس مولعة بحب العاجل. هذه بتلك، والبادى أظلم. يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة. يكسو الناس وأسته عارية. يدك منك وإن كانت شلاء.

---

(١) الخلب من البروق: ما لا مطر وراءه.

(٢) الطنافس: فواره المخدرات.

(٣) العذل: اللوم.

(٤) كبوة: سقطة وهفوة.

الفصل الثالث فى أمثال العامة والمولدين

التسلط على المماليك دناءة. اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر. أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية. الحاجة تفتق الحيلة. الحاوى لا ينجو من الحيات. الحية تدور وإلى الرحى ترجع. المؤذى ردى كلما جلوته صدى. الأسواق موائد الله فى أرضه. السلامة إحدى الغنيمتين. الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ. الطير بالطير يصاد. اطلع القرد فى الكنيف فقال: هذه المرآة لهذا الوجه الظريف. العادة طبيعة خامسة. الغائب حجته معه. الخضوع عند الحاجة رجولية. الناس أتباع لمن غلب. النكاح يفسد الحب. النصح بين الملا تقريع. الحر حُرٌّ وإن مسه الضر، والعبد عبد وإن ملك الدُّر. الثقيل إذا تخفف صار طاعونًا. أضيع من حُلىٍّ على زنجية. العمل للزرنيخ والاسم للنورة[١] . البغل الهرم لا يفزعه صوت الجلجل. بدن وافر وقلب كافر. تزاوروا ولا تجاوروا. تعاشروا كالإخوان، وتعاملوا كالأجانب. ثمرة العجلة الندامة. جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة. حيثما سقط لقط، خذ اللص قبل أن يأخذك. خذ القليل من اللئيم وذمه. ذُلّ من لا سفيه له. ريق العدو سُمٌّ قاتل. رب ساع كقاعد. زكاة البدن العلل. زلق الحمار وكان من سهوة المكارى. زلة الرِّجْلِ عظم يجبر، وزلة اللسان لا تبقى ولا تذر. سلطان غشوم خير من فتنة تدوم. سواء قوله وبوله. سفير السوء يفسد ذات البين. شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه. صديق الولد عم الولد. ضرب الطبل تحت الكساء. طاعة الولاة بقاء العز. طفيلى ويقترح. عناية القاضى خير من شاهدَىْ عدل. دلت على أهلها براقش[٢] . غش القلوب يظهر فى فلتات الألسن، وصفحات الوجوه. غنى المرء فى الغربة وطنٌ. فرَ من الموت وفى الموت وقع. فم يسبح وقلب يذبح. فلان كالكعبة يُزار ولا يزور. قيل للزمار: تهيأ للزمر قال: المزمار فى كمى، والريح فى فمى. كُلْ قليلاً تَعِشْ كثيرًا. كلامه ريح فى قفص. كالإبرة تكسو الناس وهى عريانة. كلمة حكمة من جوف خرب. كاد المريب يقول: خذونى. كنت سندانا فصرت مطرقة. كل ما فاتك من الدنيا فهو غنيمة. كلما طار قصوا جناحه. لو كان المزاح فحلاً لم ينتج إلا شرًّا. لسان الجاهل مفتاح حتفه. لكل جديد لذة. لو ضاعت ضفعة ما وجدت إلا فى قفاه. لو كان فى البوم خير ما فات الصياد. من اعتمد على شرف آبائه فقد عقّهم. من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً. وبالله التوفيق.

الفصل الرابع فى الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف

ألا كَلُّ شَىءٍ ما خلا الله بَاطلُ ... وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائِلُ

إذا جاءَ موسى وألقَى العصا ... فقد بطلَ السِّحْرُ والساحرُ

إذا لم يكن فيكنَّ ظلٌّ ولا جنا ... فأبعدكن الله من شجراتِ

إذا كنت فى فكرى وقلبى ومُقْلتى ... فأى مكان من مكانك ألطفُ

إذا أراد كريم مَنْعَ صاحبه ... فليس يَخْفَى عليه كيف ينفعُهُ

إذا ما أتيت الأمرَ من غيرِ بابهِ ... ضللت وإنْ تقصد إلى الباب تهتدِ

(١)النورة: خليط تستخدمه النسوة لإزالة الشعر يحتوى زرنيخاً.

(٢)وهو اسم كلبة نبحت فدلت على الجيش فقتلوهم

إذا أنت لم تَنْصِفْ أخاك وَجَدْتَهُ ... على طرف الهجران إن كان يعقلُ
إذا لم يكن عندى نوال هجرتنى ... وإن كان لى مال فأنت صديقى
الناس فى طلب المعاش وإنما ... بالجدِّ يُرزق منهم من يُرزقُ
أيها السائلُ عما قد مضى ... هل جديدٌ مثلُ ملبوس خَلِق(١)
إنما أنفسنا عارية(٢) ... والعوارى حكمها أن ترد
إن العَدُوَّ وإن أبدى مُسَالمةً ... إذا رأى منك يومًا غِرَّةً(٣) وثبا
أتمنى على الزمان محالا ... أن ترى مقلتاى طلعةَ حر
إذا ملكٌ لم يكن ذَا هِبهْ ... فَدَعْهُ فدولَتُه ذاهبَهْ
إذا ثارت خطوبُ الدهرِ يومًا ... عليك فكُنْ لها ثَبْتَ الجنان
إذا كنت ترضى بما قد ترى ... فدونك الحبلَ به فاختنق
إنّ الأمورَ إذا بَدَتْ لزوالها ... فعلامةَ الإدبار فيها تظهرُ
إذا ضاع شىء بين أم وبنتها ... فإحداهما لا شكَّ ذلك آخذه
إذا كان ربُّ البيت بالطبلِ ضاربًا ... فلا تَلُمِ الصبيانُ فيه على الرقص
إذا ما أرادَ الله إهلاكَ نملةٍ ... سَمَتْ بجناحَيْهَا إلى الجوِّ تصعد
إذا أنت لم تَعْرِضْ عن الجهْلِ والخنى(٤) ... أصَبْتَ حَليمًا أو أصابَكَ جاهلُ
إذا لم تستطع أمرًا فدَعْهُ ... وجاوزه إلى ما تستطيع
إذا صوَّت العُصْفُورُ طَارَ فُؤادُه ... ولكن حديدُ الناب عند الثرائد
أهِنْ عامرًا تُكْرَم عَلِيه فإنّمَا ... أخو عَامرٍ مَنْ مَسَّهُ بهَوَان
إذا محاسنىَ اللاتى أتيتُ بهَا ... عُدَّتْ ذُنوبًا فَقُلْ لى كيف أعتذر
إخوان صدقٍ ما رأوك بغبطةٍ ... فإذا افتقرتَ فقد هوى بك مَنْ هوى
إذا اعتادَ الفتى خَوْضَ المنايا ... فأيسرُ ما يمرُّ به الوحولُ
ألم تَرَ أن المرءَ تدوى(٥) يمينه ... فيقطعها عمدًا ليسلم سائره
إذا أنت لم تعلم طبيبك كل ما ... يسوءك أبعَدْتَ الدواءَ عن القسم
إذا أنت حَمَّلْتَ الخؤونَ أمانةً ... فإنك قد أسندتها شَرَّ مسند
أكلُّ خليل هكذا غير منصفٍ ... وكلُّ زمان بالكرام بخيلُ
إذا أنت عبت المرء ثم أتيتَهُ ... فأنت ومَنْ تزرى عليه سواء
أسَأْتُ إذا أحسَنْتُ ظَنِّى بكم ... والحزم سوءُ الظن بالناس

---

(١) خَلَق: بال.
(٢) عارية: مستعارة.
(٣) غرة: غفلة.
(٤) الخنا: الفحش.
(٥) الدوى: المرض والسقم.

الحادثـــاتُ إذا ألَمّ خطوبُهَـــا	فلهـا مَسَـاوٍ[1] مـرة ومحاسـنُ
الخـيرُ لا يـأتيك متصـلاً	والشـرُّ يسـبق سـيلَه مَطَـرُه
العلـمُ ينهـضُ بالخسيسِ إلى العُـلا	والجَهْـلُ يقعـدُ بـالفتى بالمنسـوبِ
الكُفْـرُ بالنعمـةِ يدعـو إلى	زوالهـا والشـكر أبقـى لهـا
أبـا دارهـم مـا كنـت أنـت بدارهـم	ولا أنـا مـذ سـار الركـاب بهـم أنـا
أقلبت طرفـي لا أرى غـير صـاحب	يميـل مـع النعمـاء حيـث تميـل
إذا ما قضيـتَ الدَّيْـنَ بـالدَّيْنِ لم يكن	قضـاءً ولكـن ذاك غُـرْمٌ علـى غُـرْمِ

حرف الباء الموحدة

بـا فـوق مـا تشـكوا فصـبرًا لعلنـا	نـرى فرجًـا يشـفي السِّـقام قريبًـا
بـالملح نصلـح مـا نخشـى تَغَـيُّرَهُ	فكيـف بـالملح إن حلّـت بـه الغِـيَرُ
بنـي عمنـا إن العـداوة شـأنها	ضغائن[2] تبقـى فـي نفـوس الأقـارب

حرف التاء المثناة الفوقية

تحـن إليـه أفئـدةَ البرايـا	وتهـواه الخلائـقُ للسَّـمَاع
تلـومُ علـى القطيعـةِ مَـنْ أتاهـا	وأنـت سَـنَنْتَهَا للنـاس قبلـي
تلجـئ[3] الضـرورات فـي الأمـور إلى	سـلوكِ مـا لا يليـق بـالأدبِ
تفرَّقَـتِ الظبـاءُ علـى خِـراش	ومـا يَـدْري خِـرَاشُ مـا يصيـدُ
تجتلـى الأذن منـه أحسـن ممـا	تجتلـى العـين مـن وجـود ... دورِ

حرف الجيم

جـنَّ لـه الدهـر فنـال الغنـى	آه لمـن أغفلَـهُ الدهـرُ
جرَّبْـتُ أهلـي وأهليـه فمـا تركـت	إلى التجـارب فـي ودِّ امـرئ غرضـا

حرف الحاء المهملة

حيَّـاك مَـنْ لم تكـن ترجـو تَحِيَّتَـهُ	لـولا الدراهـمُ مـا حيَّـاكَ إنسـانُ

حرف الخاء المعجمة

خفـض الجـأش واصـبرَنْ رُوَيْـدًا	فالرزايـا إذا توالَـتْ تولَّـتْ
خليلـي إنَّ الحـبَّ صعـبٌ مراسـه	وإن عزيـزَ القـومِ فيـه يُهَـانُ

---

(١) مساوٍ: تخفيف مساوي.

(٢) ضغائن: مفردها ضغينة وهي الحقد.

(٣) تلجي: تخفيف تلجئ: تدفع.

خاطر بنفسك كى تَصيبَ غنيمةَ ... إن الجلوسَ مع العيالِ قبيحُ
خيالُك فى عينى وذكرك فى فمى ... ومثواك فى قلبى فأين تغيبُ
خَنْ مَن أمِنتَ ولا تركنْ إلى أحد ... فما نَصَحْتَكَ إلاّ بعد تجريبى

حرف الدال المهملة

داود محمود وأنت مُذَمَّمُ ... عجبًا لذاك وأنتما من عود
دعينى أنهبَ الأموَال حَتّى ... أعف الأكرمين عن اللئام

حرف الذال المعجمة

ذو العقلِ يَشْقَى فى النعيم بعقله ... وأخو الجَهَالةِ فى الشَّقَاوة ينعمُ

حرف الراء

رُبَّ مهزولِ سَمِّين عرضه ... وسَمين الجِسْمِ مهزولُ الحَسَبِ
رُدُّوا علىَّ صحائفًا سودتها ... فيكم بلا حق ولا استحقاق
رضيا ولا أرضى إذا كان مسخطى ... من الأمر ما فيه رضا صاحب الأمر
رُبَّ يومِ بكيت منه فلما ... صرتُ فى غيره بكيتُ عليه

حرف الزاى

زنيمٌ[1] ليس يعرفُ مَنْ أبوه ... بغىُّ الأمِّ ذو حسبٍ لئيم

حرف السين المهملة

سروركَ أن تبقى بخير ونعمة ... وإنى من الدنيا بذلك قانعُ
سوءُ حَظّى أنالنى منك هجرًا ... فعلى الحظّ لا عليك العتابُ
سبكناه ونحسبه لجينًا[2] ... فأبدَى الكيرُ[3] عن خَبَثِ الحديد
ستذكرنى إذا جَرَّبْتَ غيرى ... وتعلمُ أننى نعم الصديق

حرف الشين المعجمة

شفيعى إليك الله لا ربَّ غيره ... وليس إلى ردِّ الشفيع سبيلُ
شكرتك قبل الخير إن كنت واثقًا ... بأنى بعد الخير لا شكَّ شاكرُ

---

(١) الزنيم: الملتحق بقوم ليس منهم.
(٢) اللجين: الذهب.
(٣) الكير: آلة يستخدمها الحداد فى النفخ.

حرف الصاد المهملة

صَحَّحْ لنا والدَهُ أوّلاً وأنت فى حل من الوالدَهْ

حرف الضاد المعجمة

ضاقت ولو لم تضق لما انفرجت والعُسْرُ مِفْتَاحُ كلُّ ميسور

حرف الطاء المهملة

طويل عمر المعالى والندى أبدًا قصير عمر الأعادى والمواعيد
طوبى لأعين قوم أنت بينهُمُ القوم فى نزهة مِنْ وجهك الحسن

حرف الظاء المشالة

ظهرت خياناتُ الثقات وغيرهم حتى اتهمنا رؤيةَ الأبصار
ظلمت امرأً كلفته غير خلقه وهل كانت الأخلاقُ إلا غرائزا

حرف العين المهملة

عِلِمَ اللهُ كيف أنت فأَعْطَا كَ المَحَلَّ الجليلَ مِنْ سُلَطانه
على المرءِ أن يَسْعَى لما فيه نفعُه وليس عليه أن يُسَاعِدَهُ الدهرُ
عسى فرجٌ يأتى به الله إنه له كل يوم فى خليقته أمر
عتبت على عمرو فلما تركته وجربت أقوامًا بكيت على عمرو

حرف الغين المعجمة

غنّى بلا دين عن الخلق كلهم وإنَّ الغنى إلا عن الشئ لا به
غلامٌ أتاه اللؤمُ من شَطْرِ نفسه و لم يأته من شطرِ أمٍ ولا أبِ

حرف الفاء

فلم أر كالأيام للمرء واعظًا ولا كصروف الدهر للمرء هاديا
فنفسَك أكرمها فإنك إن تهن عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما
فصبر جميل إن فى اليأس راحة إذا الغيث لم يمطر بلادك ماطره
فما أكثر الأصحاب حين تعدهم ولكنهم فى النائباتِ قليلُ
فإن كانت الأجسام منا تباعدت فإن المدى بين القلوبِ قريب
فلو كان حمدًا يخلد المرء لم يمت ولكنّ حَمْدَ المرء غيرُ مخلد
فإن تَفُقِ الأنامَ وأنت منهم فإن المسكَ بعضُ دمٍّ الغَزَال

حرف القاف

قــد يجمــع المـــالَ غـــيرُ آكلـــه ويــأكل المــالَ غـــيرُ مَـــنْ جمعـــه
قــد زال ملـــكُ ســليمان فعـــاوده والشمسُ تنحـط فـى المجرى وترتفـع
قــد يــدرك المتــأنى نجــح حاجتــه وقــد يكــون مــع المسـتعجل الزلــل
قــد يــدرك الشـرف الفتــى ورداؤه خلــقٌ وجيـــبُ قميصــه مرقـــوع

حرف الكاف

كلَوا اليـومَ مـن رزق الإلـه وأبشِـروا فـإن علـى الخَـلاق رزقَكَــم غــدا
كفـى زاجـرًا للمـرءِ أيـــامُ دهــره تــروح لـــه بالواعظـــات وتغتـــدى
كنــت مـــن كربتـــى أفـــرُ إليهـــم فهـــم كربتــــى فـــأين الفـــرار
كـــانوا بنـــى أمٍّ ففـــرَّقَ شملَهُـــم عـــدمُ العقـــول وخفــــةَ الأحــــلام
كـلُّ المصـائبِ قَـد تمـرُّ عَلَـى الفتـى فتهـــونُ غـــير شماتـــة الأعـــــداء
كـأنك مـــن كـــل النفـــوس مركـــب فـــأنت إلى كـــل الأنـــام حبيـــبُ
كالكلب إن جاع لم يمنعك بصبصة وإن يَنَـلْ شِبعًا ينبـح مـن الأشـر[(١)]

حرف اللام

لعمرك ما يـدرى الفتـى كيـف يتقـى إذا هـــو لم يجعـــل لــــه الله وَاقِيـــا
لعمــرى مــا ضــاقت بــلادٌ بأهلهـــا ولكـــن أخـــلاق الرجـــال تضيـــقُ
للمــوتِ فينـــا ســهامٌ وهــى صَائبــةٌ مَـنْ فاتـه اليـومَ سَـهْمٌ لم يفتـه غـدا
لـــو إنَّ خِفَّـــةَ عقلِـــهِ فـــى رجلــه ســـبقَ الغـــزالَ و لم يَفتْـــهُ الأرنـــبُ
لو كَانَ ما بـىّ فِـى صخـرِ لأنّحَلَـهُ[(٢)] فكيــف يحملـه خَلْـقٌ مـــن الطـــين
لعمـــرك مـــا الأيـــامُ إلا معـــارة فما استطعتَ من معروفها فتزوّدِ[(٣)]
لكــل امــرئ حــالان بــؤس ونعمــة وأعطفهـــم فـــى النائبـــات أقاربـــه

حرف الميم

مَــنْ يحمـــدِ النّــاسَ يحمــدوه والنّـــاسُ مـــن عَـــابهم يُعَـــابُ
مـــن لم يَعُدْنَـــا إذا مرضنــــا إن مـــاتَ لم نشـــهدْ الجنـــازَةْ
متـى يبلـــغَ البنيـــانُ يومًـــا تمامَـــه إذا كنــت تبنيــه وغـــيرُك يهـــدمُ
مَـنْ كـان فـوق محـل الشـمس رتبتـه فليـــس يرفعـــه شـــئ ولا يضــــع

---

(١) الأشر: البطر.
(٢) أنحله: أهزله.
(٣) الشطر الثانى فيه خلل فتدبّر.

مِنَ النـاس مَـنْ يَغْشَـى الأبـاعدَ نفعُـه — وَيَشْـقَى بـه حتَّـى المَمَـاتِ أقاربُـه
مـا كـان فـى المخـدعِ مـن أمركـم — فإنـه فـى المسـجدِ الجـامعِ
مـا قـام عمـرو فـى الـولا — يـة قائمًـا حتَّـى قَعَـدْ

حرف النون

نَسـوِّد أعلاهـا وتـأبى أصولهـا — وليـس إلى ردِّ الشـباب سـبيل
نحـن بنـو الموتـى فمـا بالنـا — نعـافُ مـا لا بـد مـن شُـربه
نَدِمْـتُ نَدامَـةَ الكَسَـعِى لَمـا — رأتْ عَينـاهُ مَـا صنعَـتْ يَـدَاهُ

حرف الهاء

هنـاكم الله بالدنيـا ومتَّعكـم — بما نَحـبُّ لكـم منهـا ونرضـاه
هـل بـالحوادث والأيامِ مـن عجـبٍ — أم هل إلى ردِّ ما قد فـات مـن طلـب
هَـبِ الدنيـا تَقـادُ إليـكَ عَفْـوًا — أليـسَ مصـيرُ ذاك إلى الـزوالِ
هنيئًـا لمـن لا ذاق للدهـر لوعـة — ولم تـأخذِ الأيـامُ منـه نصيبـا
هـم يحسـدونى علـى موتـى فواحُزنـى — حتى على الموت لا أخلو مـن الحسَـدِ

حرف الواو

ولم أر كـالمعروف، أمَّـا مذاقُـهُ — فَحُلْـوٌ وأمَّـا وجهُـهُ فجميـلُ
وإذا خشـيت مـن الأمـور مقـدَّرًا — وهربـت منـه فنحـوه تتوجـه
والـرزق يخطـئ بـابَ عـاقلِ قومـه — ويبيـت بوَّابًـا ببـابِ الأحمـق
ولا يَغْـرُرْكَ طـول الحلـم منـى — فمـا أبـدًا تصـادفنى حليمـا
ولا خـير فيمـن لا يوطـن نفسـه — على نائبات(١) الدهرِ حـين تنـوبُ
وإذا أتَتْـكَ مذمَّتـى مـن نـاقصٍ — فهـى الشـهادةَ لى بـأنى كـامِلُ
ومـا للمـرء خـيرٌ فـى حيـاةٍ — إذا مـا عُـدَّ مـن سَـقَطِ المتـاعِ(٢)
ومـا المـرءُ إلا كـالهلالِ وضوئِـهِ — يوافـى تمـام الشـهر ثـم يغيـبُ
وقـد تسـلبُ الأيـام حـالاتِ أهلهـا — وتعدو على أُسْدِ الرجـالِ الثعـالبُ
ومـن يـأمن الدهـر الخـؤون فـإننى — بـرأى الـذى لا يـأمن الدهـر أقتـدى
وإذا افتقَـرْتَ إلى الذخـائرِ لم تجـد — ذُخْـرًا يكـون كصـالحِ الأعمـال
ومـن يكُـنِ الغـرابُ لـه دليـلاً — يمـر بـه علـى جِيَـفِ الكـلاب
ومـن يَـكُ مثلـى ذا عيـال ومقـترًا — مـن الـزاد يطـرح نفسـه أى مطـرح

---

(١) النائبات جمع نائبة: المصيبة.

(٢) سقط المتاع: مرذوله وحقيره.

ولربما منع الكريم وما به بخل ولكن سوء حظ الطالب
ولا بات يسقينا سُوى الماء وحده وهذا جزاءُ من بات ضَيفَ الضفادعِ
ومَنْ عاش فى الدنيا فلا بد أن يرى من العيش ما يصفو وما يتكدر
ولو دامَتِ الدولاتُ دامَتْ لغيرنا رعايا ولكن ما لهن دوام
واحسِنْ فإن المرءَ لا بُدَّ ميت وإنك مجزىٌّ بما كنت ساعيا
ولا ترين الناس إلا تجملاً[1] وإن كنت صفر الكف والبطن طاويا
وما لامرئ طولُ الخلود وإنما يخلّده طول الثناء فيخلد
ولرُبَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى ذَرْعًا وعند الله منها المخرج
وكان رَجَائى أن أعوَد مُمتعًا فصار رجائى أن أعود مسلما
وتجلدى للشامتين[2] أريهُمُ إنى لريبِ الدهرِ لا أتضَعْضَعُ
ولابدَّ من شكوى إلى ذِى مروءة يُواسيكَ أو يُسْلِيكَ أو يَتَوَجَّعُ
وهَوَّنَ حزنى عن خليلى أننى إذا شئت لاقيت الذى مات صاحبه
ويومٌ علينا ويومٌ لَنا ويومٌ نُسَاءُ ويومٌ نُسَرْ

حرف اللام ألف

لا تنظرن إلى الجهالة والحجى وانظر إلى الإقبال والإدبار
لا تسألِ المرءَ عن خلائقه فى وجهه شاهد من الخبرِ
لا يصبر الحرُّ تحت ضيمٍ وإنما يصبر الحمار
لا تَنهَ عن خُلُقٍ وتأتى مثلَهُ عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ
لا تنظرن إلى امرئ ما أصله وانظر إلى أفعاله ثم احكم
لا يبالى الشَّتْمَ عِرْضٌ كتلّهُ شَتْمٌ وَذَمٌّ
لا يسكنُ المرء فى أرضٍ يُهَان بها إلا من العجزِ أو من قِلّةِ الحِيَلِ
لا يقبلون الشُّكْرَ ما لم ينعموا نعمًا يكون لها الثناء تَبَّعَا
لا أسأل الناس عمّا فى ضمائرهم ما فى ضمير لهم من ذاك يكفينى

حرف الياء المثناة التحتية

يفر من المنية كَلُّ حَيّ ولا يُنجِى من القَدَر الحذارُ
يُريك الرضا والغِلُّ[3] حشو جفونه وقد تنطق العينان والفمُّ سَاكِتُ
يُهَمْهِم للشعير إذا رآه وَيَعْبَسُ إن رأى وجهَ اللجَامِ

---

(١) التجمُّل: الجلد والتصبّر.
(٢) الشامت: الفرح ببلية عدوّه.
(٣) الغِلّ: الحقد والضغينة.

يفـــارقني مَــــنْ لا أطيـــقُ فراقَـــهُ ويصحبني في النـاس مَنْ لا أريــده
يزيـــد تفضــلاً وأزيـــد شـــكرًا وذلـــك دأبـــه أبـــدًا ودأبـــي
يواسي الغراب الذئب في كـل صيـدة وما صارت الغربانُ في سعفِ النخـل
يهـون علينــا أن تَصَـاب جُســومُنا وتسـلمُ أعــراضٌ لَنَــا وعُقــول
يَغَــرُّ الفتَــى مــرُّ الليــالى سـليمةَ وهُــن بــهِ عمَّــا قليــل غوائـــرُ
يغيظنـــى وهـــو علـــى رســـله والمــرء فــى غيــظ ســواه حليــم
يُريـــكَ البَشَاشـــةَ عنـــد اللقَـــا ويَـبْريك فــي السِّــرِّ بَــرْىَ القَلَــمْ

الفصل الخامس في الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف

إن كانت ما تعمل جميل اعمل كما يعمل معك. إذا أبغضك جارك حوّل باب دارك. إذا كان صاحبك عسل لا تلحسه كله. المستعجل والبطئ عند المعدية[١] يلتقي. ألف ذقن ولا سلام عليكم. ألف ذقن ولا ذقنى. إذا غاب عنك أصله كانت دلائل نسبته فعله. إذا وصلت وسلم الله بع بما قسم الله. إذا كنت أعمى وأطروش شم رائحة النقوش. إذا كان النبيذ وردى، والعشيق كردى، والبقل فول حار، والعشاء بيسار، أيش يكـون الحـال. إذا كـان القطن أحمر والمغسل أعور، والدكة مخلعة، والنعش مكسر أعلم أن الميت من أهل سقر والوادى الأحمر. أيش ينفـع الضراط عند طلوع الروح، قال تقريف للحاضرين، وتفريق للملائكة. القشر والنشر والعشـا خبيزة. أكـل الدقـة والنوم فى الأزقة، ولا دجاجة محمرة يعقبها مشقة. أيش أنت فى الحارة يا منخل بـلا طـارة[٢] . الرجـم بـالطوب ولا الهروب. إذا وقعت يا فصيح لا تصيح. أقرع يقول لأقرع: امش بنا نزرع فـى بركـة القرعـان أيش مـا طلـع يطلع، النصف لى، والربع لى، والثمن لى، والثمن الآخر لك ولى. العدو ما يبقى حبيب حتى يصير الحمار طبيـب. اقعد يا حمار حتى ينبت لك الشعير. أى موضع راح الحزين يلقى جنازة.

قال الشاعر:

إن دام هـــذا الســيرُ يَــا مَســـعود لا جَمَـــلُ يبقـــى ولا قَعُـــود

وقال غيره:

إذا لم تكـن لى والزمـانُ شُـرُم بُـرُم فـلا خـيرَ فيـك والزمـان ترللـى

وقال غيره

إذا اقبلـت كـــادت تقـــاد بشـــعرة وإن أدبـرت كـادت تقـدّ السلاسـلا

حرف الباء الموحدة

بينما يتروّى البخيل قضى الكريم حاجته. بينما يسعد المغتر فرغ عمره. بينما أصـل قـبره نسيت همـه. بينمـا يعدل المغتر حاله جاء الموت شاله. بينما يخلص ربنا حقى اتفرقعت جوزة حلقى. بينما يقطع الجريد يفعـل الله مـا

(١) المعدية: مركب تنقل بين شاطئين لنهر واحد.
(٢) الطارة: الإطار الخشبي الدائرىّ المحيط بالمنخل.

يريد. بينما يجئ الدرياق[1] من العراق يكون الملسوع مات. بين حانه وبانه حلقت لحانه. بدوى مقروح لقى التمر مطروح، أين يخلى ويروح. بدال لحمتك وقلقاسك هات لك شد على راسك. بدال اللحمة والباذنجان هات لك قميص يا عريان. بدال لحمتك التلاته هات لك شد يا شماته. بقى للكب سرج وغاشية وغلمان وحاشية. بقى للخرا مرا ويحلف بالطلاق. بعد الجوع والقلة بقى لك حمار وبغلة.

حرف التاء المثناة فوق

تموت الحدادى وعينها فى الصيد. تعالوا بنا نقتبح ونرجع غدًا نصطلح. تدحرج الخرا لعند البعر قال له: أيش أنت قال له بزم قردش. ترك الفضول من حزم العقول. تراب العمل ولا زعفران البطالة. تسكر وتخانق ما هو شيء موافق. تجارة الأحمق على أهل بيته. تضارب الريح مع الموج جاء الهم على النواتية[2] . تزاوروا ولا تجاوروا. تبات نار تصبح رماد. لها رب يدبرها.

حرف الثاء المثلثة

وثوب العيرة ما يدفى. ثقيل واسمه صخر بن جبل. ثور علقوه أغمى عليه قال: حتى يطلع شيء يرسوه عليه. ثور عاجز ما يدوّر ساقيه. ثقيل من أولاد الزنا مرّ العنا. ثوب عليه وثوب على الوتد، قال: أنا اليوم أحسن من كل من فى البلد.

حرف الجيم

جور القط ولا عدل الفار. جمل موضع جمل يبرك. جهد المقل دموعه. جمل بجبه قال: وأين المحبة. جيت اصطاد صادونى. جار له حق وجار ما له حق وجار لاصحبته عافية. جارك مرآك إن لم ينظر وجهك نظر قفاك. جا كتاب من عند خاله قال: كل من هو فى حاله. جا كتاب من عند عمه قال: كل من هو ملهى بهمه. جاؤوا ينعلوا خيل الباشا مدت أم قويق رجلها. جوزوها له، ما لها إلا له. جوزوا مشكاح لريمه، ما على الاثنين قيمة.

حرف الحاء المهملة

حاجة لا تهمك وصى عليها زوج أمك. حَوَل حبيبى ما عونه وقدرته مع كانونه. حمار حنكوه بالتوت على باب الغيط يموت. حلينا لاقلوع وأرسينا وأصبحنا على ما أمسينا. حب وورى، واكره ودارى. حدثتنى ونصحتنى عايرتنى وفرحتنى. حط فليساتك فى كمك، واشتر أبوك وأمك. حبة قرض تخرب أرض.

حرف الخاء المعجمة

خذينى وارغبى فيه أنا حصاد ملوخية، وعند الخبز آكل ميه، وعند الشغل ما لى نية. خبثت لى وصلحت لك. خذ ذا الصبى فوق صبياتك تمام لأحزانك. خزينة فى جره وملحة فى صرة. خبزة بلا أدام، ويعزم على الجيران.

حرف الدال المهملة

دار الظالم خراب ولو بعد حين. درهم لك ودرهم عليك لا لك ولا عليك. دواء ما لا تشتهى النفوس تعجيل الفراق.

---

(١) الدرياق: هو الترياق نفسه وهو مضاد للسموم.

(٢) النواتية: البحارة.

حرف الذال المعجمة

ذا درب ما يسد ريح. ذى ما هى رمانة إلا قلوب ملانـة. ذا لى وذا أيـدى عليـه. ذى مـائدة مـا يقعـد عليهـا طفيلى ذا الخبز ما هو من ذا العجين. الولد خرا من ظرفه كل من شال رجليه حـك أنفـه. ذكـروا مصـر القـاهرة قامت باب اللوق بحشايشها. ذكروا المدن جاءت القرى تحجل.

حرف الراء المهملة

راح ذاك الزمان، بناسه وجا هذا الزمان بفاسه، وكل من تكلـم بـالحق كسـروا رأسـه. رأواه الحجّـار راكـب حيط. قالوا إلى أين يا حجّار، قال: مسافرٍ، قالوا: من كانت هذه المطية مطيته لا يشرق ولا يغرب. رأوا سـكران يقرأ، قالوا عن تشاكل روحك. رأوا شيخًا يتهجى قالوا: يختم على الصراط.

رأوا وردانه على سنداس، قالوا: ما لذى الفسقيه إلا ذى البلطية. رأوا علـى قـبر مكتـوب يـا سـعادة سـاكنة قالوا: أبصر من يزاحمه. راكب بـلاش وينـاغش مـرات الريس. ركبتـك وراى، حطيـت يـدك فـى الخـرج. راح الجندى وخلى خلقه عندى. رزق الكلاب على المجانين. راسين فى عمامة ما يكـون. راحـت علـى جمـل وجـات على قطة قال: ما لذى الشيله إلا ذى الحطة. قال الشاعر:

راح الـــــذى كنــــا نعيــــــش بفضلـــه بـــين الـــورى
وبقــــى الذيــــن حيــــاتهم ووجودهــــم مثــــل الخـــــرا

حرف الزاى المعجمة

زقزوق على بركة يضحك وهو ضحكة. زاوية بلا عيش بنيت ليش. زوج القصيرة يحسـبها صغـيرة. زوجـت بنتى أقعد فى دارها جاتنى وأربعة وراها. قال الشاعر:

زوّجــــت بنتــــى تنســــتر ويمتلـــــى بيتــــى قمـــــاش
جــــاء غزلهــــا فــــى أكلهــــا ونيكهــــا طلــــع بــــلاش

زنبور زن على حجر مسن، قال له: أيش تريد؟ قال: ألْحسك، قال: أنا ألْحس البولاد. زنبـور زن علـى فلـس جحش، قال له: أيش تطلب؟ قال له: عسل. قال له: قصدت معدن يا دندن.

حرف السين المهملة

سل المجرب ولا تنس الطبيب. سموك مسحر قال: فرغ رمضان. سموك حبل قال وطولت. سموك راجـح قـال: إن شاء الله تجى الحق. سبع وزر ولا استتر. قال الشاعر:

ســــيغنى الله عــــن بقــــراط دن ويــــأتى الله بــــاللبن الحليــــب

وقال آخر:

ســـيغنى الله عـــن زيـــد وعمـــرو ويــــأتى الله بــــالفرج القريــــب

حرف الشين المعجمة

شره ووضيع ويغضب سريع. شىء ما نابه وتقطعت ثيابه. شعر يحلق وشعر ما يحلـق. شـرب السـموم القاتلـة ولا الحاجة إلى السفل. شمنى ولا تدعكنى. شىء ما يجى على القلب عنايته صعبة. شراء العبد ولا تربيته. شـخت بغلة عامت زبلة. ركبت خنفسة زمر زنبور. قال ما ذا الجوق الجليل إلا لمقطعات النيل.

حرف الصاد المهملة

صام سنة وفطر على بصلة. صبرى على الحبيب ولا فقده. صاحب يضر عدو مبين. صباح الفوال ولا صباح العطار. صباحك يا أعور قال ذى خناقه بايتة. صباح الخير يا جارى، أنت فى دارك وأنا فى دارى.

حرف الضاد المعجمة

ضرب الحبيب كأكل الزبيب. ضربتين فى الرأس تعمى. ضرب وبكى وسبق يشتكى. ضربة على كيس غيرى كأنها فى عدل حنا. ضمنوا حداية لغراب قال: الكل يطيروا. ضربوا بياع الكسبرة خرى بياع التوم، قال يذى داهية جات على الخضريه.

حرف الطاء المهملة

طارت الطيور بأرزاقها. طفيلى ويجلس فى الصدر. طفيلى ويقترح. طويل الكم خطار[1] قليل الفرح فى الدار. طبق وجارية على صحن بسارية. طلبوا جاكم عثمان يد من ورا ويد من قدام. طعامك ما جانى ودخانك عمانى. طار طيرك وأخذه غيرك. طول ما أعيش يكفينى رعى الحشيش. طوّل الغيبة وجانا بالخيبة.

حرف الظاء المعجمة

ظهرك عندى نصف الليل.

حرف العين المهملة

عنقود مدلى فى الهوا من لا يصل إليه يقول حامض ولا استوى. عشق بداله لا أباله. عاشق ما يسمع بكا صغير. عاشق ما يسمع كلام مفارق. عاشق مقل شيء ما زرع ايش جا يستغل. عزومه حسبت عليك كُلْ وبَحْلقَ عينك. عند المخاضة يبان القيليط. عند الطعان يبان الفارس من الجبان. عريان التينة وفى حزامة سكينة. عريان وفى كمه ميزان.

حرف الغين المعجمة

غابت السابع ولعبت الضباع. غربة وكربه ما يحمل الحال. غطاس وقلقاس نحسين في قدره. غالي السوق ولا رخيص البيت.

حرف الفاء

فرجة بلا كسر تعمى البصر. فقير ونقير وكلامه كثير ويقول هاتوا عشا من يخنى. فوق الشراطه ملخ أودانه. فارس خرا ويسوق فى الوحل. فارس خرا واسمه عنتر. فارس خرا ويسابق الخيل. فرد ضربة فى الرأس تكفى. فصدوا قرد ضرط قالوا به دم زائد. فرغت الرعانة يا جانم.

---

(١) خطار: زوّار-ضيوف.

حرف القاف

قالوا للأعمى: زوّق عصاتك قال: هو أنا محب فيها. قالوا للحمار: اجتر قال: مضغ المحال ما ينطلى. قالوا للقرد: شب قال: أيادى ملاح وتمسك الماصول. قالوا للقرد: اطلب من ربك قال: هو أنا عنده بوجه يبسط. قالوا للجمل: زمر قال: لا شفف ملمومة ولا أيادى مفرودة. قالوا للدبة: طرّزى قالت: ذى خفة أيادى. قالوا للكلاب: احرثوا قالوا: ما جرت بهذا عادة. قالوا للغراب: ما لك تسرق الصابون قال: الأذى طبعى. قالوا لبقر الديوان: إذا متم يكفنوكم فى حرير اشتهينا نروح بجلودنا. قالوا للغزالة: ارحلى حركت ذنبها. قالوا للعرب: ارحلوا حملوا المناسف.

حرف الكاف

كل من عوّدته بأكلك كما نظرك جاع، كشكار دايم ولا علامة مقطوعة. كل كرهًا واشرب كرهًا ولا تعاشر كرهًا. كل هم كاوى عند هعمى ياوى. كل كل شىء لا يشبه قانيه حرام. كل مائة عصفور ما يجو حداية. كل ألف مصة ما يجو بغصه. كل ألف بوسة ما يجو بعبوسة. كملت يا لحمان بالشعرة والصنان. كمل حبيبى. كل المعانى أعرج وقيليط ومعجبانى. كمل حبيبى وأكمل أعرج وقيليط وأحول، وفيه عادة أخرى لمن يواصل يخرا. كأنه خان للفجر لا يوحشه من غاب ولا يؤانسه من حضر. كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار. كأنه عصفور ينيك بلاش ، ويأوى فى الأعشاش.

حرف اللام

لولاك يا كمى ما أكلت يا فمى. لولاك يا لسانى ما انكسيت يا قفاى. لولا الغيرة والحسد كانت عجوزة كفت بلد. لولا أختك ما صرت ابن عمتك. لو قليناها بليه ما جات هكذا. لو كان فيها خير ما رماها طير. لك وعليك ما يصعب عليك. لك أسوة بغيرك. لقمة بدقة ولا خروف بزقة. لقمة تحت حيطة، ولا خروف بعيطة. لو سلم الكرم من حارسه طابت مغارسه. لو تقطع يده وتدليها من فيه صنعه ما يخليها. لو عمل لى من الذهب وليمة هو عندى بتلك العين القديمة. لو شال رأسه إلى السما كأنه عصيدة بما. لو نظر الجمل لسنمه كان كدمه. لولا الكشط والبراية ما كانت أولاد الخرا كتاب.

حرف الميم

محبة بلا حبة ما تساوى حبة. ما شلتك يا دمعتى إلا لشدتى. من عاشر غير جنسه دق الهم صدره. من قدم النحس تعب فى تأخيره. من عاشر الحداد احترق بناره. من عاشر الزبدانى فاحت عليه روايحه. من ركب فى غير سرجه وغرزه دخل الهوا استه وهزه. من لا يحط يده لزنده ما يعرف حره من برده. ما رأيتك يا نور حتى ابيضت العيون. ما لى على فراقكم جلد إلا هجاجى من البلد. ما كفانا همّ أبونا، قام أبونا جاب أبوه قال: خذوا جدكم ربوه. من عدم نابه ونصابه وثيابه وشبابه كان الموت أولى به. من يكلم القبح يروح عرضه وينفضح. ما تنقدوهم كلهم زغليه ما فيهم من يعجب النقاد.

حرف النون

نواية تسند الجرة قال: وتسند الزير الكبير. نفسك أتلفت أى شىء أخلقت. نصف البلا ولا البلا كله. ناقص ونحاس. ناموسة باتت على شجرة أصبحت تقول خاطرك قالت لها: وأنت كنت على أى ورقة. نيتك مطيتك. نسيت يا فلاح ما كنت فيه، كعبك المشقق والوحل فيه. نيك حتى تبقى ديك.

حرف الهاء

هانت الزلابية حتى أكلها بنو وائل. هان المسك وانتثر. هدية تعر[1] قومها تخليتها ولا لومها. هدية الأحباب على ورق السداب. قال هو أعمى عن ورق الموز. هو عرس تأكل وتنسل. أهدوا هدية وأعينهم فيها يقولوا الله يردها. هاتوا ذا الغزل المخبل لذا القلب المدبل.

حرف الواو

واحد نتفه وآخر لقفه، وقال آخر: يا قريب الفرج. واحد بيخبطوا له وهو قائم عليه، قال أنا فى حاجتك. واحد جائز رأى قرد يجرش ترمس قال: ما لذى الفاكهة البدرية إلاّ ذى الصورة القمرية. واحد سموه عنبر وصنعته سرباتى، قال: الذى كسبه فى الاسم خسره فى الصنعة. وحش ويكش ويقعد فى الوش[2] ، ويغنى بلينا بكم. وقت أكل الدجاج ما يفتكرونى، وفى وقت شيل التراب هات يدك. وايش قام على تومة بفضل الحكومة. وقت الشوا أو اليخنى ما قلت: يا أخى الحقنى، ووقت ضرب الدرة قلت: اصفعوا واصفعنى.

حرف اللام ألف

لا تعيرنى ولا أعيرك، الدهر حيرنى وحيرك. لا أصلٍ شريف ولا وجه ظريف. لا أخوك ولا ابن عمك تشق ثوبك على أيش. لا عاشق بليق. لا حراس ولا دراس لا عاش العار ولا بنى له دار. لا ربح ثوابه ولا خلاه لأصحابه. لا فى الفراق نجد راحة ولا فى الوصل. لا تشكرن فتى حتى تجربه. لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يجى. لا يضر السحاب نبح الكلام. لا يغرك تظريفى الأصل فى ريقى.

حرف الياء

يا شب مليح ما أحسن وصفك لا فى يدك ولا فى طرفك. يا ويل من ذاق الغنى بعد جوعه، يموت وفى قلبه من الهم واجس. يا طارق الباب بعد العشى لا تطرق الباب ما تم شيء يا من ملنا ما كان حلنا لسا ما لنا فى العشرة سنة. يهنيكم قدومه قد جاكم بشومه. يا ليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا. يا ويل من كان عيشه من بيت خيه. يا طالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر.

أمثال النساء

حرف الألف

أحبك يا سوارى، مثل معصمى؟ الذى فى قلب أم حنين تحلم به فى الليل. إن كنت حرة لا تضيعى نقابك برة. إن لم تعملى وتفتخرى وإلا اقعدى وانعفرى. إن كانت الداية أحن من الوالده قال ذى داهية عيارة. الكلام لك يا جارة إلا أنت حمارة. إيش تعمل الماشطة فى الوجه المشؤوم. إيش قام على الزينة بالنقش والزينة. إيش ينفع النفخ فى الوجه الأصم. أرملة عدس ومتزوجة عدس اقعدى بعد سعى. اسم الزوج ولا طعم الترمل. العاقلة فينا

---

(١) تعر: تجلب العار.

(٢) الوش: الوجه.

تزنى بيقطينا. إذا كان زوجى راضى إيش فضول القاضى. استعارت الرعنة[١] شىء حسبته لها أخذت المقص، دارته لها. اقعدى فى عشك حتى يجى حد ينشك.

حرف الباء الموحدة

بعد أن كنتى لى وحدى بقيت اسمع أخبارك. بعد سنة وشهرين جابت بنت بشفرين. بعد أن كان زوجها بقى طباخ فى عرسها. بعد مشيك فى الحلقة بقى لك سلالم وغرفة واسمك ستيتة. بعد أمى وأختى الكل جيرانى. بينما تتنقب الحولة انصرف القاضى. بنت الخرا تزف لابن الخرا بدف. باتت ناموسة على جميزة قالت صبحك الله بالخير قالت: من درى بك قبله. بدال ما تمشى وتهزى كتفك رقعى فردة خفك. بخرا[٢] وتزاحم بالبوس. بقى لام سيسى برقع وللضفدعة زمارة. بعد مشيك فى الحلافى لبستى الصافى. بعيد على الحزينة تستعمل الزينة.

حرف التاء

تابت القحبة يوم وليلة قالت: ما بقى فى البلد حكام. تضاربت المجنونة والحمقا حسبته الرعنة من حقا. تضارب وتتعرى وتصيح: يا قلة رجالى. تأخذوا أبونا وتكابرونا. ترتانة وبيبانة ومفاتيح الخزانة. تباهت الرعنة بشعر بنت أختها. تخلونى وإلا استحل بجارنا قالت إذا كان ذا فى قلبك خذية بلا استحلال بجارنا قالت إذا كان ذا فى قلبك خذيه بلا استحلال. تتغمى بالخرج ولا تخلى الغنج. تقعد عيوشة فى ديارتها ما لأحد حاجة فى زيارتها.

حرف الثاء

ثوب سيدى، ثوب حبيبى، ثوب ستى، ثوب قحبه.

حرف الجيم

جارة بجارة والعداوة خسارة. جانى عذولى ورتالى ما هى محبة إلا شماتة لى. جارية وزبدية على باذنجانة مقلية. جائنا العدوة مكحلة قطران لا غيره وقلبها فرحان. جاب ثيابه يغسلهم بلا صابونة معهم.

حرف الحاء المهملة

حولة وتتنقب بنخ. حزانى ما عندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق. حزانى ما عندهم خبز اشتروا لهم بعشرة ملوخية. حزينة وواعية. حبلة ومرضعة، وعلى كتفها أربعة. وطلعت الجبل تجيب دوا للحبل. حولة ونصارنية لا مليحة ولا أصل طيب. حزينة ما لها مملوك سمت زنبورها خوشكلدم. حزينة ما لها ملك اكترت لها بواب. حزينة ما لها كاملية طلبت لها خف وشعرية.

حرف الخاء المعجمة

خطبوها تعززت، وكان زمان البوار. خلت زوجها مكروب وراحت تشوف المصلوب. خذى قطيفة، واكتمى سرى، قالت ما يطاوعنى قلبى. خلت ما يعنيها واتبعت حك رجليها.

---

(١) الرعنة: قليلة العناية.

(٢) بخرا: ذات رائحة فم كريهة.

حرف الدال المهملة

درى زوجك بكتبتك تمى نهارك مع ليلتك. دق من أسفل ولا تطلع ما أنت على القلب.

حرف الذال المعجمة

ذكرت العجوز أطلالها.

حرف الراء

رقصتى ما أحسنتى كان قعادك أجمل. رحنا يضحكوا بها وهى تضحك تساعدهم. رأوا جاموسة منقبة بحصير قالوا: ما لذا الشكل الوضيع إلا ذا القماش الرفيع. راحت تبيع ربعة غابت جمعة. راحت رجال الهيبة وبقيت رجال الخيبة. راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الخبز بالفسفاس. رأوا خنفسة على مكنسة قالوا: ما لذى الصيفة إلا ذا الحمار الأزعر[١] .

حرف الزاى

زمر بالزميمير تبان لك العاقلة من المجينينة. زوجى ما حكم على قام لى عشيقى بشمعة. زوجوا بنت نشادرى[٢] لسربالى[٣] قالوا: قليلات الخرا تتدحرج لبعضها.

حرف السين المهملة

سودا وتتنقش بسباخ. سواد منقبة قفل على خزانة. سألوها عن أبيها قالت: جدى شعيب.

حرف الشين المعجمة

شدى قرطاسك من عند موسه قالوا: داشي ما فرحتى به وإننى عروسه. شامتة ومعزية.

حرف الصاد المهملة

صارت القحبة واعظة. صارت القويقة شاعرة.

حرف الضاد المعجمة

ضحك ابن سنة غمى على أمه قالت: ما أخف دمه.

حرف الطاء المهملة

طلعت ترحم نزلت تتوحم.

حرف الظاء المعجمة

ظريفة وعفيفة ولها نفس شريفة.

---

(١) الحمار الأزعر عند العوام: مقطوع الذنب.

(٢) نشادرى: ربما المشتغل بمادة النشادر ذات الرائحة الكريهة.

(٣) سربالى: لعله الحداد صانع السرابيل وقد عيّرت العرب الحداد بفساد الريح.

حرف العين المهملة

عميا تخفف مجنونة وتقول: حواجبك سود مقرونة. عاقلة وجابت طفلة وجاتها خطار واشتروا لها قلقاس دكر وحطب أخضر فى نهار مطر وقالوا لها: اطبخى. على قدر لحمة تقع الصلحة. عجوزة وجابت غلام إذا جنت لا تلام. عجوزة وخرفانة دى داهية كمانة.

حرف الغين المعجمة

غيرك يقوم مقامك على إيش قلبى أعذبه.

حرف الفاء

فرحت حزينة خربت مدينة.

حرف القاف

قالوا للمغانى: اتزوقوا قلبوا عصاييهم. قحبة ما كنست بيتها كنست المسجد قالوا: دى قحبة تطلب الثواب.

حرف الكاف

كل من تبعت هواها صارت سراويلها رداها. كبرتى يا برقوقة وبقى لك دبوقة. كانوا مغانى صاروا ملاهى. لا راحت ولا جات كما هى. كلى قليه وباتى هنيه. كأنها من الباسطية قماش على جريدة. كأنها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر. كأنها من عمايم اليهود صفرا طويلة رفيعة. كأنها من بيت الوالى ما يتحدث فيها سوى الحاشية. كأنها ضبة جعيدى مخلوعة ولا تأخذ شىء.

حرف اللام

لو كان ما ينقش إلا السمان[١] بارت المواشط من زمان. للساعة ما حبلت جابت المرسين. لولا المعاير ما كانت الحراير.

حرف الميم

ماشطة وتمشط بنتها. من افتكرنا بياسمينا ما نسينا.

حرف النون

نواية تسند الجرة، وقال: وتسند الزير الكبير.

حرف الهاء

هش يا دبانة أنا حبلى من مولانا.

حرف الواو

وجه لا يرى بالذهب يشترى.

---

(١) السمان: البدينات.

حرف اللام ألف

لا أنت مليحة ولا تغنى بايش تدلى.

حرف الياء

يعيش المدلل بلا مكلل. يا غزالة الأقمار أين كنتى بالنهار. يا ما تحت النقاب والشعرية من كل بلية. يا من ملنا ما كان حلنا، للساعة ما لنا فى العشرة سنة.

الباب السابع فى البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول

الفصل الأول فى البيان والبلاغة

أما البيان فقد قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[١]، وقال صلى الله عليه وسلم: «إنَّ مِنَ البيَان لَسِحْرًا»[٢] . قال ابن المعتز: البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول.

وأما حده فقد قال الجاحظ: البيان اسم جامع لكل ما كشف لك من المعنى.

وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هى أن يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[٣] ، وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾[٤] أى وثيقة كأنها قد بلغت النهاية.

وقال اليونانى: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة.

وقال الهندى: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقال الكندى: يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ، كثير المعانى.

وقيل: إن معاوية سأل عمرو بن العاص: مَنْ أبلغُ الناس، فقال: أقلهم لفظًا، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة. ولو لم يكن فى ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم وافتخر به حيث يقول: «نُصِرْتُ بالرُعْبِ، وأوتيت جَوامِعَ الكَلِمِ»[٥] ، وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعانى الكثيرة.

وقيل: ثلاثة تدل على عقول أصحابها، الرسول على عقل المُرْسِل، والهدية على عقل المهدى، والكتاب على عقل الكاتب.

وقال أبو عبد الله وزير المهدى: البلاغة ما فهمته العامة، ورضيت به الخاصة. وقال البحترى: خير الكلام ما قَلَّ وجَلَّ[٦] ، ودَلَّ و لم يُمَلّ. وقالوا: البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان، ولا يسلك إلا ببصائر البيان.

وقال الشاعر:

لـك البلاغـة ميـدانٌ نشَـأتَ بـهِ ... وكلّنـا بقصـور[٧] عنـك نعـترفُ

مَهِّدْ لِىَ العذرَ فى نَظْمِ بَعَثْـتُ بـهِ ... مَنْ عنده الدرُّ لا يُهْدَى له الصَّدَفُ

وروى أن ليلى الأخيلية مدحت الحجاج فقال: يا غلام اذهب إلى فلان فقل له: يقطع لسانها. قال: فطلب حجامًا، فقالت: ثكلتك أمك إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة. فلولا تبصرها بأنحاء الكلام، ومذاهب العرب، والتوسعة فى اللفظ، ومعانى الخطاب لتمَّ عليها جهل هذا الرجل.

---

(١) سورة الرحمن:١ - ٤.
(٢) أخرجه: البخارى فى النكاح ٥١٤٦.
(٣) سورة الطلاق:٢.
(٤) سورة القلم:٣٩.
(٥) أخرجه: البخارى فى الجهاد ٢٩٧٧.
(٦) جَلَّ: عظُم.
(٧) بقصور: عجز وتقصير.

وقال الثعالبي: البليغ من يحول الكلام على حسب الأمالى، ويخيط الألفاظ على قدر المعانى، والكلام البليغ ما كان لفظه فحلاً، ومعناه بكرًا.

وقال الإمام فخر الدين الرازى رحمة اللّٰه تعالى عليه فى حد البلاغة: إنها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما فى قلبه، مع الاحتراز عن الإيجاز المخل، والتطويل الممل.

وهٰذه الأصول شُعَبٌ وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر، وباللّٰه التوفيق إلى أقوم طريق.

الفصل الثانى فى الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازى رحمة اللّٰه تعالى عليه: اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد، وأصلها من قولهم: أفصح للبن، إذا أخذت عنه الرغوة، وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة، بل يستعملونها استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد فى تسوية الحكم بينهما. ويزعم بعضهم أن البلاغة فى المعانى، والفصاحة فى الألفاظ، ويستدل بقولهم: معنى بليغ، ولفظ صحيح. وقال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحًا عظم فى صدرى، وإن قصر سقط من عينى.

وقد اختلف الناس فى الفصاحة فمنهم مَنْ قال: إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعانى، ومنهم مَنْ قال: إنها لا تخصُّ إلا الألفاظ وحدها.

واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال: نرى الناس يقولون: هذا لفظ فصيح، وهذه الألفاظ فصيحة، ولا نرى قائلاً يقول: هذا معنى فصيح، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعانى. وإن قلنا: إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح، وذلك غير مألوف فى كلام الناس.

والذى أراه فى ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف فى الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحًا حسنًا. ومن المستحسن فى الألفاظ تباعد مخارج الحروف، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة فى مواضعها غير قلقة ولا مكدودة، والمعيب من ذلك كقول القائل:

لَوْ كَنتَ كنت كتمت الحب كنت كنا وكنت ولكن ذاك لم يَكُنِ[1]

وكقول بعضهم أيضًا:

وَلا الضّعف حتّى يبلغ الضّعْف ضعفه ولا ضعف الضعف بل مثله ألف[2]

وكقول الآخر:

وقبرُ حَربٍ بمكانٍ قَفْرِ وليس قُرْبَ قبر حرب قبر

قيل: إن هذا البيت لا يمكن إنشاده فى الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه؛ لأن القرب فى المخارج يحدث ثقلاً فى النطق به. وقيل: مَنْ عرف بفصاحة لحظته العيون بالوقار.

وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر، وملك زمام الأمور، واطلعه ملكها على الخفى من أمره والمستور. قال الشاعر:

لِسَانُ الفتَى نَصْفٌ ونصف فُؤادُه ولم يَبْقَ إلا صُورةَ اللحْمِ والدَّمِ

---

(١) البيت فى الغالب مصنوع قيل: وضعته الجن، والبيت شاهد عند البلاغيين على تنافر الكلمات.

(٢) شأنها شأن سابقها فى فساد التركيب.

وسمع النبى صلى اللّه عليه وسلم فصيحًا فقال: «بارك اللّه لك يا عم فى جمالك» أى فصاحتك. وعرضت على المتوكل جارية شاعرة فقال أبو العيناء يستجيزها: أحمد اللّه كثيرًا، فقالت: حيث أنشاك ضريرًا. فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت فى إساءتها فاشترِهَا.

وقال فيلسوف: كما إن الآنية تمتحن بأطنانها، فيعرف صحيحها من مكسورها، فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقه. وقال المبرد: قلت للمجنون أجزنى هذا البيت:

أرى اليوم يومًا قد تكاثف غيمه ... وإبراقه فاليومَ لا شكَّ ماطرُ

فقال:

وقد حجبَتْ فيه السحائبُ شَمْسَهُ ... كما حَجَبَتْ وَرْدَ الخدود المحاجرُ

وقال عبد الملك لرجل: حدثنى، فقال: يا أمير المؤمنين افتتح، فإن الحديث يفتح بعضه بعضًا. وقال الهيثم بن صالح لابنه: يا بنى إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال: يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت - يعنى كلامًا وصوابًا - قال: يا بنى ما رأيت موعوظًا أحق بأن يكون واعظًا منك.

وقال الشعبى: كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة، فأقول: أجزها أصلحك اللّه، فإن الحديث من وراء ذلك. فيقول: واللّه لحديثك أحب إلىَّ منها. وقال ابن عيينة: الصمت منام العلم، والنطق يقظته ولا منام إلا بتيقظ، ولا يقظة إلا بمنام. قال ابن المبارك:

وهذا اللسانُ بريدُ الفؤاد ... يدلُّ الرجالَ على عقله

ومر رجل بأبى بكر الصديق رضى اللّه تعالى عنه ومعه ثوب، فقال له أبو بكر رضى اللّه عنه: أتبيعه؟ فقال: لا رحمك اللّه، فقال أبو بكر: لو تستقيمون لقومت ألسنتكم هلاَّ قلت: لا ورحمك اللّه. ومنه ما حكى أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء فقال: لا، وأيد اللّه أمير المؤمنين. فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها. وكان الصاحب يقول: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ. ويقال اللسان: سبع صغير الجرم. وقال بعضهم شعرًا:

سُبحان[1] يقصرُ عن بحور بيانِهِ ... عجزًا ويغرقُ منه تحت عبابِ

وكذاك قس[2] ناطقٌ بعكاظه ... يعيا لديه بحجَّةٍ وجوابِ

وقيل: إنه حج مع ابن المنكدر شابان فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالا: قد أبرقنا، وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يفطن، فرأيا قبة فيها امرأة، فقالا: بارقة. وكانت قبيحة، فقال ابن المنكدر: بل صاعقة.

وكان أصحاب أبى على الثقفى إذا رأوا امرأة جميلة يقولون: حُجة[3] ، فعرضت لهم قبيحة، فقالوا: داحضة[4] . وكتب إبراهيم بن المهدى: إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعًا فى نيل البلاغة؛ فإن ذلك العناء الأكبر، وعليك بما سهل من تجنبك الألفاظ السفلى. ويقال: القول على حسب همة القائل يقع، والسيف بقدر عضد الضارب يقطع.

وقال الأحنف: سمعت كلام أبى بكر حتى مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان حتى مضى، وكلام على حتى مضى رضى اللّه تعالى عنهم. لا واللّه ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة.

---

(١) سبحان وائل: رجل ضرب به المثل فى الفصاحة.

(٢) قس بن ساعدة: من أشهر خطباء عكاظ.

(٣) حُجة: الآية والبرهان.

(٤) داحضة: نقيض الحجة أو الباطلة منها، وهاتان من ألفاظ أهل الكلام كما ترى.

وقال معاوية رضى الله تعالى عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة رضى الله تعالى عنها، ما أغلقت بابًا فأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت بابًا فأرادت إغلاقه إلا أغلقته.

ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الرمز وهو من الذكاء والفصاحة، ما حكى أن رجلاً كان أسيرًا فى بنى بكر بن وائل، وعزموا على غزو قومه، فسألهم فى رسول يرسله إلى قومه، فقالوا: لا ترسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم، فجاؤا بعبد أسود فقال له: أتعقل ما أقوله لك؟ قال: نعم إنى لعاقل، فأشار بيده إلى الليل فقال: ما هذا؟ قال: الليل. قال: ما أراك إلا عاقلاً. ثم ملأ كفيه من الرمل، وقال: كم هذا؟ قال: لا أدرى، وإنه لكثير. فقال: أيما أكثر النجوم أم النيران؟ قال: كلٌّ كثير. فقال: أبلغ قومى التحية، وقل لهم: يكرموا فلانًا - يعنى أسيرًا كان فى أيديهم من بنى بكر بن وائل - فإن قومه لى مكرمون، وقل لهم: إن العرفج قد دنا، وشكت النساء، وأمرهم أن يعرّوا ناقتى الحمراء، فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملى الأصهب، بأمارة ما أكلت معكم حيسًا[1]، واسألوا عن خبرى أخى الحارث. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جن الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء، ولا جملاً أصهب. ثم دعوا بأخيه الحارث فقصوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم؛ أما قوله قد دنا العرفج، يريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح، وأما قوله شكت النساء، أى أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله: أعروا ناقتى الحمراء، أى: ارتحلوا عن الدهناء[2]، واركبوا الجمل الأصهب، أى: الجبل، وأما قوله: أكلت معكم حيسًا، أى: إن أخلاطًا من الناس قد عزموا على غزوكم؛ لأن الحيس يجمع التمر والسمن والإقط، فامتثلوا لأمره، وعرفوا لحن الكلام، وعملوا به فنجوا.

وأسرت طيِّئ غلامًا من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشتطوا[3] عليه، فقال أبوه: والذى جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيِّئ ما عندى غير ما بذلته، ثم انصرف، وقال: لقد أعطيته كلامًا إن كان فيه خير فهمه. فكأنه قال له: الزم الفرقدين، يعنى فى هروبك على جبل طيِّئ، ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجا.

وكانت عليَّة بنت المهدى تهوى غلامًا خادمًا اسمه طلّ، فحلف الرشيد أن لا تكلمه، ولا تذكره فى شعرها، فاطّلع الرشيد يومًا عليها، وهى تقرأ فى آخر سورة البقرة: ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾[4] فالذى نهى عنه أمير المؤمنين. ومن ذلك قولهم: تركت فلانا يأمر وينهى وهو على شرف الموت، أى: يأمر بالوصية، وينهى عن النوح.

ويقال: ما رأيت فلانًا أى: ما ضربته فى رئته، ولا كلمته أى: ما جرحته، فإن الكلوم الجراح، وما رأيت ربيعًا، فالربيع حظ الأرض من الماء، والربيع النهر، وما رأيت كافرًا ولا فاسقًا فالكافر السحاب، والفاسق الذى تجرد من ثيابه، وما رأيت فلانًا راكعًا ولا ساجدًا ولا مصليًا، فالراكع العاثر الذى كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلى الذى يجئ بعد السابق، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجًا، فالدجاجة الكبة من الغزل، والفروجة الدراعة، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورًا، فالبقرة العيال الكثيرة، يقال: جاء فلان يسوق بقره أى: عياله، والثور القطعة الكبيرة من الإقط[5].

وحكى أن معاوية رضى الله عنه بينما هو جالس فى بعض مجالسه وعنده وجوه الناس، فيهم الأحنف بن قيس، إذ دخل رجل أهل الشام فقام خطيبًا، وكان آخر كلامه أن لعن عليًّا رضى الله تعالى عنه ولعن لاعنه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين، إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله يا أمير المؤمنين

---

(١) الحيس: من الحواسة: الأخلاط من الناس، وتأتى لأخلاط من الطعام.
(٢) الدهناء: الأرض المنبسطة.
(٣) اشتطوا: غالوا واصعبوا.
(٤) سورة البقرة: ٢٦٥.
(٥) هذه ضروب من التوريات التى أوردها ابن دريد فى كتابه «الملاحن» ويقصد بها إلى اليمين غير الحانثة.

وَدَعْ عنك عليًا رضى اللّه تعالى عنه، فلقد لقى ربه، وأفرد فى قبره، وخلا بعمله، وكان واللّه المبرور سيفه، الطاهر ثوبه، العظيمة مصيبته. فقال معاوية: يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وأيم اللّه لتصعدَنَّ على المنبر فتلعنه طوعًا أو كرهًا، فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعفنى فهو خير لك، وإن تجبرنى على ذلك فواللّه لا تجرى شفتاى به أبدًا، فقال: قم فاصعد. قال: أما واللّه لأنصفنك فى القول والفعل. قال: وما أنت قائل إن انصفتنى؟ قال: أصعد المنبر فأحمد اللّه وأثنى عليه ، وأصلى على نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ثم أقول: يا أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن عليًا ألا وإن معاوية وعليًا اقتتلا فاختلفا فادَّعى كلٌّ واحد منهما أنه مبغىّ عليه، وعلى فئته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم اللّه، ثم أقول: اللّهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللّهم العنهم لعنًا كثيرًا، أمنّوا[١] رحمكم اللّه. يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفا ولو كان فيه ذهاب روحى، فقال معاوية: إذًا نعفيك يا أبا بحر.

وقال معاوية لعقيل بن أبى طالب: إن عليًا قد قطعك، وأنا وصلتك، ولا يرضينى منك إلا أن تلعنه على المنبر، قال: أفعل. فصعد المنبر، ثم قال بعد أن حمد اللّه واثنى عليه وصلى على نبيه صلى اللّه عليه وسلم: أيها الناس! إن معاوية بن أبى سفيان قد أمرنى أن ألعن على بن أبى طالب فالعنوه فعليه لعنة اللّه. ثم نزل، فقال له معاوية: إنك لم تبين من لعنت منهما بينه، فقال: واللّه لا زدت حرفًا ولا نقصت حرفًا، والكلام إلى نية المتكلم.

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقال: يا أمير المؤمنين أقر اللّه عينك، وفرحك بما أتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت. فقال لها: مَنْ تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك ممن قلّت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم، فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر اللّه، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك. ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلا خيرًا. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها: أقر اللّه عينك أى: أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرحك بما أتاك فأخذته من قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾[٢] ، وأما قولها: وأتم اللّه سعدك فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمَّ أمرٌ بَدَا نَقْصُهُ تَرَقَّبْ زوالاً إذا قِيلَ تَمّ

وأما قولها: لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[٣] ، فتعجبوا من ذلك.

وحكى أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى فقال له: أطال اللّه بقاءك، وأقر عينك، وجعل يومى قبل يومك، واللّه إنه ليسرنى ما يسرك، فأحسن إليه، وأجازه على دعائه، وأمر له بصلة، وكان ذلك دعاء عليه؛ لأن معنى قوله: أطال اللّه بقاءك، حصول منفعة المسلمين به فى أداء الجزية؛ وأما قوله: وأقر عينك فمعناه سكن اللّه حركتها، أى: أعماها، وأما قوله: وجعل يومى قبل يومك، أى جعل اللّه يومى الذى أدخل فيه الجنة، قبل يومك الذى تدخل فيه النار؛ وأما قوله: إنه ليسرنى ما يسرك، فإن العافية تسرُّه كما تسرُّه الآخرة. فانظر إلى الاشتراك وفائدته. ولولا الاشتراك ما تهيأ لمتستر مراد، ولا سلم له فى التخلص قياد.

---

(١) أمنّوا: قولوا آمين.

(٢) سورة الأنعام: ٤٤.

(٣) سورة الجن: ١٥.

وكان حماد الراوية لا يقرأ القرآن، فكلفه بعض الخلفاء القراءة فى المصحف، فصحَّف فى نيف وعشرين موضعًا من جملتها قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[1] ، بالغين المعجمة والسين المهملة، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾[2] بالباء الموحدة، ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[3] بالباء الموحدة، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ﴾[4] بالجيم والباء الموحدة، ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾[5] بالزاى وترك الهمزة، ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾[6] بالسين المهملة، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ﴾[7] بالنون والعين المهملة، ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي﴾[8] بإسقاط التاء، ﴿بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[9] بالغين المعجمة، والراء المهملة، قرن الشقاق بالغرة وهذا لا يقع إلا من الأذكياء.

وحكى أن المأمون ولّى عاملاً على بلاد، وكان يعرف منه الجور فى حكمه، فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولته ليمتحنه، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم فى تجارة لنفسه، و لم يعلمه أن أمير المؤمنين، عنده علم منه. فأكرم نزله، وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتابًا إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة.

فكتب كتابًا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين، أما بعد: فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذًا بالعزم، عاملاً بالحزم، قد عدل بين رعيته، وساوى فى أقضيته، أغنى القاصد، وأرضى الوارد، وأنزلهم منه منازل الأولاد، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد، وعمر منهم المساجد الداثرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين، يريدون النظر إلى وجهه ، والسلام.

فكان معنى قوله: آخذًا بالعزم أى: إذا عزم على ظلم أو جور فعله فى الحال، وقوله: قد عدل بين رعيته وساوى فى أقضيته، أى أخذ كل ما معهم، حتى ساوى بين الغنى والفقير، وقوله: عمر منهم المساجد الداثرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، يعنى أن الكل صاروا فقراء، لا يملكون شيئًا من الدنيا، ومعنى قوله: يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين، أى ليشكوا حالهم وما نزل بهم، فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته وولّى عليهم غيره.

ومن ذلك ما حكى: أن القاضى الفاضل كان له صديق خصيص به، وكان صديقه هذا قريبًا من الملك الناصر صلاح الدين، وكان فيه فضيلة تامة، فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه وهَمَّ بقتله، فتسحَّب إلى بلاد التتر، وتوصَّل إلى أن صار وزيرًا عندهم، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه، فلما بلغه ذلك نفر منه، وقال للفاضل: اكتب إليه كتابًا عَرِّفْهُ فيه انني أرضى عليه، واستعطفه غاية الاستعطاف، إلى أن يحضر فإذا حضر قتلته، واسترحت منه. فتحير الفاضل بين الاثنين، صديقه يعزُّ عليه، والملك لا يمكنه مخالفته، فكتب إليه كتابًا، واستعطفه غاية الاستعطاف، ووعده بكل خير من الملك، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبى صلى اللّه عليه وسلم، وكتب إن شاء اللّه تعالى كما جرت به العادة فى الكتب، فشدَّد «إنَّ»، ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه فى غاية الكمال، وما فهم إن، وكان قصد الفاضل: ﴿إِنَّ

(١) سورة النحل:٦٨.
(٢) سورة التوبة:١١٤.
(٣) سورة القصص:٨.
(٤) سورة لقمان:٣٢.
(٥) سورة مريم:٧٤.
(٦) سورة الأعراف:١٥٦.
(٧) سورة البقرة:١٣٨.
(٨) سورة القصص:٥٥.
(٩) سورة ص:٢.

﴿الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[1]، فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً، فلما أراد أن ينهى الكتاب، ويكتب إن شاء اللّه تعالى مد النون، وجعل فى آخرها ألفًا، وأراد بذلك: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾[2]، فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك.

وحكى: أن بعض الملوك طلع يومًا إلى أعلى قصره يتفرج فلاحت منه التفاتة فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراؤون أحسنَ منها، فالتفت إلى بعض جواريه فقال لها: لمن هذه؟ فقالت: يا مولاى هذه زوجة غلامك فيروز، قال: فنزل الملك، وقد خامره حبها، وشغف بها فاستدعى بفيروز وقال له: يا فيروز، قال: لبيك يا مولاى، قال: خذ هذا الكتاب، وامض به إلى البلاد الفلانية، وائتنى بالجواب.

فأخذ فيروز الكتاب، وتوجَّه إلى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه، وجهز أمره، وبات ليلته، فلما أصبح ودَّع أهله، وسار طالبًا لحاجة الملك، و لم يعلم بما قد دبره الملك.

وأما الملك فإنه لما توجه فيروز، قام مسرعًا وتوجه مختفيًا إلى دار فيروز فقرع الباب قرعًا خفيفًا، فقالت امرأة فيروز: مَنْ بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت له فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا. فقال: زائرًا. فقالت: أعوذ باللّه من هذه الزيارة، وما أظن فيها خيرًا، فقال لها: ويحك إننى أنا الملك سيد زوجك، وما أظنك عرفتنى، فقالت: بل عرفتك يا مولاى، ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل فى قولهم:

سَأترك مَاءَكَم مِن غَيرِ وِرْدٍ ... وذَاكَ لكَثرةِ الوُرَّاد فِيهِ
إذا سَقَطَ الذُبَابُ على طَعَامٍ ... رفَعْتُ يدِى ونفسِى تشتَهِيهِ
وتَجْتَنِبُ الأُسُودُ ورُودَ مَاءٍ ... إذا كَانَ الكِلاَبُ وَلَغْنَ فِيهِ
وَيَرتجِعِ الكَرِيُم خَمِيصَ بَطْنٍ ... ولا يَرْضَى مُسَاهَمَةَ السَّفِيهِ

وما أحسن يا مولاى قول الشاعر:

قُلْ للَّذى شَفَّهُ الغَرامُ بِنا ... وصَاحِبُ الغَدْرِ غَيرُ مَصْحُوبِ
واللّهِ لا قَالَ قَائِل أبَدًا ... قَد أَكَل الليثُ فَضْلَةَ الذِيبِ

ثم قالت: أيها الملك تأتى إلى موضع شُرْبِ كلبك تشرب منه. قال: فاستحيا الملك من كلامها، وخرج وتركها، فنسى نعله فى الدار. هذا ما كان من الملك.

وأما ما كان من فيروز فإنه لما خرج وسار تفقَّد الكتاب فلم يجده معه فى رأسه فتذكَّر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره، فوجد نعل الملك فى الدار فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله فى هذه السفرة إلا لأمر يفعله، فسكت و لم يبد كلامًا، وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك فقضاها ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار. فمضى فيروز إلى السوق واشترى ما يليق بالنساء، وهيأ هدية حسنة، وأتى إلى زوجته فسلم عليها، وقال لها: قومى إلى زيارة بيت أبيك، قالت: وما ذاك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهرى لأهلك ذلك. قالت: حبًّا وكرامة. ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها مدة شهرة فلم يذكرها زوجها، ولا ألَمَّ بها ، فأتى إليه أخوها وقال له: يا فيروز، إمّا أن تخبرنا بسبب غضبك، وإمّا أن تحاكمنا إلى الملك، فقال: إن شئتم الحكم فافعلوا، فما تركت لها علىّ حقًا،

(١) سورة القصص: ٢٠.
(٢) سورة المائدة: ٢٤.

فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم، وكان القاضى إذا ذاك عند الملك جالسًا إلى جانبه، فقال أخو الصبية: أيد اللّه مولانا قاضى القضاة إنى أجرت هذا الغلام بستانًا، سالم الحيطان، ببئر ماء مَعِين عامرة، وأشجار مثمرة، فأكل ثمره، وهدم حيطانه، وأخرب بئره. فالتفت القاضى إلى فيروز، وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضى قد تسلمت هذا البستان، وسلمته إليه أحسن ما كان. فقال القاضى: هل سلم إليك البستان كما كان، قال: نعم. ولكن أريد منه السبب لرده، قال القاضى: ما قولك؟ قال: واللّه يا مولاى ما رددت البستان كراهة فيه، وإنما جئت يومًا من الأيام، فوجدت فيه أثر الأسد، فخفت أن يغتالنى، فحرمت دخول البستان إكرامًا للأسد.

قال: وكان الملك متكئًا فاستوى جالسًا وقال: يا فيروز ارجع إلى بستانك آمنًا مطمئنًا، فواللّه إن الأسد دخل البستان، ولم يؤثر فيه أثرًا، ولا التمس منه ورقًا، ولا ثمرًا، ولا شيئًا، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس، واللّه ما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازًا من حيطانه على شجره.

قال: فرجع فيروز إلى داره وردَّ زوجته ولم يعلم القاضى ولا غيره بشئ من ذلك. واللّه أعلم.

وهذا كله مما يأتى به الإنسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز، ومنه ما يجده المتستر فى أمره من الراحة فى كتمان حاله مع لزوم الصدق، ورضا الخصم بما وافق مراده؛ لأن فى المعاريض مندوحة عن الكذب. كما روى فى غزوة بدر أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سائرًا بأصحابه يقصد بدرًا فلقيهم رجل من العرب فقال: ممن القوم؟ فقال له النبى صلى اللّه عليه وسلم :«من ماء»، فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول: من ماء، من ماء، يرددها لينظر أى العرب يقال لهم: ماء، فسار النبى صلى اللّه عليه وسلم بأصحابه وكان قصده أن يكتم أمره. وقد صدق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى قوله فإن اللّه عَزَّ وجلَّ قال: ﴿فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾[1]، وكما روى عن أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه قال للكافر الذى سأله عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقت ذهابهما إلى الغار: وهو رجل يهدينى السبيل، وقد صدق فيما قال رضى اللّه عنه، فقد هداه وهدانا السبيل، ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام.

وكما حكى عن الإمام الشافعى رضى اللّه عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد: ما تقول فى القرآن فقال الشافعى: إياى تعنى، قال: نعم، قال: مخلوق، فرضى خصمه منه بذلك، ولم يرد الشافعى إلا نفسه، وكما حكى عن ابن الجوزى رحمه اللّه تعالى أنه سئل وهو على المنبر، وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته وهم فريقان قوم سنية، وقوم شيعة، فقيل له: من أفضل الخَلْق بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أبو بكر، أم على رضى اللّه عنهما؟ فقال: أفضلهما بعد مَنْ كانت ابنته تحته فأرضى الفريقين، ولم يرد إلا أبا بكر رضى اللّه عنه؛ لأن الضمير فى ابنته يعود إلى أبى بكر رضى اللّه عنه، وهى عائشة رضى اللّه عنها، وكانت تحت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، والشيعة ظنوا أن الضمير فى ابنته يعود إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وهى فاطمة رضى اللّه عنها، وكانت تحت على رضى اللّه عنه، فهذه منه لفتة جيدة حسنة وكلمة باتت جفون الفريقين منها وسنة. واللّه أعلم.

الفصل الثالث فى ذكر الفصحاء من الرجال

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم فزجره وقال: يا صبى تتكلم فى هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت صبيًا، فلستُ بأصغر من هدهد سليمان، ولا أنت

---

(١) سورة الطارق: ٥، ٦.

بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾[1]، ثم قال: ألم تر أن اللّه فهّم الحكم سليمان، ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى.

ولما أفضَتِ الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز فنظر إلى صبى صغير السن، وقد أراد أن يتكلم فقال: ليتكلم من هو أسن منك، فإنه أحق بالكلام منك. فقال الصبى: يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان فى مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت فتكلم. فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا عليك من بلد نحمد اللّه الذى مَنّ علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا، ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة فقد أمنا بك فى منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمنا جورك بعدلك. فنحن وفد الشكر والسلام. فقال له عمر رضى اللّه عنه: عظنى يا غلام، فقال: يا أمير المؤمنين إن أناسًا غرهم حلم اللّه، وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يغره حلم اللّه وثناه الناس عليه فتزل قدمك، وتكون من الذين قال اللّه فيهم: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾[2]، فنظر عمر فى سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة فأنشدهم عمر رضى اللّه تعالى عنه:

تعلّم فليس المرءُ يولد عالمًا ... وليس أخو علمٍ كمَنْ هو جاهِلُ
فإن كبيرَ القَوْمِ لا عِلْمَ عنده ... صغيرٌ إذا التفَتْ عليه المَحَافِلُ

وحكى أن البادية قحطت فى أيام هشام فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة وعليه شملتان فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل علىَّ إلاَّ دخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقًا، فقال: يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرًا وطيًّا، وإنه لا يعرف ما فى طيه إلا بنشره فإن أذن لى أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه وقال له: انشره للّه درك. فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث: سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفى أيديكم فضول مال، فإن كانت للّه ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن اللّه يجزى المتصدقين.

فقال هشام: ما ترك الغلام لنا فى واحدة من الثلاث عذرًا، فأمر للبوادى بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال هل: ألك حاجة؟ قال: ما لى حاجة فى خاصة نفسى دون عامة المسلمين فخرج من عنده وهو من أجلِّ القوم.

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدى لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره[3]، فبعث إليه يقول: إن لك عندى ألف ناقة على أنك تدخل فى طاعتى، فوفد عليه وكان صغير الجثة فاقتحمته عينه وتنقصه فقال: مهلاً أيها الملك، إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم، وإنما المرء بأصغريه: قلبه، ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صالح بجنان، ثم أنشأ يقول:

يَا أيها الملكُ المرجُوٌّ نائلَهُ ... إنّى لمن معشرٍ شُمٍّ الذرى زُهُرِ
فلا تغرنك الأجسام إن لنا ... أحلامَ عادٍ وإن كنا إلى قِصَرِ
فكَمْ طويلٍ إذا أبصَرْتَ جثتَه ... تقول هذا غداة الروع ذو ظفرِ
فإن ألَمّ بِه أمْرٌ فأفظعَه ... رأيته خاذلاً للأهلِ والزمرِ

(١) سورة النمل: ٢٢.
(٢) سورة الأنفال: ٢١.
(٣) عيل صبره: نفد وانتهى.

فقال: صدقت فهل لك علم بالأمور؟ قال: إنى لأنقض منها المفتول، وأبرم منها المحلول، وأجيلها حتى تحول، ثم أنظر فيها إلى ما تؤول، وليس للدهر بصاحب، من لا ينظر فى العواقب. قال: فتعجب النعمان من فصاحته وعقله، ثم أمر له بألف ناقة، وقال له: يا سعد إن أقمت واسيناك، وإن رحَلْتَ وصلناك، فقال: قرب الملك أحبُّ إلىّ من الدنيا وما فيها. فأنعم عليه وأدناه، وجعله من أخص ندمائه.

وحكى أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبى سفيان رضى اللّه عنه يسأله عن الشىء، ولا شىء، وعن دين لا يقبل اللّه غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنة، وعن صلاة كل شىء، وعن أربعة فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أم له، وعن قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظاعن ظعن مرة واحدة، ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شىء تنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس، وغد وبعد غد، وعن البرق والرعد وصوته، وعن المحو الذى فى القمر.

فقيل لمعاوية: لست هناك، ومتى أخطأت فى شىء من ذلك سقطت من عينه، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل، فكتب إليه فأجابه:

أما الشىء فالماء، قال اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1]، وأما لا شىء فإنها الدنيا، تبيد وتفنى، وأما دين لا يقبل اللّه غيره فلا إله إلا اللّه، وأمَّا مفتاح الصلاة، فاللّه أكبر، وأما غرس الجنة، فلا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم، وأما صلاة كل شىء، فسبحان اللّه وبحمده، وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، فآدم، وحواء، وناقة صالح، وكبش إسماعيل، وأما الرجل الذى لا أب له فالمسيح، وأما الرجل الذى لا أم له فآدم عليه السلام. وأما القبر الذى جرى بصاحبه فحوت يونس عليه السلام سار به فى البحر، وأما قوس قزح فأمان من اللّه لعباده من الغرق. وأما البقعة التى طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فبطن البحر حين انفلق لبنى إسرائيل، وأما الظاعن الذى ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، فجبل طور سيناء كان وبينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره اللّه تعالى بجناحين، فنادى مناد: إن قبلتم التوراة كشفته عنكم، وإلا ألقيته عليكم، فأخذوا التوراة معذرين، فرده اللّه تعالى إلى موضعه فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾[2]، وأما الشجرة التى نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التى أنبتها اللّه تعالى على يونس عليه السلام، وأما الشئ الذى تنفس بلا روح فالصبح قال اللّه تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[3]، وأما اليوم فعمل، وأمس فمثل، وغد فأجل، وبعد غد فأمل، وأما البرق فمخاريق بأيدى الملائكة تضرب بها السحاب، وأما الرعد فاسم الملك الذى يسوق السحاب وصوته زجره، وأما المحو الذى فى القمر فقول اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[4] ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل.

ودعا بعض البلغاء لصديق له فقال: تمم اللّه عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

وحكى أن الحجاج سأل يومًا الغضبان بن القبعثرى عن مسائل يمتحنه فيها، من جملتها أن قال له: من أكرم الناس؟ قال: أفقههم فى الدين، وأصدقهم لليمين، وأبذلهم للمسلمين، وأكرمهم للمهانين، وأطعمهم للمساكين، قال: فمن ألأم الناس؟ قال: المعطى على الهوان، المقتر على الإخوان، الكثير الألوان. قال: فمن شر الناس؟ قال:

---

(١) سورة الأنبياء: ٣٠.
(٢) سورة الأعراف: ١٧١.
(٣) سورة التكوير: ١٨.
(٤) سورة الإسراء: ١٢.

أطولهم جفوة، وأدومهم صبوة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قسوة. قال: فمن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف، وأقراهم للضيف، وأتركهم للحيف. قال: فمن أجبن الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف، المنقبض عن الزحوف، المرتعش عند الوقوف، المحب ظلال السقوف، الكاره لضرب السيوف. قال: فمن أثقل الناس؟ قال: المتفنن فى الملام، الضنين[1] بالسلام، المهذار[2] فى الكلام، المقبقب[3] على الطعام، قال: فمن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحسانًا، وأقومهم ميزابًا[4] ، وأدومهم غفرانًا، وأوسعهم ميدانًا.

قال: للّه أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب، أحسيب هو، أم غير حسيب؟ قال: أصلح اللّه الأمير، إن الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله، وعزة نفسه، وكثرة احتماله وبشاشته، وحسن مداراته على أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله، والنذل الجاهل يجهله، فمَثَلُهُ كمَثَلَ الدرَّة، إذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهى عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة.

فقال الحجاج: للّه أبوك فما العاقل والجاهل؟ قال: أصلح اللّه الأمير، العاقل الذى لا يتكلم هذرًا، ولا ينظر شزرًا، ولا يضمر غدرًا، ولا يطلب عذرًا، والجاهل هو المهذار فى كلامه، المنّان بطعامه، الضنين بسلامه، المتطاول على إمامه، الفاحش على غلامه.

قال: للّه أبوك فما الحازم الكيس؟ قال: المقبل على شأنه التارك لما لا يعنيه، قال: فما العاجز؟ قال: المعجب بآرائه، الملتفت إلى ورائه.

قال: هل عندك من النساء خبر؟ قال: أصلح اللّه الأمر إنى بشأنهن خبير، إن شاء اللّه تعالى: إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع، إن عدلتها انكسرت، ولهن جوهر لا يصلح إلا على المدارة، فمن داراهن انتفع بهن، وقرَّت عينه، ومن شاورهن كدرن عيشه،وتكدرت عليه حياته، وتنغصت لذاته، فأكرمهن أعفهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا زلن عنها، فهن أنتن من الجيفة.

فقال له الحجاج: يا غضبان إنى موجهك إلى ابن الأشعث وافدًا فماذا أنت قائل له؟ قال: أصلح اللّه الأمير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه. فقال: إنى أظنك لا تقول له ما قلت، وكأنى بصوت جلاجلك تجلجل فى قصرى هذا، قال: كلا أصلح اللّه الأمير سأحدد له لسانى، وأجريه فى ميدانى.

قال: فعند ذلك أمره بالمسير إلى كِرْمان. فما توجه إلى ابن الأشعث - وهو على كرمان - بعث الحجاج عينًا عليه - أى جاسوسًا - وكان يفعل ذلك مع جميع رسله.

فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث، قال له: إن الحجاج قد هَمَّ بخلعك، وعزلك فخذ حذرك، وتغدَّى به، قبل أن يتعشى بك، فأخذ حذره عند ذلك، ثم أمر للغضبان بجائزة سنية، وخلع فاخرة، فأخذها، وانصرف راجعًا فأتى إلى رملة كِرْمان فى شدة الحر والقيظ، وهى رملة شديدة الرمضاء، فضرب قبته فيها، وحط عن رواحله، فبينما هو كذلك إذا بأعرابى من بنى بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصدًا نحوه وقد اشتد الحر، وحميت الغزالة وقت الظهيرة، وقد ظمئ ظمأ شديدًا، فقال: السلام عليك ورحمة اللّه وبركاته، فقال الغضبان: هذه سنة، وردها فريضة قد فاز قائلها، وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابى؟ قال: أصابتنى الرمضاء، وشدة الحر والظمأ، فتيممت بقبتك أرجو بركتها. قال الغضبان: فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم، قال: أيتهن تعنى؟ قال: قبة الأمير ابن الأشعث، قال: تلك لا يوصل إليها، قال: إن هذه أمنع منها، فقال الأعرابى: ما سامك يا عبد اللّه؟ قال: آخذ. فقال: وما تعطى. قال: أكره أن يكون لى اسمان، قال: باللّه من أين أنت؟ قال: من الأرض، قال:

---

(١) الضنين: البخيل.
(٢) المهذار: كثير الكلام فى غير نفع.
(٣) المقبقب على الطعام: الذى يجتمع فوق الطعام بكليته.
(٤) الميزاب: قناة للماء والأولى أن تكون: ميزان بالنون.

فأين تريد؟ قال: أمشى فى مناكبها. فقال الأعرابى وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر: أتقرض الشعر؟ قال: إنما يقرض الفأر. فقال: أفتسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة. فقال يا هذا إئذن لى أن أدخل قبتك. قال: خلفك أوسع لك. فقال: قد أحرقنى حر الشمس. قال: ما لى عليها من سلطان. فقال الرمضاء أحرقت قدمى. قال: بل عليها تبرد. فقال: إنى لا أريد طعامك ولا شرابك. قال: لا تتعرض لما لا تصل إليه ولو تلفت روحك. فقال الأعرابى: سبحان اللّه. قال: نعم من قبل أن تطلع أضراسك. فقال الأعرابى: ما عندك غير هذا؟ فقال: بلى هراوة أضرب بها رأسك. فاستغاث الأعرابى: يا جار بنى كعب. قال الغضبان: بئس الشيخ أنت فواللّه ما ظلمك أحد فتستغيث. فقال الأعرابى: ما رأيت رجلاً أقسى منك، أتيتك مستغيثًا فحجبتنى وطردتنى هلاّ أدخلتنى قبتك وطارحتنى القريض. قال: ما لى بمحادثتك من حاجة. فقال الأعرابى: باللّه ما اسمك؟ ومن أنت؟ فقال: أنا الغضبان بن القبعثرى. فقال: اسمان منكران خُلِقا من غضب. قال: قف متوكئًا على باب قبتى برجلك هذه العوجاء. فقال: قطعها اللّه إن لم تكن خيرًا من رجلك هذه الشنعاء. قال الغضبان: لو كنت حاكمًا لجرت فى حكومتك لأن رجلى فى الظل قاعدة، ورجلك فى الرمضاء قائمة. فقال الأعرابى: إنى لا أظنك حروريًا. قال: اللّهم إجعلنى ممن يتحرى الخير ويريده. فقال: إنى لأظن عنصرك فاسدًا. قال: ما أقدرنى على إصلاحه. فقال الأعرابى: لا أرضاك اللّه ولا حياك. ثم ولى وهو يقول:

لا بَاركَ اللّهُ فى قَومٍ تسودهم ... إنى أظنك -والرحمنِ- شيطانا
أتيتُ قُبَّتهُ أرجو ضيافَتهُ ... فأظهرَ الشيخَ ذو القرنين حرمانا

فلما قدم الغضبان على الحجاج، وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابى، قال له الحجاج: يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان؟ أصلح اللّه الأمير أرض يابسة الجيش بها ضعاف هزلاء إن كثروا جاعوا، وإن قلوا ضاعوا. فقال له الحجاج: ألست صاحب الكلمة التى بلغتنى أنك قلت لابن الأشعث: تَغَدَّ بالحجاج قبل أن يتعشَّى بك، فواللّه لاحبسَنَّك عن الوساد ولأنزلنَّك عن الجياد، ولأشهرنَّك فى البلاد. قال: الأمان أيها الأمير فواللّه ما ضرَّت من قيلت فيه، ولا نفعتْ من قيلت له. فقال له: ألم أقل كأنى بصوت جلاجلك تجلجل فى قصرى هذا، اذهبوا به إلى السجن. فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ما شاء اللّه. ثم إن الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فأعجب بها، فقال لمن حوله: كيف ترون قبتى هذه وبناءها؟ فقالوا: أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة نضرة بهجة، قليل عيبها كثير خيرها. قال: لِمَ لَمْ تخبرونى بنصح؟ قالوا: لا يصفها لك إلا الغضبان. فبعث إلى الغضبان فأحضره، وقال له: كيف ترى قبتى هذه وبناءها؟ قال: أصلح اللّه الأمير بنيتها فى غير بلدك، لا لك ولا لولدك، لا تدوم لك، ولا يسكنها وارثك، ولا تبقى لك، وما أنت لها باق. فقال الحجاج: قد صفق الغضبان ردوه إلى السجن، فلما حملوه قال: ﴿**سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**﴾[1] . فقال: أنزلوه. قال: ﴿**رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ**﴾[2] . قال: اضربوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض، قال: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾[3] . فقال: جروه، فأقبلوا يجرونه وهو يقول: ﴿**بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[4] فقال الحجاج: ويلكم اتركوه فقد غلبنى دهاء وخبثًا، ثم عفا عنه، وأنعم عليه، وخلى سبيله.

وحدث الزبير قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون وقد كانت ضياعهم أُخذت. فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، محمد بن عبد الملك بين يديك، سليل نعمتك، وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن

---

(١) سورة الزخرف:١٣.
(٢) سورة المؤمنون:٢٩.
(٣) سورة طه:٥٥.
(٤) سورة هود:٤١.

له فى الكلام؟ فقال: تكلم. فقال: الحمد للّه رب العالمين، ولا إله إلا اللّه رب العرش العظيم، وصلى اللّه والملائكة على محمد خاتم النبيين، ونستمتع اللّه لحياطة ديننا ودنيانا، ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل اللّه أن يمد فى عمرك من أعمارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، فإن الحق لا تعفو آثاره، ولا ينهدم مناره، ولا ينبت حبله ولا يزول ما دمت بين اللّه وبين عباده والأمين على بلاده.

يا أمير المؤمنين، هذا المقام مقام العائذ بظلك، الهارب إلى كنفك، الفقير إلى رحمتك وعدلك، من تعاود النوائب، وسهام المصائب، وتقلب الدهر، وذهاب النعمة، وفى نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب، ويبرد غليل القلوب، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين فى الضياع التى أفاد منها نعم آبائه الطيبين، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين، وقد قمت مقامى هذا متوسلاً إليك بآبائك الطيبين، وبالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدى ناصر المسلمين، والمنصور من كل الظالمين، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين، مزدلفًا[1] إليك بالطاعة التى أفرغ عليها غُصنى واحتنكت[2] بها سنى، وريش بها جناحى متعوذًا من شماتة الأعداء وحلول البلاء ومقارفة الشدة بعد الرخاء.

يا أمير المؤمنين، قد مضى جدك المنصور، وعمك صالح بن على جدى وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، إن الدهر ذو اغتيال قد يقلب حالاً بعد حال، فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار والعجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدرًا بعد صفو، ومُرًّا بعد حلو، وهبنا نعم آبائك اللاتى غذتنا صغارًا، وكبارًا، وشبابًا، وأشياخًا، وأمشاجًا[3] فى الأصلاب، ونطفًا فى الأرحام، وقدمنا فى القرابة، حيث قدمنا اللّه فى الرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطتك، ووجوهنا قد عنت لطاعتك فأقلنا عثرتنا.

يا أمير المؤمنين، إن اللّه قد سهل بك الوعور، وجلا بك الدَّيْجُور[4]، وملأ من خوفك القلوب والصدور، بك يردع الفاسق، ويقمع بك المنافق، فاربط نعم اللّه عندك بالعفو والإحسان؛ فإن كل راع مسئول عن رعيته، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها.

يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر، وقد قال اللّه جل ثناؤه وتعالت قدرته: ﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[5]، أحاط اللّه أمير المؤمنين بستره الوافى، ومنعه الكافى، ثم أنشد يقول:

أميرَ المؤمنين أتاك ركبٌ ... لهم قُربى وليس لهم تِلادُ[6]
هم الصَّدرُ المقدَّم من قريشٍ ... وأنت الرأسُ تتبعك العِبَادُ
لقد طابَتْ بك الدُّنيا ولذَّتْ ... وأرجو أن يطيبَ بك المَعَادُ
فكيف تنالكم لحظاتُ عَيْنٍ ... وكيف يَقِلُّ سؤددك البِلاَدُ

قال: فاستحسن المأمون كلامه، وأمر له بالحلل الفاخرة، والجوائز السنية، وأمر برد ضياعه، وقرب منزلته وأدناه، ودفع إليه من المال ما أغناه.

---

(١) مزدلفًا: متقرباً.
(٢) احتنك: من الحِنكة والخبرة.
(٣) أمشاجًا: الأشياء المختلطة.
(٤) الدَّيجُور: الظلمة.
(٥) سورة النور: ٢٢.
(٦) التلاد: المال القديم الموروث.

ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء: ما حكى أن عبد الملك بنْ مروان جلس يومًا وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته فقال: أيكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه، وله علىّ ما يتمناه؟ فقام إليه سويد بن غفلة فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين، قال: هات. فقال: نعم يا أمير المؤمنين: أنف. بطن. ترقوة. ثغر. جمجمة. حلق. خد، دماغ. ذكر. رقبة. زند. ساق. شفة. صدر. ضلع. طحال. ظهر. عين. غبب. فم. قفا. كف. لسان. منخر. نغنوغ. هامة. وجه. يد. وهذه آخر حروف المعجم، والسلام على أمير المؤمنين.

فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين. فضحك عبد الملك وقال لسويد: أسمعت ما قال؟ قال: أصلح اللّه الأمير أنا أقولها ثلاثًا. فقال: هات ولك ما تتمناه.

فابتدأ يقول: أنف، أسنان، أذن. بطن، بنصر، بزة. ترقوة، تمرة، تينة. ثغر، ثنايا، ثدى. جمجمة، جنب، جبهة. حلق، حنك، حاجب. خد، خنصر، خاصرة. دبر، دماغ، درادير. ذقن، ذكر، ذراع. رقبة، رأس، ركبة. زند، زردمة، زب - فهنالك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه - سقاه، سرة، سبابة. شفة، شفر، شارب. صدر، صدغ، صلعة. ضلع، ضفيرة، ضرس. طحال، طرة، طرف. ظهر، ظفر، ظلم. عين، عنق، عاتق. غبب، غلصمة، غنة. فم، فك، فؤاد. قلب، قفا، قدم. كف، كنف، كعب. لسان، لحية، لوح. منخر، مرفق، منكب. نغنوغ، ناب، نن. هامة، هيئة، هيف. وجه، وجنة، ورك. يمين، يسار، يافوخ. ثم نهض مسرعًا فقبَّل الأرض بين يدى أمير المؤمنين، قال: فعندها ضحك عبد الملك وقال: واللّه ما تزيدنا عليها شيئًا أعطوه ما يتمناه، ثم أجاز وأنعم عليه، وبالغ فى الإحسان إليه.

وكان الحجاج بن يوسف الثقفى من الفصحاء وكان على عتوه[٢] وإسرافه جوادًا، وكان إذا ضحك واستغرق فى الضحك اتبع ذلك بالاستغفار مرات، وكان يطعم على ألف خوان[١]، وكان يطوف على الموائد، يقول: يا أهل الشام مزقوا الخبز لئلا يعود إليكم ثانيًا، وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال، وذلك فى كل يوم، وكان يقول: أرى الناس يتخلفون عن طعامى، فقيل له: إنهم يكروهون الحضور قبل أن يدعوا، فقال: قد جعلت رسولى إليهم كل يوم: الشمس إذا طلعت، وعند المساء إذا غربت.

وحكى عن عبد الملك بن عمير أنه قال: لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته، وأولى النجدة من جنده، وقال: أيها الناس إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، واملولح عذبها[٢]، وعظم خطبها، وظهر صرامها[٣]، وعسر إخماد نيرانها، فهل من ممهد لهم بسيف قاطع، وذهن جامع، وقلب ذكى، وأنف حمى، فيخمد نيرانها، ويردع غيلانها، وينصف مظلومها، ويدارى الجرح حتى يندمل، فتصفو البلاد، وتأمن العباد. فسكت القوم ولم يتكلم أحد.

فقام الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين أنا للعراق. قال: ومن أنت للّه أبوك؟ قال: أنا الليث الضمضام، والهزبر الهشام، أنا الحجاج بن يوسف، قال: ومن أين؟ قال: من ثقيف كهوف الضيوف، ومستعمل السيوف. قال: اجلس لا أم لك فلست هناك، ثم قال: مالى أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة؟ فلم يجبه أحد.

فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجندل الفساق، ومطفئ نار النفاق، قال: ومن أنت؟ قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف، معدن العفو والعقوبة، وآفة الكفر والريبة. قال: إليك عنى وذاك فلست هناك، ثم قال: مَنْ للعراق؟ فسكت القوم وقام الحجاج، وقال: أنا للعراق. فقال: إذن أظنك صاحبها، والظافر

---

(١) خوان: ما يوضع عليه الطعام، فارسى معرب.

(٢) املولح عذبها: تكدر وصار مالحًا.

(٣) الصِّرام: القطيعة.

بغنائمها، وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة، فما آيتك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والاقتدار والبسط والإزورار، والإدناء والإبعاد، والجفاء والبر، والتأهب والحزم، وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلنى قطعته، ومن نازعنى قصمته، ومن خالفنى نزعته، ومن دنا منى أكرمته، ومن طلب الأمان أعطيته، ومن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتى وعلامتى، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلونى، فإن كنت للأعناق قاطعًا، وللأموال جماعًا، وللأرواح نزاعًا، ولك فى الأشياء نفاعًا، وإلا فليستبدل بى أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن مَنْ يقوم بهذا الأمر قليل.

فقال عبد الملك: أنت لها فما الذى تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال. فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال: هيِّئ له من الجند شهوته، وألزمهم طاعته، وحذرهم مخالفته. ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك. فخرج الحجاج قاصدًا نحو العراق.

قال عبد الملك بن عمير: فبينما نحن فى المسجد الجامع بالكوفة، إذا أتانا آت، فقال: هذا الحجاج قدم أميرًا على العراق. فتطاولت الأعناق نحوه، وأفرجوا له عن صحن المسجد، فإذا نحن به يمشى وعليه عمامة حمراء، متلثمًا بها، ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف حتى غصَّ المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذٍ ذوو حالة حسنة، وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته، ومواليه وأتباعه عليهم الخز، والديباج. قال: وكان فى المسجد يومئذٍ عمير بن صابئ التميمى، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له: أسبه لكم؟ قال: أكفف حتى نسمع ما يقول، فأبى ابن صابئ، وقال: لعن اللّه بنى أمية حيث يولون، ويستعملون مثل هذا على العراق، وضيع اللّه العراق حيث يكون هذا أميرها. فواللّه لو دام هذا أميرًا كما هو ما كان بشيء. والحجاج ساكت ينظر يمينًا وشمالاً. فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئًا، فقال: إنى لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم؟ فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح اللّه الأمير.

فكشف عن لثامه ونهض قائمًا، فكان أولى شئ نطق به أن قال: واللّه إنى لأرى رؤسًا أينع وقد حان قطافها وإنى لصاحبها، وإنى لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى، واللّه يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، فعجم[1] عيدانها، فوجدنى أمرَّها عودًا، وأصلبها مكسرًا فرماكم بى؛ لأنكم طالما أثرتم الفتنة، واضطجعتم فى مراقد الضلال، واللّه لأنكلن بكم فى البلاد، ولأجعلنكم مثلاً فى كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. وإنى يا أهل العراق لا أعِد إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت، فإياى وهذه الزرفات[2] والجماعات، وقيل قال، وكان ويكون. يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم اللّه فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوثقوا واستقيموا، واعملوا ولا تميلوا، وتابعوا، واجتمعوا واستمعوا، فليس منى الإهدار والإكثار، إنما هو هذا السيف، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل اللّه لأمير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم. ثم إنى وجدت الصدق مع البر، ووجدت البر فى الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، ووجدت الفجور فى النار، وقد وجهنى أمير المؤمنين بعد إليكم وأمرنى أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة، وإنى لأقسم باللّه لا أجد رجلاً يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه.

يا غلام إقرأ كتاب أمير المؤمنين. فقرأ: بسم اللّه الرحمن الرحيم من عبد اللّه عبد الملك بن مروان إلى مَنْ بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم. فلم يرد أحد شيئًا، فقال الحجاج: أكفف يا غلام، ثم اقبل على الناس فقال:

---

(١) عجم: اختبر.

(٢) الزرفات: التجمعات.

أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئًا عليه، هذا أدبكم الذى تأدبتم به، وأما واللّه لأؤدبنكم أدبًا غير هذا الأدب، إقرأ يا غلام. فقرأ حتى بلغ قوله: سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام، ثم نزل بعد ما فرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم، فجعلوا يأخذونها، حتى أتاه شيخ يرعش فقال: أيها الأمير إنى على الضعف كما ترى، ولى ابن هو أقوى منى على الأسفار، أفتقبله بديلاً منى؟ فقال: نقبله أيها الشيخ. فلما ولى قال له قائل: أتدرى من هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا عمير بن صابئ الذى يقول:

هَمَمْتُ و لم أفعلْ وكِدتُ وَليتنى ... تركتُ عَلَى عُثمانَ تَبْكِى حلائلُه

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضى اللّه عنه وهو مقتول فوطئ فى بطنه، فكسر ضلعين من أضلاعه. فقال: الحجاج: ردوه، فلما ردوه قال له الحجاج: أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار، إن فى قتلك أيها الشيخ إصلاحًا للمسلمين، يا سياف اضرب عنقه، فضرب عنقه. وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر.

ومن حكايات الحجاج: ما حكى أنه لما أسرف فى قتل أسرى دير الجماجم، وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه[١] وكتب إليه: أما بعد، فقد بلغنى عنك إسراف فى الدماء وتبذير فى العطاء، وقد حكمت عليك فى الدماء: فى الخطأ بالدية، وفى العمد بالقود[٢]، وفى الأموال أن تردها إلى مواضعها، ثم تعمل فيها برأى، فإنما هو مال اللّه تعالى، ونحن أمناؤه فإن كنت أردت الناس لى فى أغنانى عنهم وإن كنت أردتهم لنفسك فى أغناك عنهم وسيأتيك عنى أمران، لين وشدة فلا يؤمننك إلا الطاعة، ولا يوحشنك إلا المعصية، وإذا أعطاك اللّه عزَّ وجلَّ الظفر، فلا تقتلن جانحًا ولا أسيرًا، وكتب فى أسفل الكتاب:

إذا أنت لم تترك أمورًا كرهتها ... وتطلب رضائى بالذى أنا طالبُهْ
فإن ترمنى غفلة قرشية ... فيا ربما قد غصَّ بالماء شاربُهْ
وإن تَرَ مِنِّى وثبة أموية ... فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبُهْ
فلا تأمننى والحوادث جمةٌ ... فإنك تجزى بالذى أنت كاسبُهْ
فلا تعد[٣] ما يأتيك منى وإن تعد ... يقمن به يومًا عليك نوادبُهْ
فلا تمنعن الناسَ حقًا علمته ... ولا تعطين ما ليس للناس واجبُه
فإنك إن تعطى الحقوق فإنما ... النوافل شىء لا يثيبك[٤] واهبُهْ

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين:

أما بعد فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافى وتبذيرى فى الأموال، ولعمرى ما بلغت فى عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتلى العصاة إسرافًا، وإعطائى المطيعين تبذيرًا، فليضمن لى أمير المؤمنين ما سلف، واللّه ما أصبت القوم خطأ فأديهم، ولا ظلمتهم عمدًا فأقاد بهم، ولا قتلت إلا لك، ولا أعطيت إلا فيك، والسلام عليك ورحمة اللّه وبركاته، وكتب فى أسفل الكتاب:

إذا أنا لا أبغى رِضاك وأتقى ... أذاك فليلى لا تَوارَى[٥] كواكبُهْ

(١) شق عليه: عزّ عليه وصعب الأمر.
(٢) القود: القصاص.
(٣) تعدُ: تتحدى وتتجاوز.
(٤) يثيبك: يؤجرك و يجازيك.
(٥) تُوارَى: تخفى.

وما لامرئ بعد الخيفة جُنة[١] ... تقيه من الأمر الذى هو راكبُهْ
إذا قارف الحجاجُ فيك خطيئةً ... لقامت عليه بالصياح نوادبُهْ
فإذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه ... واقصِ[٢] الذى تسرى إلىّ عقاربُهْ
وأعطِ المواسى فى البلاء عطية ... لرد الذى ضاقت علىّ مذاهبُهْ
فمن يتقى بؤسى ويرجو مودتى ... ويخشى غداً والدهر جم نوائبُهْ
وأمرى إليك اليوم ما قلت قلته ... وما لم تقله لم أقل ما يقاربُهْ
ومهما أردت اليوم منى أردته ... وما لم ترده اليوم إنى مجانبُهْ
وقف بى على حد الرضا لا أجوزه ... مدى الدهر حتى رجع الدر حالبُهْ
وإلا فدعنى والأمور فإننى ... شفيقٌ رفيقٌ أحكمته تجاربُهْ

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صولتى، ولن يعاود لأمر كرهته إن شاء اللّه تعالى، فلمن يلومنى على محبته. يا غلام أكتب إليه:

الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وأنت أعلى عينًا بما هناك.

وفى مروج الذهب للسمعودى: أن أم الحجاج وهى الفارعة بنت همام ولدته مشوهًا لا دبر له، فثقب له دبر، وأبى أن يقبل الثدى، وأعياهم أمره فيقال: إن الشيطان تصور له فى صورة الحارث بن كلدة - حكيم العرب - فسألهم عن ذلك فأخبره مخبر من أهله.

فقال لهم: اذبحوا له تيسًا، وألعقوه من دمه، وأولغوه فيه ثم أطلوا به وجهه. ففعلوا ذلك، فقبل الثدى، فلأجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه، أن أكبر لذاته سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يقدر غيرهُ عليها.

وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحارث بن كلدة، فدخل عليها يومًا فى السَّحَر فوجدها تخنس أسنانها، فطلقها، فسألته لم فعل؟ فقال لها: إن كنت باكرت الغداء فأنت شرهة، وإن كان بقايا طعام بفيك فأنت قذرة. فقالت: كل ذلك لم يكن، وإنما تخللت من شظايا السواك. فقال: قضى الأمر. فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفى فأولدها الحجاج.

وقيل: إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عشرين سنة، ومات له ثلاثة وخمسون سنة، وكان من عنف السياسة، وثقل الوطأة، وظلم الرعية، والإسراف فى القتل، على ما لا يبلغه وصف. أحصى من قتله الحجاج بأمره، سوى من قتله فى حروبه، فكانوا مائة ألف وعشرين ألفا، ووجد فى سجنه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل، وكان يحبس الرجال والنساء فى موضع واحد، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد.

وقيل للشعبى: أكان الحجاج مؤمنًا؟ قال: نعم بالطاغوت. وقال: لو جاءت كل أمة بخبيثها، وفاسقها، وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم، واللّه أعلم.

---

(١) جُنة: وقاية وستر.
(٢) أقصى: أبعد.

وقد مضى القول فى ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم، وما أعان اللّه تعالى عليه واستحضرته من أخبارهم، وأنا قائل، إن شاء اللّه تعالى ما استحضرته من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن، واللّه المستعان.

ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن

حكى عن أبى عبد اللّه النميرى أنه قال: كنت يومًا مع المأمون وكان بالكوفة فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة، فأطلق عِنان جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية[1] القد، قاعدة النهد كأنها القمر ليلة تمامه، وبيدها قربة قد ملأتها ماء وحملتها على كتفها وصعدت من حافة النهر، فانحل وكاؤها[2] فصاحت برفيع صوتها: يا أبت أدرك فاها، قد غلبنى فوها، لا طاقة لى بفيها، قال: فعجب المأمون من فصاحتها، ورمت الجارية القربة من يدها. فقال لها المأمون: يا جارية من أى العرب أنت؟ قالت: أنا من بنى كلاب. قال: وما الذى حملك أن تكونى من الكلاب؟ فقالت: واللّه لست من الكلاب، وإنما أنا من قوم كرام، غير لئام يقرون[3] الضيف، ويضربون بالسيف. ثم قالت: يا فتى من أى الناس أنت؟ فقال: أو عندك علم بالأنساب؟

قالت: نعم، قال لها: أنا من مضر الحمراء. قالت: من أى مضر؟ قال: من أكرمها نسبًا، وأعظمها حسبًا، وخيرها أمًّا وأبًا، ممن تهابه مضر كلها. قالت: أظنك من كنانة. قال: أنا من كنانة. قالت: فمن أى كنانة؟ قال: من أكرمها مولدًا وأشرفها محتدًا[4] ، وأطولها فى المكرمات يدًا ممن تهابه كنانة وتخافه. فقالت: إذن أنت من قريش. قال: أنا من قريش. قالت: من أى قريش؟ قال: من أجملها ذكرًا وأعظمها فخرًا، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه.

قالت: أنت واللّه من بنى هاشم، قال: أنا من بنى هاشم. قالت: من أى هاشم؟ قال: من أعلاها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن تهابه هاشم وتخافه. قال: فعند ذلك قبلت الأرض، وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين. قال: فعجب المأمون وطرب طربًا عظيمًا، وقال: واللّه لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاقته العساكر فنزل هناك وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه فزوجه بها، وأخذها وعاد مسرورًا. وهى والدة ولده العباس، واللّه أعلم.

وحكي أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها فوصف للحجاج حسنُها فأنفذ إليها يخطبها وبذل لها مالاً جزيلاً وتزوج بها، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتى ألف درهم، ودخل بها. ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة، وكانت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء اللّه، ثم دخل عليها فى بعض الأيام وهى تنظر فى المرأة وتقول:

وما هندُ إلا مُهْرة عربية ... سليلة أفراس تحلّلها بغلُ
فإن ولَدَتْ فَحْلاً فللّهِ درُّها ... وإن ولدَتْ بغلاً فجاءَ به البغلُ

فانصرف الحجاج راجعًا ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به. فأراد الحجاج طلاقها فأنفذ إليها عبد اللّه بن طاهر، وأنفذ لها معه مائتى ألف درهم، وهى التى كانت لها عليه. وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزد

(١) خماسية القد: طويلته.
(٢) الوكاء: ما يشد به رأس القربة.
(٣) القرِى: إكرام الضيف.
(٤) المحتد: الأصل.

عليهما. فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج: كنتِ فبنتِ[١]، وهـذه المائتـا ألـف درهم التى كانت لك قبله. فقالت: اعلم يا ابن طاهر، إنا والله كنا فما حمدنا، وبِنَّا، فما ندمنا، وهذه المائتا ألـف درهم التى جئت بها، بشارة لك بخلاصى من كلب بنى ثقيف.

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف لها جمالها، فأرسل إليها يخطبها فأرسلت إليه كتابًا تقول فيه بعد الثناء عليه: اعلم يا أمير المؤمنين أن الإناء ولغ فيه الكلب. فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحـك من قولها، وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعًا إحداهن بالتراب، فاغسلى الإناء يحـل الاستعمال. فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه: يا أمـير المؤمنـين، واللـه لا أحل العقد إلا بشرط فإن قلت: ما هو الشرط؟ قلتُ: أن يقود الحجاج محملى من المعـرة إلى بلـدك التـى أنـت فيها، ويكون ماشيًا حافيًا بحليته التى كان فيها أوّلاً. فلما قرأ عبد الملك ذلـك الكتـاب ضحـك ضحكـًا شـديدًا، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك. فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب، وامتثل الأمر و لم يخـالف، وأنفـذ إلى هند يأمرها بالتجهز، فتجهزت وسار الحجاج فى موكبه حتـى وصـل المعرة بلـد هنـد. فركبـت هنـد فـى محمـل الزفاف، وركب حولها جواريها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام[٢] البعير يقوده ويسير بها، فجعلت هند تتواغـد[٣] عليه، وتضحك مع الهيفاء دايتها، ثم إنها قالت للهيفاء: يا داية اكشفى لى سَجْفَ[٤] المحمـل[٥] . فكشـفته، فوقـع وجهها فى وجه الحجاج فضحكت عليه فأنشأ يقول:

فإن تضحكى منى فيا طَـولَ ليلـة ... تركـت فيهـا كالقبـاء المفـرجِ[٦]

فأجابته هند تقول:

ومـا نبـالى إذا أرواحنـا سـلمَتْ ... بما فقدناه مـن مـالٍ ومـن نَشَـبِ

فالمـال مكتسـبٌ والعـز مرتجـعٌ ... إذا النفوسُ وقاها اللّـهُ مِـن عَطَـبِ

و لم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة. فرمت بدينار على الأرض، ونادت: يا جمَّال إنه قد سقط منا درهم فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا دينارًا، فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هـو درهم، قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم، فعوّضنا الله دينارًا، فخجل الحجاج وسكت، و لم يـرد جوابًا، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها، وكان من أمرها ما كان، وقد وجدت فى بعض النسخ ما هو أوسع من هذا، ولكن اقتصرت على القليل منه، إذ فيه الغرض، والله أعلم.

وقيل: إن جارية عرضت على الرشيد ليشتريها فتأملهـا وقـال لمولاهـا: خـذ جـاريتك فلـولا كلف بوجههـا، وخنس بأنفسها لاشتريتها. فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قـالت مبـادرة: يـا أمير المؤمنين اسمع منـى مـا أقول. فقال: قولى. فأنشدت تقول:

مـا سَـلِمَ الظبـىُ علـى حُسْـنِه ... كـلاّ ولا البـدرُ الـذى يُوصَـفُ

الظبـىُ فيـه خنـسٌ بيِّـنٌ ... والبـدرُ فيـه كَلَـفٌ يُعـرفُ

قال: فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها.

---

(١) بنتِ: بَعُدتِ ويقصد طلاقها.

(٢) الزمام: المقود.

(٣) تتواغد: تقوم بحركات هازئة.

(٤) السَجْفَ: الطرف. وهو هنا قريب من الستائر.

(٥) المحمل: الهودج.

(٦) القباء المفرج: الثوب مشقوق الطرف.

وقيل: عرضت على المأمون جارية بارعة فى الجمال، فائقة فى الكمال غير أنها كانت تعرج برجلها، فقال لمولاها: خذ بيدها وارجع، فلولا عرج بها لاشتريتها. فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين، إنه فى وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه، فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها.

ومن ذلك ما حكى أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب فعبر يومًا تحت جوسق[١] ببستان، فرأى جارية ذات وجه زاهر، وكمال باهر، لا يستطيع أحد وصفها فلما نظر إليها ذهل عقله، وطار لبه، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع جوز كانت تخدمه، وكانت الجارية عزباء، وكتب إليها رقعة يعرض إليها بالزيارة فى جوسقها فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليه مع الجوز عنبرًا، وجعلت فيه زر ذهب، وربطت ذلك على منديل.

وقالت للعجوز: هذا جواب رقعته، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه وتحير فى أمره، وكانت له ابنة صغيرة السن، فلما رأت أباها متحيرًا فى ذلك. قالت له: يا أبت أنا علمت معناه، قال: ما هو للّه درك؟ قالت:

أهدت لك العنبر فى جوفه ... زرّ من التبر خفىّ اللحام
فالزرُّ والعنبرُ معناهما ... زر هكذا مختفيًا فى الظلام

وحكى إن طائفة من بنى تميم كانوا يكسرون أول الفعل، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة فناداها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل، فقال: لأى شىء يا بنى تميم ما تكتنون[٢] . فقالت: و لم لا نِكتنى وكسرت الفعل. فضحك عليها، وقال: أفعِل إن شاء اللّه، فخجلت من قوله، وتغير وجهها، وأرادت أن توقعه كما أوقعها فقالت له: هل تحسن شيئًا من العروض. قال نعم. قالت: قطِّع لى:

حولوا عنَّا كنيستكم ... يا بنى حمَّالة الحطب

فقطعه فوقف على عن، ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه، وأضحكت أصحابه، فقال: ويحك لم تبرحى حتى أخذت بثأرك.

وحكى أن شاعرًا كان له عدو، فبينما هو سائر ذات يوم فى بعض الطرق، إذا هو بعدوه، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة، فقال له: يا هذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت، ولكن سألتك اللّه إذا قتلتنى امض إلى دارى وقف بالباب وقل:

ألا أيها البنتان إن أباكما

فقال: سمعًا وطاعة. ثم إنه قتله، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ووقف بالباب وقال:

ألا أيها البنتان إن أباكما

وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل:

ألا أيها البنتان إن أباكما

---

(١) جوسق: القصر.

(٢) تكتنون: تتخذون الكوانين (الأفران).

أجابتاه بفم واحد:

قتيل خذا بالثار ممن أتاكما[١]

ثم تعلقتا بالرجل، ورفعتاه إلى الحكام فاستقرره، فأقر بقتله، فقتله، والله أعلم.

وقيل: بينما كثير عزة مارًّا بالطريق يومًا، إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشى، فقال لها: تنحى عن الطريق. فقالت له: ويحك، ومن تكون؟ قال: أنا كثير عزة، قالت: قبحك الله، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق، قال: و لم؟ قالت: ألست القائل:

وما روضة بالحسن طيبة الثرى ... يمجُّ الندى جثجاثها وعرارها[٢]

بأطيب من أردان[٣] عزة موهنا ... إذا أوقدت بالمجمر اللدن نارها

ويحك يا هذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلى ومثل أمك لطاب ريحها. لِمَ لا قلت مثل سيدك امرئ القيس:

وكنت إذا ما جئت بالليل طارقًا ... وجدت بها طيبًا وإن لم تطيب

فقطعته و لم يرد جوابًا.

وقيل: أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. فقالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيرًا من وزرائك يا حجاج. قال: ومن هو صاحبى؟ قالت: فرعون، استشارهم فى موسى عليه السلام فقالوا: أرجه وأخاه.

وأتى بأخرى من الخوراج فجعل يكلمها وهى لا تنظر إليه، فقيل لها: الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين غليه. فقالت: إنى لأستحى أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.

وحكى ابن الجوزى فى كتابه المنتظم فى مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقة[٤] أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة درهم، وأن فاطمة رضى الله عنها كان صداقها على على بن أبى طالب كرم الله وجهه أربعمائة درهم. فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن لا يزيدوا فى مهور النساء على أربعمائة درهم، فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت مال المسلمين. فهاب الناس أن يكلموه، فقامت امرأة فى يدها طول فقالت له: كيف يحل لك هذا، والله تعالى يقول: ﴿**وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا**﴾[٥] ؟ فقال عمر رضى الله عنه: امرأة أصابت، ورجل أخطأ.

وقيل: جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجى يصوم النهار، ويقوم الليل. فقال لها: نِعْمَ الرجل زوجك، وكان فى مجلسه رجل يسمى كعبًا فقال: يا أمير المؤمنين إن هذه المرأة تشكو زوجها فى أمر مباعدته إياها عن فراشه، فقال له: كما فهمت كلامها أحكم بينهما.

فقال كعب: علىّ بزوجها. فأحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك. قال: أفى أمر طعام أم شراب؟ قال: بل فى أمر مباعدتك إياها عن فراشك. فأنشأت المرأة تقول:

يا أيها القاضى الحكيم أنشده ... ألهى خليلى عن فراشى مسجدهْ

نهاره وليله لا يرقده ... فلست فى أمر النساء أحمدهْ

---

(١) هذا شطر البيت الذى بدأه والدهما كما ترى.

(٢) الجثجاء والعرار: من نباتات طيبة الريح.

(٣) الأردن مفردها ردن: الكُم.

(٤) مفردها صِداق: وهو المهر.

(٥) سورة النساء: ٢٠.

فأنشأ الزوج يقول:

زهدنى فى فرشها وفى الحَلِ ... أنى أمرؤ أذهلنى ما قد نزلْ
فى سورة النمل وفى السبع الطول ... وفى كتاب اللّه تخويف يجلْ

فقال له القاضى:

إن لها عليك حقًا لم يزل ... فى أربع تصيبها لمن عقلْ
فعاطها ذاك ... ودع عنك العللْ

ثم قال: إن اللّه تعالى أحل لك من النساء مثنى، وثلاث، ورباع أفلك ثلاثة أيام بلياليهن. لها يوم وليلة. فقال عمر رضى اللّه عنه: لا أدرى من أيكم أعجب، أمن كلامها، أم من حكمك بينهما؟ أذهب فقد وليتك البصرة.

حكاية المتكلمة بالقرآن: قال عبد اللّه بن المبارك رحمه اللّه تعالى: خرجت حاجًا إلى بيت اللّه الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا فى بعض الطريق، إذ أنا بسواد على الطريق فتميزت ذاك فإذا هى عجوز عليها درع من صوف، وخمار من صوف، فقلت: السلام عليك ورحمة اللّه وبركاته. فقالت: ﴿**سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ**﴾[1]، قال: فقلت لها: يرحمك اللّه ما تصنعين فى هذا المكان؟ قالت: ﴿**مَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ**﴾[2] فعلمت أنها ضالة عن الطريق. فقلت لها: أين تريدين؟ قالت: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**﴾[3]، فعلمت أنها قد قضت حجها وهى تريد بيت المقدس. فقلت لها: أنت منذكم فى هذا الموضع؟ قالت: ﴿**ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا**﴾[4]، فقلت: ما أرى معك طعامًا تأكلين. قالت: ﴿**هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**﴾[5]، فقلت: فبأى شئ تتوضئين؟ قالت: ﴿**فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾[6]، فقلت لها: إن معى طعامًا فهل لك فى الأكل؟ قالت: ﴿**ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**﴾[7]، فقلت: ليس هذا شهر رمضان، قالت: ﴿**وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**﴾[8]، فقلت: قد أبيح لنا الإفطار فى السفر. قالت: ﴿**وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[9]، فقلت: لم لا تكلمينى مثل ما أكلمك. قالت: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾[10]، فقلت فمن أى الناس أنت؟ قالت: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾[11]، فقلت: قد أخطأت فاجعلينى فى حِل. قالت: ﴿**لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ**﴾[12]، فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة. قالت: ﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**﴾[13]، قال: فأنخت ناقتى. قالت: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾[14]، فغضضت بصرى عنها وقلت لها: اركبى، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾[15]، فقلت لها: اصبرى حتى أعقلها. قالت: ﴿**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ**﴾[16]، فعقلت الناقة وقلت لها: اركبى. فلما ركبت، قالت: ﴿**سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ**﴾[17]، فأخذتُ بزمام الناقة، وجعلت أسعى وأصيح. فقالت: ﴿**وَاقْصِدْ فِي**

(١) سورة يس:٥٨. (٢) سورة الأعراف:١٨٦. (٣) سورة الإسراء:١.
(٤) سورة مريم:١٠. (٥) سورة الشعراء:٧٩. (٦) سورة النساء:٤٣.
(٧) سورة البقرة:١٨٧. (٨) سورة البقرة:١٥٨. (٩) سورة البقرة:١٨٤.
(١٠) سورة ق:١٨. (١١) سورة الإسراء:٣٦. (١٢) سورة يوسف:٩٢.
(١٣) سورة البقرة:١٩٧. (١٤) سورة النور:٣٠. (١٥) سورة الشورى:٣٠.
(١٦) سورة الأنبياء:٧٩. (١٧) سورة الزخرف:١٣ - ١٤. (١٨) سورة لقمان:١٩.

مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾[١٨]، فجعلت أمشي رويدًا، رويدًا وأترنم بالشعر، فقالت: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾[١]، فقلت لها: لقد أوتيتم خيرًا كثيرًا: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾[٢]، فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾[٣]، فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة. فقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[٤] فعلمت أن لها أولادًا، فقلت: وما شأنهم في الحج؟ فقالت: ﴿**وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾[٥] فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب، والعمارات فقلت: هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت: ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾[٦]، ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾[٧]، ﴿**يَايَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾[٨]، فناديت: يا إبراهيم، يا موسى، يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿**فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ**﴾[٩]، فمضى أحدهم فاشترى طعامًا فقدموه بين يديّ فقالت: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾[١٠]، فقلت: الآن طعامكم عليّ حرام حتى تخبرونى بأمرها. فقالوا: هذا أمنا، لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن، فسبحان القادر على ما يشاء. فقلت: ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾[١١]، والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

---

(١) سورة المزمل: ٢٠.
(٢) سورة البقرة: ٢٦٩.
(٣) سورة المائدة: ١٠١.
(٤) سورة الكهف: ٤٦.
(٥) سورة النحل: ١٦.
(٦) سورة النساء: ١٢٥.
(٧) سورة النساء: ١٦٤.
(٨) سورة مريم: ١٢.
(٩) سورة الكهف: ١٩.
(١٠) سورة الحاقة: ٢٤.
(١١) سورة الجمعة: ٤.

الباب الثامن فى الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك

قيل: إن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له: هيه يا معن تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف على قوله:

معنُ بنُ زائدةَ الذى زادَتْ به ... شرفًا على شرفٍ بنو شيبان

فقال: كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلنًا ... بالسيفِ دون خليفةِ الرحمنِ

فمنعتُ حوزته[1] وكنت وقاءَهُ ... من وَقْعِ كلِّ مهنّدٍ وسنانِ[2]

فقال: أحسنت واللّه يا معن، وأمر له بالجوائز والخلع.

ووفد ابن أبى محجن على معاوية فقام خطيبًا فأحسن، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه فقال له: أنت الذى أوصاك أبوك بقوله:

إذا متُّ فادفنى إلى جنب كرمة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفنّنى فى الفَلاةِ فإننى ... أخافُ إذا ما متّ أن لا أذوقها

قال: بل أنا الذى يقول أبى:

لا تَسْأَلِ الناسَ ما مالى وكثرتَهُ ... وسائِلِ الناسَ ما جُودى وما خَلَقِى

أعطى الحسامَ غداةَ الروع[3] حصَّتَهُ ... وعاملُ الرمحِ أرويه من العلقِ

وأطعنُ الطعنةَ النجلاء[4] عن عرضٍ ... وأكتمُ السرَّ فيه ضربةَ العُنقِ

ويعلمُ الناسُ أنى من سراتهم[5] ... إذا سما بصرُ الرعديدِ بالفرقِ[6]

فقال له معاوية: أحسنت واللّه ابن أبى محجن، وأمر له بصلة وجائزة.

وقيل: أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثى فقال له: ألست القائل:

ومنا شريدٌ والبطينُ وقعنبٌ ... ومنا أميرُ المؤمنين شَبيبُ

فقال: يا أمير المؤمنين، إنما قلت ومنّا أميرَ المؤمنين شبيب، وأردت بذلك مناداة لك، فكان ذلك سببًا لنجاته.

ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميمًا فقال له معاوية: إنك لدميم، والجميل خير من الدميم، وإنك لشريك وما للّه من شريك، وإن أباك لأعور، والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال له: إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت، فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب، والسلام خير من الحرب، وإنك لابن أمية، وما أمية إلا أمة صغرت، فكيف صرت أمير المؤمنين؟ ثم خرج وهو يقول:

---

(١) حوزته: ناحيته وما ضم.

(٢) السنان: الرمح أو الحاد من رأسه.

(٣) الروع: الخوف وهنا المعركة.

(٤) النجلاء: الكبيرة الواضحة.

(٥) سُراة القوم: أشرافهم ونبلاؤهم.

(٦) الرعديد: الجبان، والفرقُ: الخوف.

أيشتَمُنى معاويةَ بنُ حربٍ وسيفى صارمٌ ومَعِى لِسَانى
وحولى من ذوى يزن ليوثٌ ضراغمةٌ تهشُّ إلى الطِّعَانِ
يعيرُ بالدمامةِ من سفاهٍ وربَاتُ الحجال[1] من الغوانى

ودخل يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج، على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج. فقال له سليمان: قبح اللّٰه رجلاً أجَرَّكَ رسنه[2] ، وأولاك أمانته. فقال: يا أمير المؤمنين رأيتنى، والأمر لك، وهو عنى مدبر. فلو رأيتنى وهو علىّ مقبل، لاستكبرت منى ما استصغرت، واستعظمت منى ما استحقرت. فقال سليمان: أترى الحجاج استقر فى جهنم. فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك، فإن الحجاج وطَّأ لكم المنابر، وأذلَّ لكم الجبابرة، وهو يجئ يوم القيامة عن يمين أبيك، وشمال أخيك، فحيثما كانا كان.

وقال يهودى لعلى بن أبى طالب رضى اللّٰه عنه: ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلى خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم؟ فقال على كرم اللّٰه وجهه: ولِمَ أنتم لم تجفَّ أقدامكم من البلل حتى قلتم: ﴿**يَامُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾[3] .

ووجد الحجاج على منبره مكتوبًا: ﴿**قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**﴾[4] فكتب تحته: ﴿**قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[5] .

ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره فأجلسه معه على سريره ثم قال له: أنتم معشر بنى هاشم تصابون فى أبصاركم، فقال له عقيل: وأنتم معشر بنى أمية تصابون فى بصائركم[6] .

وقيل: اجتمعت بنو هاشم يومًا عند معاوية فأقبل عليهم وقال: يا بنى هاشم، إن خيرى لكم لممنوح، وإن بابى لكم لمفتوح، فلا يقطع خيرى عنكم، ولا يرد بابى دونكم، ولما نظرت فى أمرى وأمركم، رأيت أمرًا مختلفًا، إنكم ترون أنكم أحق بما فى يدى منى، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم، قلتم: أعطانا دون حقنا، وقصّر بنا عن قدرنا. فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حمد له، هذا مع إنصاف قائلكم، وإسعاف سائلكم. قال: فأقبل عليه ابن عباس رضى اللّٰه عنهما، فقال: واللّٰه ما منحتنا شيئًا حتى سألناه، ولا فتحت لنا بابًا حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك، فخير اللّٰه أوسع منك، ولئن أغلقت دوننا بابًا لنكفَنَّ أنفسنا عنك، وأمَّا هذا المال، فليس لك منه إلاَّ ما للرجل من المسلمين، ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف، ولا حافر، أكفاك أم أزيدك؟ قال: كفانى يا ابن عباس.

وقال معاوية يومًا: أيها الناس إن اللّٰه حَبَا[7] قريشًا بثلاث فقال لنبيه صلى اللّٰه عليه وسلم: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾[8] ونحن عشيرته الأقربون. وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ**﴾[9] ونحن قومه. وقال تعالى: ﴿**لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ إِيلاَفِهِمْ**﴾[10] ونحن قريش. فأجابه رجل من الأنصار فقال: على رسلك يا معاوية فإن اللّٰه تعالى يقول: ﴿**وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ**﴾[11] وأنتم قومه. وقال تعالى: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ**

(١) ربات الحجال: النساء.
(٢) الرسن: ما يقاد به الدواب.
(٣) سورة الأعراف:١٣٨.
(٤) سورة الزمر:٨.
(٥) سورة آل عمران:١١٩.
(٦) البصيرة: البصر القلبى أو الذهنى.
(٧) حَبَا: أعطى ومنح.
(٨) سورة الشعراء:٢١٤.
(٩) سورة الزخرف:٤٤.
(١٠) سورة قريش:١، ٢.
(١١) سورة الأنعام:٦٦.

مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[١] وأنتم قومه. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[٢] وأنتم قومه، ثلاثة بثلاثة ولو زدتنا لزدناك.

وقال معاوية أيضًا لرجل من اليمن: ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة، فقال: أجهل من قومى قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣] ولم يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

وقال يومًا لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية. فقال: ما كان أهونَكَ على قومك إذا سموك معاوية، وهى الأنثى من الكلاب، قال: اسكُتْ لا أمَّ لك. قال: أم لى ولدتنى، أما والله إن القلوب التى أبغضناك بها لبين جوانحنا، والسيوف التى قاتلناك بها لفى أيدينا، وإنك لم تهلكنا قسوة، ولم تملكنا عنوة[٤]، ولكنك أعطيتنا عهدًا وميثاقًا، وأعطيناك سمعًا وطاعة، فإن وفيت لنا، وفينا لك، وإن نزعت إلى غير ذلك، فإنا تركنا وراءنا رجالاً شدادًا حدادًا[٥]، فقال معاوية: لا أكثر الله فى الناس مثلك يا جارية. فقال له: قل معروفًا فإن شر الدعاء محيط بأهله.

وخطب معاوية يومًا فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[٦] فعلامَ تلوموني إذا قصرت فى عطاياكم؟ فقال له الأحنف: وإنا والله لانلومك على ما فى خزائن الله، ولكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه فجعلته فى خزائنك، وحُلْتَ بيننا وبينه.

وقيل: دخل مجنون الطاق يومًا إلى الحمام وكان بغير مئزر، فرآه أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه، وكان فى الحمام فغمض عينيه، فقال له المجنون: متى أعماك الله؟ قال: حين هتك سترك.

ومن ذلك ما حكى أن الحجاج خرج يومًا متنزهًا فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه فإذا هو بشيخ من بنى عجل فقال له: من أين أيها الشيخ؟ قال: من هذه القرية. قال: كيف ترون عمالكم. قال: شر عمال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم. قال: كيف قولك فى الحجاج؟ قال: ذاك ما ولى العراق شرّ منه، قبحه الله، وقبح من استعمله. قال: أتعرف من أنا؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج. قال: جعلت فداك، أو تعرف من أنا؟ قال: لا. قال: أنا فلان بن فلان مجنون بنى عجل، أصرع فى كل يوم مرتين. قال: فضحك الحجاج منه، وأمر له بصلة.

وقال رجل لصاحب منزل: أصْلِحْ خشب هذا السقف فإنه يقرقع. قال: لا تخف فإنه يسبح. قال: إنى أخاف أن تدركه رقة فيسجد.

وقالت عجوز لزوجها: أما تستحى أن تزنى ولك حلال طيب؟ قال: أما حلال فنعم، وأما طيب فلا!

وقال ملك لوزيره: ما خير ما يرزقه العبد؟ قال: عقل يعيش به. قال: فإنه عدمه؟ قال: أدب يتحلى به. قال: فإن عدمه؟ قال: مال يستره. قال: فإن عدمه؟ قال: فصاعقة تحرقه، وتريح منه العباد والبلاد.

وتنبأ رجل فى زمن المنصور، فقال له المنصور: أنت نبى سفلة، فقال: جعلت فداك كل نبى يبعث إلى شكله.

ومن الأجوبة المسكتة المستحسنة، ما ذكر أن إبراهيم مغني الرشيد غنى يومًا بين يديه فقال له: أحسنت أحسن الله إليك، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنما يحسن الله إلىّ بك فأمر له بمائة ألف درهم.

---

(١) سورة الزخرف:٥٧.
(٢) سورة الفرقان:٣٠.
(٣) سورة الأنفال:٣٢.
(٤) عنوة: إخضاعًا بالقوة.
(٥) حدادًا: حادّين شديدين.
(٦) سورة الحجر:٢١.

وقال رجل لبعض العلوية: أنت بستان، فقال العلوى: وأنت النهر الذى يسقى منه البستان.

وذبحت عائشة رضى اللّه عنها شاة وتصدقت بها وأفضلت منها كتفًا[١]، فقال لها النبى صلى اللّه عليه وسلم: «ما عندك منها؟» فقالت: ما بقى منها إلا كتف، فقال: «كلها بقى إلا كتفها»[٢] .

وقال عبد اللّه بن يحيى لأبى العيناء: كيف الحال؟ قال: أنت الحال، فانظر كيف أنت لنا. فأمر له بمال جزيل، وأحسن صلته. وكان عمرو بن سعد بن سالم فى حرس المأمون فخرج المأمون ليلة، يتفقد الحرس، فقال لعمرو: من أنت؟ قال: عمرو عمرك اللّه، ابن سعد، أسعدك اللّه، ابن سالم سلمك اللّه. قال: أنت تكلؤنا الليلة، قال: اللّه يكلؤك يا أمير المؤمنين وهو: ﴿خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٣] فقال المأمون:

إن أخا الهيجاء من يسعى معك	ومن يضر نفسه لينفعَكْ

ومن إذا ريبُ الزمان صدعك	شتت فيك شمله ليجمعَكْ

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار. قال عمرو: وددت لو أن الأبيات طالت.

قال المعتصم للفتح بن خاقان وهو صبى صغير: أرأيت يا فتح أحسن من هذا الفص[٤] ، لفص كان فى يده. قال: نعم يا أمير المؤمنين اليد التى هو فيها أحسن منه. فأعجبه جوابه، وأمر له بصلة وكسوة.

وقيل: إن رجلاً سأل العباس رضى اللّه عنه: أأنت أكبر أم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ فقال: رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أكبر وأنا ولدت قبله.

وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندى: أأنت سعيد؟ قال: أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابن مرة. وقال المأمون للسيد ابن أنس: أأنت السيد؟ قال: أمير المؤمنين السيد، وأنا ابن أنس.

وقال الحجاج للمهلب، وهو يماشيه: أأنا أطول، أم أنت؟ قال: الأمير أطول، وأنا أبسط قامة، أراد الطوّل، وهو الفضل.

والأجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعتها لعجزت عنها، ولكنى اقتصرت على هذا، وأوجزت، وفيما ذكرته من ذلك كفاية، وأسأل اللّه تعالى العون والعناية.

---

(١) أى فى سجل الحسنات.

(٢) الترمذى فى صفة القيامة ٢٤٧٠.

(٣) سورة يوسف: ٦٤.

(٤) الفص: حجر يزين الخاتم، ويطلق عليه كله.

الباب التاسع فى ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قيل: خطب المأمون فقال: اتقوا اللّه عباد اللّه، وأنتم فى مهل، بادروا الأجل، ولا يغرنكم الأمل، فكأنى بالموت قد نزل فشغلت المرء شواغله، وتولت عنه فواصله، وهيئت أكفانه، وبكاه جيرانه، وصار إلى التراب الخالى، بجسده البالى، فهو فى التراب عفير[1] ، وإلى ما قدم فقير.

وقال الشعبى: ما سمعت أحدًا يخطئ إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطئ، ما خلا زيادًا فإنه لا يزداد إكثارًا إلا ازداد إحسانًا.

وخطب على رضى اللّه عنه فقال فى خطبته: عبادَ اللّه الموتَ الموتَ ليس منه فوت، إن أقمتم أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، الموت معقود بنواصيكم، فالنجاء النجاء والوحا [2] الوحا، فإن وراءكم طالبًا حثيثًا وهو القبر، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، ألا وإنه يتكلم فى كل يوم ثلاث كلمات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الديدان، ألا وإن وراء ذلك اليوم، يومًا أشد منه، يومًا يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير، ﴿**تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾[3] ألا وإن وراء ذلك اليوم يومًا أشد منه، فيه نار تتسعر، حرها شديد، وقعرها بعيد، وحليها حديد، وماؤها صديد، ليس للّه فيها رحمة. قال: فبكى المسلمون بكاء شديدًا، ثم قال: وإن وراء ذلك اليوم ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[4] أدخلنا اللّه وإياكم دار النعيم، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم.

وخطب الحجاج بن يوسف، فقال فى بعض خطبه: إن إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن رضى اللّه عنه خطب بالبصرة فقال: أيها الناس كل كلام فى غير ذكر فهو لغو، وكل صمت فى غير فكر فهو سهو، والدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط بينهما، ونحن فى أضغاث أحلام.

وقيل: اجتمع الناس عند معاوية، وقام الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهة، فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له: يزيد بن المقنع، فاخترط من سيفه شبرًا، ثم قال: أمير المؤمنين هذا. وأشار إلى معاوية، ثم قال: فإن يهلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ثم قال: فمن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء.

فصل فى ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قيل: ما استُدعى شارد الشعر بمثل الماء الجارى، والشرف العالى، والمكان الخضر الخالى. وقيل: أمسك على النابغة الجعدى أربعين يومًا، فلم ينطق بالشعر ثم إن بنى جعدة غزوا فظفروا، فاستخفه الطرب والفرح، فرام[5] الشعر فذل له ما استصعب عليه فقال له قومه: واللّه لنَحْنُ بإطلاق لسان شاعرنا أسرُّ منا بالظفر بعدونا.

---

(١) عفير: ملطخ بالتراب.

(٢) الوحا: السرعة والبدار.

(٣) سورة الحج:٢.

(٤) سورة آل عمران:١٣٣.

(٥) رام: أراد وطلب.

وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء، وليلى، فما ظنك بالرجال.

وقال الخليل: الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاؤوا، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده؛ ومن تسهيل اللفظ وتعقيده.

وقيل: وفد زياد بن عبد اللّه على معاوية فقال له: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أقرضت القريض[١]؟ قال: نعم.

قال: أرويت الشعر؟ قال لا. فكتب إلى عبد اللّه: أبا زياد بارك اللّه لك فى ابنك، فأروه الشعر. فقد وجدته كاملاً، وإنى سمعت عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يقول: ارووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق، ويقى مساويها. وتعلموا الأنساب، فرُبَّ رَحِمٍ مجهولة قد وصفت بعرفان النسب، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم فى البر والبحر، ولقد هممت بالهرب يوم صفين فما ثبتنى إلا قول[٢]:

أقول لها إذا جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى[٣]

وقيل: لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر، وكان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء، فلا يتميز عن مقولهم، ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة، وبذل له بعض الملوك مالاً جزيلاً، على أن يتكلم فى بيت من الشعر شكوا فيه فأبى.

وكان الحسن بن على رضى اللّه عنه يعطى الشعراء، فقيل له فى ذلك. فقال: خير مالك ما وقيت به عرضك.

وقال أبو الزناد: ما رأيت أروى للشعر من عروة، قلت له: ما أرواك يا أبا عبد اللّه، فقال: وما روايتى مع رواية عائشة رضى اللّه عنها، ما كان ينزل بها شئ إلا أنشدت فيه شعرًا، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يتمثل بقول القائل:

كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيًا

ولم ينطق به موزونًا. فقال: أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه أشهد أنك رسول اللّه حقًا. وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[٤].

ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم، فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها:

ما المالُ والأخلاقُ إلا مُعارةٌ ... فما اسطعت من معروفها فتزوَّدِ

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهى معلقة على الكعبة يقول فيها:

لَعَمْرُكَ ما الأيامُ إلا معارةٌ ... فما اسطعت من معروفها فتزوَّد

ومن ذلك قول عبدة بن الطيب:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدَّما

أخذه من قول امرئ القيس:

فلو أنها نفسى تموتُ شريتها ... ولكنها نفسٌ تَساقَطُ أنفسا

---

(١) القريض: من أسماء الشعر.

(٢) الشعر لعمرو بن الإطانة.

(٣) رواية البيت فى كتب الأدب: وقولى كلما جشأت.

(٤) سورة يس: ٦٩.

ويقال: من سرق شيئًا واسترقه فقد استحقه، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ. فمن السرقة الفاحشة قول كثير فى عبد الملك بن مروان:

إذا ما أراد الغزوَ لم يثنِ همَّهُ … حَصَانٌ[1] عليها عُقْدُ دُرٍّ يزيِّنُهَا

أخذه من قول الحطيئة، ولم يغير سوى الروى:

إذا ما أراد الغزو لم يُثْنِ همَّه … حصانٌ عليها لؤلؤ وشنوف

وجرير على سعة تبحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله:

فلو كان الخلود بفضلِ قومٍ … على قوم لكان لنا الخلود

من قول زهير وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو:

فلو كان حمد يخلد المرء لم يمت … ولكن حمد المرء غير مخلّد

وقد قال الشماخ:

وأمر ترجى النفس ليس بنافع … وآخر تخشى ضيره لا يضيرها

وهو مأخوذ من قول الآخر:

ترجى النفوس الشئ لا تستطيعه … وتخشى من الأشياء ما لا يضيرها

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول:

وأحسن من نَوْر[2] نفحته الصبا … بياض العطايا فى سواد المطالب[3]

أخذه من قول الأخطل:

رأيت بياضًا فى سواد كأنه … بياض العطايا فى سواد المطالب

ومن سقطات الشعراء ما قيل: أن أبا العتاهية كان مع تقدمه فى الشعر كثير السقط. روى أنه لقى محمد بن مبادر بمكة فمازحه وضاحكه، ثم إنه دخل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين، هذا شاعر البصرة يقول قصيدة فى كل سنة، وأنا أقول فى كل سنة مائتى قصيدة، فأدخله الرشيد إليه وقال: ما هذا الذى يقول أبو العتاهية؟! فقال: يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول:

ألا يا عتبة الساعه … أموت الساعة الساعه

لقلت كثيرًا ولكنى أقول:

ابن عبد الحميدِ يوم توفى … هَدَّ ركنًا ما كان بالمهدودِ

ما دَرَى نعشُه ولا حاملوه … ما على النعشِ من عفافٍ وجودِ

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم. فكاد أبو العتاهية يموت غمًّا وأسفًا. وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين، ويسلمون إليه فى الفضيلة والسبق وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال:

إنما عظم سليمى حبتى … قصب السكر لا عظم الجمل

---

(١) حَصَانٌ: عفيفة.

(٢) النَّور: الزهر الأبيض للشجر.

(٣) الشطر الأول فيه خلل بالنظم أو تصحيف بالكتابة.

وإذا أدنيــــت منهــــا بصـــــلاً غلـب المسـكُ علـى ريـحِ البصـل

هذا مع قوله:

إذا قـــامَتْ لمشــيتها تَثَنـــتْ كـــأنَّ عظامَهـــا مـــن خـــيزرانِ

ومع قوله فى الفخر:

كـأن مثـارَ النقـعِ[1] فـوق رؤوسِـنَا وأسـيافَنَا ليـلٌ تَهَـاوَى كواكِبُــهْ

ومع قوله أيضًا:

إذا أنت لم تشرَبْ مرارًا على القذى[2] ظمئـتَ وأىُّ النـاس تصفـو مشـارِبُهُ

وأبو الطيب المتنبى فى فضله المشهور، وأخذه بزمام الكلام، وقوته على رقائق المعانى، وعلى ما فى شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول:

وضاقَتِ الأرضُ حتـى صار هـارِبُهُمْ إذا رأى غـير شـئ ظنـه رجـــلا

وغير شىء معناه المعدوم، والمعدوم لا يُرى فهذا سقط فاحش.

ومما يستهجن من قوله ويكاد أن تمجه[3] الأسماع قوله:

تقلقلـت[4] بـالهمِّ الـذى قلقـل الحَشَـا قلاقـــلُ عِيـــسٍ كلّهُـــنَّ قلاقِـــل

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى:

إذا كـان مثلـك كـان، أو هـو كـائن فـــبرئت حينئـــذٍ مـــن الإســـلام

ومن معانيه المسروقة قوله:

ونهـب نفـوس أهــل النهــب أولى بـأهل المجـد مـــن نهـب القمــاش

أخذه من قول أبى تمام:

إن الأسـود أسـود الغـاب همتهـا يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

قال أبو عبد الله الزبيرى: اجتمع راوية جرير، وراوية كثير، وراوية جميل، وراوية الأحوص، وراويـة نصيـب، فافتخر كل منهم، وقال: صاحبى أشعر، فحكموا السيدة سكينة بنت الحسين، رضى الله تعالى عنهما، بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر، فخرجوا حتى استأذنوا عليها وذكروا لها أمرهم. فقالت لراوية جرير: أليس صاحبك الذى يقول:

طرقتـك[5] صـائدة القلـوب وليـس ذا وقـــت الزيـــارة فـــارجعى بســـلام

وأى ساعة أحلى من الزيارة بالطروق، قبح الله صاحبك وقبح شعره، فهلاَّ قال: فادخلى بسلام.

ثم قالت لراوية كثير: أليس صاحبك الذى يقول:

يقـــر بعينـــى مـــا يقـــرّ بعينهـــا وأحسـنُ شـئٍ مَـا بـهِ العـينُ قـرَّتِ

وليس شىء أقر بعينها من النكاح أيحب صاحبك أن يُنْكَحَ، قبح الله صاحبك وقبح شعره.

ثم قالت لراوية جميل: أليس صاحبك الذى يقول:

فلـو تركَـتْ عقلـى معـى ما طلَبْتَهـا ولكن طلابيهـا لِمَـا فـات مـن عقلـى

(١) النقع: غبار المعركة.
(٢) القذى: عكر الماء وعدم صفائه.
(٣) مجته الأسماع: أنفته وعافته.
(٤) القلقلة: ضد السكون.
(٥) الطروق: الإتيان ليلاً.

فما أراه هوى، وإنما طلب عقله، قبح اللّه صاحبك وقبح شعره.

ثم قالت لراوية نصيب: أليس صاحبك الذى يقول:

أهيم بدعدٍ ما حييتُ فإن أمُتْ   فواحزنى مَنْ ذا يهيم بها بعدى

فما له همة إلا مَنْ يتعشقها بعده، قبحه اللّه وقبح شعره، هلاّ قال:

أهيم بدعدٍ ما حييتُ فإن أمتْ   فلا صلحت دعد لذى خلةٍ بعدى

ثم قالت لراوية الأحوص: أليس صاحبك الذى يقول:

من عاشقين تواعدا وتراسلا   ليلاً إذا نجم الثريا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذّها   حتى إذا وضحَ الصباحُ تفرقا

قبحه اللّه وقبح شعره. هلاّ قال: تعانقا.

فلم تثن على واحد منهم، وأحجم رواتهم عن جوابها، رضى اللّه عنها.

وروى ابن الكلبى قال: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن العزيز، وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله، فأقاموا ببابه أيامًا لا يؤذن لهم فى الدخول، حتى قدم عدى بن أرطأة عليه، وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال:

يا أيها الرجل المزجى مطيتَهُ[1]   هذا زمانُك إنى قد خلا زمنى

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيَهُ   أنى لدى الباب كالمشدود فى قرنِ

لا تَنْسَ حاجتنا لاقيت مغفرة   قد طال مكثى عن أهلى وعن وطنى

فقال: نعم يا أبا عبد اللّه. فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه قال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك، وألسنتهم مسمومة، وسهامهم صائبة. فقال عمر رضى اللّه عنه: ما لى وللشعراء. فقال يا أمير المؤمنين: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مدح فأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم. قال: صدقت فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبى ربيعة القرشى، قال: لا قرب اللّه قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القائل:

ألا ليتنى فى يوم تدنو منيتى   شممت الذى ما بين عينيك والفم

وليت طهورى كان ريقك كله   وليت حنوطى[2] من مشاشك[3] والدم

ويا ليت سلمى فى القبور ضجيعتى   هنالك أو فى جنة أو جهنم

فليته عدو اللّه تمنى لقاءها فى الدنيا، ثم يعمل عملاً صالحًا، واللّه لا يدخل علىّ أبدًا، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: جميل بن معمر العذرى، قال أليس هو القائل:

ألا ليتنا نحيا جميعًا فإن نمت   يوافى لدى الموت ضريحى ضريحها

فما أنا فى طول الحياة براغب   إذا قيل قد سوّى عليها صفيحها[4]

أظل نهارى لا أراها وتلتقى   مع الليل روحى فى المنام وروحها

واللّه لا يدخل علىّ أبدًا، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: كثير عزة. قال: أليس هو القائل:

رهبان مدين والذين عهدتهم   يبكون من حذر الفراق قعودا

---

(١) أزجيت المطيّةُ: دفعت وسرت.
(٢) الحنوط: طيب للأموات.
(٣) المشاش: العظم لا مخ فيه.
(٤) الصفيح: أحجار ترصف فوق الفين.

ويسمعون كما سمعتُ حديثها ... خروا لعزَّةَ ركعًا وسجودا

أبعده الله، فوالله لا يدخل عليَّ أبدًا، فمن بالباب غيره ممن ذكرت، قال الأحوص الأنصارى، قال: أبعده الله، والله لا دخل عليَّ أبدًا، أليس هو القائل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه:

الله بينى وبين سيدها ... يفر منى بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: همام بن غالب الفرزدق، قال: أليس هو القائل يفتخر بالزنا فى قوله:

هما دليانى من ثمانين قامةً ... كما انقضَّ بازٌ لَيِّنُ الريش كاسِرُهْ

فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا ... أحىٌّ، فيرجى أم قتيلٌ نحاذِرُهْ

فقلت ارفعوا الأحراس لا يفطنوا بنا ... ووليت فى أعقابِ ليلٍ أبادِرُهْ

والله لا يدخل عليَّ أبدًا، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأخطل التغلبى. قال: أليس هو القائل:

ولستُ بصائمٍ رمضانَ عمرى ... ولست بآكلٍ لحمَ الأضاحِى

ولستُ بزاجرٍ عيسًا بكورًا ... إلى أطلالِ مكةَ بالنجاحِ

ولست بقائمٍ كالعبد يدعو ... قُبَيْلَ الصبح حىَّ على الفلاحِ

ولكنى سأشربُها شمولاً[١] ... وأسجدُ عند منبلج الصباحِ

أبعده الله عنى، فوالله لا دخل عليَّ أبدًا، ولا وطئ لى بساطًا، وهو كافر. فمن بالباب غيره من الشعراء من ذكرت؟ قال: جرير. قال: أليس هو القائل:

طرَقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقتَ الزيارة فارجعى بسلام

فإن كان ولابد فهذا، فَأذِنْ له. قال عدى بن أرطأة: فخرجت فقلت: ادخُلْ يا جرير. فدخل وهو يقول:

إن الذى بعث النبىَّ مُحمدًا ... جعل الخلافة فى الإمامِ العادلِ

وسع الخلائقَ عدلَه ووقارُه ... حتى ارعووا[٢] وأقام ميل المائلِ

إنى لأرجو منه نفعًا عاجلاً ... والنفس مولعة بحبِّ العاجلِ

واللّه أنزلَ فى الكتابِ فريضةً ... لابن السبيل وللفقير العائلِ

فلما مثل بين يديه، قال: يا جرير اتق الله، ولا تقل إلا حقًّا، فأنشأ يقول:

كم باليمامةِ من شعثاءَ أرملةٍ ... ومن يتيمٍ ضعيفِ الصوت والنظرِ

ممن بعدلك يكفى فَقْد والده ... كالفرخِ فى العشِّ لم يدرج ولم يطرِ

أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت ... أم قد كفانى ما بلغتَ من خبرى

إنا لنرجو إذا ما الغيثُ أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطرِ

إن الخلافة جاءَتْه على قدرٍ ... كما أتى ربَّه موسى على قدرِ

هذى الأراملُ قد قضيتَ حاجتها ... فمَنْ لحاجةِ هذا الأرملِ الذكرِ

الخيرُ ما دُمْتَ حيًّا لا يفارقنا ... بوركْتَ يا عمر الخيراتِ من عمرِ

---

(١) الشمول: من أسماء الخمر.

(٢) أرعوى: ارتدع.

فقال: واللّه يا جرير لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين دينارًا فعشرة أخذها عبد اللّه ابني، وعشرة أخذتها أم عبد اللّه، ثم قال لخادمه: ادفع إليه العشرة الثالثة، فقال: واللّه يا أمير المؤمنين إنها لأحبُّ مالٍ اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: وما وراءك يا جرير؟ فقال: ورائى ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير يعطى الفقراء، ويمنع الشعراء، وإننى عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

رأيت رقى الجن لا يستفزه ... وقد كان شيطانى من الجن راقيًا[١]

وما جاء فى كبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قال الأحنف: الشريف من عُدَّتْ سقطاته، وقَلَّتْ عثراته. وقالوا: كل صارم ينبو، وكل جواد يكبو. وكان الأحنف بن قيس حليمًا سيدًا يضرب به المثل، وقد عُدَّتْ له سقطة. وهو أن عمرو بن الأهتم دسَّ إليه رجلاً يسفهه، فقال: يا أبا بحر، ما كان أبوك فى قومه؟ قال: كان أوسطهم وسيدهم، ولم يتخلف عنهم. فرجع إليه ثانيًا ففطن أنه من قبل عمرو بن الاهتم، فقال: ما كان أبوك؟ قال: كانت له فتوة، ومروءة، ومكارم أخلاق، ولم يكن أهتم سلاجًا[٢] .

وقال سعيد بن المسيب: ما فاتنى الأذان فى مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منذ أربعين سنة، ثم قام يريد الصلاة، فوجد الناس قد خرجوا من المسجد.

وقال قتادة: ما نسيت شيئًا قط. ثم قال: يا غلام ناولنى نعلى، قال: النعل فى رجلك.

وكان هشام بن عبد الملك من رجال بنى أمية ودهاتهم وقد عدت له سقطات، منها أن الحادى[٣] حدا به يومًا فقال:

إنى عليك أيها النجىّ ... أكرم من يمشى به المطىّ

فقال هشام: صدقت. وذكره عنده سليمان، وأخوه فقال: واللّه لأشكونه يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك، ولما ولى الخلافة قال: الحمد للّه الذى أنقذنى من النار بهذا المقام.

قال النابغة: أى الرجال المهذب، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أى لم تؤثر فيه شياطين الشعر.
(٢) سلاجًا: أكولاً.
(٣) الحادى: المنشد الذى يقود الإبل.

الباب العاشر فى التوكل على اللّه تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول فى التوكل على اللّه تعالى

قال اللّه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(٣).

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «يدخل الجنة أقوام افئدتهم مثل أفئدة الطير»(٤)، رواه مسلم. قيل: معناه يتوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة. وعن البراء بن عازب رضى اللّه عنه، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «لو توكلتم على اللّه حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا(٥)، وتعود بطانًا». وأوحى اللّه تعالى إلى داود عليه السلام: «يا داود مَنْ دعانى أجَبْتُهُ، ومَنِ استغاثنى أغَثْتُهُ، ومَنْ استنصرنى نَصَرْتُهُ، ومَنْ توكَّلَ عليَّ كفَيْتُهُ، فأنا كافى المتوكلين، وناصر المستنصرين، وغياث المستغيثين، ومجيب الداعين».

وحكى أنه كان فى زمن هارون الرشيد، قد حصل غلاء سعر وضيق حال، حتى اشتد الكرب(٦) على الناس اشتدادًا عظيمًا، فأمر الخليفة هارون الرشيد بكثرة الدعاء، والبكاء، وأمر بكسر آلات الطرب. ففى بعض الأيام رؤى عبد يصفق ويرقص ويغنى، فحمل إلى الخليفة هارون الرشيد، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس فقال: إن سيدى عنده خزانة بُرٍّ(٧) وأنا متوكل عليه أن يطعمنى منها، فلهذا أنا إذًا لا أبالى، فأنا أرقص وأفرح، فعند ذلك قال الخليفة: إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على اللّه أولى، فسلم الناس أحوالهم وأمرهم بالتوكل على اللّه تعالى.

وحكى أن حاتمًا الأصم كان رجلاً كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، و لم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل، فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربِّه فى هذا العام حاجًّا، ويدعو لكم، ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئًا، ونحن على ما ترى من الفاقة(٨) فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له، ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء فإنه مناول الرزق، وليس برزاق، فذكرتهم ذلك. فقالوا: صدقْتِ واللّه هذه الصغيرة، يا أبانا انطلق حيث أحببتَ. فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافرًا وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم، كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده

---

(١) سورة الفرقان:٥٨.

(٢) سورة الأنفال:٢.

(٣) سورة الطلاق:٣.

(٤) ابن ماجة فى الزهد ٤١٦٤.

(٥) الخمص: ضمور البطن.

(٦) الكرب: الغم.

(٧) بُرٌّ: قمح.

(٨) الفاقة: شدة الفقر والحاجة.

يلومون تلك الصغيرة، ويقولون: لو سكت ما تكلمنا. فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت: إلهى وسيدى ومولاى عودت القوم بفضلك، وأنك لا تضيعهم، فلا تخيبهم، ولا تخجلنى معهم.

فبينما هم على هذه الحالة إذا خرج أمير البلدة متصيدًا فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم فاستسقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: مَنْ أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم. فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهى وسيدى سبحانك، البارحة بتنا جياعًا، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا، ثم إنها أخذت كوزًا[1] جديدًا وملأته ماء، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير، فقال: لا واللّه، بل لعبد من عباد اللّه الصالحين يعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به. فقال الوزير: يا سيدى لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر، ولم يخلف لعياله شيئًا، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعًا. فقال الأمير: ونحن أيضًا قد أثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم. ثم حلَّ الأمير منطقته من وسطه، ورمى بها فى الدار، ثم قال لأصحابه: مَنْ أحبنى فَلْيُلْقِ منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم ثم انصرفوا. فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق، فلما نزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالاً جزيلاً، واستردّها منهم. فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديدًا فقالوا لها: ما هذا البكاء إنما يجب أن تفرحى، فإن اللّه وسع علينا. فقال: يا أم، واللّه إنما بكائى كيف بتنا البارحة جياعًا، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين، اللّهم انظر إلى أبينا ودبره بأحسن التدبير.

هذا ما كان من أمرهم. وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فإنه لما خرج محرمًا، ولحق بالقوم توجع أمير الركب، فطلبوا له طبيبًا فلم يجدوا، فقال: هل من عبد صالح؟ فدلّ على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفى الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب. فنام تلك الليلة مفكرًا فى أمر عياله، فقيل له فى منامه: يا حاتم من أصلح معاملته أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على اللّه تعالى، فلما قضى حجه ورجع تلقّاه أولاده، فعانق الصبية الصغيرة وبكى ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين، وإن اللّه لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به فعليكم بمعرفته والاتكال عليه، فإنه من توكل على اللّه فهو حسبه.

ومن كلام الحكماء: مَنْ أيقن أن الرزق الذى قسم لا يفوته تعجل الراحة، ومن علم أن الذى قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع[2]، ومن علم أن مولاه خير له من العباد فقصده كفاه همه، وجمع شمله.

وفى الحديث عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال: كنت عند النبى صلى اللّه عليه وسلم يومًا فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: أحفظ اللّه يحفظك، احفظ اللّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللّه، وإذا استعنت فاستعن باللّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفعك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه اللّه لك، ولو اجتمعت على أن تضرك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتابه عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»[3].

ورفع إلى الرشيد أن بدمشق رجلاً من بنى أمية، عظيم المال والجاه، كثير الخيل والجند، يخشى على المملكة منه، وكان الرشيد يومئذٍ بالكوفة، قال منارة خادم الرشيد: فاستدعانى الرشيد وقال: اركب الساعة إلى دمشق، وخذ معك مائة غلام، وائتنى بفلان الأموى، وهذا كتابى إلى العامل لا توصله له إلا إذا متنع عليك، فإذا أجاب

---

(١) كوزًا: وعاء صغير للشرب.

(٢) الجزع: الخوف والفزع.

(٣) أخرجه: الترمذى فى صفة القيامة والرقائق والورع ٢٥١٦.

فقيَّده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه، وما يتكلم به، واذكر لى حاله ومآله، وقد أجلتك لذهابك ستًّا، ولمجيئك ستًّا، ولإقامتك يومًا. أفهمت؟ قلت: نعم، قال: فسر على بركة الله.

فخرجت أطوى المنازل ليلاً ونهارًا، لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق، فلما فتح الباب دخلت قاصدًا نحو دار الأموى، فإذا هى دار عظيمة هائلة، ونعمة طائلة، وخدم وحشم، وهيبة ظاهرة، وحشمة وافرة، ومصاطب متسعة، وغلمان فيها جلوس، فهجمت على الدار بغير إذن فبهتوا، وسألوا عنى، فقيل لهم: إن هذا رسول أمير المؤمنين. فلما صرت فى وسط الدار رأيت أقوامًا محتشمين فظننت أن المطلوب فيهم. فسألت عنه، فقيل لى: هو فى الحمام، فأكرمونى وأجلسونى وأمروا بمن معى ومَنْ صحبنى إلى مكان آخر، وأنا أنتقد[1] الدار، وأتأمل الأحوال حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان، وحفدة وغلمان، فسلم علىَّ وسألنى عن أمير المؤمنين، فأخبرته أنه بعافية فحمد الله تعالى، ثم أحضرت له أطباق الفاكهة.

فقال: تقدم يا منارة كُلْ معنا. فتأملت تأملاً كثيرًا، إذ لم يُكَنِّنى، فقلت: ما آكل، فلم يعاودنى ورأيت ما لم أره إلا فى دار الخلافة، ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيبًا ولا أعطر رائحة، ولا أكثر آنية منه، فقال: تقدم يا منارة فكُلْ، قلت: ليس لى به حاجة، فلم يعاودنى، ونظرت إلى أصحابى فلم أجد أحدًا منها عندى فحرت لكثرة حفدته، وعدم من عندى، فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر ثم قام فصلى الظهر، فأتم الركوع والسجود، وأكثر من الركوع بعدها، فلما فرغ استقبلنى وقال: ما أقدمك يا منارة، فناولته كتاب أمير المؤمنين فقبله ووضعه على رأسه ثم فضه وقرأه. فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه، وسائر عياله فضاقت الدار بهم على سعتها، فطار عقلى وما شككت أنه يريد القبض علىّ. فقال: الطلاق يلزمه. والحج والعتق، والصدقة، وسائر أيمان البيعة، لا يجتمع اثنان منكم فى مكان واحد حتى ينكشف أمره، ثم أوصاهم على الحريم، ثم استقبلنى وقدم رجليه.

وقال: هات يا منارة قيودك، فدعوت الحداد فقيده، وحمل حتى وضع فى المحمل، وركبت معه فى المحمل وسرنا.

فلما صرنا فى ظاهر دمشق ابتدأ يحدثنى بانبساط ويقول: هذه الضيعة لى تعمل فى كل سنة بكذا وكذا، وهذا البستان لى وفيه غرائب الأشجار، وطيب أثمار كذا وكذا، وهذا المزارع يحصل لى منها كل سنة كذا وكذا، فقلت: يا هذا ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذنى خلفك وهو بالكوفة ينتظرك وأنت ذاهب إليه ما تدرى ما تقدم عليه وقد أخرجتك من منزلك، ومن بين أهلك، ونعمتك وحيدًا فريدًا، وأنت تحدثنى حديثًا غير مفيد ولا نافع لك، ولا سألتك عنه، وكان شغلك بنفسك أولى بك؟ فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[2]، لقد أخطأت فراستى فيك، يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة، إلا لوفور عقلك، فإذا أنت جاهل عامى لا تصلح لمخاطبة الخلفاء، أما خروجى على ما ذكرت فإنى على على ثقة من ربى، الذى بيده ناصيتى وناصية أمير المؤمنين، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى، فإن كان قد قضى علىّ بأمر فلا حيلة لى بدفعه، ولا قدرة لى على منعه، وإن لم يكن قد قدر على بشئ، فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضرونى لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى، وما لى ذنب فأخاف، وإنما هذا واشٍ وشى عند أمير المؤمنين

---

(١) أنتقد: أتفقد وأفحص.

(٢) سورة البقرة:١٥٦.

ببهتان[١] ، وأمير المؤمنين كامل العقل، فإذا اطلع على براءتى فهو لا يستحل مضرتى، وعلىّ عهد اللّه لا كلمتك بعدها إلا جوابًا. ثم أعرض عنى، وأقبل على التلاوة.

وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر، وإذا النجب قد استقبلنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا، فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض. فقال: هات يا منارة، أخبرنى من يوم خروجك عنى إلى يوم قدومك على، فابتدأت أحدثه بأمورى كلها مفصلة، والغضب يظهر فى وجهه، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه وخواصه وضيق الدار بهم، وتفقدى لأصحابى، فلم أجد منهم أحدًا أسود وجهه، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلل وجهه، فلما قلت: إنه قدم رجليه، اسفر وجهه، واستبشر، فلما أخبرته بحديثى معه فى ضياعه وبساتينه، وما قلت له، وما قال لى قال: هذا رجل محسود على نعمته، ومكذوب عليه. وقد أزعجناه وأرعبناه، وشوّشنا عليه، وعلى أولاده وأهله، أخرج إليه، وانزع قيوده، وفكه، وادخله علىّ مكرمًا. ففعلت.

فلما دخل قبّل الأرض فرحب به أمير المؤمنين، وأجلسه واعتذر إليه، فتكلم بكلام فصيح فقال له أمير المؤمنين: سل حوائجك، فقال: سرعة رجوعى إلى بلدى، وجمع شملى بأهلى وولدى، قال: فسل غيره. قال: عدل أمير المؤمنين فى عماله، ما أحوجنى إلى سؤال.

قال: فخلع عليه أمير المؤمنين، ثم قال: يا منارة اركب الساعة معه حتى ترده إلى المكان الذى أخذته منه. قم فى حفظ اللّه وودائعه ورعايته، ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك.

فانظر إلى حسن توكله على خالقه، فإنه من توكل عليه كفاه، ومن دعاه لبّاه، ومن سأله أعطاه ما تمناه.

وروى أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار مكتوبة فى التوراة فكتبها وهى:

يا ابن آدم لا تخافن من ذى سلطان ما دام سلطانى باقيًا، وسلطانى لا ينفد أبدًا، يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت خزائنى ملآنة، وخزائنى لا تنفد أبدًا. يا ابن آدم لا تأنَسْ بغيرى وأنا لك، فإن طلبتنى وجدتنى، وإن أنَسْتَ بغيرى فُتُّكَ، وفاتَكَ الخيرُ كله. يا ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعَبْ، وقسَمْتُ رزقك فلا تتعَبْ - وفى أثر منه فلا تطمع، ومن أقل منه فلا تجزع - فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك وكنت عندى محمودًا، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتى وجلالى لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش فى البر، ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك، وكنت عندى مذمومًا. يا ابن آدم خلقتُ السموات السبع والأرضين السبع، ولم أعي بخلقهن، أيعيينى[٢] رغيف أسوقه من غير تعب. يا ابن آدم أنا لك محب فبحقى عليك كن لى محبًّا، يا ابن آدم لا تطالبنى برزق غد، كما لا أطالبك بعمل غد، فإنى لم أنس من عصانى، فكيف من أطاعنى، وأنا على كل شئ قدير وبكل شئ محيط.

وما ثَمَّ إلا اللّه فى كل حالةٍ ... فلا تَتَّكِلْ يومًا على غير لطفِهِ
فكم حالةٍ تأتى ويكرهُهَا الفتى ... وخيرتُه فيها على رغم أنفِهِ

ولمؤلفه رحمه اللّه تعالى:

توكّلْ على الرحمن فى الأمرِ كلّهِ ... فما خابَ حقًا مَنْ عليهِ تَوكّلاَ
وكُنْ واثقًا باللّه واصبِرْ لحكمه ... تَفُزْ بالذى ترجوه منه تفضُّلاَ

(١) البهتان: الزور والكذب.

(٢) أيعيينى: من الإعياء وهو التعب الشديد.

الفصل الثانى فى القناعة والرضا بما قسم اللّه تعالى

جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[١] أن المراد بها القناعة. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «القناعة مالٌ لا ينفد». وقيل: يا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما القناعة؟ قال: «الإياس مما فى أيدى الناس، وإياكم والطمعَ فإنه الفقرُ الحاضر». وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه، من القناعة بالجانب الأوفر، وإنه كان يشتهى الشئ فيدافعه سنة. قال الكندى:

العبد حرٌّ ما قنع والحرُّ عبدٌ ما طمع

وقال بشر بن الحرث: خرج فتى فى طلب الرزق بينما هو يمشى فأعيا، فأوى إلى خراب يستريح فيه، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط فتأملها فإذا هي:

إنى رأيتك قاعدًا مستقبلى فعلمتُ أنكَ للهموم قرينُ[٢]
هوِّنْ عليك وكُنْ بربِّك واثقًا فأخو التوكّل شأنه التهوينُ
طرَحَ الأذى عن نفسه فى رزقه لَمَّا تيَقَّنَ أنه مضمونُ

قال: فرجع الفتى إلى بيته ولزم التوكل. وقال: اللّهم أدبنا أنت.

قال الجاحظ: إنما خالف اللّه تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم فى مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك، والسياسة، والتجارة، والفلاحة، وفى ذلك بطلان المصالح، وذهابُ المعايش. فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيرًا أو خلفًا، قال: ويلك يا حجام، والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك، فجعل اللّه تعالى الاختلاف سبيلاً للائتلاف، فسبحانه من مدبر قادر حكيم، ألا ترى إلى البدوى فى بيت من قطعه حيش معمد بعظام الجيف، كلبه معه فى بيته، لباسه شملة من وبر أو شعر، ودواؤه بعر الإبل، وطيبه القطران وبعر الظباء، وحلى زوجته الودع، وثماره المقل[٣]، وصيد اليربوع[٤]، وهو فى مفازة لا يسمع فيها إلا صوت بومة وعواء ذئب، وهو قانع بذلك مفتخر به؟!

وقال سعد بن أبى وقاص رضى اللّه تعالى عنه: يا بنى إذا طلبت الغنى فاطلبه فى القناعة فإنها مال لا ينفد، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس، فإنك لم تيأس من شئ إلا أغناك اللّه عنه.

وأصاب داود الطائى فاقة كبيرة، فجاءه حماد بن أبى حنيفة رضى اللّه عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه، وقال: هى من مال رجل ما أقدّم عليه أحدًا فى زهده وورعه وطيب كسبه. فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئًا لقبلتها تعظيمًا للميت، وإكرامًا للحى، ولكنى أحب أن أعيش فى عز القناعة.

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: اتخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البرية، واشربوا ن الماء القراح[٥]، واخرجوا من الدنيا بسلام.

وأنشد المبرد:

إنْ ضَنَّ زيدٌ بما فى بطنِ راحتِهِ فالأرضُ واسعةٌ والرزقُ مبسوطَ
إنَّ الذى قدَّر الأشياء بحكمتِهِ لم ينسَنى قاعدًا والرحلُ محطوطَ

---

(١) سورة النحل:٩٧.
(٢) قرين: خليط وصاحب.
(٣) المقل: ثمرة شجر الدَّوم.
(٤) اليربوع: من أنواع الزواحف.
(٥) القراح: البارد الصافى.

قال عبد الواحد بن زيد: ما أحسب أن شيئًا من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة. قيل له: متى يكون العبد راضيًا عن ربه؟ قال: إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة.

وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدى، فسكر يومًا ففاتته الصلاة، فجاءته جارية له بجمرة فوضعتها على رجله فانتبه مذعورًا. فقالت له: إذا لم تصبر على نار الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة، فقام فصلى الصلوات وتصدق بما يملكه. وذهب يبيع البقل فدخل عليه الفضيل وابن عيينة فإذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شئ، فقالا له: إنه لم يدع أحد شيئًا لله إلا عوضه الله منه بديلاً فما عوضك عما تركت له؟ قال: الرضا بما أنا فيه.

وقال الثورى: ما وضع أحد يده في قصعة غيره إلا ذَلّ له.

وقال الفضيل: مَنْ رضى بما قسم الله له بارك الله له فيه. وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: الشمس فى الشتاء جلالى، ونور القمر سراجى، وبقل البرية فاكهتى، وشعر الغنم لباسى، أبيت حيث يدركنى الليل، ليس لى ولد يموت، ولا بيت يخرب، أنا الذى كببت الدنيا على وجهها.

إنَّ القناعةَ من يحلل بباحتها ... لم يلقَ فى ظلها همًّا يؤرقه[1]

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: انظروا إلى الطير تغدو وتروح، ليس معها شئ من أرزاقها لا تحرث ولا تحصد، والله يرزقها. فإن زعمتم أنكم أكبر بطونًا من الطير، فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها.

وقيل: وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا إليه خلته[2] فقال له: ألست القائل:

لقد علمتُ وما الإسْراف من خَلَقى ... أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى إليه فيعيينى تطلّبه ... ولو قعدتُ أتانى ليس يُعيينى

وقد جئت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق! فقال: يا أمير المؤمنين لقد وعظتَ فأبلغت. وخرج فركب ناقته وكرّ إلى الحجاز راجعًا. فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال فى نفسه: رجل من قريش قال حكمة ووفد علىَّ ورددته خائبًا، فلما أصبح وجّه إليه بألفى دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة وأعطاه المال. فقال: أبلغ أمير المؤمنين منى السلام، وقل له: كيف رأيت قولى، سعيت فأكديت فرجعت، فأتانى رزقى فى منزلى.

ولما ولى عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له: أنصارى، وثقفى، فلما سارا تخلف الأنصارى وقال: الذى أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطينى، فوفد الثقفى وقال: أحوز الحظين. فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له: ما فعل زميلك الأنصارى؟ قال: رجع إلى أهله فأمر للثقفى بأربعة آلاف دينار وبعث إلى الأنصارى، بثمانية آلاف فخرج الثقفى وهو يقول:

فواللّه ما حِرْصُ الحريصِ بنافعٍ ... فيغنى ولا زهدُ القنوعِ بضائرِ
خرجنا جميعًا من مساقطِ رؤسنا ... على ثقة منا بجود ابن عامرِ
فلما أنخنَا الناجعاتِ ببابهِ ... تخلّف عنى اليثربى ابن جابرِ
وقال ستكفينى عطيةَ قادرٍ ... على ما يشاء اليومَ للخلق قاهرِ
فإن الذى أعطى العراقَ ابنَ عامر ... لربى الذى أرجو لسدِّ مفاقِرى[1]

(١) يؤرقه: يحرم النوم.

(٢) الخلة: الخلق والصفة فى الإنسان.

فقلت خلا لى وجهه ولعله ... سيجعل لى حظ الفتى المتزاور
فلما رآنى سألَ عنه صبابةً ... إليه كما حنت ظؤار الأباعرِ[٢]
فأبت وقد أيقنت أن ليس نافعًا ... ولا ضائرًا شئ خلاف المقادرِ

وقيل: أوحى اللّه تعالى إلى موسى صلوات اللّه وسلامه عليه: أتدرى لِم رزقتُ الأحمق؟ قال: لا يا رب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال. ولبعض العرب:

ولا تجزَعْ إذا أعسَرْتَ يومًا ... فقد أيسَرْتَ فى الزمنِ الطويلِ
ولا تظَنَنْ بربِّك ظنَّ سوءٍ ... فإن اللّه أولى بالجميلِ
وإن العسرَ يتبَعُه يسارٌ ... وقولُ اللّه أصدقُ كلِّ قيلِ
فلو أن العقولَ تسوقُ رزقًا ... لكان المال عند ذوى العقول

وأوحى اللّه تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام: انظر إلى الأرض. فنظر إليها فانفجرت فرأى دودة على صخرة ومعها طعام. فقال له: أترانى لم أغفل عنها، وأغفل عنك وأنت نبىّ.وابن نبىّ؟!

ودخل على بن أبى طالب رضى اللّه عنه المسجد وقال لرجل كان واقفًا على باب المسجد: أمسك علىّ بغلتى. فأخذ الرجل لجامها ومضى، وترك البلغة، فخرج على وفى يده درهمان ليكافئ بهما الرجل على إمساكه بغلته فوجد البلغة واقفة بغير لجام، فركبها ومضى ودفع لغلامه درهمين يشترى بهما لجامًا، فوجد الغلام اللجام فى السوق قد باعه السارق بدرهمين، فقال على رضى اللّه عنه: إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك البصر، ولا يزداد على ما قدّر له.

وقيل لراهب: من أين تأكل؟ فأشار إلى فيه، وقال: الذى خلق هذه الرحى يأتيها بالطحين. وقال سليم بن المهاجر الجيلى:

كسوتُ جميلَ الصبر وجهى فصانه ... به واللّهِ عن غِشيانِ كل بخيلِ
فما عشتُ لم آت البخيل ولم أقَمْ ... على بابه يومًا مَقام ذليلِ
وإنّ قليلاً يسترُ الوجهَ أن يرى ... إلى الناس مبذولاً لغير قليلِ

وصلّى معروف الكرخى خلف إمام، فلما فرغ من صلاته قال الإمام لمعروف: من أين تأكل؟ قال: اصبر حتى أعيد صلاتى التى صليتها خلفك، قال: ولم؟ قال: لأن مَنْ شك فى رزقه، شكَّ فى خالقه. وقال أبو حازم: ما لم يكتب لى، لو ركبت الريح ما أدركته. وقال عمر بن أبى عمر اليونانى:

غلا السعرُ فى بغدادَ من بعد رخصِهِ ... وإنى فى الحالَيْنِ باللّه واثقُ
فلستُ أخافُ الضيقَ واللّه واسعٌ ... غناه، ولا الحرمانَ واللّه رازقُ

وقال القهستانى:

غنى بلا دنيا عن الخلق كلهم ... وإن الغنى الأعلى عن الشئ لا به

وقال منصور الفقيه:

الموتُ أسهلُ عندى ... بين القنا والأسنّهْ

---

(١) مفاقِرى: حاجاتى.

(٢)الأباعِر: أى كما عطفت على أولاد غيرها.

والخيـــل تجـــرى ســـراعًا		مقطعـــات الأعنّـــة
مـــن أن يكـــون لنـــذل		علـــىّ فضـــلٌ ومنّـــة(١)

وأنشد أعرابى:

أيا ملك لا تسأل النـاس والتمِسْ		بكفّيْك فضلَ اللّـه، فاللّـه أوسعُ
ولـو تسألُ النـاسَ الترابَ لأوشكوا		إذا قيـل هـاتوا أن يلمـوا ويمنعـوا

وقال رجل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: أوصنى، قال: «عليك باليأس مما فى أيدى الناس، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر».

وقيل: إذا وجدت الشئ فى السوق فلا تطلبه من صديقك. وقيل لأعرابية: من أين معاشكم؟ قالت: لو لم نعش إلاّ من حيث نعلم، لم نعش. وقال أعرابى: أحسن الأحوال حال يغبطك بها مَنْ دونك، ولا يحقرك معها مَنْ فوقك. وقال المعرى:

إذا كنت تبغى العيشَ فابْغِ توسُّطا		فعنـد التنـاهى يقصـر المتطـاولُ
توقـى البـدور النقـص وهـى أهِلّـة		ويدركهـا النقصـانُ وهـى كوامـلُ

وقال آخر:

اقنـع بأيسـر رزقٍ أنـتَ نائلـه		واحـذَرْ ولا تتعـرَّض لـلإرادات
فما صفا البحـرُ إلا وهـو منتقـصٌ		ولا تعكّـرَ إلا فـى الزيـارات

وقال أعرابى: استظهر على الدهر بخفة الظهر. قال هشام بن إبراهيم البصرى:

وكم ملكٍ جانبته عن كراهةٍ		لإغلاق بابٍ أو لتجديد حاجبِ
ولى فى غنى نفسى مراد ومذهب		إذا انصرفت عنى وجوه المذاهبِ

وقيل: ينبغى أن يكون المرء فى دنياه كالمدعو إلى الوليمة إن أتته صحفة تناولها، وإن لم تأته لم يرصدها، ولم يطلبها.

وقال شقيق بن إبراهيم البلخى. قال لى إبراهيم بن أدهم رحمه اللّه تعالى: أخبرنى عما أنت عليه. قلت: إن رزقت أكلت، وإن منعت صبرت، قال: هكذا تعمل كلاب بلخ. فقلت: كيف تعمل أنت؟ قال: إن رزقت آثرت، وإن منعت شكرت. وقال بعضهم:

هـى القناعـةَ فالزَمْهـا تَعِشْ ملكـا		لـو لم يكـن منهـا إلا راحـةَ البـدنِ
وانظـرْ لمَـنْ مَلَـكَ الدنيـا بأجمعهـا		هـل راحَ منهـا بغير القَطْنِ والكَفَـنِ

وقال آخر:

وإن القناعـــة كـــنزُ الغنـــى		فصـــرتُ بأذيلهـــا ممتســـكْ
فـــلا ذا يرانـــى علـــى بابـــهِ		ولا ذا يرانـــى لـــه منهمـــكْ
فصـــرتُ غنيًـــا بـــلا درهـــمِ		أمـــرُّ علـــى النـاس شـبه الملـكْ

جاء فتح الموصلى إلى أهله بعد العتمة، فلم يجد عندهم شيئًا للعشاء، ووجدهم بغير سراج فجلس ليلته يبكى من الفرح ويقول: بأى يد كانت منى، تركت مثلى على هذه الحالة. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) المنة: التعيير بالصنيع.

الفصل الثالث فى ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾(١)، وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ قال: «يقول ابن آدم: مالى، مالى، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأمضيت؟»(٢).

وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «يا عائشة إن أردت اللحوق بى فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلفى ثوبًا حتى ترقعيه»(٣).

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «صلاح أوَّل هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل، والأمل».

وقيل: الحرص ينقص من قدر الإنسان، ولا يزيد فى رزقه.

وقيل لحكيم: ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب؟ قال: لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب. وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا طاوعتَ حرصك كنت عبدًا ... لكل دنيئةٍ تُدعى إليها

وقال آخر وأجاد:

قد شاب رأسى ورأس الدهر لم يَشِبْ ... إذا الحريصَ على الدنيا لفى تعبِ

وقيل للإسكندر: ما عز الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها. قيل: فما غمّها؟ قال: الحرص عليها. وقال الحسن: لو رأيت الأجل ومروره، لنسيت الأمل وغروره.

وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله غليه وسلم يقول:«ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر، إن أسامة لطويل الأمل».

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: كان نبى الله صلى الله عليه وسلم يخرج فيبول، ثم يمسح بالتراب. فأقول: إن الماء منك قريب.

فيقول: «ما يدرينى لعلى ما أبلغه»(٤) . وعن أبى هريرة رضى الله عنه يرفعه: «لا يزال الكبير شابًا فى اثنين: حب المال، وطول الأمل» وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجدك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، مسئ العمل.

وقيل: مَنْ جرى فى عنان أمله كان عاثرًا(٥) بأجله، لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال. ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان فى قوله:

وذى حرصٍ تراه يلم وفرًا ... لوارثِهِ ويدفعُ عن حماهُ

ككلبِ الصيد يمسكُ وهو طاوٍ ... فريسته ليأكلها سواهُ

---

(١) سورة التكاثر: ١ - ٢.

(٢) مسلم فى الزهد ٢٩٥٨.

(٣) الترمذى فى اللباس ١٧٨٠.

(٤) أحمد فى المسند ٢٦٠٩.

(٥) عاثرًا: زالاً.

ولقد أحسن مَنْ قال فى الجناس الحقيقى:

إذا ما نازعتك النفسُ حرصًا ... فأمسِكْهَا عن الشهوات أمسِكْ

ولا تحرص ليومٍ أنت فيه ... وعدّ فرزق يومك رزق أمسك[١]

ومن كلام الحكماء: إياكم وطولَ الأمل، فإن مَنْ ألهاه أمله أخزاه عمله. قال عبد الصمد بن المعذل:

ولى أملٌ قطعت به الليالى ... أرانى قد فنيت به وداما

وقال الحسن: إياكم وهذه الأمانى فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيرًا قط فى الدنيا، ولا فى الآخرة.

قال قس بن ساعدة:

وَمَا قد تَولّى فهو لا شكّ فائتٌ ... فهل ينفعنى ليتنى ولعلّنِى

وقال آخر:

ولا تتعلّل[٢] بالأمَانِى فإنّها ... عطايا أحاديثِ النفوسِ الكواذبِ

وقال آخر وأجاد:

اللّهُ أصْدَقُ والآمالُ كَاذِبَةٌ ... وجلُّ هذى المُنَى فى الصَّدْرِ وِسْوَاسُ

وقال آخر:

شَطَّ المزار بسُعْدَى وانتهَى الأملُ ... فلاَ خَيالٌ، ولا رَسْمٌ، ولا طَلَلُ

إلاّ رَجَاءٌ فمَا ندرى أندرِكُهُ ... أمْ يستمرُّ فَيأتى دونَه الأجَلُ

وقال أبو العتاهية:

لقد لعبتُ وَجَدَّ الموت فِى طَلَبى ... وإنَّ فى الموتِ لِى شُغْلاً عن اللعبِ

لَو شمرتُ فكرتى فيما خلقت له ... ما اشتد حرصى على الدنيا ولا طَلَبى

وله أيضًا:

تعالى اللّه يَا سلم بن عمرو ... أذلّ الحرصُ أعناقَ الرِّجَالِ

هَبِ الدنيا تَقَادُ إليك عَفْوًا ... أليسَ مصيرُ ذلك لِلزوالِ

وقد ضمنت البيت الأخير فقلت:

أيا مَنْ عاش فى الدُّنيا طويلاً ... وأفنى العمرَ فى قيلٍ وقالِ

وأتعبَ نفسَهُ فيما سيفنى ... وجَمَع من حرامٍ أو حلالِ

هبِ الدنيا تَقاد إليك عفوًا ... أليس مصيرُ ذلك للزوالِ

ومما جاء فى الطمع وذمه: قال على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع. وقال رضى اللّه عنه: ما الخمر صرفًا[٣] بأذهب لعقول الرجال من الطمع.

وفى الحديث: «إياك والطمع، فإنه الفقر الحاضر».

---

(١) أمسك الثانية: نقيض غدك.

(٢) التعلل: التسلى.

(٣) صرف: دون مزج، صافية.

وقال فيلسوف: العبيد ثلاثة: عبد رق، وعبد شهوة، وعبد طمع. وقال بعضهم: مَنْ أراد أن يعيش حرًّا أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع.

وقيل: اجتمع كعب وعبد اللّه بن سلام فقال له كعب: يا ابن سلام مَنْ أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به. قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه؟ قال: الطمع، وشره النفس، وطلب الحوائج إلى الناس. واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعى، فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال: الحلم عند الغضب، والصبر عند الطمع.

وقيل: لما خلق اللّه آدم عليه السلام، عجن بطينته ثلاثة أشياء: الحرص، والطمع، والحسد. فهى تجرى فى أولاده إلى يوم القيامة فالعاقل يخفيها، والجاهل يبديها. ومعناه أن اللّه تعالى خلق شهوتها فيه.

قال إسماعيل بن قطرى القراطيسى:

حسبى بعلمى إن نَفَعْ ... ما الذلُّ إلا فِى الطَمَعْ
من راقبَ اللّه نَزَعْ ... عن سوءِ ما كان صَنَعْ
ما طارَ طيرٌ وارتفعْ ... إلاّ كمَا طار وَقَعْ

وقال سابق البربرى:

يخادع رِيبَ الدهرِ عَن نفسه الفَتَى ... سِفاهًا وريبُ الدهرِ عنها يخادعُهْ
ويطمَعُ فى سوف ويهلك دونها ... وكم مِن حَرِيصٍ أهلكته مطامعُهْ

وقيل لأشعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جارى، فأفتُّ خبزى. وقال أيضًا: ما رأيت رجلين يتسارّان فى جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لى بشئ من ماله. وما زفت عروس إلا كنست بيتى رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إلىّ.

قال بعضهم:

لا تغضبن على امرىء ... لك مانعٌ ما فى يديه
واغضب على الطمعِ استد ... عاك تطلب ما لديه

واللّه سبحانه وتعالى أعلم، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الحادى عشر فى المشورة والنّصيحة والتجارب والنظر فى العواقب

قال اللّه تعالى لنبيه صلى اللّه عليه وسلم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(١)، واختلف أهل التأويل فى أمره بالمشاورة مع ما أمده اللّه تعالى من التوفيق على ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنه أمره بها فى الحرب ليستقر له الرأى الصحيح فيعمل عليه. وهذا قول الحسن. **ثانيها**: أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل. وهذا قول الضحاك. **ثالثها**: أنه أمره بمشاورتهم ليستن(٢) به المسلمون، وإن كان فى غنية عن مشورتهم. وهذا قول سفيان. وقال ابن عيينة: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا أراد أمرًا شاور فيه الرجال، وكيف يحتاج إلى مشاروة المخلوقين والخالق مدبر أمره، ولكنه تعليم منه، ليشاور الرجال الناس، وإن كان عالمًا.

وقال صلى اللّه عليه وسلم: «ما خاب من استخار، ولا ندمَ من استشار، ولا افتقر من اقتصد» .وقال صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ أُعجب برأيه ضلَّ، ومن استغنى بعقله زلَّ(٣) ». وكان يقال: ما استنبط الصواب بمثل المشاورة.

وقال حكيم: المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأى. وقال الحسن: الناس ثلاثة: فرجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل. فأما الرجل الرجل فذو الرأى والمشورة. وأما الرجل الذى هو نصف رجل فالذى له رأى، ولا يشاور. وأما الرجل الذى ليس برجل فالذى ليس له رأى ولا يشاور.

وقال المنصور لولده: خذْ عنى اثنتين: لا تقل فى غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير. وقال الفضل: المشورة فيها بركة وإنى لأستشير حتى هذه الحبشية الأعجمية. وقال أعرابى: لا مال أوفر من العقل، ولا فقر أعظم من الجهل، ولا ظهر أقوى من المشورة. وقيل: من بدأ بالاستخارة وثنى بالاستشارة فحقيق أن لا يخيب رأيه. وقيل: الرأى السديد أحمى من البطل الشديد.

قال أبو القاسم النهروندى:

وما ألف مطرور السنان مسدد ... يعارضُ يومَ الروعِ رأيًا مسددا

وقال علىّ رضى اللّه عنه: خاطر من استغنى برأيه. وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل:

إذا كنتَ ذا رأيِ فكَنْ ذا عزيمةٍ ... فإن فسادَّ الرأيِ أن يتردَّدا

فأضاف إليه قول:

وإن كنتَ ذا عزمٍ فأنفذه عاجلاً ... فإن فسادَ العَزْمِ أَنْ يَتقيَّدا

ولمحمد بن إدريس الطائى:

ذهبَ الصوابُ برأيهِ فكأنّما ... آراؤه اشتقّتْ من التأييدِ

فإذا دجا خطبٌ تبلّج(٤) رأيُهُ ... صبحًا من التوفيق والتسديدِ

ولمحمد الوراق:

إن اللبيبَ إذا تفرَّق أمرُهُ ... فتَقَ الأمور مناظرًا ومشاورَا

وأخو الجهالة يستبدُّ برأيهِ ... فتراه يعتسفُ الأمورَ مخاطِرَا

---

(١) سورة آل عمران:١٥٩.

(٢) ليستن: يأخذوه سنةً.

(٣) زلَّ: عثر وأخطأ.

(٤) تبلّج: أشرق.

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون فى العهد:

لقد بانَ وجهُ الرأى لى غيرَ أننى عدلتُ عن الأمرِ الذى كان أحزما
فكيف يُردُّ الدَّر[١] فى الضرعِ بعدما توزَّع حتى صار نهبًا مقسما
أخاف التواءَ الأمرِ بعد استوائِهِ وأن ينقض الحبل الذى كان أبرما

وقال آخر:

خليلىَّ ليس الرأىُ فى جَنْبِ واحدٍ أشيرا علىَّ اليوم ما تَرَيانِ

ووصف رجل عضد الدولة فقال له: وجه فيه ألف عين وفم، فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب. وقال ازدشير ابن بابك: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة. وقال: لا تستحقر الرأى الجزيل من الرجل الحقير، فإن الدرّة لا يستهان بها لهوان غائصها.

وقال جعفر بن محمد: لا تكونن أول مشير، وإياك والرأى الخطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشيرَنَّ على مستبدٍّ برأيه، ولا على متلوِّن، ولا على لحوح. وقيل: ينبغى أن يكون المستشار صحيح العلم، مهذب الرأى، فليس كل عالم يعرف الرأى الصائب، وكم ناقدٍ فى شئ ضعيف فى غيره.

قال أبو الأسود الدؤلى:

وما كل ذى نصح بمؤتيك نُصْحَه وما كل مؤتٍ نصحَه بلبيبِ
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد فحقّ له من طاعةٍ بنصيبِ

وكان اليونان والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه، وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به لمعان شتى، منها لئلا يقع بين المستشارين منافسة، فتذهب إصابة الرأى؛ لأن من طباع المشتركين فى الآمر التّنافس والطعن من بعضهم فى بعض، وربما سبق أحدهم بالرأى الصواب فحسدوه وعارضوه. وفى اجتماعهم أيضًا للمشورة تعريض السر للإذاعة، فإذا كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة مَنْ أذاعه بالإيهام، فإن عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد، وإن عفا عنهم ألحق الجانى بمن لا ذنب له. وقيل: إذا أشار عليك صاحبك برأى و لم تحمد عاقبته، فلا تجعلن ذلك عليه لومًا وعتابًا بأن تقول: أنت فعلت، وأنت أمرتنى، ولولا أنت. فهذا كله ضجر ولوم وخفة. وقال أفلاطون: إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاتك. وقيل: مَنْ بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره، فهو كمن بذر فى السباخ[٢].

قال الشاعر يمدح مَنْ له رأى وبصيرة:

بَصِيرٌ بأعقابِ الأمُورِ كأنما يخاطبه من كل أمرٍ عَوَاقِبُه

وقال ابن المعتز: المشورة راحة لك، وتعب على غيرك. وقال الأحنف: لا تشاور الجائع حتى يشبع، ولا العطشان حتى يُروى، ولا الأسير حتى يطلق، ولا المقل[٣] حتى يجد.

ولما أراد نوح ابن مريم قاضى مرو أن يزوج ابنته استشار جارًا له مجوسيًّا. فقال: سبحان اللّه الناس يستفتونك، وأنت تستفتينى. قال: لابد أن تشير علىّ، قال: إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال، ورئيس

(١) الدَّر: كثرة اللبن وسيلانه.
(٢) السباخ: مفردها سبخة، ما لا يزرع من الأرض لعلة فيه.
(٣) المقل: ذو الفاقة.

الروم قيصر كان يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار الحسب، ورئيسك محمد، كان يختار الدين، فانظر لنفسك بمن تقتدى.

وكان يقال: من أعطى أربعًا لم يمنع أربعًا: من أعطى الشكر لم يمنع المزيد، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب. وقال: إذا استخار الرجل ربه، واستشار صحبه، وأجهد رأيه فقد قضى ما عليه، ويقضى اللّه تعالى فى أمره ما يحب.

وقال بعضهم: خمير الرأى خير من فطيره، وتقديمه خير من تأخيره. وقالت الحكماء: لا تشاور معلمًا، ولا راعى غنم، ولا كثير القعود مع النساء، ولا صاحب حاجة يريد قضاءها، ولا خائفًا، ولا حاقدًا. وقيل: سبعة لا ينبغى لصاحب لُبٍّ أن يشاورهم: جاهل، وعدو، وحسود، ومرّاء، وجبان، وبخيل، وذو هوى؛ فإن الجاهل يضل، والعدو يريد الهلاك، والحسود يتمنى زوال النعمة، والمرائى واقف مع رضا الناس، والجبان من رأيه الهرب. والبخيل حريص على جمع المال، فلا رأى له فى غيره، وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته.

وحكى أن رجلاً من أهل يثرب يعرف بالأسلمى قال: ركبنى دين أثقل كاهلى[١]، وطالبنى به مستحقوه، واشتدت حاجتى إلى ما لا بد منه، وضاقت علىّ الأرض، ولم أهتد إلى ما أصنع، فشاورت مَنْ أثق به من ذوى المودة والرأى فأشار علىَّ بقصد المهلب بن أبى صفرة بالعراق. فقال له: تمنعنى المشقة وبعد الشقة، وتيه المهلب. ثم أنى عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره، فلا واللّه ما زادنى على ما ذكره الصديق الأول، فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها. فركبت ناقتى وصحبت رفقة فى الطريق، وقصدت العراق، فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه، وقلت له: أصلح اللّه الأمير إنى قطعت إليك الدهناء، وضربت أكباد الإبل من يثرب فإنه أشار علىّ بعض ذوى الحجى[٢] والرأى بقصدك حاجتى فقال: هل أتيتنا بوسيلة، أو بقرابة وعشيرة؟ فقلت: لا ولكنى رأيتك أهلاً لقضاء حاجتى فإن قمت بها فأهل لذلك أنت، وإن يحل دونها حائل، لم أذم يومك، ولم أيأس من غدك. فقال المهلب لحاجبه: اذهب به وادفع إليه ما فى خزانة مالنا الساعة، فأخذنى معه فوجدت فى خزانته ثمانين ألف درهم فدفعها إلىّ. فلما رأيت ذلك لم أملك نفسى فرحًا وسرورًا، ثم عاد الحاجب بى إليه مسرعًا فقال: هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك؟ فقلت: نعم أيها الأمير وزيادة. فقال: الحمد للّه على نجح سعيك واجتنائك جنى مشورتك، وتحقق ظن مَنْ أشار عليك بقصدنا. قال الأسلمى: فلما سمعت كلامه، وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه:

يا مَنْ على الجود صاغَ اللّه راحتَهُ ... فليس يحسنُ غيرَ البذلِ والجودِ
عمَّتْ عطاياك أهلَ الأرض قاطبَةً ... فأنتَ والجودَ منحوتان من عودِ
منِ استشار فبابُ النجحِ منفتحٌ ... لديه فيما ابتغاه غير مردودِ

ثم عدت إلى المدينة فقضيت دينى، ووسعت على أهلى، وجازيت المشير علىّ، وعاهدت اللّه تعالى ألا أترك الاستشارة فى جميع أمورى ما عشت.

وحكى عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد اللّه بن على بن عبد اللّه بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة، ولا تتجاوز عنها سياسة الملك فحبسه عنده. ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن على، وكان واليًا على الكوفة، ما أفسد عقيدته فيه، وأوحشه منه، وصرف وجه ميله إليه عنه. فتألم المنصور من ذلك، وساء ظنه، وتأرق جفنه، وقلَّ أمنه، وتزايد خوفه وحزنه، فأدّته فكرته إلى أمر دبّره وكتمه عن جميع

(١) الكاهل: ما بين الكتفين.

(٢) الحجى: العقل، أو الحجج العقلية.

حاشيته وستره. واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجراه على عادة إكرامه، ثم أخرج مَنْ كان بحضرته، وأقبل على عيسى وقال: يا ابن العم إني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله، ولا أرى سواك مُساعِدًا لى على حمل ثقله، فهل أنت فى موضع ظنى بك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى؟ فقال له عيسى بن موسى: أنا عبد أمير المؤمنين، ونفسى طوع أمره ونهيه، فقال: إن عمى وعمك عبد اللّه قد فسدت بطانته، واعتمد على ما بعضه يبيح دمه، وفى قتله صلاح ملكنا، فخذه إليك واقتله سرًّا، ثم سلّمه إليه. وعزم المنصور على الحج مضمرًا أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد اللّه ألزمه القصاص، وسلمه إلى أعمامه، إخوة عبد اللّه ليقتلوه به قصاصًا، فيكون قد استراح من الاثنين، عبد اللّه وعيسى.

قال عيسى: فلما أخذ عمى وفكرت فى قتله رأيت من الرأى أن أشاور فى قضيته مَنْ له رأىٌ عسى أن أصيب الصواب فى ذلك، فأحضرت يونس بن قرة الكاتب، وكان لى حسن ظن فى رأيه، وعقيدة صالحة فى معرفته، فقلت له: إن أمير المؤمنين دفع إلىّ عمه عبد اللّه، وأمرنى بقتله، وإخفاء أمره، فما رأيك فى ذلك، وما تشير به؟ فقال لى يونس: أيها الأمير احفظ عمك، وعم أمير المؤمنين، فإنى أرى لك أن تدخله فى مكان داخل دارك، وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه، وتجعل دونه مغالق وأبوابًا، وأظهر لأمير المؤمنين أنك قتلته، وأنفذت أمره فيه، وانتهيت إلى العمل بطاعته، فكأنى به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به، وقتلت عمه أمرك بإحضاره على رؤوس الإشهاد، فإن اعترفت أنك قتلته بأمره، أنكر أمره لك، وآخذك بقتله، وقتلك.

قال عيسى بن موسى: فقبلت مشورة يونس وعملت بها، وأظهرت لأمير المؤمنين أنى أنفذت أمره، ثم حج المنصور، فلما قدم من حجه وقد استقر فى نفسه أننى قد قتلت عمّه عبد اللّه، دس إلى عمومته إخوة عبد اللّه، وحثهم على أن يسألوه فى أخيهم، ويستوهبوه منه فجاؤا إليه وقد جلس، والناس بين يديه على مراتبهم. فسألوه فى عبد اللّه. فقال: نعم إن حقوقكم تقتضى إسعافكم بحاجتكم، كيف وفيها صلة رحم، وإحسان إلى مَنْ هو فى مقام الوالد، ثم أمر باحضار عيسى بن موسى فأحضر لوقته فقال: يا عيسى كنت دفعت إليّ قبل خروجى إلى الحج عمى عبد اللّه ليكون عندك فى منزلك إلى حين رجوعى. فقال عيسى: قد فعلت يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: قد سألنى فيه عمومتك، وقد رأيت الصفح[1] عنه، وقضاء حاجتهم، وصلة الرحم بإجابة سؤالهم فيه، فائتنا به الساعة.

قال عيسى: فقلت: يا أمير المؤمنين ألم تأمرنى بقتله، والمبادرة إلى ذلك؟ قال: كذبت لم آمرك بذلك ولو أردت قتله لأسلمته إلى مَنْ هو بصدد ذلك. ثم أظهر الغيظ، وقال لعمومته: قد أقر بقتل أخيكم، مدعيًا أننى أمرته بقتله، وقد كذب علىَّ. قالوا: يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به، ونقتص منه. فقال: شأنكم به.

قال عيسى: فأخذونى إلى الرحبة، واجتمع الناس علىّ، فقام واحد من عمومتى إلىّ، وسل سيفه ليضربنى به، فقلت له: يا عم أفاعل أنت؟ قال: إى واللّه كيف لا أقتلك وقد قتلت أخى؟ فقلت لهم: لا تعجلوا ردّونى إلى أمير المؤمنين، فردونى إليه فقلت: يا أمير المؤمنين إنما أردت قتلى بقتله، والذى دبرته علىّ، عصمنى اللّه تعالى من فعله، وهذا عمك باق حىّ سوىّ، فإن أمرتنى بدفعه إليهم دفعته الساعة. فأطرق المنصور، وعلم أن ريح فكره صادفت إعصارًا، وأنّ انفراده بتدبيره قارف[2] خسارًا، ثم رفع رأسه وقال: ائتنا به. فمضى عيسى وأحضر عبد اللّه. فلما رآه المنصور قال لعمومته: أتركوه عندى، وانصرفوا حتى أرى فيه رأيًا. قال عيسى: فتركته وانصرفت

---

(١) الصفح: الإعراض عن الذنب.

(٢) قارف: خالط وارتكب.

وانصرف إخوته فسلمت روحى، وزالت كربتى، وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته، والعمل بها. ثم إن المنصور أسكن عبد الله، فى بيت أساسه قد بنى على الملح، ثم أرسل الماء حوله ليلاً فذاب الملح، وسقط البيت فمات عبد الله ودفن بمقابر باب الشام، وسلم عيسى من هذه المكيدة، ومن سهام مراميها البعيدة.

ومما جاء فى النصيحة: اعلموا أن النصيحة للمسلمين، وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين. قال اللّه تعالى إخبارًا عن نوح عليه الصلاة والسلام: **﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**[1]، وقال شعيب عليه السلام: **﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾**[2]. وقال صالح عليه السلام: **﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾**[3]، وروى عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول اللّه؟ قال: «للّه، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، ولعامتهم»[4].

فالنصح للّه هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عمّا ليس له بأهل، والقيام بتعظيمه، والخضوع له ظاهرًا، وباطنًا، والرغبة في محابه، والبعد عن مساخطه، وموالاة مَنْ أطاعه، ومعاداة مَنْ عصاه، والجهاد فى ردّ العصاة إلى طاعته، قولاً وفعلاً.

والنصيحة لكتابة: إقامته فى التلاوة، وتحسينه عند القراءة، وتفهُّم ما فيه، والذب[5] عنه من تأويل المحدثين، وطعن الطاعنين، وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين. قال اللّه تعالى: **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾**[6].

والنصيحة للرسول عليه السلام إحياء سنته بالطلب لها، وإحياء طريقته فى بثّ الدعوة، وتأليف الكلمة، والتخلُّق بالأخلاق الطاهرة.

والنصيحة للأئمة معاونتهم على ما كلفوا القيام به بتنبيههم عند الغفلة، وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما جهلوا، وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء، وإعلامهم بأخلاق عمالهم، وسيرتهم فى الرعية، وسد خلتهم عند الحاجة، ورد القلوب النافرة إليهم.

والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، والرحمة لصغيرهم، وتفريج كربهم، وتوقّى ما يشغل خواطرهم، ويفتح الوسواس عليهم.

واعلم أن جرعة النصيحة مُرَّة لا يقبلها إلا أولو العزم. وقال ميمون بن مهران: قال لى عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه: قل لى فى وجهى ما أكره؛ فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره. وفى منثور الحكم: وَدَّكَ مَنْ نصحك، وقلاك[6] مَنْ مشى فى هواك. وقال أبو الدرداء رضى اللّه عنه: إن شئتم لأنصحنَّ لكم، إن أحب عباد اللّه الذى يحبِّبون اللّه تعالى إلى عباده، ويعملون فى الأرض نصحًا. ولورقة بن نوفل:

لقد نصحتُ لأقوامٍ وقلتُ لهم ... إنى النذيرُ فلا يغرركم أحدُ
لا شيءَ مما ترى تبقى بشاشَتُهُ ... إلا الإلهُ ويردَى المالُ والولدُ
لم تَغْنِ عن هرمز يومًا ذخائِرُهُ ... والخلدَ قد حاولَتْ عادٌ فما خلدُوا

---

(١) سورة هود:٣٤.
(٢) سورة الأعراف:٩٣.
(٣) سورة الأعراف:٧٩.
(٤) الذب: الدفاع عنه.
(٥) سورة ص:٢٩.
(٦) قلاك: كرهك.

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد: إنى قد أعددتك لأمر. قال: يا أمير المؤمنين إن اللّٰه تعالى قد أعد لك منى قلبًا معقودًا بنصيحتك، ويدًا مبسوطة لطاعتك، وسيفًا مجردًا على عدوك. وأنشد الأصمعى:

النصحُ أرخصُ ما باحَ الرجالُ فلا ... تردُدْ على نصاحٍ نصحًا ولا تَلُم
إن النصائحَ لا تخفى مناهِلَها ... على الرجال ذوى الألبابِ والفهم

ولمعاذ بن مسلم:

نصحْتُك والنصيحةَ إن تَعَدَّتْ ... هوى المنصوحِ عزَّ[1] لها القبولُ
فخالَفتَ الذى لك فيه حظّ ... فنالَكَ دونَ ما أمَّلتَ غولُ

وقيل: أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده فى يد الحجاج، فلم يقبل منه وسار إليه فحبسه وحبس أهله فقال فيروز:

أمرتُك أمرًا حازمًا فعصيتنى ... فأصبَحْتَ مسلوبَ الإمارةِ نادما
أمرتَكب الحجاجِ إذا أنت قادرٌ ... فنفسُك أوْلِ اللومِ إن كنتَ لائما
فما أنا بالباكى عليكَ صبابةً ... وما أنا بالداعى لترجعَ سالما

ويقال: من اصفرَّ وجهه من النصيحة أسودَّ لونه من الفضيحة. وقال طرفة:

ولا ترفدَنَّ[2] النصح من ليس أهلَهُ ... وكُنْ حين تستغنى برأيك غانيا
وإن أمرًا يومًا تولَّى برأيه ... فدَعْهُ يصيبُ الرشد أو يكُ غاويا

وفى مثله قال بعضهم:

من الناس منْ إن يستشرك فتجتهدْ ... له الرأى يستغششك ما لم تتابعْهْ
فلا تمنحَنَّ الرأى مَنْ ليس أهلَهُ ... فلا أنتَ محمودٌ ولا الرأى نافِعُهْ

واللّٰه أعلم، وصلى اللّٰه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) عزَّ: عسُر وصعب.
(٢) الرفد: العطاء.

الباب الثانى عشر فى الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١] . وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٣] . وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[٤] ، ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[٥] ، والآيات فى ذلك كثيرة مشهورة، وفوائدها جمة منشورة.

وروينا فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٦] . وقال شيخنا محيى الدين النووى رحمه الله تعالى عليه فى قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[٧] ، إن هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين، ويحملونها على غير وجهها، بل الصواب فى معناها: أنكم إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة مَنْ ضلَّ، ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والآية مرتبة فى المعنى على قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾[٨] .

وقال محمد بن تمام: الموعظة جند من جند الله تعالى، ومَثَلُها مَثَلُ الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع، وإن وقع أثر. ومن كلام على رضى الله تعالى عنه: لا تكونَنَّ ممن لا تنفعه الموعظة، إلا إذا بالغت فى إيلامه، فإن العاقل يعظ بالأدب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب وأنشد الجاحظ:

وليس يزجُرُكم ما توعَظونَ به ... والبُهْمُ يَزْجُرُها الراعى فتنزجرُ[٩]

وكتب رجل إلى صديق له: أما بعد فَعِظِ الناس بفعلك، ولا تعظهم بقولك، واستَحِ من الله بقدر قربه منك، وخَفْهُ بقدرته عليك، والسلام. وقيل: من كان له نفسه واعظ، كان له من الله حافظ. وقال لقمان: الموعظة تشقُّ على السفيه كما يشقُّ صعود الوعر على الشيخ الكبير. قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «إنك إن أتيتنى بعبد آبق[١٠] كتبتك عند حميدًا، ومَنْ كتبته عندى حميدًا لم أعذبه بعدها أبدًا». وقال الرشيد لمنصور بن عمار: عِظْنى وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين، هل أحد أحب إليك من نفسك؟ قال: لا. قال: إن أردت أن لا تسئ إلى مَنْ تحبُّ فافعَلْ.

وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه: «أيها الناس الأيام تطوى، والأعمار تفنى، والأبدان فى الثرى تبلى، وإن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد، ويقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد. وفى ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات، ورغب فى البقايات الصالحات».

---

(١) سورة النحل: ١٢٥.

(٢) سورة النحل: ٩٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٤) سورة التوبة: ٧١.

(٥) سورة آل عمران: ١١٤.

(٦) أخرجه: أبى داود فى الملاحم ٤٣٤٠.

(٧) سورة المائدة: ١٠٥.

(٨) سورة المائدة: ٩٩.

(٩) الزجر: المنع والنهى.

(١٠) آبق: تارك لدينه.

ولما لقى ميمون بن مهران الحسن البصرى قال له: لقد كنت أحب أن ألقاك فعظنى. فقرأ الحسن البصرى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[1] ، ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[2] . فقال: عليك السلام أبا سعيد، لقد وعظتنى أحسن موعظة. ولما ضرب ابن ملجم لعنه اللّه عليًّا رضى اللّه عنه دخل منزله فاعترته غشية[3] ، ثم أفاق فدعا الحسن والحسين رضى اللّه تعالى عنهما، وقال: أوصيكما بتقوى اللّه تعالى، والرغبة فى الآخرة، والزهد في الدنيا، ولا تأسفا على شئ فاتكما منها، فإنكما عنها راحلان، افعلا الخير، وكونا للظالم خصمًا، وللمظلوم عونًا. ثم دعا محمدًا ولده وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك، قال: بلى. قال: فإني أوصيك به، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما، ومعرفة فضلهما، ولا تقطع أمرًا دونهما. ثم أقبل عليهما وقال: أوصيكما به خيرًا فإنه أخوكما وابن أبيكما، وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه فأحِبَّاه، ثم قال: يا بَنى، أوصيكم بتقوى اللّه فى الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، والعدل فى الصديق والعدو، والعمل فى النشاط والكسل، والرضا للّه فى الشدة والرخاء. يا بَنىّ ما شر بعده الجنة بشر ، ولا خير بعده النار بخير ، وكل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار عافية .

يا بنى، مَنْ أبصرَ عَيْبَ نفسِه اشتغل عن عيب غيره، ومَنْ رضى بما قسم اللّه لم يحزن على ما فاته، ومَنْ سلَّ سيف البغى قُتل به، ومَنْ حفر لأخيه بئرًا وقع فيها، ومَنْ هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه، ومَنْ نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومَنْ أعجب برأيه ضلَّ، ومَنِ استغنى بعقله زلَّ، ومَنْ تكبَّر على الناس ذلَّ، ومَنْ خالط الأنذال احتُقر، ومَنْ دخل مداخل السوء اتُّهم، ومَنْ جالس العلماء وقِّر، ومَنْ مزح استُخِفَّ به، ومَنْ أكثر من شيء عُرِف به، ومَنْ كثر كلامه كثر خطؤه، ومَنْ كثر خطؤه قلَّ حياؤه، ومَنْ قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومَنْ قلَّ ورعه مات قلبه، ومَنْ مات قلبه دخل النار.

يا بَنىّ، الآدبُ ميزان الرجل، وحسن الخلق خير قريب، يا بَنىّ، العافية عشرة أجزاء، تسعة منها فى الصمت إلا عن ذكر اللّه تعالى وواحد في ترك مجالسة السفهاء. يا بنىّ، زينة الفقر الصبر، وزينة الغنى الشكر. يا بنىّ لا شَرَفَ أعلى من الإسلام، ولا كَرَمَ أعزّ من التقوى، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية. يا بَنىَّ، الحرص مفتاح التعب، ومطية النصب[4] .

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أهله يبكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكاء، وترك لكم جميع ما جمع، وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر اللّه له.

وقال الأوزاعى للمنصور فى بعض كلامه: يا أمير المؤمنين، أما علمتَ أنه كان بيد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التى بيدك؟ اقذفها، لا تملأ قلوبهم رعبًا، فكيف بمن سفك دماء المسلمين، وانتهب أموالهم. يا أمير المؤمنين، إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابيًا من غير تعمد. يا أمير المؤمنين لو أن ذنوبًا من النار صُبَّ ووضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتجرعه، ولو أن ثوبًا من النار وضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتقمصه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يتسلسل بها، ويرد فضلها على عاتقه.

وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال: قلت لجعفر بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه، وكان والى المدينة: احذر أن يأتى رجل غدًا ليس له فى الإسلام نسب، ولا أب ولا جد، فيكون أولى برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

(١) سورة الجاثية:٢٣.
(٢) سورة الشعراء:٢٠٥ - ٢٠٧.
(٣) فاعترته غشية: إغماءه.
(٤) النصب: الوهن.

منك، كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى، وكما كانت امرأة نوح وأمرأة لوط أولى بفرعون، ومَنْ أخطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومَنْ أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه.

وروى زياد عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس، وابن طاوس قال: دخلنا عليه وهو جالس على فرش وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن اجلسا فجلسنا فأطرق زمانًا طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال: حدثني عن أبيك، قال: سمعت أبي يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه، فأدخل عليه الجور[1] في حكمه» فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه. قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن ينالها شئ من دم ابن طاوس. ثم قال: يا ابن طاوس، ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه. فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟ قال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوما عني. فقال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي. قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاوس فضله في ذلك اليوم.

وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار: يا كعب خَوِّفْنَا. قال: أو ليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؟ قال: بلى يا كعب، ولكن خَوِّفْنَا. فقال: يا أمير المؤمنين، اعمل فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبيًا لازدريت[2] عملهم مما ترى. فنكس عمر رضي الله عنه رأسه وأطرق مليًا ثم رفع رأسه وقال: يا كعب خَوِّفْنَا.

فقال: يا أمير المؤمنين، لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها. فنكس عمر ثم أفاق، فقال: يا كعب زِدْنَا. فقال: يا أمير المؤمنين، إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه، يقول: يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي.

وقال سيدي الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه: دخلت على الأفضل ابن أمير الجيوش، وهو أمير على مصر فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فرد السلام على نحو ما سلمت ردًا جميلاً، وأكرمني إكرامًا جزيلاً، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه. فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلك محلاً عليًا شامخًا، وأنزلك منزلاً شريفًا باذخًا، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك. فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك، وليس الشكر باللسان وإنما هو بالفعل والإحسان، قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[3]، واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت مَنْ كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتقِ الله فيما خَوَّلك من هذه الأمة، فإن الله تعالى سائلك عن الفتيل، والنقير، والقطمير[4].

قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[6].

واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخَّر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب

---

(١) الجور: الظلم والاعتداء.
(٢) الازدراء: الاحتقار.
(٣) سورة سبأ:١٣.
(٤) القطمير: شق النواة وهو دلالة الصغار.
(٥) سورة الحجر:٩٢ - ٩٣.
(٦) سورة الأنبياء:٤٧.

ذلك أجمع. فقال له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١]، فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجًا من الله تعالى ومكرًا به، فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[٢] فافتح الباب، وسهِّل الحجاب، وانصر المظلوم، وأغث الملهوف أعانك الله على نصر المظلوم، وجعلك كهفًا للملهوف، وأمانًا للخائف، ثم أتممت المجلس بأن قلت: قد جبت البلاد شرقًا وغربًا فيما اخترت مملكة وارتحت إليها، ولذت لى الإقامة فيها غير هذه المملكة ثم أنشدته:

والناسُ أكْيَسُ من أن يحمدُوا رجلاً ... حتى يَرَوْا عندَهُ آثارَ إحسانِ

وقال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد سنة من السنين فبينما أنا نائمٌ ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب فقلت: مَنْ هذا؟ قال: أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعًا. فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلىّ أتيتك. فقال: ويحك قد حاك[٣] في نفسى شئ لا يخرجه إلا عالم فانظر لى رجلاً أسأله عنه. فقلت: ههنا سفيان بن عيينة. فقال: امض بنا إليه فأتيناه، فقرعت عليه الباب فقال: مَنْ هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعًا فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلىّ أتيتك. فقال: جد لما جئنا له فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دَيْن؟ قال: نعم، فقال: يا أبا العباس اقض دَيْنه، ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عنى صاحبك شيئًا، فانظر لى رجلاً أسأله: فقلت: ههنا عبد الرزاق بن همام. فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعًا فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلىّ أتيتك. فقال: جد لما جئنا به فحادثه ساعة. ثم قال له: أعليك دَيْن؟ قال: نعم، فقال: يا أبا العباس اقض دينه. ثم انصرفنا فقال: ما أغنى عنى صاحبك شيئًا، فانظر لى رجلاً أسأله. فقلت: ههنا الفضيل بن عياض. فقال: امض بنا إليه فأتيناه فإذا هو قائم يصلى فى غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها، فقرعت عليه الباب فقال: مَنْ هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لى ولأمير المؤمنين. فقلت: سبحان الله أما تجب عليك طاعته؟ ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفى إليه، فقال: أوّاه من كف ما ألْيَنَهَا إن نجت غدًا من عذاب الله تعالى. فقلت في نفسى: ليكلمنَّهُ الليلة بكلام نقىّ من قلب تقىّ، فقال: جُدْ لما جئنا له رحمك الله تعالى، فقال: وفيم جئت حملت على نفسك وجميع مَنْ معك حملوا عليك، حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شِقْصًا[٤] من ذنب ما فعلوا، ولكان أشدهم حبًّا لك، أشدهم هربًا منك.

ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظى، ورجاء بن حيوة فقال لهم: إنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علىَّ. فعدَّ الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة. فقال سالم بن عبد الله: إن أرَدْتَ النجاة غدًا من عذاب الله فصُمْ عن الدنيا، وليكن إفطارك فيها على الموت. وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا، فبر أباك، وارحم أخاك، وتحنن على ولدك. قال رجاء بنت حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك. واكره لهم ما تكره لنفسك. ثم متى شئت مت. وإنى لأقول هذا، وإنى لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم مَنْ يأمرك بمثل هذا؟ فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا حتى غشى عليه فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟! ثم أفاق هارون الرشيد فقال: زدنى، فقال: يا أمير المؤمنين بلغنى أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه شكا إليه سهرًا. فكتب له عمر يقول: يا أخى اذكر

---

(١) سورة ص: ٣٩.
(٢) سورة النمل: ٤٠.
(٣) حاك: اعتمل.
(٤) شِقْصًا: الجزء.

سهر أهل النار في النار. وخلود الأبدان. فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائمًا ويقظان، وإياك أن تـزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك، ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه. فقال له عمر: ما أقدمك؟ فقال له: لقد خلعت قلبي بكتابك، ولا وليت ولاية أبدًا حتى ألقى الله عز وجل. فبكى هارون بكاءً شديدًا، ثم قال: زدني.

قال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم جاء إليه فقال: يا رسول الله، أمِّرني إمارة. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «يا عباس نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعل»، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا. ثم قال: زدني يرحمك الله. فقال: يا حسن الوجه، أنت الذى يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لرعيتك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أصبح لهم غاشًا لم يرح[1] رائحة الجنة» فبكى هارون الرشيد بكاء شديدًا، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم دَيْن لربى يحاسبنى عليه، فالويل لى إن ناقشنى، والويل لى إن سألنى، والويل لى إن لم يلهمنى حجتى. قال هارون: إنما أعنى دَيْن العباد. قال: إن ربى لم يأمرنى بهذا، وإنما أمرنى أن أصدق وعده، وأطيع أمره، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾[2] . فقال له هارون: هذه ألف دينار فخذها وأنفقها على عيالك، وتَقَوَّ بها على عبادة ربك. فقال: سبحان الله أنا دللتك على سبيل الرشاد تكافئنى أنت بمثل هذا، سلمك الله ووفقك. ثم صمت فلم يكلمنا. فخرجنا من عنده. فقال لى هارون: إذا دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا فإن هذا سيد المسلمين اليوم.

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر له شروط وصفات. قال سليمان الخواص: مَنْ وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهى نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الإشهاد فإنما بكته[3].

وقالت أم الدرداء رضى الله تعالى عنها: مَنْ وعظ أخاه سرًا فقد سره وزانه، ومَنْ وعظه علانية فقد ساءه وشانه. ويقال: مَنْ وعظ أخاه سرًا فقد نصحه وسره، ومَنْ وعظه جهرًا فقد فضحه وضره. وعن عبد العزيز بن أبى روّاد قال: كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئًا أمره فى ستر، ونهاه فى ستر، فيؤجر فى ستره، ويؤجر فى أمره، ويؤجر فى نهيه. وعن عمر رضى الله تعالى عنه: إذا رأيتم أخاكم ذا زلّة فقوِّموه، وسدِّدوه، وادعوا الله أن يرجع به إلى التوبة فيتوب عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان على أخيكم. وبالله التوفيق إلى أقوم طريق، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) يرح: يتنسم ويشم.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦ - ٥٨.

(٣) بكته: أنبه وقرعه.

الباب الثالث عشر فى الصمت وصون اللسان والنهى عن الغيبة والسعى بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول

الفصل الأول فى الصمت وصون اللسان

قال اللّه تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(٢)، واعلم أنه ينبغى للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلامًا تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسُّنّةُ الإمساك عنه؛ لأنه قد يجرُّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثير وغالب فى العادة والسلامة لا يعادلها شئ. وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «مَنْ كان يؤمن باللّه وباليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»(٣) .

قال الشافعى رضى اللّه تعالى عنه فى «الأم»: إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر فى كلامه فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شكَّ لم يتكلم حتى تظهر.

وروينا فى صحيحهما عن أبى موسى الأشعرى رضى اللّه تعالى عنه قال: قلت يا رسول اللّه أى المسلمين أفضل؟ قال: «مَنْ سلم الناس من لسانه ويده»(٤) . وروينا فى كتاب الترمذى عن عقبة بن عامر رضى اللّه عنه قال: قلت: يا رسول اللّه ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وَابْكِ على خطيئتك»(٥) قال الترمذى: حديث حسن. وروينا فى كتاب الترمذى وابن ماجة عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «مِن حُسْنِ إِسْلاَم المرءِ تَرْكُهُ ما لا يعنيه» والأحاديث الصحيحة فى ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وفقه اللّه تعالى.

أما الآثار عن السلف وغيرهم فى هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننبه على شيء منها. فما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفى اجتمعا فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت فى ابن آدم من العيوب؟ فقال: هى أكثر من أن تحصى. وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها. قال: وما هى؟ قال: حفظ اللسان.

وقال الإمام الشافعى رضى اللّه عنه لصاحبه الربيع: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك و لم تملكها. وقال بعضهم: مثل اللسان مثل السبع إن لم توثقه عدا عليك ولحقك شره. ومما أنشدوه فى هذا الباب:

احفَظْ لسانَكَ أيها الإنسانُ ... لا يلدغنك أنه ثعبانُ
كم فى المقابر من قتيلِ لسانِهِ ... كانت تهابُ لقاءَهُ الشجعانُ

وقال الفارسى:

لَعمْرُكَ إنَّ فى ذنبى لشغلا ... لنفسى عن ذنوب بنى أميَّهْ
على ربى حسابهم إليه ... تناهى علم ذلك لا إلىَّ

---

(١) سورة ق:١٨.

(٢) سورة الفجر:١٤.

(٣) أخرجه: البخارى فى الأدب ٦٠١٨.

(٤) أخرجه: البخارى فى الإيمان ١٠.

(٥) أخرجه: الترمذى فى الزهد ٢٤٠٦.

وقال على رضى الله عنه: إذا تم العقل نقص الكلام.

وقال أعرابى: رب منطق صدع[1] جمعًا، وسكوت شعب صدعًا. وقال وهب بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها فى الصمت، والعاشر فى عزلة الناس. وقال على بن هشام رحمه الله تعالى عليه:

لَعَمْرُكَ إنَّ الحلمَ زَيْنٌ لأهلهِ ... ومَا الحِلمُ إلا عادةٌ وتحلمُ

إذا لم يكن صمتُ الفتى عن ندامةٍ ... وعىٍّ فإنَّ الصمتَ أولى وأسْلَمُ

وقال ابن عيينة: مَنْ حرم الخير فليصمت. فإن حرمه فالموت خير له.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى ذر رضى الله عنه: «عليك بالصمت إلا من خير فإنه مطردة للشيطان، وعون على أمر دينك». ومن كلام الحكماء: مَنْ نطق فى غير خير فقد لغا، ومَنْ نظر فى غير اعتبار فقد سها، ومَنْ سكت فى غير فكر فقد لها. وقيل: لو قرأت صحيفتك لأغمدت صفيحتك، ولو رأيت ما فى ميزانك لختمت على لسانك. ولما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت طال صمته فقيل له: ألا تتكلم؟ فقال: الكلام صيَّرنى فى بطن الحوت.

وقال حكيم: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم. وكان يقال: مِن السكوت ما هو أبلغ من الكلام؛ لأن السفيه إذا سكت عنه كان فى اغتنام. وقيل لرجل: بم سادكم الأحنف فوالله ما كان بأكبركم سنًا، ولا بأكثركم مالاً؟ فقال: بقوة سلطانه على لسانه. وقيل: الكلمة أسيرة فى وثاق الرجل فإذا تكلم بها صار فى وثاقها. وقيل: اجتمع أربعة ملوك فتكلموا، فقال ملك الفرس: ما ندمت على ما لم أقل مرة، وندمت على ما قلت مرارًا. وقال قيصر: أنا على رد ما لم أقل أقدر منى على رد ما قلت. وقال ملك الصين: ما لم أتكلم بكلمة ملكتها، فإذا تكلمت بها ملكتنى. وقال ملك الهند: العجب بمن يتكلم بكلمة إن رفعت ضرت، وإن لم ترفع لم تنفع.

وكان بهرام جالسًا ذات ليلة تحت شجرة فسمع منها صوت طائر فرماه فأصابه. فقال: ما أحسن حفظ اللسان بالطائر، والإنسان لو حفظ لسانه ما هلك. وقال على رضى الله تعالى عنه: بكثرة الصمت تكون الهيبة. وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه. الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع. وإن أكثرت منه قتل. وقال لقماز لولده: يا بنى إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك.

يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح: كيف أنتن؟ فيقلن: بخير إن تركتنا. قال الشاعر:

احفَظْ لسانَكَ لا تقولَ فتبتلى ... إنَّ البلاءَ مُوكلٌ بالمنطقِ

الفصل الثانى فى تحريم الغيبة

اعلم أن الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشارًا فى الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس، وهى ذكرك الإنسان بما يكره ولو بما فيه، سواء كان فى دينه أو بدنه أو نفسه أو خَلقه أو خُلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته، أو خادمه، أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته، أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك، أو بكتابك أو رمزت إليه بعينك، أو يدك، أو رأسك، أو نحو ذلك.

فأما الدين فكقولك: سارق، خائن، ظالم متهاون بالصلاة متساهل فى النجاسات، ليس بارًا بوالديه، قليل الأدب، لا يضع الزكاة مواضعها، لا يجتنب الغيبة.

---

(١) صدع: أصابهم وفرقهم.

وأما البدن فكقولك: أعمى، أو أعرج، أو أعمش، أو قصير، أو طويل، أو أسود، أو أصفر.

وأما غيرهما فكقولك: فلان قليل الأدب، متهاون بالناس، لا يرى لأحد عليه حقًا، كثير اليوم الأكل، وما أشبه ذلك، أو كقولك فلان أبوه نجار أو إسكاف، أو حداد أو حائك، تريد تنقيصه بذلك، أو فلان سيِّئ الخلق متكبر مراء معجب، عجول، جبار ونحو ذلك، أو فلان واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثوب، ونحو ذلك.

وقد روينا فى صحيح مسلم وسنن أبى داود، والترمذى، والنسائى، عن أبى هريرة رضى اللّٰه تعالى عنه أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: اللّٰه ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: وإن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[١]. قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

وروينا فى سنن أبى داود، والترمذى عن عائشة رضى اللّٰه عنها قالت: قلت للنبى صلى اللّٰه عليه وسلم: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة، تعنى قصيرة، فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته أى خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة نتنها».

وروينا فى سنن أبى داود عن أنس رضى اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «لما عرج بى إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون فى أعراضهم».

وروى عن جابر رضى اللّٰه عنه عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا». ثم قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «إن الرجل ليزنى فيتوب، فيتوب اللّٰه عليه؛ وإن صاحب الغيبة لم يغفر له حتى يغفر له صاحبها». وعن أنس رضى اللّٰه تعالى عنه قال: مَنِ اغتاب المسلمين، وأكل لحومهم بغير حق وسعى بهم إلى السطان جئ به يوم القيامة، مزرقة عيناه، ينادى بالويل والثبور، يعرف أهل ولا يعرفونه. وقال معاوية بن قرة: أفضل الناس عند اللّٰه أسلمهم صدرًا، وأقلهم غيبة.

وقال الأحنف: فىَّ خصلتان: لا أغتاب جليسى إذا غاب عنى، ولا أدخل فى أمر قوم لا يدخلوننى فيه. وقيل للربيع بن خثيم: ما نراك تعيب أحدًا! فقال: لست عن نفسى راضيًا فأتفرغ لذم الناس، وأنشد:

لنفسى أبكى لستُ أبْكى لغيرها لنفسى من نفسى عن الناسِ شاغلُ

وقال كثير عزة:

وسعى إلىّ بعيبِ عزَّةَ نسوةٌ جعلَ الإلهُ خدودَهُنَّ نِعَالَهَا

وقال محمد بن حزم: أول مَنْ عمل الصابون سليمان. وأول مَنْ عمل السويق ذو القرنين. وأول مَنْ عمل الحيس يوسف. وأول مَنْ عمل خبز الجرداق نمروذ. وأول مَنْ كتب فى القراطيس الحجاج. وأول مَنِ اغتاب إبليس لعنه اللّٰه اغتاب آدم عليه السلام.

وأوحى اللّٰه تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن المغتاب إذا تاب فهو آخر مَنْ يدخل الجنة، وإن أصر، فهو أول مَنْ يدخل النار. ويقال: لا تأمن مَنْ كذّب لك أن يكذب عليك، ومن اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك. وقيل للحسن البصرى رضى اللّٰه تعالى عنه: إن فلانًا اغتابك، فأهدى إليه طبقًا من رطب. فأتاه الرجل وقال له: اغتبتك فأهديت إلىّ. فقال الحسن: أهديت إلىّ حسناتك فأردت أن أكافئك. وعن ابن المبارك رحمه اللّٰه تعالى قال: لو كنت مغتابًا أحدًا، لاغتبت والدىّ؛ لأنهما أحق بحسناتى. وإذا حاكى إنسان إنسانًا بأن

(١) أخرجه: مسلم فى البر والصلة والأدب ٢٥٨٩.

يمشى متعارجًا، أو متطأطئًا[١] أو غير ذلك من الهيئات يريد تنقيصه بذلك فهو حرام. وبعض المتفقهين والمتعبدين يعرضون بالغيبة تعريضًا، تفهم به كما تفهم بالتصريح، فيقال لأحدهم: كيف حال فلان؟ فيقول: اللّه يصلحنا. اللّه يغفر لنا. اللّه يصلحه. نسأل اللّه العافية. نحمد اللّه الذى لم يبتلينا بالدخول على الظلمة نعوذ باللّه من الكبر. يعافينا اللّه من قلة الحياة. اللّه يتوب علينا. وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه فكل ذلك غيبة محرمة.

واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها. فيجب على مَنْ يستمع إنسانًا يبتدئ بغيبة أن ينهاه، إن لم يَخَفْ ضررًا، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه، ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته، فإن قال بلسانه: اسكت، وقلبه يشتهى سماع ذلك، قال بعض العلماء: إن ذلك نفاق. قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[٢]، ومما أنشدوه فى هذا المعنى:

وسَمْعَكَ صُنْ عن سماع القبيح ... كصَوْنِ اللسانِ عن النّطْقِ بِهْ
فإنّكَ عند سماع القبيح ... شريكٌ لقائِلِهِ فانتبِهْ
وكم أزعَجَ الحرصُ من طالبٍ ... فوافى المنيَّةَ فى مطلبِهْ

الفصل الثالث فى تحريم السعاية بالنميمة

قال اللّه تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[٣] الآية، وحسبك بالمنان خسة ورذيلة، سقوطه وضعته، والهماز المغتاب الذى يأكل لحوم الناس، الطاعن فيهم. وقال الحسن البصرى: هو الذى يغمز بأخيه فى المجلس، وهو الهمزة اللمزة. وقال على والحسن البصرى رضى اللّه عنهما: العتل الفاحش السيِّئ الخلق. وقال ابن عباس رضى اللّه عنهما: العتل الفاتك الشديد المنافق. وقال عبيد بن عمير: العتل الأكول الشروب القوى الشديد، يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة.

وقال الكلبى: هو الشديد فى كفره. وقيل: العتل الشديد الخصومة بالباطل، والزنيم هو الذى لا يعرف مَنْ أبوه، قال الشاعر:

زَنيمٌ ليس يُعرف مَن أبوه ... بغىُّ الأمِّ ذو حَسَبٍ لَئِيمِ

وروينا في صحيحى البخارى ومسلم عن حذيفة رضى اللّه عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنة نمام»[٤].

وروى أن النبى صلى اللّه عليه وسلم مرّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله»[٥].

قال الإمام أبو حامد الغزالى رحمة اللّه تعالى عليه: النميمة إنما تطلق فى الغالب على مَنْ ينم قول الغير إلى المقول فيه، كقوله: فلان يقول فيك كذا، فينبغى للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس، إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم، أو دفع معصية، وينبغى لمن حملت إليه النميمة، وقيل له: قال فيك فلان كذا، أن لا يصدق مَنْ نَمَّ إليه؛ لأن النمام فاسق وهو مردود الخبر، وأن ينهاه عن ذلك وينصحه، ويقبح فعله، ويبغضه فى اللّه تعالى،

---

(١) متطأطئًا: متخفضًا رأسه.
(٢) سورة الأنعام:٦٨.
(٣) سورة القلم:١٠ - ١١.
(٤) أخرجه: مسلم فى الأيمان ١٠٥.
(٥) أخرجه: البخارى فى الادب ٦٠٥٢.

فإنه بغيض عند اللّه، والبغض فى اللّه واجب، وأن لا يظن بالمنقول عن السوء لقول اللّه تعالى: ﴿**اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾[١] .

وسعى رجل إلى بلال بن أبى بردة برجل وكان أمير البصرة فقال له: انصرفْ حتى اكشف عنك، فكشف عنه فإذا هو ابن بغى، يعنى ولد زنا. قال أبو موسى الأشعرى رضى اللّه عنه: لا ينم على الناس إلا ولد بغي.

وروى أن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى يا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: قال: «شراركم المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون العيوب». وروى أبو هريرة رضى اللّه عنه أن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «ملعون ذو الوجهين. ملعون ذو اللسانين. ملعون كل شغاز. ملعون كل قتات. ملعون كل نمام. ملعون كل منان». والشغاز المحرش بين الناس يلقى بينهم العداوة، والقتات النمام، والمنان الذى يعمل الخير ويمن به، وأما السعاية إلى السلطان وإلى كل ذى قدرة فهى المهكلة والحالقة[٢] لأنها تجمع الخصال الذميمة من الغيبة، وشؤم النميمة، والتغرير بالنفوس، والأموال فى النوازل، والأحوال، وتسلب العزيز عزه، وتحط المكين عن مكانته، والسيد عن مرتبته، فكم دم أراقه سعى ساعٍ، وكم حريمٍ استبيح بنميمة نمام، وكم من صَفِيَّيْنَ[٣] تباعدا، وكما من متواصلَيْن تقاطعا، وكم من محبَّيْن افترقا، وكم من إلفين تهاجرا، وكم من زوجين تطالقا. فليتقِ اللّه ربه عَزَّ وجلَّ رجلٌ ساعدته الأيام وتراخت عنه الأقدار، أن يصغى لساعٍ أو يستمع لنمام.

ووُجد فى حكم القدماء: أبغض الناس إلى اللّه المثلث. قال الأصمعى: هو الرجل يسعى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه، وأخاه، وإمامه. وقال بعض الحكماء: احذورا أعداء العقول، ولصوص المودَّات، وهم السعاة والنمَّامون، إذا سرق اللصوص المتاع، سرقوا المودات.

وفى المثل السائر: مَنْ أطاع الواشى ضيَّعَ الصديق. وقد تقطع الشجر فينبت، ويقطع اللحم السيف فيندمل، واللسان لا يندمل جرحه. ودفع إنسان رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم، وكان مالاً كثيرًا فكتب إليه على ظهرها: النميمة قبيحة، وإن كانت صحيحة، والميت رحمه اللّه، واليتيم جبره اللّه، والساعى لعنه اللّه، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

وروينا فى كتاب أبى داود والترمذى، عن ابنِ مسعود رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئًا فإنى أحب أن أخرج إليكم وإنا سليم الصدر» ومن الناس مَنْ يتلوَّن ألوانًا، ويكون بوجهين ولسانين فيأتى هؤلاء بوجه، وذو الوجهين لا يكون عند اللّه وجيهًا.

قال صالح بن عبد القدوس رحمه اللّه تعالى:

قلْ للذى لستُ أدرى منْ تَلوُّنِهِ ... أناصحٌ أم على غِشٍّ يُنَاجينى
إنى لأكثر مما سمتنى عجبًا ... يدٌ تشجُّ وأخرى منك تأسونى[٤]
تغتابنى عند أقوامٍ وتمدحُنى ... فى آخرين وكلٌّ عنك يأتينى
هذان شيئان قد نافَيْتَ بينهما ... فاكفُفْ لسانَك عن شتمى وتزيينى

وقيل: لألف لحوح جموع، خير من واحد متلون. وكان يشبه المتلون بأبى براقش، وأبى قلمون. فأبو براقش طائر منقط بألوان النقوش يتلون فى اليوم ألوانًا، وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألوانًا.

---

(١) سورة الحجرات:١٢.
(٢) الحالقة: قاطعة الرحم.
(٣) صَفِيَّيْنَ: خليلين.
(٤) تأسو: تداوى.

ويقال للطائش الذى لا ثبات معه: أبو رياح تشبيهًا بمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع يدور مع الريح، ويمناه ممدودة وأصابعها مضمومة إلا السبابة فإذا أشكل عليهم مهب الريح عرفوه به؛ فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه. والذى يعمله الصبيان من قرطاس على قصبة يسمى: أبا رياح أيضًا.

ويقال: أخلاق الملوك مَثَلٌ فى التلوُّن، قال بعضهم:

ويـومٌ كـأخلاق الملـوك تلوُّنـا ... فصَحْوٌ وتَغْييمٌ وطلٌّ[1] ووابلُ[2]

أشـبهه إيـاك يـا مَـنْ صفاتُـهُ ... دنوٌّ، وإعراضٌ، ومَنْعٌ، ونائلُ[3]

وكلم معاوية الأحنف فى شئ بلغه عنه فأنكره الأحنف. فقال له معاوية: بلغنى عنك الثقة. فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروهًا. وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية[4]، وإذا أتاه ساع يقول له: إن صدقتنا أبغضناك، وإن كذبتنا عاقبناك، وإن استقلتنا[5] أقلناك.

وكتب فى جواب كتاب ساع: نحن نرى أن قبول السعاية شرٌّ من السعاية؛ لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس مَنْ دل على شئ، وأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعى فإنه لو كان فى سعايته صادقًا، لكان من صدقه لئيمًا، إذ لم يحفظ الحرمة، و لم يستر العورة. وقيل: مَنْ سعى بالنميمة حذره الغريب، ومقته القريب. وقال المأمون: النميمة لا تقرب مودَّة إلا أفسدتها، ولا عداوة إلا جدَّدتها، ولا جماعة إلا بدَّدتها. ثم لابد لمن عرف بها ونسب إليها أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه. وأنشد بعضهم:

مَنْ نَمَّ فى الناسِ لم تؤْمَنْ عقاربُهُ ... على الصديقِ و لم تؤْمَنْ أفاعيهِ

كالسيلِ بالليلِ لا يدرى به أحَدٌ ... من أين جاءَ ولا من أين يأتيهِ

الويلُ للعهدِ منه كيفَ ينقضُهُ ... والويلُ للودِّ منه كيفَ يفنيهِ

وقال آخر:

يسعى عليكَ كما يسعى إليك فلا ... تأمَنْ غوائلَ ذى وجهين كيادِ

وقال صالح بن عبد القدوس رحمه اللّٰه تعالى:

من يخبِّرْكَ بشتمٍ عن أخٍ ... فهو الشاتمُ لا مَنْ شتمَكْ

ذاك شيءٌ لم يواجِهْكَ بِهِ ... إنما اللومُ على مَنْ أعلمَكْ

وقال آخر:

إن يعلموا الخير أخفَوْهُ وإن علموا ... شرًّا أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

وقال آخر:

إن يسمعوا ريبةَ طاروا بها فرحًا ... منى وما سمعُوا من صالحٍ دفنوا

صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذكرتَ به ... وإن ذكرتَ بسوء عندهم أذنوا

وقال الحسن: ستر ما عاينت، أحسن من إشاعة ما ظننت. وقال عبد الرحمن بن عوف رضى اللّٰه عنه: مَنْ سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذى أتاها.

---

(١) الطلُّ: خفيف الغيث.

(٢) الوابل: شديد المطر.

(٣) النائل: العطاء.

(٤) السعاية: الوشاية السيئة.

(٥) استقلتنا: طلبت الإقالة من المنصب.

ومما جاء فى النهى عن اللعن

ما رويناه فى صحيح البخارى ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضى اللّه عنه قال: رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لعن المؤمن كقتله»[١] . وروينا فى صحيح مسلم أيضًا عن أبى الدرداء رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لا يكون اللعانون شفعاء، ولا شهداء يوم القيامة»[٢] ، وروينا في سنن أبى داود عن أبى الدرداء رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينًا وشمالاً، فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلى الذى لعن، إن كان أهلاً لذلك، وإلا رجعت إلى قائلها»أخرجه[٣] .

ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله: لعن اللّه الظالمين، لعن اللّه الكافرين، لعن اللّه اليهود والنصارى، لعن اللّه الفاسقين، لعن اللّه المصورين ونحو ذلك.

وثبت فى الأحاديث الصحيحة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لعن الواصلة، والمستوصلة[٤] وإنه قال: «لعن اللّه آكل الربا»[٥] . وأنه قال: «لعن اللّه المصورين». وأنه قال: «لعن اللّه من لعن والديه»[٦] ، وأنه قال:« لعن اللّه من ذبح لغير اللّه»[٧] . وأنه قال:« لعن اللّه اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وأنه قال: «لعن اللّه المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال». وجميع هذه الألفاظ فى البخارى ومسلم بعضها فيهما، وبعضها فى أحدهما، واللّه أعلم.

ومما جاء فى العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «الخمول نعمة وكلٌّ يتبرأ، والظهور نقمة وكلٌّ يتمنى». وقال بعضهم:

تلحَّفْ بالخمول تَعِشْ سليمًا ... وجالِسْ كلَّ ذى أدبٍ كريمِ

وقال جعفر بن الفراء:

من أخملَ النفسَ أحياها وروَّحها ... ولم يَبِتْ طاويًا منها على ضجرِ

إن الرياح إذا اشتدَّت عواصفَها ... فليس ترمى سوى العالى من الشجرِ

وقال أعرابى: رب وحدة أنفع من جليس، ووحشة أنفع من أنيس. وكان أبو معاوية الضرير يقول: فىّ خصلتان ما يسرنى بهما رد بصرى: قلة الأعجاب بنفسى، وخلو قلبى من اجتماع الناس إلىّ. وقال عمر رضى اللّه عنه: خذوا حظكم من العزلة. وصعد حسان على أطم[٨] من آطام المدينة ونادى بأعلى صوته: يا صباحاه، فاجتمعت الخزرج فقالوا: ما عندك؟ قال: قلت بيت شعر فأحببت أن تسمعوه. قالوا: هات يا حسان. فقال:

وإنَّ أمرأً أمسَى وأصبحَ سالمًا ... من الناس إلا ما جنى لسَعِيدُ

ولما بنى سعد بن أبى وقاص رضى اللّه عنه منزله بالعقيق قيل له: تركت منازل إخوانك وأسواق الناس ونزلت بالعقيق! فقال: رأيت أسواقهم لاغية، ومجالسهم لاهية، فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية.

---

(١) أخرجه: البخارى فى الأدب ٦١٠٥.

(٢) أخرجه: مسلم فى البر والصلة والأدب ٢٥٩٨.

(٣) أخرجه: أبى داود فى الأدب ٤٩٠٥.

(٤) المستوصلة: التى تطلب وصل شعرها.

(٥) أخرجه: مسلم فى الإيمان ٨٩.

(٦) أخرجه: مسلم فى الأضاحى ١٩٧٨.

(٧) أخرجه: مسلم فى الأضاحى ١٩٧٨٧.

(٨) أطم: البيت المربع أو القصر المرتفع.

وقيل لعروة، أخى مرداس: لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم؟ فقال: أكـره أن يميـل قلبـى باجتمـاعكم إلى حب الرياسة، فأخسر الدارين. وقال سفيان بن عيينة: دخلنا على الفضيل فى مرضه نعوده: فقال: ما جاء بكـم؟ والله لو لم تجيئوا لكان أحب إلىّ. ثم قال: نعم الشئ المرض، لولا العيادة. وقيل للفضل: إن ابنـك يقـول: وددت لو أنى بالمكان الذى أرى الناس فيه، ولا يرونى. فقال: ويح ابنى لم لا أتمها فقال: لا أراهم ولا يرونى.

وقال على رضى الله تعالى عنه: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبـى لمـن لـزم بيتـه، وأكـل قوتـه واشتغل بطاعته، وبكى على خطيئته، فكان من نفسه في شغل، والناس منه في راحة. وقـال سـفيان: الزهـد فـى الدنيا، هو الزهد فى الناس. وقيل لراهب فى صومعته: ألا تنزل؟ فقال: مَنْ مشى على وجه الأرض عثر.

والكلام فى مثل هذا كثير، وقد اكتفينا بهذا، وصلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع عشر فى الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه

روى عن الحسن أنه قال للحجاج: سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وقّروا السلاطين وبجّلوهم؛ فإنهم عزُّ الله وظلّه فى الأرض إذا كانوا عدولاً» فقال الحجاج: ألم تكن فيهم إذا كانوا عدولاً؟ قال: قلت: بلى.

وعن عمر رضى الله عنه، قال: قلت للنبى صلى الله عليه وسلم: أخبرنى عن هذا السلطان الذى ذلت له الرقاب، وخضعت له الأجساد ما هو؟ قال: «ظل الله على الأرض، فإذا أحسن فله الأجر، وعليكم الشكر، وإذا أساء فعليه الإصر، وعليكم الصبر»، وعنه عليه الصلاة والسلام: «أيما راع استرعى رعتيه و لم يحطها بالأمانة والنصيحة من ورائها إلا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التى وسعت كل شىء».

وقال مالك بن دينار رضى الله عنه: وجدت فى بعض الكتب: يقول الله تعالى: أنا ملك الملوك، رقاب الملوك بيدى، فمَنْ أطاعنى جعلتهم عليه رحمة، ومَنْ عصانى جعلتهم عليه نقمة، لا تشغلوا ألسنتكم بسبِّ الملوك، ولكن توبوا إلى الله يعطفهم عليكم.

وقال جعفر بن محمد رحمه الله تعالى: كفارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان. وقال كسرى لسيرين: ما أحسن هذا المُلْكَ لو دام. فقال: لو دام لأحد ما انتقل إلينا. ومر طارق الشرطى بابن شبرمى فى موكبه فقال:

أراها وإن كانَتْ تحبُّ فإنها ... سحابةَ صيفٍ عن قليلٍ تقشعُ

وجلس الإسكندر يومًا فيما رفع إليه حاجة فقال: لا أعد هذا اليوم من أيام مُلكى. وقال الجاحظ: ليس شئ ألذ ولا أسر من عز الأمر والنهى، ومن الظفر بالأعداء، ومن تقليد المنن أعناق الرجال. لأن هذه الأمور تصيب الروح، وحظ الذهن، وقسمة النفس. وقيل: الملك خليفة الله فى عباده ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته.

وقال الحجاج: سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها. وقال ازدشير لابنه: يا بنى الملك والدين أخوَان لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالدين أس، والملك حارس، ومن لم يكن له أس فمهدوم، ومن لم يكن له حارس فضائع.

قيل: لما دنت وفاة هرمز وامرأته حامل عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى ولد له ولد، فتملك وأغار العرب على نواحى فارس فى صباه، فلما أدرك ركب وانتخب من أهل النجدة فرسانًا، وأغار على العرب فانتهكهم بالقتل، ثم خلع أكتاف سبعين ألفًا، فقيل له: ذو الأكتاف. وأمر العرب حينئذٍ بإرخاء الشعور، ولبس المصبغات، وأن يسكنوا بيوت الشعر، وأن لا يركبوا الخيل إلا عراة.

وقيل: من أخلاق الملوك حبُّ التفرد، كان أزدشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان، وإذا لبس حلة لم يُر على أحد مثلها، وإذا تختَّم بخاتم كان حرامًا على أهل المملكة أن يتختموا بمثله.

وكان سعيد بن العاص بمكة إذا اعتمَّ، لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه. وكان الحجاج إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها. وكان عبد الملك إذا لبس الخف الأصفر، لم يلبس أحد مثله حتى ينزعه. وأخبرنى مَنْ سافر إلى اليمن إنه لا يأكل الأوز بها أحد غير الملك. وقيل: من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فَحْصَ المرضعة عن ابنها. وكان أزدشير متى شاء قال لأرفع أهل مملكته وأوضعهم: كان عندك فى هذه الليلة كيت وكيت. حتى كان يقال: يأتيه ملك من السماء وما ذاك إلا بتنصحه وتيقظه.

وكان علم عمر رضى الله عنه بمَنْ نأى عنه، كعلمه بمَنْ بات معه على وسادٍ واحد. ولقد اقتفى معاوية أثره. وتعرف إلى زياد رجل فقال: أتتعرف إليَّ وأنا أعرف من أبيك وأمك، وأعرف هذا البُرْدَ الذى عليك. ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه. وعن بعض العباسيين قال: كلمت المأمون رحمه الله تعالى فى امرأة خطبتها، وسألته النظر إليها فقال: يا أبا فلان من قصتها وحليتها، وفعلها وشأنها كيت وكيت فوالله ما زال يصفها ويصف أحوالها حتى أبهتنى[١].

ومما جاء فى طاعة ولاة أمور الإسلام

أمر الله تعالى بذلك فى كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢]، وروينا فى صحيح البخارى عن جابر عن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما قال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم. وسئل كعب الأحبار عن السلطان، فقال: ظل الله في أرضه مَنْ نصحه اهتدى ومَنْ غشَّه ضلّ. وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: لا تسبوا السلطان فإنه ظل الله فى الأرض، به يقوم الحق، ويظهر الدين، وبه يدفع الله الظلم، ويهلك الفاسقين. وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه: كيف كانت طاعتى لك؟ قال: أحسن طاعة. قال: فأطعنى كما كنت أطيعك خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك، ومن ثوبك حتى تبدو عقباك[٣].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أطاعنى فقد أطاع الله، ومَنْ عصانى فقد عصى الله، ومَنْ أطاع أمرى فقد أطاعنى، ومَنْ عصى أمرى فقد عصانى»، وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بالسمع والطاعة لولى الأمر، ومناصحته ومحبته والدعاء له.

ولو تتبعت ذلك لطال الكلام. لكن أعلم - أرشدنى الله وإياك إلى الإتباع، وجنبنا الزيغ[٤] والابتداع - أن من قواعد الشريعة المطهرة والملة الحنيفة المحررة أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية، وأن طاعة السلطان تؤلف شمل الدين، وتنظّم أمور المسلمين. وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة، وأن أرفع منازل السعادة طاعة السلطان، وأن طاعته عصمة من كل فتنة، وبطاعة السلطان تقام الحدود، وتؤدَّى الفروض، وتُحقَن الدماء، وتؤمَّن السبل. وما أحسن ما قالت العلماء: إن طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها، وإن الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة برئ من الذمة. وإن طاعة السلطان حبل الله المتين ودينه القويم، وإن الخروج منها خروج من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ومَنْ غشَّ السلطان ضلّ وزلّ، ومَنْ أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا فى أرفع محل.

وإن طاعة السلطان واجبة، أمر الله تعالى بها فى كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم، وقد اقتصرنا فى ذلك على ما أوردناه واكتفينا بما بيناه، ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا، وأن يُعيذنا من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، وأن يصلح شأننا إنه قريب مجيب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) أبهتنى: أدهشنى.
(٢) سورة النساء: ٥٩.
(٣) العقبان: مؤخر القدمين.
(٤) الزيغ: الضلال.

الباب الخامس عشر فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته

أما صحبة السلطان: فقد قال ابن عباس رضى اللّه عنهما: قال لى أبى: يا بنى إنى أرى أمير المؤمنين يستخليك[1] ويستشيرك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم، وإنى أوصيك بخلال ثلاث: لا تفشين له سرًّا، ولا تجرين عليه كذبًا، ولا تغتابن عنده أحدًا. قال الشعبى رحمه اللّه تعالى: قلت لابن عباس: كل واحدة منهن خير من ألف. فقال: إى واللّه ومن عشرة آلاف.

وقال بعض الحكماء: إذا زادك السلطان تأنيسًا، فزده إجلالاً، وإذا جعلك أخًا، فاجعله أبًا، وإذا زادك إحسانًا، فزده العبد مع سيده، وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس، فأخذوا فى الثناء عليه، فعليك بالدعاء له، ولا تكثر فى الدعاء له عند كل كلمة فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة.

وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان: لا تغتر بالسلطان إذا أدناك، ولا تتغير منه إذا أقصاك.

وروى أن بعض الملوك استصحب حكيمًا فقال له: أصحبك على ثلاث خصال: قال: وما هنّ؟ قال: لا تهتك لى سترًا، ولا تشتم لى عرضًا، ولا تقبل فىَّ قول قائل حتى تستشيرنى. قال: هذا لك، فما ذا لى عليك؟ قال: لا أفشى لك سرًّا، ولا أدخر عنك نصيحة، ولا أؤثر[2] عليك أحدًا. قال: نِعْمَ الصاحب للمستصحب أنت.

وقال بزرجمهر: إذا خدمت ملكًا من الملوك فلا تُطِعْهُ فى معصية خالقك، فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه. وقالوا: اصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار؛ لأنهم إنما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة، وإن طال أنسك بهم تزدد غمًّا. وقالوا: علّم السلطان، وكأنك تتعلم منه، وأشر عليه وكأنك تستشيره، وإذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك، ويثق بك، فإياك والدخول بينه وبين بطانته فإنك لا تدرى متى يتغير منك، فيكونوا عونًا عليك. وإياك أن تعادى مَنْ إذا شاء أن يطرح ثيابه ويدخل مع الملك فى ثيابه فعل. وفى الأمثال القديمة: احذروا زمارة المخدة، وفيه قيل[3] :

ليس الشفيعُ الذى يأتيك متّزرًا ... مثلَ الشفيعِ الذى يأتيك عريانا

وقال يحيى بن خالد: إذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق.

وأما ما جاء فى التحذير من صحبة السلطان: فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهى عن صحبة السلطان. قال فى كتاب كليلة ودمنة: ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل: صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم على التجربة. وكان يقال: قد خاطر بنفسه مَنْ ركب البحر، وأعظم منه خطرًا مَنْ صحب السلطان.

وكان بعض الحكماء يقول: أحقُّ الأمور بالتثبُّت فيها أمور السلطان؛ فإنَّ مَنْ صحب السلطان بغير عقل، فقد لبس شعار الغرور.

وفى حكم الهند: صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر. وقيل للعتابى: لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب؟ قال: لأنى رأيته يعطى عشرة آلاف فى غير شئ، ويرمى من السور فى غير شئ، ولا أدرى أى الرجلين أكون.

---

(١) يستخليك: يتخلى معك.

(٢) أؤثر: أفضّل.

(٣) هذا البيت ينسب للفرزدق فى غمز ابن الزبير.

وقال معاوية لرجل من قريش: إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبى ويبطش بطش الأسد. وقال ميمون ابن مهران: قال لى عمر بن عبد العزيز: يا ميمون احفظ عني أربعًا: لا تصحبَنَّ السلطان، وإن أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر، ولا تخلوَنَّ بامرأة وإن أقرأتها القرآن، ولا تَصِلْ مَنْ قطع رَحِمَهُ فإنه لك أقطع، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدًا. وكم رأينا وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل، والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به فكان كما قيل:

عدوى البليدِ إلى الجليدِ سريعةٌ　　　والجمرُ يوضعُ فى الرماد فيخمدُ

وَمَثَلُ مَنْ صحب السلطان. ليصلحه مَثَلُ مَنْ ذهب ليقيم حائطًا مائلاً، فاعتمد عليه ليقيمه فخرَّ الحائط عليه فأهلكه، قال الشاعر:

ومعاشرُ السلطان شبهُ سفينةٍ　　　فى البحر ترجفُ دائمًا من خوفِهِ

إن أدخلَتْ من مائه فى جوفها　　　يغتالها مَعَ مائها فى جوفِهِ

وفى كتاب كليلة ودمنة: لا يسعد مَنِ ابتلى بصحبة الملوك، فإنهم لا عهد لهم، ولا وفاء ولا قريب ولا حميم، ولا يرغبون فيك، إلا أن يطمعوا فيما عندك فيقرِّبوك عند ذلك، فإذا قضوا حاجاتهم منك تركوك ورفضوك، ولا ود للسلطان ولا إخاء، والذنب عنده لا يغفر. وقال الحكماء: صاحبُ السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف. وقال محمد بن واسع: واللَّه لَسَفُّ التراب وَلَقَضْمُ العظمِ خير من الدنو من أبواب السلاطين. وقال محمد بن السماك: الذباب على العذرة[1] خير من العابر على أبواب الملوك. وقيل: مَنْ صحب السلطان قبل أن يتأدب فقد غرر بنفسه. وقال ابن المعتز: مَنْ شارك السلطان فى عز الدنيا شاركه فى ذلِّ الآخرة، وعنه: إذا زادك السلطان تأنيسًا وإكرامًا فزده تهيبًا واحتشامًا. وقال أبو على الصغانى: إياك والملوك فإنَّ مَنْ والاهم أخذوا ماله، ومَنْ عاداهم أخذوا رأسه.

وقيل: مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة: عقل، وصبر ، ومال. وتحته مكتوب: كذب عدوّ اللَّه مَنْ كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان. وقال حسان بن ربيع الحميرى: لا تثقن بالملك فإنه ملول، ولا بالمرأة فإنها خوَن، ولا بالدابة فإنها شرود. وقال عبيد بن عمير: ما ازداد رجل من السلطان قربًا، إلا ازداد من اللَّه بعدًا، ولا كثرت أتباعه، إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه. وقال ابن المبارك رحمه اللَّه:

أرى الملوكَ بأدنى الدينِ قد قنعوا　　　ولا أراهم رضُوا فى العيش بالدون[2]

فاستَغْنِ بالدين عن دنيا الملوك كما استـ　　　ـغنى الملوكُ بدنياهم عن الدينِ

وقال بعضهم فى ولاة بنى مروان:

إذا ما قطعتم ليلَكم بمُدامِكم　　　وأفنيتَموا أيامَكم بمنامِ

فمَنْ ذا الذى يغشاكم فى ملمةٍ[3]　　　ومَنْ ذا الذى يغشاكُمُ بسلامِ

رضيتُمْ مِنَ الدنيا بأيسر بُلْغَةٍ　　　بلثم غلامٍ أو بشرب مُدامِ

ولم تعلموا أن اللسان موكلٌ　　　بمدح كرامٍ أو بذم لئامِ

(١) العذرة: القذارة من الغائط.

(٢) الدون: القليل الذليل.

(٣) الململة: النازلة.

نهت الحكماء عن خدمة الملوك فقالوا: إن الملوك يستعظمون فى الثواب ردَّ الجـواب، ويستقلون فـى العقـاب ضرب الرقاب. وقيل: شر الملوك من أمّنه الجرئ، وخافه البرئ.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، نعـم المـولى ونعـم النصـير، وصلـى اللّـه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس عشر فى ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك

قال الله تعالى حاكيًا عن موسى عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾[(١)] فلو كان السلطان يستغنى عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام. ثم ذكر حكمة الوزارة فقال: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[(٢)] دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة، وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة. ثم قال: ﴿نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾[(٣)] دلت هذه الآية على أن بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا والآخرة، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح، وأفره الخيل إلى السوط، وأحد الشِّفَار[(٤)] إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم إلى الوزير.

وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: ما بعث الله من نبى، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان[(٥)] : بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه[(٦)] عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضّه عليه، والمعصوم مَنْ عصمه الله.

وقال وهب بن منبه: قال موسى لفرعون: آمِنْ ولك الجنة، ولك ملكك. قال: حتى أشاور هامان فشاوره فى ذلك، فقال له هامان: بينما أنت إله تعبد، إذ صرت تَعْبد، فأنف واستكبر، وكان من أمره ما كان. وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالاً، ولبئس القرناء، شر قرين لشر خدين. وأشرف منازل الآدميين النبوة، ثم الخلافة، ثم الوزارة. وفى الأمثال: نِعْمَ الظهير الوزير. وأول ما يظهر نبل السلطان، وقوة تمييزه، وجودة عقله، فى انتخاب الوزراء، واستنقاء الجلساء، ومحادثة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدلك على كماله، وبهذه الخلال يجمل فى الخلق ذكره، وترسخ فى النفوس عظمته، والمرء موسوم بقرينه. وكان يقال: حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم.

وفى كتاب كليلة ودمنة: لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان. وقال شريح بن عبيد: لم يكن فى بنى إسرائيل مَلِكٌ إلا ومعه رجل حكيم، إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف، فى كل صحيفة: ارحم المسكين، واخش الموت، واذكر الآخرة. فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه.

ومَثَلُ الملك الخير والوزير السوء الذى يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه، كالماء الصافى فيه التمساح، فلا يستطيع المرء دخوله، وإن كان سابحًا، وإلى الماء محتاجًا. ومَثَلُ السلطان كمَثَلِ الطبيب، ومثَلُ الرعية كمَثَلِ المرضى، ومَثَلُ الوزير كمَثَل السفير بين المرضى والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير، وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحدًا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه، فإذا سقاه الطبيب على وصفة السفير هلك العليل. كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس فى الرجل فيقتله الملك، فمن ههنا شرط فى الوزير أن يكون صدوقًا فى لسانه، عدلاً فى دينه، مأمونًا فى أخلاقه، بصيرًا بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضًا من أهل الأمانة والبصيرة. وليحذر الملك أن يولى الوزارة لئيمًا، فاللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف، وتكبر على ذوى الفضل.

ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء، وكان الوزير من أهل العقل والأدب فوجد عنده رجلاً ذميًا كان الخليفة يميل إليه ويقربه، فقال الوزير منشدًا:

يَا مَلِكًا طَاعَتَه لازِمَة ... وحُبُّه مُفْتَرِضٌ واجِبُ

---

(١) سورة طه:٢٩.
(٢) سورة طه:٣١ - ٣٢.
(٣) سورة طه:٣٣ - ٣٤.
(٤) أحد الشِّفَار: حد السيف.
(٥) بطانتان: الحاشية.
(٦) تحضّه: تدفعه.

إنَّ الــــذى شــــرفت مـــن أجلـــه يزعـــمَ هـــذا أنَّـــه كـــاذبُ

وأشار إلى الذمى، فاسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فسأله فلم يجد بدًّا من أن يقول: هو صادق، فاعترف بالإسلام.

وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع، وقال لوزيره: إذا رأيتنى غضبان، فادفع إلىّ رقعة بعد رقعة، وكان فى الأولى: إنك لست بإله، وأنك ستموت، وتعود إلى التراب فيأكل بعضك بعضًا، وفى الثانية: ارحَمْ من فى الأرض يرحَمْك من فى السماء. وفى الثالثة: اقضِ بين الناس بحكم اللّٰه فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك.

ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء، وأزِمَّة الملوك فى أكف الوزراء، سبق فيهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا: لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير، وإذا أحبك الوزير فنَمْ ولا تخش الأمير. ومثل السلطان كالدار، والوزير بابها فمن أتى الدار من بابها ولج، ومن أتاها من غير بابها انزعج، وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصر، فكما أن مَنْ لم ينظر فى المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير: لا يعلم محاسن دولته وعيوبها. ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤوفًا بهم.

واعلم: أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة وإن استقلها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أن المرآة لا تريك وجهها إلا بصفاء جوهرها، وجودة صقلها ونقائها من الصدأ، كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فَهْمه، ونقاء قلبه. واللّٰه تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا اللّٰه ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه العلى العظيم، وصلى اللّٰه على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، والحمد للّٰه رب العالمين.

الباب السابع عشر فى ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر

أما الحجاب، فقد قيل: لا شئ أضيع للمملكة، وأهلك للرعية من شدة الحجاب. وقيل: إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم.

وقال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه: مَنْ بالباب؟ فقال: رجل أناخ[١] ناقته الآن، يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأذن له أن يدخل. فلما دخل، قال: حدثنى أبى أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «مَنْ ولى شيئًا من أمور المسلمين، ثم حجب[٢] عنه، حجبه اللّه عنه يوم القيامة». فقال عمر لحاجبه: الزم بيتك، فما رؤى على بابه بعد ذلك حاجب.

وكان خالد بن عبد اللّه القسرى يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسى فلا تحجبَنَّ عنى أحدًا، فإن الوالى لا يحتجب إلا لثلاث: عيب يكره أن يطلع عليه أحد، أو ريبة يخاف منها أن تظهر، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئًا. وكانت العجم تقول: لا شئ أضيع للمملكة من شدّة حجّاب الملك، ولا شئ أهيب للرعية، وأكف لهم عن الظلم من سهولتهم. وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذى لا يندمل[٣] ؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يرده بغير قضائها. قيل: فما الذى هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنئ ثم لا يؤذن له. ووقف عبد اللّه بن العباس بن الحسن العلوى على باب المأمون يومًا، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق. فقال عبد اللّه لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لانصرفنا. ولو اعتذر إلينا لقبلنا، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرّف فلا أفهم معناه، ثم تمثل بهذا البيت:

وما عن رضى كان الحمارُ مطيتى ... ولكنّ مَنْ يمشى سيرضى بما ركب

ثم انصرف فبلغ ذلك المأمون فضرب الحاجب ضربًا شديدًا، وأمر لعبد اللّه بصلة جزيلة وعشر دوابّ.

قال الشاعر:

رأيت أناسًا يُسرعون تبادرًا ... إذا فتح البوّاب بابَك إصبعا

ونحن جلوسٌ ساكتون رزانةً[٤] ... وحلمًا إلى أن يفتحَ الباب أجمعا

ووقف رجل خراسانى بباب أبى دلف العجلى حينًا فلم يؤذن له، فكتب رقعةً وتلطف فى وصلها إليه وفيها:

إذا كان الكريمُ له حجابٌ ... فما فَضْلُ الكريمِ على اللئيمِ؟!

فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريمُ قليلَ مالٍ ... ولم يعذر تعلّلَ بالحجابِ

وأبوابُ الملوكِ محجَّباتٌ ... فلا تستنكرَن حِجابَ بابى

ومن محاسن النظم فى ذم الاحتجاب قول بعضهم:

سأهجركم حتى يلينَ حجابُكم ... على أنه لابدَّ سوف يلينُ

خذوا حذركم من صفوةِ الدهرِ إنها ... وإنْ لم تكن خانَتْ فسوف تخونُ

وقال آخر:

ماذا على بوّاب داركُمُ الذى ... لم يُعْطنا إذنًا ولا يستأذنُ

---

(١) أناخ: أبرك ناقته.

(٢) حجب: منع.

(٣) يندمل: يبرأ ويشفى.

(٤) الرزانةً: الاتزان والتعقل.

لـــو ردَّنـــا ردًّا جميـــلاً عنكـــم أو كـان يدفَـعُ بـالتى هـى أحسـنُ

وقال آخر:

أمـــرتَ بالتســـهيل فـــى الإذن لى و لم يـــر الحـــاجب أن يأذنــــا
فلـــن ترانـــى بعدهـــا عـــائدًا ولـــن تـــراه بَعْـــدُ متأذنـــا

وقال آخر:

ولقـد رأيـتُ ببـابِ دارك جفـوةً فيهـا لحسـنِ صنيعِـكَ التكديـرُ[١]
مـا بـالُ دارِكَ حـين تدخـل جنـة وببـــابِ دارِكَ منكـــرٌ ونكـــيرُ

وقال آخر:

إذا جئتُ ألقى عند بـابك حاجبًـا محيـاهُ مـن فَـرْطِ الجهالـةِ حـالكُ
ومـن عجـبٍ مغنـاك جنـة قـاصدٍ وحاجبُهـا مـن دون رِضـوان مـالكُ

وقال آخر:

سـأتركُ بابًـا أنـتَ تملـكُ إذنَـهُ ولو كنتُ أعمـى عـن جميـع المسالكِ
فلـو كنـتَ بـوّاب الجنـان تركتُهـا وحوَّلـتُ رجلى مسرعًا نحو مـالكِ

وقال آخر:

مـــاذا يفيـدُك أن تكـونَ محجَّبًـــا والعبـــدُ بالبـــابِ الكريـــم يلـــوذَ
ما أنـتَ إلا فـى الحصارِ معـى فـلا تَتَعَـــبْ فكـــلُ محـــاصَرِ مـــأخوذَ

وقال أبو تمام:

سـأتركُ هـذا البـاب مـا دام إذنـه علـى مـا أرى حتـى يلـين قليـلا
فمـا خـاب مَـنْ لم يأتِـهِ متعمـدًا ولا فـاز مَنْ قد نـال منه وُصُـولا
إذا لم نجـد لـلإذن عنـدك موضعًـا وجَدْنـا إلى تَـرْكِ المجـئ سَـبيلا

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب: قـال لـه: إن الكـرى[٢] قـد خطـب إلىَّ نفسـى، وإنمـا هـى هجعـة[٣] وأهبُ[٤] . فخرج الحاجب فقال له الرجل: ما الذى قال لك؟ قال: قال كلامًا لا أفهمـه وهـو يريـد أن لا يـأذن لك. وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه: إنما أمهل فرعـون مـع دعـواه الألوهيـة لسـهولة إذنـه، وبـذل طعامه. وقال عمرو بن مرة الجهنى لمعاوية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من أمير يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسألة إلا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسألته».

وجاء النامى الشاعر لبعض الأمراء فحجبه فقال:

سـأصبر إن جفـوت فكـم صبرنـا لمثلـــك مـــن أمـــيرٍ أو وزيـــرِ
رَجَوْنـــاهُم فلمـــا أخلفونَـــا[٥] تمـادَتْ فيهـم غِـيرُ الدهـورِ[٦]
فبتنـــا بالســـلامة وهـــى غنـــمٌ وبـــاتوا فـــى المحـابس والقبـورِ

---

(١) التكديرُ: التعكير والتشويه.
(٢) الكرى: النعاس.
(٣) هجعة: رقدة.
(٤) أهبُّ: أستيقظ.
(٥) أخلفُونَا: نقضوا عهودهم.
(٦) غِيرُ الدهورِ: تقلبات الأزمان.

ولما لم نَنلْ منهم سرورًا ... رأينا فيهم كلَّ السرورِ

وأنشدوا فى ذلك أيضًا:

قل للذين تحجبوا عن راغبٍ ... بمنازلٍ من دونها الحجّابُ

إن حَالَ عن لقياكُمُ بوّابكم ... فاللّه ليس لبابهِ بوّابُ

واستأذن سعد بن مالك على معاوية فحجبه، فهتف بالبكاء. فأتى إليه الناس وفيهم كعب، فقال: وما يبكيك يا سعد؟ فقال: وما لى لا أبكى وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاوية يلعب بهذه الأمة.

فقال كعب: لا تبكِ فإنَّ فى الجنة قصرًا من ذهب يقال له: عدن، أهله الصدّيقون والشهداء، وأنا أرجو أن تكون من أهله.

واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم فحجبه فقال:

فى كلِّ يوم لى ببابك وقفةٌ ... أطوى إليه سائرَ الأبواب

وإذا حضرتُ رغبتُ عنك فإنه ... ذنبٌ عقوبَتُهُ على البواب

وأما ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم: فقد قال الله تعالى لداود عليه السلام: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(١) جاء فى التفسير: أن من اتّباع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتودّ أن يكون الحق للذى فى قلبك حبه خاصة، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه. قال ابن عباس رضى الله عنهما: كان الذى أصاب سليمان بن داود عليهما السلام، أن ناسًا من أهل جرادة امرأته، وكانت من أكرم نسائه عليه، تحاكموا إليه من غيرهم، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضى لهم، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحدًا.

وروى عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وأن أعطيتها من مسألة وكلت إليها»(٢) . وقال معقل بن يسار رضى الله عنه: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحيته، ألا لم يجد رائحة الجنة» وفى الحديث: «من ولى من أمور المسلمين شيئًا ثم لم يحطها بنصيحته كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار»أخرجه(٣).

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة فأبى، وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالى فيقف على جسر جهنم فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه، ثم يأمر الله تعالى بالعظام فترجع إلى أماكنها، فإن كان لله مطيعًا أخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان لله عاصيًا انخرق به الجسر فهوى به فى نار جهنم مقدار سبعين خريفًا» فقال عمر رضى الله عنه: سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم ما لم أسمع؟ قال: نعم. وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان: إى والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفا فى وادٍ يلتهب التهابًا،

(١) سورة ص:٢٦.
(٢) أخرجه: البخارى فى الأيمان والنذور ٦٦٢٢.
(٣) أخرجه: البخارى فى العلم ١٠٧.

فضرب عمر رضى اللّٰه عنه بيده على جبهته وقال: إنّا للّٰه وإنّا إليه راجعوان مَنْ يأخذها بما فيهـا؟ فقـال سلمان: مَنْ أرغم اللّٰه أنفه وألصق خده بالأرض.

وروى أبو داود فى السنن قال: جاء رجل إلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فقال: يـا رسـول اللّٰه إن أبـى عريف على الماء، وإنى أسألك أن تجعل لى العرافة من بعده. فقال النبى صلى اللّٰه عليه وسلم: «العرفاء فى النار». وروى أبو سعيد الخدرى رضى اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسـلم: «إن أشـد النـاس عذابًـا يـوم القيامة الإمام الجائر»[1] . وقالت عائشة رضى اللّٰه عنها: سمعت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقـول: «يؤتـى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة». وقال الحسن البصرى: إن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله فقال: يا رسول اللّٰه خر[2] لى، فقال: «اقعـد فـى بيتك».

وقال أبو هريرة رضى اللّٰه عنه: ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جئ به يوم القيامة مغلولاً[3] ، أنجاه عمله أو أهلكه. وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك: هل تدرى يا أمير المؤمنين من أشـد النـاس عذابًـا يـوم القيامـة؟ قـال سليمان: قل. فقال طاوس: أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه اللّٰه فى ملكه، فجار فى حكمـه. فاسـتلقى سليمان على سريره وهو يبكى، فما زال يبكى حتى قام عنه جلساؤه.

وقال ابن سيرين: جاء صبيان إلى أبى عبيدة السلمانى يتخيَّرون إليه فى ألواحه، فلم ينظر إليه وقال: هذا حكم لا أتولى حكمًا أبدًا. وقال أبو بكر بن أبى مريم: حج قوم فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجـدوا مـاء فأتـاهم رجل فقالوا له: دلنا على الماء، فقال: احلفوا لى ثلاثًا وثلاثين يمينًا أنـه لم يكـن صرافًـا، ولا مكاسًـا، ولا عريفًـا - ويروى ولا عرافًا - ولا بريدًا، وأنا أدلكم على الماء، فحلفوا له ثلاثًا وثلاثـين يمينًـا كمـا قـال فدلهـم علـى المـاء. فقالوا له: أعِنَّا على غَسْله. فقال: لا، حتى تحلفوا لى ثلاثًا وثلاثين يمينًا كما تقدم. فحلفـوا لـه، فصلـى عليـه. ثـم التفتوا فلم يجدوا أحدًا فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام.

وقال أبو ذر رضى اللّٰه عنه: قال لى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «يـا أبـا ذر إنـى أحـب لـك مـا أحـب لنفسى، وإنى أراك ضعيفًا فلا تتأمرن على اثنين، ولا تلين[4] مال يتيم».

ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق، ما حكى أن ملكًا من ملوك الفرس، يقال له: أزدشير، وكان ذا مملكـة متسعة، وجند كثير، وكان ذا بأس شديد قد وصف له بنت ملك بحـر الأردن بالجمـال البـارع، وأن هـذه البنـت بكر ذات خدر، فسير أزدشير مَنْ يخطبها من أبيها فامتنع من إجابته ولم يرض بذلك، فعظـم ذلـك علـى أزدشـير وأقسم الأيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شر قتلة، وليمثلـن بهمـا أخبـث مثلـة. فسـار إليـه أزدشير فى جيوشه فقاتله أزدشير وقتل سائر خواصه، ثم سأل عن ابنته المخطوبة، فبرزت إليه جاريـة مـن القصـر من أجمل النساء، وأكمل البنات حسنًا وجمالاً وقدًا واعتدالاً فبهت أزدشير من رؤيته إياها فقالت له: أيهـا الملـك إنى ابنة الملك الفلانى، ملك المدينة الفلانية، وإن الملك الذى قتلته أنت قـد غـزا بلدنـا، وقتـل أبـى، وقتـل سـائر أصحابه، قبل أن تقتله أنت، وأنه أسرنى فى جملة الأسرى، وأتى بى فى هذا القصر فلما رأتنى ابنته التى أرسـلت تخطبها أحبتنى وسألت أباها أن يتركنى عندها لتأنس بى، فتركنى لها، فكنت أنا وهـى كأننـا روحنـا فـى جسـد واحدة، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر فـى البحـر الملح عنـد أقاربـه مـن الملوك. فقال أردشير: وددت لو أنى ظفرت بها فكنت أقتلهـا شـر قتلـة، ثـم إنـه تـأمل الجارية فرآهـا فائقـة فـى

---

(١) الجائر: الظالم.

(٢) خر لى: أى اصطف لى.

(٣) مغلولاً: مقيدًا بالسلاسل والأغلال.

(٤) من ولى يلى: تولى.

الجمال، فمالت نفسه إليها فأخذها للتسرى. وقال: هذه أجنبية من الملك، ولا أحنث في يميني بأخذها، ثم إنه واقعها، وأزال بكارتها فحملت منه، فلما ظهر عليها الحمل اتفق أنها تحدثت معه يومًا، وقد رأته منشرح الصدر، فقالت له: أنت غلبت أبى، وأنا غلبتك. فقال لها: ومن أبوك؟ فقالت له: هو ملك من بحر الأردن، وأنا ابنته التى خطبتها منه، وإننى سمعت أنك أقسمت لتقتلنى فتحيلت عليك بما سمعت، والآن هذا ولدك فى بطنى فلا يتهيأ لك قتلى. فعظم ذلك على أردشير إذا قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه، فانتهرها وخرج من عندها مغضبًا وعوّل على قتلها.

ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها، فلما رأى الوزير عزمه قويًا على قتلها خشى أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا، وإنه لا يقبل فيها شفاعة شافع. فقال: أيها الملك، إن الرأى هو الذى خطر لك، والمصلحة هى التى رأيتها أنت، وقَتْلُ هذه الجارية فى هذا الوقت أولى وهو عين الصواب؛ لأنه أحق من أن يقال: إن امرأة قهرت رأى الملك وحنثته فى يمينه لأجل شهوة النفس.

ثم قال: أيها الملك إن صورتها مرحومة، وحمل الملك معها وهى أولى بالستر، ولا أرى فى قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق. قال له الملك: نِعْمَ ما رأيتَ، خُذْها وغرِّقْها، فأخذها الوزير، ثم خرج بها ليلاً إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان، فتحيَّل إلى أن طرح شيئًا فى البحر أَوْهَمَ مَنْ كان معه أنها جارية، ثم إنه أخفاها عنده فلما أصبح جاء إلى الملك فأخبره أنه غرَّقها فشكره على ما فعل.

ثم إن الوزير ناول الملك حُقًّا[1] مختومًا، وقال: أيها الملك، إنى نظرت مولدى فرأيت أجلى قد دنا يقتضيه حساب حكماء الفرس فى النجوم، وإن لى أولادًا، وعندى مال قد ادخرته من نعمتك فخذه إذا متّ إن رأيت، وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادى بالسوية فإنه أرثى الذى قد ورثته من أبى وليس عندى شئ اكتسبته منه إلا هذا الجوهر. فقال له الملك: يطوّل الرب فى عمرك ومالك لك، ولأولادك سواء كنت حيًّا أو ميتًا. فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة. فأخذه الملك وأودعه عنده فى صندوق.

ثم مضت أشهر الجارية فوضعت ولدًا ذكرًا جميلاً حسن الخلقة مثل فلقة القمر فلاحظ الوزير جانب الأدب فى تسميته، فرأى أنه إن اخترع له اسمًا وسماه به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الأدب، وإن هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك فسماه شاه بور ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك، فإن شاه ملك وبور ابن، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم، وتقديم المتأخر وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم، فعلّمه كلَّ ما يصلح لأولاد الملوك من الخط، والحكمة، والفروسية، وهو يوهم أنه مملوكٌ له اسمه شاه بور إلى أن راهق البلوغ.

هذا كله وأزدشير ليس له ولد، وقد طعن فى السن، وأقعده الهرم فمرض وأشرف على الموت، فقال للوزير: أيها الوزير قد هرم جسمى، وضعفت قوتى، وإنى أرى أنى ميت لا محالة، وهذا الملك يأخذه من بعدى من قُضى له به، فقال الوزير: لو شاء اللّٰه أن يكون للملك ولد كان قد ولى بعده الملك، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها، فقال الملك: لقد ندمت على تغريقها ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكرًا، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا قال: أيها الملك إنها عندى حيّة ولقد وضعت ولدًا ذكرًا من أحسن الغلمان خَلْقًا وخُلُقًا، فقال الملك: أحقٌّ ما تقول؟ فأقسم الوزير أن نعم، ثم قال: أيها الملك إن فى الولد روحانية تشهد بأبوة الأب، وفى الوالد روحانية تشهد ببنوة الأبن، لا يكاد ذلك ينخرم أبدًا، وإننى سآتى بهذا الغلام بين عشرين غلامًا فى سنه وهيئته ولباسه، وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو، وإنى سأعطى كل واحد منهم صولجانًا وكرة

---

(١) الحُق: وعاء من خشب أو عاج.

وآمرهم أن يلعبوا بين يديك فى مجلسك هذا، ويتأمل الملك صورهم، وخلقتهم، وشمائلهم فكلٌّ مَنْ مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو. فقال الملك: نعم التدبير الذى قلت.

فأحضرهم الوزير على هذه الصورة، ولعبوا بين يدى الملك فكان الصبى منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور فإنه كان إذا ضربها جاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه. فلاحظ أردشير ذلك منه مرارًا فقال له: أيها الغلام ما اسمك؟ قال: شاه بور. فقال له: صدقت، أنت ابنى حقًّا، ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه.

فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيها الملك، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبى منهم والدًا بحضرة الملك فتحقق الصدق فى ذلك. ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها فقبلت يد الملك فرضى عنها. فقال الوزير: أيها الملك قد دعت الضرورة فى هذا الوقت إلى إحضار الحُق المختوم. فأمر الملك بإحضاره ثم أخذه الوزير، وفك ختمه وفتحه فإذا فيه ذكر الوزير وأنثياه(١) مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك، وأحضر عدولاً من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة. قال: فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس فى الخدمة، وشدة مناصحته فزاد سروره، وتضاعف فرحه لصيانة الجارية، وإثبات نسب الولد ولحوقه به. ثم إن الملك عوفى من مرضه الذى كان به، وصح جسمه. ولم يزل يتقلب فى نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة، ورجع المُلك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أزدشير، وشاه بور يحفظ مقامه، ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى.

والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

---

(١) أنثياه: خصيتاه.

الباب الثامن عشر فى القضاء، وذكر القضاة، وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول

الفصل الأول فى القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم

قال اللّه تعالى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(١) ، وقال تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ﴾(٢) ، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾(٣) وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضاه فلم يقضِ بينهما بالحق، فعليه لعنة اللّه». وعن أبي حازم قال: دخل عمر على أبي بكر رضوان اللّه عليهما فسلم عليه فلم يرد عليه، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: أخاف أن يكون وجد عليّ(٤) خليفة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فكلم عبد الرحمن أبا بكر فقال: أتاني، وبين يديّ خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصرى، وعلمت أن اللّه سائلي عنهما، وعمَّا قالا وقلت. وادَّعى رجل على عليٍّ عند عمر رضى اللّه عنهما وعليّ جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك فتناظرا. وانصرف الرجل ورجع عليٌّ إلى مجلسه، فتبين لعمر التغير فى وجه على. فقال: يا أبا الحسن ما لى أراك متغيرًا أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: كنيتني بحضرة خصمي، هلاَّ قلت: يا على قُمْ فاجلس مع خصمك. فأخذ عمر برأس على رضى اللّه عنهما فقبله بين عينيه ثم قال: بأبي أنتم بكم هدانا اللّه، وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور. وعن أبي حنيفة رضى اللّه عنه: القاضى كالغريق فى البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحًا. وأراد عمر بن هبيرة أن يولى أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف ليضربنه بالسياط وليسجننه فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب. فقال: الضرب بالسياط فى الدنيا أهون عليّ من الضرب بمقامع(٥) الحديد فى الآخرة.

وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن فى خلافة أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه، فكشف عن باب مغلق، فظنناه كنزًا، فكتبنا إلى أبى بكر رضى اللّه عنه اللّه عنه فكتب إلينا: لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابى، ثم فتح فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب، وفى يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خانَ الأميرُ وكاتباه ... وقاضى الأرض داهنَ(٦) فى القضاءِ
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ ... لقاضى الأرضِ من قاضى السماءِ

وإذا عند رأسه سيف، أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه: هذا سيف عاد بن إرم.

---

(١) سورة ص:٢٦.
(٢) سورة ص:٢٢.
(٣) سورة المائدة:٤٧.
(٤) وجد عليّ: غضب.
(٥) مقامع: مفردها مقمعة: عود تتخذ للضرب.
(٦) داهنَ: جامَل.

عن ابن أبى أوفى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله مع القاضى ما لم يَجُرْ، فإذا جار، برئ الله منه، ولزمه الشيطان»[١] . وقال محمد بن حريث: بلغنى أن نصر بن على راودوه على القضاة بالبصرة واجتمع الناس إليه فكان لا يجيبهم، فما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال: اللّهم إن كنت تعلم أنى لهذا الأمر كاره فاقبضنى إليك، فقبض[٢] . وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم: «القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة». وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله من مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضيًا؛ لأن يدخل الرجل أصبعه فى عينيه فيقلعهما ويرمى بهما خير له من أن يكون قاضيًا.

وقيل: أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى كان أمير البصرة وقاضيًا فيها، وكان يقول: إن الرجلين يتقدمان إلىّ، فأجد أحدهما أخفَّ على قلبى من الآخر فأقضى له.

وتقدم المأمون بين يدى القاضى يحيى بن أكثم مع رجل ادعى عليه بثلاثين ألف دينار فطُرِحَ للمأمون مصلى يجلس عليه، فقال له يحيى: لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل بيّنة[٣] فأراد أن يحلف المأمون، فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة: إنى تناولتك من جهة القدرة، ثم أمر ليحيى بمال وأجزل عطاءه.

وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبى يوسف بن يعقوب فى حكم فارتفع الخادم على خصمه فى المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل. فقال أبو يوسف: قم، أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك فى المجلس فتمتنع يا غلام، ائتنى بعمرو بن أبى عمرو النخاس، فإنه إن قدم علىَّ الساعة أمرته ببيع هذا العبد، وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين. ثم أن الحاجب أخذه بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه، فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له: لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكى فليست منزلتك عندى تزن رتبة المساواة بين الخصمين فى الحكم؛ فإن ذلك عمودُ السلطان، وقوام الأديان. والله تعالى أعلم.

وقال الأبرش العكلى يمدح بعض القضاة:

رفضتَ وعطلت الحكومةَ قبله ... فى آخرين وملّها روّاضها[٤]

حتى إذا ما قام ألفٌ بينها ... بالحقِّ حتى جمعت أوفاضها[٥]

وفى ضد ذلك قول بعضهم:

أبكى وأندبُ ملّة الإسلام ... إذ صرت تقعد مقعد الحكام

إن الحوادثَ ما علمتَ كثيرة ... وأراك بعضَ حوادثِ الأيام[٦]

وتقدمت امرأة إلى قاض، فقال لها: جامعك شهودك؟ فسكتت. فقال كاتبه: إن القاضى يقول لك : جاء شهودك معك؟ قالت: نعم هلاّ قلت مثل ما قال كاتبك، كبر سنك، وقلّ عقلك، وعظمت لحيتك حتى غطت على لبك، ما رأيت ميتًا يقضى بين الأحياء غيرك.

وقيل: المضروب بهم المثل فى الجهل، وتحريف الأحكام قاضى منى، وقاضى كسكر، وقاضى أيدج، وهو الذى قال فيه أبو إسحاق الصابى:

---

(١) الترمذى فى الأحكام ١٣٣٠.

(٢) فقبض: أى توفى.

(٣) بيّنة: دليل وبرهان.

(٤) روّاضها: أى سئمها مدبروها.

(٥) الأوفاض: ما تفرق واختلط.

(٦) حوادثِ الأيامِ: نوازلها.

يـــا رب علـــج[1] أعالـــج ... مثـــل البعـــير الأهـــوج
رأيتـــــه مطلعًـــــا ... خلـــف بـــاب مرتـــج[2]
وخلفـــــه عذيبـــــة ... تذهـــب طـــورًا وتجـــىَ
فقالـــتْ مَضـــنْ هـــذا تـــرى ... فقيـــل قـــاضى أيـــدج

وقاضى شلبة وهو الذى قال فيه أبو الحسن الجوهرى:

رأيـــتُ رأسًـــا كَدِبَّـــهْ ... ولحيـــة كالمذبَّـــهْ[3]
فقلـــتْ مَـــنْ أنـــت قـــل لى ... فقـــال قـــاضى شـــلبَّهْ

وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعبى فادعت عنده فقضى لها، هذيل الأشجعى:

فـــتنَ الشـــعبى لمـــا ... رَفَـــعَ الطـــرفُ إليهـــا
فتنتـــــه ببنـــــان ... كيـــف لـــو رأى معصمَيْهـــا
ومشَـــتْ مشـــيًا رويـــدًا ... ثـــم هَـــزَّتْ منكبَيْهـــا
فقضـــى جـــورًا علـــى الخصـــم ولم يقـــض عليهـــا

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبى فضرب الأشجعى ثلاثين سوطًا.

وحكى ابن أبى ليلى قال: انصرف الشعبى يومًا من مجلس القضاء، ونحن معه، فمررنا بخادمة تغسل الثياب، وهى تقول: فتن الشعبى لما، وأعادته ولم تعرف بقية البيت فلقّنها الشعبى، وقال: رفع الطرف إليها. ثم قال: أبعده الله أما أنا فما قضيت إلا بالحق. وأنشد بعضهم فى أمين الحكم:

تتمـــاوتنَّ إذا مشـــيتَ تخشُـــعًا ... حتـــى تصيـــب وديعـــةَ ليتيـــم

الفصل الثانى فى الرشوة والهدية على الحكم وما جاء فى الديون

أما الرشوة فقد روى عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «لعن اللّه الراشى والمرتشى». وقال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: لا تولوا اليهود ولا النصارى فإنهم يقبلون الرشا، ولا يحل فى دين اللّه الرشا. قال الشهيدى: وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم. وفي نوابغ الحكم أن البراطيل[4] تنصر الأباطيل. وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه قال: من شفع شفاعة ليرد بها حقا، أو يدفع بها ظلمًا فأهدى له فقبل، فذلك السحت[5]، فقيل له: ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم. قال: الآخذ على الحكم كفر، وأنشد المبرد رحمه اللّه تعالى:

وكنتُ إذا خاصمتُ خصمًا كببته[6] ... على الوجه حتى خاصَمَتْنى الدارهـمُ
فلمـــا تنازعنـــا الحكومـــةَ غَلَّبَـــتْ ... علـــىّ وقـــالت قُـــمْ فـــإنك ظـــالمُ

وأما الدَّين وما جاء فيه نعوذ باللّه من غلبة الدّين وقهر الرجال: فقد روى عن أبى أمامة رضى اللّه عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «من داين بدَيْن وفى نفسه وفاؤه، ثم مات تجاوز اللّه عنه وأوصى غريمه بما شاء. ومن تداين بدَيْن وليس فى نفسه وفاؤه، ثم مات اقتص اللّه لغريمه منه يوم القيامة» رواه الحاكم.

---

(١) العلج: الغريب.
(٢) مرتج: باب مغلق بإحكام.
(٣) المذَبَّة: طاردة الذباب.
(٤) البراطيل: الرشاوى.
(٥) السحت: الحرام.
(٦) كببته: رميته على الأرض.

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بجنازة لم يسأل عن شئ من عمل الرجل، ويسأل عن دَيْنه فإن قيل: عليه دَيْن كفَّ عن الصلاة عليه، وإن قيل: ليس عليه دَيْن صلى عليه. فأتي بجنازة فلما قام ليكبر سأل صلى الله عليه وسلم: «هل على صاحبكم من دَيْن؟» فقالوا: ديناران يا رسول الله. فعدل النبى صلى الله عليه وسلم عنه، وقال: «صلوا على صاحبكم». فقال على كرم الله وجهه: هما علىّ يا رسول الله وهو برئ منهما. فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى عليه، ثم قال لعلى رضى الله عنه :«جزاك الله عنه خيرًا، فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك، إنه ليس من ميت يموت وعليه دَيْن إلا ومرتهن بدينه، ومن فكَّ رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة».

وقال بعض الحكماء: الدَّيْنُ همٌّ بالليل، وذلٌّ بالنهار، وهو غلٌّ جعله الله فى أرضه، فإذا أراد الله أن يذلَّ عبدًا جعله طوقًا فى عنقه. وجاء سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه يتقاضى دَيْنًا له على رجل فقالوا: خرج إلى الغزو. فقال: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لو أن رجلاً قتل فى سبيل الله ثم أحيى، ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضى دَيْنه» وعن الزهرى قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى على أحد عليه دَيْن، ثم قال بعد:« أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، من مات وعليه دَيْن فعلىّ قضاؤه» ثم صلى عليهم. وعن جابر: لا هَمَّ إلا همُّ الدين، ولا وَجَعَ إلا وجعُ العين. وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ تزوج امرأة بصداق ينوى أن لا يؤديه إليها فهو زانٍ، ومن استدان دَيْنًا أن لا يقضيه، فهو سارق». وقال حبيب بن ثابت: ما احتجت إلى شئ استقرضه إلا استقرضته من نفسى. أراد أنه يصبر إلى أن تكن الميسرة. ونظيره قول القائل:

وإذا غلا شئ علىّ تركتُهُ ... فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم أيضًا:

لقد كان القريضُ سميرَ قلبى ... فألهتنى القروضُ عن القريضِ

وقال غيلان بن مرّة التميمى:

إنى لأقضى الدَّيْن بعدما ... يرى طالبى بالدَّيْنِ أن لست قاضيا

فأجابه ثعلبة بن عمير:

إذا ما قضيت الدَّيْنَ بالدَّيْنَ لم يكن ... قضاءً ولكن ذاك غُرْمُ على غرمِ

واستقرض من الأصمعى خليل له فقال: حبًا وكرامة، لكن سَكِّنْ قلبى برهن يساوى ضعف ما تطلبه. فقال: يا أبا سعيد أما تثق بى؟ قال: بلى وإن خليل الله[1] كان واثقًا بربه، وقد قال له: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2] .

اللّهم أوفِ عنّا دَيْن الدنيا بالميسرة، ودَيْن الآخرة بالمغفرة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

الفصل الثالث فى ذكر القصاص، والمتصوفة وما جاء فى الرياء ونحو ذلك

أما ما جاء فى ذكر القصاص والمتصوّفة، فقد روى عن خباب بن الأرت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن بنى إسرائيل لما قصوا هلكوا». وروى أن كعبًا كان يقص فلما سمع الحديث ترك القصص. وقال ابن عمر رضى الله عنهما: لم يقصَّ أحد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عهد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم وإنما كان القصص حين كانت الفتنة. وقال ابن المبارك: سألت الثورى: من الناس؟ قال:

---

(١) خليل الله: سيدنا إبراهيم عليه السلام.

(٢) سورة البقرة: ٢٦٠.

العلماء. قال: فمن الأشراف؟ قال: المتّقُون. قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قلت: من الغوغاء؟ قال: القصاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام. قلت: فمن السفهاء؟ قال: الظلمة. قيل: وهب رجل لقاض خاتمًا بلا فص. فقال: وهب اللّه لك فى الجنة غرفة بلا سقف. وقال قيس بن جبير النهشلى: الصعقة[١] التى عند القصاص من الشيطان.

وقيل لعائشة رضى اللّه عنها: إن اقوامًا إذا سمعوا القرآن صعقوا. فقالت: القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال. وسئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره، فإن صعقوا فهو كما قالوا.

كان بمرو قاضٍ يبكى بمواعظه فإذا أطال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبورًا صغيرًا فيحركه، ويقول: مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة. وقال بعضهم: قلت لصوفى : بعنى جبتك. فقال: إذا باع الصياد شبكته فبأى شئ يصيد. وسئل بعض العلماء عن المتصوفة. فقال: أكلة رقصة[٢] ، وعظ عيسى عليه السلام بنى إسرائيل فأقبلوا يمزقون الثياب فقال: ما ذنب الثياب أقبلوا على القلوب فعاتبوها.

وأما ما جاء فى الرياء، فقد قال اللّه تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إلاَّ قَلِيلاً﴾[٣] ، وعن معاذ بن جبل رضى اللّه عنه قال: قال لى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين وأن تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين». وقيل: لو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه فهو من أقبح الرياء. وقيل: كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير اللّه، فليس من اللّه فى شئ.

وعن شداد بن أوس رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول اللّه؟ قال: الرياء». وقيل: بينما عابد يمشى ومعه غمامة[٤] على رأسه تظله فجاء رجل يريد أن يستظل معه فمنعه، وقال: إن أقمت معى لم يعلم الناس أن الغمامة تظللنى، فقال له الرجل: قد علم الناس أنى لست ممن تظله الغمامة فحولها اللّه تعالى إلى ذلك الرجل. وقال عبد الأعلى السلمى يومًا: الناس يزعمون أنى مُراء، وكنت أمس واللّه صائمًا، ولا أخبرت بذلك أحدًا.

اللّهم أصلح فساد قلوبنا، واستر فضائحنا برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) الصعقة: شدة التأثر.

(٢) الرقصة: كثيرى الأكل والرقص.

(٣) سورة النساء: ١٤٢.

(٤) الغمامة: السحابة.

الباب التاسع عشر فى العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك

اعلم: أرشدك الله، أن الله تعالى أمر بالعدل، ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل، بل تطلب الإحسان، وهو فوق العدل. فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾[1] الآية، فلو وسع الخلائق العدل ما قرن الله الإحسان، والعدل ميزان الله تعالى فى الأرض الذى يؤخذ به للضعيف من القوى، والمحق من المبطل. واعلم أن عدل الملك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه. وأفضل الأزمنة ثوابًا أيام العدل.

وروينا من طريق أبى نعيم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لعمل الإمام العادل فى رعيته يومًا واحدًا، أفضلُ من عمل العابد فى أهله مائة عام أو خمسين عامًا». وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عدل ساعة خيرٌ من عبادة سبعين سنة». وروينا فى سنن أبى داود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ثلاثة لا تردُّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السماء»[2] . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لكعب الأحبار: أخبرنى عن جنة عدن. قال: يا أمير المؤمنين، لا يسكنها إلا نبى، أو صديق، أو شهيد، أو إمام عادل. فقال عمر: والله ما أنا نبى وقد صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما الإمام العادل فإنى أرجو أن لا أجور، وأما الشهادة فأنّى لى بها. قال الحسن: فجعله الله صديقًا، شهيدًا، حكمًا، عدلاً.

وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل أيما أبلغ عندكم الشجاعة، أو العدل؟ قالوا: إذا استطعنا العدل، استغنيا به عن الشجاعة.

ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان. وقيل: إذا رغب السلطان[3] عن العدل رغبت الرعية عن طاعته. وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته، ويسأله مالاً يرممها به. فكتب إليه عمر؛ قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابى فَحَصِّنْ مدينتك بالعدل، ونقِّ طرقها من الظلم فإنه مرممها، والسلام.

ويقال: إن الحاصل من خراج سواد العراق فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف فلم يزل يتناقص حتى صار فى زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف، فلما ولى عمر بن عهد العزيز رضى الله عنه ارتفع فى السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف، وفى الثانية إلى ستين ألف ألف وقيل أكثر. وقال: إن عشتُ لا بلغنّه إلى ما كان فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فمات فى تلك السنة.

ومن كلام كسرى: لا ملك إلا بالجند، ولا جند إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد، ولا بلاد إلا بالرعايا، ولا رعايا إلا بالعدل.

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون الناس، ولأمير المؤمنين المنصور. فكتب المنصور لعامله: استوف لأمير المؤمنين حقه، وفرق ما بقى بين الغرماء، فلم يلتفت إلى كتابه، وضرب للمنصور بسهم من المال، كما

---

(١) سورة النحل: ٩٠.

(٢) أخرجه: الترمذى فى صفة الجنة ٢٥٢٥.

(٣) رغب السلطان: أى زهد فيه ومال عنه.

ضرب لأحد الغرماء. ثم كتب للمنصور: إنى رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء. فكتب إليه المنصور: مُلئت الأرض بك عدلاً.

وكان أحمد بن طولون والى مصر متحليًا بالعدل مع تجبره، وسفكه للدماء، وكان يجلس للمظالم، وينصف المظلوم من الظالم.

وحكى أن ولده العباس استدعى بمغنية، وهو يصطبح[١] يومًا فلقيها بعض صالحى مصر ومعها غلام يحمل عوده فكسره فدخل العباس إليه، وأخبره بذلك. فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح فلما أحضر إليه قال: أنت الذى كسرت العود؟ قال: نعم. قال: أفعلمت لمن هو؟ قال: نعم هو لابنك العباس، قال: أفما أكرمته لى؟ قال: أكرمه لك بمعصية الله عز وجل، والله تعالى يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٢] ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا طاعةَ لمخلوقٍ فى معصية الخالق». فاطرق أحمد بن طولون عند ذلك ثم قال: كل منكر تراه فغيّره وأنا من ورائك.

ووقف يهودى لعبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمنى فانصفنى منه، وأذقنى حلاوة العدل، فأعرض عنه. فوقف له ثانيًا فلم يلتفت إليه، فوقف له مرة ثالثة وقال: يا أمير المؤمنين إنّا نجد فى التوراة المنزَّلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه: أن الإمام لا يكون شريكًا فى ظلم أحد حتى يرفع إليه فإذا رفع ذلك و لم يُزِلْهُ فقد شاركه فى الظلم والجور. فلما سمع عبد الملك كلامه فزع، وبعث فى الحال إلى مَنْ ظلمه، فعزله وأخذ لليهودى حقه منه.

وروى أن رجلاً من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له فأتى إلى المنصور فقال له: أصلحك الله يا أمير المؤمنين، أأذكر حاجتى أم أضرب لك قبلها مثلاً. فقال: بل اضرب المثل. قال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها، وظنًا منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه، فإذا بلغ وصار رجلاً وحدث به أمر شكاه إلى الوالى لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان. وقد نزلت بى نازلة، وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى، فإن أنصفتنى وإلا رفعت أمرى إلى الله تعالى فى الموسم فإنى متوجه إلى بيته وحرمه. فقال المنصور: بل ننصفك. وأمر أن يكتب إلى واليه بردِّ ضيعته إليه.

وكان الإسكندر يقول: يا عباد الله إنما إلهكم الله الذى فى السماء نصر نوحًا بعد حين، الذى يسقيكم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم عند الكرب، والله لا يبلغنى أن الله تعالى أحبَّ شيئًا إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلى، ولا أبغضَ شيئًا إلا أبغضتُه وهجرتُه إلى يوم أجلى، وقد أنبئتُ أن الله تعالى يحب العدل فى عباده، ويبغض الجور من بعضهم على بعض، فويل للظالم من سيفى وسوطى، ومَن ظهر منه العدل من عمالى فيتكئ فى مجلس كيف شاء، وليتمنَّ علىَّ ما شاء فلن تخطئه أمنيته، والله تعالى المجازى كلاً بعمله. ويقال: إذا لم يعمر الملكُ ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان.

وقيل: مات بعض الأكاسرة فوجدوا له سفطًا[٣] ففتح، فوجد فيه حبة رمان كأكبر ما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها: هذه من حب رمان عمل فى خراجه بالعدل.

---

(١) يصطبح: يشرب خمرة الصباح.

(٢) سورة التوبة: ٧١.

(٣) السفط: العلبة.

وقيل: تظلم أهل الكوفة من واليهم فشكوه إلى المأمون فقال: ما علمت فى عمالى أعدل ولا أقوم بأمر الرعية، وأعود بالرفق عليه منه. فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين ما أجد أولى بالعدل والإنصاف منك، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلدًا بلدًا. حتى يلحق كل بلد من عدله الذى لحقنا، ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا، وإذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين. فضحك المأمون من قوله، وعزله عنهم.

وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة فنزل بواصل بن عطاء وقال: بلغنى أبيات عن سليم بن يزيد العدوى فى العدل، فقم بنا إليه. فأشرف عليهم من غرفة فقال لواصل: مَنْ هذا الذى معك؟ قال: عبد اللّه بن محمد بن على بن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهم.

فقال: رحب على رحب، وقرب على قرب. فقال: إنه يحب أن يسمع أبياتك فى العدل، فقال: سمعًا وطاعة، وأنشد يقول:

حتىَّ متى لا نَرى عَـدْلاً نَسـرُّ بـه ... ولا نـرى لـولاةِ الحـقِّ أعوانـا

مستمسكين بحـقٍ قـائمينَ بـهِ ... إذا تلـوَّن أهْـلُ الجَـوْر ألوانـا

يـا للرجـالِ لـداءٍ لا دواءَ لـهُ ... وقـائدٍ ذى عمـىً يقتـادُ عميانـا

فقال المنصور: وددتُ لو أنى رأيت يوم عدل، ثم مت.

وقيل: لما ولى عمر بن عبد العزيز أخذ فى رد المظالم فابتدأ بأهل بيته فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه فقال لها: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سلك طريقًا، فلما قبض سلك أصحابه به ذلك الطريق الذى سلكه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فلما أفضى الأمر إلى معاوية جره يمينًا وشمالاً، وأيم اللّه لئن مدّ فى عمرى لأردنّه إلى ذلك الطريق الذى سلكه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وأصحابه. فقالت له: يا ابن أخى إنى أخاف عليك منهم يوم عصيبًا، فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا أَمَّنَنِيهِ اللّه.

وقال وهب بن منبه: إذا همّ الوالى بالجور أو عمل به أدخل اللّه النقص فى أهل مملكته فى الأسواق والزروع والضروع وكل شئ، وإذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل اللّه البركة فى أهل مملكته كذلك. وقال الوليد بن هشام: إن الرعية لتصلح بصلاح الوالى، وتفسد بفساده. وقال ابن عباس رضى اللّه عنهما: إن ملكًا من الملوك خرج يسير فى مملكته متنكرًا فنزل على رجل له بقرة حلبت بالأمس فقال له الملك: ما بال حلبها نقص، أرعت فى غير مرعاها بالأمس؟ فقال: لا، ولكن أظن أن ملكنا رآها أو وصله خبرها فهَمَّ بأخذها فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو همّ بالظلم ذهبت البركة. فتاب الملك وعاهد ربه فى نفسه أن لا يأخذها، ولا يحسد أحدًا من الرعية، فلما كان الغد حلبت كعادتها.

ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو، وإن كل قصبة منها تعصر قدحًا، فعزم الملك على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك. فقالت: نعم، ثم إنها عصرت قصبة فلم يخرج منها نصف قدح، فقال لها: أين الذى كان يقال؟ فقالت: هو الذى بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها منى فارتفعت البركة منها. فتاب الملك وأخلص للّه النية، وعاهد اللّه أن لا يأخذها منها أبدًا، ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح.

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمه اللّه فى كتابه «سراج الملوك» قال: حدثنى بعض الشيوخ ممن كان يروى الأخبار بمصر قال: كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب و لم يكن فى ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فغصبها السلطان فلم تحمل شيئًا فى ذلك العام، ولا ثمرة واحدة. وقال لى شيخ من أشياخ الصعيد: أعرف

هذه النخلة وقد شاهدتها وهى تحمل عشرة أرادب ستين ويبة[١] ، وكان صاحبها يبيعها فى سنى الغلاء، وكل ويبة بدينار.

وحكى أيضًا رحمه اللّه تعالى: شهدت فى الاسكندرية والصيد مطلق للرعية، السمك يطفو على الماء لكثرته، وكانت الأطفال تصيده بالخرق من جانب البحر، ثم حجزه الوالى ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا.وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية، إن خيرًا فخيٌر وإن شرًا فشرٌ.

وروى أصحاب التواريخ فى كتبهم قالوا: كان الناس إذا أصبحوا فى زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا: مَنْ قتل البارحة، ومن صلب، ومن جلد، ومن قطع؟ وما أشبه ذلك. وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع، فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البنيان، والمصانع والضياع، وشق الأنهار، وغرس الأشجار. ولما ولى سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح، كان الناس يتحدثون ويتساءلون فى الأطعمة الرفيعة، ويتغالون فى المناكح والسرارى[٢] ، ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك. ولما ولى عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه كان الناس يستساءلون: كم تحفظ من القرآن، وكم وردك كلَّ ليلة، وكم يحفظ فلان، وكم يختم، وكم يصوم من الشهر؟ وما أشبه ذلك.

فينبغى للإمام أن يكون على طريق الصحابة والسلف رضى اللّه عنهم، ويقتدى بهم فى الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محال هالك. وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبى مرسل أو ملك مقرب. وقد قيل: إن مَثَله كمَثَل الرياح التى يرسلها اللّه تعالى بشرًا بين يدى رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحًا للثمرات، وروحًا للعباد.

ولو تتبعت ما جاء فى العدل والانصاف وفضل الإمام العادل لألفت فى ذلك مجموعًا جامعًا لهذا المعنى، ولكن اقتصرت على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأمه السامع، وباللّه التوفيق إلى أقوم طريق، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الويبة: ٢٤ مُدّ: ٤٣٢ كليو غرام.

(٢)مفردها السرية: الجارية التى ينكحونها.

الباب العشرون فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك

قال اللّه تعالى: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾(٢)، قيل: هذا تسلية للمظلوم، ووعيد للظالم. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾(٤)، وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام». وقال أيضًا صلى اللّه عليه وسلم: «رحم اللّه عبدًا كان لأخيه قبله مظلمة فى عرض أو مال فأتاه فتحلله(٥) منها قبل أن يأتى يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم». وقال أيضًا صلى اللّه عليه وسلم: «من اقتطع حق امرئ مسلم أوجب اللّه له النار وحرم عليه الجنة» فقال له رجل: يا رسول اللّه ولو كان شيئًا يسيرًا؟ قال: «ولو كان قضيبًا من أراك». وعن حذيفة رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «أوحى اللّه تعالى إلىّ يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتًا من بيوتى، ولا أحد من عبادى عند أحد منهم مظلمة، فإنى ألعنه ما دام قائمًا يصلى بين يدىّ حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويكون من أوليائى وأصفيائى، ويكون جارى مع النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين فى الجنة». وعن على رضى اللّه عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم: «إياك ودعوةَ المظلوم فإنما يسأل اللّه تعالى حقه». وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «ما من عبد ظُلم فشخص(٦) ببصره إلى السماء إلا قال اللّه عَزَّ وجلَّ: لبيك عبدى حقًا لأنصرنك ولو بعد حين». وعنه أيضًا أنه قال: «ألا إن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب. فأما الظلم الذى لا يغفر فالشرك باللّه – والعياذ باللّه تعالى – قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(٧)، وأما الظلم الذى لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضًا، وأما الظلم المغفور الذى لا يطلب فظلم العبد نفسه».

ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال: يا رب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين. فنام تلك الليلة فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة فرأى ذلك المصلوب فى أعلى عليين، وإذا منادٍ ينادى: حلمى على الظالمين أحلَّ المظلومين فى أعلى عليين. وقيل: مَنْ سَلَبَ نعمة غيره، سلب نعمتَهُ غيرُه. وسمع مسلم ابن بشار رجلاً يدعو على مَنْ ظلمه، فقال له: كِلِ(٨) الظالم إلى ظلمه فهو أسرعُ فيه من دعائك. ويقال: مَنْ طال عدوانه زال سلطانه. وقال على بن أبى طالب رضى اللّه عنه: يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم. ورؤى لوح فى أفق السماء مكتوب فيه: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، وتحته هذا البيت:

فلم أرَ مثلَ العدلِ للمرءِ رافعًا ... ولم أرَ مثلَ الجَوْرِ للمرءِ واضعًا

وقال الشاعر:

كنتَ الصحيح وكنا منك فى سقمٍ ... فإن سقمتَ فإنّا السالمون غدا

دَعَتْ عليك أكفٌّ طالما ظَلمت ... ولن تردَّ يدٌ مظلومةٌ أبدا

---

(١) سورة هود:١٨.

(٢) سورة إبراهيم:٤٢.

(٣) سورة الكهف:٢٩.

(٤) سورة الشعراء:٢٢٧.

(٥) تحلله: جعله فى حل من التزامه.

(٦) شخص: تأمل بدهشة.

(٧) سورة النساء:٤٨.

(٨) كِلِ: أوكله.

وكان معاوية يقول: إني لأستحي أن أظلم مَنْ لا يجد عليّ ناصرًا إلا اللّه. وقال أبو العيناء: كان لي خصوم ظَلَمَةٌ فشكوتهم إلى أحمد بن أبي دؤاد وقلت: قد تضافروا علىّ، وصاروا يدًا واحدة. فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[١] فقلت له: إن لهم مكرًا، فقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[٢]، قلت: هم فئة كثيرة. فقال: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٣].

وقال يوسف بن أسباط: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصى اللّه في أرضه. وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال أبو القاسم صلى اللّه عليه وسلم: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه». وقال مجاهد: يسلط اللّه على أهل النار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام، فيقال لهم: هل يؤذكيم هذا؟ فيقولون: أي واللّه، فيقال لهم: هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين.

وقال ابن مسعود رضي اللّه عنه: لما كشف العذاب عن قوم يونس عليه السلام ترادوا المظالم بينهم، حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه. وقال أبو ثور بن يزيد: الحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه. وقال غيره: لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب. وقال بعض الحكماء: اذكر عند الظلم عدل اللّه فيك، وعند القدرة قدرة اللّه عليك، لا يعجبك رحب الذراعين سفاك الدماء فإن له قاتلاً لا يموت.

وقال سحنون بن سعيد: كان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئًا قط هيبتي من رجل ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا اللّه، فيقول: حسبك اللّه، اللّه بيني وبينك، وقال بلال بن مسعود: اتق اللّه فيمن لا ناصر له إلا باللّه.

وبكى على بن الفضل يومًا فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي على مَنْ ظلمني إذا وقف غدًا بين يدي اللّه تعالى، ولم تكن له حجة. وروى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «يقول اللّه تعالى: اشتد غضبي على مَنْ ظلم مَنْ لا يجد له ناصرًا غيري». ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر: يا سليمان اذكر يوم الأذان. فنزل سليمان من على المنبر، ودعا بالرجل، فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال اللّه تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٤]. قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لي مكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضًا مع أرضه.

وروى أن كسرى أنو شروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق العلوم، فضربه المعلم يومًا من غير ذنب، فأوجعه فحقد أنو شروان عليه، فلما ولى الملك قال للمعلم: ما حملك على ضربي يوم كذا وكذا ظلمًا؟ فقال له: لما رأيتك ترغب في العلم، رجوت لك الملك بعد أبيك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم. فقال أنو شروان زِهِ زِهِ[٥].

وقال محمد بن سويد وزير المأمون:

فلا تأمَنَنَّ الدهرَ حرًّا ظلمتَهُ ... فما ليلُ حرٍّ إن ظَلَمْتَ بنائمِ

ورى أن بعض الملوك رقم على بساطه:

لا تظلمن إذا ما كنتَ مقتدرًا ... فالظلم مصدَرُهُ يفضي إلى الندمِ

تنامُ عيناك والمظلومُ منتبهٌ ... يدعو عليك وعينُ اللّه لم تنمِ

---

(١) سورة الفتح: ١٠.
(٢) سورة فاطر: ٤٣.
(٣) سورة البقرة: ٢٤٩.
(٤) سورة الأعراف: ٤٤.
(٥) زِهِ زِهِ: لفظة استحسان ومديح.

وما أحسن ما قال الآخر:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما تدرى بما صنعَ الدعاءُ

سهامُ الليل نافذةٌ ولكن ... لها أمدٌ وللأمد[1] انقضاءُ

فيُمْسِكَها إذا ما شاء ربِّى ... ويرسِلُها إذا نفذَ القضاءُ

وقال أبو الدرداء: إياك ودمعةَ اليتيم، ودعوةَ المظلوم فإنها تسرى بالليل والناس نيام. وقال الهيثم بن فراس السامى من بنى سامة بن لؤى فى الفضل بن مروان:

تجبرتَ يا فضل بن مروان فاعتبر ... فقبلَك كان الفضلُ والفضلُ والفضلُ

ثلاثةَ أملاطٍ مضَوْا لسبيلهم ... أبادَهُمُ الموتُ المشتّتُ والقتلُ

يريد الفضل بن الربيع، والفضل بن يحيى، والفضل بن سعد. ووجدت تحت فراش يحيى بن خالد البرمكى رقعة مكتوب فيها:

وحقِّ اللّه إن الظلمَ لؤمٌ ... وإن الظلمَ مرتَعُهُ وخيمُ

إلى ديانِ يومِ الدِّين نمضى ... وعندَ اللّه تجتمعُ الخصومُ

ووجد القاسم بن عبيد اللّه وزير المكتفى فى مصلاه رقعة مكتوب فيها:

بغى وللبغى سهام تنتظر ... أنفذ فى الأحشاء من وخز الإبر

سهام أيدى القانتين[2] فى السحر

قال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء: ما كنت لألى هذا بعدما حدثنى إبراهيم. قال: وما حدثك إبراهيم؟ قال: حدثنى عن علقمة عن ابن مسعود، قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الظَّلَمَةُ، وأعوان الظلمة، وأشياع الظلمة، حتى من برى لهم قلمًا أو لاقَ[3] لهم دواة فيجمعون فى تابوت من حديد ثم يرمى بهم نار جنهم».

وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال: جلس أبى للمظالم يومًا فلما انقضى المجلس رأى رجلاً جالسًا، فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم أدننى إليك فإنى مظلوم، وقد أعوزنى العدل والانصاف. قال: ومن ظلمك؟ قال: أنت ولستُ أصل إليك، فأذكر حاجتى. قال: وما يحجبك وقد ترى مجلسى مبذولاً؟ قال: يحجبنى عنك هيبتك، وطول لسانك، وفصاحتك. قال: ففيم ظلمتك؟ قال: فى ضيعتى الفلانية أخذها وكيلك غصبًا منى بغير ثمن، فإذا وجب عليها خراج أديته باسمى لئلا يثبت لك اسم فى ملكها فيبطل ملكى. فوكيلك يأخذ غلتها، وأنا أؤدى خراجها، وهذا لم يسمع بمثله فى المظالم. فقال له محمد: هذا قول تحتاج معه إلى بينة وشهود وأشياء، فقال له الرجل: أيؤمننى الوزير من غضبه حتى أجيب. قال: نعم قد أمنتك. قال: البيّنة هم الشهود، وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شئ آخر. فما معنى قوله بيّنة وشهود وأشياء، وأى شئ هذه الأشياء، إن هى إلا الجور وعدولك عن العدل. فضحك محمد، وقال: صدقت، والبلاء موكل بالمنطق، وإنى لأرى فيك مصطنعًا[4]، ثم وقع له بردِّ ضيعته، وأن يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته، وصيَّره من أصحابه، فكان قبل أن يتوصل إلى الانصاف وإعادة ضيعته له يقال له: يا فلان كيف الناس، فيقول: بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر. فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك وردّ عليه ضيعته وأنصفه قال له ليلة: كيف الناس الآن؟ قال:

---

(١) الأمد: الغاية.

(٢) القانتون: طائعوا اللّه.

(٣) لاقَ: جعل فى جوفها حبرًا.

(٤) مصطنع: مكان للصنيعة وأهل لها.

بخير قد اعتمدت معهم الإنصاف ورفعت عنهم الاجحاف، ورددت عليهم الغصوب، وكشفت عنهم الكروب، وأنا أرجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب، والفوز بكل مطلوب.

ومما نقل في الآثار الإسرائيلية في زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلاً من ضعفاء بنى إسرائيل كان له عائلة، وكان صيادًا يصطاد السمك ويقوّت منه أطفاله وزوجته. فخرج يومًا للصيد فوقع فى شبكته سمكة كبيرة ففرح بها، ثم أخذها، ومضى إلى السوق ليبيعها، ويصرف ثمنها في مصالح عياله. فلقيه بعض العوانية فرأى السمكة معه، فأراد أخذها منه فمنعه الصياد، فرفع العوانى خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصيدا ضربة موجعة، وأخذ السمكة منه غصبًا بلا ثمن، فدعا الصياد عليه وقال: إلهى جعلتنى ضعيفًا، وجعلته قويًا عنيفًا، فخذْ لى بحقى منه عاجلاً، فقد ظلمني ولا صبر لى إلى الآخرة.

ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها، فلما شوتها قدمتها له، ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها، ففتحت السمكة فاها، ونكزته فى أصبع يده نكزة طار بها عقله، وصار لا يقر بها قراره. فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل بها فلما رآها قال له: إن دواؤها أن تقطع الأصبع لئلا يسرى الألم إلى بقية الكف. فقطع اصبعه، فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد، وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه. فقال له الطبيب: ينبغى أن تقطع اليد إلى المعصم لئلا يسرى الألم إلى الساعد فقطعها، فانتقل الألم إلى الساعد، فما زال هكذا كلما قطع عضوًا انتقل الألم إلى العضو الآخر الذى يليه، حتى خرج هائمًا مستغيثًا إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به. فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى فى منامه قائلاً يقول: يا مسكين إلى كم تقطع أعضاءك، امض إلى خصمك الذى ظلمته فارضه. فانتبه من النوم، وفكّر فى أمر فعلم أن الذى أصابه من جهة الصياد، فدخل المدينة، وسأل عن الصياد، وأتى إليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه، وطلب منه الإقالة مما جناه، ودفع إليه شيئًا من ماله وتاب من فعله فرضى عنه خصمه الصياد فسكن فى الحال ألمه. وبات تلك الليلة، فرد الله تعالى عليه يده كما كانت. ونزل الوحى على موسى عليه السلام: يا موسى وعزتي وجلالى لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته.

ومما تضمنته أخبار الأخيار: ما رواه أنس رضى الله عنه قال: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قاعد إذا جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ[1] بك. فقال عمر رضى الله عنه: لقد عذت بمجير فما شأنك، فقال: سابقت بفرسى ابنًا لعمرو بن العاص وهو يومئذٍ أمير على مصر فجعل يقنعنى بسوطه، ويقول: أنا ابن الأكرمين، فبلغ ذلك عمرًا أباه فخشى أن آتيك فحبسنى فى السجن فانفلتُ منه فهذا الحين أتيتك. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان. وقال للمصرى: أقم حتى يأتيك. فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصرى فرمى إليه عمر رضى الله عنه بالدّرة. قال أنس رضى الله عنه: فلقد ضربه ونحن نشتهى أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين. قال: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت. قال: ضعها على ضلع عمرو. فقال: يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذى ضربنى. قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذى تنتزع. ثم اقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا. فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول: إنى لم أشعر بهذا.

---

(١) العائذ: المستجير.

وقيل: لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه، وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد. فكتبت رقعة ووقفت بها في طريقه وقالت: يا أحمد، يا بن طولون: فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه، وأخذ منها الرقعة وقرأها، فإذا فيها:

ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخوّلتم فعسفتم، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم.

هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لاسيما من قلوب أوجعتموها، وأكباد جوعتموها، وأجساد عريتموها. فمحال أن يموت المظلوم، ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإنا صابرون، وجوروا فإنَّا إلى اللَّه مستجيرون، واظلموا فإنا باللَّه متظلمون: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1] . قال: فعدل لوقته.

وحكي أن الحجاج حبس رجلاً في حبسه ظلمًا فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعيمك أيام، والموعد القيامة، والسجن جهنم، والحاكم لا يحتاج إلى بيّنة وكتب في آخرها:

ستعلمُ يا نؤومُ إذا التقينا ... غدًا عندَ الإلهِ مَنِ الظلومُ
أما واللّه إن الظلمَ لؤمٌ ... وما زال الظلومُ هو الملومُ
سينقطع التلذّذُ[2] عن أناسٍ ... أداموه وينقطعُ النعيمُ
إلى ديّانِ يومِ الدِّين نمضي ... وعندَ اللّه تجتمعُ الخصومُ

وحكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحي قال: كنا حول سرير المعتضد باللَّه ذات يوم نصف النهار، فنام بعد أن أكل، فانتبه منزعجًا وقال: يا خدم. فأسرعنا الجواب فقال: ويلكم أعينونى والحقوا بالشط بأول ملاح ترونه منحدرًا في سفينة فارغة فاقبضوا عليه، وائتونى به، ووكلوا السفينة مَنْ يحفظها. فأسرعنا فوجدنا ملاحًا في سفينة فارغة فقبضنا عليه، ووكلنا بها مَنْ يحفظها، وصعدنا به إلى المعتضد. فلما رآه الملاح كاد يتلف، فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال: أصدقنى يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التى قتلتها اليوم، وإلا ضربت عنقك، فتلعثم وقال: نعم كنت سحرًا في المشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها، عليها ثياب فاخرة، وحليّ كثيرة، وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فمها، وأغرقتها، وأخذت جميع ما كان عليها، ثم طرحتها في الماء، ولم أجسر على حَمْل سلبها إلى دارى لئلا يفشوا الخبر عليّ فعوّلت على الهرب والانحدار إلى واسط. فصبرت إلى أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين، وأخذت في الانحدار فتعلق بى هؤلاء القوم فحملونى إليك. فقال: وأين الحليّ والسلب؟ قال: في صدر السفينة تحت البوارى. قال المعتضد: عليّ به الساعة فحضروا به فأمر بتغريق الملاح، ثم أمر أن ينادى ببغداد من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحرًا، وعليها ثياب فاخرة، وحليّ فليحضر. فحضر في اليوم الثانى ثلاثة من أهلها وأعطوا صفتها، وصفة ما كان عليها فسلم ذلك إليهم. قال: فقلت: يا مولاى مَنْ أعلمك، أو أوحى إليك بهذه الحالة، وأمر هذه الصبيّة؟ فقال: بل رأيت في منامى رجلاً شيخًا أبيض الرأس واللحية والثياب، وهو ينادى: يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه، وقرره[3] على المرأة التى قتلها اليوم ظلمًا، وسلبها ثيابها، وأقم عليها الحد ولاَ يفُتْك، فكان ما شاهدتم.

فيتعين على كل ولى أمر أن يعدل في الأحكام، وأن يتبصر في رعيته، وعلى كل عاقل أن يكف يده عن الظلم ويسلك سنن العدل ويعامل بالنصفة، ويراقب اللَّه في السر والعلانية، ويعلم أن اللَّه يجازى على الخير والشر

(١) سورة الشعراء:٢٢٧.
(٢) التلذُّذُ: التمتع باللذائذ.
(٣) قرره: جعله يعترف.

ويعاقب الظالم على ظلمه، وينتصر للمظلوم، ويأخذ له حقه ممن ظلمه، وإذا أخذ الظالم لم يفلته. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الباب الحادى والعشرون فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال وسيرة السلطان فى استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان

الفصل الأول فى سيرة السلطان فى استجباء[1] الخراج والإنفاق من بيت المال وسيرة العمال

قال جعفر بن يحيى: الخراج عماد الملوك وما استعزوا بمثل العدل، وما استنذروا[2] بمثل الظلم، وأسرع الأمور فى خراب البلاد، تعطيل الأرضين، وهلاك الرعية، وانكسار الخراج من الجور. ومَثَلُ السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مَثَلُ مَنْ يقطع لحمه من الجوع. فهو إن شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع: ومَثَلُ من كلّف الرعية فوق طاقتهم كالذى يطين سطحه بتراب أساس بيته، وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين، فيتركونها فتخرب الأرض، ويهرب المزارعون، فتضعف العمارة، ويضعف الخراج، وينتج من ذلك ضعف الأجناد، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء فى السلطان.

وروى أن المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميرًا يحدثه فقال: يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة، وبالبصرة بومة، فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها فقالت بومة البصرة: لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعلى فى صداق ابنتى مائة ضيعة خربة. فقالت بومة الموصل: لا أقدر عليها، لكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك. قال: فاستيقظ لها المأمون، وجلس للمظالم، وأنصف الناس بعضهم من بعض، وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية. وقال أبو الحسن بن على الأسدى: أخبرنى أبى قال: وجدت فى كتاب قبطى باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون فى زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه، من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين، أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار. من ذلك ما ينصرف فى عمارة البلاد كحفر الخلجان، والانفاق على الجسور، وسد الترع، وتقوية مَنْ يحتاج إلى التقوية، من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل والتوسعة فى البلدان وغير ذلك من الآلات. وأجرة مَنْ يستعان لحمل البذر، وسائر نفقات تطبيق الأرض، ثمانمائة ألف دينار. ولما ينصرف للأرامل والأيتام، وإن كانوا غير محتاجين، حتى لا يخلو أمثالهم من برّ فرعون، أربعمائة ألف دينار ولما ينصرف لكهنتهم، وبيوت صلاتهم، مائتا ألف دينار. ولما ينصرف فى الصدقات مما يصبّ صبا، وينادى عليه برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة و لم يحضر، فيحضر لذلك جمع كثير ويفرق عليهم مائتا ألف دينار. فإذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمناء فرعون إليه وهنؤوه بتفرقة الأموال، ودعوا له بطول البقاء، ودوام العز والنعماء والسلامة، وأنهوا إليه حال الفقراء، فيأمر بإحضارهم وتغيير شعثهم[3]، ويمد لهم السماط فيأكلون بين يديه، ويشربون، ويستفهم من كل واحد منهم عن سبب فاقته، فإن كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذى كان له. ولما ينصرف فى نفقات فرعون الراتبة فى كل سنة، مائتا ألف دينار. ويفضل بعد ذلك مما يستلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك، ويجعله فى بيت المال لنوائب الزمان، أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار.

---

(١) استجباء الخراج: تحصيله.

(٢) استنذروا: أنذروا.

(٣) الشعث: الفُرقة.

وقال أبو رهم: كانت أرض مصر أرضًا مدبرة حتى إن الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه حيث شاؤوا ويرسلونه حيث شاؤوا، وذلك قول فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾[1] الآية. وكان ملك مصر عظيمًا لم يكن فى الأرض أعظم منه ملكًا، وكانت الجنان بحافتيّ النيل متصلة لا ينقطع منها شئ عن شئ، والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد، وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعًا لما دبروا من جسورها، وحافاتها، والزروع ما بين الجبلين من أولها إلى آخرها، وذلك قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾[2] .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ فى حفره وتدبيره. فجعل أهل القرى يسألونه أن يجرى لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالاً فكان يذهب به من قرية إلى قرية من المشرق إلى المغرب، ومن الشمال إلى القبلة، ويسوقه كيف أرادوا إلى حيث قصد فليس خليج بمصر أكثر عطوفًا منه. فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة، فحملها إلى فرعون وأخبره بالخبر، فقال له فرعون: إنه ينبغى للسيِّد أن يعطف على عبيده، ويفيض عليهم من خزائنه، وذخائره، ولا يرغب فيما بأيديهم. ردّ على أهل القرى أموالهم. فردَّ عليهم ما أخذه منهم. فإذا كانت هذه سيرة مَنْ لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه، ولا يخاف عذابه، ولا يؤمن بيوم الحساب، فكيف تكون سيرة من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله. ويوقن الحساب، والثواب والعقاب؟

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾[3] قال: هى خزائن مصر، ولما استوثق أمر مصر ليوسف عليه السلام وكمل وصارت الأشياء إليه وأراد الله تعالى أن يعوضه على صبره، لما لم يرتكب محارمه، وكانت مصر أربعين فرسخًا فى مثلها، وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب، وناب عنه إلا بعد أن دعاه إلى الإسلام فأسلم. وكانت السنون التى حصل فيها الغلاء والجوع. مات العزيز وتملك يوسف، وافتقرت زليخا وعمى بصرها، فجعلت تتكفف الناس، فقيل لها: لو تعرضت للملك ربما يرحمك ويعينك فطالما كانت تحفظينه وتكرمينه. ثم قيل لها: لا تفعلى لأنه ربما يتذكر ما كان منك إليه من المراودة والحبس فيسئ إليك ويكافئك على ما سبق منك إليه. فقالت: أنا أعلم بحلمه وكرمه. فجلست له على رابية فى طريقه يوم خروجه، وكان يركب فى زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته. فلما أحست به قامت ونادت: سبحان مَنْ جعل الملوك عبيدًا بمعصيتهم، والعبيد ملوكًا بطاعتهم. فقال يوسف عليه السلام: من أنت؟ فقالت: أنا التى كنت أخدمك بنفسى، وأرجل شعرك بيدى، وأكرم مثواك بجهدى، وكان منى ما كان، وقد ذقت وبال أمرى، وذهبت قوتى، وتلف مالى، وعمى بصرى، وصرت أسأل الناس فمنهم مَنْ يرحمنى، ومنهم مَنْ لا يرحمنى. وبعدما كنت مغبوطة أهل مصر كلها، صرت مرحومتهم بل محرومتهم، وهذا جزاء المفسدين. فبكى يوسف عليه السلام بكاءً شديدًا وقال لها: هل فى قلبك من حبك إياى شئ؟ قالت: نعم، والذى اتخذ إبراهيم خليلاً لَنظرَةٌ إليك أحبُّ إلىّ من ملء الأرض ذهبًا وفضة. فمضى يوسف وأرسل إليها يقول: إن كنت أيمًا تزوّجناك، وإن كنت ذات بعل أغنيناك. فقالت لرسول الملك: أنا أعرف أنه يستهزئ بى، هو لم يردنى فى أيام شبابى وجمالى، فكيف يقبلنى وأنا عجوز عمياء فقيرة. فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت وتزوّج بها. وأدخلت عليه فصف يوسف عليه السلام قدميه وقام يصلى، ودعا الله تعالى باسمه العظيم الأعظم فرد الله عليها

---

(١) سورة الزخرف: ٥١.

(٢) سورة الدخان: ٢٥ - ٢٦.

(٣) سورة يوسف: ٥٥.

حسنها، وجمالها، وشبابها، وبصرها كهيئتها يوم راودته. فواقعها فإذا هى بكر فولدت له أفرائيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف، وطاب فى الإسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما.

فينبغى للقوى أن لا ينسى الضعيف، وللغنى أنه لا ينسى الفقير، فرب مطلوب يصير طالبًا، ومرغوب فيه يصير راغبًا، ومسؤول يصير سائلاً، وراحم يصير مرحومًا، فنسأل اللّه تعالى أن يرحمنا برحمته، ويغنينا بفضله.

ولما ملك يوسف عليه السلام خزائن الأرض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير. فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

ومن حسن سيرة العمال، ما روى أن عمر رضى اللّه عنه استعمل على حمص رجلاً يقال له: عمير بن سعد، فلما مضت السنة كتب إليه عمر رضى اللّه عنه أن أقدم علينا. فلم يشعر إلا وقد قدم عليه ماشيًا حافيًا، عكازته بيده، وإداوته[1] ومزوده وقصعته على ظهره. فلما نظر إليه عمر قال له: يا عمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أما نهاك اللّه أن تجهر بالسوء، وعن سوء الظن، وقد جئت إليك بالدنيا أجرّها بقرابها. فقال له: وما معك من الدنيا؟ قال: عكازة أتوكأ عليها، وأدفع بها عدوًّا إن لقيته، ومزود أحمل فيه طعامى، وإداوة أحمل فيها ماء لشربى ولطهورى، وقصعة أتوضأ فيها، وأغسل فيها رأسى، وآكل فيها طعامى، فواللّه يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معى. قال: فقام عمر رضى اللّه عنه من مجلسه إلى قبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأبى بكر رضى اللّه عنه فبكى بكاء شديدًا، ثم قال: اللّهم ألحقنى بصاحبىّ غير مفتضح ولا مبدل. ثم عاد إلى مجلسه فقال: ما صنعت فى عملك يا عمير؟ فقال: أخذت الإبل من أهل الإبل، والجزية من أهل الذمة، عن يدٍ وهم صاغرون[2]، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل. فواللّه يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شئ لأتيتك به.

فقال عمر: عُدْ إلى عملك يا عمير، قال: أنشدك يا أمير المؤمنين أن تردنى إلى أهلى، فأذن له فأتى أهله، فبعث عمر رجلاً يقال له: حبيب بمائة دينار، وقال له: اختبر لى عميرًا. وأنزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله، هل هو فى سعة أم ضيق، فإن كان فى ضيق فادفع إليه المائة، فأتاه حبيب فنزل به ثلاثًا، فلم ير له عيشًا إلا الشعير والزيت. فلما مضت ثلاثة أيام قال: يا حبيب إن رأيت أن تتحول إلى جيراننا، فعلهم أن يكونوا أوسع عيشًا منا، فإنا واللّه وتاللّه لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به، قال: فدفع إليه المائة دينار، وقال: قد بعث بها أمير المؤمنين إليك فدعا بفرو خلق لأمرأته فجعل يصر منها الخمسة دنانير، والستة والسبعة، ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدها. فقدم حبيب على عمر وقال: جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير. فأمر له عمر بوسقين[3] من طعام، وثوبين. فقال: يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما، وأما الوسقان فلا حاجة لى بهما، عند أهل صاع من برّ هو كافيهم حتى أرجع إليهم.

وروى أن عمر رضى اللّه عنه صرّ أربعمائة دينار، وقال للغلام: اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح ثم تربص عنده فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها. فذهب بها الغلام إليه وقال له: يقول لك أمير المؤمنين عمر بن خطاب: اجعل هذه فى بعض حوائجك. قال: وصله اللّه ورحمه. ثم دعا بجاريته، وقال لها: اذهبى بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدها. فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد عد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال له: انطلق بها إلى معاذ بن جبل وانظر ما يكون من أمره. فمضى إليه، وقال له كما قال لأبى عبيدة بن

---

(١) الإداوة: إناء يتخذ للماء.

(٢) صاغرون: راضون بالذل.

(٣) الوسق: حمل بعير.

الجراح. ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة. فرجع الغلام فأخبره عمر، فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض، رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

الفصل الثانى فى أحكام أهل الذمة

روى عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام. بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث فى مدائننا ولا فيما حواليها كنيسة ولا ديرًا ولا قَلِيَّةً[1] ولا صومعة راهب. ولا نجدد منها ولا ما كان مختطًا منها فى خطط المسلمين فى ليل ولا فى نهار، وأن نوسع أبوابها للمار وابن السبيل، وأن ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نؤوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسًا، ولا نكتمه عن المسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا، ولا ندعو إليه أحدًا، ولا نمنع أحدًا من ذوى قراباتنا الدخول فى دين الإسلام إن أراده، وأن نوقر المسلمين، ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس. وأن لا نتشبه بالمسلمين فى شئ من ملابسهم من قلنسوة، ولا عمامة ولا نعلين، ولا نتكلم كلامهم، ولا نتكنى بكناهم، ولا نركب فى السروج، ولا نتقلد بالسيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر. وأن نجزّ مقادم رؤوسان، ونلزم زيّنا حيثما كنا، وأن نشد الزنار على أوساطنا، ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا فى شئ من أسواق المسلمين وطرقهم، ولا نضرب بالنواقيس فى كنائسنا إلا ضربًا خفيفًا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران فى شئ من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتان، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، ولا نتطلع على منازلهم.

وقد شرطنا ذلك على أنفسنا وعلى أهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان. فإن نحن خالفنا فى شئ مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق.

فكتب إلى عمر رضى الله عنه أن أمض ما سألوه وألْحِقْ فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم: أن لا يشتروا شيئًا من سبايا المسلمين، ومَنْ ضرب مسلمًا عمدًا فقد خلع عهده.

وروى أن بنى ثعلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، فقالوا: يا أمير المؤمنين: إنّا قوم من العرب أفرض لنا. قال: نصارى؟ قالوا: نصارى. قال: ادعوا إلىّ حجامًا ففعلوا، فجزّ نواصيهم، وشقّ من أرديتهم حزمًا يحتزمون بها، وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج، وأن يركبوا على الأكف من شق واحد.

وروى أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل أقصى اليهود والنصارى، ولم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زيهم، وزى المسلمين وقرب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل، فأحيا الله به الحق، وأمات به الباطل، فهو يذكر بذلك ويترحم عليه ما دامت الدنيا.

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: لا تستعملوا اليهود والنصارى فإنهم أهل رشا فى دينهم، ولا يحل فى دين الله الرشا.

ولما استقدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه: من البصرة وكان عاملاً عليها للحساب دخل على عمر وهو فى المسجد فاستأذن لكاتبه، وكان نصرانيًا فقال عمر قاتلك الله - وضرب بيده على فخذه - وليتَ ذميًّا على المسلمين، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ**

---

(١) قَلِيَّة: الصومعة.

﴿وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[١] ، الآية، هلا اتخذت حنيفًا. فقال: يا أمير المؤمنين، لى كتابته، وله دينه. فقال: لا أُكرمهم إذا أهانهم اللَّه، ولا أعزهم إذ أذلهم اللَّه، ولا أدنيهم إذ أقصاهم اللَّه.

وكتب بعض العمال إلى عمر رضى اللَّه عنه: إن العدو قد كثر، وإن الجزية قد كثرت أفنستعين بالأعاجم؟ فكتب إليه: إنهم أعداء اللَّه، وإنهم لنا غششة[٢] فأنزلوهم حيث أنزلهم اللَّه.

ولما خرج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة، فقال: إنى أريد أن أتبعك، وأصيب معك. قال: أتؤمن باللَّه ورسوله؟ قال: لا. قال: ارجعْ فلن نستعين بمشرك. ثم لحقه عند الشجرة فقال: جئتك لأتبعك وأصيب معك. قال: أتؤمن باللَّه ورسوله؟ قال: لا. قال فارجَعْ فلن نستعين بمشرك. ثم لحقه عند ظهر البيداء فقال له مثل ذلك، فأجابه بمثل الأول فقال نعم. فخرج به وفرح المسلمون وكان له قوة وجلد. وهذا أصل عظيم فى أن لا يستعان بكافر. هذا، وقد خرج ليقاتل بين يدى النبى صلى اللَّه عليه وسلم، ويراق دمه فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى اللَّه تعالى عنه إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن. فكتبوا إليه إنا قد وجدنا فيهم خيانة، فكتب إليهم إن لم يكن فى أهل القرآن خير، فأجدر أن لا يكون فى غيرهم.

قال أصحاب الشافعى: ويلزمهم أن يتميزوا فى اللباس عن المسلمين وأن يلبسوا قلانس، يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمرة، ويشدوا الزنانير على أوساطهم، ويكون فى رقابهم خاتم من نحاس، أو رصاص، أو جرس يدخلون به الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات[٣] .

وأما المرأة فإنها تشد الزنار تحت الإزار، وقيل: فوق الإزار، وهو الأولى. ويكون فى عنقها خاتم تدخل به الحمام. ويكون أحد خِفَّيْها أسود والآخر أبيض.

ولا يركبون الخيل، ولا البغال ولا الحمير، إلا بالأكف عرضًا، ولا يركبون بالسروج. ولا يتصدرون فى المجالس، ولا يبدأون بالسلام، ويلجأون إلى أضيق الطرق، ويمنعون أن يتطاولوا على المسلمين فى البناء، وتجوز المساواة، وقيل: لا تجوز. وإن تملكوا دارًا عالية أقروا عليها، ويمنعون من إظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس، والجهر بالتوارة، والإنجيل. ويمنعون من المقام فى أرض الحجاز، وهى مكة والمدينة واليمامة، وإن امتنعوا من أداء الجزية، والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم.

وإن زنى أحد منهم بمسلمة، أو أصابها بنكاح، أو آوى عينًا للكفار، أو دل على عورة المسلمين، أو فتن مسلمًا عن دينه، أو قتله، أو قطع عليه الطريق، تنتقض ذمته.

وفى تقدير الجزية اختلاف بين العلماء فمنهم من قال: إنها مقدرة الأقل والأكثر على ما كتب به عمر رضى اللَّه عنه إلى عثمان بن حنيف بالكوفة، فوضع على الغنى ثمانية وأربعين درهمًا، وعلى من دونه أربعة وعشرين درهمًا، وعلى من دونه اثنى عشر درهمًا. وذلك بمحضر من الصحابة رضى اللَّه عنهم أجمعين، ولم يخالفه أحد، وكان الصرف اثنا عشر بدينار، وهذا مذهب أبى حنيفة، وأحمد بن حنبل، وأحد قولى الشافعى، ويجوز للإمام أن يزيد على ما قدره عمر، ولا يجوز أن ينقص عنه، ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين.

---

(١) سورة المائدة: ٥١.

(٢) غششة: جمع غشاش.

(٣) الطيلسان: كساء أخضر اختص أهل العلم والمشايخ بلبسه.

وأما الكنائس فأمر عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه أن تهدم كل كنيسة بعد الإسلام، ومنع أن تجدد كنيسة، وأمر أن لا تظهر عُلِّيَّه خارجة من كنيسة، ولا يظهر صليب خارج من كنيسة، إلا كسر على رأس صاحبه، وكان عروة ابن محمد يهدمها بصنعاء.

وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين، وشدّد فى ذلك عمر بن عبد العزيز، وأمر أن لا يترك فى دار الإسلام بيعة، ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة.

واللَّه تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل، وصلى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والعشرون في اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم

قال اللّه تعالى: ﴿وَلاَ تَنسَوْا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[2]، وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ مشى فى عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين فى سبيل اللّه». وعن أنس رضى اللّه عنه أن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «الخلق كلهم عيال اللّه، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله» رواه البزار، والطبرانى فى معجمه. ومعنى عيال اللّه: فقراء اللّه تعالى وهو يعولهم.

وروينا فى مسند الشهاب عن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «خير الناس أنفعهم للناس». وعن كثير بن عبيد بن عمر وابن عوف المزنى عن أبيه عن جده رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إن للّه خلقًا خلقهم لقضاء حوائج الناس آلى[3] على نفسه أن لا يعذبهم بالنار، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون اللّه تعالى والناس فى الحساب». وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ سعى لأخيه المسلم فى حاجة فقضِيَتْ له أو لم تُقْضَ غفر اللّه له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، وكتب له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق». وعن نافع عن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفًا عند ميزانه، فإن رجح، وإلا شفعت له»، رواه أبو نعيم فى الحلية.

وروينا فى مكارم الأخلاق لأبى بكر الخرائطي عن أنس رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ مشى فى حاجة أخيه المسلم كتب اللّه له بكل خطوة سبعين حسنة، وكفر عنه سبعين سيئة، فإن قُضِيَتْ حاجته على يده خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإن مات فى خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب».

وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ مشى مع أخيه فى حاجة فناصحه[4] فيها جعل اللّه بينه وبين النار سبع خنادق، ما بين الخندق والخندق، كما بين السماء والأرض». رواه أبو نعيم وابن أبى الدنيا. وعن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إن للّه عند أقوام نعمًا يقرها عندهم ما داموا فى حوائج الناس ما لم يملوا، فإذا ملوا نقلها اللّه إلى غيرهم». ورواه الطبرانى.

وروينا من طريق الطبرانى بإسناد جيد عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «ما من عبد أنعم اللّه عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل حوائج الناس إليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال». وعن أنس بن مالك رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من أغاث ملهوفًا كتب اللّه له ثلاثًا وسبعين حسنة، واحدة منها يصلح بها آخرته ودنياه، والباقى فى الدرجات». وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «أتدرون ما يقول الأسد فى زئيره؟» قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: «يقول: اللّهم لا تسلطنى على أحد من أهل المعروف». رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس.

---

(١) سورة البقرة:٢٣٧.
(٢) سورة المائدة:٢.
(٣) آلى: عهد وأقسم.
(٤) ناصحه: أخلص له النصيحة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: «أنفع الناس للناس». قيل: يا رسول الله فأيّ الأعمال أفضل؟ قال: «ادخال السرور على المؤمن». قيل: وما سرور المؤمن؟ قال: إشباع جوعته، وتنفيس كربته، وقضاء دينه. ومَنْ مشى مع أخيه فى حاجة كان كصيام شهر واعتكافه، ومَنْ مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، ومَنْ كفَّ غضبه ستر الله عورته، وإن الخلق السيِّئ يفسد العمل كما يفسد الخل العسل».

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لقى أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك، سره الله يوم القيامة». رواه الطبراني فى الصغير بإسناد حسن. وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أدخل على أهل بيت من المسلمين سرورًا لم يرض الله له سرورًا دون الجنة». رواه الطبراني. وعن جعفر بن محمد، عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أدخل رجل على مؤمن من سرور إلا خلق الله من ذلك السرور ملكًا يعبد الله تعالى، ويوحد. فإذا صار العبد فى قبره أتاه ذلك السرور فيقول له: أما تعرفني؟ فيقول له: من أنت؟ فيقول: إن السرور الذى أدخلتنى على فلان، أنا اليوم أؤانس وحشتك، وألقنك حجتك، وأثبتك بالقول الثابت، وأشهد مشاهدك يوم القيامة، وأشفع لك إلى ربك. وأريك منزلك فى الجنة». رواه ابن أبى الدنيا.

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه يرفعه: إذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس، وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران، وآية الكرسى. وإنا أنزلناه فى ليلة القدر، وأم الكتاب؛ فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة، وهو حديث مرفوع.

ومن كلام الحكماء: إذا سألت كريمًا حاجة فدَعْه يفكر، فإنه لا يفكر إلا فى خير. وإذا سألت لئيمًا حاجة فعاجله لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل. وسأل رجل رجلاً حاجة ثم توانى عن طلبها، فقال له المسئول: أنمتَ عن حاجتك؟ فقال: ما نام عن حاجته مَنْ أسهرك لها، ولا عدل بها عن محجة النجح مَنْ قصدك بها. فعجب من فصاحته، وقضى حاجته، وأمر له بمال جزيل. وقال مسلمة لنصيب: سلنى. فقال: كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسألة. فأمر له بألف دينار.

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: فَوْتُ الحاجة أهونُ من طلبها إلى غير أهلها. وعنه أيضًا قال: لا تكثر على أخيك الحوائج فإن العجل إذا أفرط فى مص ثدى أمه نطحته. وقال ذو الرياستين الثمامة بن أشرس: ما أدرى ما أصنع بكثرة الطلاب.

فقال: زل عن موضعك وعلىّ أن لا يلقاك منهم أحد. فقال له: صدقت. وجلس لهم فى قضاء حوائجهم.

وحدث أبو جعفر بن محمد بن القاسم الكرخى قال: عرضت على أبى الحسن على بن محمد بن الفرات رقعة فى حاجة لى فقرأها، ووضعها فى يده، ولم يوقع فيها بشئ، فأخذتها وقمت، وأنا أقول متمثلاً من حيث يسمع هذين البيتين:

وإذا خطبت إلى كريمِ حاجةً ... وأبى فلا تقعُدْ عليه بحاجبِ
فلربما منعَ الكريمُ وما به ... بخلٌ ولكن سوءُ حظِّ الطالبِ

فقال: وقد سمع ما قلت، ارجع يا أبا جعفر بغير سوء حظ الطالب، ولكن إذا سألتمونا الحاجة فعاودونا فإن القلوب بيد الله تعالى. فأخذ الرقعة، ووقع فيها بما أردت.

وسأل إسحاق بن ربعى بن إسحاق بن إبراهيم المصعبى أن يوصل له رقعة إلى المأمون فقال لكاتبه: ضمّها إلى رقعة فلان فقال:

تـأنَّ[١] لحـاجتي واشـدُدْ عُراهـا ... فقـد أضحَـتْ بمنزلـةِ الضيـاعِ
إذا شـاركتّها بلبـانِ أخـرى ... أضـرَّ بهـا مشـاركةَ الرضـاعِ

وقال أبو دقاقة البصرى:

أضحـت حوائجنـا إليـك مناخـةً ... معقولـةً برحـابك الوصّـالِ
أطلـق فديتـك بالنجـاح عقالهـا ... حتـى تثـورَ معًـا بغيـر عقـالِ

وقال سلم الخاسر:

إذا أذِنَ فـي حاجـةٍ ... أتـاك النجَـاحُ علـى رَسْـلِهِ[٢]
فـلا تسـألِ النـاسَ مـن فضلهـم ... ولكـنْ سَـلِ اللّـه مـن فضلِـهِ

وللّه درّ القائل حيث قال:

أيهـا المـادحُ العبـادَ ليعطـى ... إن للّـه مـا بـأيدى العبـادِ
فأسـألِ اللّـه مـا طلبـتَ إليهـم ... وارجُ فَـرْضَ المقسـم الجـوّادِ

وعن عبد اللّه بن الحسن بن الحسين رضى اللّه تعالى عنهم قال: أتيت باب عمر بن عبد العزيز فى حاجة فقال: إذا كانت لك حاجة إلىّ فارسل إلىّ رسولاً، أو اكتب لى كتابًا، فإنى لأستحى من اللّه أن يراك ببابى.

وعن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه أنه قال: والذى وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلبًا سرورًا إلا خلق اللّه تعالى من ذلك السرور لطفًا، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء فى انحداره حتى يطردها عنه كما تُطرد غريبة الإبل.

وقال لجابر بن عبد اللّه الأنصارى رضى اللّه عنهما: يا جابر من كثرت نعم اللّه عليه، كثرت حوائج الناس إليه، فإن قام بما يجب للّه فيها عرضها للدوام والبقاء، وإن لم يقم فيها بما يجب للّه، عرضها للزوال.

نعوذ باللّه من زوال النعمة، ونسأله التوفيق والعصمة، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا دائمًا أبدًا إلى يوم الدين، والحمد للّه رب العالمين.

(١) تأنَّ: اصبر وتمهل.
(٢) رسلِهِ: متئدًا.

الباب الثالث والعشرون فى محاسن الأخلاق ومساويها

قال اللّه تعالى لنبيه صلى اللّه عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] ، فخص اللّه تعالى نبيه صلى اللّه عليه وسلم من كريم الطباع، ومحاسن الأخلاق، من الحياء، والكَرم، والصفح، وحسن العهد، بما لم يؤته غيره. ثم ما أثنى اللّه تعالى عليه بشئ من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. قالت عائشة رضى اللّه عنها: كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه. وكان الحسن رضى اللّه عنه إذا ذكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: أكرم ولد آدم على اللّه عزّ وجل، أعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند اللّه. أتى بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند اللّه تعالى، وكان يأكل على الأرض، ويجلس على الأرض، ويقول: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، ولا يأكل متكئًا، ولا على خوان[2] ، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، وكان يأكل القثاء بالرطب، ويقول: بَرْدُ هذا يطفئ حرَّ هذا، وكان أحبَّ الطعام إليه اللحم، ويقول: هذا يزيد فى السمع، ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل. وكان يحب الدباء[3] ويقول: «يا عائشة إذا طبختم قدرًا فأكثروا فيه من الدباء، فإنها تشد قلب الحزين». وكان يقول: «إذا طبختم الدبّاء فأكثروا من مرقها»، وكان يكتحل بالأثمد[4] ، ولا يفارقه فى سفره قارورة الدهن[5] والكحل والمرآة والمشط والإبرة يخيط به ثوبه بيده، وكان يضحك من غير قهقهة، ويرى اللعب المباح ولا ينكره، وكان يسابق أهله. قالت عائشة رضى اللّه عنها: سابقته فسبقته، فلما كثر لحمى سابقته فسبقنى فضرب بكتفى، وقال: «هذه بتلك».

وكان له عبيد وإماء لا يرتفع على أحد منهم فى مأكل ولا مشرب، ولا ملبس، وهو أمىّ لا يقرأ ولا يكتب، نشأ فى بلاد الجهل والصحارى يتيمًا لا أب له ولا أم. فعلّمه اللّه تعالى جميع محاسن الأخلاق، وكان أفصح الناس منطقًا، وأحلاهم كلامًا، وكان يقول: «أنا أفصح العرب». وقال أنس رضى اللّه عنه: والذى بعثه بالحق نبيًّا ما قال لى فى شئ قط كرهه: لم فعلته؟ ولا فى شئ لم أفعله: لم لا فعلته؟ ولا لامنى أحد من أهله إلا قال: «دعوه كان هذا بقضاء وقدر».

وقال بعض مشايخنا رحمهم اللّه تعالى: لا مانع من أن النبى صلى اللّه عليه وسلم إذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التى هى أعلى مرتبة من العبودية. فالنبى صلى اللّه عليه وسلم أعطاه اللّه تعالى مرتبة الملك مع كونه عبدًا له متواضعًا. فحاز المرتبتين: مرتبة العبودية ومرتبة الملكية. ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف. ويرقع ثوبه. ويخصف نعله[6] ، ويركب الحمار بلا أكاف، ويردف خلفه، ويأكل الخشن من الطعام، وما شبع قط من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقى اللّه تعالى. مَنْ دعاه لبّاه. ومَنْ صافحه لم يرفع يده حتى يكون هو الذى يرفعها، يعود المريض، ويتبع الجنائز، ويجالس الفقراء، أعظم الناس من اللّه مخافة، وأتعبهم للّه عَزَّ وجلَّ بدنًا، وأجدهم فى أمر اللّه، لا تأخذه فى اللّه لومة لائم، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. أما واللّه ما كان تغلق من دونه الأبواب، ولا كان دونه حجاب صلى اللّه عليه وسلم.

---

(١) سورة القلم: ٤.

(٢) الخوان: المائدة، معرب.

(٣) الدباء: القرع.

(٤) الإثمد: حجر يكتحل به.

(٥) الدهن: أى الطيب.

(٦) يخصف نعله: يصلحه ويخرزه.

وقالت عائشة رضى اللّه عنها: ما ضرب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم امرأة قط ولا خادمًا له، ولا ضرب بيده شيئًا إلا أن يجاهد فى سبيل اللّه، ولا خير بين أمرين إلا واختار أيسرهما، إلا أن يكون إثمًا أو قطيعة رحم، فيكون أبعد الناس منه.

وقال إبراهيم بن عباس: لو وزنت كلمة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمحاسن الناس لرجحت ، وهى قوله عليه الصلاة والسلام: «أنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقهم». وفى رواية أخرى: «فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن». وعنه صلى اللّه عليه وسلم: «حسن الخلق زمام رحمة اللّه تعالى فى أنف صاحبه، والزمام بيد الملك، والملك يجره إلى الخير، والخير يجره إلى الجنة. وسوء الخلق زمام من عذاب اللّه تعالى فى أنف صاحبه، والزمام بيده الشيطان، والشيطان يجره إلى الشر، والشر يجره إلى النار».

وقال بعض السلف: الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب، والسَّيئ الخلق أجنبى عند أهله. وقال الفضل: لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق، أحبُّ إلىَّ من أن يصحبنى عابد سيِّىء الخلق؛ لأن الفاجر إذ حسن خلقه خفَّ على الناس وأحبوه، والعابد إذا ساء خلقه مقتوه.

إذا رامَ التخلّفَ جاذبَتّهُ[1] ... خلائقه إلى الطبع القديم

قيل: أبى اللّه لسيِّىء الخلق التوبة؛ لأنه لا يخرج من ذنب، إلا دخل فى ذنب آخر لسوء خلقه.

وعن عائشة قالت: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل شئ لم يقل: ما بال فلان، ولكن يقول: «ما بال أقوام يقولون» حتى لا يفضح أحدًا. وعنه صلى اللّه عليه وسلم: «ما شئ فى الميزان أثقل من حسن الخلق». وعنه أيضًا قال: «ثلاث مَنْ كنّ فيه، كنّ له، مَنْ صدق لسانه زكا عمله، ومَنْ حسنت نيته زيد فى زرقه، ومَنْ حسن بره لأهل بيته زيد له فى عمره». ثم قال: «وحسن الخلق، وكفُّ الأذى يزيدان فى الرزق». وقيل: سوء الخلق يعدى، لأنه يدعو إلى أن يقابل بمثله.

وكتب الحسن بن على إلى أخيه الحسين رضى اللّه عنهم فى إعطائه الشعراء. فكتب إليه الحسين أنت أعلم منى بأن خير المال ما وقى به العرض. فانظر إلى شرف أدبه، وحسن خلقه، كيف ابتدأ كتابه أنت أعلم مني، وكان بينه وبين أخيه كلام، فقيل له: ادخل على أخيك، فهو أكبر منك. فقال: إنى سمعت جدى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «أيما اثنين بينهما كلام فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة» وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر إلى الجنة. فبلغ ذلك الحسن فجاء عاجلاً رضى اللّه عنهما وأنشد فى المعنى:

وإنى لألقَى المرءَ أعلمُ أنهُ ... عدوٌّ وفى أحشائه الضغنُ كامنُ

فأمنحُهُ بشرًا[2] فيرجعَ قلبُهُ ... سليمًا وقد ماتَتْ لديه الضغائنُ

وسرق بعض حاشية جعفر بن سليمان، جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل فأنفذ إلى الجوهريين بصفتها. فقالوا: باعها فلان من مدة، ثم إن ذلك الرجل الذى سرقها قبض عليها، وأحضر بين يدى جعفر. فلما رأى ما ظهر عليه قال له: أراك قد تغيَّر لونك، ألست يوم كذا طلبت منى هذه الجوهرة فوهبتها لك؟ وأقسم باللّه لقد أنسيت هذا، ثم أمر للجوهرى بثمنها. وقال للرجل: خذها الآن حلالاً طيبًا وبعها بالثمن الذى يطيب خاطرك به، لا تَبعْ بَيْعَ خائف.

(١) جاذَبَتْهُ: شدته.

(٢) البشر: طلاقة الوجه.

ودخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تبتسم. فقال لها المأمون: مم تضحكين؟ فقال ابن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين؛ تتعجب من قبحى، وإكرامك إياى. فقال: لا تعجبى، فإن تحت هذه العمامة كرمًا ومجدًا قال الشاعر:

وهل ينفعُ الفتيانُ حُسْنُ وجوهِهم　　إذا كانت الأعراض غير حسانِ
فلا تجعلِ الحسنَ الدليلَ على الفتى　　فما كل مصقولِ الحديدِ يمانى

وحكى أن بهرام الملك خرج يومًا للصيد فانفرد عن أصحابه فرأى صيدًا، فتبعه طامعًا فى لحاقه حتى بَعُدَ عن عسكره، فنظر إلى راعٍ تحت شجرة فنزل عن فرسه ليبول وقال للراعى: احفظ علىّ فرسى حتى أبول. فعمد الراعى إلى العنان وكان ملبسًا ذهبًا كثيرًا، فاستغفل بهرام، وأخرج سكينًا فقطع أطراف اللجام، وأخذ الذهب الذى عليه، فرفع بهرام نظره إليه فرآه فغض بصره، وأطرق برأسه إلى الأرض، وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته. ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه، وقال للراعى: قدّم إلىّ فرسى فإنه قد دخل فى عينى من سافى[1] الريح فلا أقدر على فتحهما، فقدمه إليه فركبه، وسار إلى أن وصل إلى عسكره، فقال لصاحب مراكبه: إن أطراف اللجام قد وهبتها فلا تتهمن بها أحدًا.

وذكر أن أنو شروان وضع الموائد للناس فى يوم نيروز وجلس ودخل وجوه أهل مملكته فى الإيوان، فلما فرغوا من الطعام جاؤا بالشراب، وأحضرت الفواكه، والمشموم فى آنية الذهب والفضة، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض مَنْ حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال، وخبأه تحت ثيابه، وأنو شروان يراه، فلما فقد الشرابى صاح بصوت عال: لا يخرجَنَّ أحد حتى يفتش. فقال كسرى: ولِمَ؟ فأخبره بالقضية، فقال: قد أخذه مَنْ لا يرده، ورآه من لا ينم عليه، فلا تفتش أحدًا. فأخذ الرجل الجام، ومضى، فكسره وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه، وجدد له كسوة جميلة، فلما كان فى مثل ذلك اليوم جلس الملك، ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية فدعاه كسرى وقال له: هذا من ذاك؟ فقبل الأرض وقال: نعم أصلحك الله.

وقال عبد الله بن طاهر: كنت عند المأمون يومًا فنادى بالخادم. يا غلام، فلم يجبه أحد. ثم نادى ثانيًا وصاح: يا غلام، فدخل غلام تركى وهو يقول: ما ينبغى للغلام أن يأكل ويشرب، كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام، يا غلام إلىّ كم يا غلام، فنكس المأمون رأسه طويلاً فما شككت أنه يأمرنى بضرب عنقه، ثم نظر إلىّ، فقال: يا عبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه، ساءت أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه، حسنت أخلاق خدمه، وإنا لا نستطيع أن نسئ أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبى سفيان المدينة واليًا وكأن وجهه ورقة من ورق المصحف، فوالله ما ترك فينا فقيرًا إلا أغناه، ولا مديونًا إلا أدّى عنه دينه، وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء، ويكلمنا بكلام أحلى من الجَنى[2]، ولقد شهدت منه مشهدًا لو كان معاوية لذكرته. تغدينا يومًا عنده فأقبل الفراش بصحفه فعثر فى وسادة فوقعت الصحفة من يده، فوالله ما ردها إلا ذقن الوليد، وانكب جميع ما فيها فى حجره. فبقى الغلام متمثلاً واقفًا ما معه من روحه إلا ما يقيم رجليه، فقام الوليد فدخل فغير ثيابه، وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته، فأقبل على الفراش، وقال: يا بائس ما أرانا إلا روعناك[3] اذهب فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى.

---

(١) سافى الريح: غبارها.

(٢) الجَنى: ما يجتنى من الثمار.

(٣) روعناك: أفزعناك.

ومرض أحمد بن أبى داود فعاده المعتصم وقال: نذرت إن عافاك اللّه تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار. فقال له أحمد: يا أمير المؤمنين فاجعلها فى أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة. فقال: نويت أن أتصدق بها على من ههنا، وأطلق أهل الحرمين مثلها، فقال أحمد: متع اللّه الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين، فإنك كما قال النميرى لأبيك الرشيد رحمة اللّه تعالى عليه:

إن المكارمَ والمعروفَ أوديةٌ أحلّكَ اللّه منها حيث تجتمعُ
مَنْ لم يكن بأمينِ اللّه معتصمًا فليس بالصلواتِ الخمسِ ينتفعُ

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ فقال: من قيس بن عاصم، بينما هو ذات يوم جالس فى داره إذ جاءته خادم له بَسفُود(١) عليه شواء حار، فنزعت السَّفود من اللحم، وألقته خلف ظهرها، فوقع على ابن له فقتله لوقته، فدهشت الجارية، فقال: لا روع عليك، أنت حرة لوجه اللّه تعالى.

وكان ابن عمر رضى اللّه عنه إذا رأى أحدًا من عبيده يحسن صلاته يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسنون الصلاة مراءاة له فكان يعتقهم. فقيل له فى ذلك، فقال: مَنْ خدعنا فى اللّه انخدعنا له. وروى أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع فى وقت الهاجرة(٢) فألقى عليه من فوق سطح طست رماد فتغير أصحابه، وبسطوا ألسنتهم فى المُلْقِى للرماد. فقال أبو عثمان: لا تقولوا شيئًا؛ فإن مَنِ استحق أن يصب عليه النار، وصولح بالرماد، لم يجز له أن يغضب. وقيل لإبراهيم بن أدهم تغمده اللّه تعالى برحمته: هل فرحت فى الدنيا قط؟ فقال: نعم مرتين إحداهما: أنى كنت قاعدًا ذات يوم فجاء إنسانٌ فبال علىَّ، والثانى: كنت جالسًا فجاء إنسان فصفعنى.

وروى أن على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه دعا غلامًا له فلم يجبه، فدعاه ثانيًا وثالثًا فرآه مضطجعًا، فقال: أما تسمع يا غلام؟! قال: نعم. قال: فما حملك على ترك جوابى؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت. فقال: اذهب فأنت حر لوجه اللّه تعالى.

وحكى أن أبا عثمان الحيرى دعاه إنسان إلى ضيافة، فلما وافى باب الدار قال له الرجل: يا أستاذ ليس لى وجه فى دخولك فانصرف رحمك اللّه. فانصرف أبو عثمان، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه، وقال: يا أستاذ ندمت، وأخذ يعتذر له، وقال: احضر الساعة، فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال فى الأولى. ثم فعل به ذلك أربع مرات، وأبو عثمان ينصرف ويحضر، ثم قال له: يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك، والوقوف على أخلاقك، ثم جعل يعتذر له ويمدحه. فقال أبو عثمان: لا تمدحنى على خلق تجده فى الكلاب فإن الكلب إذا دُعى حضر، وإذا زُجِرَ انزجر. وقال الحرث بن قصى: يعجبنى من القراء كل فصيح مِضحاك(٣) ، فأما الذى تلقاه ببشر، ويلقاك بوجه عبوس، فلا كثر اللّه فى المسلمين مثله.

ومن محاسن الأخلاق، ما حكى عن القاضى يحيى بن أكثم قال: كنت نائمًا ذات ليلة عند المأمون فعطش، فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينغص علىّ نومى، فرأيته وقد قام يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذى فيه الكيزان، نحو من ثلاثمائة خطوة. فأخذ منها كوزًا فشرب، ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذى أنا عليه فخطا خطوات خائفٍ لئلا ينبهنى حتى صار إلى فارشه. ثم رأيته آخر الليل قام يبول وكان يقوم فى أول الليل وآخره فقعد طويلاً يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام، فلما

(١) بسفود: الحديدة يشوى بها.
(٢) الهاجرة: منتصف النهار.
(٣) مضحاك: كثير الضحك.

تحركت وثب قائمًا وصاح: يا غلام تأهب للصلاة، ثم جاءني فقال لي: كيف أصبحت يا أبا محمد، وكيف كان مبيتك؟ قلت: خير مبيت جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين. قال: لقد استيقظت للصلاة فكرهت أن أصيح بالغلام فأزعجك. فقلت: يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء، وأحب لك سيرتهم فهنأك الله بهذه النعمة وأتمها عليك. فأمر لي بألف دينار فأخذتها وانصرفت.

قال: وبت عنده ذات ليلة فانتبه وقد عرض له السعال فجعلت أرمقه[1] وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه فسعل، وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته فانتبه. قال يحيى: وكنت معه يومًا في بستان ندور فيه، فجعلنا نمرُّ بالريحان فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ويقول لقيِّم البستان: أصلح هذا الحوض، ولا تغرس في هذا الحوض شيئًا من البقول. قال يحيى: ومشينا في البستان من أوله إلى آخره وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني أن أتحول أنا في الظل، ويكون هو في الشمس فأمتنع حتى بلغنا آخر البستان، فلما رجعنا قال: يا يحيى والله لتكونن في مكاني، ولأكونن في مكانك، حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي. فقلت: يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسي لفعلت. فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل، وتحوّل هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقي، وقال: بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف.

فانظرْ إلى أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم ما أحسنها وإلى أفعالهم ما أزينها. نسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا وأن يبارك لنا في أرزاقنا إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حولا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) رمق: نظر بطرف عينه.

الباب الرابع والعشرون فى حسن المعاشرة والمودة، والأخوة، والزيارة وما أشبه ذلك

أعلَمْ أن المودة والأخوة والزيارة سبب التآلف سبب القوة، والقوة سبب التقوى، والتقوى حصن منيع، وركن شديد، بها يمنع الضيم[١]، وتنال الرغائب، وتنجح المقاصد. وقد منّ الله تعالى على قوة وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء، وردها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء فقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾[٢]، ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة إذا جعلهم إخوانًا على سرر متقابلين، وقد سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الإخاء، وندب[٣] إليه، وآخى بين الصحابة رضى الله عنهم أجمعين. وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يلقون فيها من الألم، إذا يقولون: ﴿**فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**﴾[٤]، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين، وأنشدوا فى ذلك:

وما المرءُ إلاّ بإخوانهِ ... كما يقبضُ الكفُّ بالمِعْصَمِ
ولا خيرَ فى الكفِّ مقطوعةً ... ولا خيرَ فِى السَّاعِدِ الأجْذَمِ[٥]

وقال زياد: خير ما اكتسب المرء الإخوان، فإنهم معونة على حوادث الزمان، ونوائب الحدثان وعون فى السراء والضراء[٦]. ومن كلام على رضى الله عنه وكرم وجهه:

عليكَ بإخوان الصفاءِ فإنّهم ... عِمَادٌ إذا استَنْجَدْتَهُم وظهورُ
وإنّ قليلاً ألفُ خلٍّ وصاحبٍ ... وإن عُدُّوا واحدًا لكثيرُ

وقال الأوزاعى: الصاحب للصاحب كالرقعة فى الثوب، إن لم تكن مثله شانته. وقال عبد الله بن طاهر: المال غاد ورائح، والسلطان ظل زائل، والإخوان كنوز وافرة.

وقال المأمون للحسن بن سهل: نظرت فى اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة. قال: وما السبعة يا أمير المؤمنين؟ قال: خبز الحنطة، ولحم الغنم، والماء البارد، والثوب الناعم، والرائحة الطيبة، والفراش الوطئ، والنظر إلى الحسن من كل شئ. قال: فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال؟ قال: صدقت وهى أولاهن.

وقال سليمان بن عبد الملك: أكلت الطيب، ولبست اللين، وركبت الفاره، وافتضضت العذراء فلم يبق من لذاتى إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ. وكذلك قال معاوية رضى الله عنه: نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط، وأكلت الطعام حتى لا أجد ما استمرؤه[٧]، وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء، وركبت المطايا، حتى اخترت نعلى، ولبست الثياب حتى اخترت البياض، فما بقى من اللذات ما تتوق إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم. وأنشدوا فى معنى ذلك:

ومَا بقيَتْ مِنَ اللذّاتِ إلا ... محادثةَ الرجالِ ذَوُى العقولِ
وقد كنّا نعدُّهم قليلاً ... فقد صَاروا أقلَّ مِن القليلِ

---

(١) الضيم: الظلم.
(٢) سورة آل عمران:١٠٣.
(٣) ندب: دعا له.
(٤) سورة الشعراء:١٠٠ - ١٠١.
(٥) الأجذم: المقطوع جزء منه.
(٦) الضراء: الضرر والحاجة.
(٧) أستمرؤه: أستسيغه ويطيب لى أكله.

وقال لبيد:

مـا عـاتبَ المـرءَ اللبيـبَ كنفسِـهِ ... والمـرءُ يُصْلحـه الجلِيـسُ الصَّـالِحُ(١)

وقال آخر(٢):

إذا مـا أتَتْ مـن صاحبٍ لـك زلَـةٌ ... فكُـنْ أنـتَ مُحتـالاً لزلتـه عـذرا

وقيل لابن السماك: أى الإخوان أحق ببقاء المودة؟ قال: الوافر دينه، الوافى عقله، الذى لا يملُّك على القرب، ولا ينساك على البعد، إن دنَوْتَ منه داناك، وإن بعدت عنه راعاك، وإن استعنت به عضدك، وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله: وأنشدوا فى المعنى:

إن أخَـاكَ الصـدق مـن يسـعى معَـكْ ... ومـن يضـر نفسـه لينفعَـكْ

ومَـنْ إذا ريـبُ الزمـانِ صدعَـكْ ... شـتّتَ فيـك شملَـهُ ليجمعَـكْ

وقال غيره:

وليـس أخـى مـن ودَّنـى بلسـانِه ... ولكـنْ أخـى مَـنْ ودَّنـى وهـو غـائبُ

ومَـنْ مالَـهُ مـالى إذا كنـت معدمًـا ... ومـالى لـه إنْ أعوزَتْـهُ النوائـبُ

وقال أبو تمام:

مـن لى بإنسـانِ إذا أغضَبْتَـهُ ... وجهلـتُ كـانَ الحِلْـمُ ردَّ جوابـهِ

وإذا صبوْتُ إلى المدامِ شـربتُ مـن ... أخلاقِـهِ وسـكرتُ مـن آدابـهِ

وتـراهُ يُصْغـى للحديـثِ بطرفـه ... وبقلبـهِ ولعلَّـهُ أدرى بـهِ

وقيل لخالد بن صفوان: أىُّ اخوانك أحب إليك؟. قال: الذى يسد خلتى، ويغفر زلتى، ويقيل عثرتى. وقيل: مَنْ لا يؤاخى إلا مَنْ لا عيب فيه قلَّ صديقه، ومَنْ لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه، ومَنْ عاتب على كل ذنب، ضاع عتبه، وكثر تعبه، قال الشاعر:

ومَـنْ لم يغمِّـضْ عينَـهُ عـن صديقِـهِ ... وعن بعضِ ما فيه يَمُـتْ وهـو عـاتِبُ

وقال آخر:

إذا كنـتَ فـى كـلِّ الأمـورِ معاتبًـا ... صديقَـكَ لم تَلْـقَ الـذى لا تعاتبُـهْ

وإن أنتَ لم تشرَبْ مرارًا على القـذى ... ظمئـتَ، وأىُّ النـاسِ تصفـو مشـاربُهْ

وقالوا: إذا رأيت من أخيك أمرًا تكرهه، أو خلة لا تحبها، فلا تقطع حبله، ولا تصرم(٣) وده، ولكن داوِ كلمته، واستر عورته، وابقه وابرأ من عمله. قال اللّه تعالى: ﴿**فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**﴾(٤)، فلم يأمره بقطعهم، وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيِّئ. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «الأرواح أجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن روحَى المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه». وفى ذلك قال بعضهم:

هوَيْتكُـمُ بالسَّـمْعِ قبـلَ لقـائِكُم ... وسَمْعُ الفتـى يهـوى لعمـرى كطرفِـهِ

وخبِّرْتُ عنكـم كـل جـودٍ ورفعـةٍ ... فلمـا التقينـا كنتـمُ فـوقَ وصفِـهِ

---

(١) الرواية المشهورة للبيت: ما عاتب الحر الكريم كنفسه.

(٢) تنسب هذا البيت لبشار بن برد.

(٣) صرم: قطع.

(٤) سورة الشعراء: ٢١٦.

وقال آخر:

تبسَّم الثغرُ عن أوصافكم فغدا ... من طيبِ ذكركم نشرًا فأحيانا

فمِن هناك عشقناكم، ولم نَرَكم ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

ما تحاب اثنان فى الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدهما حبًّا لصاحبه. ما زار أخ أخًا فى الله شوقًا إليه، ورغبة فى لقائه، إلا نادته ملائكة من ورائه: طبت، وطابت لك الجنة. وقالوا: ليس سرور يعدل لقاء الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم. وقالوا: شر الإخوان الواصل فى الرخاء الخاذل عند الشدة. وقالوا: إن من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقًا، ولعدو صديقك عدوًّا. وقالوا: أعجبُ الأشياء ودٌّ من يهودى، وحفظٌ من نصرانى، ورياضة من دهرى[1]، وكرم من أعجمى، والحذر من الكريم إذا أهنته، واللئيم إذا أكرمته، والعاقل إذا أحرجته، والأحمق إذا مازحته، والفاجر إذا عاشرته. وقالوا: اصحب من الإخوان، مَنْ أولاكَ جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنسى جمائله، وبقى شاكرًا ناشرًا لجميلتك، يوليك عليها الإحسان الكثير الجزيل، ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل. وقال ابن عائشة: لقاء الخليل شفاء الغليل. وقال بعض الحكماء: إذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذره جهدك. قال عبد الله بن طاهر:

خليلىَّ للبغضاء حالٌ مبينةٌ ... وللحبِّ آثارٌ تَرى ومعارفُ

فما تَنكِرُ العينانِ فالقلبُ منكرٌ ... وما تعرفُ العينانِ فالقلبُ عارِفُ

وقال آخر:

وكنتُ إذا الصديقُ أرادَ غيظى ... وشرَّقنى على ظمأ بريقِى[2]

غفرتُ ذنوبَهُ وكظَمْتُ غيظى ... مخافةَ أن أعيشَ بلا صديقِ

وقال آخر:

وليس فتى الفتيان مَنْ جُلّ هَمه ... صبوح وإن أمسى ففضل غبوق[3]

ولكن فتى الفتيان مَنْ راح أو غدا ... لضرٍّ عدوٍّ أو لنَفْعِ صديقِ

وأما آداب المعاشرة فالبشاشة، والبشر، وحسن الخلق، والأدب. فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا، والمصافحة إذا تلاقوا». كان القعقاع بن شور الهذلى إذا جالسه رجل يجعل له نصيبًا من ماله، ويعينه على حوائجه، ودخل يومًا على معاوية فأمر له بألف دينار، وكان هناك رجل قد فسح له فى المجلس فدفعها للذى فسح له، فقال:

وكنت جليسَ قعقاعِ بن شورِ ... وما يشقى بقعقاعٍ جليسُ

ضَحُوكُ السِّنِّ إن نطقوا بخيرِ ... وعندَ الشَّرِّ مِطراقٌ[4] عبوسُ

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: لجليسى علىّ ثلاث: أن أرمقه بطرفى إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأصغى له إذا حدّث. ويقال: لكل شئ محل، ومحل العقل مجالسة الناس، ومثل الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته. ومثل الجليس السوء مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك بناره آذاك بدخانه. وكانت تحية العرب: صبحتك الأنعمة، وطيب الأطعمة. وتقول أيضًا: صبحتك الأفالح وكل طير صالح. ووصف

---

(١) دهرى هنا: معمر، طويل العمر.

(٢) أشرقه بريقه: ألزمه الحجة وتغلب عليه.

(٣) الصبوح والغبوق: من أسماء أزمنه شرب الخمر.

(٤) مطراقُ: كثير الإطراق والتفكير.

المأمون ثمامة بحسن المعاشرة فقال: إنه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب[١] . وقيل: أول ما يتعين على الجليس الإنصاف فى المجالسة بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه، فيكون كل منهما فى محله.

وقال صلى اللّه عليه وسلم: «ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل». وقال جعفر الصادق رضى اللّه عنه. إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس فى الصدر. وينبغى للإنسان أن لا يقبل بحديثه على مَنْ لا يقبل عليه. فقد قيل: إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع، ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله، ولا يبتدع كلامًا لا يليق بالمجلس، فقد قيل: لكل مقام مقال. وخير القول ما وافق الحال. وأوجبوا على المستمع أنه إذا ورد عليه من المتلكم ما كان مرَّ بسمعه أوَلاً أن لا يقطع عليه مما يقوله، بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول، وعدوا ذلك من باب الأدب، ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن فى حفظه.

وقيل: ثمانية إذا أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم: الجالس فى مجلس ليس له بأهل، والمقبل بحديثه على مَنْ لا يسمعه، والداخل بين اثنين فى حديثهما و لم يدخلاه فيه، والمتعرض لما لا يعنيه، والمتآمر على رب البيت فى بيته، والآتى إلى مائدة بلا دعوة، وطالب الخير من أعدائه، والمستخف بقدر السلطان.

ويتعين على الجليس أن يراعى ألفاظه، ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصًا إذا كان جليس ذا هيبة، فقد قيل: رُبَّ كلمةٍ سلبت نعمة. وقال أبو العباس السفاح: ما رأيت أغزر من فكر أبى بكر الهذلى لم يعد علىَّ حديثًا قط. وقيل: إن أبا العباس كان يحدثه يومًا إذ عصفت الريح فرمت طستًا من سطح إلى المجلس فارتاع من حضر، و لم يتحرك الهذلى، و لم تزل عينه مطابقة لعين السفاح، فقال: ما أعجب شأنك يا هذلى. فقال: إن اللّه يقول: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[٢] وإنما لى قلب واحد، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء[٣] ما أحسست بها، ولا وجمت لها. فقال السفاح: لئن بقيت لك لأرفعن مكانك، ثم أمر له بمال جزيل، وصلة كبيرة. وكان ابن خارجة يقول: ما غلبنى أحد قط غلبة رجل يصغى إلى حديثى.

وفى نوابغ الحكم: أكرم حديث أخيك بإنصاتك، وصُنْهُ من وصمة التفاتك. وقيل: من حق الملك إذا تثاءب أو ألقى المروحة من يده أو مد رجليه أو تمطى أو اتكأ، أو فعل ما يدل على كسله أن يقوم مَنْ بحضرته. وكان أزدشير إذا تمطى قام سماره.

ومن حق الملك أن لا يعاد عليه حديث، وإن طال الدهر. قال روح بن زنباع: أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة فما أعدت عليه حديثًا إلا مرة واحدة، فقال لى: قد سمعته منك. وعن الشعبى قال: ما حدثت بحديث مرتين رجلاً بعينه. وقال عطاء بن أبى رباح: إن الرجل ليحدثنى بالحديث فأنصت له كأنى لم أسمعه قط، وقد سمعت به من قبل أن يولد.

وقيل: المودة طلاقة الوجه، والتودد إلى الناس. وقال معاذ بن جبل رضى اللّه عنه: إن المسلمَيْن إذا التقيا فضحك كل واحد منهما فى وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت[٤] ذنوبهما كتحات ورق الشجر. وقيل: البُشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر. وقيل:البشر يدل على السخاء كما يدل النور على التمر، وقيل: من السُّنَة إذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم ولكن اجعل لكل واحد منهم، نصيبًا. وقالوا: إذا أردت حسن المعاشرة فالق عدوك وصديقك بالطلاقة، ووجه الرضا والبشاشة، ولا تنظر فى عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات. وإذا جلست فلا تتكبر على أحد، وتحفَّظْ من تشبيك أصابعك، ومن العبث

(١) الجنوب: الريح الآتية من الجنوب.
(٢) سورة الأحزاب: ٤.
(٣) الغبراء: الأرض.
(٤) تحاتت: تفاركت.

بلحيتك، ومن اللعب بخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك فى أنفك، وكثرة بصاقك، وكثرة التمطى والتثاؤب فى وجوه الناس وفى الصلاة، وليكن مجلسك هادئًا، وحديثك منظومًا مرتبًا، واصغ إلى كلام مجالسك. واسكت عن المضاحك، ولا تتصنعْ تصنُعَ المرأة فى التزين، ولا تلح فى الحاجات، ولا تشجع أحدًا على الظلم، ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك عندهما. وإذا خاصمت فانصف، وتحفَّظْ من جهلك، وتجنَّبْ عجلتك، وتفكَّرْ فى حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا الالتفات إلى مَنْ وراءك، وأهدئ غضبك وتكلَّمْ.

وإذا قربك سلطان فكُنْ منه على حذر، واحذر انقلابه عليك، وكلِّمْه بما يشتهى، ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه، وإن كنت لذلك مستحقًا عنده.

وإياك وصديق العافية؛ فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك. ولا تجالس الملوك فإن فعلت فالتزم تَرْكَ الغيبة، ومجانبة الكذب، وصيانة السر، وقلة الحوائج، وتهذيب الألفاظ، والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم، وإن ظهرت المودة. ولا تتجشأ(١) بحضرتهم، ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم. ولا تجالس العامة فإن فعلت فآداب ذلك تَرْكُ الخوض فى حديثهم، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم(٢) ، والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم. وإياك أن تمازح لبيبًا أو سفيهًا فإن اللبيب يحقد عليك، والسفيه يتجرأ عليك، ولأن المزح يخرق الهيبة، ويذهب بماء الوجه، ويعقب الحقد ، ويذهب حلاوة الايمان والود، وشين فقه الفقيه، ويجرئ السفيه، ويميت القلب، ويباعد عن الرب تعالى، ويكسب الغفلة والذلة. ومن يلى فى مجلس بمزاح أو لغط فليذكر اللّه عند قيامه.

فقد ورد عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللّهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. غفر له ما كان فى مجلسه ذلك».

وأما آداب المسايرة فقد روى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تعاقب هو وعلى بن أبى طالب كرم اللّه وجهه ورجل آخر من الصحابة رضوان اللّه عليهم أجمعين فى سفر على بعير، فكان إذا جاءت نوبته فى المشى مشى فيعزمان عليه أن لا يمشى، فيأبى، ويقول: «ما أنتم بأقدر منى على المشى، وما أنا بأغنى منكم على أجر». وقال صلى اللّه عليه وسلم: «لا تتخذوا ظهور الدواب كراسى». وقيل: لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا فى ثلاث: إذا ساروا ليلاً، أو خاضوا سيلاً، أو واجهوا خيلاً.

وقال على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه: لا يكون الصديق صديقًا حتى يحفظ أخاه فى ثلاث: نكبته، وغيبته، ووفاته.

وأما ما جاء فى الإخوان القليلى الموافاة، العديمى المكافأة ليس عندهم لصديق مصافاة

فقال وهب بن منبه: صحبتُ الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لى زلّة، ولا أقال لى عثرة، ولا ستر لى عورة.

وقال على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه: إذا كان الغدر طبعًا، فالثقة بكل أحد عجز.

وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمى، وحيوان غير موجود. قال الشاعر:

سَمِعْنا بالصَّديقِ ولا نَراهُ ... على التحقيقِ يُوجدُ فى الأنَامِ

(١) التجشأ: صوت يخرج من المعدة.

(٢) أراجيفهم: الأخبار التافهة.

وأحسَبُهُ مُحالاً نَمَّقُوهُ[1] ... على وجهِ المجازِ من الكلامِ

وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقًا لا شَوْكَ فيه، فصاروا أشواكًا لا ورق فيه. وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه: أقلل من معرفة الناس، وأنكر مَنْ عرفْتَ منهم، وإن كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين، وكن من الواحد على حذر. وقيل لبعض الولاة: كم لك صديق[2] ؟ فقال: أما فى حال الولاية فكثير، وأنشد:

النـاسُ إخـوانُ مَـنْ دامـت لـه نِعَـمٌ ... والويـلُ للمـرءِ إنْ زلّـتْ بـهِ القَـدَمُ

ولما نكب على بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحد من أصحابه الذين يألفونه فى ولايته، فلما ردت إليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانيًا، فقال:

ما النـاسُ إلا مَـعَ الدنيـا وصاحبهـا ... فكلّمـا انقلبَـتْ يومًـا بـه انقلَبُـوا
يعظِّمُـون أخـا الدنيـا فـإنْ وثَبـتْ ... يومًـا عليـه بما لا يُشْـتَهى وثَبُـوا

وقال آخر[3] :

فمـا أكثرَ الأصحـابَ حـين نعدُّهُـمْ ... لكنّهـم فِـى النائبـاتِ قَليـلُ

وقال البحترى:

إيَّـاك تَغـتر أو تَخدعـك بَارقـةٌ ... من ذى خداعٍ يرى بشرًا وألطافـا
فلـو قلبـتَ جميـعَ الأرضِ قاطبـةً ... وسرتَ فـى الأرض أوساطًا وأطرافا
لم تلـقَ فيهـا صديقًـا صادقًـا أبـدًا ... ولا أخًا يبذلُ الإنصافَ إن صافى

وقال بعضهم فى المعنى أيضًا:

خليلـىَّ جرّبـت الزمـان وأهلَـهُ ... فما نالنى منهم سِوى الهمِّ والعنا[4]
وعاشَرْتُ أبنـاء الزمـانِ فلـم أجِـدْ ... خليلاً يوفـى بالعهودِ ولا أنـا

وقال آخر:

لمـا رأيـتُ بنـى الزمـانِ ومـا بهـم ... خـلٌّ وفـىٌّ للشـدائدِ أصطفـى
فعلمـتُ أنَّ المسـتحيل ثلاثـةٌ ... الغـولُ والعنقـاءُ والخِـلُّ الوفـى

وبيت مفرد:

وكـلُّ خليـلٍ ليسـى فـى اللّـه ودُّه ... فـإنى بـه فـى ودِّه غـير واثـقِ

وقال آخر:

إذا مـا كنـتَ متخـذًا خليـلاً ... فـلا تـأمَنْ خليلـك أن يخونـا
فـإنك لم يخنـك أخٌ أمـينٌ ... ولكـنْ قلّمـا تَلْقَـى أمينـا

وقال آخر:

تَحِبُّ عـدّوى ثـم تزعَـمُ أننـى ... أودُّك إن الـرأى عنـك لعَـازِبُ
وليـس أخـى مَـنْ وَدَّنـى بلسـانِهِ ... ولكـنْ أخـى مَنْ ودّنى وهـو غـائبُ
ومَـنْ مالـه مـالى إذا كنـت معدمًـا ... ومـا لى لـه إن أعوزَتْـهُ النوائـبُ

---

(١) التنميق: التحسين والتزيين.
(٢) صوابها: «كم صديقًا لك؟».
(٣) ينسب لأبى فراس الحمدانى.
(٤) العنا: مخفف العناء.

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة، وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زوَّر عنه كتابًا إلى أعدائه وعزله، لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجع له، ثم إن السلطان ظهر له في بقية يومه أنه برئ مما نسب إليه فخلع عليه ورد إليه وظائفه فأنشد يقول هذه الأبيات:

تحالفَ الناسُ والزمانُ ... فحيثُ كان الزمانُ كانوا
عَاداني الدهرُ نِصْفَ يومٍ ... فانكشفَ النّاسُ لي وبانُوا
يا أيُّها المعرضونَ[1] عنّا ... عُودوا فقد عادَ لِيَ الزمانُ

ومثله في المعنى:

أخوك أخوك مَنْ يدنو وترجُو ... مودته وإن دُعي استجابا
إذا حارَبْتَ حارَبَ مَنْ تعادي ... وزادَ سلاحُهُ منكَ اقترابا

وقال أبو بكر الخالدي:

وأخٍ رخصتُ عليه حتى ملّني ... والشيءُ مملولٌ إذا ما يرخصُ
ما في زمانِك من يعزُّ وجودُه ... إنْ رُمْتَهُ إلا صديقٌ مخلصُ

فيجب على الإنسان أن لا يصحب إلا مَنْ له دين وتقوى، فإن المحبة في اللَّه تنفع في الدنيا والآخرة، وما أحسن ما قال بعضهم:

وكُلُّ محبةٍ في اللّه تبقى ... على الحالين من فرجٍ وضيقِ
وكُلُّ محبةٍ فيمَا سِوَاه ... فكَالحَلْفَاءِ[2] في لَهَبِ الحريقِ

فينبغي للإنسان أن يجتنب معاشرة الأشرار، ويترك مصاحبة الفجار، ويهجر من ساءت خلته، وقبحت بين الناس سيرته: قال اللَّه تعالى: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾[4] فأثبت اللَّه المماثلة بيننا وبين البهائم وذلك إنما هو في الأخلاق خاصة؛ فليس أحد من الخلق إلا وفيه خُلُق من أخلاق البهائم.

ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة، فإذا رأيت الرجل جاهلاً في خلائقه، غليظًا في طبائعه، قويًا في بدنه لا تؤمن ضغائنه، فألْحِقْهُ بعالم النمورة. والعرب تقول: أجْهَلُ من نمر. وإذا رأيت الرجل هجامًا على أعراض الناس فقد ماثل عالم الكلاب. فإن دَأبَ الكلب أن يجفو من لا يجفوه، ويؤذي من لا يؤذيه، فعامِلْهُ بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح، ألست تذهب وتتركه؟. وإذا رأيت إنسانًا قد جبل على الخلاف إن قلت: نعم قال: لا، وإن قلت: لا قال: نعم، فألْحِقْهُ بعالم الحمير؛ فإن دَأبَ الحمار إن أدنَيْتَهُ بَعُدَ، وإن أبْعَدْتَهُ قَرُب، فلا تنتفع به، ولا يمكنك مفارقته. وإن رأيت إنسانًا يهجم على الأموال والأرواح فألْحِقْهُ بعالم الأسود. وخُذْ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الأسد. وإذا بليت بإنسان خبيث كثير الروغان فألْحِقْه بعالم الثعالب.

وإذا رأيت مَنْ يمشي بين الناس بالنميمة، ويفرّق بين الأحبة فألحِقْهُ بعالم الظربان[5]، وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة: مشى بينهم ظربان فتفرقوا[6]. وإذا رأيت إنسانًا لا يسمع الحكمة والعلم، وينفر من

---

(١) المعرضونَ: المتصرفون.
(٢) الحلفاء: نبت.
(٣) سورة الزخرف: ٦٧.
(٤) سورة الأنعام: ٣٨.
(٥) الظربان: حيوان نتن الريح.
(٦) تفرقوا: مثل للتفريق بسبب النميمة.

بمجالسة العلماء، ويألف أخبار أهل الدنيا فألحقْه بعالم الخنافس فإنه يعجبها أكل العذرات، وملامسة النجاسات، وتنفر من ريح المسك والورد، وإذ شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقتها.

وإذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعلها، يبيض ثيابه ويعدل عمامته، وينظر فى عطفيه فألحِقْه بعالم الطواويس. وإذا بليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات، ويجازى بعد المدة الطويلة على السقطات، فألحِقْه بعالم الجِمَال. والعرب تقول: أحْقَد من جمل. فتجنبْ قرب الرجل الحقود.

وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار وأهل الغدر ومَنْ لا وفاء لهم، فإنه إذا فعل ذلك سلمَ من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه، والله أعلم.

وأما الزيارة والاستدعاء إليها، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى: «وجبت محبتى للمتحابين فىّ، والمتباذلين فىّ، والمتزاورين فىّ، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى» وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ عاد مريضًا، أو زار أخًا، نادى منادٍ أن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً»[(١)] وقيل: المحبة شجرة أصلها الزيارة. قال الشاعر:

زُرْ مَنْ تحبُّ وإنْ شَطّتْ بكَ[(٢)] الدَّارُ ... وحالَ من دونهِ حجبٌ وأستارُ
لا يَمْنَعَنّكَ بُعْدٌ من زيارتهِ ... إنَّ المحبَّ لمن يهواه زوّارُ

ولتكن الزيارة غبًّا[(٣)] لقوله صلى الله عليه وسلم: «زُرْ غبًّا تزدَدْ حبًّا»[(٤)] قال الشاعر فى معنى ذلك:

عليك بإغباب الزيارة إنها ... إذا كثرَتْ صارَتْ إلى الهجرِ مَسلكا
ألم تَر أن الغيث يُسْأمُ دائمًا ... ويُسألُ بالأيدى إذا هو أمسكا

ويقال: الإكثار من الزيارة مملّ، والاقلال منها مخلّ. وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إذا ما تقاطَعْنَا ونحن ببلدةٍ ... فما فَضْلُ قربِ الدَّارِ منا على البعدِ

وقال آخر:

وإنَّ مروري بالديارِ التى بها ... سُلَيْمَى ولم ألمم بها لجَفَاءُ

وقال آخر:

قد أتانا من آل سُعدى رسولٌ ... حبَّذا ما يقولُ لىَ وأقولُ

وقال آخر:

أزور بيوتًا لاصقاتٍ ببيتِهَا ... وقلبىَ فى البيتِ الذى لا أزورُهُ

وزار محمد بن يزيد المهلبى المستعين، ووهب له مائتى ألف درهم، وأقطعه أرضًا، فقال:

وخصَصْتَنى بزيارةٍ أضحى لنا ... مجدٌ بها طولَ الزمان مؤثلُ[(٥)]
وقضيتَ دينى وهو دين وافر ... لم يقضه مع جوده المتوكلُ

وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة:

نحنُ فى أفضلِ السرورِ ولكِنْ ... ليسَ إلا بكَم يتمُّ السرورُ

---

(١) أخرجه: الترمذى فى البر والصلة ٢٠٠٨.
(٢) شَطّتْ: نأت وبعدت.
(٣) الغب: الزيارة يومًا بعد يوم.
(٤) حديث صحيح، وأفرده بعضهم بالتأليف.
(٥) المجد المؤثل: الأصيل.

عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودِّى أنكم غبتمْ ونحنُ حضورُ
فَأجدُّوا المسيرَ بل إنْ قدرتمْ أن تطيروا مع الرياحِ فطيروُا

وقيل لفيلسوف: أى الرسل أنجح؟ قال: الذى له جَمال وعقل. وقيل: إذا أرسلتم رسولاً فى حاجة فاتخذوه حسن الوجه، حسن الاسم. وقال لقمان لابنه: يا بنى لا تبعث رسولاً جاهلاً، فإن لم تجد حكيمًا عارفًا فكن رسول نفسك، وقال بعضهم:

إذا أبطا[١] الرسولُ فَقَلْ نَجَاحٌ ولا تفرَحْ إذا عجَّلَ الرسولُ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) أبطا: مقصور أبطأ.

الباب الخامس والعشرون فى الشفقة على خلق اللَّه تعالى، والرحمة بهم، وفضل الشجاعة، وإصلاح ذات البين، وفيه فصلان

الفصل الأول فى الشفقة على خلق اللَّه تعالى والرحمة بهم

قال اللَّه تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[١]، ووصف اللَّه نفس لعباده فقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٢]، وقال اللَّه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[٣] قال المفسرون: الرحمن اسم رقيق يدل على: العطف والرقة واللطف والكرم والمنة والحلم على الخلق. والرحيم مثله. وقيل: يقال: رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة.

وعن أنس بن مالك رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «والذى نفسى بيدِهِ لا يَضَعُ اللَّه الرحمة إلا على رحيم» قلنا: يا رسول اللَّه، كلنا رحيم. قال: «ليس الرحيم الذى يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الرحيم الذى يرحم المسلمين». رواه أبو يعلى، والطبرانى. وعن جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه عنهما أن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال: «من لا يَرحم لا يُرحم، ومن لا يَغفر لا يُغفر له» وعنه صلى اللَّه عليه وسلم قال: «ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم».

وعن أبى بكر الصديق رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال اللَّه عز وجل: «إن كنتم تريدون رحمتى فارحموا خلقى». رواه أبو محمد بن عدى فى كتاب الكامل.

وروينا من طريق الطبرانى، عن الشعبى، عن النعمان بن بشير رضى اللَّه عنه. قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «مَثَلُ المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتواصلهم كمَثَلِ الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» قال الطبرانى: إنى رأيت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فى المنام، فسألته عن هذا الحديث فقال النبى صلى اللَّه عليه وسلم وأشار بيده: صحيحٌ صحيحٌ صحيحٌ ثلاثًا. وعن ابن مسعود رضى اللَّه عنه عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال: «مَنْ مسح على رأس يتيم، كان له بكل شعرة تمر عليه يده نور يوم القيامة».

ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه فوجده مستلقيًا على ظهره، وصبيانه يلعبون على بطنه ، فأنكر ذلك عليه، فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق. فقال له: اعتزل فإنك لا ترفق بأهلك وولدك، فكيف ترفق بأمة محمد صلى اللَّه عليه وسلم؟!

وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه عنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال: «إن أبدال[٤] أمتى لن يدخلوا الجنة بالأعمال، ولكن يدخلونها برحمة اللَّه وسخاوة النفس، وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين».

الفصل الثانى فى الشفاعة وإصلاح ذات البين

قال اللَّه تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا

---

(١) سورة التوبة:١٢٨.

(٢) سورة البقرة:١٤٣.

(٣) سورة الفاتحة:٢ - ٣.

(٤) الأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الأرض منهم كلما مات واحدًا بدله اللَّه، وصح السيوطى أحاديث الأبدال.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾[١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه، كما يسأله عن عمره، فيقول له: جعلت لك جاهًا، فهل نصرت به مظلومًا أو قمعت به ظالمًا، أو غثت به مكروبًا؟» وقال صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصدقة أن تعين بجاهك مَنْ لا جاه له». وعن أبى بردة، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا جاءنى طالب حاجة فاشفعوا له لكى تؤجروا، ويقضى الله تعالى على لسان نبيه ما شاء». وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصدقة صدقة اللسان»، قيل: يا رسول الله وما صدقة اللسان؟ قال: «الشفاعة تفكُّ بها الأسير، وتحقن بها الدماء، وتجرّ بها المعروف إلى أخيك، وتدفع عنه بها كريهة». رواه الطبرانى فى المكارم.

وقال علىٌّ رضى الله عنه: الشفيع جناح الطالب.وقال رجل لبعض الولاة: إن الناس يتوسلون إليك بغيرك، فينالون معروفك، ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك، ليكون شكرى لك لا لغيرك. وقيل: كان المنصور معجبًا بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم، وكان الناس لعظم قدره يفزعون إليه فى الشفاعات، فثقل ذلك على المنصور، فحجبه مدة، ثم لم يصبر عنه، فأمر الربيع أن يكلمه فى ذلك، فكلمه، وقال: اعف يا أمير المؤمنين، لا تثقل عليه فى الشفاعات فقبل ذلك منه. فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع، فسألوه إيصالها إلى المنصور فقصَّ عليهم القصة، فأبوا إلا أن يأخذها. فقال: اقذفوها فى كميٍّ، ثم دخل عليه وهو فى الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين، فقال له: أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله. فقال له: يا أمير المؤمنين، بارك اللهّ لك فيما آتاك، وهنّاك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك، فما بنت العرب فى دولة الإسلام ولا العجم فى سالف الأيام، أحصن ولا أحسن من مدينتك، ولكن سمجتها[٢] فى عينى خصلة، قال: وما هى؟ قال: ليس لى فيها ضيعة، فتبسم. وقال: قد حسنتها فى عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها. فقال: أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد، كريم المصادر، فجعل الله تعالى باقى عمرك أكثر من ماضيه. ثم أقام معه يومه ذلك، فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كمه فجعل يردهن، ويقول: ارجعن خائبات خاسرات. فضحك المنصور، وقال: بحقى عليك ألا أخبرتنى وأعلمتنى بخبر هذه الرقاع فأعلمه. وقال: ما أتيت يا ابن معلم الخير إلا كريمًا، وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

لسنا وإن أحسابُنا كرمَتْ ... يومًا عَلَى الأحسابِ نتكلُ
نَبْنى كما كانَتْ أوائلنا ... تبنى ونفعلُ مِثْلَ ما فعلَوا

ثم تصفّح الرقاع، وقضى حوائجهم عن آخرها، قال محمد: فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت. وقال المبرد: أتانى رجل لأشفع له فى حاجة فأنشدنى لنفسه:

إنى قصَدْتُك لا أدلى بمعرفةٍ ... ولا بقربٍ ولكن قد فَشَتْ نعمُكْ
فبتُّ حيرانَ مكروبًا يؤرقنى ... ذلُّ الغريب، ويغشينى الكرى كرمُكْ
ما زلت أنكبُّ، حتّى زلزلَتْ قدمى ... فَاحْتَلْ لتثبيتها لا زلزلَتْ قدمُكْ
فلو هممت بغير العرف مَا علقَتْ ... به يداك ولا انقادَتْ له شيمُكْ

قال: فشفعت له وأنلته من الإحسان ما قدرت عليه.

---

(١) سورة النساء: ٨٥.

(٢) سمجتها: جعلها تبدو ثقيلة ممجوجة.

وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت:

شَفِيعى إليك الله ولا شيءَ غيره   وليس إلى ردِّ الشفيعِ سبيلُ

فأمره بلزوم الدهليز، فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم، فلما استوفى ثلاثين ألفًا ذهب الرجل. فقال يحيى: والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعتها عنه.

وقال آخر:

وقد جئتكم بالمصطفى متشفّعًا   وما خاب مَنْ بالمصطفى يتشفَّعُ

إلى بابِ مولانا رفعتُ ظلامتى   عسى الهمُّ عنى والمصائبُ تَرفعُ

وقال آخر:

تشفّعْ بالنبىِّ فكلُّ عبدٍ   يُجار إذا تشفّع بالنبى

ولا تجزَعْ إذا ضاقَتْ أمورٌ   فكَم للّه من لطفٍ خفِى

وروى أن جبريل عليه السلام قال: يا محمد لو كانت عبادتنا للّه تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال: سقى الماء للمسلمين، وإعانة أصحاب العيال، وستر الذنوب على المسلمين إذا أذنبوا.

اللّهم استر ذنوبنا، واقض عنّا تبعاتنا، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس والعشرون فى الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح

وفيه فصلان

الفصل الأول فى الحياء

قالت عائشة رضى اللّٰه تعالى عنها: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمام للجار، وحفظ الذمام للصاحب، وقرى الضيف، وأسهن[1] الحياء.

وقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «الحياء شعبة من الإيمان»[2]. وقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنَعْ ما شئت»[3]. وقال على بن أبى طالب كرم اللّٰه وجهه: من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناس عيبه. وعن زيد بن على عن آبائه يرفعونه: من لم يستح فهو كافر.

وقال أبو موسى الأشعرى رضى اللّٰه عنه: إنى لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فأحنى فيه صلبى[4] حياءً من ربى. وقال بعضهم: الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون فى الوعاء.

وقال الخواص: إن العباد عملوا على أربع منازل: على الخوف، والرجاء، والتعظيم، والحياء، فأرفعها منزلةً الحياء لما أيقنوا أن اللّٰه يراهم على كل حال. قالوا: سواء علينا رأيناه أو رآنا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه. ويقال: القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.

الفصل الثانى فى التواضع ولين الجانب، وخفض الجناح

قال اللّٰه تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[6] وقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «أفضل العبادة التواضع» وقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «لا ترفعونى فوق قدرى فتقولوا فىَ ما قالت النصارى فى المسيح؛ فإن اللّٰه عزَّ وجلَّ اتخذنى عبدًا، قبل أن يتخذنى رسولاً» وأتاه صلى اللّٰه عليه وسلم رجل فكلمه فأخذته رعدة، فقال صلى اللّٰه عليه وسلم له: «هون عليك، فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»[7].

وكان صلى اللّٰه عليه وسلم يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم فى مهنة أهله، ولم يكن متكبرًا، ولا متحيرًا، أشد الناس حياء، وأكثرهم تواضعًا. وكان إذا حدث بشئ مما أتاه اللّٰه تعالى قال: «ولا فخر». وقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «إن العفو لا يزيد العبد إلا عزًّا فاعفوا يعزكم اللّٰه، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم اللّٰه، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماءً، فتصدقوا يزدكم اللّٰه».

وقال عدى بن أرطاة لإياس بن معاوية: إنك لسريع المشية. قال: ذلك أبعد من الكبر، وأسرع فى الحاجة.

---

(١) أسهن: أساسهن.
(٢) أخرجه: البخارى فى الإيمان ٩.
(٣) أخرجه: البخارى فى أحاديث الأنبياء ٣٤٨٣.
(٤) الصلب: الظهر.
(٥) سورة الحجر: ٨٨.
(٦) سورة القصص: ٨٣.
(٧) أخرجه: ابن ماجه فى الأطعمة ٣٣١٢.

وخرج معاوية علي ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر، وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس فإني سمعت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقول: «مَنْ أحب أن يتمثل له الناس قيامًا فليتبوأ مقعده من النار».

وقيل: التواضع سُلّم الشرف.

ولبس مطرف بن عبد اللّٰه الصوف وجلس مع المساكين، فقيل له فى ذلك، فقال: إن أبى كان جبارًا فأحببت أن أتواضع لربى لعله أن يخفف عن أبى تجبره.

وقال مجاهد: إن اللّٰه تعالى لما أغرق قوم نوح، شمخت الجبال، وتواضع الجودى، فرفعه فوق الجبال، وجعل قرار السفينة عليه.

وقال اللّٰه تعالى لموسى عليه السلام: هل تعرف لِمَ كلمتك من بين الناس؟ قال: لا يا رب. قال: لأنى رأيتك تتمرغ بين يدى فى التراب تواضعًا لى.

وقيل: من رفع نفسه فوق قدره، استجلب مقت الناس.

وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة: ما تاهَ إلا وضيع، ولا فاخر إلا لقيط. وكلُّ مَنْ تواضع للّٰه رفعه اللّٰه.

فسبحان من تواضع كل شئ لعزِّ جبروت عظمته، وصلى اللّٰه عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والعشرن فى العجب، والكبر، والخيلاء، وما أشبه ذلك

اعلم أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل. وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح، وقبول التأديب. والكبر يكسب المقت، ويمنع من التكلف. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر»[١] . وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من جرّ ثوبه خيلاء لا ينظر اللّه إليه»[٢] . وقال الأحنف بن قيس: ما تكبر أحد إلا من زلة يجدها فى نفسه ولم تزل الحكماء تتحامى[٣] الكبر، وتأنف منه.

ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه. فقال: وددت أنى مثلك فى ظنك، وأن أعدائى مثلك فى الحقيقة.

ورأى رجلٌ رجلاً يختال فى مشيه فقال: جعلنى اللّه مثلك فى نفسك، ولا جعلنى مثلك فى نفسى.

وقال الأحنف: عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرتين كيف يتكبر. ومرّ بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر فى مشيه، فقال له مالك: يا بنى لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل لك. فقال: أو ما تعرفنى؟ قال: أعرفك معرفة جيدة، أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فأرخى الفتى رأسه، وكفّ عما كان عليه. وقال: لا يدوم الملك مع الكبر، وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة، والسيادة.

وأعظم من ذلك أن اللّه تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال تعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا**﴾[٤] . فقرن الكبر بالفساد، وقال تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾[٥] . قال بعض الحكماء: ما رأيت متكبرًا إلا تحول ما به بى. يعنى: أتكبر عليه.

واعلَمْ أنّ الكبر يوجب المقت، ومن مقته رجاله لم يستقم حاله. والعرب تجعل جذيمة الأبرش غاية فى الكبر. يقال: إنه كان لا ينادم أحدًا لتكبُّره، ويقول: إنما ينادمنى الفرقدان.

وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبرًا، روى أنه قال لغلامة: اسقنى ماء. فقال: نعم. فقال: إنما يقول: نعم من يقدر أن يقول: لا، اصفعوه فصفع، ودعا أكارا[٦] فكلمه، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذارًا لمخاطبته. ويقال: فلان وضع نفسه فى درجة، لو سقط منها لتكسر.

قال الجاحظ: المشهورون بالكبر من قريش: بنو مخزوم، وبنو أمية، ومن العرب: بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدى. وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيدًا، وأنفسهم إلا أربابًا.

وقيل لرجل من بنى عبد الدار: ألا تأتى الخليفة؟ فقال: أخاف أن لا يحمل الجسر شرفى. وقيل للحجاج بن أرطاة: ما لك لا تحضر الجماعة؟ قال: أخشى أن يزاحمنى البقالون.

وقيل: أتى وائل بن حجر إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم فأقطعه أرضًا، وقال لمعاوية: «اعرض هذه الأرض عليه، واكتبها له». فخرج معه معاوية فى هاجرة شديدة، ومشى خلف ناقته، فأحرقه حر الشمس، فقال له: اردفنى خلفك على ناقتك، قال: لست من أرادف الملوك. قال: اعطنى نعليك. قال: ما بخلٌ يمنعنى يا ابن سفيان،

---

(١) أخرجه: البخارى فى الإيمان ٢٢.

(٢) أخرجه: البخارى فى المناقب ٣٦٦٥.

(٣) تتحامى: تبتعد عنه.

(٤) سورة القصص:٨٣.

(٥) سورة الأعراف:١٤٦.

(٦) أكارا: الحمّال على الحمار.

ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن[١] أنك لبست نعلي، ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفًا. وقيل: إنه لحق زمن معاوية، ودخل عليه، فأقعده معه على السرير وحدثه.

وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا المسرور بن هند. قال: ما أعرفك.قال: فتعسًا ونكسًا لمن لم يعرف القمر. قال الشاعر:

قولا لأحمقَ يلوى التيهُ أخدعَهُ[٢] ... لو كنتَ تعلم ما في التيه لم تَتِهِ
التيهُ مفسدةٌ للدين، منقصةٌ ... للعقلِ، مهلكةٌ للعرض فانَتبهِ

وقيل: لا يتكبر إلا كل وضيع، ولا يتواضع إلا كل رفيع، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) ملوكها وواحدهم: قيل.
(٢) الأخدع: عرق في الرقبة.

الباب الثامن والعشرون فى الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ**﴾[١] نزلت فى على بن أبى طالب كرم اللّٰه وجهه، وعقبة بن أبى معيط وكانا تفاخرا. وقوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾[٢] نزلت فى أبى جهل، وعمار بن ياسر.

والنسب إلى سيدنا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أشرف الأنساب. وقد قال صلى اللّٰه عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم، ولا فخر». وقد نفى اللّٰه تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[٣] فالفخر فى الإسلام بالتقوى. وقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «إن نبيكم واحد. وإن أباكم واحد. وإنه لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت»[٤] .

وقال الأصمعى: بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذا رأيت شابًا متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول:

يا مَنْ يجيبُ دُعَا المضْطَرِّ فى الظَلَمِ ... يا كَاشِفَ الضُّرِّ والبَلْوى مع السقَمِ
قد نَامَ وَفْدُكَ حولَ البيتِ وانتبهُوا ... وأنتَ يا حيُّ يا قيُّومُ لم تَنَمِ
أدعوكَ ربِّى حزينًا هائمًا قلقًا ... فارحَمْ بُكائى بحقِّ البيتِ والحَرَمِ
إنْ كان جودُك لا يرجوه ذو سفهٍ ... فمَنْ يجودُ علَى العاصينَ بالكَرَمِ

ثم بكى بكاءً شديدًا وأنشد يقول:

ألا أيُّها المقصودُ فى كل حاجةٍ ... شكوتُ إليك الضرَّ فارحَمْ شِكايتى
ألا يَا رجائى أنتَ تكشفُ كربتى ... فهَبْ لى ذنوبى كلّها واقضِ حاجتى
أتيتُ بأعمالٍ قباحٍ رديئةٍ ... وما فى الورى[٥] عبدٌ جَنَى كجنايتى
أتحرقنى بالنار يا غايةَ المنى ... فأينَ رجائى ثمَّ أينَ مخافتى

ثم سقط على الأرض مغشيًّا عليه، فدنوت منه فإذا هو زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّٰه عنهم أجمعين، فرفعت رأسه فى حجرى، وبكيت فقطرت من دموعى على خده ففتح عينيه، وقال: مَنْ هذا الذى يهجم علينا؟ قلت: عُبَيْدُك الأصمعى، سيدى ما هذا البكاء والجزع، وأنت من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، أليس اللّٰه تعالى يقول: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[٦] ؟ فقال: هيهات هيهات يا أصمعى، إن اللّٰه خلق الجنة لمن أطاعه، ولو كان عبدًا حبشيًّا، وخلق النار لمن عصاه، ولو كان حرًّا قرشيًّا، أليس اللّٰه تعالى يقول: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾[٧] ؟

---

(١) سورة السجدة:١٨.
(٢) سورة فصلت:٤٠.
(٣) سورة الحجرات:١٣.
(٤) أخرجه: أحمد فى المسند ٢٢٩٧٨.
(٥) الورى: الخلق.
(٦) سورة الأحزاب:٣٣.
(٧) سورة المؤمنون:١٠١ - ١٠٣.

والفخر وإن نهت عنها الأخبار النبوية، ومَجَّتْهُ[(١)] العقول الذكية، إلا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعًا لا تكلفًا، وجبلّة[(٢)] لا تعلمًا، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم، ولا ينبه على مناقبهم سواهم.

وكان كعب بن زهير إذا أنشد شعرًا، قال لنفسه: أحسنت وجاوزت والله الإحسان. فيقال: له أتحلف على شعرك؟ فيقول: نعم لأنى أبصرُ به منكم. وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة فى الثناء عليها، ويقول عند إنشادها: أىُّ علمٍ بين جنبىّ! وأى لسان بين فكى! وقال الجاحظ: لو لم يصفِ الطبيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب. ولما أبدع ابن المقفع فى رسالته التى سماها باليتيمة تنزيهًا لها عن المثل سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله. وسنذكر فى هذا الباب إن شاء الله تعالى شيئًا من نظم البلغاء، ونثرهم فى الافتخار، ومن تفاخر منهم، بعون الله وفضله وتيسيره.

قال أبو بكر الهذلى: سايرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوى الفلاة[(٣)]، وعليه جبة خزّ وعمامة عدنية، وفى يده سوط، يكاد يمس الأرض، فلما رآه المنصور أمرنى بإحضاره، فدعوته وسألته عن نسبه وبلاده، وعن قومه وعشيرته، وعن ولاة الصدقة، فأحسن الجواب فأعجبه ما رأى منه. فقال: أنشدنى شعرًا. فأنشده شعرًا لأوس ابن حجر وغيره من الشعراء من بنى عمرو بن تميم، وحدَّثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله:

إن الأمورَ إذا أوردْتَها صدرت ... إنَّ الأمورَ لها وِرْدٌ وإصْدَارُ[(٤)]

فقال: ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت قال: كان أثقل العرب على عدوه وطأة، وأقراهم لضيفه، وأحوطهم من وراء جاره، اجتمعت العرب بعكاظ فكلهم أقروا له بهذه الخلال. فقال له: والله يا أخا بنى تميم لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك، ولكنى أحق ببيته منه، ومن شعر أبى الطحان:

وإنى من القومِ الذين هُمُ هُمُ ... إذا ماتَ منهم سيِّدٌ قام صاحبُهْ
نجومُ سماءٍ كلّما غابَ كوكبٌ ... بَدَا كوكبٌ تأوى إليه كواكبُهْ
أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم ... دجى الليل حتى نظمَ الجزْعَ ثاقبُهْ[(٥)]
وما زالَ فيهم حيث كان مسودا ... تسيرُ المنايا حيثُ سارَتْ ركائبُهْ

ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب، وقال: مَنْ ابنُ علىٍّ رضى الله تعالى عنه؟ فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنّ الله عزّ وجلّ لم يبعث بعثًا إلا جعل له عدوًّا من المجرمين، فأنا ابن على وأنت ابن صخر، وأمك هند، وأمى فاطمة، وجدتك قيلة، وجدتى خديجة. فلعن الله ألأمنا حسبًا، وأخملنا ذكرًا، وأعظمنا كفرًا، وأشدنا نفاقًا. فصاح أهل المسجد: آمين. آمين. فقطع معاوية خطبته، ودخل منزله.

وروى أن معاوية خرج فمرَّ بالمدينة، ففرق على أهلها أموالاً، ولم يحضر الحسن بن على رضى الله عنهما، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن على فقال له معاوية: مرحبًا برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا ليبخلنا. فقال له الحسن: ولِمَ ينفد ما عندك، وخراج الدنيا يجبى إليك؟ فقال معاوية: إنى قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة، وأنا ابن هند. فقال الحسن: قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة.

---

(١) مَجَّتْهُ: لفظته وكرهته.
(٢) الجبلة: الخلقة.
(٣) الفلاة: البرية.
(٤) إصدار: أى لكل ذاهب أوبة.
(٥) ثاقبُهْ: أى أنوارهم تكفى الصائغ لثقب الجزوع والجواهر.

ودخل الحسين يومًا على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر، ويقول: نحن ونحن، ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا، والحسين ساكت. فأذّن المؤذن، فلما قال: «أشهد أن محمدًا رسول اللّه». قال الحسين: يا يزيد جد من هذا؟ فخجل يزيد، ولم يرد جوابًا. وفي ذلك يقول على بن محمد بن جعفر:

لقد فاخرَتْنا من قريشٍ عصابَةٌ ... بمطِّ خدودٍ وامتدادِ أصابعِ

فلما تنازَعْنَا الفخارَ قضى لنا ... عليهم بما نهوى نداءُ الصوامعِ

ترانا سكوتًا والشهيدُ بفضلنا ... عليهم جهيرُ الصوت من كل جامعِ

وله أيضًا:

إنى وقومى من أنسابِ قومِهم ... كمسجد الخيف[1] من بحبوحةُ الخيفِ

ما علق السيف منا بابن عاشرة ... إلا وهمته أمضى من السيفِ

وتفاخر العباس بن عبد المطلب، وطلحة بن شيبة، وعلى بن أبى طالب، فقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال طلحة: أنا خادم البيت ومعي مفتاحه. فقال علي: ما أدرى ما تقولان أنا صليت إلى هذه القبلة قبلكما بستة أشهر، فنزلت: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾[2] الآية .

وتفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين. فقال الآخر: أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته. فأوحى اللّه تعالى إلى موسى عليه السلام: أما الذى عدَّ تسعة آباء مشركين فحقٌّ على اللّه أن يجعل عاشرهم فى النار، والذى انتسب إلى أب مسلم فحقٌّ على اللّه أن يجعله مع أبيه المسلم فى الجنة. قال سلمان الفارسى:

أبى الإسلامُ لا أبَ لى سواهُ ... إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك، فقال الفرزدق: أنا ابن محيى الموتى. فأنكر سليمان قوله فقال: يا أمير المؤمنين قال اللّه تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾[3] وجدى فدى المؤودات فاستحياهن، فقال سليمان: إنك مع شعرك لفقيه. وكان صعصعةُ جدُّ الفرزدق أولَ من فدى المؤودات[4] .

وللعباس ابن عبد المطلب:

إن القبائلَ من قريشٍ كلها ... ليرَوْنَ أنّا هامُ[5] أهلِ الأبطحِ

وترى لنا فضلاً على ساداتها ... فضلَ المنارِ على الطريقِ الأوضحِ

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المروانى من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر:

ألسنا بنى مروان كيف تبدَّلتْ ... بنا الحالُ أو دارَتْ علينا الدوائرُ

إذا وُلِدَ المولودُ منا تهلّلتْ ... له الأرضُ واهتَزَّتْ إليه المنابرُ

وكتب إليه يهجوه فيه ويسبه، فكتب إليه صاحب مصر: أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك والسلام[6] .

---

(١) مسجد الخيف: بمنى.
(٢) سورة التوبة: ١٩.
(٣) سورة المائدة: ٣٢.
(٤) المؤودات: اللاتى أعددن ليدفنّ أحياء.
(٥) الهامُ: الرأس والذروة.
(٦) المشهور فى الحادثة أن الخليفة الفاطمى شتم الأندلسى وأنف هذا الأخير.

وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضًا، فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن مخرمة الكندى، وخالد بن صفوان بن الأهتم فخاضوا فى الحديث وتذاكروا مصر واليمن. فقال إبراهيم بن مخرمة: يا أمير المؤمنين، إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا و لم يزالوا ملوكًا ورثوا الملك كابرًا عن كابر وآخرًا عن أول. منهم النعمان، والمنذر، ومنهم عياض صاحب البحرين، ومنهم مَنْ كان: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[1] وليس من شئ له خطر إلا إليهم ينسب، إن سئلوا أعطوا، وإن نزل بهم ضيف قروه، فهم العرب العاربة، وغيرهم المتعربة. فقال أبو العباس: ما أظن التميمى رضى بقولك. ثم قال: ما تقول أنت يا خالد؟ قال: إن أذِنَ لى أمير المؤمنين فى الكلام تكلمت. قال: تكلم ولا تَهَبْ أحدًا. قال: أخطأ المقتحم بغير علم، ونطق بغير صواب، وكيف يكون لقوم ليس لهم ألسن فصيحة، ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب، ولا جاءت بها سنة. يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر، ونفتخر عليهم بخير الأنام، وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فللّه المنّة به علينا وعليهم، فمنا النبى المصطفى، والخليفة المرتضى، ولنا البيت المعمور، وزمزم، والحطيم، والمقام، والحجابة، والبطحاء، وما لا يحصى من المآثر. ومنا الصديق والفاروق وذو النورين، والرضا، والولى، وأسد اللّه، وسيد الشهداء، وبنا عرفوا الدين، وأتاهم اليقين، فمن زاحمنا زاحَمْنَاه، ومن عادانا اصطلمناه[2] . ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال: ألك علم بلغة قومك؟ قال: نعم. قال: فما اسم العين عندكم؟ قال: الجمجمة، قال: فما اسم السن؟ قال: الميدن، قال: فما اسم الأذن؟ قال: الصنارة. قال: فما اسم الأصابع؟ قال: الشناتر. قال: فما اسم الذئب؟ قال: الكنع. قال: أفعالكم أنت بكتاب اللّه عز وجل؟ قال: نعم. قال: فإن اللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3] وقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[5] فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل، ألَمْ تر أن اللّه تعالى قال: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾[6] و لم يقل الجمجمة بالجمجمة؟ وقال تعالى: ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ و لم يقل الميدن بالميدن؟ وقال تعالى: ﴿وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ﴾ و لم يقل: الصنارة بالصنارة؟ وقال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾[7] و لم يقل: شناتيرهم فى صناراتهم؟ وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾[8] و لم يقل: فأكله الكَنع؟ ثم قال لإبراهيم: إنى أسألك عن أربع إن أقررت بهن قهرت، وإن جحدتهن كفرت. قال: وما هُنَّ. قال: الرسول منا أو منكم؟ قال: منكم. قال: فالقرآن أنزل علينا أو عليكم؟ قال عليكم. قال: فالمنبر فينا أو فيككم؟ قال: فيكم. قال: فالبيت لنا أو لكم؟ قال: لكم. قال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم، بل ما أنت إلا سائس قرد، أو دابغ جلد، أو ناسج بُرد. قال: فضحك أبو العباس، وأقر لخالد وحباهما جميعًا.

وقال بشار بن برد يفتخر:

إذا نحن صلنا صولةً مُضريَّةً ... هتَكْنا حجابَ الشمسِ أو قطرَتْ دمَا
إذا ما أعَرْنَا سيدًا من قبيلةٍ ... ذرا[9] منبر صلى علينا وسلّما

وقال السموأل بن عادياء:

إذا المرءُ لم يُدَنَّسْ من اللؤمِ عِرضُهُ ... فكل رداءٍ يرتديهِ جميلُ

---

(١) سورة الكهف:٧٩.
(٢) اصطلمناه: استأصلناه.
(٣) سورة يوسف:٢.
(٤) سورة الشعراء:١٩٥.
(٥) سورة إبراهيم:٤.
(٦) سورة المائدة:٤٥.
(٧) سورة البقرة:١٩.
(٨) سورة يوسف:١٧.
(٩) أى: قمة المنبر ومرتفعه.

وإنْ هو لم يحمِلْ على النفسِ ضَيْمَهَا فليسَ إلى حُسْنِ الثناء سبيلُ
تعيِّرُنا أنّا قليلٌ عَديدُنا فقلْتُ لها إنَّ الكِرَامَ قَليلُ
وما قلَّ مَنْ كانت بقاياهُ مثلنا شبابٌ تسامى للعُلا وكهولُ
وما ضرَّنا أنّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرينَ ذَليلُ
لنا جبلٌ يحتلُّه مَنْ نجيرُهُ منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كَليلُ
رسا أصلُه تحتَ الثرى وسَمَا بهِ إلى النجْمِ فَرْعٌ لا يزالُ طويلُ
وإنّا أناسٌ لا نرى القتلَ سُبَّةً[1] إذا مَا رأتْهُ عامرٌ وسَلُولُ
يُقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لَنَا وتكرهُهُ آجَالُهُمْ فتطولُ
وما ماتَ مِنّا سيِّدٌ حَتْفَ أنفِهِ[2] ولا طلَّ منا حيثُ كانَ قتيلُ
تسيلُ على حَدِّ الظّباتِ نفوسُنَا وليسَتْ على غَيْرِ الظّباتِ تسيلُ
ونحنُ كماءِ المزْنِ ما فى نصابِنَا كهامٌ[3] ولا فينا يُعَدُّ بخيلُ
وننكرُ إن شئنا على الناسِ قولَهم ولا يُنكِرُونَ القولَ حين نقولُ
إذا سيِّدٌ منّا خَلاَ قَامَ سَيِّدٌ قؤولٌ بما قالَ الكرامُ فعولُ
وما خمدَتْ نارٌ لنا دونَ طارقٍ ولا ذَمَّنَا فى النازلينَ نزيلُ
وأيَّامُنَا مشهورةٌ فى عدوِّنَا لها غُررٌ مشهورةٌ وحجُولُ
وأسيافُنَا فى كلِّ شرقٍ ومغربٍ بها من قِراعِ الدارعينَ فُلولُ
معوَّدةٌ أن لا تسلَّ نصالُها فتغمد حتى يستباحَ قتيلُ
سلى إن جهلتِ الناس عنا وعنهم فليسَ سواءً عَالِمٌ وجهولُ
فإنّ بنى الريانِ قطبٌ لقومهم تدورُ رَحاهم حولهم وتجولُ

ولما قدم وفد تميم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومعهم خطيبهم وشاعرهم خطب خطيبهم فافتخر، فلما سكت أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم، فخطب ثابت بن قيس فأحسن، ثم قام شاعرهم وهو الزبرقان بن بدر فقال:

نحنُ الملوكُ فَلا حَيٌّ يفاخرنا فينا العلاءُ وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ
ونحنُ نُطعمهم فى القحطِ مَا أكلوا من العبيط[4] إذا لم يؤنَسِ الفزعُ
وننحرُ الكومَ[5] عبطًا فى أرومتنا للنازلين إذا ما أنزلوا شبعُوا
تلكَ المكارمُ حُزْنَاهَا مُقَارعةً إذا الكرامُ على أمثالها اقترَعُوا

ثم جلس. فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لحسان بن ثابت: «قم». فقام فقال:

إنّ الذوائبَ من فهرٍ وإخواتهم قد بيَّنوا سننًا للناس تتبعُ

---

(١) أى: لا يسوؤنا الموت قتلاً.
(٢) أى: أى فى فراشه.
(٣) كهامٌ: عيى لا غناء عنده.
(٤) العبيط: اللحم الطرى.
(٥) الكومُ: الإبل.

يَرضى بهـا كـلُّ مَنْ كـانتْ سريرتَه ... تقوى الإلـهِ وبـالأمرِ الـذى شـرعُوا
قـومٌ إذا حـاربُوا ضـرّوا عدوَّهـم ... أو حاولوا النفـعَ فـى أشياعِهم نفعُوا
سجيةٌ(١) تلـك منهـم غـيرُ مُحْدَثَـةٍ ... إنَّ الخلائـقَ فـاعلمْ شَـرَّهَا البِـدعُ
لـو كـان فـى النـاس سباقون بعدهـم ... فكـل سبقٍ لأدنـى سـبقهم تبـعُ
لا يرفـعُ النـاسُ مـا أوهـت أكفهـم ... عنـدَ الدفـاعِ ولا يوهـونَ مـا رفعُـوا
فـلا يضنّـون عـن جـارٍ بفضلِهـمْ ... ولا يمسُّـهم فـى مطمـعٍ طمـعُ
خـذ منهـم مـا أتـوا عفوًا إذا عطفـوا ... ولا يكُـنْ همُّـك الأمـرَ الـذى منعُـوا
أكـرمْ بقـومِ رسـولَ اللّـه شـيعتهم ... إذا تفرقَـتِ الأهـواءُ والشـيعُ

فقال التميميون عند ذلك: وربكم أن خطيب القوم أخطب من خطيبنا، وأن شاعرهم أشعر من شاعرنا، وما انتصفنا ولا قاربنا.

وقال شاعر من بنى تميم:

أيبغـى آلُ شـدادٍ علينـا ... ومـا يرعـى لشـدادٍ فصيـلُ
فـإن تَغمـدْ مناصلنـا نجدْهـا ... غلاظًـا فـى أنـاملِ مَـنْ يصـولُ

وقال سالم بن أبى وابصة:

عليـك بـالقصدِ فمـا أنـت فاعلَـه ... إن التخلـق يـأتى دونـه الخلـقُ
وموقفٌ مثـلُ حـدِّ السيفِ قمتُ بـه ... أحمى الذمـار(٢) وترمينى بـه الحـدقُ
فمـا زلَقْـتُ ولا أبديـتُ فاحشـةً ... إذا الرجـال علـى أمثالهـا زلَقُـوا

وأما التفاضل والتفاوت

فقد روى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل قال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾(٣) لأنهما كانا من خيار الصحابة، وأبواهما أعدى عدوًا للّه ولرسوله صلى اللّه عليه وسلم.

ومن كلام على رضى اللّه عنه لمعاوية رضى اللّه عنه: أما قولك إنّا بنو مناف فكذلك نحن، ولكن ليس أميَّة كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبى طالب.

وقال أحمد بن سهل: الرجال ثلاثة: سابق، ولاحق، وماحق، فالسابق: الذى سبق بفضله، واللاحق: الذى لحق بأبيه فى شرفه، والماحق: الذى محق شرف آبائه.

وقيل: إن عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث، وأشعب الطماع، وربتهما. قال أشعب: فكنت أسفل وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين.

وقال أبو العواذل زكريا بن هارون:

علـى وعبـد اللّـه بينهمـا أب ... وشـتّانَ مـا بـين الطبـائعِ والفعـلِ

---

(١) السجيةُ: الطبع.

(٢) الذمار: ما عليك حمايته.

(٣) سورة الروم: ١٩.

ألم ترَ عبدَ اللّه يلحَى على النـدَى   عليًّـا ويلحَـاهُ علـىٌّ علـى البخــلِ

وحجَّ أبو الأسود الدؤلى بامرأته وكانت شابة جميلة، فعرض لها عمر بن أبى ربيعة فغازلها فأخبرت أبا الأسود فأتاه يقول:

وإنـى لينهـانى عـن الجهـلِ والخنـا   وعـن شَـتْمِ أقـوامٍ خلائـقُ أربـعُ
حيـاءٌ وإسـلامٌ وتقـوَى وإننـى   كريـمٌ ومثلـى مـن يضـرُّ وينفـعُ
فشـتّانَ مـا بينـى وبينَـك إننـى   علـى كـل حـالٍ أستقيمُ وتضلـعُ

وقال ربيعة البرقى:

لشتّانَ ما بينَ اليزيدَيْنِ فِى النَّدَى   يزيـدُ سُـليمٌ والأعـزُّ بـنُ حـاتمِ
يزيـد سُـليم سـالَمَ المـالِ والفتـى   فَتَـى الأزدِ للأمـوالِ غـيرُ مُسَـالمِ
فهـمٌّ الفتـى الأزدى إتـلافُ مالِـهِ   وهـمُّ الفتى القَيْسىِّ جَمْعُ الدراهـمِ
فـلا يحسـبُ القَيسـىُّ أنّـى هَجَوْتُـهُ   ولكنّنـى فَضَّلْـتُ أهْـلَ المكـارمِ

وقال عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر فى أخيه الحسين:

يقـولُ أنَـا الكبـيرُ فعظّمونِـى   ألا ثكَلَتْـكَ أمُّـكَ مِـن كبـيرِ
إذا كـانَ الصغـيرُ أعـمَّ نفَـاً   وأجلَـدَ عنـدَ نائبـةِ الأمـورِ
ولم يـأتِ الكبـيرُ بيـومِ خـيرِ   فمـا فضـلُ الكبـيرِ علـى الصغـيرِ

واللّه أعلم بالصواب، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب التاسع والعشرون فى الشرف والسؤدد وعلو الهمة

قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «مَنْ رزقه اللّٰه مالاً فبذل معروفه، وكف أذاه، فذلك السيد». وقيل لقيس ابن عاصم: بِمَ سُدْتَ قومك؟ قال: لم أخاصم أحدًا إلا تركت للصلح موضعًا. وقال سعيد بن العاص: ما شاتمت رجلاً مذ كنت رجلاً، لأنى لم أشاتم إلا أحد الرجلين: إما كريم فأنا أحق أن أجله، وإما لئيم فأنا أولى أن أرفع نفسى عنه. وقالوا: مِن نَعْتِ السيد أن يكون يملأ العينَ جمالاً، والسَّمْعَ مقالاً. وقيل: قدم وفدٌ من العرب على معاوية وفيهم الأحنف بن قيس، فقال الحاجب: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه. فلما وصلوا إليه، قال الأحنف: لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردفت، ونازلة نزلت، ونائبة نابت، والكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين. فقال له معاوية: حسبك يا أبا بحر، فقد كفيت الشاهد والغائب.

وقال رجل للأحنف: بم سُدْتَ قومك وما أنت بأشرفهم بيتًا، ولا أصبحهم وجهًا، ولا أحسنهم خلقًا؟ فقال: بخلاف ما فيك. قال: وما ذاك؟ قال: تركى من أمرك ما لا يعنينى كما عناك من أمرى ما لا يعنيك. وقيل: السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادى، وعلى الأعداء كالليث العادى.

وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسى وسؤدده أنه قدم من سفر فجمعه والشماخ بن ضرار المزنى الطريق، فتحادثا، فقال له عرابة: ما الذى أقدمك المدينة يا شماخ؟ قال: قدمتها لأمتار[1] منها فملأ له عرابة رواحله بُرًّا وتمرًا، وأتحفه بتحف غير ذلك. فأنشد يقول:

رأيتَ عرابةَ الأوسيَّ يسمُو ... إلى الخيراتِ منقطعَ القرينِ
إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ بمجْدٍ ... تَلَقّاهَا عَرابةُ باليمينِ

وأما علوّ الهمة فهو أصل الرياسة

وممن علت همته، وشرفت نفسه، عمارة بن حمزة. قيل: إنه دخل يومًا على المنصور وقعد فى مجلسه فقام رجل، وقال: مظلوم يا أمير المؤمنين. قال: ومَنْ ظلمك؟ قال: عمارة بن حمزة غصبنى ضيعتى. فقال المنصور: يا عمارة قم فاقعد مع خصمك. فقال: ما هو لى بخصم، إن كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها، وإن كانت لى فقد وهبتها له، ولا أقوم من مقام شرفنى به أمير المؤمنين ورفعنى، وأقعد فى أدنى منه لضيعة.

وتحدث السفاح هو وأم سلمة يومًا فى نزاهة نفس عمارة وكبره فقالت له: ادع به وأنا أهب له سبحتى هذه فإن ثمنها خمسون ألف دينار فإن هو قبلها علمنا أنه غير نزه[2] النفس. فوجه إليه فحضر فحادثه ساعة ثم رمت إليها بالسبحة وقالت: هى من الطُّرف، وهى لك فجعلها عمارة بين يديه، ثم قام وتركها. فقالت: لعله نسيها. فبعثت بها إليه مع خادم، فقال للخادم: هى لك. فرجع الخادم. فقال: قد وهبها لى. فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه.

وأهدى عبيد اللّٰه بن السرى إلى عبد اللّٰه بن طاهر لما ولى مصر مائة وصيف، مع كل وصيف ألف دينار، ووجه إليه بذلك ليلاً فرده وكتب إليه: لو قبلت هديتك ليلاً لقبلتها نهارًا ﴿**فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ**﴾[3] .

---

(١) لأمتار: لأجلب الميرة وهى الطعام الذى يحفظ لأيام الحاجة.

(٢) النزاهة: العفة.

(٣) سورة النمل: ٣٦.

وكان سبب فتح المعتصم عمورية أن امرأة من الثغر سُبيت فنادت: وامحمداه، وامعتصماه. فبلغه الخبر، فركب لوقته، وتبعه الجيش. فلما فتحها قال: لبيك أيتها المنادية.

وكان سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة، وقيل له فى مرضه: إن المريض يستريح إلى الأنين، وإلى شرح ما به إلى الطبيب. فقال: أما الأنين فهو جزع وعار، واللهِ لا يسمع اللّهُ منى أنينًا فأكون عنده جزوعًا؛ وأما وصف ما بى إلى الطبيب فوالله لا يحكم غير الله فى نفسى، إن شاء أمسكها، وإن شاء قبضها.

ومن كبر النفس ما روى عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة واحتاج، فكان يأكل الحنظل حتى قتله، و لم يخبر أحدًا بحاجته.

ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار وحمى والذمار[1] وكانت العرب ترى ذلك دينًا تدعو إليه، وحقًا واجبًا تحافظ عليه.

وكان أبو سفيان بن حرب، إذا نزل به جار قال: يا هذا إنك اخترتنى جارًا، واخترت دارى دارًا، فجناية يدك علىّ دونك، وإن جنت عليك يد فاحتكم حكم الصبى على أهله.

وكان الفرزدق يجير مَنْ عاذ بقبر أبيه غالب بن صعصعة، فممن استجار بقبر أبيه فأجاره امرأة من بنى جعفر ابن كلاب خافت لما هجا الفرزدق بنى جعفر أن يسميها وينسبها، فعاذت بقبر أبيه، فلم يذكر لها اسمًا ولا نسبًا، ولكن قال:

عجوزٌ تَصَلّى الخمسَ عَاذَتْ بغالبٍ ... فلا والذى عاذَتْ بِه لا أضيرها

وقال مروان بن أبى حفصة:

هُمُ يمنعُونَ الجارَ حتى كأنّما ... لجارِهِمُ بين السَّمَّاكَيْن[2] منزلُ

وقال ابن نباتة:

ولو يكونُ سوادُ الشعرِ فى ذممٍ ... ما كان للشَّيْبِ سلطانٌ على القممِ

وقيل: إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبى صفرة وعذبه واستأصل موجوده، وسجنه، فتوصل يزيد بحسن تلطفه، وأرغب السجان واستماله وهرب هو والسجان، وقصدا الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان. وكان الخليفة فى ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك، فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه، وأحسن إليه، وأقامه عنده. فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن، وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخى أمير المؤمنين، وولى عهد المسلمين، وأن أمير المؤمنين أعلى رأيًا. فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك، فكتب سليمان إلى أخيه يقول:

يا أمير المؤمنين، إنى ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه وأبوه وإخوته من صنائعنا، قديمًا وحديثًا، و لم أجرْ عدوًا لأمير المؤمنين، وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلمًا، ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم، وقد صار إلىّ واستجار بى فأجرته، وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يخزينى[3] فى ضيفى فليفعل، فإنه أهل الفضل والكرم.

---

(١) الذمار: ما يلزم حفظه والدفاع عنه.

(٢) سمكة سمكًا: رفعه فارتفع والسَّمك: السقف، أو أعلى البيت إلى أسفله.

(٣) لا يخزينى: لا يجلب لى العار.

فكتب إليه الوليد: إنه لا بد أن ترسل إلىّ يزيد مغلولاً مقيدًا. فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده، ودعا يزيد بن المهلب فقيده، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعًا بغلين، وأرسلهما إلى أخيه الوليد، وكتب إليه:

أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان، ولقد هممت أن أكون ثالثهما، فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله، ثم اجعل يزيد ثانيًا، واجعلني إذا شئت ثالثًا ، والسلام.

فلما دخل يزيد بن المهلب، وأيوب بن سليمان، فى سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء، وقال: لقد أسأنا إلى أبى أيوب، إذا بلغنا به هذا المبلغ، فأخذ يزيد ليتكلم وليحتج لنفسه، فقال له الوليد: ما يحتاج إلى كلام فقد قبلنا عذرك، وعلمنا ظلم الحجاج. ثم إنه أحضر حدّادًا، وأزال عنهما الحديد، وأحسن إليهما، ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم، ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم، وردّهما إلى سليمان، وكتب كتابًا إلى الحجاج يقول له: لا سبيل لك على يزيد بن المهلب، فإياك أن تعاودنى فيه بعد اليوم.

فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك، وأقام عنده فى أعلى المراتب، وأرفع المنازل.

وحكى أن رجلاً من الشيعة كان يسعى فى فساد الدولة فجعل المهدى لمن دلَّ عليه أو أتى به مائة ألف درهم ، فأخذه رجل من بغداد فأيس[1] من نفسه، فمر به معن بن زائدة، فقال له: يا أبا الوليد، أجرنى أجارك الله. فقال معن للرجل: ما لك وما له؟ فقال: إن أمير المؤمنين طالبه. قال: خلِّ سبيله. قال: لا أفعل. فأمر معن غلمانه فأخذوه غصبًا، وأردفه بعضهم خلفه، ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدى بالقصة، فأرسل خلف معن فأحضره، فلما دخل عليه قال له: يا معنى أتجير علىَّ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قتلت فى يوم واحد فى طاعتكم خمسة آلاف رجل، هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيه طاعتى، أفما ترونى أهلاً أن تجيروا إلىَّ رجلاً واحدًا استجار بى. فاستحيا المهدى وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه وقال: قد أجرنا مَنْ أجرت يا أبا الوليد. قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يصل مَنِ استجار بى فيكون قد أجاره وحباه، قال: قد أمرت له بخمسين ألف درهم. فقال معن: يا أمير المؤمنين ينبغى أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية، وأن ذنب الرجل عظيم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل. قال: قد أمرت له بمائة ألف درهم. فرجع معن إلى منزله، ودعا بالرجل، ودفع له المال، ووعظه، وقال: لا تتعرض لمساخط الخلفاء.

وكان جعفر بن أبى طالب يقول لأبيه: يا أبت أنى لا أستحى أن أطعم طعامًا، وجيرانى لا يقدرون على مثله. فكان أبوه يقول: إنى لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب.

وسقط الجراد قريبًا من بيت بعض العرب، فجاء أهل الحى فقالوا: نريد جارك، فقال: أما إذ جعلتموه جارى، فوالله لا تصلون إليه، وأجاره حتى طار، فسمى: مجير الجراد، وقيل: هو أبو حنبل.

والحكايات فى معنى ذلك كثيرة، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) فأيس: من اليأس وفقدان الأمل.

الباب الثلاثون فى الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين رضى اللّٰه تعالى عنهم أجمعين

اعلم أن أفضل الخلق بعد رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم على رضى اللّٰه عنهم أجمعين، وفضائلهم أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، وإنى واللّٰه أحبهم ، وأحب من يحبهم، واسأل اللّٰه أن يميتنى على محبة النبى صلى اللّٰه عليه وسلم ومحبتهم، وأن يحشرنا فى زمرتهم وتحت ألويتهم إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير:

إنى أحبُّ أبَا حَفْصٍ[1] وشيعَتَهُ ... كَما أُحِبُّ عتيقًا[2] صاحبَ الغَارِ
وقد رضيتُ عليًا قدوةً عَلَمًا ... وما رضيتُ بقتلِ الشيخِ[3] فِى الدَّارِ
كُلُّ الصحابةِ سَاداتى ومعتقدى ... فهل عَلَىَّ بهذا القولِ مِن عَارِ؟

وروى عن أبى هريرة رضى اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟» فقال أبو بكر: أنا يا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم. فقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم :« فمن أطعم اليوم مسكيناً؟» فقال أبو بكر: أنا، قال:« فمن عاد اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر: أنا . فقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «ما اجتمعن فى أحد إلا دخل الجنة».

وقال:« لو كان بعدى نبياً لكان عمر» وقال له النبى صلى اللّٰه عليه وسلم : «والذى بعثنى بالحق بشيرًا ما سلكتَ واديًا، إلا سلك الشيطان واديًا غيره». ولما أسلم رضى اللّٰه عنه قال: يا رسول اللّٰه ألسنا على الحق؟ قال: «بلى». قال: والذى بعثك بالحق نبيًا لا نعبد اللّٰه سرًّا بعد هذا اليوم.

ولما قدم عمر رضى اللّٰه عنه الشام وقف على طور سيناء فأرسل البطريق عظيمًا لهم، وقال: انظر ملك العرب، فرآه على فرس، وعليه جبة صوف مرقعة، يستقبل الشمس بوجهه ومخلاته فى قربوس[4] السرج، وعمر يدخل يده فيها، ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ويلوكها، فوصفه للبطريق فقال: لا نرى بمحاربة هذا طاقة أعطوه ما شاء.

وأما أمير المؤمنين عثمان رضى اللّٰه تعالى عنه، ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة، فهو جامع القرآن، ومن استحيت منه ملائكة الرحمن رضى اللّٰه عنه.

وقال جميع بن عمير: دخلت على عائشة رضى اللّٰه عنها فقلت لها: أخبرينى، مَنْ كان أحبَّ الناسِ إلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم؟ قالت: فاطمة. قلت: إنما أسألك عن الرجال. قالت: زوجها، فواللّٰه لقد كان صوَّامًا قوَّامًا، ولقد سالت نفس رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فى يده فردها إلى فيه. قلت: فما حملكِ على ما كان[5] ؟ فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت: أمر قُضِى علىّ.

وقال معاوية لضرار بن حمزة الكنانى: صف لى عليًا، فاستعفى فألح عليه. فقال: أمَّا إذنْ فلا بدّ، إنه واللّٰه كان بعيد المدى، شديد القوى، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته. كان واللّٰه غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويعاتب نفسه، يعجبه من اللباس ما

---

(١) أبَا حفصٍ: عمر بن الخطاب.
(٢) عتيقًا: أبو بكر الصديق.
(٣) الشيخِ: عثمان بن عفان.
(٤) قربوس: ناحية فى السرج.
(٥) يلمح إلى حادثة الجمل.

قصر، ومن الطعام ما خشن. وكان والله يجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا، وقربه منا لا نكلمه هيبة له. يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوىّ فى باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله. فأشهد الله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثل فى محرابه قابضًا على لحيته يتململ تململِ الخائف، ويبكى بكاء الحزين، فكأنى الآن أسمعه يقول: يا دنيا إلىّ تعرّضتِ، أم إلىّ تشوّقتِ. هيهات هيهات، غُرِّى غيرى لقد أبنتك[١] ثلاثًا لا رجعة لى فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير. آهِ من قلة الزاد، ووحشة الطريق. قال: فوكفت دموع معاوية حتى ما يملكها على لحيته وهو يمسحها، وقد اختنق القوم بالبكاء. وقال: رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزنى عليه والله حزن من ذُبح ولدها فى حِجرها فلا ترقأ[٢] عبرتها، ولا تسكن حيرتها. ثم قام فخرج.

وقيل: أول من سلَّ سيفًا فى سبيل الله تعالى الزبير بن العوام رضى الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلاً صائح، فقال: قُتل محمد. فخرج متجردًا وسيفه معه صلتًا[٣]، فتلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ما لك يا زبير؟» قال: سمعت أنك قتلت. قال: «فماذا أردت أن تصنع؟» قال: أردت – والله – أن أستعرض على أهل مكة، وروى: أخبط بسيفى مَنْ قدرت عليه. فضمَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعطاه إزارًا له فاستتر به وقال له: «أنت حواريى، ودعا له». قال الأوزاعى: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت مالِهِ منها درهم، بل كان يتصدق بها. وباع دارًا له بستمائة ألف درهم. فقيل له: يا أبا عبد الله غُبنت. قال: كلا والله، إنى لم أغبن أُشهدكم أنها فى سبيل الله تعالى.

وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فقال: مَنْ حملك على ظهره؟ وكان حمله على ظهره طلحة، حتى استقل على الصخرة. قال: «طلحة». قال: أقرئه السلام، وأعلمه أنى لا أراه يوم القيامة فى هول من أهوالها إلا استنقذته منه. من هذا الذى على يمنيك؟ قال: «المقداد ابن الأسود» قال: إن الله يحبه، ويأمرك أن تحبه. من هذا الذى بين يديك يتقى عنك؟ قال: «عمار بن ياسر»، قال: بشره بالجنة. حرمت النار على عمار.

ومَرَّ أبو ذر على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل عليه السلام فى صور دحية الكلبى فلم يسلم. فقال جبريل: هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه. فقال: «أتعرفه يا جبريل؟» قال: والذى بعثك بالحق نبيًّا لهو فى ملكوت السموات السبع، أشهر منه فى الأرض. قال: «بم نال هذه المنزلة؟» قال: بزهده فى هذه الحطام الفانية.

وقال ابن عمر رضى الله عنهما: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء»، ثم قرأ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾[٤] الآية

وقال أبو بكر السفاح لأبى بكر الهذلى: بِمَ بلغ الحسن ما بلغ؟ قال: جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثنتى عشرة سنة، لم يجاوز سورة إلى غيرها، حتى يعرف تأويلها، ولم يقلب درهمًا قط فى تجارة، ولم يلِ عملاً لسلطان، ولم يأمر بشئ حتى يفعله، ولم ينه عن شئ حتى يدعه. قال السفاح: بهذا بلغ.

وقال الجاحظ: كان الحسن يستثنى من كل غاية، فيقال: فلان أزهد الناس إلا الحسن، وأفقه الناس إلا الحسن، وأفصح الناس إلا الحسن، وأخطب الناس إلا الحسن.

وقال بعضهم: كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس؛ لأن عمر ملك الدنيا فزهد فيها، وأويس لم يملكها. فقيل: لو ملكها لفعل كما فعل عمر، فقال: ليس من لم يجرب كمن جرب.

---

(١) أبنتك: أبعدتك وطلّقتك.
(٢) لا ترقأ: لا تجف ولا تنقطع.
(٣) صلتًا: حادًا.
(٤) سورة البقرة: ٢٥١.

وقال أنس فى ثابت البنانى: إن للخير مفاتيح، وإن ثابتًا من مفاتيح الخير. وكان حبيب الفارسى من أخيار الناس، وهو الذى اشترى نفسه من ربه اربع مرات، بأربعين ألفًا، كان يخرج البدرة[١] فيقول: يا رب اشتريت نفسى منك بهذه، ثم يتصدق بها.

وكان أيوب السختيانى من أزهد الناس وأورعهم، ذكر عند أبى حنيفة رحمه اللّه تعالى فقال: رحم اللّه أيوب، لقد شهدت منه مقامًا عند منبر النبى لا أذكر ذلك المقام إلا اقشعر جلدى. وقال سفيان الثورى: جهدت جهدى على أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر.

وكان الخليل بن أحمد النحوى من أزهد الناس، وأعلاهم نفسًا، وكان الملوك يقصدونه، ويبذلون له الأموال، فلا يقبل شيئًا، وكان يحج سنة، ويغزو سنة حتى مات رحمه اللّه.

وقال ابن خارجة: جالست ابن عون عشرين سنة فما أظن الملكين كتبا عليه شيئًا. وروى أنه غسل كرز بن وبرة فلم يوجد على جسده مثال لحم[٢] . وعن محمد بن الحسن، قال: كان أبو حنيفة واحد زمانه، ولو انشقت عنه الأرض، لانشقت عن جبل من الجبال، فى العلم والكرم والزهد والورع. وحجَّ وكيع بن الجراح أربعين حجة، ورابط فى عبادان أربعين ليلة، وختم بها القرآن أربعين ختمة، وتصدق بأربعين ألفًا، وروى أربعة آلاف حديث، وما رؤى واضعًا جنبه قط. ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبى رباح، وهو أسود مفلفل الشعر يفتى الناس فى الحلال والحرام فتمثل يقول: تلك المكارم لا قعبان[٣] من لبن.

ومن مشايخ الرسالة رضوان اللّه عليهم أجمعين، سيدى أبو عبد اللّه محمد بن إسماعيل المغربى، أستاذ إبراهيم بن شيبان كان عجيب الشأن، لم يأكل مما وصلت إليه أيدى بنى آدم سنين كثيرة، وكان أكله من أصول العشب شيئًا تعوّد أكله.

ومنهم سيدى فتح بن شخرف بن داود ويكنى أبا نصر، من الزاهدين الورعين لم يأكل الخبز ثلاثين سنة. قال أحمد بن عبد الجبار: سمعت أبى يقول: صحبت فتح بن شخرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه إلى السماء ثم رفعها يومًا فقال: طال شوقى إليكَ، فعجِّلْ قدومي عليك. وقال محمد بن جعفر: سمعت إنسانًا يقول: غسلنا فتح ابن شخرف فرأينا مكتوبًا على فخذه: لا إله إلا اللّه، فتوهمناه مكتوبًا؛ وإذا هو عرق داخل الجلد، ومات ببغداد فصلى عليه ثلاثًا وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحو من خمسة وعشرين ألفًا إلى الثلاثين ألفًا.

ومنهم سيدى فتح بن سعيد الموصلى يكنى أبا نصر، من أقران بشر الحافى وسرى السقطى كبير الشأن فى باب الورع والمجاهدات. قال إبراهيم بن نوح الموصلى: رجع فتح الموصلى إلى أهله بعد صلاة العتمة، وكان صائمًا فقال: عشونى، فقالوا: ما عندنا شئ نعشيك به، فقال: ما بالكم جلوس فى الظلمة؟ فقالوا: ما عندنا شئ نسرج به. فجعل يبكى من الفرح ويقول: إلهى مثلى يترك بلا عشاء ولا سراج، بأى يد[٤] كانت منى، فما زال يبكى إلى الصباح. وقال فتح: رأيت بالبادية غلامًا لم يبلغ الحلم وهو يمشى وحده وحرك شفتيه فسلمت عليه، فرد علىّ السلام. فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى بيت ربى عز وجل. فقلت: بماذا تحرك شفتيك؟ قال: أتلو كلام ربى. فقلت: إنه لم يجر عليك قلم التكاليف. قال: رأيت الموت يأخذ من هو أصغر سنًا منى. فقلت: خطاك قصيرة وطريقك بعيدة. فقال: إنما علىَّ نقل الخطا، وعليه البلاغ. فقلت: أين الزاد والراحلة؟ قال: زادى يقينى، وراحلتى رجلاى. فقلت: أسألك عن الخبز والماء؟ قال: يا عماه أرأيت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك إلى منزله؟ قلت: لا. فقال: إن سيدى دعا عباده إلى بيته، وأذِنَ لهم فى زيارته فحملهم ضعف

(١) البدرة: كيس يضم: عشرة آلاف درهم.
(٢) مثال لحم: كناية عن نحوله.
(٣) قعبان: أقداح.
(٤) بأى يد: مكرمة وصنيع.

يقينهم على حَمْل أزوادهم، وإنى استقبحت ذلك فحفظت الأدب معه أفتراه يضيعنى؟ فقلت: حاشا وكلا. ثم غاب عن بصرى فلم أره إلا بمكة، فلما رآنى قال: أيها الشيخ بعد على ذلك الضعف من اليقين.

ومنهم سيدى أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الجبرى، صحب شاه الكرمانى ويحيى بن معاذ الرازى. وكان يقال: فى الدنيا ثلاثة لا رابع لهم: أبو عثمان الجبرى بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله الحلاج بالشام. ومن كلامه: لا يكمل الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء: المنع، والعطاء، والعز، والذل. وقال: منذ أربعين سنة ما أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته، ولا نقلنى إلى شئ فسخطته.

ومنهم سيدى سليمان الخُواص يكنى: أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين، والعباد الموصوفين، سكن الشام، ودخل بيروت، وكان أكثر مقامه ببيت المقدس. وقيل: اجتمع حذيفة المرعشى، وإبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط فتذاكروا الفقر والغنى، وسليمان ساكت فقال بعضهم: الغنيّ: من كان له بيت يسكنه، وثوب يستره، وسداد[1] من عيش يكفه عن فضول الدنيا. وقال بعضهم: الغنيُّ: مَنْ لم يحتج إلى الناس. فقيل لسليمان: ما تقول أنت فى ذلك؟ فبكى وقال: رأيت جوامع الغنى فى التوكل، ورأيت جوامع الفقر فى القنوط، والغنيُّ حق الغنى مَنْ أسكن الله فى قلبه من غناه يقينًا، ومن معرفته توكلاً، ومن قسمته رضًا، فذلك الغنيّ حق الغنى، وإن أمسى طاويًا، وأصبح معوزًا، فبكى القوم من كلامه.

ومنهم سيدى أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الدارانى أحد رجال الطريقة قدّس الله سره؛ كان من أجلِّ السادات وأرباب الجد فى المجاهدات، ومن كلامه: مَنْ أحسن فى نهاره كُفِى فى ليله، ومَنْ أحسن فى ليله كُفِى فى نهاره. ومَنْ صدق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلبًا بشهوة تركت له. وقال: لكل شئ علامة، وعلامة الخذلان ترك البكاء. وقال: لكل شئ صدأ، وصدأ نور القلب شبع البطن. وقال أحمد بن أبى الحوارى: شكوت إلى أبى سليمان الوسواس، فقال: إذا أردت أن ينقطع عنك؛ فأى وقت أحسست به فافرح، فإنك إذا فرحت به انقطع عنك، لأنه لا شئ أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن، وإذا اغتممت به زادك. وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى: اجتمعوا ليلاً على أبى سليمان الدارانى فسمعوه يقول: يا رب إن طالبتنى بسريرتى، طالبتك بتوحيدك، وإن طالبتنى بذنوبى طالبتك بكرمك، وإن جعلتنى من أهل النار اخبرت أهل النار بحبى إياك. وقال على بن الحسين الحداد: سألت أبا سليمان بأى شئ تعرف الأبرار؟ قال: بكتمان المصائب، وصيانة الكرامات. وروى عنه أنه قال: نمت ليلة عن وردى فإذا حوراء تقول لى: أتنام وأنا أربى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام؟!

ومنهم سيدى أبو محمد عبد الله بن حنيف من زهاد المتصوّفة كوفى الأصل، ولكنه سكن إنطاكية. ومن كلامه: لا تغتم إلا من شئ يضرك غدًا، ولا تفرح إلا بشئ يسرك غدًا، وله كرامات ظاهرة، وبركات متواترة.

ومنهم سيدى أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء، أصبهانى الأصل كتب عن ستمائة شيخ، ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف، وقطع البادية على التجريد[2] . وكان فى ابتداء أمره يكسب فى كل يوم ثلاثة دراهم وثلثًا فيأخذ من ذلك لنفسه دانقًا، ويتصدق بالباقى. ويختم مع العمل كل يوم ختمة فإذا صلى العتمة فى مسجده خرج إلى الجبل، إلى قريب الصبح، ثم يرجع إلى العمل، وكان يقول فى الجبل: يا رب إما أن تهب لى معرفتك، أو تأمر الجبل أن ينطبق علىَّ، فإنى لا أريد الحياة بلا معرفتك.

---

(١) سداد: ما يكفى من القليل.

(٢) التجريد: عار من الثياب.

ومنهم سيدى يحيى بن معاذ الرازى قدّس اللّه سره يكنى أبا زكرياء أحد رجال الطريقة. كان أوحد وقته، ومن كلامه: لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه، ويوم حشره ميزانه. وقال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تسره فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه. وقال: الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص، وقال: بئس الصديق صديقًا يحتاج إلى أن يقال له: اذكرني في دعائك. وقال: على قدر حبك للّه يحبك الخلق، وعلى قدر خوفك من اللّه تهابك الخلق، وعلى قدر شغلك باللّه تشتغل فى أمرك الخلق. وقال: مَنْ كان غناه فى كيسه لم يزل فقيرًا، ومَنْ كان غناه فى قلبه لم يزل غنيًّا؛ ومَنْ قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محرومًا. وروى أنه قدم شيرازا فجعل يتكلم على الناس فى علم الأسرار، فأتته امرأة من نسائها فقالت: كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة؟ قال: ثلاثون ألفًا أصرفها في دين عليّ بخراسان. فقالت: لك عليَّ ذلك، على أن تأخذها وتخرج من ساعتك. فرضى بذلك فحملت إليه المال فخرج من الغد. فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت، فقالت: إنه كان يظهر أسرار أولياء اللّه تعالى للسوقة والعامة فَغِرْتُ على ذلك.

ومنهم سيدى يوسف بن الحسين الرازى يكنى أبا يعقوب. كان وحيد وقته فى إسقاط التصنع، عالمًا أديبًا، صحب ذا النون المصرى، وأبا تراب النخشبى. من كلامه: إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال، فإن قبل فاعلم أنه أحمق. وقال: إذا رأيت المريد[1] يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجئ منه بشئ. وقال: لأن ألقى اللّه تعالى بجميع المعاصى أحبُّ من أن ألقاه بذرَّة من التصنع. وقال أبو الحسن الدراج: قصدت زيارة ابن الحسين الرازى من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله، فكل مَنْ سألته يقول: أى شئ تريد من هذا الزنديق[2] ؟ فضيقوا صدرى حتى عزمت على الإنصراف، فبت تلك الليلة فى مسجد، ثم قلت فى نفسى: جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته، فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده فوجدته جالسًا فى المحراب، وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه، وسلمت عليه، فرد علىّ السلام وقال: من أين؟ قلت: من بغداد، فقال: أتحسن من قولهم شيئًا؟ قلت: نعم وأنشدته:

رأيتَك تبنى دائمًا فى قطيعتى ... ولو كنتَ ذا حزمٍ لهدّمت ما تبنى

فأطبق المصحف، ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيته وثوبه، ورحمته من كثرة بكائه. ثم التفت إلىّ وقال: يا بنى أتلوم أهل البلد على قولهم: يوسف بن الحسين زنديق؟ وها أنا ذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن، ولم تقطر من عينى قطرة، وقد قامت علىَّ القيامة بهذا البيت.

ومنهم سيدى حاتم بن علوان الأصم قدّس اللّه سره يكنى أبا عبد الرحمن، من أكابر مشايخ خراسان، صاحَبَ شقيقًا البلخى. ومن كلامه: الزَمْ خدمة مولاك تأتِكَ الدنيا راغمة، والآخرة راغبة. وقال: مَنِ ادَّعى ثلاثًا بغير ثلاث فهو كاذب: ومَنِ ادَّعى حبَّ اللّه تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب، ومَنِ ادَّعى محبة النبى صلى اللّه عليه وسلم من غير محبة الفقر فهو كذاب، ومَنِ ادَّعى حبَّ الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب. وسأله رجل: علامَ بنيتَ أمرك فى التوكل على اللّه عز وجل؟ قال: على أربع خصال؛ علمتُ أن رزقى لا يأكله غيرى فأطمأنت به نفسى، وعلمتُ أن عملى لا يعمله غيرى فأنا مشغول به. وعلمتُ أن الموت يأتينى بغتة فأنا أبادره. وعلمتُ أنى لا أخلو من عين اللّه عَزَّ وجلَّ حيث كنت فأنا استحى منه.

---

(١)المريد: السائر فى درب التصوف على هدى من شيخه.

(٢)الزنديق: الذى يظهر الإسلام وهو له منكر.

وسبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو على الدقاق، أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة. فقال حاتم: ارفعى صوتك، وأراها أنه أصم فسرت المرأة بذلك. وقالت: إنه لم يسمع الصوت فغلب عليه هذا الاسم رحمة اللّه تعالى عليه.

ومنهم الحسن بن أحمد الكاتب من كبار مشايخ المصريين صحب أبا بكر المصرى وأبا على الروذبارى، وكان أوحد مشايخ وقته. من كلامه: روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتمُوها ، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها، وتدل عليهم وإن ستروها، وأنشدوا فى هذا المعنى:

إذا ما أسرَّتْ أنفسُ النّاسِ ذِكرَهُ ... تبيَّنهُ فيهم ولم يتكلَّمُوا

تطيبُ بهِ أنفاسُهم فتذيعُها ... وهل سرُّ مسكٍ أودِعَ الريحَ يُكتمُ

ومن كلامه أيضًا: إذا انقطع العبد إلى اللّه تعالى بالكلية، فأول ما يفيده الاستغناء به عن الناس، وقال: صحبة الفساق داء، ودواؤها مفارقتهم. وقال: إذا سكن الخوف فى القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه.

ومنهم سيدى جعفر بن نصر الخلدى يكنى بأبى محمد، بغدادى المولد والمنشأ. صحب الجنيد وانتمى إليه، وحجَّ قريبًا من ستين حجة. روى أنه مر بمقبرة الشونيزية، وامرأة على قبر تندب وتبكى بكاء بحرقة فقال لها: ما لك تبكين؟ قالت: ثكلى بولدى، فأنشأ يقول:

يقولُونَ ثَكْلى ومَنْ لم يَذُقْ ... فِراقَ الأحِبَّةِ لم يثكَلِ

لقد جرَّعَتْنى ليالى الفراقِ ... شرابًا أمرَّ من الحنظلِ

وروى أنه كان له فص فوقع منه يومًا فى الدجلة وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا دعا به عادت، فدعا به فوجد الفصَّ فى وسط أوراق كان يتصفحها. وصورة الدعاء أن تقول: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع علىّ ضالتى. وقد روى أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثًا.

وروى الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخه قال: ودعت فى بعض حجاتى المزين الكبير الصوفى قلت: زودّنى شيئًا. فقال: إن فقدت شيئًا أو أردت أن يجمع اللّه بينى وبينك أو بينك وبين إنسان فقل: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بينى وبين كذا؛ فإن اللّه يجمع بيننا، أو بينك، وبين ذلك الشئ أو الإنسان.

ومنهم سيدى معروف بن فيروز الكرخى قدّس اللّه سره يكنى أبا محفوظ من كبار المشايخ، مجاب الدعوة، وهو أستاذ السرى، وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبى. فكان المؤدب يقول له: قل: هو ثالث ثلاثة، فيقول: بل هو الواحد الصمد، فضربه المؤدب على ذلك ضربًا موجعًا فهرب منه فكان أبوه يقولان: ليته يرجع إلينا على أى دين شاء فنوافق عليه. فرجع إلى أبويه فدق الباب فقيل: من بالباب؟ فقال: معروف، فقيل: على أى دين؟ فقال: على دين الإسلام، فأسلم أبواه. وكان مشهورًا بإجابة الدعوة. ومن كلامه رضى اللّه عنه: إذا أراد اللّه بعبد خيرًا فتح له باب العمل، وأغلق عليه باب الفترة والكسل[1] . وكان يعاتب نفسه ويقول: يا مسكين كم تبكى، وتندب. أخلص تخلص. وقال سرى: سألت معروفًا عن الطائعين للّه بأى شئ قدروا على الطاعات للّه عز وجل. قال: بخروج حُبِّ الدنيا من قلوبهم، ولو كانت فى قلوبهم لما صَحّتْ لهم سجدة، ومن إنشاداته:

الماءُ يغسلُ مَا بالثوبِ من درنٍ[2] ... وليس يغسلُ قلبَ المذنبِ الماءُ

---

(١) الفترة والكسل: الإنكسار والضعف.

(٢) الدرن: القذارة.

وقال إبراهيم الأطروش: كان معروف قاعدًا يومًا على الدجلة ببغداد، فمر به صبيان فى زورق يضربون بالملاهى ويشربون. فقال له أصحابه: أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء؟ فادع عليهم. فرفع يده إلى السماء وقال: إلهى وسيدى كما فرحتهم فى الدنيا أسألك أن تفرحهم فى الآخرة. فقال له أصحابه: إنما سألناك أن تدعو عليهم، و لم نقل لك: ادع لهم. فقال: إذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم فى الدنيا، و لم يضركم ذلك. وقال سرى: رأيت معروفًا فى المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته: من هذا؟ فقالوا: أنت أعلم يا رب. قال: هذا معروف الكرخى سَكِر بحبى، لا يفيق إلا بلقائى. وقيل له فى مرضه: أوْصِ. فقال: إذا متُّ فتصدقوا بقميصى هذا فإنى أحب أن أخرج من الدنيا عريانًا كما دخلتها عريانًا. وقال أبو بكر الخياط: رأيت فى المنام كأنى دخلت المقابر فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان، وإذا أنا بمعروف الكرخى بينهم يذهب ويجئ، فقلت: يا أبا محفوظ ما فعل الله بك، أو ليس قد مُتَّ؟ قال: بلى، ثم أنشد يقول:

موتُ التقىِّ حَياةٌ لا نفادَ لَهَا ... قد مَاتَ قومٌ وهم فى النّاسِ أحياءُ

ومنهم قاسم بن عثمان الكرخى، يكنى أبا عبد الملك من أجلاء المشايخ، صحب أبا سليمان الدارانى وغيره، وكان من أقران السرى الحارث المحاسبى، وكان أبو تراب النخشبى يصحبه. ومن كلامه: مَنْ أصلح فيما بقى من عمره غفر له بما مضى وما بقى، ومَنْ أفسد فيما بقى من عمره أخذ بما مضى وما بقى. وقال: السلامة كلها فى اعتزال الناس، والفرح كله فى الخلوة بالله عز وجل. وسئل عن التوبة، فقال: التوبة رد المظالم، وترك المعاصى، وطلب الحلال، وأداء الفرائض. وقال لأصحابه: أوصيكم بخمس: إن ظُلمتم فلا تظلموا، وإن مُدحتم فلا تفرحوا، وإن ذُممتم فلا تحزنوا، وإن كذبتم فلا تغضبوا، وإن خانوكم فلا تخونوا. وقال محمد بن الفرج: سمعت قاسم بن عثمان يقول: إن لله عبادًا قصدوا الله بهممهم، فأفردوه بطاعتهم، واكتفوا به فى توكلهم، ورضوا به عوضًا عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا، فليس لهم حبيب غيره، ولا قرة عين إلا فيما قرب إليه. وكان يقول: قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة، ثم قال: اعرف وضع رأسك ونم، فما عبد اللهَ الخلقُ بشئ أفضل من المعرفة.

وروى عنه أنه قال: رأيت فى الطواف حول البيت رجلاً، فتقربت منه فإذا هو لا يزيد على قوله: اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتى لم تقض. فقلت له: ما لك لا تزيد على هذا الكلام؟ فقال: أحدثك؛ كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى، غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا، فاعتزل بنا لتضرب أعناقنا، فنظرت إلى السماء فإذا سبعة أبواب مفتحة، عليها سبع جوار، من الحور العين، فى كل باب جارية، فقدم رجل منها فضربت عنقه فرأيت جارية فى يدها منديل قد هبطت إلى الأرض، فضربت أعناق الستة وبقيت أنا، وبقى باب وجارية فلما قدمت لتضرب عنقى استوهبنى بعض خوّاص الملك، فوهبنى له فسمعتها تقول: بأى شئ فاتك هذا يا محروم؟ وأغلقت الباب. فأنا يا أخى متحسر على ما فاتنى، قال قاسم بن عثمان: أراه أفضلهم لأنه رأى ما لم يروا، وترك يعمل على الشوق.

ومنهم سيدى أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى، كان جليل القدر مالكى المذهب، عظيم الشأن، صحب الجنيد ومن فى عصره، وكان يبالغ فى تعظيم الشرع المطهر، وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جدَّ فى الطاعات. يقول: هذا شهر عظّمه ربى، فأنا أولى بتعظيمه. وسئل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم: «خير عمل المرء كسب يمينه» فقال: إذا كان الليل فخذ ماء وتهيأ للصلاة، وصلِّ ما شئت، ومُدّ يديك، وسَلِ الله عزّ وجل فذلك كسب يمينك. ولما حج ورأى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وقع مغشيًّا عليه. فلما أفاق أنشد يقول:

هــذهِ دارهُـــم وأنــتَ مُحـــبٌّ   مــا بقــاءُ الدمــوعِ فــى الآمــاقِ[1]

وروى أنه قال: كنت يومًا جالسًا فجرى فى خاطرى أنى بخيل، فقلت: مهما فتح اللّٰه علىّ به اليوم أدفعه إلى أول فقير يلقانى. قال: فبينما أنا متفكر، إذ دخل علىّ شخص ومعه خمسون دينارًا، فقال: اجعل هذه فى مصالحك، فأخذتها وخرجت وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدى مزين يحلق رأسه، فتقدمت إليه وناولته الصرة، فقال لى: ادفعها للمزين، فقلت له: إنها دنانير، فقال: إنك لبخيل. قال: فناولتها للمزين، فقال المزين: إن من عاداتنا أن الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجرًا. قال: فرميتها فى الدجلة، وقلت: ما أعزك أحد إلا أذله اللّٰه تعالى.

ومنهم سيدى زرقان بن محمد، أخو ذى النون المصرى صاحب سياحة[2] ، كان بجبل لبنان. حكى عن يوسف ابن الحسين الرازى قال: بينما أنا بجبل لبنان أدور إذ أبصرت زرقان أخا ذى النون المصرى جالسًا على عين ماء وقت صلاة العصر فسلمت عليه، وجلست من ورائه فالتفت إلىّ، وقال: ما حاجتك؟ فقلت بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذى النون المصرى أعرضهما عليك، فقال: قل، فقلت: سمعته يقول:

قــد بَقِينــا مُذَبذبيــن حَيــارى   نطلب الوصلَ مــا إليــه سبيلُ

فدواعِــى الهَــوى تخــفُّ علينــا   وخِــلافُ الهــوى علينــا ثقيــلُ

فقال زرقان ولكنى أقول:

قــد بقينــا مذهليــن حيــارى   حَسْـبُنَا ربُنــا ونِعْــمَ الوكيــلُ

حيثَمَــا الفــوزُ كــان ذاك مُنَانَــا   وإليــه فِــى كــلِّ أمــرٍ نميــلُ

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسى فقال: رحم اللّٰه ذا النون المصرى، رجع إلى نفسه فقال ما قال، ورجع زرقان إلى ربه فقال ما قال. وقال أبو عبد الرحمن السلمى: زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى، وأظن أنه أخوه مؤاخاة لا أخوّة نسب، وكان من أقرانه ورفقائه.

ومنهم سيدى أبو عبد اللّٰه النباجى سعيد بن بريد، كان من أقران ذى النون المصرى، ومن أقران أحمد بن أبى الحوارى، له كلام حسن فى المعرفة وغيرها. روى عنه أنه قال: أصابنى ضيق وشدة فبت وأنا مفكر فى المسير إلى بعض إخوانى، فسمعت قائلاً يقول لى فى النوم: أيجمل بالحر المريد إذا وجد عند اللّٰه ما يريد أن يميل بقلبه إلى العبيد؟ فانتبهت وأنا من أغنى الناس.

ومنهم سيدى بشر بن الحارث قدّس اللّٰه روحه، يكنى أبا نصر، أحد رجال الطريقة، أصله من مرو، وسكن بغداد، وكان من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين، صحب الفضيل بن عياض، وروى عن سرى السقطى وغيره. ومن كلامه: لا تكونُ كاملاً حتى يأمنك عدوّك، وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك. وقال: أوّل عقوبة يُعاقَبُهَا ابن آدم فى الدنيا مفارقة الأحباب. وقال: غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه، وخفاء مكانه عنهم. وقال: التكبر على المتكبر من التواضع. وسئل عن الصبر الجميل فقال: الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه إلى الناس. وقيل: إنه لقى رجلاً سكران فجعل الرجل يقبل يد بشر ويقول: يا سيدى يا أبا نصر، وبشر لا يدفعه عن نفسه، فلما ولى الرجل تغرغرت[3] عينا بشر وجعل يقول: رجل أحب رجلاً على خير توهمه لعل المحب قد نجا، والمحب لا يدرى ما حاله. وروى أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله فقالت: إنى امرأة أغزل

(١) أى: طرف العين.

(٢) سياحة: أسفار.

(٣) تغرغرت: امتلأتا دموعًا.

بالليل والنهار وأبيعه، ولا أبين غزل الليل من غزل النهار، فهل عليّ فى ذلك شئ؟ فقال: يجب أن تبينى. فلما أنصرفت قال أحمد لابنه: اذهب فانظر أين تدخل؟ فرجع فقال: دخلت دار بشر. فقال: قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر. ولما مرض مرضه الذى مات فيه قال له أهله: نرفع ماءك[(١)] إلى الطبيب. قال: أنا بعين الطبيب يفعل بى ما يريد. فألحوا عليه فقال لأخته: ادفعى إليهم الماء فدفعته إليهم فى قارورة، وكان بالقرب منهم طبيب نصرانى، فدفعوا إليه القارورة، فقال: حركوا الماء. فحركوه. فقال: ضعوه فوضعوه، فقالوا له: ما بهذا وُصِفْت لنا، قال: ماذا وصفت لكم؟ قالوا: وُصِفْت بأنك أحذق أهل زمانك فى الطب. قال: هو كما وصفت لكم. إنّ هذا الماء إنْ كان ماءَ نصرانى فهو ماءُ راهبٍ قد فتّت الخوف كبده، وإنْ كان ماءَ مسلمٍ فماء بشر الحافى؛ لأن ما فى زمانه أخوف منه. قالوا: هو ماء بشر. فقال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فلما رجعوا إلى بشر، قال لهم: أسلم الطبيب، قالوا له: ومن أعلمك بهذا؟ قال: لما خرجتم من عندى نوديتُ: يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب. توفى سنة سبع وعشرين ومائتين.

ومنهم سيدى أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى، من أجل المشايخ، كبير الشأن، ومن كلامه: ما زلت أسوق إلى الله تعالى نفسى وهى تبكى، إلى أن سقتها وهى تضحك. وسئل: بأى شئ وجدت هذا المعرفة؟ فقال: ببطن جائع، وبدن عار. وقيل له: ما أشد ما لقيت فى سبيل الله تعالى؟ فقال: لا يمكن وصفه، فقيل له: ما أهون ما لقيته نفسك منك؟ فقال: أما هذا فنعم. دعوتها إلى شئ من الطاعات فلم تجبنى، فمنعتها الماء سنة[(٢)] . وقال: الناس كلهم يهربون من الحساب، ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبنى، فقيل له: لِمَ؟ فقال: لعله يقول فيما بين ذلك يا عبدى. فأقول: لبيك، فقوله لى: يا عبدى أحبُّ إلىّ من الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك يفعل بى ما يشاء. وقال له رجل: دُلّنى على عمل أتقرَّب به إلى ربى. فقال: أحِبَّ أولياء الله ليحبوك، فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه، فلعله ينظر إلى اسمك فى قلب ولى فيغفر لك. وسئل عن المحبة، فقال: استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك. توفى سنة إحدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى.

ومنهم شيخ الطائفة سيدى أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريرى شيخ وقته، وفريد عصره، أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه ببغداد، صحب جماعة من المشايخ، وصحب خالد السرى، والحارث المحاسبى ، ودرس الفقه على أبى ثور، وكان يفتى فى مجلسه بحضرته وهو ابن عشرين سنة. ومن كلامه رضى الله عنه: علامة إعراض الله تعالى عن العبد، أن يشغله بما لا يعنيه. وقال: الأدب أدبان: أدب السر، وأدب العلانية، فأدب السر طهارة القلوب، وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب. ورؤى فى يده يومًا سبحة، فقيل له: أنت مع تمكنك وشرفك تأخذ بيدك سبحة. فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبدًا. وقال الحسن بن محمد السراج سمعت الجنيد يقول: رأيت إبليس فى منامى وكأنه عريان، فقلت له: ألا تستحى من الناس؟ فقال: بالله هؤلاء عندك الناس! لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة، ولكن الناس عندى ثلاثة نفر. فقلت: ومن هم؟ قال: فى مسجد الشونيزى قد أضنوا[(٣)] قلبى، وأنحلوا جسمى، كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عزّ وجل، فأكاد أن أحرق. قال الجنيد: فانتبهت من نومى، ولبست ثيابى، وجئت إلى مسجد الشونيزى بليل فلما دخلت أخرج أحدهم رأسه، وقال: يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شئ تقبل، قيل: إن الثلاثة الذين كانوا فى المسجد الشونيزى: أبو حمزة، وأبو الحسن الثورى، وأبو بكر الدقاق رضى الله عنهم. وقال محمد بن قاسم

---

(١) نرفع ماءك: لعله يقصد إلى تحليل بوله.

(٢) منعتها الماء سنة: يقصد الامتناع عن الاستحمام.

(٣) أضنوا: أتعبوا.

الفارسي: بات الجنيد ليلة العيد في الموضع الذى كان يعتاده فى البرية فإذا هو وقت السحر بشاب ملتف فى عباءة وهو يبكى يقول:

بحرمةِ غربتى كَم ذَا الصدودُ ... ألا تحنوا علىّ ألا تجودُوا
سرورُ العيدِ قد عمَّ النواحِى ... وحُزنى فى ازديادٍ لا يبيدُ
فإنْ كنتُ اقترَفْتُ خِلالَ سوءِ ... فعذرى فى الهوى أن لا أعودُ

توفى الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد، وصلى عليه نحو ستين ألفًا رضوان الله عليهم أجمعين.

وممن صحبته وانتفعت بصحبته وفاضت الخيرات علىّ ببركته سيدى الشيخ الإمام العالم العامل أبو المعالى وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطرينى المالكى، قدّس الله سره وروحه ونوّر ضريحه، كان أوحد زمانه فى الزهد والورع قامعًا لأهل الضلال والبدع، وله أسرار ظاهرة، وبركات متواترة، قد أطاع أمره بالخلائق عجمًا وعربًا، وانتشر ذكره فى البلاد شرقًا وغربًا، وأتت الملوك إلى بابه، واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه، ما أتاه مكروب إلا فرّج الله كربته، ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته، كان محافظًا على النوافل، ملازمًا للفرض، وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض، لم يمتع نفسه فى الدنيا بالمآكل والمشارب اللذيذة، بل قيل: إنه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهورًا عديدة، وكان رضى الله عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه، نصوحًا لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه يدخل عليه أعدى عدوه، فيقبل ببشره وبرّه عليه، فيخرج من عنده وهو أحب الناس إليه كما قال بعضهم:

وإنى لألقى المرءَ أعلمُ أنّه ... عدوّى وفى أحشائه الضِّغنُ كَامِنُ
فأمنحُه بِشْرِى فيرجع قلبُه ... سَليمًا وقد ماتَتْ لديه الضغَائِنُ

وكانت جملة أهل زمانه عليه، وأحوالهم فى كل أمر راجعة إليه، وكنت كثيرًا ما أسمعه يتمثل بهذا البيت:

ومَا حَمَّلونى الضَّيْمَ إلا حملتهُ ... لأنى محبٌّ والمحبُّ حَمُولُ[(١)]

وكان رضى الله عنه كثير المصافاة، عظيم الموافاة، شأنه الحلم والستر، لم يهتك حرمة مسلم ولا فضحه، وما استشاره أحد فى أمر إلا أرشده إلى الخير ونصحه، صحبته رضى الله عنه نحو خمس عشرة سنة، فكأنها من طيبها كانت سنة، ما قطع برّه يومًا واحدًا عنى، حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص منى، وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه قاطبة، بيض الله وجهه فى القيامة، وبلغه من فضل ربه مآربه. وكان رضى الله عنه فقيهًا فى مذهب الإمام مالك. إمام كبير لم ير له فى زمانه من شبيه ولا نظير، وله فى علم الحقيقة أقوال. وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال، ولو تتبعت مناقبه لاتسع الكلام ولكنى أقول: كان أوحد عصره، والسلام. عاش رضى الله عنه نيفًا وستين سنة، وكان الناس فى زمانه فى عيشة راضية وأحوال حسنة. وكان رضى الله عنه كثير الأمراض والأسقام، حصل له فى آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة، ثم تزايد مرضه فى العشر الأول من ذى الحجة الحرام، فلما كانت ليلة الحادى عشر اشتد به الأمر واحتضر، ولم يزل فى النزع[(٢)] إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة، ثم توفى رحمه الله تعالى، سعيدًا حميدًا فى ليلة الجمعة حادى عشر ذى الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ولما أخبر الناس وفاته عظم مصابه على المسلمين، ووقع النوح والبكاء والأسف فى أقطار البلدان. حتى

(١) أى أن المحب كثير الاحتمال للجور.
(٢) النزع: طلوع الروح.

طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم، وصاروا يبكون ويتوجعون ويتأسفون على فراقه، وكيف لا وهو إمام العصر علامة الدهر حقَّ فيه قول القائل:

حلفَ الزمانُ ليأتيَنَّ بمثلِهِ حَنَثَتْ يمينُكَ يا زمانُ فَكَفِّرِ[1]

رضى الله عنه، ورضى عنّا به، ونفعنا ببركته فى الدين والدنيا والآخرة. فشرعوا فى تجهيزه وغسله فكنت ممن حضر غسله، ولكن لم يكن ذهنى معى فى تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقده، كيف لا وقد كان لى والدًا شفوقًا وبارًّا محسنًا عشوقًا. فلما انتهى غسله رضى اللّه عنه جاء القضاة، والنوّاب، والكتاب، والولاة، وحملوه على أعناقهم ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة فضاق بهم الجامع على سعته، وضاقت الشوارع والسكك والطرقات من كثرة الناس، فلم يُرَ أكثر جمعًا، ولا أغزر دمعًا من ذلك اليوم. وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه. قال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه: بيننا وبينهم الجنائز، يريد بذلك اجتماع الناس. واللّه أعلم. فارتفع نعشه على أعناقهم، وتقدم للصلاة شيخه العارف باللّه تعالى سيدى سليمان الدواخلى نفعنا اللّه ببركته، ودفن يوم الجمعة بزاويته التى أنشأها بسندفا مع والده الشيخ الإمام العالم العلامة مفتى المسلمين سراج الدين أبى حفص عمر الطرينى المالكى فى قبر واحد نفعنا اللّه ببركته، وجعل الجنة متقلبه ومثواه، وحشرنا وإياه فى زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين، وأفضل المرسلين صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين. ونسأله لنا التوفيق والإعانة، وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطرينى أدام اللّه أيامه للمسلمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) فكَفِّرِ: أى لم يفِ بيمينه فوجبت الكفارة.

الباب الحادى والثلاثون فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضى اللّه عنهم

اعلم أن كرامات الأولياء لا تنكر، ومناقبهم أكثر من أن تحصر، نسأل اللّه تعالى أن يحشرنا معهم فى زمرة نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم يوم المحشر، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حكاية: قال مالك بن دينار رحمه اللّه تعالى: احتبس عنا المطر بالبصرة، فخرجنا نستسقى مرارًا فلم نر للإجابة أثرًا، فخرجت أنا وعطاء السلمى، وثابت البنانى، ويحيى البكاء، ومحمد بن واسع، وأبو محمد السختيانى، وحبيب الفارسى، وحسان بن ثابت بن أبى سنان، وعتبة الغلام، وصالح المزنى حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب[1] ثم استسقينا فلم نر للإجابة أثرًا، حتى انتصف النهار، وانصرف الناس، وبقيت أنا وثابت البنانى بالمصلى، فلما أظلم الليل إذا أنا بعبد أسود مليح، رقيق الساقين عليه جبة صوف. قوّمت ما عليه بدرهمين. فجاء بماء فتوضأ، ثم جاء إلى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين. ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهى وسيدى ومولاى إلى كم تردّ عبادك فيما لا ينفعك، أنفد ما عندك، أم نقص ما فى خزائنك؟ أقسمت عليك بحبك لى إلا ما أسقيتنا غيثك الساعة. قال: فما أتم كلامه حتى تغيمت السماء، وجاءت بمطر كأفواه القرب. قال مالك: فتعرضت له، وقلت له: يا أسود أما تستحى مما قلت؟ قال: وما قلت؟ قلت: قولك بحبك لى، وما يدريك أنه يحبك.

قال: تَنَحَّ[2] عنى يا مَن اشتغل عنه بنفسه، أفتراه بدأنى بذلك إلا لمحبته إياى؟ ثم قال: محبته لى على قدره، ومحبتى له على قدرى. فقلت له: يرحمك اللّه أرفِقْ قليلاً، فقال: إنى مملوك وعلىَّ فرض من طاعة مالكى الصغير. قال: فانصرف وجعلنا نقفو[3] أثره على البعد، حتى دخل دار نخاس، فلما أصبحنا أتينا النخاس فقلت: يرحمك اللّه عندك غلام تبيعه لنا للخدمة؟ قال: نعم عندى مائة غلام للبيع، فجعل يعرض علينا غلامًا بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلامًا فلم ألق حبيبى فيهم. فقال: عودا إلىّ فى غير هذا الوقت، فلما أردنا الخروج من عنده، دخلنا حجرة خربة خلف داره وإذا بالأسود قائم يصلى. فقلت: حبيبى ورب الكعبة، فجئت إلى النخاس فقلت له: بِعْنى هذا الغلام. فقال: يا أبا يحيى هذا الغلام ليست له همة فى الليل إلا البكاء، وفى النهار إلا الخلوة والوحدة. فقلت له: لا بد من أخذه منك ولك الثمن، وما عليك منه. فدعاه فجاء وهو يتناعس فقال: خذه بما شئت بعد أن تبرئنى من عيوبه كلها. فاشتريته منه بعشرين دينارًا، وقلت له: ما اسمك؟ قال ميمون، فأخذت بيده أريد المنزل فالتفت إلىّ، وقال: يا مولاى الصغير لماذا اشتريتنى، وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين؟ فقلت له: واللّه يا سيدى إنما اشتريتك لأخدمك بنفسى. قال: ولِمَ ذلك؟ فقلت: ألستَ صاحبنا البارحة بالمصلى؟ قال: بلى، أو قد اطلعت على ذلك؟ قلت: نعم وأنا الذى عارضتك البارحة فى الكلام بالمصلى. قال: فجعل يمشى حتى أتى إلى مسجد فاستأذننى ودخل المسجد فصلى فيه ركعتين خفيفتين، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهى وسيدى ومولاى سرٌّ كان بينى وبينك، أطلعت عليه غيرك، فكيف يطيب الآن عيشى؟ أقسمت عليك بك إلا ما قبضتنى إليك الساعة. ثم سجد فانتظرته ساعة فلم يرفع رأسه فجئت إليك وحرّكته فإذا هو قد مات رحمة اللّه تعالى عليه. قال: فمددت يديه ورجليه فإذا هو ضاحك مستبشر وقد غلب البياض على السود، ووجه كالقمر ليلة البدر، وإذا شاب قد دخل من الباب، وقال: السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته. أعظم اللّه أجورنا وأجوركم من

---

(١) مفردها مكتب: تعليم الصبية (الكتاتيب).

(٢) تَنَحَّ: ابتعد.

(٣) نقفو: نتبع.

أخينا ميمون، هاكم الكفن، فناولني ثوبين ما رأيت مثلهما قط، فغسلناه، وكفناه بهما، ودفناه. قال مالك بن دينار: فبقبره نستسقى إلى الآن، ونطلب الحوائج من الله تعالى رحمة الله عليه.

وحكى عن حذيفة المرعشى رضى الله عنه، وكان قد خدم إبراهيم الخواص، رضى الله عنه وصحبه مدة فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا فى طريق مكة أيامًا لم نأكل طعامًا، فدخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خرب فنظر إلىّ إبراهيم وقال: يا حذيفة أرى بك أثر الجوع. فقلت: هو كما ترى. فقال: علىّ بداوة وقرطاس، فأحضرتهما إليه فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود بكل حال، والمشار إليه بكل معنى، ثم قال:

أنا حامدٌ أنا شاكرٌ أنا ذاكرُ ... أنا جائعٌ أنا ضائعٌ أنا عارى

هى ستّةٌ وأنا الضمينُ لنصفِهَا ... فكنِ الضمينَ لنصفِها يا بارى

مدحى لغيرك لهبُ نارِ خضتَها ... فأجرْ عبيدَكَ من لهيبِ النار

قال حذيفة: ثم دفع إلىّ الرقعة وقال: اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفعها إلى أوّل مَنْ يلقاك. فخرجت فأوّل من لقينى رجل على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فقرأها وبكى، وقال: ما فعل بصاحب هذه الرقعة؟ قلت: هو فى المسجد الفلانى. فدفع إلىّ صرة فيها ستمائة درهم فأخذتها ومضيت فوجدت رجلاً فسألته: مَنْ هذا الراكب على البلغة؟ فقال: هو رجل نصرانى. قال: فجئت إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال: لا تمس الدراهم فإن صاحبها يأتى الساعة، فلما كان بعد الساعة أقبل النصرانى راكبًا على بغلته، فترجل على باب المسجد ودخل فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له وأشهد أن محمدً عبده ورسوله. قال: فبكى إبراهيم الخواص فرحًا به وسرورًا، وقال: الحمد لله الذى هداك للإسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وحكى أن بعضهم كان ملاحًا ببحر النيل المبارك بمصر. قال: كنت أعدى من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى، ومن الجانب الشرقى إلى الجانب الغربى. فبينما أنا ذات يوم فى الزورق إذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة، فقال: السلام عليكم. فرددت عليه السلام، فقال: أتحملنى إلى الجانب الغربى لله تعالى؟ فقلت: نعم. فطلع إلى الزورق وعديت به إلى الجانب الغربى، وكان على ذلك الفقير مرقعة، وبيده ركوة[1] وعصا، فلما أراد الخروج من الزورق قال: إنى أريد أن أحملك أمانة. قلت: وما هى؟ قال: إذا كان غدًا وقت الظهر تجدنى عند تلك الشجرة ميتًا، وستنسى فإذا ألهمت فأتنى وغسلنى وكفّنى فى الكفن الذى تجده عند رأسى، وصلِّ علىّ وادفنّى تحت الشجرة، وهذه المرقعة والعصا والركوة يأتيك مَنْ يطلبها منك فادْفعها إليه ولا تحتقره.

قال الملاح: ثم ذهب وتركنى. فتعجبت من قوله وبتّ تلك الليلة فلما أصبحت انتظرت الوقت الذى قال لى فلما جاء وقت الظهر نسيت، فما تذكرت إلا قريب العصر فسرت بسرعة فوجدته تحت الشجرة ميتًا؛ ووجدت كفنًا جديدًا عند رأسه تفوح منه رائحة المسك فغسلته وكفنته. فلما فرغت من غسله حضر عندى جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحدًا فصلينا عليه ودفنته تحت الشجرة كما عهد إلىّ، ثم عدت إلى الجانب الشرقى وقد دخل الليل. فنمت فلما طلع الفجر وبانت الوجوه إذا أنا بشاب قد اقبل علىّ، فحققت النظر فى وجهه فإذا هو من صبيان الملاهى كان يخدمهم فأقبل وعليه ثياب رقاق، وهو مخضوب الكفين وطارة[2] تحت إبطه. فسلم علىّ فرددت عليه السلام فقال: يا ملاح، أنت فلان بن فلان؟ قلت: نعم. قال: هات الوديعة التى عندك. قلت: ومن أين لك هذا؟ قال: لا تسأل. فقلت: لا بد أن تخبرنى. فقال: لا أدرى، إلا أننى البارحة كنت فى عرس فلان

(١) الركوة: وعاء للماء والسوائل.

(٢) الطارة: ليست فى المعاجم ولعلها آلة دائرية يعزف عليها (محرفة عن الإطار).

التاجر فسهرنا نرقص ونغنى إلى أن ذكر الله الذاكرون على المآذن، فنمت لأستريح وإذا برجل قد أيقظنى وقال: إن الله تعالى قد قبض فلانًا الولى، وأقامك مقامه، فسر إلى فلان بن فلان صاحب الزورق إن الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت. قال: فدفعتها له فخلع أثوابه الرقاق ورمى بها فى الزورق، وقال: تصدق بها على مَنْ شئت، وأخذ الركوة والعصا، ولبس المرقعة وسار وتركنى أتحرق وأبكى لما حرمت من ذلك. وأقمت يومى ذلك أبكى إلى الليل، ثم نمت فرأيت رب العزة جل جلاله فى النوم فقال: يا عبدى، أثَقُلَ عليك إن مننتُ على عبد عاصٍ بالرجوع إلىّ؟ إنما ذلك فضلى أوتيه من أشاء من عبادى، وأنا ذو الفضل العظيم.

وحكى أبو إسحاق الصعلوكى قال: خرجت سنة إلى الحج، فبينما أنا فى البادية تائه، وقد جُنَّ الليل[1]، وكانت ليلة مقمرة إذا سمعت صوت شخص ضعيف يقول: يا أبا إسحاق قد انتظرتك من الغداة، فدنوت منه فإذا هو شاب نحيف الجسم، قد أشرف على الموت، وحوله رياحين كثيرة، منها ما أعرف، ومنها ما لا أعرف، فقلت له: من أنت؟ ومن أين أنت؟ قال: من مدينة شمشاط كنت فى عزة ورفعة، فطالبتنى نفسى بالغربة والعزلة، فخرجت وقد أشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقبض لى وليًا من أوليائه، وأرجو أن تكون أنت هو. فقلت: ألك حاجة؟ قال: نعم لى والدة وإخوة وأخوات. فقلت: هل اشتقت إليهم قط؟ قال: لا إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم فهممت أريدهم فاحتوشتنى[2] السباع والهوام وبكين معى، وحملوا إلىّ هذه الرياحين التى تراها. قال أبو إسحاق: فبينما أنا معه يرقّ له قلبى، وإذا بحية عظيمة فى فمها باقة نرجس كبيرة فقال: دع ولى الله تعالى فإن الله يغار على أوليائه. قال: فغشى عليه وغشى علىّ، فما أفقت إلا وهو قد خرجت روحه رحمه الله. قال: فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت فاستقبلتنى امرأة بيدها ركوة ما رأيت أشبه بالشاب منها، فلما رأتنى نادت: يا أبا إسحاق ما شأن الشاب الغريب الذى مات غريبًا؟ فإنى منتظرتك منذ كذا، فذكرت لها القصة إلى أن قلت لها: أشم ريحهم، فصاحت أوّاه أوّاه قد بلغ والله الشم، ثم شهقت شهقة خرجت روحها، فخرج إليها بنات أتراب عليهم مرقعات ومروط فكفلن أمرها وتولين دفنها وهن مستترات رضوان الله على الجميع.

يا نسيمًا هبَّ من وادى قبا[3] ... خبرينى كيف حال الغربا

كم سألتُ الدهرَ أنى يجمَعَنا ... مثلَ ما كنّا عليهِ فأبى

ويحكى أن رجلاً كان يعرف بدينار العيار، وكان له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ، فمر فى بعض الأيام بمقبرة فأخذ منها عظمًا فتفتت فى يده ففكر فى نفسه. وقال: ويحك يا دينار كأنى بك وقد صار عظمك هكذا رفاتًا، والجسم ترابًا، فندم على تفريطه، وعزم على التوبة، ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهى وسيدى ألقيت إليك مقاليد أمرى فاقبلنى وارحمنى. ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب فقال: يا أماه، ما يصنع بالعبد الآبق إذا أخذه سيده؟ قالت: يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه. فقال: أريد جبة من صوف، وأقراصًا من شعير وغلّين وافعلى بى كما يفعل بالعبد الآبق، لعل مولاى يرى ذلى فيرحمنى ففعلت به ما أراد، فكان إذا جُنَّ عليه الليل أخذ فى البكاء والعويل، ويقول لنفسه: ويحك يا دينار ألك قوة على النار؟ كيف تعرضت لغضب الجبار؟ ولا يزال كذلك إلى الصباح، فقالت له أمه: يا بنى ارفق بنفسك. قال: دعينى أتعب قليلاً لعلى أستريح طويلاً، يا أماه إن لى غدًا موقفًا طويلاً بين يدى رب جليل، ولا أدرى أيؤمر بى إلى ظل ظليل، أو إلى شر

(١) جُنَّ الليل: أدلهم ظلامة.

(٢) احتوشتنى: اجتمعت حولى.

(٣) قبا: اسم موضع.

مقبل[١]؟! قالت: يا بنى خذ لنفسك راحة. قال: لست للراحة أطلب كأنك يا أماه غدًا بالخلائق يساقون إلى الجنة، وأنا أساق إلى النار مع أهلها، فتركته وما هو عليه فأخذ فى البكاء والعبادة وقراءة القرآن فقرأ فى بعض الليالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢] ففكر فيها وجعل يبكى حتى غشى عليه، فجاءت أمه إليه فنادته فلم يجبها، فقالت له: يا حبيبى وقرَّة عينى أين الملتقى؟ فقال بصوت ضعيف: يا أماه إن لم تجدينى فى عرصات القيامة [٣] فاسألى مالكًا خازن النار عنى. ثم شهق شهقة فمات رحمه اللّه تعالى. فغسلته أمه وجهزته وخرجت تنادى: أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار، فجاء الناس من كل جانب فلم ير أكثر جمعًا ولا أغزر دمعًا من ذلك اليوم. فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة فرآه يتبختر فى الجنة، وعليه حلة خضراء، وهو يقرأ الآية: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ويقول: وعزته وجلاله سألنى، ورحمنى، وغفر لى، وتجاوز عنى، ألا اخبروا عنى والدتى.

وحكى عن الحسن البصرى قال: نزل سائل بمسجد فسأل الناس أن يطعموه كسرة فلم يطعموه. فقال اللّه تعالى لملك الموت: اقبض روحه فإنه جائع، فقبض روحه فلما جاء المؤذن رآه ميتًا فأخبر الناس بذلك، فتعاونوا على دفنه. فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن فى المحراب مكتوبًا عليه: هذا الكفن مردود عليكم، بئس القوم أنتم، استطعمكم فقير فلم تطعموه، حتى مات جوعًا، مَنْ كان من أحبابنا لا نكله إلى غيرنا.

وحكى أبو على المصرى قال: كان لى جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يومًا: حدثنى بأعجب ما رأيت من الموتى. فقال: جاءنى شاب فى بعض الأيام مليح الوجه، حسن الثياب فقال لى: أتغسل لنا هذا الميت؟ قلت: نعم. فتبعته حتى أوقفنى على باب فدخل هنيهة، فإذا بجارية هى أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهى تمسح عينيها. فقالت: أنت الغاسل؟ قلت: نعم. قالت: باسم اللّه أدخل ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم، فدخلت الدار، وإذا أنا بالشاب الذى جاءنى يعالج سكرات الموت[٤] وروحه فى لبته[٥] ، وقد شخص بصره، وقد وضع كفنه وحنوطه عند رأسه فلم أجلس إليه حتى قبض. فقلت: سبحان اللّه هذا ولى من أولياء اللّه تعالى حيث عرف وقت وفاته، فأخذت فى غسله وأنا أرتعد، فلما أدرجته أتت الجارية وهى أخته فقبلته، وقالت: أما أنى سألحق بك عن قريب. فلما أردت الانصارف شكرت لى وقالت: أرسل إلىّ زوجتك إن كانت تحسن ما تحسنه أنت، فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحقة به، فلما فرغت من دفنه جئت أهلى فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى تلك الجارية فوقفت بالباب واستأذنت فقالت: باسم اللّه تدخل زوجتك. فدخلت زوجتى وإذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد مات فغسلتها زوجتى وأنزلتها على أخيها رحمة اللّه عليهما:

أأحبابَنا بنتم عن الدار فاشتكَتْ لعبدِكم آصالَها وضحَاها[٦]
وفارقتم الدارَ الأنيسةَ فاستوَتْ رسومُ مبانيها وفاحَ كلاها[٧]
كأنكم يومَ الفراقِ رحلتم بنومى فعينى لا تصيبُ كَرَاها
وكنتُ شحيحًا من دموعى بقطرةٍ فقد صرتُ سمحًا بعدكم بدماها
يرانى بسامًا خليلى يظن بى سرورًا وأحشاىَ السقامُ ملاها

(١) مقيل: لا معنى للجملة إلا إذا كانت مقبل.
(٢) سورة الحجر: ٩٢ - ٩٣.
(٣) عرصات القيامة: ساحاتها.
(٤) سكرات الموت: نزعات الروح.
(٥) لبته: منخره.
(٦) آصالُها وضحَاها: أى أطراف اليوم.
(٧) وفاحَ كلاها: صارت مستوية فيحاء.

وكم ضحكةٍ فى القلب منها حرارة ... يشبُّ لظاها لو كشفَتْ غطاها
رعى اللّه أيامًا بطيبِ حديثكم ... تقضّت وحيَّاها الحيا وسقاها
فما قلتُ إيهًا بعدها لمسامرِ ... من الناس إلا قالَ قلبى آها

وحكى سرى السقطى رحمه اللّه تعالى قال: أرقت ليلة، و لم أقدر على النوم، فلما طلع الفجر صليت فلما أصبحت دخلت المارستان(١) فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهى تقول:

تغلُّ يدى إلى عُنقِى ... وما خانَتْ وما سرقَتْ
وبين جوانحى كبدٌ ... أحسُّ بها قد احترقَتْ

قال: فقلت للقيّم: مَنْ هذه الجارية؟ قال: هذه جارية اختلَّ عقلها فحبست لعلها تصلح، فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت:

معشرَ الناس ما جننتُ ولكنْ ... أنا سكرانة وقلبىَ صاحى
لِمَ غللتَمْ يدى و لم آتِ ذنبًا ... غير هتكى فى حبِّه وافتضاحى
أنا مفتونةٌ بحبِّ حبيبٍ ... لستُ أبغى عن بابه من براحِ(٢)
ما على مَنْ أحبَّ مولى الموالى ... وارتضاهُ لنفسِهِ مِن جناحِ

وقال: فلما سمعت كلامها بكيتُ بكاء شديدًا فقالت: يا سرى، هذا بكاؤك من الصفة، فكيف لو عرفته حق المعرفة؟ قال: فبينما هى تكلمنى إذ جاء سيدها فلما رآنى عظمنى. فقلت: واللّه هى أحق منى بالتعظيم فلم فعلت بها هذا؟ قال: لتقصيرها فى الخدمة، وكثرة بكائها، وشدة حنينها وأنينها كأنها ثكلى، لا تنام ولا تدعنا ننام، وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فإنها مطربة:

وحقَك لا نقضتُ الدهر عهدًا ... ولا كدرتُ(٣) بعدَ الصفو ودًّا
ملأتَ جوانحى والقلبَ وجدًا ... فكيفَ أقرُّ يا سكنى وأهدا
فيا مَنْ ليس لى مولى سواه ... تراك رضيتنى بالباب عبدا

فقلت لسيدها: أطلقها وعلىّ ثمنها، فصاح: وافقراه من أين لك عشرون ألفًا يا سرى. فقلت: لا تعجل علىّ. فقال: تكون فى المارستان حتى توفينى ثمنها، فقلت: نعم. قال سرى: فانصرفت وعينى تدمع وقلبى يخشع وأنا واللّه ما عندى درهم من ثمنها. فبت طول ليلتى أتضرع إلى اللّه تعالى. فإذا بطارق يطرق الباب ففتحت ودخل علىّ رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر، فقال: أتعرفنى يا سرى؟ قلت: لا. قال: أنا أحمد بن المثنى كنت نائمًا، فهتف بى هاتف وقال لى: يا أحمد، هل لك فى معاملتنا؟ فقلت: ومَنْ أولى منى بذلك؟ فقال: احمل إلى سرى السقطى خمس بدر من أجل الجارية الفلانية، فإن لنا بها عناية. قال سرى: فسجدت للّه شكرًا، وجلست أتوقع طلوع الفجر، فلما طلع صلينا وذكرنا وانصرفنا نحوها فسمعناها تقول:

قد تصبَّرتُ إلى أن ... عيل من حبك صَبْرى
ضاقَ مِن غلى وقيدى ... وامتهانى منك صَدْرى

---

(١) المارستان: المستشفى وكما يبدو أنه المخصص للأمراض العقلية.

(٢) براح: مغادرة.

(٣) كدرتُ: عكرت.

ليس يخفى عنكَ أمرى … يا مُنى قلبى وذُخرى
أنتَ قد تعتقُ رقّى … وتفكُّ اليومَ أسْرى

قال سرى: فبينما أنا أسمعها، وإذا بمولاها قد جاء وهو يبكى. فقلت: لا بأس عليك قد جئناك برأس مالك وربح عشرة آلاف درهم، فقال: واللّه لا فعلت ذلك، قلت: نزيدك، قال: واللّه لو أعطيتنى ما بين الخافقين ما فعلت، وهى حرة لوجه اللّه تعالى. قال: فتعجبت من ذلك، وقلت: ما كان هذا كلامك بالأمس. فقال: حبيبى لا توبخنى فالذى وقع لى من التوبيخ كفانى، وأشهدك أنى قد خرجت من جميع مالى صدقة فى سبيل اللّه تعالى، وأنى هارب إلى اللّه تعالى، فباللّه لا تردنى عن صحبتك. فقلت: نعم. ثم التفت فرأيت صاحب المال يبكى، فقلت: ما يبكيك؟ قال: يا أستاذى ما قبلنى مولاى لما ندبنى إليه، ورد علىّ ما بذلت. أشهدك أنى قد خرجت من جميع ما أملكه للّه تعالى فى سبيل اللّه، وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه اللّه تعالى. قال سرى: فقلت: ما أعظم بركتك يا جارية. قال: فنزعنا الغل من عنقها، والقيد من رجلها، وأخرجناها من المارستان فنزعت ما كان عليها من ناعم الثياب ولبست خمارًا من صوف ومدرعة من شعر، وولت. قال سرى: فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة، فبينما نحن نطوف إذا سمعنا صوتًا فتبعناه فإذا هى امرأة كالخيال، فلما رأتنى قالت: السلام عليك يا سرى. فقلت لها: وعليك السلام ورحمة اللّه وبركاته، مَنْ أنت؟ فقالت: لا إله إلا اللّه، وقع الشك بعد المعرفة، فتأملتها فإذا هى الجارية. فقلت لها: ما الذى أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق؟ فقالت: أنسى به، ووحشتى من غيره. ثم توجهت إلى البيت وقالت: إلهى لِمَ تخلفنى[1] فى دار لا أرى فيها أنيسًا، قد طال شوقى إليك، فعجل قدومى عليك، ثم شهقت شهقة وخرّت ميتة رحمة اللّه تعالى عليها. فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه إلى أن خرّ إلى جانبها ميتًا رحمة اللّه عليه فدفناهما فى قبر واحد:

بحرمةِ ما قد كان بينى وبينكم … منَ الودِّ إلا ما رجَعْتم إلى وصلِ
ولا تحرمونى نظرةً من جمالكم … فلن تجدوا عبدًا ذليلاً لكُم مثلى
فواللّه ما يهوىَ فؤادى سواكُمُ … ولو رشقوه بالأسنّةِ والنبلِ[2]

وحكى أنه كان فى زمن بنى إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد وكان قد سخر اللّه له سحابة تسير معه حيث يسير، فاعتراه فتور[3] فى بعض الأيام، فأزال اللّه عنه سحابته، وحجب إجابته، فكثر لذلك حزنه وشجونه، وطال كمده وأنينه وما زال يشتاق إلى زمن الكرامة ويبكى ويتأسف، ويتحسر ويتلهف، فقام ليلة من الليالى فصلى ما شاء اللّه، وبكى وتضرع، ودعا اللّه تعالى ونام. فقيل له فى المنام: إذا أردت أن يرد اللّه تعالى عليك سحابتك فأتِ الملكِ الفلانى فى بلد كذا، واسأله أن يدعو اللّه لك أن يرد عليك سحابتك. قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلدة التى ذكرت له فى المنام فدخلها، وسأل مَنْ يرشده إلى قصر الملك، فجاء إلى القصر وإذا عند بابه غلام جالس على كرسى عظيم من الذهب الأحمر، مرصع بالدر والجوهر، والناس بين يديه يسألونه حوائجهم وهو يصرف الناس. فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه فقال له الغلام: من أين أنت؟ وما حاجتك؟ فقال: من بلاد بعيدة وقصدى الاجتماع بالملك. فقال له الغلام: لا سبيل لك إليه اليوم فسل حاجتك أقضها لك أن استطعت. فقال: إن حاجتى لا يقضيها إلا الملك، فقال الغلام: إن الملك ليس له إلا يوم واحد فى الجمعة يجتمع إليه الناس فيه، فاذهب حتى يأتى ذلك اليوم، فانصرف الرجل إلى مسجد

(١) تخلفنى: تجعلنى خليفًا لك.
(٢) النبلِ: السهام.
(٣) الفتور: الكسل.

داثر[١] وأقام يعبد الله تعالى فيه، وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس، فلما كان ذلك اليوم الذى يجلس فيه الملك جاء إلى القصر فوجد خلقًا كثيرًا عند الباب ينتظرون الإذن فوقف مع جملة الناس، فلما خرج الوزير أذن للناس فى الدخول فدخل أرباب الحوائج ودخل صاحب السحابة معهم، وإذا بالملك جالس وبين يديه السحابة، فلما نظر إليه الملك قال: مرحبًا بصاحب السحابة. اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس وانظر فى أمرك، قال: فتحير صاحب السحابة فى أمره. فلما فرغ الملك من حوايج الناس قام من مجلسه، فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره، ثم مشى به فى دهليز القصر فلم يجد فى طريقه إلا مملوكًا واحدًا، فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد، وإذا به بناء مهدوم، وحيطان مائلة، وبيت خرب فيه برش[٢] ، وليس هناك ما يساوى عشرة دراهم إلا سجادة خلقة، وقدح للوضوء، وحصير رثة، وشئ من الخوص فانخلع الملك من ثياب الملك، ولبس مرقعة من صوف، وجعل على رأسه قلنسوة من شعر، ثم جلس وأجلس صاحب السحابة ونادى: يا فلانة قالت: لبيك. قال: أتدرين مَنْ هو الليلة ضيفنا؟ قالت: نعم هو صاحب السحابة، فدعا بها الحاجة فخرجت، فإذا هى امرأة كالشن[٣] البالى عليها مسح من شعر خشن وهى شابة صغيرة. قال الرجل: فالتفت إلىّ الملك وقال: يا أخى نطلعك على حالنا أو نقضى حاجتك وتنصرف. فقلت: والله لقد شغلنى حالكما عما جئت بسببه، فقال الملك: الله يعلم، إنه كان لى فى هذا الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابرًا عن كابر، فلما توفوا إلى رحمة الله تعالى، ووصل الأمر إلىّ بغض الله إلىّ الدنيا وأهلها فأردت أن أسيح فى الأرض، وأترك الناس ينظرون هم من يسوس أمرهم فيملكونه عليهم، فخفت عليهم دخول الفتنة وتضييع الدين والشرائع، وتبديل شمل الدين فبايعونى وأنا والله كاره. فتركت أمورهم على ما كانت عليه وجعلت السماط على عادته، والحراس على حالها، والمماليك على دأبها، ولم أغير شيئًا، وأقعدت المماليك على الأبواب بالسلاح إرهابًا لأهل الشرور، وردعًا عن أهل الخير، وتركت القصر مزينًا على حاله، وفتحت له بابًا وهو الذى رأيته يوصلنى إلى هذه الخربة، فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا، وأضفر الخوص[٤] وأبيعه، وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتى هذه التى رأيتها، وهى ابنة عمى زهدت فى الدنيا كزهدى، واجتهدت حتى صارت كالشن البالى، والناس لا يعلمون ما نحن فيه، ثم إنى أقمت لى نائبًا ينوب عنى طول الجمعة[٥] وعلمت أنى مسؤول، فجعلت لى يومًا فى الجمعة أبرز للناس فيه، وأكشف عن مظالمهم كما رأيت. وأنا على هذه الحالة مدة فأقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خويصاتنا، ونبتاع من ثمنها طعامًا وتفطر معنا وتبيت عندنا الليلة ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى. فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسى العمر فأخذ ما عملاه من خوص، وسار به إلى السوق فباعه، واشترى من ثمنه خبزًا وفولاً، واشترى بباقى ثمنه خوصًا، فلما كان عند الغروب أفطرا وأفطرت معهما، وبت عندهما. قال: فقاما فى نصف الليل يصليان ويبكيان فلما كان السحر قال الملك: اللّهم إن عبدك هذا يطلب منك رد سحابته، وإنك قد دللته علينا، اللّهم ارددها عليه إنك على كل شئ قدير، والمرأة تؤمن على دعائى، وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء فقال لى: لك البشارة بقضاء حاجتك، وتعجيل إجابتك، قال فودعتهما وانصرفت والسحابة معى كما كانت، فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئًا إلا أعطانى إياه رحمة الله تعالى عليهما:

استعملِ الصبرَ تجنِ بعده العسلا ولازم البابَ حتى تبلغَ الأملا

---

(١) داثر: ممحٍ.
(٢) برش: حصير.
(٣) الشن: القربة.
(٤) الخوص: ورق النخل.
(٥) الجمعة: أى أحوال الأسبوع.

ومــرّغِ الخــدَّ فــى أعتابـــه ســـحرًا واحمِلْ لمرضاتِهِ فى الحــبِّ كــلَّ بــلا[١]
فمـا يفـوزُ بوصـلٍ يـــا أخَــيَّ ســوى صبٌّ لثقلِ الهوى والوجدِ قد حملا
هذا الحبيبُ ينادى فى الدُّجَـى سـحرًا فانهض وكن رجلاً بالسعيِ قد وصلا

وحكي عن مالك بن دينار رحمه اللّه تعالى قال: خرجت إلى مكة حاجًا فبينما أنا سائر، إذ رأيت شابًا ساكتًا لا يذكر اللّه تعالى.

فلما جن الليل رفع وجهه نحو السماء، وقال: يا مـن لا تسره الطاعات ولا تضره المعاصى، هب لى ما لا يسرك، واغفر لى ما لا يضرك، ثم رأيته بذى الحليفة وقد لبس احرامه والناس يلبُّون، وهو لا يلبى. فقلت: هذا جاهل. فدنوت منه فقلت له: يا فتى، قال: لبيك. قلت: لِمَ لا تلبى، فقال: يا شيخ وما تغنى التلبية وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات؟ واللّه إنى لأخشى أن أقول: لبيك فيقول لا لبيك، ولا سعديك، لا أسمع كلامك ولا أنظر إليك. فقلت له: لا تقل ذلك، فإن حليم، إذا غضب رضى، وإذا رضـى لم يغضب، وإذا وعد وفّى ومتى توعد عفا.

فقال: يا شيخ أتشير علىّ بالتلبية؟ قلت: نعم. فبادر إلى الأرض واضطجع، ووضع خده علـى التراب، وأخذ حجرًا فوضعه على خده الآخر وأسبل دموعه، وقال: لبيك، اللّهـم لبيك قد خضعت لك وهذا مصرعى بين يديك. فأقام كذلك ساعة ثم مضى، فما رأيته إلا بمنى وهو يقـول: اللّهـم إن النـاس قـد ذبحوا ونحروا، وتقربوا إليك، وليس لى شئ أتقرب به إليك سوى نفسى، فتقبلها منى. ثـم شـهق شـهقة وخر ميتًـا رحمة اللّه تعـالى عليـه.

وحكى أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد اللّه الأندلسـى، وكـان شيخًا لكل مَنْ بالعراق، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وكان يقرأ القـرآن بجميع الروايات. فخـرج فـى بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلى وغيرهما من مشايخ العراق. قال الشبلى: فلم نزل فى خدمته ونحن مكرمون بعناية اللّه تعالى، إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار. فطلبنا ماء نتوضـأ به فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية، وإذا نحن بكنائس، وبها شمامسة وقساوسة، ورهبان وهـم يعبدون الأصنام والصلبان، فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم، ثم انصرفنا إلى بئر فى آخر القريـة، وإذا نحـن بجوار يستقين المـاء على البئر، وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها، وفى عنقها قلائد الذهب. فلّما رآها الشيخ تغير وجهه وقال: هذه ابنة من؟ فقيل له: هذه ابنة ملك هذه القرية، فقال الشيخ: فلِمَ لا يدلّلها أبوها ويكرمها ويدعها تستقى الماء، فقيل له: أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمته، وخدمته ولا تعجبهـا نفسـها. فجلس الشيخ ونكس رأسه، ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل، ولا يشرب، ولا يكلم أحدًا غير أنـه يـؤدى الفريضة، والمشايخ واقفون بين يديه، ولا يدرون ما يصنعون.

قال الشبلى: فتقدمت إليه وقلت له: يا سيدى إن أصحابك ومريديك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام، وأنت ساكت لم تكلم أحدًا.

قال: فأقبل علينا، وقال: يا قوم اعلموا أن الجارية التى رأيتها أمس قد شغفت بها حبًّا، واشتغل بها قلبى، وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض. قال الشبلى: فقلت له: يا سيدى أنت شيخ العراق، ومعـروف بـالزهد فـى سائر الآفاق، وعدد مريديك اثنا عشر ألفًا، فلا تفضحنا وإياهم، بحرمة الكتاب العزيز. فقال: يـا قـوم جرى القلم بما

---

(١) مقصور: بلاء.

حكم، ووقعت فى بحار العدم، وقد انحلت عنى عرى[١] الولاية، وطويت عنى أعلام الهداية. ثم إنه بكى بكاء شديدًا، وقال: يا قوم انصرفوا فلقد نفذ القضاء والقدر. فتعجبنا من أمره، وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره، ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد، فخرج الناس إلى لقائه، ومريدوه فى جملة الناس فلم يروا فسألوا عنه فعرفناهم بما جرى، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزنًا عليه وأسفًا، وجعل الناس يبكون، ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم، وغلقت الرباطات[٢] والزوايا والخوانق[٣] ، ولحق الناس حزن عظيم. فأقمنا سنة كاملة وخرجت مع بعض أصحابى نكشف خبره، فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ فقيل لنا: إنه فى البرية يرعى الخنازير. قلنا: وما السبب فى ذلك؟ قالوا: إنه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوجها إلا ممن هو على دينها. ويلبس العباءة، ويشد الزنار، ويخدم الكنائس، ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله. ها هو فى البرية يرعى الخنازير. قال الشبلى: فانصدعت قلوبنا. وانهملت بالبكاء عيوننا، وسرنا إليه وإذا به قائم قدام الخنازير، فلما رآنا نكس رأسه، وإذا عليه قلنسوة النصارى، وفى وسطه زنار وهو متوكئ[٤] على العصا التى كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب فسلمنا عليه، فرد علينا السلام فقلنا: يا شيخ ما ذاك؟ وماذا؟ وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم؟ فقال: يا إخوانى وأحبابى ليس لى من الأمر شئ، سيدى تصرف فىّ كيف شاء، وحيث أراد أبعدنى عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبابه، فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده، والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء. ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: يا مولاى ما كان ظنى فيك هذا. ثم جعل يستغيث ويبكى ونادى: يا شبلى اتعظْ بغيرك. فنادى الشبلى بأعلى صوته: بك المستعان، وأنت المستغاث، وعليك التكلان[٥] أكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك. قال: فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم، وجعلت تمرغ وجهها بين أيديهم، وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال.

قال الشبلى: فظننت أن القيامة قد قامت، ثم إن الشيخ بكى بكاء شديدًا، قال الشبلى: فقلنا له: هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد؟ فقال: كيف لى بذلك، وقد استرعيت الخنازير، بعد أن كنت أرعى القلوب؟ فقلت: يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرأه بالسبع، فهل بقيت تحفظ منه شيئًا؟ فقال: نسيته كله إلا آيتين. فقلت وما هما قال: قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾[٦] والثانية قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾[٧] فقلت: يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهل تحفظ منها شيئًا؟ قال: حديثًا واحدًا وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «من بدل دينه فاقتلوه»[٨] .

قال الشبلى: فتركناه وانصرفنا ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة أيام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر، وطلع وهو يشهد شهادة الحق، ويجدد إسلامه. فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور، فنظر إلينا وقال: يا قوم أعطونى ثوبًا طاهرًا، فأعطيناه ثوبًا فلبسه، ثم صلى وجلس فقلنا له: الحمد لله الذى ردَّك علينا وجمع شملنا بك، فصِفْ لنا ما جرى لك، وكيف كان أمرك. فقال: يا قوم لما وليتم من عندى سألته بالوداد القديم، وقلت

---

(١) عرى: فُكت مقاليدها.

(٢) الرباطات: مدرسة أو مسجد يجتمع فيها أهل العبادة.

(٣) مفردها خانقاه: بقعة يسكنها أهل الصلاح من الصوفية.

(٤) متوكئ: مستند.

(٥) التكلان: الاتكال والاعتماد.

(٦) سورة الحج: ١٨.

(٧) سورة البقرة: ١٠٨.

(٨) أخرجه: البخارى فى كتاب الجهاد والسير ٣٠١٧.

له: يا مولاى أنا المذنب الجانى، فعفا عنى بجوده، وبستره غطانى. فقلنا لـه: باللّه نسـألك هل كـان لمحنتـك مـن سبب؟ قال: نعم، لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس، قلت فى نفسى مـا قـدر هـؤلاء عنـدى، وأنـا مؤمن موحد، فنوديت فى سرى ليس هذا منك، ولو ئشت عرّفناك، ثم أحسست بطائر قد خرج مـن قلبـى فكـان ذلك الطائر هو الإيمان.

قال الشبلى: ففرحنا به فرحنا شديدًا، وكان يوم دخولنا يومًا عظيمًا مشـهودًا، وفتحـت الزوايـا، والرباطـات والخوانق، ونزل الخليفة للقاء الشيخ، وأرسل إليه الهدايا، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفًا، وأقام علـى ذلك زمانًا طويلاً، ورد اللّه عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث، وزاده على ذلك. فبينما نحن جلوس عنده فى بعض الأيام بعد صلاة الصبح، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية فنظرت من الباب فإذا شـخص ملتـف بكسـاء أسود. فقلت له: ما الذى تريد؟ فقال: قل لشيخكم: إن الجارية الرومية التى تركتها بالقريـة الفلانيـة قـد جـاءت لخدمتك. قال: فدخلت فعرّفت الشيخ فاصفر لونه، وارتعد، ثم أمر بدخولها فلما دخلت عليه بكت بكاء شديدًا. فقال لها الشيخ: كيف كان مجيئك، ومن أوصلك إلى هنا؟ قالت: يا سيدى لما وليت من قريتنا جاءنى من أخبرنى بك، فبت ولم يأخذنى قرار، فرأيت فى منامى شخصًا وهو يقول: إن أحببتِ أن تكونى من المؤمنات فاتركى مـا أنت عليه من عبادة الأصنام، واتبعى ذلك الشيخ، وادخلى فى دينه. فقلت: وما دينه؟ قال: دين الإسـلام. قلـت: وما هو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّـه. فقلـت: كيـف لى بـالوصول إليـه؟ قـال: اغمضـى عينيك واعطينى يدك ففعلت، فمشى قليلاً ثم قال: افتحـى عينيـك. ففتحتهمـا فـإذا أنـا بشـاطئ الدجلـة. فقـال: امضى إلى تلك الزاوية واقرئى الشيخ منى السلام، وقولى له: إن أخاك الخضر يسلم عليك. قال: فأدخلهـا الشـيخ إلى جواره، وقال: تعبدى ههنا. فكانت أعبد أهل زمانها، تصوم النهار، وتقـوم الليـل حتـى نحـل جسـمها وتغـير لونها فمرضت مرض الموت، وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقالت: قولوا للشيخ: يدخل علىّ قبل الموت. فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رأته بكت. فقال لها: لا تبكى. فإن اجتماعنا غدًا فـى القيامة، فـى دار الكرامة، ثم انتقلت إلى رحمة اللّه تعالى. فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أيامًا قلائـل حتـى مات رحمـة اللّـه تعـالى عليه.

قال الشبلى: فرأيته فى المنام وقد تزوج بسبعين حوراء، وأول ما تزوج بالجاريـة، وهمـا مع الذيـن أنعـم اللّه عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئـك رفيقًـا، ذلـك الفضـل مـن اللّـه وكفـى باللّـه عليمًا، وصلى اللّه عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثانى والثلاثون فى ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة

عن النواس بن سمعان رضى اللّٰه عنه عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم: أنه قال: «قبل قيام الساعة يرسل اللّٰه ريحًا باردة طيبة فتقبض روح كل مؤمن، ويبقى شرار الخلق يتهارجون[1]، تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». وقال مالك بن دينار رحمه اللّٰه تعالى: كفى بالمرء شرًا أن لا يكون صالحًا، ويقع فى الصالحين. وقال لقمان لابنه: يا بنىّ كذب من قال: الشر يطفئ الشر، فإن كان صادقًا فليوقد نارين ثم ينظر، هل تطفئ إحداهما الأخرى، وإنما يطفئ الشر الخير، كما يطفئ الماء النار.

ووصف بعضهم رجلاً من أهل الشر فقال: فلان عرى من حلة التقوى، ومحى عنه طابع الهدى، لا تثنيه يد المراقبة، ولا تكفه خيفة المحاسبة، وهو لدعائم دينه مضيع، ولدواعى شيطانه مطيع:

كأنه التيسُ قد أودى به هرمٌ ... فلا لحمٌ ولا صوفٌ ولا ثمر

وقيل: من فعل ما شاء، لقى ما ساء، وقيل: زنى رجل بجارية فأحبلها. فقالوا له: يا عدو اللّٰه هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت. قال: قد بلغنى أن العزل مكروه. قالوا: فما بلغك أن الزنا حرام؟ وقيل لأعرابى كان يتعشق قينة: ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها؟ قال: فمن لى إذا ذاك بلذة الخلسة، ولقاء المسارقة، وانتظار الموعد؟ وقال أبو العيناء: رأيت جارية مع النخاس، وهى تحلف أن لا ترجع لمولاها فسألتها عن ذلك، فقالت: يا سيدى، إنه يواقعنى من قيام، ويصلى من قعود، ويشتمنى بإعراب، ويلحن فى القرآن، ويصوم الخميس والاثنين، ويفطر رمضان، ويصلى الضحى، ويترك الفرض. فقلت: لا أكثر اللّٰه فى المسلمين مثله. وكانت ظَلَمَةُ القوادةَ[2] وهى صغيرة فى المكتب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم، فلما شبت زنت، فلما كبرت قادت. وقال صاحب المسالك والممالك: إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحًا، خلا ملك قمار. قال الزمخشرى رحمه اللّٰه: أقمت بقمار سنين فلم أر ملكًا أغير منه، وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل،وقمار ينسب إليها العود القمار كما ينسب إلى مندل.قال مسكين الدارمى:

ولا ذنبَ للعودَ القماريِّ إنه ... يحرّقُ إن نَمتْ عليه روائحه

وقال ابن عباس رضى اللّٰه عنهما: عهدت الناس وهواهم لأديانهم، وإن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم. وقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «حسب امرئ من الشر، أن يحقر أخاه المسلم».

ما جاء فى الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت[3] ». وفى ذلك قيل:

إذا لم تَصُنْ عِرضًا و لم تخشَ خالقًا ... وتستحِ مخلوقًا فما شئت فاصنعِ

وقال ابن سلام: العاقل شجاع القلب، والأحمق شجاع الوجه. وذم الرجل قومًا فقال: وجوههم وأيديهم حديد، أى وقاح بخلاء، ووصف رجل وقحًا فقال: لو دق الحجارة بوجهه لردها، ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها.

قال الشاعر:

لو أنّ لى من جلدِ وجهكَ رقعةَ ... لجعَلْتُ منها حافرًا للأشهبِ[4]

---

(١) يتهارجون: يتلاعتون.

(٢) القوادةَ: صاحبة ترتيبات للزنا (احترافا).

(٣) أخرجه: البخارى فى أحاديث الأنبياء ٣٤٨٤.

(٤) الأشهبِ: هو الخيل.

وقال آخر:

إذا رُزِقَ الفتى وجهًا وقاحًا[١] تقلّبَ فى الأمورِ كما يشاءُ

وقال أنو شروان: أربعةٌ قبائح، وهى فى أربعةٍ أقبحُ، البخل فى الملوك، والكذب فى القضاء، والحسد فى العلماء، والوقاحة فى النساء، ويقال: من جسر أيسر ومن هاب خاب، قال الشاعر:

لا تكونَنَّ فى الأمورِ هيوبًا فإلى خيبةٍ يصيرُ الهيوبُ

وقال على رضى اللّه عنه: إذا هبت أمرًا فَقَعْ فيه، فإن شرًّا توقيه[٢] أعظم مما تخاف منه. وقال رضى اللّه عنه: الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا، وإذا افترقوا نفعوا. فقيل: قد علمنا مضرة اجتماعهم، فما منفعة افتراقهم. قال: يرجع أهل المهن إلى مهنهم فينتفع الناس بهم، كرجوع البنّاء إلى بنائه، والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه. وقال بعض السلف: لا تسبوا الغوغاء فإنهم يطفئون الحريق، ويخرجون الغريق. وقال الأحنف: ما قل سفهاء قوم إلاّ ذلوا. وقال حكيم: لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ فى حجره قيراطين من جهل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل، أراد السفه. قال الشاعر[٣]:

ألا لا يجهلَنْ أحَدٌ علينا فنجهلَ فوق جَهْلِ الجاهلينا

وقيل: الجاهل مَنْ لا جاهل له، أى مَنْ لا سفيه له يدفع عنه. وقيل: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه جالس، إذا جاء أعرابى فلطمه، فقام إليه واقد بن عمرو فجلد به الأرض.

فقال عمر: ليس بعزيز، مَنْ ليس فى قومه سفيه. وقال الشاعر:

ولا يلبثُ الجهالُ أن يتهضّموا أخا الحلمِ ما لم يستَعِنْ بجهولِ

وقال صالح بن جناح:

إذا كنتَ بين الجهلِ والحلمِ قاعدًا وخَيِّرتَ أنّى شِئتَ فالحلمُ أفضلُ

ولكن إذا أنصَفْتَ مَنْ ليس منصِفًا ولم يَرْضَ منك الحلمَ فالجهلُ أمثلُ

وقال الأحنف بن قيس:

وذى ضغنٍ أَبَيْتُ القولَ عنه بحلمٍ فاستمرَّ على المقالِ

ومَنْ يحلَمْ وليس له سفيهٌ يلاقِ المعضلاتِ من الرجالِ

وقال آخر:

فإن كنتَ محتاجًا إلى الحلمِ إننى إلى الجهالِ فى بعضِ الأحايينِ أحوجُ

ولى فرسٌ للخيرِ بالخيرِ ملجمٌ ولى فرسٌ للشرِّ بالشرِّ مسرجُ

فمَنْ رامَ تقويمى فإنى مقوَّم ومن رام تعويجى فإنى معوّجُ

وقال آخر:

فإن قيل حلمٌ قلتُ للحلمِ موضعٌ وحلمُ الفتى فى غيرِ موضعِهِ جهلُ

اللّهم إنا نعوذ بك أن نجهل، أو نُجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) وجهًا وقاحًا: أى وقحًا قليل الحياء.

(٢) توقيه: تجتنبه.

(٣) عمرو بن كلثوم التغلبى.

الباب الثالث والثلاثون فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد

اعلم أن الجود بذلك المال، وأنفعه ما صرف فى وجه استحقاقه، وقد ندب اللّه تعالى إليه فى قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[(١)] قيل: إن الجود، والسخاء، والإيثار بمعنى واحد. وقيل: مَنْ أعطى البعض وأمسك البعض، فهو صاحبُ سخاء، ومَنْ بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومَنْ آثر غيره بالحاضر، وبقى هو فى مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار. وأصلُ السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطى بخيلاً إذا صعب عليه البذل، والممسك سخيًا، إذا كان لا يستصعب العطاء.

فمن الإيثار ما حكى عن حذيفة العدوى أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى فى القتلى، ومعى شئ من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق[(٢)] سقيته، فإذا أنا به بين القتلى. فقلت له: أسقيك. فأشار إلىّ أن نعم. فسمع برجل يقول: آه، فأشار إلىّ ابن عمى أن انطلق إليه. فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك، فأشار إلىّ أن نعم، فسمع آخر يقول: آه.. فأشار إلى أن انطلق فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات.

ومن عجائب ما ذكر فى الإيثار: ما حكاه أبو محمد الأزدى قال: لما احترق المسجد بمرو وظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فأحرقوا خاناتهم. فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات، وكتب رقاعًا فيها القطع، والجلد، والقتل. ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها. فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال: واللّه ما كنت أبالى لولا أم لى. وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له: فى رقعتى الجلد، وليس لى أم، فخذ أنت رقعتى وأعطنى رقعتك ففعل. فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل. وقيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان، فجاء بناقة فنحرها. وقال: شأنكم. فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها وقال: شأنكم. فقلنا: ما أكلنا من التى نحرت البارحة إلا القليل. فقال: إنى لا أطعم ضيفانى البائت. فبقينا عنده أيامًا، والسماء تمطر، وهو يفعل كذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار فى بيته. وقلنا للمرأة: اعتذرى لنا إليه ومضينا. فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتمونا ثمن قرانا. ثم إنه لحقنا وقال: خذوها وإلا طعنتكم برمحى هذا. فأخذناها وانصرفنا.

وقال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام، وسخاؤها بما يملك على الخاص والعام. وجميع خصال الخير من فروعه. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «تجاوزوا عن ذنب السخى، فإن اللّه آخذ بيده كلما عثر، وفاتح له كلما افتقر». وعن جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنه قال: ما سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شيئًا قط فقال: لا. وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «السخى قريب من اللّه، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من اللّه بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولَجَاهلٌ سخىٌّ أحبُّ إلى اللّه من عابد بخيل».

---

(١) سورة آل عمران: ٩٢.

(٢) رمق: بقية من روح.

وقال بعض السلف: منع الموجود سوء ظن بالمعبود وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[(١)] وقال الفضيل: ما كانوا يعدون القرض معروفًا. وقال أكثم بن صيفى: صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد له متكأ. وقيل للحسن بن سهل: لا خير فى السرف، فقال: لا سرف فى الخير فقلب اللفظ، واستوفى المعنى. ووجد مكتوبًا على حجر: انتهز الفرصَ عند إمكانها، ولا تحمل نفسك همَّ ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك[(٢)] على نفسك توفيرٌ لخزانة غيرك، فكَم من جامعٍ لبعل حليلته. وقال على رضى اللّه تعالى عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك، فإنما أنت فيه خازن لغيرك.

وقال النعمان بن المنذر يومًا لجلسائه: مَنْ أفضل الناس عيشًا، وأنعمهم بالاً، وأكرمهم طباعًا، وأجلّهم فى النفوس قدرًا؟ فسكت القوم. فقام فتى فقال: أبيت اللعن، أفضلُ الناسِ مَنْ عاش الناسُ فى فضله. فقال: صدقت. وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحبُّ أن أرد أحدًا عن حاجة، لأنه إن كان كريمًا أصون عرضه، أو لئيمًا أصون عنه عرضى. وكان مورق العجلى يتلطف فى إدخال السرور والرفق على إخوانه فيضع عند أحدهم البدرة ويقول له: أمسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل يقول له: أنت منها فى حل. وقال الحسن رضى اللّه عنه: باع طلحة بن عثمان رضى اللّه تعالى عنه أرضًا بسبعمائة ألف درهم، فلما جاءه المال قال: إن رجلاً يبيت هذا عنده، لا يدرى ما يطرقه، لغرير[(٣)] باللّه تعالى ثم قسمه فى المسلمين. ولما دخل المنكدر على عائشة رضى اللّه عنها قال لها: يا أم المؤمنين أصابتنى فاقة. فقالت: ما عندى شئ، فلو كان عندى عشرة آلاف درهم لبعثت بها إليك. فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد، فأرسلت بها إليه فى أثره فأخذها ودخل بها السوق فاشترى جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد، فكانوا عبّاد المدينة، وهم محمد، وأبو بكر، وعمرو بنو المنكدر.

وأكرم العرب فى الإسلام طلحة بن عبيد اللّه رضى اللّه تعالى عنه، جاء إليه رجل فسأله برحم بينه وبينه. فقال: هذا حائطى بمكان كذا وكذا، وقد أعطيت فيه مائة الف درهم يراح إلىّ بالمال العشية، فإن شئت فالمال، وإن شئت فالحائط. وقال زياد بن جرير: رأيت طلحة بن عبيد اللّه فرق مائة ألف فى مجلس، وإنه ليخيط أزراره بيده.

وذكر الإمام أبو على القالى فى كتاب الأمالى أن رجلاً جاء إلى معاوية رضى اللّه تعالى عنه، فقال له: سألتك بالرَّحِمِ التى بينى وبينك إلا ما قضَيْتَ حاجتى. فقال له معاوية: أمِنْ قريشٍ أنت؟ قال: لا، قال: فأى رَحِمٍ بينى وبينك؟ قال: رَحِم آدمَ عليه السلام. قال: رَحِمٌ مجفوّة واللّه لأكونن أول من وصلها. ثم قضى حاجته.

وروى أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدى بن حاتم يستعير منه قدورًا كانت لأبيه حاتم، فملأها مالاً وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيدها فارغة، وكان الأستاذ أبو سهل الصعلوكى من الأجواد. ولم يناول أحدًا شيئًا، وإنما كان يطرحه فى الأرض، فيتناوله الآخذ من الأرض. وكان يقول: الدنيا أقل خطرًا من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى، وقد قال النبى صلى اللّه عليه وسلم: «اليد العليا، خير من اليد السفلى[(٤)]». وسأل معاوية الحسن بن على رضى اللّه تعالى عنهم عن الكرم، فقال: هو التبرع بالمعروف، قبل السؤال، والرأفة بالسائل مع البذل. وقدم رجل من قريش من سفر فمر على رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر، وأضرَّ به المرض. فقال له: يا هذا أعنا على الدهر. فقال لغلامه: ما بقى معك من النفقة فدفعه إليه. فصب فى حجره أربعة آلاف درهم فهمّ ليقوم فلم يقدر من الضعف فبكى، فقال له الرجل: ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه إليك، فقال: لا واللّه

---

(١) سورة سبأ: ٣٩.

(٢) تقتير: الشح والتوفير.

(٣) الغرير: قليل الثقة، مفتر بشكل فاسد.

(٤) أخرجه: البخارى فى: الزكاة ١٤٣٨.

ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني. وقال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فدَقّ عليه الباب فخرج إليه وسأله عن حاجته. فقال: عليّ دين كذا وكذا. فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكيًا، فقالت له زوجته: هلاّ تعللت حيث شقت عليك الإجابة، فقال: إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله، حتى احتاج إلى أن يسألني.

ويروى أن عبد اللّه بن أبى بكر، وكان من أجود الأجواد، عطش يومًا فى طريق فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزًا، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذ بعض غلمانكم، فإنى امرأة عزب[1] مات زوجى منذ أيام فشرب عبد اللّه الماء، وقال: يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم. فقالت: سبحان اللّه أتسخر بى؟ فقال: يا غلام احمل إليها عشرين ألفًا، فقالت: أسأل اللّه العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفًا، فما أمست حتى كثر خطابها. وكان رضى اللّه تعالى عنه ينفق على أربعين دارًا من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحى والكسوة فى الأعياد، ويعتق فى كل عيد مائة مملوك رضى اللّه عنه. ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه فى العيادة، فسأل عنهم فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى اللّه ما لا يمنع عنى الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا ينادى: من كان لقيس عنده مال فهو منه فى حلٍّ، فكسرت عتبة بابه بالعشى لكثرة العواد. وكان عبد اللّه بن جعفر من الجود بالمكان المشهود، وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم فى كل سنة فيفرقها فى الناس ولا يُرى إلا وعليه دين. وسمّن رجل بهيمة، ثم خرج بها ليبيعها فمر بعبد اللّه بن جعفر رضى اللّه تعالى عنه. فقال: يا صاحب البهيمة أتبيعها؟ قال: لا، ولكنها هى لك هبة، ثم تركها له وانصرف إلى بيته، فلم يلبث إلا يسيرًا وإذا بالحمالين على بابه عشرين نفرًا، عشرة منهم يحملون حنطة، وخمسة لحمًا وكسوة، وأربعة يحملون فاكهة ونقلاً، وواحد يحمل مالاً فأعطاه جميع ذلك واعتذر إليه رضى اللّه تعالى عنه. ولما مات معاوية رضى اللّه تعالى عنه وفد عبد اللّه بن جعفر على يزيد ابنه فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك؟ فقال: كان رحمه اللّه يعطينى ألف ألف، فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. فقال: بأبى وأمى أنت. فقال: ولهذه ألف ألف. فقال: أما أنى لا أقولها لأحد بعدك. فقيل ليزيد: أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد. فقال: واللّه ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، ثم وكّل به يزيد من صحبه وهو لاي علم، لينظر ما يفعل، فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدَّين.

وخرج رضى اللّه تعالى عنه، وهو والحسنان وأبو دحية الأنصارى رضى اللّه تعالى عنهم، من مكة إلى المدينة، فأصابتهم السماء بمطر، فلجؤوا إلى خباء أعرابى، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فذبح لهم الأعرابى شاة، فلما ارتحلوا قال عبد اللّه للأعرابى: إن قدمت المدينة فسل عنا. فاحتاج الأعرابى بعد سنين. فقالت له امرأته: لو أتيت المدينة فلقيت أولئك الفتيان. فقال: قد نسيت أسماؤهم. فقالت: سَلْ عن ابن الطيار. فأتى المدينة فلقى سيدنا الحسن رضى اللّه تعالى عنه فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها. ثم أتى الحسين رضى اللّه تعالى عنه فقال: كفانا أبو محمد مؤونة الإبل. فأمر له بألف شاة، ثم أتى عبد اللّه بن جعفر رضى اللّه تعالى عنه فقال: كفانى إخوانى الإبل والشياه. فأمر له مائة ألف درهم، ثم أتى أبا دحية رضى اللّه تعالى عنه فقال: واللّه ما عندى مثل ما أعطوك، ولكن ائتنى بإبلك فأوقرها لك تمرًا. فلم يزل اليسار فى عقب الإعرابى من ذلك اليوم.

وقال الحسن والحسين يومًا لعبد اللّه بن جعفر رضى اللّه عنهم: إنك قد أسرفت فى بذل المال. فقال: بأبى أنتما، إن اللّه عَزَّ وجلَّ عوَّدنى أن يتفضل عليّ، وعودته أن أتفضل على عباده. فأخاف أن أقطع العادة فيقطع

---

(١) عزب: بلا زوج، وهى لفظة للمذكر والمؤنث.

عني المادة. وامتدحه نصيب فأمر له بخيل، وأساس ودنانير، ودراهم. فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطى له هذا المال. فقال: إن كان أسود فإن ثناءه أبيض. ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطيناه إلا ثيابًا تبلى، ومالاً يفنى، وأعطانا مجدًا يروى، وثناء يبقى. وخرج عبد اللّه رضى اللّه تعالى عنه يومًا إلى ضيعة له فنزل على حائط به نخيل لقوم، وفيه غلام أسود يقوم عليه فأتى بقوته ثلاثة اقراص فدخل كلب فدنا منه الغلام فرمى إليه بقرص فأكله. ثم رمى إليه بالثاني، والثالث فأكلهما، وعبد اللّه ينظر إليه. فقال: يا غلام، كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فلِمَ آثرت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هى بأرض كلاب، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعًا، فكرهت أن أرده. قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوى[1] يومى هذا. فقال عبد اللّه بن جعفر: أألامُ على السخاء؟ وإن هذا لأسخى منى، فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات. واشترى الغلام، ثم أعتقه، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل والآلات. فقال الغلام: إن كان ذلك لى، فهو فى سبيل اللّه تعالى، فاستعظم عبد اللّه ذلك منه، فقال: يجود هذا، وأبخل أنا، لا كان ذلك أبدًا.

وكان عبد اللّه بن عباس رضى اللّه تعالى عنهما من الأجواد، أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال: يا ابن عباس إن لى عندك يدًا، وقد احتجت إليها. فصعّد فيه بصره فلم يعرفه. فقال: ما يدك؟ قال: رأيتك واقفًا بفناء زمزم وغلامك يمنح[2] لك من مائها، والشمس قد صهرتك فظللتك بفضل كسائى حتى شربت. فقال: أجل إنى لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. فقال: ادفعها إليه وما أراها تفى بحق يده. وقدم عبد اللّه بن عباس رضى اللّه تعالى عنهما على معاوية مرة فأهدى إليه من هدايا النوروز حللاً كثيرة ومسكًا، وآنية من ذهب وفضة. ووجهها إليه مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه، نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها. فقال له: هل فى نفسك منها شئ. قال: نعم. واللّه إنَّ فى نفسى منها ما كان فى نفسى يعقوب ابن يوسف عليهما الصلاة والسلام. فضحك عبد اللّه وقال: خذها فهى لك. قال: جعلت فداءك، أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيحقد علىَّ. قال: فاختمها بخاتمك، وسلّمْها إلى الخازن، فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلاً. فقال الحاجب: واللّه لهذه الحيلة فى الكرم، أكثر من الكرم. وحبس معاوية عن الحسين بن ع ى رضى اللّه تعالى عنهما صلاته فقيل له: لو وجهت إلى ابن عمك عبد اللّه بن عباس فإنه قد قدم بنحو ألف ألف من عبد اللّه فواللّه لهو أجود من الريح.

إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر. ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه، وضيق حاله، وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم، فلما قرأ عبد اللّه كتابه انهملت عيناه، وقال: ويلك يا معاوية أصبحت لين المهاد رفيع العماد[3] والحسين يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال. ثم قال لوكيله: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب، وفضة، ودواب، وأخبره أنى شاطرته، فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثانى. فلما أتاه الرسول قال: إنا للّه وإنا إليه راجعون ثقلت واللّه على ابن عمى، وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله. رضوان اللّه عليهم أجمعين.

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد اللّه بن عباس رضى اللّه تعالى عنهما، فقال له: يا ابن عم محمد، إنه ولد لى فى هذه الليلة مولود، وإنى سميته باسمك تبركًا منك، وإن أمه ماتت. فقال له: بارك اللّه لك فى الهبة، وآجرك على المصيبة، ثم دعا بوكيله وقال له: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتى دينار لينفقها

---

(١) أطوى: أجوع.

(٢) يمنح الماء: رفعه.

(٣) رفيع العماد: سيد مرفه.

على تربيته، ثم قال للأنصارى: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا وفى العيش يسٌ، وفى المال قلة. فقال الأنصارى: جعلت فداءك لو سبقت حاتمًا بيوم ما ذكرته العرب. وقال أبو جهم بن حذيفة يومًا لمعاوية: أنت عندنا يا أمير المؤمنين، كما قال ابن عبد كلال:

يقينًا ما نخافُ وإن ظننا ... به خيرًا أرانــاه يقينَا
نميلُ على جوانبهِ كأنَّا ... إذا مِلْنا نميلُ على أبينَا
نقلبُه لنخبرَ حالتَيْه ... فنخبرَ منهما كرمًا ولينَا

فأمر له بمائة ألف درهم، وأنشده عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما:

بلَوْتُ الناسَ قرنًا بعد قرنٍ ... فلم أرَ غير ختالٍ[1] وقالٍ[2]
ولم أر فى الخطوب أشدَّ وقعًا ... وأمضَى من معاداةِ الرجالِ
وذقتُ مرارةَ الأشياءِ طرًّا[3] ... فما شىءٌ أمرُّ من السؤالِ

فأعطاه مائة ألف درهم. ودخل عليه الحسن يومًا وهو مضطجع على سريره، فسلم عليه، وأقعده عند رجليه. وقال: ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها؟ تزعم أنى لست للخلافة أهلاً، ولا لها موضعًا. فقال الحسن: أو عجبًا مما قالت؟ قال: كل العجب.

قال الحسن: وأعجب من هذا كله جلوسي عند رجليك. فاستحيا معاوية، واستوى جالسًا. ثم قال: أقسمت عليك يا أبا محمد إلا ما أخبرتنى كم عليك دينًا؟ قال: مائة ألف درهم فقال: يا غلام أعط أبا محمد ثلثمائة ألف درهم، مائة ألف يقضى بها دينه، ومائة ألف يفرقها على مواليه، ومائة ألف يستعين بها على نوائبه وسوغها إليه الساعة.

وكان معن بن زائدة من الأجواد، وكان عاملاً على العراق بالبصرة. قيل: إنه أتى إليه بعض الشعراء فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه فلم يتهيأ له ذلك. فقال يومًا لبعض الخدم. إذا دخل الأمير البستان فعرفنى، فلما دخل أعلمه بذلك. فكتب الشاعر بيتًا ونقشه على خشبة، وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان، وكان معن جالسًا على القناة فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها بيت مفرد:

أيا جودُ مَعْنٍ ناجِ معنًا بحاجتى ... فليسَ إلى مَعْنٍ سواك شفيعُ

فقال: مَن الرجل صاحب هذه؟ فأتى به إليه. فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطة فلما كان فى اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ونظر فيها، وقال: علىّ بالرجل صاحب هذه. فأتى به. فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت. فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان فى اليوم الثالث أخرجها ونظر فيها وقال: علىّ بالرجل صاحب هذه فأتى به إليه.

فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت. فأمر له بعشر بدر فأخذها. وتفكر فى نفسه، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج من البلد بما معه، فلما كان فى اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده.

---

(١) ختال: مخادع.
(٢) وقال: كاره.
(٣) طرًا: جميعًا.

فقال معن: لقد ساء والله ظنه، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار وفيه يقول القائل[1]:

يقولــــون معــــنٌ لا زكـــاةَ لمالِـــهِ ... وكيـفَ يزكّـى المالَ مَـنْ هـو باذلُـهْ
إذا حال حــوْلٌ لم تجـدْ فـى ديـارهِ ... مــنَ المــالِ، إلا ذكـــرُهُ وجمائلُـــهْ
تـــراه إذا مــــا جئتــــهُ متهلّــــلاً ... كـأنكَ تعطيـهِ الـذى أنـت نائلُـــهْ
تعـوَّدَ بَسْـطَ الكـفِّ حتـى لـو أنـهُ ... أرادَ انقباضًـــا لم تَطِعْـــهُ أناملُـــهْ
فلـو لم يكـن فـى كفِّـه غـيرُ نفسِـهِ ... لجـــادَ بهـــا فَلْيَتّــقِ اللّـــه ســـائلُهْ

ومن قول معن:

دَعينــى أنهـــبِ الأمـــوالَ حتـــى ... أعـــفَّ الأكرمـــين عـــنِ اللئــامِ

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار فى الجود عجيبة. من ذلك ما حكاه عقيل، بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط، أتيته فقلت: أيها الأمير إن رأيت أن تأذنَ لى فأصحبك، قال: إذا قدمت واسط فَأتينا إن شاء الله تعالى. فسافر وأقمت. فقال لى بعض إخوانى: اذهب إليه. فقلت: كان جوابه فيه ضعف. قالوا: أتريد من يزيد جوابًا أكثر مما قال. قال: فسرت حتى قدمت عليه، فلما كان فى الليل دعيت إلى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى. فالتفت إلىّ يزيد وقال: إيه يا عقيل فقلت:

أفـاضَ القـومُ فـى ذكـر الجـوارى ... فأمَّـــا الأعزبـــون فلـــم يقولـــوا

قال: إنك لن تبقى عزبًا. فلما رجعت إلى منزلى، إذا أنا بخادم قد أتانى ومعه جارية وفرش بيت، وبدرة عشرة آلاف درهم، وفى الليلة الثانية كذلك. فمكثت عشرة ليال وأنا على هذه الحالة. فلما رأيت ذلك دخلت عليه فى اليوم العاشر فقلت: أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت، فإن رأيت أن تأذنَ لى فى الرجـ ع فأكبت عدوّى، وأمر صديقى. فقال: إنما أخيِّرك بين خِلتَين، وإما أن تقيم فنولِّيك، أو ترحل فنغنيك. فقلت: أو لم تغننى أيها الأمير؟ قال: إنما هذا أثاث المنزل، ومصلحة القدوم. فنالنى من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال: حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقًا يحلق رأسه، فجاءوه بحلاق فحلق رأسه فأمر له بخمسة آلاف درهم. فتحير الحلاق ودهش، وقال: آخذ هذه الخمسة آلاف وأمضى إلى أم فلان، وأخبرها أنى قد استغنيت. فقال: أعطوه خمسة آلاف أخرى. فقال: امرأتى طالق إن حلقت رأس أحد بعدك. وقيل: إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه، مقدار مائة ألف ألف درهم، فجمعت له وهو فى السجن، فجاءه الفرزدق يزوره، فقال للحاجب: استأذن لى عليه. فقال: إنه فى مكان لا يمكن الدخول عليه فيه. فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعًا لما هو فيه، ولما آت ممتدحًا فَأذنْ له، فلما أبصره قال:

أَبَـا خـالدٍ ضـاقَتْ خراسانُ بعدكَــم ... وقــال ذوو الحاجـــات أيـــن يزيـــدُ
فمـا قطرَتْ بالشـرقِ بعــدَك قطـرةٌ ... ولا أخضــرَّ بــالمروَيْن بعـدَك عــودُ
ومــا لســرورُ بعـــدَ عـــزِّك بهجــةٌ ... ومــا لجــوادٍ بعـد جــودِكَ جــودُ

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف ألف درهم، التى جمعت لنا، ودع الحجاج ولحمى يفعل فيه ما يشاء. فقال الحاجب للفرزدق: هـذا الذى خفت منه لمّا منعتك من دخولك عليه، ثم دفعها إليه فأخذها

(١) زهير بن أبى سلمى.

وانصرف. ومرّ يزيد ابن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه بعجوز أعرابية فذبحت له عنزًا فقال لابنه: ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار. قال: ادفعها إليها. فقال: هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك. قال: إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلاّ بالكثير، وإن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى. وقال مروان بن أبى الحبوب الشاعر: أمر لى بمائة وعشرين ألفًا، وخمسين ثوبًا، ورواحل كثيرة. فقلت أبياتًا فى شكره فلما بلغت قولى:

فأمسِكْ ندى كفّيْك عنى ولا تَزِدْ ... فقد خفتُ أن أطغى وأن أتجبَّرَا

فقال: والله لا أمسك حتى أغرقك بجودى، وأمر له بضياع بألف ألف. وقال أبو العيناء: تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلب فى الدولة المروانية، وعلى البرامكة فى الدول العباسية، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبى داود أسخى منهم جميعًا وأفضل. وسئل إسحاق الموصلى عن سخاء أولاد يحيى بن خالد فقال: أما الفضل فيرضيك فعله، وأما جعفر فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد. وفى يحيى يقول القائل:

سألتُ الندَى هل أنتَ حرٌّ فقال لا ... ولكنْ عبدٌ ليحيى بنِ خالدِ
فقلتُ شراءٌ قال لا بل وارثةٌ ... توراثنى من والدٍ بعدَ والدِ

وفى الفضل يقول القائل:

إذا نزلَ الفضلُ بنُ يحيى ببلدةٍ ... رأيتُ بها غيثَ السماحةِ ينبتُ
فليس بسَعَّالٍ[1] إذا سِيلَ حاجةً ... ولا يمكبُ[2] فى ثَرى الأرضِ ينكتُ

وفى محمد يقول القائل:

سألتُ الندى والجودَ ما لى أراكما ... تبدَّلْتما عزًّا بذلّ مؤبَّدِ
وما بال ركنُ المجدِ أمسى مهدَّمًا ... فقالا أصِبْنا بابنِ يحيى محمَّدِ
فقلتُ فهلا مُتما بعدَ موتِهِ ... وقد كنتما عبدَيْهِ فى كلِّ مشهدِ
فقالا أقَمْنا كى نَعزَّى بفَقْدِهِ ... مسافةَ يومٍ ثم نتلُوه فى غدِ

وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه: من كانت له إلىّ حاجة فليرفعها إلىّ فى كتاب لأصون وجهه عن المسألة. وجاءه رضى الله تعالى عنه أعرابى، فقال: يا أمير المؤمنين إن لى إليك حاجة، الحياء يمنعنى أن أذكرها. فقال خطها في الأرض فكتب: إنى فقير. فقال: يا قنبر، أكسِهِ، حلتى. فقال الأعرابى:

كسوتَنى حلةً تبلى محاسنَها ... فسوفَ أكسوكَ من حسنِ الثنا حللا
إن نلتَ حسنَ الثنا قد نلتَ مكرمةً ... وليس تبغى بما قدَّمْتَهُ بدَلا
إن الثناءَ لَيُحيى ذكرَ صاحبِهِ ... كالغيثِ يُحيى نداه السهلَ والجبلا
لا تزهدِ الدهرَ فى عرفٍ بدأت به ... كلُّ امرئ سوفَ يُجزى بالذى فعَلا

فقال يا قنبر: زده مائة دينار. فقال: يا أمير المؤمنين لو فرقتها فى المسلمين لأصلحت بها من شأنهم. فقال رضى الله تعالى عنه: صه يا قنبر فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اشكروا لمن أثنى عليكم، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. ولعبد الله بن جدعان:

---

(١) بسَعَّال: يتنحنح ويسعل فى غير راحة للعطاء.

(٢) يمكب: مطرق يتلهى.

إنـى وإنْ لم يَنَـلْ مـالى مداخلتـى ... وهّـابُ مـا ملكَتْ كفّـى مـن المـالِ
لا أحبسُ المـالَ إلا حيـثَ أنفقَـهُ ... ولا يغـيِّرنى حـالٌ إلى حـالِ

وقال بعض العرب لولده: يا بنيّ لا تزهدن فى معروف، فإن الدهر ذو صروف؛ فكم راغب كان مرغوبًا إليه، وطالب كان مطلوبًا ما لديه، وكن كما قال القائل:

وَعُـدَّ مـن الرحمـنِ فضـلاً ونعمـةً ... عليـك إذا مـا جـاء للخـير طـالبُ
ولا تمنعَـن ذا حاجـةٍ جـاء راغبًـا ... فـإنك لا تـدرى متـى أنـتَ راغـبُ

وقال بعضهم:

أبيتُ خميـصَ البطـنِ(١) عريانًـا طاويًـا ... وأوثـرُ بـالزادِ الرفيـقِ علـى نفسـى
وأمنحـه فرشـى وأفـترش الـثرى ... وأجعل ستر الليل مـن دونه لبسـى(٢)
حـذارِ أحـاديثَ المحـافلِ فـى غـدٍ ... إذا ضمَّنى يومًا إلى صدره رمسـى(٣)

وقال يحيى البرمكى: أعط الدنيا وهى مقبلة، فإن ذلك لا ينقصك منها شيئًا، وأعط منها وهى مدبرة فإن منعك لا يبقى عليك منها شيئًا. فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول: للّه دره ما أطبعه على الكرم وأعلمه بالدنيا. وقد أملى يحيى من نظمه فقال:

لا تبخلـنَّ بدنيـا وهـى مقبلـةٌ ... فليـس ينقصُهـا التبذيـرُ والسـرفُ
فـإن تولّـتْ فـأخرى أن تجـودَ بهـا ... فليسَ تبقـى ولكـنْ شـكرها خلف(٤)

وقال يحيى لولده جعفر يا بنيّ: ما دام قلمك يرعد فأمطره معروفًا. وقال بعضهم:

لا تكـثرى فـى الجـودِ لائمتـى ... وإذا بخلـتُ فـأكثرى لومـى
كفّـى فلسـتُ بحـاملٍ أبـدًا ... مـا عشـتُ هَـمَّ غـدٍ إلى يومـى

وقال على رضى اللّه تعالى عنه وكرم وجهه: لا تستحِ من عطاء القليل فالحرمان أقل منه. وسئل إسحاق الموصلى عن المخلوع فقال: كان أمره كله عجبًا، كان لا يبالى أين يقعد مع جلسائه، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر. كان عنده سليمان بن أبى جعفر يومًا فأراد الرجوع إلى أهله فقال له: سفر البر أحب إليك أم سفر البحر؟ قال: البحر ألين عليّ فقال: أوقروا(٥) له زورقه ذهبًا، وأمر له بألف ألف درهم. وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك وقال: قد هجانى يا أمير المؤمنين. فاستحضره سليمان وقال: لا أم لك، أتهجو سعيدًا. قال: يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر. عشقت جارية مدنية وأتيت سعيدًا فقلت: إنى أحبُّ هذه الجارية، وإن مولاتها أعطِيَتْ فيها مائتى دينار، وقد أتيتك فقال لى بورك فيك. فقال سليمان: ليس هذا موضع بورك بورك فيك. قال: فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالى فقال: يا جارية هاتى مطرفًا فأتته بمطرف خز فصرّ لى فى كل زاوية مائتى دينار فخرجت وأنا أقول:

أبـا خـالدٍ أعنـى سـعيد بـن خـالد ... اخا العرفِ لا أعنى ابن بنت سعيدِ
ولكننـى أعنـى ابـن عائشـةَ الـذى ... أبـو أبويـه خـالدٌ بـن أسـيدِ

---

(١) خميصَ البطنِ: خالية، أى: جائعًا.
(٢) اللبس: الخفاء.
(٣) الرمس: اللحد والقبر.
(٤) خلف: أى يجعل لها خلفًا.
(٥) أوقروا: حملوه وأثقلوه.

عقيد الندى ما عاش يرضى به النـدى ... فـإن مـاتَ لم يـرضَ النـدَى بعقيـدِ[١]
ذَرُوه ذَرُوه إنكـم قـد رقدتمـو ... ومـا هـو عـن إحسـانِكم برقـودِ

فقال سليمان: قل ما شئت. وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها:

إذا تكرهـتَ أن تعطـى القليـلَ ولم ... تقـدِرْ علـى سعةٍ لم يظهـرِ الجـودُ
بـثَّ النـوالَ ولا تمنَعْـكَ قلّتـهُ ... فكـلُّ مـا سـدَّ فقـرًا فهـو محمـودُ

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه، وفردة نعله. وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضًا بثمانين ألفًا. فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرًا. فقال: بل اجعله ذخرًا، لى واجعل للّه ذخرًا لولدى، وقسمه بين ذوى الحاجات. وكان ابن مالك القشيرى من الأجواد. قيل: إنه أنهب الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات فعاتبه خالد فقال:

يا خـالُ ذَرْنـى ومـالى مـا فعلتُ بـه ... وخُذْ نصيبَك منـه إننـى مـودى[٢]
فلـن أطيعـك إلا أن تخلدَنـى ... فـانظرْ بكيدِك هـل تستطيعُ تخليـدى
الحمـدُ لا يُشـترى إلا بمكرمـةٍ ... ولـن أعيـشَ بمـالِ غـيرِ محمـودِ

وقال المهلب: عجبت لمن يشترى المماليك بماله كيف لا يشترى الأحرار بفعاله. ونزل بأبى البخترى وهب بن وهب القرشى ضيفًا، فسارع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل، فلما همّ بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه، فأنكر ذلك عليهم. فقالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة، ولا نعينه على الرحيل. ووفدت ليلى الأخيلية على الحجاج فقالت فيه:

إذا وردَ الحجـاجُ أرضًـا مريضـةً ... تتبـعَ أقصـى داءهـا فشـفاها
شفاها من الداءِ العضالِ[٣] الذى بهـا ... غـلامٌ إذا هـزَّ القنـاةَ سـقاها

فقال: لا تقولى غلام، ولكن قولى: همام، يا غلام أعطها خمسمائة. فقال: أيها الأمير اجعلها نعمًا، فجعلها إبلاً إناثًا. وقال أبو الفياض الطبرى:

والعـزُّ ضيـفٌ لا يـراهُ بربعِـهِ ... مَـنْ لا يـرى بـذلَ التـلادِ تـلادا
والجودُ أعلـى كعـبَ كعـبٍ قبلنـا ... فمضَـى جـوادًا يـومَ مـاتَ جـوادا

وقال أخر:

أيقنـتُ أنّ مـن السـماح شـجاعةً ... وعلمـتُ أن مـن السـماحة جـودًا

وقال أحمد بن حمدون النديم: عملت أم المستعين بساطًا على صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب، وأعينهم يواقيت وجواهر، أنفقت عليه مائة ألف بألف دينار وثلاثين ألف دينار، وسألته أن يقف عليه، وينظر إليه، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته. قال أحمد بن حمدون: فقال لى ولأترجة الهاشمى: اذهبا فانظرا إليه، وكان معنا الحاجب. فمضينا ورأيناه، فو الله ما رأينا فى الدنيا شيئًا أحسن منه، ولا شيئًا حسنًا إلا وقد عمل فيه. فمددت أنا يدى إلى غزال أمير المؤمنين إنه قد سرق منه شيئًا، وغمزه على كمى، فأريته الغزال فقال: بحياتى عليكما ارجعوا فخذا ما أحببتما. فمضينا فملأنا أكمامنا، وأقبيتنا، وأقبلنا نمشى كالحبالى. فلما رآن

---

(١) بعقيد: من يعقد له الرأى والزعامة.

(٢) مودى: هالك.

(٣) الداء العضال: الذى بُرء منه.

ضحك، فقال بقية الجلساء: ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين؟ فقال: قوموا فخذوا ما شئتم، ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك. ونظر يزيد المهلبي سطلاً من ذهب مملوءًا مسكًا فأخذه بيده وخرج. فقال له المستعين: إلى أين؟ فقال: إلى الحمام يا أمير المؤمنين، فضحك من قوله، وأمر الفراشين والخدم أن ينتهبوا الباقي فانتهبوه، فوجهت إليه أمه تقول: سرَّ اللّٰه أمير المؤمنين، لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه، فإنني أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار. فقال: يُحمل إليها مثل ذلك، حتى تعيد مثله. ففعلت ومضى حتى رآه، وفعل به كفعله بالأوّل. ودخل طلحة بن عبد اللّٰه بن عوف السوق يومًا فوافق فيه الفرزدق فقال: يا أبا فراس اختر عشرًا من الإبل ففعل.

فقال: ضم إليها مثلها، فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة. فقال: هي لك. فقال:

يا طلحَ أنتَ أخو الندى وعقيدُه ... إن الندى ما مات طلحةُ ماتا
إن الندى ألقى إليكَ رحالَهُ ... فبحيثُ بتَّ من المنازل باتا

وقدم زياد الأعجم على عبد اللّٰه بن الحشرج بنيسابور فأكرمه، وأنعم عليه، وبعث إليه بألف دينار. فقال:

إن السماحة والمروءة والندى ... في قبةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحشرجِ

فقال: زدني. فقال: كل شيء وثمنه. ووفد أبو عطاء السدى على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له فأنزله، وأحسن إليه وقال: ما عندك يا أبا عطاء. فقال: وما عسى أن أقول وأنت أشعر العرب؟ غير أني قلت بيتين. قال: هات ما قلت، فقال:

يا طالبَ الجودِ أما كنتَ تطلبُهُ ... فاطْلبْ على بابِهِ نصرَ بنَ سيَّارِ
الواهبَ الخيلَ تغدو في أعنَّتها ... مع القيانِ وفيها ألفُ دينارِ

فأعطاه ألف دينار، ووصائف، وكساه كسوة جميلة، فقسم ذلك بين رفيقيه ولم يأخذ منه شيئًا، فبلغ ذلك نصرًا فقال: يا له، قاتله اللّٰه من سيد، ما أضخم قدره، ثم أمر له بمثله. وقال العتبي: أشرف عمرو بن هبيرة يومًا من قصره فإذا هو بأعرابي يرقل[1] قلوصه، فقال عمرو لحاجبه: إن أرادني هذا الأعرابي فأوصله إليَّ. فلما وصل الأعرابي سأله الحاجب، فقال: أردت الأمير، فدخل به عليه، فلما مثل بين يديه قال له: ما حاجتك؟ فأنشد الأعرابي يقول:

أصلحَكَ اللّٰه قلَّ ما بيدي ... ولا أطيقُ العيالَ إذا كثروا
أناخَ دهري عليَّ كلكلَهُ[2] ... فأرسَلُوني إليكَ، وانتَظَروا

فأخذت عمر الأريحية فجعل يهتزُّ في مجلسه، ثم قال: ارسلوك إليَّ وانتظروا، إذن لا تجلس حتى ترجع إليهم، ثم أمر له بألف دينار.

وقيل: أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم فجرى القلم بخمسمائة ألف. فراجعه الخازن في ذلك فقال: انفذه ما بقي إلا نفاذه، وإن خروج المال أحب إلي من الإعتذار، فاستشرفه الخازن. فقال: إذا أراد اللّٰه بعبد خيرًا صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه إلى إرادته. وأنا أردت شيئًا، وأراد الجواد الكريم أن يعطي عبده عشرة أضعافه، فكانت إرادة اللّٰه الغالبة وأمره النافذ. ووقف أعرابي على ابن عامر فقال: يا قمر البصرة، وشمس

---

(١) يرقل: يجدُّ بالسير عليها.

(٢) يكني عن مصائبه.

الحجاز، ويا ابن ذروة العرب، وابن بطحاء مكة، برَّت بى الحاجة، وأكدت بى[1] الآمال إلا بفنائك، فامنحنى بقدر الطاقة لا بقدر المجد، والشرف، والهمة. فأمر له بمائتى ألف. وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل:

أأترِكُ إن قلّتْ دراهمُ خالدٍ ... زيارتَه إنى إذًا لَلَئِيمُ

فقال: أوَقَلّتْ دراهم خالد! احملوا إليه مائة ألف درهم، فبعثها خالد بنى حيى إلى عمارة بن عقيل وقال: هذه قطرة من سحابك. ولما عزل عبد الرحمن بن الضحّاك عن المدينة بكى ثم قال: والله ما بكائى جزعًا من العزل، ولا أسفًا على الولاية، ولكن أخاف على هذا الوجوه أن يلى أمرها مَنْ لا يعرف لها حقًا. وأراد الرشيد أن يخرج إلى بعض المتفرجات، فقال يحيى بن خالد لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته: ما عند وكلائنا من الأموال؟ قال: سبعمائة ألف درهم، قال: فاقبضها إليك يا رجاء. فلما كان من الغد دخل عليه رجاء فقبل يده، وعنده منصور بن زياد، فلما خرج رجاء، قال يحيى لمنصور: قد ثننت أن رجاء توهم أنّا قد وهبنا المال له، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفزظه علينا لحاجتنا إليه فى وجهنا هذا. فقال منصور: أنا استخبر لك هذا، فقال يحيى: إذن يقول لك، قل له: يقبل يدى كما قبلت يده، فلا تقل له شيئًا فقد تركتها له. وقيل: إن الرشيد وصل فى يوم واحد بألف ألف وثلثمائة ألف وخمسين ألفًا. ووصل المنصور فى يوم واحد لبنى هاشم ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكر. وعن الأخفش الصغير قال: كان أُسيد بن عنقاء الفزارى من أكبر أهل زمانه قدرًا وأكثرهم أدبًا وأفصحهم لسانًا وأثبتهم جنانًا[2] ، فطال عمره، ونكبه دهره، فخرج عشية ينتفل لأهله فمر به عميلة الفزارى فسلم عليه وقال: ما أصارك يا عم إلى ما أرى؟ فقال: بُخْلُ مثلِكَ بماله، وصَوْن وجهى عن مسألة الناس. فقال: والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك. فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة، فقالت له: لقد غرك كلام غلام فى جنح ليل. قال: فكأنما ألقمت فاه حجرًا، وبات متململاً بين رجاء ويأس، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل، وصهيل الخيل تحت الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا: عميلة قد قسم ماله شطرين وبعث إليك بشطره. فأنشأ يقول:

رآنى على ما بى عميلةَ فأشتكى ... إلى ماله حالى فواسى وما هَجَرْ
ولما رأى المجدَ استعيرَتْ ثيابُه ... تردّى رداءً سابغَ الذيل واتّزَرْ
غلامٌ حباهُ اللّه بالحسنِ يافعًا ... له سِيَمياءُ[3] لا تشقُّ على البَصَرْ
كأنَّ الثريا[4] علقتْ فى جبينه ... وفى أنفه الشِّعْرَى وفى جيدِه القَمَرْ

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى من الأجواد. قيل: كان لرجل جارية يهواها فاحتاج إلى بيعها فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول:

هنيئًا لكَ المالُ الذى قد قبضتَهُ ... ولم يبقَ فى كَفّى غيرُ التحسُّرِ
أبوءُ بحزنٍ من فراقِك موجعٌ ... أناجى به صدرًا طويلَ التفكّرِ

فأجابها بقوله:

ولو قعودُ الدهرِ بى عنكِ لم يكن ... يفرِّقنا شىء سوى الموتِ فاعذرى
عليكِ سلامٌ لا زيارةَ بيننا ... ولا وصلَ إلا أن يشاءُ ابن معمرِ

---

(١) أكدت بى: أعوزتنى.
(٢) الجنان: القلب.
(٣) السيمياءُ: العلامة.
(٤) الثريا: النجم.

فقال ابن معمر: قد شئت، وقد وهبتكَ الجارية وثمنها فخذها وانصرف. ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله فوجده فى دار الخراج يطالب، فدخل عليه يتوجع له، فلما رآه محمد قال:

ولقد قدمت على رجالٌ طالما ... قدمَ الرجالُ عليهم فتموَّلوا
أخنى[1] الزمانُ عليهم فكأنَّما ... كانوا بأرضٍ أقفرَتْ فتحوَّلوا

فقال أبو الشمقمق:

الجودُ أفلسَهُم وأذهَبَ مالَهُم ... فاليومَ إن رامُوا السماحةَ يبخلوا

قال: فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه. فكتب بذلك مستوفى الخراج إلى الخليفة. فوقع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام فى تلك السنة، وإسقاط ما عليه من البقايا، وأمر له بمائة ألف درهم معونة له على مروءته.

وقال أبو العيناء: حصلت لى ضيقة شديدة فكتمتها عن أصدقائى، فدخلت يومًا على يحيى بن أكثم القاضى فقال: إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم، وأخذ القصص، فهل لك فى الحضور؟ قلت: نعم، فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه، وأجلسنى، ثم قال: يا أبا العيناء بالإلفة والمحبة، ما الذى جاء بك فى هذه الساعة فأنشدته:

لقد رجوتُكَ دونَ الناسِ كلهم ... وللرجاءِ حقوقٌ تجبُ
إن لم يكُنْ لى أسبابٌ أعيشُ بها ... ففى العلا لكَ أخلاقٌ هى السببُ

فقال: يا سلامة، انظر أى شىء فى بيت مالنا دون المسلمين. فقال: بقية من المال. فادفع له منها مائة ألف درهم، وابعث له بمثلها فى كل شهر. فلما كان بعد أحد عشر شهرًا مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرَّحت أجفانه فدخل عليه بعض أولاده فقال: يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع إلبكاء فأنشأ أبو العيناء يقول:

شيئان لو بكتِ الدماءُ عليهما ... عيناى حتى يؤذنا بذهابِ
لم يبلغا المعشارَ من حقيْهما ... فَقْدُ الشباب وفرقةَ الأحبابِ

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة، وكان راتبه منها فى الشهر ألف دينار، سوى ما يطرأ عليه من نذر أو صلة، وسوى ما يطبخ فى دار الصدقة. وكان الموكل بصدقته سليم الخادم، فقال له سليم يومًا: أيها الأمير، إنى أطوف القبائل، وأدق الأبواب لصدقاتك، وإن اليد تمتد إلىّ، وفيها الحناء، وربما كان فيها الخاتم الذهب، والسوار الذهب، أفأعطى أم أرد؟ قال: فأطرق طويلاً ثم قال: كل يد امتدت إليك فلا تردها. وقال سلمة بن عياش فى جعفر بن سليمان:

وما شمَّ أنفى ريحَ كفٌّ شممتَها ... منَ الناسِ إلاّ ريحُ كفّكَ أطيبُ

فأمر له بألف دينار، ومائة مثقال مسك، ومائة مثقال عنبر، وكان عبد العزيز بن عبد اللّه جوادًا مضيافًا، فتغدى عنده يومًا أعرابى، فلما كان من الغد مر على بابه فرأى الناس فى الدخول على هيئتهم الأمس. فقال: أوَكُلَّ يومٍ يطعم الأمير الناس؟ قالوا: نعم. فأنشأ يقول:

كلُّ يومٍ كأنّه عيدُ أضحى ... عندَ عبدِ العزيزِ أو عيدُ فطرِ
وله ألفُ جفنةٍ[1] مترعاتٍ ... كلُّ قدرٍ يمدُّها ألفُ قدرِ

---

(١) أخنى عليه الزمان: طال.

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص فلما خرجوا بقى فتى من الشام قاعدًا، فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى. فذكر أن اباه مات، وخلف دينًا، وعيالاً، وسأله أن يكتب له كتابًا إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله فدفع له عشرة آلاف دينار. وقال له: لا أدعك تقاسى الذى على أبوابهم. ودخل رجل على على بن سلميان الوزير فقال له: سألتك بالله العظيم، ونبيه الكريم إلا ما أجرتنى من خصمى. فقال: ومَنْ خصمك حتى أجيرك منه؟ فقال: الفقر. فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فأخذها وانصرف. فبينما هو فى الطريق إذا أمر الوزير برده إليه، فلما رجع قال له: سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم متى أتاك خصمك معنفًا فارجع إلينا متظلمًا.

وقال الأعمش: كانت عندى شاة فمرضت، وفقدت الصبيان لبنها، فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ويسألنى، هل استوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها؟ وكان تحتى لبد أجلس عليه، فكان إذا خرج يقول: خذ ما تحت اللبد حتى وصل إلى من علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ[٢] .

وحكى أبو قدامة القشيرى قال: كنا مع يزيد بن مزيد يومًا فسمع صائحًا يقول: يا يزيد بن مزيد. فطلبه فأتى به إليه فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ قال: فقدت دابتى، ونفدت نفقتى، وسمعت قول الشاعر:

إذا قيلَ مَنْ للجودِ والمجدِ والندَى ... فنادِ بصوتٍ يا يزيدُ بنُ مزيدِ

فأمر له بفرسى أبلق كان معجبًا به، وبمائة دينار، وخلعة سنية، فأخذها وانصرف.

وحكى أن قومًا من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره، فرأى رجل منهم صاحب القبر فى المنام وهو يقول له: هل لك أن تبيعنى بعيرك بنجيبى[٣] وكان الميت قد خلف نجيبًا، وكان للرائى بعير سمين، فقال: نعم. وباعه فى النوم بعيره بنجيبه. فلما وقع بيهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى بعيره فنحره فى النوم، فانتبه الرائى من نومه فوجد الدم يسبح من نحر بعيره فقام وأتم نحره، وقطع لحمه وطبخوه، وأكلوا ثم رحلوا. وساروا. فلما كان اليوم الثانى وهم فى الطريق سائرون استقبلهم ركب فتقدم منهم شاب فنادى: هل فيكم فلان ابن فلان؟ فقال صاحب البعير: نعم ها أنا ذا فلان ابن فلان. فقال: هل بعت من فلان الميت شيئًا؟ قال: نعم، بعته بعيرى بنجيبه فى النوم، فقال: هذا نجيبه فخذه، وأنا ولده وقد رأيته فى النوم وهو يقول: أن كنت ابنى فادفع نجيبى إلى فلان، فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته.

وروى عن الهيثم بن عدى أنه قال: تمارى[٤] ثلاثة نفر فى الأجواد. فقال رجل: أسخى الناس فى عصرنا هذا عبد الله بن جعفر. فقال الآخر: أسخى الناس قيس بن سعيد بن عبادة. فقال الآخر: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسى. فتنازعوا بفناء الكعبة فقال لهم رجل: لقد أفرطتم فى الكلام، فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر بما يعود، فنحكم على العيان. فقام صاحب ابن جعفر فوافاه، وقد وضع رجله فى ركاب راحلته يريد ضيعة له.

فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابن سبيل ومنقطع به. قال: فأخرج رجله، وقال: ضع رجلك واستو على الناقة وخذ ما فى الحقيبة وكان فيها مطارف خز، وأربعة آلاف دينار. ومضى صاحب قيس فوجده نائمًا، فقالت له جارية لقيس: ما حاجتك؟ فقال: ابن سبيل، ومنقطع به، فقالت له الجارية:

---

(١) الجفنة: وعاء كالقصعة.
(٢) تبرأ: تشفى.
(٣) النجيب: الإبل النفيس.
(٤) التمارى: التجادل.

حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار، ما فى دار قيس اليوم غيرها، وامض إلى معاطن[1] الإبل فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبدًا، وامض لشأنك. قيل: إن قيسًا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فاعتقها. ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله، فخُلُق خدم الرجل مقتبس من خلقه قال بعض الشعراء:

وإذا ما اختَبَرْتَ ودَّ صديقٍ ... فاختَبِرْ ودَّه منَ الغلمانِ

ومضى صاحب عرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة. فقال: يا عرابة، ابن سبيل ومنقطع به، وكان معه عبدان، فصفق بيده اليمنى على اليسرى. وقال: أواه أواه، والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شىء ولا تركت له الحقوق مالاً، ولكن خذ هذين العبدين. فقال الرجل والله ما كنت بالذى يسلبك عبديك. فقال: إن أخذتهما أولا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت فخذ، وإن شئت فاعتق. فأخذ الرجل العبدين ومضى. ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد فحكموا لعرابة؛ لأنه أعطى على جهده.

قيل: إن شاعرًا قصد خالد بن يزيد فأنشده شعرًا يقول فيه:

سألتُ الندى والجودَ حُرَّان أنتما ... فقال يقينًا إننا لعبيدُ

فقلتُ ومَنْ مولاكما فتطاولا ... إلىّ وقالا خالدٌ ويزيدُ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم. وقل له: إن زدتنا زدناك، فأنشد يقول:

كريمٌ كريمُ الأمهات مهذَّبٌ ... تَدَفَّقُ يمناه الندى وشمائلُهْ

هو البحرُ من أى الجهات أتيته ... فلجتّه المعروفُ والجودُ ساحلَهْ

جوادٌ بسيطَ الكفِّ حتى لَوَانَّهُ ... دعاها لبقضٍ لم تَجبْهُ أناملُهْ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم، وقال له: إن زدتنا زدناك، فأنشد يقول:

تبرعتَ لى بالجود حتى نعشتنى ... وأعطيتَنى حتى حسبتَك تلعبُ

وأنبتَّ ريشًا فى الجناحَيْن بعدمَا ... تساقطَ منى الريشُ أو كادَ يذهبُ

فأنتَ الندى وابنُ الندى وأخو الندى ... حليفُ الندى ما للندى عنك مذهبُ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم. وقل له: إن زدتنا زدناك. فقال: حسب الأمير ما سمع، وحسبى ما أخذت وانصرف.

وأما الذين انتهى إليهم الجود فى الجاهلية فهم: حاتم بن عبد الله الطائى، وهرم بن سنان، وخالد بن عبد الله، وكعب بن أمامة الأيادى، وضرب المثل بحاتم وكعب، وحاتم أشهرهما. فأما كعب فجاد بنفسه، وآثر رفيقه بالماء فى المفازة[2] ومات عطشًا، وليس له خبر مشهور. وأما خالد بن عبيد الله فإنه جاء إليه بعض الشعراء ورجله فى الركاب يريد الغزو، فقال له: إنى قلت فيك بيتين من الشعر. فقال: فى مثل هذا الحال؟ قال: نعم. فقال: فأنشده يقول:

يا واحدَ العَرَبِ الذى ... ما فى الأنامِ له نظيرُ

لو كانَ مثلَك آخره ... ما كان فى الدنيا فقيرُ

---

(١) المعاطن: مأوى الإبل.

(٢) المفازة: الصحراء المقفرة.

فقال: يا غلام أعطه عشرين ألف دينار، فأخذها وانصرف.

وأما حاتم: فأخباره كثيرة، وآثارة في الجود شهيرة، ويكنى أبا سفانة، وأبا عدى، وكان يسير في قومه بالمرباع، والمرباع ربع الغنيمة، وكان ولده عدى يعادى النبى صلى اللّه عليه وسلم، فبعث النبى صلى اللّه عله وسلم عليًّا إلى طيِّئ، فهرب عدى بأهله وولده ولحق بالشام، وخلف أخته سفانة، فأسرتها خيل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فلما أتى بها إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم قالت: يا محمد، هلك الوالد، وغاب الرافض، فإن رأيت أن تخلى عنى، ولا تشتمت بى أحياء العرب. فإن أبى كان سيد قومه، يفك العانى[1] ، ويقتل الجانى، ويحفظ الجار، ويحمى الذمار[2] ، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشى السلام، ويحمل الكل[3] ، ويعين على نوائب الدهر. وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائبًا، أنا بنت حاتم الطائى. فقال لها النبى صلى اللّه عليه وسلم: «يا جارية هذه صفات المؤمنين حقًا، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه، خلُّوا عنها، فإن أباها كان يحبُّ مكارم الأخلاق. وقال فيها: ارحموا عزيزًا ذل، وغنيًّا افتقر، وعالمًا ضاع بين جهال» فأطلقها ومنَّ عليها، فاستأذنته فى الدعاء له فأذِنَ لها، وقال لأصحابه: «اسمعوا وعوا» فقالت: أصاب اللّه ببِّرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سببًا فى ردها عليه.

فلما أطلقها صلى اللّه عليه وسلم رجعت إلى قومها فأتت أخاها عديًّا، وهو بدومة الجندل فقالَّ له: يا أخى، ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله، فإنى قد رأيت هديًا. ورأيًا سيغلب أهل الغلبة، رأيت خصالاً تعجبنى، رأيته يحب الفقير، ويفك الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف قدر الكبير، وما رأيتِ أجود ولا أكرم منه صلى اللّه عليه وسلم، وإنى أرى أن تلحق به، فإن يك نبيًّا فللسابق فضله، وإن يك ملكًا فلن يذلّ فى عز اليمن. فقدم عدى إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم فألقى له وسادة محشوة ليفًا، وجلس النبى صلى اللّه عليه وسلم على الأرض فأسلم عدى بن حاتم، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها، وكانت من أجود نساءِ العرب، وكان أبوها، يعطيها الضربية من إبله فتهبها وتعطيها الناس. فقال لها أبوهـا: يا بنية أن الكريمين إذا اجتمعا فى المال أتلفاه، فإما أن أعطى وتمسكى، وإما أن أمسك وتعطى؛ فإنه لا يبقى على هذا شىء. فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق.

قال ابن الأعرابى: كان حاتم الطائى من شعراء الجاهلية وكان جوادًا يشبه جوده شعره، ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفرًا إذا قاتل غلب، وإذا سئل وهب، وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان إذا هلَّ رجب الذى كانت تعظمه مضر فى الجاهلية نحر كل يوم عشرًا من الإبل وأطعم الناس واجتمعوا إليه. وكان قد تزوج ماوية بنت عفير وكانت تلومه على إتلاف المال، فلا يلتفت لقولها، وكان لها ابن عم يقال له: مالك. فقال لها يومًا: ما تصنعين بحاتم؟ فواللّه لئن وجد مالاً ليتلفنه، وإن لم يجد ليتكلفن، ولئن مات ليتركن أولاده عالة على قومك.

فقالت ماوية: صدقت إنه كذلك، وكانت النساء يطلقن الرجال فى الجاهلية، وكان طلاقهن أن يكن فى بيوت من شعر، فإن كان باب البيت من قبل المشرق حولته إلى المغرب، وإن كان من قبل المغرب حولته إلى المشرق، وإن كان من قبل اليمن حولته إلى الشام، وإن كان من قبل الشام حولته إلى اليمن؛ فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته فلم يأتها. ثم قال لها ابن عمها: طلقى حاتمًا، وأنا أتزوجك، وأنا خير لك منه وأكثر مالاً،

---

(١) العانى: الأسير.

(٢) الذمار: أى العرض.

(٣) الكل: الضعيف.

وأنا أمسك عليك وعلى ولدك. فلم يزل بها حتى طلقته، فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء. فقال حاتم لولده: يا عدى أما ترى ما فعلت أمك؟ فقال: قد رأيت ذلك.

قال: فأخذ ابنه وهبط بطن واد فنزل فيه. فجاءه قوم فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون، كانت عدتهم خمسين فارسًا، فضاقت بهم ماوية ذرعًا، وقالت لجاريتها: اذهبى إلى ابن عمى مالك وقولى له: إن أضيافًا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً، فأرسل إلينا بشىء نقريهم ولبن نسقهم، وقالت لها: انظرى إلى جبينه وفمه، فإن شافهك بالمعروف فاقبلى منه، وإن ضرب بلحيته على زوره، ولطم رأسه، فأقبلى ودعيه. فلما أتته وجدته متوسدًا وطبًا[1] من لبن، فأيقظته، وأبلغته، الرسالة. وقالت له: إنما هى الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم، فلطم رأسه بيده، وضرب بلحيته. وقال: أقرئيها السلام، وقولى لها: هذا الذى أمرتك أن تطلقى حاتمًا لأجله، وما عندى لبن يكفى أضياف حاتم. فرجعت الجارية فأخبرتها بما رأت وبما قال لها. فقالت لها: اذهبى إلى حاتم وقولى له: إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة، و لم يعلموا مكانك، فأرسل إلينا بناقة نقريهم، ولبن نسقيهم. فأتت الجارية حاتمًا فصاحت به فقال: لبيك، قريبًا دعوت، فأخبرته بما جاءت بسببه. فقال: حبًّا وكرامة، ثم قام إلى الإبل فأطلق اثنتين من عقالهما، وصاح بهما حتى أتيا الخباء، ثم ضرب عراقيبهما فطفقت ماوية تصيح هذا الذى طلقتك بسببه تترك أولادنا وليس لهم شىء. فقال: ويحكي ماوية الذى خلقهم، وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم. وكان إذا اشتد البرد، وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقدونها فى بقاع الأرض لينظر إليها مَنْ ضلَّ عن الطريق ليلاً فيقصدها، و لم يكن حاتم يمسك شيئًا ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجود بهما، ثم جاد بفرسه فى سنة مجدبة.

حكى أن ملكان ابن أخى ماوية قال: قلت لها يومًا: يا عمة حدثينى عجائب حاتم، وبعض مكارم أخلاقه، فقالت: يا ابن أخى، أعجب ما رأيت منه؛ أصابت الناس سنة[2] أذهبت الخف والظلف، وقد أخذنى وإياه الجوع وأسهرنا، فأخذت سفانة، وأخذ عديًّا وجعلنا نعللهما حتى ناما، فأقبل علىَّ يحدثنى ويعللنى بالحديث حتى أنام فرفقت به، لما به من الجوع، فأمسكت عن كلامه لينام، فقال لى: أنمتِ؟ فلم أجبه، فسكت ونظر فى فناء الخباء، فإذا شىء قد أقبل، فرفع رأسه فإذا امرأة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا عدى أتيتك من عند صبية يتعاوون كالكلاب، أو كذئاب جوعًا، فقال لها: أحضرى صبيانك، فواللّه لأشبعنهم، فقامت سريعة لأولادها، فرفعت رأسى وقلت: يا حاتم بماذا تشبع أطفالها؟ فواللّه ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل، فقال: واللّه لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها، فلما جاءت المرأة نهض قائمًا وأخذ المدية بيده وعمد إلى فرسه فذبحه ثم أجج نارًا، ودفع إلينا شفرة، وقال: قطّعى واشوى، وكلى، وأطعمى صبيانك. فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها فأيقظتُ أولادى، وأكلتُ وأطعمتهم. فقال: واللّه إن هذا حول الفرس وتقنع حاتم بكسائه وجلس ناحية. فواللّه ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير، إلا العظم والحافر، ولا واللّه ما ذاقها حاتم وإنه لأشدهم جوعًا. وأخباره كثيرة مشهورة، ومن شعره:

أماوىَّ إن المالَ غادٍ ورائحٌ ... ويبقى من المال الأحاديثَ والذكرُ

وقد علمَ الأقوامُ أن حاتمًا ... أراد ثراءَ المالِ كان له وفرُ

وأغار قوم على طيِّىء فركب حاتم فرسه، وأخذ رمحه ونادى فى جيشه، وأهل عشيرته، ولقى القوم فهزمهم وتبعهم. فقال له كبيرهم: يا حاتم، هب لى رمحك، فرمى به إليه. فقيل لحاتم: عرضت نفسك للهلاك ولو عطف

(١) الوطب: وعاء جلدى خاص باللبن.

(٢) سنة: جدب وجفاف.

عليك لقتلك. فقال: قد علمت ذلك، ولكن ما جواب مَنْ يقول: هَبْ لي؟ ولما مات عظم على طيِّيء موته، فادعى أخوه أنه يخلفه. فقالت له أمه: هيهات شتان والله ما بين خلفتيكما؛ وضعته فبقي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديي طفلاً من الجيران، وكنت أنت ترضع ثديًا ويدك على الآخر، فأنى لك ذلك.

قال الشاعر:

يعيش الندَى ما عاشَ حاتمُ طيِّيءٍ ... وإنْ ماتَ قامَ للسخاءِ مآتمُ

وكانت العرب تسمي الكلب، داعي الضمير، ومتمم النعم، ومشيد الذكر، لما يجلب من الأضياف بنباحه، والضمير الغريب، وكانوا إذا اشتد البر، وهبت الرياح لم تشب النيران، فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها إلى العتمة لتستوحش فتنبح، فتهدى الضلاَّل، وتأتي الأضياف على نباحها.

والحكايات في ذكر الأجواد، والكرماء، والأسخياء، وأهل المعروف وما كانوا من السخاء، والكرم، أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. ففي مثل هذه المناقب فليتنافَسِ المتنافسون، ولمثلها فليعمَلِ العاملون، فإن فيها عزَّ الدنيا، وشرفَ الأخرة، وحسن الصيت، وخلودَ جميلِ الذكر، فإنّا لم نجد شيئًا يبقى على مر الدهر إلا الذكر حسنًا كان، أو قبيحًا. وقد قال الشاعر:

ولا شيئًا يدومُ فكُنْ حديثًا ... جميلَ الذكرِ، فالدنيا حديثَ

فانتهز فرصة العمر، ومساعدة الدنيا، ونفوذ الأمر، وقدِّم لنفسك كما قدموا، تذكر بالصالحات كما ذكروا، وادَّخِرْ لنفسك في القيامة كما ادَّخروا، واعلَمْ أن المأكول للبدن، والموهوب للمعاد، والمتروك للعدو، فاختر أي الثلاث شئت، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والثلاثون فى البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾[1] الآية، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إياكم والشحَّ، فإن الشحَّ أهلك مَنْ كان قبلكم[2] ». وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «البخلُ جامعٌ لمساوىء القلوبِ، وهو زمامٌ يُقادُ به إلى كل سوء». وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنهما: إن البخلَ لو كان قميصًا ما لبستُهُ، أو كان طريقًا ما سلكتُهُ.

وقيل: بخلاء العرب أربعة؛ الحطيئة، وحميد الأرقط، وأبو الأسود الدؤلى، وخالد بن صفوان. فأما الحطيئة: فمر به إنسان، وهو على داره وبيده عصا. فقال: أنا ضيف، فأشار إلى العصا وقال: لكعاب الضيفان أعددتها. وأما حميد الأرقط: فكان هجاء للضيفان فحّاشا[3] عليهم، نزل به مرة أضياف وأطعمهم تمرًا وهجاهم، وذكر أنهم أكلوه بنواه. وأما أبو الأسود: فتصدق على سائل بتمرة. فقال له: جعل الله نصيبك من الجنة مثلها. وكان يقول: لو أطعنا المساكين فى أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم. وأما خالد بن صفوان: فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عيار[4] ، كم تعير، وكم تطوف وتطير، لأطيلن حبسك، ثم يطرحه فى الصندوق ويقفل عليه. وقيل له: لا تنفق ومالك عريض؟ فقال: الدهر أعرض منه. وأنشد بعضهم:

وهَبْنى جمعتُ المال ثم خزَنْتُهُ ... وحانَتْ وفاتى هل أزادُ به عمرا

إذا خزن المالَ البخيلُ فإنه ... سيورثُه غمًّا ويعقبُه وزرا

واستأذن حنظلة على صديق بخيل فقيل: هو محموم. فقال: كلوا بين يديه حتى يعرق. وكتب سهل بن هارون كتابًا فى مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه.

وقال ابن أبى فنن:

ذَرينى وإتلافى لمالى فإننى ... أحبُّ من الأخلاقِ ما هو أجملُ

وإن أحقَّ الناسِ باللومِ شاعرٌ ... يلومُ على البخلِ الرجالَ ويبخلُ

وكان عمر بن يزيد الأسدى بخيلاً جدًا أصابه القولنج فى بطنه، فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما فى بطنه فى الطست، فقال لغلامه: اجمع الدهن الذى نزل من الحقنة واسرج به. وكان المنصور شديد البخل جدًّا، مر به مسلم الحادى فى طريقه إلى الحج فحدا له يومًا بقول الشاعر:

أغرُّ بين الحاجبين نورُه ... يزينُه حياؤه وخيرُهُ

ومسكُه يشوبُه كافورُه ... إذا تغدّى رفعت ستورُهُ

فطرب حتى ضرب برجله المحمل. ثم قال: يا ربيع، أعطه نصف درهم. فقال مسلم: نصف درهم يا أمير المؤمنين، والله لقد حدوت لهشام، فأمر لى بثلاثين ألف درهم. فقال: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم يا ربيع. وكِّلْ به مَنْ يستخلص منه هذا المال. قال الربيع: فما زلت أمشى بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له فى ذهابه وإيابه بغير مؤنة.

وكان أبو العتاهية ومروان بن أبى حفصة بخيلين يضرب ببخلهما المثل. قال مروان: ما فرحت بشىء أشد مما فرحت بمائة ألف فرهم وهبها إلىّ المهدى فوزنتها فرجحت درهما، فاشتريت به لحمًا. واشترى يومًا لحمًا

---

(١) سورة النساء:٣٧.

(٢) أخرجه: أبو داود فى كتاب الزكاة ١٦٩٨.

(٣) فحّاشا: يتقول بالفحش.

(٤) العيار: مكثر الذهاب والمجئ.

بدرهم، فلما وضعه فى القدر، دعاه صديقه فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين، فجعل القصاب ينادى على اللحم ويقول: هذا لحم مروان. واجتاز يومًا بأعرابية فأضافته. فقال: إن وهب لى أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهمًا فوهبه سبعين ألف درهم فوهبها أربعة دوانق.

ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو. يقال: إن من عادتهم إذا ترافقوا فى سفر أن يشترى كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها فى خيط، ويجمعون اللحم كله فى قدر، ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا استوى، جرَّ كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق. وقيل لبخيل: مَنْ أشجع الناس؟ قال: مَنْ سمع وَقْعَ أضراس الناس على طعامه، و لم تنشقَّ مرارته. وقيل لبعضهم: أما يكسوك محمد بن يحيى؟ فقال: واللّٰه لو كان له بيت مملوء إبرًا وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضمناء، يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذى قُدَّ[1] من دبر، ما أعاره إياها، فكيف يكسونى؟ وقد نظم ذلك من قال:

لو أن دارَك أنبتَتْ لكَ واحتَشَتْ إبرًا يضيقُ بها فناءُ المنزلِ
وأتاك يوسفُ يستعيرُكَ إبرة ليخيطَ قَدَّ قميصِهِ لم تفعلِ

وكان المتنبى بخيلاً جدًّا، مدحه إنسان بقصيدة فقال له: كم أمَّلتَ منا على مدحك؟ فقال: عشرة دنانير. قال له: واللّٰه لو ندفت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة ما دفعت لك دانقًا[2] . وقال دعبل: كنا عند سهل بن هارون فلن نبرح حتى يكاد يموت من الجوع. فقال: ويلك يا غلام آتنا غداءنا، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحت ثريد قليل، فتأمل الديك فرآه بغير رأس. فقال لغلامه: وأين الرأس؟ فقال: رميته. فقال: واللّٰه إنى لأكره من يرمى برجله، فكيف برأسه، ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء، ومنه يصيح الديك، ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقه الذى يتبرك به، وعينه التى يضرب بها المثل، فيقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، و لم تر عظمًا أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، وهبك ظننت أنى لا آكله؛ أما قلت: عنده مَنْ يأكله؟ أنظر فى أى مكان رميته فأتنى به. فقال: واللّٰه لا أدرى أين رميته. فقال: لكنى أنا أعرف أين رميته، رميته فى بطنك. اللّٰه حسبك. وقيل: من الناس مَنْ يبخل بالطعام، ويجود بالمال. وبالعكس. قال بعضهم فى أبى دلف:

أبو دلفٍ يضيعُ ألف ألف ويضربُ بالحسام على الرغيفِ
أبو دلفٍ لمطبخه قتارٌ[3] ولكن دونه سلُّ السيوفِ

واشتكى رجل مروزى صدره من سعال، فوصفوا له سويق اللوز، فاستثقل النفقة، ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء. فبينما هو يماطل الأيام، ويدافع الآلام، إذا أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة، وقال: إنه يجلو الصدر، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها، فجلا صدره، ووجده يعصم. فلما حضر غداؤه أمر به. فرفع إلى العشاء، وقال لامرأته: اطبخى لأهل بيتنا النخالة، فإنى وجدت ماءها يعصم، ويجلو الصدور. فقالت: لقد جمع اللّٰه لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء، فالحمد للّٰه على هذه النعمة.

وعن خاقان بن صبيح قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً فآتانا بمسرجة فيها فتيلة فى غاية الرقة، وقد علّق فيها عودًا بخيط، فقلت له: ما بال هذا العود مربوطًا؟ قال: قد شرب الدهن، وإذا ضاع و لم نخفظه احتجنا إلى غيره فلا نجد إلا عودًا عطشانًا، ونخشى أن يشرب الدهن. قال: فبينما أنا أتعجب، وأسأل اللّٰه العافية

(١) القد: القطع والشق.
(٢) الدانق: سدس الدرهم.
(٣) القتارٌ: رائحة شواء.

إذا دخل علينا شيخ من أهل مرو، فنظر إلى العود فقال للرجل: يا فلان، لقد فررتَ من شيء، ووقعت فيما هو شر منه، أما علمتَ أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء، وينشفان هذا العود؟ لِمَ لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد؟ فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف، والعود أيضًا بما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها. فقال له الرجل الخراساني: أرشدك الله، ونفع بك، فلقد كنت فى ذلك من المسرفين. وقال الهيثم بن عدى: نزل على أبى حفصة الشاعر، رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه فى هذه الليلة. فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكتب إليه:

يا أيُّها الخارجُ من بيتِهِ ... وهاربًا من شدةِ الخوفِ
ضيفُك قد جاءَ بزادٍ له ... فارجعْ وكن ضيفًا على الضيفِ

واشترى رجل من البخلاء دارًا وانتقل إليها، فوقف ببابه سائل فقال له: فتح الله عليك. ثم وقف ثان فقال له مثل ذلك. ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك. ثم التفت إلى ابنته فقال لها: ما أكثر السؤال فى هذا المكان. قالت: يا أبت ما دمت مستمسكًا لهم بهذه الكلمة فما تبالى، كثروا، أم قلوا.

وألأم اللئام وأبخلهم حميد الأرقط الذى يقال له: هجّاء الأضياف، وهو القائل فى ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له:

ما بين لقمتِهِ الأولى إذا انحدَرَتْ ... وبين أخرى تليها قيدُ أظفورِ[1]

وقال فيه أيضًا:

تجهز كَفَّاه ويحدر حلقه ... إلى الزور[2] ما ضمت عليه الأنامل

وأكل أعرابى مع أبى الأسود رطبًا فأكثر، ومد أبو الأسود يده إلى رطبه ليأخذها فسبقه الأعرابى إليها فسقطت منه فى التراب، فأخذها أبو الأسود وقال: لا أدعها للشيطان يأكلها. فقال الأعرابى: والله ولا لجبريل وميكائيل، لو نزلا من السماء ما تركها. وقال أعرابى لنزيل نزل به: نزلت بواد غير ممطور، ورجُلٍ بك غير مسرور، فأقم بعدم، أو ارحل بندم. وللحمدونى:

رأيتُ أبا زرارةَ قال يومًا ... لحاجبِهِ وفى يدِهِ الحسامُ
لئنْ وَضَعَ الخوانَ ولاحَ شخصٌ ... لأختطفَنَّ رأسك والسلامُ
فقال سوى أبيك فذاك شيخٌ ... بغيضٌ ليس يردعُهُ الكلامُ
فقامَ وقالَ مِن حنقٍ إليه ... ببيتٍ لم يرد فيه القيامُ
أبى وابنا أبى والكلبُ عندى ... بمنزلةٍ[3] إذا حضرَ العطامُ
وقال له ابنٌ لى يا ابن كلبٍ ... على خبزى أصادرُ أو أضامُ
إذا حضرَ الطعامُ فلا حقوقٌ ... علىَّ لوالدىَّ ولا ذمامُ
فما فى الأرضِ أقبحُ من خوانٍ ... عليه الخبزُ يحضرُهُ الزحامُ

فأين هذا من القائل:

بخيلٌ يرى فى الجودِ عارًا وإنما ... يرى المرءُ عارًا أن يضنَّ ويبخلا

---

(١) هذه كناية عن سرعة توالى اللقم.

(٢) الزور: أعلى الصدر.

(٣) بمنزلةٍ: أى منزلة واحدة.

إذا المرءُ أثرى ثم لم يرج نفعَهُ ... صديقٌ فلاقَتْهُ المنيَّةَ أوّلا

وقال آخر:

وآمرةٍ بالبخل قلتُ لها اقصرى ... فليس إليه ما حييتُ سبيلُ

أرى الناسَ إخوانَ الكريمِ وما أرى ... بخيلاً له فى العالمين خليلُ

وقالوا: إذا سألت لئيمًا شيئًا فعاجله، ولا تدعه يفكر، فإنه كلما فكر ازداد بعدًا. وقال ربعى الهمدانى:

جمعتُ صنوفَ المال من كل وجهةٍ ... وما نلتُها إلا بكفِّ كريمِ

أرى الناسَ إخوانَ الكريمِ وما أرى ... حَياتى وما عِندى يدٌ للئيمِ

وأنشد الجاحظ لأبى الشمقمق:

ممن تعلمت هذا ... أن لا تجود بشىء

أما مررت بعبد ... لعبد حاتم طيئ

وما قالته الشعراء فى البخلاء وطعامهم: فمن أهجى ما قيل فيهم بيت جرير فى بنى تغلب:

والتغلبى إذا تنحنحَ للقِرَى ... حَكَّ استَه[1] وتمثّلَ الأمثالا

وله أيضًا فيهم:

قومٌ إذا أكلوا أخفَوْا كلامَهُمُ ... واستوثقوا من رتاجِ الباب والدارِ

قومٌ إذا استنبح الضيفان كلبَهُمُ ... قالوا لأمِّهمِ بولى على النارِ

فتمنع البول شُحًّا أن تجودَ به ... وما تبولُ لهم إلا بمقدارِ

والخبزُ كالعنبرِ الهندىِّ عندَهُمُ ... والقمحُ خمسون إردبًا بدينارِ

فأين هؤلاء من الذى قال فيه الشاعر:

أبلجٌ بين حاجبيه نورُهُ ... إذا تغدَّى رُفِعَتْ ستورُهُ

وقال بعضهم فى بخيل:

أتانا بخيلٌ بخبزٍ له ... كمثلِ الدراهمِ فى رقّتِهْ

إذا ما تنفَّسَ حولَ الخِوانِ ... تطايرَ فى البيتِ من خفّتِهْ

وقال آخر:

تراهم خشيةَ الأضيافِ خرسًا ... يقيمون الصلاةَ بلا أذانِ

وقال آخر، وقد بات عند بخيل:

فبتنا كأنّا بينهم أهل مأتمٍ ... على ميِّتٍ مستودعٍ بطنَ ملحدِ[2]

يحدِّثُ بعضًا بعضُنا بمصابِهِ ... ويأمر بعضنا بعضًا بالتجلد

وقال آخر:

وجيرةٍ لا نرى فى الناسِ مثلهم ... إذا يكونُ لهم عيدٌ وإفطارُ

إن يوقدوا يوسِعُونا من دخانهم ... وليس يبلغنا ما تطبخَ النارُ

---

(١) الاست: العجز.

(٢) أى: مدفون فى القبر.

وقال آخر وأجاد:

فصدق إيمانه إن قال مجتهدًا ... لا والرغيف فذاك البرُّ من قسمِهْ
فإن هممت به فاعبث بخبزتِهِ ... فإنّ موقعَها من لحمه ودمِهْ
قد كان يعجبنى لو أن غيرتَهُ ... على جرادقه[1] كانت على حرمِهْ

وقال آخر:

ذهبَ الكرامُ فلا كرام ... وبقى العضاريط[2] اللئام
من لا يقيلُ ولا ينيـ ... ـلُ ولا يُشمُّ له طعام

وقال آخر:

خليلىَّ من كعبٍ أعِينَا أخاكما ... على دهره إنّ الكريمَ معينُ
ولا تبخلا بخلَ ابن قزعةَ إنه ... مخافةَ أن يرجى نداه حزينُ
إذا جئتَهُ فى حاجةٍ سدَّ بابه ... فلم تلقَهُ إلا وأنتَ كمينُ

وقال آخر:

له يومان يوم ندى ويومٌ ... يسلُّ السيفَ فيه من القرابِ
فأما جوده فعلى قحابٍ ... وأما سيفه فعلى الكلابِ

وقال آخر:

زففتُ إلى نبهانَ من صفوَ فكرتى ... عروسًا غدا بطنُ الكتابِ لها صدرا
فقبَّلها عشرًا وهامَ بحبِّها ... فلما ذكرتُ المهرَ طلّقها عشرا

وقال آخر:

لو عبر البحرَ بأمواجِهِ ... فى ليلة مظلمةٍ باردَهْ
وكفّه مملوءةٌ خردلا ... ما سقطَتْ من كفّهِ واحدَهْ

وقال آخر:

يا قائمًا فى دارِهِ قاعِدًا ... من غير مَعْنى لا ولا فائدَهْ
قد ماتَ أضيافُك من جوعِهِم ... فاقرأ عليهم سورةَ المائدَهْ

وقال أخر:

نوالُك دونه شوكُ القتادِ ... وخبزُك كالثريا فى البعادِ
فلو أبصَرْتَ ضيفًا فى منامٍ ... لَحَرَّمتَ الرقادَ إلى المعادِ

وقال آخر:

لا تعجَبنَّ لخبزٍ زَلَّ من يدِهِ ... فالكوكبُ النحس يسقى الأرض أحيانًا

وقال ابن أبى حازم:

وقالوا قد مدَحْتَ فتى كريمًا ... فقلتُ وكيف لى بفتى كريمِ

---

(١) الجرادق: الرغيف.

(٢) العضاريط: الأجُراء.

بلوتُ ومرَّ بي خمسون حولاً وحسبُك بالمجرَّبِ من عليمِ
فلا أحدٌ يعدُّ ليومِ خيرٍ ولا أحدٌ يجودُ على عديمِ

ومن رؤساء أهل البخل: محمد بن الجهم، وهو الذى قال: وددت لو أن عشرة من الفقهاء، وعشرة من الخطباء، وعشرة من الشعراء، وعشرة من الأدباء، تواطأوا على ذميٍّ واستسهلوا شتمى، حتى ينتشر ذلك فى الآفاق، فلا يمتد إلىّ أمل آمل، ولا يبسط نحوى رجاء راجٍ. وقال له أصحابه يومًا: إنا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استثقالك لمجالستنا. فقال: علامة ذلك أن أقول: يا غلام هات الغداء.

وقال عمر بن ميمون: مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جارًا له. فقلت: ما بالكما؟ فقال أحدهما: إن صديقًا لى زارنى فاشتهى رأسًا فاشتريته وتغدينا، وأخذت عظامه فوضعتها على باب دارى أتجمل بها، فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس أنه هو الذى اشترى الرأس.

قال رجل من البخلاء لأولاده: اشتروا لى لحمًا، فاشتروه، فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق فى يده إلا عظمة، وعيون أولاده ترمقه. فقال: ما أعطى أحدًا منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها. فقال ولده الأكبر: أمشمشها يا أبت وأمصُّها حتى لا أدع للذر فيها مقيلاً. قال: لست بصاحبها. فقال الأوسط: ألوكها يا أبت وألحسها حتى لا يدرى أحد لعام هى أم لعامين. قال: لست بصاحبها. فقال الأصغر: يا أبت أمصها، ثم أدقها، وأسفها سفًا. قال: أنت صاحبها وهى لك زادك اللّه معرفة وحزمًا.

ووقف أعرابى على أبى الأسود وهو يتغدَّى فسلم فردَّ عليه ثم أقبل على الأكل، ولم يعزم عليه. فقال له الأعرابى: أما أنى قد مررت بأهلك. قال: كذلك كان طريقك. قال: وامرأتك حبلى. قال: كذلك كان عهدى بها. قال: قد ولدت. قال: كان لا بد لها أن تلد. قال: ولدت غلامين. قال: كذلك كانت أمها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين. قال: ثم مات الآخر، قال: ما كان ليبقى بعد موت أخيه، قال: وماتت الأم. قال: حزنًا على ولديها. قال: ما أطيب طعامك قال: لأجل ذلك أكلته وحدى، واللّه لا ذقته يا أعرابى.

وقيل: خرج أعرابى قد ولاه الحجاج بعض النواحى فأقام بها مدة طويلة، فلما كان فى بعض الأيام ورد عليه أعرابى من حيه فقدَّم إليه الطعام. وكان إذا ذاك جائعًا فسأله عن أهله وقال: ما حال ابنى عمير؟ قال: على ما تحب قد ملأ الأرض والحى رجلاً ونساء. قال: فما فعلت أم عمير؟ قال: صالحة أيضًا. قال: فما حال الدار؟ قال: عامرة بأهلها. قال: وكلبنا إيقاع؟ قال: ملأ الحى نبحًا. قال: فما حال جملى زريق؟ قال: على ما يسرك. قال: فالتفت إلى خادمه، وقال: ارفع الطعام فرفعه، ولم يشبع الأعرابى، ثم أقبل عليه يسأله وقال: يا مبارك الناصية[1] أعِدْ علىّ ما ذكرت. قال: سل عمّا بدا لك. قال: فما حال كلبى إيقاع؟ قال: مات. قال: وما الذى أماته؟ قال: اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات. قال: أوَ مَاتَ جملى زريق؟ قال: نعم. قال: وما الذى أماته؟ قال: كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير. قال: أوَ مَاتَتْ أم عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذى أماتها؟ قال: كثرة بكائها على عمير. قال: أوَ مَاتَ عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذى أماته؟ قال: سقطت عليه الدار. قال: أو سَقَطَتِ الدار؟ قال: نعم. قال: فقام له بالعصى ضاربًا فولّى من بين يديه هاربًا.

وحكى بعضهم قال: كنت فى سفر فضللت عن الطريق، فرأيت بيتًا فى الفلاة، فأتيته فإذا به أعرابية، فلما رأتنى قالت: مَنْ تكون؟ قلت: ضيف. قالت: أهلاً ومرحبًا بالضيف، انزل على الرحب والسعة. قال: فنزلت،

---

(١) الناصية: مقدمة شعر الرأس.

فقدمت لى طعامًا فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك إذا أقبل صاحب البيت. فقال: مَنْ هذا؟ فقالت: ضيف. فقال: لا أهلاً ولا مرحبًا، ما لنا وللضيف؟ فلما سمعتُ كلامه ركبت من ساعتى وسرت، فلما كان من الغد رأيت بيتًا فى الفلاة فقصدته؛ فإذا فيه أعرابية فلما رأتنى قالت: مَنْ تكون؟ قلت: ضيف. قالت: لا أهلاً ولا مرحبًا بالضيف، ما لنا وللضيف، فبينما هى تكلمنى إذا أقبل صاحب البيت. فلما رآنى قال: من هذا؟ قالت ضيف. قال: مرحبًا وأهلاً بالضيف. ثم أتى بطعام حسن فأكلت، وماء فشربت، فتذكرت ما مرّ بى الأمس فتبسمت. فقال: مِمَّ تبسُّمك؟ فقصصت عليه ما اتفق لى مع تلك الأعرابية وبعلها، وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لا تعجب إن تلك الأعرابية التى رأيتها هى أختى، وإن بعلها أخو امرأتى هذه، فغلب على كل طبع أهله.

وحكايات هؤلاء، وأمثالهم كثيرة، وأخبارهم ونوادرهم شهيرة، وفيما ذكرته كفاية، وأسأل اللّه تعالى التوفيق والهداية، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الخامس والثلاثون فى الطعام وآدابه، والضيافة وآداب المضيف والضيف وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك

أما إباحة الطيب من المطاعم: فقد قال اللّه تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٣) وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «محرِّمُ الحلال، كمحللِّ الحرام» وقال عليه الصلاة والسلام: «إن اللّه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه». وكان الحسن رضى اللّه تعالى عنه يقول: ليس فى اتخاذ الطعام سرف. وسئل الفضل عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص(٤) للزهد. فقال: ما للزهد وأكل الخبيص ليتك تأكل وتتقى اللّه، إن اللّه لا يكره أن تأكل الحلال، إذا اتَّقَيْتَ الحرام. انظر كيف برّك بوالديك، وصلتك للرحم؟ وكيف عطفك على الجار؟ وكيف رحمتك للمسلمين؟ وكيف كظمك للغيظ؟ وكيف عفوك عَمَّن ظلمك؟ وكيف إحسانك إلى مَنْ أساء إليك؟ وكيف صبرك واحتمالك للأذى؟ أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص.

وأما نعوت الأطعمة وما جاء فيها؛ فقد نُقل عن الرشيد أنه سأل أبا الحرث عن الفالوذج واللوزينج(٥) أيهما أطيب، فقال: يا أمير المؤمنين، لا أقضى على غائب، فأحضرهما إليه فجعل يأكل من هذا لقمة، ومن هذا لقمة، ثم قال: يا أمير المؤمنين، كلما أردت أن أقضى لأحدهما أتى الآخر بحجته. واختلف الرشيد وأم جعفر فى الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب، فحضر أبو يوسف القاضى فسأله الرشيد عن ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين، لا يقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى فقال له الرشيد: أحكم. قال: قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين. فضحك الرشيد، وأمر له بألف دينار، فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا دينارًا(٦). وسمع الحسن البصرى رجلاً يعيب الفالوذج فقال: لباب البر بلعابِ النحل، بخالص السمن، ما أظن عاقلاً يعيبه. وقال الأصمعى: أول مَنْ صنع الفالوذج عبد اللّه بن جدعان. وأتى أعرابى بفالوذج فأكل منه لقمة فقيل له: هل تعرف هذا؟ فقال: هذا وحياتك الصراط المستقيم.

وكان أحب الطعام إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم اللحم. وعن أبى الدرداء رضى اللّه تعالى عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم». وكان صلى اللّه عليه وسلم يقول: «هو سيد الطعام فى الدنيا والآخرة، وهو يزيد فى السمع، ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل». وكان صلى اللّه عليه وسلم يحب الدباء ويقول: «يا عائشة، إذا طبختم قدرًا فأكثروا فيها من الدباء، فإنها تشد القلب الحزين، وهى شجرة أخى يونس». وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «عليكم بالقرع؛ فإنه يشد الفؤاد ويزيد فى الدماغ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب، ويغزر الدمعة». وعن أبى رافع قال: كان أبو هريرة رضى اللّه تعالى عنه يقول: أكلُ التمر أمانٌ من القولنج، وشربُ العسل على الريق أمان من الفالج، وأكلُ السفرجل

(١) سورة البقرة: ١٧٢.
(٢) سورة المائدة: ٤.
(٣) سورة الأعراف: ٣٢.
(٤) اللحم والخبيص: نوع من الحلواء.
(٥) الفالوذج واللوزنيج: نوعان من الحلواء يصنعان من الدقيق والسكر والسمن.
(٦) هذا أدب وتهذيب من زبيدة لئلا تساوى عطاء الخليفة.

يحسن الولد، وأكلُ الرمان يصلح الكبد، والزبيب يشد العصب، ويذهب بالنصب والوصب[1]، والكفرس يقوى المعدة، ويطيب النكهة، وأطيب اللحم الكتف. وكان يديم أكل الهريسة. وكان يأكل على سماط معاوية، ويصلى خلف علي، ويجلس وحده، فسئل عن ذلك فقال: طعام معاوية أدسم، والصلاة خلف على أفضل، وهو أعلم، والجلوس وحدى لى أسلم. وسميت المتوكلية بالمتوكل، والمأمونية بالمأمونين، إن طب الهند صحيح، وهم يقولون: إن الأرز يُرى منامات حسنةً، ومَنْ رأى منامًا حسنًا كان في نهارين، فاستحسن قوله ووصله. وقال أبو صفوان: الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا. وقيل لأبى الحرث: ما تقول فى الفالوذجة؟ قال: وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا[2] فى صدرى، والله لو أن موسى لقى فرعون بالفالوذجة لآمن، ولكنه لقيه بعصا. وكانت العرب لا تعرف الألوان، إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح. حتى كان زمن معاوية رضى الله تعالى عنه، فاتّخذ الألوان.

ويقال للمرقة المسخنة: بنت نارين. وكان بعض المترفهين يقول: جنبوا مائدتى بنت نارين. وقالوا: كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد. وقيل: إذا ألقى اللحم فى العسل ثم أخرج بعد شهر طريًّا فإنه لا يتغير. ويقال للسكباج: [3] سيد المرق، وشيخ الأطعمة، وزين الموائد، ويقال: إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة، ويقال للخبز: ابن حبة. قال بعضهم:

فى حبَّةِ القلب منى زرعتُ حُبًّ ابنِ حبَّه

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما رفعه: «أكرموا الخبز». قالوا: وما كرامته يا رسول الله؟ قال: «لا ينتظر به الأدام، إذا وجدتم الخبز فكلوه، حتى تؤتوا بغيره» وفى الحديث: «مَنْ داوَمَ على اللحم أربعين يومًا قسا قلبه، ومَنْ تركه أربعين يومًا ساء خلقه». وقيل: المائدة التى أنزلت على بنى إسرائيل كان عليها كل البقول إلا الكراث، وسمكة عند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، سبعة أرغفة على كل واحد زيتون، وحب رمان. ودخل ابن قرعة يومًا على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز، فتأخر عن استدعائه فقال: ما بال مولانا ليس يدعونى إلى الفوز بأكل الموز؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه. فقال: ما الذى أصف من حسن لونه، فيه سبائك ذهبية، كأنها حشيت زبدًا وعسلاً، أطيب الثمر كأنه مخ الشحم، سهل المقشر، لين المكسر، عذب المطعم بين الطعوم، سلس فى الحلقوم، ثم مد يده وأكل. وسمع رجلاً يذم الزبد، فقال له: ما الذى ذممت منه؟ سواد لونه أم بشاعة طعمه، أم صعوبة مدخله، أم خشونة ملمسه؟ وقيل له: ما تقول فى الباذنجان؟ قال: أذناب المحاجم، بطون العقارب، وبزور الزقوم. قيل له: إن يحشى باللحم فيكون طيبًا. فقال: لو حشي بالتقوى والمغفرة ما أفلح.

وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزاذان: هل عمل كسرى مثلها؟ فاستعفاه[4] فأقسم عليه. فقال: أوْلَمَ عبد عند كسرى، فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة، فى يد كل واحدة إبريق من ذهب. فقال الحجاج: أف، والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفًا. وأهدى رجل إلى آخر فالوذجة زنخة، وكتب إليه: إنى اخترت لعملها السكر السوسى، والعسل الماردانى، والزعفران الأصبهانى. فأجابه: والله العظيم ما عملت إلا قبل أن توجد أصبهان، وقبل أن تفتح السوس، وقبل أن يوحى ربك إلى النحل. وقيل: إن أبا جهم بن عطية كان عينًا لأبى مسلم الخولانى على المنصور. فأحسَّ المنصور بذلك فطاوله الحديث يومًا حتى عطش فاستسقى فدعا له بقدح من سويق اللوز فيه السم فناوله إياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات، فقيل فى ذلك:

تجنَّبْ سويقَ اللوزِ لا تقربَنَّهُ فشربُ سويقِ اللوز أردى أبا جَهْمِ

---

(١) بالنصب والوصب: الإعياء والمرض.

(٢) اعتلجا: اجتمعا وتصارعا.

(٣) السكباج: أكلة فيها لحم ومرق من خل.

(٤) استعفاه: اعتذر عن الطلب وطلب إعفاءه.

وقال أبو طالب المأمونى:

فما حملَتْ كفُّ امرئ متطعِّمًا   ألَذَّ وأشهى من أصابعِ زينبِ

وأصابع زينب ضرب(١) من الحلوى يُعمل ببغداد، يشبه أصابع النساء المنقوشة.

ودخل السائب على علي رضى اللّه تعالى عنه فى يوم شاتٍ، فناوله قدحًا فيه عسل وسمن ولبن، فأباه، فقال: أما إنك لو شربته لم تزل دفئًا شبعان سائر يومك. وعن نافع بن أبى نعيم قال: كان أبو طالب يعطى عليًّا قدحًا من اللبن يصبه على اللات(٢) فكان على يشرب اللبن ويبول على اللات.

وأما الزهد فى المآكل: فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه، ومنهم مَنْ لا يقدر عليه. قالت عائشة رضى اللّه تعالى عنها: والذى بعث محمدًا صلى اللّه عليه وسلم بالحق ما كان لنا منخل. ولا أكل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خبزًا منخولاً منذ بعثه اللّه تعالى إلى أن قبض. قيل: فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول: أف أف. وعن جابر رضى اللّه تعالى عنه رفعه: «نعم الأدم الخل، وكفى بالمرء سرفًا أن يستسخط ما قرب إليه». وقال عمر رضى اللّه تعالى عنه: ما اجتمع عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، إدمان، إلا أكل أحدهما، وتصدق بالآخر. وقالت عائشة رضى اللّه تعالى عنها: ما كان يجتمع لونان فى لقمة فى فم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، إن كان لحمًا لم يكن خبزًا، وإن كان خبزًا لم يكن لحمًا. وعن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «يا على، ابدأ بالملح، واختم به؛ فإن فيه شفاء من سبعين داء». وروى أن نبيًّا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكا إلى اللّه الضعف، فأمره أن يطبخ اللحم باللبن، فإن القوة فيهما، وسنذكر فضل الزهد فى المآكل والمشارب فى باب مدح الفقراء إن شاء اللّه تعالى.

وأما ما جاء فى آداب الأكل: فقد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: من قال عند مطعمه ومشربه: باسم للّه خير الأسماء باسم اللّه رب الأرض والسماء، لم يضره ما أكل وما شرب. وكان صلى اللّه عليه وسلم إذا وضع بين يديه الطعام قال: باسم اللّه، اللّهم بارك لنا فيما رزقتنا وعليك خلفه. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ أكل طعامًا فقال: الحمد اللّه الذى أطعمنى هذا، ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة، غُفر له ما تقدم من ذنبه، وما لبس ثوبًا فقال: الحمد للّه الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا وقوة، غفر له ما تقدم من ذنبه(٣)». وقالت عائشة رضى اللّه تعالى عنها: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم اللّه؛ فإن نسى فى أوله، فليقل: بسم اللّه أوله وآخره(٤)». وفى حديث ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله(٥)». وقال صلى اللّه عليه وسلم: «الأكل فى السوق دناءة» وعن أنس رضى اللّه تعالى عنه، أن النبى صلى اللّه عليه وسلم زجر عن الشرب قائمًا، قال: فسألناه عن الأكل قائمًا، فقال: «هو شرٌّ من الشرب» وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال: إذا أكلت فضُمَّ شفتيك. ولا تلتفتَنَّ يمينًا ولا شمالاً، ولا تلقمنّ بسكين، ولا تجلس فوق مَنْ هو أشرف منك وأرفع منزلة، ولا تبصق فى الأماكن النظيفة.

ومن هذا ما رواه الزهرى أن النبى صلى اللّه عليه وسلم نهى عن النفخ فى الطعام والشراب. وقال على رضى اللّه تعالى عنه: نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يؤكل الطعام حارًا. وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه، قال: ما عاب النبى صلى اللّه عليه وسلم طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه. وقال عمر بن

---

(١) أى: نوع.

(٢) اللات: من أصنام الجاهلية.

(٣) أخرجه: الترمذى فى كتاب الدعوات ٣٤٥٨.

(٤) أخرجه: أبو داود فى كتاب الأطعمة ٣٧٦٧.

(٥) أخرجه: الترمذى فى كتاب الأطعمة ١٨٠٠.

هبيرة: عليكم بمباكرة الغداء فإن مباكرته تطيب النكهة، وتعين على المروءة. قيل: وما إعانته على المروءة؟ قال: أن لا تتوق نفسك إلى طعام غيرك. وعن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم: «مَنْ أكل من سقط المائدة عاش فى سعة، وعوفى فى ولده، وولد ولده من الحمق». وعنه صلى اللّٰه عليه وسلم: «مَنْ لقط شيئًا من الطعام فأكله؛ حرم اللّٰه جلده على النار». وكان الحرث بن كلدة يقول: إذا تغدَّى أحدكم فلينم على غدائه، وإذا تعشى فليَخْطُ أربعين خطوة. وقيل: خير الغداء بواكره، وخير العشاء سوافره. وعن ابن عباس رضى اللّٰه تعالى عنهما قال: نهى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه. وقال الحجاج لأعرابى يومًا على سماطه: ارفق بنفسك. فقال: وأنت يا حجاج، اغضض من بصرك. وقال معاوية لرجل على مائدته: خذ الشعرة من لقمتك. فقال: وإنك تراعيني مراعاة مَنْ يرى الشعرة فى لقمتى، لا أكلت لك طعامًا أبدًا. ووضع معاوية بين يدى الحسن بن على رضى اللّٰه تعالى عنهما دجاجة ففكها. فقال معاوية: هل بينك وبين أمها عداوة؟ فقال الحسن: فهل بينك وبين أمها قرابة؟ أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه، كما توقر مجالس الملوك، والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة رضى اللّٰه تعالى عنهما. وحضر أعرابى على مائدة بعض الخلفاء فقُدِّم جدىٌ مشوى؛ فجعل الأعرابى يسرع فى أكله منه. فقال له الخليفة: أراك تأكله بحرد، كأن أمه نطحَتْكَ. فقال: أراك تشفق عليه كأن أمه أرضعَتْكَ.

وأما ما جاء فى كثرة الأكل: فقد روى عن حذيفة رضى اللّٰه تعالى عنه عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم: «مَنْ قل طعامه؛ صح بطنه وصفا قلبه. ومَنْ كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه». وعنه صلى اللّٰه عليه وسلم: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب؛ فإن القلب كالزرع إذا كثر عليه الماءُ مات». وقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «ما زيّن اللّٰه رجلاً بزينة أفضل من عفاف بطنه». وقال عمرو بن عبيد: ما رأيت الحسن ضاحكًا إلا مرة واحدة. قال رجل من جلسائه: ما آذانى طعام قط. فقال له آخر: أنت لو كانت فى معدتك الحجارة لطحنتها. وقال علىٌّ كرم اللّٰه وجهه: البطنة[1] تذهب الفطنة. وقال ابن المقفع: كانت ملوك الأعاجم إذا رأت الرجل نهمًا شرهًا أخرجوه من طبقة الجد إلى باب الهزل، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار. وتقول العرب: أقلل طعامًا تحمد منامًا. وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا:

لستُ بآكلٍ كأكلِ العبدِ ... ولا بنوَّامٍ كنومِ الفهدِ

وأنشد الأصمعى لرجل من بنى فهد:

إذا لم أزُرْ إلا لآكل أكلةً ... فلا رفعَتْ كفّى إلىّ طعامى[2]

فما أكلةٌ إن نلتَها بغنيمةٍ ... ولا جوعةٌ إن جعتَها بغرامِ

وقالت عائشة رضى اللّٰه تعالى عنها: أراد رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أن يشترى غلامًا، فألقى بين يديه تمرًا يأكله، فأكثر فقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «إن كثرة الأكل شؤم». وقالوا: الوحدة خير من جليس السوء، وجليس السوء خير من الأكيل السوء. وشكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال، فقال: اشكر؛ فإن اللّٰه قد رزقك الإسلام والعافية. قال: أجل، ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد. ودعت أبا الحرث حبيبة له فحادثته ساعة، فجاع، فطلب الأكل، فقالت له: أما فى وجهى ما يشغلك عن الأكل؟ قال: جعلت فداءك، لو أن جميلاً وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما فى وجه صاحبه وافترقا.

---

(١) البطنة: امتلاء البطن.

(٢) فلا رفعَتْ كفّى إلىّ طعامى: يدعو على نفسه بالشلل.

وأما أخبار الأكلة: فقد قيل: إن وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل. فقال: أكلت مائة رغيف بمكوك[١] بلح. ومرَّ ميسرة المذكور يومًا بقوم وهو راكب حمارًا فدعوه للضيافة، فذبحوا له حماره، وطبخوه وقدموه له، فأكله كله، فلما أصبح طلب حماره ليركبه، فقيل له: هو فى بطنك. وقال المعتمر بن سليمان: قلت لهلال المازنى: ما أكلة بلغتنى عنك؟ قال: جعت مرة ومعى بعير لى فنحرته وشويته وأكلته، و لم أبق منه إلا شيئًا يسيرًا حملته على ظهرى. فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لى، فلم أقدر أن أصل إليها. فقالت: كيف تصل إلىّ، وبيننا جمل؟ فقلت له: كم تكفيك هذه الآكلة؟ فقال: أربعة أيام. وقال الأصمعى: إن سليمان بن عبد الملك كان شرهًا نهمًا، وكان من شرهه أنه إذا أتى بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوى لا يصبر إلى أن يبرد، ولا أن يؤتى بمنديل فيأخذ بكمه واحدة واحدة حتى يأتى عليها. فقال الرشيد: ويحك يا أصمعى ما أعلمك بأخبار الناس؟ إنى عُرِضَتْ علىّ جباب سليمان فرأيت فيها آثار الدهن فظننته طِيبًا حتى حدثتنى، ثم أمر لى بجبة منها، فكنتُ إذا لبستها أقول: هذه جبة سليمان بن عبد الملك.

وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص: قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إلى، وقال: يا شمردل، ما عندك ما تطعمنى؟ قلت: عندى جدى كأعظم ما يكون سمنًا. قال: عجِّل به، فأتيته به كأنه عكة سمن[٢] فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر، حتى إذا لم يبق منه إلا فخذ قال: هلم يا أبا جعفر. فقال: إنى صائم، فأكله. ثم قال: يا شمردل ويلك أما عندك شئ؟ قلت: ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام. فأتيته بهن فأتى عليهن. ثم قال: يا شمردل أما عندك شىء؟ قلت: سويق[٣] كأنه قراضة الذهب، فأتيته به فعبه حتى أتى عليه. ثم قال: يا غلام أفرغت من غدائنا؟ قال: نعم. قال: ما هو؟ قال: نيف وثلاثون قدرًا قال: ائتنى بقدر قدر فأتاه بها، ومعه الرقاق، فأكل من كل قدر ثلثة ثم مسح يده، واستلقى على فراشه وأذِنَ للناس فدخلوا، وصف الخوان فقعد وأكل مع الناس. وكان هلال بن الأسعر يضع القمع على فيه ويصب اللبن أو النبيذ وكان غليظًا عتلاً[٤] .

وقال أعرابى لرجل رآه سمينًا: أرى عليك قطيفة[٥] من نسج أضراسك. وقال أبو المجسر الأعرابى: كانت لى بنت تجلس معى على المائدة، فتبرز كفًّا كأنها صلفة[٦] فى ذراع، كأنه جمارة، فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتنى بها، فكبرت وزوجتها، وصرت أجلس إلى المائدة مع ابن لى، فيبرز كفًّا كأنها كرنافة[٧] ، فوالله لم تسبق عينى إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها. وقال مسلم بن قتيبة: عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفًا مع كل رغيف سمكة. ويقال: فلان يحاكى حوت يونس فى جودة الالتقام، وعصا موسى فى سرعة الإلتهام. وقيل لأبى مرة: أى الطعام أحب إليك؟ قال: لحم سمين، وخبز سميذ. أضرب فيه ضرب ولى السوء فى مال اليتيم. وقال صدقة بن عبيد المازنى: أوْلَمَ لى أبى لما تزوجت فعمل عشر جفان ثريد من جزور[٨] ، فكان أول من جاءنا هلال المازنى، فقدمنا له جفنة مترعة فأكلها، ثم أخرى فأكلها، حتى أتى على الجميع، ثم أتى بقربة مملوءة من النبيذ فوضع طرفها فى شدقه، وفرغها فى جوفه، ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام. وكان عبيد الله بن زياد يأكل فى كل يوم خمس أكلات، فخرج يومًا يريد الكوفة. فقال له رجل من بنى شيبان: الغداء، أصلح الله الأمير، فنزل فذبح له عشرين طائرًا من الأوز فأكلها، ثم قدم الطعام فأكل، ثم أتى بزنبيلين فى إحداهما تين، وفى الآخر بيض فجعل يأكل من هذا تينة، ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه، ثم رجع وهو جائع، وكان ميسرة

---

(١) المكوك: مكيال يسع صاعًا ونصف أو ما يقارب ذلك.
(٢) عكة سمن: آنية خاصة للسمن.
(٣) سويق: شراب خاص.
(٤) عتلاً: ضخمًا غليظًا.
(٥) قطيفة: كساء مخملى.
(٦) أى: لضخامتها تبدو كالإناء الضخم.
(٧) كرنافة: جذوع الكرنب.
(٨) الجزور: ذبيحة الإبل.

البراش يأكل الكبش العظيم، ومائة رغيف. فذكر ذلك للمهدى فقال: دعوت يومًا بالفيل، وأمرت، فألقى إليه رغيف رغيف فأكل تسعة وتسعين، وألقى إليه تمام المائة فلم يأكله.

وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهرى أنه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول: إن معاوية بن أبى سفيان كان يأكل فى كل يوم مائة رطل بالدمشقى ولا يشبع. ونزل رجل بصومعة راهب، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة، وذهب ليحضر إليه العدس، فحمله وجاء فوجده قد أكل الخبز، فذهب فأتى بخبز، فوجده قد أكل العدس، ففعل معه ذلك عشر مرات، فسأله الراهب: أين مقصدك؟ قال: إلى الأردن، قال: لماذا، قال: بلغنى أن بها طبيبًا حاذقًا أسأله عما يصلح معدتى، فإنى قليل الشهوة للطعام. فقال له الراهب: إن لى إليك حاجة، قال: وما هى؟ قال: إذا ذهبت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك علىَّ.

وأما المهازلة على الطعام: فقد روى عن يحيى بن عبد الرحمن رضى الله تعالى عنه قال: قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة فصنعت حريرة فجئت به. فقلت لسودة: كلى، فقالت: لا أحبه. فقلت: والله لتأكلين، أو لألطخن وجهك. فقالت: ما أنا بذائقته؛ فأخذت من الصحفة شيئًا فلطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بينى وبينها، فتناولَتْ من الصحفة شيئًا فلطخت به وجهى. وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك.

واشترى غندر يومًا سمكًا. وقال لأهله: أصلحوه. ونام، فأكل عياله السمك ولطخوا يده، فلما انتبه قال: قدموا إلىّ السمك، قالوا: قد أكلت. قال: لا. قالوا: شُمَّ يدك. ففعل، فقال: صدقتم ولكن ما شبعت. ودخل الحمدونى على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى، ولا يمدون أيديهم. فقال: لقد ذكرتمونى ضيف إبراهيم، وقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[1] ثم قال: كلوا رحمكم الله، فضحكوا وأكلوا، والحكايات فى ذلك كثيرة.

وأما الضيافة وإطعام الطعام: فقد قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾[2] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ولا يؤذ جاره[3] » وقال صلى الله عليه وسلم: «من أكل وذو عينين ينظر إليه، و لم يواسه، ابتلى بداء لا دواء له». وقال الحسن: كنا نسمع أن إحدى مواجب الرحمة، إطعام الأخ المسلم الجائع، وقيل لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: بمَ اتخذك الله خليلاً؟ قال: بثلاث؛ ما خيرت بين شيئين، إلا اخترت الذى لله على غيره، ولا اهتممت بما تكفل لى به، ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف. ويقولون: ما خلا مضيف الخليل عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف. وكان الزهرى إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام، وقالوا: المائدة مرزوقة. أى مَنْ كان مضيافًا وسع الله عليه. وقالوا: أول من سَنَّ القرى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وأول من ثرد الثريد وهشمه هاشم، وأول من أفطر جيرانه على طعامه فى الإسلام عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما، وهو أول من وضع موائده على الطريق، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شىء، فإن لم يجد مَنْ يأكله تركه على الطريق. وقيل لبعض الكرماء: كيف اكتسبت مكارم الأخلاق، والتأدب مع الأضياف؟ فقال: كانت الأسفار تحوجنى إلى أن أفد على الناس، فما استحسنته من أخلاقهم اتبعته، وما استقبحته اجتنبته.

---

(١) سورة هود: ٧٠.

(٢) سورة الذاريات: ٢٤.

(٣) أخرجه: أبو داود فى الأدب ٥١٥٤.

وأما آداب المضيف: فهو أن يخدم أضيافه، ويظهر لهم الغنى، وبسط الوجه. فقد قيل: البشاشة فى الوجه خير من القرى.

قالوا: فكيف بمن يأتى بها وهو ضاحك؟ وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديرى رحمه الله هذا الكلام بأبيات فقال:

إذا المرءُ وافى منزلاً منكَ قاصدًا ... قَراك وأرمته لديك المسالكُ
فكن باسمًا فى وجههِ متهلّلاً ... وقُلْ مرحبًا أهلاً ويومٌ مباركُ
وقدِّمْ له ما تستطيعُ من القِرى ... عجولاً ولا تبخلْ بما هو هالكُ
فقد قيل بيتٌ مالفٌ متقدِّم ... تداولَهُ زيدٌ وعمرو ومالكُ
بشاشةَ وجهِ المرءِ خيرٌ من القِرى ... فكيف بمن يأتى به وهو ضاحكُ

وقال العراب: تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤاكلة.

وقال حاتم الطائى:

سلى الطارق(١) المعتر يا أمَّ مالكٍ ... إذا ما أتانى بين نارى ومجزرى(٢)
أأبسط وجهى إنه أوّل القِرى ... وأبذلُ معروفى له دون منكرى

وقال آخر فى عبد الله بن جعفر:

إنك يا ابنَ جعفرِ خيرُ فتى ... وخيرُهم لطارقِ إذا أتى

ولله در القائل:

اللّه يعلمُ أنه ما سرنى ... شىءٌ كطارقةِ الضيوفِ السنزلِ
ما زلتُ بالترحيبِ حتى خلتَنى ... ضيفًا له والضيفُ ربُّ المنزلِ

أخذه من قول الشاعر:

يا ضيفَنا لو زرتَنا لوجَدْتَنا ... نحنُ الضيوفُ وأنتَ ربُّ المنزلِ

وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان:

منزلُنا رحبٌ لمن زارَهُ ... نحنُ سواءٌ فيه والطارقُ
وكلُّ ما فيه حلالٌ له ... إلا الذى حرَّمه الخالقُ

وقال الأصمعى: سألت عيينة بن وهب الدارمى عن مكارم الأخلاق.

فقال: أو ماسمعت قول عاصم بن وائل:

وإنا لَنقرى الضيفَ قبل نزولِهِ ... ونشبِعُهُ بالبشرِ من وجهِ ضاحكِ

وقال بعض الكرام:

أضاحكُ ضيفى قبلَ إنزال رحلَهُ ... ويخصبُ عندى والمحلُّ جديبُ
وما الخصبُ للأضيافِ أن تكثر القِرى ... ولكنما وجهُ الكريمِ خصيبُ

---

(١) الطارق: القادم ليلاً.

(٢) المجزر: مكان للذبح.

وقال آخر:

عوّدتُ نفســى إذا مـا الضيـفُ نَبَّهنـى عقرتُ[١] العشّار[٢] على عسرٍ وإيسارِ

ومن آداب المضيف: أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها، قبل إكرام الضيف. قال الشاعر:

مطية[٣] الضيفِ عنـدى تلـو صاحبهـا لن يأمنَ الضيف حتـى تكـرمَ الفرسـا

وقال على بن الحسين رضى اللّه تعالى عنهما: من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه، كما خدمهم أبونـا إبراهيـم الخليل صلوات اللّه وسلامه عليه بنفسه وأهله. أما سمعت قول اللّه عز وجل: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾[٤] .

ومن آداب المضيف: أن يحدِّث أضيافه بما تميل إليه نفوسهم، ولا ينام قبلهـم، ولا يشـكو الزمـان بحضورهـم، ويبش عند قدومهم، ويـالم عند وداعهم، وأن لا يحـدث بمـا يروعهـم بـه، كمـا حكـى بعضهـم قـال: استدعانى إسحاق بن إبراهيم الظاهرى إلى أكل هريسة فى بكرة نهار، فدخلت فأحضرت لنا الهريسة، فأكلنـا، فـإذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طباخه، فاستدعى خادمه فأسر إليه شيئًا لم نعلمه، فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة، فكشف عن الصينية؛فإذا يد الطباخ مقطوعة تختلج[٥]، فتكدر علينا عيشنا،وقمنا من عنده،ونحن لا نعقل.

فيجب علي المضيف: أن يراعى خواطر أضيافه كيفما أمكن، ولا يغضـب علـى أحـد بحضورهـم، ولا ينغـص عيشهم بما يكرهونه، ولا يعبس بوجهه، ولا يظهر نكدًا، ولا ينهر أحدًا، ولا يشتمه بحضرتهـم، بـل يدخـل علـى قلوبهم السرور بكل ما أمكن. كما حكى عن بعض الكرام أنه دعا جماعة مـن أصحابـه إلى بسـتانه، وعمـل لهـم سماطًا، وكان له ولد جميل الطلعة، فكان الولد فى أول النهار يخدم القوم، ويأنسون به، ففى آخر النهار صعد إلى السطح فسقط فمات لوقته، فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصـرخ، ولا تبكـى إلى أن تصبـح. فلمـا كان الليل سأله أضيافه عن ولده، فقال: هو نائم، فلما أصبحوا وأرادوا الخروج، قـال لهـم: إنْ رأيتـم أن تصلـوا على ولدى فإنه بالأمس سقط من على السطح فمات لساعته. فقالوا له: لِمَ لا أخبرتنا حـين سـألناك؟ فقـال: مـا ينبغى لعاقل أن ينغِّص على أضيافه فى التذاذهم، ولا يكدِّر عليهم فى عيشهم، فتعجَّبوا من صبره وتجلُّده، ومكارم أخلاقه، ثم صلوا على الغلام وحضروا دفنه، وبكوا عليه وانصرفوا.

وعلى المضيف أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقُّد غلمانهم بما يكفيهم، ويسـهل حجابـه وقـت الطعـام، ولا يمنع واردًا. وقيل لبعض الأمراء الكرام: لا بأس بالحجـاب، لئـلا يدخـل مَـنْ لا يعرفـه الأمـير، ويحـترز[٦] عـن العدو. فقال: إن عدوا يأكل طعامنـا ولا ينخدع لا يمكِّنه اللّه منا، والأليـق بالكريم الرئيـس أن يمنـع حاجبـه مـن الوقوف ببابه عند حضور الطعام، فإن ذلك أول الشناعة[٧] عليه، وعليـه أن يسـهر مـع أضيافـه ويؤانسـهم بلذيـذ المحادثة وغريب الحكايات، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الطرف إن كان من أهـل ذلـك، وأن يُـرى أضيافه مكان الخلاء. فقد قيل عن ملك الهند إنه قال: إذ ضافك أحد فأرِهِ الكنيفَ؛ فإنى ابتليت بـه مـرة فوضعتـه فى قلنسوتى. وقالوا: لا بأس أن يدخل الرجل دار أخيه يستطعم للصداقة الوكيدة[٨] ، وقد قصد النبى صلـى اللّـه عليه وسلم والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبى أيوب الأنصارى، وكذلك كانت عادة السلف رضى اللّه تعالى عنهم. فقد كان لعون بن عبد اللّه المسعودى ثلثمائة وستون صديقًا، فكان يدور عليهـم فـى السـنة. ولا بـأس أن يدخل الرجل بيت صديقه فيأكل وهو غائب، فقد دخل رسول اللّه صلى اللّه عليـه وسـلم دار بريـرة رضـى اللّـه

(١) عقرتُ: ذبحت.
(٢) العشار: الناقة فى عمر عشرة أشهر.
(٣) مطية: مركوبة.
(٤) سورة هود: ٧١.
(٥) تختلج: تتحرك ببقية روح.
(٦) يحترز: يتحصن.
(٧) الشناعة: الفظاعة.
(٨) الوكيدة: المتينة.

عنها فأكل طعامها وهى غائبة. وكان الحسن رضى اللّه عنه يومًا عند بقال فجعل يأخذ من هذه الجونة تينة، ومن هذه فستقة فيأكلها. فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد فى الورع؟ فقال له: يا لكع اتلُ علىَّ آية الأكل فتلا: ﴿وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[1] فقال: الصديق مَنِ استروحت إليه النفس، واطمأن إليه القلب.

وعلى المضيف الكريم أن لا يتأخَّر عن أضيافه، ولا يمنعه عن ذلك قلة ما فى يده، بل يحضر إليهم ما وجد؛ فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضى اللّه تعالى عنهم أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة، وحشف التمر، ويقولون: ما ندرى أيهما أعظم وزرًا، الذى يحتقر ما قدم إليه، أو الذى يحتقر ما عنده أن يقدمه. وعن أنس رضى اللّه عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «مَنْ ألقم أخاه لقمة حلوة؛ صرف اللّه عنه مرارة الموقف». وحكى عن الإمام الشافعى رضى اللّه عنه أنه كان نازلاً عند الزعفرانى ببغداد فكان الزعفرانى يكتب فى كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية، فأخذها الشافعى منها يومًا، وألحق فيها لونًا آخر، فعرف الزعفرانى ذلك، فأعتق الجارية سرورًا بذلك. وكانت سنة السلف رضى اللّه عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة، ليأكل كل شخص ما يشتهى.

ومن السنة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر مَنْ يحضر مِن عشيرته، فقد قيل: ثلاثة تضنى: سراج لا يضىء، ورسول بطىء، ومائدة ينتظر لها من يجىء. ونزل الإمام الشافعى رضى اللّه عنه بالإمام مالك رضى اللّه عنه فصبَّ بنفسه الماء على يديه، وقال له: لا يرعك ما رأيت منى؛ فخدمة الضيف على المضيف فرض:

اعرض طعامك وأبذله لمن أكلا ... واحلف على من أبى واشرك لمن فعلا
ولا تكن سابرى العرض[2] محتشمًا ... من القليل فلست الدهر محتفلاَ

ومن البخلاء من يعزم على الضيف فيعتذر له فيمسك عنه بمجرد الاعتذار كأنه تخلص من ورطة: وقيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ قال: أن يعتذر الضيف بالصوم.

ومن البخلاء من يعجبه طعامه، ويصف زباديه، ويشتهى أن تبقى على حالها، ومنهم من يحضر طعامه فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع، فهذا أطيبها وأشهاها إلى النفوس، ويعتذر أن فى أصحابه من يحضر بالغداة عنده، وحكى عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل، فدخل الضيف من قبل أن يرفعه فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز، فقال له: ترى أن تأكل عسلاً بلا خبز، قال: نعم، وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة. فقال له البخيل: مهلاً يا أخى، واللّه إنه يحرق القلب، قال: نعم صدقت، ولكنه قلبك.

وحكى عن بعضهم أنه قال: غلبت على الجوع مرة فقلت: أمضى إلى دار فلان لأتغدى عنده، فجئت إلى باب بيته فوجدت غلامه، فقلت له: أين سيدُك؟ فقال: واللّه لا قلت لك عليه إلا أن أعطيتنى كسرة. قال: فرجعت هاربًا.

ومن البخل تقديم الشىء اليسير وتفخيمه. حكى عن بعض البخلاء أنه حلف يومًا على صديقه وأحضر له خبزًا وجبنًا وقال له: لا تستقل الجبن؛ فإن الرطل منه بثلاثة دراهم، فقال ضيفه: أنا أجعله بدرهم ونصف، قال:

---

(١) سورة النور: ٦١.

(٢) أى: قليل الدفاع عنه.

وكيف ذلك؟ قال: آكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن. فأين هؤلاء من الذى يقول:

قـالَتْ أمـا ترحـلُ تبغـى الغنَـى ... قلـتُ فَمَـنْ للطـارقِ المعتـمِ[1]

قـالَتْ فهـلْ عنـدَكَ شـىء لـه ... قلـتُ نَعَـمْ جُهْـدُ الفتـى المعـدمِ

فكَـم وحـقِّ اللّـه مـن ليلـةٍ ... قـد أطعِـمَ الضيـفُ و لم أطعـمِ

إن الغنـى بـالنفس يـا هـذِهِ ... ليـس الغنـى بالمـالِ والدرهـمِ

وقال بعض البخلاء:

سرى نحونا يبغى القِرى طاوى الحشى[2] ... لقـد عملَـتْ فيـه الظنـون الكـواذبُ

فبـات لـه منـا إلى الصبـحِ شـاتمٌ ... يعـدد تطفيـلَ الضيـوفِ وضـاربُ

فشتَّانَ ما بين القائلَيْن.

وأما آداب الضيف فهو: أن يبادر إلى موافقة المضيف فى أمور، منها أكلُ الطعام، ولا يعتذر بشبع، بل يأكل كيف أمكن؛ فقد حكى أنه ورد على بعض الأعراب ضيف فدخل به إلى بيته وقدم له الطعام، فقال الضيف: لستُ بجائع، وإنما احتاجُ إلى مكان أبيت فيه. فقال الأعرابى: إذا كان هذا عزمك فكن ضيف غيرى؛ فإنى لا أرى أن تمدحنى فى البلاد، وتهجونى فيما بينى وبينك.

وحكى عن بعض التجار قال: استدعانى أبو حفص محمد بن القاسم الكرخى لأعرض عليه قماشًا من تجارتى، فبينما أنا بين يديه، وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت فقمت من مجلسه، فقال: يا فلان، ما هذا الخلق العامى؟ اجلس فجلست وتحقَّقتُ كرمه، وجعَلْتُ آكل الكمثراة فى لقمة، والتفاحة فى لقمة، ثم قدم الطعام وكنتُ جائعًا، فأكلت أكلاً جيدًا ثم انصرفت. فلم أشعر فى اليوم الثانى إلا وقد جاءنى غلامه ببغلته فاستدعانى إليه فقال لى: يا فلان، إنى قليل الأكل، بطىء الهضم، ولقد طابت لى مؤاكلتك بالأمس فأريد أن لا تنقطع بعدها عنى. قلل: فكنت متى انقطعت حضر غلامه فى طلبى، فحصل لى بقربى منه مال كثير، وجاه عريض.

ومن آداب الضيف: أيضًا أن لا يسأل صاحب المنزل عن شىء من داره سوى القبلة، وموضع قضاء الحاجة، وأن لا يتطلع إلى ناحية الحريم، وأن لا يخالفه إذا أجلسه فى مكان أكرمه به، وأن لا يمتنع من غَسْلِ يدَيْه، وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرَّك بحركة فلا يمنعه منها. فقد نقل فى بعض المجاميع أن بعض الكرماء كان عربيدًا[3] على أضيافه سيِّئ الخلق بهم، فبلغ ذلك بعض الأذكياء فقال: الذى يظهر لى من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق، وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف، ولابد أن أتطفَّل عليه لأرى حقيقة أمره، قال: فقصدته وسلمت عليه، فقال: هل لك أن تكون ضيفى؟ قلت: نعم. فسار بين يدىّ إلى أن جاء إلى باب داره فأذن لى، فدخلت، فأجلسنى فى صدر مجلسه، فجلست حيث أجلسنى، وأعطانى مسندًا فاستندت إليه، فأخرج لى شطرنجًا، وقال: أتتقن شيئًا؟ قلت: نعم. فلعبت معه، فلما حضر الطعام جعل يقدم لى ما استطابه وأنا آكل، فلما فرغنا قدم طستًا وإبريقًا وأراد أن يسكب الماء على يدىّ، فلم أمنعه من ذلك، وأراد الخروج من بين يدىّ بعد أن قدم نعلى، فلم أرده عن ذلك. فلما أراد الرجوع قلت: يا سيدى أنشدك اللّه ألا فرجت عنى كربة. قال: وما هى؟ فأخبرته الخبر، فقال: واللّه ما يحوجنى لذلك إلا سوء أدبهم، يصل الضيف إلى دارى فأجلسه فى الصدر فيأبى ذلك، ثم

---

(١) المعتم: القادم ليلاً.

(٢) طاوى الحشى: فارغ الجوف من الجوع.

(٣) عربيدًا: سيئ الخلق.

أقدم إليه الطعام فلا أتحفه بشىء مستظرف إلا ردّه علىّ. ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل، ثم أريد أن أشيعه فلا يمكننى من ذلك، فأقول فى نفسى: لا يحكم الإنسان على نفسه حتى فى بيته، فعند ذلك أشتمه وألعنه، بل أضربه، وفى معنى ذلك يقول بعضهم:

لا ينبغـى للضَّيْـفِ أن يعـترض ... إن كـان ذا حـزم وطبـع لطيـفْ
فـالأمرُ للإنسـانِ فـى بيتـه ... إن شاءَ أن ينصفَ أو أن يُحيفْ[1]

ومما يعاب على الضيف: أمور منها: كثرة الأكل المفرط إلا أن يكون بدويًا فإنها عادته. ومنها: أن تتبع طريق الشرهين كمن يتخذ معه خريطة مشمعة[2] ، يقلب فيها الزبادى، والأمراق، والحلوى وغير ذلك، ومنها: أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يبكى وقت الإنصراف من الطعام، ليعطى على اسم ولده الصغير، ومنها: قبح المؤاكلة وقد عُدَّ فيها عيوب كثيرة فمنها، المتشاوف، والعداد، والجراف، والرشاف، والنفاض، والقراض، والبهات، واللتات، والعوام، والقسام، والمخلل، والمزبد، والمرنخ، والمرشش، والمفتش، والمنشف، والملبب، والصباغ، والنفاخ، والحامى، والمجنح، والشطرنجى، والمهندس، والمتمنى، والفضولى.

فأما المتشاوف: فهو الذى يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام فلا تراه إلا متطلعًا لناحية الباب يظن أن كل ما دخل هو الطعام.

وأما العداد: فهو الذى يستغرق فى عد الزبادى ويعد على أصابعه، ويشير إليها، وينسى نفسه.

والجراف: هو الذى يجعل اللقم فى جانب الزبدية ويجرف بها إلى الجانب الآخر.

والرشاف: هو الذى يجعل اللقمة فى فيه ويرتشفها فيسمع لها حين البلع حس لا يخفى على جلسائه وهو يلتذ بذلك.

والنفاض: هو الذى يجعل اللقمة فى فيه وينفض أصابعه فى الزبدية.

والقراض: هو الذى يقرض اللقمة بأطراف أسنانه ويضعها فى الطعام بعد ذلك.

والبهات: هو الذى يبهت فى وجه الآكلين حتى يبهتهم ويأخذ اللحم من بين أيديهم.

واللتات: هو الذى يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها فى الطعام.

والعوام: هو الذى يميل ذراعيه يمنة ويسرة لأخذ الزبادى.

والقسام: هو الذى يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها فى الطعام من فيه.

والمخلل: هو الذى يخلل أسنانه بأظفاره.

والمزبد: هو الذى يحمل معه الطعام.

والمرنخ: هو الذى يرنخ اللقمة فى الأمراق فلا يبلغ الأولى، حتى تلين الثانية.

والمرشش: هو الذى يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤاكليه.

والمفتش: هو الذى يفتش على اللحم بأصابعه.

والمنشف: هو الذى ينشف يديه من الدهن باللقم، ثم يأكلها.

والملبب: هو الذى يملأ الطعام لبابًا.

والصباغ: هو الذى ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده.

والنفاخ: هو الذى ينفخ فى الطعام.

---

(١) يُحيفْ: يجور.

(٢) خريطة مشمعة: وعاء من أدم يشدّ على ما فيها.

والحامى: هو الذى يجعل اللحم بين يديه فيحميه عن مؤاكليه.

والمجنح: هو الذى يزاحم مؤاكليه بجناحيه حتى يفسح له فى المجلس فلا يشق عليه الأكل.

والشطرنجى: هو الذى يرفع زبدية، ويضع زبدية أخرى مكانها.

والمهندس: هو الذى يقول لمن يضع الزبادى: ضع هذه هنا، وهذه ههنا حتى يأتى قدامه ما يحب.

والمتمنى: هو الذى يقول: ليتنى لم يكن معى مَنْ يأكل.

والفضولى: هو الذى يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام: إن كان قد بقى عندك فى القدور شىء فاطعم الناس فإن فيهم مَنْ لم يأكل.

ومن الأضياف: مَنْ لا يلذ له حديث إلا وقت غسل يديه، فيبقى الغلام واقفًا والإبريق فى يده، والناس ينتظرونه. ومنهم: مَنْ يغسل يديه بالأشنان مرة واحدة، فإذا اجتمع الوسخ والذفر تسوك بهما. ومنهم: مَنْ يدخل الدار فيبتدئ بالهندسة أولاً، فيقول كان ينبغى أن يكون باب المجلس من ههنا، والإيوان كان ينبغى أن يكون ههنا. وينتقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس، فينقل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر، وإن كان قد استحكم جوعه استعفى من الطعام وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم. ومنهم: مَنْ يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة فيتألم من انقطاعهم، ويستوحش من غيبتهم، ويسلطهم على عرض صاحبهم. ولقد حكى عن مغن غير مجيد أنه لم يبطل ولا ليلة واحدة، وما ذاك إلا أنه كان إذا سئل: أين كنت؟ قال: كنت عند الناس، وإذا قيل له: أين أكلت؟ قال: أكلت فى بطنى، وإذا قيل له: أين شربت؟ قال: شربت فى فمى. ومنهم: مَنْ يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه: اشتر كذا، فيقول: والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشترى شيئًا فأذوقه فيعجز صاحب المنزل ويخجله إذا لم يكن فى بيته شىء موجود، وليت شعرى إذا كان لا يأكل فلأى شىء حضر، ومنهم: من يرى صاحب البيت قد أسر إلى صديقه فيقول: ما الذى قال المولى لصاحبنا؟ وهو لا يريد أن يعلمه. ومنهم: من يستعجل صاحب المنزل بالأكل، ويشكو الجوع، ويظن أن ذلك بسط ومكارم أخلاق، وإنما ذلك يكون فى بيته لا فى بيوت الناس. ومنهم: مَنْ يقول لصاحب الدعوة: من يغنى لنا؟ فيقول: فلان. فيقول له: غلطت، لم لا دعوتَ فلانًا؟

ومنهم: مَنْ يسأل صاحب البيت: كيف قوته فى النكاح؟ فيقول له: أنا رجل كبير قد ضعفت قوتى وشهوتى، أو يقول: ما لى قوة طائلة فى ذلك. فيقول: أنا والله كلما مرّ علىّ عام تزايدت شهوتى، وكثر لهذا الفن تشوقى، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت. ومنهم: من يشكو حاله مع أهل بيته، ويذكر نفقته عليهن وكسوته عليهن، وكثرة أنعامه وإحسانه إليهن، وما عليه زوجته من سوء الأخلاق، وكبر النفس لتستقل زوجة صاحب البيت ما هى فيه مع زوجها، وربما كان ذلك سببًا لفراقها. ومنهم: مَنْ تعجبه نفسه ويستحسن لباسه ويستطيب رائحته، وإذا سمع الغناء تواجد وأظهر الطرب وحرك رأسه، ويقوم قائمًا يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل، بديع الحركات، ويظن فى نفسه أنه يعشق، وأن رسول صاحبة البيت لا يبطئ عنه. ومنهم: مَنْ يقال له: العب الشطرنج فيأباه، ويشتغل بالدندنة فيقع فى الفضول. ومنهم: مَنْ يتأمر على غلمان صاحب البيت ويهين أولاده ويظن أنه يدل عليهم. ومنهم: مَنْ يقول له صاحب البيت: كُلْ، فيقول: ما آكل إلا أنا ورفيقى. ومنهم: من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه، ويقلده بذلك المنن، وأكثر الناس واقع فى ذلك.

نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه، أنه جواد كريم رؤوف رحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس والثلاثون فى العفو والحلم الصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك

قد ندب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم إلى الصفح والعفو بقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[(١)] قيل: هو الرضا بلا عتاب، وقال تعالى: ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾[(٤)] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[(٥)]، وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت قصورًا مشرفة على الجنة، فقلت: يا جبريل، لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس». وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه: لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال: «ما زال جبريل عليه السلام يوصينى بالعفو، فلولا علمى بالله لظننت أنه يوصينى بترك الحدود».
وقال الحسن بن أبى الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: مَنْ كان له على الله أجر فليقم، فلا يقم إلا العافون عن الناس، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[(٦)].

وقال على كرم الله وجهه: أولى الناس حبى للعفو لما تقربوا إلىّ إلاّ بالجنايات. وقال على كرم الله وجهه: إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكرًا للقدرة عليه. وقال رضى الله تعالى عنه: اقيلوا[(٧)] ذوى المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر، إلا ويده بيد الله يرفعه. وقال رضى الله عنه: إن أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصار له على الجاهل. وقال المنتصر: لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفى يلحقها ذم الندم، وقال ابن المعتز: لا تَشِنْ[(٨)] وجه العفو بالتقريع به. وقيل: ما عفا عن الذنب مَنْ قرع به، وقال رجل لرجل سبَّه: إياك اعنى. فقال له: وعنك أعرض. وكان الأحنف رحمه الله تعالى كثير العفو، والحلم، وكان يقول: ما آذانى أحد إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقى عرفت له فضله، وإن كان مثلى تفضلت عليه، وإن كان دونى أكرمت نفسى عنه. وكان مشهورًا بين الناس بالحلم، وبذلك ساد عشيرته وكان يقول: وجدت الاحتمال أنصرَ لى من الرجال. وقيل له: ممن تعلمت الحلْم؟ فقال: من قيس بن عاصم، كنا نختلف إليه فى الحلم، كما يُختلف إلى الفقهاء فى الفقه، ولقد حضرت عنده يومًا وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه، فجاءوا به مكتوفًا فقال: ذعرتم أخى أطلقوه، واحملوا إلى أم ولدى ديته، فإنها ليست من قومنا، ثم أنشأ يقول:

أقولُ للنفسِ تصبيرًا وتعزيةً ... إحدى يدىَّ أصابَتْنى ولم تُرِدِ
كلاهما خَلَفٌ مِن فَقْدِ صاحِبِهِ ... هذا أخى حين أدعوهُ وذا ولدى

وقيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر، وقالوا: ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام. وقيل: من انتقم فقد شفى غيظه، وأخذ حقه، فلم يجب شكره ولم يحمد فى العالمين ذكره: والعرب تقول: لا سؤدد مع الانتقام، والذى يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته، وإن كان لا بدّ من الانتقام فليرفق فى انتقامه إلا أن يكون حدًّا من حدود الله تعالى. وقال المنصور لجار عجز عن العذر: ما

---

(١) سورة الحجر:٨٥.
(٢) سورة الأعراف:١٩٩.
(٣) سورة آل عمران:١٣٤.
(٤) سورة الشورى:٤٣.
(٥) سورة آل عمران:١٨٦.
(٦) سورة الشورى:٤٠.
(٧) اقيلوا ذوى: ادفعوها عنهم.
(٨) تَشِنْ: تقبح.

هذا الوجوم[1] وعهدى بك خطيبًا لسنا[2] ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ليس هذا موقف مباهاة ولكنه موقف توبة، والتوبة بالاستكانة والخضوع، فرقّ له، وعفا عنه. وسعى إلى المنصور برجل من ولد الاشتر النخعى ذكر له عنه أنه يميل إلى بنى على، والتعصب لهم. فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين، ذنبى أعظم من نقمتك، وعفوك أعظم من ذنبى، ثم قال:

فهَبْنى مسيئًا كالذى قلتُ ظالمًا ... فعفوًا جميلاً كى يكونَ لك الفضلُ

فإنْ لم أكنْ للعفوِ منك لسوءِ ما ... أتيت به أهلاً فأنت له أهلُ

فعفا عنه، وأمر له بصلة.

وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنبًا. فقال له: أنت الذى فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم أيا أمير المؤمنين، أنا ذاك الذى أسرف على نفسه واتكل على عفوك، فعفا عنه وخلى سبيله. وأحضر إلى الهادى رجل من أصحاب عبد الله بن مالك فوبخه على ذنب، فقال: يا أمير المؤمنين، إن إقرارى يلزمنى ذنبًا لم أفعله، ويلحق بى جرمًا لم أقف عليه، وإنكارى رد عليك، ومعارضة لك، ولكنى أقول:

فإن كنتَ تبغى بالعقابِ تشفِّيًا ... فلا تزهدَن عند التجاوزِ فى الأجرِ

فقال: لله درك من معتذر بحق أو باطلٍ، ما أمضى لسانك، وأثبت جنانك. وعفا عنه وخلى سبيله.

وركب يومًا عمرو بن العاص رضى الله عنه بغلة له شهباء ومرَّ على قوم. فقال بعضهم: مَنْ يقوم للأمير فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف. فقال واحد منهم: أنا. فقام وأخذ بعنان بغلته، وقال: أصلح الله الأمير، أنت أكرم الناس خيلاً، فلِمَ ركبت دابة شهابًّ وجهها فقال: إنى لا أملّ دابتى حتى تملّنى، ولا أملّ رفيقى حتى يملنى، فقال: أصلح الله الأمير أما العاص فقد عرفناه، وعلمنا شرفه، فمن الأم؟ قال: على الخبير سقطت، أمى النابغة بنت حرملة بن عزة، سبتها رماح العرب فأتى بها سوق عكاظ، فبيعت فاشتراها عبد الله بن جدعان، ووهبها للعاص بن وائل، فولدت وأنجبت فإن كان قد جُعِلَ لك جُعْلٌ، فارجع وخذه وأرسل عنان الدابة.

وقيل: إن أمه كانت بغيًّا عند عبد الله بن جدعان فوطئها فى طهر واحد أبو لهب، وأميه ابن خلف، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل فولدت عمرًا فادعاه كلهم، فحكمت فيه أمه، فقالت: هو للعاص، لأن العاص؛ هو الذى كان ينفق عليها. وقالوا: كان أشبه بأبى سفيان.

وكان الواثق يتشبه بالمأمون فى أخلاقه وحلمه، وكان يقال له: المأمون الصغير. نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: لست به. فقالت: السلام عليك يا أيها الأمير. فقال لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقالت: ليسعنا عدلكم. فقال: إذًا لا يبقى على وجه الأرض منكم أحد؛ لأنكم حاربتم على بن أبى طالب رضى الله عنه، ومنعتم حقه، وسممتم الحسن رضى الله عنه، ونقضتم شرطه، وقتلتم الحسين رضى الله عنه، وسبيتم أهله، ولعنتم على بن أبى طالب رضى الله عنه على منابركم، وضربتم على بن عبد الله ظلمًا بسياطكم، فعدلنا لا يبقى منكم أحدًا. فقالت: فليسعنا عفوكم. قال: أما هذا فنعم. وأمر برد أموالها عليها وبالغ فى الإحسان إليها.

وكان معاوية رضى الله عنه يعرف بالحلم، وله فيه أخبار مشهورة، وآثار مذكورة وكان يقول: إنى لآنف أن يكون فى الأرض جهل لا يسعه حلمى، وذنب لا يسعه عفوى، وحاجة لا يسعها جودى، وهذه مروءة عالية المرتبة. وقال له رجل يومًا: ما أشبه استك باست أمك. فقال: ذاك الذى أعجب أبا سفيان سنها.

---

(١) الوجوم: العبوس.

(٢) خطيبًا لسنا: مكلامًا ذو لسان طيب.

وكتب معاوية إلى عقيل بن أبى طالب رضى اللّه عنه يعتذر إليه من شيء جرى بينهما. يقول: من معاوية بن أبى سفيان إلى عقيل بن أبى طالب. أما بعد، يا بنى عبد المطلب، فأنتم واللّه فروع قصيّ، ولباب عبد مناف، وصفوة هاشم، فأين أخلاقكم الراسية، وعقولكم الكاسية؟ وقد واللّه أساء أمير المؤمنين ما كان جرى ولن يعود لمثله، إلى أن يغيب فى الثرى. فكتب إلى عقيل يقول:

صدقْتَ وقلتَ حقًا غيرَ أنى ... أرى أنْ لا أراكَ ولا تراني

ولستُ أقولُ سوءًا فى صديقى ... ولكنّى أصدُّ إذا جَفَاني

فركب إليه معاوية رضى اللّه عنه وناشده فى الصفح عنه، واستعطفه حتى رجع. وحكى عنه رضى اللّه عنه أنه لما ولى الخلافة، وانتظمت إليه الأمور، وامتلأت منه الصدور، وأذعن لأمره الجمهور، وساعده فى مراده القدر المقدور، استحضر ليلةً خواص أصحابه وذاكرهم وقائع أيام صفين، ومَنْ كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين، فانهمكوا فى القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى مَنْ كان يجتهد فى إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض. فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدى كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة: يا أصحاب على، تسمعهم كلامًا كالصوارم مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل، والمدبر لأقبل، والمسالم لحارب، والفارّ لكرّ، والمتزلزل لاستقر. فقال لهم معاوية رضى اللّه عنه: أيكم يحفظ كلامها؟ فقالوا: كلنا نحفظه. قال: فما تشيرون على فيها؟ قالوا: نشير بقَتْلها؛ فإنها أهلٌ لذلك. فقال لهم معاوية رضى اللّه عنه: بئس ما أشرتم به، وقبحًا لما قلتم، أيحسن أن يشتهر عنى، أننى بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها؟ إنى إذًا للئيم، لا واللّه لا فعلت ذلك أبدًا، ثم دعا بكاتبه فكتب كتابًا إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إلى الزرقاء بنت عدى مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها، ومهِّدْ لها وطاء لينًا، ومركبًا ذلولاً. فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزائغة عن الطاعة، فحملها فى هودج، وجعل غشاءه خزًّا مبطنًا، ثم أحسن صحبتها. فلما قدمت على معاوية قال لها: مرحبًا وأهلاً، خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك يا خالة؟ وكيف رأيت سيرك؟ قالت: خير مسير. فقال: هل تعلمين لِمَ بعثتُ إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا اللّه سبحانه وتعالى. قال: ألستِ راكبةَ الجمل الأحمر يوم صفين، وأنتِ بين الصفوف توقدين نار الحرب وتحرضين على القتال؟ قالت: نعم. قال: فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس، وبتر الذنب، والدهر ذو غِيَر، ومَنْ تفكّر أبصر، والأمرُ يحدث بعده الأمر. فقال: صدقت، فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت؟ قالت: لا واللّه. قال: للّه أبوك فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس إن المصباح لا يضيء فى الشمس، وإن الكواكب لا تضئ مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا بالحديد؛ ألا من استشرشدنا أسترشدناه، ومن سألنا اخبرناه، إن الحق كان يطلب ضالة فأصابها. فصبرًا يا معشر المهاجرين والأنصار، فكأنكم وقد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل، وغلب الحق باطله؛ فإنه لا يستوى المحق والمبطل: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ﴾[1] فالنزال النزال، والصبر الصبر. ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، ائتوا الحرب غير ناكصين[2] ، فهذا يوم له ما بعده، يا زرقاء، أليس هذا قولك وتحريضك؟ قالت: لقد كان ذلك. قال: لقد شاركتِ عليًا فى كل دم سفكه، فقالت: أحسنَ اللّه بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك، مثلك من يبشّر بخير، ويُسِرُّ جليسه. فقال معاوية: أو قد سرَّك ذلك؟ قالت: نعم واللّه لقد سرنى قولك، وأنّى لى بتصديقه. فقال لها معاوية: واللّه لوفاؤكم له بعد

(١) سورة السجدة:١٨.

(٢) ناكصين: محجمين ومتراجعين.

موته أعجب إليّ من حبكم في حياته، فاذكرى حوائجك تقضى، فقالت: يا أمير المؤمنين إنى آليت على نفسى أن لا أسأل أحدًا بعد علىّ حاجة. فقال: قد أشار علىّ بعض مَنْ عرفك بقتلك، فقالت: لؤم من المشير، ولو أطعته لشاركته، قال: كلا بل نعفو عنك ونحسن إليك ونرعاك. فقالت: يا أمير المؤمنين، كرم منك، ومثلك من قدر فعفا، وتجاوز عمن أساءوا، وأعطى من غير مسألة. قال: فأعطاها كسوة ودراهم، وأقطعها ضيعة تغل لها فى كل سنة عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمة، وكتب إلى والى الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها.

وقيل: كان لعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أرض، وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية، وفيها أيضًا عبيد يعلمون فيها، فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله بن الزبير. فكتب عبد الله كتابًا إلى معاوية يقول له فيه: أما بعد، يا معاوية، إن عبيدك قد دخلوا فى أرضى، فانْهَهُمْ عن ذلك، وإلا كان لى ولك شأن. والسلام. فلما وقف معاوية على كتابه وقرأه دفعه إلى ولده يزيد، فلما قَرأه، قال له معاوية: يا بنى ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشًا يكون أوله عنده، وآخره عندك يأتوك برأسه. فقال: بل غير ذلك خير منه يا بنىّ. ثم أخذ ورقة، وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير يقول فيه: أما بعد، فقد وقفتُ على كتاب ولد حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءنى ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة عندى فى جنب رضاه، نزلت عن أرضى فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال، والسلام. فلما وقف عبد الله ابن الزبير رضى الله عنهما على كتاب معاوية رضى الله عنه كتب إليه: قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل، والسلام. فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد. فلما قرأه تهلل وجهه وأسفر، فقال له أبوه: يا بنى، من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب. فإذا ابتليت بشىء من هذه الأدواء فداوه بمثل هذا الدواء.

ولما دخل الفيل دمشق واجتمع الناس لرؤيته، صعد معاوية فى مكان مرتفع ينظر إليه، فبينما هو كذلك إذا نظر فى بعض الحجر من قصره رجلاً مع بعض حرمه. فأتى الحجرة ودق الباب، فلم يكن من فتحه بدٌّ فوقعت عينه على الرجل فقال له: يا هذا فى قصرى، وتحت جناحى تهتك حرمتى وإنك فى قبضتى؟ ما حملك على هذا؟ قال: فبهت الرجل، وقال: حلمك أوقعنى. فقال له معاوية: فإن عفوت عنك تسترها علىّ. قال: نعم. فعفا عنه، وخلّى سبيله. وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجانى وهو عروض، قول الشاعر:

إذا مرضتم أتَيْناكم نعوُدكُمُ ... وتَذنِبون فنأتيكم ونعتذرُ[1]

وحكى عن الربيع مولى الخليفة المنصور، قال: ما رأيت رجلاً أربط جأشًا، وأثبت جنانًا من رجل سُعى به إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالاً لبنى أمية، فأمرنى بإحضاره، فأحضرته إليه. فقال له المنصور: قد رفع إلينا خبر الودائع والأموال التى عندك لبنى أمية، فأخرِجْ لنا منها وأحْضِرْهَا، ولا تكتُمْ منها شيئًا. فقال: يا أمير المؤمنين أنت وارث بنى أمية؟ قال: لا. قال: أفوصى لهم فى أموالهم ورباعهم[2]؟ قال: لا. قال: فما مسألتك عما فى يدى من ذلك؟ قال: فأطرق المنصور، وتفكر ساعة ثم رفع رأسه، وقال: إن بنى أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين فى حقوقهم، وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه فأجعله فى بيت أموالهم. فقال: يا أمير المؤمنين، فتحتاج إلى إقامة بينة عادلة أن ما فى يدى لبنى أمية مما خانوه وظلموه؛ فإن بنى أمية كانت لهم أموال غير أموال المسلمين. قال: فأطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه، وقال: يا ربيع، ما أرى الشيخ إلا قد صدق، وما يجب عليه شىء، وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه. ثم قال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم، حاجتى يا أمير

---

(١) المحفوظ فى البيت: إذا مرضتم أتيناكم نعودكمُ.

(٢) رباعهم: ديارهم.

المؤمنين أن تجمع بيني وبين مَنْ سعى فيّ إليك، فوالله الذى لا إله إلا هو، ما فى يدى، لبنى أمية مال، ولا وديعة، ولكننى لما مثلت بين يديك وسألتنى عما سألتنى عنه قابلت بين هذا القول الذى ذكرته الآن، وبين ذلك القول الذى ذكرته أولاً. فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة. فقال: يا ربيع، اجمع بينه وبين مَنْ سعى به، فجمعت بينهما. فلما رآه قال: هذا غلامى اختلس لى ثلاثة آلاف دينار من مالى، وأبق[1] منى، وخاف من طلبى له فسعي بى عند أمير المؤمنين. قال: فشدد المنصور على الغلام وخوّفه، فأقر بأنه غلامه، وأنه أخذ المال الذى ذكره وسعى به كذبًا عليه، وخوفًا من أن يقع فى يديه. فقال له المنصور: سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه. فقال: قد عفوت عنه وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التى أخذها، وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليه. فقال له المنصور: ما على ما فعلت من مزيد. قال: بلى يا أمير المؤمنين إن هذا كله لقليل فى مقابلة كلامك لى، وعفوك عنى، ثم انصرف. قال الربيع: فكان المنصور يتعجب منه وكلما ذكره يقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

وغضب الرشيد على حميد الطوسى فدعا له بالنطع[2] والسيف، فبكى، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه، وإنما بكيت أسفًا على خروجى من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط عليَّ، فضحك وعفا عنه، وقال: إن الكريم إذا خادعته انخدع. وأمر زياد بضرب عنق رجل فقال: أيها الأمير، إن لى بك حرمة.

قال: وما هى؟ قال: إن أبى جارك بالبصرة. قال ومَنْ أبوك؟ قال: يا مولاى إنى نسيت اسم نفسى، فكيف لا أنسى اسم أبى، فرد زيادة كمه على فمه وضحك وعفا عنه. وأمر الحجاج بقتل رجل فقال: أسألك بالذى أنت غدًا بين يديه أذلَّ موقفًا منى بين يديك إلا عفوت عنى. فعفا عنه. ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث، أتى رجل من بنى تميم فقال: والله يا حجاج لئن كنا أسأنا فى الذنب، ما أحسنت فى العفو. فقال الحجاج: أفٍ لهذه الجيف[3] ، أما كان فيهم مَنْ يحسن الكلام مثل هذا وعفا عنه، وخلّى سبيله. وكان إبراهيم بن المهدى يقول: والله ما عفا عنى المأمون تقربًا إلى الله تعالى، ولا صلة للرب ولكن له سوق فى العفو يكره أن تكسد بقتلى.

وسئل الفضل عن الفتوة، فقال: الصفح عن عثرات الإخوان. وفى بعض الكتب المنزلة. إن كثرة العفو زيادة فى العمر، وأصله قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[4] وقال يزيد بن مزيد: أرسل إلَيّ الرشيد ليلاً يدعونى فأوجست منه خيفة[5] فقال له: أنت القائل: أنا ركن الدولة، والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها، لا أمَّ لك، أى ركن، وأى ثائر أنت؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ما قلت هذا إنما قلت: أنا عبد الدولة، والثائر لها، فأطرق وجعل ينحل غضبه عن وجهه، ثم ضحك. فقلت: أحسن من هذا قولى:

خلافةَ اللّه فى هارونَ ثابتةٌ ... وفى بنيه إلى أن يُنْفَخَ الصُّورُ

فقال: يا فضل، أعطه مائتى ألف درهم قبل أن يصبح.

وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل فقال: ما أقبح بى أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذى يستضاء به، فأتعلق بأطواقك.

---

(١) أبق: هرب.

(٢) النطع: جلد يوضع تحت المراد قطع رأسه.

(٣) مفردها جيفة: الجثة النتنة.

(٤) سورة الرعد:١٧.

(٥) خيفة: ارتعبت.

وأقول: أى رب سَلْ مصعبًا لِمَ قتلنى؟ فقال: اطلقوه، فلما أطلقوه قال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لى من حياتى فى خفض عيش[١] . قال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم فقال:

أنا المذنبُ الخطاءُ والعفوُ واسعٌ ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرِفَ العفوُ

وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل فقال: والله لئن أمكننى الله منه لأفعلن به كذا وكذا، فلما صار بين يديه، قال له رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين، قد صنع الله ما أحببت، فاصنع ما أحب الله. فعفا عنه، وأمر له بصلة. وقال الحسن: إن أفضل رداء تردَّى به الإنسان الحلم، وهو والله، عليك أحسنُ من برد الحبر[٢] ، وفيه قال أبو تمام:

رقيقُ حواشى الحلمِ لو أن حلمَهُ بكَفَّيْكَ ما مارَيْتَ[٣] فى أنه بردُ

ويقال: الحليم عليم، والسفيه كليم، وقال محمد بن عجلان: ما شىء أشدَّ على الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلم بعلمٍ، وإن سكتَ بحلمٍ. يقول الشيطان: سكوته علىّ أشد من كلامه:

إذا كنتَ تبغى شيمةً غيرَ شيمةٍ طبَعْتَ عليها لم تطعك الضرائب

وعن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب. وفى التوارة: اذكرنى إذا غضبت، اذكرك إذا غضبت. فلا أمحقك[٤] فيما أمحق، وإذا ظلمت فاصبر، وارضَ بنصرتى، فإن نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك. وكان ابن عون إذا غضب على إنسان قال له: بارك الله فيك، وكانت له ناقة كريمة فضربها الغلام فاندر عينها، فقالوا: إن غضب ابن عون فإنه يغضب اليوم. فقال للغلام: غفر الله لك. وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أى شىء أشد؟ قال: «غضب الله». قال: فما يباعدنى من غضب الله؟ قال: «أن لا تغضب».

ويقال: مَنْ أطاع الغضب، أطاع الأرب. قال أبو العتاهية:

ولم أرَ فى الأعداءِ حينَ اختبرتَهُم عدوًا لعقل أعدَى من الغضبِ

وقال أبو هريرة رضى الله عنه: ليس الشديد بالصُّرَعة[٥] ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب. وقال ابن مسعود رضى الله عنه: كفى بالمرء إثمًا أن يقال له: اتق الله فيغضب ويقول: عليك نفسك. وكتب عمر بن العزيز رضى الله عنه إلى عامل من عماله: أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاحبسه، فإذا سكن غضبك فاخرجه فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطًا. قيل لابن المبارك رحمه الله تعالى: اجمع لنا حسن الخلق فى كلمة واحد قال: تَرْكُ الغضب. وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب، ويشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف. فأعطى كل صحيفة رجلاً، وقال للأول: إذا اشتد غضبى فقم إلىّ بهذه الصحيفة، وناولنيها. قال للثانى: إذا سكن بعض غضبى فناولنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبى فناولنيها. وكان فى الأولى: أقصِرْ، فما أنت وهذه الغضب، إنك لست بإله، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضًا. وفى الثانية: ارحَمْ مَنْ فى الأرض، يرحَمْكَ مَنْ فى السماء. وفى الثالثة: احمِلْ عبادَ الله على كتاب الله فإنه لا يصلحهم إلا ذاك. روى أنه أنو شروان. وكان الشعبى أولع شىء بهذا البيت:

ليستِ الأحلامُ فى حالِ الرضا إنما الأحلامُ فى حالِ الغضبِ

---

(١) خفض عيش: دعة ولين.
(٢) الحبر: العالم.
(٣) ماريْتَ: جادلت.
(٤) أمحقك: أبطله ومحاه.
(٥) الصُّرَعة: الشدة والغلبة.

وعن معاذ بن جبل عن أنس رضى اللّٰه عنهما عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم قال: «من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه، دعاه اللّٰه على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره فى أى الحور شاء» وروى: «ملأه اللّٰه أمنًا وإيمانًا» وقال ابن السماك: أذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط ومضت خلفه حتى إذا قاربته رمت بالسوط وقالت: ما تركتِ التقوى أحدًا يشفى غيظه. وقال أبو ذر لغلامه: لِمَ أرسلت الشاة على علفِ الفرس؟ قال: أردت أن أغيظك.

قال: لأجمعن مع الغيظ أجرًا، أنت حر لوجه اللّٰه تعالى.

واستأذن رهط من اليهود على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فأذن لهم، فقالوا: السام عليك يا محمد: فقالت عائشة رضى اللّٰه تعالى عنها: بل السام عليكم، واللعنة، فقال: «يا عائشة إن اللّٰه يحب الرفق فى الأمر كله» فقالت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «قد قلت وعليكم». ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابى يقال له: حمزة، سرق وقامت عليه البيّنة، فهمَّ عبد الملك بقَطْع يده فكتب إليه حمزة من السجن يقول:

يدى يا أمير المؤمنين أعيذَها ... بعفوكَ أن تلقَى مقامًا يَشينَها
فلا خيرَ فى الدنيا وكانت خبيثةً ... إذا ما شمالٌ فارقَتْها يمينَها

قال: فأبى عبد الملك إلا قطعه، فدخلت عليه أم حمزة. وقالت: يا أمير المؤمنين بنىّ وكاسبى وواحدى. فقال لها عبد الملك: بئس الكاسب لك، هذا حدٌّ من حدود اللّٰه تعالى. فقالت: يا أمير المؤمنين فاجعله أحد ذنوبك التى تستغفر اللّٰه منها، فقال عبد الملك: ادفعوه إليها وخلّى سبيله:

إذا ما طاش[1] حلمك عن عدو ... وهانَ عليكَ هجرانُ الصديقِ
فلستَ إذًا أخا عفوٍ وصَفْحٍ ... ولا لأخٍ على عهدٍ وثيقِ
إذا زلّ الرفيق وأنتَ ممن ... بلا رفقٍ بقيتَ بلا رفيقِ
إذا أنتَ اتخذتَ أخًا جديدًا ... لما أنكرْتَ من خلقٍ عتيقِ
فما تدرى لعلّك مستجيرٌ ... منَ الرمضاءِ فرَّ إلى الحريقِ
فكم مِن سالكٍ لطريقٍ أمنٍ ... أتاه ما يحاذِرُ فى الطريقِ

وشتم رجل رجلاً. فقال له: يا هذا، لا تغرق فى شتمنا، ودَعْ للصلح موضعًا؛ فإنى أبيت مشاتمة الرجال صغيرًا، فلن أجيئها كبيرًا، وإنى لا أكافئ مَنْ عصى اللّٰه فىّ بأكثر من أن أطيع اللّٰه فيه.

وحكى عن جعفر الصادق رضى اللّٰه عنه أن غلامًا وقف يصبُّ الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام فى الطست، فطار الرشاش فى وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مغضب، فقال: يا مولاى ﴿والكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾ قال: قد كظمت غيظى، قال: ﴿والعَافِينَ عَنْ النَّاسِ﴾ قال: قد عفوت عنك، قال: ﴿واللّٰهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ قل: اذهب فأنت حر لوجه اللّٰه تعالى. وقيل لما قدم نصر بن منيع بين يدىّ الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه، قال: يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمات أقولها، قال: قل.

فأنشأ يقول:

زعمُوا بأنَّ الصقرَ صادفَ مرَّةً ... عصفورَ برٍّ ساقَهُ التقديرُ
فتكلّمَ العصفورُ تحت جناحِهِ ... والصقرُ منقَضٌّ عليهِ يطيرُ
إنى لمثلِكَ لا أتمُّ لقمَةً ... ولئِنْ شُويتُ فإننى لحقيرُ

---

(١) طاش: ذهل وأخطأ.

فتهاونَ الصقرُ المدِلُّ[١] بصَيْدِهِ كرمًا وأفلتَ ذلكَ العصفورُ

قال: فعفا عنه، وخلّى سبيله. قال الشاعر:

أقررْ بذنبِكَ ثم اطلب تجاوُزَهُم عنه فإنَّ جحودَ الذنبِ ذنبان

وقال بعضهم:

يستوجب العفوُ الفتىَّ إذا اعترَفْ وتابَ عمَّا قد جناه واقترَفْ

لقولِهِ قَلْ للذين كفروا أن ينتهوا يغفرْ لهم ما قد سَلَفْ

وقال آخر:

إذا ذكرتُ أياديك التى سلفَتْ مَعَ قبحِ فعلى وزلاتى ومجترمى

أكادُ أقتُلُ نفسى ثم يُدركنى علمى بأنكَ مجبولٌ على الكرمِ

وروى أن عمر رضى الله عنه رأى سكران فأراد أن يأخذه ليعزره[٢]. فشتمه السكران فرجع عنه. فقيل له: يا أمير المؤمنين، لمّا شتمك تركته. قال: إنما تركته لأنه أغضبنى، فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسى، فلا أحب أن أضرب مسلمًا لحمية نفسى.

وغضب المنصور على رجل من الكتاب فأمر بضرب عنقه فأنشأ يقول:

وأنّا الكاتبونا وإن أسأنا فهبنا للكرامِ الكاتبينا

فعفا عنه وخلّى سبيله وأكرمه. وقال الرشيد لأعرابى. بمَ بلغَ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة؟ قال: بحلمه عن سفيهنا، وعفوه عن مسيئنا، وحمله عن ضعفينا، لا منانَ[٣] إذا وهب، ولا حقود إذا غضب، رحب الجنان، سمح البنان، ماضى اللسان. قال: فأومأ الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه وقال: والله لو كانت هذه فى هذا الكلب لاستحق بها السؤد. وقيل لمعن بن زائدة: المؤاخذة بالذنب من السؤدد[٤]. قال: لا، ولكن أحسن ما يكون الصفح عمن عظم جرمه، وقلّ شفعاؤه، ولم يجد ناصرًا.

وقال محمود الوراق:

سألزمُ نفسى الصفحَ عن كل مذنبٍ وإن عظمت منه علىَّ الجرائمُ

فما الناسُ إلا واحدًا من ثلاثةٍ شريفٌ ومشروف ومثلى مقاومُ

فأمَّا الذى فوقى فأعرفُ قدرَهُ وأتبعُ فيهِ الحقَّ والحقُّ لازمُ

وأما الذى دونى فإن قال صنتُ عن إجابته نفسى وإن لامَ لائمُ

وأما الذى مثلى فإن زلَّ أو هفا تفضَّلت[٥] إنَّ الحرَّ بالفضلِ حاكمُ

وقال الأحنف بن قيس لابنه: يا بنى، إذا أردت أن تؤاخى رجلاً، فاغضبه فإن أنصفك، وإلا فاحذَرْه. قال الشاعر:

إذا كنتَ مختصًّا لنفسِك صاحبًا فمِنْ قبلِ أن تلقاهُ بالودِّ أغضبَهْ

فإن كان فى حالِ القطيعةِ منصفًا وإلا فقد جرَّبْتَه فتجنَّبَهْ

(١) المدِلُّ: الواثق.

(٢) يعزره: يعاقبه.

(٣) لا منان: صاحب منة.

(٤) السؤدد: المجد والرياسة.

(٥) تفضَّلت: تكرمت.

ومن أمثال العرب: احلم تسد. قال الشاعر:

ولـن يبلـغَ المجـدَ أقـوامٌ وإن شـرُفوا ... حتـى يذلـوا وإن عـزوا لأقـوامِ
ويشـتموا فـترى الألـوان مسـفرة ... لا صفـح ذلّ ولكـنْ صفـحُ إكـرامِ

وقال آخر:

وجهـلٍ[1] رَدَدْنَـاهُ بفضـلِ حلومِنَـا ... ولـو أنّـا شـئنا رددنـاه بـالجهلِ

وقال الأحنف: إياكم ورأى الأوغاد. قالوا: وما رأى الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفح والعفو عارًا. وقال رجل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه: لأسبنك سبًا يدخل معك قبرك. فقال: معك والله يدخل لا معى. وقيل: إن الأحنف سبه رجل وهو يماشيه فى الطريق، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا، إن كان قد بقى معك شيء فهات وقله ههنا، فإنى أخاف أن يسمعك فتيان الحى فيؤذوك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا.

وقال لقمان لابنه: يا بنى ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه.

ومن أشعر بيت قيل فى الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تَعرِضْ عن الجهل والخنا[2] ... أصبتَ حليمًا أو أصابكَ جاهلُ

وقال آخر:

وإذا بغَى بـاغٍ[3] عليك بجَهْلِهِ ... فاقتُلْهُ بالمعروفِ لا بالمنكرِ

وقال آخر:

قل ما بدا لك من صدقٍ ومن كـذبٍ ... حلمى أصمُّ وأذنى غيرُ صمـاءِ

ويروى فى بعض الأخبار أن ملكًا من الملوك أمر أن يصنع له طعام، وأحضر قومًا فى خاصته، فلما مدَّ السماط أقبل الخادم، وعلى كفه صحن فيه طعام. فلما قرب من الملك أدركته الهيبة، فعثر فوقع من مرق الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك، فأمر بضرب عنقه. فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك فقال له: ويحك يا هذا؟ فقال: أيها الملك؛ إنما صنعت هذا شحًّا على عرضك، وغيرةً عليك، لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبى الذى به تقتلنى: قتله فى ذنب خفيف فلم يضره وأخطأ فيه العبد و لم يقصده، فتنسب إلى الظلم والجور، فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر فى قتلى، وترفع عنك الملامة. قال: فأطرق الملك مليًّا ثم رفع رأسه إليه وقال: يا قبيح الفعل يا حسن الاعتذار، قد وهبنا قبيح فعلك، وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك، اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى.

وحكى عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه، والمشهور فى الآفاق بعفوه وحلمه، أنه لما خرج عمه إبراهيم بن المهدى عليه وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان، فلما بلغه الخبر قصد العراق. فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدى، وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون، و لم يزل المأمون متطلبًا لإبراهيم حتى أخذه وهو متنقب مع نسوة. فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدى المأمون فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال المأمون: لا سلم الله عليك، ولا قرب دارك. استغواك[4] الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام، فقال إبراهيم: مهلاً يا أمير

(١) الجهل: الطيش.
(٢) الخنا: الفحش.
(٣) الباغ: المعتد.
(٤) استغواك: أضلك.

المؤمنين، فإن ولىَّ الثأر محكم فى القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شرف القرابة. وعدل السياسة، وقد جعلك اللّه فوق كل ذى ذنب، كما جعل كل ذى ذنب دونك. فإن أخذت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك. والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين. ثم قال هذه الأبيات:

ذنبى إليكَ عظيمٌ ... وأنت أعظمُ منهُ

فخذْ بحقكَ أو لا ... فاصفحْ بعفوكَ عنهُ

إن لم أكنْ فى فعالى ... من الكرامِ فَكُنْهُ

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع فى عينيه وقال: يا إبراهيم، الندم توبة، وعفو اللّه تعالى أعظم مما تحاول، وأكثر مما تأمل، ولقد حبب إلىّ العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه، لا تثريب عليك اليوم. ثم أمر بفك قيوده، وإدخاله الحمام، وإزالة شعثه، وخلعَ عليه وردَّ أمواله جميعها إليه، فقال فيه مخاطبًا:

رددتَ مالى ولم تبخلْ علىَّ بهِ ... وقبلَ ردِّك مالى قد حقَنْتَ دمى

فإن جحدتُكَ ما أوليتَ من كرمِ ... إنى لباللوم أوْلى منكَ بالكرمِ

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكرى، فقال له عباد: أيها الأمير، أنشدك اللّه أن لا تقتلنى، فواللّه إنى لأعول أربعًا وعشرين امرأة. ما لهن كاسبٌ غيرى، فرقَّ لهن واستحضرهن، وإذا واحدة منهن كالبدر. فقال لها الحجاج: ما أنتِ منه؟ قالت: أنا بنته فاسمع يا حجاج منى ما أقول، ثم قالت:

أحجَّاجُ إما أن تمنَّ بتَرْكِهِ ... علينا وإمَّا أن تَقَتْلَنَا معا

أحجاجُ لا تفجَعْ بهِ إن قتلتَهُ ... ثمانًا وعشرًا واثنتين وأربعا

أحجاجُ لا تتركْ عليه بناتَهِ ... وخالاتِهِ يندبنَهُ الدهرَ أجمعا

فبكى الحجاج، ورقَّ له واستوهبه[1] من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة. ولما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدينهم عمر رضى اللّه عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى، لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه، فاستأذن، فأذن له عمر. فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب، فواللّه ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل. فغضب عمر حتى همَّ أن يوقعَ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن اللّه سبحانه وتعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[2] وإن هذا من الجاهلين فواللّه ما جاوزها عمر رضى اللّه عنه حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب اللّه تعالى.

وحكى أن رجلاً زوّر ورقة عن خط الفضل بن الربيع، تتضمن أنه أطلق له ألف دينار، ثم جاء بها إلى وكيل الفضل، فلما وقف الوكيل عليها لم يشكَّ أنها خط الفضل، فشرع فى أن يزن له الألف دينار، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله فى تلك الساعة فى أمرٍ مهم. فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل، وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها، ثم نظر فى وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل[3] والخجل، فأطرق الفضل بوجهه، ثم قال للوكيل: أتدرى لِمَ أتيتُك فى هذا الوقت؟ قال: لا. قال: جئت لاستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذى فى هذه الورقة. فأسرع عند ذلك الوكيل فى وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيرًا فى أمره. فالتفت إليه

---

(١) استوهبه: طلب أن يهبه إياه.

(٢) سورة الأعراف:١٩٩.

(٣) الوجل: شدة الخوف.

الفضل وقال له: طِبْ نفسًا، وامضِ إلى سبيلك آمنًا على نفسك. فقبل الرجل يده وقال له: سترتنى سترك الله فى الدنيا والآخرة، ثم أخذ المال ومضى.

فيجب على الإنسان أن يتأسَّى بهذه الأخلاق الجميلة، والأفعال الجليلة، ويقتفى سنة نبيه عليه الصلاة والسلام. فقد كان أكثر الناس حلمًا، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم خُلقًا، وأكثرهم تجاوزًا وصفحًا، وأبرهم للمقتر عليه نحجا صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وأما ما جاء فى العتاب: فقد قيل: العتاب خير من الحقد، ولا يكون العتاب إلا على زلة، وقد مدحه قوم فقالوا: العتاب حدائق المتحابين، ودليل على بقاء المودة.

وقد قال أبو الحسن بن منقذ:

أسطو عليه وقلبى لو تمكَّنَ من ... يدىَّ غَلَّهَمَا غيظًا إلى عُنَقى
وأستَعِيرُ لهُ من سَطوتى حنقًا[1] ... وأينَ ذلُّ الهوى مِن عزَّة الحنقِ

وذمه بعضهم، قال إياس بن معاوية: خرجت فى سفر، ومعى رجل من الأعراب، فلما كان فى بعض المناهل لقيه ابن عم له فتعانقا، وتعاتبا وإلى جانبهما شيخ من الحى. فقال لهما: أنعما عيشًا، إن المعاتبة تبعث التجنى، والتجنى يبعث المخاصمة، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير فى شىء ثمرته العداوة قال الشاعر:

فدَعْ ذكرَ العتابِ فرُبَّ شر ... طويل هاج أوله العتاب

وقيل: العتاب من حركات الشوق، وإنما يكون هذا بين المتحابين قال الشاعر:

علامةَ ما بين المحبِّين فى الهوى ... عتابهُم فى كلِّ حقَّ وباطلِ

وكتب بعضهم، يعاتب صديقه على تغيُّر حاله معه يقول:

عرَضْنَا أنْفُسًا عَزَّتْ علينا ... عليكم فاستخَفَّ بها الهوانُ
ولو أنَّا رفَعْنَاها لعزَّتْ ... ولكِنْ كلُّ معروضٍ مهانُ

وقال آخر يعاتب صديقه:

وكنتُ إذا ما جئتُ أدنيْتُ مجلسى ... ووجهُكَ من فرط البشاشةِ يقطُرُ
فمَنْ لىَ بالعينِ التى كنتُ مرَّةً ... إلَى بها فى سالفِ الدهرِ تنظرُ

وقال أبو الحسن بن منقذ:

أخلاقُكَ الغرُّ السجايا ما لها ... حملَتْ قَذَى الواشينَ وهى سلافُ[2]
مرآة رأيك فى عبيدِك ما لها ... صدِئَتْ وأنتَ الجوهرُ الشفَّافُ

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه حطٌّ عليه:

اقرأ كتابَكَ واعتَبِرْهُ قريبًا ... فكفَى بنفسِكَ لى عليكَ حسيبا
أكذا يكونُ خطابُ إخوان الصفَا ... إنْ ارسَلوا جعلوا الخطابَ خطوبا
ما كان عُذرى إن أجَبْتُ بمثلِهِ ... أو كنتُ بالعتبِ العنيف مجيبا
لكننى خفتُ انتقاصَ مودَّتى ... فيعدُّ إحسانى إليكَ ذنوبًا

---

(١) حنقًا: غيظًا.

(٢) السلافُ: الخمر.

وقال آخر:

أراكَ إذا ما قلتَ قَوْلاً قبلتَهُ … وليس لأقوالى لديكَ قبولُ

وما ذاكَ إلا أن أظنك سيِّئ … بأهلِ الوفا والظنُّ فيكَ جميلُ

فكنْ قائلاً قَوْلَ الحماسيِّ تائهًا … بنفسكَ عُجبًا وهو منكَ قليلُ

وننكر إن شئنا على الناس قولهم … ولا ينكرون القولَ حين نقولُ[(١)]

كان لمحمد بن الحسن بن سهل، صديق فنالته إضاقة ثم ولى عملاً فأثرى، فقصده محمد مسلِّمًا، فرأى منه تغيُّرًا فكتب إليه:

لئن كانتِ الدنيا أنالَتْكَ ثروةً … فأصبحتَ ذا يسرٍ وقد كنتَ ذا عسرِ

فقد كشفَ الإثراءُ منكَ خلائقًا … منَ اللؤمِ كانت تحتَ ثوبٍ من الفقرِ

وقال آخر فى المعنى:

دعوتُ اللَّه أن تسمُو وتعلُو … علوَّ النجم فى أفقِ السماءِ

فلمَّا أن سمَوْتَ بَعُدْتَ عنى … فكان إذا على نفسى دُعائى

وكان ابن عرادة السعدى مع سلم بن زياد بخراسان، وكان له مكرمًا، وابن عرادة يتجنى عليه، ففارقه وصاحب غيره فندم ورجع إليه وقال:

عتبتُ على سلمٍ فلما فقَدْتُهُ … وصاحَبْتُ أقوامًا بكيتُ على سَلْمِ

رجعتُ إليه بعد تجريبِ غيرِهِ … فكانَ كبرءٍ بعدَ طولٍ من السقمِ

وقال مسلم بن الوليد:

ويُرجعنى إليكَ إذا نأتْ بى … ديارى عنكَ تجربةُ الرجالِ

وقال أبو الحسن القابسى:

إذا أنا عاتَبْتُ الملومَ فإنما … أخطّ بأقلامى على الماءِ أحرفا

وهَبْهُ ارعوى[(٢)] بعدَ العتابِ ألم تكنْ … مودَّتُهُ طبعًا فصارَتْ تكلّفَا

وقال أبو الدرداء رضى اللَّه عنه: معاتبةُ الصديق أهون من فَقْده. وما أحسن ما قيل فى العتاب:

وفى العتابِ حياةٌ بين أقوامِ … وهو المحكُّ لدَى لبسٍ وإبهامِ

فما ثَمَّ شىء أحسن من معاتبة الأحباب، ولا ألذ من مخاطبة ذوى الألباب، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم، وصلى اللَّه على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) تضمين لبيت السموأل.

(٢) ارعوى: انزجر وارتد إلى السلامة.

الباب السابع والثلاثون فى الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم

أرجحُ دليلٍ يتمسَّك به الإنسان كتاب اللّه تعالى، الذى مَنْ تمسك به هَداه، ومن استدلَّ به أرشده هُداه، قال اللّه تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(١) وقال جل ذكره وتقدس اسمه: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾(٢) وقال جلّ وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾(٤) والآيات فى ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾(٥) . وروى فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»(٦). فالوفاء من شيم النفوس الشريفة، والأخلاق الكريمة، والخلال الحميدة، يعظم صاحبه فى العيون، وتصدق فيه خطرات الظنون. ويقال: الوعد وجه، والإنجاز محاسنه، والوعد سحابة، والإنجاز مطره. وقال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: لكل شىء رأس، ورأس المعروف تعجيله، وأنشدوا:

إذا قلتَ فى شىءٍ نَعَمْ فأتمَّهُ ... فإنَّ نَعَمْ دَيْنٌ على الحرِّ واجبُ
وإلا فقُلْ لا تستَرِحْ وتُرِحْ بها ... لئلا يقولَ الناسُ إنَّكَ كاذبُ

وقال آخر:

لا كلَّف اللّه نفسًا فوق طاقتِهَا ... ولا تجودُ يدٌ إلا بما تجدُ
فلا تَعِدْ عِدَةً إلا وفَيْتَ بها ... وَاحْذَرْ خلافَ مقالٍ للذى تَعِدُ

وقال أعرابى: وعد الكريم نقد وتعجيل. ووعد اللئيم مطل وتعليل(٧) . وقال أعرابى أيضًا: العذر الجميل خير من المطل الطويل. ومدح بشار خالد بن برمك فأمر له بعشرين ألفًا، فأبطأت عليه، فقال لقائده: أقمنى حيث يمر، فأقامه، فمرَّ فأخذ بلجام بغلته وأنشأ يقول:

أظلَّتْ علينا منك يومًا سحابةٌ ... أضاء لها برقٌ وأبطا رشاشُها
فلا غيمُها يجلى فييأس طامعٌ ... ولا غيثُها يأتى فتُروى عِطاشُها

فقال: لا تبرح حتى تؤتى بها. قوال صالح اللخمى:

لئن جَمَعَ الآفات فالبخل شرُّها ... وشرٌّ مِنَ البخلِ المواعيدُ والمطلُ
ولا خيرَ فى وعدٍ إذا كان كاذبًا ... ولا خيرَ فى قولٍ إذا لم يكن فعلُ

وقيل: ماتت للّهذلى أم ولد، فأمر المنصور الربيع أن يعزيه ويقول له: إن أمير المؤمنين موجِّه إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف، يسليك بها، وأمر لك معها بفرس، وكسوة، وصلة. فلم يزل الهذلى يتوقع وعد أمير المؤمنين. ونسيه المنصور فحج المنصور ومعه الهذلى، فقال المنصور وهو بالمدينة: إنى أحبُّ أن أطوفَ الليلة المدينة، فأطلبْ

(١) سورة المائدة: ١.
(٢) سورة الرعد: ٢٠.
(٣) سورة النحل: ٩١.
(٤) سورة الإسراء: ٣٤.
(٥) سورة الصف: ٢ - ٣.
(٦) أخرجه: البخارى فى كتاب الإيمان ٣٣.
(٧) مطل وتعليل: تأجيل وتسويف.

لى مَنْ يطوف بى. فقال الهذلى: أنا لها يا أمير المؤمنين. فطاف به حتى وصل بيت عاتكة فقال: يا أمير المؤمنين، وهذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الأحوص:

يا بيتَ عاتكةَ الذى أتغزلُ حذرَ العِدَا وبه الفؤادُ موكلُ
إنى لأمنحُكَ الصدودَ وإننى قسمًا إليك مع الصدودِ لأميلُ

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه، فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فإذا فيها:

وأراك تفعلُ ما تقول وبعضُهم مذقُ اللسانِ(١) يقولُ ما لا يفعلُ

فذكر المنصور الوعد الذى وعد به الهذلى فأنجزه له واعتذر إليها، قال الشاعر:

تعجيلُ وَعْدَ المرءِ أكرومةٌ تنتشرُ عنه أطيبَ الذكرِ
والحرُّ لاي يمطل معروفَه ولا يليقُ المطلُ بالحرِّ

وقال آخر:

ولقد وعدتَ وأنت أكرمُ واعدٍ لا خيرَ فى وعد بغيرِ تمامِ
أنْعِمْ عليَّ بما وَعَدْتَ تكرُّمًا فالمطلُ يُذهِبُ بهجةَ الإنعامِ

وقال آخر:

لِعَبْدِكَ وَعْدٌ قد تقدَّمَ ذكرُهُ فأولُهُ حَمْدٌ وآخرُهُ شكرُ
وقد جُمِعَتْ فيكَ المكارمُ كلُّها فما لك عن تأخير مكرمةٍ عذرُ

وقال آخر:

وميعادُ الكريمِ عليه دينٌ فلا تَزِدِ الكريم على السلامِ
يذكِّرُهُ سلامُكَ ما عليه ويُغنيك السلامُ عن الكلامِ

وقال آخر:

شكاكَ لسانى ثم أمسَكْتُ نصفَهُ فنصفُ لسانى بامتداحِكَ ينطقُ
فإن لم تنجِّزْ ما وعَدْتَ تركتنى وباقى لسانى بالمذَمَّة مطلَقُ

وقال آخر:

باتَتْ لوعدِكَ عينى غيرَ راقدةٍ والليلُ حيٌّ الدياجى منبتُ السحرِ(٢)
هذا وقد بتُّ من وعدٍ على ثقةٍ فكيف لو بتُّ من هجرٍ على حذرِ

وقال آخر:

تذكَّر بالرقاعِ إذا نسينا ويأبى اللّه أن تنسى الكرامُ

وأما الوفاء بالعهد ورعاية الذمم: فقد نقل فيها من عجائب الوقائع، وغرائب البدائع، ما يطرب السماع ويشنف المسامع، كقضية الطائى وشريم نديم النعمان بن المنذر. وتلخيص معناها: أن النعمان كان قد جعل له يومين، يوم بؤس، مَنْ صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم مَنْ لقيه أحسن إليه وأغناه. وكان هذا الطائى قد رماه

(١) مذقُ: غير مخلص

(٢) أى: فى انتظار طويل سيىء الوقع.

حادث دهره بسهام فاقته وفقره، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد[1] شيئًا لصبيته وصغاره. فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان فى يوم بؤسه، فلما رآه الطائى علم أنه مقتول، وأن دمه مطلوب. فقال: حيا اللّه الملك، إن لى صبية صغارًا، وأهلاً جياعًا، وقد أرقت ماء وجهى فى حصول شيء من البلغة لهم، وقد أقدمنى سوء الحظ على الملك فى هذا اليوم العبوس، وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا[2] تلف من الطوى، ولن يتفاوت الحال فى قتلى بين أول النهار وآخره، فإن رأى الملك أن يأذن لى فى أن أوصل إليهم هذا القوت، وأوصى بهم أهل المروءة من الحى، لئلا يهلكوا ضياعًا، ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسى لنفاذ أمره. فلما سمع النعمان صورة مقاله، وفهم حقيقة حاله، ورأى تلهفه على ضياع أطفاله، رقَّ له ورثى لحاله غير أنّه قال له: لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا، فإن لم ترجع قتلناه، وكان شريك بن عدى بن شريحبيل نديم النعمان معه، فالتفت الطائى إلى شريك وقال له:

يــا شــريكُ بــن عــدىّ ... مــا مــن المــوتِ انهــزامُ
مَــنْ لأطفــالٍ ضعــافٍ ... عدمــوا طعــمَ الطعــامِ
بــين جــوعٍ وانتظــارٍ ... وافتقــارٍ وســقامِ
يــا أخَــا كــلُّ كريــمٍ ... أنــت مــن قــومٍ كــرامِ
يــا أخــا النعمــانِ جُــدْ لى ... بضمــانٍ والــتزامِ
ولــكَ اللّــه بــأنى ... راجــعٌ قبــلَ الظــلامِ

فقال شريك بن عدى: أصلح اللّه الملك، علىَّ ضمانه، فمر الطائى مسرعًا، وصار النعمان يقول لشريك: إن صدر النهار قد ولى، ولم يرجع. وشريك يقول: ليس للملك علىّ سبيل حتى يأتى المساء، فلما قرب المساء قال النعمان لشريك: قد جاء وقتك، قم فتأهب للقتل. فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلاً، وأرجو أن يكون الطائى، فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل. قال: فبينما هو كذلك، وإذا بالطائى قد اشتد عدوه فى سيره مسرعًا حتى وصل. فقال: خشيت أن ينقضى النهار قبل وصولى. ثم وقف قائمًا وقال: أيها الملك مُرْ بأمرك. فأطرق النعمان، ثم رفع رأسه وقال: واللّه ما رأيتُ أعجبَ منكما، أما أنت يا طائى فما تركتَ لأحد فى الوفاء مقامًا يقول فيه، ولا ذكرًا يفتخر به. وأما أنت يا شريك فما تركتَ لكريم سماحة يذكر بها فى الكرماء، فلا أكون أنا ألأم الثلاثة، ألا وإنى قد رفعت يوم بؤسى عن الناس، ونقضتُ عادتى كرامة لوفاء الطائى، وكرم شريك. فقال الطائى:

ولقــد دعَتْنــى للخــلافَ عشــيرتى ... فعــدَدْتُ قولهــم مــنَ الإضــلالِ
إنــى امــرؤ منــى الوفــاءُ سـجيَّةً ... وفعــالُ كــلِّ مهــذبٍ مفضــالُ

فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء، وفيه إتلاف نفسك؟ فقال: دينى، فمَنْ لا وفاء فيه ولا دين له. فأحسن إليه النعمان، ووصله بما أغناه مكرمًا إلى أهله وأناله ما تمناه.

ومن ذلك ما حكى أن الخليفة المأمون لما ولَّى عبد اللّه بن طاهر بن الحسين مصر والشام، وأطلق حكمه دخل على المأمون بعض إخوانه يومًا فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد اللّه بن طاهر يميل إلى ولد أبى طالب، وهواه مع العلويين، وكذلك كان أبوه قبله، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد اللّه بن طاهر، فتشوش

---

(١) يرتاد: يطلب القوت.

(٢) الشفا: الحرف.

فكره وضاق صدره. فاستحضر شخصًا، وجعله فى زى الزهاد، والنساك الغزاة ودسه إلى عبد الله بن طاهر وقال له: امض إلى مصر، وخالط أهلها، وداخل كبراءها واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوى، واذكر مناقبه، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر، ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعُهُ إلى القاسم بن محمد العلوى، واكشفْ باطنه، وابْحَثْ عن دفين نيته، وائتنى بما تسمع. ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون، وتوجه إلى مصر، ودعا جماعة من أهلها، ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه، فلما نزل من الركوب، وجلس فى مجلسه، خرج الحاجب إليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده، فقال له: لقد فهمت ما قصدته، فهات ما عندك، فقال: ولى الأمان؟ قال: نعم. فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمد. فقال له عبد الله: أَوَتُنصفنى فيما أقوله لك؟ قال: نعم. قال: فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة؟ قال: نعم. قال: فيجب علىّ وأنا فى هذه الحالة التى تراها من الحكم والنعمة، والولاية، ولى خاتم فى المشرق، وخاتم المغرب، وأمرى فيما بينهما مطاع، وقولى مقبول. ثم أنى ألتفت يمينًا وشمالاً فأرى نعمة هذا الرجل غامرة، وإحسانه فائضًا علىّ، أفتدعونى إلى الكفر بهذه النعمة، وتقول: أغدر وجانبِ الوفاء، والله لو دعوتنى إلى الجنة عيانًا لما غدرتُ ولما نكثتُ بيعته، وتركت الوفاء له، فسكت الرجل، فقال له عبد الله: والله ما أخاف إلا على نفسك. فارحل من هذا البلد، فلما يئس الرجل منه وكشف باطنه، وسمع كلامه رجع إلى المأمون فأخبره بصورة الحال فسره ذلك، وزاد فى إحسانه إليه، وضاعف إنعامه عليه.

ومما يعد من محاسن الشيم، ومكارم أخلاق أهل الكرم، ويحث على الوفاء بالعهود ورعاية الذمم، ما رواه حمزة ابن الحسين الفقيه فى تاريخه قال: قال لى أبو الفتح المنطيقى: كنا جلوسًا عند كافور الأخشيدى، وهو يومئذ صاحب مصر والشام، وله من البسطة[1] والمكنة ونفوذ الأمر، وعلو القدر، وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر، فحضرت المائدة والطعام، فلما أكلنا، نام. وانصرفنا، فلما انتبه من نومه طلب جماعة منا، وقال: امضوا الساعة إلى عقبة النجارين، وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك، فإن كان حيًّا فاحضروه، وإن كان قد توفى فسلوا عن أولاده، واكشفوا أمرهم. قال: فمضينا إلى هناك وسألنا عنه فوجدناه قد مات، وترك ابنتين، إحداهما متزوجة، والأخرى عاتق[2] . فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك، فسير فى الحال واشترى لكلٍ واحدة منهما دارًا وأعطاهما مالاً جزيلاً، وكسوة فاخرة، وزوج العاتق، وأجرى على كل واحدة منهما رزقًا، وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما. فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك. وقال: أتعلمون سبب هذا؟ قلنا: لا، فقال: اعلموا أنى مررت يومًا بوالدهما المنجم، وأنا فى ملك ابن عباس الكاتب، وأنا بحالة رثة، فوقفت عليه فنظر إلىّ واستجلبنى، وقال: أنت تصير إلى رجل جليل القدر، وتبلغ منه مبلغًا كبيرًا، وتنال خيرًا كثيرًا. ثم طلب منى شيئًا فأعطيته درهمين كانا معى، ولمْ يكن معى غيرهما، فرما بهما إلىّ، وقال: أبشرك بهذه البشارة، وتعطينى درهمين. ثم قال: وأزيدك أنت والله تملك هذا البلد، وأكثر منه. فاذكرنى إذا صرت إلى الذى وعدتك به، ولا تنس. فقلت له: نعم. فقال: عاهدنى أنك تفى لى، ولا يشغلك ذلك عن افتقادى، فعاهدته. ولم يأخذ منى الدرهمين، ثم إنى شغلت عنه بما تجدد لى من الأمور والأحوال، وصرت إلى هذه المنزلة، ونسيت ذلك. فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته فى المنام قد دخل علىّ، وقال لى: أين الوفاء بالعهد الذى بينى وبينك، وإتمام وعدك، لا تغدر فيغدر بك، فاستيقظت وفعلت ما رأيتم. ثم زاد فى إحسانه إلى بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعده، والله أعلم.

---

(١) البسطة: التسلط.

(٢) عاتق: أى: غير مزوجة.

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق، وأخبرت به الثقات فى الآفاق، وظهرت روايته بالشام والعراق، وضرب به الأمثال فى الوفاء بالإنفاق، حديث السموأل بن عاديا، وتلخيص معناه أن امرئ القيس الكندى، لما أراد المضى إلى قيصر ملك الروم، أودع عند السموأل دروعًا وسلاحًا، وأمتعة تساوى من المال جملة كثيرة. فلما مات امرؤ القيس، أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل. فقال السموأل: لا أدفعها إلا لمستحقها. وأبى أن يدفع إليه منها شيئًا، فعاوده فأبى، وقال: لا أغدر بذمتى، ولا أخون أمانتى، ولا أترك الوفاء الواجب علىّ. فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره فدخل السموأل فى حصنه، وامتنع به. فحاصره ذلك الملك، وكان ولد السموأل خارج الحصن فظفر به ذلك الملك فأخذه أسيرًا، ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل. فأشرف عليه من أعلى الحصن. فلما رآه قال له: إن ولدك قد أسرته، وها هو ذا معى، فإن سلمت إلىّ الدروع والسلاح التى لامرئ القيس عندك رحلت عنك، وسلمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر. فاختر أيهما شئت. فقال له السموأل: ما كنت لأخفر ذمامى، وأبطل وفائى، فاصنع ما شئت. فذبح ولده وهو ينظر. ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبًا. واحتسب السموأل، ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه. فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس سلم إليهم الدروع والسلاح. ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه. فصارت الأمثال فى الوفاء تضرب بالسموأل وإذا مدحوا أهل الوفاء فى الأنام ذكر السموأل فى الأول. وكم أعلى الوفاء رتبة مَنِ اعتقله بيديه، وأغلى قيمة مَنْ جعله نصب عينيه، واستنطق الأفواه لفاعله بالثناء عليه، واستطلق الأيدى المقبوضة عنه بالإحسان إليه.

ومما وضع فى بطون الدفاتر، واستحسنته عيون البصائر، ونقلته الأصاغر عن الأكابر، وتداولته الألسنة من الأوائل، والأواخر، ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون. قال: طلبنى أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه. فقال لى: خذ معك فلانًا وفلانًا وسماهما: أحدهما على بن محمد، والآخر: دينار الخادم، واذهب مسرعًا لما أقوله لك فإنه قد بلغنى أن شيخًا يحضر ليلاً إلى دور البرامكة وينشد شعرًا، ويذكرهم ذكرًا، ويندبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف. فامض الآن أنت وعلى ودينار حتى تروا هذه الخرابات، فاستتروا خلف بعض الجدران، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئًا فأتونى به. قال: فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسى حديد، وإذا الشيخ وسيم له جمال، وعليه مهابة ووقار، قد أقبل فجلس على الكرسى وجعل يبكى وينتحب ويقول:

ولما رأيتُ السيفَ جندلَ جعفرًا	ونادَى منادٍ للخليفة فى يحيى
بكيتُ على الدنيا وزاد تأسُّفى	عليهم وقلتُ الآن لا تنفعُ الدنيا

مع أبيات أطالها وردها. فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعًا شديدًا وقال: دعونى حتى أوصى وصية، فإنى لا أوقن بعدها بحياة. ثم تقدم إلى بعض الدكاكين فاستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه. ثم سرنا به فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين زجره وقال له: من أنت؟ وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله فى خرائب دورهم، وما تقوله فيها؟ قال الخادم: ونحن وقوف نسمع، فقال: يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندى أيادى خطيرة أفتأذن لى أن أحدثك حديثى معهم؟ قال: قل. قال:

يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عنى نعمتى، كما تزول عن الرجال، فلما ركبنى الدين واحتجت إلى بيع مسقط رأسى ورؤوس أهلى، وأشاروا علىّ بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبيًا وصبية، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد، ونزلنا فى بعض المساجد، فدعوت بثويبات لى كنت قد أعددتها لأستمنح بها الناس فلبستها وخرجت، وتركتهم جياعًا لا شىء عندهم، ودخلت شوارع بغداد أسائل عن دور البرامكة. فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن

زى وزينة، وعلى الباب خادمات فطمعت فى القوم، وولجت المسجد، وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأوخر والعرق يسيل منى؛ لأنها لم تكن صناعتى وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم، وإذا بيحيى جالس على دكة له فى وسط بستان، فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدًا وبين يديه عشرة من ولده. وإذا غلام أمرد عذاراه خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون فى وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، ومع كل خادم بمجمرة من ذهب، فى كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر[1] ، قد قرن بها مثلها من العنبر السلطانى فوضعوه بين يدى الغلام، وجلس الغلام إلى جنب يحيى. ثم قال يحيى للقاضى: تكلم وزوّج ابنتى عائشة من ابن عمى هذا. فخطب القاضى وزوجه وشهد أولئك الجماعة، وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمى ونظرت، فإذا نحن فى المكان ما بين يحيى والمشايخ، وولده والغلام مائة واثنا عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة واثنا عشر خادمًا؛ مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار، فوضعوا بين يدى كل رجل منا صينية، فرأيت القاضى والمشايخ يصبون الدنانير فى أكمامهم، ويجعلون الصوانى تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول. حتى بقيت وحدى بين يدى يحيى لا أجسر على أخذ الصينية. فغمزنى الخادم، فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب فى كمى، وأخذت الصينية فى يدى. وقمت وجعلت ألتفت إلى ورائى مخافة أن أمنع من الذهاب بها.

فبينما أنا كذلك فى صحن الدار ويحيى يلحظنى إذ قال للخادم: ائتنى بذلك الرجل، فرددت إليه، فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان فى كمى، ثم أمرنى بالجلوس فجلست. فقال لى: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصتى. فقال للخادم: ائتنى بولدى موسى، فأتى به. فقال له: يا بنى هذا رجل غريب فخذه إليك، واحفظه بنفسك، وبنعمتك. فقبض موسى على يدى وأدخلنى إلى دار من دوره، فأكرمنى غاية الإكرام، وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور. فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال: إن الوزير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل. وقد علمت اشتغالى فى إدارة أمير المؤمنين فاقبضه إليك وأكرمه. ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام، فلما كان من الغد تسلمنى أخوه أحمد، ثم لم أزل فى أيدى القوم يتداولونى عشرة أيام لا أعرف خبر عيالى وصبيانى، أفى الأموات هم أم فى الأحياء. فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الخدم، فقالوا لى: قم فاخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: واويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج إلى عيالى على هذه الحالة إنا لله وإنا إليه راجعون، فرفع الستر الأول، ثم الثانى، ثم الثالث، ثم الرابع، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لى: مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلىّ؛ فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به. فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنًا ونورًا واستقبلنى منها رائحة الند والعود، ونفحات المسك. وإذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج، وحمل إلىّ ألف ألف درهم، وعشرة آلاف دينار، ومنشورين بضيعتين، وتلك الصينية التى كنت أخذت بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعونى. فلما جاءتهم البلية ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل، أجحفنى عمرو بن مسعدة، وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج، مالاً يفى دخلهما به. فلما تحامل علىّ الدهر كنت فى أواخر الليل أقصد خرابات القوم فأندبهم، وأذكر حسن صنيعهم إلىّ، وأشكرهم على إحسانهم. فقال المأمون: علىّ بعمرو بن مسعدة، فما أتى به قال له: يا عمرو أتعرف هذا الرجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة. قال: كم ألزمته فى ضيعته؟ قال: كذا وكذا. قال: رد له كل ما استأديته منه فى مدته. ووقعه له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده. قال: فعلا نحيبُ الرجل وبكاؤه، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له: يا هذا،

---

(١) الفهر: حجر متوسط الحجم.

قد أحسنا إليك فلِمَ تبكى؟ قال: يا أمير المؤمنين وهذا أيضًا من صنائع البرامكة، إذ لو لم آت خراباتهم فأبكيهم، وأندبهم، حتى اتصل خبرى بأمير المؤمنين ففعل ما فعل، فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين؟ قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه، وظهر عليه حزنه. وقال: لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فَابْكِ، وإياهم فَاشْكُرْ، ولهم فَأَوْفِ، ولإحسانهم فَاذْكُرْ.

قيل: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ودوام عهده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه، وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه. قال الشاعر:

سقى اللّه أطلال الوفاءِ بكفِّهِ ... فقد درَسَتْ أعلامُهُ[1] ومنازلُهْ

وقال آخر:

أشدُدْ يدَيْك بمن بلوت[2] وفاءَهُ ... إن الوفاء من الرجال عزيزُ

وقال مالك بن عمارة اللخمى: كنت جالسًا فى ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير، وكنا نخوض فى الفقه مرة، وفى المذاكرة مرة، وفى أشعار العرب وأمثال الناس مرة. فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع فى المعرفة، والتصرُّف فى فنون العلم، وحسن استماعه إذا حُدّث، وحلاوة لفظه إذا حَدّث. فخلوت معه ليلة فقلت له: واللّه إنى لمسرور جدًّا بك لما شاهدته من كثرة تصرفك، وحسن حديثك، وإقبالك على جليسك. فقال: إن تعش قليلاً فسترى العيون طامحة إلىّ والأعناق نحوى متطاولة، فإذا صار الأمر إلىّ، فلعلك أن تنقل إلى ركابك فلأملأن يديك. فلما أفضَتْ إليه الخلافة توجهت إليه فوافيته يوم الجمعة وهو يخطب على المنبر. فلما رآنى أعرض عنى، فقلت: لعله لم يعرفنى، أو عرفنى، وأظهر لى نكره. فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن أخرج الحاجب فقال: أين مالك بن عمارة؟ فقمت فأخذ بيدى، وأدخلنى عليه فمد إلىّ يده وقال: إنك تراءيت لى فى موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت، فأما الآن فمرحبًا وأهلاً، كيف كنت بعدى؟ فأخبرته. فقال لى: أتذكر ما كنتُ قلت لك؟ قلت: نعم. فقال: واللّه ما هو بميراث رعيناه، ولا أثر رويناه، ولكنى أخبرك بخصال منى سمت بها نفسى إلى الموضع الذى ترى. ما خنت ذا ودٍّ قط، ولا شَمَتُّ بمصيبة عدوٍّ قط، ولا أعرضتُ عن محدِّث حتى ينتهى حديثه، ولا قصدت كبيرة من محارم اللّه تعالى متلذذًا بها، فكنت أؤمل بهذه أن يرفع اللّه تعالى منزلتى وقد فعل. ثم دعا بغلام فقال له: يا غلام بوئه منزلاً[3] فى الدار، فأخذ الغلام بيدى وأفرد لى منزلاً حسنًا، فكنت فى ألذّ حال، وأنعم بال، وكان يسمع كلامى، وأسمع كلامه، ثم أدخل عليه فى وقت عشائه وغدائه فيرفع منزلتى، ويقبل علىّ، ويحادثنى ويسألنى مرة عن العراق، ومرة عن الحجاز حتى مضت لى عشرون ليلة فتغديت يومًا عنده فلما تفرق الناس نهضت قائمًا. فقال: على رسلك، فقعدت. فقال: أى الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة لك فى المعاشرة، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، فارقت أهلى وولدى على أنى أزور أمير المؤمنين وأعود إليهم. فإن أمرنى أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد. فقال: لا بل أرى لك الرجوع إليهم، والخيار لك بَعْدُ فى زيارتنا، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار، وكسوناك وحملناك، أترانى قد ملأت يديك، فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعدًا، إذا شئت صحبتك السلامة.

---

(١) أعلامُهُ: راياته.

(٢) بلوت: اختبرت.

(٣) بوئه منزلاً: أنزله.

ومن ذلك ما روى عن أبى بكار الأعمى وكان قد انقطع إلى آل برمك. قال مسرور الكبير: لما أمرنى الرشيد بقتل جعفر بن يحيى دخلت عليه فوجدت عنده أبا بكار الأعمى يغنيه ويقول:

فـلا تحـزَنْ فكـلُّ فتـىً سـيأتى ... عليـه المـوتُ يطـرقُ أو ينـادى

فقلت: فى هذا والله قد أتيتك. ثم أمسكتُ بيد جعفر وأقمته وضربت عنقه. فقال أبو بكار: ناشدتك الله إلا ما ألحقتنى به. فقلت له: ما الذى حملك على هذا؟ فقال: أغنانى عن الناس. فقلت: حتى استأمر الرشيد. ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد وأخبرته بخبر أبى بكار فقال: هذا رجل فيه مصطنع أضمُّه إليك، وانظر ما كان يجرى عليه جعفر، فادفعه إليه، وكان يحيى بن خالد إذا أكد فى يمينه قال: لا والذى جعل الوفاء أعزَّ ما يرى. قال أبو فراس بن حمدان الشاعر:

بمن يتّقى الإنسانُ فيما ينوبُهُ ... ومن أين للحرِّ الكريمِ صحابُ

وقد صارَ هذا الناسُ إلا أقلّهم ... ذئابًا على أجسادِهِنَّ ثيابُ

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره فى الحروب، فقال: كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا. فقال المنصور: عليك لعنة الله تطأ بساطى، وتترحم على عدوى. فقال: إن نعمة عدوك لقلادة فى عنقى، لا ينزعها إلا غاسلى. فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فإنى أشهد أنك لوفى، حافظ للخير. ثم أمر له بمال فأخذه ثم قال: والله لولا جلالة أمير المؤمنين، وإمضاء طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة. فقال له المنصور: لله درك فلو لم يكن فى قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجدًا مخلدًا.

وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب فى بعض جبابين الشام فإذا امرأة جالسة على قبر تبكى. قال سليمان: فرفعت البرقع عن وجهها فحكت شمسًا من متون غمامة. فوقفنا متحيرين ننظر إليها فقال لها يزيد ابن المهلب: يا أمة الله هل لك فى أمير المؤمنين بعلاً، فنظرت إلينا ثم أنشأت تقول:

فـإن تسـألنى عـن هـواىَ فإنّـه ... يجـول بهـذا القـبر يـا فتيـانِ

وإنـى لأسـتَحْييهِ والقـبر بيننـا ... كما كنـتُ اسـتَحْييه وهـو يرانـى

ومن ذلك: ما روى عن نائلة بنت القرافصة بن الأحوص الكلبى، زوج عثمان رضى الله عنهما: أن عثمان لما قتل أصابتها ضربة على يدها، وخطبها معاوية فردته. وقالت: ما يعجب الرجل منى؟ قالوا: ثناياك؟ فكسرت ثناياها، وبعثت بها إلى معاوية، فكان ذلك مما رغب قريشًا فى نكاح نساء بنى كلب.

ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل، دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف. وقال له: انج بهذا فأخذ زياد ودقه بين حجرين وقال: والله لا ينتفع به أحد بعدك. ولما قدّم هدبة بن الخشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم قالت زوجته: إن لهدبة عندى وديعة، فأمهله حتى آتيك بها. فقال: أسرعى فإن الناس قد كثروا، وكان مروان قد جلس لهم بارزًا عن داره فمضت إلى السوق وأتت إلى قصاب، فقالت: أعطنى شفرتك، وخذ هذين الدرهمين وأنا أردها عليك. فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفتها على وجهها، ثم جدعت أنفها من أصله، وقطعت شفتيها، وردت الشفرة إلى القصاب ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس. فقالت: أترانى يا هدبة متزوجة بعد ما ترى. فقال: الآن طابت نفسى بالموت فجزاك الله من حليلة وفية خيرًا.

ولنجعل لهذا الباب من القضايا ختامًا هو أوجزها كلامًا، وأحسنها نظامًا؛ وأبينها حكمًا وأحكامًا. وهى قضية جمعت الأمرين: وفاء وغدرًا، وعرفًا ونكرًا، وخيرًا وشرًّا، ونفعًا وضرًّا، واشتملت على حالة شخصين أحدهما وفىّ بعهده، ففاز ونجا، وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا. وغدر الآخر فلم يجد له من جزاء غدره إلى النجاة فرجًا، ولم يلق له من ضيق الغدر مخرجًا، وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم، وكان مطلعًا على أحوال بن طولون عارفًا بأموره عالمًا بوروده وصدوره، فقال ما معناه:

إن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلاً مطروحًا فالتقطه ورباه، وسماه أحمد وشهره باليتيم. فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيًّا وصورة، فصار يراعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به فأخذه إليه. فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه وقال له: أنت عندى بمكانة أرعاك بها. ولكن عادتى أنى آخذ العهد على مَنْ أصرفه فى شىء أنه لا يخوننى. فعاهده ثم حكمه فى أمواله وقدمه فى أشغاله، فصار أحمد اليتيم مستحوذًا على المقام، حاكمًا على جميع الحاشية، الخاص والعام. والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه، فلما رأى خدمته متصفة بالنصح، ومساعيه متسمة بالنجح، ركن إليه، واعتمد فى أمور بيوته عليه. فقال له يومًا: يا أحمد، امض إلى الحجرة الفلانية ففى المجلس حيث أجلس سبحة جوهر فائتنى بها، فمضى أحمد، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب. فلما رأياه خرج الفتى، وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه، ودعته إلى قضاء وطره. فقال لها: معاذ الله أن أخون الأمير، وقد أحسن إلىّ، وأخذ العهد علىّ، ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه. وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعد ما أخذ السبحة وخرج من الحجرة، لئلا يذكر حالها للأمير. فأقامت أيامًا لم تجد من الأمير ما غيره عليها.

ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية، وقدمها على حظاياه، وغمرها بعطاياه، واشتغل بها عمن سواها وأعرض لشغفه بها عن كل مَنْ عنده، حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ولا يراها. وكان أولاً مشغولاً بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الغادرة العائبة العاهرة الفاسقة الفاجرة، فلما أعرض عنها اشتغالاً بالجارية الجديدة الممجدة، السعيدة المسعدة، الحامدة المحمودة، الوصيفة الموصوفة، الأليفة المألوفة، العارفة المعروفة. وصرف لبهجة محاسنها وكثرة أدبها وجهه من ملاعبة أترابها، وشغلته بعذوبة رضابها[1] عن ارتشاف ضرب أضرابها[2]. وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لاتخاف من وليه ولا نصيره، فكبر عليها إعراضه عنها، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها. فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها. وقالت: إن أحمد اليتيم راودنى عن نفسى. فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظًا وغضبًا، وهمَّ فى الحال بقتله، ثم عاوده حاكم عقله فتأنى فى فعله واستحضر خادمًا يعتمد عليه وقال له: إذا أرسلت إليك إنسانًا ومع طبق من ذهب وقلت لك على لسانه: املأ هذا الطبق مسكًا، فاقتل ذلك الإنسان، واجعل رأسه فى الطبق وأحضره مغطى. ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماءه الخواص، وأدناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن فى سربه[3] لم يخطر بخاطره شىء، ولا هاجس فى قلبه. فلما مثل بين يدى الأمير وأخذ منه الشراب شرع فى التدبير، فقال: يا أحمد، خذ هذا الطبق، وامض به إلى فلان الخادم، وقل له: يقول لك أمير المؤمنين: املأ هذا الطبق مسكًا، فأخذه أحمد اليتيم ومضى، فاجتاز فى طريقه بالمغنين، وبقية الندماء والخواص. فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم، فقال: أنا ماض فى حاجة للأمير أمرنى بإحضارها فى هذا الطبق. فقالوا له: أرسل مَنْ ينوب عنك فى إحضارها وخذها أنت، وادخل بها على الأمير، فأدار عينيه فرأى الفتى الفراش الذى كان مع الجارية، فأعطاه الطبق، وقال له: امض إلى فلان الخادم وقل له: يقول لك الأمير: املأ هذا الطبق مسكًا.

---

(١) رضابها: الريق.

(٢) أضرابها: مثل برودة فمها.

(٣) سربه: قلبه ونفسه.

فمضى ذلك الفراش إلى الخادم فذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه، وغطاه وجعله في الطبق، وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم، فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر. فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله، وقال: ما هذا؟ فقص عليه خبره، وقعوده مع المغنين، وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من إنفاذ الطبق، وإرساله مع الفراش، وأنه لا علم عنده غير ما ذكره. قال: أتعرف لهذا الفراش خبرًا يستوجب به ما جرى عليه؟ فقال: أيها الأمير إن الذى تمَّ عليه بما ارتكبه من الخيانة. وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك. وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية، من أوله إلى آخره لما أنفذه لإحضار السبحة الجوهر. فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها، فأقرَّت بصحة ما ذكره أحمد، فأعطاه إياها وأمره بقتلها ففعل. وازدادت مكانة أحمد عنده، وعلت منزلته لديه، وضاعف إحسانه إليه، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه.

فانظر رحمك الله إلى آثار الوفاء، كيف تحمي من المعاطب، وتنجي من قبضة التلف، بعد إمضاء القواضب[1]، ويفضي بصاحبه إلى ارتقاء غوارب[2] المراتب. فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعده، وهو بشر مثله، وليس فى الحقيقة بعبده، واطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده، ودفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده، فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافيًا فى طاعته بعقده، كيف لا يفيض عليه من ألطاف مواهب بره، ورفده ويفتح له من أبواب رحمته، وأقسام نعمته، مما لا ممسك له من بعده. وقالوا: ليس شيء أوفى من القمرية، إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده. ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) القواضب: السيوف القاطعة.

(٢) غوارب: أعاليها وسنامها.

الباب الثامن والثلاثون فى كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه

قال اللّه تعالى حكاية عن يعقوب صلوات اللّه وسلامه عليه: ﴿يَـابُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَـاكَ عَلَـى إِخْوَتِـكَ﴾[١] الآية، فلما أفشى عليه يوسف رؤياه بمشهد بما أمره يعقوب، أخبرت أخوته فحل به ما حل. ومن شواهد الكتاب العزيز فى السر قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[٣] أى بمتهم، وفى الحديث: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. فإن كل ذى نعمة محسود». وقال على رضى اللّه عنه وكرم وجهه: سِرُّك أسيرك، فإذا تكلمت به صرت أسيره.

واعلم أن أمناء الأسرار، أقل وجودًا من أمناء الأحوال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار؛ لأن إحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال، فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشى به، ولا يستطيع كتم السر، وإن الرجل يكون سره فى قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً.

وقال عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه: القلوب أوعية، والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره. ومن عجائب الأمور: أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، وأما الأسرار؛ فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضيع لها، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه، ولو كتمه أمِنَ من سطوته.

وقال أنو شروان: من حصّن سرّه فله بتحصُّنه خصلتان: الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات، وقيل: كلما كثرت خزان الأسرار زادت ضياعًا. وقيل: انفردْ بسرِّك لا تودَعْهُ حازمًا فيزل، ولا جاهلاً فيخون. وقال كعب بن سعد الغنوى:

ولستُ بمبدٍ للرجالِ سريرَتى[٤] ... ولا أنا عن أسرارِهم بسؤولُ

وقال أبو مسلم صاحب الدولة:

أدركتُ بالحزمِ والكتمانِ ما عجزَتْ ... عنه ملوكُ بنى مروانَ إذ جهدُوا
ما زلتُ أسعى عليهم فى ديارهم ... والقومُ فى غفلةٍ بالشام قد رَقَدُوا
حتى ضرَبْتَهم بالسيفِ فانتبهوا ... من نومةٍ يَنَمْهَا قبلَهُم أحدُ
ومَنْ رَعَا غنمًا فى أرضِ مسبعَةٍ[٥] ... ونامَ عنها تولّى رَعْيَها الأسدُ

وأسرّ رجل إلى صديقه حديثًا، ثم قال له: أفهمتَ؟ قال: بل جهلت. ثم قال له: أحفظتَ؟ قال: بل نسيت. وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر. وقال المهلب: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه.

ومن أحسن ما قيل فى كتمان السر قول الشاعر:

ولها سرائرُ فى الضمير طوَيْتَها ... نسىَ الضميرُ بأنها فى طيِّهِ

---

(١) سورة يوسف:٥.
(٢) سورة النجم:١٠.
(٣) سورة التكوير:٢٤.
(٤) سريرَتى: ما أخفى.
(٥) مسبعَةٍ: تكثر فيها السباع.

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البديري[١] فقال:

إنى كتمت حديث ليلى لم أبُحْ ... يومًا بظاهرِهِ ولا بخفيِّهِ
وحفظتُ عهدَ ودادِها متمسِّكًا ... فى حبِّها برشادِهِ أو غيِّهِ
ولها سرائرُ فى الضمير طوَيْتَهَا ... نسىَ الضمير بأنها فى طيِّهِ

وقيل: كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لا خير فى آنية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير فى إنسان لا يمسك سره. قال الشاعر:

ومستودعى سرًّا كتمتُ مكانَه ... عن الحسِّ خوفًا أن يَنَمَّ به الحسُّ
وخفتُ عليه من هوى النفسِ شهوةَ ... فأودَعْتَهُ من حيثَ لا تبلغ النفسُ

وقال قيس بن الخطيم:

أجودُ بمكنونِ التلادِ وإننى ... بسرِّى عمَّنْ سالنى[٢] لضنينُ
وإن ضيَّعَ الأقوامُ سرِّى فإننى ... كتومٌ لأسرارِ العشيرِ أمينُ

وقال جعفر بن عثمان:

يا ذا الذى أودَعَنى سرَّهُ ... لا تَرْجُ أن تسمَعَهُ منى
لم أجْرِهِ قطّ على فكرتى ... كأنَّهُ لم يَجْرِ فى أذنى

وكان عمر بن الخطاب رضى اللّٰه عنه يقول: ما أفشيت سرى إلى أحد قط فأفشاه، فلمته إذا كان صدرى به أضيق. وقال الأحنف بن قيس: يضيق صدر الرجل بسره، فإذا حدث به أحدًا قال: اكتمه علىّ قال الشاعر:

إذا المرءُ أفشى سرَّه بلسانِهِ ... ولامَ عليه غيرَهُ فهو أحمقُ
إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسِهِ ... فصدرُ الذى يستودعُ السرَّ أضيقُ

وقال آخر:

إذا ما ضاقَ صدرُكَ عن حديثٍ ... وأفشَتْهُ الرجالُ فمَنْ تلومُ
وإن عاتبْتُ مَنْ أفشَى حديثى ... وسرِّى عندَه فأنا الملومُ

وقال صالح بن عبد القدوس: لا تودِعْ سرَّك إلى طالبه، فالطالب للسر مذيع. ولا تودع مالك عند مَنْ يستدعيه، فالطالب للوديعة خائن. وقيل لأعرابى: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفرقه تحت شغاف قلبى ثم أجمعه، وأنساه، كأنى لم أسمعه. وكان يقال: أحزم الناس مَنْ لا يفشى سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه عليه. وقال حكيم: قلوب الأحرار قبور الأسرار. وقيل: الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حمق. وقال بعضهم:

إذا ما غفرتَ الذنوبَ يومًا لصاحبٍ ... فلستَ معيدًا ما حييتَ له ذكرا
ولستُ إذا ما صاحبٌ خانَ عهدَهُ ... وعندى له سرٌّ مذيعًا له سرَّا

وأين هذا من قول القائل:

ولا تودِعِ الأسرارَ أذْنى فإنما ... تصبَّنَّ ماءً فى إناءٍ مثلَّمِ

---

(١) ورد فى نسخ: البدوى.
(٢) سالنى: أى سألنى مخففة الهمزة للضرورة.

أو القائل:

ولا أكتمُ الأسرارَ لكنْ أذيعُها ... ولا أدعُ الأسرارَ تعلو على قلبى
وإن قليل العقلِ مَنْ باتَ ليلَه ... تقلبه الأسرارُ جنبًا إلى جنبِ

وقال آخر:

وإنَّكَ كلّما استودَعْتَ سِرًّا ... أنمُّ من النسيمِ على الرياضِ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى:

أناسٌ أمناهم فنمُّوا حديثنا ... فلما كتَمْنَا السر عنهم تقوَّلوا

ولله در المتنبى حيث قال:

وللسرِّ منى موضعٌ لا ينالُهُ ... نديمٌ ولا يفضى إليه شرابُ

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كبيرًا، إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الباب التاسع والثلاثون فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول

الفصل الأول فى الغدر والخيانة

قال رسول اللّه صلي اللّه عليه وسلم: «أعجل الأشياء عقوبة البغى»[١]، وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «المكر والخديعة والخيانة فى النار» وقال أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه: ثلاث من كنَّ فيه كنَّ عليه؛ البغي والنكث والمكر. قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[٤]، وكم أوقع الغدر فى المهالك من غادر، وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزى، فهو على فكه غير قادر، وأوقعه فى خطة خسف[٥] وورطة حتف، فما له من قوة ولا ناصر. ويشهد لصحة هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوى الألباب، من قصة ثعلبة بن حاطب الأنصارى. وتلخيص معناها أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبي صلى اللّه عليه وسلم فجاءه يومًا وقال: يا رسول اللّه ادعُ اللّه أن يرزقنى مالاً. فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدى شكره، خير من كثير لا تطيقه»، ثم أتاه بعد ذلك مرة نفسى بيده، لو أردت أن تسير الجبال معى ذهبًا وفضة لسارت» ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة فقال: يا رسول اللّه ادع اللّه أن يرزقنى مالاً والذى بعثك بالحق نبيًا لئن رزقنى اللّه مالاً؛ لأعطين كل ذى حق حقه، وعاهد اللّه تعالى على ذلك فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «اللّهم ارزق ثعلبة ما قال» فاتخذ ثعلبة غنمًا فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها ونزل واديًا من أوديتها، وهى تنمو كما ينمو الدود.

وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له: حمامة المسجد، فلما كثرت الغنم، وتنحَّى، صار يصلى مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الظهر والعصر، ويصلى بقية الصلوات فى غنمه. فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة، فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضًا عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة. فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقَّى الناس، ويسألهم عن الأخبار فذكره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذات يوم. فقال: «ما فعل ثعلبة؟» قالوا: يا رسول اللّه اتخذ غنمًا ما يسعها واد، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «يا ويح ثعلبة»، فأنزل اللّه تعالى آية الصدقة، فبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رجلين، رجل من بنى سليم، ورجل من جهينة، وكتب لهما أنصاب الصدقة وكيف يأخذانها. وقال لهما مرا بثعلبة بن حاطب، وبرجل آخر من بنى سليم، فخذا صدقاتهما. فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: ما هذه إلا جزية - أو ما هذه إلا أخت الجزية - انطلقا حتى تفرغا، ثم عودا إلىّ. فانطلقا وسمع بهما السلمى، فنظر إلى خيار أبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأياه قالا: ما هذا؟ قال: خذاه فإن نفسى به طيبة. فمرا على الناس، وأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة. فقال: أرونى كتابكما. فقرأه ثم قال: ما

---

(١) البغى: الظلم.
(٢) سورة يونس:٢٣.
(٣) سورة الفتح:١٠.
(٤) سورة فاطر:٤٣.
(٥) خسف: غار فى الأرض.

هذه إلا جزية - أو ما هذه إلا أخت الجزية - اذهبا حتى أرى رأيًا. قال: فذهبا من عنده، وأقبلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال قبل أن يتكلما: «يا ويح ثعلبة» فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[1] .

وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى للنبى صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل صدقته، فقال: «إن الله تعالى منعنى أن أقبل منك صدقة» فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ووجهه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعنى» فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقبل منه شيئًا. ثم أتى إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين استخلف فقال: قد علمتَ منزلتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعى من الأنصار. فاقبل صدقتى. فقال أبو بكر رضى الله عنه: لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم منك فلا أقبلها أنا، فقبض أبو بكر رضى الله تعالى عنه ولم يقبلها. فلما ولى عمر رضى الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتى فلم يقبلها منه، وقال: لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر رضى الله عنه فأنا لا أقبلها. وقبض عمر رضى الله عنه ولم يقبلها منه ثم ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه فسأله أني قبض صدقته فقال له: لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أبو بكر، ولا عمر رضى الله عنهما فأنا لا أقبلها. ثم هلك ثعلبة فى خلافة عثمان رضى الله عنه.

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره، ووسَمَهُ بسِمَةِ عار قضت عليه بخسره، وأعقبه نفاقًا يخزيه يوم فاقته وفقره. فأى خزى أرجح من ترك الوفاء بالميثاق؟ وأىَ سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق؟ وأى عار أفضح من نقض العهد إذا عد مساوئ الأخلاق؟ وكان يقال: لم يغدر غادر قطُ إلا لصغر همته عن الوفاء، واتضاع قدره[2] عن احتمال المكاره، فى جنب نيل المكارم، قال الشاعر:

غدرتَ بأمر كنتَ أنتَ جذبتنا ... إليه وبئس الشيمةَ الغدرُ بالعهدِ

ولما حلف محمد الأمين للمأمون فى بيت الله الحرام وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذلنى الله إن خذلته. فقال ذلك ثلاث مرات. فقال الفضل بن الربيع: قال لى الأمين فى ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس أود فى نفسى أن امرى لا يتم. فقلت له: ولم ذلك أعز الله الأمير؟ قال: لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر، وكان كذلك لم يتم أمره.

وورد فى أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة، كان ملكًا بين دجلة والفرات، وكان له هناك قصر مشيد، يعرف بالجوسق، وبلغ ملكه الشام، فأغار على مدينة سابور ذى الأكتاف، فأخذها وأخذ أخت سابور، وقتل منهم خلقًا كثيرًا. ثم إن سابور جمع جيوشًا وسار إلى الضيزن، فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شئ. ثم إن النضيرة بنت الضيزن عركت - أى حاضت - فخرجت من الربض[3] وكانت من أجمل أهل

---

(١) سورة التوبة: ٧٥ - ٧٨.

(٢) أى وضاعته وسفالته

(٣) الربض: ما حول المدينة.

دهرها، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حِضْنَ. وكان سابور من أجمل أهل زمانه، فرآه ورأته فعشقها وعشقته، وأرسلت إليه تقول: ما تجعل لى إن دللتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبى؟ فقال: أحكمك. فقالت: عليك بحمامة مطوقة ورقاء[١] فاكتب عليها بحيض جارية، ثم أطلقها؛ فإنها تقعد على حائط المدينة، فتتداعى المدينة كلها. وكان ذلك طلسمًا لا يهدمها إلا هو، ففعل ذلك فقالت له: وأنا أسقى الحرس الخمر، فإذا صرعوا فاقتلهم، ففعل ذلك. فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة، وقتل الضيزن واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها، فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر وتتململ فى فراشها وهو من حرير محشوّ بريش النعام. فالتمس ما كان يؤذيها؛ فإذا هو ورقة آس التصقت بعنكتها[٢]، وأثرت فيها، وقيل: كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها. ثم أن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها. وقيل: إنه أمر رجلاً فركب فرسًا جموحًا، وضفر غدائرها بذنبه، ثم استركضه فقطعها قطعًا، قطعه اللّه ما أغدره.

وتقول العرب: جزانى جزاء سنمار، وهو أن يزدجرد بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد، سأل عن منزل صحيح مرئ. فدل على ظهر الجزيرة، فدفع ابنه بهرام إلى النعمان، وهو عامله على أرض العرب، وأمره أن يبنى له جوسقًا فامتثل أمره، وبنى له جوسقًا كأحسن ما يكون. وكان الذى بنى الجوسق رجلاً يقال له: سنمار، فلما فرغ من بنائه، عجبوا من حسنه. فقال: لو علمت أنكم توفونى أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت. فقالوا: وإنك لتبنى أحسن من هذا و لم تبنه؟ ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع. فكانت العرب تقول: جزانى جزاء سنمار.

وممن غدر، عبد الرحمن بن ملجم لعنه اللّه غدر بعلى رضى اللّه عنه وقتله. وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضى اللّه عنه وقتله. وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه اللّه غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه وقتله. وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى، ثم غدر به وأخره، وقدم المهدى عليه فقال عيسى:

أَيَنْسَى بَنُو العباس ذَبِّى[٣] عنهم ... بسيفى ونارُ الحرب زاد سعيرُها
فَتحْتُ لهم شرقَ البلادِ وغربَها ... فذلَّ معاديها وعزَّ نصيرها
أقطِّع أرحامًا علىّ عزيزةً ... وأبدى مكيداتٍ لها وأثيرُها
فلما وضَعْتُ الأمرَ فى مستقرِّهِ ... ولاحَتْ له شمسٌ تلألأ نورُها
دفَعْتُ عن الأمرِ الذى استحِقّهُ ... وأُوسِقَ أوساقًا[٤] من الغدرِ عيرُها

وخرج قوم لصيد، فطردوا ضبعة حتى ألجأوها إلى خباء أعرابى فأجارها، وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت. فجاء ابن عمه يطلبه فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها وأنشد يقول:

ومَنْ يصنعِ المعروفَ مع غير أهله ... يلاقِ كما لاقى مجيرُ أمِّ عامرِ[٥]
أعدَّ لها لما استجارَتْ ببيته ... أحاليبَ ألبانِ اللقاحِ الدرائرِ
وأسمَنَها حتّى إذا ما تمكّنَتْ ... فَرَتْهُ بأنيابٍ لها وأظافرِ
فقُلْ لذوى المعروفِ هذا جزاءُ مَنْ ... يجودُ بمعروفٍ على غير شاكرِ

---

(١) ورقاء: فى لونها بياض إلى سواد.
(٢) أى: بين ثناياها.
(٣) الذبّ: الدفاع.
(٤) أى: أحمل جموعًا.
(٥) مجيرُ أم عامر: من كنى الضبُع.

وحكى بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة، وإلى جانبها جرو ذئب. فقالت: أتدرى ما هذا؟ فقلت: لا. قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيرًا، وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كبر فعل بشاتى ما ترى، وأنشدت:

بقرتَ شويهتى وفجَعْتَ قومى ... وأنتَ لشاتِنا ابنٌ ربيبُ

غذِيتَ بدُرِّها ونشأتَ مَعْهَا ... فَمَنْ أنباكَ أنّ أباكَ ذيبُ

إذا كان الطباعُ طباعَ سوءٍ ... فلا أدبٌ يفيدُ ولا أديبُ

اللّهم أنا نعوذ بك من البغى وأهله، ومن الغادر وفعله، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثانى فى السرقة والسرّاق

قيل: مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقًا. فقال: لا إله إلا اللّه. سارق العلانية يقطع سارق السر. وأمر الأسكندر بصلب سارق، فقال: أيها الملك؛ إنى فعلتُ ما فعلت وأنا كاره. فقال: وتصلب أيضًا وأنت كاره. وسرق مدنى قميصًا فأعطاه لابنه يبيعه فسرق منه، فجاء له فقال: بكم بعته؟ فقال: برأس المال. وقال أكتل السلمى وكان لصًّا فاتكًا:

وإنى لأستحيى من اللّه أن أرى ... أجرجرُ حبلى ليس فيه بعيرُ

وأن أسألَ المرء الدنىءَ بعيرَهُ ... وأجمالُ ربِّى فى البلادِ كثيرُ

قال الفرزدق:

وإن أبا الكرشاءِ ليس بسارقٍ ... ولكن متى ما يسرقِ القوم يأكلِ

وكان لعمرو بن دويرة البجلى أخ قد كلف ببنت عم له، فتسور عليها الدار ذاتَ ليلةٍ فأخذه إخوتها وأتوا به خالد بن عبد اللّه القسرى وجعلوه سارقًا، فسأله خالد فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية. فهم خالد بقطعه فقال عمر وأخوه:

أخالدُ قد واللّه أوطئتَ عشوةً ... وما العاشقُ المظلومُ فينا بسارقِ

أقرَّ بما لم يأتِهِ المرءُ أنه ... رأى القطعَ خيرًا من فضيحةِ عاشقِ

فعفا عنه خالد، وزوّجه الجارية.

الفصل الثالث فى العدواة والبغضاء

قد ذكر اللّه عز وجل العداوة والبغضاء فى كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿**فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾(١)، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾(٤)، وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «أعدى عدوِّك نفسك التى بين جنبيك». وقال أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه: العداوة تتوارث. وقال زياد بن عبد اللّه:

فلو أنى بليتُ بهاشمىٍّ ... خؤولته بنو عبدِ المدانِ

---

(١) سورة المائدة: ١٤. (٢) سورة يوسف: ٥.

(٣) سورة فاطر: ٦. (٤) سورة التغابن: ١٤.

صبرتُ على عداوتِهِ ولكنْ ... تعالوا فانظُروا بمنِ ابتلاني

وبثّ رجل فى وجه أبى عبيدة مكروهًا فأنشأ يقول:

فاتو أن لحمى إذ وهى[1] لعبَتْ به ... سباعُ كرامٍ أو ضباعٌ وأذؤبُ

لهوَّن وجدِى أو لسلّى مصيبتى ... ولكنما أودَى بلحمى أكلبُ

وقيل لكسرى: أى الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً؟ قال: عدوى. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه فى عافية وأمن. وقيل: كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح المعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة، أهون من مداواة ما خفى وبطن. وقالوا: إياكَ أن تعادى مَنْ إذا شاء طرح ثيابه، ودخل مع الملك فى لحافه. وقال أبو العتاهية:

تنحَّ عن القبيحِ ولا تَرِدْهُ ... ومَنْ أوليتَه حسنًا فزِدْهُ

ستلقَى مِن عدوِّكَ كلَّ كيدٍ ... إذا كادَ العدو ولم تَكِدْهُ

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب، فقتل أخوها زوجها وهى حبلى بهجرس بن كليب. فلمَّا كبر وشب قال:

أصابَ أبى خالى وما أنا بالذى ... أميلُ وأمرى بين خالى ووالدى

وأورثَ جسَّاسُ بنُ مرَّةَ غصَّةَ ... إذا ما اعترَتْنى حَرُّها غيرُ باردِ

ثم قال بعد ذلك:

يا لَلرجالِ لِقلبٍ ما له جَلَدٌ ... كيف العزاءُ وثارى عند جسَّاسِ

ثم حمل على خاله فقتله وقال:

ألم تَرَنى ثأَرْتُ أبى كليبًا ... وقد يرجى المرشحُ للدخولِ

غللْتُ العارَ عن جسمِ ابنِ بكرٍ ... بجساسِ بنِ مرَّةَ ذى البتولِ[2]

وقد قيل:

سنَّ العداوةَ آباءٌ لنا سلفوا ... فلن تبيدَ وللآباءِ أبناءُ

ويقال: دَارِ عدوك لأحد أمرين، إما لصداقة تؤمنك، أو لفرصة تمكنك. وكتب سويد إلى مصعب:

فبلِّغْ مصعبًا عنى رسولى ... وهل تلقَى النصيحَ بكلِّ وادِ

تعلَّمْ أنَّ أكثرَ مَنْ تناجى ... وإن ضحكوا إليك هُمُ الأعادى

ويقال: فلان كثير المراق من المذاق[3] . وقال الحجاج لخارجى: والله إنى لأبغضك. قال: أدخل اللّه الجنةَ أشدَّنا بغضًا لصاحبه. ولما أراد أنو شروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته، فأنكروا عليه. وقال بعضهم: إن أمه تركية وقد علمتَ فى أخلاقهم ما علمت. فقال: إن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات. وكانت أم قباذ تركية وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم. فقيل: هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك. فقال: إن قصره من رجليه، ولا يكاد يرى إلا جالسًا أو راكبًا، فلا يستبين ذلك فيه. فقيل: هو بغيض فى الناس

---

(١) وهى: انحلّ وضعف.

(٢) ذى البتول: العذراء.

(٣) من المذاق: قلة الإخلاص.

فقال: أواه! هلك ابنى هرمز. فقد قيل: إذا كان فى الإنسان خير واحد، و لم يكن ذلك الخير المحبة فى الناس، فلا خير فيه، وإذا كان فيه عيب واحد، و لم يكن ذلك العيب البغض فى الناس فلا عيب فيه:

ولستُ ببراءِ عيبَ ذى الودِّ كلّه ... ولا بغضَ ما فيه إذا كنتُ راضيًا

فعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... كما أن عينَ السخطِ تبدى المساويا

وفى المعنى قيل:

وعين البغض تبرز كلَّ عيبٍ ... وعينُ الحبِّ لا تجدُ العيوبا

وعن أبى حيان قال: قال لقمان: نقلت الصخور، وحملت الحديد، فلم أر شيئًا أثقل من الدَّيْن. وأكلتُ الطيبات وعانقتُ الحسان، فلم أرَ شيئًا ألذَّ من العافية، وأنا أقول: لو نزحوا البحار، وكنسوا القفار، لوجدوها أهون من شماتة الأعداء، خصوصًا إذا كانوا مساهمين فى نسب، أو مجاورين فى بلد. اللّهم إنا نعوذ بك من تتابع الإثم، وسوء الفهم، وشماتة ابن العم، وقيل لأيوب عليه السلام: أى شيء كان عليك فى بلائك أشد؟ قال: شماتة الأعداء، وأنشد الجاحظ:

تقولُ العاذلاتُ تسلَّ عنها ... وداوِ عليلَ قلبِكَ بالسلوِّ

وكيفَ ونظرةٌ منها اختلاسًا ... ألذُّ من الشماتةِ بالعدوِّ

وقال ابن أبى جهينة المهلبى:

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى ... فتهُونُ غير شماتةِ الأعداءِ

قال الجاحظ: ما رأيتُ سنانًا أنفذ من شماتة الأعداء. وقيل لما قبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وسمع بموته نساء من كندة وحضرموت، فخضبن أيديهن وضربن بالدفوف، فقال رجل منهم:

أبْلِغْ أبا بكرٍ إذا ما جئتَهُ ... إن البغايا من بنى مرامِ

أظهَرْنَ فى موتِ النبى شماتةً ... وخضبن أيديهنَّ بالعُلاّمِ(١)

فاقطَعْ هُدِيتَ أكفَّهُنَّ بصارمٍ ... كالبرقِ أوْمَضَ فى متونِ غمامِ

فكتب أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه إلى المهاجر عامله، فأخذهن وقطع أيديهن. ويقال: فلان يتربص بك الدوائر، ويتمنى لك الغوائل، ولا يؤمل صلاحًا إلا فى فسادك، ولا رفعة إلا فى سقوط حالك. وقال حكيم: لا تأمن من عدوك وإن كان ضعيفًا، فإن القناة، قد تقتل، وإن عدمت السنان. قال الشاعر:

فلا تأمن عدوَّكَ لو تراه ... أقل إذا نظرتَ من القرادِ(٢)

فإنّ الحربَ ينشأ من جبانٍ ... وإن النار تضرم من رمادِ

بيت مفرد:

فمن لم يكن منكم مسيئًا فإنّهُ ... يشدُّ على كفِّ المسيء فيجلبُ

وقال عبد اللّه بن سليمان بن وهب:

كفايةَ اللّه خيرٌ من توقّينا ... وعادةَ اللّه الماضينَ تكفينا

كادَ الأعادى فلا واللّه ما تركوا ... قولاً وفعلاً وتلقينًا وتهجينا

---

(١) العُلاّم: نبات أحمر يختضب به.

(٢) القراد: حشرة صغيرة من أضراب القمل.

وَلم نـزد نحن فـى سـرّ وفـى علـنِ ... علـى مقالتنـا يـا ربَّنـا اكفينـا
فكـانَ ذلـك ورد اللّـه حاسـدَنا ... بغيظِـهِ لم ينَـلْ تقديـره فينـا

الفصل الرابع فى الحسد

قال اللّه تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[1] وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذى نعمة محسود». وقال عليّ رضى اللّه عنه: الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له. وقيل الحسود غضبان على القدر، ويقال: ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش: الحقد والحسد وسوء الخلق.. وقيل: بئس الشعار الحسد. وقيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك؟ قال: لأنه شقيقى فى النسب، وجارى فى البلد، وشريكى فى الصناعة، فذكر جميع دواعى الحسد. وقال أعرابى: الحسد داء منصف يفعل فى الحاسد أكثر من فعله فى المحسود، وهو مأخوذ من الحديث: قاتل اللّه الحسد ما أعْدَلَهُ، بدأ بصاحبه فقتله، وقال الفقيه أبو الليث السمرقندى رحمه اللّه تعالى: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود. أولاهما: غم لا ينقطع، الثانية: مصيبة لا يؤجر عليها، الثالثة: مذمة لا يحمد عليها، الرابعة: سخط الرب، الخامسة: يغلق عنه باب التوفيق.

ومن ذلك، ما حكى أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقرَّبه وأدناه وجعله نديمه، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان. وكان له وزير حاسد، فغار من البدوى وحسده وقال فى نفسه. إن لم أحتمل على هذا البدوى فى قتله، أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدنى عنه. فصار يتلطّف بالبدوى، حتى أتى به إلى منزله، فطبخ له طعامًا، وأكثر من الثوم، فلما أكل البدوى منه فقال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك، فإنه يكره رائحته. ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوى يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر، وهلكت من رائحة فمه. فلما دخل البدوى على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال: إن ى قاله الوزير عن هذا البدوى، صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتابًا إلى بعض عماله يقول له فيه: إذا وصل إليك كتابى هذا فاضرب رقبة حامله ثم دعا بالبدوى، ودفع إليه الكتاب، وقال له: امض به إلى فلان، وائتنى بالجواب، فامتثل البدوى ما رسم به أمير المؤمنين إلى عامله فلان. فقال الوزير فى نفسه: إن هذا البدوى يحصل له من هذا التقليد مال جزيل. فقال له: يا بدوى ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذى يحلقك فى سفرك، ويعطيك ألفى دينار؟ فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأى افعل، قال: أعطنى الكتاب، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفى دينار وسار بالكتاب إلى المكان الذى هو قاصد، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير فبعد أيام تذكر الخليفة فى أمر البدوى، وسأل عن الوزير فأخبر بأنه له أيامًا ما ظهر وأن البدوى بالمدينة مقيم. فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوى فحضر، فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التى اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها، فقال له: أنت قلت عنى للناس أنى أبخر. فقال: معاذ اللّه يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لى به علم، وإنما كان ذلك مكرًا منه وحسدًا، واعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم، وما جرى له معه. فقال: يا أمير المؤمنين قاتل اللّه الحسد ما أعدَلَهُ، بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوى واتخذه وزيرًا، وراح الوزير بحسده، وقال المغيرة شاعر آل المهلب:

آلُ المهلـبِ قـومٌ إن مدَحْتَهُـمُ ... كـانوا الأكـارمَ آبـاءً وأجـدادا

---

(١) سورة النساء: ٥٤.

إن العرانين[1] تلقاها محسدة ... ولا ترى للئام الناس حسادا

وقال عمر رضى اللّه عنه: يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك. وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة فى كل شيء، إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشدُّ تحاسدًا من التيوس. وعن أنس رضى اللّه عنه رفعه «إن الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب[2]» وقال منصور الفقيه:

منافسةَ الفتى فيما يزولُ ... على نقصانِ همَّتِهِ دليلُ

ومختارُ القليلِ أقلُّ منه ... وكلُّ فوائدِ الدنيا قليلُ

يقول اللّه عز وجل: الحاسد عدوّ نعمتى، متسخط لفعلتى، غير راض بقسمتى التى قسمت لعبادى. قال الشاعر:

أيا حاسدًا لى على نعمتى ... أتدرى على مَنْ أسأتَ الأدبْ؟

أسأتَ على اللّه فى حكمِهِ ... لأنكَ لم تَرْضَ لى ما وَهَبْ

فأخزاك[3] ربى بأن زادنى ... وسدَّ عليك وجوهَ الطَلَبْ

وقال الأصمعى: رأيت أعرابيًّا بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك. فقال: تركت الحسد فبقيت. وقالوا: لا يخلوا السيد من ودود يمدح، وحسود يقدح. وقال ابن مسعود رضى اللّه عنه: ألا لا تعادوا نعم اللّه، قيل: ومن يعادى نعم اللّه؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم من فضله، وقيل لعبد اللّه بن عروة: لِمَ لزمتَ البدو وتركتَ قومك؟ فقال: وهل بقى إلا حاسد على نعمة، أو شامت على نكبة؟ وقال الشاعر:

يا طالبَ العيشِ فى أمنٍ وفى دعةٍ[4] ... رغدًا بلا قترٍ صفوًا بلا رنقِ[5]

خلِّصْ فؤادك من غلٍّ ومن حسدِ ... فالغلُّ فى القلبِ مثلُ الغلِّ فى العنقِ[6]

وقال آخر:

اصبرْ على حسدِ الحسو ... دِ فإن صبرَك قاتلُهْ

كالنارِ تأكلُ بعضَها ... إن لم تجد ما تأكلُهْ

وفى نوابغ الحكم: الحسد حسك، مَنْ تلعق به هلك. ولبعضهم:

إنى حُسدتُ فزاد اللّه فى حسدى ... لا عاشَ مَنْ عاشَ يومًا غير محسودِ

وقال نصر بن سيار:

إنى نشأتُ وحسادى ذوو عددِ ... يا ذا المعارجِ لا تنقص لهم عددا

أن يحسدونى على ما بى لما بهم ... فمثلُ ما بى مما يجلبُ الحسدا

وكان عمر رضى اللّه عنه يقول: نعوذ باللّه من كل قدر وافق إرادة حاسد. وقيل لأرسطاطاليس: ما بال الحسود أشد غمًّا؟ قال: لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس. واللّه سبحانه وتعالى أعلم، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) العرانين: الأشراف.

(٢) أخرجه: أبو داود فى الأدب ٤٩٠٣.

(٣) فأخزاك: أذلك وأهانك.

(٤) دعة: خفض عيش.

(٥) رنق: كدر.

(٦) العنق: الغل الأولى الحقد، والثانية القيد.

الباب الأربعون فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس والتحريض على القتال وفيه فصلان

الفصل الأول فى فضل الجهاد فى سبيل الله وشدة البأس

قد أثنى الله تعالى على الصابر في البأساء والضراء وحين البأس، ووصف المجاهدين فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[١] وندب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء، والرأى فى الحرب أمام الشجاعة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحرب خدعة[٢] ». وقال صلى الله عليه وسلم: «ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دم فى سبيله، أو قطرة دمع فى جوف ليل من خشيته». وسمع رجل عبد الله بن قيس رضى الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الجنة تحت ظلال السيوف». فقال يا أبا موسى: أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله؟ قال: نعم. فرجع إلى أصحابه فقال: اقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن[٣] سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل. وكتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد: اعلَمْ أن عليك عيونًا من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد يكون له نورًا يوم القيامة. وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حين انتهينا إلى خيبر، الله أكبر، خربت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين[٤] ». وعنه رفعه: «لغدوة فى سبيل الله، أو روحة، خير من الدنيا وما فيها[٥] ». وعن ابن مسعود رفعه: «إن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل[٦] ». وقيل: إن أنس بن النضر، عم أنس بن مالك رضى الله عنه، لم يشهد بدرًا فلم يزل متحسرًا يقول: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غيبت عنه، فلما كان يوم أحد قال: واهًا لريح الجنة دون أحد، فقاتل حتى قتل فوجد فى بدنه بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية. فقالت أخته الربيع بنت النضر: فما عرفتُ أخى إلا ببنانه. وعن فضالة بن عبيد رفعه: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط؛ فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر[٧] ». وعن سهل بن حنيف رفعه: «من سأل الله الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه[٨] ». فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة، ويجعلنا من الذين أحسنوا، فلهم الحسنى وزيادة.

الفصل الثانى فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل، ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة يعبر عنها بالصبر وقوة النفس. قال الحكماء: وأصل الخير كله فى ثبات القلب، والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه: الوجه الأول: إذا التقى الجمعان، وتزاحف العسكران وتكالحت الأحداق، برز من الصف إلى وسط المعترك، يحمل ويكرّ، وينادى هل من مبارز؛ والثانى: إذا نشب القوم واختلطوا، و لم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت، يكون رابط الجأش، ساكن

---

(١) سورة الصف:٤.

(٢) أخرجه: البخارى فى المناقب ٣٦١١.

(٣) أى: غمده.

(٤) أخرجه: البخارى فى المغازى ٤١٩٧.

(٥) أخرجه: البخارى فى الجهاد والسير ٢٧٩٢.

(٦) أخرجه: مسلم فى الإمارة ١٨٨٧.

(٧) أخرجه: الترمذى فى فضائل الجهاد ١٦٢١.

(٨) أخرجه: مسلم فى الإمارة ١٩٠٩.

القلب حاضر اللب، لم يخالطه الدهش، ولا تأخذه الحيرة، فينقلب تقلب المالك لأموره، القائم على نفسه؛ والثالث: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة[1]، ويضرب فى وجوه القوم، ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوى قلوب أصحابه، ويرجى الضعيف، ويمدهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامه، ومن وقف حمله، ومن كبا به فرسه حماه حتى ييأس العدو منهم. وهذا أحمدهم شجاعة. وعن هذا قالوا: إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم.

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمة اللّٰه تعالى عليه فى كتابه سراج الملوك، قال: كان شيوخ الجند يحكون لنا فى بلادنا قالوا: دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افترقوا، فوجدوا فى المعترك قطعة خوذة[2] قدر الثلث بما حوته الرأس، فقالوا: إنه لم ير قط ضربة أقوى منها، و لم يسمع بمثلها فى جاهلية، ولا إسلام. فحملتها الروم وعلقتها فى كنيسة لهم، فكانوا إذا عيروا بانهزامهم يقولون: لقينا أقوامًا هذا ضربهم، فيرحل أبطال الروم إليها ليروها. قالوا: من الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وإن كان ذليلاً، ولا يغفل عنه وإن كان حقيرًا، فكم برغوث أسهر فيلاً، ومنع الرقاد ملكًا جليلاً قال الشاعر:

فـلا تحقـرَنَّ عـدوًا رمـاك ... وإن كـانَ فـى سـاعدَيْه قصـرْ

فـإن السـيوفَ تحـزُّ الرقـابَ ... وتعجـزُ عمـا تنـالُ الإبـرْ

واعلموا أن الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتبًا، ورتبوا فيها ترتيبًا، منها أشياء نبدأ منها أولاً بما ذكره اللّٰه تعالى فى القرآن العظيم قال اللّٰه تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾[3] فقوله تعالى: ﴿**مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ مشتملٌ على كل ما هو فى مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة. وفسر النبى صلى اللّٰه عليه وسلم القوة حين مرّ على أناس يرمون فقال: «ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى»، وأفضل العدة أن تقدم بين يدى اللقاء عملاً صالحًا من صدقة وصيام، ورد المظالم، وصلة الرحم، ودعاء مخلص، وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، وأمثال ذلك.

والشأن كل الشأن فى استجادة القواد وانتخاب الأمراء وأصحاب الألوية؛ فقد قالت حكماء العجم: أسد يقود ألف ثعلب، خير من ثعلب يقود ألف أسد. فلا ينبغى أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة، والنجدة والشجاعة، والجرأة، ثابت الجأش، صارم القلب، صادق البأس، ممن توسط الحروب، ومارس الرجال ومارسوه، ونازل الأقران، وقارع الأبطال، عارفًا بمواضع الفرص، خبيرًا بمواقع القلب، والميمنة والميسرة من الحروب؛ فإنه إذا كان كذلك، وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعًا كأنهم مثله، فإنه إن رأى لقراع الكتائب وجهًا، وإلا ردّ الغنم إلى الزريبة.

واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء. وكان عظماء الترك يقولون: بنبغى للعاقل العظيم القياد أن يكون فيه عدة أخلاق: من البهائم شجاعة الديك، وبحث الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وحراسة الكركى، وغارة الذئب، وسمن النغير، وهى دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء: وكان يقال: أشد خلق اللّٰه تعالى عشرة: الجبال، والحديد ينحت الجبال، والنار تأكل الحديد، والماء يطفئ النار، والسحاب يحمل الماء، والريح تصرف السحاب، والإنسان يتقى الريح بجناحيه، والسكر يصرع الإنسان، والنوم يذهب السكر، والهم يمنع النوم، فأشد خلق ربك الهم، اللّٰهم إنّا نعوذ بك من الهم والحزن.

---

(١) الساقة: مؤخرة الجيش.

(٢) الخوذة: غطاء الرأس للمحارب.

(٣) سورة الأنفال: ٦٠.

ومن الحيل فى الحرب أن يبث جواسيسه فى عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم، ويستميل قلوب رؤسائهم وذوى الشجاعة منهم، فيدس إليهم ويعدهم وعدًا جميلاً، ويقوى أطماعهم فى نيل ما عنده من الهبات الفخيمة، والولايات السنية، وإن رأى وجهًا عاجلهم بالهدايا، وسامهم[(١)] إما الغدر بصاحبهم، وإما الاعتزال وقت اللقاء، ويكتب على السهام أخبارًا مزورة، يرمى بها فى جيوشهم.

واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر، وأن الدول إذ زالت صارت حيلتها وبالاً[(٢)] عليها، وإذا أذن الله تعالى فى حلول البلاء كانت الآفة فى الحيلة. وقال الحكماء: إذا نزل القضاء كان العطب فى الحيلة، ويغلب الضعيف بإقبال دولته، كما يغلب القوى ببقاء مدته، فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب، أن تكون حماة الرجال، وكماة الأبطال فى القلب، فإنه انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة إلى القلب، فإذا كانت رايته تخفق، وطبوله تضرب، كان حصنًا للجناحين، يأوى إليه كل منهزم، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان، مثال ذلك: أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه ترجى عودته ولو بعد حين. وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان، وقلَّ عسكرٌ انكسر قلبه فأفلح، أو تراجع. اللّهم إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش، فيخلى القلب قصدًا أو تعمدًا حتى إذا توسطه العدو، واشتغل بنهبه انطبق عليه الجناحان، فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب. ويقال: حبب إلى عدوّك الفرار، بأن لا تتبعهم إذا انهزموا. ويقال: الشجاع محبب حتى إلى عدوّه، والجبان مبغض حتى إلى أمه. ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه: أما تستعدّ؟ قال: عدتى ثياب قلبى، وإصابة رأيى، ونصل سيفى، ونصرة خالقى.

وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع، وذلك فى أيام قتال يزيد بن المهلب، فأنشده مسلمة قول الحطيئة:

قومٌ إذا حاربُوا شدُّوا مآزرهم ... دونَ النساءِ ولو باتَتْ بأطهارِ[(٣)]

فقال يزيد: إنما ذاك إذا حاربنا أكفاءنا، وأما مثل هذا ونظرائه فلا، فقام إليه مسلمة فقبله بين عينيه. وقيل: لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلاً من آل ساسان، فوفد عليهم بهرام جور فقال: اعمدوا إلى أسدين جائعين فأطرحوا بينهما التاج، فمن أخذه فهو الملك، ففعلوا، فدنا منهما فأهويا نحوه، فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ثم نطحه به فقتلهما جميعًا، وشدّ على التاج فأخذه ووضعه على رأسه وملكته الفرس عليهم.

وقيل: لم يكن فى العجم أرمى من الملك بهرام، خرج يتصيد يومًا وهو مردف حظية له كان يعشقها، فعرضت له ظباء. فقال: فى أى موضع تريدين أن أضع هذا السهم؟ فقالت: أريد أن تشبه ذكرانها بالإناث، وإناثها بالذكران، فرمى ظبيًا ذكرًا بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما فى موضع القرنين. ثم سألته أن يجمع بين ظلف الظبى وأذنه بنشابة، فرمى أصل الأذن ببندقة ثم أهوى الظبى برجله إلى أذنه ليحتك فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه. ويقال: إن من أعظم المكايد فى الحرب الكمين، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية فى الدفاع، وحمى الذمار، حتى يلتفت فيرى وراءه بندًا منشورًا، ويسمع صوت الطبل فحينئذٍ يكون همه خلاص نفسه، وعليك بانتخاب الفرسان، واختيار الأبطال، ولا تنس قول الشاعر:

والناسُ ألفٌ منهمُ كواحدٍ ... وواحدٌ كالألفِ إنْ أمْرٌ عَنَى

بل قد جرب ذلك فوجد الواحد خيرًا من عشرة آلاف. وسأحكى لك من ذلك ما ترى فيه العجب.

---

(١) وسامهم: أى طلبهم.

(٢) وبالاً: وخيمًا.

(٣) معنى البيت: أنهم يعتزلونهنَّ.

فمن ذلك: لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية ابن روميل النصرانى على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس، وكان العسكران كالمتكافئين كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل، خيل ورجل. فحدث من حضر الوقعة من الأجناد قال: لما دنا اللقاء، قال الطاغية ابن روميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله: استعلم لى مَنْ فى عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا، ومَنْ غاب منهم، ومَنْ حضر. فذهب ثم رجع فقال: فيهم فلان وفلان، فعدَّ سبعة رجال. فقال له: انظُرْ فى عسكرى من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومَنْ غاب منهم. فعدَّهم، فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون. فقام الطاغية ضاحكًا مسرورًا، وهو يقول: ما أبيضه من يوم. ثم ثارت الحرب بينهم، فلم تزل المضاربة بين الفريقين، ولم يول أحد دبره[1] ، ولا تزحزح عن مقامه حتى فنى أكثر العسكرين، ولم يفر واحد منهم. قال: فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة ثم حملوا علينا جملة، وداخلونا مداخلة، ففرقوا بيننا وصرنا شطرين، وحالوا بيننا وبين أصحابنا. فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن فى خسارة معهم. فأشار مقدّم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه. وانكسر عسكر المسلمين، وتفرق جمعهم، وملك العدو من مدينة وشقة، فليعتبر ذو الحزم والبصيرة، من جمع يحتوى على أربعين ألف مقاتل، ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفرًا، وليعتبر بضمان العلج[2] بالظفر، واستبشاره بالغنيمة لما زاد فى أبطاله رجل واحد.

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمة الله تعالى عليه. قال: سمعت أستاذنا القاضى أبا الوليد يحيى، قال: بينما المنصور ابن عامر فى بعض غزواته؛ إذ وقف على نشز[3] من الأرض مرتفع فرأى جيوش المسلمين من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله. قد ملأوا السهل والجبل، فالتفت إلى مقدّم العسكر وهو رجل يعرف بابن المضجعى فقال له: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال: أرى جمعًا كثيرًا، وجيشًا واسعًا كبيرًا. فقال له المنصور: وما ترى هل يكون فى هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة؟ فسكت ابن المضجعى. فقال له المنصور: ما سكوتك؟ أليس فى هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال: لا. فتعجب المنصور، ثم قال: فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين؟ قال: لا. فحنق[4] المنصور، ثم قال: أفيهم مائة رجل من الأبطال؟ قال: لا. قال: فيهم خمسون رجلاً من الأبطال؟ قال: لا. قال: فسبّه المنصور وأغلظ عليه وأمر به فأخرج على أسوأ حال، فلما توسطوا بلاد الروم واجتمعت الروم وتصاف الجمعان، فبرز علج من الروم بين الصفين شاكى السلاح، وجعل يكر ويفر، ويقول: هل من مبارز؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج، ففرح المشركون وصاحوا واضطرب المسلمون لها. ثم جعل العلج يموج بين الصفين وينادى: هل من مبارز اثنين لواحد؟ فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة فقتله العلج وجعل يكر ويحمل وينادى ويقول: هل من مبارز ثلاثة لواحد؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فقتله العلج. فصاح المشركون وذلّ المسلمون، وكادت أن تكون كسرة. فقيل للمنصور: ما لها إلا ابن المضجعى، فبعث إليه فحضر. فقال له المنصور: ألا ترى ما صنع هذا العلج الكلب منذ اليوم؟ فقال: لقد رأيته فما الذى تريد؟ قال: أن تكفى المسلمين شره. قال: الآن يكفى المسلمون شره إن شاء الله تعالى. ثم قصد إلى رجال يعرفهم، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكها هزالاً، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس، والرجل فى حليته ونفسه غير متصنع. فقال له ابن المضجعى: ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم، قال: قد رأيته فما الذى تريد؟ قال: أريد أن تكفى المسلمين شره. قال حبًّا وكرامة. ثم إنه وضع القربة بالأرض وبرز إليه غير مكترث به فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا

(١) الدبر: أى الظهر؛ أى لم ينهزم.
(٢) العلج: الأجنبى الغليظ.
(٣) نشز: مرتفع.
(٤) فحنق: اغتاظ.

المسلم خارجًا إليهم يركض، ولا يدرون ما هناك، وإذا برأس العلج يلعب بها فى يده، ثم ألقى الرأس بين يدى المنصور. فقال له ابن المضجعى: عن هؤلاء الرجال أخبرتك. قال: فرد ابن المضجعى إلى منزلته وأكرمه، ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

حكى أنه كان للعرب فارس يقال له: ابن فتحون، وكان أشجع العرب والعجم فى زمانه. وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجرى له فى كل عطية خمسمائة دينار. وكانت جيوش الكفار تهابه وتعرف منه الشجاعة، وتخشى لقاءه. فيحكى أن الرومى كان إذا سقى فرسه و لم يشرب يقول له: ويلك لم لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون فى الماء؟ فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلته من السلطان. فوشوا به عند المستعين، فأبعده ومنعه من عطائه، ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم فتقابل المسلمون والمشركون صفوفًا، ثم برز علج إلى وسط الميدان، ونادى وقال: هل من مبارز؟ فبرز إليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومى. فصاح المشركون سرورًا وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب الرومى يجول بين الصفين وينادى: هل من اثنين لواحد؟ فخرج إليه فارس من المسلمين فقتله الرومى. فصاح الكفار سرورًا، وانكسرت نفوس المسلمين. وجعل الكلب يجول بين الصفين وينادى ويقول: ثلاثة لواحد، فلم يجترئ أحد من المسلمين أن يخرج إليه، وبقى الناس فى حيرة. فقيل للسلطان: ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون فدعاه وتلطف به، وقال له: يا أبا الوليد أما ترى ما يصنع هذا العلج؟ فقال: ها هو بعينى، قال: فما الحيلة فيه؟ قال: الساعة أكفى المسلمين شره، فلبس قميص كتان واستوى على سرج فرسه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطًا طويلاً، وفى طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه فتعجب منه النصرانى، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن فتحون. وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس، ونزل إلى الأرض لا شيء منه فى السرج، ثم انقلب فى سرجه وحمل على العلج، وضربه بالسوط فالتوى على عنقه، فجذبه بيده من السرج فاقتلعه، وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدى المستعين. فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه مع أبى الوليد بن فتحون فاعتذر إليه، وأكرمه، وأحسن إليه، وبالغ فى الإنعام عليه، ورده إلى أحسن أحواله، وكان من أعز الناس إليه.

وينبغى لقائد الجيش أن يخفى العلامة التى هو مشهور بها، فإن عدوَّه قد يستعلم حيلته، وألوان خيله، ورايته، ولا يلزم خيمته ليلاً ولا نهارًا، أو ليبدل زيه، ويغير خيمته؛ كيلا يلتمس عدوّه غرة منه، وإذا سكنت الحرب؛ فلا يمشى فى النفر اليسير من قومه خارج عسكره، فإن عيون عدوِّه متجسسة عليه. وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش أفريقية عند فتحها؛ وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار، فجعل مقدَّم العدوّ يمشى خارج عسكره يتميز عساكر المسلمين، فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبى السرح وهو نائم فى قبته، فخرج فيمن وثق به من رجاله، وحمل على العدوّ فقتل الملك وكان الفتح.

وبمثل هذا قهر ألب أرسلان ملكُ الترك ملكَ الروم وقمعه، وقتل رجاله، وأباد جمعه. وكانت الروم قد جمعت جيوشًا يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل، كتائب متواصلة، وعساكر مترادفة، وكراديس يتلو بعضها بعضًا، لا يدركهم الطرف، ولا يحصيهم العدد، وقد استعدوا من الكراع[1] ، والسلاح، والمجانيق، والآلات المعدّة للحروب وفتح الحصون بما لا يحصى. وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين: الشام، والعراق، ومصر، وخراسان، وديار بكر. ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم، وأن نجوم السعود قد خدمتهم. ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم إلى بلاد المسلمين، واضطربت لها ممالك أهل الإسلام. فاحتشد للقائهم الملك ألب أرسلان وهو الذى يسمى الملك العادل، وجمع جموعه بمدينة أصبهان، واستعد بما قدر

(١) الكراع: الخيول المعدة للحرب.

عليه، ثم خرج يؤمهم فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين. وقالوا لألب أرسلان: غدًا يتراءى الجمعان، فبات المسلمون ليلة الجمعة، والروم فى عدد لا يحصيهم إلا الله الذى خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع، فبقى المسلمون وجلين[1] لما دهمهم، فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض، فهال المسلمون ما رأوا من كثرة العدوّ، فأمر ألب أرسلان أن يعدّ المسلمون، فبلغوا اثنى عشر ألفًا، فكانوا كالشامة البيضاء فى الثور الأسود. فجمع ذوى الرأى من أهل الحرب والتدبير، والشفقة على المسلمين، والنظر فى العواقب، واستشارهم فى استخلاص أصوب الرأى فتشاوروا برهة، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء. فتوادع القوم، وتحاللوا، وناصحوا الإسلام وأهله، وتأهبوا أهبة اللقاء. وقالوا لألب أرسلان: باسم الله نحمل عليهم. فقال ألب أرسلان: يا معشر أهل الإسلام أمهلوا، فإن هذا يوم الجمعة، والمسلمون يخطبون على المنابر، ويدعون لنا فى شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس، وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ودعوا الله أن ينصر دينه، حملنا عليهم إذ ذاك، وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم، وعلامته، وزيه، وزينته، وفرسه. ثم قال لرجاله: لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلى، ويتبع أثرى، ويضرب بسيفه ويرمى سهمه حيث أضرب بسيفى، وأرمى بسهمى، ثم حمل برجاله حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم، فقتلوا من كان دونها، ووصلوا إلى الملك فقتلوا من كان دونه، وجعلوا ينادون بلسان الروم: قتل الملك، قتل الملك، فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل، فتبددوا، وتمزقوا كل ممزق، وعمل السيف فيهم أيامًا؛ وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم، وأتوا بالملك أسيرًا بين يدى ألب أرسلان، والحبل فى عنقه. فقال له ألب أرسلان: ماذا كنت تصنع بى لو أسرتنى؟ قال: هل تشك أننى كنت أقتلك؟ فقال له ألب أرسلان: أنت أقل فى عينى من أن أقتلك، اذهبوا به فبيعوه لمن يزيد فيه، فكان يقاد والحبل فى عنقه، وينادى عليه من يشترى ملك الروم، وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام، ومنازل المسلمين وينادون عليه بالدراهم، والفلوس فلم يدفع فيه أحد شيئًا حتى باعوه من إنسان بكلب، فأخذه الذى ينادى عليه، وأخذ الكلب وأتى بهما إلى ألب أرسلان، وقال: قد طفت به جميع العسكر، وناديت عليه، فلم يبذل أحد فيه شيئًا، سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب. فقال: قد أنصفك، إن الكلب خير منه. ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه، وذهب إلى القسطنينية. فعزلته الروم وكحلوه بالنار.

فانظر ماذا يأتى على الملوك إذا عرفوا فى الحرب من الحيلة، والمكيدة. اللّهم انصر جيوش المسلمين، وعساكر الموحدين، وأهلك الكفرة والمشركين، وانصر المسلمين نصرًا عزيزًا برحمتك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

(١) وجلين: خائفين.

الباب الحادى والأربعين فى ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن

الطبقة الأولى الذين أدركوا الجاهلية والإسلام: حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسد الله، وأسد رسوله صلى الله عليه وسلم، قتل فى غزاة أحد، رماه وحشى مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله. وكان فارس قريش غير مدافع وبطلها غير ممانع. وعظم قتله على النبى صلى الله عليه وسلم ونذر أن يقتل به سبعين رجلاً من قريش، وكبر عليه فى الصلاة سبعين تكبيرة. أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرّم وجهه، آية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومؤيد بالتأييد الإلهى، كاشف الكروب ومجليها[١]، ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها، وهو المتقدم على ذوى الشجاعة كلهم بلا مرية[٢]، ولا خلاف. روى عنه رضى الله عنه أنه قال: والذى نفس ابن أبى طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون علىّ من موتة على فراش. وقال بعض العرب: ما لقينا كتيبة فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض. وقال رضى الله عنه لمعاوية: قد دعوت الناس إلى الحرب فدع الناس جانبًا واخرج إلىّ ليعلم أينا المران[٣] على قلبه، والمغطى على بصره، وأنا أبو الحسن قاتل جدك، وخالك وأخيك شدخًا[٤] يوم بدر، وذلك السيف معى، وبذلك القلب ألقى عدوّى. وقيل له كرم الله وجهه. إذا جالت الخليل، فأين نطلبك؟ قال: حيث تركتمونى. وقيل له: كيف كنت تقتل الأبطال؟ قال: لأنى كنت ألقى الرجل فأقدر أنى أقتله، ويقدر هو أنى قتلته، فأكون أنا ونفسه عونًا عليه. وقال مصعب بن الزبير: كان على رضى الله عنه حذرًا فى الحروب، شديد الروغان، لا يكاد أحد يتمكن منه، وكان درعه صدرًا لا ظهر لها. فقيل له: أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك؟ فقال: إذا مكنت عدوّى من ظهرى[٥] فلا أبقى الله عليه إن أبقى علىّ. قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنة الله تعالى عليه، غدره وهو فى صلاة الصبح. وسبب ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم لعنة الله تعالى عليه مكررة تزوج بقطام بنت علقمة وكانت خارجية فقالت له: لا أقنع إلا بصداق أُسمِّيه، وهو ثلاثة آلاف درهم، وعبد وأمة، وأن تقتل على بن أبى طالب. فقال لها: لك ما سألت، إلا على بن أبى طالب وكيف لى به؟ قالت: تغتاله فإن سلمت أرحت الناس من شره وأقمت مع أهلك، وإن أصبت دخلت الجنة فقال:

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضربٌ على بالحسامِ المخذمِ[٦]
فلا مهرَ أغلى من علىّ وإن علا ... ولا فيك إلا دون فَتْكِ ابن ملجمِ

وقيل: إنه طعنه وهو داخل المسجد فى الغلس[٧] وذلك فى التاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين. كفن رضى الله عنه فى ثلاثة أثواب ودفن فى الرحبة، مما يلى كندة من أبواب المسجد. قالوا: ولما ضربه ابن ملجم، لعنه الله، ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم فاحتضنوه، وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب فأخذه فأومأ علىّ رضى الله عنه إلى المغيرة أن صلِّ بالناس. فصلى بهم الفجر. وأقبلت همدان فدخلوا على علىّ فقالوا: يا أمير المؤمنين لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى. فقال: لا تفعلوا إنما النفس بالنفس.

---

(١) مجليها: مظهرها.
(٢) مرية: جدال أو نقاش.
(٣) المران: المغطى.
(٤) شدخًا: كسرًا بعنف.
(٥) ظهرى: كناية عن الحرب.
(٦) المخذم: القاطع.
(٧) الغلس: ظلمة آخر الليل.

قال: ثم إن الحسن رضى اللّه عنه صلى الفجر، وصعد المنبر فأراد الكلام فخنقته العبرة ثم نطق فقال: الحمد للّه على ما أحببنا وكرهنا، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى اللّه عليه وسلم، وإنى أحتسب عند اللّه عز وجل مصابى بأفضل الآباء رسول اللّه القائل صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ أصيب بمصيبة فليتسلَّ بمصيبته فىّ فإنها أعظم المصائب». واللّه الذى لا إله إلا هو، الذى أنزل على عبده الفرقان، لقد قبض فى هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولا يدركه الآخرون. فعند اللّه نحتسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم. فواللّه لا أقول اليوم إلا حقًا لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد والبلاد، والشجر والدواب. ولقد قبض فى الليل التى رفع فيها عيسى ابن مريم عليهما السلام إلى السماء، وقبض فيها موسى بن عمران، ويوشع بن نون عليهما السلام. وأنزل فيها القرآن على محمد صلى اللّه عليه وسلم. ولقد كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يبعثه فى السرية، ويسير جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتى يفتح اللّه عز وجل على يديه. وما ترك صفراء، ولا بيضاء، إلا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادمًا لأهله، ألا إن أمور اللّه تعالى تجرى على أحوالها، فما أحسنها من اللّه، وأسوأها من أنفسكم، ألا إن قريشًا أعطت أزمتها شياطينها، فقادتها بأعنتها إلى النار. فمنهم مَنْ قاتل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى أظهره اللّه تعالى عليهم. ومنهم مَنْ أسرَّ الضغينة حتى وجد على النفاق أعوانًا. رفع الكتاب وجف القلم. وأمور تقضى فى كتاب قد خلا. ثم أطرق الحسن. فبكى الناس بكاءً شديدًا، ثم نزل فجرد سيفه ودعا بابن ملجم، فأقبل يخطر واضعًا شعره على أذنيه، حتى قام بين يديه. فقال: يا حسن، إنى ما عاهدت اللّه تعالى على عهد قط إلا وفيت به؛ عاهدت اللّه تعالى على أن أقتل أباك وقد قتلته. فإن تخلنى أقتل معاوية. فإن أنا قتلته أضع يدى على يدك. وإن أقتل فهو الذى تريد. فقال الحسن رضى اللّه عنه: أما واللّه لا سبيل إلى بقائك، ثم قام إليه فضربه بالسيف، فاتقاه ابن ملجم بيده، ثم أسرع السيف فيه فقتله.

ومن الأبطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى رضى اللّه عنه: سيف اللّه، وسيف رسوله صلى اللّه عليه وسلم بطل مذكور، وفارس مشهور، فى الجاهلية والإسلام. قتل مالك بن نويرة، وقتل مسيلمة الكذاب لعنه اللّه. وكان الفتح لخالد يوم اليمامة، وهو الذى فتح دمشق وأكثر بلاد الشام، وله وقائع عظيمة فى الروم أيّد اللّه بها الإسلام، مات على فراشه. وكان يقول: لقد شهدت كذا وكذا زحفًا، وما فى جسدى موضع شبر، إلا وفيه أثر من طعنة، أو ضربه، أو رمية، وها أنا أموت على فراشى، فلا نامت عين الجبان، وكان ينشد ويرتجز ويقول رضى اللّه عنه:

لا ترعبونا بالسيوفِ المبرقه ... إن السهامَ بالردى مفوّقه[1]
والحربُ دونها العقالُ مطلقهْ ... وخالدٌ من دينهِ على ثقه

الزبير بن العوام رضى اللّه عنه: حوارىّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وابن عمته، بطل شجاع لا يمارى، وشهم لا يجارى، قتله عمرو بن جرموز، اغتاله وهو فى الصلاة. **عمرو بن معدى كرب الزبيدى:** فارس من فرسان الجاهلية، وله مواقف مذكورة، ومواطن مشهورة، وأسلم ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة، وأحوال جسيمة. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه إذا رآه قال: الحمد للّه الذى خلقنا وخلق عمرًا. روى عنه رضى اللّه عنه أنه سأل يومًا فقال له: يا عمرو أى السلاح أفضل فى الحرب؟ قال: فعن أيها تسأل؟ قال: ما تقول فى السهام؟ قال: منها ما يخطئ ويصيب. قال: فما تقول فى الرمح؟ قال: أخوك ربما خانك، قال: فما تقول فى الترس؟ قال: هو الدائرة، وعليه تدور الدوائر. قال: فما

(١) مفوّقَة: أكثر علوًا فى هذا المجال.

تقول فى السيف؟ قال: ذلك العدة عن الشدة. وقيل: أنه نزل يوم القادسية على النهر فقال لأصحابه: أننى عابر على هذا الجسر، فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور، وجدتمونى وسيفى بيدى أقاتل به تلقاء وجهى، وقد عرفنى القوم، وأنا قائم بينهم، وإن أبطأتم وجدتمونى قتيلاً بينهم، ثم انغمس فحمل على القوم. فقال بعضهم لبعض: يا بنى زبيد علام تدعون صاحبكم، والله ما نظن إنكم تدركونه حيًّا فحملوا فانتهوا إليه وقد صرع عن فرسه. وقد أخذ برجل فرس رجلٍ من العجم، فأمسكها الفارس يضرب فرسه، فلم تقدر أن تتحرك، فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه، وخلّى فرسه فركبه عمرو. وقال: أنا أبو ثور كدتم والله تفقدوننى، فقالوا: أين فرسك؟ فقال: رمى بنشابة فغار، وشب فصرعنى[1] . ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم، وهو الذى كان قدَّمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين، فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل، فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوبه، فسقط رستم، وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار. فقتل رستم وانهزمت العجم. وقتل عمرو بنهاوند فى وقعة الفرس بعد أن عمّر حتى ضعف، وكان من الشعراء المعدودين. وفيه يقول العباس بن مرداس:

إذا مات عمرو قلت للخيل اوطئى زبيدًا فقد أودى بنجدتها عمرو[2]

ومنهم طلحة الأسدى رضى الله عنه: كان من أكبر الشجعان جاهلية وإسلامًا، ثم ارتد وتنبأ، وجمع جمعًا عظيمًا ففلّ[3] خالد بن الوليد جمعه. وكان يتكهن، ثم عاد إلى الإسلام وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح.

المقداد بن الأسود رضى الله عنه: كان من أشجع الفرسان، شديد البأس، قوى الجنان، رابط الجأش، وله فى الشجعان اسم مشهور، ووصف مذكور، يعجز الواصف عن وصف صفاته رضى الله عنه وأرضاه.

سعد بن أبى وقاص الزهرى الأنصارى رضى الله عنه: كان فارسًا بطلاً راميًا، وهو أول من رمى فى سبيل الله بسهم. ولما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه اعتزل و لم يشهد الحرب بعده، ومات حتف أنفه. **أبو دجانة الأنصارى رضى الله عنه:** الذى خرج يتبختر بين الصفين فقال عليه الصلاة والسلام: «إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا فى هذا الموضع». **المثنى بن حارثة الشيبانى رضى الله عنه:** هو أوّل من فتح حرب الفرس. **أبو عبيد بن مسعود الثقفى رضى الله عنه:** قاتل القوم يوم قس الناطف فى حرب القادسية. **عمار بن ياسر رضى الله عنه:** صاحب رسول الله والذى قال فيه رسول الله: «الحق يدور مع عمار حيث دار»، وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية، فقتل بصفين وكان مع على رضى الله عنه. **هاشم بن عتبة رضى الله عنه:** من أكابر الشجعان، صاحب راية على رضى الله عنه بصفين. **مالك بن الحرث النخعى الأشتر رضى الله عنه:** مات مسمومًا فى شربة من عسل. فقال معاوية: إن لله جنودًا منها العسل. **القعقاع بن عمرو:** طاعن الفيل فى عشية القادسية رضى الله عنه.

الطبقة الثانية: عبد الله بن الزبير بن العوام رضى الله عنه: قاتل جرجير ملك أفريقية الذى كان يرى أنه أشجع أهل عصره. قال عمر بن عبد العزيز لابن أبى مليكة: صف لى عبد الله بن الزبير. فقال: والله ما رأيت جلدًا قط ركب على لحم، ولا لحمًا على عصب، ولا عصبًا على عظم، مثل جلده، ولحمه، وعصبه. ولا رأيت نفسًا بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه، ولقد قام يومًا إلى الصلاة فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحيته

---

(١) صرعنى: أوقعنى.

(٢) أى: ذهاب مجد هذه البلدة بذهاب بطلها هذا.

(٣) فلّ جمعهم: فرقهم وانتصر عليهم.

وصدره فوالله ما خشع له بصره، ولا قطع له قراءته، ولا ركع دون الركوع الذى كان يركع. قتله الحجاج بعد أن حوصر بمكة، وأسلمه أصحابه وعشيرته، وصلبه الحجاج، ألا إلى الله تصير الأمور. **أبو هاشم محمد بن على ابن أبى طالب ابن الحنيفة رضى الله عنه**: كان أبوه يلقيه فى الوقائع، ويتقى به العظائم، وهو شديد البأس، ثابت الجنان. قيل له يومًا: ما بال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه يقحمك الحروب، دون الحسن والحسين رضى الله عنهما؟ فقال: لأنهما كانا عينيه، وكنت أنا يديه، فكان يتقى عينيه بيديه. وقيل: إن أباه عليًا رضى الله عنه اشترى درعًا فاستطالها فأراد أن يقطع منها. فقال له محمد: يا أبت، علم موضع القطع، فعلّم على موضع منها، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها، وبالأخرى على موضع العلامة، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذى حدّه أبوه. وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه فى الشجاعة يحسده على قوته، وإذا حدث بهذا الحديث غضب. مات حتف أنفه بشعب رضوى. **عبد الله بن حازم السلمى رضى الله عنه**: والى خرسان، شجيع مضر وفارسها فى عصره، قتله وكيع بن أبى سويد بخراسان فى الفتنة. **وكيع بن أبى سويد**: قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره، شجاع فاتك أهوج والى خراسان، قيل لما قتل عبد الله بن حازم، ولم يتم أمره لهوجه فمات حتف أنفه. **مصعب بن الزبير بن العوام**: شجاع بطل جواد، جاد بماله وبنفسه، قتله عبيد الله بن زياد فى الحروب التى كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان. **عمير بن الحباب السلمى**: فارس الإسلام، قتله بنو تغلب فى الحرب التى كانت بينهم وبين قيس. مسلمة بن عبد الملك بن مروان، فَحْلُ بنى أمية وفارسها ووالى حروبها، قيل: إنه جلس يومًا ليقضى بين الناس بمصر فكلمته امرأة، فلم يقبل عليها، فقالت: ما رأيت أقل حياء من هذا قط. فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات. فقال لها: أترين أثر هذا الطعن؟ والله لو أخرت رجلى قيد شبر ما أصابتنى واحدة منهن، وما منعنى من تأخيرها إلا الحياء، وأنت تنحلينى قلته. **المعتصم**: بطل شجاع، فارس صنديد، لم يكن فى بنى العباس أشجع منه ولا أشد قلبًا. قال ابن أبى داود: كان المعتصم يقول لى: يا أبا عبد الله، عض على ساعدى بأكثر قوتك. فأقول: والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسى بذلك. فيقول: إنه لا يضرنى فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة، فكيف تعمل فيه الأسنان. ويقال: إنه طعنه بعض الخوارج وعليه درع، فأقام المعتصم ظهره فقصم الرمح نصفين، وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقًا فى العنق. **إبراهيم بن الأشتر النخعى**: كان من الشجعان المعدودين، حارب عبيد الله بن زياد وهو فى أربعة آلاف، وعبيد الله فى سبعين ألفًا فظفر به، وقتله بيده، وهزم جيشه. عبد الله بن الحر الجعفى، شجاع، شاعر فاتك، له وقائع عظيمة هائلة، وأخباره فى الشجاعة مشهورة. **جحدر بن ربيعة العكلى**: كان بطلاً شجاعًا فاتكًا مغيرًا، شاعرًا، قهر أهل اليمامة، وأبادهم فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فكتب إلى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه، ويأمره بالتجرد له حتى يقتله، أو يحمله إليه أسيرًا. فوجه العامل إليه فتية من بنى حنظلة، وجعل لهم جعلاً عظيمًا أن هم قتلوا جحدرًا أو أتوا به أسيرًا، فتوجه الفتية فى طلبه، حتى إذا كانوا قريبًا منه، أرسلوا يقولون له، إنهم يريدون الانقطاع إليه، والارتفاق به، فوثق بذلك منهم، وسكن إلى قولهم، فبينما هو معهم يومًا، إذا وثبوا عليه فشدوه وثاقًا، وقدموا به على العامل فوجه به إلى الحجاج معهم، فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له: أنت جحدر. قال: نعم أصلح الله الأمير. قال: ما جرأك؟ قال: لو ابتلانى الأمير، وجعلنى مع الفرسان لرأى منى ما يعجبه. قال: فتعجب الحجاج من ثبات عقله، ومنطقه، ثم قال: يا جحدر؛ إنى قاذف بك فى حاجر فيه أسد عظيم فإن قتلك كفانا مؤنتك، وإن قتلته عفونا عنك. قال: أصلح الله الأمير قرب الفرج إن شاء الله تعالى. فأمر به فصفدوه بالحديد، ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسدًا ويحمله إليه. فتحيل العامل وارتاد له أسدًا كان كاسرًا خبيثًا قد أفنى عامة المواشى، فتحيلوا حتى أخذوه وصيروه فى تابوت وسحبوه على عجل. فلما قدموا به على الحجاج أمر به، فألقى فى الحاجر ولم يطعم شيئًا ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب، ثم

أمر بجحدر أن ينزلوه إليه فأعطوه سيفًا وأنزلوه إليه مقيدًا وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بجحدر.

فلما نظر الأسد إلى جحدر نهض، ووثب وتمطى وزعق زعقة دويت منها الجبال، وارتاعت أهل الأرض، فشد عليه جحدر وهو ينشد ويقول:

ليثٌ وليثٌ فى مجال ضنكِ ... كلاهما ذو قوَّةٍ وسَفْكِ
وصولةٍ وبطشةٍ وفتكِ ... أن يكشفَ اللّه قناعَ الشكِّ
فأنتَ لى فى قبضتى وملكى

ثم دنا منه، وضربه بسيفه، ففلق هامته[1]، فكبَّر الناس. وأعجب الحجاج ذلك، وقال: للّه درك ما أنجبك. ثم أمر به فأخرج من الحاجر، وفك عنه قيوده، وقال له: اختر إمّا أن تقيم معنا فنكرمك، ونقرّب منزلتك، وإما أن نأذن لك فتلحق ببلادك وأهلك، على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حدثًا، ولا تؤذى بها أحدًا. قال: بل اختار صحبتك أيها الأمير، فجعله من سماره وخواصه، ثم لم يلبث أن ولاه على اليمامة، وكان من أمره ما كان.

المهلب بن أبى صفرة: كان من الشجعان، ومن الأبطال المعدودة، وأولاده كلهم أنجاد أبطال، إلا أن المغيرة من بينهم، كان أشد تمكنًا، وكان المهلب يقول: ما شهد معى حربًا، إلا رأيت البشرى فى وجهه، وحمل عليه بعض الشجعان وفى يده شجرة، فلما رآها نكس رأسه على قربوس السرج، وحمل من تحتها فبراها بسيفه، وكان المهلب يقول: أشجع الناس ثلاثة: ابن الكلبية، وأحمر قريش، وراكب البغلة، فابن الكلبية، مصعب بن الزبير. وأحمر قريش عمر بن عبيد اللّه بن معمر. ما لقى خيلاً قط إلا فرقها. وراكب البغلة عباد بن الحصين. ما كان قط فى كربة إلا فرجها، وهو من فرسان الإسلام، وكان للمهلب فى الحروب مكايد مشهورة، ووقائعه أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين، وكان سيدًا كريمًا، مات حتف أنفه، وكذلك ابنه المغيرة، وفيه يقول زياد الأعجم:

مات المغيرة بعد طول تَعرُّضٍ ... للقتل بين أسنّة وصفائح

وكان فى الخوارج فوارس مشهورة، لا تثبت لهم الرجال، وذكرهم يطول ويخرج عما أردناه. فمنهم: **أبو بلال مرداس**: خرج فى أربعين فهزم ألفين.

وشبيب الخارجي: الذى غرق فى الفرات، نذرت امرأته غزالة أن تصلى فى جامع الكوفة ركعتين، تقرأ فى الأولى البقرة، وفى الثانية آل عمران، فعبر بها جسر الفرات، وأدخلها الجامع، ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها، والحجاج فى الكوفة فى خمسين ألفًا. ومنهم: **قطرى بن الفجاءة**: كان رأس الخوارج، وخاطبوه بأمير المؤمنين، وعظموه وبجلوه، وأشعاره فى الشجاعة تدل على مكانه منها. قتل فى بعض وقائع الخوارج.

الطبقة الثالثة: **معن بن زائدة الشيبانى**: قتله الخوارج بسجستان فى أيام المهدى.

الوليد بن طريف الشيبانى: قتله يزيد بن مزيد. عمرو بن حنيف كان من الفرسان المعدودة نقل عنه أنه كان يتصيد فتتبع حمار وحش، وما زال يركض إلى أن حاذاه فجمع رجليه ووثب من على فرسه، وصار على ظهر حمار الوحش، وصار يحز عنقه بسيف أو سكين فى يده حتى قتله.

---

(١) الهامة: الرأس.

أبو دلف القاسم بن عيسى العجلى: فارس بطل شاعر، نديم، جامع لما تفرق فى غيره، طعن فارسين رديفين فأنفذ الرمح من ظهريهما، وحمل برمحه أربعة نفر، وفيه يقول بكر بن النطاح:

قـالوا وينظَـمُ فارسَـيْن بطعنـةٍ … يـومَ اللقـاءِ ولا يـراهُ جليـلا
لا تعجَبُـوا لـو كـان مَـدُّ قناتِـهِ … ميـلاً إذا نظـمَ الفـوارسَ ميـلا

وسأله يومًا رجل شيئًا. فقال له: أتسأل وجدك القائل:

ومَـنْ يفتقِـرْ منـا يَعِـشْ بحسـامِهِ … ومـن يفتَقِـرْ مـن سائر الناس يسـأل
وإنّـا لنلهـو بالسيـوفِ كمـا لهـت … فتـاةٌ بعقـدٍ أو سِـخابِ قرنفـلِ[(١)]

فخرج الرجل، فجرد سيفه، فلم يصادفه فى طريقه إلا وكيل لأبى دلف ومعه مال جزيل، فاستلبه منه وقتله، فبلغ الخبر أبا دلف.

فقال: دعوه؛ فإنى علمته على نفسى.

بكر بن النطاح: بطل شجاع، فارس فاتك، له أشعار مشهورة وأخبار مذكورة.

ومما جاء فى مدح السيف: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «الخير فى السيف، والخير بالسيف» وكان صمصام[(٢)] عمرو، أشهر سيوف العرب وممن تمثل به نهشل فقال:

أخٌ مـاجدٌ مـا خـاننى يـومَ مشـهدٍ … كمـا سيفُ عمـرو لم تَخُنْـهُ مضاربُـه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على اليمن قال:

خليلـىَّ لم أخُنْـهُ ولم يخنـى … إذا مـا صـابَ أوسـاطَ العظـامِ
خليلـى لم أهبـه مـن قـلاهُ … ولكـنَّ المواهـبَ للكـرامِ
جـوتُ بـه كريمًـا مـن قريـشٍ … فسـرَّ بـهِ وصِـينَ عـن اللئـامِ
وودعـت الصفـىَّ[(٣)] صفـىَّ نفسـى … علـى الصمصـام أضعـافَ السـلامِ

ولم يزل فى آل سعيد، حتى اشتراه خالد بن عبد اللّه القسرى بمال جزيل لهشام، وكان قد كتب إليه فيه. فلم يزل عند بنى مروان، ثم طلبه السفاح، والمنصور والمهدى فلم يجدوه، فجدّ[(٤)] الهادى فى طلبه حتى ظفر به، وكان مكتوبًا عليه هذا البيت:

ذكـرٌ علـى ذكـرٌ يصـولُ بصـارمٍ … ذكـر يمـانٍ فـى يمـين يمـانى

وقال ابن الرومى:

لم أر شـيئًا حـاضرًا نفعُـهُ … للمـرءِ كـالدرهم والسَّـيْفِ
يقضـى لـه الدرهـمُ حاجاتِـهِ … والسـيف يحميـه مـن الحَيْـفِ[(٥)]

وقال زيد بن على رضى اللّه عنهما:

السيفُ يعـرف عزمـى عنـد هزَّتِـهِ … والرمـحُ بـى خـبرٌ واللّـه لى وزرُ[(٦)]

---

(١) سِخابِ قرنفل: عقد من القرنفل.
(٢) صمصام: سيفه.
(٣) الصفىّ: الخليل ذو الصفاء.
(٤) جدّ: اجتهد.
(٥) الحَيْفِ: الجور.
(٦) وزر: مؤازر ومعين.

إنّا لنأملُ ما كانت أوائلنا ... من قبل تأمّلِهِ إن ساعَدَ القدرُ

وقال عبد الله بن طاهر:

يبيتُ ضجيعى السيفُ طورًا وتارة ... تعضُ بهامات[1] الرجال مضاربُهْ

أخو ثقةٍ أرضاه فى الروع صاحبًا ... وفوقَ رضاه أننى أنا صاحبه

وليس أخو العلياءِ إلا فتى له ... بها كلفٌ ما تستقرُّ ركائبه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله، فطلب منه سيف الزبير، وقال له: رده علىّ، فإنه السيف الذى أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين. فقال له عبد الملك: أو تعرفه؟ قال: نعم. قال: بماذا؟ قال: أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك، أعرفه بقول الشاعر[2]:

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفَهم ... بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ

وقال الأجدع الهمدانى:

لقد علمَتْ نسوانُ همدانَ أننى ... لهنَّ غداةَ الروعِ غيرُ خذولِ

وأبذلُ فى الهياجاد وجهى وإننى ... له فى سوى الهيجاءِ غيرُ بذولِ[3]

وقال آخر:

عشرونَ ألفَ فتى ما منهمُ أحدٌ ... إلا كألفِ فتى مقدامه بطل

راحَتْ مزاودُهُم مملوءةَ أملاً ... ففرغوها وأوكوها من الأجل

ومن أخبار الشجعان: ما حكاه الفضل بن يزيد: نزل علينا بنو ثعلب فى بعض السنين وكنت مشغوفًا بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها، فبينما أن أدور فى بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة فى فناء خبائها، وهى آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله فى حسنه وجماله، له ذؤابتان كالسبج[4] المنظوم، وهى تعاتبه بلسان رطب، وكلام عذب، تحن إليه الأسماع، وترتاح له القلوب، وأكثر ما أسمع منها: أى بنى وهو يتبسم فى وجهها، قد غلب عليه الحياء والخجل، كأنه جارية بكر لا يرد جوابًا. فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت، فدنوت منه، وسلمت فرد علىّ السلام، فوقفت أنظر إليهما. فقالت: يا حضرىّ ما حاجتك؟ فقلت: الاستكثار مما أسمع، والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام. فقالت: يا حضرىّ إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره. فقلت: قد شئت يرحمك الله. فقالت: حملته والرزق عسر، والعيش نكد، حملاً خفيفًا حتى مضت له تسعة أشهر، وشاء الله عز وأجل أن أضعه، فوضعته خلقًا سويًا، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه، حتى أفضل الله عز وجل وأعطى، وأتى من الرزق بما كفى أغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه فربىَ كأنه شبل أسد، أقيه برد الشتاء، وحر الهجير. حتى إذا مضت له خمس سنين، أسلمته إلى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده. فلما أن بلغ الحلم، واشتد عظمه، وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس، وتمرس ولبس السلاح، ومشى بين بيوتات الحى الخيلاء. فأخذ فى قرى الضيف، وإطعام الطعام، وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه. فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحى فى طلب ثأر لهم، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج، حتى إذا أمعن القوم ولم يبق فى الحى غيره، ونحن آمنون وادعون إلى أن أدبر الليل، وأسفر الصباح،

---

(١) بهامات: برؤسهم.
(٢) النابغة الذبيانى فى الغساسنة.
(٣) بذول: أى صائنه.
(٤) السبج: الخرز.

حتى طلعت علينا غرر الجياد، وطلائع العدو، فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، هو يسألنى عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر إشفاقًا عليه، وضنًا به إذ علت الأصوات، وبرزت المخدرات، رمى دثاره، وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لامة حربه، وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم، فطعن أدناهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه صبيًا صغيرًا، لا مدد وراءه. فحملوا عليه فأقبل يؤم البيت ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة، حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا فى أثره عطف عليهم ففرق شملهم، وشتت جمعهم، وقلل كثرتهم، ومزقهم كل ممزق، ومرق كما يمرق السهم، ونادهم: خلوا عن المال فوالله لا رجعت إلا به، أو لأهلكن دونه. فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتميزت له الفتيان، وحملوا عليه قد رفعوا إليه الأسنة، وعطفوا عليه بالأعنة. فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الأبل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها، ولا كتيبة إلا مزقها، حتى لم يبق من القوم إلا مَنْ نجا به فرسه ثم ساق المال، وأقبل به، فكبر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فوالله ما رأينا قط يومًا كان أسمح صباحًا، وأحسن رواحًا[١] من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيات الحى هذه الأبيات:

تــأمَّلْنَ فِعْلــى هــل رأيتــنَّ مثلــه ... إذا حشرجت نفسُ الجبانِ من الكربِ
وضــاقَتْ عليــه الأرضُ حتــى كأنّــه ... من الخوفِ مسلوبُ العزيمةِ والقلبِ
ألم أعــطِ كــلاً حقّــهُ ونصيبَــهُ ... من السمهرىِّ[٢] اللدنِ والمرهفِ العَضْبِ
أنا ابنُ هندِ بن قيسِ بن مالكٍ ... سليلُ المعالى والمكارمِ والسيبِ
أبى لى أن أعطىَ الظلامةَ مرهفٌ ... وطرفٌ قوىُّ الظهرِ والجوفِ والجنب
وعزمٌ صحيحٌ لو ضرَبْتُ بحدِّه الـ ... جبالَ الرواسى لانحَطَطْنَ إلى الترب
وعرضٌ نقىٌّ أتّقى أن أعيبَهُ ... وبيتٌ شريفٌ فى ذرى ثعلب الغلب
فإن لم أقاتل دونكنَّ وأحتمى ... لكن وأحميكنَّ بالطعنِ والضرب
فلا صَدَقَ اللاتى مَشَيْنَ إلى أبى ... يهنينه بالفارسِ البطلِ الندب

وقال الشاعر:

آراؤهم ووجوهُهم وسيوفُهم ... فى الحادثاتِ إذا دجَوْنَ نجومُ[٣]
منها معالمُ للهُدَى ومصابحُ ... تجلو الدُّجى والأخرياتُ رجومُ[٤]

وقال آخر:

فوارسُ قوَّالونَ للخيل اقدِمى ... وليس على غيرِ الرؤوسِ مجالُ
بأيديهم سمرُ العوالى كأنّما ... تشبُّ على أطرافِهنَّ ذبالُ[٥]

وقال آخر:

قومٌ إذا اقتحمُوا العجاجَ رأيتهم ... شمسًا وخلت وجوهَهُم أقمارًا
لا يعدلونَ برِفْدِهم عن سائلٍ ... عَدَلَ الزمانُ عليهم أو جارا

---

(١) رواحًا: مساءً.
(٢) السمهرىُّ: نوع من السيوف.
(٣) دجت الحادثات: أظلمت.
(٤) رجومُ: صخور للرجم.
(٥) ذبالُ: فتائل مشتعلة.

وإذا الصَّريـــخ دعـــاهم لملمَّـــةٍ بذلـوا النفـوسَ وفـارقوا الأعمـارا

ذكر الجبن، والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم: قد استعاذ سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الجبن فقال: «اللّهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين، وقهر الرجال[1] ». نعوذ باللّه مما استعاذ منه سيد الخلق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. ويكفيك أن يقال فى وصف الجبان: إن أحس بعصفور طار فؤاده، وإن طنت بعوضة طال سهاده، يفزع من صرير الباب، ويقلق من طنين الذباب، أن نظرت إليه شزرًا أغمى عليه شهرًا، يحسب خفوق الرياح قعقعة الرمال قال الشاعر:

إذا صوَّت العصفـورُ طـار فـؤادُهُ وليثٌ حديـدُ النـابِ عنـد الـثرائدِ

وكان حسان بن ثابت رضى اللّه عنه من الجبناء. روى عن ابن الزبير أنه قال: كان حسان فى قاع أطم مع النساء يوم الخندق، فأتاهم فى ذلك اليوم يهودى يطوف بالحصن، فقالت صفية بنت عبد المطلب رضى اللّه عنها: يا حسان إن هذا اليهودى كما ترى يطوف بالحصن، وأنى واللّه ما آمنه أن يدلَّ على عوراتنا مَنْ وراءه من اليهود، فأنزل إليه فاقتله، فقال: يغفر اللّه لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قال: فاعتجرت صفية ثم أخذت عمودًا ونزلت من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ورجعت إلى الحصن. فقالت: يا حسان قم إليه فاسلبه؛ فإنه ما منعنى من سلبه إلا أنه رجل. فقال: ما لى بسلبه من حاجة.

وقيل: كان لفتى من قريش، جارية مليحة الوجه، حسنة الأدب، وكان يحبها حبًّا شديدًا فأصابته إضاقة وفاقة، فاحتاج إلى ثمنها فحملها إلى العراق وكان ذلك فى زمن الحجاج بن يوسف، فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة، فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه فأنزله قريبًا منه، وأحسن إليه، فدخل على الحجاج والجارية تكبسه، وكان الفتى جميلاً، فجعلت الجارية تسارقه النظر، ففطن الحجاج بها فوهبها له، فأخذها وانصرف فباتت معه ليلتها وهربت بغلس[2] فأصبح لا يدرى أين هى. وبلغ الحجاج ذلك فأمر مناديًا أن ينادى برئت الذمة ممن رأى وصيفة، من صفتها كذا وكذا، ولم يحضرها، فلم يلبث أن أتى له بها. فقال لها الحجاج. يا عدوة اللّه، كنت عندى من أحب الناس إلىّ، فاخترت لك ابن عمى شابًا حسن الوجه، ورأيتك تسارقينه النظر، فعلمت أنك شغفت به، فوهبتك له، فهربت من ليلتك. فقالت: يا سيدى، اسمع قصتى ثم اصنع بى ما شئت. قال: هاتى ولا تخفى شيئًا.

قالت: كنت للفتى القرشى فاحتاج إلى ثمنى فحملنى إلى الكوفة، فلما قربنا منها دنا منى فوقع علىَّ، فسمع زئير الأسد فوثب واخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله وأتى برأسه. ثم اقبل علىّ وما برد ما عنده، ثم قضى حاجته. وإن ابن عمك هذا الذى اخترته لى لما أظلم الليل قام إلىّ، فلما علا بطنى وقعت فارة من السقف، فضرط ثم غشى عليه. فمكث زمانًا طويلاً وأنا أرش عليه الماء وهو لا يفيق. فخفت أن يموت فتتهمنى به، فهربت فزعًا منك، فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك، وقال: ويحك، اكتمى هذا، ولا تعلمى به أحدًا، قالت: على أن لا تردنى إليه، قال: لك ذلك.

وحدّث جار لأبى حنيفة النميرى قال: كان لأبى حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق، وكان يسميه لعاب المنية، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه[3] وهو واقف على باب بيته، وقد سمع حسًّا فى داره وهو يقول: أيها

---

(١) أخرجه: أبو داود فى الصلاة ١٥٥٥.

(٢) الغلس: ظلمة آخر الليل.

(٣) انتضاه: استله كهيئة المبارز.

المغتر بنا، المجترئ علينا، بئس واللّه ما اخترت لنفسك، خير قليل، وسيف صقيل، وهو لعاب المنية، الذى سمعت به، أخرج بالعفو عنك، قبل أن أدخل بالعقوبة عليك. ثم فتح الباب على وجل فإذا كلب قد خرج فقال: الحمد للّه الذى مسخك كلبًا وكفانا حربًا.

وخرج المعتصم يومًا إلى بعض متصيداته فظهر له أسد فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه: أفيك خير يا رجل؟ قال: لا. فضحك المعتصم، وقال: قبح اللّه الجبان. ورأى الإسكندر سميًّا له، لا يزال ينهزم. فقال له: يا رجل، إما أن تغيّر فعلك، وإما أن تغيّر اسمك.

ووقع فى بعض العساكر ضجة فوثب خراسانى إلى دابته ليلجمها، فصير اللجام فى الذنب من الدهش. وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت، فناصيتك كيف طالت.

وخرج أسلم بن زرعة الكلابى فى ألفين لمحاربة أبى بلال مرداس وكان مرداس فى أربعين رجلاً، فانهزم أسلم منه، فلامه على ذلك، وذمه ابن أبى زياد، فقال: لأن يذمنى ابن أبى زياد حيًّا أحبَّ إلىَّ من أن يمدحنى ميتًا. وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومرَّ بصبيان صاحوا به: أبو بلال وراك. فكبر ذلك عليه، فشكاهم إلى ابن زياد فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه. وفى ذلك يقول بعضهم شعرًا:

يقولُ جبانُ القومِ فى حال سكرِهِ ... وقد شربَ الصهباءَ[1] هل من مبارزِ

وأين الخيولُ الأعوجيات[2] فى الوغى ... أنازِلُ منهم كلَّ مناهزِ

ففى السكر قيس وابن معدى وعامرِ ... وفى الصحو تلقاهُ كبعضِ العجائزِ

هذا ما انتهى إلينا من هذا الباب، والحمد للّه الكريم الوهاب، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطاهرين، والحمد للّه رب العالمين.

(١) الصهباءَ: الخمر.

(٢) الأعوجيات: فرسٌ أصلية.

الباب الثانى والأربعون فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول

الفصل الأول فى المدح والثناء

المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها يكون نعتًا حميدًا. وهذا يصح من المولى فى حق عبده. فقد قال اللّٰه تعالى فى حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [١]، وقال تعالى لنبيه محمد صلى اللّٰه عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٣]، إلى آخر الآية، فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة. وأما قوله صلى اللّٰه عليه وسلم: «إذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب[٤] »، فقد قال العتبى: هو المدح الباطل والكذب. وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به، وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم، ولم يبلغنا أنه حثا فى وجه مادح ترابًا. وقد مدح هو صلى اللّٰه عليه وسلم المهاجرين والأنصار رضى اللّٰه عنهم. وفى حثو التراب معنيان: أحدهما التغليظ فى الرد عليه. والثانى: كأنه يقال له: يكفيك التراب.

وكان أبو بكر الصديق رضى اللّٰه عنه إذا مدح قال: اللّٰهم أنت أعلم بى من نفسى، وأنا أعلم بنفسى منهم، اللّٰهم اجعلنى خيرًا مما يحسبون، واغفر لى ما لا يعلمون، ولا تؤاخذنى بما يقولون. ومدح سارية الديلى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم، وهو سارية الذى أمره عمر رضى اللّٰه عنه على السرية، وناداه فى خطبته بقوله: يا ساريةُ الجبلَ، فمن مدحه فى رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قوله:

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ ناقةٍ فوقَ ظَهْرِها   أبَرَّ وأوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحمَّدِ

وهو أصدق بيت قاله العرب، ومن أحسن ما مدحه به حسان رضى اللّٰه عنه قوله:

وأحسنُ منكَ لم ترَ قط عينى   وأجملُ منكَ لم تَلِدِ النِّساءُ

خلقتَ مُبرأً مِنْ كلِّ عَيْبٍ   كأنكَ قد خلقتَ كما تشاءُ

ومن أحسن ما مدحه به عبد اللّٰه بن رواحة الأنصارى رضى اللّٰه عنه قوله:

لو لم تَكُن فيه آياتٌ مُبينةٌ   كانت بديهتُه تُنبيكَ بالخَبَرِ

ولما حججتُ وزرته صلى اللّٰه عليه وسلم تطفلت على جنابه المعظم، وامتدحته بأبيات مطوّلة، وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة، تجاه الصندوق الشريف، وأنا مكشوف الرأس، وأبكى، من جملتها:

يَا سَيِّدَ السَّاداتِ جئتُكَ قاصدًا   أرجُو رِضَاكَ واحتمى بِحِمَاكَا

واللّٰهِ يا خيرَ الخلائقِ إنَّ لى   قَلبًا مَشُوقًا لا يَرُومُ سِواكا

وَوَحقِّ جَاهِكَ إننى بكَ مُغْرَمٌ   واللّٰهُ يعلمُ أننى أهْوَاكا

أنتَ الذى لولاكَ مَا خَلَقَ امرؤٌ   كَلاَّ ولا خَلَقَ الوَرَى لولاكا

أنتَ الذى مَنْ نورُكَ البَدرُ اكتسى   والشَّمسُ مُشرِقَةٌ بِنورِ بَهَاكا

(١) سورة ص: ٤٤.
(٢) سورة القلم: ٤.
(٣) سورة المؤمنون: ١ - ٢.
(٤) أخرجه: مسلم فى كتاب الزهد والرقائق ٣٠٠٢.

أنتَ الذى لمّا رُفِعْتَ إلى السَّمَا ... بكَ قد سَمَتْ وتزيَّنتْ لسُراكا[١]

أنت الذى نَاداكَ ربُّكَ مرحبًا ... ولقد دَعاكَ لِقُرْبِهِ وحَبَاكا

أنتَ الذى فينا سَألْتَ شفاعةً ... نَاداك ربُّكَ لم تكُنْ لِسواكا

أنت الذى لمّا توسَّلَ آدمُ ... من ذنبِهِ بكَ فازَ وَهُو أباكا

وبكَ الخليلُ دعا فعادَتْ نارُهُ ... بردًا وقد خمَدَتْ بنورِ سَناكا[٢]

ودعاكَ أيُّوبُ لِضُرٍّ مَسَّهُ ... فأُزيل عَنْهُ الضُّرُّ حينَ دَعَاكا

وبكَ المسيحُ أتَى بشيرًا مخبرًا ... بصفاتِ حُسْنِكَ مَادِحًا لعُلاكا

وكذاك موسى لم يَزَلْ متوسِّلاً ... بكَ فى القيامةِ مُرتَجٍ لنداكا

والأنبياءُ وكُلُّ خَلْقٍ فى الوَرَى ... والرُّسُلُ والأملاكُ تحتَ لِواكا

لكَ مُعْجزاتٌ أعْجَزَت كَلَّ الوَرَى ... وَفضَائلُ جَلَّتْ فليسَ تحاكى

نَطَقَ الذِّراعُ بسُمِّه لكَ مُعْلنًا ... والضَّبُّ قد لبَّاكَ حينَ أتاكا

والذئبُ جَاءكَ والغزَالةَ قَدْ أتَتْ ... بكَ تستجيرُ وتحتمى بحِمَاكا

وكذا الوحوشُ أتَتْ إليكَ وسَلَّمَتْ ... وَشَكَا البعيرُ إليكَ حِينَ رآكا

ودعوتَ أشْجارًا أتَتْكَ مُطيعةً ... وسَعَتْ إليكَ مجيبةً لِنداكا

والماءُ فاض براحتَيْكَ وسَبَّحَتْ ... صُمٌّ[٣] الحَصَى بالفَضْلِ فِى يُمْنَاكا

وعليكَ ظَلَّلَتِ الغَمَامَةَ فى الوَرَى ... والجِذْعُ حَنَّ إلى كَرِيمِ لَقاكا

وكذاك لا أثرَ لمشيكَ فِى الثَّرَى ... والصخرُ قد غاصَتْ به قدماكا

وشفيتَ ذا العاهاتِ من أمراضِهِ ... ومَلأت كَلَّ الأرضِ مِنْ جَدْواكا[٤]

وردَدْتَ عَينَ قتادةٍ بَعْدَ العَمَى ... وابنُ الحصين شفيتَهُ بشِفَاكا

وكذا حبيبٌ وابنُ عفرا عندما ... جَرَحَا شَفَيْتَهُما بِلَمسِ يَداكا

وعَلىٌّ مِن رَمَدٍ به داوَيْتَهُ ... فى خيبرٍ فشفى بطيبِ لماكا[٥]

وسألتَ ربَّكَ فى ابنِ جَابرٍ بَعدما ... قَد ماتَ أحياهُ وقد أرضاكا

ومسَسْتَ شاةً لأمِّ مَعْبدٍ بعدما ... نَشفتْ فَدرَّتْ من شِفا رُقْياكا[٦]

ودعَوْتَ عامَ المحلِ ربَّكَ مُعْلنًا ... فانهلّ قَطْرُ السحبِ عِندَ دُعَاكا

ودعَوْتَ كَلَّ الخلقِ فانقادُوا إلى ... دَعْواكَ طَوْعًا سامعينَ نِداكا

---

(١) وتزيَّنتْ لسُراكا: ذهب بعض الناس إلى أن المقصود هو إسراء النبى صلى الله عليه وسلم. وليس الأمر كذلك، بل الأقرب أنه مأخوذ من السرى وهو السير ليلاً، أما الإسراء فهو الرحلة الأرضية من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

(٢) بنور سناكا: نورك.

(٣) صمّ: التى لا تسمع.

(٤) جدْواكا: عطاياك.

(٥) اللمى: سمرة بالشفاء.

(٦) الرقية: الدعاء.

وخفَضْتَ دينَ الكُفرِ يا عَلَمَ الهُدَى ... ورَفَعْتَ دينَكَ فاستقامَ هُنَاكا
أعْدَاكَ عادُوا في القليبِ بجهْلِهِم ... صَرْعَى وقد حُرِمُوا الرِّضا بجفاكا
في يومِ بدرٍ قد أتتكَ ملائكٌ ... من عندِ ربِّكَ قاتلَتْ أعداكا
والفتحُ جاءَكَ يومَ فتحِكَ مكّةَ ... والنّصرُ في الأحزابِ قدْ وافاكا
هُودٌ ويونسُ من بهاكَ تجمَّلا ... وجَمالُ يُوسُفَ مِن ضياءِ سَنَاكا
قد فَقْتَ يا طه جميعَ الأنبيا ... نُورًا فسُبْحانَ الذى سَوَّاكا
واللّهِ يا ياسينُ مِثْلُكَ لم يكُنْ ... في العالمين وحقِّ مَنْ نبَّاكا
عن وصفِكَ الشعراءُ يا مُدَّثِر ... عَجَزوا وكَلّوا عَن صفاتِ عُلاكا
إنجيلُ عيسى قد أتى بكَ مُخْبِرًا ... وأتى الكتابُ لنا بمدحِ حُلاكا
ماذا يقولُ المادِحُون وما عَسَى ... أن يجمعَ الكُتّابُ مِنْ معناكا
واللّهِ لو أنَّ البحارَ مِدادُهُم ... والعُشْبُ أقلامٌ جُعِلْنَ لِذاكا
لم تقدرِ الثقلانِ تجمَعُ ذرّةً ... أبدًا وما استطاعُوا له إدراكا
لى فيكَ قلبٌ مغرمٌ يا سيِّدى ... وحشاشةٌ[1] محشوّةٌ بهواكا
فإذا سَكَتُّ ففيكَ صَمْتى كلّه ... وإذا نطَقْتُ فمادحٌ عُلياكا
وإذا سمعتُ فعنكَ قولاً طيِّبًا ... وإذا نظرتُ فلا أرى إلّاكا
يا مالكى كُنْ شافعى من فاقتى ... إنى فقيرٌ فى الورى لِغناكا
يا أكرمَ الثقلينِ يا كَنْزَ الوَرَى ... جُدْ لى بجودِكَ وارضِنى برِضَاكا
أنا طَامعٌ في الجودِ منكَ ولم يكن ... لابنِ الخطيبِ من الأنامِ سِواكا
فعساكَ تشفَعُ عند يوم حسابِهِ ... فلقد غدًا مُسْتَمسِكًا بعُراكا
ولأنتَ أكرمُ شافعٍ ومشفَّعٍ ... ومَنِ التجا لحمَاكَ نالَ وفاكا
فاجعَلْ قِراىَ شفاعةً لى فى غدٍ ... فعَسَى أرَى فى الحشرِ تحتَ لواكا
صلّى عليكَ اللّهُ يا خيرَ الوَرَى ... ما حنَّ مشتاقٌ إلى مَثْواكا
وعلى صحابَتِكَ الكرامِ جميعهم ... والتابعين وكلِّ مَنْ والاكا

وماذا عسى أن يقول المادحون في وصف مَنْ مدح اللّه تعالى، وأثنى عليه، وقد قال صلي اللّه عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[2]، واللّه لو أن البحار مدادٌ، والأشجار أقلام، وجميع الخلائق كتّاب، لما استطاعوا أن يجمعوا النزر[3] اليسير من بعض صفاته، ولكلّوا عن الأتيان ببعض بعض وصف معجزاته صلى اللّه عليه وسلم.

ومدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له: يا هذا إنه قد نهى عن مدح الرجل في وجهه. فقال: ما مدحتك ولكن ذكرتك نعم اللّه عليك لتجدد لها شكرًا. فقال له هشام: هذا أحسن من المدح، ووصله وأكرمه. وكتب رجل إلى عبد اللّه بن يحيى بن خاقان: رأيت نفسى فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر،

(١) الحشاشة: بقية النفس.
(٢) أخرجه: أحمد فى المسند ١٠٦٠٤.
(٣) النزر: القليل.

والقمر الزاهر، وأيقنت أني حيث انتهى بى القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية. فانصرفت عن الثناء عليك، إلى الدعاء لك، ووكلت الأخبار عنك إلى علم الناس بك. وقال الحرث بن ربيعة فى رجل من آل المهلب:

فتَى دهرُهُ شَطران فيمَا ينوبُهُ ... ففِى بأسِهِ شَطرٌ وفى جُودِهِ شَطْرٌ
فلا من بُغاة الخير فى عينه قذىً ... ولا من زئير الحربِ فى أذنِهِ وَقرُ[١]

وقال أعرابى لرجل: لا يُذَم بلد أنت تأويه[٢] ، ولا يُشتكى زمان أنت فيه. وكان الحجاج يستثقل زياد بن عمرو العلكى، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذى لا ينبو، وسهمك الذى لا يطيش، وخادمك الذى لا تأخذه فيك لومة لائم، فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه. وقال رجل لآخر: أنت بستان الدنيا، فقال له: وأنت النهر الذى يسقى منه ذلك البستان. وقال رجل لأبى عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة فى اللغة: أنت والله عين الدنيا. فقال له: وأنت – والله – نور تلك العين. وقال القاسم بن أمية بن أبى الصلت الثقفى:

قومٌ إذا نزل الغريبُ بدارهم ... تركُوهُ رَبَّ صواهلٍ[٣] وقيانِ
وإذا دعوتَهُم ليومِ كريهةٍ ... سدُّوا شُعاعَ الشمسِ بالفرسانِ

وقال أبو بن حاتم الطائى:

فإن تنكحى مارية[٤] الخير حاتمًا ... فما مثله فينا ولا فى الأعاجمِ
فتىً لا يزالَ الدَّهرُ أكبرَ همِّهِ ... فِكاكَ أسيرٍ، أو معونةَ غارمِ

وقال ابن حمدون فى آل المهلب:

آلُ المهلبِ مَعْشَرٌ أمجادُ ... ورثُوا المكارمَ والوفاءَ فسادوا
شادَ المهلبُ ما بنى آباؤه ... وأتى بنُوهُ ما بَناهُ فشادوا
وكذلكَ مَنْ طابَتْ مغارسُ نبتِهِ ... وبنى له الآباءُ والأجدادُ

وكان الفرزدق هجَّاء لعمر بن هبيرة. فلما سجن، ونقب له السجن، وسار هو وبنوه تحت الأرض، قال الفرزدق:

ولما رأيتُ الأرضَ قد سدَّ ظهرُها ... ولم يَبقَ إلاّ بَطنَها لك مخرجَا
دعوتُ الذى ناداه يونسُ بعدما ... ثوَى[٥] فى ثلاثٍ مظلماتٍ ففرجا

فقال ابن هبيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق هجانى أميرًا، ومدحنى أسيرًا. وقال سرى بن عبد الرحمن الرفاء فى خالد بن حاتم:

يا واحدَ العربِ الذى دانَتْ له ... قحطانُ قاطبةَ وسادَ نزارا
إنى لأرجُو إن لقيتَكَ سالماً ... أن لا أعالجَ بعدَكَ الأسفارا

---

(١) الوقر: ثقل السمع.
(٢) تأويه: تسكنه وترعاه.
(٣) صواهل: الأفراس.
(٤) هكذا وردت الرواية فى البيت، ولكن الصحيح أن زوجة حاتم الطائى هى: ماوية بنت عفير.
(٥) ثوَى: رقد.

وقال كعب بن مالك الأنصارى فى آل هاشم:

يــا آلَ هاشــم ألآلــه حبــاكُمُ ... مـا ليـس يبلغـهُ اللسـانُ المفصـلُ
قــومٌ لأصلهــم السـيادةَ كلّهــا ... قدمًــا وفرعُهُــمُ النبــىُّ المرسَــلُ

وقال الحسين بن دعبل الخزاعى:

ملـكَ الأمــورَ بجـودِهِ وحُسَـامِهِ ... شــرفًا يقــودُ عـدوَّه بزمامِــه
فأطـاعَ أمــرَ الجـودِ فــى أمْوالِـهِ ... وأطـاعَ أمــرَ اللّــه فــى أحكامِــه

وقال آخر:

يَلْقـى السـيوفَ بصـدرِهِ وبنحـرِهِ(١) ... ويقيــمُ هامتَــهُ مَقَــامَ المغفــرِ
ويقـولُ للطرفِ اصطبر لسنَى القنـا ... فعقــرت ركــنَ المجـدِ إن لم تعقـرِ
وإذا تـراءى شـخصُ ضيـفٍ مقبـلٍ ... متســربلٍ أثــوابَ محــلٍ أغــبرِ
أومـى إلى الكومــاءِ هــذا طـارقٌ ... نحرَتْنـــى الأعــداءُ إن لم تنحــرِ

وقال شاعر بنى تميم:

إذا لبســوا عمــائِمَهُم طووهَــا ... علــى كــرمٍ وإن سـفروا أنــاروا
يبيــعُ ويشــترى لهــم ســواهم ... ولكــن بالطعــانِ هُــم تجــارُ
إذا مــا كنــتَ جــار بنــى تميــمٍ ... فــأنتَ لأكــرمِ الثقلــين جــارُ

وقالت امرأة من بنى نمير وقد حضرتها الوفاة وأهلها مجتمعون: من ذا الذى يقول:

لعمــرى مــا رِمَــاحُ بنــى نُمــيرٍ ... بطَائشــةِ الصــدورِ ولا القصــارِ(٢)

قالوا: زياد الأعجم. قالت: أشهدكم أن له الثلث من مالى. وكان مالاً كثيرًا. وأثنى رجل على رجل فقال: هو أفصح أهل زمانه إذا حدّث، وأحسنهم استماعًا إذا حُدّث، وأمسكهم عن الملاحاة(٣) إذا خولف يعطى صديقه النافلة، ولا يسأله الفريضة له نفس عن الفحشاء محصورة على المعالى، مقصورة كالذهب الإبريز الذى يعز كل أوان، والشمس المنيرة التى لا تخفى بكل مكان، هو النجم المضئ للحيران، والمنهل العذب للعطشان، وقال الحسن بن هانئ:

إذا نحــنُ أثنينــا عليــكَ بصــالحٍ ... فـأنت كمـا نثنـى وفـوقَ الـذى نثنـى
وإنْ جـرَتِ الألفـاظَ يومًـا بمدحـةٍ ... لغـيرِكَ إنسـانًا فـأنتَ الـذى نَعنـى

وله فى الفضل بن الربيعَ:

لقــد نزلــتَ أبــا العبـاسِ منزلــةً ... ما أن ترى خلفَها الأبصارُ مطرحا(٤)
وكلــتَ بـالدهرِ عينًـا غـير غافلــةٍ ... بجـودِ كفِّـك تأسُـو كـلَّ مـا جرحـا

وقال زياد الأعجم فى محمد بن القاسم الثقفى:

إن المنــابرَ أصبحَــتْ مختالــةً ... بمحمـد بــن القاســم بــن محمـدِ
قـادَ الجيـوشَ لسـبعَ عشـرةَ حجـةً ... يـا قـربَ سـورةِ سـؤددٍ مـن مولـد

(١) النحر: أعلى الصدر.
(٢) القصار: أصل العنق.
(٣) الملاحاة: المراء والجدال الفارغ.
(٤) مطرحًا: منزلاً ومرمى.

ومن بدائع مدائح المتنبى قوله:

ليتَ المدائحَ تستوفى مناقبَهُ[١] فما كليبٌ وأهلُ الأعصُرِ الأولِ

خُذْ مَا تراهُ ودَعْ شَيْئًا سمعتَ بهِ فِى طَلعةِ البدرِ ما يغنيكَ عن زُحلِ

وقد وجدت مكانَ القولِ ذا سعةٍ فإن وجدتَ لِسانًا قائلاً فَقُلِ

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء فأعطاه سبعين ألفًا، وخلع عليه خُلَعًا سنيّة، حتى أنه لم يستطع أن يقوم فغار الشعراء منه. فجمعهم وقال: يا اللّه العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض، إن أحدكم يأتينا لمدحنا فيتغزل فى قصيدته بخمسين بيتًا فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره. وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال:

إنّى أمنتُ من الزمانِ وصرفهِ لَمّا علقتُ من الأمير حبالا

لو يستطيع الناسُ من إجلالهِ جعلوا له حُرَّ الوجوه نعالا

إن المطايا تشتكيكَ لأنها قطعَتْ إليك سباسبًا[٢] ورمالا

فإذا ورَدْنَ بنا ورَدْنَ خفائفًا وإذا صدَرْنَ بنا صدَرْنَ ثقالا

ووفد أبو نواس على الخصيب بمصر فأذن له وعند الشعراء، فأنشد الشعراء أشعارهم، فلما فرغوا قال أبو نواس: أنشدُ أيها الأمير قصيدة هى كعصا موسى تلقف ما صنعوا. قال: أنشد. فأنشده قصيدته التى منها قوله:

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيبِ ركابنا فأىُّ فتىً بعدَ الخصيبِ تزورُ

فتىً يشترى حُسنَ الثناء بمالِهِ ويعلمُ أنَّ الدائراتِ تدورُ

فما فاتَهُ[٣] جُودٌ ولا حَلَّ دونه ولكن يسيرُ الجودُ حيثَ يسيرُ

فاهتزَّ الخصيبُ لها طربًا، وأمر له بألف دينار، ووصيف ووصيفة.

وحكى أنا أبا دلف سار يومًا مع أخيه معقل فرأيا امرأتين تتماشيان، فقالت إحداهما للأخرى: هذا أبو دلف: قالت: نعم، الذى يقول فيه الشاعر:

إنما الدنيا أبو دلفٍ بين باديةٍ ومحتضره

فإذا ولّى أبو دُلفٍ وَلّتِ الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه. فقال له معقل: ما لك يا أخى تبكى؟ فقال: لأنى لم أقض حق الذى قال هذا. قال: أو لم تعطه مائة ألف درهم؟ قال: واللّه ما فى نفسى حسرة إلا لكونى لم أعطه مائة ألف دينار. ويقال: هذه المدحة فأين المنحة؟

قال بعضهم:

إذا ما المدحُ صارَ بلا نوالِ من الممدوحِ كان هو الهجاءُ

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش محمد بن نصر صاحب حلب فأجازه بألف دينار. ثم مات محمد بن نصر، وقام ولده نصر مقامه، فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها:

تباعَدْتُ عنكم حُرمةَ لا زهادةً وسِرْتُ إليكم حين مسَّنىَ الضُّرُّ

---

(١) مناقبَهُ: حسناته.

(٢) سباسبا: مسافات بعيدة.

(٣) ويروى أيضًا: فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

فجادَ أبو نصرٍ بألفٍ تصرَّمت ... وأنى عليمٌ أنْ سيخلفها نصرُ

فلما فرغ من إنشادها قال نصر: والله لو قال: سيضاعفها نصر لاضعفتها له، وأعطاه ألف دينار فى طبق من فضة. ومدح بعض الشعراء، وقيل: هو البديع الهمذانى إنسانًا فقال:

يكادُ يحيكه صَوبَ الغيثِ منسكبًا ... لو كان طلقَ المحيا يمطرُ الذهبا
والدهرُ لو لم يَخُنْ والشمسُ لو ... والليثَ لو لم يُصِد والبحرُ لو عَذُبا

وقال آخر:

أخو كرمٍ يُفضى الورى من بساطِهِ ... إلى روضِ مجدٍ بالسماحِ محُودِ
وكم لجباهِ الراغبين لدَيْهِ من ... مجالِ سجودٍ فى مجالسِ جودِ

ويقال: فلان رفيق الجود ودخيله، وزميل الكرم ونزيله، وغرة الدهر وتحجيله، مواهبه الأنواء، وصدره الدهناء، عونه موقوف على اللّهيف، وغوثه مبذول للضعيف، يطفو جوده على موجوده، وهمته على قدرته، ينابيع الجود تتفجر من أنامله، وربيع السماح يضحك عن فواضله، إن طلبت كريمًا فى جوده، متْ قبل وجوده، أو ماجدًا فى أخلاقه متْ و لم تلاقه، باسل تعوَّد الإقدام، حيث تزل الأقدام، وشجاع يرى الإحجام[1] عارًا لا تمحوه الأيام، له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته وصفّى كدورته، خلق كنسيم الأسحار على صفحات الأنهار، وأطيب من زمن الورد فى الأيام، وأبهج من نور البدر فى الظلام، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته، ويؤلف الآراء المشتتة فى مودته، هو ملح الأرض إذا فسدت، وعمارة الدنيا إذا خرجت. يحلّ دقائق الإشكال، ويزيل جلائل الأشكال. البيان أصغر صفاته، والبلاغة عنوان خطراته، كأنما أوحى التوفيق إلى صدره، وحبس الصواب بين طبعه وفكره، فهو يعبث بالكلام ويقوله بألين زمام، حتى كأن الألفاظ تتحاسد فى التسابق إلى خواطره، والمعانى تتغاير فى الإمتثال لأوامره، يوجز فلا يخل، ويطنب فلا يمل، كلامه يشتد مرة حتى تقول: الصخر أو أيبس، ويلين تارة حتى تقول: الماء أو أسلس. فهو إذا أنشأ وَشَى، وإذا عبرَّ حبّر، وإذا أوجز أعجز، تاهت به الأيام، وباهت فى يمينه الأقلام، له أدب لو تصوّر شخصًا لكان بالقلوب مختصًا قال الشاعر:

له خَلّقٌ على الأيامِ يصفَو ... كما تصفَو على الزمن العقار[2]

وقال آخر:

لو كان يحوى الروضُ ناضرَ خَلقِهِ ... ما كان يذبلُ نورُهُ بشتائه
أو قابَلَ الأفلاكَ طالعُ سعدِهِ ... ما صارَ نحسٌ فى نجومِ سمائه

وقال آخر:

ووجَهُك بدرٌ فى الغياهِب[3] مُشْرقٌ ... وكفّك فى شُهُب السنين غَمَامُ
عجيبٌ لبدرٍ لا يزالُ أمامَهُ ... سحابٌ ولا يغشاهُ منه ظلامُ
وأعجبُ من هذا غمامٌ إذا سطا ... تلظّى مكانَ البرقِ منه حسامُ

وقال الحسين بن مطير الأسدى:

له يومُ بؤسٍ فيه للناسِ أبؤسٌ ... وَيَومُ نِعَيمِ فيه للنّاسِ أنّعُمُ

(١) الإحجام: النكوص والتردد.
(٢) العقار: الخمر العتيقة.
(٣) الغياهب: الظلمات.

فيمطرُ يومَ الجودِ من كفِّهِ الندى ويُمْطِرُ يومَ البؤسِ من كفِّهِ الدَّمُ
فلو أن يومَ البؤسِ خلّى عقابَهُ على النّاس لَم يُصْبِحْ على الأرض
ولو أن يومَ الجودِ خلّى يمينه عنِ المالِ لم يُصْبِحْ عَلَى الأَرضِ معدمُ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

واللّه ما عَجَبى لقدرِكَ إنّه قدَرٌ على باغى مداهُ بعيدُ
إلاّ لكَوْنِكَ لستَ تشكو وحشةً فى هذِهِ الدنيا وأنتَ وحيدُ

ولصفى الدين الحلى:

أثنى فتثينى[1] صفاتُك مظهرًا عيًّا وكم أعيت صفاتُك خاطبًا
لو أننى والخلقَ جمعاً ألسُن نثنى عليكَ لما قضَيْنا الواجبا

وللشيخ برهان الدين القيراطى:

أوصَافُكم تجرى أحاديثُها مَجرَى النجومِ الزُّهرِ فى الأُفقِ
كَمَا أحاديثُ النّدَى عنكم تَسْندُها الركبانُ من طُرُق

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

رَوَتْ عَنْك أخبارُ المعالى مَحاسنا كَفَت بِلِسانِ الحالِ الحالِ عن ألسنِ
فوجهُك عن بِشرٍ وكفّك عن عَطَا وخلقُك عن سَهْلٍ ورأيُك عن سِعْدِ

وقال غيره:

من زارَ بابَك لم تبرَحْ جوارحُهُ تروى أحاديثَ ما أولَيْتَ من مننِ
فالعينُ عن قُرَّةٍ والكفُّ عن صلةٍ والقلبُ عن جابرٍ والسَّمْعُ عن حُسْنِ

ولأبى فراس بن حمدان:

لَئِنْ خَلقَ الأنامُ لحَبِّ كاسٍ ومِزْمارٍ وطنبورٍ وعُودِ
فلم يُخْلَقْ بنو حمدانَ إلاّ لمجْدٍ أو لبأسٍ أو لجُودِ

وقال آخر:

إنّ الهِباتِ التى جَادَ الكرامُ بها مطروقةٌ ونَدَى كفّيكَ مُبْتكَرُ
مَا زِلتَ تَسبقُ حتّى قال حاسدُكم له طريقٌ إلى العلياءِ مختصرُ

ولمحمد بن مناذر فى آل برمك:

أتانا بنو الأملاكِ من آل برمكٍ فيا طيبَ أخبارٍ وأحسنَ منظرِ
لهم رحلةٌ فى كلِّ عامٍ إلى النّدا وأخرَى إلى البيتِ العتيقِ المنّورِ
إذا نزلوا بَطْحاءَ[2] مكّةَ أشرقَتْ بيحيى وبالفضلِ بن يحيى وجعفرِ
فما خلِقَتْ إلاّ لجُودٍ أكفّهُم وأقدامُهم ألاّ لِسِعي مظفّرِ
إذا رام يحيى الأمرَ ذلّتْ صعابُه وناهيكَ من راعٍ له ومُدَّبرِ

(١) أثنى: أطرى. وتثينى: تمنعنى.
(٢) البطحاء: مسيل مكة وواديها.

ولما عزل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون، وأنشده:

ليت شِعرى أى قومٍ أجدبوا ... فأغيثوا بك من بعد العجفْ
نظر اللّهُ لهم من بيننا ... وحُرِمْناك بذنبٍ قد سَلَف
يا أبا إسحاق سِر فى دعة[1] ... وامض مصحوبًا فما منك خلفْ
إنما أنت ربيعٌ باكرٌ ... حيثَما صَرَّفه اللّه انصرفْ

وقال آخر:

لو كان يقْعَدُ فوقَ الشمسِ من كرمٍ ... قومٌ لقيل اقعدوا يا آل عبَّاس
ثم ارتقوا فى شعاع الشمس وارتفِعُوا ... إلى السَّماءِ فأنتم سَادةَ النّاس

وللحسن بن مطير الأسدى فى المهدى:

لو يعبدُ الناسُ يا مهدىُّ أفضلَهُم ... ما كان فى الناسِ إلا أنتَ معبودُ
أضحَتْ يمينَك من جُودٍ مصوَّرَةً ... لا بل يمينَك منها صُوّر الجودُ
لو أن من نورهِ مثقالَ خردلةٍ ... فى السودِ طَرًّا إذَنْ لابيضَّتِ السُّودُ

وقال آخر:

أولَيْتَنى نعمًا وفضلاً زائدًا ... وبررتَنى حتى رأيتك والدا
أقسَمْتُ لو جاز السجودُ لمنعمٍ ... ما كنتُ إلا راكعًا لك ساجدا

وقال آخر:

ثناؤك فى الدنيا من المسك أعطرُ ... وحظك فى الدنيا جزيلٌ موقرُ
وكفّك بحرٌ والأناملُ أنهرٌ ... رعى اللّه كفّا فيه بحرٌ وأنهرُ
أعيذُك بالرحمنِ من كلِّ حاسدٍ ... فلا زالَتِ الحسَّادُ تغبى[2] وتصغرُ
لسانى قصيرٌ فى مديحِكَ سيدى ... لأنى فقيرٌ والفقيرُ مقصرُ

الفصل الثانى فى شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من اللّه عز وجل، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السماوات والأرض إلاّ وبدايتها من اللّه تعالى حتى يكون الشكر للّه عن نفسك وعن غيرك والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾[3] أى أيقنوا أنها من اللّه. وقيل: الشكر معرفة العجز عن الشكر. وقد روى أن داود عليه السلام قال: إلهى كيف أشكرك، وشكرى لك نعمة من عندك. فأوحى اللّه تعالى إليه: الآن قد شكرتنى. وفى هذا يقال: الشكر على الشكر أتم الشكر. ولمحمود الوراق:

إذا كانَ شُكرى نعمةَ اللّه نعمةَ ... علىّ له فى مِثْلها يجبُ الشُّكرُ

---

(١) دعة: هناءة.

(٢) تغبى: تظهر غبية.

(٣) سورة النحل:٥٣.

فكيـف بلـوغَ الشـكرِ إلا فضلِـهِ وإنْ طـالَتِ الأيَّـامُ واتَّصَـلَ العمـرُ
إذا مـسَّ بالسـراءِ[١] عـمَّ سـرورُها وإنْ مـسَّ بـالضرَّاءِ أعقبَهـا الأجـرُ
فمـا منهمـا إلاَّ لـهُ فيـهِ نعمـةٌ تضيقُ بهـا الأوهـامُ والسـرُّ والجهـرُ

وفى مناجاة موسى عليه السلام: إلهى خلقت آدم بيدك، وفعلت وفعلت فكيف أشكرك؟ فقال: اعلَمْ أن ذلك منى فكانت معرفته بذلك شكره لى.

وأما شكر اللسان فقد قال اللّه تعالى فيه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٢] ويروى عن النعمان بن بشير رضى اللّه عنه أنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر اللّه، والتحدث بالنعم شكر». وقال عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه: تذكروا النعم فإن ذكرها شكر. وأما الشكر الذى فى الجوارح. فقد قال اللّه تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[٣] الآية فجعل العمل شكرًا.

وروى أن النبى صلى اللّه عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: يا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، أتفعل هذا بنفسك، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا للّه شكورًا؟!» وقال أبو هارون: دخلت على أبى حازم فقلت له: يرحمك اللّه، ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيرًا ذكرته، وإذا رأيت بهما شرًّا سترته. قلت: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيرًا حفظته، وإذا سمعت بهما شرًّا نسيته. وفى حكمة إدريس عليه الصلاة والسلام: لن يستطيع أحد أن يشكر اللّه على نعمه بمثل الإنعام على خلقه ليكون صانعًا إلى الخلق، مثل ما صنع الخالق إليه، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من اللّه تعالى عليك فأدم مواساة الفقراء.

وقد وعد اللّه تعالى عباده بالزيادة على الشكر. فقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٤] وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر، فإذا رأينا الغنى يشكر اللّه تعالى بلسانه ومالُهُ فى نقصان، علمنا أنه قد أخلَّ بالشكر، إمّا إنه لا يزكى ماله، أو يزكيه لغير أهله، أو يؤخره عن وقته، أو يمنع حقًا واجبًا عليه من كسوة عريان، أو إطعام جائع أو شبه ذلك فيدخل فى قول النبى صلى اللّه عليه وسلم: «لو صدق السائل ما أفلح مَنْ ردَّه». قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٥] وإذا غيرَّوا ما بهم من الطاعات غيَّر اللّه ما بهم من الإحسان. وقال بعض الحكماء: مَنْ أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة. ومَنْ أعطى المشورة لم يمنع الصواب. وقال المغيرة بن شعبة: اشكرْ مَنْ أنعم عليك، وأنعِمْ على مَنْ شكرك فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت. وكان الحسن يقول: ابنَ آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن بها.

كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلاَّ لى إلى ما هو أعظم منها.

وروى أن عثمان بن عفان رضى اللّه عنه دعى إلى أقوام ليأخذهم على ريبة فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان، فأعتق رقبة شكرًا للّه تعالى إذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم.

---

(١) السراء: الخير والسرور.
(٢) سورة الضحى: ١١.
(٣) سورة سبأ: ١٣.
(٤) سورة إبراهيم: ٧.
(٥) سورة الرعد: ١١.

ويروى أن نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام: يا نبيّ اللّه أنا على قدرى أشكر للّه منك. وكان راكبًا على فرس ذلول[١] فخر ساجدًا للّه تعالى، ثم قال: لولا أنى أبجلك لسألتك أن تنزع منى ما أعطيتني. وقال صدقة بن يسار: بينما داود عليه السلام فى محرابه إذا مرت به دودة فتفكر فى خلقها، وقال: ما يعبأ اللّه بخلق هذه، فأنطقها اللّه تعالى له، فقالت: يا داود تعجبك نفسك، وأنا على قدر ما آتانى اللّه تعالى أَذْكَرُ للّه وأَشْكَرُ له منك على ما آتاك. وقال على رضى اللّه عنه: احذروا نفار النعم فما كل شارد[٢] مردود. وعنه عليه السلام: «إذا وصلَتْ إليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقلة الشكر». وقيل: إذا قصرت يداك على المكافأة فليطل لسانك بالشكر. وقال حكيم: الشعر ثلاثة منازل: ضمير القلب، ونشر اللسان، ومكافأة اليد. قال الشاعر:

أفادَتْكُمُ النعماءُ منى ثلاثة ... يَدِى ولسانى والضميرَ المحجبا

وقال ابن عائشة: كان يقال: ما أنعم اللّه على عبد نعمة فظلم بها إلا أن كان حقًا على اللّه تعالى أن يزيلها عنه، وأنشد أبو العباس بن عمارة فى المعنى:

أعاركَ مالَه لتقومَ فيهِ ... بواجبِهِ وتقضى بعضَ حقّه

فلم تقصُدْ لطاعتِهِ ولكنْ ... قويتَ على معاصيه برزقه

وقال آخر:

ولو أن لى فى كل منبتِ شعرةٍ ... لسانًا يُطيل الشكر كنت مقصرا

وقال محمد بن حبيب الراوية: إذا قل الشكر خسر المنّ. وروى: إذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان. وسئل بعض الحكماء: ما أضيع الأشياء؟ قال: مطر الجود فى أرض سبخة لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها، وسراج يوقد فى الشمس، وجارية حسناء تزف إلى أعمى، وصنيعة تسدى إلى من لا يشكرها.

وقال عبد الأعلى بن حماد: دخلت على المتوكل فقال: يا أبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الأمور. فقلت: يا أمير المؤمنين بلغنى عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة. وأنشدته:

لأشكرَنْ لكَ معروفًا همَمْتَ بهِ ... فإنّ هَمَّكَ بالمعروفِ معروفُ

ولا ألومُكَ إن لم يمضِهِ قدرٌ ... فالشرُّ بالقدرِ المحتومِ مصرُوفُ

وقال أبو فراس بن حمدان:

وما نعمةٌ مكفورةٌ قد صنعتها ... إلى غير ذى شكرٍ تمانعنى أخرى

سآتى جميلاً ما حَييتُ فإننى ... إذا لم أفِدْ شكرًا أفَدْتُ به أجرًا

وقال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: من امتطى الشكر بلغ به المزيد. وقيل: مَنْ جعل الحمد خاتمة النعمة جعله اللّه فاتحة للمزيد. وقال ابن السماك: النعمة من اللّه تعالى على عبده مجهولة. فإذا فقدت عرفت. وقيل: مَنْ لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها. وكان يقال: إذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تميمة[٣] . وقال حكيم: لا تصطنعوا ثلاثة: اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة[٤] ، والفاحش فإنه يرى أن الذى صنعته إليه إنما هو لمخافة فحشه، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه. وإذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف، واحصد الشكر. ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده، فقال: ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة:

أمسلمةَ يا فخر كلِّ خليفةٍ ... ويا فارسَ الدنيا ويا جبلَ الأرضِ

---

(١) فرس ذلول: فرس سهل القيادة.
(٢) شارد: تائه.
(٣) تميمة: رقية وحرز.
(٤) الأرض السبخة: المالحة لا تصلح لزرع.

شكرتَكَ إنَّ الشكرَ دَيْنٌ عَلَى الفتَى وما كَلُّ مَنْ أوليتَهُ نِعْمةَ يقضى
وأحييت لى ذكرى وما كان خاملاً ولكنَّ بعض الذكرِ أنبَهُ من بعضِ

وسمعه الرشيد، فقال: هكذا يكون شعر الإشراف؛ مدح صاحبه و لم يضع نفسه. وعن نصر بن سيّار عن عكرمة عن ابن عباس رضى اللّه عنهما عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «مَنْ أنعم علي رجل نعمة فلم يشكر له فدعا عليه استجيب له». ثم قال نصر: اللّهم إنى أنعمت على بنى سام فلم يشكروا اللّهم اقتلهم، فقتلوا كلهم. وعن علي ابن الحسين رضى اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إن المؤمن ليشبع من الطعام فيحمد اللّه تعالى فيعطيه من الأجر ما يعطى الصائم القائم، إن اللّه شاكر يحب الشاكرين». وعن محمد بن على: ما أنعم اللّه عليه، إن شاء غفر له، وإن شاء أخذه قبل أن يستغفره، إلا غفر اللّه له قبل أن يستغفره. وأولى رجل رجلاً إعرابيًا خيرًا فقال: لا أبلاك اللّه ببلاء يعجز عنه صبرك. وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأنشد بعضهم وأجاد:

سأشكرُ لا أنى أجَازيكَ منعمًا بشكرى ولكِنْ كى يزادَ لكَ الشكرُ
وأذكر أيامًا لدىَّ اصطنَعْتَهَا[1] وآخر ما يبقى على الشاكرِ الذكرُ

وقال آخر:

أوليتَنى نعمًا أبوحُ بشكرها وكفيتَنى كَلَّ الأمورِ بأسْرِها
فلأشكرَنَّك ما حييت وإن أمت فَلّتشكرَنّكَ أعْظَمى فى قبرِها

وقال آخر:

أيا ربُّ قد أحسَنْتَ عودًا وبدأةً إلىَّ فلم ينهَضْ بإحسانِكَ الشكرُ
فمَنْ كانَ ذا عُذْرٍ لديكَ وحُجَّةٍ فَعُذرى إقرارى بأنْ ليسَ لى عُذرُ

وقال محمود الوراق:

إلهى لك الحمدُ الذى أنت أهلَهُ على نِعَمٍ ما كنتُ قطّ لها أهلا
إن ازددتُ تقصيرًا تَزِدْنى تفضُّلاً كأنّى بالتقصيرِ استوجبُ الفضلا

وقد أحسن نصيب فى وصف الثناء والشكر بقوله:

فعاجُوا وأثنوا بالذى أنتَ أهلَهُ ولو سَكَتُوا أثْنَتْ عليكَ الحَقَائبُ

وقال رجل من غطفان:

الشكرُ أفضلُ ما حاولتُ ملتمسًا به الزيادةَ عندَ اللّه والناسِ

قيل: أشكر المنعم عليك، وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة.

الفصل الثالث فى المكافأة

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له». ولما قدم وفد النجاشى على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قام يخدمهم بنفسه. فقيل له: يا رسول اللّه، لو تركتنا كفيناك. فقال: كانوا لأصحابى مكرمين. وقيل: أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فقال:

أذكر صنيعى إذا فاجاكَ[1] ذو سفهٍ يومَ السقيفةِ والصدِّيقُ مشغولُ

---

(١) اصطنَعْتَهَا: أنعمت فيها علىَّ.

فقال عمر بأعلى صوته: ادن منى فدنا منه، فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس، وقال: ألا إن هذا ردّ عنى سفيهًا من قومه يوم السقيفة. ثم حمله على نجيبٍ وزاد فى عطائه، وولاه صدقة قومه وقرأ: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾(٢) . وقال رجل لسعيد بن العاص وهو أمير الكوفة: يدى عندك بيضاء. قال: وما هى؟ قال: كبت بك فرسك فتقدمت إليك قبل غلمانك فأخذت بعضدك وأركبتك وأسقيتك ماء. قال: فأين كنتَ إلى الآن؟ قال: حجبت عن الوصول إليك. قال: قد أمرنا لك بمائتى ألف درهم، وبما يملكه الحاجب إذا حجبك عنّا.

وقال: قطرى بن الفجاءة لخارجى أسره الحجاج ثم منّ عليه فأطلقه، عاود قتال عدوّ اللّه. فقال: هيهات شد يدًا مطلقها، وأرق رقبة معتقها. ثم قال:

أأقاتل الحجاجَ عن سلطانِهِ ... بيدٍ تقرُّ بأنها مولاتُهُ
ماذا أقولُ إذا وقفتُ إزاءَهُ ... فى الصَّفِّ واحتَجَّتْ له فعلاتُهُ
أأقولُ جارَ علىَّ لا إنى إذًا ... لأحقُّ مَنْ جارت عليه ولاتُهُ
ويحدِّث الأقوامُ أنَّ صنائعًا ... عرست لدىّ فحنظلَتْ نخلاتُهُ(٣)

واجتاز الشافعى رحمه اللّه تعالى بمصر فى سوق الحدادين فسقط سوطه، فقام إنسان فأخذه ومسحه وناوله إياه. فقال لغلامه: كم معك؟ قال: عشرة دنانير. قال: ادفعها إليه، واعتذر له. واستنشد عبد الملك عامر الشعبى فأنشده لغير ما شاعر، حتى أنشد لحسّان:

مَنْ سرَّهُ شَرَفَ الحياةِ فلمْ يزَلْ ... فى عُصبةٍ من صَالحى الأنْصَارِ
البائعينَ نفوسَهُم لنبيِّهم ... بالْمشرفىِّ(٤) وبالقَنَا الخطَّارِ
الناظرينَ بأعينٍ مُحمَرَّةٍ ... كالجمْرِ غيرِ كليلةِ الأبصارِ

فقام أنصارى فقال: يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلة، علىّ له ستون من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها. فقال عبد الملك: وله عندى ستون ألفًا، وستون من الإبل.

وعن علىّ كرم اللّه وجهه: أحسنوا فى عقب غيركم تحفظوا فى عقبكم. وقال المدائنى: رأيت رجلاً يطوف بين الصفا والمروة على بغلة، ثم رأيته ماشيًا فى سفر فسألته عن ذلك فقال: ركبت حيث يمشى الناس فكان حقًا على اللّه أن يرجلنى(٥) حيث يركب الناس.

ومما جاء فى المكافأة: ما حكى عن الحسن بن سهل قال: كنت يومًا عند يحيى بن خالد البرمكى، وقد خلا فى مجلسه لإحكام أمر من أمور الرشيد. فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم، ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياما أحمد بن أبى خالد الأحول. فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه، وقال: يا بنى، إن لأبيك مع أبى هذا الفتى حديثًا فإذا فرغت من شغلى هذا فذكرنى أحدثك به، فلما فرغ من شغله وطعم، قال له ابنه الفضل: أعزك اللّه يا أبى أمرتنى أن أذكرك حديث أبى خالد الأحول. قال: نعم يا بنىّ، لما قدم أبوك من العراق أيام المهدى كان فقيرًا لا يملك شيئًا، فاشتد بى الأمر إلى أن قال لى مَنْ فى منزلى: إنا قد كتمنا حالنا، وزاد ضررنا، ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شئ نقتات به. قال: فبكيت يا بنىّ لذلك بكاء شديدًا، وبقيت ولهان حيران مطرقًا مفكرًا، ثم تذكرت منديلاً كان عندى، فقلت لهم: ما حال المنديل؟ فقالوا: هو باق

---

(١) فاجاك: فاجأكَ سفيه.
(٢) سورة الرحمن: ٦٠.
(٣) نخلاتُهُ: صارت كالحنظل المر.
(٤) المشرفىّ: السيف.
(٥) يرجلنى: ينزع مطيتى وأمضى على قدمى.

عندنا. فقلت: ادفعوه إلىّ. فأخذته ودفعته إلى بعض أصحابى، وقلت له: بعه بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهمًا دفعتها إلى أهلى، وقلت: انفقوها إلى أن يرزق الله غيرها. ثم بكرت من الغد إلى باب أبى خالد وهو يومئذ وزير المهدى، فإذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه، فخرج عليهم راكبًا، فلما رآنى سلّم علىّ، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلاً بسبعة عشر درهمًا! فنظر إلىّ نظرًا شديدًا وما أجابنى جوابًا فرجعت إلى أهلى كسير القلب، وأخبرتهم بما اتفق لى مع أبى خالد. فقالوا: بئس والله ما فعلت توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل، فكشفت له سرك، وأطلعته على مكنون أمرك، فأزريت عنده بنفسك، وصغّرت عنده منزلتك، بعد أن كنت عنده جليلاً، فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين. فقلت: قد قضى الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه. فلما كان من الغدّ بكرت إلى باب الخليفة، فلما بلغت الباب استقبلنى رجل، فقال لى: قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين. فلم ألتفت لقوله. فاستقبلنى آخر فقال لى كمقالة الأول، ثم استقبلنى حاجب أبى خالد فقال لى؟ أين تكون؟ قد أمرنى أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين. فجلست حتى خرج. فلما رآنى دعانى، وأمر لى بمركوب. فركبت وسرت معه إلى منزله. فلما نزل قال: علىّ بفلان وفلان الحناطين[1] ، فأُحضرا فقال لهما: ألم تشتريا منى غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم؟ قالا: نعم، قال: ألم أشترط عليكما شركة رجل معكما؟ قالا: بلى، قال: هو الرجل الذى اشترطت شركته لكما. ثم قال لى: قم معهما. فلما خرجنا قال لى: أدخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك فى أمر يكون له فيه الربح الهنئ. فدخلنا مسجدًا فقالا لى: إنك تحتاج فى هذا الأمر إلى وكلاء، وأمناء، وكيالين، وأعوان، ومؤن لم تقدر منها على شئ، فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله لك فتنتفع به، ويسقط عنك التعب والكلف، فقلت لهما: وكم تبذلان لى؟ فقالا: مائة ألف درهم. فقلت: لا أفعل. فما زالا يزيدانى، وأنا لا أرضى إلى أن قالا لى: ثلثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا. فقلت حتى أشاور أبا خالد قالا: ذلك لك. فرجعت إليه، وأخبرته فدعا بهما، وقال لهما: هل وافقتماه على ما ذكر؟ قالا: نعم. قال: اذهبا فاقبضاه المال الساعة. ثم قال لى: أصلح أمرك، وتهيأ فقد قلدتك العمل. فأصلحت شأنى وقلدنى ما وعدنى به، فما زلت فى زيادة حتى صار أمرى إلى ما صار. ثم قال لولده الفضل: يا بنىّ فما تقول فى ابن من فعل بأبيك هذا الفعل، وما جزاؤه؟ قال: حق لعمرى وجب عليك له. فقال والله يا ولدى ما أجد له مكافأة غير أنى أعزل نفسى وأوليه. ففعل ذلك رضى الله عنه، وهكذا تكون المكافأة.

ومن ذلك ما حكى عن العباس صاحب شرطة المأمون، قال: دخلت يومًا مجلس أمير المؤمنين. وكان بين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رآنى قال لى: عباس. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه، واحتفظ به، وبكّرْ به إلىّ فى غدٍ، واحترز[2] عليه كل الاحتراز، قال العباس: فدعوت جماعة فحملوه، ولم يقدر أن يتحرك. فقلت فى نفسى: مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معى فى بيتى. فأمرتهم فتركوه فى مجلس لى فى دارى. ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله، ومن أين هو؟ فقال: أنا من دمشق. فقلت: جزى الله دمشق وأهلها خيرًا، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: أتعرف فلانًا؟ قال: ومن أين تعرف هذا الرجل؟ فقلت: وقع لى معه قضية. فقال ما كنت بالذى أعرفك بخبره حتى تعرفنى قضيتك معه. فقلت: ويحك! كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالى تدلى فى زنبيل من قصر الحجاج، وهرب هو وأصحابه، وهربت فى جملة القوم، فبينما أنا هارب فى بعض

(١) الحناط: المشتغل بالحنطة.

(٢) احترز: احتط فى حفظه.

الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي، فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم، فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثنى أغاثك الله. قال: لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت، فقالت زوجته: أدخل تلك المقصورة فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون: هو والله عندك، فقال: دونكم الدار فتشوها، ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها. فقالوا: هو ههنا. فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة، وأنا قائم أرجف ما تحملنى رجلاى من شدة الخوف. فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك. فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرهم. وصرت إلى الأمن والدعة[1] إن شاء الله تعالى. فقلت له: جزاك الله خيرًا، فما زال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لى مكانًا فى داره، ولم يحوجنى إلى شىء، ولم يفتر عن تفقد أحوالى. فأقمت عنده أربعة أشهر فى أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت، وزال أثرها فقلت له: أتأذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى، فلعلى أقف منهم على خبر؟ فأخذ علىّ المواثيق بالرجوع إليه. فخرجت، وطلبت غلمانى فلم أر لهم أثرًا، فرجعت إليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كلّه لا يعرفنى، ولا يسألنى، ولا يعرف اسمى، ولا يخاطبنى إلا بالكنية. فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد. فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج، وها أنا ذا قد أعلمتك، فقلت له: إنك تفضلت علىّ هذه المدة ولك علىّ عهد الله أنى لا أنس لك هذا الفضل، ولأوفينك مهما استطعت. قال: فدعا غلامًا له أسود، وقال له: أسرج الفرس الفلانى، ثم جهّز آلة السفر، فقلت فى نفسى: أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحى، فأقاموا يومهم ذلك فى كدّ وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاءنى السَّحَر، وقال لى: يا فلان، قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها، فقلت فى نفسى: كيف أصنع وليس معى ما أتزود به ولا ما أكرى[2] به مركوبًا؟ ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس، وخفين جديدين، وآلة السفر ثم جاءنى بسيف ومنطقة فشدهما فى وسطى، ثم قدّم بغلاً فحمل عليه صندوقين، وفوقهما فرش، ودفع إلىّ نسخة ما فى الصندوقين، وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدم إلىّ الفرس الذى كان جهزه، وقال: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك. وأقبل هو وامرأته يعتذران إلىّ من التقصير فى أمرى، وركب معى يشيعنى، وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأفى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته، واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرغ أن أكشف خبره، وأنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له، ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه، بلا كلفة عليك، ولا مؤنة تلزمك. فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضرّ الذى أنا فيه غيّر عليك حالى، وما كنت تعرفه عنى، ثم لم يزل يذكر لى تفاصيل الأسباب حتى أثبتُّ معرفته، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه، ثم قلت له: فما الذى أصارك إلى ما أرى؟ فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك فنسبت إلىّ، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد، وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت، وبعث بى إلى أمير المؤمنين وأمرى عنده عظيم، وخطبى لديه جسيم، وهو قاتلى لا محالة، وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية، وقد تبعنى من غلمانى من ينصرف إلى أهلى بخبرى، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل مَنْ يحضره لى حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حدّ المكافأة، وقمت لى بوفاء عهدك.

---

(١) الدعة: الخفض والأمن.

(٢) أكرى: أستأجر.

قال العباس: قلت: يصنع الله خيرًا، ثم أحضر حدادًا فى الليل فكّ قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال[١]، وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم سيّر مَنْ أحضر إليه غلامه. فلما رآه جعل يبكى ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه وقال: علىّ بالفرس الفلانى، والفرس الفلانى. والبغل الفلانى والبغلة الفلانية. حتى عدّ عشرة، ثم عشرة من الصناديق من الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا. قال ذلك الرجل: وأحضر لى بدرة عشرة آلاف درهم وكيسًا فيه خمسة آلاف دينار، وقال لنائبه فى الشرطة: خذا هذا الرجل، وشيعه إلى حدّ الأنبار، فقلت له: إنّ ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم، وخطبى جسيم، وإن أنت احتججت بأنى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كلّ من على بابه فأردّ وأقتل، فقال لى: انج بنفسك ودعنى أدبر أمرى، فقلت: والله ما أبرح بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضورى حضرت. فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن فى موضع كذا، فإن أنا سلمت فى غداة غد أعلمته، وإن أنا قتلت فقد وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه. وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم وتجتهد فى إخراجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذنى صاحب الشرطة وصيرنى فى مكان أثق به، وتفرّغ العباس لنفسه، وتحنط وجهز له كفنًا، قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح، إلا ورسل المأمون فى طلبى يقولون: يقول لك أمير المؤمنين: هات الرجل معك وقم. قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه، وهو ينتظرنا فقال: أين الرجل؟ فسكت. فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع منى، فقال: لله علىَّ عهدٌ لئن ذكرت أنه هرب لأضربنَّ عنقك. فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب، ولكن اسمع حديثى وحديثه، ثم شأنك ما تريد أن تفعله فى أمرى. قال: قل. فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثى معه كيت وكيت، وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أننى أريد أن أفى له، وأكافئه على ما فعله معى، وقلت: أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عنى فأكون قد وفيت وكافأت، وإما أن يقتلنى فأقيه بنفسى وقد تحنطت، وها كفنى يا أمير المؤمنين.

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيرًا. إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة، والعهد بهذا لا غير، هلاّ عرّفتنى خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر فى وفائك له. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتى فأن احتجت إلى حضوره حضر. فقال المأمون: وهذه منّة[٢] أعظم من الأولى اذهب الآن إليه فطيِّبْ نفسه، وسكِّنْ روعه، وائتنى به حتى أتولى مكافأته. قال العباس: فأتيت إليه وقلت له: ليزل خوفك. إن أمير المؤمنين قال: كيت وكيت، فقال: الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء سواه. ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا، فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدّثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها، وعشرة أبغال بآلاتها، وعشر بدر، وعشرة آلاف دينار، وعشرة مماليك بدوابهم. وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وإطلاق خراجه، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق. فصارت كتبه تصل إلى المأمون. وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى يا عباس: هذا كتاب صديقك. والله تعالى أعلم.

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه: ما أورده محمد بن القاسم الأنبارى رحمه الله تعالى: أن سوارًا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال: انصرفت يومًا من دار الخليفة المهدى، لما دخلت منزلى دعوت بالطعام فلم تقبله نفسى فأمرت به فرفع. ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها، فلم تطب نفسى، فدخل

(١) الأنكال: القيود والأغلال.

(٢) منّة: فضل وإحسان.

وقت القائلة[١] فلم يأخذنى النوم. فنهضت وأمرت ببغلة لى فأسرجت وأحضرت فركبتها فلما خرجت من المنزل استقبلنى وكيل لى ومعه مال. فقلت: ما هذا؟ فقال: ألفا درهم جبيتها من مستغلك[٢] الجديد. قلت: أمسكها معك وابتعنى. فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم مضيت فى شارع دار الرقيق. حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار، وانتهيت إلى باب نظيف عليه شجرة، وعلى الباب خادم فعطشت فقلت للخادم: أعندك ماء تسقينيه؟ قال: نعم. ثم دخل وأحضر قلة[٣] نظيفة طيبة الرائحة، عليها منديل فناولنى فشربت، وحضر وقت العصر فدخلت مسجدًا على الباب فصليت فيه، فلما قضيت صلاتى إذا أنا بأعمى يلتمس، فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد. قلت: فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبى، وقال: شممت منك رائحة طيبة، فظننت أنك من أهل النعيم، فأردت أن أحدّثك بشئ، فقلت: قل. قال: ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت: نعم. قال: هذا قصر كان لأبى فباعه وخرج إلى خراسان، وخرجت معه. فزالت عنّا النعم التى كنا فيها، وعميت فقدمت هذه المدينة فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئًا يصلنى به، وأتوصل إلى سوار فإنه كان صديقًا لأبى. فقلت: ومن أبوك؟ قال: فلان بن فلان فعرفته، فإذا هو كان من أصدق الناس إلىّ. فقلت له: يا هذا إن الله تعالى قد أتاك بسوار، منعه من الطعام والنوم والقرار، حتى جاء به فأقعده بين يديك. ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه وقلت له: إذا كان الغد فسر إلى منزلى. ثم مضيت وقلت: ما أحدث أمير المؤمنين بشئ أظرف من هذا فأتيته، فاستأذنت عليه، فأذن لى فلما دخلت عليه حدّثته لما جرى لى فأعجبه ذلك، وأمر لى بألفى دينار فأحضرت. فقال: ادفعها إلى الأعمى. فنهضت لأقوم، فقال: إجلس، فجلست. فقال: أعليك دين؟ قلت: نعم. قال: كم دينك؟ قلت: خمسون ألفًا فحادثنى ساعة، وقال: امض إلى منزلك، فمضيت إلى منزلى فإذا بخادم معه خمسون ألفًا. وقال: يقول لك أمير المؤمنين: اقض بها دينك. قال: فقبضت من ذلك فلما كان من الغد أبطأ علىّ الأعمى، وأتانى رسول المهدى يدعونى فجئته فقال: قد فكرت البارحة فى أمرك. فقلت: يقضى دينه، ثم يحتاج إلى القرض أيضًا؛ وقد أمرت لك بخمسين ألفًا أخرى. قال: فقبضتها وانصرفت فجاءنى الأعمى فدفعت إليه الألفى دينار، وقلت له: قد رزقك الله تعالى بكرمه، وكافأك على إحسان أبيك، وكافأنى على إسداء المعروف إليك، ثم أعطيته شيئًا آخر من مالى فأخذه وانصرف. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومما هو أوضح حسنًا وأرجح معنى، ما حكاه القاضى يحيى بن أكرم رحمة الله تعالى عليه قال: دخلت يومًا على الخليفة هارون الرشيد ولد والمهدى وهو مطرق مفكر فقال لى: أتعرف قائل هذا البيت:

الخَيرُ أبقى وإنْ طَالَ الزّمانُ بِهِ ... والشَّرُّ أخْبَثُ مَا أوعيتَ مِن زادِ

فقلت: يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص فقال: علىّ بعبيد. فلما حضر بين يديه، قال له: أخبرنى عن قضية هذا البيت. فقال: يا أمير المؤمنين، كنت فى بعض السنين حاجًا فلما توسطت البادية فى يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة فى القافلة ألحقت أوّلها بآخرها. فسألت عن القصة، فقال لى رجل من القوم: تقدم تَرَ ما بالناس. فتقدمت إلى أول القافلة، فإذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجذع، وهو يخور كما يخور الثور، ويرغو كرغاء البعير، فهالنى أمره وبقيت لا أهتدى إلى ما أصنع فى أمره، فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانيًا، فعلمت أنه لسبب، ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه، فقلت: أفدى هذا العالم بنفسى، وأتقرّب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا. فأخذت قربة من الماء فقلدتها، وسللت سيفى وتقدمت، فلما رآنى

---

(١) القائلة: القيلولة النوم ظهرًا.

(٢) مستغلك: المستثمر.

(٣) قلة: جرة.

قربت منه سكن، وبقيت متوقعًا منه وثبة يبتلعني فيها. فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة في فيه، وصببت الماء كما يصب فى الإناء فلما فرغت القربة تسيب فى الرمل، ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا به. ومضينا لحجنا ثم عدنا فى طريقنا ذلك. وحططنا فى منزلنا ذلك فى ليلة مظلمة مدلهمة، فأخذت شيئًا من الماء وعدلت إلى ناحية عن الطريق فقضيت حاجتى، ثم توضأت وصليت وجلست أذكر اللّه تعالى فأخذتنى عينى، فنمت مكانى فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حسًّا وقد ارتحلوا وبقيت منفردًا لم أر أحدًا و لم أهتد إلى ما أفعله، وأخذتنى الحيرة وجعلت أضطرب، وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخصُ المضلُّ مركبُهْ | ما عندَه من ذى رشادٍ يصحبُهْ
دونكَ هذا البكرَ مِنّا تركبُهْ | وبكرُك الميمونُ حقّا تجنُبُهْ
حتى إذا ما الليلُ زالَ غيهبُهْ | عند الصباح فى الفلا تسيبُهْ

فنظرت فإذا أنا ببكر قائم عندى، وبكرى إلى جانبى فأنخته وركبته، وجنبت بكرى فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة، وانفرج الفجر ووقف البكر، فعلمت أنه قد حان نزلوى بتحولى إلى بكرى، وقلت:

يا أيها البكرُ قد أنجيتَ من كَرَبٍ | ومِنْ همومٍ تضلُّ المُدْلِجَ الهادى
ألاَ تَخبرنى باللّهِ خالقِنا | من ذا الذى جَادَ بالمعروف فى الوادى
وارجَع حَميدًا فقد أبلغتنا مننّا | بُورِكْتَ مِن ذِى سِنامٍ رائحٍ غادى

فالتفت بالبكر إلىّ، وهو يقول:

أنا الشُّجاعُ الذى ألفيتَنى رَمَضًا | واللّهُ يكشفُ ضُرَّ الحَائِرِ الصادى
فجُدْتَ بالماء لّما ضَنَّ حَامِلُهُ | تَكرُّمًا مِنْكَ لم تمَنُنْ بأنكادِ
فالخيرُ أبقى وإن طال الزّمانُ به | والشَّرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ
هذا جزاؤك مِنّى لا أُمُنُّ به | فاذهَبْ حَميدًا رعاكَ الخالقُ الهادى

فعجب الرشيد من قوله، وأمر بالقصة والأبيات فكتبت عنه، وقال: لا يضيع المعروف أين وضع. واللّه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

الباب الثالث والأربعون في الهجاء ومقدماته

القصد من الهجاء الوقوف على مُلَحِه، وما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة، لا التشفي بالأعراض، والوقوع من الهجاء دليلاً على إساءة المهجو، ولا صدق الشاعر فيما رماه به، فيما ليس كل مذموم بذميم، وقد يهجى الإنسان بهتانًا وظلمًا، أو عبثًا أو إرهابًا. قال المتوكل لأبي العيناء: كم تمدح الناس وتذمهم؟ قال: ما أحسنوا وأساءوا. وقد رضي الله تعالى على عبد من عبيده فمدحه فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[1] وغضب على آخر فقال: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾[2] قيل: الزنيم الملصق بالقوم وليس منهم. وقال دعبل في المأمون بعد البيعة له وقتل الأمين:

إني من القومِ الذين همو همو ... قتلوا أخاك وشرَّفوك بمقعدِ
شادوا لذكرك بعدَ طولِ خمولِهِ ... واستنقذوك من الحضيض الأوهدِ[3]

فقال المأمون: ما أبهته[4]، ليت شعري متى كنت خاملاً؟ وفي حجر الخلافة ربيت، وبدرّها غذيت. ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس. فقيل له: أتبكي على جعفر وأنت هجوته؟ فقال: كان ذلك لركوب الهوى، وقد بلغه والله أني قلت:

ولستُ وإن أطنبتُ في وَصْفِ جعفرِ ... بأوّلِ إنسانٍ خَرِى فِي ثيابه

فكتب: يُدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه.

ومن العبث بالهجو ما روى أن الحطيئة، همّ بهجاء فلم يجد مَنْ يستحقه فقال:

أبَتْ شفتايَ اليومَ إلاّ تكلّمًا ... بشَرٍّ فلا أدري لِمَنْ أنا قائلُهْ
أرَى بي وَجْهًا قبّح اللّهُ خَلْقَهُ ... فقُبِّح من وَجْهٍ وقُبِّح حامِلُهْ

وعبث بأمه فقال:

تنحّي فاجلسي عنّا بعيدًا ... أراحَ اللّه منكِ العالمينا
أغربالاً إذا استودعتِ سرًّا ... وكانونًا[5] على المتحدِّثينا
حياتُك ما علمتُ حياةَ سوءٍ ... وموتُك قد يَسُرُّ الصالحينا

قال رجل: ما أبالي، أهجيت أم مدحت. فقال له الأحنف: ارحت نفسك من حيث تعب الكرام. وقال رجل الآخر: إن هجوتني أتموت ابنتي؟ قال: لا، قال: أفتخرب ضيعتي؟ قال: لا، قال: فرجلي مع ساقي إلى حلقي في حِرِ[6] أمك: قال: ولَمَ تركتَ رأسك؟ قال: لأنظر ما تصنع. وأنا أقول: إنما يخشى من الهجو مَنْ يخاف على عرضه، وأما مَنْ لا يخاف على عرضه فقد يستوى عنده المدح والذم وبئس الرجل ذاك. وكان الرجل من نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ يقول: من نمير، وأمال بها عنقه فلما هجاهم جرير بقوله:

فَغَضَّ الطَرفَ إنّكَ من نَمَيرٍ ... فلا كعبًا بلغتَ ولا كِلابا

صار إذا قيل لأحدهم: ممن الرجل؟ يقول: من بني عامر. وما لقيت قبيلة من العرب بهجوٍ ما لقيت نمير بهجو جرير. وهجا ابن بسام رجلاً فقال:

---

(١) سورة ص: ٣٠ و ٤٤.
(٢) سورة القلم: ١٢ - ١٣.
(٣) الأوهد: الأرض المنخفضة.
(٤) البهتان: الكذب والزور.
(٥) الكانون: الموقد.
(٦) الحَر: قُبُل المرأة.

يا طلوعَ الرقيبِ من غيرِ إلف | يا غريمًا أتى على ميعادِ
يا ركودًا فى وقتِ غيمٍ وصيفٍ | يَا وُجوهَ التّجّارِ يَومَ كَسَادِ

وقصد ابن عيينة قبيصة المهلبى واستماحه فلم يسمح له بشئ، فانصرف مغضبًا فوجّه إليه داود بن حاتم فترضاه وأحسن إليه فقال فى ذلك:

داودُ محمودٌ وأنتَ مُذمَّمٌ | عجبًا لذاك وأنتما من عُودِ
ولَرُبَّ عُودٍ قد يُشقُّ لمسجدِ | نصفًا وباقيه لحَشٍّ[1] يهودى
فالحشُّ أنتَ له وذاك بمسجدٍ | كم بين موضعِ مَسْلَحٍ[2] وسجودِ
هذا جزاؤك يا قبيصُ لأنه | جادَتْ يداه وأنت قفلُ حديدِ

وله هجاء فى خالد:

أبوك لنا غيثٌ يغيثُ بوبله[3] | وأنتَ جرادٌ لستَ تبقى ولا تذرْ
له أثرٌ فى المكرماتِ يسرّنا | وأنت تَعفّى دائمًا ذاك الأثرْ

وقال المبرّد فى حقه: لم يجتمع لأحد من المحدثين فى بيت واحد هجاء رجل، ومدح أبيه إلا له.

ولما قعد حماد عجرد لتأديب ولد الأمين قال بشار بن برد:

قَلْ للأمينِ جَزاكَ اللّهُ صالحةَ | لا يجمعُ اللّهُ بين السَّخَلِ[4] والديبِ
السخلُ يعلمُ أن الذئبَ آكلُهُ | والذئبُ يعلمُ ما بالسخل مِن طِيبِ

وقال فيه أيضًا:

يا أبا الفضلِ لا تَنمْ | وقَعَ الذِّئبُ فى الغَنَمْ
إنَّ حَمَّادَ عجردٍ | شيخَ سُوءٍ قد اغتَنَمْ
بين فخذَيْهِ حَرْبةٌ | فى غلافٍ من الأدمْ
إن رأى ثَمَّ غفلةَ | يجمعُ الميمَ بالقلمْ

فشاعت الأبيات فأمر الأمين باخراج حماد.

وقال رجل لأخيه لأبويه: لأهجونك هجاء يدخل معك فى قبرك. قال: كيف تهجونى وأبوك أبى وأمك أمى. قال: أقول[5] :

بنى أميةَ هبوا طالَ نومكمو | إنَّ الخليفةَ يعقوبُ بن داودِ
ضاعَتْ خلافتكَم يا قومُ فالتَمِسُوا | خليفةَ اللّهِ بينَ الماءِ والعودِ

فدخل يعقوب على المهدى فأخبره أن بشارًا هجاه، فاغتاظ المهدى وانحدر إلى البصرةْ لينظر فى أمرها فسمع أذانًا فى ضحى النهار فقال: انظروا ما هذا؟ وإذا به بشار وهو سكران. فقال له: يا زنديق عجب أن يكون هذا من غيرك، ثم أمر به فضربه سبعين سوطًا حتى أتلفه بها، وألقى فى سفينة. فقال عين الشقمق ترانى حيث يقول:

إن بشارَ بنَ بردٍ | تيسُ أعْمى فى سفينَهْ

---

(١) الحش: كناية عن المرحاض.
(٢) مسلح: مكان التغوط.
(٣) بوبله: بمطر جوده وغيثه.
(٤) السخل: ولد الشاة.
(٥)هذا القول لبشار ويبدو هنا سقطٌ قبل أبيات بشار لم أهتد إليه.

فلما مات ألقيت جثته فى الماء، فحمله الماء فأخرجه إلى الدجلة، فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة، وأخرجت جنازته فما تبعه أحد، وتباشر عامة الناس بموته لما كان يلحقهم من الأذى منه.

وخاصم أبو دلامة رجلاً فارتفعا إلى عافية القاضى فلما رآه أبو دلامة أنشد يقول:

لقد خاصَمَتْنى دُهَاةُ الرجالِ ... وخاصمتها سنة وافيَهْ

فما أدحضَ اللّهُ لى حُجَّةً ... ولا خيَّبَ لى قافيَهْ

ومن خفتُ من جوره فى القضاء ... فلستُ أخافُكَ يا عافيَهْ

فقال عافية: لأشكونَّك إلى أمير المؤمنين، ولأعلمنَّه أنك هجوتنى. قال له أبو دلامة: إذًا واللّه يعزلك. قال: ولم؟ قال: لأنك لا تعرف الهجاء من المدح. قال: فبلغ ذلك المنصور فضحك، وأمر له بجائزة. ودخل أبو دلامة على المهدى وعنده إسماعيل بن على، وعيسى بن موسى، والعباس بن محمد، وجماعة من بنى هاشم، فقال له المهدى: واللّه لئن لم تهج واحدًا ممن فى هذا البيت لأقطعن لسانك. فنظر إلى القوم وتحير فى أمره، وجعل ينظر إلى كل واحد فيغمزه بأن عليه رضاه. قال أبو دلامة: فازددت حيرة، فما رأيت أسلم لى من أن أهجو نفسى فقلت:

ألا أبْلِغْ لديكَ أبا دلامة ... فلستَ من الكرامِ ولا كرامَهْ

جمعتَ دمامةً وجمعتَ لؤمًا ... كذاكَ اللؤمُ تتبعُهُ الدمامَهْ

إذا لبسَ العمامةَ قلْتَ قِرْدًا ... وخنزيرًا إذا نَزَعَ العِمَامَهْ

فضحك القوم، ولم يبق منهم أحد إلا أجازه.

وقال ابن الأعرابى: إنّ أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب فى محمد بن هاشم:

لم تَنْدَ كفَاكَ من بذلِ النوالِ كما ... لم يَنْدَ سيفكَ مذ قلّدتَهُ بدمِ

وهجا بعضهم القمر فقال: يهدم العمر، ويوجب أجرة المنزل، ويشحب الألوان، ويقرض الكتاب، ويضل السارى[1] ويعين السارق، ويفضح العاشق.

ولابن منقذ فى ابن طليب المصرى وقد احترقت داره:

انظر إلى الأيامِ كيفَ تسوقنا ... قَسْرًا إلى الأقدارِ بالأقدارِ

ما أوقدَ ابن طليبَ قطّ بدارهِ ... نارًا وكان خرابُها بالنّارِ

وكان للوجيه بن صورة المصرى دلال الكتب، دار بمصر موصوفة بالحسن فاحترقت، فقال فيها ابن المنجم:

أقولُ وقد عاينتُ دارَ ابنِ صورةٍ ... وللنارِ فيها وهجةٌ تتضرَّمُ

فما هو إلاّ كافرٌ طالَ عمرُهُ ... فجاءَتْهُ لّما استبطأتْهُ جهَنّمُ

وقد أحسن الأديب كمال الدين على بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى فى ذم دار كان يسكنها حيث قال:

دارٌ سكنتُ بها أقلُّ صفاتِها ... أن تكثر الحشراتُ فى جنباتها

الخيرُ عنها نازحٌ متباعدٌ ... والشرُّ دانٍ من جميعِ جهاتها

من بعضِ ما فيها البعوضُ عدمته ... كم أعدمَ الأجفانَ طيبُ سناتها

---

(١) السارى: السائر ليلاً.

وتبيت تسعدُها براغيث متى … غنّتْ لها رقصَتْ على نغماتها
رقصٌ بتنقيطٍ ولكنّ قافه … قد قدمت فيه على أخواتها
وبها ذبابٌ كالضبابِ يسدُّ عيـ … ـنَ الشمسِ ما طربى سوى غناتها
أينَ الصوارمُ والقنا من فتكِها … فينا وأينَ الأسدُ من وثباتها
وبها من الخطافِ ما هو معجزٌ … أبصارَنا عن وصفِ كيفياتها
وبها خفافيشٌ تطيرُ نهارَهَا … مع ليلهَا ليسَتْ على عاداتها
وبها من الجرذانِ ما قد قصرَتْ … عنهُ العتاقُ[1] الجردُ فى حملاتها
وبها خنافسُ كالطنافسِ[2] أفرشت … فى أرضها وعلَتْ على جنباتها
لوشمِ أهلُ الحربِ منتنَ فسوها … أردى الكماةَ الصيد[3] عن صهواتها
وبناتُ وردانَ[4] وأشكال لها … مما يفوتُ العينَ كنهَ ذواتها
أبدًا تمصُّ دماءنا فكأنّها … حجامةٌ لبدَتْ على كاساتها
وبها من النملِ السليمانىّ ما … قد قلّ ذرُّ الشمس عن ذرّاتها
ما راعنى شئٌ سوى وزغاتِها[5] … فتعوّذوا باللّه من لدغاتها
سجعت على أوكارها فظنتَها … ورقَ الحمامِ سجعن فى شجراتها
وبها زنابيرٌ تظنُّ عقاربًا … حَرُّ السموم أخفُّ من زفراتها
وبها عقاربٌ كالأقاربِ رتعٌ … فينا حمانا اللّه لَدْغَ حماتها[6]
كيفَ السبيلُ إلى النجاةِ ولا نجـ … ـاةَ ولا حياةَ لمن رأى حيّاتها
منسوجةٌ بالعنكبوت سماؤها … والأرضُ قد نسجَتْ على آفاتها
فضجيجُهَا كالرعدِ فى جنباتها … وترابُها كالرمل فى خشناتها
والبومُ عاكفةٌ على أرجائها … والدود يبحث فى ثرى عرصاتها
والجنُّ تأتيها إذ جنَّ الدُّجى … تحكى الخيولَ الجردَ فى حملاتها
والنارُ جزءٌ من تلهُّبِ حرِّها … وجهنّمُ تعزى إلى لفحاتها
شاهدتُ مكتوبًا على أرجائها … ورأيتُ مسطورًا على جنباتها
لا تقربُوا منها وخافوها ولا … تلقُوا بأيديكم إلى هلْكاتها
أبدًا يقولُ الداخلون ببابها … يا ربُّ نجِّ الناسَ من آفاتها
قالوا إذا ندبَ الغرابُ منازلا … يتفرّقُ السكانُ من ساحاتها
وبدارِنَا ألفا غرابٍ ناعقٍ … كذبَ الرواةَ فأينَ صِدْقُ رواتها
صبرًا لعلَّ اللّه يعقبُ راحةً … للنفس إذا غلبَتْ على شهواتها

(١) العتاقُ: الخيول الكريمة.
(٢) الطنافس: المخدرات.
(٣) الصيد: ذوى الحسب والشرف.
(٤) وردان: ما تعرف الآن بالصراصير.
(٥) زغاتِهَا: حيوان زاحف قبيح من قبيل الحرباء.
(٦) حماتها: تورية بين حدة العقرب والحماة أم الزوج.

دارٌ تبيتُ الجنُّ تحرسُ نفسها فيها وتندبُ باختلاف لغاتها
كم بتُّ فيها مفردًا والعينُ من شوقِ الصباحِ تسحُّ[1] من عبراتها
وأقولُ يا ربَّ السمواتِ العُلا يا رازقًا للوحشِ فى فلواتها
أسكنتنى بجهنَّمَ الدنيا ففى أخراى هَبْ لى الخلدَ فى جناتها
واجمَعْ بمن أهواه شَمْلى عاجلاً يا جامعَ الأرواحِ بعدَ شتاتها[2]

ولبعضهم فى بلان[3]:

أشكو إلى اللّهِ بلاّنا بُليتُ بهِ مسَّتْ أناملُهُ ظَهرى فأدمانى
فلا يُدَلِّكُ تدليكًا بمعرفةٍ ولا يُسَرِّحُ تسريحًا بإحسانِ

وللشيخ شمس الدين البديرى فى بلان أيضًا:

وبلاّنٍ لهُ ظهرٌ يباهى به حدَّ الشفارِ المرهفاتِ
هرى جسمى فألبَسَهُ نجيعًا[4] على حللِ الستورِ السابلاتِ
ورام يلينُ أعضائى برفقٍ فأيبَسَها وكَسَّرَ فوقحاتى
ولم أنظرْ له أبدًا جميلاً وذلكَ من عظيمِ المهلكاتِ
وأعمى مقلتى بصنان إبطٍ يفوحُ به على كلِّ الجهاتِ
فلا تجعلْ إلهى مثلَ هذا يغسِّلنى إذا حانَتْ وفاتى

ولبعضهم فى حمَّام:

وحمَّام دخلناهُ لأمرٍ حكى سقرًا وفيها المجرمونا
فيصطرخوا يقولون أخرِجُونَا فإنْ عُدْنَا فإنّا ظالمونا

وللشريف أبى يعلى الهاشمى البغدادى فى نظام الملك يهدده بالهجاء يقول:

أيجملُ يا نظامَ الملكِ أنى أعاودُ من ذراك كما قدمتُ
وأصدرُ عن حياضِكَ وهى نهبٌ بأفواهِ السُّقاةِ وما وردتُ
يدلُّ على فعالِكَ سوءُ حالى ويخبرُ عن نوالِكَ إنْ كتمتُ
إذا استَخْبرْتُ ماذا نلتَ منه وقد عمّ الورى كرمًا سكتُّ

وممن عرّض بالهجو فى شعره الخوارزمى قال فى أبى جعفر:

أبا جعفرٍ لستَ بالمنصفِ ومثلُك إن قالَ قولاً يفى
فإن أنتَ أنجزْتَ لى ما وَعَدْتَ وإلا هُجيتَ وأدْخِلْتَ فى
وقد علمَ الناسُ ما بَعْدَ فى فغطِ الحديثَ ولا تكشفِ

ومدح السراج الوراق إنسانًا فلم يجزه فكتب يعرض له بالهجاء ويهدده يقول:

أعِدْ مدَّ علىَّ وخذْ سواه فقدْ أتعبْتنى يا مستريحُ

---
(١) تسحُّ: تسيل.
(٢) شتاتها: التفرق.
(٣) البلان: عامل الحمام.
(٤) النجيع: الدم.

ولا تغضَــبْ إذا أنشِــدْتَ يومًــا سـواهُ وقيــلَ لى هــذا صحيــحٌ

وله أيضًا يقول:

أعِـدْ مدحًـا كذبـتُ عليــكَ فيــهِ وقـد عوقبـتُ بالحرمــان عنــه

ولكنــى ســأصدقُ فيــكَ قــولاً فـلا يصعــبُ عليـك الحـقُّ فيـه

وقال بعضهم فى حجاج قدموا و لم يهدوا إليه شيئًا:

مضَـوْا ليحجُّـوا والوجـوهُ كأنها تكادُ الفرطِ البشرِ أن توضحَ السبلا[1]

وعادوا كأنَّ القـارَ[2] فـوقَ وجوهِهم فـلا مرحبًـا بالقـادمين ولا سَـهْلا

وجـاءُوا ومـا جـادُوا بعـودِ أراكـةٍ ولا وضَعُوا فى كـفِّ طفـلٍ لنا بقـلا

وقال آخر:

إذا رمـتُ هجـوًا فى فلان تصدُّنـى خلائــقُ قبـحٍ عنـه لا تـتزحزحُ

تجــاوَزَ الهجـــوَ حتَّــى كأنَّــهُ بأقبحِ مـا يُهجـى بـه المـرءُ يُمـدحُ

وهجا بعضهم امرأة فقال:

لهـا جسـمُ برغـوثٍ وسـاقُ بعوضـةٍ ووجـهٌ كوجـهُ القـرد بـل هـو أقبـحُ

تـبرّق عينيهـا إذا مـا رأيتَهـا وتعبسُ فى وجـهِ الضجيـعِ وتكلـحُ

لهـا منظـرٌ كالنـارِ تحسـبُ أنهـا إذا ضحكَتْ فى أوجهِ الناسِ تلفـحُ[3]

إذا عـاينَ الشـيطانُ صـورةَ وجهِهَـا تعـوّذَ منهـا حـين يمسـى ويُصبِـحُ

ولبعضهم فى عظيم أنف:

لــك وجــهٌ وفيــه قطعــةُ أنــفٍ كجــدارٍ قــد دعمُــوهُ ببغلَــةْ

وهــو كالقـبرِ فــى المثـالِ ولكــنْ جعلـوا نصفَــهُ علــى غـيرِ قبلَـةْ

وفيه أيضًا:

رأينــا لــلزكى جــدارَ أنــفٍ يضــاهى فــى تشــامخِهِ الجبــالا

تصــدَّى للّهــلالِ لكــى يــراهُ فلــولا عُظْمُــهُ لــرأى الهــلالا

ولبعضهم فى أبخر[4] مخنث:

قــالوا فــلانٌ نَتِـنٌ فقلــتُ لهــم يا قومُ قـد حـارَ فكرى فـى مسـاويهِ

يـا قـومُ لا تعجَبـوا مـن نـتنِ نكهتِـهِ فـالاير يدفَـعُ مــا فيــهِ إلى فيــهِ[5]

ولصفّى الدين الحلى[6] :

رأى فرسـى إصطبلَ عيسـى فقـال لى قفًا نبـكِ من ذكـرى حبيـبٍ ومـنزلِ

بـه لم أذقْ طعــمَ الشــعيرِ كــأننى بسقطِ اللوى بين الدخـولِ فحومـلِ

---

(١) البشر: السرور.

(٢) القار: الزفت الأسود.

(٣) تلفحُ: تحرق.

(٤) أبخر: ذو نكهة رديئة.

(٥)فيه الأولى جار ومجرور أما فيه الثانية فهى فمه.

(٦)يشطر فى هذه الأبيات. أبياتًا لأمرىء القيس من المعلقة هى الشطر الثانى من كل بيت.

تقعقــع مــن بــردِ الشتـاءِ أضــالعي لِمَا نَسَـجَتْهَا مـن جنـوبٍ وشمــألِ

وله أيضًا:

ليهنِـــكَ أنَّ لى ولـــدًا وعبـــدًا سـواءٌ فـى المقـالِ وفـى المقـامِ
فهـذا ســابقٌ مــن غـير سـينٍ[١] وهــذا عــاقلٌ مــن غـير لامِ[٢]

وله فى طبيب يدعى إسحاق:

مباضعُ[٣] إسحاقَ الطبيـبِ كأنهـا لهـا بفنـاءِ العـالمين كفيـلُ
معــوّدةٌ أن لا تســلَّ نصالَهــا فتغمـدَ حتـى يسـتباحَ قتيـلُ

وله فى أحمق طويل اللسان:

لـو أن قـوةَ وجهـهِ فـى قلبـهِ قَنَصَ الأسودُ وجنـدلَ الأبطـالا
أو كـان طـولُ لسـانِهِ بيمينـه أفنـى الكنـوزَ وأنفـدَ الأمـوالا

وهجا إعرابى رجلاً ثم مدحه فقال:

إنـى مدَحْتُـكَ مـن فسـادِ قريحتـى وعلمـتُ أن المـدح فيـك يضيـعُ
لكـنْ رأيـتُ المسـكَ عنـد فسـادِهِ يدنـى إلى بيـتِ الخـلا فيضـوعُ

وقيل لبعضهم: ما تقول فى فلان وفلان؟ قال: هما الخمر والمسير، إثمهما أكثر من نفعهما. وقيل لرجل: كيف وجدت فلانًا؟ قال: طويل اللسان فى اللؤم، قصير الباع فى الكرم، وثابًا على الشر، مناعًا للخير. وسمع إعرابى قوله تعالى: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا**﴾[٤] انتفض ثم سمع قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾[٥] فقال: اللّه أكبر هجانا ثم مدحنا، وكذلك قال الشاعر:

هجـوتُ زهـيرًا ثـم إنـى مدَحْتُـه وما زالتِ الأشرافُ تَهْجى وتَمْدحُ

استبّ رجلان فقال أحدهما للآخر: لو قطع زبك وعلّق لم تبق زانية بالكوفة إلا عرفته. وقال أبو زيد العبدى:

ولقـد قتلتُـكَ بالهجـاءِ فلـم تَمُـتْ إنَّ الكــلابَ طويلــةَ الأعْمــارِ

وقال المتوكل لأبى العيناء: ما بقى أحد فى المجلس إلا هجاك وذمك غيرى فقال:

إذا رضِيَـتْ عنـى كـرامُ عشـيرتى فـلا زالَ غضبانًـا علـىّ لئامُهَـا

---

(١) غير سين: أى آبق، غير مطيع.
(٢) أى عاق: غير بار.
(٣) المبضع: المشرط.
(٤) سورة التوبة:٩٧.
(٥) سورة التوبة:٩٩.

الباب الرابع والأربعون فى الصدق والكذب وفيه فصلان

الفصل الأول فى الصدق

قال اللّه تعالى مبشرًا للصادقين: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾[٢] ، فمدحهم، وبيّن لهم المغفرة والأجر العظيم. وقال عمر رضى اللّه عنه: عليك بالصدق وإن قتلك. وما أحسن ما قيل فى ذلك:

عليكَ بالصدقِ ولو أنه ... أحرقَكَ الصدقُ بنارِ الوعيدْ

وابْغَ رضَا المولى فأغبى الورى ... مَنْ أسْخَطَ المولى وأرضَى العبيدْ

وقال إسماعيل بن عبيد اللّه: لما حضرت أبى الوفاة جمع بنيه فقال لهم: يا بنيّ، عليكم بتقوى اللّه، وعليكم بالقرآن فتعاهدوه[٣] ، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلاً. ثم سئل عنه أقرَّ بهِ، واللّه ما كذبت قط مذ قرأت القرآن. وعن عائشة رضى اللّه عنها قالت: سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: بمَ يُعرف المؤمن؟ قال: بوقاره، ولين كلامه، وصدق حديثه. وقيل: لكل شئ حلية، وحلية النطق الصدق. وقال محمود الورّاق:

الصِّدقُ منجاةٌ لأربابه ... وقربةٌ تدنى من الربِّ

وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به. وقال أرسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانتفع به سامعه. وقال المهلب بن أبى صفرة: ما السيف الصارم فى يد الشجاع بأعزّ له من الصدق. وكان يقال عن الصدوق: فلان وقف لسانه على الصدق. ويقال: الصدق محمود من كل أحد، إلا من الساعى. ويقال: لو صدق عبد فيما بينه وبين اللّه تعالى حقيقة الصدق لأطلع على خزائن الغيب ولكان أمينًا فى السموات والأرض. وقيل: مَنْ لزم الصدق وعوّد لسانه به وُفّق. ويقال: الصدق بالحرِّ أحرى. وقال عتبة بن أبى سفيان: إذا اجتمع فى قلبك أمران لا تدرى أيهما أصوب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى. وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب. وكان نقش خاتم ذى يزن: وضع الخد للحق عز. وامتدح ابن ميادة جعفر بن سليمان. فأمر له بمائة ناقة. فقبل يده وقال: واللّه ما قبلت يد قرشى غيرك إلا واحدًا. فقال: أهو المنصور؟ قال: لا واللّه. فمن هو؟ قال: الوليد بن يزيد. قال: فغضب، وقال: واللّه ما قبلتها للّه تعالى، فقال: واللّه ولا يدك ما قبلتها للّه تعالى، وكان قبلتها لنفسى. فقال: واللّه لا ضرَّك الصدق عندى أعطوه مائة أخرى.

وقال عامر العدوانى فى وصيته: إنى وجدت صدق الحديث طرفًا من الغيب فاصدقوا. يعنى من لزم الصدق وعوّده لسانه وفق، فلا يكاد ينطق بشئ يظنه إلا جاء على ظنه. وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية فقال لأهلها: نحن مَنْ قد عرفتم، كنا عبدين فأعتقنا اللّه تعالى، وكنا ضالين فهدانا اللّه تعالى، وكنا فقيرين فأغنانا اللّه تعالى، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخى فإن تنكحوها له فالحمد للّه تعالى، وإن تردونا فاللّه أكبر. فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقته ومشاهده ومكانه من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فزوجوا أخاه فزوجوه، فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر اللّه لك ما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول اللّه صلى اللّه

---

(١) سورة المائدة:١١٩.

(٢) سورة الأحزاب:٣٥.

(٣) تعاهدوه: تحفظوه واعتنو به.

عليه وسلم، وتترك ما عدا ذلك فقال: مه[١] يا أخي، صدقت فأنكحك الصدق. وخطب الحجاج فأطال فقام رجل فقال: الصلاة، فإن الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعذرك. فأمر بحبسه فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلى سبيله فقال: إن أقرّ بالجنون خليته، فقيل له: فقال: معاذ اللّه، لا أزعم أن اللّه ابتلاني وقد عافاني، فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه.

الفصل الثاني في الكذب وما جاء فيه

قال اللّه تعالى في الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾[٣]، وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار وتحرّوا[٤] الصدق، فإن الصدق يهدى إلى البرّ والبر يهدى إلى الجنة[٥]» وعن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه تعالى عنهما: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به» ويقال: راوى الكذب أحد الكذابين. ويقال: رأس المآثم الكذب، وعمود الكذب البهتان. وقيل: أمران لا ينفكان من الكذب؛ كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[٦] وهى لكل واصف كذب إلى يوم القيامة. وقال الأصمعى: قلت لكذاب: أصدقت قط؟ قال: لولا أنى أخاف أن أصدق فى هذا لقلت لك لا، فتعجب.

وقال محمود بن أبى الجنود:

لى حيلــة فيمَــن يَنــمُّ … وليــسَ فــى الكــذاب حيلَــةْ
مَــنْ كــان يخلــقُ مــا يقــ … ــولُ فحيلتــى فيــه قليلَــةْ

ويقال: فلان أكذب من لمعان السراب ومن سحاب تموز. وكان بفارس محتسب يعرف بجراب الكذب وكان يقول: إن منعت الكذب انشقت مرارتى، وإنى واللّه لأجد به مع ما يلحقنى من عاره من المسرة، ما لا أجده بالصدق، مع ما ينالنى من نفعه. وقال فيلسوف: من عرف من نفسه الكذب لم يصدّق الصادق فيما يقوله.

ولبعضهم:

حســبُ الكــذوبِ مــن البلـ … ـيَّـةِ بعــضُ مــا يُحكــى عليــه
فمتــى سمعــتَ بكذبــةٍ … مــن غــيره نســبَتْ إليــه

وأضاف صيرفى قومًا فأقبل يحدثهم فقال بعضهم: نحن كما قال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾[٧] وعن عبد اللّه بن السدى قال: قلت لابن المبارك: حدثنا حديثًا. قال: ارجعوا فلست أحدثكم، فقيل له: إنك لم تحلف. فقال: لو حلفت لكفرت وحدثتكم. ولكن لست أكذب فكان هذا أحب إلينا من الحديث. وقال مجاهد: يكتب على ابن آدم كل شئ حتى أنينه فى سقمه، وحتى أن الصبى ليبكى، فتقول له أمه: اسكت وأشترى لك كذا ثم لا تفعل فتكتب كذبة. وقال الفضيل: ما من مضغة أحب إلى اللّه تعالى من اللسان إذا كان صدوقًا، ولا مضغة أبغض إلى اللّه تعالى من اللسان إذا كان كذوبًا. وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه

---

(١) مه: اسم فعل أمر بمعنى: كف.
(٢) سورة البقرة: ١٠.
(٣) سورة الزمر: ٦٠.
(٤) تحرّوا: توخوا.
(٥) أخرجه: مسلم فى كتاب البر والصلة والأداب ٢٦٠٧.
(٦) سورة الأنبياء: ١٨.
(٧) سورة المائدة: ٤٢.

مرفوعًا «أعظم الخطايا اللسان الكذوب».

قال الشاعر:

لا يكـذبُ المـرءُ إلاّ مِـنْ مَهَانتـه ... أو فِعْلِـهِ السـوءَ أو مـن قلّـةِ الأدبِ

لَبَعْـضُ جِيفَـةِ كلـبٍ خـيرُ رائحـةٍ ... من كذبـةِ المرءِ فى جَدٍّ وفى لَعَـبِ

ولما نصب معاوية رضى الله عنه ابنه يزيد لولاية العهد أقعده فى قبة حمراء، وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف ساكت. فقال: معاوية ما لك لا تقول يا أبا بحر. فقال: أخاف الله تعالى إن كذبت، وأخافكم إن صدقت. فقال جزاك الله خيرًا عما تقول، ثم أمر له بألوف، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال له: يا أبا بحر إنى لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع فى إخراجها إلا بما سمعت. فقال له الأحنف يا هذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهًا.

وقيل: إن الكذب يحمد إذا وصل بين المتقاطعين، أو أصلح بين الزوجين، ويذم الصدق إذا كان غيبة، وقد رفع الحرج عن الكاذب فى الحرب وعن المصلح بين المرء وزوجه. وكان المهلب فى حرب الخوارج يكذب لأصحابه، يقوى بذلك جأشهم. فكانوا إذا رأوه مقبلاً إليهم قالوا جاءنا بكذب. وقال يحيى بن خالد رأينا شارب خمر نزع، ولصًّا أقلع، وصاحب فواحش رجع، ولم نر كذّابًا صار صادقًا. وكان عمرو بن معد يكرب مشهورًا بالكذب. وقيل لخلف الأحمر وكان شديد التعصب لليمن: أكان ابن معد يكرب يكذب. فقال: كان يكذب فى المقال، ويصدق فى الفعال. قيل: إن بلالاً لم يكذب مذ أسلم رضى الله تعالى عنه. والحمد لله وحده.

الباب الخامس والأربعون فى بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقرابات وذكر الأنساب وفيه فصول

الفصل الأول فى بر الوالدين وذم العقوق

قال اللّه تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾(٤)، وعن على رضى اللّه عنه: لو علم اللّه شيئًا فى العقوق أدنى من أفٍ لحرمه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. وقيل: إن رضا الرب فى رضا الوالدين، وسخط الرب فى سخط الوالدين.

وحكى أبو سهل عن أبى صالح، عن أبى نجيح، عن ربيعة، عن عبد الرحمن، عن عطاء بن أبى مسلم: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «مَنْ حج عن والده بعد وفاته كتب اللّه لوالده حجة، وكتب له براءة من النار». وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجدُ ريحها عاق».

وكان رجل من النساك يقبل كل يوم قَدَمَ أمه فأبطأ يومًا على إخوته فسألوه، فقال: كنت أتمرغ فى رياض الجنة، فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات. وبلغنا أن اللّه تعالى كلم موسى عليه السلام ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة. فكان آخر كلامه: يا رب أوصنى. قال: أوصيك بأمك حسنًا قال له سبع مرات. قال: حسبى. ثم قال: يا موسى ألا إن رضاها رضاى، وسخطها سخطى. وقال عمر بن عبد العزيز رضى اللّه تعالى عنه لابن مهران: لا تأتين أبواب السلاطين وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر، ولا تخلون بامرأة، وإن علمتها سورة من القرآن، ولا تصحبن عاقًا فإنه لن يقبلك وقد عق والديه.

وقال فيلسوف: مَنْ عق والديه عقه ولده. وقال المأمون: لم أر أحدًا أبر من الفضل بن يحيى بأبيه، بلغ من بره له أنه كان لا يتوضأ إلا بماء سخن، فمنعهم السجان من الوقود فى ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه قام الفضل إلى قمقم من نحاس فملأه ماء وأدناه من المصباح، فلم يزل قائمًا وهو فى يده إلى الصباح، حتى استيقظ يحيى من منامه. وقيل طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء، فلما أتاه بالشربة نام أبوه، فما زال الولد واقفًا والشربة فى يده إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه: إن لى أمًا بلغ منها الكبر، أنها لا تقضى حاجتها إلا وظهرى لها مطية، فهل أديت حقها، قال: لا لأنها كانت تصنع بك ذلك وهى تتمنى بقاءك، وأنت تصنعه وتتمنى فراقها. وقال ابن المنكدر: بت أكبس رجل أبى وبات آخر يصلى ولا يسرنى ليلته بليلتى. وقيل: إن محمد بن سيرين كان يكلم أمه كما يكلم الأمير الذى لا ينتصف منه. وقيل لعلى بن الحسين رضى اللّه تعالى عنه: إنك مِن أبرِّ الناس، ولا تأكل مع أمك فى صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدى يدها إلى ما تسبق عيناها إليه فأكون قد عققتها.

---

(١) سورة النساء:٣٦.
(٢) سورة الإسراء:٢٣.
(٣) سورة لقمان:١٤.
(٤) سورة الإسراء:٢٣ - ٢٤.

الفصل الثانى فى الأولاد وحقوقهم وذكر النجباء والأذكياء والبلداء والأشقياء

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «الولد ريحانة من الجنة». وقال الفضل: ريح الولد من الجنة. وكاني قال: ابنك ريحانتك سبعًا، ثم حاجبك سبعًا، ثم عدو أو صديق. وعن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه تعالى عنه، قال: قلت لسيدى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: يا رسول اللّه هل يولد لأهل الجنة؟ قال: «والذى نفسى بيده، إن الرجل يشتهى أن يكون له ولد فيكون حمله ووضعه وشبابه الذى ينتهى إليه فى ساعة واحدة». وقيل: من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كى لا يفسق. وقال عمر رضى اللّه تعالى عنه: إنى لأكره نفسى على الجماع رجاء أن يخرج اللّه منى نسمة تسبحه وتذكره. وقال رضى اللّه تعالى عنه: أكثروا من العيال فأنكم لا تدرون بمن ترزقون. وقال شبيب بن شبة: ذهب اللذات إلا من ثلاث: شم الصبيان، وملاقاة الأخوان، والخلو مع النسوان. ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة فقال من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه تفاحة القلب. فقال: انبذها عنك، فانهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن. قال: لا تقل يا عمرو ذلك، فواللّه ما مرض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا أعان على الأخوان إلا هنَّ. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إنك حببتهنَّ إلىّ. وقيل لرجل: أى ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يحضر. وقال ابن عامر لأمرأته أمامة بنت الحكم الخزاعية: إن ولدت غلامًا فلك حكمك. فلما ولدت، قالت: حكمى أن تطعم سبعة أيام كل يوم على ألف خوان، من فالوذج، وأن تعق بألف شاة. ففعل لها ذلك.

وغضب معاوية على يزيد فهجره، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة، وبهم نصول على كل جليلة، فإن غضبوا فأرضهم، وإن سألوا فأعطهم، وإن لم يسألوا فابتدئهم، ولا تنظر إليهم شزرًا[1] فيملوا حياتك، ويتمنوا وفاتك. فقال معاوية: يا غلام إذا رأيت يزيد فاقرئه السلام، واحمل إليه مائتى ألف درهم، ومائتى ثوب. فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين؟ فقيل له: الأحنف. فقال يزيد بن معاوية: علىّ به فقال: يا أبا بحر كيف كانت القصة فحكاها له فشكر صنيعه، وشاطره الصلة.

وحكى الكسائى أنه دخل على الرشيد يومًا فأمر باحضار الأمين والمأمون ولدَيْه، قال: فلم يلبث قليلاً أن أقبلا ككوكبى أفق يزينهما هداهما، وقد غضا أبصارهما حتى وقفا فى مجلسه فسلما عليه بالخلافة، ودعوا له بأحسن الدعاء فاستدناهماوأسند محمدًا عن يمينه، وعبد اللّه عن يساره، ثم أمرنى أن ألقى عليهما أبوابًا من النحو فما سألتهما شيئًا إلا أحسنا الجواب عنه، فسرّه ذلك سرورًا عظيمًا وقال: كيف تراهما؟ فقلت:

أرى قمرَ أفقٍ وفَرْعَى شَآمة ... يزينهما عِرقٌ كريمٌ ومحتِدٌ

سليلى أمير المؤمنين وحائزَى ... مواريثَ ما أبقى النبىُّ محمَّدُ

يسدَّان أنفاقَ النفاقِ بشيمةٍ ... يزينهما حزمٌ وسيفٌ مهنّدُ

ثم قلت: ما رأيت، أعز اللّه أمير المؤمنين، أحدًا من أبناء الخلافة. ومعدن الرسالة، وأغصان هذه الشجرة الزلالية آدب منهما ألسنًا، ولا أحسن ألفاظًا، ولا أشد اقتدارًا على الكلام روية وحفظًا منهما، أسأل اللّه تعالى أن يزيد بهما الإسلام تأييدًا وعزًا، ويدخل بهما على أهل الشرك ذلاً وقمعًا. وأمَّن[2] الرشيد على دعائه، ثم ضمهما إليه، وجمع عليهما يديه فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تتحدر على صدره، ثم أمرهما بالخروج. وقال: كأنكم بهما وقد دهم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وقد تشتت أمرهما، وافترقت كلمتهما بسفك

---

(١) شزرًا: بمؤخرة العين على هيئة الغضبان.

(٢) أى: قال آمين.

الدماء، وتهتك الستور. وكان يقال: بنو أمية دن[1] خل، أخرج اللّٰه منه زق عسل، يعنى عمر بن عبد العزيز رضى اللّٰه تعالى عنه. وسبَّ أعرابى ولده وذكر له حقه فقال: يا أبتاه إن عظيم حقك علىّ لا يبطل صغير حقى عليك. قال سيدى عبد العزيز الديرينى رحمه اللّٰه تعالى:

أُحِبُّ بُنيتى ووددتُ أنّى ... دفنْتُ بنيَّتى فى قَاعِ لَحْدِ[2]
وما بى أن تَهُونَ علىَّ لكنْ ... مَخافةَ أن تذوقَ الذّلَّ بعدى
فإنْ زوَّجْتَها رَجُلاً فقيرًا ... أراها عندَهُ والهمُّ عَنْدى
وإن زوجتَها رجُلاً غنيّاً ... فيلطمُ خدَّها وَيسُبُّ جدِّى
سألتُ اللّه يأخذَها قريبًا ... ولو كانَتْ أحبَّ الناسِ عندى

وقال هارون بن على بن يحيى المنجم:

أرى ابنى تشابَهَ مِن على ... ومنْ يحيى وذاك به خليقُ
وإن يشبههما خَلقًا وخَلقًا ... فقد تسرى إلى الشبهِ العروقُ

وقال أبو النصر مولى بنى سليم:

ونفرحُ بالمولودِ من آل برمكٍ ... ولا سيما إن كانَ من ولد الفضلِ

وقال الحسن بن زيد العلوى:

قالوا عقيمٌ ولم يولدْ له ولدٌ ... والمرءُ يخلفُهُ من بعدِهِ الولدُ
فقلتُ مَنْ علقتْ بالحربِ همَّتُهُ ... عافَ[3] النساءَ ولم يكثر له عددُ

وكان الزبير بن العوام رضى اللّٰه عنه يرقص ولده يقول:

أزْهرُ من آل بنى عتيقِ ... مُباركٌ من ولد الصَّديقِ
ألذه كما ألذّ ريقى

وكانت أعرابية ترقص ولدها وتقول:

يا حبَّذا ريحُ الولدْ ... ريحَ الخزامى فى البلدْ
أهكذا كلُّ ولدْ ... أم لم يلدْ مثلى أحدْ

وكان أعرابى يرقص ولده ويقول:

أحبُّه حبَّ الشحيحِ مالَهُ ... قد ذاقَ طعمَ الفقرِ ثمَّ نالَهُ
إذا أراد بَذْلَهُ بدا[4] لَهُ

وكان لأعرابى امرأتان: فولدت إحداهما جارية، والأخرى غلامًا فرقصته أمه يومًا. وقالت معايرة لضرتها:

الحمدُ للّه الحميدِ العَالى ... أنقذَنى العامَ من الحوالى[5]
مِن كلِّ شوهاءَ كشَنّ بالى ... لا تدفعُ الضيمَ عن العيالِ

---

(١) الدَّن: وعاء.
(٢) اللحد: القبر.
(٣) عاف النساء: لم يقبل عليهن.
(٤) بدا له: أى بدا له بداءَ.
(٥) الحوالى: التطواف.

فسمعتها ضرّتها فأقبلت ترقص ابنتها وتقول:

ومـا علـىَّ أن تكـونَ جاريَـةْ ... تَغْسلُ رَأسى وتكـونُ الفاليَـةْ[١]

وترفـعُ السـاقطَ مـن خماريَـةْ ... حتـى إذا مـا بلغَـتْ ثمانيـةْ

أزَرْتُهـا بنقبـةٍ يمانيـةْ ... أنكَحْتُهـا مـروانَ أو معاويَـةْ

أصهـارُ صـدقٍ ومهـورٌ غاليَـةْ

قال: فسمعها مروان فتزوجها على مائة ألف مثقال، وقال: إن أمها حقيقة[٢] أن لا يكذب ظنها، ولا يخان عهدها. فقال معاوية: لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر، ولكن لا تحرم الصلة، فبعث إليها بمائتى ألف درهم. والله أعلم.

ومما جاء فى الأولاد البلداء القليلى التوفيق: قيل: نظر أعرابى إلى ولد له قبيح المنظر، فقال له: يا بنىّ إنك لست من زينة الحياة الدنيا. وقال رجل لولده وهو فى المكتب: فى أىّ سورة أنت؟ قال: لا أقسم بهذا البلد، ووالدى بلا ولد. فقال: لعمرى مَنْ كنت أنت ولده فهو بلا ولد. وأرسل رجل ولده يشترى له رشاء[٣] للبئر طوله عشرون ذراعًا، فوصل إلى نصف الطريق ثم رجع فقال: يا أبت عشرون فى عرض كم؟ قال: فى عرض مصيبتي فيك يا بنىّ. وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة فبينما هو يمشى مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب يا عبد الله، فلم يجبه ذلك الشاب. فقال: ألا تسمع؟ فقال: يا عم كلنا عبيد الله فأى عبد الله تعنى؟ فالتفت أبو حمزة إليه وقال: يا حمزة ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب؟ فلما كان من الغد إذا برجل ينادى شابًا: يا حمزة، فقال حمزة بن الأعرابى كلنا حماميز الله، فأى حمزة تعنى؟ فقال له أبوه: ليس يعنيك يا من أخمد الله به ذكر أبيه.

وكان لمحمد بن بشير الشاعر ابن جسيم، فأرسله فى حاجته فأبطأ عليه ثم عاد ولم يقضها فنظر إليه ثم قال:

عقلُـهُ عقـلُ طـائر ... وهـو فـى خلقـةِ الجمَـلْ

فأجابه:

مشـبهٌ بـكَ يـا أبـى ... ليـس لى عنـك منتقَـلْ

ونهى أعرابىّ ابنه عن شرب النبيذ فلم ينته، وقال:

أمِن شربةٍ من ماء كرمٍ شربتَها ... غضبْتَ علىّ الآن طابَتْ لى الخمرُ

سأشربُ فاسخَطْ لا رضيتَ كلاهما ... حبيبٌ إلى قلبى، عقوقُك[٤] والسكرُ

وقيل: قال ذلك يزيد بن معاوية لأبيه حين نهاه عن شرب الخمر.

ومما جاء فى صلة الرحم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صلة الرحم منجاة للولد مثراة للمال» وقيل: وجد حجر حين حفر إبراهيم الخليل عليه السلام أساس البيت مكتوب عليه بالعبرانية: أنا الله ذو بكة[٥] خلقت الرحم، وشققت لها أسماء من أسمائى، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته أى قطعته. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعجل الخير ثوابًا، صلة الرحم» وحدثنا أبو سهل عن صالح بن جرير بن عبد الحميد عن منصور عن عطاء بن أبى مروان عن أبيه عن كعب الأحبار أنه قال: والذى فلق البحر لموسى بن عمران إن فى التوراة لمكتوب: يا ابن آدم اتقِ ربَّك، وبرّ والدَيْك، وصِلْ رَحِمَكَ أزدْ فى عمرك، وأُيَسِّرْ لك فى يسيرك، وأصرِفْ عنك

(١) الفالية: التى تفلى الشعر، تنظفه.
(٢) حقيقة: جديرة.
(٣) الرشاء: الحبل يكون للبئر.
(٤) عقوقك: عصيانك.
(٥) ذو بكة: غلبة وشدة.

عسيرك. وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وصدقة السرّ تطفئ غضب الرب جلّ وعلا، وصلة الرحم تزيد فى العمر» وذكر تمام الحديث.

الفصل الثالث فى ذكر الأنساب والأقارب والعشيرة

قال عمر رضى الله عنه: تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم، فتصلوا بها أرحامكم. وقيل: لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء وتنازع الأكفاء[1]، لكان تعلّمها من أحزم الرأى، وأفضل الثواب، ألا ترى إلى قول قوم شعيب عليه السلام حيث قالوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾[2] فأبقوا عليه لرهطه. وقال عمر رضى الله عنه: تعلموا العربية فإنها تزيد فى المروءة، وتعلموا النسب فرُب رحم مجهولة قد وصلت بعرفان نسبها. وسئل عيسى عليه السلام: أىّ الناس أشرف؟ فقبض قبضتين من تراب وقال: أى هاتين أشرف؟ ثم جمعهما وطرحهما، وقال: الناس كلهم من تراب: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3]. كان أبو كبشة جدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أمه، فلما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم دين قريش قالوا: نزعه عرق أبى كبشة، حيث خالفهم فى عبادة الشعرى. وقال خالد بن عبد الله القسرى سألت واصل بن عطاء عن نسبه، ومن حفظه فقد حفظ نسبه، فقال: نسبى الإسلام الذى مَنْ ضيَّعه فقد ضيع نسبه، ومن حفظه فقد حفظ نسبه، فقال خالد: وجه عبد وكلام حرّ. ومن كلام علىّ كرم الله وجهه: أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذى به تطير، فإنك بهم تصول، وبهم تطول، وهم العدّة عند الشدّة، أكرم كريمهم، وعد سقيمهم، وأشركهم فى أمورك، ويسر عن معسرهم. وكان يقال: إذا كان لك قريب فلم تمش إليه برجلك، ولم تعطه من مالك فقد قطعته. ويقال: حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر، وحنو الأكبر على الأصغر. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على والده» قال بعضهم:

وإذا رُزقتَ من النوافلِ ثروةً ... فامنحْ عشيرتَكَ الأدانى فضلَهَا
واعلَمْ بأنّك لاَ تَسوّدُ فيهم ... حتى ترى دمثَ الخلائقِ سهلَهَا

(١) الأكفاء: الأنداد.
(٢) سورة هود: ٩١.
(٣) سورة الحجرات: ١٣.

الباب السادس والأربعون فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقبيح والطول والقصر والألوان والثياب وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول فى الحسن ومحاسن الأخلاق

وإلى سيدنا محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ينتهى الحسن والجمال.

كان سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم ربعة من القوم، لا بائنًا من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، أبيض اللون، مشربًا بحمرة، أدعج[١] العينين، مفلج الثنايا[٢] دقيق المسْربة[٣] ، أزهر الجبين، واضح الخد، أقنى الأنف كأن عنقه إبريق فضة، ظاهر الوضاءة، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر، شثن[٤] الكفين، مسيح القدمين، واسع الصدر من لبته إلى سرّته شعره يجرى كالقضيب، ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، لم يبلغ شيبه فى رأسه ولحيته عشرين شعرة، ضخم الكراديس[٥] ، أنور المتجرد، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعًا، بين كتفيه خاتم النبوّة كأنه زرّ حجلة، أو بيض حمامة لونه كلون جسده، أبلج الوجه حسن الخلق، وسيمًا قسيمًا، فى جبينه زجج[٦] ، وفى عينيه دعج، وفى عنقه سطع، وفى لحيته كثافة، إن صَمَتَ فعليه الوقار، وإن تكلّم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأكملهم من قريب، كأنما منطقه خرزات نظم يتحدّرن، قال أنس رضى اللّه عنه: ما ريت من ذى لمة سوداء فى حلة حمراء أحسن من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ومدحه صلى اللّه عليه وسلم حسان بن ثابت، رضى اللّه عنه فقال:

وأحسـنَ منـك لم تَـرَ قـطّ عينـى ... وأجْمَـلُ مِنْـك لَـم تَلِـدِ النّسـاءُ
خَلِقْـتَ مُـبرّأ مـن كـلّ عيـبٍ ... كـأنّك قـد خَلِقْـتَ كَمـا تَشـاءُ

اللّهمّ صلّى وسلم عليه واجعله شفيعًا لمن يصلى عليه. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «ما حسن اللّه خلق عبد وخلقه إلا استحيا أن يطعم لحمه النار». وقد كان المتوكل رحمه اللّه من أحسن الخلفاء العباسيين وجهًا، وأبهاهم منظرًا، وكان مصعب بن الزبير من أحسن الناس وجهًا.

وحكى أنه كان جالسًا بفناء داره يومًا بالبصرة إذ جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه، فقال لها: ما وقوفك يرحمك اللّه؟ فقالت: طفئ مصباحنا، فجئنا نقتبس من وجهك مصباحًا. وقيل لأعرابية ظريفة: ما بال شفتيك مشققة؟ فقالت: إن التين إذا حلا تشقق، والورد يتشقق إذا مسه الندى. وكانت لبابة بنت عبد اللّه بن عباس رضى اللّه تعالى عنهم، من أجمل الناس وجهًا، وكانت عند الوليد بن عتبة بن أبى سفيان فكانت تقول: ما نظرت وجهى فى مرآة مع إنسان إلا رحمته من حسن وجهى، إلا الوليد، فكنت إذا نظرت إلى وجهى مع وجهه رحمت وجهى من حسن وجهه.

قال الشاعر:

ولـو أنهـا فـى عهـدِ يوسـفَ قطّعَـتْ ... قلـوبَ رجـالٍ، لا أكـفَّ نسـاءِ

---

(١) أدعج: راسع.
(٢) الثنايا: الأسنان في مقدمة الفم.
(٣) المسربة: شعر ما بين السرَّة والعانة.
(٤) شثن: خشن.
(٥) الكراديس: رؤوس العظام.
(٦) زجج: كثافة في شعر الحاجبين.

وقال كثير:

ولو أن عَزَّةَ حاكَمَتْ شَمْسَ الضُّحى ... فى الحُسنِ عند موفقٍ[(١)] لقضى لها

ومما جاء فى محاسن الخلق منظومًا على الترتيب، من الفرق إلى القَدَم.

ما قيل فى الشعر: كان يقال: مَنْ تزوّج امرأة أو اتخذ جارية فليستحسن من شَعرها، فإن الشَّعر الحسن أحد الوجهين. قال بكر بن النطاح:

بيضاءُ تسحبُ من قيامِ شَعْرَهَا ... وتغيبُ فيه وهو وَجهٌ أسحمُ[(٢)]

فكأنها فيه نَهارٌ ساطعٌ ... وكأنّهُ ليلٌ عليها مُظلمُ

وللمتنبى:

نشرَتْ ثلاثَ ذوائبٍ من شَعرِها ... فى ليلةٍ فأرَتْ ليالىَ أربعا

واستقبلَتْ قَمَرَ الزمانِ بِوَجْهِهَا ... فأرتنى القمرَيْن فى وقتٍ معا

وله أيضًا:

لبسنَ الوشىَ لامتجملاتٍ ... ولكن كى يُصَنَّ[(٣)] به الجمالا

وضَفَّرْنَ الغدائرَ لا لحسنٍ ... ولكن خِفْنَ فى الشَّعرِ الضلالا

وقال الصفدى:

لولا شَفاعةَ شَعرِهِ فى صبِّه ... ما كان زار ولا أزال سُقاما

لكن تنازَلَ فى الشفاعةِ عنده ... فغدا على أقدامِهِ يترامى

وقال ابن الصائغ:

ثنى غُصْنًا ومدَّ عليه فَرْعا ... كحظِّى حينَ أطلبُ منه وَصْلا

وبلبَلَهُ[(٤)] على الأردافِ منه ... فلم أرَ مثلَ ذاكَ الفرعِ أصلا

وقال آخر:

أرخَى ثلاثًا يومَ حمامِهِ ... ذوائبًا تعبقُ منها الغوال[(٥)]

فقلتُ والقصدُ ذؤاباتُهُ ... واسَهَرِى فى ذى الليالِ الطوالِ

وقال آخر:

بَدَت ثُريا قِرطها وشَعْرُها ... متَّصِلٌ بكعبهَا كما تَرى

يا عبجًا لشَعرها لما ابتَدَى ... من الثريَّا فانتهى إلى الثَّرى

وقال ابن المعتز:

توارَتْ عن الواشى بليلٍ ذوائبٍ ... لها من محيا واضح تحته فجرُ

يغطّى عليها شَعرُها بظلامِهِ ... وفى الليلةِ الظّلماءِ يُفتقَدُ البدرُ

(١) موفق: قاض مشهور فى الحقبة الأموية.

(٢) أسحم: بالغ السوداء.

(٣) يُصَنَّ: يحمين ويحفظن.

(٤) بلبَلَه: فرقه.

(٥) اسم لطيب.

ومما قيل فى الأصداغ: قال ابن المعتز:

ريمٌ بتيهُ بحُسْنِ صورتِهِ عَبَثَ النّعاسُ بلَحْظِ مُقْلَتِهِ
وكأنَّ عقربَ صَدْغِهِ وقفَتْ لما دَنَتْ من وَرْدِ وجنتِهِ

وقال العادلى:

وعهدِى بالعقاربِ حينَ تشتُو يخفّفُ لدغُهَا ويقلُّ ضرّا
فما بالُ الشِّتاءِ أتى وهذى عقاربُ صَدْغِها تزدَادُ شرّا

وقال آخر:

وما ضرَّهُ نارٌ بخدَّيْهِ ألهبَتْ ولكنْ بها قلبُ المحبِّ يعذّبُ
عناقيدُ صدغَيْهِ بخدَّيْهِ تلتَوى وأمواجُ رِدْفَيْهِ بخَصْرَيْهِ تلعبُ
شربتُ الهوى صرفًا زلالاً وإنما لواحظُهُ تسقِى وقلبِى يشرَبُ

وقال آخر:

حلَّ القبا(١) ولوى صدغَيْهِ فانعقدَا واحيرَتى بينَ محلولٍ ومعقودِ
وأسكرتنى ثناياه وريقتُهُ هل هذهِ الخمرُ من تلك العناقيدِ؟

ومما قيل فى مدح العذار(٢) . قال أبو فراس بن حمدان:

يا مَنْ يلومُ على هواه جهالةً انظُرْ إلى تِلْكَ السَّوالفِ تعذَرِ
حَسُنَتْ وطابَ نسيمُها فكأنها مسكٌ تساقَطَ فوقَ خدّ أحمرِ

وقال محمد بن وهب:

صدودُك والهوَى هَتَكا استتارى(٣) وساعَدنى البكاءُ على اشتِهَارى
وكم أبصَرْتُ مِن حُسنٍ ولكنْ عليكَ لشقوتى وقعَ اختيارى
ولم أخلَعْ عذارًا فيكَ إلا لما عاينْتَ من خَلْعِ العذارِ

وقال آخر:

ومعذرٍ(٤) رقّتْ حواشى خدِّه فقلوبُنا وَجْدًا عليه رقاقُ
لم يكسُ عارضَهُ السوادُ وإنما نفضَتْ عليه سوادَهَا الأحداقُ

وقال آخر:

ومهفهفٍ(٥) راقَتْ نضارةَ وجهِهِ والعينُ تنظرُ منه أحسنَ منظرِ
أصلَى بنارِ الخدِّ عنبرُ خالِهِ فبدَا العذارُ دخانَ ذاكَ العنبرِ

وقال آخر:

أصبَحْتَ سلطانَ القلوبِ ملاحةً وجمالُ وجهِكَ للبريَّةِ عسكرُ
طلعَتْ طلائعُ وجنتَيْكَ منيرةً بالنصرِ يقدمُها اللواءُ الأخضرُ

---

(١) القباء: رداء.
(٢) العذار: السالف.
(٣) أى: فضحا ما أخفيه.
(٤) معذر: نابت العذار.
(٥) المهفهف: ضامر البطن.

وقال آخر:

يـا ذا الـذى خـطّ العـذارَ بخـدِّهِ ... خطّيْـن هاجَـا لوعـةً وبلابـلا
مـا صحَّ عنـدى أنَّ لحظَـكَ صـارمٌ ... حتـى حملـتَ بعـارضَيْكِ حمـائلا

وقال آخر:

مَنْ لا أرى كعبةَ الحسنِ التى حُرِسَتْ ... بـالنملِ حيثُ مقامُ النحلِ فى فمـهِ
فليُنظَرِ النملُ أضحَى فوقَ عارضِـهِ ... يطوفُ سبعًا وسبعًا حول مبسـمهِ

وقال بدر الدين الدمامينى:

يحـدِّثَ ليـلُ عارضِـهِ بـأنّى ... سأسـلوهُ وينصـرمُ المـزارُ
فأشـرَقَ صُبْـحُ غُرّتِـهِ يُنـادى ... حديـثَ الليـلِ يمحـوهُ النهـارُ

وقال آخر:

وقـالوا تسـلّى فقَـدْ شـانَهُ ... عـذارٌ أراحَـكَ مـن صـدِّهِ
فقلـتُ وَهِمْتُـمْ ولكنّنـى ... خلعـتُ العـذارَ علـى خـدِّهِ

وقال سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء:

علـى وجنتَيْـه جنّـةٌ ذاتُ بهجـةٍ ... تَـرى لعيـونِ النـاسِ فيهـا تزاحُمَـا
حمـى ورد خديـه حمـاة عـذاره ... فيا حسنَ ريحانَ العذارِ حِمًا حَمَى

وقال ابن نباتة:

وبمهجتـى رشـا يميـسُ قوامُـهُ ... فكأنّـهُ نشـوانُ مـن شـفتَيْهِ
شـغفَ العـذارُ بخـدِّهِ ورآهُ قـد ... نعسَـتْ لواحِظُـهُ فـدَبَّ علَيْـهِ

وقال الموصلى:

لحديـثِ نَبْـتِ العـارضَيْنِ حـلاوة ... وطـلاوة هـامَتْ بهـا العشـاقُ
فـإذا نهـانى المـرءُ قلـتُ ترفّقـوا ... فـإليكم هـذا الحديـثَ يُسَـاقُ

وقال آخر:

أصبحـتُ مكسُـورًا بَسـهم لحاظِـهِ ... ومقيَّـدًا مـن صَدْغِـهِ بلسـانِهِ
حتّـى بـدا سـيفُ العـذارِ مجـرَّدًا ... فخشـيتُ يقتُلنـى وذا مِـن شـأنِهِ

وقال آخر:

يـا صـاحِ قـد حضـرَ المـدامُ ومُنيتـى ... وحظيـتُ بعـدَ الهجـرِ بالإينـاسِ
وكسَـا العـذارُ الخدَّ حُسنا فاسْـقِنى ... واجعَلْ حديثَكَ كلَّـهُ فـى الكـاسِ

وقال ابن نباتة:

وضعـتُ سـلاحَ الصبرِ عنهُ فما لَـهُ ... يغـازِلُ بالألحـاظِ مَـنْ لا يغازِلُـهْ
وسـالَ عـذارٌ فـوقَ خدَّيْـهِ سـائلٌ ... علـى خـدِّه فَلْيَتّـقِ اللّـه سـائِلَهْ

ومما قيل فى ذم العذار. قال الشاعر:

غَـدَا لمـا التَحَـى ليـلاً بهيمًـا ... وكـانَ كأنّـهُ قمـرٌ منـيرُ
وقـد كتـبَ السـوادَ بعارضَيْـهِ ... لمَـنْ يقـرأُ وجـاءَكُمُ النذيـرُ

وقال آخر فى ذمه:

قلتُ لأصحابى وقد مرَّ بى ... منتقبًا بعد الضِّيا بالظّلَمِ
باللّهِ يا أهلَ وَدِّى قِفُوا ... ثمَّ انْظُروا كيفَ زوالُ النِّعَمِ

وقال آخر:

ما زالَ ينتفُ ريحانًا بعارضِهِ ... حتى استطالَ عليه صارَ يحلقَهُ
كأنما طَور سينا فوق عارضِهِ ... طولَ الزمان فموسى لا يفارِقُهُ

وقال آخر:

ما زالَ يحلفُ لى بكلِّ أليةٍ ... أن لا يزالَ مدى الزمانِ مصاحبى
لّما جُنَّ نزالُ العذارِ بخدِّه ... فتعجَّبوا لسوادِ وجهِ الكاذبِ

وقال ابن المعتز:

يا ربُّ إن لم يكُنْ فى وصلِهِ طَمَعٌ ... ولم يكن فَرَجٌ من طولِ جَفْوَتِهِ
فاشفِ السقامَ الذى فى لَحْظِ مقلتِهِ ... واستُرْ ملاحةَ خدَّيْهِ بلحيتِهِ

ومما قيل فى الجبين والحواجب. قال خالد الكاتب:

لها من ظباءِ الرملِ عينٌ مريضةٌ ... ومن ناضر الريحانِ خضرةُ حاجبِ
ومن يانعِ الأغصانِ قدٌّ وقامةٌ ... ومن حالكِ الحبرِ اسودادُ الذوائبِ

وقال آخر:

غزانى الهوَى فى جيشِهِ وجنودِهِ ... وهبَّ علىَّ الجيشُ مِن كُلِّ جانبِ
بميسرةِ أجنادِهَا أعينُ المها ... وميمَنَة تقضِى بزَجِّ الحَوَاجِبِ

وقال آخر:

أيا قمرًا تبسَّمَ عن إقاحِ ... ويا غصنًا يميلُ مع الرياحِ
جبينُك والمقبلُ والثنايا ... صباحًا فى صباحٍ فى صباحِ

ومما قيل فى العيون.

قال الأصمعى ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع فى قوله:

وكأنما دونَ النساءِ أعارَها ... عَيْنَيْهِ أحورَ من جآذرِ[1] جاسِمِ
وَسْنَانُ أقصدَهُ النعاسُ تلاعَبَتْ ... فى جفنِهِ سِنَةٌ وليسَ بنائِمِ

وقال ابن المعتز:

عليمٌ بما تحتَ العيونِ من الهوى ... سريعٌ بكَسْرِ اللحظِ والقلبُ جازعُ
فيجرحُ أحشائى بعينٍ مريضةٍ ... كما لانَ مَتْنُ السيفِ والحدُّ قاطعُ

وقال الأخطل:

ولا تلمَمْ بدارِ بنى كليبٍ ... ولا تقرَبْ لها أبدًا رِحَالا

---

(١) جَاذرِ مفرد: جؤذر: ولد النعامة.

تـــرى فيهـــا بـــوارقَ مرهفـــاتٍ ... يَكَـدْنَ يُكِـدْنَ(١) بـالحرقِ الرجـــالا

وقال أبو فراس وأحسن:

وبيـــضٌ بألحـــاظِ العيـــونِ كأنمـــا ... هــزَزْنَ ســيوفًا واســتَلَلْنَ خنــاجرَا
تصدَّيْــنَ لى يومًـــا بمنعـــرجِ اللِّـــوى ... فغـــادَرْنَ قلبـــى بـــالتصبُّرِ غـــادِرَا
ســـفَرْنَ بـــدُورا وانتَقَبْـــنَ أهلَّـــةً ... ومِسْــنَ غصونًــا والتَفَتْــنَ جَــآذرا(٢)

وقال آخر:

ومريـض جفـنٍ ليس يصـرفُ طرفَــهُ ... نحـــو امـــرىءٍ إلاَّ رمـــاهُ بحَتْفِـــهِ
قـــد قلـــتُ إذ أبصرتُـــهُ متمـــايلاً ... والـردفُ يجذبُ خصـرَهُ مـن خلفِـهِ
يـا مـن يُسَـلِّمُ خصـرَهُ مـن ردفِـهِ ... سَـلِّمْ فـؤاد محبِّـــهِ مِـــن طَرْفِـــهِ

وقال أبو هتان:

أخُـــو دنـــفٍ(٣) رَمَتْـــهُ فأقْصَدَتْـــهُ ... ســـهامٌ مـــن جفونِـــكَ لا تطيـــشُ
فَواتِـكُ لا يقـــالُ سِـوَى احـــورارٍ ... بهـنَّ ولا سـوى الأهـــدابِ ريـــشُ
أصَبْـــنَ فـــؤادَ مهجتِـــهِ فـــأضحَى ... ســـقيمًا لا يمـــوتُ ولا يعيـــشُ
كئيبًـــا إن تَرَحَّـــلَ عنـــهُ جيـــشٌ ... مـــن البَلْـــوى أنـــاخَ بـــه جيـــوشُ

وقال آخر:

وجَـــاءوا إليـــهِ بالتعـــاويذِ والرقـــى ... فصبُّوا عليه الماءَ من شدَّةِ النكسِ
وقـالوا بـه مِـن أعْيُـنِ الجـنِّ نظـرةٌ ... ولـو أنصفُوا قـالوا بـهِ أعـينُ الإنـسِ

وقال عز الدين الموصلى:

لهـــا عـــينٌ لهـــا غَـــزْوٌ وغـــزلٌ ... مكحَّلـــةٌ ولى عـــينٌ تبـــاكَتْ
وحـــاكَتْ فـــى فعائِلِهَـــا المواضـــى ... فيـا لـكِ مقالـةً غَزَلَـتْ وحَـاكَتْ

وقال برهان الدين القيراطى:

شَـبَهُ السـيفِ والســـنانِ بعَيْنـــى ... مَـنْ لقتلـى بـينَ الأنـامِ اسـتَحَلاَّ
فـــأتى الســـيفُ والســـنانُ وقـــالا ... حَدُّنـــا دونَ ذاك حاشـــى وكـــلاَّ

وله أيضًا:

بـــأبى أهيـــفُ المعـــاطفِ لَـــدْنٌ ... حَسَـدَ الأسمـرُ المثقَّـفُ قَـدَّه(٤)
ذو جفـونٍ مـذ رمـتُ منهـا كلامًـا ... كلَّمَتْنـــى ســـيوفُهُنَّ بحَـــدِّه

---

(١) يَكَدْنَ يُكِدْنَ: أى يقاربن إكداد الرجال.
(٢) جآذرا: أربع أوصاف: بدور عند الأسفار. أهلة عند الانتقاب. غصوناً في التثنى. جآذراً في رشاقة الالتفات.
(٣) الدنف: شدة السقم.
(٤) قَدَّه: أى حده.

وقال بدر الدين بن حبيب:

عينـاهُ قـد شـهدَتْ بـأنىَ مخطـئُ وأتـتْ بخـطّ عـذارِهِ تذكـارا
يـا حـاكمَ الحـبِ اتئِـدْ فـى قتلتـى فـالخطّ زورٌ والشـهودُ سُـكارى

وقال جلال الدين بن خطيب دارايا:

شـهدَتْ جفـونُ معذّبـى بملالـةٍ منـى وأنّ ودادَهُ تكليـفُ
لكنّنـى لم أنّـا عنـهُ لأنّـهُ خـبرٌ رواهُ الجفـنُ وهـوَ ضعيـفُ

وقال الشيخ عز الدين الموصلي:

يـا مقلـة[1] الحـبِّ مهـلاً فقَـدْ أخَـذْتِ بثـارِكِ
وأنـتَ يـا وجَنْيـهِ لا تحرقينـى بنـارِكِ

وقال ابن الصائغ:

لمثلـى مِـن لواحِظِهَـا سـهامٌ لهـا فـى القلـب فَتْـكٌ أىُّ فتـكِ
إذا رامَـتْ تشـكُّ فـؤادًا يمـوتُ المسـتهامُ بغـيرِ شَـكّ

وقال الصلاح الصفدى:

يـا عـاذلىَ علـى عـينٍ محجَّبـةٍ خفْ سحرَ ناظرِهَا فالسحرُ فيه خَفِى
وخَذْ فـؤادى ودَعْهُ نَصْـبَ مقلَتِهَـا لا تَرمِ نفسَك بينَ السهمِ والهَدفِ

وقال آخر:

بسـهْمِ أجفانِـهِ رمـانى فذُبْـتُ مـن هَجـرِهِ وبينِـهْ
إنْ مُـتُّ مـا لى سُـواهُ خصـمٌ لأنـهُ قـاتِلى بعَيْنِـهْ

وقال آخر:

سـهامُ الجفـنِ كـم قتلـت لنفـسٍ مـبرَّأةٍ مـن السـلوى زكيَّـهْ
فمـا أقـوى جفونَـك وهـى مرضـى وأقدَرَهـا علـى قَتْـلِ البرِيَّـهْ

ومما قيل فى الخال للصلاح الصفدى:

بروحـى خـدُّه المحمَـرُّ أضحـى عليـه شـامةٌ شَـرْطَ المحَبَّـهْ
كـأن الحسـنَ يعشـقُهُ قديمًـا فنقَطَّـهُ بدينـارٍ وحَبَّـهْ

ولابن الصائغ:

بروحـىَ أفـدى خالَـهُ فـوقَ خـدِّه ومَنْ أنا فـى الدنيـا فأفديـهِ بالمالِ
تبـاركَ مَنْ أخلَى من الشَّـعْرِ خـدَّه وأسكَنَ كلَّ الحسن فى ذلك الخالِ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

للّـه خـالٌ علـى خـدِّ الحبيـبِ لـهُ فى العاشقين كما شاءَ الهوى عبثَ
أورَثْتـهُ حبَّـةَ القلـبِ القتيـلِ بـه وكَان عَهدى بأنَّ الخـالَ لا يـرثَ

---

(١) المقلة: العين.

وقال آخر:

يــا ســالبًا قمــرَ الســماءِ جمالَــهُ ... ألْبَسْــتَنى فــى الحــزن ثــوبَ سمائِــهِ
أحرَقْــتَ قلبــى فــارثِمى بشــرارةٍ ... علقَــتْ بخــدِّكَ فــانطَفَتْ فــى مائِــهِ

وللشيخ تقىّ الدين بن حجة:

قلـــــتُ للخـــــال إذْ بَـــــدَا ... فـــى نقَـــا جيـــدِهِ الســـعيدِ
فـــزتَ يـــا عبـــدُ قـــال لى ... أنـــا عبـــدٌ لِكُـــلِّ جيـــدِ

وقال ابن أبيك:

فـى الجـانبِ الأيمـنِ مـن خدِّهـا ... نقطـةَ مسـكٍ أشـتهى شَـمَّهَا
حســبْتُهُ لمــا بَــدَا خَالَهــا ... وَجَدْتُــهُ مــن حُسْــنِهَا عَمَّهَــا

وقال الحسين بن الضحاك:

يــا صــائدَ الطــيرِ كَــمْ ذا ... بــاللحظِ تَضنــى وتَســبى
نصَبْــتَ نقطــةَ خــالِ ... فَصِــدْتَ طــائرَ قلبــى

ومما قيل فى الخدود. قال ابن المعتز:

صِـلْ بخـدى خدَّيْـك تلـقَ عجيبًـا ... مـن معـانٍ يحـارُ فيهـا الضمـيرُ
فبخدَّيْــكَ للــربيعِ ريــاضٌ ... وبخــدَّىَّ للدمــوع غديــرُ

وقال آخر:

وردُ الخـدودِ ونرجـسُ اللحظـاتِ ... وتصـافُحُ الشـفتَيْن فـى الخلـواتِ
شـىءٌ أسـرُّ بـه وأعلـمُ أنـهُ ... وحياتِـه أحلـى مـن اللـذاتِ

ومما قيل فى الثغور. قال يوسف بن مسعود الصوّاف:

بروحـىَ مَـنْ ولّـى[(١)] فولّـى بمهجتـى ... وولى مَنامى وهـو كـالوَصْلِ شـاردُ
حَمَـى ثغـرَهُ منـى بسـيفِ لحاظِـهِ ... وحتّامَ يحمـى ثغـرَهُ وهـو بـاردُ

وقال آخر:

أنفَقْـتُ كـنزَ مدامعـى فـى ثغـرِهِ ... وجمَعْـتُ فيـه كـلَّ معنـىً شـاردِ
وطلبـتُ منـه جـزاءَ ذلـك قبلـةَ ... فمضَـى وراحِ تغـزُّلى فـى البـاردِ

وقال آخر:

رأى ثغر مَنْ أهـوى عـذولى فقـال لى ... ولم يَدْرِ أنَّ اللومَ فـى خـدِّه يغـرى
شـغلتُ بهـذا وارتبطـتُ بحسـنِهِ ... وأحسنُ ما كان الرباطَ على ثغرِ[(٢)]

وقال ابن ريان:

لاحَـتْ علـى مبسـمِهِ المشـتهى ... ثـلاثُ شـاماتٍ غـدَتْ فـى التئـامِ
لا تعجَبُـوا إن كَـثُرَتْ حولـه ... فـالمنهَلُ العـذبُ كثـيرُ الزحـامِ

---

(١) ولّى: أعرض.
(٢) الثغر: الفم وكذلك الخدود.

ومما قيل فى طيب الريق والنكهة. قال ذو الرمة:

أسيلةَ مجرَى الدمعِ هيفاءُ طَفْلَةٌ ... عروبٌ(١) كإيماضِ الغمامِ ابتسامُهَا
كأنَّ على فيها وما ذقتُ طَعْمَهُ ... زجاجةَ خمرٍ طابَ فيها مُدامُهَا

قال شهاب الدين الكردى:

ذكرتُ ريحَ حبيبى ... بشرب راحٍ تعطَّر
وليس ذا بعجيبٍ ... فالشئ بالشئ يُذكر

وقال غيره:

رَشَفْتُ ريقَكِ حُلْوًا ... ولم يكن لى صَبْرُ
وسوفَ أحظَى بوصلٍ ... فأوَّلُ الغيثَ قَطْرُ

وقال الصلاح الصفدى:

نقلَ الأراكُ بأنَّ ريقةَ ثغرهِ ... من قهوةٍ مُزِجَتْ بماءِ الكوثرِ
قد صحَّ ما نقلَ الأراكُ(٢) لأنه ... يرويه نصًّا عن صحاحِ الجوهرى

وقال آخر:

ثلاثٌ تجمَّعنَ فى ثغرهَا ... ملاحٌ أدلَّتهَا واضحَهْ
فإن قيلَ ما هىَ قُلْ لى أقُلْ ... هىَّ الطعمُ واللونُ والرائحَهْ

وقال آخر:

يا رُبَّ ممتنعِ الوصالِ محجَّبٌ ... بستورهِ كالبَدْرِ بينَ غيومِهِ
دارَتْ مراشفُهُ علىَّ وكأسُهُ ... فسكرتُ فى الحالَيْنِ من خرطومِهِ

وقال آخر:

أريقًا من رضابك أم رحيقًا ... رشفت فكدت(٣) منه فلن أفيقا
وللصهباء أسماء ولكن ... جهلت بأن فى الأسماء ريقا

ومما قيل فى حسن الحديث. قال البحترى:

ولما التقَيْنَا والنقا مَوْعدٌ لنا ... تعجَّبَ رائى الدُّرِّ حُسْنًا ولاقطَهْ
فمن لؤلؤ تجلوهُ عندَ ابتسامِها ... ومن لؤلؤ عندَ الحديثِ تساقطَهْ

وقال سلم الخاسر:

ظَلَلْنَا فبتنا عندَ أمِّ مُحمَّدٍ ... بيومٍ ولم نشرَبْ شَرابًا ولا خمرا
إذا صمتَتْ عنّا ضَجرنا لصَمْتِها ... وإن نطقَتْ هَاجَتْ لألبابنا سُكرا

وقال ابن الرومى:

يمسى ويصبحُ معرِضًا فكأنَّهُ ... مَلِكٌ عزيزٌ قاهرٌ سلطانه

---

(١) عروبٌ: عفيفة عن الفحش.
(٢) الأراك: نبت طيب العرق.
(٣) كدت: تعبت.

ليست إساءَتُهُ بناقصةٍ لَهُ ... درٌّ يساقطه إليَّ لسانه

وما أحسن هذه الأبيات، وهي من طارف الشعر ووافره وناقده، وجيد الكلام، وبارع الوصف:

وكُل حديثِ النّاس إلاّ حديثَها ... رجيعٌ وفيما حدَّثَتْكَ الطرائفُ

جرَحْنَ بأعناق الظباء وأعينِ الـ ... ـجآذرِ وارتَجَّتْ بهنَّ الروادفُ

رجَحْنَ بأردافٍ ثقالٍ وأسوقٍ ... خِدالٍ وأعضاءٍ عليها المطارفُ

ومما قيل فى رقة البشرة. قال ابن المعتز[1]:

نضَتْ عنها القميصَ لِصَبِّ ماءٍ ... فورَّد خدَّها فَرْطَ الحياءِ

وقابَلَتِ الهواءَ وقدْ تَعَرَّتْ ... بمعتدِلٍ أرقَّ مِنَ الهَوَاءِ

ومدَّتْ راحةً كالماءِ منها ... إلى ماءٍ مُعَدٍّ فى إناءِ

فلمَّا أنْ قَضَتْ وَطَرًا وَهَمَّتْ ... عَلَى عَجَلٍ إلى أخذِ الرداءِ

رأتْ شخصَ الرقيبِ على التداني ... فأسْبَلَتِ الظلامَ على الضياءَ

فغابَ الصبحُ منها تحتَ ليلٍ ... وظلَّ الماءُ يقطرُ فوقَ ماءِ

وقال آخر:

تغيَّرَ عنِ مودَّتِهِ وحالا[2] ... وكان مواصلاً فطوى الوصَالا

وعلمَّهُ التدلُّل كيفَ هَجْرى ... فليتَ الوصلَ كانَ لَهُ دَلالا

ترَى من فوق حقويه[3] قضيبًا ... إذا ما حَرَّكَتْهُ خَطاه مالا

إذا كلّمتَهُ أثّرتَ فيه ... وإن حرَّكتَهُ فالخمرُ سالا

وقال بشار:

وما ظفرت عينى غداة لقيتَها ... بشيءِ سوى أطرافِها والمحاجر[4]

كحوراءِ من حور الجنانِ غريرةٍ[5] ... يَرى وجهَهُ فى وجهها كلُّ ناظرِ

ومنه أخذ أبو نواس قوله:

نظرتُ إلى وجهِهِ نظرةً ... فأبصَرْتُ وجهى فى وجهِهِ

وقال آخر:

توهَّمه قلبى فأصبحَ خدُّه ... وفيه مكانُ الوهمِ من نظرى أثَرْ

ومَرَّ بفكرى جسمَه فجَرَحْتَه ... ولم أر جسمًا قطّ تجرحُهُ الفكَرْ

وقال آخر:

سقى اللّهُ روضًا قد تبدَّى لناظرِ ... به شادنٌ[6] كالغصنِ يلهو ويمرحُ

وقد نضحَتْ خدّاه من ماءِ وردِهِ ... وكلُّ إناءِ بالذى فيه ينضَحُ

---

(١) المحفوظ: أنها لأبى نواس.

(٢) وحالا: تحول.

(٣) حقويه: أى فوق الخصر.

(٤) المحجر: العين.

(٥) غريرة: ساذجة غير مجربة.

(٦) الشادن: الغزال.

وقال آخر:

وأهيفَ قدُّه كَسِيَ احمرارًا ... وحاز الحسنَ فهو بلا شبيهِ
فلو أخجلته بالقول جهدى ... لحمرةِ خدِّه ما بان فيهِ

ومما قيل فى التقبيل. قال المظفر الأعمى:

قَبَّلته فتلظَّى جمرُ وجنتِهِ ... وفاح من عارضَيْه العنبرُ العبقُ[1]
وحال بينهما ماءٌ ولا عجبٌ ... لا ينطفى ذا ولا ذا منه يحترقُ

وقال آخر:

سألتَه فِى ثَغرِهِ قُبْلةَ ... فقال ثَغرى لَم يَجُز لَثمه
فهاكها فى الخدِّ واقنع بها ... ما قاربَ الشَّئ لَه حكمه

قال صاحب حماة:

قال الذى تيَّمنى ... قولوا لمن خبلته[2]
يرومُ منى قبلةَ ... لو ماتَ ما قبلته

وقال الشيخ عزّ الدين الموصلى:

كالزردِ المنظومِ أصداغَه ... وخدُّه كالوردِ لما ورد[3]
بالَغْتُ فى اللقمِ وقبَّلته ... فى الخدّ تقبيلاً يفكُّ الزرد

وقال آخر:

رأيتُ الهلالَ على وجههِ ... فلم أدرِ أيُّهما أنورُ
سوى أنَّ ذاك بعيدُ المزار ... وهذا قريبٌ لمَنْ ينظرُ
وذاك يغيبُ وذا حاضرٌ ... وما مَنْ يغيب كمَنْ يحضرُ
ونفعُ الهلالِ قليلٌ لنا ... ونفعُ الحبيبِ لنا أكثرُ

وقال ابن صابر:

قبَّلتُ وجنَتَه فألفتَ جيِّدَهُ ... خجلاً وماسَ بعطفِهِ الميّاسِ[4]
فانهلَّ من خدَّيه فوقَ عذارِهِ ... عرقٌ يحاكى الطَّلَّ فوقَ الآسِ
فكأنني استقطرتُ وردَ خدودِهِ ... بتصاعدِ الزفراتِ من أنفاسى

وقال آخر:

قَبَّلْتُ رِجلَ حبيبى ... فازورّ واحمرّ خدًّا
وقال تلثَمُ رِجلى ... لقد تنازَلْتَ جدًّا
فقلتُ ما جئتُ بدعًا ... ولا تجاوَزْتُ حدًّا
رِجلٌ سَعَتْ بِك نَحْوى ... حقوقَها لا تؤدَّى[5]

---

(١) العِبق: الفواح.
(٢) الخَبل: ذهاب العقل.
(٣) ورد: أتى.
(٤) أى: المتبختر.
(٥) تؤدَّى: أى لا يستطيع مكافأتها.

ومما قيل فى الوجه الحسن لابن نباتة:

إنسية فى مثال الجنِّ تحسبُهَا ... شمسًا بَدَتْ بين تشريقٍ وتغميمِ
شَقّتْ لها الشمسُ ثوبًا من محاسِنَها ... فالوجهُ للشمسِ والعينان للريمِ

وقال عبد الله بن أبى خبيص:

تصدُّ من غير عِلّهْ ... يالعزِّ أضحت مذلّهْ
كأنها حين تدنو ... شمسٌ عليها مظلّهْ
وإن أضاءت بليلِ ... تَفُوقُ نورَ الأهلّهْ

وقال آخر:

أقسِمُ باللّه وآياتِهِ ... ما نظرَتْ عينى إلى مثلِهْ
ولا بدا وجهُه لى طالعًا ... إلاّ سألتُ اللّه من فضلِهْ

وقال آخر:

أقيمى مكانَ البدر إنْ أفَلَ[1] البَدرُ ... وقومى مَقَامَ الشَّمسِ قدامَّها الفجرُ
ففيكِ من الشمس المنيرةِ نورُها ... وليسَ لَها مِنكَ التبسُّمُ والثغرُ

وقال عمر بن أبى ربيعة:

ذات حسنٍ إن تَغِبْ شَمسُ الضُّحى ... فلنا من وجهِهَا عنها خلَف
أجمعَ الناسُ على تفضيلِها ... وهواهم فى سوى هذا اختلَف

أخذ أبو تمام المعنى فرده إلى المدح فقال:

لو أن إجماعَنَا فى فضلِ سؤددِهِ ... فى الدينِ لم يختلِفْ فى الأُمّة اثنانِ

وقال آخر:

يا مُفردًا فى الحَسْنِ والشَّكلِ ... مَنْ دلّ عينيكَ على قتلى
البدرُ من شمسِ الضحى نورُه ... والشمسُ من نورِك تستملى

وقال آخر:

ففى أربعٍ منى حلَتْ منكَ أربعُ ... فما أنا أدرى أيها هاجَ لى كربى
أوجهُكَ فِى عَيْنى أم الريقُ فى فمى ... أم النطقُ فى سَمْعى أم الحبُّ فى قلبى

فلما سمعه إسحاق بن يعقوب الكندى قال: هذا تقسيم فلسفى، وجعله العلوى خمسة فقال:

وفى خمسةٍ منى حلَتْ منكَ خمسةٌ ... فريقَك منها فى فمى طيِّبُ الرَّشفِ[2]
ووجهُك فى عينى ولمسُك فى يدى ... ونطقَك فى سَمْعى وعَرْفَك[3] فى

وقال ابن نباتة:

أَيُّها العاذلُ الغَبىُّ تَأمَّلْ ... مَنْ غدا فى صفاتِهِ القلبُ ذائبْ

---

(١) أفل: غاب.

(٢) الرشف: الارتشاف والمص.

(٣) العَرف: الريح الطيبة.

وتعجَّبْ لِطَرَّةٍ وجبينِ إنّ فى الليل والنّهارِ عجائبْ

وقال محمود المخزومى:

رأيتك فى الشمس المنيرةِ غدوةً فكنتَ على عينيّ أبهى من الشمسِ
لأنكَ تزهو إن بدا الليلُ بهجةً وشمسُ الضحى ليست تضئ إذا تمسى

وقال آخر:

إذا احتجَبَتْ لم يَكفِكَ البَّدرُ وجهَها وتكفى فَقْدَ البدر إن غربَ البدرُ
وحسبُك من خمرٍ مذاقة ريقِها ووالله ما مِن ريقِها حسبُك الخمرُ

ومما قيل فى البنان المخضب. قال ابن الرومى:

وقفَتْ وقفةً ببابِ الطاقِ ظبيةٌ من مخدَّرات[1] العراقِ
بنتُ سبعٍ وأربعٍ وثلاثٍ[2] أسَرَتْ قلبَ صَبِّها المُشْتاقِ
قلتُ مَنْ أنتِ يا غزالُ فقالَتْ: أنا من لَطْفِ صَنعةِ الخلاّقِ
لا تَرُمْ وَصْلَنَا فهذا بَنانٌ قَد صبغْنَاه من دمِ العُشّاقِ

وقال الراضى بالله:

قالوا الرحيلُ فأنشبَتْ أظفارَهَا فى خدِّها وقد اعتَلَقتُ خطابَها
فظننتُ أن بناتَها من فضَّةٍ قَطفَتْ بنورِ بنفسجٍ عنابها

وقال آخر:

لما اعتنَقْنا للوداع وأعربَتْ عبراتُنا عنّا بدمعٍ ناطقِ
فرْقن بين محاجرِ ومعاجرِ[3] وجمعن بين بنفسجٍ وشقائقِ

وقال آخر:

ولما تلاقينا رأيتُ بنانَها مخضَّبةَ تحكى عُصارةَ عندمِ[4]
فقلت خضبتِ الكفّ بعدى أهكذا يكون جزاء المستهام المتيمِ
فقالت وأذكَتْ فى الحشا لاعجٍ[5] مقالةَ مَنْ بالودّ لم يتبرَّمِ
بكيتُ دمًا يومَ النوى فمسحتَهُ بكفىّ فاحمرَّتْ بنانى من دمى

وقال آخر:

دنوت عشية التوديع منى ولى عينان بالدم تجريان
فلم يمسحن إكرامًا جفونى ولكن رمن تخضيب البنان

ومما قيل فى النحور. قال دعبل:

أتاحَ لكَ الهَوى بيضًا حِسانًا تباهى بالعيون تجريَان

---

(١) مخدرات: نبات خدور وأستار.
(٢) بنت أربع عشرة سنة.
(٣) المعاجر: نوع من الألبسة.
(٤) العندم: نبات أحمر.
(٥) لاعُج الجوى: شدة الشوق.

نظرتَ إلى النحُورِ فكِـدْتَ تَقْضـى ... ولكِـنْ رُمْـنَ تخضيـبَ البنـانِ

ومما قيل فى نعت النهود. قال العباس بن الأحنف:

واللّـه لـو أن القلـوبَ كقَلْبِهـا ... مـا رقَّ للولـدِ الضعيـفِ الوالـدُ(١)

جـالَ الوشـاحُ علـى قضيـبٍ زانَـهُ ... تفـاحُ صـدرِ مـا حَوَتْـهُ نـاهدُ

وقال آخر:

ومحبوبـةٍ عنـدَ الـوداعِ رأيتَهـا ... تنشّـفُ دمعًـا بـالرداءِ الممسَّـكِ(٢)

وتبكـى حـذارَ البَيْـنِ منهـا بدمعـةٍ ... تسيلُ على الخدَّيْنِ فى حُسْنِ مَسْلكِ

فتحسبُ مجرَى الدمعِ من وجناتهـا ... بقيَّـةَ طـلٍّ فـوقَ وردٍ مسـلكِ

وقـد سـفرَتْ عـن غـرَّةٍ بابليَّـةٍ ... وصـدرٍ بـه نَهْـدٌ بحقٍ(٣) مفكـكِ

يوقال عمرو بن كلثوم:

نـراك إذا دخلـت علـى خـلاء ... قـد امتَـدَّتْ عيـونُ الكاشـحينا(٤)

لنهـدٍ مِثْـلِ حُـقِّ العـاجِ حُسـنًا ... حصينًـا مـن أكـفِّ اللامسـينا

وقال آخر:

بصدرِهَـا كوكَبَـا دُرٍّ كأنَّهُمـا ... ركنَـانِ لم يدنسا مـن لمسِ مستلمِ

صانَتْهُمـا بسـتورٍ مـن غلائلهـا ... فالناسُ فى الحِلِّ والركنـانِ فـى الحرمِ

وقال آخر:

صـدورٌ فوقَهُـنَّ حِقـاقُ عـاجٍ ... وردٌّ زانَـهُ حُسْـنُ اتّسـاقِ

يقـولُ النـاظرون إذا رأوْهُ ... أهـذا الحلـىُ مـن هـذا الحقـاقِ

ومـا تلـكَ الحقـاقُ سـوى ثـدىً ... جعلـنَ مـن الحقـاقِ علـى وفـاقِ

نواهـدُ لا يُعَـدُّ لهُـنَّ عيـبٌ ... سـوى منـعِ المحـبِّ مِـن العِنـاقِ

وقال آخر:

لقـد فتكَـتْ عيـونُ الغيـدِ(٥) فينـا ... بيـضٍ مُرهفـاتٍ وهـى سُـودُ

وتطعنَنَـا القـدودُ إذا التقَيْنـا ... بِسُـمرٍ مـن أسـنّتِها النهـودُ

ومما قيل فى الأرداف والخصور. قال ابن الرومى:

وشربتُ كـأسَ مدامـةٍ مـن كفِّهـا ... مقرونـةً بمدامـةٍ مـن ثَغرِهـا

وتمـايلَتْ فضحِكْـتُ مـن أردافِهـا ... عجبًـا ولكنـى بكيـتُ لخصرِهـا

وقال الطنبغا المحاربى:

ردفُـهُ زادَ فـى الثقالـةِ حتّـى ... أقعـدَ الخصـرَ والقـوامَ السـويّا

نهـضَ الخصـرُ والقـوامُ وقـالا ... فضعيفـان يغلبـان قويّـا

(١) أى: قلبها قاس.

(٢) الممسَّك: الرداء المدهون بالمسك.

(٣) الحُق: إناء.

(٤) الكاشحينا: الأعداء.

(٥) الغيد: مفرده غيداء وهى: الحسناء ذات العنق المميز.

وقال آخر:

يـــا خصـــرَهُ كَـــمْ جفـــاءً ... تَبـــدى وأنـــتَ نحيـــلُ
يـــا ردفَـــهُ مِلْـــتَ عنّـــى ... مـــا أنـــتَ إلاّ بخيـــلُ

وقال القيراطى:

بـــدَتْ روادفُ بَـــدْرى ... تحـــتَ الحنـــينِ لعَيْنـــى
فقلـــتُ يـــا بـــدرُ هـــذا ... حقّـــا خيـــالٌ لحينـــى

وقال آخر:

أسائِلها أينَ الوشاحُ وقَدْ سَرَتْ ... معطلـةً مِنـهُ مُعَطّـرَةَ النّشْـرِ[1]
فقالت وأومَتْ للسوارِ نخلتَهُ ... إلى معصمى لما تَلَقْلَقَ[2] فـى خصرى

وقال آخر:

بيضٌ وسمرٌ مقلتاهُ وقدُّه ... بَدْرٌ ولَيْلٌ وجنتاه وشعرُهُ
أقسَى من الحجرِ الأصَمّ فؤادُهُ ... وأرقُّ من شَكوىَ المتيَّم خصرُهُ

وقال آخر:

رخيمـاتُ المقـالِ مدلّـلاتٌ ... جواعـلُ فـى الثرى قَضْبًا جـذالا[3]
جَمَعْـنَ فخامـةً وخلـوصَ جيـدٍ ... وقـدًا بعـدَ ذلـك واعتـدالا

ومما قيل فى المعاصم. قال عمر بن أبى ربيعة:

حسَرُوا الوجوهَ بأذرعٍ ومعاصمٍ ... ورنَوا بنجلٍ للقلوبِ كوالِمِ[4]
حسَرُوا الأكمةَ عن سواعدَ فضّةٍ ... فكأنما انتصبَتْ متونُ صوارمِ

ومما قيل فى اعتدال القوام. قال صلاح الدين الصفدى:

تقولُ له الأغصانُ مُذ هزَّ عطفَهُ ... أتزعَمُ أن اللينَ عندك ما نوى
فقم نحتكمُ للروض عند نسيمِهِ ... ليقضى على مَنْ مَال مِنّا إلى الهوى

وقيل: ليس لأحد من شعراء العرب فى نعت محاسن النساء من الأوصاف البارعة مع جودة السبك ورقة اللفظ ما لذى الرمة حتى كأنه حضرى من أهل المدن لا من أهل الوبر.

وقال القاضى مجد الدين بن مكانس:

أقولُ لحيِّى قُمْ ومِلْ يا معذبى ... كمَيْلةِ خودٍ[5] غيرَّ السكرُ حالها
ولا تَلْهُ عن شىءٍ إذا ما حكيتها ... فقامَ كغُصنِ البانِ لينًا ومالها

وقال آخر:

ومحكَّـــمٍ أعطافُـــهُ ... فـــى قَتْـلِ صـبٍّ مـا غـوَىَ
فـــاعجب لعـــادل قـــدّه ... فـــى النفـــس يحكـــمُ بـــالهوى

---

(١) النشر: الرائحة.
(٢) تلقلق: صار فضفاضاً.
(٣) جذالا: مرحات.
(٤) كوالم: جوارح.
(٥) خودٍ: الفتاة الناعمة الجميلة.

وقال آخر:

ومهفهــفٍ عنــى يميــلُ ولم يَميــلْ يومَــا إلىّ فَصِحــتُ مــن ألم الجــوى
لِــمْ لا تميــلُ إلىّ يَــا غَصــنَ النّقَــا فأجابَ كيفَ وأنتَ مـن أهـلِ الهـوى

ومما قيل فى الساق. قال ذو الرمة:

لم أنسَــهُ إذا قــام يكشــفُ عــامدًا عــن ســاقِهِ كــاللؤلؤ الــبرّاق
لا تعجَبُــوا إن قــامَ فيــهِ قيــامتى إن القيامـةَ يـومَ كشـفِ السـاقِ(١)

وقال آخر:

جــاءَتْ بســاقِ أبيــضٍ أملــسِ كلؤلــؤ يبــدُو لعُشّــاقها
فــافْتَتَنَتْ فيهــا جميــعُ الــورى وقــامَتِ الحــربُ علــى سَــاقها

وقال ابن منقذ:

بــدرٌ ولكنّــه قريــبٌ ظَبْــىٌ ولكنّــه أنيــسُ
إن لم يَكُــنْ قــدُّه قضيبًــا فَمــا لأعْطافِــه تميــسُ(٢)

ومما قيل فى مشى النساء. قال بعضهم:

يهــززن للمشــى أطرافًــا مخضّبَــةً هـزَّ الشَّمالِ ضحى عيـدان نسـرينِ
أو كــاهتزازِ رُدينــىّ تداوَلَــهُ أيـدى الرجـالِ فـزادَ المتنُ فـى اللـينِ

وقال آخر:

يمشِـينَ مَشْـىَ البطَـاحِ تــأوُّدا(٣) قــبَّ البطــون(٤) رواجــحَ الأكفــالِ(٥)
فكــأنهنَّ إذا أرَدْنَ زيــارةً يقلَعْــنَ أرْجُلهُــنَّ مــن أوحــالِ

ومما قيل فى العناق وطيبه. قال ابن المعتز:

مــا أقصــرَ الليــلَ علــى الراقــدِ وأهــوَنَ الســقمَ إلى العــائدِ
كــأننى عــانَقْتُ ريحانــةً تنفّسَــتْ فــى لَيلهــا البَــاردِ
فلــو ترانــا فــى قميــصِ الدجــى حسِــبْتَنا فــى جَســدٍ واحــدِ

وقال آخر:

وموشّــحٍ نــازَعْتُ فضــلَ وشــاحِهِ وأعرَتُــهُ مــن ســاعِدَىَّ وشــاحا
بــاتَ الغيــورُ يَشُــقُّ جلـدَةَ وجهــهِ وأمــالَ أعطافَــا علــىَّ ملاحــا

وقال ابن المعدل:

أقــول وجَنــحُ الدُّجــى مســبلٌ ولليــلِ فــى كَــلِّ فــجٍّ يــدُ
ونحــنُ ضجيعــانِ فــى مَســجدٍ فلّلــه مــا ضَمَّنَــا المســجدُ
أيــا غــدُ إن كنــتَ لى مُحســنًا فــلا تَــدْنُ مــن ليلتــى يــا غــدُ

---

(١) كسف الساق: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**والتفت الساق بالساق**﴾.
(٢) تميسُ: تميل.
(٣) تأوُّدا: تمايل دلاً.
(٤) قبَّ البطون: ببطن كالقبة.
(٥) الأكفال: عظيمات الورك.

ويـا ليلـةَ الوصـلِ لا تقصُـرى ... كمـا ليلـةَ الهجـرِ لا تنفـدُ

وقال آخر:

وليـلٍ رقيـقِ الطرَّتَيْـن(١) تظلّمَـتْ ... كواكبُـهُ مـن بـدرِهِ المتـألّقِ
لهَوْنَـا بغـزلانِ الصريمـةِ تحتَـهُ ... تميتُ الهَوَى ما بينَ صدرٍ ومرفـقِ

وقال ابن المعتز:

وكـم عنـاقٍ لنـا وكَـمْ قَبَـلٍ ... مختلسـاتٍ حـذارَ مرتقـبِ
نقـرَ العصافـيرِ وهـىَ خائفـةٌ ... مـنَ النواطـيرِ(٢) يـانعَ الرطـبِ

وقال ديك الجن:

ومعدولـةٍ مهمـا أمـالَتْ إزارَهَـا ... فغصـنٌ وأمَّـا قدُّهـا فقضيـبُ
لهـا القمـرُ السَّارى شـقيقٌ وإنهـا ... لتطلـعُ أحيانًـا لـه فيغيـبُ
أقـولُ لهـا والليـلُ مُـرْخٍ سـدولَهُ(٣) ... وغَصنُ الهوى غضُّ النباتِ رطيبُ
لأنـتَ المنـى يـا زَيْـنَ كـلِّ مليحـةٍ ... وأنـتَ الهـوى أدعـى لـه فـأجيبُ

وقال على بن الجهم:

سقى اللّـه ليـلاً ضَمَّنَـا بعـد فرقـةٍ ... وأدنـى فـؤادًا مـن فـؤادٍ معـذَّبِ
فبِتْنَـا جميعًـا لـو تُـرَاق زجاجـةٌ ... مـنَ الخمـرِ فيمـا بيننـا لم تسـرّبِ

وقال آخر:

يـا ليـلُ دُمْ لى لا أريـدُ براحًـا ... حسـبى بوجـهِ معذّبـى مصباحـا
حسـبى بـه نـورًا وحسـبى ريقَـهُ ... خمـرًا وحسـبى خـدُّه تفّاحـا
حسـبى بمضحكِـهِ إذا استضحَكتَهُ ... مسـتَغْنيًا عـن كَـلِّ نجـمٍ لاحـا
طوَّقْتُـه طَـوْقَ العنـاق بسـاعدٍ ... وجَعَلْـتُ كفّـى للثـامِ وشـاحا
هـذا هـوَ اليـومُ النعيـمُ فَخِلْنـا ... متعـانقَيْن فـلا نُريـدُ بَراحـا

وقال آخر:

ولم أنسَ ضمِّـى للحبيب عَلَى رضًا ... ورَشْفِى رضابًا كـالرحيق المَسَلْسلِ(٤)
ولا قولَـهُ لى عنـدَ تقبيـلِ خـدِّهِ ... تَنَقّـلْ فَلَـذَّاتُ الهَـوَى فـى التنقّـلِ

ومما قيل فى السمن. قال الربيع بن سليمان سمعت الشافعى رضى اللّه عنه يقول: ما رأيت سمينًا عاقلاً إلا محمد بن الحسن.

قال الشاعر:

لا أعشـقُ الأبيضَ المنفوخَ مِن سمـنٍ ... لكننـى أعشـقُ السُّـمْرَ المَهَـازيلا
إنى امرؤ أركبُ المهـرَ المضمّـرَ(٥) فـى ... يومِ الرهـابِ، وغيرى يركـبُ الفِيـلا

---

(١) الطرَّتَيْن: الأطراف.
(٢) الناطور: الحارس.
(٣) سدوله: منزلٌ أستاره.
(٤) المسلسل: العذب.
(٥) المضمّر: النجيب من الخيل.

وما قيل فى مدح الألوان والثياب، مدح البياض: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «البياضُ نصف الحسن»، وكان صلى اللّه عليه وسلم أبيض أزهر اللون مشربًا بحمرة. قال الشاعر[١]:

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهُم ... شُمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأوَّلِ

ومما قيل فى مدح السواد. قيل لبعضهم: ما تقول فى السواد؟ قال: النور فى السواد. أراد بذلك نور العينين فى سوادهما. وقال بعضهم:

قالوا تعشَّقْتَهَا سوداءَ قُلتُ لهم ... لونُ الغوالى ولونُ المسكِ والعودِ

إنى امرؤ ليسَ شأنُ البيضِ مرتفعًا ... عندى ولو خلتُ الدنيا من السودِ

وقال الحيقطان:

لئِنْ كنتَ جعدَ الرأسِ واللونُ فاحمٌ ... فإنى بسيطَ الكفِّ والعرضُ أزهرُ

ومما قيل فى الوجه الحسن:

إن سوادَ اللونِ ليس بضائرى ... إذا كانتُ يومَ الروعِ بالسيفِ أخطرُ

ودخل إبراهيم بن المهدى على المأمون فقال: إنك لنعم الخليفة الأسود، فقال إبراهيم: نعم، فتمثل المأمون ببيت نصيب، فقال:

إن كنتُ عَبدًا فنفسى حُرّةٌ كرمًا ... أو أسودَ اللونِ إنّى أبيضُ الخُلقِ

ثم قال: يا عمّ أخرجنا من الهزل إلى الجدّ، فأنشد إبراهيم:

ليس يزرى السوادَ بالرجلِ الشهـ ... ـمِ ولا بالفتَى الأريبِ[٢] الأديبِ

إن يكُنْ للسوادِ فيكَ نصيبٌ ... فبياضُ الأخلاقِ منكَ نصيبى

وقال آخر:

لامَ العواذلُ فى سواده فاحمةٍ ... كأنها فى سوادِ القلبِ تمثالُ

وهامَ فى الخالِ أقوامٌ وما علموا ... أنى أهيمُ بشخصٍ كلّهُ خالُ

وقال للمدنى: كيف رغبتم فى السواد؟ فقال: لو وجدنا بيضاء لسوّدناها.

وقال آخر:

يكونُ الخالُ فى خدٍّ قبيحٍ ... فيكسُوه الملاحةَ والجَمالا

فكيف يلامُ ذو عشقٍ على مَنْ ... يراها كلّها فى الخَدِّ خَالا

وقال آخر:

فاستَحْسَنوا الخالَ فى خدّ فقلتُ لهم ... إنى عَشقتُ مليحًا كلّه خالُ

وكان أبو حاتم المدنى ينشد:

ومن يكُ معجبًا ببناتِ كسرى ... فإنىَ معجَبٌ ببناتِ حامِ[٣]

وتفاخرت حبشية ورومية، فقالت الرومية: أنا حبة كافور، وأنت عدل فحم. فقالت الحبشية: أنا حبة مسك، وأنت عدل ملح.

---

(١) الشاعر حسان بن ثابت يمتدح الغساسنة.

(٢) الأريب: العاقل اللبيب.

(٣) بناتِ حامٍ: أى الزنوج.

وقال الشاعر:

أحِبُّ لحبِّها السودانَ حتى ... أحِبُّ لحبِّها سُودَ الكلابِ

وقال آخر:

أشْبَهَكِ المسكُ وأشْبَهْتِهِ ... قائمةَ فى لونِهِ قاعدَهْ

لا شكَّ إذ لونَكما واحدٌ ... إنكُما من طينةٍ واحدَهْ

ومما قيل فى الصفرة. قال الشاعر:

أصفراءُ كان الهجرُ منك مزاحًا ... ليالىَ كانَ الودُّ منكِ مباحًا

كأنَّ نساءَ الحىِّ ما دُمتِ فيهم ... قباحًا فلما غِبْتِ صِرْنَ ملاحًا

وقال آخر:

قالوا به صفرةَ شانَتْ محاسِنَهُ ... فقلتُ ما ذاكَ من عيبٍ به نزلا

عيناهُ مطلوبَةٌ فى ثأرِ مَنْ قتلت ... فلست تلقاه إلاَّ خائفًا وجلا

ومما قيل فى طول اللحية. قيل: إن اللحية الطويلة عش البراغيث. ونظر يزيد الشيبانى إلى رجل ذى لحية عظيمة تلتف على صدره وإذا هو خاضب[1] . فقال له: يا هذا إنك من لحيتك فى مؤنة فقال أجل ولذلك أقول:

لها درهمٌ للدهنِ فى كلِّ جمعةٍ ... وآخرُ للحنّاء ينتدبانِ

ولولا نوالُ مِن يزيد بن مزيدٍ ... لأصبحَ فى حافَّاتِهَا الحمانُ[2]

وقال إسحاق بن خلف فى قصير طويل اللحية:

ماشَيْتُ داودَ فاستَضْحَكْتُ من ... كأنّه والدٌ يمشى بمولودِ

ما طولُ داودَ إلا طولُ لحيتِهِ ... يُظنُّ داودُ فيها غيرَ موجودِ

وقال ابن المقفع:

تأمَّلْتُ أسواقَ العراقِ فلم أجدْ ... دكاكينَهُم إلاَّ عليها المواليا

جلوسًا عليها ينفضُون لحاءَهم ... كما نفضَتْ عجفُ البغالِ المخاليا[3]

ومما جاء فى عظم الخلقة والطول والقصر. قيل: خرب القهندر[4] فبرزت منه جماجم أموات فتصدعت جمجمة فانتثرت أسنانها، فوزن السن منها فكان وزنها أربعة أرطال، فأتى بها إلى ابن المبارك فجعل يقلبها ويتعجب من عظمها، ثم قال:

إذا ما تذكَّرْتُ أجسامَهُم ... تصاغَرَتِ النفسُ حتى تهونَ

وأراد ملك الروم أن يباهى أهل الشام فبعث إلى معاوية رجلين أحدهما طويل، والثانى قصير شديد القوّة، فدعا للطويل بقيس بن سعد بن عبادة فنزع قيس سراويله ورمى بها إليه فلبسها الطويل، فبلغت ثدييه، فلاموا قيسًا على نزع السراويل فقال:

أردتُ لكيما يَعلَمَ الناسُ أنّها ... سراويلُ قيسٍ والوفودُ شهودُ

وكى لا يقولوا خانَ قيسٌ وهذه ... سراويلُ عادٍ أحرَزَتْها ثَمودُ

---

(١) خاضب: يضع الحناء.

(٢) الحمنان: القرادات.

(٣) أى: ينفضونها من الغبار.

(٤) القهندر: موضع.

وإنّــى مــن القــومِ اليمـــانين ســيِّدٌ ... ومــا النـــاسُ إلاّ ســـيِّدٌ ومسُـــودُ

ثم دعا معاوية للرجل الشديد فى قوّته بمحمد بن الحنفية فخيّره بين أن يقعد فيقيمه، أو يقوم فيقعده فغلبه فـى الحالتين وانصرفا مغلوبين. وقيل: كان سلمة بن مرّة الناموسى أسر أمرأ القيس بن النعمان اللخمى الملـك، وكـان الناموسى قصيرًا مقتحمًا، واللخمى طويلاً جسيمًا، فقالت بنت امرئ القيس: يا هذا القصير أطلق أبـى، فسمعها سلمة بن مرة فقال:

لقد زعمَتْ بنـتُ امرئ القَيْـسِ أننى ... قصـيرٌ وقـد أعيَـا أباهـا قصيرُهـا

وربَّ طويـلٍ قـد نَزَعْـتُ سـلاحَهُ ... وعَانَقْتُـهُ والخيـلُ تدمَـى نحورهـا

وقالوا: عظم اللحية يدل على البله، وعرضها على قلة العقل، وصغرها على لطف الحركة، وإذا وقع الحـاجب على العين دلّ على الحسد، والعين المتوسطة فى حجمها تدل على الفطنة وحسـن الخلق والمروءة، والتى يطـول تحديقها تدل على الحمق. والتى تكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر على الأذن يدل على جودة السـمع، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان.

ومما قيل فى القبح والدمامة: أراد رجل أن يكتب كتابًا لبعـض أصحابـه فلم يجد مـن يرسله معـه إلا رجـلاً وخش الصورة[1] بشع المنظر فلم يقدر على تحليته لفرط دمامته، فكتب إلى صاحبه يقول: يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات اللّه تعالى وقدره، فدعه يذهب إلى نار اللّه وسقره.

ومرّ أبو الأسود الدؤلى بمجلس لبنى بشير، فقال بعض فتيانهم: كأن وجهه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقها. وقال الجاحظ: ما أخجلنى قط إلا امرأة مرّت بى إلى صائغ فقالت له: اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوتًا، ثم سـألت الصائغ، فقال: هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان، فقلت: لا أدرى كيـف أصوّره، فـأتت بـك إلىّ لأصوّره على صورتك. وفى الجاحظ يقول الشاعر:

لـو يُمسـخَ الخـنزيرُ مسـخًا ثانيًـا ... مـا كـانَ إلا دونَ قُبْـحِ الجـاحظِ

رجـلٌ ينوبُ عـن الجحيـمِ بوجهـهِ ... وهـو القَـذَى فـى عـينِ كـلِّ ملاحـظِ

وَلَـوَ أنَّ مـرآةً جَلَـتْ تمثالَـهُ ... ورآه كـانَ لـه كـأعظمِ واعـظِ

وقال أصمعى: رأيت بدوية من أحسن الناس وجهًا، ولها زوج قبيح. فقلت: يا هذه أترضـين أن تكـون تحت هذا؟ فقالت: يا هذا لعله أحسن فيما بينه وبين ربه فجعلنى ثوابه، وأسأت فيما بينـى وبـين ربـى فجعلـه عذابـى، أفلا أرضى بما رضى اللّه به. وحج مخنث فرأى رجلاً قبيح الوجه يستغفر، فقال: يا حبيبى ما أراك أن تبخل بهـذا الوجه على جهنم. وقال بعضهم لرجل: طلع لى دمل فى أقبح المواضع فقال لـه: كذبـت هـذا وجهـك ليس فيه شئ. وخرج رجل قبيح الوجه إلى المتجر فدخل اليمن فلم ير فيها أحسن منها وجهًا فقال:

لم أرَ وجهًـا حسـنًا ... منـذ دَخَلْـتُ اليَمَنَـا

فيـا شـقاءَ بلـدةٍ ... أحسـنُ مَـنْ فيهـا أنـا

وخطب رجل عظيم الأنف امرأة فقال لها: قد عرفت أنى رجل كريم المعاشرة محتمل المكاره. فقالت: لا شك فى احتمالك المكاره مَعَ حَمْلك هذا الأنف أربعين سنة. وقال الشاعر فى رجل كبير الأنف:

لـكَ وجـهٌ فيـه قِطعـةُ أنـفٍ ... كجـدارٍ قـد أدعمُـوهُ ببغلَـةْ

وهـو كـالبقرُ فـى المثـالِ ولكـن ... جعلـوا نصبَـهُ علـى غـير قِبْلَـةْ

(١) وخش الصورة: أى سيء الهيئة والمنظر.

وقال آخر:

لــــك أنـــفٌ ذو أنـــوفٍ ... أنفَـــتْ منــــهُ الأنــــوفُ
أنـــتَ فـــى القُــدْس تصلّـــى ... وهـــوُ فـــى البيـــتِ يطـــوفُ

ومما جاء فى الثقلاء، قال مطيع بن أياس:

قـــل لعبـــاسٍ أخينـــا ... يـــا ثقيـــلَ الثقـــلاءِ
أنـتَ فـى الصَّيـفِ سَـمُومٌ[1] ... وجليـــدٌ فـــى الشِّـــتاءِ
أَنْـــتَ فـــى الأرضِ ثقيـــلٌ ... وَثَقيـــلٌ فـــى السَّـــماءِ

ومما جاء فى الملابس وألوانها والعمائم ونحوها، قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[3].

وقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «إنَّ اللَّه يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده» وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «تعمَّمُوا تزداودوا جمالاً» وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «العمائمُ تيجانُ العرب». وكان الزبير بن العوام يقاتل يوم بدر وعليه عمامة صفراء، فنزلت الملائكة وعليهم عمائم صفر قد أرخوها. وبعث رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فتخلف عن الجيش، وأتى إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وعليه عمامة سوداء فى خز فنقضها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وعممه بيده، وأسدلها بين كتفيه قدر شبر، وقال: هكذا اعتم يا ابن عوف.

وبعث مالك الروم إلى النبى صلى اللَّه عليه وسلم جبة ديباج فلبسها ثم كساها عثمان. وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم، ويدخل المسجد. فقيل له فى ذلك، فقال: إنى أجالس ربى: وقيل: المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة.

وقيل: ألبس البياض والسواد؛ فإن الدهر هكذا بياض ونهار، وسواد وليل.

ومما قيل فى لبس السواد قول أبى قيس:

رأيتُـكِ فـى السَّـوادِ فَقُلْـتُ بـدرًا ... بَـدا فـى ظُلْمـةِ الليـلِ البهيـمِ
وألقيـتَ السـوادَ فقلـتُ شَـمسٌ ... محـت بشـعاعِها ضـوءَ النجـومِ

وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خُمُر[4] العراق فباع الجميع منها إلا السود، فشكا إلى الدارمى ذلك، وكان الدارمى قد نسك وتعبد فعمل بيتين وأمر مَنْ يغنى بهما فى المدينة، وهما هذان البيتان:

قـلْ للمليحـةِ فـى الخمـارِ الأسْـودَ ... مـاذا فَعَلْـتِ بزاهـدٍ مُتعبِّـدِ
قَـدْ كـانَ شمَّـرَ للصـلاةِ إزارَهُ ... حتـى قَعَـدْتِ لـه ببـابِ المسـجدِ

قال: فشاع الخبر فى المدينة أن الدارمى رجع عن زهده، وتعشق صاحبة الخمار الأسود فلم يبق فى المدينة مليحة إلا واشترت لها خمارًا أسود، فلما أنفد التاجر ما كان معه رجع الدرامى إلى تعبده وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها.

---

(١) السموم: رياح حارة مرملة.
(٢) سورة الضحى: ١١.
(٣) سورة الأعراف: ٣١.
(٤) جمع خمار: غطاء الوجه.

وقال آخر فى لابسة الأحمر:

وشمسٍ من قضيبٍ فى كثيبٍ تبدَّتْ فى لِباسٍ جلنارى[1]
سقَتْنى ريقَها صِرفًا وحيَّتْ بوجنَتِهَا فهاجَتْ جُلُّ نارى

وقال آخر فى لابسة ثوب خمرى:

فى ثَوْبِها الخمرىِّ قد أقبَلَتْ بوجنةٍ حَمراءَ كالجمرِ
فمِلْتُ سُكرًا حين أبصرْتُهَا لا تنكروا سُكرى مِن الخمرِ[2]

وقال الصنوبرى فى لابسة أخضر:

وجاريةٍ أدبْتُهَا الشَّطارَه ترى الشمس من حُسنها مُسْتَعارَهْ
بدَتْ فى قميصٍ لَهَا أَخْضر كما سترَ الورقَ الجلنارَهْ
فقلتُ لها ما اسْمُ هذا اللباسِ فأبدَتْ جوابًا لطيفَ العبارَهْ
شقَقْنا مرائرَ قومٍ به فنحنُ نسمِّيهِ شقَّ المرارَهْ

وقال حكيم لابنه: إياك أن تلبس ما يديم الملأ[3] نظره إليك به، واعلم أن الوشى لا يلبسه إلا الأحمق أو ملك، وعليك بالبياض.

وقيل: لباس البخلاء الاستبرق لطول بقائه، ولباس المترفين السندس لقلة بقائه، ولباس المقتصدين الديباج لتوسط بقائه.

وقال بعض الأمراء لحاجبه: أدخل علىّ عاقلاً، فأتاه برجل، فقال: بم عرفت عقله؟ فقال: رأيته يلبس الكتان فى الصيف، والقطن فى الشتاء، والملبوس فى الحرّ، والجديد فى البرد.

وقيل: كان لأبرويز عمامة طولها خمسون ذراعًا إذا اتسخت ألقاها فى النار فيحترق الوسخ ولا تحترق، وكان له رداء حسن يتلوّن كل ساعة، وسراويل بجوهرة، وتكة من أنابيب الزمرد. وقيل: الأقبية[4] لباس الفرس، والقراطق لباس الهند، والأزر[5] لباس العرب.

وسئل بعض العرب عن الثياب فقال: الصفر أشكل، والحمر أجمل، والخضر أقبل، والسود أهول، والبيض أفضل.

وقال أفلاطون: الصبغ الشقائقى والروائح الزعفرانية تسكن الغضب، والصبغ الياقوتى والروائح الوردية تحرك السرور، وإذا قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت الطبائع كلها.

وكان مصعب بن الزبير يقول: لكل شىء راحة، وراحة البيت كنسه، وراحة الثوب طيه. وقال بعض الأعراب: رأيت بالبصرة برودًا كأنها نسجت بأنواع الربيع. ودخل بعض العذريين على معاوية وعليه عباءة فازدراه، فقال: يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك، وإنما يكلمك من فيها.

ومما قيل فيمن رذل لبسه وعرف نفسه.

قال الأصمعى: رأيت إعرابيًا فاستنشدته أبياتًا، وروى أخبارًا فتعجبت من جماله، وسوء حاله فسكت سكتةً

---

(١) الجُلنار: زهر الرمان.
(٢) من الخمرِ: أى من اللون الخمرىّ.
(٣) الملأ: الناس المجتمعون.
(٤) الأقبية: ج. قباء، نوع من الأردية.
(٥) الأزر: ج مئزر.
(٦) طمرِ: لباس بالٍ.

ثم قال:

أأخـــــــىَّ إنَّ الحادثــــــــا ... ت عرّكْنَنــــى عَــرْكَ الأديـــم
لا تنكــــرَنْ أنْ قـــــد رأيـــــ ... ــتَ أخـاكَ فــى طَمـرٍ[٦] عديـم
إن كــــانَ أثوابــــى رثــــا ... ثٍ[١] فــإنهنّ علــى كريـــم

قال بعضهم: وقيل للشافعى رحمه الله تعالى:

علـىَّ ثيــاب لــو تقـاسُ جميعُهــا ... بفلسٍ لكــانَ الفِلـسُ مِنْهُـنَّ أكـثرا
وفيهّــن نفـسٌ لـو يقـاسُ ببعضِهــا ... نفـوسُ الـورى كـانت أجَلَّ وأكـبرا
وما ضرَّ نصلُ السيفِ إخلاق غمدِهِ ... إذا كان عضبًا[٢] حيث وجَّهْتَهُ بَرى

ودخل بعضهم على الرشيد فازدراه فأنشده[٣]:

تــرى الرَّجُـلَ الخفيــفَ فتزدريـــهِ ... وفــى أثوابـــهِ أسَـــدٌ هصَـــورُ
ويعجُبـــكَ الطريـــرُ فتبتليــــه ... فيخلـفُ ظنَّـكَ الرَّجـلُ الطريـرُ[٤]
لقــد عَظُــمَ البعــيرُ بغــير لُــبَّ ... فلــم يســتَغْنِ بــالعُظمِ البعــيرُ
يصرِّفُـــهُ الصبــىُّ بغَـــيرِ وَجْـــهٍ ... ويحبســه علــى السـخفِ الجريــرُ
وتضربُـــهُ الوليـــدةَ بـــالهراوى ... فــلا عــارٌ عليـــه ولا نكـــيرُ
فـــإن أكُ فـــى شـــراركُمُ قليـــلاً ... فـــإنى فـــى خيـــاركُمُ كثـــيرُ

ويقال: كُلْ ما تشتهيه نفسك، والبس ما تشتهيه الناس. وقد نظمه من قال:

إن العيـــونَ رَمتْـــكَ إذ فاجأتهـــا ... وعليـكَ مـن مهـن الثيـابِ لبـاسُ
أما الطعامُ فكُـلْ لنفسِـكَ مَـا اشـتَهَتْ ... واجعَـلْ لباسَكَ مـا اشـتَهَتْهُ النـاسُ

وفى هذا القدر كفاية، والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) رثاث: باليات.

(٢) عضبًا: حادًّا قاطعًا.

(٣) هذه الأبيات لكثير عزة فى حضرة عبد الملك لا الرشيد كما وهم المؤلف.

(٤) الطريرُ: الشاب خط شاربه.

الباب السابع والأربعون فى التختم والحلىّ والمصوغ والطيب والتطيب وما أشبه ذلك

وما جاء في التختم: عن عائشة رضى اللّه عنها قالت: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يتختم فى يمينه، وقُبض عليه الصلاة والسلام والخاتم في يمينه. قال بعضُ مَنْ مدحه عليه الصلاة والسلام:

كَفُّ الرِّسالةِ ليسَ يخفى حسنَها وتَمامُ حُسْنِ الكفِّ لبسُ الخاتمِ

وذكر السلامى: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يتختم فى يمينه والخلفاء بعده. فنقله معاوية رضى اللّه تعالى عنه إلى اليسار، وأخذ الأموية بذلك، ثم نقله السفاح إلى اليمين فبقى إلى أيام الرشيد رضى اللّه تعالى عنه، فنقله إلى اليسار وأخذ الناس بذلك. وعن علىّ رضى اللّه تعالى عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم: «تختموا بخواتيم العقيق فإنه لا يصيب أحدكم غمّ ما دام عليه ذلك». وبلغ عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه أن ابنه اشترى فصّ خاتم بألف دينار فكتب إليه: عزمت عليك إلا ما بعت خاتمك بألف دينار، وجعلتها في بطن جائع، واستعمل خاتمًا من ورق[1] وانقُشْ عليه: «رحم اللّه امرأ عرف نفسه» وكان خاتم علىّ رضى اللّه عنه ورق، ونقشُهُ «نِعْم القادرُ» وكان لأبى نواس خاتمان؛ أحدهما عقيق مربع، وعليه مكتوب:

تعاظمنى ذنبى فلما قرَنَتُهُ بعفوِكَ ربى كان عفوُك أعظما

والآخر حديد صينى وعليه: «أشهد أن لا إله إلا اللّه مخلصًا»، وأوصى عند موته أن يغسل الفصّ ويجعل فى فمه. قال جعفر بن محمد رضى اللّه تعالى عنه: ما افتقرت يد تختمت بخاتم فيروزج، وقيل: الخواتم أربعة: الياقوت للعطش، والفيروزج للمال، والعقيق للسنة، والحديد الصينى للحرز[2]، وقيل: للخوف، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر ما جاء فى الحلىّ: قيل: إنّ قرطَىْ مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية كان فيهما درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما، ولم يدر قيمتهما.

وقال محمد: بعثنى يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء يخرج طرفاها من كفى. كانت للرائقة جارية خالد ابن عبد اللّه القسرى اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار، وحبة لؤلؤ أعظم ما يكون الحبّ فدخلت عليه بهما فقال: اكتب معك بوزنهما، فقلت: يا أمير المؤمنين هما أعظم من أن يكتب بوزنهما فقال: صدقت. وبعث معاوية إلى عائشة رضى اللّه تعالى عنها طوقًا من ذهب فيه جوهرة قوّمت بمائة ألف دينار فقسمته بين أزواج النبى صلى اللّه عليه وسلم. وكان ملك العرب كلما مرّت عليه سنة من سنى ملكه زيدت فى تاجه خرزة. وكان يقال لها: خرزات الملك.

ذكر ما جاء فى الطيب والتطيب. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «أطيب الطيب المسك» وعن عائشة رضى اللّه تعالى عنها قالت: كأنى أنظر وإلى وبيص[3] الطيب فى مفارق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو محرم. وعن سهل بن سعد يرفعه: «إنَّ فى الجنة لمرعى من مسك مثل مراعى دوابكم هذه». وعن أنس رضى اللّه تعالى عنه قال: دخل علينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فنام عندنا فعرق، فجاءت أمى بقارورة فجعلت

---

(١) الورق: الفضة.

(٢) للحرز: الرقية والتعويذ.

(٣) وبيص: أى: اللمعان

تسلتُ العرق فيها فاستيقظ وقال: «يا أم سليم ما هذا الذى تصنعين؟» فقالت: هذا عرقك نجعله فى طيبنا، وهو من أطيب الطيب. وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال: لو كنت تاجرًا ما اخترت على العطر، إن فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه. وناول المتوكل فتى فأرة المسك[١] فقال:

لئن كانَ هذا طيبَنَا وهو طيبٌ   لقد طيَّبَتْهُ من يَدَيْكَ الأناملُ

وأهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية[٢]، فسأله: كم أنفق عليها؟ فذكر جزيلاً، فقال: هذه غالية فسميت بذلك، وشمها مالك بن سليمان بن خارجة من أخته هند بنت أسماء، فقال: علمينى كيف تصنعين طيبك؟ فقالت: لا أفعل، تريد أن تعلم جواريك، هو لك منى كلما أردته، ثم قالت: والله إنى ما تعلمته إلا من شعرك حيث تقول:

أطيبُ الطيبِ عَرفُ أمّ أبان   فأرُ مسكٍ بعنبرٍ مسحوقِ

قال أبو قلابة: كان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مرّ، من طيب ريحه. وعن الحسن بن زيد الهاشمى عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يطلى جسده، فإذا مرّ فى الطريق. قال النّاس: أمرّ ابن عباس أم مرّ المسك؟ وعنه عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حين أحرم والغالية على صدغيه كأنها لزقة. وقال أبو الضحى: رأيت على رأس الزبير من المسك ما لو كان لى لكان رأسى مالى. وقيل: لما بنى عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه بفاطمة بنت عبد الملك أسرج فى مسارجه تلك الليلة بالغالية. وقال الشعبى: الرائحة الطيبة تزيد فى العقل. وقال على كرّم الله تعالى وجهه: تشمموا النرجس ولو فى العام مرّةً فإنّ فى قلب الإنسان حالة لا يزيلها إلا النرجس. وكان الشعبى يقول: إذا أورد الورد صدر البرد، وكانت الصحابة رضى الله تعالى عنهم يستحبون إذا قاموا من الليل أن يمسوا الحاهم الطيب. وكان من اختلف فى طرقات المدينة وجد عرفًا طيبًا. قيل: ولذلك سميت طيبة، وأقول: والله ما طابت إلاّ بالطيب الطاهر، صلى الله عليه وسلم وما أحسن ما قيل:

إذَا لَمْ أطب فى طيبةٍ عندَ طيِّبٍ   به طيبةٌ طابَتْ فأينَ أطيَّبُ

وقيل: إن فأرة المسك دويبة شبيهة بالخشف[٣] تصاد لسرتها، فإذا صادها الصياد عصب السرّة بعصابة شديدة فيجتمع فيها دمها ثم يذبحها، ثم يأخذ السرّة، فيدفنها فى الشعير حتى يستحيل الدم المجتمع فيها مسكًا ذكيًا بعد أن كان لا يرام نتنًا. وقد يوجد جرذان سود - يقال لها فأرات المسك - ليس عندها إلا رائحة لازمة لها.

وحكى أن العنبر يأتى على طفاوة الماء لا يدرى أحد معدنه فلا يأكله شئ إلا مات. ولا ينقره طائر إلا بقى منقاره فيه، ولا يقع عليه حيوان إلا نصلت أظفاره فيه، والتجار والعطارون ربما وجدوا أظفارًا فيه.

وقال الزمخشرى عفا الله عنه: سمعت ناسًا من أهل مكة يقولون: هو من زبد بحر سرنديب، وأجود العنبر الأشهب، ثم الأزرق وأدونه الأسود. وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما: ليس فى العنبر زكاة إنما هو شئ نثره البحر. وأما العود فأجوده المندلى، وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند، وأجوده أصلبه، وامتحان رطبه أن تطبع فيه نقش الخاتم فإن انطبع فرطب وإلا فلا، ومن خصائصه أن رائحته تطبع فى الثوب أسبوعًا فلا يقمل ما دامت فيه. وأما الكافور فهو ماء شجر بجزيرة الكافور. يحزونه بالحديد فإذا خرج ظاهرًا وضربه الهواء انعقد كالصموغ الجامدة على الأشجار. وأما الند فمصنوع وهو العود المستقطر والعنبر واللبان:

---

(١) فأرة المسك: نافجته.

(٢) الغالية: طيب معروف.

(٣) الخشف: ولد الظبى.

لـو كنـتُ أحمـلُ جمرًا حـين زرتكـمُ ... لم ينكـر الكَلْـبُ أنّـى صـاحبُ الـدارِ
لكـن أتيـتُ وريـحُ المسـكِ يقدُمنـى ... والعنـبرُ النـدُّ مشـبوبٌ علـى النـارِ

وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الطيب أيام الورد. وكان المتوكل يلبس أيام الورد الثياب الموردة ويفرش الورد فى مجلسه، وطيب جميع آلاته بالورد. وقال الحسن بن سهل: أمهات الرياحين تقوى بأمهات الطيب، فالنرجس يقوى بالورد، والورد يقوى بالمسك، والبنفسج يقوى بالعنبر، والريحان يقوى بالكافور، والنسرين يقوى بالعود. وقال جالينوس: المسك يقوّى القلب، والعنبر يقوّى الدماغ، والكافور يقوّى الرئة، والعود يقوّى المعدة، والغالية تحل الزكام، والصندل يحل الأورام. وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لا تردُّوا الطيبَ، فإنه طَيبُ الريحِ خفيفُ المحمل».

تبخر بعض الأمراء وعنده أعرابى ففرطت من الأمير ريح خفيفة فأراد أن يعلم هل فطن بها الأعرابىّ أم لا، فقال: ما أطيب هذا المثلث، قال نعم ولكنك ربعتها. وقال الأحنف: إن شمَّ رائحة المسك يحيى القلب. وقال سلمة لابن عباس وعنده جعفر بن سليمان: ما شمت أنفى من ريح مسك شممته من الناس إلا ريح كفك أطيب. فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك، ومائة مثقال عنبر.

والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن والأربعون فى الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار المعمرين وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول فى الشباب وفضله

روى عن ابن عباس رضى اللّه عنهما أنه قال: ما بعث اللّه نبيًا إلاّ شابًا، ولا أوتى العلمَ عالمٌ إلا شابًا ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[1]، وقد أخبر اللّه تعالى به، ثم أتى يحيى بن زكريا الحكمة، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾[5] وقال أنس رضى اللّه تعالى عنه: قبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء، وقد قدّم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حداثة سنه، وعتاب بن أسيد ولاّه مكة وبها أكابر قريش، وعبد اللّه بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم. وقال بعض البلغاء: الشباب باكورة الحياة، وأطيب العيش أوائله، كما أن أطيب الثمار بواكيرها، والشباب أبلغ الشفعاء عند النساء، وأكثر الوسائل لقلوبهن، ولذلك قال الشاعر:

أَحْلى الرِّجالِ مع النساءِ مواقعا ... مَنْ كان أشبههم بهنَّ خُدودا

وما بَكَتِ العربُ على شئ ما بكت على الشباب، ولو لم يكن هذا الشباب حميدًا، وزمانه حبيبًا، لوسامة صورته، وبهجة منظره، وجمال خلقته، واعتدال قامته، ولما جاور اللّه فى جنات خلده شاب كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «جردا مردا أبناء ثلاثين» وقد جاء فى ذلك أشياء كثيرة ليس هذا موضع بسطها.

الفصل الثانى فى الشيب وفضله

أوّل من شاب سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وفى الخبر: «إن اللّه تعالى يقول: الشيب نورى، وأنا استحى أن أحرقه بنارى». وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: جاء رجلان إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم، شيخ وشاب، فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ فقال عليه الصلاة والسلام: «كبر كبر». وبهذه الرواية: «من وقر كبيرًا لكبر سنه، آمنه اللّه من فزع يوم القيامة». وعن أنس رضى اللّه تعالى عنه، عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «يقول اللّه تعالى وعزتى وجلالى وفاقة خلقى إلىّ، إنى لأستحى من عبدى وأمتى يشيبان فى الإسلام أن أعذبهما» ثم بكى فقيل له: ما يبكيك يا رسول اللّه؟ قال: «أبكى ممن يستحى اللّه منه، وهو لا يستحى من اللّه». وقال: «من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرّمه اللّه على النار». وقال: «إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير اللّه فى الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات». وقيل: كان الرجل فيمن كان قبلكم لا يحتلم[6] حتى يبلغ ثمانين سنة. وقال ابن وهب: إنَّ أصغر من مات من ولد آدم ابن مائتى سنة، فبكته الإنس والجن لحداثة سنه. وقال النخعى: كان يقال: إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت. وعن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما رفعه «من أتى عليه أربعون سنة، ثم لم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى

(١) سورة الأنبياء:٦٠.
(٢) سورة مريم:١٢.
(٣) سورة الكهف:١٠.
(٤) سورة الكهف:١٣.
(٥) سورة الكهف:٦٠.
(٦) يحتلم: يصير حليمًا.

النار». وعن أنس رضى اللّه تعالى عنه قال: قال ملك الموت لنوح عليه الصلاة والسلام: يا أطول النبيين عمرًا كيف وجدت الدنيا ولذّتها؟ قال: كرجل دخل فى بيت له بابان فقام وسط البيت ساعة ثم خرج من الباب الثانى. ويقال: أطع أكبر منك ولو بليلة. وقال عبد العزيز بن مروان: من لم يتعظ بثلاث لم ينته بشئ: الإسلام، والقرآن، والشيب. قال الشاعر:

يا عَامرَ الدنيا على شَيبه ... فِيك أعاجيبُ لِمَن يعجبُ
مَا عُذرُ مَنْ يعمرُ بنيانَهُ ... وعمرُهُ منهدمٌ يخربُ

وقال الشعبى: الشيب علة لا يعاد منها، ومصيبة لا يعزى عليها.

وقال الفرزدق:

ويقول كيف يميلُ مثلُك للظِّبا[1] ... وعليكَ من عظمِ المشيبِ عذارُ
والشيبُ ينقصُ فى الشبابِ كأنّهُ ... ليلٌ يصيحُ بعارضَيْهِ نهارُ

وقال أبو دلف فى بياض اللحية:

تَكَوَّنَنِى همٌّ لبيضاءَ نابتَهْ ... لها بغضةٌ فى مُضْمرِ القلبِ ثابتَهْ
ومن عجبٍ أنى إذا رمتُ قَصَّها ... قصَصْتُ سِواها وهى تضحكُ نابتَهْ

وقال أيضًا:

أرى شيبَ الرجال من الغوانى ... بمبلغِ شيبِهنَّ من الرِّجالِ

وقال ابن المعتز:

فظللتُ أطلبُ وَصْلَها بتذلّلِ ... والشَّيبُ يَغْمزُها بأنْ لا تفعلى

قيل: صاح شاب بشيخ أحدب: بكَمِ ابتَعْتَ هذا القوس يا عمَّاه؟ فقال: يا بنى إنى أعْطِيتُهَا بغير ثمن. ومرّ رجلٌ أشمط بامرأة عجيبة فى الجمال، فقال: يا هذه إن كان لك زوج فبارك اللّه لك فيه، وإلا فأعلمينا. فقالت: كأنك تخطبنى. قال: نعم، فقالت: إنَّ فىّ عيبًا، قال: وما هو؟ قالت: شيب فى رأسى، فثنى عنان دابته. فقالت: على رسلك، فلا واللّه ما بلغت عشرين سنة، ولا رأيتُ فى رأسى شعرة بيضاء ولكننى أحببت أن أعلمك أنى أكره منك مثل ما تكره منى، فأنشد ويقال إنه لابن المعتز:

رَأينَ الغَوانى الشَّيبَ لاَح بِمَفْرقى ... فَأعْرَضْن عَنّى بالخدودِ النَّواضرِ

وقال آخر:

سألتَها قُبْلةً يومًا وقد نظرَتْ ... شيبى وقد كنتُ ذا مالٍ وذا نعمِ
فأعرضَتْ وتولَّتْ وهى قائلةٌ ... لا والذى أوجدَ الأشياءَ من عدمِ
ما كان لى فى بياضِ الشيبِ من أرَبٍ ... أفى الحياة يكونُ القطنُ حشوَ فمى

وقال آخر:

قالَتْ: أرى مسكةَ الشعرِ البهيمِ ... كافورةً قد أحالَتْهَا يدُ الزمنِ
فقلتُ: طيبٌ بطيبٍ والتنقّل فى ... معادنِ الطيب أمرٌ غيرُ ممتهنِ
قالت: صدَقْتَ وما أنكرْتَ ذاك بذا ... المسكُ للشمِّ، والكافورُ للكفنِ

---

(١) للظِّبا: للغزلان.

وقال آخر:

قالت: أراك خضبتَ الشيبَ قلتُ لها ... سترْتُهُ عنكِ يا سَمْعى ويا بَصَرى

فقهقهَتْ ثم قالت من تعجُّبِها ... تكاثَرَ الغشُّ حتى صارَ فى الشَّعرِ

وقال ابن نباتة:

تبسَّمُ الشيبُ بوجهِ الفتى ... يوجبُ سحَّ الدمعِ من جفنِهِ

وكيفَ لا يبكى على نفسِهِ ... مَنْ ضَحِكَ الشيبُ على ذقنِهِ

وقال ابن المعتز:

فما أقبحَ التفريطَ فى زمنِ الصِّبا ... فكيفَ به والشيَّبُ فى الرَّأسِ شاملُ

وكان المأمون يتمثَّل بقول الشاعر:

رأتْ وَضَحًا[1] فى الرأسِ منى فَرَاعَها ... فريقانِ مبيضٌّ به وَبهيمُ

تفاريقُ شيبٍ فى السوادِ لوامعٌ ... فيا حُسْنَ ليلٍ لاَح فيه نجومُ

ويقال فى الرجل إذا شاب: ليله عسعس، وصُبْحُهُ تنفس:

إذا نازعَ الشيبُ الشبابَ فأصلتا ... بسيفيهما فالشيبُ لا شكَّ غالبُ

وقال آخر:

ألا إنَّ شَيْبَ العبدِ من نَقْرةِ القفا ... وشَيْبُ كرامِ الناسِ شيبُ المفارقِ

وقال العتبى:

قالَتْ عَهِدْتُكَ مجنونًا فقلتُ لها ... إن الشبابَ جنونٌ برؤهُ الكبرُ

وقال على بن ربيع:

كبرتُ ودقَّ العظمُ مِنِّى وعقَّنى ... بنىَّ وزالَتْ عن فراشى العقائدُ

وأصبحتُ أعشَى أخبطُ الأرضَ بالعصا ... يقودُنى بينَ البيوتِ الولائدُ[2]

وقال آخر[3]:

عريتُ من الشَّبابِ وكنتُ غَضْنًا ... كما يَعْرَى من الورقِ القضيبُ

ونَحْتُ على الشَّبابِ بِدْمعِ عينى ... فما نفَعَ البكاءُ ولا النحيبُ

فيا ليتَ الشبابَ يعودُ يومًا ... فأخبِرُهُ بما فعلَ المشيبُ

وقال ابن النقيب:

وكم كان من عينٍ علىَّ وحافظٍ ... وكم كان من واشٍ لها ورقيبِ

فلما بدا شيبى اطمأنَّتْ قلوبُهم ... ولم يحفظونى واكتفوا بمشيبى

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ما شبهت الشباب إلا كشئ كان فى كمى فسقط. قال الشاعر:

شيئان لو بكتِ الدماءُ عليهما ... عيناك حتى يؤذِنا بذهابِ

---

(١) وَضَحًا: أبيض.

(٢) أى: أصبح قليل النظر يحتاج معينًا.

(٣) هو أبو العتاهية.

لم يلغـا المعشـارَ مـن حقّيْهِما   فَقْدُ الشباب وفرقَةَ الأحبابِ

وقال الجاحظ:

أترجُوا أن تكونَ وأنت شيخٌ   كما قد كنتَ فى زمنِ الشبابِ
لقد كذبتك نفسُك ليسَ ثوبٍ   دريسٍ[1] كالجديدِ من الثيابِ

ومما جاء فى الخضاب: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «عليكم بالخضاب؛ فإنه أهيبُ لعدوّكم، وأعجب لنسائكم». وعن أبى عامر الأنصارى رضى اللّه عنه: رأيت أبا بكر الصدّيق رضى اللّه تعالى عنه يغير بالحناء والكتم. وقيل: خضاب الحناء يصفى البصر، ويذهب بالصداع، ويزيد فى الباه[2]:

تسوْد أعلاها وتأبى أصولَها   وليس إلى ردِّ الشبابِ سبيلُ

وقيل: وفد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذى يزن، فقال له: لو خضبت شعرك! فلما رجع إلى مكة اختضب، فقالت امرأته نبيلة: ما أحسن هذا لو دام، فقال:

لو دام لى هذا الخضابُ حمدتَه   وكانَ بديلاً من خليلٍ قدِ انصرمْ
تمّتعْتُ منهُ والحياةَ قصيرةٌ   ولابدَّ من موتِ نبيلةَ أو هرمْ

وقال آخر:

يا خاضبَ الشَّيبِ الذى   فى كُلِّ ثالثةٍ يعودُ
إن الخضابَ إذا نضا[3]   فكأنه شيب جديدُ
فدعِ المشيبَ وما يريدُ   فلن يعودَ كما تريدُ

وقال محمود الورّاق:

فما منكَ الشبابُ ولستَ منه   إذا سامَتْكَ لحيتك الخضابا

الفصل الثالث فى العافية والصحة

وعن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إليك انتهت الأمانى يا صاحب العافية». وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له: ألم أصحَّ بدنك وأروك بالماء البارد». وقال علىّ رضى اللّه عنه فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ﴾[4] هو الأمن، والصحة، والعافية. وعن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما: يسأل اللّه العباد عن الأبدان والأسماع فيم استعملوها، وهو أعلم بذلك. وقال ابن عيينة: من تمام النعمة طول الحياة فى الصحة والأمن والسرور. وقالت عائشة رضى اللّه تعالى عنها: لو رأيت ليلة القدر ما سألت اللّه إلا العفو والعافية. وقال قبيصة بن ذؤيب: كنا نسمع نداء عبد الملك ابن مروان من وراء الحجرة فى مرضه: يا أهل النعم لا تستقلوا شيئًا من النعم مع العافية، ويقال: البحر لا جوار له، والملك لا صديق له، والعافية لا ثمن لها قال ابن الرومى:

إذا ما كساكَ الدّهرُ سِربالَ صِحَّةٍ   ولم تَخلُ من قُوتٍ يحلُّ ويقربُ
فلا تغبطَنْ أهلَ الكثيرِ فإنما   على قدرِ ما يعطيهمُ الدهرُ يسلبُ

---

(١) دريس: قديم.
(٢) الباه: القدرة الجنسية.
(٣) نضا: زال وخلع.
(٤) سورة التكاثر:٨.

ويقال: صحة البدن أوفر القسم. وذكر بعضهم العافية فقال: وأى وطاء، وأى غطاء. وقال حكيم: إن كان شئ فوق الحياة فالصحة، وإن كان شئ مثل الحياة فالغنى، وإن كان شئ فوق الموت فالمرض، وإن كان شئ مثل الموت فالفقر. وقال عليّ رضى اللّه تعالى عنه: ما المبتلى الذى اشتدَّ به البلاء بأحوج إلى الدعاء، من المعافى الذى لا يأمن البلاء.

وقيل: إن فأرة البيوت رأت فأرة الصحراء فى شدّة ومحنة، فقالت لها: ما تصنعين ههنا؟ اذهبى معى إلى البيوت التى فيها أنواع النعيم والخصب. فذهبت معها، وإذا صاحب البيت الذى كانت تسكنه قد هيأ لها الرصد لبنة تحتها شحمة، فاقتحمت لتأخذ الشحمة فوقعت عليها اللبنة فحطمتها، فهربت الفأرة البرية، وهزّت رأسها متعجبة وقالت: أرى نعمة كثيرة وبلاء شديدًا، ألا وإن العافية والفقر أحبُّ إلىّ من غنى يكون فيه الموت ثم فرّت إلى البرية.

وكان عند رومى خنزير فربطه إلى أسطوانة ووضع العلف بين يديه ليسمنه، وكان بجنبه أتان لها جحش، وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر، فقال لأمه: يا أماه ما أطيب هذا العلف لو دام، فقالت له: يا بنىّ لا تقربه فإنّ وراءه الطامة الكبرى، فلما أراد الرومى أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضطرب وينفخ، فهرب الجحش وأتى إلى أمه وأخرج لها أسنانه وقال: ويحك يا أماه انظرى هل بقى فى خلال أسنانى شئ من ذلك العلف فاقلعيه فما أحسن القنع مع السلامة، واللّه أعلم بالصواب.

الفصل الرابع فى أخبار المعمرين فى الجاهلية والإسلام

قال الحسن رضى اللّه تعالى عنه: أفضل الناس ثوابًا يوم القيامة المؤمن المعمر. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «ألا أنبئكم بخياركم» قالوا: بلى يا رسول اللّه قال: «أطولكم أعمارًا فى الإسلام إذا سدّدوا»[1]، وزعموا أنَّ تُبَّعًا الفزارى كان من المعمرين، وأنه دخل على بعض خلفاء بنى أمية فسأله عن عمره، فقال: عشت أربعمائة وعشرين سنة فى فترة عيسى ابن مريم عليه السلام فى الجاهلية، وستين فى الإسلام، قال له: أخبرنى عما رأيت فى سالف عمرك؟ قال: رأيت الدنيا ليلة فى أثر ليلة، ويومًا فى أثر يوم، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق، ومفرق مال مجموع، وبين قوىّ يظلم، وضعيف يُظلم، وصغير يكبر، وكبير يهرم، وحى يموت، وجنين يولد، وكلهم بين مسرور بموجود، ومحزون بمفقود. وقد قال ابن الجوزى: إن آدم عليه السلام عاش ألف سنة، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة، وعاش ابنه مهلاييل ثمانمائة وخمسًا وتسعين سنة، وعاش ابنه إدريس ثلثمائة خمسًا وتسعين سنة، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنين وستين سنة، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة، وأما ابنه نوح عليه السلام فروى عن عبد اللّه بن عباس رضى اللّه تعالى عنهما أنه قال: عاش نوح عليه السلام ألفًا وأربعمائة وخمسين عامًا. وأما الخضر عليه السلام واسمه خضرون فهو أطول بنى آدم عمرًا. وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. وكانت العرب لا تعد من الأعمار إلا ما بلغ مائة وعشرين سنة فما فوقها. وعاش اكثم بن صيفى ثلثمائة وستين سنة وأدرك الإسلام. وعاش سطيح سبعمائة سنة. وعاش قس بن ساعدة الإيادى سبعمائة سنة، وكان من حكماء العرب. وعاش لبيد بن ربيعة الشاعر مائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام، وعاش دريد بن الصمة مائة وسبعين سنة حتى سقط حاجباه على عينيه وأدرك الإسلام ولم يسلم. ومن المعمرين عدى بن حاتم الطائى، وزهير بن جنادة عاشا مائتين وعشرين سنة.

---

(١) سدّدوا: أصابوا الرأى.

ومن المعمرين ذو الأصابع العذرى عاش مائتين وعشرين سنة وهو أحد حكماء العرب فى الجاهلية، ومن المعمرين عمرو بن معد يكرب الزبيدى. ومن المعمرين عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلاثمائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام. وقد رأيت رجلاً من أهل محلة مسير بالغربية وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة، وأن امرأته بلغت من العمر كذلك ولقد رأيت منه ما لم أر من بعض شبان هذا العصر فى القوة، وشدة البأس، ورأيت له ولدًا شيخًا هو أشد قوة من ولد، وذلك فى صفر نسة تسع وعشرين وثمانمائة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب التاسع والأربعون فى الأسماء والكنى والألقاب وما استحسن منها

فأشرف الأسماء وأعظمها: بسم اللّه الرحمن الرحيم قال اللّه تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[١]، وعن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من رفع قرطاسًا من الأرض مكتوبًا عليه بسم اللّه الرحمن الرحيم إجلالاً له لاسمه عن أن يداس كان عند اللّه من الصديقين وخفف عنه وعن والديه العذاب وإن كانا مشركين». وعن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما: لم يرّن إبليس لعنه اللّه قط إلا ثلاث رنات: رنة حين لعن وأخرج من ملوكت السموات والأرض، ورنة حين ولد محمد صلى اللّه عليه وسلم، ورنة حين أنزلت سورة الحمد، وفى أولها: بسم اللّه الرحمن الرحيم. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لا يرد دعاء أوله بسم اللّه الرحمن الرحيم، وإن أمتى يأتون يوم القيامة يقولون: بسم اللّه الرحمن الرحيم فتثقل حسناتهم فى الميزان، فتقول الأمم: ما أثقل موازين أمة محمد؟ فتقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ابتداء كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء اللّه تعالى لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت سيئات الخلق فى كفة لرجحت كفة الأسماء».

وأما الأسماء والكنى: ففى صحيح مسلم عن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «أحب أسمائكم إلى اللّه تعالى عبد اللّه، وعبد الرحمن، وأصدقها حارث، وهمام، وأقبحها حرب ومرة». وينبغى أن تنادى مَنْ لا تعرف اسمه بعبارة لطيفة لا يتأذى بها ولا يكون فيها كذب، كقولك: يا فقيه، يا أخى، يا فقير، يا سيدى يا صاحب الثوب الفلانى، أو البغل الفلانى، أو الفرس الفلانى أو السيف الفلانى، وما أشبه ذلك. ودخل عبادة على المتوكل وبين يديه جام[٢] من ذهب فيه ألف مثقال. فقال له: أسألك عن شئ إن أجبتنى عنه ابتداء من غير أن تفكر فلك الجام بما فيه. فقال: سل يا أمير المؤمنين: قال: أسألك عن شئ له اسم، ولا كنية له، وعن شئ له كنية، ولا اسم له. قال: المنارة وأبو رياح. فعجب المتوكل وأعطاه الجام بما فيه.

وقيل لعثمان: ذو النورين رضى اللّه عنه؛ لأنه هو ورقية كانا أحسن زوجين في الإسلام. وقيل: لأنه تزوج برقية، ثم بأم كلثوم ابنتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم و لم يوجد مَنْ تزوج بابنَتَىْ نبىٍّ غيره.

وكان قتادة بن النعمان الأنصارى رضى اللّه تعالى عنه أصيب فى عينه يوم أحد فسقطت على خده، فردَّها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فكانت أحسن وأصح من الأخرى، فكانت – تعتل أى: ترمد عينه الباقية – ولا تعتل عينه المردودة، فقيل له: ذو العينين. وقال أبو هريرة رضى اللّه تعالى عنه: كنيت بهرة صغيرة كنت أحملها فى حجرى[٣] فألعب بها، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: يا أبا هريرة، واختلف فى اسمه، فقيل: عبد الرحمن، وقيل: عبد شمس، وقيل: عمير، وقيل: سليمان. وقال الشعبى رضى اللّه تعالى عنه: كنية الدجال أبو يوسف.

ذو الشهرة أبو دجانة الأنصارى رضى اللّه تعالى عنه كان له شهرة[٤] يلبسها بين الصفين. ذو الرياستين الفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم، وولى رياسة الجيوش والدواوين ودخل عليه شاعر يوم المهرجان وبين يديه الهدايا فقال:

اليَومُ يَومُ المهْرجانْ ... هدِيَّتى فيه اللسانْ

---

(١) سورة مريم:٦٥.

(٢) الجام: وعاء.

(٣) حجرى: حضنى.

(٤)شهرة: وردت فى كتب التراجم: «مُشَهَّرة» وهى فرس معروفة لأبى دجانة لا رداء!.

لـــــك دولتــــان حديثـــــة وقديمـــــة وريـاســـــــتانْ
لــكَ فــى الــورَى مــن هاشـــمٍ نَبــــتٌ وبيـــتٌ خســــروانْ
عالـــمَ الخليفــةَ كيـــفَ أنـــــت فصــرتَ فــى هــذا المكــانْ

فأمر له بجميع الهدايا.

المطيبون بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، ونعيم بن مرّة والحرث بن فهر غمسوا أيديهم فى خلوق[١] ثم تحالفوا.

شيبة الحمد عبد المطلب لقب بشيبة كانت فى رأسه حين ولد، قال حذافة:

بَنو شيبة الحمد الذى كان وجهُهُ يُضِيءُ ظلامَ الليلِ كالقمرِ البدرِ

وقيل له: عبد المطلب، لأن عمه المطلب مرّ به فى سوق مكة مردوفًا له فجعلوا يقولون: من هذه الذى وراءك فيقول: عبد لى. سيدنا أبو بكر الصديق رضى اللّٰه تعالى عنه اسمه عبد اللّٰه، ولقباه العتيق والصدِّيق لجماله وتصديقه بخبر الإسراء، أو لأنه أوّل من صدق رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم.

سيدنا عمر رضى اللّٰه تعالى عنه لقب بالفاروق؛ لأنه قال يوم أسلم: لا يعبد اللّٰه اليوم سرًّا. فظهر به الإسلام، وفرق بين الحق والباطل.

الكامل سعد بن عبادة رضى اللّٰه تعالى عنه؛ لأنه كان يكتب ويحسن الرمى والعوم.

طلحة بن عبيد اللّٰه رضى اللّٰه تعالى عنه كان يقال له: طلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الطلحات لسخائه.

رشح الحجر وأبو الذباب: عبد الملك بن مروان لقب بذلك لبخله وبخره.

عكة العسل[٢] سعيد بن العاص رضى اللّٰه تعالى عنه.

الحبَر عبد اللّٰه بن عباس رضى اللّٰه تعالى عنه لقب بذلك لعلمه كان يقال له مرة: الحبر، ومرة البحر.

الأشدق: عمرو بن سعيد لأنه كان مائل الشدق[٣] . الفياض: عكرمة بن ربعى لقب بذلك لسخائه. المصطلق: خزيمة بن سعد الخزاعى قيل له: المصطلق، لحسن صوته وشدته، وكان أول من غنى من خزاعة. راح يكذب لقب به المهلب لأنه كان يضع الحديث أيام الخوارج فيحدث به، فإذا رأوه قالوا: راح يكذب. واصل الغزّال كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين وكان يتبع العجائز فيتصدق عليهم و لم يكن غزالاً. سليمان التيمى كان داره ومسجده فى بنى تميم و لم يكن منهم، وهو شيبانى. أبو عمر الشيبانى لم يكن من بنى شيبان، وإنما كان يعلم يزيد بن مزيد الشيبانى. اليزيدى كان يعلم يزيد بن منصور الحميرى فنسب إليه. ذو القروح[٤] امرؤ القيس كان ملك الروم كساه الحلة المسمومة فقرحته.

وقالوا: لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا للعرب وهى مفاخرهم، وقال بعضهم:

أكنيــهِ حيـنَ أناديــهِ لأكرمَـــهُ ولا ألقبــهُ والســوءَةَ اللقـــبُ

وقيل فى قوله تعالى: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا﴾[٥] أى: كنياه، ولما ضرب موسى عليه الصلاة والسلام البحر و لم ينفلق أوحى اللّٰه تعالى إليه أن كنِّهِ، فقال: انفلق أبا خالد، فانفلق فكان كلّ فرق كالطود العظيم.

---

(١) خلوق: طيب.
(٢) عكة: إناء.
(٣) الشدق: الفم.
(٤) ذو القروح: ذر الدمامل المتقرحة.
(٥) سورة طه:٤٤.

وأما الألقاب. فقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الأَيْمَانِ﴾[١] سمّاه الله تعالى فسوقًا، واتفق العلماء رضى الله تعالى عنهم على جواز ذلك على وجه التعريف لمن لا يعرف إلا بذلك، كالأعمش، والأعمى، والأعرج والأحول، والأفطس، والأقرع، ونحو ذلك. وقلّ من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، و لم يزل فى الأمم كلها يجرى فى المخاطبات والمكاتبات من غير نكير، غير أنها كانت تطلق على حسب الموسومين. وأما ما استحسن من تلقيب السفلة بالألقاب العلية حتى زال الفضل، وذهب التفاوت، وانقلب النقص والشرف شرعًا واحدًا فَمُنْكَر.

وهَبْ أن العذر مبسوط فى ذلك، فما العذر فى تلقيب من ليس من الدين فى دبير ولا قبيل، ولا له فيه ناقة ولا فصيل، بل هو محتوٍ على ما يضادّ الدين، وينافى كمال الدين وشرف الإسلام، وهى لعمر الله الغصة التى لا تساغ، والغبن الذى يعجز الصبر دونه فلا يستطاع، نسأل الله تعالى إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وأن يصلح فسادنا، ويوقظ غافلنا.

الرجل يكنى باسم ولده، والمرأة كذلك، وإذا كنوا من لم يكن له ولد فعلى جهة التفاؤل، وبناء الأمر على رجاء أن يعيش فيولد له، وقد يكنون بما يلائم المكنى من غير الأولاد، كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى علىّ رضى الله تعالى عنه «أبو تراب» وذلك أنه نام فى غزوة ذى العشيرة فذهب به النوم، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متمرغ فى التراب، فقال له: اجلس يا أبا تراب وكان أحبّ أسمائه إليه، وكقولهم: أبى لهب لحمرة خدّيه ولونه.

وقال الزمخشرى رحمه الله تعالى: وسمعتهم يكنون الكبير الرأس والعمامة بأبى الرأس، وأبى العمامة، وسمعت العرب ينادون الطويل اللحية: يا أبا الطويلة، وسمعت عرب البحيرة[٢] يكنون بأسماء بناتهم كأبى زهو، وأبى سلطانة، وأبى ليلى ونحو ذلك، ولا حرج فى ذلك، وقد تكنى جماعة من أفضل الصحابة بأبى فلانة: منهم سيدنا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه كان له ثلاث كنى: أبو عمرو، وأبو عبد الله، وأبو ليلى. ومنهم أبو أمامة، وأبو رقية تميم الدارى، وأبو كريمة المقداد بن معد يكرب وكثير من الصحابة ومن التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. أبو عائشة مسروق بن الأجدع. وكان لأنس أخ صغير وله نغير[٣] يلعب به فمات، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه حزينًا، فقال: ما شأنه؟ فقالوا: مات نغيره، فقال: «يا أبا عمير ما فعل النغير».

ونظر المأمون إلى غلام حسن فى الموكب، فسأله عن اسمه، فقال: لا أدرى، فقال:

تسمَّيْتَ لا أدرى فإنّكَ لا تدرى ... بما فعلَ الحبُّ المبرِعُ فى صدرى

وعن على رضى الله تعالى عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم: «إذا سميتم الولد محمدًا فاكرموه، ووسعوا له فى المجلس، ولا تقبحوا له وجهًا». وعنه «ما من قوم كان بينهم مشورة فحضر معهم مَنْ كان اسمه محمد أو أحمد فأدخلوه فى مشورتهم إلاّ كان خيرًا لهم، وما من مائدة وُضِعت فحضر عليها مَنْ اسمه محمد أو أحمد إلا قدّس الله ذلك المنزل فى كل يوم مرتين، كل ذلك ببركة هذا الاسم الشريف». ومما جاء فى مدح الأسماء منظومًا. قال بعضهم فى مليح اسمه إبراهيم:

رأيتُ حبيبى فى المنامِ مُعَانِقى ... وذلكَ للمَهجُورِ مرتبةٌ عليا

وقد رقّ لى من بعدِ هجرٍ وقسوةٍ ... وما ضرَّ إبراهيمُ لو صدَّق الرؤيا[٤]

---

(١) سورة الحجرات: ١١.

(٢) عرب البحيرة: ربما عرب الخيرة.

(٣) النغير: طير أحمر المنقار بحجم العصفور.

(٤) الرؤيا: تورية فى قصة سيدنا إبراهيم.

وفيه أيضًا:

لا زال بـــابُك كعبـــةً محجوبـــةً ... وترابُهَــا فــوقَ الجبــاهِ وسـيمُ
حتــى يُنـادى فـى البقـاعِ بأسْـرِها ... هـــذا المقــامُ وأنـــتَ إبراهيـــمُ

وفيه أيضًا:

يــا سمــيَّ الخليــلِ[١] إنَّ فــؤادى ... فيــه مــن لوعــةِ الغــرامِ جحيــمٌ
وعجيــبٌ يـــا قــاتلى أنّ قلبــى ... فيــه نــارٌ وأنــت فيــه مُقيــمُ

ولبعضهم فى مليح اسمه عمر:

يـا أعـدلَ النـاسِ أسمـاكم تجـورُ علـى ... فـؤادِ مُضْنَـاكَ بـالهجرانِ والبـينِ[٢]
أظنّهـم سـرقوكَ القـافَ مـن قمـرِ ... وأبدلوهــا بعــينِ خيفــةَ العــينِ

وفيه أيضًا:

مـا عليهـم فـى الهـوى لـو نظـروا ... حــينَ سمـــوّك فقـــالوا عُمـــرُ
أبدلـــوا قـــافك عينًـــا غلطًـــا ... أخطـــأوا مـــا أنـــتَ إلاّ قمـــرُ

ولبعضهم فى مليح حاملٍ شمعة موقودة اسمه عثمان:

وافـــى إلىّ بشـــمعةٍ وضياؤهـــا ... وضيــاؤه حَكَيـــا لنـــا القمرَيْـــنِ
ناديتَــهُ مــا الاســمُ يــا كَــلَّ المنـــى ... فأجـــابنى عثمـــانُ ذو النورَيْـــنِ

ولبعضهم فى مليح اسمه يوسف:

يـا مَنْ سـبى الشـعراءَ نمـلُ عـذارهِ ... النجـمُ يشـهدُ لى بـأنى مُذْنــفٌ[٣]
صيَّرْتَ قلبى مــن صـدودِكَ فـاطرًا ... فـامَنْ علـىَّ بـزورةٍ يـا يوسـفُ[٤]

وللصفى الحلى فيمن اسمه داود:

وثقــتُ بــأن قلبــى مــن حديــدٍ ... وفيـه علـى الهـوى بـأسٌ شـديدُ
فــلانَ علــى هــواك ولا عجيــبٌ ... إذا داودُ لان لـــــه الحديــــــدُ

وله فيمن اسمه موسى:

أتــى موســى بآيــة خــال خــدّ ... حوتـه صـوارمُ الحـدقِ المـراضِ[٥]
فآيـــةَ ذا بيـــاضٌ فـــى ســـوادٍ ... وآيـــةَ ذا ســـوادٌ فـــى بيـــاضِ
فجـاءَ بضـدٍّ مـا قـد جـاء موسـى ... كليـمُ اللّـه فـى الحِقَـبِ المواضِـى

وللقرطبى فى مليح اسمه بدر:

سمَّـــــوهُ بَــــدرًا وذاك لَمـــــا ... أن فـــاقَ فـــى حُســـنِهِ وتمّـــا
وأجمَــــــعَ النّـــــاسُ إذا رأوه ... بأنــه اســمٌ علــى مُسَـــمًّى

---

(١) سميَّ الخليلِ: شبيهه فى الاسم. (٢) البين: الفراق والبعد.
(٣) مدنفٌ: متعب. (٤) يا يوسفُ: يستخدم أسماء السور «الشعراء» «النمل» «فاطر» «يوسف».
(٥) المراض: العيون الناعسة.

ولمؤلفة رحمه الله تعالى فى قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى:

وعظَ الأنامَ إمامُنا الحبرُ الذى ... سكبَ العلومَ كحبرِ فضلٍ طافحِ
فشفَى القلوبَ بعلمِهِ وبوعظِهِ ... والعلمُ يشفى إنْ يكنْ من صالحِ

وتوجهت مرة إلى بلتاج لاجتمع بالحاج خليل بن منصور فى ضرورة فلم أجده ولم يقم أحد من إخواته بقضاء ما توجهت بسببه فقلت:

خِصَالُ خليلٍ كلّهن حميدة ... وأوصافُهُ تَزرى[1] بكلِّ جميلِ
فلا خيرَ فى بلتاج إنْ لم يكنْ بها ... ولا خيرَ فى الدنيا بغير خليلِ

وقال آخر فى مقبل:

يا من تحجَّبَ عن مُحِّبٍ صادقٍ ... ما زالَ عنه كلَّ يومٍ يسألُ
مَنْ لى بيومٍ فيه تسمحُ باللقاء ... ويقالُ لى هذا حبيبُك مقبلُ

ولبعضهم فى مليح اسمه مُحْسن:

وأهيفٍ يعلو على عُشَّاقِهِ ... برتبةٍ من الجمال نالها
واسمُهُ وهو العجيبُ محسنٌ ... وكم دموعٍ فى الهوى أسالها

ولصفى الدين الحلى فى اسم حسين:

حبيبى وافرٌ والشوقُ منى ... طويلٌ والهوى عندى مديدٌ
وأعجبُ أننى أهوى حُسَينا ... وشَوقى فى محبتهِ يزيدُ

ومما قيل فى أسماء النساء. فى فاطمة:

عجبتُ من فاتنةٍ لم تَزَلْ ... لمرتجى الوصلِ لها فاطمَهْ[2]
تَنكِرُ ما القاهُ وجدِهَا ... وهى بشَوقى والجَوى عالمَهْ

وقال ابن مكانس فى اسم عائشة:

يا دهرُ خبِّرنى بحقِّك وَاشْفِنى ... فَسِهامُ فِكْرى فى أمورك طائشَهُ
أيحلُّ أنى فى المحبَّةِ مَيِّتٌ ... وحبيبتى من بَعدِ موتى عائشَهْ

وقال شمس الدين البديرى فى اسم حليمة:

ولما رأتنى فى هَواها متيَّمًا ... أكابدُ من حَرِّ الغرامِ أليمَهْ
فجادَتْ بطيبِ الوَصْلِ منها ولم تَجُرْ ... ومِن أينَ تدرى الجَورَ وهى حليمَهْ

ولبعضهم فى اسمب بركة «دوبيت»[3] :

لَّما نَصبَ الهوى لقلبى شركَهْ ... ناديتُ وقلبى تاركٌ مَنْ تركَهْ
يا قلبُ أفِقْ ولا تَمِلْ لشركهْ ... تغنيك سنين ساعة من بركَهْ

---

(١) تُزرى: تُشين.
(٢) فاطمَهْ: أى منعته بعد قبول.
(٣) دوبيت: بيتان.

مردوفًا[١] أيضًا:

لَمّا نَصبَ الهوى لقلبى شركَهْ ... فى كُلِّ طريقْ
ناديتُ وقلبى تاركٌ مَنْ تركَهْ ... لو كانَ يفيقْ
يا قلب أفَق ولا تمل للشركَهْ ... ما الشركُ يليقْ
تغنيك سنين ساعة من بركَهْ ... عن كلِّ صديقْ

ولو تتبعت هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات، ولكن فيما ذكرته كفاية، والله الموفق، وأسأله العناية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) المردوف: من فنون النظم: الشطر الأول بقافية غير الشطر الثانى.

الباب الخمسون فيما جاء فى الأسفار والاغتراب وما قيل فى الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه

أما ما جاء في الأسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان، فقد قال اللّه تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً**﴾[1]، وفى الأثر: سافروا تغنموا. وعن أبي هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لو يعلم الناس رحمة اللّه للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر، وهو ميزان الأخلاق، إن اللّه بالمسافر رحيم». ويقال: الحركة ولود، والسكون عاقر. وقال حكيم: السفر يُسْفر عن أخلاق الرجال. وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقًا عليه فقال يومًا:

ألا خلّنى أمضى لشأنى ولا أكنْ ... على لأهل كلاًّ[2] إن ذا لشديدُ
تهيبنى ريبُ المنونِ ولم أكنْ ... لأهربَ عمَّا ليس منه محيدُ
فلو كنتُ ذا مالٍ لقربَ مجلسى ... وقيل إذا أخطأتَ أنتَ رشيدُ
فدَعنى أجولُ[3] الأرضَ عمرى لعله ... يُسرُّ صديقٌ أو يُغاظَ حسودُ

وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «عليكم بالدلجة[4] فإن الأرض تطوى بالليل، ولا تطوى بالنهار». وقال كعب بن مالك رضى اللّه تعالى عنه: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يكره أن يسافر الرجل فى غير رفقة. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب» وقال صلى اللّه عليه وسلم: «إذا خرج ثلاثة فى ركب فليؤمروا أحدهم».

وقيل: أغار حذيفة بن بدر على هجان[5] النعمان بن المنذر بن ماء السماء، وسار فى ليلة مسافة ثمانى ليال، فضرب به المثل، وقال قيس بن الخطيم:

همَمْنَا بالإقامةِ ثُمَّ سِرْنا ... مسيرَ حُذيفةِ الخيرِ بنِ بَدْرِ

وسار ذكوان مولى عمر رضى اللّه تعالى عنه من مكة إلى المدينة في يوم وليلة. وقال المأمون: لا شئَ ألذُّ من السفر فى كفاية وعافية؛ لأنك تحل كل يوم فى محلة لم تحل فيها، وتعاشر قومًا لم تعرفهم. ومما قيل فى ترك الإقامة بدار الهوان:

قال الفرزدق:

وفى الأرضِ عن دارِ القِلى[6] متحوّلٌ ... وكلُّ بلادٍ أوطنَتْكَ[7] بلادُ

وقال آخر:

وما هى إلا بلدةٌ مثلُ بلدتى ... خيارهما ما كان عونًا على دهرى

وقال آخر:

وإذا البلادُ تغيَّرت عن حَالها ... فدَعِ المقَامِ وبادِرِ التحويلا

---

(١) سورة الملك: ١٥.
(٢) كلاًّ: عالةً.
(٣) أجولُ: أسيح.
(٤) الدلجة: السير فى أول الليل.
(٥) هجان: نوقه.
(٦) القِلى: البغض.
(٧) أوطنَتْكَ: جعلتك مواطنها.

ليس المقامُ عليك فرضًا واجبًا ... فى بلدةٍ تَدَعُ العزيزَ ذليلاً

وقال الصفى الحلى:

تنقَّلْ فَلَذَّاتُ الهَوَى فى التنقّلِ ... وَرُدْ[١] كلَّ صافٍ لا تَقِفْ عند منهلِ[٢]

ففى الأرضِ أَحْبابٌ وفيها مَنَازِلٌ ... فلا تبكِ من ذِكْرى حبيبٍ ومَنزلِ

ولا تستَمِعْ قول امرىء القَيْسِ إنّه ... مُضِلٌ ومَنْ ذا يهتدِى بمضَلِّلِ

وقال عبد الله الجعدى:

فإن تَجْفُ عَنّى أو تَزُرْنى إهانةً ... أجِدْ عنك فى الأرضِ العريضةِ مذهبًا

ومما قيل فى الوداعِ والفراق والشوق والبكاء، قال جرير:

لو كنتُ أَعلمُ أن أخرَ عهدِكم ... يومُ الرحيلِ فعلتُ ما لم أفعلِ

وقيل لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير: ما كانت جدّك صانعًا فى قوله: فعلت ما لم أفعلِ؟ قال: كان يقلع عينيه حتى لا يرى مظعن[٣] أحبابه، ثم أنشد يقول:

وما وَجْدُ مغلولٍ بصنعاءَ موثَقٌ ... بساقيْهِ من ماءِ الحديدِ كَبُولُ[٤]

قليلُ الموالى مسلَمٌ بجزيرةٍ ... له بعد نوماتِ العيون أليلُ

يقولُ له الحدَّادُ أنتَ مُعذَّبٌ ... غداةَ غدٍ أو مسلَمٌ فقتيلُ

بأكبرَ منى لوعةً يومَ راعنى ... فراقُ حبيبٍ ما إليه سبيلُ

وقال الشاعر:

وما أمُّ خَشْفٍ طَولَ يومٍ وليلةٍ ... ببلقعةٍ بيداءَ ظمآن صاديا

تهيمُ ولا تَدرى إلى أين تبتغى ... مُولهةٍ حُزنًا تجوزُ الفيافيا[٥]

أضرَّ بها حَرُّ الهجيرِ فلمْ تَجد ... لِغلّتها[٦] من باردِ الماءِ شَافيا

إذا بعدَتْ عن خشفها انعطفَتْ له ... فألفتْهُ ملهوفَ الجوانحِ طاويا

بأوجعَ منى يومَ شَدُّوا حمولهم ... ونادَى منادى البَيْنِ أن لا تَلاقيا

وقال عبد العزيز الماجشون وهو من فقهاء المدينة: قال لى المهدى: يا ماجشون ما قلت: حين فارقت أحبابك؟ قال: قلت يا أمير المؤمنين:

للّه باكٍ علَى أَحْبابه جزعًا ... قد كنتُ أَحْذرُ هذا قبلَ أن يقعا

ما كان واللّه شُؤمُ الدهر يتركَنى ... حتّى يجرَّ عنى من بعدِهم جرعا

إنَّ الزمانَ رأى إلفَ السرورِ لنا ... فدبَّ بالبَيْنِ فيما بيننا وسَعَى

فليَصْنَعِ الدهر بى ما شاءَ مجتهدا ... فلا زيادة شئ فوقَ ما صنعا

فقال: واللّه لأعيننك، فأعطاه عشرة آلاف دينار.

---

(١) وَرُدْ: أمر بالورود، ومعناه: الذهاب إلى الماء، وعكسه الصدور.
(٢) منهل: موضع للشرب.
(٣) مظعن: وقت رحيلهم.
(٤) كَبُولُ: أغلال.
(٥) الفيافيا: القفار والصحارى.
(٦) لغلّتها: عطشها.

وقال آخر:

وقفتُ يومَ النَوى منهم على بُعُدٍ ... و لم أُوَدِّعْهُمُ وَجدًا وإشفاقا

إنى خشيتُ على الأظعانِ من نفسى ... ومن دموعى إحراقًا وإغراقا

وقال عمر بن أحمد:

أتى الرحيلُ فحين جَدَّ ترحَّلَتْ ... مُهَجُ النفوسِ له عن الأجْسادِ

من لم يَبِتْ والبينُ يصدعُ قلبَهُ ... لم يدرِ كيف تفتّتُ الأكبادِ

وحكى بعضهم قال: دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون فى شباك، وهو ينشد شعرًا فقلنا له: أحسنت، فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به، وقال: ألِمثلى يقال: أحسنت؟ ففررنا منه، فقال: أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أنشدكم فإن أنا أحسنت فقولوا: أحسنت، وإن أنا أسأت فقولوا أسأت. فرجعنا إليه فأنشد يقول:

لما أناخوا قبيلَ الصبح عيسهمو[1] ... وَحَمَّلُوهَا وَسَارَتْ بالدُّمى الإبلُ

وقلبتْ بخلالِ السُّجْفِ ناظرَهَا ... يرنو إلىّ ودَمعُ العينِ ينهمِلُ

وودَّعتْ ببنانٍ زانَهُ عَنَمٌ ... نادَيتُ لاَ حَمَلَتْ رِجْلاكَ يا جَمَلُ

يا حادىَ العيسِ عرِّجْ كى أُوَدِّعَهم ... يا حَادى العيسِ فى ترحالِكَ الأجَلُ

إنى على العهدِ لم أنقضْ مودَّتَهم ... يا ليتَ شعرى لطولِ البعدِ ما فعلَوا

فقلنا له: ماتوا. فقال: والله وأنا أموت. ثم شهق شهقة فإذا هو ميت رحمه الله تعالى:

وقال آخر:

لَمَا عَلِمتُ بأنَّ القومَ قد رحلوا ... وراهبُ الديرِ بالناقوس مشتغلُ

شبَّكتُ عَشرى عَلَى رَأسى وَقلتُ لَه ... يَا رَاهِبَ هَلْ مَرَّتْ بكَ الإبلُ

فَحسنَّ لى وبكى بل رَقَّ لى ورَثى ... وقال لى يا فتى ضاقَتْ بك الحيلُ

إنَّ الخيامَ التى قد جئتَ تطلبهم ... بالأمسِ كانوا هنا والآن قد رحلَوا

وقال الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن العربى رحمه الله تعالى:

مَا رحلَوا يَومَ ساروا البزل العيسا ... إلا وقد حملوا فيها الطواويسا

من كلِّ فاتكةِ الألحاظِ مالكةٍ ... تخالها فوقَ عرشِ الدرِّ بلقيسا

إذا تمشَّت على صَرحِ الزجاج ترى ... شَمسًا على فَلَكٍ فى حَجرِ إدريسا

أسقفةٌ[2] من بناتِ الروم عاطلة ... ترَى عليها من الأنوارِ نَامُوسا

وحشيةٌ ما لها أنسٌ قد اتّخذَتْ ... فى بيتِ خلوتها للذكرِ ناوسا[3]

إن أومأت تطلبُ الإنجيلَ تحسبهم ... قساوسًا أو بطاريقًا شماميسا[4]

ناديْتُ إذ رحلوا للبين ناقتَها ... يا حادى العِيس لا تحدو بها العيسا

غَيَّبتُ أجنادَ صبرى يوم بَيْنِهمُ ... على الطريقِ كراديسًا كراديسا[5]

---

(١) العيس: النوق.

(٢) أسقفةٌ: درجة كهنوتية وقد ورد فى الأبيات حسب التسلسل.

(٣) ناووسا: قبرا.

(٤) شماميسا: شماس - قسيس - مطران - بطريق.

(٥) كراديسا: الكتيبة من الجند.

ساروا وأصبَحْتُ أنعى الربعَ بعدهمو والوجدُ فى القلبِ لا ينفكُّ مغروسا

وقال آخر:

ولما تبدَّت للرحيلِ جمالُنا وجدَّ بنا سيرٌ وفاضَتْ مدامعُ
تبدَّتْ لنا مذعورةً من خبائها وناظرُها باللؤلؤ الرَّطبِ دامعُ
أشارَتْ بأطرافِ البنانِ وودَّعَتْ وأومَتْ بعينيها متى أنتَ راجعُ
فقلت لها واللّه ما مِن مسافرِ يسيرُ ويَدرى ما بهِ اللّهُ صانعُ
فشالَتْ نقابَ الحسنِ من فوقَ وجهها فسالتْ من الطرفِ الكحيلِ مدامعُ
وقالت إلهى كُنْ عليه خليفةً فيا ربُّ ما خابَتْ لديكَ الودائعُ

وقال آخر:

يا راحلاً وجميلُ الصبر يتبعُهُ هل من سبيلٍ إلى لقياكَ يتفقُ
ما أنصفَتْكَ دموعى وهى داميةٌ ولا وَفَى لك قلبى وهو يحترقُ

وقال البغدادى:

قالَتْ وقد نالها للبَيْنِ أوجعُهُ والبينُ صَعْبٌ على الأحبابِ موقعُهُ
اجعَلْ يديكَ على قلبى فقد ضعفَتْ قُواهُ عَنْ حَمْلِ ما فيه وأضلَعُهُ
واعطِفْ على المطايا ساعةً فعسى مَنْ شَتّتَ شَملَ الهوى بالبين يجمعُهُ
كَأنّنى يومَ ولّتْ حَسرةً وأسى غَريقُ بحرٍ يرى الشاطىء ويمنعُهُ

وقال ابن البديرى:

قِفَا حادِيَىْ ليلى فإنىَ وَامقٌ[(١)] ولا تعْجلا يومًا على مَنْ يُفارقُ
وزما مطاياها قبيلَ مسيرها ليلتذَّ منها بالتزوُّدِ عاشقُ
ولا تزجروا بالسوقِ أظعانَ عِيسها فإنَّ حبيبى للظعائن سائقُ
ولما التقَيْنا والغرامُ يُذيبهُا ونحنُ كلانا فى التفكّرِ غارقُ
وقفنا ودمع العين يحجبُ بيننا تَسارِقُنى فى نظرةٍ وأُسارقُ
فلا تسألا ماحلَّ بالبين بيننا ولا تعجَبَا إننا مشوقُ وشائقُ

وقال أيضًا:

تذكرتُ ليلى حين شَطَّ مَزارُها[(٢)] وعادَتْ منازُلها خليلاتٌ بلقع[(٣)]
بكيتُ عليها والقَنَا يَقرعُ القَنَا وسُمْرُ العَوالى للمنايا تَشرَّعُ
وخالفتُ لوّامى عليها وعُذلى وحالفتُ سُهدى والخليُّون هُجَّعُ
ولم أستطعْ يومَ النَوى ردَّ عَبرةٍ فؤادى أسى من حرِّها يتقطّعُ

---

(١) وامقٌ: محب.
(٢) مزارُها: بعُد موضعها.
(٣) بلقع: قفر لا حياة فيها.

فقالَ خليلى إذ رأى الدَّمعَ دائمًا — يفيضُ دَمًا من مقلتى ليس يُدفَعُ
لئِنْ كانَ هذا الدمعُ يجرى صبابةً — على غيرِ ليلى فهو دَمعٌ مُضَيَّعُ

وقال آخر:

مددتُ إلى التوديعِ كفًا ضعيفةً — وأخرى على الرَّمضاءِ فوقَ فؤادى
فلا كانَ هذا آخرَ العهدِ منكمُو — ولا كانَ ذا التوديعُ آخر زادى

وقال آخر:

ولما وقفنَا للوداعِ عشيَّةً — وطرفى وقلبى دامعٌ وخَفَوقُ
بكيتُ فأضحَكْتُ الوُشَاةَ شماتةً — كأنى سَحَابٌ والوُشاةَ بروقُ

ولمؤلفه رحمه اللّه تعالى:

يا سادةَ فى سويدِ القلبِ مَسْكِنَهُم — وفى منامى أرى أنى أعَانِقَهُم
أوحشتمونا وعزُّ الصبرِ بعدكمو — يا مَنْ يعزُّ علينا أنْ نفارقَهُم

وقال آخر:

لو أن مالكًا[1] عَالم بذَرَى الهوى — ومحلّه من أضْلُعِ العُشَّاقِ
ما عذبَ العُشّاقَ إلاّ بالهوى — وإذا استغاثوا غاثَهُم بفراقِ

وقال ابن الوردى:

دهرُنا أضحى ضنينَا — باللَقَا حتَّى ضنينا[2]
يا ليالى الوصلِ عُودى — إجمعينا أجمعينا[3]

وقال الشريف الرضى:

علّلانى بذكرهم واسقيانى — وامْزجَا لى دمعى بكأسٍ دهاق[4]
وخُذا النومَ من جفونى فإنى — قد خلعتُ الكَرَى على العُشَّاقِ

وقال آخر عند ذلك:

قالوا أترقدُ إذا غِبْنا فقلتُ لهم — نَعَمْ وأشْفقُ من دمعى على بَصَرى
ما حقُّ طرفٍ هدانى نحو حُسْنِكمو — أنى أعَذِّبُهُ بالدمعِ والسَّهَرِ

وقال الموصلى:

فَسدَتْ لطولِ بُعادِكَمَ أحلامُنا — وعقولَنا وجفَا الجفونَ منامُ
والطيفُ قد وعَدَ الجفونَ بزورةٍ — يا حبَّذا إنْ صَحَّتِ الأحَلامُ

ومما قيل فى البكاء. قال الشاعر:

رجَوْتُ طيفَ خيالِه — وكيفَ لى بهُجُوعِ
والذارياتُ جُفونى — والمرسلاتُ دمُوعى[5]

---

(١) يقصد بمالك هنا خازن النار، اللّهم سَلِّمْ.

(٢) ضنينا: بخيلاً.

(٣) أجمعينا: لمى شملنا جميعًا.

(٤) دهاق: قد مملئة.

(٥) الذاريات - المرسلات - سور قرآنية.

وقال آخر:

ارحَـــمْ رَحِمْـــتَ للَوْعَتـــى ... وابعَـثْ خيـالَكَ فـى الكَـرَى
ودمـــوعُ عينـــى لا تسَـــلْ ... عـن حَالهـا يامـا جَـرَى

وقال آخر:

إنَّ عَينى مُذْ غَابَ شخصُك عنهـا ... يـأمرُ السـهدَ فـى كراهـا وينهـى
بدمـــوعٍ كـــأنَّهنَّ الغـــوادى ... لا تَسَلْ مـا جرى على الخدِّ منهـا

وقال آخر:

يـا قلـبُ صـبرًا علـى الفـراقِ ولـو ... روّعـــت ممـــن تحـــبّ بـــالبينِ
وأنـتَ يـا دمـعُ إن ظهَـرْتَ بمـا ... أخفيـه مـن قلبـى سقَطْتَ مـن عينـى

وقال آخر:

خاضَ العـواذلُ فـى حديـثِ مدامعـى ... لمـا غـدا كـالبحرِ سـرعةُ سـيرِهِ
فحبسـتُهُ لأصـونَ سـرَّ هواكمـو ... حتـى يخوضُـوا فـى حديـثٍ غـيرِهِ

وقال ابن الموّاز:

رُحْتُ يـومَ الفـراق أُجْرى دموعـى ... حسـرةً إذ قَضَـى الفـراقُ بِبَيْنـى
قيـلَ كـم ذا تُجْرى دموعُـك تعمـى ... أوْقِـفِ الدمعَ قلتُ من بَعْـدِ عَيْنـى

وقال آخر:

لمـا لبسـتُ لبُعْـده ثـوبُ الضنـى ... وغدَوْتُ من ثَوْبِ اصطبارى عاريـا
أجرَيْتُ وَقْفَ مدامعـى مـن بعـدِهِ ... وجعَلْتُـه وقفًـا عليـه جاريـا

وقال آخر:

ولم آرَ مثلى غـارَ مِـن طـولِ ليلـه ... عليـه كـأنّ الليـلَ يَعْشَـقُهُ معـى
وما زلتُ أبكى فى دُجَى الليلِ صبوةً ... مِنَ الوجـد حتى أبيضَّ مـن فَيْـضِ

وقال الموصلى:

عـــينٌ أفـــاضَتْ دُمُوعـــى ... لطـــولِ صـــدٍّ وبَيْـــنِ
ووجنـــةُ الخـــدِّ قـــالَتْ ... رأيْـــتُ غســـلى بعينـــى

وقال آخر:

ومـا فـارَقْتُ ليلـى مـن مـرادٍ ... ولكـن شـقوة بلغـتْ مداهـا
بكيـتُ نعـم بكيـتُ وكـل إلـفٍ ... إذا مـاتَتْ حبيبَتُـهُ بكاهـا

وفى بعض الكتب السماوية: إنَّ مما عاقبت به عبادى أن ابتليتهم بفراق الأحبة.

ومما جاء في الحنين إلى الوطن: أما محبة الوطن فمستولية على الطباع، مستدعية أشد الشوق إليها. روى أن أبان قدم على النبى صلى اللّه عليه وسلم، فقال: «يا أبان كيف تركت مكة؟» قال: تركت الإذخر[١] وقد أعذق، والنمام[٢]. وقد أورق. فاغرورقت عينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

وقال بلال رضى اللّه تعالى عنه:

ألا ليتَ شِعْرى هلا أبتينّ ليلةً بوادٍ وحولى إذخر وجليلُ
وهل أرِدَنْ يومًا مياهَ مجنّةٍ وهل يبدُوَنْ لى شامةٌ وطفيلُ[٣]

وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها توّاقة، وإلى مسقط رأسها مشتاقة.

ومن حبّ الوطن: ما حكى أن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه، فمنع أهل مصر أولياءه من ذلك، فلما بعث موسى عليه الصلاة والسلام وأهلك اللّه تعالى فرعون - لعنه اللّه - حمله موسى إلى مقابر آبائه فقبره بالأرض المقدّسة.

وأوصى الإسكندر رحمه اللّه تعالى أن تحمل رمته فى تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حبًّا لوطنه. واعتلّ سابور ذى الأكتاف وكان أسيرًا ببلاد الروم، فقالت له بنت الملك وكانت قد عشقته: ما تشتهى؟ قال: شربة من ماء دجلة، وشمة من تراب إصطخر، فأتته بعد أيام بشربة من ماء وقبضة من تراب، وقالت له: هذا من ماء دجلة، ومن تربة أرضك، فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته.

وقال الجاحظ: كان النفر فى زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه تربة أرضه فى جراب يتداوى به، وما أحسن ما قال بعضهم:

بلادٌ ألفناها على كلِّ حالةٍ وقد يؤلف الشئ الذى ليس بالحسَنْ
ونستعذبُ الأرضَ التى لا هواءَ بها ولا ماؤها عذبٌ ولكنها وطَنْ

ووصف بعضهم بلاد الهند فقال: بحرها درّ، وجبالها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر. وقال عبد اللّه بن سليمان فى نهاوند: أرضها مسك، وترابها الزعفران، وثمارها الفاكهة، وحيطانها الشهد. وقال الحجاج لعامله على أصبهان: وقد وليتك على بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران.

وكان يقال: البصرة خزانة العرب، وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها، واتخاذ المسلمين بها وطنًا ومركزًا. وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا، وما سواها بادية.

وأنا أقول: مصر كنانة اللّه فى أرضه والسلام.

ومما جاء فى ذمّ السفر: قيل لرجل: السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر.

وقال بعضهم:

كلُّ العذابِ قطعةٌ من السفر يا ربُّ فارددنا على خيرِ الحضر

وقيل لأعرابى: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان. ومرّ إياس بن معاوية بمكان فقال: أسمع صوت كلب غريب، فقيل له: بم عرفت ذلك؟ قال: بخضوع صوته، وشدّة نباح غيره. وأراد أعرابىّ السفر فقال لامرأته:

عدّى السنينَ لغيبتى وتصبّرى وذرى الشهور فإنهنّ قصارُ

---

(١) الإذخر: من النباتات نافذة الرائحة.

(٢) النمام: من النباتات نافذة الرائحة أيضًا.

(٣) شامة وطفيل: اسماء مواضع.

فأجابته:

فـــاذكر صبابتنـــا إليـــكَ وشـــوقنا وارحَـــمْ بنـــاتَك إنهـــنَّ صغـــارُ

فأقام وترك السفر، ويقال: ربّ ملازم لمهنته فاز ببغيته. وقال ابن الهيثم:

لَعَمْـــرُكَ مـــا ضـــاقَتْ بـــلادٌ بأَهْلِهـــا ولكـــنّ أخـــلاقَ الرِّجـــالِ تضيـــقُ

وفيما ذكرته كفاية، وأسأل الله التوفيق والهداية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الحادى والخمسون فى ذكر الغنى وحبّ المال والافتخار بجمعه

قال اللّه تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(١) وقيل: الفقر رأس كل بلاء، وداعية إلى مقت الناس، وهو مع ذلك مسلبة للمروءة مذهبة للحياء، فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدًّا من ترك الحياء، ومَنء فَقَدَ حياءه فقد مروءته، ومَنْ فَقَدَ مروءته مقت، ومَنْ مقت ازدرى به، ومَنْ صار كذلك كان كلامه عليه لا له. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إنك إن تذر(٢) ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس». وفى الحديث: «لا خيرَ فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه، ويؤدى به أمانته، ويستغنى به عن خلق ربه». وقال على كرّم اللّه وجهه: الفقر الموت الأكبر، وقد استعاذ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الكفر والفقر وعذاب القبر. وقيل: مَنْ حفظ دنياه حفظ الأكرمين: دينه وعرضه. وقال الشاعر:

لا تَلُمنى إذا وقيت الأواقى ... بالأواقى لماء وجهى واقى

وقال لقمان لابنه: يا بنىّ أكلت الحنظل، وذقت الصبر فلم أر شيئًا أَمَرّ من الفقر؛ فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس كيلا ينتقصوك، ولكن أسأل اللّه تعالى من فضله، فمن ذا الذى سأل اللّه فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه، أو تضرّع إليه فلم يكشف ما به.

وكان العباس رضى اللّه عنه يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أعذب من الماء، وأرفع من السماء، وأحلى من الشهد، وأزكى من الورد، خطأه صواب، وسيئاته حسنات، وقوله مقبول، يرفع مجلسه ولا يملّ حديثه.

والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم عليه إن قدم، ولا يُسأل عنه إن غاب، إن حضر ازدروه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة.

وقال بعضهم: طلبت الراحة لنفسى فلم أجد لها أروح من ترك ما لا يعنيها، وتوحشت فى البرية فلم أر وحشة أقر من قرين السوء، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم ار قرينًا أغلب للرجل من المرأة السوء، ونظرت إلى كل ما يذل القوى ويكسره فلم أر شيئًا أذل له ولا أكسر من الفاقة. قال الشاعر:

وكلُّ مُقلٍّ حينَ يغدُو لحاجةٍ ... إلى كلِّ ما يلقى من الناس مذنبُ
وكانَتْ بنو عمى يقولُونَ مرحبا ... فلما رأونى معدَمًا مات مرحبُ

وقال آخر:

المالُ يرفعُ سَقفًا لا عِمادَ له ... والفَقْر يهدمُ بيتَ العزِّ والشَّرفِ

وقال آخر:

جروحُ الليالى ما لَهنَّ طبيبُ ... وعيشُ الفتى بالفقر ليس يطيبُ
وحسبُك أن المرءَ فى حالِ فقرِهِ ... تحمِّقُه الأقوام وهو لبيبُ(٣)
ومن يغترِرْ بالحادثات وصرفها ... يَبِتْ وهو مغلوبُ الفؤاد سليبُ
وما ضرَّنى أنْ قالَ أخطأتَ جاهلٌ ... إذا قال كلُّ الناس أنت مصيبُ

---

(١) سورة الكهف: ٤٦.
(٢) تذر: تترك.
(٣) أى: يظنونه أحمق وهو لبيبٌ.

وقال آخر:

الفقرُ يُزرى[1] بأقوامٍ ذوى حَسَبٍ ... وقد يسوِّدُ غيرَ السيِّدِ المالُ

وقال آخر:

لعَمْرُكَ إن المالَ قد يجعلُ الفتى ... سنيًا وإن الفقرَ بالمرء قد يُزرى

وما رَفْعُ النفسِ الدنيئةِ كالغنى ... ولا وَضْعُ النفسِ النفيسةِ كالفقرِ

وقال آخر:

إذا قلَّ مالُ المرءِ لانَتْ قناتُهُ ... وهانَ على الأدنى فكيفَ الأباعِدُ

وقال ابن الأحنف:

يمشى الفقيرُ وكلُّ شيءٍ ضدَّهُ ... والناسُ تغلقُ دونَهُ أبوابَهَا

وتراهُ مبغوضًا وليسَ بمذنبٍ ... ويرَى العداوةَ لا يرى أسبابَهَا

حتى الكلابُ إذا رأتْ ثروةٍ ... خضعَتْ لدَيْه وحرَّكَتْ أذنابَهَا

وإذا رأتْ يومًا فقيرًا عابرًا ... نَبَحَتْ عليه وكشَّرَتْ أنيابَهَا

وقال آخر:

فقرُ الفتى يُذهِبُ أنوارَه ... مثلَ اصفرارِ الشمس عند المغيبِ

واللَّه ما الإنسانُ فى قومِهِ ... إذا بلىَ بالفقرِ إلا غريبُ

وقال آخر:

إن الدراهمَ فى المواطنِ كلّها ... تَكْسُو الرجالَ مهابةَ وجمالا

فهى اللسانُ لمن أراد فصاحةَ ... وهى السلاحُ لمن أراد قتالا

وقال آخر:

ما الناسُ إلاّ مَعَ الدنيا وصاحِبِها ... فكلما انقلَبَتْ يومًا بهِ انقلبوا

يعظِّمُون أخَا الدنيا فإنْ وثَبَتْ ... يومًا عليه بما لا يشتهى وثبوا

وقال بعض الفرس: من زعم أنه لا يحب المال فهو عندى كذاب.

وقال الكنانى:

أصبحَتِ الدنيا لنا عبرةَ ... فالحمدُ للّه على ذلكا

قد أجمَعَ الناسُ على ذمِّها ... وما أرى منهم لها تاركا

وقال الزمخشرى:

وإذا رأيتَ صعوبةَ فى مطلبٍ ... فاحمِلْ صعوبَتَهُ على الدينارِ

وابعَثْه فيما تشتهيه فإنّهُ ... حَجَرٌ يلينُ قوّةَ الأحجارِ

قال الثورى رحمه الله تعالى: لئن اخلف عشرة آلاف درهم يحاسبنى اللّه عليها أحب إلىّ من أن احتاج إلى لئيم. وفى هذا المعنى قال الشاعر:

احفَظْ عُرَى مالِكَ تَحْظَ به ... ولا تَفرِّطْ فيه تَبْقَ ذليلْ

---

(١) يُزرى: يشين.

وإن يقولـــوا بـــاخلٌ بالعَطـــا فـالبخلُ خـيرٌ مـن سـؤال البخيـلْ
واحفَـظْ علـى نفسِـك مـن زَلّـةٍ يُـرى عزيـزُ القـوم فيهـا ذليـلْ

وأما ما جاء فى الاحتراز على الأموال: فقد قالوا: ينبغى لصاحب المال أن يحترز ويحتفظ عليه من المطمعين والمبرطحين[١] والمخترفين الموهمين والمتنمسين[٢] .

فأما المطمعون؛ فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشرى والإكرام والإعظام إلى أن يأنسوا بهم ويعرفوهم بالمشاهدة، وربما قضوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوهم ويحصل بينهم سبب الصداقة، ثم إن أحدهم يذكر لصاحب المال فى معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة فى معيشته، ثم يمشى معه فى الحديث إلى أن يقول: إنى فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات، وهذا أمر يعود ضرره فى المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب، وغرضى التقرّب إليك ونصحك وخدمتك وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدى على مال، بل يكون مالك تحت يدك، أو تحت يد أحد من جهتك، ويخرج له فى صفة الناصحين المشفقين فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين، إن ائتمنه هو جعل المال بيده، أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح وطاول به الأوقات، ودفع إليه فى المدّة الطويلة الشئ اليسير من ماله ثم يحتجّ عليه ببعض الآفات ويدعى الخسارة، فإن لزمه صاحب المال، قابحه وبرطل من جملة المال صاحب جاه فيدفعه، ويقول: هذا رابانى[٣] ، فإن روعى صاحب المال وفق بينهما، على انى كتب عليه ببقية المال وثيقة فلا يستوفى ما فيها إلاَّ فى الآخرة، وإن هو لم يأتمنه وعوّل أن يكون القبض بيده والمتاع مخزونًا لديه واطأ[٤] عليه البائعين والمشترين، وحصل لنفسه، وعمل ما يقول به، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أو همه أن مفاتيح الأرزاق بيده، وإن كسد المشترى، أو رخص أحال الأمر على الأقدار وقال ليس لى علم بالغيب.

ومن أشد المطمعين، المعترضون لصنعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون فى عمل الذهب والفضة من غير معدنهما، فيجب أن يحذر التقرّب منهم والاستماع لهم فى شئ من حديثهم؛ فإن كذبهم ظاهر وذلك أنهم يوهمون الغير أنهم ينيلونهم خيرًا ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا لحاجة، وهذا يستحيل ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك عدم الإمكان وتعذر المكان، فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنه عدة لها قيمة، فيأخذها وينسحب، ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهى إلى مدة، فيقنع فى تلك المدة بالأكل غدوة وعشية، وسبيله بعد ذلك إن كان معروفًا قال: فسد علىّ العمل من جهة كيت وكيت، ويقول للذى ينفق عليه: هل لك فى المعاودة، فإن حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتمّ غرض، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأىّ سبب كان، وإن كان منكورًا غافل صاحب المكان وخرج هاربًا.

ومن المطمعين، قوم يجعلون فى الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال، ويقولون: إنا نعرف علم كنز فيه من الأمارات كيت وكيت، ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة ويقولون: نريد أن تأخذ لنا عدة وتنفق عنينا، ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك، فيوافقهم على ذلك ويوطن نفسه على أن المادة تكون قريبة فيعملون يومًا أو يومين، فيظهر لهم أكثر الأمارات فيزداد طمعًا، ويعتقد الصحة، ثم يستدرجونه إلى أن ينفق عليهم ما شاء الله تعالى، ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء، وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة فى قماشه

---

(١) المبرطحين: سيأتى تفصيل شرحهما وهما من أصناف المحتالين فى حيازة المال.

(٢) المتنمسين: سيأتى تفصيل شرحهما وهما من أصناف المحتالين فى حيازة المال.

(٣) رابانى: منسوب إلى الربا.

(٤) واطأ: شاركهم العزم.

أو فى العدة التى معه فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا، فهذا أمر المطمعين.

وأما المبرطحون؛ فهم من الخونة والناس بهم أكثر غررًا[1] ، وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحدًا منهم لشراء حاجة سارع فيها، واحتاط فى جودتها، وتوفير كيلها أو وزنها أو ذرعها ووضع من أصل ثمنها شيئًا وزنه من عنده، سرًّا، حتى يبيض وجهه عند صاحب المال، ويعتقد نصحه وأمانته ونجح مساعيه وكذلك إن ندبه لشئ يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقى مقاليد أمره إليه فيستعطفه ويفوز به ثم يغير الحال الأولى فى الباطن فينبغى لصاحب المال أن لا يغفل عنه.

وأما المحترفون الموهمون؛ فهم الذين يتعرّضون لذوى الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء، ويعتمدون جودة اللباس، ويستعملون كثيرًا من الطيب، ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة فيما يعانيه، ويذكر ذلك مع الغير، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر فى ذهن صاحب المال أنه يكتسب فى كل سنة الجمل الكثيرة من المال، وأنه لا يبالى إذا أنفق، أو أكل، أو شرب، فتشره[2] نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعبة: يا فلان، تريد الدنيا كلها لنفسك لم لا تشركنا فى متاجرك هذه، وأرباحك، فيقول له: أنت جبان يعزّ عليك إخراج الدينار، وتظن أنك إن أظهرته خطف منك، ولا تدرى أنه مثل البازى إن أرسلته أكل وأطعمك، وإن أمسكته لم يصد شيئًا، واحتجت إلى أن تطعمه وإلا مات، وأنا واللّه لو كان عندى علم أنك تنبسط لهذا، كنت فعلت معك خيرًا كثيرًا ولكن ما كان إلا هكذا، وما كان لا كلام فيه، والعمل فى المستأنف، فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده.

وأما المتنمسون؛ فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك، ومجانبة الحرام، ومواظبة الصلاة والصيام لكى يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام، ثم يلقون ذوى الأموال بالبشر والإكرام والتلطف فى المقال، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهانى بالأعياد، وربما يأتى معه بأحد من الأولاد ويظهرون النزاهة والغنى، ويجعلون الدين سلمًا إلى الدنيا، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال، وتفوض إليهم الوصايا، ويجهلم[3] العوام، وتقبل شهادتهم الحكام، وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال وهؤلاء أشرّ من اللصوص والقطاع، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم، وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار[4] بهم. قال الشاعر:

صلّى وصامَ لأمرٍ كان أمّلَهُ حتى حوَاهُ فما صلّى ولا صاما

وقيل: لا فقير أفقر من غنىّ يأمن الفقير: قال الشاعر:

ألم ترَ أن الفقرَ يُرجى له الغنى وأن الغنى يُخشى عليه من الفقرِ

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: يا بنى عليك بطلب العلم وجمع المال؛ فإن الناس طائفتان، خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم، والعامة تكرمك للمال. وقال بعض الحكماء: إذا افتقر الرجل اتهمه من كان به موثقًا، وأساء به الظن من كان ظنه به حسنًا، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدًّا من ترك الحياء، ومن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه، وما من خلة هى للغنى مدح إلا وهى للفقير عيب، فإن كان شجاعًا سمي أهوج، وإن كان مؤثرًا سمى مفسدًا، وإن كان حليمًا سمى ضعيفًا، وإن كان وقورًا سمى بليدًا، وإن كان لسنًا سمى مهذارا، وإن كان صموتًا سمى عييًا. قال ابن كثير:

---

(١) غررًا: انخداعًا.

(٢) فتشره: أى: تصاب بالطمع.

(٣) يجلهم: يحترمهم.

(٤) الاغترار: الانخداع.

النـاس أتبـاعُ مَـنْ دامـت لـه نعـمٌ ... والويلُ للمرءِ إن زلّـتْ بـه القـدمُ[(١)]
المـالُ زيـنٌ ومَـنْ قلّـتْ دراهمُـهُ ... حـىٌّ كمَـنْ مـاتَ إلاّ أنـه صَنَـمُ
لمـا رأيـتُ أخلاّئـى وخـالصَتى ... والكـلُّ مُسْـتَتِرٌ عنّـى ومحتشـمٌ
أبـدوا جفـاءً وإعراضًـا فقلتُ لهـم ... أذنَبْتُ ذنبًـا فقالوا ذنبُـك العدَمُ[(٢)]

وكان ابن مقلة وزيرًا لبعض الخلفاء فزوّر عنه يهودى كتابًا إلى بلاد الكفار، وضمنه أمورًا من اسرار الدولة ثم تحيل اليهودى إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودى فأعطته درجًا بخطه، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الذى كان فى الدرج، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة، وكان ذلك يوم عرفة وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره، وفى موكبه كل من فى الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له، ثم اتضحت القضية فى أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودى والجارية فقتلهما شرّ قلتة ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالاً كثيرة وخلعا سنية، وندم على فعله، واعتذر إليه فكتب ابن مقلة على باب داره يقول:

تحـالَفَ النـاسُ والزمـانُ ... فحيـثَ كـان الزمـانُ كـانَوا
عـادانى الدهـرُ نصـفَ يـومٍ ... فانكشـفَ النـاسُ لى وبـانَوا
يـا أيهـا المُعْرِضُـون عنـى ... عُـودُوا فقـد عـادَ لى الزمـانُ

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى قال بعضهم:

إنمـا قـوّةَ الظهـورِ النقـودُ ... وبهـا يكمـلُ الفتـى ويسـودُ
كـم كريـمٍ أزرى بـه الدهـرُ يومًـا ... ولئيـمٍ تسـعى إليـه الوفـودُ

والأطباء يعلمون أمراضًا من علاجها، اللعب بالدينار، وشرب الأدوية والمساليق[(٣)]، التى يغلى فيها الذهب، قال الشاعر:

أحـرص علـى الدرهـم والعـين ... تسـلم مـن العيلـة والدَّيْـنِ
فقـوّة العـين بإنسـانها[(٤)] ... وقـوّة الإنسـان بـالعَيْنِ

واعلَمْ أن القلب عمود البدن، فإذا قوى القلب قوى سائر البدن، وليس له قوة أشد من المال، وبالضد إذا ضعف من لافقر ضعف له البدن.

حكى أن ملكًا رأى شيخًا قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه، والشاب يعجز عن ذلك فعجب منه فاستحضره فحادثه فى ذلك، فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه. وقال لقمان لابنه: يا بنىّ شيئان إذا أنت حفظتهما لا تبالى بما صنعت بعدهما، دينك لمعادك، ودرهمك لمعاشك. والكلام فى هذا المعنى كثير، وقد اقتصرت منه على النزر اليسير، وقد كان فى الناس من يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخرًا، فمن ذلك ما حكى عن أحمد بن طولون أنه دخل يومًا بعض بساتينه فرأى النرجس وقد تفتح زهره فاستحسنه، فدعا بغدائه فتغذّى، ثم دعا بشرابه فشرب، فلما انتشى قال: علىّ بألف مثقال من المسك فنثره على أوراق النرجس.

ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف؛ حكى الرشيد بن الزبير فى كتابه الملقب بالعجائب والطرف أن أبا الوليد ذكر فى كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما فتح مكة عام الفتح فى سنة

---

(١) أى: عثرت به.
(٢) العدم: الفاقة.
(٣) المساليق: مفردها ما يسلق ليشرب.
(٤) بإنسانها: بؤبؤ العين.

ثمان من الهجرة، وجد فى الجبِّ الذى كان فى الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب، مما كان يهدى للبيت قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار. وباع زهرة التميمى يوم القادسية منطقة كان قتل صاحبها بثمانين ألف دينار، ولبس سلبه وقيمته خمسمائة ألف وخمسون ألفًا. وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوّض عنها ثلاثين ألف دينار، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتى ألف. ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريق ذهب مرصعًا بالجواهر فلم يدر أحد ما قيمته. فقال رجل من الفرس: أنا آخذه بعشرة آلاف دينار ولم يعرف قيمته، فذهب به إلى سعد بن أبى وقاص فأعطاه إياه. وقال: لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار فباعه سعد بمائة ألف دينار.

ولما أتتِ التركُ إلى عبد اللّه بن زياد ببخارى فى سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون، فلما هزمهم اللّه تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فردتيه، ونسيت الأخرى فأصابها المسلمون فقوّمت بمائتى ألف دينار.

ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى فى سنة تسع وثمانين وجد فيها قدرو ذهب ينزل إليها بسلالم. ودفع مصعب بن الزبير حين أحسّ بالقتل إلى زياد مولاه فصًّا من ياقوت أحمر، وقال له: انج به وكان قد قوّم ذلك الفص بألف ألف درهم، فأخذه زياد ورضه بين حجرين وقال واللّه لا ينتفع به أحد بعد مصعب. وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان فى ولايته عثر على كنز فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب، مرصعة بالدّر والجواهر، والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد فحملها إلى مصعب بن الزبير فخرج من قوّمها، فبلغت قيمتها ألفى ألف دينار، فقال: إلى من أدفعها؟ فقيل: إلى نسائك وأهلك. فقال: لا بل إلى رجل قدّم عندنا يدا، وأولانا جميلاً، ادع لى عبد اللّه بن أبى دريد فدفعها إليه. ولما صار موجود عماد الدولة فى قبضة أمير الجيوش وجد فى جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشرة مثقالاً، فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر فقوّمت بتسعين ألف دينار.

ووجد فى بستان العباس بن الحسن الوزير مما أعدّ له من آلة الشرب يوم قتل سبعمائة صينية من ذهب وفضة، ووجد له مائة ألف مثقال عنبر. وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثنى عشر ألف قميص وشى، وعشرة آلاف تكة حرير وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار. ولم تأت دولة بنى العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم، وبين الدولة العباسية، ووفاة هشام سبع سنين. ولما قتل الأفضل ابن أمير الجيوش فى شهر رمضان سنة خمس وعشرة وخمسمائة خلف بعده مائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين أردبا وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج، ودواة من الذهب قوّم ما عليها من الجواهر واليواقيت بمائتى ألف دينار، وعشرة بيوت فى كل بيت منها مسمار ذهب، قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لونا، وخلف كعبة عنبر يجعل عليها ثيابه، إذ نزعها، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذى لا يوجد مثله، وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه، وخلف من الزبادى الصينيى والبلور المحكم[1]، وسق مائة جمل، وخلف عشرة الاف ملعقة فضة، وثلاثة آلاف ملعقة ذهب، وعشرة آلاف زبدية فضة كبار وصغار، وأربع قدور ذهبًا، كل قدر وزنها مائة رطل، وسبعمائة جام[2] ذهبًا بفصوص زمرد، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجًا عن الأرادب، فى كل خريطة عشرة آلاف درهم، وخلف من الخدم والرقيق والخيل والبغال

(١) وسق: حمولة.

(٢) جام: وعاء زجاجى.

والجمال وحلى النساء ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وخلف ألف حسكة ذهبًا وألفى حسكة[1] فضة وثلاثة آلاف نرجسة ذهبًا، وخمسة آلاف نرجسة فضة، وألف صورة ذهبًا وألف صورة فضة، منقوشة عمل المغرب، وثلثمائة ثور ذهبًا، وأربعة آلاف ثور فضة، وخلف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان وداخل قصر الزمرد، وخلف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لبنه فى كل سنة بثلاثين ألف دينار، وخلف من الحواصل المملوءة من الحبوب ما لا يحصى.

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طبلاً كان بالقرب من موضع العاضد محتفظًا له، فلما رأوه سخروا منه، فضرب عليه إنسان فضرط، فضحكوا منه، ثم أمسكه آخر وضربه فضرط، فضحكوا عليه، فكسروه استهزاء وسخرية و لم يدروا خاصيته، وكانت الفائدة فيه أنه وضع للقولنج[2] ، فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره.

وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزًا لا تحصى، وبعد ذلك ماتوا ونفذت ذخائرهم، وفنيت أموالهم فسبحان من يدوم ملكه وبقاؤه. قال بعضهم:

هبِ الدنيا تَقَادُ إليك عفوًا[3] ... أليسَ مصيرُ ذلك للزوالِ

فضمنت أنا هذا البيت وقلت:

أيا مَنْ عاشَ فى الدنيا طويلا ... وأفنى العمرَ فى قيلَ وقالَ
وأتعَبَ نفسَهُ فيما سيفنى ... وجَمْعٍ مِن حرامٍ أو حلالِ
هَبِ الدنيا تَقَادُ إليك عَفْوًا ... أليس مصيرُ ذلك للزوال

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) حسكة: من الأسلحة.
(٢) القولنج أحد الأمراض الباطنية. وهو احتباس الفضلات فى الأمعاء، وعدم خروجها.
(٣) عفوًا: دون جهد.

الباب الثانى والخمسون فى ذكر الفقر ومدحه

قد دل قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾[١] على ذم الغنى إن كان سبب الطغيان. وسئل أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن الغنى والفقر فقال: وهل طغى من خلق الله عز وجل إلا بالغنى، وتلا هذه الآية المتقدمة. والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا فى المال. وكان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يرون الفقر فضيلة.

وحدث الحسن رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بأربعين عامًا»[٢] . فقال جليس للحسن: أمن الأغنياء أنا أم من الفقراء؟ فقال: هل تغديت اليوم؟ قال: نعم. قال: فهل عندك ما تتعشى به؟ قال: نعم، قال: فإذًا أنت من الأغنياء.

وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: كان النبى صلى الله عليه وسلم يبيت طاويًا ليالى ما له ولا لأهله عشاء. وكان عامة طعامه الشعير. وكان يعصب الحجر[٣] على بطنه من الجوع، وكان صلى الله عليه وسلم يأكل خبز الشعير غير منخول، هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه. وكان يقول: «اللّهمّ توفنى فقيرًا ولا تتوفنى غنيًّا، واحشرنى فى زمرة المساكين»[٤] .

وقال جابر رضى الله تعالى عنه: دخل النبى صلى الله عليه وسلم على ابنته فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها وهى تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل فبكى وقال: «تجرَّعى[٥] يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾»[٦] .

وقال صلى الله عليه وسلم: «الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره، ولا يختاره إلا أولياء الله تعالى».

وفى الخبر: إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل لملائكته: أدنوا إلىّ أحبائى، فتقول الملائكة: ومَنْ أحباؤك يا إله العالمين؟ فيقول: فقراء المؤمنين أحبائى. فيدنونهم منه، فيقول: يا عبادى الصالحين إنى ما زويت[٧] الدنيا عنكم لهوانكم علىّ، ولكن لكرامتكم، تمتعوا بالنظر إلىّ وتمنوا ما شئتم، فيقولون: وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنها منها، ولقد أحسنت بما صرفت عنا، فيأمر بهم فيكرمون ويحبرون ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان.

وقال صلى الله عليه وسلم: «هل تنصرون إلا بفقرائكم وضعفائكم، والذى نفسى بيده ليدخلن فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام، والأغنياء يحاسبون على زكاتهم».

وقال عليه الصلاة والسلام: «رب أشعث أغبر ذى طمرين[٨] لا يؤبه به لو أقسم على الله تعالى لأبره»[٩] أى لو قال: اللّهم إنى أسألك الجنة لأعطاه الجنة و لم يعطه من الدنيا شيئًا.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه بسه، الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤذن لهم، وإن خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم، حوائج أحدهم تتلجلج فى صدره لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم»[١] .

---

(١) سورة العلق:٦-٧.

(٢) أخرجه: مسلم فى الزهد والرقائق ٢٩٧٩.

(٣) يعصب الحجر: يربطه بُعصابة.

(٤) أخرجه: الترمذى فى الزهد ٢٣٥٢.

(٥) تجرَّعى: ذوقى.

(٦) سورة الضحى:٥.

(٧) زويت: حبستها عنكم.

(٨) طمرين: ثوبين باليين.

(٩) أخرجه: البخارى فى الصلح ٢٧٠٣.

وروى عن خالد بن عبد العزيز أنه قال: كان حيوة بن شريح من البكائين وكان ضيق الحال جدًّا، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده يدعو. فقلت له: يرحمك الله لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك في معيشتك. قال: فالتفت يمينًا وشمالاً فلم ير أحدًا، فأخذ حصاة من الأرض وقال: اللَّهمَّ اجعلها ذهبًا، فإذا هي تبرة في كفه، ما رأيت أحسن منها، قال: فرمى بها إليّ. وقال: هو أعلم بما يصلح عباده، فقلت: ما أصنع بهذه؟ قال: أنفقها على عيالك، فهبته والله أن أردها عليه.

وقال عون بن عبد الله: صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحدًا أكثر منى همًّا لأنى كنت أرى ثيابًا أحسن من ثيابى، ودابة أحسن من دابتى، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك فاسترحت.

قال بعضهم:

وقد يُهلكُ الإنسانَ كثرةَ مالِه كما ... يُذبح الطاووسُ من أجلِ ريشه

وقال عبد الله بن طاهر:

ألم تَرَ الدهرَ يهدمُ ما بنى ... ويأخذَ ما أعطى ويفسدُ ما أسدى[٢]

فمن سَرَّهُ أن لا يرى ما يسوؤه ... فلا يتخِذْ شيئًا ينالُ به فَقْدا

وكان من دعاء السلف رضى الله تعالى عنهم: اللَّهم إنى أعوذ بك من ذل الفقر وبطر[٣] الغنى.

وقيل: مكتوب على باب مدينة الرِّقة: ويل لَمنْ جمع المال من غير حقه، وويلان لَمنْ ورَّثه لَمنْ لا يحمده، وقدم على مَنْ لا يعذره.

ولما فتحت بَلْخ في زمن عمر رضى الله تعالى عنه وجد على بابها صخرة مكتوب فيها: إنما يتبين الفقير من الغنى بعد الانصراف من بين يدى الله تعالى، أى بعد العرض. قال الشاعر:

ومن يطلبِ الأعلى من العيش لم يَزَلْ ... حزينًا على الدنيا رهينَ غبونها

إذا شئتَ أن تحيا سعيدًا فلا تكن ... على حالةٍ إلا رضيتَ بدونها[٤]

وقال آخر:

ولا ترهبنَّ الفقرَ ما عشتَ فى غدٍ ... لكلِّ غدٍ رزقٌ من اللّه واردُ

وقال هارون بن جعفر الطالبى:

بُوعِدَتْ هِمَّتِى وقُورِبَ مالى ... ففِعَالى مقصرٌ عن مقالى

ما اكتسى الناسُ مثلَ ثوبِ اقتناعٍ ... وهو من بين ما اكتسوا سربالى

ولقد تعلمُ الحوادِثَ أنى ... ذو اصطبارٍ على صروفِ الليالى

وقال أعرابى: مَنْ وُلِدَ فى الفقر أبطره الغنى. ومن وُلِدَ فى الغنى لم يزده إلا تواضعًا. فما أحسن الفقر وأكثر ثوابه وأعظم أجر من رضى به وصبر عليه. اللَّهم اجعلنا من الصابرين برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه: الترمذى فى المناقب ٣٨٥٤.

(٢) ما أسدى: ما أعطى.

(٣) البطر: الأشر.

(٤) بدونها: بأقل منها.

الباب الثالث والخمسون في ذكر التلطف في السؤال وذكر من سئل فجاد

روى الإمام مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أعطوا السائل ولو جاء على فرس»[1] . وما سئل عليه السلام شيئًا قط فقال لا.

وأتى إعرابى إلى علي رضي الله تعالى عنه فسأله شيئًا. فقال: والله ما أصبح في بيتى شئ فضل عن قوتى. فولى الأعرابى وهو يقول: والله ليسألنك الله عن موقفى بين يديك يوم القيامة. فبكى عليّ رضى الله تعالى عنه بكاء شديدًا وأمر برده.

وقال يا قنبر[2] : ائتنى بدرعى الفلانية فدفعها إلى الأعرابى وقال: لا تخدعن عنها، فطالما كشفت بها الكروب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال قنبر: يا أمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهمًا. فقال يا قنبر: والله ما يسرنى أن لى زنة الدنيا ذهبًا وفضة فتصدقت به، وقبل الله منى ذلك، وأنه يسألنى عن موقف هذا، بين يديه.

وقال على رضى الله تعالى عنه: إن لكلّ شئ ثمرة، وثمرة المعروف تعجيل السراح[3] .

وقال مسلمة لنصيب: سلنى، فقال: كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسألة، فقال لحاجبه: ادفع إليه ألف دينار.

وسأل رجل الحسن رضى الله تعالى عنه فقال له: ما وسيلتك؟ قال: وسيلتى أنى أتيتك عام أول فبررتنى. فقال: مرحبًا بمن توسل إلينا بنا ثم وصله وأكرمه.

ويقال: الكريم إذا سئل ارتاح، واللئيم إذا سئل ارتاع. ولما وفد المهدى من الرى إلى العراق امتدحه الشعراء فقال أبو دلامة:

إنى نذرتُ لئن رأيتك قادمًا ... أرضَ العراقِ وأمتَ ذو وقرِ
لتصلينَّ على النبىِّ محمدٍ ... ولتملأنَّ دراهماً حجرى

فقال المهدى: صلى الله على محمد. فقال أبو دلامة: ما أسرعك للأولى، وأبطأك عن الثانية. فضحك وأمر ببدرة فصبت في حجره.

وسمع الرشيد إعرابية بمكة تقول:

طحنتنا كَلاكِلُ الأعوام[4] ... وَبَرتْنا طوارقُ الأيامِ
فأتيناكم ونَمُدُّ أكفًا ... لالتقامِ من زادكم والطعامِ
فاطلبوا الأجرَ والمثوبةَ فينا ... أيها الزائرون بيتَ حرامِ

فبكى الرشيد وقال لمن معهُ: سألتكم بالله تعالى إلا ما دفعتم إليها صدقاتكم، فألقوا عليها الثياب حتى وارتها كثرة، وملأوا حجرها دراهم ودنانير.

وسأل أعرابى بمكة وأحسن في سؤاله فقال: أخ في الله، وجار في بلد الله، وطالب خير من عند الله، فهل من أخ يواسينى في الله؟ قال الشاعر:

ليسَ في كلِّ وهلةٍ وأوانِ ... تتهيَّأ صنائعُ الإحسانِ

---

(١) أخرجه: أبي داود في الزكاة ١٦٦٥.

(٢) قنبر: هو خادم عليّ

(٣) السراح: العطية.

(٤) كلاكل الأعوام: شدتها ونوازلها.

فـإذا أمكنَـت فبـادِرْ إليهـا ... حـذرًا مـن تعـذّرِ الإمكـانِ

وقال البصرى:

أضحَتْ حوائجُنا إليـك مناخـةً ... معقولـةً برحـابك الوصـالِ

أطلِقْ فَدَيْتكَ بالنجاحِ عِقَالَها[١] ... حتـى تثـورَ بنـا بغيـرِ عقـالِ

وعن علىّ رضى اللّه تعالى عنه: قال: يا كميل مر أهلك أن يروحوا فى كسب المكارم، ويدلجوا فى حاجة مَنْ هو نائم، فوالذى وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلبًا سرورًا إلا خلق اللّه تعالى من ذلك السرور لطفًا، فإذا نابته نائبة جرى إليه كالماء فى انحداره حتى يطردها عنه، كما تطرد غريبة الأبل.

وقال لجابر بن عبد اللّه: يا جابر مَنْ كثُرَتْ نِعَمُ اللّه تعالى عليه، كثرت حوائج الناس إليه، فإذا قام بما يجب للّه فيها فقد عرَّضها للدوام والبقاء. ومَنْ لم يقم بما يجب للّه فيها عرَّض نعمه لزوالها.

وكان لبيد رحمه اللّه تعالى آلى على نفسه كلما هبت الصبا[٢] أن ينحر ويطعم، وربما ذبح العناق[٣] إذا ضاق الخناق، فخطب الوليد بن عتبة يومًا فقال: قد علمت ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته. ثم بعث إليه بخمس من الإبل وبهذه الأبيات:

أرَى الجـزَّارَ يشـحذُ مديتَيْـهِ ... إذا هَبَّـتْ ريـاحُ بنـى عقيـلِ

طويـلُ البـاعِ أبلـج جعفـرىٌّ ... كريـمُ الجـدِ كالسـيفِ الصقيـلِ

وفـى ابـنِ الجعفرىّ بمـا نـواهُ ... علـى العـلاتِ بالمـالِ القليـلِ

فدعا لبيد بنتًا له خماسية وقال: يا بنية إنى تركت قول الشعر فأجيبى الأمير عنى:

إذا هبـت ريـاحُ بنـى عقيـلِ ... تداعينـا لهبَّتِهَـا الوليـدا

طويـلُ البـاعِ أبلـج عبشـمىّ[٤] ... أعـانَ علـى مروءتـه لبيـدا

بأمثـالِ الهضـابِ كـأنَّ رعيًـا ... عليهـا مـن بنـى حـامٍ قعـود

أبـا وهـبٍ جـزاكَ اللّـه خيـرًا ... نحرْنَاهَـا وأطعَمْنَـا الـثريدا[٦]

فعُـدْ إن الكريـمَ لـه معـادٌ ... وظنـى فـى ابـنِ عتبـة أن يعـودا

فقال: لقد أحسنتِ واللّه يا بنية، لولا أنك سألتِ وقلت عُدْ. فقالت: يا أبت إنَّ الملوك لا يستحيا منهم فى المسألة. فقال: واللّه لأنت فى هذا أشعر منى.

•• فد رجل من بنى ضبة على عبد الملك فأنشده:

واللّـه مـا نـدرى إذا مـا فاتَنَـا ... طلـبٌ إليـكَ مـن الـذى نتطلـبُ

ولقـد ضرَبْنَـا فـى البـلادِ فلـم نَجِـدْ ... أحـدًا سـواكَ إلى المكـارمِ ينسـبُ

فـاصبرْ لعـادتِكَ التـى عَوَّدْتَنَـا ... أو لا فأرْشِـدْنَا إلى مـن نذهـبُ

فأمر له بألف دينار. فعاد إليه من قابل وقال: يا أمير المؤمنين إن الروى[٧] لينازعنى، وإن الحياء يمنعنى، فأمر له بألف دينار وقال: واللّه لو قلت حتى تنفد بيوت الأموال لأعطيتك.

---

(١) أى فكَّ حبلها.
(٢) الصبا: الريح الشرقية.
(٣) العناق: هى الأنثى من أولاد المعز.
(٤) عبشمىّ: منسوب إلى عبد شمس (من قريش).
(٦) الثريد: يقال ثردت الخبز، وهو أن تفته ثم تبله بمرق.
(٧) الروى: ربما القصيد.

وقيل: إن رجلاً عرض للمنصور فسأله حاجة فلم يقضها، فعرض له بعد ذلك، فقال له المنصور: أليس قد كلمتنى مرة قبل هذه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض، وبعض البقاع أعز من بعض. فقال: صدقت، وقضى حاجته وأحسن إليه.

وروى أن أبا دلامة الشاعر كان واقفًا بين يدى السفاح فى بعض الأيام فقال: له سلنى حاجتك. فقال: كلب صيد. فقال: أعطوه أياه. فقال: ودابة أصيد عليها. فقال: أعطوه دابة. فقال: وغلامًا يقود الكلب ويصيد به. قال: أعطوه غلامًا.

قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: أعطوه جارية. فقال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولا بد لهم من دار يسكنونها، قال: أعطوه دارًا تجمعهم. قال: فإن لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال: قد أقطعته عشر ضياع عامرة، وعشر ضياع غامرة. فقال: ما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لا نبات فيها. قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافى بنى أسد، فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة. فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها، كيف ابتدأ بكلب صيد فسهل القضية، وجعل يأتى بمسألة بعد مسألة على ترتيب وفكاهة حتى سأل ما سأله، ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليه.

وحكى عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكثم يومًا: سر بنا نتفرّج، فسارا فبينما هما فى الطريق وإذا بمقصبة[1] خرج منها رجل بقصبة للمأمون يتظلم له، فنفرت دابته فألقته على الأرض صريعًا، فأمر بضرب ذلك الرجل. فقال: يا أمير المؤمنين إن المضطر يركب الصعب من الأمور، وهو عالم به ويتجاوز حدّ الأدب وهو كاره لتجاوزه، ولو أحسنت الأيام مطالبتى لأحسنت مطالبتك، ولأنت على ردّ ما لم تفعل أقدر منى على ردّ ما قد فعلت.

قال: فبكى المأمون وقال: بالله أعد علىّ ما قلت. فأعاده فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم وقال: أما تنظر إلى مخاطبة هذا! الرجل بأصغرَيْهِ والنبىّ صلى الله عليه وسلم يقول: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه» والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمى فوق، وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه، فلما همّ المأمون بالانصراف قال الرجل: يا أمير المؤمنين بيتان قد حضرانى، ثم أنشد يقول:

مـا جـادَ بـالوفرِ إلاّ وهـو معتـذرٌ ... ولا عفَـا قـط إلا وهـو مقتـدرُ
وكلمـا قصـدوهُ زاد نائِلـه[2] ... كالنارِ يؤخـذَ منهـا وهـى تستعرُ

وقيل: إن بعض الحكماء لزم باب كسرى فى حاجة دهرًا فلم يصل إليه، فكتب أربعة أسطر فى ورقة ودفعها للحاجب، فكان فى السطر الأوّل: العديم لا يكون معه صبر على المطالبة. وفى السطر الثانى: الضرورة والأمل أقدمانى عليك.

وفى السطر الثالث: الإنصارف من غير فائدة شماتة الأعداء. وفى السطر الرابع: أمّا نعم، فمثمرة، وأمّا لا، فمريحة، فلما قرأها كسرى دفع له فى كل سطر ألف دينار.

وحكى أن رجلاً كان جارًا لابن عبيد الله فأصاب الناس قحط[3] بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه، فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد فى طلب المعيشة، وكانت له زوجة لا تقدر على السفر، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر قالت له: إذا سافرت من ينفق علينا؟ قال: إنّ لى على ابن عبيد الله دينارًا ومعى به إشهاد عليه

(١) مقصبة: موضع كثير القصب.

(٢) نائله: عطاءه.

(٣) قحط: جفاف.

شرعى، فخذى الإشهاد وقدِّميه إليه، فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتى أحضر، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول:

قالت وقد رأتِ الأحمالَ محدجةً[١] والبينُ قد جمع المشكوَّ والشاكى
مَنْ لى إذا غبتَ فى ذا المَحْلِ؟ قلتُ لها اللّه وابنُ عبيدِ اللّه مولاكِ

فمضت إليه المرأة وحكت له ما قال زوجها، وأخبرته بسفره، وناولته الرقعة فقرأها وقال: صدق زوجك، وما زال ينفق عليها ويواصلها بالبرّ والإحسان إلى أن قدم زوجها، فشكره على فضله وإحسانه.

وحكى أن مطيع بن إياس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة ثم أنشدها بين يديه، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يباسطه فقال: يا مطيع، إن شئت أعطيناك، وإن شئت مدحناك كما مدحتنا. فاستحيا مطيع من اختيار الثواب، وكره اختيارَ المدح وهو محتاج، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين:

ثناءٌ من أميرٍ خيرُ كسبٍ لصاحبِ نعمةٍ وأخى ثراءِ
ولكنَّ الزمانَ بَرَى عظامى[٢] وما لى كالدراهم من دواءِ

فلما قرأها معن ضحك وقال: ما مثل الدراهم من دواء، وأمر له بصلة جزيلة، ومال كثير.

قال الشاعر:

هززتُك لا أنى جعلتُك ناسيًا لأمرى ولا أنى أردتُ التقاضيا
ولكنْ رأيتُ السيفَ مِن بعدِ سلّه إلى الهزِّ محتاجًا وإن كان ماضيا

وقال آخر:

ماذا أقولُ إذا رجعتُ وقيلَ لى ماذ لقيتَ من الجوادِ الأفضلِ
إن قلتُ أعطانى كذبتُ، وإن أقلْ بخلَ الجوادُ بمالِه لم يجملِ[٣]
فاخترْ لنفسِك ما أقولُ فإننى لابدَّ أخبرهم وإن لم أسألِ

وقال آخر:

لنوائبِ الدنيا خلفك فانتبهْ يا نائمًا من جملةِ النوَّامِ
أعَلَى الصراطِ تزيلُ لوعةَ كربتى أم فى المعادِ تجودُ بالإنعامِ

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الباب ذكر شئ مما جاء فى ذمّ السؤال والنهى عنه: روى عن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعى رضى اللّه تعالى عنه قال: كنا عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «ألا تبايعون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم»؟ فبسطنا أيدينا، وكنا حديثى عهد بالمبايعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول اللّه، فعلام يا رسول اللّه نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئًا، وتقيموا الصلوات الخمس، وتطيعوا اللّه، وأسر كلمة خفية وهى ولا تسألوا الناس شيئًا» فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدًا يناوله إياه. رواه مسلم.

وقال رجل لابنه: إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء فى وجهه. وكان لقمانُ يقول لولده: يا بنىّ إيَّاك والسؤال فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك.

---

(١) محدجة: معدة للسير.

(٢) برى عظامى: أتلفها.

(٣) لم يجمل: لم يحسن به.

وأوحى اللّه تعالى إلى موسى عليه السلام: لئن تدخل يدك فى فم التنين إلى المرفق خير لك من أن تبسطها إلى غنىٍّ قد نشأ فى الفقر. وقيل لأعرابىّ: ما السقم الذى لا يبرأ، أو الجرح الذى لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم.

وقال أبو محلم السعدى:

إذا ما رماك الدهرُ فى الضيقِ فانتجعْ[1] ... قديمَ الغنى فى الناس إنك حامدُه

ولا تطلبنَّ الخيرَ ممَّنْ أفادَهُ ... حديثًا ومَنْ لا يروث المجدَ والدُه

وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «مسألة الناس من الفواحش، ما أُحِلّ من الفواحش غيرها». وقال عليه الصلاة والسلام: «لئن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتى رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه»[2] .

قال الشاعر:

ما اعتارضَ باذلُ وجههِ بسؤالِهِ ... عوضًا ولو نالَ الغِنى بسؤالِ

وإذا السؤالُ مع النوالِ وزنته ... رجحَ السؤالُ وخفَّ كلُّ نوالِ[3]

وقال أحمد الأنبارى:

لَمَوْتُ الفتى خَيْرٌ من البُخْلِ للغنى ... ولَلْبُخْلُ خيرٌ من سؤالِ بخيلِ

لعَمْرُكَ ما شئٌ لوجهك قيمةٌ ... فلا تلقَ إنسانًا بوجهٍ ذليلِ

وقال سلم الخاسر:

إذا أذنَ اللّه فى حاجةٍ ... أتاكَ النجاحُ على رَسْلِهِ

فلا تسألِ الناسَ من فضلهم ... ولكنْ سَلِ اللّه من فضلِهِ

ويقال: أحبّ الناس إلى اللّه من سأله، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم.

وفى هذا المعنى قيل:

لا تسألنَّ بُنَيَّ آدمَ حاجةً ... وسَلِ الذى أبوابُه لا تحجبُ[4]

اللّه يغضبُ إن تركتَ سؤالَهُ ... وبُنَيَّ آدمَ حينَ يُسأل يغضبُ

وقال محمود الوراق:

شادَ الملوكُ قصورَهم وتحصَّنوا ... من كلِّ طالبِ حاجةٍ أو راغبِ

فارغَبْ إلى ملكِ الملوكِ ولا تكنْ ... يا ذا الضراعةِ[5] طالبًا من طالبِ

وقال ابن دقيق العيد:

وقائلةٍ ماتَ الكرامُ فمَنْ لنا ... إذا عضَّنا الدهرُ الشديدُ بنابِهِ

فقلتُ لها مَنْ كان غايةَ قصدِهِ ... سؤالاً لمخلوقٍ فليس بنابِهِ

إذا ماتَ من يُرجى فمقصودُنا الذى ... ترجينَهُ باقٍ فلوذى ببابِهِ

---

(١) انتجع: اقصد.

(٢) أخرجه: البخارى فى كتاب الزكاة ١٤٧٠.

(٣) نوال: عطاء.

(٤) تحجب: ليس بها من يمنع.

(٥) الضراعة: أى الذى يضرع إلى مولاه ويدعوه.

وقال بعض أهل الفضل:

لما افتقرتُ لصحبي ما وجدتهمُ … لجأتُ للّه لبّاني وأغناني
واهًا على بذلِ وجهي للورى سفهًا … فلو بذلتُ إلى مولاى والاني[١]

وسأل رجل رجلاً حاجة فلم يقضها فقال: سألت فلانًا حاجة أقل من قيمته فردني ردًّا أقبح من خلقته.

وسأل عروة مصعبًا حاجة فلم يقضها فقال: علم اللّه تعالى أن لكل قوم شيخًا يفزعون إليه، وأنا أفزع[٢] منك.

ويقال لا شئ أوجع للأخيار من الوقوف بباب الأشرار.

وقال الإمام الشافعى رحمه اللّه تعالى:

بلوتُ بنى الدنيا فلم أر فيهم … سوى مَنْ غدا والبخلُ ملءُ إهابِهِ[٣]
فجرَّدتُ من غمدِ القناعةِ صارمًا … قطعتُ رجائى منهم بذبابِهِ
فلا ذا يرانى واقفًا فى طريقِهِ … ولا ذا يرانى قاعدًا عندَ بابِهِ
غنىٌّ بلا مالٍ عنِ الناسِ كلهم … وليس الغنى إلا عن الشئ لا بِهِ
إذا ظالمٌ يستحسنُ الظلمَ مذهبا … ولَجَ عتوًّا[٤] فى قبيحِ اكتسابِهِ
فكِلْهُ إلى صَرْفِ الليالى فإنّها … ستُبدى له ما لم يكن فى حسابِهِ
فكم قد رأينا ظالمًا متمرِّدًا … يرى النجمَ تيهًا تحتَ ظلِ ركابِهِ
فعمَّا قليلٍ هو فى غفلاته … أناختْ صروفُ الحادثاتِ ببابِهِ
فأصبحَ لا مالَ ولا جاهَ يرتجى … ولا حسناتٍ تلتقى فى كتابِهِ
وجوزىَ بالأمرِ الذى كان فاعلاً … وصبَّ عليه اللّه سوطَ عذابِهِ

وقال آخر:

لا تسألنَّ إلى صديقٍ حاجةً … فيحولُ عنك كما الزمانُ يحولُ
واستَغنِ بالشئِ القليلِ فإنّهُ … ما صانَ عرضَك لا يقال قليلُ
من عفَّ خفَّ على الصديق لقاؤه … وأخو الحوائج وجهُه مملولُ
وأخوك مَنْ وفرت ما فى كفّهِ … ومتى علقتَ به فأنتَ ثقيلُ

وقال آخر:

ليس جودًا أعطيتَه بسؤالٍ … قد يهزُّ السؤالُ غيرَ جوادِ
إنما الجوادُ ما أتاك ابتداءً … لم تَذُقْ فيه ذلةَ الترداد

وقال آخر:

لا تحسبَنَّ الموتَ موتَ البلا[٥] … إنما الموتُ سؤالُ الرجالِ
كلاهُمَا موتٌ ولكنَّ ذا … أخفُّ مِن ذاك لذلِّ السؤالِ

---

(١) والانى: نصره.
(٢) أفزع: أخاف.
(٣) أى قد صار البخل من أصل خلقته.
(٤) العتو: التكبر.
(٥) أى موت الأجساد

وقال الشافعي رضى اللّه تعالى عنه:

قنعـــتُ بـــالقوتِ مـــن زمـــانى ... وصُنْـــتُ نفســـى عـــن الهـــوان(١)

خوفًـــا مـــن النـــاس أن يقولـــوا ... فَضَّـــلَ فـــلانٌ علـــى فـــلان

مـــن كنـــتُ عـــن مالِـــهِ غنِيًـــا ... فـــلا أُبـــالى إذا جفـــانى

ومـــن رآنـــى بعـــينِ نقـــصٍ ... رأيتُـــه بـــالتى رآنـــى

ومـــن رآنـــى بعـــينِ تمٍّ(٢) ... رأيتُـــه كـــاملَ المعـــانى

واللّه سبحانه وتعالى أعلم وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) الهوان: الذل.

(٢) بعين تمٍّ: أى عين كاملة.

الباب الرابع والخمسون فى ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾[١] فسرها بعضهم بالهدية. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «تهادوا تحابوا فإنها تجلب المحبة وتذهب الشحناء»[٢] وقال صلى اللّه عليه وسلم: «الهدية مشتركة» وقال صلى اللّه عليه وسلم: «من سألكم باللّه فأعطوه، ومن استعاذكم فأعيذوه، ومن أهدى إليكم كراعًا فاقبلوه»[٣] وكان صلى اللّه عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ما هو خير منها. وفى الأثر: الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر.

ومن الأمثال: إذا قدمت من سفر فأهد لأهلك ولو حجرًا. وقال الفضل بن سهل: ما استرضى الغضبان، ولا استعطف السلطان،ولا سلبت السخائم[٤]، ولا دفعت المغارم،ولا استميل المحبوب، ولا توقى المحذور بمثل الهدية.

وأتى فتح الموصلى بهدية وهى خمسون دينارًا فقال: حدّثنا عطاء عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «من آتاه اللّه رزقًا من غير مسألة ورده فكأنما رده على اللّه تعالى». وأهدى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هدية إلى عمر فردّها فقال: «يا عمر، لم رددت هديتى؟» فقال عمر رضى اللّه تعالى عنه: إنى سمعتك تقول: «خيركم من لا يقبل شيئًا من الناس». فقال: «يا عمر، إنما كان ذلك ما كان عن ظهر مسألة، فأما إذا إتاك من غير مسألة، فإنما هو رزق ساقه اللّه إليك». وقالت أم حكيم الخزاعية: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «تهادوا فإنه يضاعف الحب، ويذهب بغوائل الصدر»[٥] ويقال: فى نشر المهاداة طى المعاداة.

ذكر أنواع الهدايا للخفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته فأهدى اليسير وكتب معه مكاتبة يعتذر بها

أهدى إلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ثمانية أشياء متباينة فى يوم واحد: فيلة من ملك الهند، وجارية من ملك الترك، وفرس من ملك العرب، وجوهرة من ملك الصين، وإستبرق[٦] من ملك الروم، ودرّة من ملك البحر، وجرادة من ملك النمل، وذرة من ملك البعوض، فتأمل ذلك وقال: سبحان القادر على جمع الأضداد.

وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية، فقال: أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة، ليعلم عز الإسلام، ونعمة اللّه تعالى علينا، ففعلوا ذلك، فلما عزموا على حملها. قال: ما أعز الأشياء عندهم؟ قالوا: المسك والسمور[٧] ، قال: وكم فى الهدية من ذلك؟ قالوا: مائتا رطل مسكًا، ومائتا فروة سمور.

وأهدت قطر الندى إلى المعتضد باللّه فى يوم نيروز فى سنة اثنتين وثمانين ومائتين هدية، كان فيها عشرون صينية ذهب، فى عشرة منها مشام عنبر وزنها أربعة وثمانون رطلاً، وعشرون صينية فضة، فى عشرة منها مشام صندل، زنتها نيف وثلاثون رطلاً، وخمس خلع وشئ قيمتها خمسة آلاف دينار، وعملت شمامات ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار.

---

(١) سورة النساء:٨٦.

(٢) أخرجه: مالك فى كتاب الجامع ١٦٨٥.

(٣) والكراع: ما دون الكعب من الدواب.

(٤) السخائم: الأحقاد

(٥) غوائل الصدر: أحقاده.

(٦) الإستبرق: غليظ الديباج، فارس معرب.

(٧) السمور: حيوان ببلاد الروس، يشبه النمس.

وأهدى يعقوب بن الليث الصفّار إلى المعتمد على الله هدية فى بعض السنين من جملتها عشرة بازات ، منها باز أبلق لم ير مثله، ومائة مهر، وعشرون صندوقًا على عشر بغال فيها طرائف الصين وغرائبه، ومسجد فضة بدرابزين يصلى فيه خمسة عشر إنسانًا، ومائة رطل من مسك، ومائة رطل عود هندى، وأربعة آلاف ألف درهم.

وأهدت ثريا بنت الأوبارى ملكة إفرنجة وما والاها إلى المكتفى بالله من سنة ثلاثة وسبعين ومائتين خمسين سيفًا، وخمسين رمحًا، وعشرين ثوبًا منسوجًا بالذهب، وعشرين خادمًا صقليًّا، وعشرين جارية صقلية، وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع، وستة بازات، وسبعة صقور، ومضرب حرير متلّون بجميع الألوان كلون قوس قزح، يتلّون فى كل ساعة من ساعات النهار، وثلاثة أطيار من الأطيار الإفرنجية، إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحًا منكرًا، وصفقت بأجنحتها حتى يعلم بذلك، وخرزًا يجذب النصول بعد نبات اللحم عليها بغير وجع، وحمارة وحشية عظيمة الخلقة فى قدر البغل وآذانها شبه آذان البغل وهى مخططة تخطيطًا عامًا لجميع خلقتها.

وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المستنصر بالله فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطارًا من الذهب الأحمر، كل قنطار منه عشرة آلاف دينار عربية. قيمة ذلك ثلاثمائة ألف دينار عربية.

وحكى أن الخيزران جارية المهدى كانت أديبة شاعرة فعزم المهدى على شراء دواء، فأنفذت إليه جام بلور فى شراب اختارته له مع وصيفة بكر بارعة الجمال وكتب إليه تقول:

إذا خرجَ الإمامُ من الدواءِ ... وأعقبَ بالسلامةِ والشفاءِ
وأصلحَ حالَه من بعدِ شربٍ ... بهذا الجامِ من هذا الطّلاءِ
فينعم للتى قد أنفذَتْهُ ... إليه بزورةٍ بعدَ العشاءِ

فسر بذلك ووقعت الجارية منه أعظم موقع، وزار الخيزران وأقام عندها يومين.

وأهدى الصابئى إلى عضد الدولة إسطرلابًا فى يوم المهرجان وكتب إليه يقول:

أهدى إليك بنو الأملاكِ واحتفلوا ... فى مهرجانٍ جديدٍ أنت تبليه
لكنَّ عبدَكَ إبراهيمَ حين رأى ... سموَّ قدرِكَ عن شىءٍ يدانيه
لم يَرْضَ بالأرضِ يهديها إليكَ وقد ... أهدى لك الفلكَ الأعلى بما فيه

وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها: إن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلّت كانت أوقع وأنفع.

وأهدى مرة أبو الهذيل إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة، ثم لم يزل يذكرها، وكلما ذكر شئ بجمال أو سمن قال: هو أحسن، أو أسمن من الدجاجة التى أهديتها إليكم، وإن ذكر حادث قال: ذلك قبل أن أهدى لكم الدجاجة بشهر، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل، فصارت مثلاً لمن يستعظم الهدية ويذكرها.

قال الشاعر:

وإن امرؤٌ أهدى إلىّ صنيعةً ... وذكّرنيها مرةً للئيم

وقال سفيان الثورى: إذا أردت أن تتزوّج فأهد للأم. وكان سفيان يروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: من أهديت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها، فأهدى إليه صديق له ثيابًا من ثياب مصر وعنده قوم فذكروا الخبر فقال: إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب، أما فى ثياب مصر فلا.

وكتب الحمدونى إلى جارية اسمها برهان وقد حج مواليها فقال:

حجوا مواليك يا برهانُ واعتمروا ... وقد أتتكِ الهدايا من مواليكِ
فاطرفيني بما قد أطرفوك به ... ولا تكن طرفتي غير المساويكِ
ولست أقبلُ إلا ما جلوت به ... ثنيتيك وما ردّدت في فيكِ

وكتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية يسيرة يقول:

تفضل بالقبولِ على إنّي ... بعثتُ بما يقلّ العبدَ عندك

وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية في يوم نيروز وكتب إليه يقول: هذا يوم جرت فيه العادة بإلطاف العبيد للسادة، وقدر الأمير يجلّ عما تحيط به المقدرة، وفى سؤدده ما يوجب التفضل ببسط المعذرة، وقد وجهت ما حضر علمًا بأنه لا يستكثر ما جلّ ولا يستقل لعبده ما قل، فإن رأى أن يتطوّل بقبول القليل كتطوّله بإهداء الجزيل فعل، وجعل يقول:

رأيتُ كثيرَ ما يهدى إليكم ... قليلاً فاقتصرتُ على الدعاء

وبلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ويقول: ظالمٌ وَلِيَ المظالم، فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال: الحمد لله الذى ولى علينا من يعرف حقوقنا. فقيل له: كنت تذمه ثم الآن تمدحه. فقال: حدثني خيثمة عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها».

وقال عبد الملك بن مروان: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الكتاب يدلّ على عقل كاتبه، والرسول يدلّ على عقل مرسله، والهدية تدلّ على عقل مهديها. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الخامس والخمسون فى العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك

أما العمل فقد روى عن النبىِّ صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «أفضل العمل أدومه وإن قلّ» وقال علىّ بن أبى طالب كرَّم اللّه تعالى وجهه: قليلٌ مُدامٌ عليه خير من كثير مملول. وفى التوراة: حرِّك يداك أفتح لك باب الرزق. وكان إبراهيم بن أدهم يسقى ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويصلى بالليل. وعن علىّ رضى اللّه تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبىِّ صلى اللّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللّه، ما ينفى عنى حجة العلم؟ قال: «العمل». وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على اللّه الأمانى»[١]. وقال الأوزاعى: إذا أراد اللّه بقوم سوءًا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل، وأنشد يقول:

وما المرءُ إلا حيثَ يجعلُ نفسَهُ ... ففى صالحِ الأعمالِ نفسَك فاجعل

وقال بعض الحكماء: لا شئ أحسن من عقل زانه حلم، ومن عمل زانه علم، ومن حلم زانه صدق. ودخل بعض الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له: عِظنى، فقال له البولى: بلغنى رحمك اللّه أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى، فانظر ماذا تعرض على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من عملك، فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه وقيل: من جدَّ وجد، وأنشدوا فى المعنى:

إنى رأيتُ وفى الأيامِ تجربةٌ ... للصبرِ عاقبةٌ محمودةَ الأثرِ

وقلَّ من جدَّ فى أمرٍ يحاوله ... واستصحب الصبرَ إلا فاز بالظفرِ

وتقول العرب: فلان وثاب على الفرص. وقال بعضهم:

وإنى إذا باشرتُ امرًا أريدُه ... تدانَتْ أقاصيهِ[٢] وهانَ أشدُّه

وعن أنس رضى اللّه تعالى عنه: يتبع الميت ثلاث، يرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه: أهله، وماله، وعمله، فيرجع أهله وماله ولا يرجع عمله. وقال بعضهم: العمل سعى الأركان إلى اللّه، والنية سعى القلوب إلى اللّه، والقلب ملك، والأركان جنود، ولا يحارب الملك إلاّ بالجنود، ولا الجنود إلا بالملك. وقيل: الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم، والعلم كله هباء إلا موضع العمل، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص، وهذا هو العمل.

وأما الكسب: فقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ**﴾[٣] أى دروع من الحديد، وذلك أن داود عليه الصلاة والسلام كان يدور فى الصحارى فإذا رأى مَنْ لا يعرفه تحدّث معه فى أمر داود، فإذا سمعه عابه بشئ يصلحه من نفسه. فسمع يومًا مَنْ يقول: إنى لا أجد فى داود عيبًا إلا أنه يأكل من غير كسبه، فعند ذلك صلى داود عليه الصلاة والسلام فى محرابه وتضرَّع بين يدى اللّه تعالى، وسأله أن يعلّمَه ما يستعين به على قُوْتِه، فعلمه اللّه تعالى صنعة الحديد وجعله فى يده كالشمع، فاحترفها واستعان بها على أمره وصار يحكم منها الدروع.

وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «جعل رزقى تحت ظل رمحى» فكانت حرفته الجهاد. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إن اللّه يحبّ العبد المحترف[٤] » وقال صلى اللّه عليه وسلم: «إن اللّه تعالى يبغض العبد

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب صفة القيامة ٢٤٥٩ .والكيس: اللبق ذو الكياسة.

(٢) تدانت أقاصيه: تقاربت أبعاده.

(٣) سورة الأنبياء: ٨٠.

(٤) العبد المحترف: ذو الحرفة.

الصحيح الفارغ». وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنِ اكتسب قُوتَهُ و لم يسأل الناس لم يعذّبه اللّه تعالى يوم القيامة، ولو تعلمون ما أعلم من المسألة لما سأل رجل شيئًا وهو يجد قوت يومه، وليس عند اللّه أحبّ من عبد يأكل من كَسْبِ يده، وإنّ اللّه تعالى يبغض كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة». وعن أنس رضى اللّه تعالى عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ بات فى طلب الحلال أصبح مغفورًا له».

وعن الحسن رحمه اللّه: كسب الدرهم الحلال أشدّ من لقاء الزحف. وقيل لمحمد بن مهران: إنَّ ههنا أقوامًا يقولون نجلس فى بيوتنا وتأتينا أرزاقنا، فقال: هؤلاء قوم حمقى، إن كان لهم مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن فليفعلوا. وقال عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه: لا يقعدنّ أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللّهمَّ ارزقنى، فقد علمتم أنَّ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة. وقال أيضًا: إنى لأرى الرجل فيعجبنى، فأقول ألَهُ حرفة؟ فإن قالوا لا سقط من عينى. واشترى سليمان وَسَقًا من طعام - وهو ستون صاعًا - فقيل له فى ذلك، فقال: إنَّ النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت. قال بعضهم فى السعى:

خاطِرْ بنفسِكَ كى تصيبَ غنيمةً ... إنَّ الجلوسَ معَ العيالِ قبيحُ

وقيل: إنَّ أوَّل مَنْ صَنَعَ لسان الميزان عبد اللّه بن عامر، وكان الناس إنما يَزِنُون بالشاهينى[1].

وعن أنس رضى اللّه تعالى عنه قال: غلا السعر على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فقالوا: يا رسول اللّه سعِّر لنا، فقال: «إنَّ اللّه الخالق القابض المسعر الرازق، وإنى لأرجو أن ألقى اللّه تعالى وليس أحد يطلبنى بمظلمة ظلمته بها فى أهل ولا مال».

وأما ما جاء فى العجز والتأنى: فقد روى عن على بن أبى طالب كرّم اللّه وجهه أنه قال: مَنْ أطاع التوانى ضيع الحقوق، ومن عجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه، وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه. قال الشاعر:

على المرء أن يسعَى ويبذلَ جهدَهُ ... ويقضِى إلهُ الخلقِ ما كان قاضيَا

ومثْله قوله:

على المرءِ أن يسعى لما فيه نفعُهُ ... وليس عليه أن يساعِدَهُ الدهر

وقيل: احذر مجالسة العاجز، فإنه مَنْ سكن إلى عاجز أعداه من عجزه وأمدَّه من جزعه، وعوَّده قلة الصبر، ونساه ما فى العواقب، وليس للعجز ضدٌّ إلا الحزم، وقال بعض العلماء: من الخذلان مسامرة الأمانى، ومن التوفيق بغض التوانى[2]. وروى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «باكروا فى طلب الرزق والحوائج فإنَّ الغدوَّ[3] بركة ونجاح».

وقال الإمام الشافعى رضى اللّه تعالى عنه: احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس فإنه لا سبيل إلى السلامة مع ألسنة الناس. وقال على رضى اللّه تعالى عنه: التوانى مفتاح البؤس، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة وتجب الهلكة، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد. وقال حكيم: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير. وقال بعض الحكماء: الحركة بركة، والتوانى هلكة، والكسل شؤم، وكلب طائف خير من أسد رابض، ومن لم يحترف لم يعتلف. وقيل: من العجز والتوانى تنتج الفاقة. قال هلال بن العلاء الرفاء هذين البيتن من جملة أبيات:

كأنَّ التوانى أنكحَ العجزَ بنتَهُ ... وساقَ إليها حين زَوَّجَها مهرَا

فِراشًا وَطيئًا ثم قالَ لها: اتكى ... فإنكما لا بدَّ أن تلدا الفقرَا

---

(١) الشاهينى: قصبة توضع المواد فى طرفيها بعد ربطها بخيط فى المنتصف تحمل منه.

(٢) التوانى: الكسل.

(٣) الغدوُّ: التبكير.

وقال آخر:

توكّلْ على الرحمنِ فى الأمرِ كلّه ولا ترغَبَنْ فى العجزِ يومًا عن الطلبْ
ألم تَرَ أن اللّه قالَ لمريمَ: وهُزِّى إليكِ الجذعِ يَسَّاقطِ الرطَبْ
فلو شاءَ أن تجنيه من غيرِ هزّةٍ جَنَتْهُ ولكن كلُّ رزقٍ له سَبَبْ

وسأل معاوية رضى اللّه تعالى عنه سعيد بن العاص عن المروءة، فقال: العفة والحرفة. وكان أيوب السختيانى يقول: يا فتيان احترفوا فإنى لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم، يعنى الأمراء. وقال رجل للحسن: إنى أنشر مصحفى فأقرؤه بالنهار كله. فقال: اقرأ بالغداة والعشيِّ ويكون يومك فى صنعتك وما لابد منه. ومرَّ رحمه اللّه تعالى بإسكافى فقال: يا هذا اعمل وكُلْ فإن اللّه يحب مَنْ يعمل ويأكل، ولا يحب من يأكل ولا يعمل وقال أبو تمام:

اعاذِلتى ما أحسنَ الليلَ مركبا وأحسنُ منه فى الملمَّاتِ راكبُهْ
ذَرينى[1] وأهوالَ الزمانِ أقاسِها فأهوالُهُ العُظْمى تليها رغائبُهْ
أرى عاجزًا يدعى جليدًا لقسمةٍ ولو كلّف التقوى لكلّتْ مضاربُهْ
وعفًا يُسَمَّى عاجزًا بعفافِهِ ولولا التّقى ما أعجزَتْهُ مذاهبُهْ
وليس بعجزِ المرءِ أخطأه الغِنى ولا باحتيالٍ أدركَ المالَ كاسبُهْ

وقال آخر:

فلا تركَنْ إلى كسلٍ وعجزٍ يُحيلُ على المقادِرِ والقضاءِ

وقال أعرابى: العاجز هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأمانى المستحيلة. ويقال: فلان يخدعه الشيطان عن الحزم فيمثل له التوانى فى صورة التوكل ويريه الهوينا بإحالته على القدر. وقال لقمان لابنه: يا بنى إياك والكسلَ والضجرَ فإنك إذا كسلت لم تؤدّ حقًا، وإذا ضجرت لم تصبر على حق. قال أبو العتاهية:

إذا وَضَعَ الراعى على الأرض صدرَهُ فحقٌّ على المعزى بأنْ تتبدَّدَا[2]

فالتوانى هو الكسل، وتضييع الحزم، وعدم القيام على مصالح النفس، وترك التسبب والاحتراف والإحالة على المقادير، وهذا من أقبح الأفعال. وأما التأنى فإنه خلاف التوانى، وهو الرفق ورفض العجلة والنظر فى العواقب، وقد قيل: من نظر فى عواقب الأمور سلم من آفات الدهور. ومما جاء فى ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[3] وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من الدنيا والآخرة» . وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضى اللّه عنها: «عليك بالرفق فإن الرفقَ لا يخالط شيئًا غلا زَانَهُ ولا يفارقُ شيئًا إلا شَانَهُ»[4] .

وفى التوراة: الرفق رأس الحكمة. وقالوا: العقل أصله التثبت وثمرته السلامة. ووجد على سيف مكتوبًا: التأنى فيما لا يخاف فيه الفوت أفضلُ من العجلة فى إدراك الأمل. وقال بعض الحكماء: إذا شككت فاحزم، وإذا استوضحت فاعزم.وقالوا: يد الرفق تجنى ثمرة السلامة، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة. وأنشدوا فى ذلك:

قد يدركُ المتأنى بعضَ حاجَتِهِ وقد يكونُ مع المستعجلِ الزللُ

---

(١) ذرينى: دعينى.
(٢) تتبددًا: تتفرق.
(٣) سورة طه:١١٤.
(٤) أخرجه: أحمد فى المسند ٢٤٢٨٧.

وقالوا: التأنى حصن السلامة، والعجلة مفتاح الندامة. وقالوا: إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأنى فبماذا يدرك؟.

وقال المهلب: أناة فى عواقبها دركٌ خيرٌ من عجلة فى عواقبها فَوْتٌ. وقالوا: من تأنّى نال ما تمّنى، والرفق مفتاح النجاح. وقال بعض الحكماء: إياك والعجلة فإنها تكنى أمّ الندامة لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويحمد قبل أن يجرّب، ولن تصحب هذه الصفة أحدًا إلا صحب الندامة وجانب السلامة.

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها: فقد روى عن سهل بن سعد رضى اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «عمل الأبرار من الرجال الخياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل». وكان صلى اللّه عليه وسلم يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويعلف ناضحه[1] ، وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان الحكيم خياطًا. وقيل: كان إدريس عليه السلام خياطًا. ووقف على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه على خياط فقال له: يا خياط ثكلتك الثواكل صلب الخيط، ودقق الدروز، وقارب الغروز؛ فإنى سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «يحشر اللّه الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه». واحذر السقطات فإنّ صاحب الثوب أحقّ بها، ولا تتخذ بها الأيادى وتطلب المكافأة.

وقال فيلسوف: إنّ من القبيح أن يتولّى امتحان الصناع من ليس بصانع. وفى الحديث: «أكذبُ أمّتى الصوّاغون والصباغون»[2] . وكذبُ الدّلال مَثَلٌ. وقالوا: لكل أحد رأس مال، ورأس مال الدلال الكذب. وقال عبد الرحمن بن شبل: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «التجار هم الفجار»، قيل: أليس اللّه تعالى قد أحلَّ البيع؟ قال: «نعم، ولكن يحدّثون فيكذبون، ويحلفون فيحنثون». وقال الفضل: بخس الموازين سواد فى الوجه يوم القيامة، وإنما أهلكت القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا، وعطلوا الحدود، ونقصوا الكيل والميزان. وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾[3] قيل: هم الحاكة والأساكفة. وقيل: إنّ حائكًا سأل إبراهيم الحربى: ما تقول فيمن صلى العيد و لم يشتر ناطفًا ما الذى يجب عليه؟ فتبسم إبراهيم ثم قال: يتصدّق بدرهمين، فلما مضى قال: ما علينا أن نفرح المساكين من مال هذا الأحمق. وقيل لرجل: هل فيكم حائك؟ قال: لا، قيل: فمن ينسج لكم ثيابكم؟ قال: كلّ منا ينسج لنفسه فى بيته. وكان أردشير بن بابك لا يرتضى لمنادمته ذا صناعة رديئة، كحائك وحجام، ولو كان يعلم الغيب مثلاً. وقال كعب: لا تستشيروا الحاكة فإن اللّه تعالى سلب عقولهم، ونزع البركة من كسبهم؛ لأن مريم عليها السلام مرّت بجماعة من الحياكين فسألتهم عن الطريق فدلوها على غير الطريق، فقالت: نزع اللّه البركة من كسبكم. قال أبو العتاهية:

ألا إنما التقوى هى العزُّ والكرَمْ ... وحبُّك للدنيا هو الذلُّ والسقَمْ
وليسَ على عبدٍ تقىٍّ نقيصةٌ إذا ... صحَّحَ التقوى وإن حاكَ أو حَجَمْ

وهذا ما أردنا سياقه فى هذا الباب، واللّه الموفق للصواب، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) ناضحه: بعيره.
(٢) أخرجه: أحمد فى المسند ٧٨٦٠.
(٣) سورة الشعراء: ١١١.

الباب السادس والخمسون فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلى عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روى عن أنس بن مالك رضى اللّٰه تعالى عنه أنه قال: «ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذى قبله خير منه» سمعت ذلك من نبيكم صلى اللّٰه عليه وسلم. وكان معاوية رضى اللّٰه تعالى عنه يقول: معروف زماننا منكر زمان قد مضى، ومنكره معروف زمان لم يأت. وكانت ناقة رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم العضباء لا تسبق، فجاء أعرابىٌّ فسبقها فشقَّ ذلك على الصحابة رضى اللّٰه تعالى عنهم، فقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «إنَّ حقًّا على اللّٰه أن لا يرفع شيئًا من هذه الدنيا إلا وضعه»[1].

وحكى عن شيخ من همدان قال: بعثنى أهلى فى الجاهلية إلى ذى الكلاع الحميرى بهدايا، فمكثت شهرًا لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف اشرافةً مِن كوَّةٍ له، فخرّ له من حول القصر ساجدًا، ثم رأيته بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص، واشترى بدرهم لحمًا وسمطه خلف دابته، وهو القائل هذه الأبيات:

أفّ للدُّنيا إذا كانَتْ كذا ... أنا منها فى بلاءٍ وأذى
إن صفَا عيشُ امرىءٍ فى صُبْحِها ... جَرَّعَتْهُ مُمسيًا كأسَ الردى
ولقد كنتُ إذا ما قيلَ مَنْ ... أنعمُ العالمِ عيشًا؟ قيلَ: ذا

وقال يونس بن ميسرة: لا يأتى علينا زمان إلا بكينا منه، ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه، ومن ذلك قوله:

رُبَّ يومٍ بكيتُ منه فلمَّا ... صرتُ فى غيرِهِ بكيتُ عليه

ومثله:

وما مرَّ يومٌ ارتجى فيه راحةً ... فأخبُرَهُ إلا بكيتُ على أمسى

ومن كلام ابن الأعرابى:

عنِ الأيامِ عدّ فعَنْ قليلِ ... ترى الأيامَ فى صُوَرِ الليالى

وقال على رضى اللّٰه تعالى عنه: ما قال الناس لشئ طوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء.

قال الشاعر:

فما الناسُ بالناسِ الذين عهدتَهُمْ ... ولا الدارُ بالدارِ التى كنت أعهدُ

ودخل داود عليه الصلاة والسلام غارًا فوجد فيه رجلاً ميتًا وعند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا فلان بن فلان الملك عشت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، ثم صار أمرى إلى أن بعثت زنبيلاً من الدراهم فى رغيف، فلم يوجد، ثم بعثت زنبيلاً من الجوهر فلم يوجد، فدققت الجواهر واستفيتها فمتُ مكانى، فمن أصبح وله رغيف، وهو يحسب أن على وجه الأرض أغنى منه أماته اللّٰه كإماتتى.

وذكر أن عبد الرحمن بن زياد لما ولى خرَاسان حاز من الأموال ما قدَّر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق فى كلِّ يوم ألف درهم على نفسه فأنه يكفيه، فرؤى بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها.

---

(١) أخرجه: البخارى فى كتاب الجهاد والسير ٢٨٧٢.

وقال هيثم بن خالد الطويل: دخلت على صالح مولى منارة فى يوم شاتٍ وهو جالس فى قبة مغشاة بالسمور[١]، وجميع فروشها سمور، وبين يديه كانون فضة يبخر فيه بالعود، ثم رأيته بعد ذلك فى رأس الجسر وهو يسأل الناس.

ولما قَتَل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد ونزل فى داره وقعد على فرشه، دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت: يا عمر إن دهرًا أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ فى عظتك. وقال مالك بن دينار مررت بقصر تضرب فيه الجوارى بالدفوف ويقلن:

ألا يــا دارُ لا يدخُلْــكِ حــزنٌ ... ولا يغــدُرْ بصــاحبكِ الزمــانُ
فنِعْـمَ الـدارُ تـأوى كـلَّ ضيـفٍ ... إذا مـا ضـاقَ بـالضيفِ المكـانُ

ثم مررتُ عليه بعد حين وهو خراب وبه عجوز فسألتها عما كنت رأيت وسمعت، فقالت: يا عبد الله إنَّ الله يُغير ولا يتغير، والموت غالب كل مخلوق، وقد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان. وقال أبو العتاهية:

لئنْ كنتَ فى الدنيا بصيرًا فإنّما ... بلاغُـك[٢] منهـا مثـلُ زادِ المسـافرِ
إذا أبقَـتِ الدنيـا علـى المـرءِ دينَـهُ ... فمـا فاتَـهُ منهـا فليـسَ بضـائرِ

وقال عبد الملك بن عمير: رأيت رأس الحسن رضى الله تعالى عنه بين يدى ابن زياد فى قصر الكوفة، ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدى المختار، ثم رأيت رأس المختار بين يدى مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدى عبد الملك. قال سفيان: فقلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها؟ قال: اثنتا عشرة سنة.

وقال الشاعر:

إنَّ للدَّهـرِ صرعـةً فَاحْذَرَنْهَـا ... لا تبيتَـنَّ قـد أمِنْـتَ الشُّـرورَا
قـد يبيـتُ الفتـى معـافىً فـيَرْدَى ... ولقـد كـانَ آمِنـا مسـرورَا

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر فى قصره على الدجلة ينظر فإذا هو بحشيش فى وسط الماء وفى وسطه قصبة على رأسها رقعة فدعا بها فإذا فيها مكتوب شعرًا، وهو للشافعى رضى الله تعالى عنه:

تـاهَ الأعـيرجُ واستعلى بـه البطـرُ ... فقـلْ لـه خيرُ مـا اسـتعمَلتُ الحـذَرُ
أحسَنْتَ ظنَّكَ بالأيَـامِ إذا حسُـنَتْ ... ولم تَخَـفْ سوءَ مـا يأتى بـه القـدرُ
وسـالَمَتْكَ الليـالى فـاغْتَرَرْتَ بهـا ... وعندَ صفـوِ الليـالى يحدُثُ الكـدرُ

وقال: فما انتفع بنفسه مدة. وأعجب ما وجد فى السِّيَر خبرُ القاهر- أحد الخلفاء - وقَلْعُهُ من الملك وخروجه إلى الجامع فى بطانة جبة بغير ظهارة ومدّ يده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض، فتبارك الله يعز من يشاء ويذل من يشاء.

وقيل: كان لمحمد المهلبى قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف، فبينما هو فى بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشده يقول:

ألا مـوتٌ يبـاعُ فأشـتريه ... فهـذا العيشُ مـا لا خـيرَ فيـه
ألا رَحِـمَ المهيمِـنُ نفـسَ حـرٍّ ... تصـدَّقَ بالوفـاةِ علـى أخيـه

---

(١) السمور: جلود حيوان غالية الثمن غزيرة الفراء.

(٢) بلاغك: ما تحصل عليه.

قال: فرثا له رفيقه وأحضر له بدرهم ما سدَّ به رمقه، وحفظ الأبيات وتفرقا، ثم ترقى المهلبى إلى الوزارة وأخنى[1] الدهر على ذلك الرجل الذى كان رفيقه فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها:

ألا قُلْ للوزيرِ فَدَتْهُ نفسى ... مقالاً مُذَكِّرًا ما قد نسيه

أتذكُرُ إذا تقولُ لضَنْكِ عيشٍ[2] ... ألا مَوْتٌ يباع فأشتَرِيهِ؟!

فلما قرأها تذكر، فأمر بسبعمائة درهم ووقعَّ تحت رقعته: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[3] ثم قلَّده عملاً يرتزق منه.

ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال: أى الزمان أدركته أفضل وأى الملوك أكمل؟ فقال: أما الملوك فلم أر إلا حامدًا وذامًّا، وأما الزمان فيرفع أقوامًا ويضع آخرين وكلهم يذكر أنه يبلى جديدهم، ويفرق عديدهم، ويهرم صغيرهم، ويهلك كبيرهم. وقال حبيب بن أوس:

لم أبكِ من زمنٍ لم أرض خلّته ... إلا بكيت عليه حين ينصرِمُ

وقال آخر:

يا معرضًا عنّى بوجهٍ مُدْبرِ ... ووجُوهُ دنياهُ علَيْهِ مقبلَهْ

هل بعدَ حالِكَ هذِهِ مِن حالةٍ ... أو غايةٍ إلا انحطاطَ المنزلهْ؟!

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير:

ذهبَ الذين إذا رأونى مقبلاً ... بشُّوا إلىَّ ورحبُّوا بالمُقبلِ

وبقيتُ فى خَلَفٍ كأنَّ حديثَهم ... ولغَ الكلابِ[4] تهارشَتْ فى المنزلِ

وقال آخر فى معناه:

يا منزلاً عبثَ الزمانُ بأهله ... فأبَادَهُم بتفرُّقٍ لا يجمعُ

أين الذين عَهِدْتَهُمْ بك مرَّةً ... كأنَ الزمان بهم يضرُّ وينفعُ

أيام لا يَغْشَى لذكرك مربعٌ ... إلا وفيه للمكارمِ مرتعُ[5]

ذهبَ الذين يعاشُ فى أكنافِهِم[6] ... وبقىَ الذين حياتُهُم لا تنفعُ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى:

وإنى رأيت الدهرَ منذ صحبتُهُ ... محاسنَهُ مقرونةٌ ومعايبُهْ

إذا سرَّنى فى أول الأمرِ لم أزَلْ ... على حَذَرٍ من أن تَذمَّ عواقبُهْ

وقال بعضهم:

ذهب الرجالُ المُقتَدَى بفعالهم ... والمنكِرُون لكلِّ أمرٍ مُنْكَرِ

وبقيتُ فى خَلَفٍ يزينُ بعضُه ... بعضًا ليدفعَ مُعْوِرٌ عن معورِ

حلفَ الزمانُ ليأتين بمثلهم ... حنثَتْ يمينُك يا زمانُ فَكَفِّرِ

---

(١) أخنى: أساء.

(٢) ضنك عيش: ضيق حال.

(٣) سورة البقرة: ٢٦١.

(٤) ولغ الكلب: شرب بطرف لسانه.

(٥) مرتع: ملعب.

(٦) فى أكنافهم: فى رعايتهم.

وكان يقال: إذا أدبر الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير. وكان يقال: بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال. ويقال: زمام العافية بيد البلاء، ورأس السلامة تحت جناح العطب. وقال بعضهم: نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارًا، والشر إلا إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعًا. اضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيرًا يكابد فقيرًا، أو غنيًّا بدل نعمة الله كفرًا، أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفرًا، أو متمردًا كأن بسمعه عن سماع المواعظ وَقْرًا؟ وقال آخر: نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب، وإذا ما ذكرنا الأحياء ماتت القلوب. ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول: يا ليتني مكانه»[١]. ويقال: لا يقاوم عز الولاية بذل العزل.

ما من مُسيءٍ وإن طالَتْ إساءَتُهُ ... إلا ويكفِيك يومٌ من مساعيه

وقال الأمين:

يا نفسُ قد حقَّ الحذَرْ ... أينَ المفرُّ من القدَرْ؟
كلُّ امرئٍ مما يخـ ... ـافُ ويرتجيه على خطَرْ
من يرتشِفْ صَفْوَ الزمـ ... ـانِ يُغَصَّ يومًا بالكَدَرْ

وقال بعضهم:

وقائلةٍ: ما بالُ وجهِك قد نَضَت[٢] ... محاسنُهُ والجسمُ بانَ شحوبُهُ
فقلتُ لها: هاتى من الناسِ واحدًا ... صفَا وقتَه والنائباتُ تنوبُهُ

وللأمير أبي علي بن منقذ:

أما والذي لا يملكُ الأمرُ غيرُه ... ومَنْ هو بالسرِّ المكتم أعلمُ
لئِنْ كانَ كتمانُ المصائبِ مؤلمًا ... لإعلانُها عندي أشدُّ وأعظمُ
وبي كلُّ ما يُبكي العيونُ أقله ... وإن كنتُ منه دائمًا أتبسَّمُ

وقال عليٌّ بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: وايم الله ما كان قوم في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد. ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لردَّ عليهم كل شارد، وأصلح لهم كل فاسد. قال الشاعر:

يقولون الزمانُ به فسادٌ ... وهم فسدوا وما فسدَ الزمان

وكفى بالقرآن واعظًا قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[٣]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) أخرجه: البخاري في كتاب الفتن ٧١١٥.

(٢) نضت: خلقت.

(٣) سورة الرعد: ١١.

الفصل الثانى فى الصبر على المكاره ومدح التثبت وذم الجزع

قد مدح اللَّه تعالى الصبر فى كتابه فى مواضع كثيرة وأمر به وجعل أكثر الخيرات مضافًا إلى الصبر، وأثنى على فاعله وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وحث على التثبت فى الأشياء ومجانبة الاستعجال فيها. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[١] فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[٤]، وبالجملة فقد ذكر اللَّه سبحانه وتعالى الصبر فى كتابه العزيز فى نيف وسبعين موضعًا، وأمر نبيه صلى اللَّه عليه وسلم به فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾[٥]

وقد روى عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم فى ذلك أخبار كثيرة، فمن ذلك قوله صلى اللَّه عليه وسلم: «النصر فى الصبر»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «بالصبر يتوقع الفرج»، وقوله: «الأناة من اللَّه تعالى، والعجلة من الشيطان»[٦]. فمن هداه اللَّه تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر فى مواطن طلباته والتثبت فى حركاته وسكناته. وكثيرًا ما أدرك الصابر مرامه أو كاد، وفات المستعجل غرضة أو كاد. وقال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى اللَّه تعالى عنه فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهارًا، فقلت: يا أمير المؤمنين إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادنى إلا أن قال:

اصبرْ على مَضَضِ الإدلاجِ[٧] فى السَّحَرِ ... وفى الرواحِ إلى الطاعات فى البُكَرِ
إنّى رأيتُ وفى الأيامِ تجربةٌ ... للصَّبْرِ عاقبةٌ محمودةَ الأثرِ
وقلَّ مَنْ جدَّ فى أمرٍ يؤمِّلُه ... واستَصْحَبَ الصبرَ إلا فازَ بالظَّفَرِ

فحفظتها منه، وألزمت نفسى الصبر فى الأمور فوجدت بركة ذلك.

وعن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنهما عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ[٨] ولا همٍ ولا حزنٍ ولا أذى ولا غمٍ حتى الشوكة يُشاكُها إلا حطَّ اللَّه بها من خطاياه». وعن أنس بن مالك رضى اللَّه تعالى عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «إذا أراد اللَّه بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة»[٩] وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن اللَّه تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط» رواه الترمذى وقال: حديث حسن[١٠].

(١) سورة البقرة:١٥٣.
(٢) سورة الزمر:١٠.
(٣) سورة السجدة:٢٤.
(٤) سورة الأعراف:١٣٧.
(٥) سورة الأحقاف:٣٥.
(٦) أخرجه: الترمذى فى كتاب البر والصلة ٢٠١٢.
(٧) الإدلاج: السير.
(٨) الوصب: التعب الشديد.
(٩) أخرجه: الترمذى فى كتاب الزهد ٢٣٩٦.
(١٠) أخرجه: الترمذى فى الزهد ٢٣٩٦.

وعن إسحاق بن عبد اللّه بن أبى فروة عن أنس بن مالك قال: قال النبى صلى اللّه عليه وسلم: «الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر، والصبر عند الصدمة الأولى، وعظم الأجر على قدر المصيبة، ومن استرجع[1] بعد مصيبته جدَد اللّه له أجرها كيوم أصيب بها».

وروى عن على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه أنه قال: احفظوا عنى خمسًا، اثنتين واثنتين وواحدة: لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه، ولا يستحى أحد منكم إذا سئل عن شئ وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد؛ إذا فارق الرأس فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور، وأيما رجل حبسه السلطان ظلمًا فمات فى حبسه مات شهيدًا؛ فإن ضربه فمات فهو شهيد.

وروى فى البحر: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[2] قال أبو بكر الصديق رضى اللّه تعالى عنه: يا رسول اللّه، كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «غفر اللّه لك يا أبا بكر أليس تمرض؟ أليس يصيبك الأذى؟ أليس تحزن؟» قال: بلى يا رسول اللّه. قال: «فهذا ما تجزون به» يعنى جميع ما يصيبك من سوء يكون كفارة لك. وبهذا اتضح لك أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء.

وروى عن ابن مسعود رضى اللّه تعالى عنه أنه قال: «بينما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصلى عند الكعبة وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل لعنه اللّه: أيكم يقوم إلى سلا[3] الجزور فيلقيه عل كتفىّ محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم[4] فأخذه وأتى به، فلما سجد صلى اللّه عليه وسلم وضع بين كتفيه السلا والفرث والدم فضحكوا ساعة وأنا قائم انظر. فقلت: لو كان لى منعة لطرحته عن ظهر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، والنبى صلى اللّه عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضى اللّه تعالى عنها، فجاءت فطرحته عن ظهره، ثم أقبلت عليهم فسبتهم، فلما قضى صلى اللّه عليه وسلم الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال: «اللّهم عليك بقريش» ثلاث مرات، فلما سمع القوم دعاءه ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته. فقال:« اللّهم عليك بأبى جهل وعتبة وشيبة وربيعة والوليد وأمية بن خلف». فقال علىٌّ رضى اللّه تعالى عنه: والذى بعث محمداً بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر.

وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات. وروى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «ثلاث مَنْ رُزقهنَّ فقد رزق خيرَىْ الدنيا والآخرة: الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء فى الرخاء»[5] .

وحكى أن امرأة من بنى إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة فسرقها سارق فصبرت وردّت أمرها إلى اللّه تعالى ولم تدع عليه، فلما ذبحها السارق ونتف ريشها نبت جميعه فى وجهه فسعى فى إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبرًا من أحبار بنى إسرائيل فشكا له، فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة، فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك؟ فقالت: سُرقت، فقال: لقد آذاك من سرقها؟ فقالت: قد فعل، ولم تدع عليه. قال: وقد فجعك فى بيضها؟ قالت: هو كذلك، فما زال بها حتى أثار الغضب منها فدعت عليه فتساقط الريش من وجهه. فقيل لذلك الحبر: من أين علمت ذلك؟ قال: لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتقم لها اللّه، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه. فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدَّة ويحمد اللّه

(١) أى: قال: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.
(٢) سورة النساء:١٢٣.
(٣) أى: أدرانه.
(٤) عقبة بن أبى معيط.
(٥) أخرجه: الترمذى فى كتاب الدعوات ٣٣٨٢.

تعالى، ويعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرا، وأن المصائب والرزايا[١] إذا توالت أعقبها الفرج والفرح عاجلاً.

ومن أحسن ما قيل فى ذلك من المنظوم:

وإذا مَسَّكَ الزمانُ بضرٍّ ... عظمَتْ دونَهُ الخطوبُ وجلّتْ
وأتَتْ بعدَه نوائبُ أخرى ... سئِمَتْ نفسُكَ الحياةَ وملّتْ
فاصْطَبِرْ وانتَظِرْ بلوغَ الأمانى ... فالرزايا إذا توالَت تولّتْ[٢]
وإذا أوهنَتْ قواك وجلّت ... كشف عنك جملةً وتخلّتْ

ولمحمد بن بشر الخارجى:

إنَّ الأمور إذا استدَّتْ[٣] مسالِكُها ... فالصبرُ يفتحُ منها كلَّ مُرْتَجَا
لا تيأسَنَّ وإن طالَتْ مطالَبَةٌ ... إذا استعَنْتَ بصبرٍ أن ترى فَرَجَا

ولزهير بن أبى سلمي:

ثلاثٌ يعزُّ الصبرُ عندَ حلولها ... ويذهلُ عنها عقلُ كلِّ لبيبِ
خروجُ اضطرارٍ من بلادٍ يُحبُّها، ... وفرقةُ إخوانٍ، وفَقْدُ حبيبِ

وقال بعضهم:

عليكَ بإظهارِ التجلّدِ للعِدَا ... ويذهلُ عنها عقلُ كلِّ لبيبِ
خروجُ اضطرارٍ من بلادٍ يحبُّها ... وفرقةُ إخوانٍ، وفَقْدُ حبيبِ

ولابن نباتة:

صبرًا على نوبِ الزَّمـ ... ـانِ وإنْ أبى القلبُ الجريحْ
فلكلِّ شىءٍ آخرُ ... إمّا جميلٌ أو قبيحْ

وقال أبو الأسود وأجاد:

وإنَّ امرأً قد جرَّبَ الدهرَ لم يَخفْ ... تقلّبَ عصرَيْه لغيرِ لبيبِ
وما الدهرُ والأيامُ إلا كمَا ترَى ... رزيةَ مالٍ أو فراقُ حبيبِ

ومن كلام الحكماء: ما جُوهِدَ الهوى بمثل الرأى، ولا استُنبط الرأىُ بمثل المشورة، ولا حُفِظتِ النعمُ بمثل المواساة، ولا اكتُسِبَتِ البغضاءُ بمثل الكبر، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر. وقال نهشل:

ويومٌ كأن المصطلين بحرِّهِ ... وإنْ لم يكُنْ نار قيامٌ على الجَمْرِ
صبرنَا له صبرًا جميلاً وإنما ... تَفَرَّجُ أبوابُ الكريهةِ بالصبرِ

وقال ابن طاهر:

حذّرْتَنِى وذا الحذر ... ليس يُغنى من القَدَرْ
ليسَ مَنْ يكتُمُ الهَوَى ... مثلَ مَنْ باحَ واشتهَرْ

---

(١) الرزايا: النوازل.

(٢) تولت: انقضت.

(٣) استدَّت: أغلقت.

إنمــــا يَعــــرفُ الهَـــوَى — مَـــنْ علـــى مُـــرِّهِ صَـــبَرْ
نفـــسُ يـــا نفـــسُ فـــاصبِرِى — فـــازَ بالصـــبرِ مـــن صَـــبَرْ

وكان يقال: من تبصَّر تصبَّر. وكان يقال: إن نوائب الدهر لا تُدفع إلا بعزائم الصبر. وكان يقال: لا دواء لداء الدهر إلا بالصبر، ولله درّ القائل:

الدهـــرُ أدَّبنـــى والصـــبرُ ربَّـــانى — والقَـوت أقنعَنِـى واليـأسُ أغنـانى
وحنَكتْنــى مــن الأيــام تجربــةٌ — حتـى نَهَيْتُ الـذى قـد كـان ينهـانى

وما أحسن ما قال محمود الورَّاق:

إنـى رأيـتُ الصَّـبْرَ خـيرَ معـوِّل[١] — فـى النائبـاتِ لِمَـنْ أراد معـوَّلا
ورأيـتُ أسـبابَ القناعـةِ أكَـدَتْ — بعـرى الغنـى فجعلْتها لى معقـلا
فـإذا نبـا بـى مـنزلٌ جاوَزْتـهُ — وجعَلْتُ منـه غـيرَهُ لى مـنزلا
وإذا غـلا شـئٌ علـىَّ ترَكْتـهُ — فيكـون أرخصَ مـا يكـون إذا غـلا

وقال بعضهم:

إذا مـا أتـاكَ الدهـرُ يومًـا بنكبـةٍ — فـأفْرِغْ لهـا صـبرًا ووسِّعْ لهـا صَـدرًا
فـإن تصـاريف الزمـانِ عجيبـةٌ — فيومًـا تـرى يُسـرًا ويومًـا تـرى عُسـرًا

وقال بعضهم:

ومـا مسَّـنى عسـرٌ ففوَّضْتُ أمـرَهُ — إلى المَلِـكِ الجبَّـارِ إلا تَيَسَّـرَا

وما أحسن ما قيل:

الدهـــرُ لا يبقـــى علـــى حالـــةٍ — لا بـــدَّ أن يُقبـــلَ أو يدبـــرُ
فـــإنْ تلقّـــاك بمكروهِـــهِ — فـــاصبرْ فـــإن الدهـــرَ لا يصـــبرُ

ونقل عن محمد بن الحسن رحمه الله تعالى قال: كنت معتقلاً بالكوفة فخرجت يومًا من السجن مع بعض الرجال وقد زاد همى وكادت نفسى أن تزهق وضاقت على الأرض بما رَحُبَتْ، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل علىَّ ورأى ما أنا فيه من الكآبة، فقال: ما حالك؟ فأخبرته القصة، فقال: الصبر الصبر، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الصبر سترٌ للكروب، وعَونٌ على الخطوب».

وروى عن ابن عمه على رضى الله تعالى عنه أنه قال: «الصبر مطية لا تدبر[٢]، وسيفٌ لا يكل»، وأنا أقول:

مـا أحسـنَ الصبرَ فـى الدنيـا وأجمَلَـهُ — عنـدَ الإلـه وانجَـاهُ مـن الجـزعِ
مـن شـدَّ بالصـبر كفًـا عنـدَ مؤلمـةٍ — ألـوَتْ يـداه بحبـلٍ غـير منقطـعِ

فقلت له: بالله عليك زدنى فقد وجدت بك راحة، فقال: ما يحضرنى شئ عن النبى صلى الله عليه وسلم ولكنى أقول:

أمـا والـذى لا يعلَـمُ الغيـبَ غـيرُه — ومَنْ ليـس فـى كـلِّ الأمـور لـه كفـوُ
لئِـنْ كـان بـدءُ مـرًّا مذاقـهُ — لقـد يُجتنـى مـن بعدِهِ الثمـرُ الحلـوُ

---

(١) معوِّل: معتمد عليه.
(٢) لا تدبر: لا تنهزم.

ثم ذهب. فسألت عنه فما وجدت أحدًا يعرفه ولا رآه أحد قبل ذلك فى الكوفة، ثم أخرجت فى ذلك اليوم من السجن، وقد حصل لى سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به. ووقع فى نفسى أنه من الأبدال الصالحين قيضه الله تعالى لى؛ يوقظنى ويؤدّبنى ويسلينى.

وقيل: إن رجلاً كان يضرب بالسياط، ويجلد جلدًا بليغًا و لم يتكلم ويصبر و لم يتأوه، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له: أما يؤلمك هذا الضرب الشديد؟ فقال: بلى. قال: لم لا تصيح؟ فقال: إنَّ فى هؤلاء القوم الذين وقفوا علىَّ صديقًا لى يعتقد فىَّ الشجاعة والجلادة وهو يرقبنى بعينيه فأخشى إن ضجيت[1] يذهب ماء وجهى عنده، ويسوء ظنه بى، فأنا أصبر على شدَّة الضرب وأحتمله لأجل ذلك. قال الشاعر:

على قدرِ فضلِ المرءِ تأتى خطوبُهُ ... ويُحْمَدُ منه الصبرُ مما يصيبُهُ

فمَنْ قلَّ فيما يلتقيهِ اصطبارُهُ ... لقد قلَّ فيما يرتجيه نصيبُهُ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها: «يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر، ولم يكلّفنى إلا ما كلفوا به، فقال عزَّ وجل: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ**﴾[2] ، وإنّى والله لأصبرن كما صبروا» فإن النبى صلى الله عليه وسلم لمَّا صبر كما أُمر أسفر صبره عن ظفره ونصره. وكذلك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولو العزم لما صبروا ظفروا وانتصروا. وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة فقال مقاتل رضى الله تعالى عنه: هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويونس وأيوب صلوات الله عليهم. وقال قتادة: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

ويقال: ما الذى صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أُولى العزم؟ فأقول: ذكر ما صبروا عليه:

أما نوح عليه الصلاة والسلام فقد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: كان نوح عليه الصلاة والسلام يضرب ثم يلف فى لبد ويلقى فى بيته يرون أنه قد مات ثم يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى، ولما أيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه فقال لابنه: يا بنىَّ انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يغرَّك، فقال له ابنه: يا أبت مَكّنى من العصا، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحًا عليه الصلاة والسلام فشج بها رأسه وسال الدم على وجهه، فقال: رب قد ترى ما يفعل بى عبادك فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدهم وإلا فصبرنى إلى أن تحكم، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿**أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾[3] قال: يا رب وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجرى على وجه الماء أُنجى فيه أهل طاعتى وأغرق أهل معصيتى. قال: يا رب وأين الماء؟ قال: أنا على كل شئ قدير، قال: يا رب وأين الخشب؟ قال اغرس الخشب، فغرس الساج عشرين سنة. وكفَّ عن دعائهم، وكفوا عن ضربه، إلا أنهم كانوا يستهزئون به، فلما أدرك الشجر، أمره ربه فقطعها وجففها، وقال: يا رب، كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور، وبعث الله له جبريل فعلمه، وأوحى الله تعالى إليه أن عَجِّلْ بعمل السفينة فقد اشتدَّ غضبى على مَنْ عصانى، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح ونجاته وإهلاك قومه وعذابهم، إلا مَنْ آمن معه، وفار التنور، وظهر الماء على وجه الأرض، وقذفت السماء بأمطار كأفواه القرب حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال، وعلا فوق أعلى جبل فى الأرض أربعين ذراعًا. وانتقم الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر

(١) ضجيت: صرخت.

(٢) سورة الأحقاف:٣٥.

(٣) سورة هود:٣٦ - ٣٧.

نبيه نوحًا عليه الصلاة والسلام، وفي تمام قصته، وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه، فهذا زبدة صبر نوح عليه الصلاة والسلام وانتصاره على قومه.

وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإنه لما كسر أصنام قومه التي كانوا يعبدونها لم يروا في قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحراقه، فأخذوه وحبسوه ببيت ثم بنوا حاجزًا كالحوش طول جداره ستون ذراعًا إلى سفح جبل عال. ونادى منادى ملكهم أن أحتطبوا لإحراق إبراهيم، ومَنْ تخلَّفَ عن الاحتطاب أُحْرِقه، فلم يتخلَّفْ منهم أحد، وفعلوا ذلك أربعين يومًا، ليلاً ونهارًا حتى كاد الحطب يساوى رؤوس الجبال، وسدوا أبواب ذلك الحاجز وقذفوا به النار، فارتفع لهبها حتى كان الطائر يمرّ بها فيحترق من شدة لهبها، ثم بنوا بنيانًا شامخًا وبنوا فوقه منجنيقًا، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، فرفع إبراهيم عليه الصلاة والسلام طرفه إلى السماء ودعا الله تعالى وقال: حسبى الله ونعم الوكيل. وقيل: كان عمره يومئذ ستة وعشرين سنة. فنزل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام وقال: يا إبراهيم، ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. فقال جبريل: سَلْ ربَّك، فقال: حسبى من سؤالى علمه بحالى. فقال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[1] فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه الصلاة والسلام فجلس به على الأرض وأخرج الله له ماء عذبًا.

قال كعب: ما أحرقت النار غير كتافه[2] وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام، وقيل أكثر من ذلك. ونجّاه الله تعالى ثم أهلك نمرود قومه بأخسّ الأشياء، وانتقم منهم وظفر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهم. فهذه ثمرة صبره على مثل هذه الحالة العظمى، ولم يجزع منها وصبر وفوّض أمره إلى الله تعالى في ذلك، وتوكل عليه ووثق به. ثم جاءته قصة ذبح ولده، وأمره الله تعالى بذلك فقابل أمره بالتسليم والامتثال، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إمهال، وقصته مشهورة وتفاصيل القصة في كتب التفسير مسطورة، فلما هر صدقه ورضاه ومبادرته إلى طاعة مولاه، وصبره على ما قدّره وقضاه، عوّضه الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه، واتخذه خليلاً من بين خلقه واجتباه. وأما الذبيح صلوات الله وسلامه عليه فإنه صبر على بلية الذبح، وتلخيصها أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ولده قال: إني أريد أن أقرب قربانًا، فأخذ ولده والسكين والحبل وانطلق، فلما دخل بين الجبال قال ابنه: أين قربانك يا أبت؟ قال: إن الله تعالى قد أمرنى بذبحك فانظر ماذا ترى قال: ﴿يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[3].

يا أبت أشدد وثاقى كى لا أضطرب واجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم فتراه أمى فيشتد حزنها، وأسرع إمرار السكين على حلقى ليكون أهون للموت على، وإذا لقيت أُمى فاقرأ السلام عليها. فأقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ولده يقبله ويبكى ويقول: نعم العون أنت يا بنى على ما أمر الله تعالى. قال مجاهد: لما أمرّ السكين على حلقه انقلبت السكين فقال: يا أبت اطعن بها طعنًا. وقال السدى: جعل الله حلقه كصفيحة من نحاس لا تعمل فيها السكين شيئًا، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودى أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك، فأتاه جبريل عليه السلام بكبش أملح، فأخذه وأطلق ولده وذبح الكبش، فلا جرم أن جعل الذبيح نبيًا بصبره وامتثاله لأمره.

(١) سورة الأنبياء: ٦٩.

(٢) كتافه: وثاقه.

(٣) سورة الصافات: ١٠٢.

وأما يعقوب عليه الصلاة والسلام فإنه لما ابتلى بفراق ولده، وذهاب بصره، واشتداد حزنه، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾(١) وكذلك يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لما ابتلاه الله تعالى بالقائه فى ظلمة الجب وبيعه كما تباع العبيد، وفراقه لأبيه، وإدخاله السجن وحبسه فيه بضع سنين، وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله، فلا جرم أورثهما جمع شملهما واتساع القدرة بالملك فى الدنيا مع ملك النبوّة فى الآخرة.

وأما أيوب عليه الصلاة والسلام، فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعفُ القوى البشرية عن حمله. ولنذكر شيئًا مختصرًا من ذلك وهو أن ملكًا من ملوك بنى إسرائيل كان يظلم الناس، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم، وسكت عنه أيوب عليه الصلاة والسلام و لم يكلمه و لم ينهه لأجل خيل كانت له فى مملكته. فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام: تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك لأطيلنّ بلاءك. فقال إبليس لعنه الله: يا رب سَلِّطْنى على أولاده وماله، فسلطه، فبث إبليس مردته من الشياطين، فبعث بعضهم إلى دوابه ورعاتها، فحتملوها جميعًا وقدفوها فى البحر، وبعث بعضهم إلى زرعه وجناته فأحرقوها، وبعث بعضهم إلى منازله، وفيها أولاده وكانوا ثلاثة عشر ولدًا وخدمه وأهله فزلزلوها فهلكوا، ثم جاء ودوابك ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة وقدفت الجميع فى البحر، وأحرقت زرعك، وهدمت منازلك على أولادك وأهلك، فهلك الجميع ما هذه الصلاة؟ فالتفت إليه وقال: الحمد لله الذى أعطانى ذلك كله ثم قبله منى، ثم قام إلى صلاته، فرجع إبليس ثانيًا فقال: يا ربّ سَلِّطْنى على جسده، فسلطه فنفخ فى إبهام رجله فانتفخ، ولا زال يسقط لحمه من شدّة البلاء إلى أن بقى أمعاؤه تبين(٢) ، وهو مع ذلك كله صابر محتسب، مفوّض أمره إلى الله تعالى، وكان الناس قد هجروه واستقذروه وألقوه خارجًا عن البيوت من نتن ريحه، وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصدّيق قد سلمت فتردّدت إليه متفقدة، فجاءها إبليس يومًا فى صورة شيخ ومعه سخلة وقال لها: ليذبح أيوب هذه السخلة على اسمى فيبرأ. فجاءته فأخبرته فقال لها: إنش فاتى الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة، تأمرينى أن أذبح لغير الله تعالى فطردها عنه، فذهب وبقى ليس له من يقوم به فلما رأى أنه لا طعام له، ولا شراب، ولا أحد من الناس يتفقده خرّ ماجدًا لله تعالى وقال: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(٣) فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طول هذه المدّة وهى على ما قيل ثمان عشرة سنة، وقيل غير ذلك، وأنه تلقى جميع ذلك بالقبول، وما شكا إلى مخلوق ما نزل به، عاد الله تعالى بألطافه عليه فقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾(٤) وأفاض عليه من نعمه ما أنساه به بلوى نقمه، ومنحه من أقسام كرمه أن أفتاه فى يمينه تحلة قسمه، ومدحه فى نص الكتاب فقال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٥) فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب، وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوى الحزم وسماهم بسبب صبرهم أولى العزم، وفتح لهم بصبرهم، أبواب مرادهم وسؤالهم، ومنحهم من لدنه غاية أمرهم ومأمولهم ومرامهم(٦) . فما أسعد من أهتدى بهداهم، واقتدى بهم وإن قصر عن مداهم، وقيل: العسر يعقبه اليسر، والشدّة يعقبها الرخاء، والتعب يعقبه الراحة، والضيق يعقبه السعة، والصبر يعقبه الفرج، وعند تناهى الشدّة تنزل الرحمة، والموفق من رزقه الله صبرًا وأجرًا، والشقىّ من ساق القدر إليه جزعًا ووزرًا.

---

(١) سورة يوسف:١٨، ٨٣.

(٢) تبين: تظهر.

(٣) سورة الأنبياء:٨٣.

(٤) سورة الأنبياء:٨٤.

(٥) سورة ص:٤٤.

(٦) مرامهم: مرادهم.

ومما شنف السمع من نجح هذه الإشارة، وأتحف النفع فى نهج هذه العبارة ما روى عن الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه قال: كنت بواسط فرأيت رجلاً كأنه قد نبش من قبر، فقلت: ما دهاك يا هذا؟ فقال: اكتم على أمرى، حبسنى الحجاج منذ ثلاث سنين فكنت فى أضيق حال، وأسوأ عيش، وأقبح مكان، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم، فلما كان بالأمس أُخرجَتْ جماعة كانوا معى فضربت رقابهم، وتحدّث بعض أعوان السجن أن غدًا تضرب عنقى، فأخذنى حزن شديد وبكاء مفرط، وأجرى الله تعالى على لسانى، فقلت: إلهى اشتدّ الضر وفقد الصبر وأنت المستعان. ثم ذهب من الليل أكثره فأخذتنى غشية وأنا بين اليقظان والنائم إذ أتانى آت فقال لى: قُمْ فصلِّ ركعتَيْن وقل: يا مَنْ لا يشغله شئ عن شئ، يا مَنْ أحاط علمه بما ذرأ وبرأ[1] ، وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصى وساوس الصدور، وأنتب المنزل الأعلى وعلمك محيط بالمنزل الأدنى تعاليت علوًا كبيرًا، يا مغيثُ أغثنى وَفُكَّ أسرى واكشف ضرّى فقد نفد صبرى. فقمت وتوضأت فى الحال وصليت ركعتين وتلوت ما سمعته منه و لم تختلف على منه كلمة واحدة. فما تمّ القول حتىس قط القيد من رجلى ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت فقمت فخرجت و لم يعارضنى أحد فأنا والله طليق الرحمن، وأعقبنى الله بصبرى فرجًا وجعل لى من ذلك الضيق مخرجًا، ثم ودّعنى وانصرف يقصد الحجاز. وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: يا داود مَنْ صبر علينا وصل إلينا. وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها وقار، فبينما أنا أطوف فى خرابها إذ رأيت مكتوبًا بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الأبيات:

يا مَـنْ الحّ عليـه الهـمُّ والفكـر ... وغـيَّرَتْ حالَـهُ الأيـامُ والغـيرُ[2]
أما سمِعْتَ لما قد قيل فى مثل ... عند الإياسِ فأينَ اللّـه والقـدرُ
ثـم الخطـوبُ إذا أحداثُها طرَقَـتْ ... فاصبرْ فقد فازَ أقوامٌ بما صبروا
وكـلُّ ضيـقٍ سيأتى بعـدَهُ سَـعةٌ ... وكلّ قوتٍ وشيكٌ بعده الظفرُ

ولما حبس أبو أيوب فى السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته وضاق صدره، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه وقلة صبره، فردّ عليه جواب رقعته يقول:

صبرًا أبا أيوب صبرَ مبرَّحٍ ... وإذا عجزتَ عن الخطوبِ فمَنْ لها
إن الذى عَقَدَ الذى انعقدَتْ به ... عَقَدَ المَكارِهِ فيكَ يملكُ حلّها
صبرًا فإنّ الصبرَ يعقبُ راحةً ... ولعلّها أن تنجلى ولعلّها

فأجابه أبو أيوب يقول:

صبَّرْتنى ووعَظْتَنى وأنا لها ... وستنجلى بل لا أقولُ لعلها
ويحلّها مَنْ كان صاحبَ عَقْدِها ... كرمًا به إذ كانَ يملكُ حلّها

فما لبث بعد ذلك ايامًا حتى أطلق مكرمًا. وأنشدوا:

إذا ابتليتَ فثِقْ باللّه وأرضَ به ... إن الذى يكشفُ البلوى هو اللّه
اليأسُ يقطعُ أحيانًا بصاحبهِ ... لا تيأسن فإنَّ الصانعَ اللّه
إذا قضى اللّه فاستَسْلِمْ لقدرتِهِ ... فما ترَى حيلةً فيما قَضَى اللّه

---

(١) ذرأ وبرأ: ترك وبرىء.
(٢) الأيام والغير: نوائب الدهر.

الفصل الثالث في التأسي في الشدّة والتسلي عن نوائب الدهر

قال الثورى رحمه اللّه تعالى: لم يفقه عندنا من لم يعدَّ البلاء نعمة، والرخاء مصيبة. وقيل: الهموم التى تعرض للقلوب كفارات للذنوب. وسمع حكيم رجلاً يقول لآخر: لا أراك اللّه مكروهًا. فقال: كأنك دعوت عليه بالموت، فإن صاحب الدنيا لا بدّ له أن يرى مكروهًا. وتقول العرب: ويلٌ أهونُ من ويلَيْن. وقال ابن عيينة: الدنيا كلها غمومٌ فما كان فيها من سرور فهو ربحٌ.

وقال العتبى: إذا تناهى الغمُّ انقطع الدمعُ بدليل أنك لا ترى مضروبًا بالسياط ولا مقدمًا لضرب العنق يبكى. وقيل: تزوّج مغنّ بنائحة فسمعها تقول: اللّهمَّ أوْسِعْ لنا في الرزق، فقال لها: يا هذه، إنما الدنيا فرحٌ وحزنٌ وقد أخذنا بطرفي ذلك، فإن كان فرح دعونى، وإن كان حزن دعوك.

وقال وهب بن منبه: إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق الأنبياء.

وقال مطرف: ما نزل بى مكروه قط فاستعظمته إلا ذكرت ذنوبى فاستصغرته.

وعن جابر بن عبد اللّه رضى اللّه تعالى عنه يرفعه: «يودُّ أهلُ العافية يومَ القيامة أنَّ لحومَهم كانت تُقرض بالمقاريضِ؛ لما يرَوْنَ من ثواب اللّه تعالى لأهل البلاء»[(١)].

وروى أبو عتبة عن النبىِّ صلى اللّه عليه وسلم قال: «إذا أحبَّ اللّه عبدًا ابتلاه، فإذا أحبه الحبَّ البالغ اقتناه». قالوا: وما اقتناه؟ قال: «لا يترك له مالاً ولا ولدًا».

ومرَّ موسى عليه الصلاة والسلام برجل كان يعرفه مطيعًا للّه عزَّ وجلَّ قد مزقت السباع لحمه، وأضلاعه، وكبده ملقاة على الأرض، فوقف متعجبًا فقال: أى ربى عبدك ابتليته بما أرى! فأوحى اللّه تعالى إليه إنه سألنى درجة لم يبلغها بعمله فأحببت أن أبتليه لأبلغه تلك الدرجة.

وكان عروة بن الزبير صبورًا حين ابتلى، حكى أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطئ عظمًا فأصابته، فما بلغ إلى دمشق حتى بلغ به كل مذهب، فجمع له الوليد الأطباء، فأجمع رأيهم على قطع رجله. فقالوا له: اشرب مرقدًا[(٢)].

فقال: ما أحب أن أغفل عن ذكر اللّه تعالى، فأحمى له المنشار وقطعت رجله. فقال: ضعوها بين يدى ولم يتوجَّعْ. ثم قال: لئن كنتُ ابتليتُ فى عضوٍ فقد عُوفيتُ فى أعضاء. فبينما هو كذلك إذا أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على دواب الوليد فسقط بينها فمات. فقال: الحمد للّه على كل حال، لئن أخذت واحدًا لقد أبقيت جماعة.

وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير، فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره. فقال: خرجت مع رفقة مسافرين ومعى مالى، وعيالى، ولا أعلم عبسيًا يزيد ماله على مالى، فعرسنا فى بطن وادٍ فطرَقَنا سيلٌ فذهب ما كان من أهل، ومال، وولد، غير صبى صغير، وبعير. فشرد البعير فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لأخذ البعير فسمعت صيحة الصغير فرجعت إليه فإذا رأس الذئب فى بطنه وهو يأكل فيه فرجعت إلى البعير فحطم وجهى برجليه فذهبت عيناى فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل. فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن فى الدنيا مَنْ هو أعظم مصيبة منه. وقيل: الحوادث الممضة[(٣)] مكسبة لحظوظ جليلة، إما ثواب مدخر،

---

(١) أخرجه: الترمذى فى الزهد ٢٤٠٢.

(٢) مرقداً: منومًا.

(٣) الممضة: الموجعة.

أو تطهير من ذنب، أو تنبيه من غفلة، أو تعريف لقدر النعمة. قال البحترى يسلى محمد بن يوسف على حبسه:

وما هذه الأيامُ إلا منازلٌ فمن منزلِ رحبٍ إلى منزل ضنكِ(١)
وقد دهمَتْكَ الحادثاتُ وإنما صفَا الذهبُ الإبريزُ قبلك بالسَّبكِ
أمَا فى نبىِّ اللّه يوسفَ أسوةٌ لمثلِكَ محبوسٌ عن الظلمِ والإفكِ
أقام جميلَ الصبرِ فى السجنِ برهةً فآل به الصبرُ الجميلُ إلى الملكِ

وقال علىّ بن الجهم لما حبسه المتوكل:

قالوا حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرى حَبْسى وأىُّ مهنَّدٍ لا يغمدُ
والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ عن ناظرَيْك لما أضاءَ الفرقدُ(٢)
والنارُ فى أحجارِهَا مخبوءَةٌ لا تصطلى إن لم تُثِرْهَا الأزندُ
والحبسُ ما لم تغشَهُ لدنيَّةٍ شنعاءَ نِعْمَ المنزلُ المتوددُ
بيتٌ يجدِّد للكريم كرامةً ويُزار فيه ولا يَزور ويُحمَدُ
لو لم يكُنْ فى الحبسِ إلا أنه لا تستذِلُّكَ بالحجابِ الأعبدُ
غرُّ الليالى باديات عُوَّدٌ والمالُ عاريةٌ يُعار وينفدُ
ولكلِّ حىٍّ معقبٌ ولربما أجلى لك المكروهُ عمَّا يُحمدُ
لا يُؤيسَنَّكَ(٣) من تفرُّجِ نكبةٍ خطبٌ رماكَ به الزمانُ الأنكدُ
كم من عليلٍ قد تخطاه الرَّدى فنجا وماتَ طبيبُه والعُوَّدُ
صبرًا فإن اليومُ يعقبُهُ غدٌ ويدُ الخلافةِ لا تطاولها يدُ

وأنشد إسحاق الموصلى إبراهيم بن المهدى حين حبس:

هى المقاديرُ تجرى فى أعنَّتها فاصبرْ فليسَ لها صبرٌ على حالِ
يوماً تُريكَ خسيسَ الأصلِ ترفعُهُ إلى السماءِ ويومًا تخفضُ العالى

فما أمسى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون رضى اللّه عنه. وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب فى إبراهيم بن المدنى حين عزل:

ليهن أبا إسحاقَ أسبابُ نعمةٍ مجدَّدةٍ بالعزلِ والعزلُ أنبلُ
شهدتُ لقد منّوا عليك وأحسَنُوا لأنكَ يومَ العزلِ أعلى وأفضلُ

وقال آخر:

قد زادَ ملكُ سليمانَ فعاوده والشمس تنحطُّ فى المجرى وترتفعُ

وقال أبو بكر الخوارزمى لمعزول: الحمد للّه الذى ابتلى فى الصغير وهو المال، وعافى فى الكبير وهو الحال.

ولا عارَ إن زالت عن الحرِّ نعمةٌ ولكنَّ عارًا أن يزولَ التحمُّلُ(٤)

---

(١) ضنك ضيق.
(٢) الفرقد: نجم فى السماء.
(٣) لا يؤيسنّك: لا يزهدك.
(٤) التحمُّل: الصبر.

وقيل: المال حظ ينقص ثم يزيد، وظلٌّ ينحسر ثم يعود. وسئل بزرجمهر عن حاله فى نكبته؟ فقال: عوَّلت على أربعة أشياء: أولها: أنى قلت: القضاء والقدر لابد من جريانهما، الثانى: أنى قلت: إن لم أصبر فما أصنع، الثالث: أنى قلت: قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا، الرابع: أنى قلت: لعلّ الفرج قريب.

والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والخمسون فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدّة والفرح والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب

فيما يليق بهذا الباب من كتاب اللّه عزّ وجلّ قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾[3]، ويروى عن ابن مسعود رضى اللّه تعالى عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «لو كان العسرُ فى حجر لدخل عليه اليسر حتى يخرجَهُ». وقال عليه الصلاة والسلام: «عند تناهى الشدة يكون الفرج، وعند تضايق البلاء يكون الرخاءُ». وقال على رضى اللّه تعالى عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم: «أفضلُ عبادةِ أمتى انتظارُها فرجَ اللّه تعالى». وقال الحسن لما نزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[4] قال النبى صلى اللّه عليه وسلم: «أبْشِرُوا فلن يغلبَ عسرٌ يسرَيْن» ومن كلام الحكماء: إن تقنت لم يَبْق هَمٌّ. وقال أبو حاتم:

إذا اشتملَتْ على البؤسِ القلوبُ ... وضاقَ بما بهِ الصدرُ الرحيبُ
وأوطَنتِ المكارهَ واطمأنَّتْ ... وأرْسَتْ فى مكامِنِهَا الخطوبُ
ولم تَرَ لانكشافِ الضرِّ وجهًا ... ولا أغنى بحيلتِهِ الأريبُ[5]
أتاكَ على قنوطٍ منك غَوْثٌ ... يمنُّ به اللطيفُ المستجيبُ

وقال آخر:

عسى الهمُّ الذى أمسَيْتُ فيه ... يكونُ وراءه فرجٌ قريبُ
فيأمنَ خائفٌ ويغاثَ عانٍ[6] ... ويأتى أهلَهُ النائى الغريبُ

وقال آخر:

تصبَّرْ أيُّها العبدُ اللبيبُ ... لعلَّكَ بعدَ صبرِكَ ما تخيبُ
وكلُّ الحادثاتِ إذا تناهَتْ ... يكونُ وراءها فرجٌ قريبُ

وقال إبراهيم بن العباس:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند اللّه منها المخرجُ
ضاقت فلماَ استحكمت حلقاتها ... فَرِجَتْ وكان يَظُنها لا تَفْرجُ

وقال آخر:

لئنْ صَدَعَ البينُ المشتّتُ شملَنَا ... فللبَيْنِ حكمٌ فى الجُموعِ صدوعُ
وللنجمِ من بعدِ الرجوعِ استقامةٌ ... وللشمسِ من بعدِ الغروبِ طلوعُ
وإنْ نعمَةٌ زالَتْ عنِ الحرِّ وانقضَتْ ... فإنَّ لها بعدَ الزوالِ رجوعُ

---

(١) سورة الطلاق:٧.
(٢) سورة الشورى:٢٨.
(٣) سورة يوسف:١١٠.
(٤) سورة الشرح:٥، ٦.
(٥) الأريب: الذكي.
(٦) عان: أسير.

فكُنْ واثقًا باللّه واصبرْ لحَكْمِهِ فإنَّ زوالَ الشَّرِّ عنكَ سريعُ

ولنذكر نبذة ممن حصل له الفرج بعد الشدة:

روى أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد اللّه عامله على المدينة المنورة أنْ أخْرِجِ الحسنَ بن الحسن بن على من السجن - وكان محبوسًا - واضربه فى مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خمسمائة سوط، فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس وصعدَ صالح يقرأ عليه الكتاب، ثم نزل يأمر بضربه، فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء على بن الحسين عليه السلام فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن فقال: يا ابن العم ما لك؟ أدْعُ اللّه تعالى بدعاء الكرب يُفَرِّج اللّه عنك. قال: ما هو يا ابن العم؟ فقال: لا إله إلا اللّه الحليم الكريم، لا إله إلا اللّه العلى العظيم، سبحان رب السموات السبع ورب العرش العظيم، الحمد للّه رب العالمين، ثم انصرف عنه. وأقبل الحسن يكررها فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال: أراه فى سجنه مظلومًا أخْرِجُوه، وأنا أراجع أمير المؤمنين فى أمره، فأطلق بعد أيام، وأتاه الفرج من عند اللّه.

وقال الربيع: لما حبس المهدى موسى بن جعفر رأى فى المنام عليًّا رضى اللّه تعالى عنه وهو يقول: يا محمد: **﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾**[١] قال الربيع: فأرسل المهدى إلىّ ليلاً فراعنى ذلك فجئته فإذا هو يقرأ هذه الآية، وكان حسن الصوت، فقص علىّ الرؤيا، ثم قال: ائتنى بموسى بن جعفر فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جانبه، وقال: يا أبا الحسن رأيتُ أمير المؤمنين يقرأ علىّ كذا فعاهدنى أن لا تخرج علىَّ ولا على أحد من ولدى. فقال: واللّه ما ذاك من شأنى. فقال: صدقت، ثم قال: يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار ورُدَّه إلى أهله بالمدينة، قال الربيع: فأحكمت أمره ليلاً فما أصبح إلا على الطريق. وقال إسماعيل بن بشار:

وكلُّ حرّ وإن طالَتْ بَلِيَّتُهُ يومًا تَفَرَّجَ غمَّاه[٢] وتكشِفُ

وقال مسلم بن الوليد: كنت يومًا جالسًا عند خياط بإزاء منزلى، فمر بى إنسان أعرفه، فقمت إليه وسلمت عليه وجئت به إلى منزلى لأضيفه وليس معى درهم، بل كان عندى زوج أخفاف، فأرسلتهما مع جاريتى لبعض معارفى فباعهما بتسعة دراهم واشترى بها ما قلته لها من الخبز واللحم، فجلسنا نأكل، وإذا بالباب يطرق، فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل: هذا منزل فلان؟ ففتحت الباب وخرجت. فقال: أنت مسلم بن الوليد؟ قلت: نعم، واستشهدت له بالخياط على ذلك، فأخرج لى كتابًا وقال: هذا من الأمير يزيد بن مزيد فإذا فيه: قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون فى منزلك، وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقدومك علينا. فأدخلته إلى دارى وزدتُ فى الطعام واشترَيْتُ فاكهة وجلسنا فأكلنا، ثم وهبتُ لضيفى شيئًا يشترى به هدية لأهله، وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقة فوجَدْناه فى الحمام. فلما خرج استؤذن لى عليه فدخلت فإذا هو جالس على كرسى مشط يسرح به لحيته، فسلمت عليه فرد أحسن رد وقال: ما الذى أقعدك عنّا؟ قلت: قلة ذات اليد[٣]، وأنشدته قصيدة مدحته بها. قال: أتدرى لم أحضرتك؟ قلت: لا أدرى. قال: كنت عند الرشيد منذ ليال أحادثه فقال لى: يا يزيد من القائل فيك هذه الأبيات؟

سَل الخليفة سيفًا من بنى مضر يمضى فيخترقُ الأجسامَ والهامَا

---

(١) سورة محمد:٢٢.

(٢) الغُمة: الكربة.

(٣) قلة ذات اليد: الفقر.

كـالدَّهْرِ لا ينثنـى عمّـا يهـمُّ بِـهِ　　　قَـدْ أوسَـعَ النـاسَ إنعامًـا وإرغامًـا[١]

فقلت: والله لا أدرى يا أمير المؤمنين. فقال: سبحان الله! أيقال فيك مثل هذا ولا تدرى من قاله؟ فسألت. فقيل لى: هو مسلم بن الوليد. فأرسلت وإليك، فانهض بنا إلى الرشيد، فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه، فقبلت الأرض، وسلمت، فردّ على السلام فأنشدته ما لى فيه من شعر، فأمر لى بمائتى ألف درهم، وأمر لى يزيد بمائة وتسعين ألف درهم، وقال: لا ينبغى لى أن أساوى أمير المؤمنين فى العطاء، فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العسر العظيم، وما أحسن ما قيل:

الأمـنُ والخـوفُ أيّـامٌ مداولـة　　　بـين الأنـامِ وبعـدَ الضيـقِ تَتَسِـعُ

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق، ليطلق أهل السجون، ويقسم الأموال ضيق على يزيد بن أبى مسلم. فلما ولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ولى يزيد بن أبى مسلم إفريقية، وكان محمد بن يزيد واليًا عليها، فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبى مسلم وشدَّد فى طلبه، فأتى به إليه فى شهر رمضان عند المغرب، وكان فى يد يزيد بن أبى مسلم عنقود عنب فقال لمحمد بن يزيد حين رآه: يا محمد بن يزيد. قال: نعم، قال: طالما سألت الله أن يمكننى منك. فقال: وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرنى منك. فقال: والله ما أجارك، ولا أعاذك، وإن سبقنى ملك الموت إلى قبض روحك سبقته، والله لا آكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك، ثم أمر به فكتّف، ووضع فى النطع، وقام السياف، فأقيمت الصلاة، فوضع العنقود من يده وتقدم ليصلى، وكان أهل إفريقية قد أجمعوا على قتله، فلما رفع رأسه ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله. وقيل لمحمد بن يزيد: اذهب حيث شئت، فسبحان مَنْ قَتَلَ الأميرَ وفكَّ الأسيرَ.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم وهو يقول: أطلق القاتل فارتعت لذلك، ودعوت بالشموع ونظرت فى أوراق السجن، وإذا ورقة إنسان ادّعى عليه بالقتل، وأقرّ به، فأمرت بإحضاره، فلما رأيته وقد ارتاع قلت له: إن صدقتنى أطلقتك. فحدّثنى أنه كان هو وجماعة من أصحابه يرتكبون كل عظيمة، وأن عجوزًا جاءت لهم بامرأة، فلما صارت عندهم صاحت: الله الله وغشى عليها، فلما أفاقت قالت: أنشدك الله فى أمرى فإن هذه العجوز غرّتنى وقالت: إن هذه دار نساء صالحات، وأنا شريفة، جدّى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمى فاطمة، وأبى الحسين بن على فاحفظهم فىّ، فقمت دونها وناضلت عنها، فاشتد علىَّ واحد من الجماعة وقال لابد منها، وقاتلنى، وخلصت الجارية من يده، فقالت: سترك الله كما سترتنى، وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولاً والسكين بيدى، فأمسكونى وأتوا بى إليك وهذا أمرى. فقال إسحاق: قد وهبتك لله ولرسوله، فقال: وحق اللذين وهبتنى لهما لا أعود إلى معصية أبدًا.

وأمر الحجاج باحضار رجل من السجن، فلما حضر أمر بضرب عنقه، فقال: أيها الأمير أخّرْنى إلى غد، قال: وأىّ فرج لك فى تأخير يوم واحد؟ ثم أمر بردِّه إلى السجن، فسمعه الحجاج وهو راجع إلى السجن يقول:

عسـى فـرجٌ يـأتى بـه اللّـه إنّـهُ　　　لـهُ كـلَّ يـومٍ فـى خليقتِـهِ أمـرُ

فقال الحاج: والله ما أخذه إلا من كتاب الله وهو قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[٢]، وأمر باطلاقه.

وقال بعض جلساء المعتمد: كنا بين يديه ليلة فخفق رأسه بالنعاس فقال: لا تبرحوا حتى أغفو سويعة، فغفا ساعة ثم أفاق جزعًا مرعوبًا، وقال: امضوا إلى السجن وائتونى بمنصور الجمَّال، فجاءوا به فقال له: كم لك فى

(١) إرغاماً: غصبًا وجبروتًا.

(٢) سورة الرحمن:٢٩.

السجن؟ قال: سنة ونصف. قال: على ماذا؟ قال: أنا جمَّال من أهل الموصل وضاق على الكسب ببلدى، فأخذت جملى وتوجهت إلى بلد غير بلدى لأعمل عليه فوجدت جماعة من الجند قد ظفروا بقوم غير مستقيمى الحال وهم مقدار عشرة أنفس، وجدوهم يقطعون الطريق، فدفع واحد منهم شيئًا للأعوان فأطلقوه وأمسكونى عوضه، وأخذوا جملى فناشدتهم اللّه، فأبوا، وسجنت أنا والقوم فأطلق بعضهم، ومات بعضهم، وبقيت أنا. فدفع له المعتمد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين دينارًا فى كل شهر. وقال: اجعلوه على جمالنا، ثم قال: أتدرون ما سبب فعلى هذا؟ قلنا: لا. قال: رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يقول: أطلق منصورًا الجمال من السجن، وأحْسِنْ إليه. وأخذ الطاعون أهل بيت فسدّ بابه، ففضل فيه طفل يرضع لم يشعر به أحد، ففتح الباب بعد شهر فوجدوا الطفل قد عطف اللّه عليه كلبة ترضعه مع جرو لها، فسبحان القادر على كل شىء، لا إله غيره ولا معبود سواه. قال الشاعر:

إذا تضايَقَ أمرٌ فانتظِرْ فرجًا ... فأضْيَقُ الأمر أدناهُ(١) إلى الفَرَجِ

وقال آخر:

فلا تجزعن إنْ أظلمَ الدهرُ مرَّةً ... فإن اعتكارَ(٢) الليلِ يؤذنُ بالفجرِ

وقال آخر:

لَعَمْرُكَ ما كلُّ التعاطيلِ ضائرًا ... ولا كلُّ شغلٍ فيه للمرءِ منفعَةْ
إذا كانتِ الأرزاقُ فى القربِ والنَّوَى(٣) ... عليكَ سواءً فاغتنِمْ لذَّةَ الدِّعَةْ(٤)
فإن ضقتَ فاصبرْ يُفَرِجِ اللّه ما ترى ... ألا رُبَّ ضيقٍ فى عواقبه سَعَهْ(٥)

وقال الرياشى: ما اعترانى همٌّ فأنشدت قول أبى العتاهية حين قال:

هىَ الأيامُ والغِيَرُ ... وأمرُ اللّه ينتظرُ
أتيأسُ إن ترى فرجًا ... فأينَ اللّه والقدرُ؟!

إلا سرى عنى وهبَّتْ ريحُ الفرج. ويروى أن سلطان صقيلة أرق ذات ليلة ومُنع النوم، فأرسل إلى قائد البحر وقال له: انفذ الآن مركبًا إلى أفريقية يأتونى بأخبارها. فعمد القائد إلى مقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب فى موضعه كأنه لم يبرح، فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم قد امتثلت أمرك، وأنفذت مركبًا فرجع بعد ساعة، وسيحدّثك مقدم المركب. فأمر باحضاره فجاء ومعه رجل فقال له الملك: ما منعك أن تذهب حيث أُمِرت؟ قال: ذهبت بالمركب، فبينما أنا فى جوف الليل، والرجال يجدفون إذا بصوت يقول: يا اللّه، يا غياث المستغيثين يكرّرها مرارًا، فلما استقرّ صوته فى أسماعنا ناديناه مرارًا: لبيك لبيك، وهو ينادى: يا اللّه، يا غياث المستغيثين، فجدفنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقًا فى آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب وسألناه عن حاله، فقال: كنا مقلعين من أفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وأشرفت على الموت، وما زلت أصبح حتى أتانى الغوث من ناحيتكم، فسبحان مَنْ أسهر سلطانًا وأرقه فى قصره لغريق فى البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الوحدة، فسبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه.

---

(١) أدناه: أقربه.
(٢) اعتكار: اختلاط الظلمة.
(٣) النوى: البعد.
(٤) الدعة: السكون والراحة.
(٥) السعة: الوداعة والنعيم.

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشي في كتابه سراج الملوك، قال: أخبرني أبو الوليد الباجي عن أبي ذر قال: كنت أقرأ على الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءًا من الحديث في حانوت رجل عطار، فبينا أنا جالس معه في الحانوت إذ جاءه رجل من الطوّافين ممن يبيع العطر في طبق يحمله على يده، فدفع إليه عشرة دراهم وقال له: أعطني بها أشياء سماها له من العطر، فأعطاه إياها فأخذها في طبقه، وأراد أن يمضي، فسقط الطبق من يده، فانكب جميع ما فيه. فبكى الطوّاف، وجزع رحمناه. فقال أبو حفص لصاحب الحانوت: لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء. فقال: سمعًا وطاعة. فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها، ودفع له ما عدم منها، وأقبل الشيخ على الطّواف يصبره ويقول له: لا تجزَعْ فأمرُ الدنيا أيسرُ من ذلك. فقال الطّواف: أيها الشيخ، ليس جزعي لضياع ما ضاع لقد علم الله تعالى أني كنت في القافلة الفلانية، فضاع لي هميان فيه أربعة آلاف دينار ومعها فصوص قيمتها كذلك، فما جزعت لضياعها حيث كان لي غيرها من المال، ولكن ولد لي ولد في هذه الليلة فاحتجنا لأمه ما تحتاج النفساء، و لم يكن عندى غير هذه العشرة دراهم، فخشيت أن أشترى بها حاجة للنفساء فأبقى بلا رأس مال، وأنا قد صرت شيخًا كبيرًا لا أقدر على التكسب. فقلت في نفسي: أشترى بها شيئًا من العطر فأطوف به صدر النهار فعسى أستفضل شيئًا أسدّ به رمق أهلي، ويبقى رأس المال أتكسب به. واشتريت هذا العطر، فحين انكبَّ الطبق علمت أنه لم يبق لى إلا الفرار منهم، فهذا الذى أَوْجَبَ جزعي.

قال أبو حفص: وكان رجل من الجند جالسًا إلى جانبي يستوعب الحديث، فقال للشيخ أبي حفص: يا سيدى أريد أن تأتي بهذا الرجل إلى منزلي فظننا أنه يريد أن يعطيه شيئًا. قال: فدخلنا إلى منزله فأقبل على الطوّاف وقال له: عجبت من جزعك، فأعاد عليه القصة، فقال له الجندى: وكنت في تلك القافلة؟ قال: نعم وكان فيها فلان وفلان، فعلم الجندى صحة قوله، فقال: وما علامة الهميان[1] ؟ وفي أيّ موضع سقط منك؟ فوصف له المكان والعلامة. قال الجندى: إذا رأيته تعرفه؟ قال: نعم. فأخرج الجندى له هميانًا ووضعه بين يديه، فحين رآه صاح وقال: هذا هميانى والله، وعلامةُ صحةِ قولي أن فيه من الفصوص ما هو كيت، وكيت. ففتح الهميان فوجده كما ذكر. فقال الجندى: خذ مالك بارك الله لك فيه. فقال الطوّاف إن هذه الفصوص قميتها مثل الدنانير وأكثر، فخذها وأنت في حلّ منها ونفسي طيبة بذلك، فقال الجندى: ما كنت لآخذ على أماتنى مالاً، وأبى أن يأخذ شيئًا، ثم دفعها للطوّاف جميعها فأخذها ومضى، ودخل الطّواف وهو من الفقراء، وخرج وهو من الأغنياء. اللّهم أغْنِ فقرنا، ويَسِّرْ أمرنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

وحكى أن الملك ناصر الدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيا الأطباءَ دواؤه، و لم يجدوا له شفاء فدسوا على قتله، وأرصدوا له رجلاً خنجر، فلما كان في بعض دهاليز القصر وثب عليه ذلك الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة أسفل خاصرته فلم تخط المعى الذى فيه القولنج فخرج ما فيه من الخلط فعافاه الله تعالى، وبرئ أحسن ما كان.

ويعضدّ هذا ما حكاه أبو بكر الطرطوشي قال: حدّثنا القاضي أبو مروان الداراني بطرطوشة قال: نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فآووا إلى دار خربة هناك فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار، واستوقدوا نارهم وسوّوا معيشتهم ، وكان في تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع فقال رجل منهم: يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ولا يدخلنّ أحد في هذه البقعة فأبوا إلا دخولها. فاعتزلهم ذلك الرجل وبات خارجًا عنهم و لم يقرب ذلك المكان فأصبحوا في عافية، وحملوا على دوابهم. فبينما هم كذلك إذا دخل الرجل إلى الدار ليقضي حاجته فخرّ عليه الحائط فمات لوقته.

---

(١) الهميان: كيس مشدود، معرب.

قال: وأخبرنى أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال: لقد جَرَتْ فى هذه الدار - وأشار إلى دار هناك - قضية عجيبة. قلت: وما هى؟ قال: كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة فى تجارة الخزّ، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخزّ في خرج وحمله على حماره وسار مع القافلة، فلما نزلت القافلة، أراد إنزال الخرج عن الحمار، فثقل عليه، فأمر إنسانًا هناك فأعانه على إنزاله، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه، فسأله عن أمره، فأخبره أنه من أهل الكوفة، وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد، فقال له الرجل: كن رفيقى آنس بك وتعيننى على سفرى ونفقتك ومؤنتك علىَّ، فقال له الرجل: وأنا أيضًا أختار صحبتك وأرغب فى مرافقتك، فسار معه فى سفره وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت، فنزل الرفقة خارج المدينة، ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم، فقال التاجر لذلك الرجل: احفَظْ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشترى ما نحتاج إليه. ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه، ورحلت الرفقة ولم ير أحدًا فظنّ أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم فلم يزل يسير ويجدّ السير فى المشى إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد، فسألهم عن صاحبه، فقالوا: ما رأيناه ولا جاء معنا ولكنه أرتحل على أثرك فظننا أنك أمرته. فكرّ الرجل راجعًا إلى تكريت وسأل عن الرجل فلم يجد له أثرًا ولا سمع له خبرًا فيئس منه، ورجع إلى الموصل مسلوب المال فوصلها نهارًا فقيرًا جائعًا عريانًا مجهودًا، فاستحى أن يدخلها نهارًا فتشمت به الأعداء - نعوذ بالله من شماتتهم - وخشى أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة فاستخفى إلى الليل، ثم عاد إلى داره فطرق الباب فقيل له: من هذا؟ قال: فلان، يعنى نفسه. فأظهروا له سرورًا عظيمًا وحاجة إليه وقالوا: الحمد لله الذى جاء بك فى هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة، فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية، وأطَلْت سفرك واحتجنا وقد وضعت زوجتك اليوم، والله وما وجدنا ما نشترى به شيئًا للنفساء، فَأتِنا بدقيق ودهن نسرج به علينا، فلا سراج عندنا.

فلما سمع ذلك ازداد غمًّا على غمه وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم ذلك، فأخذ وعاء للدهن، ووعاء للدقيق وخرج إلى حانوت أمام داره وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك، وكان البياع أطفأ سراجه وأغلق حانوته ونام فناداه فعرفه وأجابه وشكر الله على سلامته فقال له: افتح حانوتك واعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن. فنزل البياع إلى حانوته وأوقد المصباح ووقف يزن له ما طلب، فبينما هو كذلك إذا حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت، فرأى خرجه الذى هرب به صاحبه، فلم يملك نفسه أن وثب إليه والتزمه وقال: يا عدوّ الله ائتنى بمالى، فقال له البياع: ما هذا يا فلان! والله ما علمتك متعدّيًا، وأنا أبدًا ما جنيت عليك ولا على غيرك؛ فما هذا الكلام؟ قال: هذا خرجى هرب به خادم كان يخدمنى وأخذ حمارى وجميع مالى. فقال البياع: والله ما لى علم غير أن رجلاً ورد علىَّ بعد العشاء واشترى منى عشاءه، وأعطانى هذا الخرج فجعلته فى حانوتى وديعة إلى حين يصبح، والحمار فى دار جارنا، ، والرجل فى المسجد نائم. قال له: احمل معى الخرج وامض بنا إلى الرجل، فرفع الخرج على عاتقه ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم فى المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوبًا فقال: ما لك؟ قال: أين مالى يا خائن؟ قال: ها هو فى خرجك فوالله ما أخذت منه ذرة. قال فأين الحمار وآلته؟ قال: هو عند هذا الرجل الذى معك، فعفا عنه وخلّى سبيله ومضى بخرجه إلى داره فوجد متاعه سالمًا فوسع على أهله وأخبرهم بقصته فازداد سرورهم وفرحهم وتبركوا بذلك المولود، فسبحان مَنْ لا يخيب مَنْ قصده ولا ينسى مَنْ ذكره.

ولنلحق بهذا الباب ذكر مما جاء فى التهنئة والبشائر: كتب بعضهم إلى أخيه وقد أتاه خبر استبشر به: سمعت عنك خبرًا سارًّا كتب فى الألواح، وامتزج بالأرواح، وعدّ فى جملة البشائر العظام، وجرى فى العروق وتمشى فى العظام. وكان خالد بن عبد الله القسرى أخا هشام بن عبد الملك من الرضاع، وكان يقول: إنى لأرى فيك

آثار الخلافة ولا تموت حتى تليها. فقال له: إن أنا وليتها فلك العراق، فلما ولى أتاه فقام بين الصفين وقال: يا أمير المؤمنين أعزّك اللّه بعزته وأيدك بملائكته، وبارك لك فيما ولاّك ورعاك فيما استرعاك، وجعل ولايتك على أهل الإسلام نعمة، وعلى أهل الشرك نقمة، لقد كانت الولاية إليك أشوق منك إليها، وأنت لها أرين منها لك. وما مثلها ومثل إلا كما قال الأحوص هذه الأبيات:

وإنِ الـدرُّ زادَ حسـنَ وجـوهٍ ... كـان للـدّرِّ حسـنُ وجهـك زينـا
وتزيـدنَّ أطيـبَ الطيـبِ طيّـا ... إن تمسـنّه أيـنَ مثلُـك أينـا

ودخل على المهدى أعرابيّ فقال له: فيم جئت؟ قال: أتيتك برسالة، قال: هاتها، قال: أتانى آت فى منامى فقال: أئت أمير المؤمنين فابلغه هذه الأبيات:

لكَـمْ إرثَ الخلافـةَ مـن قريـشٍ ... تـزفُّ إليكـمْ أبـدًا عروسَـا
إلى هـارونَ تهـدى بعـدَ موسـى ... تميـسُ[1] ومـا لهمـا أن لا تميسـا

فقال المهدى: يا غلام علىَّ بالجواهر، فحشا فاه حتى كان ينشقّ. ثم قال: أكتبوا هذه الأبيات واجعلوها فى بخانق[2] صبياننا. وقال إبراهيم الموصلى فى تهنئة الرشيد بالخلافة:

ألم تـر أن الشـمس كـانت مريضـةً ... فلمـا أتـى هـارونُ أشـرقَ نورُهـا
تلبَّسَـتِ الدنيـا جمـالاً بملكِـهِ ... فهـارونُ واليهـا ويحيـى وزيرُهَـا

وغناه بهما من وراء الحجاب فوصله بمائة ألف دينار، ويحيى بخمسين ألفًا.

ودخل عطاء بن أبى صيفى على يزيد بن معاوية – وهو أوّل من جميع بين التهنئة والتعزية – فقال: رزئت خليفة اللّه وأعطيت خلافة اللّه، قضى معاوية نحبه، فغفر اللّه ذنبه، ووليت الرياسة وكنت أحق بالسياسة، فاحتسب عند اللّه أعظم الرزية، وأشكر اللّه على أعظم العطية.

ومر عمر بن هبيرة بعد إطلاقه من السجن بالدِّقة فإذا امرأة من بنى سليم على سطح لها تحادث جارة لها ليلاً وهى تقول: لا والذى أسأله أن يخلص عمر بن هبيرة مما هو فيه ما كان كذا، فرمى إليها بصرة فيها مائة دينار وقال: قد خلص اللّه عمر بن هبيرة فطيبى نفسًا وقرى عينًا.

واللّه سبحانه وتعالى أعلم، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) تميسُ: تتمايل.
(٢) بخانق: خرق تقنّع بها الجارية وتشد طرفيها تحت حنكها.

الباب الثامن والخمسون فى ذكر العبيد والإماء والخدم

الفصل الأول فى مدح العبيد والإماء والاستيصاء بهم خيرًا

عن على رضى اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «أول من يدخل الجنة شهيد، وعبد أحسن عبادة ربه، ونصح لسيده»[(١)] . وعن ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما رفعه: «إن العبد إذا نصح لسيده، وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين»[(٢)] . وكان زيد بن حارثة خادمًا لخديجة رضى اللّه تعالى عنها اشترىَ لها بسوق عكاظ فوهبته لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فجاءه أبوه يريد شراءه منه، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إن رضى بذلك فعلت». فسئل زيد فقال: ذُلُّ الرق مع صحبة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أحب إلىّ من عز الحرية مع مفارقته. فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إذا اختارنا اخترناه» فأعتقه وزوّجه أم أيمن وبعدها زينب بنت جحش. وعن علىٍّ رضى اللّه تعالى عنه قال: كان آخر كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «أوصيكم بالصلاة، واتقوا اللّه فيما ملكت أيمانكم» . وعن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه: لا يقولنّ أحدكم عبدى وأمتى، كلكم عبيد اللّه، وكل نسائكم إماء اللّه، ولكن ليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى. وعن ابن مسعود الأنصارىّ قال: ضربت غلامًا لى فسمعت من خلفى صوتًا: «اعلم أبا مسعود أن اللّه أقدر عليك منك عليه». فالتفت فإذا هو النبى صلى اللّه عليه وسلم، فقلت: يا رسول اللّه هو حرّ لوجه اللّه تعالى. فقال: «أما إنك لو لم تفعل لَلَفَحَتْكَ النار»[(٣)] . وروى عن ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللّه كم تعفو عن الخادم؟ ثم أعاد عليه فصمت. فلما كانت الثالثة قال له: «أعفو عنه كل يوم سبعين مرة». وعن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال: حدثنى أبو القاسم نبىّ التوبة صلى اللّه عليه وسلم: «مَنْ قذف مملوكه وهو برئ مما قال جلد له يوم القيامة حدًا».

وقيل: أراد رجل بَيْعَ جاريته فبكت. فقال لها: ما لك؟ فقالت: لو ملكت منك ما ملكت منى، ما أخرجتك من يدى، فأعتقها وتزوّجها. وقال أبو اليقظان: إن قريشًا لم تكن ترغب فى أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم: على بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد اللّه. وذلك أن عمر رضى اللّه تعالى عنه أُتى ببنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى مسبيَّات، فأراد بيعهن فأعطاهن للدلال ينادى عليهن بالسوق فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه فصاح: واعمراه، وشكا إليه، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرة. فقال على رضى اللّه تعالى عنه: يا أمير المؤمنين إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «أكرموا عزيز قوم ذلّ، وغنى قوم افتقر» إن بنات الملوك لا يُبَعْنَ، ولكن قوّموهن. فقوّمهم وأعطاه أثمانهن، وقسمهن بين الحسين بن على، ومحمد بن أبى بكر، وعبد اللّه بن عمر، فولدن هؤلاء الثلاثة.

وقيل: استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة، وكن ابن أمة، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدى:

نَهَيْتكُمُ أَنْ تحملوا فوقَ خيلِكم ... هجينًا لكم يومَ الرهانِ فيدركُ

فتعثرُ كفّاه ويسقطَ سوطَه ... ويَخْدُرُ ساقاهُ فما يتحرَّكُ

وهل يستوى المرآنِ هذا ابنُ حُرَّةٍ ... وهذا ابنُ أخرى ظهرها متشرِّكُ؟!

---

(١) أخرجه: أحمد فى المسند ٤٦٥٩.

(٢) أخرجه: مسلم فى الإيمان ١٦٦٤.

(٣) أخرجه: مسلم فى كتاب الإيمان ١٦٥٩.

فقال له مسلمة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلى، ولكن كما قال ابن معمر هذه الأبيات:

فما أنكحونا طائعين بناتِهم ... ولكِنْ خَطَبْنَاهُمْ بأرماحِنَا قَسْرَا
فما زادَنا فيها السِّباءُ مذلَّةً ... ولا كلفَتْ خبزًا ولا طبخَتْ قِدْرَا
وكم قد ترى فينا من ابنِ سبيَّةٍ ... إذا لقى الأبطالَ يطعنُهُمْ شَزرَا
ويأخذ ريان الطعان بكفّه ... فيوردها بيضًا ويُصْدِرْها حُمْرَا

فقبل رأسه وعينه وقال: أحسنت يا بنىّ ذاك والله أنت، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق، والله أعلم.

الفصل الثانى فى ذم العبيد والخدم

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بئس المال فى آخر الزمان المماليك» وقال مجاهد: إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين. وقال لقمان لابنه: لا تأمننّ امرأة على سر، ولا تطأ خادمًا تريدها للخدمة. ووصف بعضهم عبدًا فقال: يأكل فارهًا، ويعمل كارهًا، ويبغض قومًا، ويحب نومًا! وقيل لبعضهم: ألك غلام فقال:

وما لى غلامٌ فأدعو به ... سوى مَنْ أبوه أخو عمَّتى

وقال أكثم: الحر حرٌّ وإن مسه الضر، والعبد عبد وإن ألبسته الدُّر. ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه، وله جارية فقصرت فيما ينبغى لهم من الخدمة فقال:

إذا لم يكن فى منزلِ المرء حرّةٌ ... رأى خللاً فيما تولّى الولائدُ
فلا يَتّخِذْ منهنَّ حُرٌّ قعيدةً ... فهنَّ لَعَمْرُ اللّه بئسَ القعائدُ

وكان لرجل غلام من أكسل الناس، فأرسله يومًا يشترى له عنبًا وتينًا، فأبطأ عليه حتى عيل صبره، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال: ينبغى لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضى حاجتين، فمرض الرجل فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر فسأله عنه، فقال: أما ضربتنى وأمرتنى أن أقضى حاجتين فى حاجة فجئتك بالطبيب؛ فإن شفاك الله تعالى وإلا حفر لك هذا قبرك، فهذا طبيب، وهذا حفّار.

وقيل: كان عمرو الأعجمى يلى حكم السند فكتب إلى موسى الهادى أن رجلاً من أشراف الهند من آل المهلب بن أبى صفرة اشترى غلامًا أسود فرباه وتبناه، فلما كبر وشبّ اشتدّ به هوى مولاته فراودها عن نفسها فأجابته، فدخل مولاه يومًا على غفلة منه من حيث لا يعلم فإذا هو على صدر مولاته فعمد إليه، فجبّ ذكره، وتركه يتشحّطُ فى دمه. ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك فعالجه إلى أن برئ من علته، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثأره من مولاه، ويدبر عليه أمرًا يكون فيه شفاء غليله، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل، والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر، فغاب الرجل يومًا عن منزله لبعض الأمور، فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عال فنصبهما هناك، وجعل يعللّهما بالمطعم مرة، وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه فرفع رأسه فرأى ابنيه فى شاهق مع الغلام فقال: ويلك عرضت ابنىَّ للموت. قال: أجل، والله الذى لا يحلف العبد بأعظم منه، لئن لم تجب ذكرك مثل ما جببتنى لأرمينَّ بهما. فقال: الله الله يا ولدى فى تربيتى لك، قال: دع هذا عنك، فوالله ما هى إلا نفسى وإنى لأسمح بها فى شربة ماء، فجعل يكرر عليه، ويتضرع له، وهو لا يقبل ذلك. ويذهب الوالد يريد الصعود إليه فيدليهما من ذلك الشاهق. فقال أبوهما: ويلك فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أردت، ثم أسرع وأخذ مدية فجب نفسه وهو يراه، فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبين من الشاهق فتقطعا وقال: إن جبك لنفسك ثأرى، وقتل أولادك زيادة فيه. فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادى، فكتب موسى

لصاحب السند عمرو الأعجمى بقتل الغلام. وقال: ما سمعت بمثل هذا قط وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود، فما ترى أردأ من العبيد، ولا أقل خيرًا منهم، وأكثرهم رداءة المولدون، لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكره، كأن لم ير منك شيئًا، وكلما أحسنت إليه تمرد، وإن أسأت إليه خضع وذلّ، وقد جربت أنا ذلك كثيرًا، وما أحسن ما قيل:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ مَلَكْتَهُ … وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرَّدَا

وقيل: إن العبد إذا شبع فسق، وإن جاع سرق. وكان جدى لأمى يقول: شر المال تربية العبيد، والمولدون منهم ألأمُ من الزنوج وأردأ، لأن المولد لا يعرف له أبًا، وربما يعرف الزنجى أبويه. ويقال فى المولد بغل لأنه جمنس، والبغل تكون أمه فرسًا، وأبوه حمارًا، وبالعكس فلا تثق بمولد لأنه قل أن يكون فيه خير، وإن كان فذاك نادر لا حكم له.

وأنا أستغفر اللّه العظيم، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل، وصلى اللّه على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلم.

الباب التاسع والخمسون فى أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم(١) وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب أكاذيبهم

للعرب أوابد وعوائد كانوا يرونها فضلاً وقد دلّ على بعضها القرآن العظيم وأكذب اللّه دعاويهم فيها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾(٢) قال أهل اللغة: البحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن، وكان الأخير ذكرًا بحروا أذنها، أى شقوا أذنها، وامتنعوا من ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى. وكان الرجل إذا أعتق عبدًا، قال: هو سائبة، فلا عَقْدَ بينهما ولا ميراث، وأما الوصيلة ففى الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهى لهم، وإن ولدت ذكرًا جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم. وأما الحام فالذكر من الأبل، كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حمى ظهره فلا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾(٣) فالخمر ما خامر العقل ومنه سميت الخمر خمرًا، والميسر القمار، والأنصاب حجارة كانت لهم يعبدونها وهى الأوثان وأحدها نصب، والأزلام سهام كانت لهم مكتوب على بعضها «أمرنى ربى»، وعلى بعضها «نهانى ربى»، فإذا أراد الرجل سفرًا أو أمرًا يهتّم به ضرب بتلك القداح، فإذا خرج الأمر مضى لحاجته، وإذا خرج النهى لم يمض.

ومن أوابدهم وأد البنات أى دفنهن أحياء؛ كانوا فى الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها، وإذا بشّر بها ضاق صدره، وكظم غيظه، وأسودّ وجهه، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿**تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ**﴾(٥)، وقد قيل إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار، وبمكة جبل يقال له أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات. وقيل إن صعصعة جد الفرزدق كان يشترى البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عشراوين وجمل. وفاخر الفرزدق رجلاً عند بعض خلفاء بنى أمية فقال: أنا ابن محيى الموتى. فأنكر الرجل ذلك. فقال: إن اللّه تعالى يقول: ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾(٦).

وأما الرفادة فى الحجّ فكانت خرجًا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالهم إلى قصىّ، فيصنع به طعامًا للحاج فيأكله مَنْ لم يكن له سعة ولا زاد. وذلك أن قصيًا فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش إنكم جيران اللّه، وأهل بيته، وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيوف اللّه، وزوار بيته، وهم أحق ضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج حتى يصدروا(٧) عنكم. ففعلوا، وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه إليهم. وقيل: أول من أقام الرفادة عبد المطلب، وهو الذى حفر بئر زمزم وكانت مطمومة واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلى، وسبعة أسياف، وخمسة دروع

---

(١) الآبدة: باقية الدهر.
(٢) سورة المائدة: ١٠٣.
(٣) سورة المائدة: ٩٠.
(٤) سورة النحل: ٥٨.
(٥) سورة الإسراء: ٣١.
(٦) سورة المائدة: ٣٢.
(٧) يصدروا: يصدِّروكم.

سوابغ[١]، فضرب من الأسياف بباب الكعبة، وجعل أحد الغزالين الذهب صفائح الذهب، وجعل الآخر في الكعبة.

واعلم وفقنى الله وإياك أنه لم يسمع بعُجب أعظم من عجب سعيد بن زرارة، وعبد الله بن زياد التميمي، وابن سماك الأسدى الذين ضرب بهم المثل؛ أمّا سعيد بن زرارة فقيل إنه مرَّت به امرأة، فقالت له: يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا؟ فقال لها: يا هنتاه[٢]، مثلى يكون من عبيد الله. وأما عبد الله بن زياد التميمى فقيل إنه خطب بالناس بالبصرة فأحسن وأوجز فنودى من نواحى المسجد: كثّر الله فينا مثلك. فقال: لقد كلفتم الله شططًا. وأما ابن سماك فأنه أضل راحلته فالتمسها فلم توجد. فقال: والله لئن لم يرد راحلتى على لا صليت له أبدًا، فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر. فقيل له: قد رد الله عليك راحلتك فصلِّ. فقال: إنما كانت يمينى يمينًا قصدًا. فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثًا مستبشعًا ومثلاً بين العالمين مستشنعًا، نعوذ بالله من الخذلان المؤدى إلى النيران، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وحكى عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه قيل له: كيف وجدت منزلك بالعراق؟ قال: خير منزل، إن الله أظفرنى بأناس بلغنى الأمل فيهم، وأعاننى على الإنتقام منهم، فكنت أتقرب إليه بدمائهم. فقيل له: مَنْ هم؟ فذكر هؤلاء الثلاثة وذكر حديثهم، ولا محالة أنها من محاسن الحجاج، وإن قَلّتْ فى جنب سيئاته، والله تعالى أعلم.

ذكر أديان العرب فى الجاهلية

كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة. وكانت اليهودية فى نمير وبنى كنانة، وبنى الحرث بن كعب، وكندة. وكانت المجوسية في بنى تميم منهم زرارة بن عدى، وابنه على، وكان تزوج ابنته ثم ندم، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسيًّا. وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الجزيرة. وكانت بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية صنمًا من حيْس[٣] فعبدوه دهرًا ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه. وقد قيل إن أول مَنْ غير الحنيفية عمرو بن لحى أبو خزاعة، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام فأعجبه ذلك. فقال: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها؟ قالوا: هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال: أعطونى منها صنمًا أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه. فأعطوه صنمًا يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وقيل: إن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى إسماعيل، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حتى ضاقت عليهم، وتفرقوا فى البلاد؛ وما من أحد إلا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوه من الحجارة، ثم خلفت الخلوف، ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال.

---

(١) سوابغ: طويلة.

(٢) يا هنتاه: يا مصيبتى.

(٣) الحَيْس: خليط من تمر ودقيق وغيره.

وكانت قريش قد اتخذت صنمًا على بئر في جوف الكعبة، يقال له: هبل. وأيضًا اتخذوا إسافًا ونائلة على موضع زمزم فينحرون عندها ويطعمون. وكان إساف ونائلة رجلاً وامرأة فوقع إساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله حجرين.

واتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه، فإذا أراد الرجل سفرًا تمسح به حين يركب، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله، واتخذت العرب الأصنام وانهمكوا على عبادتها، وكانت لقريش وبني كنانة: العزّى وكان حجابها بني شيبة، وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان حجابها بني مغيث من ثقيف، وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم. وأما يغوث ويعوق ونسر فقيل: إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه الصلاة والسلام، وكانوا أتقياء عبادًا، فمات أحدهم فحزنوا عليه حزنًا شديدًا، فجاءهم الشيطان وحسّن لهم أن يصوّروا صورته في قبلة مسجدهم ليذكروه إذا نظروا فكرهوا ذلك. فقال: اجعلوه في مؤخر المسجد، ففعلوا وصوّروه من صفر[١] ورصاص، ثم مات آخر ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم فصوّرهم هناك وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين، وحسّن لهم الشيطان عبادة شئ غير اللّه، فقالوا له: مَنْ نعبد؟ قال: آلهتكم المصوّرة في مصلاكم، فعبدوها، إلى أن بعث اللّه نوحًا عليه الصلاة والسلام فنهاهم عن عبادتهم، فقالوا كما أخبر اللّه عنهم: ﴿**وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا**﴾[٢] الآية. ولما عمَّ الطوفانُ الأرضَ طمَّها وعلا عليها التراب زمانًا طويلاً فأخرجها الشيطان لمشركي العرب فعبدوها.

وذكر الواحدي في «الوسيط» أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، فسوّل الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوّروا صورهم ليكون أنشط لهم وأشوق للعبادة كلما رأوهم، ففعلوا، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال فحسَّن لهم عبادتها، وأن من سبقهم من قومهم عبدوها فسموها بأسمائهم.

وقال الواقدي: كان ودّ على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، واللّه تعالى أعلم أيّ ذلك كان.

ذكر أوابدهم

الرتم: شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصنًا منها، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحلّ قال قد خانتني امرأتي، وإن وجده على حالته قال لم تخني.

الرتيمة: ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدّوا عينيها حتى تموت، يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها.

التعمية والتفقئة: كان الرجل إذا بلغت إبله ألفًا قلع عين الفحل يقولون: إن ذلك يدفع عنها العين، فإذا زادت عن الألف فقأ عينه الأخرى.

العرّ: داء يصيب الإبل، شبه الجرب، كانوا يكوون السليمة، ويزعمون أن ذلك يبرئ داء العرّ.

ضرب الثور عن البقر: كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضربوا الثور، يزعمون أن الجنّ يركبون الثيران فيصدّون البقر عن الشرب.

الهامة: كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل و لم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو كالبومة فلا يزال يصيح على قبره: اسقوني إلى أن يؤخذ بثأره.

---

(١) صفر: نحاس.

(٢) سورة نوح:٢٣.

وكان للعرب مذاهب فى الجاهلية فى النفس، وتنازع فى كيفياتها؛ فمنهم مَنْ زعم أن النفس هى الدم، وأن الروح الهواء الذى فى باطن جسم الإنسان الذى منه نفسه، وقالوا: إنّ الميت لا يوجد فيه الدم وإنما يوجد فى الحياة مع الحرارة والرطوبة، لأنّ كل حى فيه حرارة ورطوبة؛ فإذا مات ذهبت حرارته، وحلّ به اليبس والبرودة. وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل، ولا يزال متصورًا فى صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشًا له، وفى ذلك يقول بعضهم:

سُلطَ الموتُ والمنونُ عليهِمْ ... فلهم فى صَدَى المقابرِ هامُ

ثم جاء الإسلام والعرب ترى صحة أمر الهام حتى قال النبى صلى اللّه عليه وسلم: «لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هام»[1] وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيرًا ويكبر حتى يصير كضرب من البوم، ويتوحش ويصرخ ويوجد فى الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى، ويزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت.

والصفر: زعموا أن الإنسان إذا جاع عضّ على شرسوفه[2] الصفر، وهى حية تكون فى البطن.

تثنية الضربة: زعموا أن الحية تموت فى أوّل ضربة فإذا ثنيت عاشت.

الغيلان والتغوّل: للعرب فى الغيلان والتغوّل أخبار وأقاويل، يزعمون أن الغول يتغوّل لهم فى الخلوات فى أنواع الصور فيخاطبونها وتخاطبهم، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشؤوم وأنه خرج منفردًا لم يستأنس وتوحش وطلب القفار وهو يشبه الإنسان والبهيمة ويتراءى لبعض السفار فى أوقات الخلوات وفى الليل.

وحكى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه رآه فى سفره إلى الشام فضربه بالسيف. وقال الجاحظ: الغول كلّ شئ يتعرّض للسيارة ويتلّون فى ضروب من الصور والثياب وفيه خلاف. وقالوا: إنه ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى.

وأما القطرب فى قولهم فهو نوع من الأشخاص المتشيطنة يعرف بهذا الاسم فيظهر فى أكناف اليمن، وصعيد مصر فى أعاليه، وربما إنه يلحق الإنسان فينكحه فيدوّد دبره فيموت، وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحى التى ذكرناها: أمنكوح هو أو مذعور؟ فإن كان قد نكحه أيسوا منه، وإن كان قد ذعر سكن روعه، وشجع قلبه، وإذا رآه الإنسان وقع مغشيًا عليه، ومنهم مَنْ يظهر له فلا يكترث به لشهامته وثبات قلبه.

ذكر الهواتف

أما الهواتف فقد كانت كثرت فى العرب، وكان أكثرها أيام وُلِدَ سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وأن من حكم الهواتف أن يهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئى. ومن عجيب ما حكى من أمر الهواتف ما حكاه أبو عمرو ابن العلاء قال: خرجنا حجاجًا فصاحبنا رجل وجعل يقول فى طريقه: ليت شعرى هل بغت علىّ؟ فلما انصرفنا من مكة قالها فى بعض الطريق فأجابه صوت فى الظلام:

نعم نعم وناكهَا حجيَّهْ ... وهو رجل أحمر ضخم فى قفاه كيَّهْ[3]

فسكت الرجل. فلما سرنا إلى البصرة، أخبرنا ذلك الرجل قال: دخل جيرانى يسلمون علىَّ فإذا فيهم رجل

---

(١) أخرجه: البخارى فى الطب ٥٧٥٣.

(٢) شرسوفه: طرف الضلع جهة البطن.

(٣) قفاه كيَّه: طرف عنقه الخلفى.

أحمر ضخم في قفاه كية فقلت لأهلي: مَنْ هذا؟ قالت: رجل كان ألطف جيراننا بنا فجزاه الله خيرًا، فسألتها عن اسمه فقالت: حجية. فقلت: إلحقى بأهلك.

وأما بكاء المقتول فكانت النساء لا يبكين المقتول حتى يؤخذ بثأره فإذا أخذ بثأره بكينه.

وأما رمى السنّ فكانوا يزعمون أن الغلام إذا أثغر فرمى سنه فى عين الشمس بسبابته وإبهامه وقال: أبدلينى بأحسن منها فإنه يأمن على أسنانه العوج والفلج.

وأما خضاب النحر، فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة.

وأما نصب الراية فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها.

وأما جزّ النواصى، فكانوا إذا أسروا رجلاً ومنُّوا عليه وأطلقوه جزوا ناصيته[١] .

وأما الالتفات، فكانوا يزعمون أن من خرج فى سفر والتفت وراءه لم يتمّ سفره، فإن التفت تطيروا له.

وكانوا يقولون: من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر، وذلك أن الجنّ تهرب من الأرنب لأنها تحيض، وليست من مطايا الجن. ويزعمون أن المرأة إذا أحبت رجلاً وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبهما. ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباؤها. ويزعمون أن الحرقوص - وهو دويبة أكبر من البرغوث - تدخل فى فروج الأبكار فتفتضهن. ويزعمون أن الرجل إذا ضل فقلب ثيابه اهتدى. وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت[٢] وذكر اسم أمها فإنها تسكن. وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر، وتسمى السلوان. ونكاح المقت من سنتهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له بها حاجة زوّجها لبعض إخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون النكاح كما يرثون المال.

ولهم حكايات عجيبة وأحوال غريبة والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) ناصيته: مقدمة شعر الرأس.

(٢) نفرت: شست.

الباب الستون فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤيا وما أشبه ذلك

أما الكهانة: فكانت فاشية فى الجاهلية حتى جاء الإسلام فلم يسمع فيه بكاهن، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها. وللكهنة أخبار، فمنهم سطيح ورد عليه عبد المسيح وهو يعالج الموت وأخبره - على ما يزعمون - بما جاء لأجله، وذلك أن الموبذان رأى إبلاً صعابًا تقود خيلاً عرابًا وقد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها، فلما أصبح أعلم كسرى بذلك فتصبر كسرى تشجعًا، ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ورؤساء مملكته، فلبس تاجه وقعد على سريره، وجمع وزراءه ورؤساء مملكته فأخبرهم بالخبر، فبينما هم كذلك إذا ورد عليهم كتاب بخمود النيران، وارتجاس الإيوان، فازدادوا غمًّا على غمهم. فكتب كسرى كتابًا إلى النعمان بن المنذر: أما بعد فَوَجِّهْ إلىّ رجلاً عالمًا بما أريد أن أسأله عنه. فوجَّهَ إليه عبد المسيح الغسانى. فقال له كسرى: أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرنى الملك، فإن كان عندى علم منه، وإلا أخبرته بمَنْ يعلمه به، فأخبره بما رآه الموبذان، فقال: علم ذلك عند كاهن يسكن مشارف الشام يقال له سطيح. قال: فَأْتِهِ فاسأله عما سألتك وائتنى بالجواب. فركب عبد المسيح وتوجه إلى سطيح فوجده قد أشرف على الضريح فسلم عليه وحياه و لم يخبره عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشده شعرًا يذكر فيه أنه جاء برسالة من قبل ملك العجم، و لم يذكر له السبب. فرفع رأسه وقال: عبد المسيح على جمل يسيح إلى سطيح بعثك ملك بنى ساسان لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعابًا تقود خيلاً عرابًا، قد قطعت الدجلة وانتشرت فى بلادها. يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة وفاض وادى سماوة، وغاصت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شامًا، ولا العجم لعبد المسيح مقامًا، يرتفع أمر العرب، وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب، يملك منهم ملوكًا وملكات بعدد الشرافات، وكل ما هو آت آت. ثم قضى سطيح مكانه، فسار عبد المسيح إلى راحلته وعاد فأخبر كسرى بذلك.

وحكى أن ربيعة بن مضر اللخمى رأى منامًا هاله فأراد تفسيره فقال له أهل مملكته: ما يفسره لك إلا شق وسطيح. فأحضرهما وقال لسطيح: إنى رأيت منامًا هالنى فإن عرفته أصبت تفسيره. فقال: رأيت جمجمة خرجت من ظلمة، فوقعت بأرض نهمة، فأكل منها كل ذات جمجمة. فقال له الملك: ما أخطأت شيئًا فما تفسيره؟ قال: ليهبطنّ بأرضك الحبش، وتملك ما بين أبين إلى جرش. فقال الملك إن هذا لغائظ موجع، فمتى هو كائن، أفى زمانى أم بعده؟ قال: بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين تمضى من السنين، ثم يقتتلون بها أجمعين ويخرجون منها هاربين. قال: ومن ذا الذى يملك بعدهم؟ قال: أراه ذا يزن يخرج عليهم من عدن فما يترك منهم أحدًا باليمن. قال الملك: فيدوم ذلك أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبى زكى يأتيه الوحى من العلىّ. قال: وممن يكون هذا النبى؟ قال: من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر يكون فى قومه الملك إلى آخر الدّهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، ويسعد فيه المحسنون، ويشقى المسيئون. قال: أَوَ حَقٌّ ما تخبر؟ قال: والشفق والقمر إذا اتسق إن ما أنبأتك به لحق. ثم دعا بشق، فقال مثل ما قال سطيح.

ومن ذلك ما حكى أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المفاخرة. فقال له هاشم: أفاخرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة، فرضى أمية بذلك، وجعل بينهما الخزاعى الكاهن حكمًا، فخبأوا له شيئًا وخرجا إليه ومعهما جماعة من قومهما. فقالوا: قد خبأنا لك خبيئًا فإن علمته تحاكمنا إليك، وإن لم تعلمه

تحاكمنا إلى غيرك. فقال: لقد خبأتم لى كيت وكيت. قالوا: صدقت احكم بين هاشم بن عبد مناف، وبين أمية بن عبد شمس، أيهما أشرف بيتًا ونسبًا ونفسًا. فقال: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر، ولأمية أواخر، فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حَضَرَ. وخرج أمية إلى الشام وأقام بها عشر سنين. ويقال إنها أول عداوة وقعت بين بنى هاشم وبنى أمية.

وحكى أن هند بنت عتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه بن المغيرة، وكان الفاكه من فتيان قريش، وكان له بيت ضيافة خارجًا عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند ثم نهض لحاجة، فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه، فلما رأى هندًا رجع هاربًا، فلما نظره الفاكه دخل عليها فضربها برجله، وقال لها: مَنْ هذا الذى خرج من عندك؟. قالت: ما رأيت أحدًا قط وما انتبهت حتى نبهتنى. قال: فارجعي إلى بيت أبيك. وتكلم الناس فيها، فقال أبوها: يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام، فإن يكن الرجل صادقًا دسيتُ عليه مَنْ يقتله لينقطع كلام الناس، وإن يكُ كاذبًا حاكمته إلى بعض كهان اليمن. فقالت له: لا والله ما هو على بصادق. فقال له: يا فاكه إنك قد رميتَ ابنتى بأمر عظيم فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن. فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم، وخرج أبوها فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة فلما شارفوا البلاد قالوا: غدًا نرد على هذا الرجل. فتغيرت حالة هند فقال لها أبوها: إنى أرى حالك قد تغير وما هذا إلا لمكروه عندك! فقالت: لا والله ولكن أعرف أنكم تأتون بشرًا يخطئ ويصيب، ولا آمنه أن يسمنى بسيماء تكون علىَّ سبَّةً. فقال لها: لا تخشى فسوف اختبره، فصفر لفرسه حتى أدلى، ثم أدخل فى إحليله حبة حنطة وربطه، فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم، فلما تغدوا قال له عتبة: قد جئناك فى أمر وقد خبأنا خبيئة نختبرك بها. قال خبأتم لى ثمرة فى كمرة. قال: إنى أريد أبين من هذا. قال: حبة برّ فى إحليل مهر، قال: فانظر فى أمر هؤلاء النسوة فجعل يأتى إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها ويقول لها: انهضى، حتى بلغ هندًا فقال: انهضى غير رسحاء[1] ولا زانية وستلدين ملكًا اسمه معاوية. فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها فجذبت يدها من يده. وقالت: إليك عنى فوالله إنى لأحرص أن يكون ذلك من غيرك. فتزوجها أبو سفيان، فولدت منه أمير المؤمنين معاوية رضى الله تعالى عنه.

وأما القيامة فهى على ضربين: قيافة البشر وقيافة الأثر. فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان، وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج يعرض على أحدهم مولود فى عشرين نفرًا فيلحقه بأحدهم.

وحكى عن بعض أبناء التجار أنه كان فى بعض أسفاره راكبًا على بعيره يقوده غلام أسود، فمرّ بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال: ما أشبه الراكب بالقائد. قال ولد التاجر: فوقع فى نفسى من ذلك شئ، فلما رجعت إلى أمى ذكرت لها القصة. فقالت: يا ولدى إن أباك كان شيخًا كبيرًا ذا مال وليس له ولد، فخشيت أن يفوتنا ماله فمكنت هذا الغلام من نفسى فحملت بك ولولا أن هذا شئ ستعلمه غدًا فى الدار الأخرة لما أعلمتك به فى الدنيا.

وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف، وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل، إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق، تتبعوا آثار قدمه فيظفروا به، ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ، والمرأة من الرجل، والبكر من الثيب، والغريب عن المستوطن، ويذكر أن فى قطية وثغر البرلس أقوامًا بهذه الصفة. وقد وقعت من قريش حين خرج النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد،

(١) رسحاء: أى غير عجفاء نحيلة بل مكتنزة.

وأحجار صم، ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام فحجبهم اللّه تعالى عن نبيه صلى اللّه عليه وسلم وبما كان من نسيج العنكبوت، وما لحق القائف[١] من الحيرة، وقوله: إلى ههنا انتهت الأقدام، هذا ومعهم الجماعة من قريش وأبصارهم سليمة، ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الإنسان فيها يعنى فى عملها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى. وقيل: القيافة لبنى مدلج فى أحياء مضر.

واختلف رجلان من القافة فى أمر بعير، وهما بين مكة ومنى، فقال: أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هى ناقة، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بنى عامر، فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه: أهو ذا؟ قال: نعم. فوجداه خنثى فأصابا جميعًا. ومنهم من كان يخط الرمل فى الأرض ويقول فيوافق قوله ما يأتى بعد.

وقال رجل: شردت لى إبل فجئت إلى خراش فسألته عنها، فأمر ابنته أن تخط لى فى الأرض فخطت، ثم قامت، فضحك خراش ثم قال: أتدرى قيامها لأى شئ؟ قلت: لا، قال: قد علمت أنك تجد إبلك وتتزوّجها فاستحيت، ثم خرجت فوجدت إبلى ثم تزوّجتها.

وخرج عمرو بن عبد اللّه بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعى غازيين فمرا بامرأة وهى تخط للناس فى الأرض، فضحك منها مالك هزوًا وقال: ما هذا؟ فقالت: أما واللّه لا تخرجنّ من سجستان حتى تموت، ويتزوّج عمرو هذا زوجتك، فكان كما ذكرت.

وأما الزجر والعرافة، فأحسنه ما روى أن كسرى أبرويز بعث إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم حيث بعث زاجرًا ومصوّرًا، فقال للزاجر: انظر ما ترى فى طريقك وعنده، وقال للمصوّر: ائتنى بصورته، فلما عاد إليه أعطاه المصوّر صورته صلى اللّه عليه وسلم فوضعها كسرى على وسادته، ثم قال للزاجر: ماذا رأيت؟ قال: ما رأيت ما أزجر به إلا أنه سيعلو أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك.

وبعث صاحب الروم إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم رسولاً وقال له: انظر إليه، ومل إلى جانبه، وانظر إلى ما بين كتفيه حتى ترى الخاتم والشامة. فقدم الرسول فرأى النبى صلى اللّه عليه وسلم على نشز عال واضعًا قدميه فى الماء، وعن يمينه على رضى اللّه تعالى عنه، فلما رآه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال له: «تحوَّلْ فانظُرْ ما أمِرت به» فنظر الرسول، فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر، فقال: ليعلوّن أمره وليملكنَّ ما تحت قدمى، فتفاءل بالنشز، العلوّ. وبالماء، الحياة.

وقال المدائنى: وقع الطاعون بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان حين أتاها فخرج هاربًا ونزل بقرية من قرى الصعيد، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان. فقال للرسول: ما اسمك؟ قال: طالب بن مدرك. فقال: أواه لا أظنّ أنى أرجع إلى الفسطاط، فمات ولم يرجع.

وكانت نائلة بنت عمار الكلبى تحت معاوية، فقال لفاختة بنت قرظة: اذهبى فانظرى إليها، فذهبت ونظرت فقالت: ما رأيت مثلها، ولكنى رأيت تحت سرتها خالاً ليوضعن معه رأس زوجها فى حجرها. فطلقها معاوية وتزوجها بعده رجلان، حبيب بن مسلمة، والنعمان بن بشير، فقتل أحدهما ووضع رأسه فى حجرها.

وبينما مروان بن محمد جالس فى إيوانه يتفقد الأمور إذا تصدعت زجاجة من الإيوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان، وكان هناك عرّاف - وقيل: قياف - فقام فتبعه ثوبان، مولى مروان فسأله فقال: صدع الزجاج صدع السلطان، ستذهب الشمس بملك مروان، بقوم من الترك أو خراسان، ذلك عندى واضح البرهان. فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان. وروى المدائنى أن عليًّا رضى اللّه تعالى عنه بعث معقلاً فى ثلاثة آلف ليقيم بالرقة، وذلك فى وقعة صفين، فسار حتى نزل الحديبة، فبينما هو ذات يوم جالس، إذا نظر إلى

---

(١) القائف: الذى يتبع الأثر.

كبشين ينتطحان فجاء رجلان فأخذ كل منهما كبشًا فذهب به. فقال شدّاد بن أبى ربيعة الخثعمى الزاجر: إنكم لتنصرفون من موجهكم هذا لا تَغْلبون ولا تُغْلبون. أما ترى الكبشين كيف انتطحا حتى حجز بينهما فتفرّقا ولا فضل لأحدهما على الآخر!

وحكى أن الإسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوبًا فلما رأته قالت له: أيها الملك قد أعطيت ملكًا ذا طول وعرض. ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت: ستعزل من الملك. قال: فغضب عند ذلك. فقالت له: لا تغضب؛ فإنك فى المرة الأولى دخلت علىَّ والشقة بيدى أدير طولها وعرضها، ودخلت علىَّ الآن والشقة فى يدىَّ أريد قطعها لأنى فرغت من نسجها فلا تغضب؛ فإن النفوس تعلم أشياء بعلامات. قال الراوى: فكان كذلك.

وحكى أن سيف بن ذى يزن لما استنجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش عظيم، فخرج إليه ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة فى مائة جلف من الحبشة، وكان بين عينيه ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب على تاجه تضئ كالنور وهو على فيل عظيم. قال: وكان فى عسكر ذى يزن رجل يقال له زهير، فتأمل ذلك منه ثم قال لأميره: اصبر لننظر إلى ما يكون من أمره. قال: فتحوّل مسروق من الفيل إلى جمل، فقال: اصبر. فتحوّل بعد ذلك إلى فرس، ثم إلى بغل، ثم إلى حمار وكأنه أنف من مقاتلتهم على شئ من ذلك إلا على حمار، لما أنه استصغرهم واستحقرهم، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى، وقال: احملوا عليهم فإن ملكهم قد ذهب فإنه انتقل من كبير إلى صغير. فحملوا عليهم فكسرهم وقتل الملك.

وحكى أنه كان عرّاف من الطرقيين ببغداد يخبر بما يُسأل عنه فلم يخطئ، فسأله رجل عن شخص محبوس هل ينطلق؟ قال: نعم، ويخلع عليه. قال: فقلت له: بأى شئ عرفت ذلك؟ فقال: إنك لما سألتنى التفت يمينًا وشمالاً فوجدت رجلاً على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأوّلت الماء بالمحبوس، وتفريغه بالانطلاق، ووضعها على كتفه بالخلعة، قال: وكان الأمر كذلك.

وأما الفأل: فقد روى أن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن، وروى أنه صلى اللّٰه عليه وسلم لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له: «يا بشار، ويا سالم» فقال صلى اللّٰه عليه وسلم لأبى بكر رضى اللّٰه تعالى عنه: «أبْشِرْ يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار».

وقال الأصمعى: سألت ابن عون عن الفأل قال: هو أن يكون مريض، فيسمع يا سالم، أو طالب حاجة فيسمع يا واحد وما أشبه ذلك.

وأما الطيرة: فقد كان صلى اللّٰه عليه وسلم يحبّ الفأل ويكره الطيرة. وقيل: ذكرت الطيرة عند رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فقال: «من عرض له من هذه الطيرة شئ فليقل: اللّهمَّ لا طير إلاّ طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه العلى العظيم» وعنه صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «ليس منا مَنْ تطير أو تطير له، أو تكهن له» وعن ابن عباس رضى اللّٰه تعالى عنهما رفعه: «من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر». وعن أبى هريرة رضى اللّٰه تعالى عنه رفعه: «من أتى كاهنًا فصدقه فيما يقول، أو أتى امرأته حائضًا، أو أتى امرأته فى دبرها فقد برئ مما نزل على محمد». وأنشد المبرد هذه الأبيات يقول:

لا يعلمُ المرءُ ليلاً ما يصبحُهُ ... إلا كواذبَ ما يجرى به الفالُ
والفالُ والزجرُ والكهانُ كلهم ... مُضَلّلونَ ودونَ الغيبِ أقفالُ

وقال لبيد:

لَعَمْرِى ما تدرى الطوارقُ بالحَصَى ... ولا زاجراتُ الطيرِ ما اللّٰه صانعُ

وقال آخر:

تعلَّمْ أنــــهُ لا طــــير إلا على متطــيِّرٍ وَهُــوَ الثبــورُ
علـى شـىءٍ يوافـقُ بعـضَ شـىءٍ أحايينــاً وباطِلُـــهُ كثـــيرُ

وكانت العرب تتطير بأشياء منها العطاس. وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها العاطوس كانوا يكرهونها، وكانوا إذا أرادوا سفرًا خرجوا من الغلس، والطير فى أوكارها على الشجر فيطيرونها، فإن أخذت يمينًا أخذوا يمينًا، وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً، ومنه قول امرئ القيس:

وقد أغتدى والطيرُ فى وكُنَاتِهَا بمنجردٍ قَيْدِ الأوبادِ هيكلِ(١)
مكرّ مفرّ مُقبلٍ مُدبرٍ معًا كجلمود صخرٍ حطّهُ السيلُ من علِ

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب. فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد، ويسمونه حاتمًا لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير إذا كان أصح الطير بصرًا. وفيه يقول بعضهم:

إذا ما غرابُ البَيْن صاحَ فَقُلْ له تَرَفَّقْ رماك اللّه يا طيرُ بالبعدِ
لأنت على العشاقِ أقبحُ منظرٍ وأبشعُ فى الأبصارِ من رؤية اللحدِ
تصيحُ بَبْينٍ ثم تعثرُ ماشيًا وتبرزُ فى ثوبٍ من الحزنِ مسوّدِ
متى صِحْتَ صَحَّ البينُ وانقطعَ الرجا كأنكَ من يومِ الفراق على وَعْدِ

وأعرض بعضهم عن الغراب، وتطير بالإبل، وذلك لكونها تحمل أثقال من ارتحل، وفى ذلك قال بعضهم مفردًا وأجاد:

زعموا بأنَّ مطيَّهُم سببُ النوى والمؤذناتُ بفرقةِ الأحبابِ

وقالوا: مَنْ تطير من شئ وقع به. وحكى عن إبراهيم بن المهدى قال: أرسل إلى محمد بن زبيدة فى ليلة من ليالى الصيف المقمرة يقول: يا عم، إنى مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا. فجئته وقد بسط له على سطح زبيدة، وعنده سليمان بن أبى جعفر وجاريته نعيم. فقال لها: غنينا شيئًا فقد سررت بعمومتى. فغنت وهى تقول هذه الآبيات:

هُمُ قتلوهُ كى يكونُوا مكانَهُ كما فَعَلتْ يومًا بكسرى مرازِبُهْ(٢)
نبى هاشم كيف التواصلُ بيننا وجندُ أخيه سيفَهُ ونجائبُهْ

فقال: فغضب وتطير، وقال لها: ما قصتك؟ ويحك، انتبهى وغنى ما يسرنى، فغنت تقول:

كليبٌ لعمرى كان أكثر ناصرًا وأكثر حزمًا منك ضُرِّجَ بالدمِ

فقال لها: ويحك! ما هذا الغناء فى هذه الليلة؟ غنى غير هذا، فغنت هذه الأبيات:

ما زالَ يعدُو عليهم ريبُ دهرهم حتى تفانَوْا وريبُ الدهرِ عَدَّاءُ
تبكى فراقَهُم عينى فأرّقَها إن التفرُّقَ للمشتاق بكّاءُ

قال: فانتهرها. وقال لها: قومى إلى لعنة اللّه. فقالت: واللّه يا مولاى لم يجر على لسانى غير هذا، وما ظننت إلا أنك تحبه، ثم أنها قامت من بين يديه. وكان بين يديه قدح بلور كان أبوه يحبه فأصابه طرف ردائها فانكسر.

---

(١) هيكلٍ: يصف فرسه بأنه ذو عضلات يفزع الوحوش بضخامته.
(٢) مرازِبُه: أعوانه.

قال إبراهيم بن المهدى: فالتفت إلىّ وقال: يا عمى، أرى أن هذا آخر أمرنا. فقلت: كلا بل يبقيك اللّـه، يـا أمير المؤمنين، ويسرك. فسمعت هاتفًا يقول: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ فقال لى: أسمعت ما سمعت يـا عـم؟ فقلت: ما سمعت شيئًا، وما هذا إلا توهُّم. فإذا الصوت قد علا، فقال: يا عم إذهب إلى بيتك فمحـال أن يكـون بعد هذا اجتماع.

قال: فانصرفت من عنده وكان هذا آخر عهدى به.

وخرج أبو الشمقمق مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل فلما أراد الدخول إليها اندقَّ لواؤه فـى أول درب منها فتطير لذلك، فأنشده أبو الشمقمق يقول:

مـا كـان منـدقُّ اللـواء لريبـةٍ تَخشـى ولا أمـرٍ يكـونُ مبـدَّلا
لكـنَّ هـذا الرمـح ضعَّـفَ متنَـهُ صغـرُ الولايـة فاسـتقلَّ الموصـلا

فسرَّ خالد وأمر لأبى الشمقمق بعشرة آلاف درهم.

ودخل الحجاج الكوفة متوجهًا إلى عبد الملك فصعد المنبر، فانكسر تحت قدمه لوح فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد اللّه تعالى فقال: شاهت[1] الوجوه، وتبت الأيدى، وبؤتم[2] بغضب من اللّه، إذا انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم، وإنى على أعداء اللّه، تعـالى لأنكـد مـن الغراب الأبقع، وأشأم من يوم نحس مستمر، وإنى لأعجب من لوط وقوله: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[3] فأى ركن أشد من اللّه تعالى، أو ما علمتم ما أنا عليـه مـن التوجه إلى أمير المؤمنين، وقد وليت عليكم أخى محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول اللّـه صلى اللّه عليه وسلم معاذًا فى أهل اليمن، فإنه أمره أن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم، وقد أمرته أن يسئ إلى محسنكم وأن لا يتجاوز عن مسيئكم، وأنا أعلم أنكم تقولون بعدى لا أحسن اللّه له الصحابة، وأنا معجل لكم الجواب، لا أحسن اللّه عليكم الخلافة، أقول قولى هذا واستغفر اللّه العظيم لى ولكم.

وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد فأول من استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه، ثـم ذهـب للصيـد فاصطـاد صيدًا كثيرًا، فلما عاد استدعى بالأعور فأمر له بمال. فقال: لا حاجة لى بـه، ولكـن ائـذن لى فـى الكـلام فقـال: تكلم، فقال: أيها الملك إنك تلقيتنـى فضربتنى وحبستنى وتلقيتـك فصـدت وسـلمت فأينـا أشـأم صباحًـا على صاحبه؟ فضحك منه وأمر له بصلة.

وحكى أيضًا أن صاحب قرطبة أصابه وجع فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجعه فقالت:

هـذى الليـالى عَلِمْنـا أن سـتطوينَا فشعشـعينا[4] بمـاءِ المـزنِ واسـقينا

فقال: فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات.

وحكى أن نور الدين محمود وهمام الدين ركبا فى يـوم عيـد وخرجـا للتفرج فتجاولا فـى الكـلام ثـم قـال محمود: يا مَنْ درى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم؟ فقال له همام الدين: هل نعيش إلى آخر هذا الشهر؟ فـإن العـام كثير.

قال: فأجرى اللّه على منطقهما ما كان مقدرًا فى الأزل، فمات أحدهما قبل تمام الشهر، ومـات الآخـر قبـل تمام العام.

---

(١) شاهت: ساءت.
(٢) بؤتم: عُدتم.
(٣) سورة هود: ٨٠.
(٤) شعشعينا: أبردى صدورنا.

وأما الفراسة فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وقال على رضى الله تعالى عنه: ما أضمر أحد شيئًا إلا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه. وقيل: أشار ابن عباس رضى الله تعالى عنهما على على رضى الله تعالى عنه بشئ فلم يعمل به ثم ندم فقال: يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وحكى أبو سعيد الخراز أنه كان فى الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته، فأنفت نفسى منه، فتفرّس ذلك منى فقرأ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[٢] فندمت واستغفرت الله فى قلبى، فتفرّس ذلك أيضًا فقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[٣] .

وحكى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلاً فقال أحدهما: إنه نجار، وقال الآخر: إنه حدّاد، فسألاه عن صنعته، فقال: كنت حدّادًا وأنا الآن نجار.

وحكى أن شخصًا من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة فقال له: اجلس فإنى أشم من كلامك رائحة الكفر، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل، فوصل إلى القسطنطينية فدخل فى دين النصرانية. قال من رآه: ولقد رأيته متكئًا على دكة وبيده مروحة يروّح بها عليه، فقلت: السلام عليك يا فلان، فسلم علىّ وتعارفنا، ثم قلت له بعد ذلك: هل القرآن باق على حاله أم لا؟ فقال لى: لا أذكر منه إلا آية واحدة وهى قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[٤] ، قال: فبكيت عليه وتركته وانصرفت. وكان الحسن بن السقاء من موالى بنى سليم ولم يكن فى الأرض أحزر منه؛ كان ينظر إلى السفينة فيحزر ما فيها فلا يخطئ، وكان حزره للمكيول والموزون والمعدود سواء، كان يقول: فى هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا، ويأخذ العود الآس فيقول: فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطئ.

وقالوا: إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشئ: ما عند الله خير وأبقى فاعلم أن فى جواره وليمة ولم يدع إليها. وإذا رأيت قومًا يخرجون من عند قاض وهم يقولون: ما شهدنا إلا بما علمنا فاعلم أن شهادتهم لم تقبل. وإذا قيل للمتزوّج صبيحة البناء على أهله: كيف ما تقدّمت عليه؟ فقال: الصلاح خير من كل شئ، فاعلم أن امرأته قبيحة. وإذا رأيت إنسانًا يمشى ويلتفت فاعلم أنه يريد أن يحدث، وإذا رأيت فقيرًا يعدو ويهرول فاعلم أنه فى حاجة غنى. وإذا رأيت رجلاً خارجًا من عند الوالى وهو يقول: يد الله فوق أيديهم فاعلم أنه صفع.

ويقال: عين المرء عنوان قلبه. وكانوا يقولون: عظم الجبين يدل على البله، وعرضه تدل على قلة العقل، وصغره يدل على لطف الحركة. وإذا وقع الحاجب على العين دلّ على الحسد، والعين المتوسطة فى حجمها دليل الفطنة وحسن الخلق والمروءة، والتى يطول تحديقها تدل على الحمق، والتى يكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر فى الأذن يدل على جودة السمع، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان. وكانت الفرس تقول: إذا فشا الموت فى الوحوش دل على ضيقة، وإذا فشا فى الفأر دل على الخصب. وإذا نعق غراب فجاوبته دجاجة عمر الخراب. وإذا قوّقت دجاجة فجاوبها غراب خرب العمار، والله أعلم بكل شئ، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٥] .

---

(١) سورة الحجر: ٧٥.
(٢) سورة البقرة: ٢٣٥.
(٣) سورة الشورى: ٢٥.
(٤) سورة الحجر: ٢.
(٥) سورة الأنعام: ٥٩.

وأما النوم والسهر وما جاء فيهما: فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أشرف أمتى حملة القرآن وأصحاب الليل». وروى أن أم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام قالت له: يا بنى لا تكثر النوم بالليل فإن صاحب النوم يجئ يوم القيامة مفلسًا. وكان زمعة بن صالح يصلى ليلاً طويلاً فإذا أسحر نادى أهله:

يا أيها الركبُ المُعَرِّسونا[1] ... أكلَّ هذا الليلِ ترقدونا؟!

فيتواثبون بين باكٍ وداعٍ ومتضرّع، فإذا أصبح نادى: عند الصباح يحمد القوم السُّرى.

وأنشدوا:

يا أيُّها الراقدُ كم ترقدُ ... قُمْ يا حبيبى قد دَنَا الموعدُ
وخُذْ منَ الليلِ وساعاتِهِ ... حظّاً إذا ما هجعَ الرقّدُ
مَنْ نَام حتى ينقضِى ليلُهُ ... لم يبلُغِ المنزلَ أو يجهدُ
قُلْ لذى الألبابِ أهلِ التقى ... قنطرةَ الحشرِ لكم موعدُ

وقيل: إن نومة الضحى تورث الغم والخوف، ونومة العصر تورث الجنون، وأنشد بعضهم:

ألا إنَّ نوماتِ الضُّحى تورثُ الفتى ... غمومًا، ونوماتِ العصيرِ جنونُ

وعن العباس بن عبد المطلب أنه مرّ يومًا بابنه وهو نائم نومة الضحى فوكزه برجله وقال له: قم لا أنام الله عينيك، أتنام فى ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد؟ أوما سمعت ما قالت العرب: أنها مكسلة مهزله منسية للحاجة.

والنوم على ثلاثة أنواع: نومة الخرق[2]، ونومة الخلق، ونومة الحمق، فنومة الخرق نومة الضحى، ونومة الخلق هى التى أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بها أمته فقال: «قيلوا فإنّ الشياطين لا تقيل» ونومة الحمق النومة بعدَ العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون. وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده: لا تصطبح بالنوم فإنه شؤم ونكد. وقال الثورى لطبيب: دُلّنى على شئ إذا أردت النوم جاءنى. فقال: ادهن رأسك وأكثر من ذلك واتق الله. وكان طاوس يقول: لئن تختلف السياط على ظهرى، أحبّ إلىّ من أن أنام يوم الجمعة والإمام يخطب. وكان شدّاد بن أوس يتلّوى على فراشه كالحية على المقلى ويقول: اللّهم إن النار منعتنى النوم.

وأنشدوا فى المعنى:

غيَّرتُ موضعَ مرقدى ... يومًا ففارَقَنى السكون
قُلْ لى فأوَّلُ ليلتى ... فى حفرتى، أنّى أكون؟

وأنشد أبو دلف:

أمالكنى ردِّى علىَّ رقاديا[3] ... ونَوْمى فقد شَرَّدْتِهِ عن وساديا
أما تَتّقِين اللّه فى قَتْلِ عاشقٍ ... أمَتِّ الكرى عنه فأحيا اللياليا

وأنشد أبو غانم الثقفى:

رقدتُ رقادَ الهيم حتى لو أننى ... يكونُ رقادى مغنمًا لغنيتُ

---

(١) المُعَرِّسون: السائرون فى الظلام.

(٢) الخرق: الأحمق.

(٣) رقادى: نومى.

فقيل: لمن هذا؟ فقال: لرقاد من رقاد العرب. وقيل: إن نوم عبود يضرب به المثل، وكان عبود هذا عبدًا أسود قيل إنه نام أسبوعًا، وقيل: إنما تماوت على أهله وقال: اندبونى لأعلم كيف تندبونى إذا أنا متّ، فسُجِّى[١] ونام وندب، فإذا هو قد مات.

وأما الرؤيا فقد قيل فيها أقاويل. وهو أنهم قالوا: إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد، ومنهم مَنْ رأى أن ذلك هو سكون النفس، وهدوء الروح، ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان فى نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة والأغذيةُ الطبائع. وذهب جمهور الأطباء إلى أن الأحلام من الأخلاط، وأن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوّته، فالذى يغلب عليه الصفراء يرى بحورًا وعيونًا ومياهًا كثيرة، ويرى أنه يسبح ويصيد سمكًا، ومَنْ غلبت على مزاجه السوداء رأى فى منامه أحداثًا وأمواتًا مكفنين بسواد وبكاء وأشياء مفزعة، ومَنْ غلب على مزاجه الدم رأى الخمر والرياحين وأنواع الملاهى والثياب المصبغة. والذى يقع عليه التحقيق أن الرؤيا الصالحة كما قد جاء جزء من ستين جزءًا من النبوة. وكان النبى صلى الله عليه وسلم أول ما بدئ به من الوحى الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والرؤيا على ضربين: فمنهم من يرى رؤيا فتجئ على حالها لا تزيد ولا تنقص، ومنهم من يرى الرؤيا فى صورة مثل ضرب له.

فمن ذلك ما حكى أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى الجنة غرفًا فقال: «لمن هذه؟» فقيل: لأبى جهل بن هشام، فقال: «ما لأبى جهل والجنة؟ والله لا يدخلها أبدًا». قال: فأتاه عكرمة ولده مسلمًا فتأوّلها به. وكذلك تأوّل فى قتل الحسين لما رأى أن كلبًا أبقع يلغُ فى دمه، وكان ذلك بعد رؤياه عليه الصلاة والسلام بخمسين عامًا. وكذلك حين قال لأبى بكر رضى الله تعالى عنه: «إنى رأيت كأنى رقيت أنا وأنت درجًا فى الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف». فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله أقبض بعدك بسنتين ونصف. ورأت عائشة رضى الله تعالى عنها سقوط ثلاثة أقمار فى حجرتها، فأولها أبوها بموته، وموت النبى صلى الله عليه وسلم، وموت عمر رضى الله تعالى عنهما. ودفنهم فى حجرتها، فكان الأمر كذلك.

وحكى أن أم الشافعى رضى الله تعالى عنه، لما حملت به رأت كأن المشترى خرج من فرجها وانقض بمصر، ثم تفرق فى كل بلد قطعة، فأوّل بعالم يكون بمصر وينتشر علمه بأكثر البلاد، فكان كذلك.

وحكى أيضًا أن عاملاً أتى عمر رضى الله تعالى عنه فقال: رأيت الشمس والقمر اقتتلا، فقال له عمر: مع من كنت؟ قال: مع القمر، فقال: مع الآية الممحوة، والله لا وليت لى عملاً فعزله، ثم اتفق أن عليًا رضى الله تعالى عنه وقع بينه وبين معاوية ما وقع، فكان ذلك الرجل مع معاوية.

وأما مَنْ مهر فى تعبير الرؤيا فهو ابن سيرين؛ جاءه رجل فقال له: رأيت كأنى أسقى شجرة زيتون زيتًا، فاستوى جالسًا فقال: ما التى تحتك؟ قال: علجة اشتريتها، وفى رواية جارية، وأنا أطؤها. فقال: أخاف أن تكون أمك، فكشف عنها فوجدها أمه. وجاءه رجل فقال: رأيت كأن فى يدى خاتمًا أختم به فروج النساء وأفواه الرجال. فقال له: أنت مؤذن تؤذن بالليل فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء. وجاءه رجل فقال: رأيت جارية لى قد ذبحت فى بيت من دارها. فقال: هى امرأة نكحت فى ذلك البيت، وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل، فاغتمّ[٢] لذلك، ثم بلغه أن الرجل قدم فى تلك الليلة وجامع زوجته فى ذلك البيت. وجاءه رجل ومعه جراب فقال له: رأيت فى النوم كأنى أسدّ الزقاق سدًّا وثيقًا شديدًا. فقال له: أنت رأيت هذا؟! قال: نعم. فقال لمن حضره: ينبغى أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان، وربما يكون فى جرابه آلة الخنق، فوثبوا عليه وفتشوا

(١) سُجِّى: وضع عليه غطاء من رأسه إلى أخمص قدميه.
(٢) اغتمّ: حزن واهتم.

الجراب فوجدوا فيه أوتارًا وحلقًا فسلّموه إلى السلطان. وجاءته امرأة وهو يتغدى فقالت له: رأيت في النوم كأن القمر دخل فى الثريا ونادى منادٍ من خلفي: أن ائتى ابن سيرين فقصّي عليه، فتقلّصت يده وقال: ويلك! كيف رأيت هذا؟ فأعادت عليه، فقال لأخته: هذه تزعم أنى أموت لسبعة أيام، وأمسك يده على فؤاده وقام يتوجع، ومات بعد سبعة أيام. وجاءه رجل فقال: رأيت كأني آخذ البيض وأقشره فآكل بياضه وألقى صفاره. فقال: إن صدق منامك فأنت نباش الموتى، فكان كذلك.

وحكى أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا فجعل يوصى وقال: يموت الحسن وأموت بعده وهو أشرف منى، فمات الحسن، ومات هو بعده بمائة يوم.

وحكى أن رجلاً رأى عيسى عليه السلام فقال له: يا نبى اللّه صلبك حق؟ قال: نعم. فعبره على بعضهم فقال: تكذب رؤياك بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾[1]، ولكن هو عائد على الرائى فكان كذلك. وأتى ابنةَ مغيث آتٍ فى المنام فقال لها:

لك البشيرى بولد	أشبه شيء بالأسد
إذا الرجال فى كبد[2]	تغالبوا على بلد
كان له حظ الأسد	

فولدت المختار بن أبى عبيد وذلك فى عام الهجرة.

وقال رجل لسعيد بن المسيب: رأيت كأنى بلت خلف المقام أربع مرات. قال: كذبت لست صاحب هذه الرؤيا. قال: هو عبد الملك. فقال: يلى أربعة من صلبه الخلافة. وقال الشافعى رضى اللّه تعالى عنه: رأيت عليًّا رضى اللّه عنه فى المنام. فقال لى: ناولنى كتبك، فناولته إياها فأخذها وبددها فأصبحت أخر كآبة. فأتيت الجعد فأخبرته فقال: سيرفع اللّه شأنك وينشر علمك.

وعن ابن مسعود رضى اللّه تعالى عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «مَنْ رآنى فى منامه فقد رآنى حقًّا فإن الشيطان لا يتمثل بى». وجاء رجل إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم فقال: رأيت كأن رأسى قد قطع وأنا انظر إليه، فضحك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال: «بأى عين كنت تنظر إلى رأسك؟» فلم يلبث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن توفى وأوّلوا رأسه بنبيه ونظره إليه باتباع سنته.

وقال رجل لعلى بن الحسين: رأيت كأنى أبول فى يدى. فقال: تحتك محرم فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع. وقال أبو حنيفة رضى اللّه عنه: رأيت كأنى نبشت قبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فضممت عظامه إلى صدرى فهالنى ذلك، فسألت ابن سيرين، فقال: ما ينبغى من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا، قلت: أنا رأيتها؟ قال: إن صدقت رؤياك لتحيّين سنة نبيك صلى اللّه عليه وسلم. وقال النبى صلى اللّه عليه وسلم: «الرؤيا الصالحة بشارة للمؤمن بما له عند اللّه من الكرامة فى الدنيا والآخرة». وعن ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما: قد تضرعت إلى ربى سنة أن يرينى أبى فى النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه، فسألته فقال: لولا رحمة اللّه لهلك أبوك، إنه سألنى عن عقال بعير للصدقة، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز، فصاح وضرب بيده على رأسه وقال: فعل هذا بالتقىّ الطاهر، فكيف بالمقترف عمّر بن عبد العزيز، رضى اللّه تعالى عنهم أجمعين، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سورة النساء:١٥٧.

(٢) كبد: تعب.

الباب الحادى والستون فى الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة، وهى حسنة ما لم يستبح بها محظور، وقد سئل بعض الفقهاء عن الحيل فى الفقه فقال: علمكم اللّه ذلك فإنه قال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ﴾[(١)]، وكان صلى اللّه عليه وسلم إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها وكان يقول: «الحرب خدعة»[(٢)] ولمّا أرد عمر رضى اللّه تعالى عنه قتل الهرمزان استسقى ماء فأتوه بقدح فيه ماء فأمسكه فى يده واضطرب. فقال له عمر: لا بأس عليك حتى لا تشربه، فألقى القدح من يده، فأمر عمر بقتله. فقال: أوَلَمْ تؤمِّنى؟ قال: كيف أمنتك؟ قال: قلت: لا بأس عليك حتى تشربه. وقولك لا بأس عليك أمان، و لم أشربه. فقال عمر: قاتلك اللّه أخذت منى أمانًا و لم أشعر.

وقيل: كان دهاة العرب أربعة كلهم ولدوا بالطائف: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والسائب ابن الأقرع. وكان يقال: الحاجة تفتح أبواب الحيل. وكان يقال ليس العاقل الذى يحتال للأمور إذا وقع فيها، بل العاقل الذى يحتال للأمور أن لا يقع فيها. وقال الضحاك بن مزاحم لنصرانى: لو أسلمت فإن شربتها، حدَّيْناك، وإن ارتددت قتلناك، فاختر لنفسك. فاختار الإسلام وحسن إسلامه فأخذه بالحيلة. وقيل: دليت من السماء سلسلة فى أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التى فى وسط بيت المقدس، وكان الناس يتحاكمون عندها، فمن مدّ يده إليها وهو صادق نالها، ومن كان كاذبًا لم ينلها، إلى أن ظهرت فيهم الخديعة فارتفعت. وذلك أن رجلاً أودع رجلاً جوهرة فخبأها فى مكانه فى عكازة ثم إن صاحبها طلبها من الذى أودعها عنده فأنكرها فتحاكما عند السلسلة. فقال المدعى: اللّهم إن كنت صادقًا فلتدن[(٣)] منى السلسلة، فدنت منه فمسها، فدفع المدعى عليه العكازة للمدعى، وقال: اللّهم إن كنت تعلم أنى رددتُ الجوهرة إليه فلتدن منى السلسلة. فدنت منه فمسها، فقال الناس: قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم، فارتفعت بشؤم الخديعة. وأوحى اللّه تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن أُحكُمْ بين الناس بالبينة واليمين فبقى ذلك إلى قيام الساعة.

وكان المختار بن أبى عبيد الثقفى من دعاة ثقيف، وثقيف دهاة العرب. قيل إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد اللّه بن زياد ثم دعا برجل من خواصه فدفع إليه حمامة بيضاء وقال له: إن رأيت الأمر عليكم فأرسلها. ثم قال للناس: إنى لأجد فى محكم الكتاب وفى اليقين والصواب أن اللّه ممدكم بملائكة غضاب صعاب تأتى فى صور الحمام تحت السحاب. فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة فأرسلها فتصايح الناس: الملائكة. الملائكة!! وحملوا فانتصروا وقتلوا ابن زياد.

وعن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «خرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على صبى إحداهما فأكله، فاختصمتا فى الصبى الباقى إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال: كيف أمركما؟ فقصتا عليه القصة، فحكم به للكبرى منهما، فاختصمتا إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: ائتونى بسكين أشق الغلام نصفين لكل منهما نصف. فقالت الصغرى أتشقه يا نبى اللّه؟ قال: نعم، قالت: لا تفعَلْ ونصيبى فيه للكبرى. فقال: خذيه فهو ابنك وقضى به لها». وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه الصلاة

(١) سورة ص: ٤٤.

(٢) أخرجه: البخارى فى الجهاد ٣٠٢٩.

(٣) فلتدن: أى: تقترب.

والسلام وقال: يا نبيّ اللّه إن جيرانًا يسرقون أوزى فلا أعرف السارق، فنادى الصلاة جامعة، ثم خطبهم وقال فى خطبته: وإنَّ أحدكم ليسرق أوز جاره ثم يدخل المسجد والريش على رأسه، فمسح الرجل رأسه، فقال سليمان: خذوه فهو صاحبكم.

وخطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان شابًا جميلاً فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها، فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما. فلما رأى المغيرة ذلك الشاب وعاين جماله علم أنها تؤثره عليه فأقبل على الفتى وقال: لقد أوتيتَ جمالاً فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم، فعدَّد محاسنه ثم سكت. فقال المغيرة: كيف حسابك مع أهلك؟ قال: ما يخفى على منه شئ وإنى لأستدرك منه أدق من الخردل[1] . فقال المغيرة: لكني أضع البدرة فى بيتى فينفقها أهلى على ما يريدون فلا أعلم بنفادها حتى يسألونى غيرها. فقالت المرأة: واللّه لهذا الشيخ الذى لا يحاسبنى أحَبُّ إلىَّ من هذا الذى يحصى على مثقال الذرة. فتزوجت المغيرة.

وبلغ عضدَ الدولة أن قومًا من الأكراد يقطعون الطريق ويقيمون فى جبال شامخة ولا يقدر عليهم، فاستدعى بعض التجار، ودفع إليه بغلاً عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب فى ظروف فاخرة، ودنانير وافرة، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء. ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة فنزل القوم فأخذوا الأمتعة والأموال وانفرد أحدهما بالبغل وصعد به الجبل فوجد به الحلوى فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه فاستدعاهم فأكلوا على مجاعة، فماتوا عن آخرهم، وأخذ أرباب الأموال أموالهم.

وأتى لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة فأقامهما بين يديه، ثم دعا بشربة ماء فجئ له بكوز[2] فرماه بين يديه فارتاع أحدهما وثبت الآخر، فقال للذى ارتاع: اذهب إلى حال سبيلك، وقال لآخر: أنت أخذت المال وتلذذت به. وتهدَّده فأقرَّ. فسئل عن ذلك فقال: إن اللص قوى القلب، والبرئ يجزع ولو تحرّك عصفور لفزع منه. وقصد رجل الحج فاستودع إنسانًا مالاً فلما عاد طلبه منه فجحده المستودع فأخبر بذلك القاضى إياسًا. فقال: أعلِمَ بأنك جئتنى؟ قال: لا. قال: فعُدْ إلىَّ بعد يومين. ثم إن القاضى إياسًا بعث إلى ذلك الرجل فأحضره، ثم قال له: اعلَمْ أنه قد تحصلت عندى أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإنى مسافر سفرًا بعيدًا، وأريد أن أودعها عندك لما بلغنى من دِينك وتحصين منزلك. فقال: حبًّا وكرامة. قال: فاذهب وهيِّئ موضعًا للمال وقومًا يحملونه. فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة، فقال له القاضى إياس: امض إلى صاحبك وقل له: ادفع إلىَّ مالى وإلا شكوتك للقاضى إياس. فلما جاء وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه فأخذه وأتى إلى القاضى إياس وأخبره. ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التى ذكرها له القاضى، فقال له القاضى بعد أن أخذ الرجل ماله منه: بدا لى تَرْكُ السفر، امض لشأنك لا أكثر اللّه فى الناس مثلك.

ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز، قال شيرويه للداخل عليه ليقتله: إنى لأدلك على شئ فيه غناك لوجوب حقك على. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلانى، فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر فأخرج الصندوق فإذا فيه حق فيه حبٌّ ورقعة مكتوب فيها: مَنْ تناول منه حبة واحدة افتض عشرة أبكار، وكان لشيرويه غرام فى الباء، فتناول منه حبة فهلك من ساعته. فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله.

ولما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء فقال له الرشيد: لِمَ تخلفت؟ فقال: عاقنى عائق. فقال: اقرؤوا عليه كتاب البيعة. فقال: يا أمير المؤمنين هذه البيعة فى عنقى إلى قيام الساعة. فلم يفهم الرشيد ما أراد وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس.

---

(١) أى: يحاسبهم بدقة وشدة.

(٢) الكوز: إناء للشرب.

وقال المغيرة بن شعبة: لم يخدعنى غير غلام من بنى الحرث بن كعب فإنى ذكرت امرأة منهم لأتزوجها فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها. فقلت: ولِمَ؟ قال: رأيت رجلاً يقبلها فأعرض عنها، فتزوجها الفتى، فلمته وقلت: ألم تخبرنى أنك رأيت رجلاً يقبلها؟ قال: نعم رأيت أباها يقبلها. وأتى رجل إلى الأحنف فلطمه[1]. فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: جُعل لى جعل على أن ألطم سيد بنى تميم، فقال: لست بسيدهم عليك بحارثة بن قدامة فإنه سيدهم، فمضى إليه فلطمه فقطعت يده.

وقال الشعبى: وجهنى عبد الملك إلى ملك الروم فقال لى: من أهل بيت الخلافة أنت؟ قلت: لا ولكن رجل من العرب. فكتب إلى عبد الملك رقعة دفعها إلى، فلما قرأها عبد الملك قال لى: أتدرى ما فيها؟ قلت: لا. قال فيها: العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره؟ قال: أتدرى ما أراد بهذا؟ قلت: لا. قال: حسدنى عليك فأراد أن أقتلك، فقلت: إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يترك شيئًا إلا سألنى عنه، وأنا أجيبه. فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبي، فقال: لله أبوه ما عدا ما فى نفسي. ولما ولى عبد الملك بن مروان أخاه بشرًا الكوفة وكان شابًا ظريفًا غزلاً بعث معه روح بن زنباع وكان شيخًا متورّعًا فثقل على بشر مرافقته، فذكر ذلك لندمائه فتوصل بعض ندماته إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلاً فى خفية، فكتب على حائط قريب من مجلسه هذه الأبيات:

يا روحُ مَنْ لبُنَيّاتٍ وأرملةٍ ... إذا نعاكَ لأهلِ المغربِ الناعى

إنَّ ابنَ مروانَ قد حانَتْ منيتَهُ ... فاحتَلْ بنفسِك يا روحُ بنُ زنباعِ

فتخوّف من ذلك وخرج من الكوفة، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك، فاستلقى على قفاه من شدّة الضحك وقال: ثقلت على بشر وأصحابه فاحتالوا لك.

ومن الحيل الظريفة: ما حكى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما فتح خيبر، وأعرس بصفية، وفرح المسلمون، جاءه الحجاج بن علاط السلمى وكان أوّل من أسلم فى تلك الأيام وشهد خيبر، فقال: يا رسول الله إنّ لى بمكة مالاً عند صاحبتى أمّ شيبة، ولى مال متفرّق عند تجار مكة فأذِنْ لى يا رسول الله فى العودة إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامى إليهم، فإنى أخاف إن علموا بإسلامى أن يذهب جميع مالى بمكة، فأذِن لى لعلّى أخلصه. فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إنى أحتاج إلى أن أقول، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قل وأنت فى حلّ». قال الحجاج: فخرجت فلما انتهيت إلى الثنية - ثنية البيضاء - وجدت بها رجالاً من قريش يتسمعون الأخبار وقد بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار إلى خيبر، فلما أبصرونى قالوا: هذا لَعَمْرُ الله عندَهُ الخبرُ، أخبِرْنَا يا حجاج فقد بلغنا أن القاطع - يعنون محمدًا صلى الله عليه وسلم - قد سار إلى خيبر؟ قال: قلت: إنه سار إلى خيبر وعندى من الخبر ما يسركم. قال: فأحدقوا حول ناقتى يقولون: إيه يا حجاج. قال: فقلت: هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وأسر محمد، وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم. قال: فصاحوا بمكة: قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم. قال: فقلت: أعينونى على جمع مالى من غرمائى فإنى أريد أن أقدم خيبر فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى هناك. فقاموا معى فجمعوا لى مالى كأحسن ما أحبّ. فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل عليَّ حتى وقف إلى جانبى وأنا فى خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الخبر الذى جئت به؟ قال: فقلت: وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر؟ فقال: نعم والله. قال: قلت استأخر عنى حتى ألقاك على خلاء فإنى فى جمع مالى كما ترى، فانصرف عنى حتى إذا فرغت من جمع كل

---

(١) لطمة: ضربه بيده.

شئ كان لى بمكة، وأجمعت على الخروج لقيت العباس فقلت له: احفظ عليَّ حديثي يا أبا الفضل فإنى أخشى أن يتبعونى، فاكتم عليَّ ثلاثة أيام ثم قل ما شئت. قال: لك عليَّ ذلك. قال: قلت: والله ما تركت ابن أخيك إلا عروسًا على ابنة ملكهم يعني صفية، وقد افتتح خيبرًا وغنم ما فيها وصارت له ولأصحابه. قال: أحقٌّ ما تقول يا حجاج؟ قال: قلت: إى والله ولقد أسلمت وما جئت إلا مسلمًا لآخذ مالى خوفًا من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاثة فاظهر أمرك فهو والله على ما تحبّ. قال: فلما كان فى اليوم الرابع لبس حلة له، وتخلق بالطيب وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحرّ المصيبة. قال: كلا والذى حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر، وترك عروسًا على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه.

قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذى جاءكم بما جاءكم ولقد دخل عليكم مسلمًا، وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمدًا وأصحابه ليكون معهم. قالوا: تفلت عدوّ الله، أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن. قال: ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك. فتوصل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله.

ولما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الخندق، وقصدوا المدينة وتظاهروا وهم فى جمع كثير، وجمٌّ غفير من قريش وغطفان، وقبائل العرب، وبنى النضير، وبنى قريظة من اليهود ونازلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَنْ معه من المسلمين، واشتدّ الأمر، واضطرب المسلمون، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿**جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ**...﴾[1] فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفانى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خذّل[2] عنا إن استطعت فإنّ الحرب خدعة». فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان نديمًا لهم فى الجاهلية، فقال: يا بنى قريظة قد علمتم ودّى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم. قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إنّ قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، فإنّ البلد بلدكم، وبه أموالكم وأبناؤكم، ونسائكم لا تقدرون على أن تتحوّلوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه، وأموالهم، وأولادهم، ونساؤهم بغير بلدكم وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتنموها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمدًا. قالوا: أشرت بالرأى. ثم أتى قريشًا فقال لأبى سفيان بن حرب - وكان إذا ذاك قائد المشركين من قريش- ومن معه من كبراء قريش: قد علمتم ودى لكم وفراقى محمد وأنه قد بلغنى أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحًا لكم فاكتموه عليَّ.

قالوا: نعم. قال: اعلموا أن معشر يهود بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد. وقد أرسلوا إليه يقولون: إنا قد ندمنا على نقض العهد الذى بيننا وبينك فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنسلمهم إليك فتضرب رقابهم، ثم نكون معك على من بقى منهم فنستأصلهم؟ فأرسل يقول نعم. فإن بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم، فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤوس

---

(١) سورة الأحزاب: ١٠ - ١١.

(٢) خذّل: اجعلهم يتخاذلون.

بنى غطفان إلى بنى قريظة يقولون لهم: إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر، فاعتدّوا(١) للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ فيما بيننا وبينه. فأرسلوا يقولون لهم: اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فإنا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتدّ عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا به. فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدّثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بنى قريظة يقولون: إنا لا ندفع إليكم رجلاً واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا. فقالت بنو قريظة، حين انتهت إليهم الرسل: إن الكلام الذى ذكره نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنّا لا نقاتل حتى تعطونا رهنًا، فأبوا عليهم، فخذل الله تعالى بينهم. وأرسل عليهم الريح فتفرّقوا وارتحلوا، وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألْهَمَ نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهداه إلى القطنة التى عمّ نفعها وحسن وقعها.

وأما ما جاء فى التيقظ والتبصر فى الأمور: فقد قالت الحكماء: من أيقظ نفسه وألبسها لباس التحفظ أيس عدوّه من كيده له، وقطع عنه أطماع الماكرين به. وقالوا: اليقظة حارس لا ينام، وحافظ لا ينسام، وحاكم لا يرتشى، فمن تدرّع بها أمن من الاختلال، والغدر، والجور، والكيد، والمكر. وقيل: إن كسرى أنو شروان كان أشدّ الناس تطلعًا فى خفايا الأمور، وأعظم خلق الله تعالى فى زمانه تفحصًا وبحثًا عن أسرار الصدور، وكان يبث العيون على الرعايا، والجواسيس فى البلاد، ليقف على حقائق الأحوال، ويطلع على غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان ويقول: متى غفل الملك عن تعرف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه وسقطت من القلوب هيبته.

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى ليلة من الليالى يطوف يتفقد أحوال المسلمين فرأى بيتًا من الشعر مضروبًا لم يكن قد رآه بالأمس، فدنا منه، فسمع فيه أنين امرأة، ورأى رجلاً قاعدًا فدنا منه وقال له: من الرجل؟ فقال له: رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله. قال: فلما هذا الأنين؟ قال: امرأة تتمخض قد أخذها الطلق، قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا. فانطلق عمر والرجل لا يعرفه فجاء إلى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب بنت فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنهما: هل لك فى أجر قد ساقه الله تعالى لك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تتمخض ليس عندها أحد. قالت: إن شئت. قال: فخذى معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن وائتنى بقدر وشحم وحبوب، فجاءت به فحمل القدر ومشيت خلفه حتى أتى البيت، فقال: ادخلى إلى المرأة، ثم قال للرجل: أوقد لى نارًا، ففعل، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضجها، وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم رضى الله تعالى عنها: بَشِّرْ صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل وقال: واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا تفعل بنفسك؟ قال: يا أخا العرب مَنْ ولى شيئًا من أمور المسلمين ينبغى له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره فإنه عنها مسؤول، ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة. ثم قام عمر رضى الله تعالى عنه وأخذ القدر من فوق النار، وحملها إلى باب البيت، وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر رضى الله تعالى عنه للرجل: قم إلى بيتك وكل ما بقى فى البرمة وفى غد ائت إلينا. فلما أصبح جاءه فجهزه بما أغناه به وانصرف.

---

(١) اعتدّوا: جهزوا عددكم.

وكان رضى اللّه تعالى عنه من شدة حرصه على تعرّف الأحوال، وإقامة قسطاس العدل، وإزاحة أسباب الفساد، وإصلاح الأمة يعسّ بنفسه ويباشر أمور الرعية سرًّا فى كثير من الليالى، حتى إنه فى ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى فى بعض البيوت ضوء سراج وسمع حديثًا، فوقف على الباب يتجسس، فرأى عبدًا أسود قدّامه إناء فيه مِزرٌ[1] وهو يشرب ومعه جماعة، فهمّ بالدخول من الباب وانهزموا فمسك الأسود، فقال له: يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت فإنى تائب فاقبل توبتى، فقال: أريد أن اضربك على خطيئتك، فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت فى واحدة فأنت قد أخطأت فى ثلاث فإنّ اللّه تعالى قال: ﴿**وَلاَ تَجَسَّسُوا**﴾[2] وأنت تجسست. وقال تعالى: ﴿**وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**﴾[3] وأنت أتيت من السطح، وقال تعالى: ﴿**حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا**﴾[4] وأنت دخلت وما سلمت، فهب هذه لهذه، وأنا تائب إلى اللّه تعالى على يدك أن لا أعود، فاستتابه واستحسن كلامه. وله رضى اللّه تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه.

وكان معاوية بن أبى سفيان رضى اللّه تعالى عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه فى ذلك. وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية فى ذلك حتى نقل عنه أن رجلاً كلمه فى حاجة له وجعل يتعرّف إليه ويظنّ أن زيادًا لا يعرفه فقال: أنا فلان بن فلان، فتبسم زياد وقال له: أتتعرف إلىّ وأنا أعرف بك منك بنفسك؟ واللّه إنى لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك، وأعرف جدّك، وجدّتك وأعرف هذه البردة التى عليك وهى لفلان وقد أعراك إياها. فبهت الرجل وارتعد حتى كاد يغشى عليه. ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم، وهو عبد الملك بن مروان والحجاج.

و لم يسلك بعدهما ذلك الطريق واقتفى[5] آثار ذلك الفريق، إلا المنصور ثانى خلفاء بنى العباس.ولى الخلافة بعد أخيه السفاح وهى فى غاية الاضطراب، فنصب العيون وأقام المتطلعين وبث فى البلاد والنواحى مَنْ يكشف له حقائق الأمور والرعايا، فاستقامت له الأمور ودانت له الجهات، ولقد ابتلى فى خلافته بأقوام نازعوه وأرادوا خلعه، وتمردوا عليه، وتكاثروا، فلولا أن اللّه تعالى أعانه بتيقُّظه وتبصُّره ما ثبت له فى الخلافة قدم ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم، لكنه بثّ العيون فعرف مَنِ انطوى على خلافه فعالجه بإتلافه، واطلع على عزائم المعاندين فقطّع رؤوس عنادهم بأسيافه، وكان لكمال يقظته يتلقى المحذور يدفعه دون رفعه، ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه، فذلت له الرقاب ولانت لخلافته الصعاب، وقرّر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب.

فمن آثار يقظته وفطنته ما نقله عنه عقبة الأزدى قال: دخلت مع الجند على المنصور فارتابنى، فلما خرج الجند أدنانى وقال لى: من أنت؟ فقلت: رجل من الأزد، وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص، فقال: إنى لأرى لك هيبة، وفيك نجابة، وإنى أريدك لأمر وأنا به معنىّ فإن كفيتنيه رفعتك، فقلت: إنى لأرجو أن أصدق ظنّ أمير المؤمنين فىّ، فقال: أخفِ نفسك واحضر فى يوم كذا. قال: فغبت عنه إلى ذلك اليوم وحضرت، فلم يترك عنده أحدًا، ثم قال لى: اعلم أن بنى عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتياله، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا، يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف بلادهم، فخذ معك عينًا من عندى وألطافًا وكتبًا واذهب حتى تأتى عبد اللّه بن الحسن بن على بن أبى طالب فأقدم عليه متخشعًا، والكتب على ألسنة أهل تلك القرية، والألطاف من عندهم إليه، فإذا رآك فإنه سيردّك ويقول: لا أعرف هؤلاء القوم، فاصبر

---

(١) الميزر: خمر من الشعير.

(٢) سورة الحجرات: ١٢.

(٣) سورة البقرة: ١٨٩.

(٤) سورة النور: ٢٧.

(٥) اقتفى: تتبع.

عليه وعاوده وقل له: قد سيّرونى سرًّا وسيّروا معى ألطافًا وعينًا، وكلما جبهك وأنكر، اصبر عليه وعاوده واكشف باطن أمره.

قال عقبة: فأخذت كتبه، والعين، والألطاف وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد اللّٰه بن الحسن فلقيته بالكتب فأنكرها ونهرنى[1] وقال: ما أعرف هؤلاء القوم. قال عقبة: فلم انصرف وعاودته القول، وذكرت له اسم القرية، وأسماء أولئك القوم وأن معى ألطافًا وعينًا فأنس بى وأخذ الكتب وما كان معى. قال عقبة: فتركته ذلك اليوم ثم سألته الجواب. فقال: أما كتاب فلا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابى إليهم فاقرئهم السلام وأخبرهم أن ابنىّ محمدًا وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا. قال عقبة: فخرجت من عنده وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك، فقال لى المنصور: إنى أريد الحج فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقانى بنو الحسن، وفيهم عبد اللّٰه فإنى أعظمه وأكرمه وأرفعه وأحضر الطعام، فإذا فرغ من أكله ونظرت إليه فتمثل بين يدىّ وقف قدّامه، فإنه سيصرف وجهه عنك فدُرْ حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك، ثم انصرف عنه وإياك أن يراك وهو يأكل. ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن، فأجلس عبد اللّٰه إلى جانبه فحادثه فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه فلما فرغوا أمر برفعه فرفع، ثم أقبل على عبد اللّٰه بن الحسن وقال: يا أبا محمد، قد علمت أن مما أعطيتنى من العهود والمواثيق أنك لا تريدنى بسوء ولا تكيد لى سلطانًا، قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين. قال عقبة: فلحظنى المنصور بعينه فقمت حتى وقفت بين يدى عبد اللّٰه بن الحسن فأعرض عنى فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلى فرفع رأسه وملأ عينيه منى، ثم وثب حتى جثا بين يدى المنصور وقال: أقلنى[2] يا أمير المؤمنين أقالك اللّٰه، فقال له المنصور: ولا أقالنى اللّٰه إن لم أقتلك، وأمر بحبسه وجعل يتطلب ولديه محمدًا وإبراهيم ويستعلم أخبارهما.

قال على الهاشمى صاحب غدائه: دعانى المنصور يومًا فإذا بين يديه جارية صفراء وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك أصديقنى فواللّٰه ما أريد إلا الألفة ولئن صدقتنى لأصلنّ رحمه، ولأتابعنّ البرّ إليه، وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد اللّٰه بن الحسن بن على بن أبى طالب وهى تقول: لا أعرف له مكانًا، فأمر بتعذيبها، فلما بلغ العذاب منها أغمى عليها فقال: كفوا عنها، فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال: ما دواء مثلها؟ قالوا: شمّ الطيب، وصبّ الماء البارد على وجهها، وأن تسقى السويق. ففعلوا بها ذلك، وعالج المنصور بعضه بيده، فلما أفاقت سألها عنه فقالت لا أعلم، فلما رأى إصرارها على الجحود[3] قال لها: أتعرفين فلانة الحجامة؟ فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك فى بنى سليم، قال: صدقت هى واللّٰه أمتى ابتعتها بمالى ورزقى يجرى عليها فى كلّ شهر، وكسوة شتائها من عندى، وأمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرّف أحوالكم وأخباركم. ثم قال لها: أتعرفين فلانٌ البقال؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين هو فى بنى فلان، قال: صدقت هو واللّٰه غلامى دفعت إليه مالاً وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة وأخبرنى أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء وحوائج، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ قالت: كان محمد بن عبد اللّٰه بن الحسن فى بعض الضياع بناحية البقيع وهو يدخل الليلة وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهنّ من المغيب، فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدّة الخوف، وأذعنت له بالحديث وحدّثته بكلّ ما أراد.

واللّٰه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى اللّٰه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) نهرنى: زجرنى.

(٢) أقلنى: احمل عشيرتى.

(٣) الجحود: النكران.

الباب الثاني والستون في ذكر الدوابّ والوحوش والطير والهوام والحشرات وما أشبه ذلك مرتبًا على حروف المعجم

حرف الهمزة

الأسد: من السباع، والأنثى أسدة، وله أسماء كثيرة: فمن أشهرها أسامة، والحرث، وقَسْورة، والغضنفر، وحيدرة، والليث، والضرغام، ومن كُناه: أبو الأبطال، وأبو الشبل، وأبو العباس. وهو أنواع: منها ما وجهه وجه إنسان وشكل جسده كالبقر، وله قرون سود نحو شبر. ومنها ما هو أحمر كالعناب وغير ذلك، وتلده أمّه قطعة لحم وتستمرّ تحرسه ثلاثة أيام، ثم يأتي أبوه فينفخ فيه فتنفرج أعضاؤه وتتشكل صورته، ثم ترضعه، وتستمرّ عيناه مغلوقة سبعة أيام ثم تفتح، ويقيم على تلك الحالة بين أبيه وأمه إلى ستة أشهر ثم يتكلف الكسب بعد ذلك، وله صبر على الجوع والعطش، وعنده شرف نفس، يقال: إنه لا يعاود فريسته ولا يأكل من فريسة غيره، ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب. وفي ذلك يقول بعضهم:

سأتركُ حبَّكم من غيرِ بغضٍ ... وذاك لكثرةِ الشركاءِ فيهِ
إذا وقع الذبابُ على طعامٍ ... رفعتُ يدي ونفسي تشتهيهِ
وتجتنبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ ... إذا كان الكلابُ يَلِغْنَ فيهِ

وإذا أكل نهش نهشًا، وريقه قليل جدًّا ولذلك يوصف بالبخر، وعنده شجاعة وجبن وكرم، فمن شجاعته: الإقدام على الأمور، وعدم الاكتراث بالغير، ومن جبنه: أنه يفرّ من صوت الديك، والسنور[1]، والطست، ويتحير عند رؤية النار. ومن كرمه أنه لا يقرب المرأة خصوصًا إذا كانت حائضًا. وقيل: أربع عيون تضئ بالليل: عين الأسد، وعين النمر، وعين السنور، وعين الأفعى، وروى أنه لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[2] قال عتبة بني أبي لهب: كفرت برب النجم يعني نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللّهم سلط عليه كلبًا من كلابك ينهشه» فخرج مع أصحابه في عير إلى الشام حتى إذا كانوا بمكان يقال له الزرقاء زأر الأسد، فجعلت فرائصه ترتعد، فقالوا له: من أي شئ ترتعد فرائصك، فوالله ما نحن وأنت إلا سواء، فقال: إنّ محمدً دعا عليَّ، ووالله ما أظلت السماء من ذي لهجة أصدق من محمد، ثم وضعوا العشاء فلم يدخل يده فيه، ثم جاء النوم فحاطوا أنفسهم بمتاعهم وجعلوه بينهم وناموا، فجاء الأسد يتهمس وشمهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه فضغطه ضغطة كانت إياها فسمع وهو بآخر رمق يقول: ألم أقل لكم إن محمدًا أصدق الناس. ولبعضهم في الأسد:

عبوسٌ شموسٌ مصلخدٌ[3] مكابدٌ ... جريٌّ على الأقرانِ للقرن قاهرُ
براثنه شثنٌ[4] وعيناه في الدجى كجمر ... الغضى في وجهه الشرُّ ظاهرُ
يديلُ[5] بأنيابٍ حدادٍ كأنها ... إذا قلصَ الأشداقَ عنها خناجرُ

---

(١) السنور: الحصر.
(٢) سورة النجم: ١.
(٣) مصلخد: قوى شديد.
(٤) شثنٌ: غليظة.
(٥) يديلُ: يغلب.

فائدة: إذا أقبلت على واد مُسْبع[١] فقل: أعوذ بدانيال والجب من شر الأسد، وسبب ذلك على ما قيل أن بختنصر رأى في نومه أن هلاكه يكون على يد مولود فجعل يأمر بقتل الأطفال، فخافت أم دانيال عليه فجاءت إلى بئر فألقته فيه، فأرسل الله له أسدًا يحرسه، وقيل: إن بختنصر توهم ذلك في دانيال فضرى له أسدين وجعلهما في الجب وألقاه عليهما فلم يؤذياه، وصارا يبصبصان حوله ويلحسانه، فأقام ما شاء الله تعالى أن يقيم، ثم اشتهى الطعام والشراب فأوحى الله تعالى إلى أرمياء بالشام أن اذهب إلى أخيك دانيال بجبّ كذا، بمكان كذا، قال أرمياء: فسرت إلى ذلك الموضع فلما وقفت على رأس ذلك الجب ناديته فعرفني فقال: من أرسلك إليّ؟ قلت: أرسلني إليك ربك بطعام وشراب، فقال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره والحمد لله الذي لا يخيب من قصده، والحمد لله الذي من وثق به لا يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحسانًا وبالصبر نجاة وغفرانًا، والحمد لله الذي يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تسوء ظوننا بأعمالنا، والحمد لله الذي رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا. قال: ثم صعد به أرمياء من الجبّ وأقام عنده مدة ثم فارقه ورجع.

وحكي أن يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام مر بقبر دانيال عليه الصلاة والسلام فسمع منه صوتا يقول: سبحان من عزز بالقدرة وقهر العباد بالموت. قال بعض الصالحين: من قال هذه الكلمات استغفر له كل شئ.

وحكي أن إبراهيم بن أدهم كان في سفر ومعه رفقة فخرج عليهم الأسد فقال لهم: قولوا: اللَّهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واحفظنا بركنك الذي لا يُرام، وارحمنا بقدرتك علينا، فلا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله يا الله يا الله. قال: فولّى الأسد هاربًا. وقيل: لما حمل نوح عليه الصلاة والسلام في سفينته من كل زوجين اثنين قال أصحابه: كيف نطمئن ومعنا الأسد، فسلط الله عليه الحمى، وهي أول حمى نزلت في الأرض، ثم شكوا إليه العذرة، فأمر الله تعالى الخنزير فعطس فخرج منه الفأر فلما كثر ضرره شكوا ذلك إلى نوح عليه الصلاة والسلام فأمر الله سبحانه وتعالى الأسد فعطس فخرج منه الهر فحجب الفأر، عنهم. ويحرم أكل السبع لنهيه عليه الصلاة والسلام عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير.

خواصه: فمن خواصه أن صوته يقتل التماسيح، وشحمه من طلى به يده لم يقربه سبع، ومرارة الذكر منه تحل المعقود، ولحمه ينفع من الفالج وإذا وضعت قطعة من جلده في صندوق لم يقربه سوس ولا أرضة، وإذا وضع على جلد غيره من السباع تساقط شعره، وهو من الحيوان الذي يعيش ألف سنة على ما ذكر، وعلامة ذلك كثرة سقوط أسنانه.

الإبل: قيل ما خلق الله شيئًا من الدواب خيرًا من الإبل، إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حلبت أروت، وإن نحرت أشبعت، وفي حديث: «الإبل عزٌّ لأهلها، والغنم بركة، والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة». وهي من الحيوان العيب وإن كان عجبه قد سقط لكثرة مخالطته الناس، وقد أطاعها الله للآدمي وغيره حتى قيل إن قطارًا[٢] كان ببعض حبله دهن، فمرت فأرة فجذبته، فسار معها القطار بواسطة جذبها له، وهي مراكب البر، ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[٣]، ولما كانت مراكب البر، والبرّ فيه ما ماؤه قليل، وما ماؤه كثير جعل الله تعالى لها صبرًا على العطش حتى قيل إنه يرتفع ظمؤها إلى عشر، وفي الحديث: «لا تسبوا الإبل فإنها من نفس الله تعالى» أي مما يوسع به على الناس حكاه ابن سيده، والذي يعرف: «لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن».

---

(١) مسبع: كثير السباع.

(٢) قطارًا: قافلة فيها متتليات الإبل.

(٣) سورة المؤمنون:٢٢.

قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: ليس لشئ من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه فإنه يسوء خلقه، فيظهر زبده، ويقل رغاؤه فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل، ويقلّ أكله، ويخرج له عند رغائه شِقشِقة لا تعرف من أي شئ هي من أجزائه، وهو من الأحرار حتى قيل إنه لا ينزو على أمه، ولا على أخته، حتى قيل: إن بعض العرب ستر ناقة بثوب، ثم أرسل عليها ولدها، فلما عرف ذلك عمد إلى إحليله فأكله، ثم حقد على صاحبه حتى قتله، وليس له مرارة وذلك كثر صبره. وقيل يوجد على كبده شئ رقيق يشبه المرارة ينفع الغشاوة في العين كحلا، وفي معدته قوّة حتى أنها تهضم الشوك وتستطيبه.

ويحلّ أكله بالنص والإجماع. وأما تحريم يعقوب عليه الصلاة والسلام أكلها فباجتهاد منه. وذلك أنه كان يسكن البوادي فاشتكى عرق النسا فلم يجد ما يلائمه إلا ترك أكل لحومها فلذلك حرّمها. وأما انتقاض الوضوء بأكل لحمها فاختلف العلماء في ذلك، فذهب طلحة، وعامر بن ربيعة، وأبو أمامة وجماهير التابعين، وبه أخذ مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم، وخالف في ذلك أحمد، وإسحاق، ويحيى بن يحيى، وابن المنذر، وابن خزيمة. واختاره البيهقي، وهو مذهب الشافعي القديم.

خواصه: قال ابن زهير: أكل لحمه يزيد في الباه وفي الإنعاظ[1] بعد الجماع، وبوله يفيق السكران، ووبره إذا أحرق وذرّ على دم سائل قطعه، وقراده إذا ربط على كم عاشق يزول عشقه.

الأرضة: بفتح الهمزة والراء: دويبة صغيرة كنصف العدسة تأكل الخشب والورق، ولما كان فعلها في الأرض أضيف اسمها إليها. قال القزويني: إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما، ويقال إنها الدابة التي دلت الجنّ على موت سليمان عليه الصلاة والسلام. ومن شأنها أنها تبني لنفسها بيتًا من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت منخرطًا من أسفله إلى أعلاه، وله في إحدى جهاته باب مربع ومنه تعلم الأوائل وضع النواويس لموتاهم، والنمل عدوّها وهو أصغر منها فيأتي من خلفها ويحتملها ويمشي بها إلى حجره لأنه إذا أتاها مستقبلاً لا يغلبها.

الأرنب: حيوان شبه العناق قصير اليدين طويل الرجلين يطأ الأرض على مؤخر قدميه، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى، وله شدة شبق، وربما تسفد[2] وهي حبلى، ويكون عامًا ذكرًا، وعامًا أنثى. ومن عجائبها أنها تنام وعيناها مفتوحتان فيأتي الصياد فيظنها مستيقظة. قيل: من رأى أرنبًا عند خروجه من بيته أوّل ما يخرج أو رآه عند قيامه من نومه واصطبح به لم تقض له حاجة في ذلك اليوم. ومن عجيب أمره أن تحمل الأنثى منه باثنين وثلاثة وأربعة، ولا تلد إلا تحت الأرض خوفًا على أولادها من الإنسان، وتحفر تحت الأرض الحفائر القوية حتى أنها تخرب الجدران، وعند ولادتها ينتحل شعرها، وتحضن الأولاد إلى عشرين يومًا، ومن طبعه أنه أبله وفيه قوّة وشدّة، وفي سفاده حالة نزوه يصرخ الذكر والأنثى كالسنانير، فإذا وقع منه الإنزال وقع على الأرض قليل الحركة تدير له وجهها، فإذا ملكها بعد ذلك فإنها تجرى به وهو راكب عليها ويجرى معها.

فائدة: ذكر ابن الأثير في الكامل أن صديقًا له اصطاد أرنبًا، وله أنثيان، وذكر وفرج، وقيل: التقطت الأرنب تمرة فاختلسها[3] الثعلب فأكلها فانطلقا يتخاصمان إلى الضبّ. فقال الأرنب: يا أبا حسل، فقال: سميعًا دعوت. قالت: أتيناك لنختصم. قال: عادلاً حكيمًا. قالت: فاخرج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت

---

(١) الإنعاظ: الشهوة والشبق.

(٢) تسفد: تنكح.

(٣) اختلسها: سرقها.

تمرة حلوة. قال: فكليها. قالت: قد اختلسها الثعلب، قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحقك أخذت. قالت: فلطمنى قال: اقتص. قالت: فاقض بيننا. قال: قد قضيت. فذهبت أقواله أمثالاً.

ومن ذلك ما حكى أن عدى بن أرطأة أتى شريحًا القاضى فى مجلس حكمه فقال له: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: فاسمع منى. قال: للاستماع جلست. قال: إنى تزوّجت امرأة. قال: بالرفاء والبنين. قال: فشرط أهلها أن لا أخرجها من بينهم. قال: أوف لهم الشرط. قال: فأنا أريد الخروج. قال: الشرط أملك. قال: أريد أن أذهب. قال: فى حفظ الله. قال: فاقض بيننا. قال: قد فعلت. قال: فعلى من قضيت؟ قال: على ابن أمك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالك.

الخواص: قال الجاحظ: من علق عليه كعب أرنب لم تضرّه عين ولا سحر، وأكل دماغه يبرئ من الارتعاش العارض من البرد، وإن شربت المرأة الحامل أنفحة الذكر ولدت ذكرًا، وإن شربت أنفحة الأنثى ولدت أنثى، وإن علقت عليها زبلها لم تحمل، والأرنب البحرى من السموم فلا يحلّ أكله.

سقنقور: دابة شكلها كالوزغة[١] إذا أخذت وسلخت وملحت، وشرب منها مثقال، زاد فى الباه. من الأشياء النفيسة عن أهل الهند، يقال: إنه يهدى إليهم فيذبحونه بسكين من الذهب ويحشونه من ملح مصر فإذا وضعوا منه مثقالاً على لحم أو بيض نفع نفعًا عظيمًا.

الأفعى: الأنثى من الحيات، والذكر أفعوان، وهو يعيش ألف سنة على ما يقال، ويعرف بالشجاع والأسود، وهو أشرّ الحيات، وأشرّها حيّات وأفاعى سجستان. ومن عجيب ما يحكى عنها أنها لدغت إنسانًا فى رجله فانصدعت جبهته.

وحكى أنها نهشت ناقة وفصيلها يرضع فمات قبل أمه. وقيل: لما دخل شبيب بن شبة على المنصور قال له: يا شبيب أدخلت سجستان؟ فقال: نعم. قال صف لى أفاعيها. قال: يا أمير المؤمنين هى دقاق الأعناق، صغار الأذناب، مقلصة الرؤوس، رقشٌ برشٌ كأنما كسين أعلام الحبرات، كبارهنّ حتوف، وصغارهنّ سيوف. وقيل: إنها تدفن فى التراب أربعة أشهر فى البرد، ثم تخرج وقد أظلمت عيناها فتمرّ بشجر الرازيانج، وهو الشمر الأخضر فتحك عينيها به فيرجع إليها بصرها، فسبحان من ألهمها ذلك. وقال الزمخشرى: إذا عميت الأفعى بعد ألف سنة ألهمها الله تعالى أن تأتى البساتين وتلقى نفسها على هذه الشجرة، وتحكّ عينيها بها فتبصر. وقيل: إذا قطع ذنبها عاد كما كان، وإذا قلع نابها، عاد بعد ثلاثة أيام، وهى أعدى عدوّ للإنسان. وقال بعضهم: رأيت حية قد ابتلعت كبشًا عظيم القرنين فجعلت تضرب به الحجارة يمينا ويسارًا حتى كسرت القرنين وابتلعته وقرنيه، والله تعالى أعلم. وقيل: إذا قطع ذنب الحية تعيش إن سلمت من الذر[٢] . وقيل: إن بالحبشة حيات لها أجنحة تطير بها. وقيل: إن جلدها ينسلخ عنها فى كل سنة مرّة. وقيل: إن الجلد لا ينسلخ، وإنما الذى ينسلخ قشر فوق الجلد، وغلاف يخلق لها كل عام، وهى تبيض على عدد أضلاعها: أى: ثلاثين بيضة فيجتمع عليها النمل فيفسدها بقدرة الله تعالى إلا نادرًا.

ومن عجيب أمرها أنها لا ترد الماء، ولا تريده ولكنها إذا شمت رائحة الخمر فلا تكاد تصبر عنه مع أنه سبب هلاكها ؛ لأنها إذا شربت سكرت فتعرّضت للقتل، والذكر لا يقيم فى الموضع، وإنما تقيم الأنثى لأجل فراخها حتى تكتسب قوة، فإذا قويت أخذتهم وانسابت، فأىّ جحر وجدته دخلت فيه وأخرجت صاحبه منه، وعينها لا تدور، إذا قلعت عادت.

---

(١) الوزغة: زاحفة من أضراب الحرباء.

(٢) الذر: صغيرات النمل.

ومن عجيب أمرها أنها تهرب من الرجل العريان، وتفرح بالنار، وتقرب منها، وتحبّ اللبن حبًّا شديدًا، وإذا دخلت بصدرها فى حجر لا يستطيع أقوى الناس إخراجها منه، ولو قطعت قطعًا، وليس لها قوائم ولا أظفار، وإنما تقوى بظهرها لكثرة أضلاعها.

وحكى عمر بن يحيى العلوى قال: كنا فى طريق مكة فأصاب رجلاً منا استسقاء، فاتفق أن العرب سرقوا منا قطار جمال على أحدها ذلك الرجل. قال: ثم بعد أيام جمعتنا المقادير فوجدته قد برئ فسألناه عن حاله، فقال: إن العرب لما أخذونى جعلونى فى أواخر بيوتهم فكنت فى حالة أتمنى فيها الموت، وبينما أنا كذلك إذا أتونى يومًا بأفاعى اصطادوها، وقطعوا رؤوسها وأذنابها، وشووها بعد ذلك، فقلت فى نفسى: هؤلاء اعتادوها فلا تضرّهم فلعلى إن أكلت منها متّ فاسترحت، فاستطعمتهم فأطعمونى واحدة، فلما استقرّت فى بطنى أخذنى النوم فنمت نومًا ثقيلاً، ثم استيقظت وقد عرفت عرقًا شديدًا، واندفعت طبيعتى[1] نحو مائة مرّة، فلما أصبحت وجدت بطنى قد ضمر وقد انقطع الألم، فطلبت منهم مأكولاً فأكلت، وأقمت عندهم أيامًا، فلما نشطت ووثقت من نفسى بالحركة أخذت فى الطريق مع بعضهم، وأتيت الكوفة.

فائدة: قيل: إن الريحان الفارسى لم يكن قبل كسرى، وإنما وجد فى زمانه، وسببه: أن كسرى كان ذات يوم جالسًا فى بعض متفرجاته إذا جاءته حية فانسابت بين يديه، وتمرّغت وصارت تتقلق مثل الذى يشتكى، فأراد بعض الجند قتلها فمنعهم الملك. ثم قال لهم: انظروا أمرها، فلما سمعت ذلك انسابت بين يديه، فأمرهم أن يتبعوها إلى المكان الذى تريده.

قال: فجاءت إلى بئر وصارت تنظر فيه، قال: فنظروا فإذا فيه حية عظيمة، وعلى ظهرها عقرب أسود فنخسها بعضهم برمح فقتلها، وتركوها ورجعوا فأخبروا الملك بذلك، فلم كان الغد جاءت الحية للملك، وفى فمها بزر فنثرته بين يدى الملك وذهبت فقال الملك: إنها أرادت مكافأتنا اجعلوه فى الأرض لننظر ما يكون من أمره. قال: ففعلوا ذلك فطلع منه الريحان. قال: فلما انتهى أمره أتوا به إلى الملك. قال: وكان به زكام فشمه فبرئ.

لطيفة: من غريب ما اتفق لعماد الدولة أنه لما ملك شيراز اجتمع عليه أصحابه، وطلبوا منه مالاً ولم يكن عنده ما يرضيهم به فاغتمّ لذلك، ونام مستلقيًا على قفاه مفكرًا فى ذلك، وإذا بحية عظيمة خرجت من سقف ذلك المجلس ودخلت فى سقف آخر. قال: فطلب سلمًا وصعد لينظر المكان الذى خرجت منه فلما رآه وجد كوة فنظر فى داخلها فإذا هى مطمورة فدخلها، فوجد فيها صندوقًا فيه خمسمائة ألف دينار فأمر بإخراجه، وإنفاقه على عسكره.

ومن ألطف ما اتفق له أيضًا أنه كان بتلك خياط أطروش[2]، وكان الملك الذى قبله قد أودع عنده وديعة مال، قال: فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لأنه هو الذى يخيط للملوك. قال: فتوهم الأطروش أنه غمز عليه بسبب الوديعة، فلما حضر بين يدى عماد الدولة قال له: إن فلانًا الملك لم يدع عندى سوى اثنى عشر صندوقًا ولم أدر ما فيها، فأمر بإحضارها فأحضرها، فأخذها عماد الدولة، ووسع بها على جنده وتعجب من هاتين القضيتين. فكانت هذه الأسباب من دلائل السعادة له.

---

(١) أى: تقيأ مراتٍ.

(٢) أطروش: لا يسمع.

وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل الحيات بعد أن تنذر ثلاث مرات، وقيل: ثلاثة أيام، وأما سكان البيوت فالإنذار لها متعين. وفى الحديث: «من قتل حية فكأنما قتل مشركًا، ومن لبس خفًا فلينفضه، ومن آوى إلى فراشه فلينظفه»(١).

الخواص: يقال: إن دمها يجلو البصر، وقلبها إذا علق على إنسان لا يؤثر فيه السحر، وضرسها إذا علق على من به وجع الضرس سكن الأيمن للأيمن، والأيسر للأيسر. ولحمها قال بقراط الحكيم: من أكله أمن من الأمراض الصعبة.

الأنيس: وتسميه الرماة الأنيسة لأنه من طيور الواجب عندهم، وهو طير له لون حسن، غذاؤه الفاكهة، ومأواه الأنهار والبساتين والغياض، وله صوت حسن كالقمرى.

الأوزّ: طير يحب السباحة، وفراخه تخرج من البيضة تسبح.

الخواص: فى جوفه حصاة تنفع المبطون، ودهنه ينفع من ذات الجنب، وداء الثعلب إذا طلى به، ولسانه ينفع لقطار البول، وغذاؤه جيد إلا أنه بطئ الهضم.

الأيّل: بتشديد الياء المكسورة، ذكر الوعل، وله أسماء باختلاف اللغات، وهو يشبه بقر الوحش، وإذا خاف من الصياد رمى بنفسه من رأس الجبل ولا يتضرّر بذلك، وإذا لسعته حية ذهب إلى البحر فأكل السرطان فيشفى.

خواصه: إن السمك يحب رؤيته وهو يحب ذلك، ولذلك أكثر ما يكون بقرب البحر، والصيادون يعرفون ذلك فيلبسون جلده ليراهم السمك، فيأتى لهم، وهو مولع بأكل الحيات، وربما لسعته فتسيل دموعه تحت محاجر عينيه، حتى تصير نقرتين من كثرة ذلك ثم تجمد تلك الدموع فتصير كالشمع فتؤخذ، وتجعل دواء للسم. وهو الذى يسمى: بالبنزهير الحيوانى، وأجوده الأصفر، وأكثر ما يكون ببلاد الهند، والسند، وفارس، وإذا وضع على لسعة الحيات أبرأها، وإن وضعه الملسوع فى فيه نفعه، وهذا الحيوان لا تنبت قرناه إلا بعد سنتين، وينبتان فى أوّل الأمر مستقيمين ثم بعد ذلك يحصل فيهما التشعب، ولا يزالان إلى ست سنين فيحنئذٍ يصيران كنخلتين، ثم بعد ذلك يلقيهما فى كل سنة مرة ثم ينبتان. قال أرسطو: وهذا النوع يصاد بالصفير، والأصوات المطربة فإنه يحب الطرب، والصيادون يشغلونه بذلك، ويأتونه من ورائه فإذا رأوه قد استرخت أذناه وثبوا عليه، وقرنه مصمت، وإحليله من عصب لا عظم فيه ولا لحم، وهو من الحيوان الذى يزيد فى السمن، فإذا حصل له ذلك فرّ من مكانه خوفًا من الصيادين، وحكمه حل أكله.

ومن خواصه إذا بخر بقرنه البيت طردا الهوام التى فيه، وإذا أحرق واستاك به الذى به صفرة الأنسان زال ذلك عنه، ومن علق عليه شئ منه ذهب نومه. ومن خواصه أن دمه يفتت الحصاة التى بالمثانة شربًا، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حرف الباء الموحدة

باز: كنيته أبو الأشعث، وهو من أشد الحيوان تكبرًا، وأضيقها خلقًا، قال القزوينى: إنها لا تكون إلا أنثى، وذكرها من غيرها، إما من جنس الحدأة أو الشواهين ولأجل ذلك تختلف ألوانها، وهو أصناف منها البازى، والباشق، والشاهين، والظل الظليل، وهو خفيف الجناح، سريع الطيران تكثر أمراضه من كثرة طيرانه لأنه كلما طار انحط لحمه وهزل، وأحسن أنواعه ما قل ريشه، واحمرت عيناه مع حدّة فيهما. قال الشاعر:

لـو اسـتضاءَ المـرءُ فـى إدلاجِـه بعينِـه كَفَتّـهُ عَـن سِـرَاجِه

(١) أخرجه: أحمد فى المسند ٣٧٣٨.

ودونه الأزرق، الأحمر العينين، والأصفر دونهما. ومن صفاته المحمودة أن يكون طويل العنق، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، شديد الانحطاط من الجو، غليظ الذراعين مع قصر فيهما.

لطيفة: من عجيب أمره أن الرشيد خرج ذات يوم للصيد فأرسل بازًا فغاب قليلاً ثم أتى وفى فمه سمكة، فأحضر الرشيد العلماء، وسألهم عن ذلك. فقال مقاتل: يا أمير المؤمنين روينا عن جدك ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما أنه قال: إن الجو معمور بأمم مختلفة الخلق، وفيه دواب تبيض وتفرخ على هيئة السمك لها أجنحة ليست بذوات ريش. فأجاز مقاتلاً على ذلك وأكرمه.

بالة: سمكة عظيمة. قال القزوينى يقال: إن طولها يبلغ خمسمائة ذراع، وقال غيره: خمسون، ويقال لها: العنبر، وهى تظهر فى بعض الأحايين لأصحاب المراكب، فإذا رأواها طلبوا بالطبول، حتى إنها لا تنفر لأن لها جناحين كالقناطر إذا نشرتهما أغرقتهم، فإذا بغت على حيوان البحر وزاد شرها أرسل اللّه عليها سمكة نحو الذراع تلتصق بأذنها ولا خلاص لها منها، فتنزل إلى قعر البحر، وتضرب رأسها به حتى تموت، ثم تطفو بعد ذلك فيقذفها الريح إلى الساحل فيأخذها أهله، ويشقون جوفها، ويستخرجون منها العنبر.

ببغاء: هى أصناف كثيرة منها الأخضر، والرمادى، والأصفر، والأبيض يتخذها الملوك والرؤساء لحسن لونها، وصوتها، وفصاحتها.

حكى أن أهدى لمعز الدولة درة بيضاء سوداء الرجلين والمنقار ويقال إن نوعًا منها يقرأ القرآن.

الخواص: من أكل لسانها تفصح، وإذا جفف دمها وجعل بين الصديقين حصلت بينهما الخصومة، وزبلها يخلط بماء الحصرم ويكتحل به ينفع من الرمد وظلمة البصر.

بجع: طائر أبيض اللون يميل إلى صفرة المنقار، كبير البطن، أكثر أكله السمك.

بح[1]: طائر لطيف يأوى أطراف الماء، وهو خلقة شريفة لم يوجد غالبًا إلا اثنين فقط.

براق: هو الدابة التى ركبها النبى صلى اللّه عليه وسلم، وهو دون البغل، وفوق الحمار أبيض اللون.

برذون: نوع من الخيل دون الفرس العربى، وفى الحديث أن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم ركبه، وكذا عمر رضى اللّه تعالى عنه، فلما ركبه عمر جعل يتخلخل به فنزل عنه، وضرب وجهه، وقال: لا علم اللّه من علمك هذه الخيلاء[2]، ولم يركب برذونًا قبله ولا بعده، وكنيته، أبو الأخطل لطول ذنبه. وأنشد السراج الوراق فى ذم البراذين يقول:

لصاحبِ الأحباسِ[3] برذونة | بعيدةَ العهدِ عن القرطِ
إذا رأتْ خيلاً على مربطٍ | تقولُ سبحانَك يا معطِى
تمشى إلى خلفٍ إذا ما مشَتْ | كأنما تكتبُ بالقبطى[4]

الخواص: إذا شربت امرأة دمه لم تحبل أبدًا، وزبله يخرج المشيمة والجنين الميت، وإذا جفف ور منه على من به الرعاف انقطع رعافه وكذا الجراح.

برغوث: تفتح منه الباء وتضم، وكنيته أبو طامر، وأبو عدى، وأبو وثاب، وهو يثب إلى ورائه.

---

(١) بح: لعلها ذات الطائر الأبيض الجميل الذى يدعونه حينًا «تم» وحينًا آخر يخلطون بينه وبين البجع.

(٢) الخيلاء: التكبر.

(٣) الأحباس: الأوقاف.

(٤) أى: بلغة القبط.

حكى أنه يعرض له الطيران كالنمل، وهو يطيل السفاد ويبيض، ويفرخ وأصله أولاً من التراب لاسيما في الأماكن المظلمة، وسلطانه في أواخر الشتاء وأول فصل الربيع، ويقال: إنه على صورة الفيل، وله أنياب وخرطوم. وقال بعضهم: دبيبها من تحتى أشدّ من عضها، وليس ذلك بدبيب، ولكن البرغوث خبيث يستلقي على ظهره، ويرفع قوائمه فيزغزغ بها فيظنّ من لا علم له أن يمشي تحت جنبيه، وكان أبو هريرة رضى اللّه تعالى عنه يفلي ثوبه فيلتقط البراغيث ويدع القمل فقال له أنس في ذلك. فقال أبدأ بالفرسان وأكر على الرجالة وأنشد أعرابيّ:

نيلُ البراغيثِ أعياني وأنصبني ... لا باركَ اللّهُ في ليلِ البراغيثِ
كأنهنَّ وجلدى إذ خلَوْنَ به ... قضاةَ سوءٍ أغاروا في المواريثِ

وقال أبو الرماح الأزدى:

تطاولَ بالفسطاط ليلى ولَمْ يَكُنْ ... بوادى الغَضَى ليلى علىَّ يطولُ
تؤرقَني حدبٌ قصارٌ أذلّةٌ ... وإنَّ الذى يُؤذينَهُ لذليلُ
إذا جُلّتُ بعض الليالى منهن جولةً[1] ... تعلّقنَ في رجلىّ حيثُ أجولُ
إذا ما قتلناهُنَّ أضعفن كثرةً ... علينا ولا ينعَى لهن قتيلُ
ألا ليت شعرى هل أبيتَنَّ ليلةً ... وليس لبرغوثٍ علىَّ سبيلُ

وقال ابن أبيك الصفدى:

أشكو إلى الرحمن ما نالني ... من البراغيث الخفاف الثقال
تعصَّبوا الليل لما دروا ... أني تقنعت بطيف الخيال

ولا يسبَ البرغوث لما ورد أن النبى صلى اللّه عليه وسلم سمع رجلاً يسبَ برغوثًا فقال: لا تسبه فإنه أيقظ نبيًا إلى صلاة الفجر.

فائدة: سئل مالك عن البرغوث، من يقبض روحه. فقال: أله نفس؟ قيل: نعم قال: اللّه يتوفى الأنفس حين موتها.

ولقد شكا عامل إفريقية إلى عمر بن عبد العزيز شر الهوام فكتب إليه: إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقرأ: ﴿**وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ**﴾[2] الآية. وقال حنين بن إسحاق: الحيلة في دفع البرغوث أن تأخذ شيئًا من الكبريت فتدخن به في البيت فإنها تفرّ من ذلك، وقيل: يرشّ البيت بماء السذاب[3]، وقيل: مشاق[4] المراكب يحرق في البيت مع قشور النارنج.

بعوض: قيل: إنه على خلقة الفيل إلا أنه أكثر إعضاء منه، فإن للفيل أربعة أرجل وللبعوض ستة، أو يزيد عليه بأربعة أجنحة، وله خرطوم مجوّف نافذ فإذا طعن به جسد إنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه فهو له كالبلعوم والحلقوم، ومما ألهمه اللّه تعالى إذا جلس على عضو إنسان يتتبع مسام العروق فإنها أرق وأسرع له في إخراج الدم، وعنده شره في مصة حتى قال: إنه لا يمصّ شيئًا فيتركه باختياره إلى أن ينشق أو يطار. ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع فيتركه طريحًا. وقال الجاحظ: من علّم البعوض أن وراء جلد الجاموس دمًا، وأن ذلك الدم غذاء لها، وأنها إذا طعنت في ذلك الجلد الغليظ نفذ فيه خرطومها مع ضعفه

---

(١) الشطر مختل الوزن.
(٢) سورة إبراهيم:١٢.
(٣) السذاب: نوع من البقول.
(٤) مشاق: جبلة.

ولو أنك طعنت فيه بمسلات شديدة المتن رهيفة الحدّ لانكسرت، فسبحان من رزقها على ضعفها بقوّته وقدرتـه. قال بعضهم:

أقـول لنـازلِ البسـتانِ طوبـى ... لعيشِـك لم تشـكّ فيـه البعـوضُ[١]
يملمِلُـهُ فليـسَ لـه قَـرارٌ ... ويخنُـه فليـس لـه نهـوضُ
حمـاهُ قرصُـه وطنينُـه أن ... يبيـت وعينُـه فيهـا غمـوضُ
كـأنك حـين تهـدى بالأغـانى ... تكـرر فـى مسـامعِكَ العـروضُ

ومن الحكم التى أودعها اللّه تعالى إياها أن جعل فيها قوة الحافظة، والفكر، وحاسة اللمس والبصر، والشم ومنفذ الغذاء، وجوفًا، ومخًا، وعروقًا وعظامًا - فسبحان من قدر فهدى، ولم يترك شيئًا سدى. وقـال الزمخشرى فى تفسير سورة البقرة فى ذلك:

يا مَـنْ يرى مَـدَّ البعـوضِ جناحَهـا ... فـى ظلمـةِ الليـلِ البهيـمِ الأليـلِ
ويَرى منـاطَ عروقِهـا فـى نَحْرِهـا ... والمـخَ مـن تلـك العظـامِ النحُّـلِ
ويَـرى خريـرَ الـدمِ فـى أودَاجهـا ... متنقـلاً مـن مفصـلٍ فـى مفصـلِ
ويَـرى وُصـولَ غِـذا الجنـينِ ببَطْنهـا ... فـى ظلمـةِ الأحْشـا بغـيرِ تمقـلِ
ويَـرى مكـانَ الـوطءِ مـن أقدامِهـا ... فـى سـيرِها وحثيثِهـا المسـتعجلِ
ويَرى ويسـمعِ حُسْـنَ مـا هـو دونهـا ... فـى قـاعِ بحـرِ مظلـمٍ متهـوِّلِ
أمْنِـنْ علـيَّ بتوبـةٍ تمحـو بهـا ... مـا كـان منـى فـى الزمـانِ الأوَّلِ

بغل: معروف، وكنيته أبو قموص، وأبو حرون، وله كنى غير ذلك كثيرة، وهو مركب من الفرس، والحمار، ولذلك صار له صلابة الحمار، وعظم الخيل وهو عقيم لا نسل له. روى ابن عساكر فى تاريخ دمشـق عـن على كرم اللّه وجهه، أنها كانت تتناسل فدعا عليها إبراهيم الخليل لأنها كانت تسرع فى نقل الحطب لنار المنجنيق فقطع اللّه نسلها، وهو أشر الطباع لأنه تجاذبـه الأعـراق المتضـادة، والأخـلاق المتباينـة والعنـاصر المتبـاعدة، ومـن العجيب أن كل عضو فرْضته منه كان بين الفرس والحمار.

الخواص: يقال: إن حافر البلغة السوداء ينفع لطرد الفأر إذا بخر به البيت، وإذا سحق حافره بعد حرقه وخلط بذهن الآس، وجعل على رأس الأقرع نبت شعره، وزبله إذا شمه المزكوم زال زكامه على ما ذكروه.

بقر: هو حيوان شديد القوة خلقه اللّه تعالى لمنفعة الإنسان، وهو أنواع منها الجواميس وهى أكثر ألبانًا، وكـل حيوان إناثه أرق أصواتًا من ذكوره، إلا البقر، وأنثاه يضربها الفحـل فـى السـنة مـرة، وإذا اشـتد شـبقها تركـت المرعى وذهبت، وإذا طلع الفحل عليها التوت تحته إذا أخطأ المجرى لشدة صلابـة ذكـره. قـال المسـعودى: رأيـت بالرى البقر تحمل كالبعير فتبرك على ركبتها ثم تثور بالحمل.

عجيبة: حكى فى الإحياء أن شخصًا كان له بقرة وكان يشرب لبنها بالماء ويبيعه، فجـاء السـيل فـى بعـض الأودية وهى واقفة ترعى فمر عليها فغرقها فجلس صاحبها يندبها فقال له بعض بنيه: يا أبت لا تندبها فإن المياه التى كنا نخلطها بلبنها اجتمعت فغرّقتها.

فائدة: ذكر ابن الفضل فى كتابه عن وهب بن منبه أنه قال: لما خلق اللّه تعالى الأرض مـاجت واضطربـت كالسفينة فخلق اللّه تعالى ملكًا فى نهاية العظم والقوّة، وأمره أن يدخل تحتها ويجعلها على منكبيه فدخل وأخرج

---

(١) الشطر الثانى مختل الوزن.

يدًا من المشرق، ويدًا من المغرب وقبض على أطراف الأرض وأمسكها ثم لم يكن لقدميه قرار، فخلق اللَّه تعالى صخرة من ياقوتة حمراء في وسطها سبعة آلاف ثقب، فخرج من كل ثقب بحر لا يعلم عظمه إلا اللَّه تعالى، ثم أمر الصخرة أن تدخل تحت قدمي الملك، ثم لم يكن للصخرة قرار فخلق اللَّه تعالى ثورًا عظيمًا يقال له: كيوثا، له أربعة آلاف عين، ومثلها أنوف وآذان وأفواه وألسنة، وقوائم ما بين كل قائمتين منها مسيرة خمسمائة عام، وأمر اللَّه تعالى هذا الثور فدخل تحت الصخرة، وحملها على ظهره وقرونه، ثم لم يكن للثور قرار، فخلق اللَّه تعالى حوتًا يقال له: يهموت ثم أمره اللَّه تعالى أن يدخل تحته، ثم جعل الحوت على ماء، ثم جعل الماء على الهواء، ثم جعل الهواء على ماء أيضًا، ثم جعل الماء على الثرى، ثم الثرى على الظلمة، ثم انقطع علم الخلائق.

الخواص: شحم البقر إذا خلط بزرنيخ أحمر طرد العقارب، وإذا طلي به إناء اجتمعت البراغيث إليه، وإذا شرب لبنها زاد في الإنعاظ، وقرنها إذا سحق وجعل في طعام صاحب الحمى فأكله زالت الحمى، ومرارتها إذا خلطت بماء الكراث نفعت من البواسير طلاء. وإذا طلي به على الأثر الأسود في البدن أزاله، وخصية الفحل إذا جففت وسحقت وجعلت في غسل وأكلت فإنها تزيد في الباه، وشعرها إذا أحرق واستيك به نفع من وجع الأسنان، وإذا خلط مع السكنجين وشرب نفع من الطحال على ما ذكروه.

بومة: وكنيتها أم الخراب، وأم الصبيان ومن طبعها أن تدخل على كل طير في وكره وتأكل أفراخه، ولمعاداة الطيور لها يجعلها الصيادون في أشراكهم حتى يقع عليها الطير. ونقل المسعودى عن الجاحظ أن البومة لا تخرج بالنهار خوفًا من العين لأنها تظن أنها حسناء، وهي أصناف، وكلها تحب الخلوة بنفسها.

الخواص: من خواصها أنها تنام بإحدى عينيها، والأخرى مفتوحة، فإذا أخذت المفتوحة وجعلت تحت فص خاتم فمن لبسه لم ينم ما دام في يده، وعكسها المغموضة، وإذا أردت معرفة ذلك فألقهما في الماء، فالراسبة للنوم،، والطافية لليقظة، وإذا أخذ قلب البومة، وجعل على اليد اليسرى من المرأة، وهي نائمة تحدثت في نومها بجميع ما فعلته.

بوقير: طير أبيض يأتي منه في كل سنة طائفة إلى جبل بالصعيد، يقال له: جبل الطير، فيه كوة فتدخل من تلك الكوة فيمسك منها شئ، فإن أمسكت واحدة كان ذلك العام متوسط الخصب، وإن أمسكت اثنتين كان كثير الخصب، وإن لم تمسك شيئًا كانت السنة مجدبة، وأهل تلك الناحية تعرف ذلك. وهذا الجبل بالقرب من بلدة مارية أم إبراهيم ولد النبى صلى اللَّه عليه وسلم.

حرف التاء

تمساح: حيوان عجيب على صورة الضب، له فم واسع، وفيه ستون نابًا، وقيل: ثمانون وبين كل نابين سن صغيرة وهي أنثى في ذكر، إذا أطبق فمه على شئ لا يفلته حتى يخلعه من موضعه، وله لسان طويل، وظهر كالسلحفاة، ولا يعمل الحديد فيه، وله أربعة أرجل وذنب طويل وهو لا يوجد إلا بنيل مصر. وقال المسافرون: إنه يوجد ببحر الهند وطوله في الغالب ستة أذرع إلى عشرة في عرض ذراعين، أو ذراع، ويقيم في البحر تحت الماء أربعة أشهر لا يظهر وذلك في زمن الشتاء، ويتغوط من فيه في الغالب ويحصل في فيه الدود فيؤذيه فيلهمه اللَّه تعالى فيخرج إلى بعض الجزائر ويفتح فاه، فيرسل اللَّه تعالى له طيرًا - يقال له: القطقاط - فيدخل في فيه فيأكل من الدود فيحصل له راحة، فعند ذلك يطبق فمه على الطير ليأكله فيضربه بريشتين خلقهما اللَّه تعالى في جناحيه كريشة الفصاد فيؤلمه، فيفتح فاه فيخرج، ولذلك يضرب به المثل فيقال: جازاه مجازاة التمساح. وزعم بعض الباحثين عن أحوال التمساح، أن له ستين نابًا، وستين عرقًا، ويسفد ستين مرة، ويبيض ستين بيضة، ويحضن ذلك ستين يومًا، ويعيش ستين سنة، فإذا أفرخ فما صعد الجبل صار ورلاً، وما نزل البحر صار تمساحًا.

وفكه الأسفل لا يستطيع تحريكه لأن فيه عظمًا متصلاً بصدره، وإذا أراد السفاد أخذ أنثاه، وطلع بها إلى البر، وقلبها وجامعها، فإذا قضى حاجته قلبها ثانية؛ لأنه لو تركها على تلك الحالة بقيت حتى تموت. وما ذلك إلا أنها لا تستطيع الإنقلاب ليبوسة ظهرها وصلابته، وقد سلط اللّه تعالى عليه أضعف الحيوان، وهو كلب الماء يقال: إنه يتلبط بالطين، ويغافل التمساح، ويقذف بنفسه في فيه، فيبتلعه لنعومته فإذا حصل في جوفه ذاب ما عليه من سخونة بطنه، فيعمد إلى أمعائه فيقطعها، ويقطع مراق بطنه فيقتله.

الخواص: عينه تشدّ على من به رمد اليمنى لليمنى واليسرى لليسرى، وشحمه إذا قطر في أذن من به صمم نفعه.

تنين: ضرب من الحيات، وهو طويل كالنخلة السحوق، وجسده كالليل، أحمر العينين لهما بريق واسع الفم والجوف، يبتلع الحيوان وأول أمرة يكون حية متمردة، ثم تطغى، وتتسلط على حيوان البر فيستغيث منها، فيأمر اللّه تعالى ملكًا فيحملها، ويليقها في البحر فتقيم فيه مدة، ثم تتسلط على حيوانه أيضًا فيستغيث منها إلى ربه فيأمر اللّه تعالى بإلقائها في النار يعذّب بها الكافرين وقيل: يأمر اللّه تعالى بإلقائها على يأجوج ومأجوج. وروى ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدرى رضى اللّه تعالى عنه قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «يسلط اللّه على الكافر في قبره تسعة وتسعين تنينًا تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة، ولو أن تنينًا منها نفخ على الأرض ما نبتت فيها خضراء»[1] .

حرف الثاء

ثعلب: وهو معروف ذو مكر وخديعة، وله حيل في طلب الرزق. فمن ذلك أنه يتماوت وينفخ بطنه ويرفع قوائمه حتى يظنّ أنه مات. فإذا قرب منه حيوان وثب عليه وصاده، وحيلته هذه لا تتمّ على كلب الصيد.

ومن حيلته أنه إذا تعرّض للقنفذ نفش القنفذ شوكه، فيسلح[2] هو عليه، فيلمّ شوكه فيقبض على مراق بطنه ويأكله، وسلحه أنتن من سلح الحبارى[3] .

ومن لطيف أمره أنه إذا تسلطت عليه البراغيث حملها وجاء إلى الماء وقطع قطعة من صوفه وجعلها في فيه ونزل في الماء والبراغيث تطير قليلاً حتى تجتمع في تلك الصوفة فيلقيها في الماء ويخرج. وفروه أدفأ الفراء، وفيه الأبيض والرمادى وغير ذلك. وذكر في عجائب المخلوقات أنه أهدى إلى أبي منصور السلماني ثعلب له جناحان من ريش، إذا قرب الإنسان منه نشرهما وإذا بعد لصقهما.

لطيفة: ذكر ابن الجوزى في آخر كتاب الأذكياء، والحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء عن الشعبي أنه قال: مرض الأسد فعادته السباع والوحوش ما خلا الثعلب فنمّ عليه الذئب، فقال الأسد: إذا حضر فأعلمني، فلما حضر الثعلب أعلمه الذئب بذلك وكان قد أخبره بما قاله الذئب. فقال الأسد: أين كنت يا أبا الفوارس؟ قال: كنت أتطلب لك الدواء. قال: وأيّ شيء أصبته؟ قال: قيل: لي خرزة في عرقوب أبي جعد، قال: فضرب الأسد بيده في ساق الذئب فأدماه ولم يجد شيئًا، فخرج ودمه يسيل على رجله، وانسلّ الثعلب. فمرّ به الذئب فناداه: يا صاحب الخف الأحمر إذا قعدت عند الملوك فانظر ما يخرج منك فإن المجالس بالأمانه.

---

(١) أخرجه: الدارمي في الرقاق ٢٨١٥.

(٢) يسلح: يتغوّط.

(٣) الحبارى: طائر.

وقيل: خرج الأسد والثعلب والذئب يتصيدون فاصطادوا حمار وحش، وضبًّا، وغزالاً ثم جلسوا يقتسمون. فقال الأسد للذئب: اقسم علينا، فقال: حمار الوحش لأبى الحرث يتغدى به، والغزال لأبى الحرث يتعشى به، والضبّ لأبى الحرث ينتقل[1] به فيما بين ذلك. فقال له الأسد: للّه درك من فرضى ما أعلمك بالفرائض، من علمك هذا؟ قال: علمنى التاج الأحمر الذى ألبسته هذا، وأشار إلى الذئب.

وحكى أن الثعلب مر فى السحر بشجرة فرأى فوقها ديكًا. فقال له: أما تنزل نصلى جماعة؟ فقال: إن الإمام نائم خلف الشجرة فأيقظه، فنظر الثعلب فرأى الكلب فضرط، وولى هاربًا، فناداه: أما تأتى لنصلى؟ فقال: قد انتقض وضوئى فاصبر حتى أجدد لى وضوءًا وأرجع.

ومن العجيب فى قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله، والثعلب يصيد القنفذ فيأكله، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها، والأفعى تصيد العصفور، والعصفور يصيد الجراد، والجراد يصيد الزنانير، والزنانير تصيد النحل، والنحل تصيد الذباب، والذباب يصيد البعوض، والبعوض يصيد النمل، والنمل يأكل كل ما تيسر من صغير وكبير، فتبارك اللّه الذى أتقن ما صنع.

الخواص: رأسه إذا ترك فى برج حمام هرب الحمام منه، وأنه يشدّ على الصبى فيحسن خلقه، ومرارته يجعل منها فى أنف المصروع يبرأ، ولحمه ينفع من اللقوة[2] والجذام، وخصيته تشدّ على الصبى تنبت أسنانه، وفروه أنفع شئ للمربوط، ودمه إذا جعل على رأس أقرع نبت شعره إذا كان دون البلوغ، وطحاله يشد على من به وجع الطحال يبرأ.

ثعبان: هو الكبير من الحيات ذكرًا كان أو أنثى، وهو عجيب الشأن فى هلاك بنى آدم يلتوى على ساق الإنسان فيكسرها وليس له عدو إلا النمس، ولولا النموس لأكلت الثعابين أهل مصر.

لطيفة: قيل إن عبد اللّه بن جُدْعَان كان فى ابتداء أمره صعلوكًا وكان شريرًا يفتك ويقتل، وكان أبوه يعقل عنه، فضجر من ذلك وأراد قتله، فخرج هاربًا على وجهه، فتوصل لجبل فوجد فيه شقًا فدخل فيه فوجد فى صدره شيئًا كهيئة الثعبان، فدنا منه وقال: لعله يثب علىَّ فيقتلنى وأستريح. قال: فدنا منه فوجده مصنوعًا من ذهب، وعيناه ياقوتتان، ثم وجد من داخله بيتًا فيه جثث طوال بالية على أسرة الذهب والفضة، وعند رؤوسهم لوح مكتوب فيه تاريخهم، وإذا بهم رجال من جرهم، وفى وسط البيت كوم من الياقوت الأحمر، والزمرد، والذهب، والفضة، واللؤلؤ، فأخذ منه قدر ما يحمل وعلّم الشق، وذهب إلى قومه فأغناهم، ورجع فلم يدر مكان الشق. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لقد كنت أستظل بجفنة عبد اللّه بن جُدْعَان من الهجير». قالت عائشة: يا رسول اللّه هل ينفعه ذلك شيئًا؟ قال: «لا لأنه لم يقل ربِّ اغفر لى خطيئتى يوم الدين»[3].

حرف الجيم

جراد: حيوان معروف وليس له جهة مخصوصة، وإنما يكون هائمًا هاربًا، وإذا أراد أن يبيض ذهب إلى بعض الصخور فضربها بذنبه فتفرج له فيلقى بيضه فيها، وله ستة أرجل، وأطراف أرجله كالمنشار، وهو ألوان عديدة، وفيه خِلْقَة عشرة من الجبابرة وجه فرس، وعينا فيل، وعنق ثور، وقرنا أيل، وصدر أسد، وبطن عقرب، وجناحا نسر، وفخذا جمل، ورجلا نعامة، وذنب حية. وهو من الحيوان الذى ينقاد إلى رئيسه كالعسكر، إذا طعن أميره

---

(١) ينتقل: أى يتخذه «نُقلا».

(٢) اللقوة: داء فى الوجه.

(٣) أخرجه: مسلم فى كتاب الإيمان ٢١٤.

تتابع خلفه، وفي الحديث: أن جرادة وقعت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا مكتوب على جنحها بالعبرانية: نحن جند الله الأكبر، ولنا تسعة وتسعون بيضة، ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها. فقال عليه الصلاة والسلام: «اللّهم أهلك الجراد، اللّهم أقتل كبارها، وأمت صغارها، وأفسد بيضها، وسد أفواهها عن مزارع المسلمين وعن معايشهم إنك سميع الدعاء». قال: فجاء جبريل فقال: إنه قد استجيب لك في بعضها، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى خلق ألف أمة، ستمائة منها في البحر، وأربعمائة في البر، وأن أوّل هلاك هذه الأمة الجراد، فإذا هلك الجراد تتابعت الأمم مثل الدر إذا قطع سلكه» قيل: كان طعام يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام الجراد، وقلوب الشجر، وكان يقول: من أنعم منك يا يحيى! وقد أجمع المسلمون على أكل لحمه، ومن خواصه أن الإنسان إذا تبخر به نفعه من عسر البول.

جرو: بكسر الجيم وفتحها وضمها، وهو الصغير من أولاد الكلاب والسباع، وقد كان صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب. وسببه أن جبريل عليه السلام وعده ليأتيه، فتأخر، قال: فلقيه النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فقال: « ما أخرك عن وعدك؟» فقال: ما تأخرت ولكن لا ندخل بيتًا فيه صورة، ولا كلب، فأمر بقتلها[1]. وروى مسلم والطبراني عن خولة بزيادة ولفظها: أن جروًا دخل تحت سرير في بيته صلى الله عليه وسلم فمات، فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أيامًا لا يأتيه الوحي، قال: « لعله حدث في البيت شيء» فخرج للمسجد فنزل عليه الوحي، قالت خولة: فقممت[2] البيت فوجدت الكلب تحت السرير.

عجيبة: حكى أن رجلاً لم يولد له ولد، فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم، فنهته زوجته عن ذلك وقالت: يؤاخذك الله بذلك. فقال: لو آخذ لفعل في يوم كذا، وصار يعدد أفعاله لها. فقالت له: إن صاعك لم يمتلئ، ولو امتلأ آخذك. قال: فخرج ذات يوم وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ودخل البيت فقتلهما وطرد الجرو. قال: فطلبهما أبوهما فلم يجدهما، فانطلق إلى نبي لهم فأخبره بذلك فقال: ألهما لُعْبَة كانا يلعبان بها؟ قال: جرو كلب. قال: ائتني به، فأتاه به، فجعل خاتمة بين عينيه ثم قال: اذهب خلفه فأي بيت دخله ادخل معه فإن ولديك فيه. قال: فجعل الجرو يجوز الدروب، والحارات حتى دخل بيت القاتل فدخل الناس خلفه وإذا بالغلامين متعفران بدمهما، وهو قائم يحفر لهما مكانًا يدفنهما فيه، فأمسكوه وأتوا به لنبيهم فأمر بصلبه، فلما رأته زوجته على الخشبة قالت: ألم أحذرك هذا اليوم، وتقول ما تقول! الآن امتلأ صاعك. وسيأتي الكلام على الكلب في حرف الكاف إن شاء الله تعالى.

جعل: دويبة معروفة تسمى أبا جعران والزعقوق يعض البهائم في وجهها فتهرب منه، وهو أكبر من الخنفساء شديد السواد، في بطنه لون حمرة، للذكر قرنان، يوجد كثيرًا في مراح[3] البقر والجاموس، قيل أنه يتولد من أختائهما[4] ، ومن شأنه جمع الروث وادخاره، ومن عجيب أمره أنه إذا شم الورد مات، ويعيش بعوده للروث، وله جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار، وله ستة أرجل وسنام مرتفع جدًّا، وهو يمشي القهقرى، ومن طبعه أنه يحرس النيام فإذا قام أحدهم يتغوّط تبعه ليأكل من رجيعه، وذلك من شدّة شهوته للغائط.

---

(١) البخاري في بدء الخلق ٣٢٢٧.

(٢) أي: نظفته من القمامة.

(٣) المراح: الحظيرة.

(٤) أختائهما: الأدران.

حرف الحاء

حجل: طير فوق الحمامة أغبر اللون، أحمر المنقار والرجلين يسمى دجاج البرّ، وهو صنفان: نجدى، وتهامى، النجدى أغبر، والتهامى أبيض، وله شدة فى الطيران. وإذا تقاتل ذكران تبعت الأنثى الغالب. وله شدّة شبق، وأفراخه تخرج من البيض كاسية، ويعمر فى الغالب عشرين سنة، وإذا قوى على غيره أخذ بيضه فحضنه، ومن سرّ الله تعالى أنه إذا أفرخ ذلك البيض تبع الفرخ أمه التى باضته، ومن طبعه أنه يخدع غيره فى قرقرته. ولذلك يتخذه الصيادون فى أشراكهم.

غريبة: قيل إن أبا نصر بن مروان أكل مع بعض مقدمى الأكراد فأتى على سماطه بحجلتين مشويتين فلما رآهما ضحك فقال: مم تضحك؟ قال: كنت أقطع الطريق فى عنفوان شبابى فمرّ بى تاجر فأخذته، فلما أردت قتله تضرع إلى فلم أقله، فلما علم أنه لا بد لى من قتله التفت يمينًا وشمالاً فرأى حجلتين كانتا بقربنا فقال: أشهدا لى أنه قاتلى ظلمًا، فقتلته، فلما رأيت الحجلتين تذكرت حمقه فى استشهاده بهما، فقال أبو نصر: والله لقد شهدا عليك عند من أقادك بالرجل، ثم أمر به فضربت عنقه.

الخواص: لحمها جيد معتدل الهضم، ومرارتها تنفع الغشاوة فى العين، وإذا سعط بها إنسان فى كل شهر مرة حاد ذهنه، وقلّ نسيانه، وقوى بصره.

حدأة: بكسر الحاء وفتح الدال مع همزة، أخسّ الطير تبيض بيضتين وربما باضت ثلاثًا وتحضن عشرين يومًا، ومن ألوانها الأسود والرمادى، وهى لا تصيد إلاّ خطفًا، وفى طبعها أنها تقف فى الطيران، وهى أحسن الطير مجاورة لأنها إذا جاعت لا تأكل كل أفراخ جارها. ويقال إنها طرشاء، وفى طبعها أنها لا تخطف من الجهة اليمنى لأنها عسراء، وهى سنة ذكر، وسنة أنثى كالأرنب.

عجيبة: روى الحافظ النسفى فى «فضائل الأعمال»: أن عاصم بن أبى النجود شيخ القراء فى زمانه قال: أصابتنى خصاصه، فجئت إلى بعض إخوانى فأخبرته بأمرى فرأيت فى وجهه الكراهة فخرجت من منزله إلى الجبانة فصليت ما شاء الله ثم وضعت رأسى على الأرض وقلت: يا مسبب الأسباب، يا فاتح الأبواب، يا سامع الأصوات، يا مجيب الدعوات، يا قاضى الحاجات، اكفنى بحلالك عن حرامك، وأغننى بفضلك عمن سواك. فوالله ما رفعت رأسى حتى سمعت وقعة بقربى فإذا بحدأة قد طرحت كيسًا أحمر فقمت فأخذته فإذ فيه ثمانون دينارًا، وجوهرة ملفوفة فى قطن، قال: فاتجرت بذلك واشتريت لى عقارًا وتزوّجت.

الخواص: مرارتها تجفف فى الظل، وتنقع فى إناء زجاج فمن لسع وقَطَر منها فى ذلك الموضع واكتحل مخالفًا لجهة اللسع ثلاثة أميال أبرأته، ودسمها إذا خلط بقليل من المسك وماء الورد وشرب على الريق نفع من ضيق النفس، وإذا وضع فى بيت لم تدخله حية ولا عقرب.

حرباء: دويبة صغيرة على هيئة السمك ورأسها تشبه رأس الحجل، إذا رأت الإنسان انتفشت وكبرت، ولها أربعة أرجل وسنام كهيئة الجمل، ولها كنى كثيرة منها أم قرة، ويقال لها: جمل اليهود، وهى أبدًا تطلب الشمس فمن أجل ذلك يقال إنها مجوسية وتستقبلها بوجهها وتدور معها كيفما دارت فإذا غابت الشمس أخذت فى كسبها ومعاشها، ويقال إن لسانها طويل نحو ذراع وهو مطوى فى حلقها فلذلك تخطف به ما بعد عنها من الذباب وتبتلعه. والأنثى من هذا النوع تسمى أم حبين، ويقال إنّ الصبيان ينادونها: أم حبين انشرى برديك، إن الأمير ناظر إليك، وضارب بسوطه جنبيك. فإذا زادوا عليها نشرت جناحيها وانتصبت على رجليها، فإذا زادوا عليها أيضًا نشرت أجنحة أحسن من تلك ملوّنة. وإذا مشت تطأطئ برأسها وتتلّون ألوانًا ولذا يقال يتلوّن كالحرباء.

حمار أهلي: معروف ليس في الحيوان من ينزو[1] على غير جنسه إلا هو والفرس، ونزوه بعد تمام ثلاثين شهرًا، وكنيته أبو محمود، وأبو جحش وغير ذلك، وهو أنواع فمنه ما هو لين الأعطاف سريع الحركة، ومنه ما هو بضد ذلك ويوصف بالهداية إلى سلوك الطريق.

لطيفة: في الحديث عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم أنه لما فتح خيبر أصاب حمارًا أسود فكلمه فقال ما اسمك؟ فقال: يزيد بن شهاب أخرج اللّٰه تعالى من نسل جدى ستين حمارًا كلها لا يركبها إلى نبيّ، ولم يبق من الأنبياء غيرك، وكنت أتوقعك لتركبنى، وأنا عند يهودى يجيع بطنى، ويضرب ظهرى، وكنت أعثر به عمدًا، فسماه النبيّ صلى اللّٰه عليه وسلم يعفورًا وقال له: «أتشتهى الإناث؟» قال: لا، وكان صلى اللّٰه عليه وسلم يركبه فى حوائجه، وإذا أراد حاجة عند إنسان أرسله إليه فيدفع الباب برأسه فيخرج صاحب البيت فيعرفه ويقضى حاجته، فلما توفى النبى ذهب إلى بئر كانت لأبى الهيثم فتردّى[2] فيها جزعًا على النبى صلى اللّٰه عليه وسلم فكانت قبره. وقيل هذا الحديث منكر، وقد ذكره السهيلى فى التعريف والإعلام، وللناس فى ذمه ومدحه أقوال متباينة بحسب الأغراض، فَمِنْ مدحه أن أبا صفوان وجد راكبًا على حمار فقيل له فى ذلك. فقال: عير هنئ من نسل الأكراد، يحمل الرحل ويبلغ العقبة، ويمنعنى أن أكون جبارًا فى الأرض. وقال آخر: هو أقل الدواب مؤنة، وأكثرها معونة، وأخفضها مهوى، وأقربها مرتعًا .

وكان حمار أبى يسارةَ مثلاً فى الصحة والقوّة وهو حمار أسود حمل الناس عليه من منى إلى المزدلفة أربعين سنة. وكان خالد بن صفوان، والفضل بن عيسى الرقاشى يختاران ركوب الحمار ويجعلان أبا يسارة قدوة لهما وحجة. ومِنْ ذمّه ما نقل عن عبد الحميد الكاتب أنه قال: لا تركب الحمار فإنه إن كان فارهًا أتعب يدك، وإن كان بليدًا أتعب رجلك. وقيل: ما ينبغى لمركب الدجال أن يكون مركبًا للرجال. وقال أعرابيّ: الحمار بئس المطية إن أوقفته أدلى، وإن تركته ولى، كثير الروث، قليل الغوث، سريع إلى الفرارة، بطئ فى الغارة، لا توقى به الدماء، ولا تمهر[3] به النساء، ولا يحلب فى الإناء. قال الزمخشرى:

إن الحمارَ ومَنْ فوقَهُ حماران شرُّهما الراكبُ

ومن العرب من لا يركبه أبدًا ولو بلغت به الحاجة والجهد. قيل: كان لرجل بالبادية حمار، وكلب، وديك. فالديك يوقظه للصلاة، والكلب يحرسه إذا نام، والحمار يحمل أثاثه إذا رحل. قال: فجاء الثعلب فأكل الديك. فقال: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال: لا حول ولا قوّة إلا باللّٰه العليّ العظيم عسى أن يكون خيرًا، ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمار فقال: عسى أن يكون خيرًا. قال: ثم إن جيرانه من الحىّ أغير عليهم فأُخذوا، فأصبح ينظر إلى منازلهم وقد خلتْ فقيل له: إنما أخذوا بأصوات دوابهم. إنما كانت الخيرة فى هلاك ما عندى فمن عرف لطف اللّٰه رضى اللّٰه بفعله.

حمام: هو أنواع كثيرة والكلام فى الذى ألف البيوت وهو قسمان: أحدهما: يرى، وهو الذى يوجد فى القرى ، والآخر أهلي. وهو أنواع وأشكال فمنه الرواعب، والمراعيش، والشداد، والغلاب، والمنسوب، ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو كان فى مسافة بعيدة، ولأجل ذلك يحمل الأخبار. ومنه من يقطع عشرة فراسخ فى يوم واحد، وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين. وهو على ثبات عقله، وقوة حفظه، حتى يجد فرصة فيطير ويعود إلى وطنه، وسباع الطير تطلبه أشد الطلب، وخوفه من الشاهين أشدّ من غيره وهو أطير منه، لكن إذا

---

(١) ينزو: يثب ويجامع.

(٢) تردّى: وقع.

(٣) لا تمهر: لا يتخذ مهرًا.

أبصره يعتريه ما يعترى الحمار إذا رأى الأسد، والشاة إذا رأت الذئب، والفأر إذا رأى الهر، ومن طبعه أنه لا يريد إلا ذكره إلى أن يهلك أو يفقد أحدهما، ويحب الملاعبة والتقبيل، ويسفد لتمام أربعة أشهر، ويحمل أربعة عشر يومًا، ويبيض بيضتين، ويحضن عشرين يومًا، ويخرج من إحدى البيضتين ذكر، والأخرى أنثى، واتخاذها فى البيوت لا بأس به غير أنه لا يجوز تطييرها والاشتغال بها، والإرتقاء بها على الأسطحة، وعليه حمل أهل العلم قوله عليه الصلاة والسلام: «شيطان يتبع شيطانة» حين رأى شخصًا يتبع حمامة، فإن لم يحصل شيء مما ذكر جاز اتخاذها. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «اتخذوا الحمام فى بيوتكم ؛ فإنها تلهى الجنّ عن صبيانكم». واللعب بها من عمل قوم لوط. وقال النخعي: من لعب بالحمام لم يمت حتى يذوق ألم الفقر. ولم يوجد شيء أبله من الحمام؛ فإنه تؤخذ أفراخه فتذبح فى مكان، ثم يعود فى ذلك المكان ويبيض فيه ويفرخ. وقال الجاحظ: وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمامة قد تباع بخمسمائة دينار، ولم يبلغ ذلك القدر شيء من الطير غيره، وهو الهادر الذى جاوز الغاية. قالوا: ولو دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة. ولو حدثت أن برذونًا أو فرسًا بيع بخمسمائة دينار لكان ذلك سمرًا، وقد تباع البيضة الواحدة من بيض ذلك الحمام بخمسة دنانير، والفرخ بعشرين. فمن كان له زوج منه قام فى الغلة مقام ضيعة، وأصحابه يبنون من أثمانه الدور والحوانيت، وهو مع ذلك ملهى عجيب ومنظر أنيق.

الخواص: دمه ينفع الجراحات العارضة للعين والغشاوة ويقطع الرعاف، ويبرء حرق النار إذا خلط بالزيت منه، وزبله الأحمر ينفع للسع العقرب إذا وضع عليه، وإذا شرب منه مقدار درهمين مع ثلاثة دراهم دار صينى نفع من الحصاة.

حرف الخاء

الخطاف: أنواع كثيرة: فمنه نوع دون العصفور رمادى اللون يسكن ساحل البحر، ومنه ما لونه أخضر، وتسميه أهل مصر الخطار، ونوع طويل الأجنحة رقيق يألف الجبال، ونوع أصفر يألف المساجد يسميه الناس السنونو، وزعم بعضهم أنه الطير الأبابيل، ويقال: إن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض حصل له وحشة فخلق اللّه له هذا الطير يؤنسه؛ فلأجل ذلك لا تجدها تفارق البيوت، وهى تبنى بيتها فى أعلى مكان بالبيت، وتحكم بنيانه وتطينه، فإن لم تجد الطين ذهبت إلى البحر فتمرّغت فى التراب والماء وأتت فطينته، وهى لا تزبل داخله بل على حافته أو خارجًا عنه، وعنده ورع كثير؛ لأنه وإن ألف البيوت لا يشارك أهلها فى أقواتهم ولا يلتمس منهم شيئًا، ولقد أحسن واصفه حيث يقول:

كَنْ زاهدًا فيما حَوَتْهُ يدُ الورى ... تَبْقَى إلى كلِّ الأنامِ حبيبا

وانظر إلى الخَطّافِ حَرَّم زادَهُم ... أضحى مقيمًا فى البيوتِ ربيبا

ومن شأنه أن لا يفرخ فى عشٍّ عتيق، بل يجدد له عشًّا، وأصحاب اليرقان[1] يلطخون أفراخه بالزعفران فيذهب فيأتى بحجر اليرقان ويلقيه فى عشه لتوهمه أن اليرقان حصل لأولاده، وهو حجر صغير فيه خطوط يعرفه غالب الناس، فعند ذلك يأخذه من به اليرقان ويحكه ويستعمله، ومن عجيب أمره أنه يكاد يموت من صوت الرعد، وإذا عمى ذهب إلى شجرة يقال لها: عين شمس فيتمرَّغ فيها فيفيق من غشوته ويفتح عينيه.

---

(١) اليرقان: الديدان.

لطيفة: قيل: إن خطافًا وقف على قبة سليمان وتكلم مع خطافة وراودها عن نفسها فامتنعت. فقال لها: تتمنعين مني ولو شئت قلبت هذه القبة. قال: فسمع سليمان بدعاه وقال: ما حملك على ما قلت؟ فقال: يا نبيّ الله إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم.

الخواص: مرارته تسوّد الشعر ولحمه يورث السهر، وقلبه يهيج الباه إذا أكل جافًا، ودمه يسكن الصداع.

خفاش: طير يوجد في الأماكن المظلمة وذلك بعد الغروب. وقبل العشاء؛ لأنه لا يبصر نهارًا، ولا في ضوء القمر، وقوته البعوض، وهذا الوقت الذي يخرج فيه البعوض أيضًا لطلب رزقه فيأكله الخفاش فيتسلط طالب رزق، على طالب رزق، وهو من الحيوان الشديد الطيران. قيل إنه يطير الفرسخين في ساعة، وهو يعمر مثل النسر، وتعاديه الطيور فتقتله؛ لأنه قيل: إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سأله النصارى في طير لا عظم فيه صنع لهم ذلك بإذن الله تعالى، فهي تكرهه لأنه مباين لخلقتها، ومن طبعه الحنو على ولده حتى قيل: إنه يرضعه وهو طائر.

خنزير: حيوان معروف وله كنى كثيرة منها أبو جهم، وأبو زرعة، وأبو دلف، وهو مشترك بين البهيمة والسبع[1]؛ لأنه ذو ناب ويأكل العشب والعلف وهو كثير الشبق حتى قيل: إنه يجامع الأنثى وهي سائرة فيرى في مشيها ستة أرجل فيتوهم الرائي أنه حيوان بستة أرجل وليس كذلك، والذكر منها يطرد الذكر مثله، فمن غلب استقلّ بالنزو على الأنثى، وتحرك أذنابها في زمن هيجانها وتطأطئ رأسها، وتغير أصواتها، وتحمل من نزورة واحدة، وتحمل ستة أشهر وتضع عشرين ولدًا، وينزو الذكر إذا بلغ ستة أشهر، وقيل: أربعة باختلاف البلاد، وقيل: ثمانية، وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تحمل، وهذا الجنس أسفد الحيوان، والذكر أقوى الفحول، وليس لذوات الأربع ما للخنزير في نابه من القوة حتى قيل إنه يضرب به السيف والرمح فينقطع ما لاقاه، وإذا التقى ناباه من الطول مات؛ لأنهما حينئذٍ يمنعانه من الأكل، ومن عجيب أمره أنه يأكل الحيات ولا يؤثر فيه سمها، وإذا عضّ كلبًا سقط شعره، وإذا مرض وأطعم السرطان يفيق، ومن عجيب أمره أنه إذا ربط على ظهر حمار وبال الحمار وهو على ظهره مات، ولا يسلخ جلده إلا بالقلع مع شيء من لحمه على ما ذكروا.

خنفساء: دويبة تتولد من عفونات الأرض وبينها وبين العقرب مودة، وكنيتها أم فسو؛ لأن كل من وضع يده عليها يشم رائحة كريهة.

فائدة: قيل: إن رجلاً رأى خنفساء فقال: ما يصنع الله بهذه؟ فابتلاه الله تعالى بقرحة عجز الأطباء فيها فبينما هو ذات يوم وإذا بطرقي[2] يقول: من به وجع كذا، إلى أن قال: من به قرحة؟ فخرج إليه ذلك الرجل فلما رأى ما به قال: ائتوني بخنفساء، فضحك منه الحاضرون فقال: ائتوه بالذي يطلب، فأتوه بها فأخذها فأحرقها وأخذ رمادها وجعل منه على تلك القرحة فبرئت، فعلم ذلك المقروح أن الله تعالى ما خلق شيئًا سدى، وأن في أخس المخلوقات أهمَّ الأدوية، فسبحان القادر على كل شيء.

الخواص: إذا قطعت رؤوس الخنافس وجعلت في برج الحمام كثر في ذلك البرج، والاكتحال بما في جوفها من الرطوبة يحد البصر، ويجلو الغشاوة والبياض، وإذا بخر المكان بورق الدلب هربت منه الخنافس على ما ذكر.

خيل: جماعة الأفراس، وسميت بذلك لأنها تختال في مشيتها، وهي من الحيوان المشرَّف، ولقد مدحها الله تعالى ووصّى بها النبي عليه الصلاة والسلام فقال: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة» وقال: «عليكم

---

(١) السبع: الوحوش.

(٢) طرقي: سوقي.

صلى اللّه عليه وسلم قال: «لما أراد اللّه تعالى خلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوب، وقال: إني خالق منك خلقًا فاجتمعي، فاجتمعت، فأتى جبريل فأخذ منها قبضة فخلق اللّه منها فرسًا كميتا، وقال: خلقتك عربيًّا، وفضلتك على سائر البهائم، فالرزق بناصيتك، والغنائم تقاد على ظهرك، وبصهيلك أرهب المشركين وأعز المؤمنين، ثم وسمه بغرة وتحجيل[١]، فلما خلق اللّه تعالى آدم قال له: يا آدم اختر أى الدابتين الفرس أو البراق، فقال: الفرس يا رب، فقال اللّه تعالى: اخترت عزك وعز أولادك». وفى الحديث «ما من فرس إلا ويقول فى كل يوم: اللّهم من جعلتنى له فاجعلنى أحب أهله إليه» وقيل: الخيل ثلاثة: فرس للرحمن وهى المغزو عليها، وفرس لك وهى التى تسابق عليها، وفرس للشيطان وهى التى جعلت للخيلاء. وفى الحديث: «إن الملائكة لا تحضر شيئًا من اللّهو إلا فى مسابقة الخيل، وملاعبة الرجل أهله» ولقد سابق النبى صلى اللّه عليه وسلم على الخيل، وقيل: إن الذكر من الخيل أقوى من الأنثى. ولا يرد علينا ركوب جبريل فى قصة موسى وفرعون الأنثى؛ لأن ذلك من حكمة اللّه تعالى تبعتها أحصنتهم فأغرقوا؛ لأن الحصان إذا رأى الحجرة[٢] تبعها. وقيل: إن اللّه تعالى أمر نبيه موسى عليه الصلاة والسلام أن يعبر البحر فعبره وهم خلفه فأعمى أعينهم عن الماء فكانوا يرون بلقعًا، والخيل تراه ماء، فلولا دخول جبريل البحر بفرسه لما دخلت خيلهم.

وهى أصناف: منها الصافنات وهى التى إذا ربطت فى مكان وقفت على إحدى رجليها، وقلبت بعض الأخرى فى الوقوف، وقيل غير ذلك، وكانت الصافانات ألف فرس لسليمان عليه الصلاة والسلام فعرضها يومًا ففاتته الصلاة قبل صلاة العصر، فأمر بعقرها، فعوضه اللّه عنها الريح فكانت فرسه، وقيل: إنما عقرها على وجه القربى كالهدى. وقيل: إن الفرس لا يحب الماء الصافى لا يضرب فيه بيده، كما يضرب بها فى الماء الكدر فرحًا به؛ فإنه يرى شخصه فى الماء الصافى فيفزعه، ولا يراه فى الماء الكدر، وقد قيل فى الحث على حب الخيل:

أحبـوُّا الخَيْـلَ واصطَـبِروا عليهـا ... فـإن العـزَّ فيهـا والجَمَـالا
إذا مـا الخَيْـلُ ضيّعهـا أُنـاسٌ ... رَبَطْناهـا فأشْـرَكَتِ العيـالا
نُقاسِـمُهَا المعيشـة كـلَّ يَـومٍ ... وتَكْسِـبُنَا الأبَـاعِرَ والجِمَـالا

حرف الدال

دابة: اسم لكل ما دبَّ على الأرض، وأما التى ذكرها اللّه تعالى فى سورة سبأ، فقيل: الأرضة، وقيل: السوسة، وسبب ذلك أن سليمان عليه الصلاة والسلام كان قد أمر الجن ببناء صرح فبنوه، ودخل فيه وأراد أن يصفو له يوم واحد من دهره، فدخل عليه شاب. فقال له: كيف دخلت من غير استئذان؟ فقال: أذن لى رب البيت، فعلم سليمان أن رب البيت هو اللّه تعالى، وأن الشباب ملك الموت أرسل ليقبض روحه، فقال: سبحان اللّه هذا اليوم طلبت فيه الصفاء، فقال: طلبت ما لم يخلق، قال: وكان قد بقى من بناء المسجد الأقصى بقية، فقال: يا أخى يا عزرائيل أمهلنى حتى يفرغ. قال: ليس فى أمر ربى مهلة، قال: فقبض روحه وكان من عادته الانقطاع فى التعبد شهرين وثلاثة، ثم يأتى فينظر ما صنعت الجن، فلما قبض كان متوكئًا على عصاه، واستمر ذلك مدة والجن تتوهم أنه مشرف عليها فتعمل كل يوم بقدر عشرة أيام، حتى أراد اللّه ما أراد فسلط على العصا الأرضة فأكلتها فخر ميتًا فتفرقت الجن عنه. وقيل: إن واحدًا منهم مر عليه فسلم فلم يجبه فدنا منه فلم يجد له نفسًا، فحركه فسقطت العصا فإذا هو ميت. قال: وكان عمره ثلاثًا وخمسين سنة، والعصا التى اتكأ عليها من

(١) تحجيل: بياض فى قوائمها.
(٢) الحجرة: أنثى الخيل.

العصا الأرضة فأكلتها فخر ميتًا فتفرقت الجن عنه. وقيل: إن واحدًا منهم مر عليه فسلم فلم يجبه فدنا منه فلم يجد له نفسًا، فحركه فسقطت العصا فإذا هو ميت. قال: وكان عمره ثلاثًا وخمسين سنة، والعصا التى اتكأ عليها من خرنوب. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾(١) قال: فشكرت الجن الأرضة حتى قيل: إنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت.

وأما الدابة التى من أشراط الساعة فاختلف فى أمرها فقيل: تخرج من الصفا وهو الصحيح، وقيل: من الطائف، وقيل: من الحِجْر، وطولها ستون ذراعًا ذات قوائم، وهى مختلفة الألوان، وذلك فى ليلة يكون الناس مجتمعين بمنى أو سائرين إلى منى، ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب، تلحق المؤمن فتضربه بالعصا فتكتب فى وجهه مؤمن، وتدرك الكافر فتسمه بالخاتم، وتكتب فى وجهه كافر، وروى: أنها تخرج إذا انقطع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقلّ الخير.

دَاجِن: هو ما يربيه الناس فى البيوت من صغار الغنم، والحمام، والدجاج، وغير ذلك، وفى حديث الإفك: «ما نعلَم لها قضية غير أنها جارية حديثة السن، تعجن وتنام فتأتى الداجن فتأكل العجين».

دُبّ: من السباع وكنيته أبو جهينة، وأبو جهل، وغير ذلك، ولا يخرج زمن الشتاء حتى يطيب الهواء، وإذا جاع يمص يديه ورجليه فيندفع جوعه، وهو كثير الشبق، وينعزل بأنثاه وتضع جروًا واحدًا وتصعد به إلى أعلى شجرة خوفًا عليه من النمل؛ لأنها تضعه قطعة لحم ثم لا تزال تلحسه وترفعه فى الهواء أيامًا حتى تنفرج أعضاؤه وتخشن، ويصير له جلد. وفى ولادتها صعوبة وربما ماتت منها، وقد تلده ناقص الخلق شوقًا منها للسفاد، وهى من الحيوان الذى يدعو الإنسان للفعل به، وقيل: إن الدب يقيم أولاده تحت شجرة الجوز ثم يصعد فيرمى بالجوز إليها إلى أن تشبع، وربما قطع من الشجرة الغصن العتل الضخم الذى لا يقطع إلا بالفأس والجهد ثم يشد به على الفارس فلا يضرب أحدًا إلا قتله.

دجاجة: وكنيتها أم ناصر الدين، وأم الوليد، وغير ذلك، وإذا هربت لم يبق لبيضها مح، وتوصف بقلة النوم، وقيل: إن نومها بقدر ما تتنفس، وعندها خوف فى الليل ولأجل ذلك تطلب وقت الغروب مكانًا عاليًا، وتخشى الثعلب، قيل: إنها إذا رأته ألقت نفسها إليه من شدة الخوف ولا تخشى من بقية السباع، وقيل: يعرف الذكر من الأنثى بإمساك منقاره؛ فإن تحرك فذكر، وإلا فأنثى، ومن الدجاج ما يبيض فى اليوم مرتين وهو من أسباب موتها، ويستكمل خلق البيضة فى بطن الدجاجة فى عشرة أيام، وفى الحديث: أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر باتخاذ الغنم للأغنياء، وباتخاذ الدجاج للفقراء. ومن العجيب فى صنعة الله تعالى أن خلق الفروج من البياض، وجعل الصفار غذاء له، كما خلق الطفل من المنى، وجعل دم الحيض غذاء له، فتبارك الله أحسن الخالقين.

الخواص: لحم الدجاج الفتى يزيد فى العقل، ويصفى اللون، ويزيد فى المنى، ويقيم الباه، والمداومة عليه تورث النقرس والبواسير على ما ذكر.

دج: طير كبير أغبر يكون بساحل البحر كثيرًا، وبالقرب من الإسكندرية، والناس يصطادونه ويأكلونه.

دود: اسم جنس، ومنه دود القزّ، ويقال لها: الهندية. ومن عجيب أمرها أنها تكون أوّلاً مثل بزر التين، ثم تصير دودًا وذلك فى أوائل فصلِ الربيع، ويكون عند خروجه مثل الذرِّ فى قدره ولونه، ويخرج فى الأماكن الدافئة إذا كان مصرورًا فى حُق، وربما تأخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن بصرته فيخرج، وغذاؤه ورق التوت الأبيض. قال ولا يزال يكبر حتى يصير بقدر أصبع، وينتقل من السواد إلى البياض، وكل ذلك فى مدّة ستين يومًا. قال: ثم يأخذ فى النسيج بما يخرجه من فيه إلى أن ينفد ما فى جوفه، ثم يخرج شيئًا كهيئة الفراش له

---

(١) سورة سبأ: ١٤.

البزر، وإن أريد الحرير تركا فى الشمس بعد فراغهما من النسج فيموت، وهو سريع العطب حتى إنه ليخشى عليه من صوت الرعد والعطاس، ومسِّ المرأة الحائض، والرجل الجنب، ورائحة الدخان، والحرِّ الشديد، والبرد الشديد، ونحو ذلك. قال أبو الفتح السبتي:

ألم ترَ أن المَرْءَ طَولَ حياتِهِ ... معنىٌّ بأمرٍ لا يزالُ يعالجه
كذلك دودُ القزّ ينسجُ دائمًا ... ويهلكُ غمًّا وسطَ ما هو ناسجه

وقال آخر:

يُفنى الحريصُ بجمع المال مدَّتَهُ ... وللحوداث ما يبقى وما يَدَعُ
كدودةِ القزّ ما تبنيه يُهلكها ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفعُ

ديك: وكنيته أبو حسان، وأبو حماد، وغير ذلك. ويسمى الأنيس والمؤانس، ومن طبعه لا يألف زوجة واحدة، وهو أبله الطبيعة؛ لأنه إذا سقط من بيت أصحابه لا يهتدى إلى الرجوع إليه، وفيه من الخصال الحميدة ما لا يحصر: منها أنه يساوى بين أزواجه فى الطعمة، ويذكر اللّه تعالى فى الليل حتى قيل إنه ليوقته، ويقسمه، وربما لا يخرم فى توقيته. وفى الحديث «إذا سمعتم صياح الديك فاذكروا اللّه تعالى فإنه يصيح بصياح ديك العرش».

وروى الغزالى عن ميمون بن مهران: إن للّه ملكًا تحت العرش على صورة الديك. فإذا مضى ثلث الليل الأوَّل ضرب بجناحه وقال: ليقم الذاكرون، فإذا كان السحر وطلع الفجر ضرب بجناحيه وقال: ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم. وفى الحديث: أن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «إنّ للّه ديكًا أبيض له جناحان موشحان بالزبرجد، والياقوت، واللؤلؤ، جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب، ورأسه تحت العرش، وقوائمه فى الهواء، فإذا كان ثلث الليل الأوَّل خفق بجناحيه وقال: سبحان الملك القدُّوس، فإذا كان الثلث الثانى خفق بجناحيه وقال: قدّوس، فإذا كان الثلث الثالث خفق بجناحيه وقال: ربنا الرحمن الرحيم لا إله إلا هو». وروى الثعلبى بإسناده عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «ثلاثة أصوات يحبها اللّه تعالى: صوت الديك، وصوت قارئ القرآن، وصوت المستغفر بالأسحار».

وفى الحديث: «لا تسبوا الديك؛ فإنه يوقظ للصلاة».

وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق لم يزل ينكب فى أهله وماله.

نادرة: قيل: كان لإبراهيم بن مزيد ديك، وكان كريمًا عليه، فجاء العيد وليس عنده شىء يضحى عليه، فأمر امرأته بذبحه واتخاذ طعام منه، وخرج إلى المصلى فأرادت المرأة أن تمسكه ففرَّ فتبعته، فصار يخترق من سطح إلى سطح وهى تتبعه، فسألها جيرانها وهم قوم هاشميون عن موجب ذبحه، فذكرت لهم حال زوجها. فقالوا: ما نرضى أن يبلغ الاضطرار بأبى إسحاق إلى هذا القدر، فأرسلى إليه هذا شاة، وهذا شاتين، وهذا بقرة، وهذا كبشًا حتى امتلأت الدار، فلما جاء رأى ذلك قال: ما هذا؟ فقصت عليه زوجته القصة، فقال: إن هذا الديك لكريم على اللّه؛ فإنَّ إسماعيل نبىّ اللّه فدى بكبش واحد، وهذا فدى بما أرى.

حرف الذال

ذباب: وكنيته أبو جعفر، وهو أصناف كثيرة يتولد من العفونة. ومن عجيب أمره أنه يلقى رجيعه على الأبيض يسودّ، وعلى الأسود يبيض، ولا يقعد على شجرة الدباء. وفى الحديث: «إذا وقع الذباب فى إناء

أحدكم فليغمسه؛ فإنَّ في أحد جناحيه دواء وفي الآخرة داء»[1] ، وإنّ من طبعه أن يلقى نفسه بالجناح فيه الداء.

وحكى أن المنصور كان جالسًا فألح عليه الذباب حتى أضجره. فقال: انظروا من بالباب من العلماء؟ فقالوا: مقاتل بن سليمان فدعا به، ثم قال له: هل تعلم لأى حكمة خلق اللّه الذباب؟ قال: ليذلَّ به الجابرة. قال: صدقت ثم أجازه. ومن خصائص النبيّ صلى اللّه عليه وسلم أنه كان لا يقع عليه ذباب قط. وقال المأمون: قال آةّ الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن ألمه، فلسعنى زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن له ألم، فقالوا: هذا كان حتفًا[2] قاضيًا، ولولا هذا العلاج لقتلك. وقال الجاحظ: من منافع الذباب: أنها تحرق وتخلط بالكحل، فإذا اكتحلت به المرأة كانت عينها أحسن ما تكون. وقيل: إن المواشط تستعمله ويأمرن به العرائس، وقيل: إن الذباب إذا ما ألقى عليه برادة الحديد عاش، وإذا بخر البيت بورق القرع هرب منه الذباب.

ذئب: حيوان معروف وكنيته أبو جعدة، وأبو جاعد، وأبو ثمامة، لونه رمادى، وهو من الحيوان الذى ينام بإحدى عينيه ويحرس بالأخرى حتى تلمّ فيغمضها ويفتح الأخرى.

كما قال بعض واصفيه:

ينــامُ بـإحدى مقلَتَيْــه ويتَقـــى بـأخرى المنايا فهو يقظانُ هـاجع[3]

وإذا أراد السفاد اختفى، ويطول فى سفاده كالكلب، وإذا جاع عوى فتجتمع الذئاب حوله، فمن هرب منها أكلوه، وإذا خاف منه الإنسان طمع فيه، وليس فى الأرض أسد يعضّ على عظم إلا ويسمع لتكسيره صوت بين لحييه إلا الذئب؛ فإن لسانه يبرى العظم برى السيف ولا يسمع له صوت. وقيل: إذا أدماه الإنسان فشمَّ الذئب رائحة الدم لا يكاد ينجو منه، وإن كان أشدّ الناس قلبًا وأتمهم سلاحًا، كما أن الحية إذا خدشت طلبها الذرّ، فلا تكاد تنجو منه، وكالكلب إذا عضّ الإنسان يطلبه الفأر فيبول عليه فيكون فى ذلك هلاكه فيحتال له بكل حيلة. قيل: ولا يعرف الالتحام عند السفاد إلا فى الكلب والذئب، وإذا هجم الصياد على الذئب والذئبة وهما يتسافدان قتلهما كيف شاء، واللّه أعلم.

حرف الراء

رخ: طير عظيم الخلقة يوجد بجزائر الصين. قال أبو حامد الأندلسى: ذكر لى بعض المسافرين فى البحر أنهم أرسوا بجزيرة، فلما أصبحوا وجدوا فى طرفها لمعانًا وبريقًا فتقدموا إليه وإذا هم بشىء مثل القبة قال: فجعلوا يضربون فيه بالفؤوس إلى أن كسروه فوجدوه كهيئة البيضة وفيه فرخ عظيم، قال: فتعلقوا بريشة وجرُّوه ونصبوا القدور وخرجوا يحتطبون من تلك الجزيرة حطبًا يقال له حطب الشباب، فلما أكلوا ذلك الطعام أسودَّت لحية ولمة كل ذى شيب، قال: فلما أصبحوا جاءهم الرخ فوجدهم قد صنعوا بفرخه ما صنعوا، فذهب وأتى فى رجليه بحجر عظيم وتبعهم بعد ما ساروا فى البحر وألقاه على سفينتهم فسبقت السفينة وكانت مشرعة بتسع قلوع[4] ووقع الحجر فى البحر فنجاهم اللّه تعالى منه، وكان ذلك من لطف اللّه تعالى بهم، وقال: وقد كان بقى معهم أصل ريشة، قيل: إنهم كانوا يجعلون فيها الماء فتسع مقدار قربة، فسبحان الخالق الأكبر.

---

(١) أخرجه: البخارى فى الطب ٥٧٨٢.

(٢) الحتف: الهلاك.

(٣) هاجع: نائم.

(٤) قلوع: الشراع.

رخم: طير أغبر أصفر المنقار معروف وهو من أشرّ الطيور، ويقال: إنه صماء، وسبب ذلك ما قيل فى بعض الحكايات أن موسى عليه الصلاة والسلام لما توفى تكلمت بوفاته وكانت تعرف مكانه، فأصمها اللّٰه تعالى حتى لا ترشد أحدًا إلى موضعه.

حرف الزاى

زرافة: حيوان غريب الخلقة، ولما كان مأكولها ورق الشجر خلق اللّٰه تعالى يديها أطول من رجليها، وهى ألوان عجيبة يقال: إنها متولدة من ثلاث حيوانات: الناقة الوحشية، البقرة الوحشية، والضبع، فينزو الضبع على الناقة، فتأتى بذكر فينزو ذلك الذكر على البقرة فتتولد منه الزرافة، والصحيح أنها خلقة بذاتها، وذكر وأنثى كبقية الحيوانات؛ لأن اللّٰه تعالى لم يخلق شيئًا إلا بحكمة.

زنبور: حيوان فوق النحل له ألوان وقد أودعه اللّٰه حكمة فى بنيانه بيته، وذلك أنه يبنيه مربعًا له أربعة أبواب، كل باب مستقبل جهة من الرياح الأربعة، فإذا جاء الشتاء دخل تحت الأرض، ويبقى إلى أيام الربيع فينفخ اللّٰه تعالى فيه الروح فيخرج ويطير، وفى طبعه التهافت على الدم واللحم، ومن خاصيته: أنه إذا وضع فى الزيت مات، وفى الخل عاش، ولسعته تزال بعصارة الملوخية.

حرف السين

سعلاة: نوع من المتشيطنة. قال السهيلى: هو حيوان يتراءى للناس بالنهار، ويغول بالليل، وأكثر ما يوجد بالغياض، وإذا انفردت السعلاة بإنسان وأمسكته صارت ترقصه وتعلب به كما يلعب القط بالفأر، قال: وربما صادها الذئب وأكلها، وهى حينئذٍ ترفع صوتها وتقول: أدركونى فقد أخذنى الذئب، وربما قالت: من ينقذنى منه وله ألف دينار، وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك فلا يلتفتون إلى كلامها.

سمندل: حيوان يوجد بأرض الصين، ومن عجيب أمره أنه يبيض فى النار ويفرخ فيها ويؤخذ وبره فينسج ويجعل منه المناشف، وهذه المناشف إذا اتسخت جعلت فى النار فتأكل النار وسخها ولا تحرقها.

حكى أن شخصًا بلَّ واحدة من هذه المناشف بالزيت، وجعلت فى النار وأوقدت ساعة ولم تحترق.

سنجاب: حيوان كهيئة الفأر يوجد فى بلاد الترك على قدر اليربوع إذا أبصر الإنسان هرب منه، وشعره كشعر الفأر، وهو ناعم فيؤخذ ويسلخ جلده ويجعل فروًا يلبس، وطبعه موافق لكل طبع، وأحسنه الأزرق.

سنور: حيوان متواضع ألوف خلقه اللّٰه تعالى لدفع الفأر والحشرات، كُنَاه وأسماؤه كثيرة.

حكى إن إعرابيًّا صاد سنّورًا فرآه شخص. فقال: ما تصنع بهذا القط؟ ولقيه آخر فقال: ما تصنع بهذا الخيدع؟ ولقيه آخر فقال: ما تصنع بهذا الخيطل؟ ولقى آخر فقال: ما تصنع بهذا الهر؟ قال: أبيعه. قال له: بكم؟ قال: بمائة درهم، فقال: إنه يساوى نصف درهم. قال: فرمى به وقال: لعنه اللّٰه ما أكثر أسماءه وأقل قيمته، وهذا الحيوان يهيج فى زمان الشتاء فى شهرين منه. وتراهن يترددن صارخات فى طلب السفاد، فكم من حرة خجلت، وذى غيرة هاجت حميته، وعزب تحركت شهوته. وطيب فم السنور كطيب فم الكلب فى النكهة، وقيل: إنّ الهرة تحمل خمسين يومًا، وهو يجمع بين العض بالناب والخمش بالمخلاب. وليس كل سبع كذلك، وهو يناسب الإنسان فى بعض الأحوال فيعطس ويتمطى، ويغسل وجهه بلعابه، ويلطخ وبر ولده بلعابه حتى يصير كأن الدهن يسرى فى جلده. وقيل: إذا بال الهرُّ شم بوله ودفنه، قيل لأجل الفأر، فإذا شمه علم أن هناك هرًّا فلم

يخرج، وأما سنور الزباد[1] فهو بأرض الهند، ويوجد الزباد تحت إبطيه وفخذيه.

سوس: هو دود الحبوب والفاكهة، ومن الفوائد التى تكتب فى الحبوب فلا تسوّس أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة وقد نظمها بعضهم فقال:

ألا كـلُّ مَـنْ لا يقتـدى بأئمـةٍ فقسمته ضيزى[2] عـن الحقّ خارجَـهْ
فخُذْهُـم عبيـد اللّـه عُـرْوَةَ قَاسِـمٍ سَعْيدُ أبـو بكـر سُـلَيْمَان خَارجَـهْ

حرف الشين

شادهوار: حيوان يوجد بأرض الترك يقال: إن له قرنًا عليه اثنتان وسبعون شعبة مجوَّفة، فإذا هبت الريح سمع لها تصويت عجيب يكاد يدهش، وربما قيل إن فيه شعبة يورث سماعها البكاء والحزن وأخرى تورث الفرح والضحك، وأنه أهدى إلى بعض الملوك شىء من شعبها فرأى فيه ذلك. ويقال: إن من الحيوان شيئًا يوجد بالغياض فى قصبة أنفه اثنا عشر ثقبًا؛ إذا تنفس يسمع له صوت كصوت المزمار، فتأتيه الحيوانات لتسمعه فتدهش فيغفل بعضها من الطرب فيثب عليه فيأخذه ويأكله، وهى تعلم ذلك منه وتحترز، فإذا لم يمسك بها شيئًا ضاق خلقه، وصاح بها صيحة فتهرب وتتركه.

شاهين: طير يكون كهيئة الصقر إلا أنه عظيم الهامة، واسع العينين ومزاجه أيبس من مزاج الصقر، وحركته من العلو إلى أسفل أقوى، وذلك ينقض على الطير بشدة فربما يخطئه فيضرب نفسه بالأرض بشدة فيموت، وقيل: أوّل من صاده قسطنطين، وذلك أنه قد جعل له الحكماء الشواهين تظله من الشمس إذا سار، فاتفق فى بعض الأيام أنه ركب فدارت الشواهين عليه وسار. قال: فطار واحد منها وانقضّ على صيد فأخذه، فأعجب الملك ذلك وصار يتصيد به.

شحرور: طير أسود فوق العصفور يصوِّت بأصوات عجيبة مطربة.

حرف الصاد

صرد: حيوان يسمى الصرصار على قدر الخنفساء له جناحان ويقال له: الصوام لأنه أوَّل طير صام يوم عاشوراء.

صعو: طير من صغار العصافير أحمر الرأس.

حرف الضاد

ضأن: نوع من الحيوانات ذوات الأربع وهو من الحيوات المباركة تحمل الأنثى منه بواحد واثنين، وفيها البركة، وإذا رعت زرعًا نبت عوضه وذلك لبركتها بخلاف غيرها من ذوات الأربع، ومن عجيب أمرها أنها إذا رأت الذئب تخور وتخاف منه ولا تخاف من سائر السباع. قال بعض القصاص: مما أكرم اللّه تعالى به الكبش أن خلقه مستور العورة من قبل ومن دبر، ومما أهان به التيس أن خلقه مهتوك الستر مكشوف العورة من قبل ومن دبر، ويقال الضأن من دواب الجنة، وهى صفوة اللّه من البهائم. ويقال فى المدح: وهو كبش من الكباش، وفى الذمِّ: هو تيس من التيوس. وأهدى بعضهم إلى صديقه شاة هزيلة فقال:

---

(١) الزباد: قط يستخرج من طيب.

(٢) ضيزى: غير عادلة.

تقـولُ لى الإخـوانُ حـينَ طبختهـا أتطبـخُ شـطرنجاً عظامًـا بـلا لحـم

ومن العجب أن يأتى غنم من الهند، للكبش منها ألية[١] فى صدره، وأليات فى كتفيه، وألية علـى ذنبه وربما تكبر ألية الضأن حتى تمنعه من المشى، ومن عجيب أمرها: أنها إذا تسافدت وقت المطـر لا تحمـل، وعنـد هبـوب الريح إن كانت شمالية حملت ذكرًا، أو جنوبية أنثى، والله أعلم.

ومن خواصها: أن لحمها ينفع للسوداء ويزيد فى المنى والبـاه، وإذا تحملت المرأة بصوفها قطع حبلها، وإذا غطى إناء العسل بصوف الضأن الأبيض منع وصول النمل إليه، وإذا دفن كبش تحت شجرة كثر حملها على ما ذكر، والله أعلم.

ضبّ: حيوان جعل حجره فى الأرض الصلدة، وعنده بلد فربما لا يهتـدى لحجره إذا خرج منه، فلذلك لا يحفره إلا بقرب كودية[٢]، أو إشارة، وهو من الحيوان الذى يعمر، قيل: إنه يعيش سبعمائة سنة، ومن طبعه أنه يصبر على الماء يقال إنه لا يشرب؛ فإنه يبول فى كـلِّ أربعين يومًا قطرة، والأنثى تبيض سبعين بيضة وأكثر وتجعلها فى الأرض وتتعاهدها فى كلّ يوم إلى أربعين يومًا فيخـرج، وبيضها قـدر بيض الحمام، وهذا الحيوان شديد الخوف من الآدمى، ولذلك يجعل العقارب فى جحـره حتى يمتنع بها، ويخرج من جحره كليل البصر فيستقبل الشمس؛ فيحصل له بذلك حدَّة فى بصره، وإذا عطش تنشق النسيم فيروى، وبينه وبين الأفاعى مناسبة؛ وذلك أنه لا يخرج زمن الشتاء.

فائدة: قيل إن أعرابيًا أتى النبى صلى الله عليه وسلم وفى كمه ضبّ قد صاده وقال: لولا أن تسميني العرب عجولاً لقتلتك وسررت الناس بقتلك. فقال عمر: دعنى يا رسول الله أقتله، فقال عليه الصلاة والسلام: «مهلاً يا عمر، أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبيًّا»، قال: ثم أقبل الأعرابى على النبىَّ صلـى الله عليه وسلم وقـال: والله آمنت بك إلا أن يؤمن بك هذا الضب، وأخرجه مـن كمـه، قـال: فعنـد ذلـك قـال النبى صلى الله عليه وسلم:« يا ضب » فأجابه بلسان فصيح: لبيك وسعديك يا رسول الله رب العالمين. فقـال: «مَنْ تعبد؟» قـال: الذى فى السماء عرشه، وفى الأرض سلطانه، وفى البحر سبيله، وفى الجنة رحمته، وفى النار عذابه. فقال: «مَنْ أنا يا ضبّ؟» قال: رسول رب العالمين قد أفلح مَنْ صدّقك وقد خـاب مَنْ كذبـك. قـال: فقـال الأعرابى عند ذلك: يا ويلاه ضب اصطدته بيدى من البرية يشهد لك بالرسالة، أنا أولى منه بذلك؛ هات يدك أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله حقًّا، ولقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أكثر بغضًـا منى لـك، ولقـد صرت الآن اذهب من عندك وما على وجه الأرض أحد أكثر محبة منى لك، ولأنت الساعة أحب إلى من أهلي وولـدى وما تملك يدي فقد آمن بك شعرى وبشرى، وداخلى وخارجى، وسرى وعلانيتي. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «الحمد لله الذى هداك لهذا الدين الذى يعلو ولا يعلى عليه، ولكن لا يقبله الله إلا بصـلاة، ولا يقبـل الصلاة إلا بقراءة». قال: فعلمنى يا حبيبى. قال: فعلمه سورة الفاتحة، وسورة الإخلاص، وقـال: «مَنْ قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن». وقال: إلهنا يقبل اليسير، ويعفو عن الكثير، ثم سأله: ألك مال؟ فقال: يا حبيبى ليس فى بنى سليم أفقر منى. قال لأصحابه: «أعطوه» فأعطوه حتى أثقلوه. فقال عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله عندى ناقة عشارية أعطيها له؟ فقال: إن الله يعطيك ناقة فى الجنة من درة، قوائمها من الزبرجد الأخضر، وعيناها من الياقوت الأحمر، وعليها هوجد من السندس تخطفك من الصراط كالبرق. قال: فخرج الأعرابى مـن عنده فتلقاه ألف فارس من المشركين كلهم يريدون قتل النبى صلى الله عليه وسلم. فأخبرهم بقصته فأسلموا عن آخرهم.

---

(١) ألية: كتلة دهنية توضع فى مؤخرته.

(٢) كودية: قلة ترابية.

وأمّر النبى صلى اللّه عليه وسلم خالد بن الوليد عليهم. وهذه القصة ذكرها الدارقطنى بتمامها والبيهقى، والحاكم، وابن عدى.

الخاوص: قلبه يذهب الحزن والخفقان، وشحمه يطلى به الذكر يزيد فى الباه، وكعبه يشد على وجع الضرس يبرأ، وإذا جعل على وجه فرس لا يسبقه شيء، وبعره يذهب البرص والكلف طلاء، ومن أكل لحمه لا يعطش زمانًا طويلاً.

ضبع: حيوان معروف، ومن كناه أم عامر، ومن طبعه حبُّ لحم الآدمى حتى قيل: إنه ينبش القبور، وإذا مرَّ بإنسان نائم حفر تحت رأسه ووثب عليه وبقر بطنه وشرب دمه.

الخواص: من شرب دمه ذهب وسواسه، ومن علق عليه عينه أحبه الناس، وإذا جعلها فى خل سبعة أيام ثم جعلها تحت فص خاتم، فكل من كان به سحر وجعل الخاتم فى قليل ماء وشربه زال سحره.

ضفدع: حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجرى، ومن العفونات، وعقيب الأمطار، وأول ما يظهر مثل الحب الأسود ثم ينمو ثم تتشكل له الأعضاء، وإذا نقّ جعل فكه الأسفل فى الماء والأعلى من خارج، وفى صوته حدة. قال سفيان: ليس من الحيوانات أكثر ذكرًا للّه تعالى من الضفدع. وفى الآثار: أن داود عليه الصلاة والسلام قال: لأسبحن اللّه تعالى بتسبيح ما سبحه أحد قبلى، فنادته ضفدعة: يا داود تَمُنَّ على اللّه تعالى بتسبيحك وأنا لى تسعون سنة ما جف لسانى عن ذكر اللّه تعالى! قال: فما تقولين فى تسبيحك؟ قالت: أقول: سبحان من هو مسبح بكل لسان، سبحان من هو مذكور بكل مكان، فقال داود: وما عسى أن أقول! وقال بعضهم: إنها كانت تأخذ الماء بفيها وتجعله على نار إبراهيم الخليل، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

حرف الطاء

طاووس: طير مليح ذو ألوان عجيبة، وعنده الزهو فى نفسه والعجب، ومن طبعه العفة، وهو من الطير كالفرس من الحيوان، والأنثى تبيض حتى يمضى لها من العمر ثلاث سنين، وفى ذلك الأوان يكمل ريش الذكر، ويتم لونه. وتبيض الأنثى مرة واحدة فى كل شهر، ففى السنة اثنتا عشرة بيضة أو أقل، أو أكثر، ويسفد الذكر فى أيام الربيع، ويرمى ريشه فى أيام الخريف كالشجر فإذا بدا طلوع الورق طلع ريشه، ومدة حضنه ثلاثون يومًا.

فائدة: قيل: إن آدم لما غرس الكرمة جاء إبليس لعنه اللّه فذبح عليها طاووسًا فشربت دمه، فلما طلعت أوراقها ذبح قردًا فشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسدًا فشربت دمه، فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيرًا فشربت دمه، فمن أجل ذلك تجد شارب الخمر أول ما يشربها وتدب فيه يزهو بنفسه، ويمشى عجبًا كالطاوس، فإذا جاء مبادى السكر لعب وصفق بيده كالقرد، فإذا قوى سكره قام وعربد كهيئة الأسد، فإذا انتهى سكره انقبض كما ينقبض الخنزير، ثم يطلب النوم. والناس تتشاءم بإقامته بالدور؛ قيل: لأنه كان سببًا لدخول إبليس الجنة وخروج آدم منها، واللّه على كل شيء قدير.

حرف الظاء

ظبى: واحد الغزلان وهو ثلاثة أصناف: الأول: الآرام وهو ظباء الرمل ولونها رمادى وهى سمينة العنق، والثانى: العفر ولونه أحمر وهى قصيرة العنق، والثالث: الأدم وهى طويلة العنق وتوصف بحدة البصر. وقيل: إن الظبى يقضم الحنظل قضمًا ويمضغه مضغًا، وماؤه يسيل من شدقيه، ويرد الماء الملح فيشرب الماء الأجاج، ويغمس خرطومه فيه كما تغمس الشاة لحييها فى الماء العذب، فأى شيء أعجب من حيوان يستعذب ملوحة البحر ويستحلى مرارة الحنظل.

الخواص: لسانه يجفف ويعطى للمرأة السليطة[1] تزول سلاطتها، وبعره وجلده يحرقان ويسحقان ويجعلان في طعام الصبى، يزيد ذكاؤه ويصير فصيحًا ذلقًا[2] حافظًا.

ظربان: دويبة فوق جرو الكلب، منتنة الريح تزعم العرب أن من صادها وفست في ثوبه لا تزول الرائحة منه حتى يغلى الثوب.

ويحكى من شؤمها أنها تأتي بيت الظبي فتفسو فيه ثلاث مرات فتقتل ما فيه وتأكله بعد ذلك.

حرف العين

عجل: حيوان معروف، وهو ذكر البقر وسمى بذلك لاستعجال بنى إسرائيل بعبادته، والسبب في ذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام وقت اللّه له ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، وكان فيهم شخص يسمى موسى بن ظفر السامرى في قلبه من حب عبادة البقر شيء، فابتلى اللّه به بنى إسرائيل فقال: ائتونى بحلى، قال: فأتوه جميع حليهم فصنع منه عجلاً جسدًا، وألقى عليه قبضة من التراب الذى كان أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار له خوار، كما أخبر اللّه تعالى، فكفوا على عبادته من دون اللّه تعالى وكانوا يأتون إليه ويرقصون حوله ويتواجدون[3] فيخرج منه تصويت كهيئة الكلام فيتعجبون من ذلك، ويظنون أنه تكلم وإنما فعل ذلك بإغواء إبليس لعنه اللّه حتى يطغيهم.

فائدة: نقل القرطبى عن سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمهما اللّه، أنه سئل عن قوم يجتمعون في مكان فيقرأون من القرآن، ثم ينشد لهم الشعر فيرقصون ويطربون، ثم يضرب لهم بعد ذلك بالدف والشبابة، هل الحضور معهم حلال أم حرام؟ فقال: مذهب الصوفية أن هذه بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب اللّه وسنة رسوله صلى اللّه عليه وسلم، وأما الرقص والتواجد: فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذوا العجل؛ فهذه الحالة هى حالة عبَّاد العجل، وإنما كان النبى صلى اللّه عليه وسلم مع أصحابه في جلوسهم كأنما على رؤوسهم الطير مع الوقار والسكينة، فينبغى لولاة الأمر وفقهاء الإسلام أن يمنعوهم من ا' نور في المساجد وغيرها، ولا يحل لأحد يؤمن باللّه واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم. هذا مذهب الشافعيه، وأبى حنيفه، ومالك، وأحمد بن حنبل رحمهم اللّه تعالى.

عقرب: هو من الحشرات. قال الجاحظ: إنها تلد من فيها مرتين، وتحمل أولادها على ظهرها، وهم كهيئة القمل كثيرو العدد، وقال غيره: إذا حملت تسلط عليها أولادها فأكلوا بطنها وخرجوا كهيئة الذر، ثم يكبرون ويطوفون بالأرض، ولها ثمانية أرجل، ومن عجيب أمرها: أنها لا تضرب النائم إلا إذا تحرك شيء منه، والخنافس تأوى إليها، وربما لسعت التنين العظيم فقتلته.

غريبة: قال ذو النون المصرى بينما أنا في بعض سياحتى إذ مررت بشاطئ البحر فرأيت عقربًا أسود قد أقبل إلى أن جاء إلى شاطئ البحر، فظننت أنه يشرب فقمت لأنظر فإذا بضفدع قد خرج من الماء وأتاه فحمله على ظهره وذهب به إلى ذلك الجانب.

قال ذو النون: فاتزرت بمئزرى وعمت خلفه، حتى إذا صعد من ذلك الجانب صعدت وسرت وراءه فما زال حتى جاء إلى شجرة فوجدت تحتها غلامًا نائمًا من شدة السكر قد أقبل عليه تنين عظيم. قال: فلصقت العقرب

---

(١) السليطة: كثيرة الكلام وقحته.

(٢) ذلقًا: حاذقة.

(٣) يتواجدون: يبثون أحزانهم.

برأس التنين ولسعته فقتلته، ثم رجعت إلى ظهر الضفدع فعبر بها الماء وسار بها إلى المكان الذى جاءت منه. قال ذو النون فتعجبت وأنشدت:

يـــا راقـــدًا والجليـــلُ يحفظـــه ... من كـل سـوءِ يكـونُ فـى الظّلَـمِ
كيـفَ تنـامُ العيـونُ عـن ملـكٍ ... يـــأتيكَ منـــه فوائـــدُ النّعَـــمِ

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بذلك. قال: فلما سمع ذلك قال: أشهدك علىّ أنى قد تبت عن هذه الخصلة، ثم جرينا ذلك التنين ورميناه فى البحر، ولبس ذلك الغلام مسحًا[١] وساح إلى أن مات رحمة اللّه تعالى عليه، وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا لم يســالمك الزمـــانُ فحـــاربِ ... وبـــاعِدْ إذا لم تنتفِـــعْ بالأقـــاربِ
ولا تحتَقِـرْ كيـدَ الضعيـفِ فربمـا ... تموتُ الأفاعى من سمـومِ العقـاربِ
فقد هـدَّ قدمًا عـرش بلقيسَ هدهـدٌ ... وخـرَّبَ فـأرٌ قبـل ذا سـدَّ مـاربِ
إذا كـانَ رأسُ المالِ عمـرك فاحـترِزْ ... عليه من التضييع فى غير واجـبِ
فبـينَ اختـلافِ الليلِ والصبحِ معـركٌ ... يكـرُّ علينـا جيشُـه بالعجـائبِ

فائدة: إذا لدغ أحد فاقرأ عليه هذه الكلمات وهى: سلام على نوح فى العالمين، وصلى اللّه على سيدنا محمد فى المرسلين من حاملات السم أجمعين، لا دابة بين السماء والأرض إلا ربى آخذ بناصيتها كذلك يجزى عباده المحسنين، إن ربى على صراط مستقيم. نوح قال لكم: من ذكرنى لا تلدغوه، إن ربى بكل شىء عليم، وصلى اللّه على سيدنا محمد الكريم.

وقال بعض العلماء: من قال: عقدت زبان[٢] العقرب، ولسان الحية، ويد السارق بقول: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه؛ أمن من العقرب، والحية، والسارق، وفى البخارى: أن رجلاً جاء إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم، وقال: يا رسول اللّه، ماذا لقيت من عقرب لدغتنى البارحة؟ فقال له النبى صلى اللّه عليه وسلم: «أما إنك لو قلت إذا أمسيت: أعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق لم تضرك» وروى الترمذى: «إن من قال حين يمسى: أعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق» ثلاث مرات، ثم قال:« سلام على نوح فى العالمين؛ لم تضره الحية والعقرب» والسر فى ذكر نوح دون غيره: هو أنه لما ركب فى السفينة سألته الحية والعقرب أن يحملهما معه؛ فشرط عليهما أنهما لا يضران من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك.

الخواص: من بخر البيت بزرنيخ أحمر وشحم بقر، هربت منه العقارب، ومن شرب مثقالين من حبِّ الأترج أبرأه من سمها، ومن علق عليه شىء من ورق الزيتون برئ أيضًا لوقته.

عقعق: طير ذو لونين طويل الذنب قدر الحمامة على شكل الغراب وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة، وهو لا يأوى إلا إلى الأماكن العالية، وإذا باض جعل حول بيضه ورق الدلب[٣] خوفًا عليه من الخفاش لا يفسده.

الخواص: دمه إذا جعل على قطن وألصق على موضع النصل، والشوكة الغائبة فى البدن أخرجه.

علق: دود أحمر وأسود يكون بالماء يعلق بالخيل والآدمى، فإذا علقت بك فَرُشَّ عليها ماء وملحًا، وإذا علقت بفرس فبخره بوبر الثعلب؛ فإنها تنفصل من رائحة دخانه.

---

(١) مسحًا: لباس التقشف والرهبنة.

(٢) زبان: إبرته ومكمن الحدة.

(٣) الدلب: شجر متوسط حجم الورق.

ومن خواصه: أن البيت إذا بخر به هرب ما فيه من البقّ والبعوض، وإذا جفف وسحق وقلع الشعر وطلى به مكانه منع نباته.

عنقاء: اختلف فيها، فقال بعضهم هو طائر عظيم الخلقة له وجه إنسان، وفيه من كل حيوان لون. وقال بعضهم: هو طائر غريب الشكل يبيض بيضًا كالجبال، ويبعد فى طيرانه، وسميت بذلك؛ لأنه كان فى عنقها طوق أبيض، قال القزوينى: إنها تخطف الفيلة لعظمها وكبر جثتها كما تخطف الحدأة الفأر. وقال: وكانت فى قديم الزمان بين الناس إلى أن خطفت عروسًا بحليها، فذهب أهلها إلى نبى ذلك الزمان فشكوها إليه، فدعا عليها، فذهب بها إلى بعض الجزائر التى خلف خط الاستواء وهى جزيرة لا يصل إليها أحد، وجعل لها فيها ما تقتات به من السباع كالفيل والكركند وغير ذلك. وقال أصحاب التواريخ: إن هذا الطير يعمر حتى قيل إنه يعيش ألفى سنة، ويتزوَّج إذا مضى عليه خمسمائة.

وحكى الزمخشرى فى ربيع الأبرار: أن اللّٰه تعالى خلق فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام طيرًا يقال له العنقاء له وجه كوجه الإنسان، وأربعة أجنحة من كل جانب، وخلق له أنثى مثله، ثم أوحى اللّٰه تعالى إلى موسى أنى خلقته كهيئة الطير، وجعلت رزقه الوحوش والطير التى حول بيت المقدس. قال: فتناسلا وكثر نسلهما، فلما توفى موسى عليه الصلاة والسلام انتقلت إلى نجد والعراق، فلم تزل تأكل الوحوش وتخطف الصبيان إلى أن تنبأ خالد بن سنان العبسى فشكوها له، فدعا عليها، فانقطعت وانقطع نسلها وانقرضت.

عنكبوت: دويبة لها ثمانية أرجل وستة عيون وهو من الحيوان الذى صيده الذباب، وولده يخرج قويًّا على النسج من غير تعليم ولا تلقين، ويخرج أولاده دودًا صغيرًا ثم يتغير ويصير عنكبوتاً وتكمل صورته.

فائدة: قيل إن إمرأة ولدت جارية ثم قالت لخادم لها: اقتبس لنا نارًا، فخرج فوجد بالباب سائلاً، فقال له: ما ولدت سيدتك؟ فقال: بنتًا، فقال: لا تموت حتى تبغى[1] بألف رجل ويتزوّجها خادمها ويكون موتها بالعنكبوت، فقال الخادم: وأنا أصبر لهذه حتى يحصل منها ما يحصل، فصبر حتى قامت أمها لتقضى بعض شؤونها وعمد إلى البنت فشقَّ بطنها بسكين وهرب. قال: فجاءت أمها فوجدتها على تلك الحالة فدعت بمن يعالجها حتى شفيت فلما كبرت بغت. قال: ثم إنها سافرت وأتت مدينة على ساحل من سواحل البحر فأقامت هناك تبغى. قال: وأما الرجل فإنه صار من التجار وقدم بتلك المدينة ومعه مال كثير، فقال لامرأة عجوز هناك: اخطبى لى امرأة حسنة أتزوج بها. قال: فوصفتها له وقالت: ليس هنا أحسن منها ولكنها تبغى، فقال للعجوز: ائتنى بها. قال: فذهبت وأخبرتها بالقصة، فقالت لها: حبًّا وكرامة؛ فإنى قد تبت عن البغى، فتزوّج الرجل بها وأحبها حبًّا شديدًا وأقام معها أيامًا، وكان يودُّ أن يراها متجردة فلم يمكنه ذلك، حتى إذا كان فى بعض الأيام خرج على عادته لقضاء أشغاله ودخلت هى الحمام، وعرضت له حاجة فرجع إلى الدار وصعد إلى قصرها فلم يرها، فسأل عنها فقيل له: هى فى الحمام، فدخل عليها فرآها متجرّدة، ورأى فى بطنها أثرًا كالخياطة، فقال ما هذا؟ قالت له: لا أعلم إلا أن أمى أخبرتنى أنه كان لنا خادم وأنه يوم ولادتى غافل أمى، وشقّ بطنى بسكين وهرب، وأنها حين رأتنى كذلك دعت بعض الأطباء فخاط بطنى وعالجنى حتى اندمل جرحى وشفيت وبقى هذا الأثر، فقال لها: أنا ذلك الخادم وحكى لها السبب وأن ذلك السائل أخبره أنها تموت بالعنكبوت، ثم إنه اهتمّ بأمرها وجمع مهندسى البلدة التى هم فيها وسألهم أن يبنوا له بناء لا ينسج عليه العنكبوت، فقالوا: كلَّ بناء ينسج عليه إلا أن يكون البلور لنعومته لا ينسج عليه، فأمرهم أن يصنعوا لها قصرًا من البلور، وبذل لهم ما أرادوا فعملوه وفرشه، وأمرها أن تقيم فيه ولا تخرج منه خوفًا عليها من العنكبوت. قال: فبينما هو ذات يوم إذ رأى

---

(١) تبغى: تجامعهم بالحرام.

عنكبوتًا قد نسج في ذلك القصر، فقام إليه فرماه وقال لها: هذا الذى يكون موتك منه. قال: فداسته بإبهامها، وقالت كالمستهزئة: أهذا الذى يقتلني؟! فشدخته فتعلق بطرف إبهامها من مائه شيء فعمل بها حتى ورمت ساقها، ثم وصل الورم إلى قلبها فقتلها، فما أفاده قصره ولا صرحه شيئًا. قال الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[١] .

فائدة: نسج العنكبوت على ثلاثة مواضع: على غار النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعلى غار عبد الله بن أنس لما بعثه النبيّ صلى الله عليه وسلم لخالد الهذلى فقتله وحمل رأسه ودخل به فى غار خوفًا من أهله، ونسج على عروة زيد بن عليّ بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم لما صلب عريانًا، وقيل إنها نسجت مرتين على داود حين كان جالوت يطلبه.

الخواص: نسجها إن وضع على الجراح الطرية يقطع دمها، ويجلو الفضة إذا دلكت به، والذى يوجد من نسجها فى بيت الخلاء ينفع المحموم إذا تبخر به.

ابن عرس: حيوان معروف وهو بأرض مصر كثير ويسمى العرسة، وهو عدو للفأر، وعنده الحيل، قيل: إنه عدا خلف فأر فصعد منه على شجرة، فصعد خلفه وأمر أنثاه أن تقف تحت الشجرة ثم قطع الغصن الذى كان عليه الفأر فسقط فأخذته أنثاه. ومما يحكى عنه أنه يحب الذهب فيسرقه ويلد عليه.

عجيبة: قيل: إن رجلاً صاد فرخًا من أولاده وحبسه تحت طاسة فجاء أبوه فوجده، فذهب وأتى بدينار فوضعه فلم يفلته، ثم ذهب وأتى بآخر، وما زال كذلك حتى أتى بخمسة دنانير فلم يفلته، ثم أتى بخرقة فأراد ابن عرس أن يأخذ ما برطله منه، فلما علم الرجل ذلك فهم أنه لم يبق عنده شيء فأفلته له.

حرف الغين

غراب: وكنيته أبو حاتم، وله كنى غير ذلك وهو أنواع كثيرة: منها الأكحل، وغراب الزرع، والأزرق، وهذا النوع يحكى جميع ما سمعه، والعرب تتفاءل بصياح الغراب فتقول: إذا صاح مرتين فشرٌّ، وإذا صاح ثلاثة فخير.

وهو كالإنسان عند الجماع، وفى طبعه الاستتار عن الناس عند مجامعته، والأنثى تبيض ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا وتحضن ذلك، والأب يسعى فى طعمتها إلى أن تفرخ، فإذا فرخت خرجت أفراخها قبيحة المنظر فتتفرق عنها وتتركها وتغيب فيرسل الله لها البعوض فتتغذى به، ثم لا تزال تتعاهدها حتى ينبت لها الريش فتأتيها، ومنه قول الحريرى:

يـا رازق النعـاب فـى عشّـه وجـابرَ العظمِ الكسيرِ المهيضِ[٢]

ومن طبعه لا يتعاطى الصيد؛ بل إن وجد رمة أكل منها، ويقم[٣] من الأرض ما وجد، ويسمى بالفاسق؛ لأنه لما أرسله نوح عليه السلام ليكشف عن الماء فوجد فى طريقه رمة فسقط عليها وترك ما أرسل إليه، ويسمى بالبين؛ لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه فيه وزعق فى أثرهم. ومن الغرائب أن بين الغراب وبين الذئب إلفة، وذلك أنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها معه والذئب لا يضرُّه.

---

(١) سورة النساء:٧٨.

(٢) الكسيرِ المهيضِ: المكسور.

(٣) يقم: يبحث عن القمامة.

الخواص: إذا غمس الغراب فى الخل ثم جفف وسحق ريشه وطلى به الشعر سوَّده، وإذا علق منقاره على إنسان زالت عنه العين. وزبل الغراب الأبقع ينفع الخوانيق والخنازير طلاء، وإن صرَّ فى خرقة على من به السعال زال.

غرغر: دجاج بنى إسرائيل، يقال: إن فرقة من بنى إسرائيل كانت بتهامة فطغت وبغت وتجبرت وكفرت، فعاقبهم الله تعالى بأن جعل رجالهم القردة، وكلابهم الأسود، وعنبهم الأراك، وجوزهم المقل، ودجاجهم الغرغر، وهو دجاج الحبشة، فلا ينفع لحمه لرائحته الكريهة، وهذا مشاهد فى زماننا هذا الآن على ما نقل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرف الفاء

فاختة: طير أغبر من ذوات الأطواق بقدر الحمام لها حسن الصوت، يحكى أن الحيات تهرب من صوتها، وفى طبعها الأنس، فمن أجل ذلك تتخذ بيتها فى البيوت، وهى من الحيوان الذى يعمر، وقد ظهر منها ما عاش خمسًا وعشرين سنة.

الخواص: دمها ينفع من الآثار فى العين من ضربة أو قرحة إذا قطر فيها.

فأرة: وكنيتها أم خراب وغير ذلك، وتسمى بالفويسقة، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم انتبه ليلة فوجدها قد جذبت الفتيلة وأحرقت طرف سجَّادته فقتلها وأمر بقتلها. وهى التى قطعت حبل سفينة نوح عليه السلام، وأذاها لا يكاد ينحصر، ومنه: أنها تأتى إلى إناء الزيت فتشرب منه فإذا نقص صارت تشرب بذنبها، فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت فى فيها بماء وأفرغته فيه حتى يعلوها الزيت فتشربه، وربما وضعت فيه حجرًا فكسرته، ويقال: إنها من بقايا الممسوخين الذين كانوا يهودًا. ومن أراد أن يعلم ذلك فليضع لها لبن ناقة فى إناء فإن لم تشربه فهى منهم.

الخواص: عينه تشد على الماشى يسهل تعبه، وإذا بخر البيت بزبل الذئب أو الكلب ذهب منه الفأر.

فرس البحر: حيوان غليظ، يوجد بالنيل، أفطس الوجه، ناصيته كالفرس، ورجلاه كالبقر، وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير، وجلده غليظ، ووجهه أوسع من وجه الفرس، يصعد البرَّ ويرعى الزرع، وربما قتل الإنسان وغيره.

فهد: حيوان شرس الأخلاق، قال أرسطو: هو متولد من الأسد والنمر، وفى طبعه مشابهة بطبع الكلب، ونومه ثقيل، وفى طبعه الحنوّ على أنثاه، وقيل أوّل من صاد به كليب بن وائل، وأوّل من حمله على الخيل يزيد بن معاوية، وأكثر من اشتهر باللعب به أبو مسلم الخراسانى.

فيل: حيوان يوجد بأرض الهند وكنيته أبو الحجاج. والأنثى أم سبل، وهو ينزو على أنثاه إذا بلغ من العمر خمس سنين، وتحمل أنثاه سنتين ثم تضع، ولا يقربها الذكر فى مدة حملها ولا بعده بثلاث سنين، ولا يلقح إلا ببلاده. وإذا أرادت الوضع دخلت النهر؛ لأن رجليها لا ينثنيان فتخاف عليه، والذكر يحرسها خوفًا على ولده من الحيات؛ فإنها تأكله، وهو عند شدة غلمة كالجمل، ويهيج فى زمن الربيع، وزعم أهل الهند أن لسانه مقلوب ولولا ذلك لكان يتكلم لشدة ذكائه، وقيل إن ثدييه فى صدره كالإنسان، وهو أضخم الحيوان وأعظمه جرمًا[١]، وما ظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلاثمائة منّ، وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم، رشيق وربما مرَّ الفيل مع عظم بدنه خلف القاعد فلا يشعر برجله ولا يحس بمروره لخفة همسه، واحتمال بعض جسده لبعض، وأهل الهند يزعمون أن أنياب الفيل قرناه يخرجان مستبطنين حتى يخرقان، وخرطوم الفيل أنفه ويده، وبه

---

(١) جرمًا: جسمًا.

يتناول الطعام إلى جوفه، وبه يقاتل، وبه يصيح، وصياحه ليس فى مقدار جرمه، وقيل: إن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطومه، كما يغيب الجاموس جميع بدنه إلا منخريه، ويقوم خرطومه مقام عنقه، والخرق الذى فى خرطومه لا ينفذ وإنما هو وعاء إذا ملأه من طعام أو ماء أولجه فى فيه، لأنه قصير العنق، لا ينال ماء ولا مرعى، وأهل الهند تجعله في القتال، وهو أيضًا يقاتل مع جنسه فمن غلب دخلوا تحت أمره، وقيل: جعل اللّه فى طبع الفيل الهرب من السنور.

حكى عن هارون مولى الأزد أنه خبأ معه هرًّا ومضى بسيف إلى الفيل، فلما دنا منه رمى بالهر فى وجهه فأدبر هاربًا وكبر المسلمون وظنوا أنه هرب منه. قال أبو الشمقمق:

يا قومُ إنى رأيتُ الفيلَ بَعْدَكُمُ ... تَبارك اللّه لى فى رؤيةِ الفيلِ
رأيتُ بيتًا له شيءٌ يحركه ... فكدتُ أفعلُ شيئًا فى السَّراويلِ[1]

وقيل: إذا اغتم الفيل لم يكن لسُّواسه همٌّ إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه، ومن عجيب أمره: أن سوطه الذى به يحث ويضرب محجن حديد أحد طرفيه فى جبهته، والآخر فى يد راكبه، فإذا أراد شيئًا غمزه به فى لحمه، وأوّل شئ يؤدِّبون به الفيل يعلمونه السجود للملك. قيل: خرج كسرى أبرويز لبعض الأعياد وقد صفوا له ألف فيل، وأحدق به ثلاثون ألف فارس، فلما رأته الفيلة سجدت له، فما رفعت رؤوسها حتى جذبت بالمحاجن وراضتها الفيالون. وتزعم أهل الهند أن جبهة الفيل تعرق كل عام عرقًا غليظًا سائلاً أطيب من رائحة المسك، ولا يعرض ذلك العرق إلا فى بلادها خاصة، وأن عظام الفيل كلها عاج إلا أن جواهر نابه أكرم وأثمن، ولولا شرف العاج وقدره لما فخر الأحنف بن قيس على أهل الكوفة فى قوله: نحن أكثر منكم عاجًا وساجًا، وديباجًا وخراجًا. وقيل: إن الفيلة لا تتسافد فى غير بلادها.

فائدة: من قرأ سورة الفيل ألف مرة فى كل يوم، عشرة أيام متوالية ثم جلس على ماء جار وقال: اللّهم أنت الحاضر المحيط بمكنونات الضمائر، اللّهم عزَّ الظالم، وقلَّ الناصر، وأنت المطلع العالم، اللّهم إن فلانًا ظلمنى وأساءنى ولا يشهد بذلك غيرك أنت مالكه فأهلكه، اللّهم سربله سربال الهوان، وقمصه قميص الرّدى، اللّهم اقصفه ست مرات، اللّهم اخفضه مرتين، فأخذهم اللّه واق، فإن اللّه بذنوبهم وما كان لهم من اللّه واق، فإن اللّه يستجيب له ما لم يكن ظالمًا.

الخواص: جلده إذا بخر به بيت هرب بَقُّه، وإذا سقى إنسان من وسخ أذنيه نام نومة طويلة، وإذا علق من نابه شيء على شجرة لم تثمر، وإذا عمل من جلده ترس يكون أصلب من كل ترس.

حرف القاف

قاقم: دويبة تشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجًا وهو أبيض يقق[2] وجله أعزُّ قيمة من السنجاب.

قاوند: طير يكون بساحل البحر يبيض فى المرهل، ويحضن بيضه سبعة أيام ثم تخرج أفراخه بعد ذلك، فيزقها بعد سبعة أيام، ويقال: ما يمسك اللّه البحر فى هيجانه عن أن يفيض على الساحل إلا إكرامًا له؛ لأنه يقال: إنه يبرّ بوالديه.

خواصه: أن يقيم المقعد، ويحلل البلاغم المزمنة، وينفع الأمراض الباردة، وأوجاع الأعصاب.

---

(١) أى: كاد يبول فيه من الخوف.

(٢) أبيض يقق: شديد البياض ناصعة.

قرد: حيوان معروف وكنيته أبو خالد، وغير ذلك وهو قبيح المنظر مليح الذكاء، سريع الفهم، يتعلم الصنائع. قيل: إنه أهدى للمتوكل قرد خياط، وآخر صائغ، وأهل اليمن يعلمون القردة البيع والجلوس فى الدكاكين حتى قيل: إنه يخرز النعل، ويصرُّ القرطاس، وهو ذو غيرة وعنده لواط حتى قيل: إنه يعدو خلف المليح من شدة المحبة، والتفت ابن الرومى يومًا إلى أبى الحسن الأخفش وهو يحاكى مشية القرد فقال:

هنيئًا يا أبا الحسن المفدى ... بلغتَ من الفضائلِ كلَّ غايَه
شركت القِرْدَ فى قُبحٍ وسَخفٍ ... وما قَصَّرْت عَنْهُ فى الحكايَه

قنفذ: بالذال المعجمة، وكنيته أبو سفيان، ومن عجب أمره: أنه يصعد الكرم فيرمى العنقود ثم ينزل فيأكل منه ما أطاق، فإن كان له أفراخ تمرغ فى الباقى فيتعلق بشوكه فيذهب به إلى أولاده، وهو مولع بأكل الأفاعى فإذا لدغته لا يؤثر فيه سمها؛ لدفع ذلك بشوكه، وإذا تأذى منها ذهب فأكل السعتر البرى، فيزول أذاها وهو من الحيوان الذى يسفد مباطنة كالرجل، وله خمسة أرجل.

حرف الكاف

كركند[1] : حيوان يوجد ببلاد الهند والنوبة وهو دون الجاموس وله قرن واحد عظيم لا يستطيع رفع رأسه منه لثقله، وهو مصمت[2] قوىٌّ يقاتل به الفيل فيغلبه، ولا تعمل ناباه شيئًا معه، وعرض قرنه شبران وليس بطويل جدًّا، وهو محدد الرأس شديد الملاسة، وإذا نشر قرنه ظهرت فى معاطفه صور عجيبة كالطواويس، والغزلان، وأنواع الطير والشجر، وبنى آدم، ولذلك يتخذ منه صفائح الأسرة، والمناطق للملوك ويتغالون فى ثمنها بحيث تبلغ المنطقة أربعة آلاف، أو أكثر، والأنثى تحمل ثلاث سنين، ويخرج ولدها نابت الأسنان والقرون قوى الحافر. ويقال: إنها إذا قاربت الوضع أخرج الولد رأسه من بطنها وصار يرعى أطراف الشجر، فإذا شبع أدخل رأسه فى بطن أمه، ويزعم أهل الهند أنه إذا كان ببلاد لم يدع فيها من الحيوان شيئًا حتى يكون بينها وبينه مائة فرسخ من جميع الجهات هيبة له، وهربًا منه، ويسمى الحمار الهندى، وهو شديد العداوة للإنسان يتبعه إذا سمع صوته فيقتله ولا يأكل منه شيئًا.

كروان: طير معروف لا ينام غالب الليل خصوصًا فى القمر، وعنده ذكاء، قيل: إنه يتكلم بجميع ما يبصره ولا يحتمل المغابنة[3] .

كركى: طير محبوب للملوك وله مشتى ومصيف؛ فمشتاه بأرض مصر، ومصيفه بأرض العراق، وهو من الحيوان الرئيس. قيل: إنه إذا نزل بمكان اجتمع حلقة ونام، وقام عليه واحد يحرسه، وهو يصوِّت تصويتًا لطيفًا حتى يفهم أنه يقظان، فإذا تمت نوبته أيقظ غيره لنوبته. قال القزوينى: وإذا مشى وطئ الأرض بإحدى رجليه وبالأخرى قليلاً خوفًا من أن يحسّ به، وإذا طار صار سطرًا يتقدمه واحد كهيئة الدليل ثم تتبعه البقية.

كلب: معروف وهو نوعان: أهلى، وسلوقى، وهذان النوعان سواء، إلا أن أنثى السلوقى أسرع فى التعلم من ذكره، وهذا الحيوان حليم وعنده رياضة وفى طبعه إكرام الأجلاء من الناس.

حكى أن رجلاً عزم جماعة، فتخلف شخص منهم فى منزله ودخل على زوجة صاحب المنزل فضاجعها فوثب الكلب عليهما فقتلهما، فرجع صاحب المنزل فوجدهما قتيلين فأنشد يقول:

---

(١) كركند: أو كركدن.

(٢) مصمت: مفرغ القلب.

(٣) المغابنة: المخادعة.

وما زالَ يرعى ذمَّتي ويَحُوطني ... ويحفظُ عهدى والخليلُ يَخُونُ
فواعجبًا للخِلِّ يهتكُ حرمتي ... وواعجبًا للكلْبِ كيفَ يصونُ

وحكى أبو عبيدة قال: خرج رجل إلى الجبانة ومعه أخوه وجاره لينظروا إلى الناس، فتبعه كلب فضربه ورماه بحجر فلم ينته و لم يرجع، فلما قعد ربض الكلب بين يديه فجاء عدوٌّ له فى طلبه، فلما رآه خاف على نفسه، فإذا بئر هناك قريبة القعر، فنزل فيها وأمر أخاه وجاره أن يهيلا عليه التراب، ثم ذهب أخوه وجاره إلى سبيله، وصار الكلب ينبح حوله.

فلما انصرف العدوُّ أتاه الكلب فما زال يبحث فى التراب إلى أن كشفه عن رأسه، فتنفس الرجل ومرّ به أناس تناولوه وردوه إلى أهله. فلما مات ذلك الكلب عمل له قبرًا ودفنه فيه وجعل عليه قبة وسمى ذلك قبر الكلب، وفى ذلك قيل:

تفرَّق عنه جَارُه وشَقِيْقَه ... وما حادَ عنه كَلبُهُ وهو ضاربه

ومن ذلك: ما حكى أن رجلاً قتل ودفن وكان معه كلب، فصار يأتى كل يوم إلى الموضع الذى دفن فيه، وينبح وينبش ويتعلق برجل هناك، فقال الناس: إن لهذا الكلب شأنًا، فكشفوا عن ذلك وحفروا ذلك الموضع، فوجدوا قتيلاً، فقبضوا على ذلك الرجل الذى ينبح عليه الكلب وضربوه فأقرَّ بقتله فقتل. وهو من الحيوان الذى يعرف الحسنة.

وقيل: إن الأنثى تحيض فى كل شهر سبعة أيام، وأكثر ما تضع اثنا عشر جروًا، وذلك فى النادر، والغالب خمسة أو ستة، وربما ولدت واحدًا، ويعيش الكلب فى الغالب عشر سنين، وربما بلغ عشرين سنة. وصف للمتوكل كلب بأرمينية يفترس الأسد، فأرسل من جاء به إليه فجوّع أسدًا وأطلقه عليه فتهارشا وتواثبا حتى وقعا ميتين.

وقيل: كلب الصياد يشبه به الفقير المجاور للغني؛ لأنه يرى فى نعمته وبؤس نفسه ما يفتت كبده. وقيل لرجل: ما بال الكلب يرفع رجله إذا بال؟ قال: يخاف أن يلوِّث ذراعيه، قيل: أو للكلب ذراعان؟ قال: هو يتوهم ذلك.

فائدة: حكى أن الإمام أحمد بن حنبل رضى اللّٰه عنه سمع شخصًا من وراء النهر يروى أحاديث مثلثة، فسار إليه ودخل عليه، فوجده يطعم كلبًا، وهو مشتغل به. قال الإمام أحمد: فأخذت فى نفسى وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إلىّ، ثم قال حدثنى أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة رضى اللّٰه عنه، أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قال: «من قطع رجاء من ارتجاه، قطع اللّٰه رجاءه يوم القيامة فلم يلج الجنة» وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب وقد قصدنى هذا الكلب فخشيت أن أقطع رجاءه. قال: فقال الإمام أحمد رحمه اللّٰه، هذا الحديث يكفينى ثم رجع قافلاً إلى أهله.

فائدة أخرى: قال الترمذى: لما أهبط اللّٰه تعالى آدم إلى الأرض سلط عليه إبليس السباع وكان أشدها الكلب. قال فنزل عليه جبريل عليه السلام وأمره أن يضع يده عليه، ففعل واطمأنَّ إليه وألفه، وصار يحرسه، وبقيت الإلفة فيه لأولاده إلى يوم القيامة. وقيل: إن أول من اتخذ الكلب بعد آدم نوح عليهما الصلاة والسلام، وذلك لأن قومه كانوا يعمدون بالليل فيفسدون ما صنعه فى السفينة بالنهار، فأمره اللّٰه أن يتخذ كلبًا حارسًا ففعل.

قال: فكان الكلب إذ أتاه مفسد قام عليه فيستيقظ نوح عليه الصلاة والسلام فيدفعه.

فائدة أخرى: قيل: كان كلب أهل الكهف أسمر واسمه قطمير، وقيل: أصفر، وقيل: خلنجى[١] اللـون، وليـس فى الحيوان ما يدخل الجنة إلا هو، وكبش إسماعيل، وناقة صالح، وحمار العزيز، وبراق النبى صلى اللّه عليه وسلم.

فائدة أخرى: إذا نبح عليك كلب وخفت منه فاقرأ: ﴿**يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ**﴾[٢] وقل بعد ذلك: لا إله إلا اللّه فإنك تكفاه.

حرف اللام

لغلغ[٣] : طير معروف. قيل: إنه من طيور الفواخت، ويأتى إلى أرض مصر فى أيام الشتاء، فيأكل ما قسم اللّه له من الرزق ويأكل منه من له فيه رزق، ثم يرحل إلى بلاده.

حرف الميم

مالك الحزين: طير يوجد بالضحضاح[٤] ، غذاؤه السمك، وسمى بذلك لأنه قيل: إنه لا يشـرب حتى يـروى خوفًا من أن ينقص الماء، وإذا نشف الضحضاح حزن لأنه لا يستطيع العوم. ونظيره دويبة بأرض فـارس معروفـة عندهم يقال إن غذاءها التراب، فإذا أكلت لا تشبع خوفًا من أن يفرغ.

حرف النون

نمل: قال عليه الصلاة والسلام: «ألا تنظرون إلى صغير من خلق اللّه كيف أحكم خلقه، وأتقن تركيبه، وفلـق له السمع والبصر، وسوَّى له العظم والبشر، انظروا إلى النملة فـى صغـر جثتهـا، ولطافـة هيئتهـا، ولا تكـاد تنـال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبت على الأرض، وسعت فى مناكبها، وطلبت رزقها؟ تنقل الحبـة إلى جحرها تجمع فى حرها لبردها، وفى وردها لصدرها، لا يغفل عنها المنان، ولا يحرمهـا الديـان، ولـو فكـرت فـى مجارى أكلها فى علوها وسفلها وما فى الجوف من شراسيف بطنها وما فى الرأس من عينها وأذنها، لقضيت مـن خلقها عجبًا، وللقيت من وصفها تعبًا، فتعالى اللّه، أقامها علـى قوائمهـا، وبناهـا علـى دعائمهـا، لم يشـركه فـى فطرتها فاطر، ولم يعنه على خلقها قادر، لا إله إلا هو ولا معبود سواه» وقيـل: إذا خـافت علـى حبهـا أن يعفـن أخرجته إلى ظهر الأرض ليجف، وقيل: إنها تفلق الحبـة نصفـين خوفـا مـن أن تنبـت فتفسـد، إلا الكزبـرة فإنهـا تفلقها أربعًا؛ لأنها من دون الحب، ينبت نصفها وليس كل أرباب الفلاحة يعرف هذا، فسبحان من ألهمها ذلك. وقيل: إنها تشم رائحة الشيء من بعيد ولو وضعته على أنفك لم تجد لـه رائحـة، وإذا عجـزت عـن حمـل الشـيء استعانت برفقتها فيحمولنه جميعًا إلى باب جحرها، وقيـل: إذا انفتـح بـاب قريـة النمـل فجعلـت فيـه زرنيخـًا أو كبريتاً هجرتها، واللّه أعلم.

نحل: حيوان ليس له نظر فى العواقب، وله معرفة بفصول السنة وأوقاتها، وأوقات المطـر، وفـى طبعـه الطاعـة لأميره، والانقياد له، ومن شأنه فى تدبير معاشه أن يبنى له بيتًا من الشمع شكلاً مسدسًـا لا يوجـد فيـه اختـلاف كالقطعة الواحدة، وإذا طار ارتفع فى الهواء وحط على الأماكن النظيفـة، وأكـل نـوار الزهـور والأشـياء الحلـوة، وشرب من الماء الصافى وأتى فأخرج ذلك، فأول ما يخرج الشمع ليكون كالوعاء، ثم العسل، وقيـل: إنـه يقسـم الأعمال، فبعضه يعمل البيوت، وبعضه يعمل الشمع، وبعضه يعمل العسـل، وفـى طبعـه النظافـة؛ فيجعـل رجيعـه خارج الخلية، وما مات منه أخرجه ورماه، وعنده الطرب فيحب الأصوات اللذيذة، وله آفات تقطعـه كالظلمـة،

---

(١) خلنجى: مائل للخضرة.
(٢) سورة الرحمن:٣٣.
(٣) لغلغ: المعروف لقلق.
(٤) الضحضاح: المستنقع.

والغيم، والريح، والمطر، والدخان، والنار، وكذلك المؤمن له آفات تقطعه منها ظلمة الغفلة، وغيم الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام، ونار الهوى.

فائدة: قيل: مرض شخص فقال: ائتوني بماء وعسل، فأتوه بذلك فخلط الجميع وشربه فشفي.

وروى أن شخصًا شكا للنبي صلى اللّه عليه وسلم، بطن أخيه فأمره بشرب العسل فشربه، ثم جاء ثانيًا فأمره بشربه، ثم جاء في الثالثة، فقال يا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إن بطنه لم يزل، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «صدق اللّه وكذب بطن أخيك، أسقه عسلاً» فسقاه الثالثة فشفي.

نادرة: قيل: إن بعضهم حضر مجلس المنصور، فقال بعض الحاضرين: المراد من قوله تعالى: ﴿**يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ**﴾[١] أهل البيت؛ فإنهم النحل، والشراب القرآن، فقال له بعض من حضره من اللطفاء: جعل اللّه طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بني هاشم، فضحك الحاضرون عليه وأبهته[٢].

الخواص: إذا خلط العسل الخالص بمسك خالص واكتحل به نفع من نزول الماء في العين، والتلطخ به يقتل القمل، ولعقه علاج لعضة الكلب، والمطبوخ منه نافع للمسموم.

نسر: هو سيد الطيور ويعمر طويلاً، وقيل: إنه يعيش ألف سنة، وله قوة على الطيران حتى قيل: إنه يقطع من المشرق إلى المغرب في يوم، وجثته عظيمة حتى قيل: إنه يحمل أولاد الفيلة، وله قوة حساسة الشم، حتى قيل: إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ[٣]، وإذا سقط على جيفة تباعدت عنها الطيور هيبة له حتى يفرغ من الأكل، وعنده شره، قيل: إنه يأكل حتى يضعف عن الحركة بحيث إن أضعف الناس لو أراد إمساكه في تلك الحالة أمسكه، وإذا باض ذهب وأتى بورق الدلب فجعله في عشه خوفًا من الخفاش أن يفسد بيضه. وهو لا يحضن البيض وإنما يبيض في الأماكن العالية ويبقيه في الشمس فتكون حرارتها له بمنزلة الحضن. ومن طبعه أنه لو شم الطيب مات، وعنده الحزن على فراق إلفه حتى قيل إنه ليموت كمدًا، ويقال للأنثى منه أم قشعم. وفي الحديث: «أتاني جبريل عليه الصلاة والسلام فقال: يا محمد لكل شيء سيد فسيد البشر آدم، وسيد ولد آدم أنت، وسيد الروم صهيب، وسيد فارس سليمان، وسيد الحبش بلال، وسيد الطيور النسر، وسيد الشهور رمضان، وسيد الأيام الجمعة، وسيد الكلام العربي، وسيد العربي القرآن، وسيد القرآن سورة البقرة».

الخواص: إذا أخذ قلب النسر وجعل في جلد ذئب وعلق على شخص كان مهابًا عند الناس مقضي الحاجة، وإذا أتى على المرأة الوضع جعل تحتها من ريشه يسهل وضعها.

نعام: يذكر ويؤنث، وتسمى الأنثى بأم البيض والذكر بالظليم . ومن عجيب أمرها أنها تبيض بيضًا طوالاً متساوية القدر وتجعلها أثلاثًا: ثلثا للحضن، وثلثا تأكله في حضنها، وثلثا تكسره وتفتحه فيتعفّن ويدوِّد؛ فيكون منه غذاء أولادها، وعندها الحمق، يقال: إنها تخرج من حضنها فتجد بيض غيرها فتحضنه وتترك بيض نفسها.

فائدة: روى كعب الأحبار رضي اللّه تعالى عنه: إن اللّه تعالى لما خلق القمح، وأنزله على آدم كان على قدر بيض النعام.

---

(١) سورة النحل:٦٩.

(٢) أبهته: أخذله.

(٣) فرسخ: الفرسخ ١٧,٢كم.

وقال له: هذا رزقك ورزق أولادك، قم فاحرث وازرع. قال ولم يزل الحبُّ على مدّة ثم نزل إلى بيض الدجاجة، ثم الحمامة، ثم النبق[1]، وكان في زمن العزيز علي قدر الحِمِّص. وقيل: كل حيوان إذا كسرت رجله مشى بالأخرى إلا النعام، فإنه يبرك إلى أن يموت، وخلق اللّه تعالى له قوّة الشمِّ البليغ. حتى قيل: إنه يشمُّ رائحة القناص من مسيرة نصفة ميل. وهي لا تشرب الماء كالضبِّ، ويقال: إن القناص إذا أدركها أدخلت رأسها في شيء، إما شعب، أو حجر تظنّ أنها قد استترت منه، ولها معدة قوية تقطع الحديد والصوّان والجمر، وفي طبعها الأذى؛ يقال: إنها تخطف الحلق من أذن الصغير. وقيل: إن الذئب لا يتعرض لبيض النعام وأفراخه ما دام الأبوان حاضرين؛ لأنهما إذا رأياه ركضه الذكر إلى أن يسلمه إلى الأنثى فتركضه إلى أن تسلمه إلى الذكر ولا يزالان به حتى يقتلاه أو يعجزهما هربًا، وقيل: أشدُّ ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح، وتقول العرب: صنفان من الحيوان أصمان لا يسمعان: النعام والأفاعي. وسأل أبو عمرو الشيباني بعض العرب عن الظليم هل يسمع؟ فقال: يعرف بعينيه وأنفه ولا يحتاج معهما إلى سمع.

نمر: حيوان أغبر وكنيته أبو الصعب، وهو صنفان: صنف عظيم الجثة صغير الذنب، والآخر بالعكس. قال الجاحظ: وهو يحبّ الشراب وعنده شراسة في خلقه، ويقال: إنَّ أنثاه لا تدع ولدها إلا مطوّقًا بحية، ولا يضرّه نهشها وذلك لأجل الصياد حتى لا يظفر به، وإذا مرض أكل الفأر فيبرأ، وفي طبعه عداوة الأسد. وعنده شرف في نفسه، يقال: إنه لا يأكل جيفة، ولا يأكل من صيد غيره، ولا يملك نفسه عند الغضب، وأدنى وثبته عشرون ذراعًا وأكثرها أربعون.

الخواص: من حمل من جلده شيئًا صار مهابًا عند الناس، ومن كان به بواسير جلس على جلده زالت بواسيره.

حرف الهاء

هدهد: طير معروف، وهو من رسل سليمان عليه الصلاة والسلام وعنده حدَّة البصر حتى قيل: إنه يرى الماء تحت الأرض، وسبب غيابه عن خدمة سليمان عليه الصلاة والسلام حين سأل عنه ولم يجده، هو أن هدهدًا من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا فذهب لينظر، فدخلت الشمس من مكانه، فرآها سليمان عليه الصلاة والسلام فتفقده وطلبه فلما حضر قال: يا نبيَّ اللّه إني رأيت كيت وكيت وقصَّ عليه القصة، ويقال: إنه قال لسليمان عليه الصلاة والسلام لما أراد تعذيبه: يا نبيَّ اللّه اذكر وقوفك بين يدى اللّه تعالى. فارتعد سليمان من هذا الكلام وأطلقه.

الخواص: إذا بخر البيت بريشه طرد الهوام[2] عنه، وعينه إذا علقت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه، وريشه إذا حمله إنسان وخاصم غلب خصمه، وقضيت حاجته، وظفر بما يريد، ولحمه إذا أكل مطبوخًا نفع من القولنج، وإن بخر بمخه برج حمام لم يقربه شيء يؤذيه، من علق عليه لحيه[3] الأسفل أحبه الناس، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) النبق: طائر صغير.

(٢) الهوام: الحشرات.

(٣) لحيه: الفك.

حرف الواو

ورشان: طير يتولد بين الحمام والفاختة، وهو حسن شديد الحنوِّ يقال: إنه يكاد يقتل نفسه إذا أمسك القناص أولاده من شدّة حنوّه. وقال بعضهم: إنه يقول فى صياحه: لدوا للموت وابنوا للخراب(١) . والهدهد يقول: إذا نزل القضاء عمى البصر، والفاختة تقول: ليت هذا الخلق ما خلقوا، وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا، وليتهم عملوا لما علموا، والخطاف يقول: قدّموا خيرًا تجدوه عند ربكم. والحمامة تقول: سبحان ربى الأعلى، والبازى يقول: سبحان ربى وبحمده، والسرطان يقول: سبحان المذكور بكل لسان، والدراج يقول: الرحمن على العرش استوى، والعقاب يقول: البعد عن الناس رحمة، ومن الطيور من يقرأ الفاتحة كالدرة ويمدُّ صوته فى الضالين كالقارئ.

حرف الياء

يأجوج ومأجوج: سموا بذلك لكثرتهم، وقيل: بل هو اسم أعجمى غير مشتق. قال مقاتل: هم ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام. وقول من قال إن آدم نام فاحتلم فالتصق منيه بالتراب فتولد منه هذا الحيوان، مردود بعدم احتلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفى الحديث «يأجوج ومأجوج أمَّة عظيمة لا يموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسمة» انتهي. وهم أصناف: منهم ما طوله عشرون ذراعًا، وما طوله ذراع، وأقل وأكثر. وعن على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه أن لهم مخالب الطير، وأنياب السباع، وتداعى الحمام، وتسافد البهائم، ولهم شعور تقيهم الحر والبرد، وإذا مشوا فى الأرض كان أوَّلهم بالشام وآخرهم بخراسان. يشربون مياه المشرق إلى بحيرة طبرية، ويمنعهم الله تعالى من دخول مكة والمدينة وبيت المقدس، ويكلون كل شيء يمرون به، ومن مات منهم أكلوه. ويقال: إن صنفاً منهم له أذنان إحداهما صلدة، والأخرى وبرة. فهو يلتحف بإحداهما ويفترش الأخرى، وفى الحديث: «إنه عليه الصلاة والسلام سئل هل بلغتهم الدعوة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: دعوتهم ليلة أسرى بى فلم يجيبوا فهم خلق النار». وفى الحديث أيضًا: «إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة قال: يا آدم أرسل بعث النار. فيقول: يا رب وما بعث النار؟ فيقول الله تعالى: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للنار، وواحد للجنة. قال: فاشتدَّ الأمر على المسلمين: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبشروا؛ فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا ومنكم واحد». وفى الحديث: أن رجلاً جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بالردم. فقال: «صفه». فقال: يا رسول الله انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه فدخلت فى بيت، فلما كان وقت الغروب سمعت ضجة عظيمة أفزعتنى، فارتعدت منها، قال: فقال صاحب البيت: لا بأس عليك، إن هذه الضجة أصوات قوم يذهبون هذه الساعة من خلف هذا الردم، أتريد أن تنظر إليه، فإذا لبنه مثل الصخرة ومساميره مثل جذوع النخل كله من حديد كأنه البرد المحبر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سره أن ينظر إلى من رأى الردم فلينظر هذا الرجل».

قال المفسرون: وهذا هو السدّ الذى بناه ذو القرنين، وهذه الأمة خلفه تطلب المجيء إلى هذه الجهة تنقبه كل يوم فيعيده الله كما كان إلى أن يقضى الله أمره، ثم يسلط عليهم بعد ذلك دودًا يطلع حلاقيمهم فيهلكهم الله به، والأخبار فى ذلك كثيرة.

---

(١) شطر بيت لأبى العتاهية وتمامه: فكلكم يصير إلى تباب.

يحمور: دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر، وقيل: هو كالإبل يلقى قرنيه فى كل سنة وهما صامتان. وقال الجوهرى: هو الحمار الوحشى.

نادرة: قيل: ترافق رجلان فى طريق، فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر: قد صار لى عليك حق، إنى رجل من الجانّ ولى إليك حاجة، قال: وما هى؟ قال: إذا وصلت إلى المكان الفلانى من هذه المدينة فهناك عجوز عندها ديك فاشتره منها واذبحه. فقال له الآخرة: وأنا أيضًا لى إليك حاجة قال: وما هى؟ قال: إذا ركب الجنى إنسانًا ما يعمل له. قال: تشد إبهاميه بسير من جلد اليحمور، وتقطر فى أذنيه من ماء السذاب فى اليمنى أربعًا، وفى اليسرى ثلاثًا، فإن الراكب له يموت. ثم تفرَّقا ودخل الإنسى، ففعل ما أمره به الجنى من شراء الديك وذبحه، فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقالوا له: أنت ساحر، ومن حين ذبحك الديك سلبت من صبية عندنا عقلها فلا نفلتك إلا إلى صاحب المدينة. قال: فقلت لهم: ائتونى بسير من جلد اليحمور وقليل من ماء السذاب، ودخلت على الصبية فربطت إبهاميها، وقطرت ماء السذاب فى أذنيها، فسمعت صوتًا يقول: آه علمتك على نفسى، ثم مات من ساعته. وشفى اللّه تلك الشابة.

فصل فى خواص الطير والحيوان على الإجمال

الضب والخنزير لا يلقيان شيئًا من أسنانهما أبدًا، وكل حيوان يعوم بالطبع، إلا الإنسان والقرد، وكل ذى عين فإن أهداب عينه فى الجهة العليا فقط، إلا الإنسان فإنه من الجهتين، والفرس لا طحال له، والبعير لا مرارة له، والظليم لا مخ لعظمه، والحيات لا ألسنة لها، والسمكة لا رئة لها؛ لأنها تتنفس من كبدها، وكل حيوان لا حافر له فله قرن، وما لا قرن له، فله حافر، والحيوان المتهم باللواط: القرد، والخنزير، والحمار، والسنور. والعيون التى تضيء بالليل: عين الأسد والنمر والأفعى والسنور. والذى يدَّخر القوت من الحيوان: الإنسان، والفأر، والغراب، والنحل، والنمل. والذى يحيض من الحيوان: الإنسان، والفرس، والكلب، والأرنب، والضبع، والخفاش، ويقال أيضًا: الرعاد من السمك، فتبارك اللّه أحسن الخالقين، وهذا آخر ما قصدت إيراده فى هذا الباب، واللّه سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

الباب الثالث والستون فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم

ذكر المسعودى فى كتابه عن بعض العلماء أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الأرض قبل آدم ثمانيًا وعشرين أمة على خلق مختلفة، وهى أنواع، منها: ذوات أجنحة وكلامهم فرقعة، ومنها: ما له أبدان كالأسود، ورؤوس كالطير، ولهم شعور وأذناب وكلامهم دوى، ومنها: ما له وجهان واحد من قبله والآخر من خلف وأرجل كثيرة، ومنها ما يشبه الإنسان بيد ورجل وكلامهم مثل صياح الغرانيق[1]، ومنها: ما وجهه كالآدمى وظهره كالسلحفاة وفى رأسه قرن، وكلامهم مثل عواء الكلاب، ومنها ما له شعر أبيض وذنب كالبقر، ومنها: ما له أنياب بارزة كالخناجر، وآذان طوال. ويقال: إن هذه الأمم تناكحت وتناسلت حتى صارت مائة وعشرين أمة. ولم يخلق الله تعالى أفضل ولا أحسن ولا أجمل من الإنسان. وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: خلق الله تعالى ألف أمة وعشرية أمة، منها ستمائة فى البحر، وأربعمائة وعشرون فى البَّر، وفى الإنسان من كل خلق، فلذلك سخر الله له جميع الخلق، واستجمعت له جميع اللذات، وعمل بيده جميع الآلات، وله النطق، والضحك، والبكاء، والفكرة، والفطنة، واختراعات الأشياء، واستنباط جميع العلوم، واستخراج المعادن، وعليه وقع الأمر والنهى، والوعد والوعيد، والنعيم والعذاب، وإياه خاطب وله قرَّب، وخلق الله تعالى إسرافيل عليه السلام على صورة الإنسان، وهو أقرب الملائكة إليه، وفى الحديث: «لا تضربوا الوجوه فإنها على صورة إسرافيل» وآيات الله تعالى فى البشر أكثر من أن تحصر: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2] .

وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب تحفة الألباب: دخلت إلى «باشقرد» فرأيت قبور عاد فوجدت سنّ أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران، وكان عندى في باشقرد نصف ثنية أخرجت لى من فك أحدهم الأسفل؛ فكان نصف الثنية شبرين ووزنها/ ١٢٠٠/ مثقالاً وكان طول فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعًا وطول عظم عضد أحدهم/٨/ أذرع، وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام، قال: ولقد رأيت فى «بلغار» سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد، رجلاً طويلاً، طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعًا كان يسمى دنقى أو دبقى كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير، وكان من قوّته يكسر بيده ساق الفرس، ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعًا تحمل على عجلة، وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل، وكان يأخذ فى يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله، وكان خيّرًا متواضعًا، كان إذا لقينى يسلم عليَّ ويرحب بى ويكرمنى، وكان رأسى لا يصل إلى ركبته، رحمة الله تعالى عليه. ولم يكن فى بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة، وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات فى بلغار، وقال لى قاضى بلغار يعقوب بن النعمان: إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها، وكان اسمه آدم، وكان أقوى أهل بلغار، قيل إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته.

وروى عن وهب بن منبه فى عوج بن عنق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم، إلا أنه كان لا يوصف طوله، قيل كان يخوض فى الطوفان فلم يبلغ ركبتيه، ويقال: إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعًا، وكان يجتاز بالمدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير، وعمره الله دهرًا طويلاً حتى أدرك موسى عليه الصلاة والسلام، وكان جبارًا فى أفعاله يسير فى الأرض برًّا وبحرًا ويفسد ما شاء، ويقال: إنه لما حصر بنو إسرائيل فى التيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم، فبعث الله طيرًا فى

---

(١) الغرانيق: طيور من أضراب اللقلق.

(٢) سورة المؤمنون: ١٤.

منقاره حجر مدوّر فوضعه على الحجر الذى على رأسه فانتقب من وسطه وانخرق فى عنقه وأخبر اللّه عـز وجـل نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بذلك فخرج إليه وضربه بعصاة فقتله، ويقال: إن موسى عليـه الصـلاة والسـلام كان طوله عشرة أذرع، وعصاه عشـرة أذرع، وقفـز فـى الهـواء عشـرة أذرع، وضربـه فلـم يصـل إلى عرقوبـه: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1]، ومن ذلك ما قيل عن أمـه عنـق بنـت آدم عليـه الصـلاة والسـلام، وكـانت مفردة بغير أخ، وكانت مشوَّهة الخلقة لها رأسان وفى كل يد عشـرة أصـابع، وكلـك أصبـع ظفـران كـالمنجلين. وقال علىٌّ بن أبى طالب كرّم اللّه وجهـه: هـى أوَّل مَـنْ بغـى فـي الأرض، وعمـل الفجـور، وجـاهر بالمعـاصى، واستخدم الشياطين وصرفهم فى وجوه السحر. وكان قد أنزل اللّه على آدم عليه الصلاة والسـلام أسماء عظيمـة تطيعه الشياطين بها، وأمره أن يدفعها إلى حوَّاء لتحترز بهـا فغفلتهـا عنـق وسـرقتها، واستخدمت بهـا الشـياطين وتكلمت بشىء من الكهانة فدعا عليها آدم. وأمّنت على ذلك حواء فأرسـل اللّـه عليهـا أسـدًا أعظـم مـن الفيـل فهجم عليها وقتلها وذلك بعد ولادتها عوجًا بسنتين.

ومن ذلك: ما حكى عن بعض فقهاء الموصل أنه شاهد ببلاد الأكـراد المحمدية فـى جبـل مـن جبـال الموصـل إنسانًا طوله تسعة أذرع، وهو صبىٌّ لم يبلغ الحلم، وكان يأخذ بيـده الرجـل القـوى ويرميـه خلـف ظهـره فـأراد صاحب الموصل استخدامه فقيل له فى عقله خبل[2] فتركه.

وروى عن الإمام الشافعى رضى اللّه تعالى عنه أنه قال: دخلت بلدة مـن بـلاد اليمـن فرأيـت بهـا إنسـانًا مـن وسطه إلى أسفله بدن واحد، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسـين ووجهـين، وأربـع أيـد وهمـا يـأكلان ويشربان، ويتقاتلان ويتلاطمان ويصطلحان. قال: ثم غبت عنهما قليلاً ورجعت فقيل لى: أحسن اللّه عزاءك فـى أحد الشقين فقلت: وكيف صنع به؟ فقيل: ربط فى أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبـل ثـم قطـع ورأيـت الجسـد الآخر فى السوق ذاهبًا وراجعًا. ومنه: ما أرسله بطارقة الأرمن إلى نصار الدولة، وهو رجلان فى جسـد واحـد، فأحضر الأطباء وسألهم عن انفصال أحدهما عن الآخر فسألوهما هل تجوعـان معًـا وتعطشـان معًـا؟ قـالا: نعـم، فقالوا: لا يمكن فصلهما. ويقال: إنه أحضر أباهما فسأله عن حالهما فأخبر أنهما يختصمان فى بعض الأحيان وأنه يصلح بينهما. ومن ذلك: ما ذكر أنه أهدى إلى أبى منصور السامانى فرس له قرنان، وثعلب له جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما وإذا بعد ألصقهما. وذكر القاضى عياض رحمة اللّه تعالى عليه أنـه ولـد لـه مولـود علـى أحـد جنبيه مكتوب لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، وهذا لا يبعد؛ فإنه يوجد كثيرًا فى السنور الدبركى. وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل، ومثلها أيد، وذكر أنه كان لبعض ولاة مصر مملوك يدعى طقطو فـولاه قـوص مـن أعمال الصعيد فتزوج بها وولد له ولد. ثم انقلب امرأة، فتزوج بها وولدت ولديـن. وأمـا كبـش بأربعـة قـرون، ودجاجة بأربعة أرجل، وحيوان برأسين والمخرج واحد فكثير وعجائب اللّه تعالى فى مصنوعاته غير متناهيـة فللّـه الحمد على ما أنعم به علينا لا نحصى ثناء عليه. ومن ذلك إنسان المـاء، وهـو حيـوان يشـبه الآدمى، وفـى بعـض الأوقات يطلع ببحر الشام شيخ بلحية بيضاء ويستبشر الناس برؤيته فى تلك السنة بالخصب. ومن ذلك بنات الماء وهو أمه ببحر الروم يشبهن النساء ذوات شعور وثدى وفروج، وهن حسان ولهن كلام لا يفهم وضحك ولعـب ولهن رجال من جنسهن، ويقال: إن الصيادين يصطادونهن، ويجامعونهن فيجدون لذة عظيمة لا توجد فى غيرهن من النساء، ثم يعيدونهن فى البحر ثانيًا. ويقال: إن هذا الصنف يوجد بالبرلس ورشيد[3] على ما ذكر.

---

(١) سورة المؤمنون:١٤.

(٢) خبل: أى لوثة.

(٣)البرلس ورشيد: نواح وبحيرات فى الشمال المصرى.

وحكى عن الشيخ أبى العباس الحجازى قال: حدثنى بعض التجار أنه فى سنة من السنين خرجت إليه سمة عظيمة فنقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وأخرجوها، ففتحت أذنها فخرجت جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، حمراء الخدين، كحلاء العينين، من أحسن ما يكون من النساء، ومن صرَّتها إلى نصف ساقيها شيء كالثوب يستر قبلها ودبرها ودائر عليها كالإزار فأخذها الرجال إلى البر فصارت تلطم وجهها وتنتف شعرها، وتعض يدها كما تصيح النساء حتى ماتت فى أيديهم فألقوها فى البحر، فتبارك الله أحسن الخالقين. وحكى القزوينى عن بعض البحريين أن الريح ألقتهم على جزيرة ذات أشجار وأنهار فأقاموا بها مدة، وكانو إذا جاء الليل يسمعون همهمة[١] وأصواتًا وضحكًا ولعبًا، فخرج من المركب جماعة وكمنوا فى جانب البحر، فلما جاء الليل خرج بنات الماء على عادتهم فوثبوا عليهن فأخذوا منهن اثنتين فتزوج بهما شخصان، فأما أحدهما فوثق بصاحبته فأطلقها فوثبت فى البحر، وأما الآخر فبقى مع صاحبته زمانًا وهو يحرسها حتى ولدت له ولدًا كأنه القمر، فلما طاب الهواء، وركبوا البحر ووثق بها فأطلقها فأغفلته وألقت نفسها فى البحر، فتأسف عليها تأسفًا عظيمًا، فلما كان بعد أيام ظهرت من البحر، ودنت من المركب، وألقت لصاحبها صدفًا فيه درٌّ وجوهر فباعه وصار من التجار.

ونظير هذه الحكاية ما ذكره ابن زولاق فى تاريخه: أن رجلاً من الأندلس من الجزيرة الخضراء صاد جارية منهن حسناء الوجه، سوداء الشعر، حمراء الخدين، نجلاء العينين، كأنها البدر ليلة التمام كاملة الأوصاف فأقامت عنده سنين، وأحبها حبًّا شديدًا وأولدها ولدًا ذكرًا، وبلغ من العمر أربع سنين ثم إنه أراد السفر فاصطحبها معه ووثق بها، فلما توسطت البحر أخذت ولدها وألقت نفسها فى البحر فكاد أن يلقى نفسه خلفها حسرة عليها فلم يمكنه أهل المركب من ذلك، فلما كان بعد ثلاثة أيام ظهرت له وألقت له صدفًا كثيرًا فيه درٌّ ثم سلمت عليه وتركته، فكان ذلك آخر العهد بها، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه. وما لم نشاهده ونسمع به أكثر فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ولا معبود سواه، فالعاقل يعرف الجائز والمستحيل، ويعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل، وإذا سمع عجبًا جائزًا استحسنه ولم يكذب قائله، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله وتزييف ناقله وذلك لقلة عقله، وقد وصف الله تعالى الجاهل بعدم العقل بقوله تعالى: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ**﴾[٢] وقد أودع الله تعالى من عجائب المصنوعات فى الآفاق والسموات ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**﴾[٣] فلا تكن منكر العجائب فكل الأشياء من آياته:

فيا عجبًا كيف يعصى الإلـــه أم كيف يجحده الجاحد

وفى كلّ شىء له آية تدلّ على أنه الواحد

ومن شاهد حجر المغناطيس وجذبه الحديد، وكذلك حجر الماس الذى يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص، ويثقب الياقوت والفولاذ ولا يقدر على ثقب الرصاص؛ يعلم أن الذى أودعه هذا السر قادر على كل شيء فلا تكن مكذبًا بما لا تعلم وجه حكمته؛ فإن الله تعالى قال: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**﴾[٤] قال صاحب تحفة الألباب: إن فى بلاد السودان أمة لا رؤوس لهم، وقد ذكرهم الشعبى فى كتاب سير الملوك، وذكر أن فى بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ولا يعيش فى أرضهم ذكر، وأن هؤلاء النساء يدخلن فى ماء عندهن فيحملن من ذلك الماء، وتلد كل امرأة منهن بنتًا، ولا يلدن ذكرانًا أبدًا، وقيل: إن ولد تبع

(١) همهمة: تكلم بالخفاء.
(٢) سورة الفرقان:٤٤.
(٣) سورة يوسف:١٠٥.
(٤) سورة يونس:٣٩.

اليمانى وصل إليهم لما أراد أن يصل إلى الظلمات التى دخلها ذو القرنين، وإن ولد تبّع هـذا كـان اسمـه إفريقـش، وهو الذى بنى إفريقية وسماها باسمه، وأنه وصل إلى وادى السبت وهو وادٍ يجرى فيه الرمل كما يجرى السـيل، لا يمكن أن يدخل فيه حيوان إلا هلك، فلما رآه استعجل الرجوع، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يـوم السـبت، فسكن جريانه فعبره إلى أن وصل إلى الظلمات فيما يقال. والله سبحانه وتعالى أعلم. وتلك الأمة التـى لا رؤوس لهم، أعينهم فى مناكبهم، وأفواههم فى صدورهم، وهم كثيرون كالبهائم يتناسلون ولا مضرَّة على أحد منهم.

وأما الملك العظيم، والعدل الكثير، والنعم الجزيلة، والسياسة الحسنة والرخاء والأمن الذى لا خوف معه، ففى بلاد الهند وبلاد الصين، وأهل الهند أعلم الناس بعلم الطبِّ، وعلم النجوم والهندسة والصناعـات العجيبـة، التـى لا يقدر أحدهم سواهم على أمثالها، وفى بلادهم وجزائرهم ينبـت العـود، وشـجر الكـافور، وجميـع أنـواع الطيـب كالقرنفل، والسنبل، والدارصينى، والكبابة، والبسباسة وأنواع العقاقير والأدويـة، وعندهـم حيـوان المسـك وهـو حيوان كالغزال يجتمع المسك فى سرته، وعندهم حيوان بالزباد، وهو حيوان كالسنور يخرج منه عرق كـالقطران أسود ثخين يسيل من جسده وتزيد رائحته بالتغرُّب بحيث يكون أذكى من المسـك الأذفـر، ويخـرج مـن بلادهـم أنواع اليواقيت وأكثرها فى جزيرة سرنديب، وعلى جبلها نزل آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة فيما يقال.

وحكى أنه كان بابل سبع مدائن، كل مدينة فيها أعجوبة، كان فـى إحداهـا تمثـال الأرض فـإذا التـوى علـى الملك بعض أهل مملكته وامتنعوا عن القيام بالخراج خرق أنهارها عليهم فى التمثال، فلا يطيق أهـل تلـك الناحيـة سدّ الماء حتى يعتدلوا، وما لم يسدّ فى التمثال لا يسدّ فى كل البلد، وفى الثانية حوض إذا أراد الملك أن يجمعهـم لطعامه أتى كل واحد بما أحبَّ من الشراب فصبه فى ذلك الحوض فاختلطت الأشربة، فكل من سقى مـن ذلـك الحوض كان شرابه الذى جاء به، وفى الثالثة طبل إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب عن أهلـه قرعـوه، فـإن كـان حيًّا سمع له صوت، وإن كان ميتًا لم يسمع له صوت. وفى الرابعة مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حـال الغـائب نظـروا فيها فأبصروه على أىِّ حالة هو عليها، كأنهم يشاهدونه. وفى الخامسة أوزة من نحاس فإذا دخل الغريب صوتـت الأوزة صوتًا يسمعة أهل المدينة، وفى السادسة قاضيان جالسان على الماء فيأتى الخصمان فيـ ـشى المحق علـى المـاء حتى يجلس مع القاضيين ويقع المبطل فى الماء، وفى السابعة شجرة ضخمة لا تظـل إلا سـاقها، فـإن جلـس تحتهـا أحد أظلته إلى ألف شخص، فإذا زادوا على الألف واحدًا جلسوا فى الشمس كلهم، ولو بسطت المقال فى ذلـك لاتسع المجال. وقد اقتصرت فى ذلك على ما ذكرت، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمـآب، وصلى الله على سيدنا محمد النبىِّ الأمىِّ وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والستون فى خلق الجانّ وصفاتهم

روى عن الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب أنه قال: قرأت فى بعض الكتب المتقدّمة المأثورة عن العلماء رحمهم الله تعالى، أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجانَّ خلق نار السموم، وخلق من مارجها(١) خلقًا سماه جانًا كما قال الله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾(٢)، وقال الله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾(٣). وقيل: إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار، والجانَّ من لهبها، والشياطين من دخانها. وقد جاء فى بعض الأخبار أن نوعًا من الجنِّ فى قديم الزمان قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كانوا سكانًا فى الأرض قد طبقوها برًّا وبحرًا، وسهلاً وجبلاً وكان فيهم الملك والنبوّة، والدين والشريعة، وكانوا يطيرون إلى السماء، ويسلمون على الملائكة، ويستعلمون منهم خبر ما فى السماء، وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطغوا وتركوا وصايا أنبيائهم، فأرسل الله تعالى عليهم جندًا من الملائكة فحصل بينهم مقتلة عظيمة، وغلبوا الجنَّ وطردوهم إلى أطراف البحار وأسروا منهم أممًا كثيرة.

وذكر المسعودى أن الفرس واليونان قالوا: كان الجن بالأرض قبائل منهم من يسترق السمع، ومنهم من ينط مع لهب النار، ومنهم من يطير، ولكل قبيلة ملك، وكان من جملتهم إبليس لعنه اللّـه، ثم بعد خمسة آلاف سنة افتقروا وملكوا عليهم ملوكًا وأقاموا على ذلك مدَّة طويلة، ثم تحاسدوا على الملك وأغار بعضهم على بعض، وجرت بينهم وقائع وحروب، وكان إبليس لعنه الله يصعد إلى السماء، ويختلط بالملائكة، فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة فهزم الجنّ وقتلهم، وتملك الأرض مدَّة طويلة إلى أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام واتفق له معه ما اتفق، وأهبط آدم إلى الأرض وعظم شأنه فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط وسكن هناك، ثم ألقى عليه قوّة شهوة السفاد، فهو لا يلد لكنه يلقح كالطير ويبيض ويفرخ. قيل: إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان فيسلطهم على الخلق، وأقربهم إليهم وأدناهم منه ومن مجلسه أكثرهم إيذاء للخلق. وفى الحديث: «إنَّ إبليس لعنه الله قال: يا ربِّ أنزلتنى إلى الأرض وطردتنى وجعلتنى رجيمًا(٤)، فاجعل لى مسكنًا، قال: مسكنك الأسواق، قال: فاجعل لى طعامًا، قال: ما لم يذكر اسمى عليه، قال: فاجعل لى شرابًا، قال: كل مسكر، قال: فاجعل لى مؤذنًا، قال: المزامير، قال: فاجعل لى صيدًا» أو قال: «مصايد قال: النساء».

فصل فى مكايده لعنه الله

منها: أنه كان فى بنى إسرائيل عابد يدعى برصيصًا، وله جار له بنت، فحصل لها مرض فقال له جيرانه: لو حملتها إلى جارك برصيصًا ليدعو لها. قال: فجاء إبليس إلى العابد وقال: إنَّ لجارك عليك حق الجوار، وإن له بنتًا مريضة، فما ضرك لو جعلتها عندك فى جانب البيت، ودعوت اللّـه لها عقب عبادتك، فعسى أن تشفى من مرضها. قال: فلما أتاه جاره بالبنت قال له العابد: دعها وانصرف، قال: فتركها عنده مدَّة حتى شفيت. فجاء له إبليس ووسوس له حتى وطئها فحملت منه، فلما حملت جاء له إبليس لعنه فقال له: اقتلها لئلا تفتضح، قال: فقتلها ودفنها. قال: فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها وأعلمهم بذلك. فجاءوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته، ثم أخذوه ومضوا ليقتلوه فعارضه إبليس اللعين فى الطريق. فقال له: إن سجدت لى خلصتك منهم، فسجد له فعند ذلك تبرَّأ منه. ومات الرجل كافرًا. اللّهم اعصمنا من مكايد الشيطان برحمتك يا أرحم الراحمين.

(١) المارج: النار أو لجتُها.
(٢) سورة الحجر: ٢٧.
(٣) سورة الرحمن: ١٥.
(٤) الرجيم: المرمى بالحجارة.

ومن ذلك ما اتفق أن بنى إسرائيل اتخذوا شجرة وصاروا يعذبونها، فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها فعارضه إبليس لعنه اللّه. وقال له: تركت عبادتك وجئت لشئ لا يعود عليك نفعه، ولم يزل به حتى تقاتل معه فصرعه(١) العابد وجلس على صدره، ثم رجع ولم يزل يعمل معه ذلك فى كل يوم إلى ثلاثة أيام، فلما رآه لا يرجع قال: فجعل له تحت وسادته دينارين، ثم دينارين، ثم دينارين ثم قطع ذلك عنه، فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة فعارضه إبليس فى الطريق وتحاور معه وتجاذبا فصرعه إبليس وجلس على صدره وقال له: إن لم ترجع عن قطعها وإلا ذبحتك، فقال له العابد: خلّ عنى وأخبرنى كيف غلبتني؟ فقال له: لما غضبت للّه غلبتنى، ولما غضبت لنفسك غلبتك. ومنها أشياء كثيرة ليس هذا محلّ استيفائها، قال اللّه تعالى: ﴿**قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**﴾(٢).

فصل فى المتشيطنة وهم أنواع كثيرة

منها: الولهان يوجد فى جزائر البحار على صورة الإنسان. حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعامة يريد أخذ المركب وصاح بهم صيحة عظيمة خروا منها على وجههم. وأخذ بعض مَنْ فى المركب.

ومنه السعلاة؛ يحكى أن صنفًا منها يتزيا بزىّ النساء ويتراءى للرجال. وحكى أن بعضهم تزوج امرأة منهن وهو لا يعلم، فأقامت معه مدة وولدت منه أولادًا ذكورًا وإناثًا، فلما كانت ذات ليلة صعدت معه السطح فنظرت فرأت نارًا من بعد عند الجبانة فاضطربت وقالت. ألم تر نيران السعالى، وتغير لونها وقالت: بنوك وبناتك أوصيك بهم خيرًا، ثم طارت ولم تعد إليه.

ومنها: نوع يقال له المذهب يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم. حكى أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها فأتاه شخص بسراج وطعام فتعجب العابد من ذلك. فقال له شخص بالصومعة: إنه المذهب يريد أن يخيل لك أن ذلك من كرامتى، واللّه إنى لأعلم أنه شيطان. وقال بعض الصوفية: المذهب أصناف منهم من يحمل الفانوس بين يدى الشيخ، ومنهم من يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك، ومنهم من يشد الشعر. وقال بعض المسافرين: أبق لى غلام فخرجت فى أثره فإذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق، وجرير. قال: فدنوت منهم وسلمت عليهم. فقالوا: ألك حاجة؟ قلت: لا، فقال بعضهم: تريد غلامك؟ قلت: وما أعلمك بغلامى؟ قال: كعلمى بجهلك، قلت: أو جاهل أنا؟ قال: نعم. وأحمق، قال: ثم غاب وأتانى بالغلام مقيدًا، فلما رأيته غشى على، فلما أفقت قال: انفخ فى يده، ففعلت فانفرج القيد عنه وصرت لا أنفخ فى شىء من ذلك، ولا فى وجع من الأوجاع إلا برئ وخلص صاحبه.

ومنها: نوع يقال له: العفريت يختطف النساء، يقال: إن رجلاً اختطفت ابنته فى زمن عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه. وقال بعض المسافرين: بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لى قضاء الحاجة، فانفردت عن رفقتى وضللت عنهم، فبينما أنا سائر فى أثرهم إذ رأيت نارًا عظيمة وخيمة، فجئت إلى جانبها وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها فسألتها عن حالها، فقالت: أنا فزارة اختطفنى عفريت يقال له ظليم وجعلنى ههنا، فهو يغيب عنى بالليل ويأتينى بالنهار، فقلت لها: امضى معى، فقالت: أهلك أنا وأنت، فإنه يتبعنا ويأتينا فيأخذنى ويقتلك،

---

(١) صرعه: غلبه.

(٢) سورة الكهف: ٥٠.

فقلت: لا يستطيع أخذك ولا قتلى، وما زلت أرددها الحديث حتى رضيت فأنخت لها ناقتى فركبتها وسرت بها حتى طلع الفجر. فالتفت فإذا أنا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان فى الأرض. فقالت: ها هوذا قد أتانا، فأنخت لها ناقتى وخططت حولها خطًا، وقرأت آيات من القرآن وتعوذت بالله العظيم فتقدم وأنشأ يقول:

يا ذا الذى للحين يدعوهُ القدر   خَلِّ عن الحسناءِ رسلاً ثم سر
وإن تكنْ ذا خبرةٍ فينا اصطبر

قال فأجبته:

يا ذا الذى للحين يدعُوه الحمق   خلِّ عن الحسناء رسلاً وانطلق
ما أنتَ فى الجنِّ بأول مَنْ عشق

قال: فتبدى لى فى صورة أسد وجاذبته ساعة، فلم يظفر أحد منا بصاحبه، فلما أيس منى قال: هل لك فى جزّ ناصيتى[1] أو إحدى ثلاث خصال. قلت: وما هن؟ قال: مائتان من الإبل، أو أخدمك أيام حياتى، أو ألف دينار الساعة، وخلِّ بينى وبين الجارية، فقلت: لا أبيع دينى بدنياى ولا حاجة لى بخدمتك فاذهب من حيث أتيت. قال فانطلق وهو يتكلم بكلام لا أفهمه، وسرت بالجارية إلى أهلها وتزوجت بها وجاءنى منها أولاد.

وقيل: لما سخر الله تعالى الجن سليمان عليه الصلاة والسلام نادى جبريل عليه السلام: أيها الجن والشياطين أجيبوا نبى الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى. قال: فخرجت الجن والشياطين من الجبال، والكهوف، والغيران، والأودية، والفلوات والآجام وهم يقولون: لبيك لبيك، والملائكة تسوقهم سوق الراعى للغنم حتى حشرت بين يدى سليمان عليه الصلاة والسلام طائعة ذليلة وكانوا إذ ذاك أربعًا وعشرين فرقة، فنظر إلى ألوانها فإذا هى سود، وشقر، ورقط، وبيض، وصفر، وخضر، وعلى صور جميع الحيوانات، ومنهم مَنْ رأسه رأس الأسد، وبدنه بدن الفيل، ومنهم مَنْ له خرطوم وذنب، ومنهم مَنْ له قرون وحوافر وغير ذلك من الأنواع، قال: فعند ذلك تعجب نبى الله سليمان عليه الصلاة والسلام من هذه الأشكال وسجد شكرًا لله تعالى وقال: إلهى ألْبسنى هيبةً من عندك، وجعل يسألهم عن طباعهم، وعن طعامهم وشرابهم وهم يجيبونه، ثم فرَّقهم فى الصنائع من قطع الصخور، والأحجار، والأشجار، والغوص فى البحار، وأبنية الحصون، وفى استخراج المعادن والجواهر. قال الله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

ونكتفى من ذلك بهذا القدر اليسير والله المسؤول فى تيسير كل عسير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الناصية: مقدمة شعر الرأس.

(٢) سورة ص:٣٩.

الباب الخامس والستون فى ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول

الفصل الأول فى ذكر البحار

روى عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما أنه قال: لما أراد اللّه تعالى أن يخلق الماء خلق ياقوته خضراء لا يعلم طولها وعرضها إلا اللّه سبحانه وتعالى، ثم نظر إليه بعين الهيبة فذابت وصارت ماء، فاضطرب الماء، فخلق الريح ووضع عليها الماء، ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء وعليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[1].

واعلم أن بحر الظلمات لا يدخله شمس ولا قمر، وأن بحر الهند خليج منه، وبحر اللاذقية خليج منه، وبحر الصين خليج منه، وبحر الروم خليج منه، وبحر فارس خليج منه، وكل هذه البحار التى ذكرتها أصلها من البحر الأسود الذى يقال له البحر المحيط. وأما بحر الخزر، وبحر خوارزم، وبحر أرمينيا، والبحر الذى عند مدينة النحاس وغير ذلك من البحار الصغار فهى منقطعة عن البحر الأسود، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد. وقيل: سئل النبى صلى اللّه عليه وسلم عن الجزر والمد فقال: «هو ملك عادل قائم بين البحرين إن وضع رجله فى البحر حصل له المد، وإذا رفعها حصل لها الجزر» وقيل: إنما سمى البحر الأسود؛ لأن ماءه فى رأى العين كالحبر الأسود فإن أخذ منه الإنسان فى يده شيئًا رآه أبيض صافيًا إلا أنه أمر من الصبر، مالح شديد الملوحة، فإذا صار ذلك الماء فى بحر الروم، تراه أخضر كالزنجار[2]، واللّه تعالى يعلم لأى شىء فى ذلك.

وكذلك يرى فى بحر الهند خليج أحمر كالدم، وبحر أصفر كالذهب، وخليج أبيض كاللبن، تتغير هذه الألوان فى هذه المواضع، والماء فى نفسه أبيض صاف. وقيل إن تغير الماء بلون الأرض. وأما ما يخرج من البحر من السمك وغيره، فقد روى عن جابر بن عبد اللّه رضى اللّه تعالى عنهما قال: بعثنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى ساحل البحر، وأمر علينا أبا عبيدة رضى اللّه تعالى عنه نتلقى عير قريش وزودنا جرابًا من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة نمصها ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، فأشرفنا على ساحل البحر، فرأينا شيئًا كهيئة الكثيب الضخم فأتيناه فإذا هو دابة من دواب البحر تدعى العنبر، فأقمنا شهرًا نأكل منها ونحن ثلثمائة حتى سمنا، ولقد رأيتنا نغترف من الدهن الذى وقب[3] عينيها بالقلال، ونقطع منه القطعة كالثور، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم فى وقب عينها وأخذ ضلعًا من أضلاعها فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا فمرّ من تحتها وتزودنا من لحمها، فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذلك. فقال: «هو رزق أخرجه اللّه لكم، فهل معكم شىء من لحمها فتطعمونا؟» فأرسلنا له منه فأكله.

وقيل: يخرج من البحر سمكة عظيمة، فتتبعها سمكة أخرى أعظم منها لتأكلها، فتهرب منها إلى مجمع البحرين، فتتبعها فيضيق عليها مجمع البحرين لعظمها وكبرها، فترجع إلى البحر الأسود، وعرض مجمع البحرين مائة فرسخ، فتبارك اللّه رب العالمين.

وقال صاحب تحفة الألباب: ركبت فى سفينة مع جماعة، فدخلنا إلى مجمع البحرين فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم، فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قط أهول منها ولا أقوى، فكاد قلبى ينخلع وسقطت على

---

(١) سورة هود:٧.

(٢) الزنجار: نوع سمك.

(٣) الوقب: محجريهما.

وجهى أنا وغيرى ثم ألقت السمكة نفسها فى البحر، فاضطرب البحر اضطرابًا شديدًا وعظمت أمواجه وخفنا الغرق فنجَّانا اللّه تعالى بفضله، وسمعت الملاحين يقولون: هذه سمكة تعرف بالبغل. قال: ورأيت فى البحر سمكة كالجبل العظيم، ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار كل عظم أطول من ذراعين، وكان بيننا وبينها فى البحر أكثر من فرسخ. فسمعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قصمتها[1] نصفين. ولقد سمعت أنا من يقول إن جماعة ركبوا سفينة فى البحر، فأرسوا على جزيرة، فخرجوا إلى تلك الجزيرة فغسلوا ثيابهم واستراحوا، ثم أوقدوا نارًا ليطبخوا، فتحركت الجزيرة وطلبت البحر وإذا بها سمكة، فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ولا معبود سواه. وقيل: إن فى البحر سمكة تعرف بالمنارة لطولها، يقال: إنها تخرج من البحر إلى جانب السفينة فتلقى نفسها عليها فتحطمها وتهلك من فيها، فإذا أحسَّ بها أهل السفينة صاحوا، وكبروا، وضجوا، وضربوا الطبول، ونفروا الطسوت والسطول والأخشاب؛ لأنها إذا سمعت تلك الأصوات ربما صرفها اللّه تعالى عنهم بفضله ورحمته.

وقال الشيخ عبد اللّه صاحب تحفة الألباب: كنت يومًا فى البحر على صخرة فإذا أنا بذنب حية صفراء منقطة بسواد طولها مقدار باع، فطلبت أن تقبض على رجلى، فتباعدت عنها فأخرجت رأسها كأنه رأس أرنب من تحت تلك الصخرة، فسللت خنجرًا كبيرًا كان معى، فطعنت به رأسها فغار فيه فلم أقدر على خلاصه منها، فأمسكت نصابه بيدى جميعًا، وجعلت أجرّه حتى ألصَقْتُها بباب الجحر فتركت الجحر وخرجت من تحت الصخرة، فإذا هى خمس حيات فى رأس واحد، فتعجبت من ذلك وسألت من كان هناك عن اسم هذه الحية، فقال: هذه تعرف بأم الحيات.

وذكروا أنها تقبض على الآدمى فى الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله، وأنها تعظم حتى تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعًا، وأنها تقلب الزوارق، وتأكل من قدرت عليه من أصحابها، وأن جلدها أرقّ من جلد البصل، ولا يؤثر فيها الحديد شيئًا.

قال: ورأيت مرة فى البحر صخرة عليها شيء كثير من النارنج الأحمر الطرى الذى كأنه قطع من شجرة فقلت فى نفسى هذا وقد وقع من بعض السفن، فذهبت إليه فقبضت منه نارنجة، فإذا هى ملتصقة بالحجر فجذبتها، فإذا هى حيوان يتحرّك ويضرب فى يدى فلففت يدى بكم ثوبى وقبضت عليه وعصرته فخرج من فيه مياه كثيرة وضمر فلم أقدر أن أقلعه من مكانه فتركته عجزًا عنه، وهو من عجائب خلق اللّه تعالى، وليس له عين ولا جارحة إلا الفم ، واللّه سبحانه وتعالى أعلم لأى شيء يصلح ذلك.

قال: ولقد رأيت يومًا على جانب البحر عنقود عنب أسود كبير الحب، أخضر العرجون[2] كأنما قطف من كرمه، فأخذته وكان ذلك فى أيام الشتاء، وليس فى تلك الأرض التى كنت فيها عنب، فرمت آكل منه فقبضت على حبة منه وجذبتها فلم أقدر أن أقلعها من العنقود، حتى كأنها من الحديد قوّة وصلابة، فجذبتها جذبة أقوى من الأولى فانقشرت قشرة من تلك الحبة كقشر العنب وفى داخلها عجم كعجم العنب فسألت عن ذلك فقيل لى: هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك. وفى البحر أيضًا حيوان رأسه يشبه رأس العجل وله أنياب كأنياب السباع، وجلده له شعر كشعر العجل، وله عنق، وصدر، وبطن، وله رجلان كرجلى الضفدع وليس له يدان، يعرف بالسمك اليهودى، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر ويلقى نفسه فى البرّ ولا يتحرّك ولا يأكل ولو قتل، ولا يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد فحينئذ يدخل البحر، ولا تلحقه

(١) قصمتها: شطرتها.

(٢) العرجون: العثكول، العنقود.

السفن لخفته وقوّته، وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس، فلا يجد له ألمًا ما دام ذلك الجلد عليه وهو من العجائب.

وقيل: إنَّ فى بحر الروم سمكًا طويلاً طول السمكة مائة ذراع وأكثر، وله أنياب كأنياب الفيل، تؤخذ وتباع فى بلاد الروم، وتحمل إلى سائر البلاد وهى أحسن وأقوى من أنياب الفيل، وإذا شق الناب منها يظهر فيه نقوش عجيبة، ويسمونه الجوهر ويتخذون منه نصبًا[(١)] للسكاكين وهو مع قوّته وحسن لونه ثقيل الوزن كالرصاص. وفى البحر أيضًا سمك يسمى الرعاد، إذا دخل شبكة فكل من جرّ تلك الشبكة، أو وضع يده عليها، أو على حبل من حبالها، تأخذه الرعدة[(٢)] حتى لا يملك من نفسه شيئًا كما يرعد صاحب الحمَّى. فإذا رفع يده زالت عنه الرعدة، فإن أعادها عادت إليه الرعدة. وهذا أيضًا من العجائب فسبحان اللّٰه جلت قدرته.

وقال صاحب تحفة الألباب: حدَّثنى الشيخ أبو العباس الحجازى قال: حدَّثنى رجل يعرف بالهارونى من ولد هارون الرشيد أنه ركب سفينة فى بحر الهند فرأى طاووسًا قد خرج من البحر أحسن من طاووس البرّ، وأجمل ألوانًا، قال: فكبرنا لحسنه فجعل يسبح وينظر لنفسه وينشر أجنحته وينظر إلى ذنبه ساعة ثم غاص فى البحر.

وفى البحر دابة يقال لها الدرفين[(٣)] تنجى الغريق؛ لأنها تدنوا منه حتى يضع يده على ظهرها فيستعين بالاتكاء عليها، ويتعلق بها فتسبح به حتى ينجيه اللّٰه بقدرته، فسبحان من دبر هذا التدبير اللطيف، وأحكم هذه الحكمة البالغة. وزعموا أن السمك يتجه نحو الغناء والصوت الحسن، ويصبو لسماعه، وربما قيل إن بعض الصيادين يحفرون فى البحر حفائر، ثم يجلسون فيضربون بالمعازف وآلات الطرب فيجتمع السمك ويقع فى تلك الحفائر، وقيل: إن الدرفين وأنواع السمك إذا سمعت صوت الرعد هربت إلى قعر البحر، وقيل: إن خيل البحر توجد بنيل مصر، وهى صفة خيل البرِّ، وقيل: إنها تأكل التماسيح وربما خرجت فرعت الزرع، وإذا رأى أهل مصر أثر حوافرها حكموا أن ماء النيل ينتهى فى طلوعه إلى ذلك المكان.

وقيل: إن البحر المحيط شيئًا يتراءى كالحصون فيرتفع علىوجه الماء ويظهر منه صور كثيرة ويغيب. ومن عجيب ما حكى أن فيه جزيرة فيها ثلاث مدن عامرة، وهى كثيرة الأمطار، وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة طلوع الشمس عندهم ويجعلونه فى بيت ويوقدون حوله النيران حتى يجف وعجائبه لا تحصى ولا يمكن حصرها

ويقال: إن الإسكندر لما سار إلى بحر الظلمات مرّ بجزيرة بها أمة رؤوسها مثل رؤوس الكلاب يخرج من أفواههم مثل لهب النار، وخرجوا إلى مراكبه وحاربوه ثم تخلص منهم وسار فرأى صورًا متلونة بألوان شتى، وسمكًا طوله مائة ذراع وأكثر، وأقل. فسبحان اللّٰه تعالى ما أكثر عجائب خلقه. ويقال: إنه مرّ فى بعض الجزائر على قصر مصنوع من البلور على قلعة محكمة البناء وحولها قناديل لا تطفأ.

ومن جزائر البحر جزيرة القُمُر، ويقال: إن بها شجرًا طول الشجرة مائتا ذراع، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعًا، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر، وهو ورق يشبه ورق الموز لكنه أسمك وأعرض وأنعم، ويقال: إن هذه الجزيرة بالقرب من نيل مصر، وإن هذه الأمة التى بها يتمذهبون بمذهب الإمام الشافعى رضى اللّٰه تعالى عنه، وهم فى غاية اللطافة من الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر. وبالقرب منهم معدن

---

(١) النصب: القبضة.

(٢) الرعدة: هى سمكة مكهربة.

(٣) الدرفين: هو الدولفين.

الذهب، والياقوت، وبها الفيلة البيض وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرها، وبها العود القمارى[١] والآبنوس والطواويس، وبها مدن كثيرة.

ومنها جزيرة الواق خلف جبل يقال له: اصطفيون داخل البحر النوبى، ويقال: إن هذه الجزيرة كانت ملكتها امرأة، وأن بعض المسافرين وصل إليها ودخل ورأى هذه الملكة وهى جالسة على سرير وعلى رأسها تاج من ذهب وحولها أربعمائة وصيفة كلهنّ أبكار، وفى هذه الجزيرة من العجائب شجرة يشبه شجر الجوز، وخيار الشنبر[٢]، ويحمل حملاً كهيئة الإنسان، فإذا انتهى سمع له تصويت يفهم منه واق واق ثم يسقط. وهذه الجزيرة كثيرة الذهب حتى قيل إن سلاسل خيلهم، ومقاود كلابهم وأطواقها من الذهب.

ومنها: جزيرة الصين يقال: إن بها ثلثمائة مدينة ونيفًا سوى القرى والأطراف، وأبوابها أثنا عشر بابًا، وهى جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة، وهذه الجبال تمرّ بها المراكب مسيرة سبعة أيام، وإذا جاوزت السفينة الأبواب سارت فى ماء عذب حتى تصل إلى الموضع الذى تريده، وفيها من الأودية والأشجار والأنهار ما لا يمكن وصفه فتبارك اللّه رب العالمين.

وقيل: إن الإسكندر لما فرغ من بناء سدِّه حمد اللّه تعالى وأثنى عليه ثم نام، وإذا بحيوان عظيم صعد من البحر إلى أن علا وسدِّ الأفق فظنَّ من حول الملك أنه يريد ابتلاعهم ففزعوا فانتبه. فقال: ما لكم؟ فقالوا له: انظر ما حلَّ بنا.

فقال: ما كان اللّه ليأخذ نفسًا قبل انقضاء أجلها، وقد منعنى من العدوّ فلا يسلط علىَّ حيوانًا من البحر. قال: فإذا بالحيوان قد دنا من الملك وقال: أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر وقد رأيت هذا السدَّ بنى وخرب سبع مرات و لم يزد على ذلك، ثم غاب فى البحر، فتبارك من له هذا الملك العظيم لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وقيل: إن بجزيرة النسناس باليمن مدينة بين جبلين وليس لها ماء يدخل فيها إلا من المطر وطولها نحو ستة فراسخ، وهى حصينة ذات كروم، ونخيل، وأشجار وغير ذلك، وإذا أراد إنسان الدخول فيها حثا فى وجهه التراب، فإن أبى إلا الدخول خنق أو صرع، وقيل: إنها معمورة بالجان، وقيل: بخلق من النسناس. ويقال: إنهم من بقايا عاد الذين أهلكهم اللّه بالريح العقيم. وكل واحد منهم شق إنسان[٣]. ونقل عن بعض المسافرين أنه قال: بينما نحن سائرون إذ أقبل علينا الليل فبتنا بواد، فلما أصبح الصباح سمعنا قائلاً يقول من الشجر: يا أبا بجير، الصبح قد أسفر والليل قد أدبر، والقناص قد حضر، فالحذر الحذر. قال: فلما ارتفع النهار أرسلنا كلبين كانا معنا نحو الشجرة، فسمعت صوتًا يقول: ناشدتك. قال: فقلت لرفيقى: دعهما. قال: فلما وثقا منه نزلا هاربين فتبعهما الكلبان وجدًّا فى الجرى فأمسكا شخصًا منهما. قال: فأدركناه وهو يقول:

الويلُ لى مما بى دهانى ... دهرى من الهموم والأحزانِ
قِفَا قليلاً أيها الكلبانِ ... إلى مَتى إلىّ تجريانِ

قال: فأخذناه ورجعنا فذبحه رفيقى وسوّاه فعفته، و لم آكل منه شيئًا. فتبارك اللّه ما أكثر عجائب خلقه لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

(١) القمارى: من أعواد البخور.

(٢) الشنبر: شجر معروف فى مصر.

(٣) شق الإنسان: أى شطر الإنسان.

الفصل الثانى فى ذكر الأنهار والآبار والعيون

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾[1] قال المفسرون: هو المطر، ومعنى سلكه أدخله فى الأرض وجعله عيونًا ومسايل ومجارى كالعروق فى الجسد، فمن الأنهار ما هو من الأمطار المجتمعة، ولهذا ينقطع عند فراغ مادّته، ومنها ما ينبع من الأرض، وأطول ما يكون من الأنهار ألف فرسخ، وأقصره عشرة فراسخ إلى اثنين وثلاثة وبين ذلك، وكلها تبتدئ من الجبال وتنتهى إلى البحار والبطائح، وفى ممرها تسقى المدن والقرى، وما فضل منها ينصبّ فى البحر الملح، ويختلط به، ولا يمكن استيفاء عددها لكنا نشير إلى بعضها فنقول:

النيل المبارك: ليس فى الأنهار أطول منه؛ لأنه مسيرة شهرين فى بلاد الإسلام، وشهرين فى بلاد النوبة، وأربعة فى الخراب. وقيل: إن مسافته من منبعه إلى أن ينصّب فى البحر الرومى ألف وسبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخًا[2] . قال ذلك صاحب «مباهج الفكر ومناهج العبر» واختلف فى زيادته، فقيل: إن الأنهار والعيون تمدّه فى الوقت الذى يريده الله تعالى. وفى الحديث أنه من أنهار الجنة. وقال أهل الأثر: إن الأنهار التى من الجنة تخرج من أصل واحد من قبة أرض الذهب، ثم تمرّ بالبحر المحيط وتشقّ فيه. قالوا: ولولا ذلك لكانت أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور.

نهر الفرات: يوجد بأرض أرمنية، فضائله كثيرة، والنيل أصدق حلاوة منه، وبه من السمك الأبيض ما تكون الواحدة قنطارًا بالدمشقى، وطول هذا النهر من حين يخرج من عند مطلية إلى أن يأتى إلى بغداد ستمائة وثلاثون فرسخًا، وفى وسطه مدن وجزائر تعدّ من أعمال الفرات.

جيحون: نهر عظيم تتصل به أنهار كثيرة ويمرّ على مدن كثيرة حتى يصل إلى خوارزم ولا ينتفع به شىء من البلاد سوى خوارزم لأنها متسفلة[3] عنه، ثم ينصبّ فى بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام، وهو يجمد فى الشتاء خمسة أشهر، والماء يجرى من تحت الجمد فيحفر أهل خوارزم منه لهم أماكن ليستقوا منها وإذا اشتدّ جموده مروا عليه بالقوافل والعجل المحملة، ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق، ويعلوه التراب ويبقى على ذلك شهرين.

سيحون: نهر عظيم قيل: إن مبدأه من حدود الترك، ويجرى حتى يتصل ببلاد الفرغانة، وربما يجتمع مع جيحون فى بعض الأماكن.

الدجلة: نهر بغداد وله أسماء غير ذلك، وماؤه أعذب المياه بعد النيل وأكثرها نفعًا. قيل: مقداره ثلثمائة فرسخ، وفى بعض الأوقات يفيض حتى قيل: إنه يخشى على بغداد الغرق منه، وهو نهر مبارك كثيرًا ما ينجو غريقه. حكى أنه وجد به غريق فيه الروح فلما أفاق سألوه عن حاله، فأخبرهم أنه لما غلب على نفسه رأى كأنّ أحدًا يحمله ويصعد به. وروى فى الأثر: أن الله تعالى أمر دانيال عليه الصلاة والسلام أن يحفر لعباده ما يستقون منه وينتفعون به، فكان كلما مرّ بأرض ناشده أهلها أن يحفر ذلك عندهم إلى أن حفر دجلة والفرات.

وأما الأنهار الصغار فكثيرة ولكنا نذكر منها طرفًا فنقول: نهر حصن المهدى: قال صاحب تحفة الألباب: إنه بين البصرة والأهواز، وأنه يرتفع منه فى بعض الأوقات شىء يشبه صورة الفيل ولا يعرف أحد شأنه.

---

(١) سورة الزمر: ٢١.

(٢) ثمانية وأربعون فرسخًا: هذا الرقم مبالغ فيه إن كان المعنى الفرسخ الهاشمى.

(٣) المتسفلة: أى المنخفضة.

نهر أذربيجان: قيل: إن بالقرب منه، نهرًا يجرى فيه الماء سنة، ثم ينقطع ثمان سنين، ثم يعود فى التاسعة. وقيل: إنه ينعقد حجرًا ويستعمل منه اللَّبِن ويبنى به. وقيل: إن فى تلك الأرض بحيرة تجفُّ فلا يوجد فيها ماء ولا سمك ولا طين سبع سنين، ثم يعود الماء والسمك والطين، فتبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

نهر صقلاب: يجرى فيه الماء يومًا واحدًا فى كل أسبوع ثم ينقطع ستة أيام.

نهر العاصى: بأرض حماة، وقيل: بحمص، وهو نهر معروف وفيه قول بعضهم:

مدينةَ حمص كعبةَ القصفِ[1] ... بها الداني ويسعَى لها القاصى

بها روضةٌ من حُسنِهَا سندسيةٌ ... تعلّق فى أكناف أذيالها العاصى

نهر العمود: بأرض الهند عليه شجرة نابتة من حديد، وقيل: من نحاس، وتحتها عمود من نحاس، وقيل: من حديد، طوله من فوق الماء نحو عشرة أذرع وعرضه ذراع، وعلى رأسه ثلاث شعب مسنونة محددة، وعنده رجل يقرأ كتاب الله تعالى ويقول: يا عظيم البركة طوبى لمن صعد هذه الشجرة وألقى بنفسه على هذا العمود فيدخل الجنة، وقال أهل ملك الناحية: من يريد ذلك فيصعد على تلك الشجرة ويلقى نفسه فيتقطع.

نهر باليمن، قال صاحب تحفة الألباب: إنه عند طلوع الشمس يجرى من المشرق إلى المغرب وعند غروبها يجرى من المغرب إلى المشرق. نهر ببلاد الحبشة والسودان، يجرى إلى المشرق يشبه النيل فى زيادته ونقصانه وأرضه بها الخصب والبركة، وبها شجر كالأراك يحمل ثمرًا كالبطيخ داخله شيء يشبه القند[2] فى الحلاوة، ولكن فيه بعض حموضة، وهذا النهر يجرى فى بلادهم ثمانية أشهر ثم ينصب فى البحر المحيط، فسبحان من دبر هذا التدبير وأحكم هذه الصنعة لا إله إلا هو الحكيم الخبير.

الفصل الثالث فى ذكر الآبار

قال مجاهد: كنت أحبُّ أن أرى كل شيء غريب، فسمعت أن ببابل بئر هاروت وماروت، فسرت إليهما، فلما وصلت إلى ذلك المكان وجدت عنده بيوتًا فدخلت فى بعضها فوجدت شخصًا فسلمت عليه فرحب بى وسألنى عن حاجتى، فذكرت له غرضى، فأمر يهوديًا يذهب معى فيوقفنى على البئر ويطلعنى على الملكين. قال: فسرنا إلى البئر ففتح سردابًا ونزلنا، فأمرنى أن لا أذكر اسم الله تعالى. قال: فلما رأيت الملكين رأيت شيئًا كالجبلين العظيمين منكسين على رأسيهما وعليهما الحديد من أعناقهما إلى ركبهما. قال مجاهد: فلما رأيت ذلك ففكرت بالله تعالى، قال: فاضطربا اضطرابًا شديدًا حتى كادا يقطعان السلاسل. قال: ففر اليهودى فتعلقت به. فقال: أما أمرتك أن لا تذكر اسم الله تعالى كدنا والله نهلك.

بئر برهوت: بقرب حضرموت وهى التى قال النبى صلى الله عليه وسلم: إنها مجمع أرواح الكفار. قال على كرم الله وجهه: أبغض البقاع إلى الله تعالى بئر برهوت؛ ماؤها أسود منتن تأوى إليها أرواح الكفار، والموكل بها ملك يسمى دومة.

بئر عسفان: ماؤها يستشفى به قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم تفل فيها. قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما: كنا نغسل المريض منها فيعافى، وقيل إن النبى صلى الله عليه وسلم توضأ منها.

بئر معروفة بأرض حلب خاصتيها أنها إذا شرب منها المكلوب زال كلبه ما لم يجاوز الأربعين.

---

(١) القصف: اللهو والمرح.

(٢) القند: عسل قصب السكر.

وبنيسابور آبار كثيرة وهى معادن الفيروزج، وإنما يمنع الناس عنها كثرة عقاربها. وبأرض فارس بئر ينبع منها ماء فى وقت من السنة، فيرتفع على وجه الأرض لمحة واحدة ويجرى فينتفع به فى سقى الزرع ثم يعود إلى ما كان. وعجائب الله كثيرة لا تكاد تنحصر لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الباب السادس والستون فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول

الفصل الأول فى ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب

روى وهب بن منبه رضى اللّٰه عنه عن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «إن للّٰه تعالى ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا منها عالم واحد، وما العمران فى الخراب إلا كخردلة فى كف أحدكم» وقال رواة الأثر: إن للّٰه عز وجل دابة فى مرج من مروجه فى غامض علمه، رزقها فى كل يوم بقدر رزق العالم بأسره، وجميع مدائن الدنيا أربعة آلاف مدينة وخمسمائة وست وخمسون مدينة، وقيل غير ذلك.

وأقاليم الأرض سبعة: الإقليم الأول: الهند. الثانى: الحجاز. الثالث: إقليم مصر. الرابع: إقليم بابل. الخامس: إقليم الروم والشام. السادس: إقليم الترك. السابع: إقليم الصين، وأوسط الأقاليم إقليم بابل وهو أعمرها وفيه جزيرة العرب وفيه العراق الذى هو سرة الدنيا، وبغداد فى وسط هذا الإقليم، فلاعتداله اعتدلت ألوان أهله، فسلموا من شقرة الروم، وسواد الحبشة، وغلظ الترك، وجفاء أهل الجبال، ودمامة أهل الصين، والممالك المشهورة التى ضبطت عدتها فى زمن المأمون ثلاثمائة وثلاث وأربعون مملكة، أوسعها ثلاثة أشهر، وأضيقها ثلاثة أيام، وقال أهل الهيئة: إنه يكون عند خط الاستواء ربيعان وصيفان وخريفان وشتاءان فى سنة واحدة. وإنه يكون فى بعض البلاد ستة أشهر ليل، وستة أشهر نهار، وبعضها حرٌّ وبعضها برد، فسبحان من خلق كلّ شىء فأتقنه لا إله غلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثانى فى ذكر الجبال

قيل: إن اللّٰه تعالى لما خلق الأرض ماجت واضطربت، فخلق الجبال وأرساها بها فاستقرَّت، وجموع ما عرف بالأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلاً فمنها ما طوله عشرون فرسخًا، ومنها ما طوله مائة فرسخ، إلى ألف فرسخ. ولنذكر منها ما هو مشهور معروف بين الناس. فمن أعجبها: **جبل سرنديب**: وطوله مائتان ونيف وستون ميلاً، وفيه أثر قدم آدم عليه الصلاة والسلام حين أهبط، وحوله الياقوت، وفى أوديته الماس الذى يقطع به الصخور ويثقب به اللؤلؤ، وفيه العود والفلفل ودابة المسك ودابة الزباد. **جبل الروم**: الذى فيه السد: طوله سبعمائة فرسخ، وينتهى إلى بحر الظلمات. **جبل أبى قبيس**: سمى بذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام كناه بذلك حين اقتبس منه النار التى بين أيدى الناس، وقيل غير ذلك. **جبل القدس**: جبل شريف مبارك فيه غار يضئ بالليل من سراج ويزوره الناس. **جبل أروند**: بهمذان برأسه عين تخرج من صخرة أيامًا معدودة فى السنة، تقصد من كلِّ وجه يستشفى بها. **جبل بالشام**: لونه أسود كالفحم، وترابه أبيض تبيض به الثياب. **جبل الأندلس**: فيه غار إذا دهنت فتيلة وأدخلتها فى أوقدت، وبها جبل به عينان إحداهما باردة، والأخرى حارة والمسافة التى بينهما مقدار شبر. وجبل به معدن الكبريت والزئبق والزنجفر. **جبل سمرقند**: يقطر منه ماء فى الصيف يصير جلمدًا وفى الشتاء يحرق من حرارته. **جبل الصور**: بكرمان يكسر حجرة فيخرج منه كصور الآدميين قاعدين، ومضطجعين وإذا سحق وطرح فى الماء يرى كذلك. **جبل الأرّجان**: بطبرستان يقطر منه ماء كل قطرة تصير حجرًا مسدسًا أو مثمنًا. **جبل هرمز**: ينزل منه ماء إلى وهدة فإن صاح إنسان صيحة وقف، فإن ثنى جرى. **جبل الطير**: بإقليم الصعيد يجتمع عنده الطير فى كل سنة مرة ويدخل فى كوة هناك، فتمسك الكوة على واحدة

وتطير البقية، ويكون ذلك علامة الخصب فى تلك السنة. ولنقتصر على ذلك، ومن أراد الوقوف على جميعها فعليه بتاريخ مرآة الزمان.

الفصل الثالث فى ذكر المبانى العظيمة وغرائبها وعجائبها

قال أهل التواريخ ونقلة الأخبار: إن أول بناء بنى على وجه الأرض الصرح الذى بناه نمرود الأكبر بن كوش بن حام بن نوح عليه الصلاة والسلام، وبقعته بكوثى من أرض بابل وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات، قالوا: وكان طوله خمسة آلاف ذراع بناه بالحجارة والرصاص والشمع واللبان ليمتنع هو وقومه من طوفان ثان فأخرب الله تعالى ذلك الصرح فى ليلة واحدة بصيحة فتبلبلت بها ألسنة الناس فسميت أرض بابل: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[1].

حكى الشعبى فى كتاب سير الملوك: أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى زادهم الله بسطة فى الأجسام وقوة حتى قالوا: من أشد منا قوة، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[2] وأن الله تعالى بعث إليهم هودًا نبيًّا عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلى الله تعالى، فقال له شداد: إن آمنت بإلهك فماذا لى عنده؟ قال: يعطيك فى الآخرة جنة مبنية من ذهب ويواقيت ولؤلؤ وجميع أنواع الجواهر. قال شداد: أنا أبنى مثل هذه الجنة ولا أحتاج إلى ما تعدنى به. قال: فأمر شداد ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضًا واسعة كثيرة الماء، طيبة الهواء، بعيدة من الجبال لينى فيها مدينة من ذهب. قال: فخرج أولئك الأمراء ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه، فساروا فى الأرض حتى وصلوا إلى جبل عدن فرأوا هناك أرضًا واسعة طيبة الهواء فأعجبتهم تلك الأرض فأمروا المهندسين والبنائين فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها[3] أربعون فرسخًا، من كل جهة عشرة فراسخ، فحفروا الأساس إلى الماء وبنوا الجدران بحجارة الجزع[4] اليمانى حتى ظهر على وجه الأرض، ثم أحاطوا به سورًا ارتفاعه خمسمائة ذراع، وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس. وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب، واتخذه لبنًا، ولم يترك فى يد أحد من الناس فى جميع الدنيا شيئًا من الذهب إلا غصبه، واستخرج الكنوز المدفونة، ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته، كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد واليواقيت معقودة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع، وأجرى فى وسطها أنهارًا وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت، وحلى قصورها بصفائح من الذهب والفضة، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار، جذوعها من الذهب، وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلئ، وطلى حيطانها بالمسك والعنبر، وجعل فيها جنة مزخرفة له، وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت وسائر أنواع المعادن، ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة، الصادح والمغرد وغير ذلك، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة برسم الحراس الذين يحرسون المدينة، فلما كمل بناؤها أمر فى مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا فى البلاد بسطًا، وستورًا، وفرشًا، من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف، وأمر باتخاذ أوانى الذهب والفضة فاتخذوا جميع ما أمر به.

فلما فرغوا من ذلك جميعه خرج شداد من حضرموت فى أهل مملكته وقصد مدينة إرم ذات العماد فلما أشرف عليها ورآها قال: قد ولت إلى ما كان هو يعدنى به بعد الموت، وقد حصلت عليه فى الدنيا، فلما أراد

---

(١) سورة الفجر:٧،٨.

(٢) سورة فصلت:١٥.

(٣) الدور: المحيط البناء.

(٤) الجزع: ضرب من الرخام.

دخولها أمر الله تعالى ملكًا فصاح بهم صيحة الغضب، وقبض ملك الموت أرواحهم فى طرفة عين، فخروا على وجوههم صرعى، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى﴾(١) وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم، وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس فكانوا يرون بالليل فى تلك البرّية التى بنيت فيها معادن الذهب والفضة واليواقيت تضىء كالمصابيح، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئًا. وقد نقل أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له عبد الله بن قلابة الأنصارى دخل إليها، وذلك أنه ضلت له إبل فخرج فى طلبها فوصل إليها، فلما رآها دهش وبهت ورأى ما أذهله وحيره وقال فى نفسه: هذه تشبه الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين فى الآخرة فقصد بابًا من أبوابها، فلما وصل إليها أناخ راحلته ودخل المدينة وما فيها، ثم حمل معه شيئًا من تلك الجواهر واليواقيت فى وعاء وجعله على راحلته، وعلّم على المدينة علامة، وقال قربها من جبل عدن كذا، ومن الجهة الفلانية كذا، ثم انصرف عنها بعد ما ظفر بإبله، ثم دخل على معاوية رضى الله تعالى عنه بدمشق وأخبره بجميع ما رآه. فقال له معاوية: فى اليقظة رأيتها أم فى المنام. قال: بلى فى اليقظة وقد حملت معى من حصبائها وأخرج له شيئًا مما حمله من الجواهر واليواقيت، فتعجب معاوية من ذلك ثم أرسل إلى كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه فلما دخل عليه قال معاوية: يا أبا إسحاق هل بلغك أن فى الدنيا مدينة من ذهب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين وقد ذكرها الله عز وجل فى القرآن لنبيه صلى الله عليه وسلم بقوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾(٢) وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصارى. ثم التفت فرأى عبد الله بن قلابة. فقال: ها هوذا يا أمير المؤمنين وصفته واسمه فى التوراة ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة. وقيل إن ذلك كان فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وأن الرجل الذى دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم ينكره ولا مَنْ كان حاضرًا، بل قال إن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «يدخلها بعض أمتى» والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن المبانى العجيبة الخورنق الذى بناه النعمان بن امرئ القيس، وهو النعمان الأكبر بناه فى عشرين سنة، فلما انتهى أعجبه فخشى أن يبنى لغيره، فأمر أن يلقى بانيه من أعلاه فألقوه فتقطع، واسم بانيه سنمار فصارت العرب تضرب به المثل: جزاه جزاء سنمار قال الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبرٍ وحسن فعل كما يُجزى سنمارُ

ومن المبانى العجيبة حائط العجوز واسمها دلوك القبطية، وسبب بنائها لذلك أنها ولدت ولدًا فأخذت له الرصد، فقيل له: يخشى عليه من التمساح، فلمّا شب الغلام خافت عليه فبنت الحائط وجعلته من العريش إلى أسوان شاملاً لكورة مصر من الجانب الشرقى. وقيل: بنته خوفًا على مصر وأهلها بعد غرق فرعون أن يطمع الملوك فيها. وقد قيل إنها أرادت أن تخوّف ولدها من التمساح حتى لا ينزل البحر فصورت له صورة التماسح فرآه شكلاً مهولاً فأذهله، وأخذه الفزع والهم فضعف وانسل إلى أن مات لا مفر من قضاء الله تعالى.

ومن المبانى العجيبة الأهرام وهى بالجانب الغربى من مصر مشاهدة فى زماننا هذا، قيل: إن دور الهرم الأكبر من الثلاثة، ألفا ذراع، من كل جهة خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ما ذكر، وفتح منها هرمًا وتعجب من بنيانها وصفتها. قيل: إن كل حجر من حجارتها ثلاثون

---

(١) سورة النجم: ٥٠.

(٢) سورة الفجر: ٦، ٨.

ذراعًا فى عرض عشرة أذرع وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته، ولا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقًا صغيرًا على إحكامه، وهى من عجائب الدنيا. قال بعضهم:

أين الذى الهرمان من بنيانه ... ما قومه ما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن سكانها ... حينًا ويدركها الفناء فتصرع

وزعم قوم أن الأهرام الموجودة بمصر قبور لملوك عظام أرادوا أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم، كما تميزوا عنهم فى حياتهم، ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخى العصور. ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بنقبها فنقب أحدها بعد جهد شديد وعناء طويل فوجد داخله مزاليق ومهاوٍ يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ووجد فى أعلاه بيتًا وفى وسطه حوض من رخام مطبق، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه، ويقال إن الذى بناها اسمه سوريد بن سهراق بن سرياق لرؤيا رآها، وهى آفة تنزل من السماء وهى الطوفان. فقالوا إنه بناها فى ستة أشهر، وقال: قل لمن يأتى بعدنا يهدمها فى ستمائة سنة، والهدم أيسر من البنيان، وكسوناها الديباج الملّون فَلْيَكْسِهَا حصرًا، الحصر أهون من الديباج، والأمر فيها عجيب جدًّا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن المبانى العجيبة منارة الإسكندرية: التى بناها ذو القرنين. قيل: إنها كانت مبنية بحجارة مهندمة مغموسة فى الرصاص فيها نحو من ثلثمائة بيت تصعد الدابة بحملها إلى كل بيت، وللبيوت طاقات تطل على البحر، ويقال: إن طولها كان ألف ذراع، وفى أعلاها تماثيل من نحاس، منها تمثال رجل قد أشار بيده إلى البحر فإذا صار العدوٌ على نحو ليلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة بمجىء العدوٌ فيستعدون له، ومنها: تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوّت مطربًا، ويقال إنه كان بأعلاها مرآة من الحديد الصينى عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها المراكب بجيرة قبرس، وقيل كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من المدينة، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس واستقبلوا بها السفن فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن فتحرق فى البحر ويهلك كل من فيها. وكانت الروم تؤدّى الخراج ليأسوا بذلك من إحراق السفن ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك.

قال المسعودى: قيل: إن ملكًا من الروم تحيل على الوليد وأظهر أنه يريد الإسلام، وأرسل إليه تحفًا وهدايا، وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده أن ببلاده دفائن، وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه، وأرسل معهم أموالاً، قيل: إنهم حفروا بقرب المنارة ودفنوا تلك الأموال. وقالوا للوليد: إن تحت المنارة كنوزًا لا تنفد وبإزائها خبيئة بها كذا وكذا ألف دينار فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة، فإن كان ذلك حقًا استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها، فحفروا واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة واستخراج ما تحتها، فهدموها فلم يجدوا شيئًا وهرب أولئك القسيسون، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه فندم على ذلك غاية الندم، ثم أمر ببنائها بالآجر ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة، فلما أتموها نصبوا عليها المرآة كما كانت فصدئت ولم يروا فيها شيئًا مثل ما كانوا يرون أولاً وبطل إحراقها فندموا على ما فعلوا، وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وقد عملت الجنّ لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فى الإسكندرية مجلسًا على أعمدة من الجزع اليمانى المصقول كالمرآة، إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشى خلفه لصفائها، وفى وسط ذلك المجلس عمود من الرخام طوله مائة وأحد عشر ذراعًا، وفى مدينة حمص، مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا، فهى من عجائب البنيان، والبيوت، والغرف والماء الجارى فى كل طريق من طرقها ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وعند حوران مدينة عظيمة يقال له اللجأة، فيها من البنيان ما يعجز عن وصفه ألسنة العقلاء، كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت، ليس فى الدار خشبة واحدة، بل أبوابها وغرفها وسقوفها، وبيوتها من الصخر المنحوت الذى لا يستطيع أحد أن يعمله من الخشب، وفى كل دار بئر وطاحون، وكل دار مفردة لا يلاصقها دار أخرى، وكل دار كالقلعة الحصينة، إذا خاف أهل تلك النواحى من العدوّ دخلوا إلى تلك المدينة، فينزل كل إنسان فى دار بجميع عياله، وخيله، وغنمه، وبقره ويغلق بابه، ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه، وفى هذه المدينة أكثر من مائتى ألف دار فيما يقال، ولا يعلم أحد من بناها، وسمتها العرب اللجأة؛ لأنهم يلجأون إليها عن الخوف.

ومن المبانى العجيبة: إيوان كسرى أنو شروان: بناه سابور ذو الاكتاف فى نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع فى عرض خمسين بناه بالآجر والجص، وجعل طول كل شرافة من شراريفه خمسة عشر ذراعًا، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان، فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهبًا.

وحكى أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه، وأن يجعل آلته فى بنائه، فقيل له: إن نقضه يتكلف بقدر العمارة فلم يسمع وهدم شرافة، وحسب ما أنفق عليها فوجد الأمر كذلك.

وقيل: إنَّ بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه: هو آية الإسلام فيرى صورة الزانى، فاتفق أن بعض الناس قتل غريمه فعمد أهله إليها فكسروها، واللّه سبحانه وتعالى أعلم، وقد اقتصرت من ذلك على هذا القدر اليسير وحسبنا اللّه ونعم الوكيل، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والستون فى ذكر المعادن والأحجار وخواصها

المعادن لا تكاد تحصى لكن منها ما يعرفه الناس، ومنها ما لا يعرفونه، وهى مقسومة إلى ما يذوب وإلى ما لا يذوب، والذى اشتهر بين الناس من المعادن سبعة وهى: الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، والقصدير، والأسرب، والخارصينى. ولنبدأ أوّلاً بذكر **الذهب**: فقيل طبعه حارّ لطيف ولشدّة اختلاط أجزائه المائية بالترابية قيل: إن النار لا تقدر على تفريق أجزائه فلا يحترق، ولا يبلى ولا يصدأ، وهو لين برّاق، حلو الطعم، أصفر اللون، فالصفرة من ناريته، والليمونة من دهنيته، والبرّاقة من صفاء مائة.

خواصه: يقوى القلب، ويدفع الصرع تعليقًا ويمنع الفزع والخفقان ويقوى العين كحلاً ويجلوها إن كان ميلاً ويحسن نظرها، وإذا ثقبت به الأذن لم تلتحم، وإذا كوى به لم ينفط ويبرأ سريعًا، وإمساكه فى الفم يزيل البخر.

الفضة: قريبة منه، وتصدأ، وتحترق وتبلى بالتراب وإذا أصابتها رائحة الرصاص والزئبق تكسرت، ورائحة الكبريت اسودَّت. ومن خواصها أنها تزيل البخر من الفم إذا وضعت فيه، وإذا أذيبت مع الزئبق وطلى بها البدن نفع ذلك من الحكة والجرب وعسر البول.

النحاس: قريب منها لكنه أيبس وأغلظ فى الطبع. ومن خواصه إذا صدئ وطلى بالحامض زال صدؤه، والأكل فى آنيته، يولد أمراضًا لا دواء لها.

الحديد: كثير الفائدة إذ ما من صنعة إلا وله فيها مدخل. ومن خواصه أنه يمنع غطيط النائم إذا علق عليه، وحمله يقوّى القلب، ويزيل الخوف والأفكار والأحلام الرديئة، ويسرُّ النفس، وصدؤه ينفع أمراض العين كحلاً والبواسير تحملاً.

القصدير: صنف من الفضة دخل عليه آفات من الأرض. ومن خواصه أنه إذا ألقى فى قدر لم ينضج ما فيها.

الأسرب: هو الرصاص. ومن خواصه أنه يكسر الماس، ومن خواصّ الماس الدخول فى كلّ شىء، وإذا شدّ من الرصاص قطعة على الخنازير والغدد أبرأتها.

الخارصينى: حجر لونه أسود يعطى حمرة. ومن خواصه إذا عمل منه مرآة ونظر فيها فى الظلمة نفعت للقوة، وإذا نتف الشعر بملقاط منه لم ينبت.

الأحجار الجوهرية: أصل الجوهر، وهو الدرّ على ما قيل إن حيوانًا يصعد من البحر على ساحله وقت المطر، ويفتح أذنه يلتقط بها المطر ويضمها ويرجع إلى البحر فينزل، إلى قراره، ولا يزال طابقًا أذنه على ما فيه خوفًا أن يخالط بأجزاء البحر حتى ينضج ما فيها ويصير درًّا، فإن كانت القطرة صغيرة كانت الدرّة صغيرة، وإن كانت كبيرة فكبيرة، فإن كان فى بطن هذا الحيوان شىء من الماء المرّ كانت الدرّة كدرة، وإن لم يكن، كانت صافية، وقيل غير ذلك. والدرّ نوعان كبير وصغير. وقيل: إنه تصل الواحدة إلى مثقال. ومن خواصه أنه يفرح القلب، ويبسط النفس، ويحسن الوجه، ويصفى دم القلب، وإذا خلط مع الكحل شدّ عصب العين.

الياقوت: سيد الأحجار وأصول ألوانه أربعة: الأحمر، والأصفر، والأزرق، والأسمانجونى[(١)]، ويتولد منها ألوان كثيرة، وأعدلها الأحمر الخالص الرمانى الشبية بحبِّ الرمان الأحمر، ودونه الأحمر المشرب ببياض، ثم الوردى، ثم الخمرى، ثم العصفرى، وأردؤه الأزرق الذى لون يشبه زهر السوسن، وأقلة قيمة الأبيض. خواصه أنه لا يعمل فيه الفولاذ، ولا حجر الماس، ولا تدنسه النار، ويورث لابسه مهابة ووقارًا، ويسهل قضاء الحوائج ويدرُّ الريق فى

---

(١) الأسمانجونى: الأبيض المائل للإصفرار.

الفم، ويقطع العطش، ويدفع السمَّ، ويقوّى القلب، وجميعه ينفع للمصروع تعليقًا، والأبيض منه يبسط النفس، ويوجد من الأصفر ما وزنه ثلاثون مثقالاً على ما قيل.

البلخش: هو مقارب للياقوت فى القيمة ودونه فى الشرف، ومن خواصه: أنه يورث قبض النفس، وسوء الخلق والحزن، وهو ألوان: أحمر، وأخضر، وأصفر.

البنقش: أصناف: أحمر مفتوح اللون صاف، وأحمر قوىُّ الحمرة، وأسود يعلوه حمرة مطوّسة[1] بزرقة خفيفة، ثم أصفر مفتوح اللون.

عين الهرّ: حجر يتكوَّن من معدن الياقوت، والغالب عليه البياض الناصع بإشراق مفرط ومائيته رقيقة شفاقة، وفى مائتيه سرّ إذا حرّك يمينًا تحركت يسارًا وبالعكس. ومن خواصه: إذا علق على العين أمن عليها من الجدرى على ما قيل.

الماس: يوجد بواد بالهند يقال إنه مشحون بالحيات، فيأتي من ريد استخراجه من ذلك الوادى فيضع فى الوادى مرآة كبيرة فتأتي الحيات فتنظر إلى خيالها فى المرآة فتفرّ من ذلك الجانب فينزل فيأخذ ما له فيه رزق، وقيل: إنهم ينحرون الجزر ويلقون لحمها فى ذلك الوادى فيلتصق بالماس وغيره باللحم فتأتى الطير فتختطف اللحم، وتصعد به إلى الجبال فتأكل اللحم وتترك الحجر فيأخذه صاحب اللحم. وقيل: إن الحيات لها مشتى ستة أشهر فى مكان، ومصيف ستة أشهر فى مكان آخر، فإذا ذهبت إلى مشتاها ومصيفها أخذ الحجر فى غيبتها، والله أعلم بصحة ذلك. ومن عجيب أمره أنه إذا أريد كسره جعل فى أنبوبة قصب وضرب فإنه يتفتت، وكذا إذا جعل فى شمع أو قار وإذا جعل عليه دم تيس وقرّب من النار ذاب. ومن خواصه أن الملوك يتخذونه عندهم لشرفه، وهو من السموم القاتلة، القطعة الصغيرة منه إذا حصلت فى الجوف ولو بقدر السمسمة خرقت الأمعاء. ومن خواصه الجليلة: أنه يرعق عند وجود السمّ أو الطعام المسموم.

الزمرد: ويسمى الزبرجد، وهو ألوان: أخضر، وزنجارى[2]، وصابونى ويكون الحجر منه خمسة مثاقيل وأقل. ومن خواصه: أنه يدفع العي، ويفرح القلب، ويقوّى البصر، ويصفى الذهن، وينشط النفس.

الفيروزج: نوعان: إسحاقى، وخلنجى، وأجوده الإسحاقى الأزرق الصافى. خواصه: النظر فيه يجلو البصر، ويقوّيه وينشط النفس ولا يصيب المتختم به آفة من قتل أو غرق. وقال جعفر الصادق رضى اللّه تعالى عنه: ما افتقرت يد تختمت بفيروزج، وإذا مضى له بعد خروجه من معدنه عشرون سنة نقص لونه ولا يزال كذلك حتى ينطفئ.

العقيق: معدن بأرض صنعاء اليمن، وهو ألوان ويوجد عليه غشاوة، ويحمى عليه ببعر الإبل ثم يبرد ويكسر. وقيل: يوجد بالهند، ولكن اليمنىَّ أجود. خواصه: التختم به وحمله يورث الحلم والأناة وتصويب الرأى، ويسرُّ النفس، ويكسب حامله وقارًا وحسن الخلق، ويسكن الحدَّة عند الخصومة. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من تختم بالعقيق لم يزل فى بركة».

الجزع: هو حجر أيضًا يؤتى به من اليمن والصين وألوانه كثيرة، والناس يكرهونه لأنه يورث الهمَّ، والأحلام الرديئة، وسوء الخلق، وتعسر قضاء الحوائج ويكثر بكاء الصبىّ وسيلان لعابه، ويثقل اللسان إذا سحق وشرب ماؤه وإذا وضع بين قوم لا علم لهم به حصلت بينهم العداوة لكنه يسهل الولادة تعليقًا.

---

(١) المطوّسة: المشربة.

(٢) زنجارى: من درجات الأخضر.

البلور: هو صنف من الزجاج. يحكى أن ببلاد كيسان جبلين: أحدهما بلور، وإذا أريد قطع البلور فى ذلك الموضع قطع فى الليل؛ لأنه فى النهار يكون له شعاع عظيم. خواصه: النظر فيه يشرح القلب، ويبسط النفس، ويسكن وجع الضرس.

المرجان(١): هو واسطة بين النبات والمعدن؛ لأنه بتشجيره يشبه النبات، وبتحجره يشبه المعدن، ولا يزال لينًا فى معدنه، فإذا فارقه تحجر ويبس. خواصه: النظر فيه يشرح الصدر، ويبسط النفس، ويفرح القلب، ويذهب بالداء المحتبس فى العين، ويسكن الرمد، وسحاقته المخلوطة بالخلّ تجلو قلح الأسنان، وإذا وضع على الجرح منعه من الانتفاخ. وأنواعه كثيرة: أحمر، وأزرق، وأبيض، وأصله من البحر. قيل: إنه شجر ينبت. وقيل: إنه من حيوانه.

حجر الماطليس: هو حجر هندى لا يعمل فيه الحديد. والبيت الذى يكون فيه لا يدخله السحر ولا الجنّ، ولأجل ذلك كان الإسكندر يجعله فى عسكره.

الحجر الماهانى: من تختّم به أمن الروع، والهمَّ، والحزن، والغم، ولونه أبيض وأصفر ويوجد بأرض خراسان.

حجر مراد: يوجد بناحية الجنوب. وخاصيته: أن الجنَّ تتبع حامله وتعمل له ما أراد.

الدهنيج: خاصيته: أنه إذا سقى إنسان من محكه يفعل فعل السمّ، وإذا سقى شارب السمّ منه نفعه، وإذا مسح به موضع اللدغ سكن. وينفع من خفقان القلب، وإذا طلى بحكاكته بياض البرص أزاله، وإن علق على إنسان غلب عليه الباه.

السبج: خواصه: أنه يقوّى الضعيف من الكبر أو نزول الماء، ولبسه ينفع عسر البول، وإدمان النظر فيه يحدُّ البصر وسحاقته تجلو البصر وإذا علق على مَنْ به الصداع زال عنه.

المغناطيس: يوجد فى بحر الهند، وهناك لا يتخذ فى السفن حديد، ويوجد ببلاد الأندلس أيضًا، وأجود أنواعه ما كان أسود يضرب حمرة. خواصه: الاكتحال بسحاقته يورث ألفة بين المكتحل وبين من يحبه، ويسهل الولادة تعليقًا، ومن تختم به كانت حاجته مقضية، وتعليقه فى العنق يزيد فى الذهن، وإذا سحق وشرب من سحاقته من به سمّ بطل سمه، وإذا أصابته رائحة الثوم بطلت خاصتيه، وإذا غسل بالخلّ عاد إلى حالته، وأجوده ما جذب نصف مثقال من الحديد.

حجر الخطاف: الخطاف يوجد فى عشه حجران أحدهما أحمر، والآخر أبيض، فالأحمر إذا علق على مَنْ يفزع فى نومه زال فزعه، والأبيض إذا علق على مَنْ به صرع زال عنه.

حجر الزاج: إذا دخن البيت بسحاقته هرب منه الفأر والذباب.

حجر الزنجفر: أصله من الزئبق واستحال، وخاصيته: أنه يدمل الجراحات وينبت اللحم.

حجر الملح: هو أنواع وأجوده ما يوجد بأرض سدوم بالقرب من بحر لوط وقد جعله اللّه قوامًا للدنيا. ومن خاصيته: أنه يحسن الذهب ويزيد فى صفرته وعن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «يا على ابدأ بالملح واختم به، فإنه فيه شفاء من سبعين داء».

حجر النطرون: قال أرسطو: ينفع الأرحام التى غلبت عليها الرطوبة ينشفها ويقويها، وإذا ألقى فى العجين طيبه، وبيضه، ونفشه، وهو نوعان أبيض وأحمر.

حجر اللازورد: مشهور، قال أرسطو: من تختم به عظم فى أعين الناس، وينفع من السهر واللّه أعلم. ومن أراد التعمق فى ذلك فعليه بالكتب الموضوعة له ولكن قد ذكرنا ما هو معروف والحمد للّه على كل حال وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) المرجان: بل هو حيوان.

الباب الثامن والستون فى الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ومن كرهه ومن استحسنه

وما ذكرت ذلك إلا لأنى كرهت أن يكون كتابى هذا بعد اشتماله على فنون الأدب، والتحف، والنوادر، والأمثال عاطلاً من هذه الصناعة التى هى مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة[١] الكئيب، وأنس الوحيد، وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذه بمجامع النفس.

فصل فى الصوت الحسن

قال بعض أهل التفسير فى قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾[٢] هو الصوت الحسن، وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أتدرون متى كان الحداء[٣]؟»، قالوا: لا بأبينا أنت وأمنا يا رسول الله، قال: «إن أباكم مضر خرج فى طلب مال له فوجد غلامًا له قد تفرّقت إبله فضربه على يده بالعصا، فعدا الغلام فى الوادى، وهو يصيح وا يداه، فسمعت الإبل صوته فعطفت عليه. فقال مضر: لو اشتقّ من الكلام مثل هذا، لكان كلامًا تجتمع عليه الإبل، فاشتق الحداء». وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لأبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه لما أعجبه حسن صوته: «لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود»[٤] وقيل: إن داود عليه الصلاة والسلام كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يومًا فى الأسبوع، وتجتمع عليه الخلق، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة، وكان له جاريتان موصوفتان بالقوّة والشدّة فكانتا تضبطان جسده ضبطًا شديدًا خيفة أن تتخلع أوصاله مما كان ينتحب[٥]، وكانت الوحوش والطير تجتمع لاستماع قراءته. قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه الصلاة والسلام يوم القيامة عند ساق القرش فيقول: يا داود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم.

وقال سلام الحادى للمنصور وكان يضرب المثل بحدائه: مُرْ يا أمير المؤمنين بأن يظمئوا إبلاً، ثم يرودوها الماء؛ فإنى آخذ فى الحداء، فترتفع رؤوسها وتترك الشرب. وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجرى فى الجسم مجرى الدم فى العروق فيصفو له الدم، وتمنو له النفس، ويرتاح له القلب، وتهتزّ له الجوارح، وتخف له الحركات، ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء حتى يرقص ويطرب. وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقى من النطق لم يقدر اللسان على استخراجه، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع، لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس، وحنت إليه الروح، ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان، واستراحت إليها أنفسهم، وليس من أحد كائنًا من كان إلا هو يطرب من صوت نفسه، ويعجبه طنين رأسه. ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس فى الأرض لذة تكتسب من مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا نكاح ولا صيد إلا وفيها معاية على البدن، وتعب على الجوارح ما خلا السماع فإنه لا معاياة[٦] فيه على البدن، ولا تعب على الجوارح، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى فخرى الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف، وصلة الأرحام، والذبّ عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب، وقد يبكى الرجل بها على خطيئته، ويتذكر نعيم الملكوت، ويمثله فى ضميره. ولأهل الرهبانية نغمات وألحان شجية يمجدون الله تعالى بها، ويبكون على خطاياهم ويتذكرون نعيم الآخرة. وكان أبو يوسف القاضى يحضر

---

(١) مسلاة: سلواه.
(٢) سورة فاطر: ١.
(٣) الحداء: غناء تقاد به الإبل.
(٤) أخرجه: البخارى فى كتاب فضائل القرآن ٥٠٤٨.
(٥) ينتحب: يبكى بصوت.
(٦) معاياة: تعب.

مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر نعيم الآخرة، وقد تحنُّ القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهائم. وكان صاحب الفلاحات يقول: إن النحل أطرب الحيوان كله على الغناء. قال الشاعر:

والطير قد يسوقه للموت ... إصغاؤه إلى حنين الصوت

وزعموا أن فى البحر دواب، ربما زمرت أصواتًا مطربة، ولحونًا مستلذة يأخذ السامعين الغشى من حلاوتها فاعتنى بها وضعة الألحان، بأن شبهوا أغانيهم فلم يبلغوا، وربما يغشى على سامع الصوت الحسن للطافة وصوله إلى الدماغ، وممازجته للقلب، ألا ترى إلى الأم كيف تناغى ولدها فيقبل بسمعه على مناغاتها، ويتلهى عن البكاء، والإبل تزداد فى نشاطها وقوّتها بالحداء، فترفع آذانها وتلتفت يمنة ويسرة وتتبختر فى مشيتها؟ وزعموا أن السماكين بنواحى العراق يبنون فى جوف الماء حفائر ثم يضربون عندها بأصوات شجية فيجتمع السمك فى الحفائر فيصيدونه وقد نبهت على ذلك فى باب ذكر البحار وما فيها من العجائب. والراعى إذا رفع صوته ونفخ فى يراعته تلقته الغنم بآذانها وجدَّت فى رعيها. والدابة تعاف الماء، فإذا سمعت الصفير بالغت فى الشرب وليس شىء مما يستلذّ به أخف مؤنة من السماع. قال أفلاطون: من حزن فليسمع الأصوات الحسنة؛ فإن النفس إذا حزنت خمدت نارها، فإذا سمعت ما يطربها ويسرّها اشتعل منها ما خمدت، وما زالت ملوك فارس تلهى المحزون بالسماع، وتعلل به المريض وتشغله عن التفكر، ومنهم أخذت العرب حتى قال ابن غيلة الشيبانى:

وسماع مسمعة يعلّلنا ... حتى ننامَ تناومَ العجم

وحكى أن البعلبكى مؤذن المنصور رجّع[1] فى أذانه ليلة وجارية تصبّ الماء على يد المنصور فارتعدت حتى وقع الإبريق من يدها، فقال له المنصور: خذ هذه الجارية فهى لك ولا تعد ترجع هذا الترجيع، وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى عمارة فى قينة:

ألم ترَهَا لا أبعدَ اللّه دارَهَا ... إذا رجَّعَتْ فى صوتها كيفَ تصنعُ

تديرُ نظامَ القولِ ثم تردُّهُ ... إلى صلصلِ من صوتها يترجَّعُ

وبعد، فهل خلق اللّه شيئًا أوقع بالقلوب وأشد اختلاسًا للعقول من الصوت الحسن لاسيما إذا كان من وجه حسن كما قال الشاعر:

ربَّ سماعٍ حسن ... سمعتَه من حسن

مقرّبٍ من فرحٍ ... مبعدٍ من حزن

لا فارقانى أبدًا ... فى صحةٍ من بدن

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يغنى بقول جرير:

قلْ للجبانِ إذا تأخرَ سرجه ... هل أنتَ من شَرْكِ المنية ناجى

إلاّ شاجن[2] شجعت نفسه وقوى قلبه، أم هل على الأرض من بخيل قد انقبضت أطرافه يومًا يغنى بقول حاتم الطائى:

يرى البخيلُ سبيلَ الماءِ واحدةً ... إن الجوادَ يرى فى ماله سبلا

---

(١) الترجّع: من فنون الترديد.

(٢) الشاجن: الحزين متأثر.

إلا انبسطت أنامله ورشحت(١) أطرافه.

واختلف الناس في الغناء، فأجازه عامة أهل الحجاز، وكرهه عامة أهل العراق، فمن حجة من أجازه: ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لحسان: «شن الغطاريف على بنى عبد مناف، فوالله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام» واحتجوا في إباحة الغناء واستحسانه بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها: «أهديتم الفتاة إلى بعلها؟» قالت: نعم. قال: «فبعثتم معها مَنْ يغنى؟» قالت: لم نفعل.

قال: «أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم القول؟ ألا بعثتم معها مَنْ يقول:

أتيناكم أتيناكم ... فحيُّونا نحيِّيكم
ولولا الحبَّةَ السَّمراءُ ... لم نَحْلَلْ بوَادِيكم»

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرَّم، ولا يكره السّماع عند العرس، والوليمة، والعقيقة وغيرها؛ فإن فيه تحريكًا لزيادة سرور مباح، أو مندوب، ويدل عليه ما روى من إنشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم النبى صلى الله عليه وسلم حيث قلن:

طَلَعَ البَدرُ علينا ... من ثنيَّات الوَدَاعِ
وَجَبَ الشُكرُ علينا ... ما دعا للّه داعِ
أيُّهَا المَبعُوثُ فينا ... جئتَ بالأمرِ المطاعِ

ويدل عليه ما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد الحرام حتى أكون أنا التي أسأمه. ويدل عليه أيضًا ما روى فى الصحيحين من حديث عقيل عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله تعالى عنها: أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى يدففان ويضربانه، والنبى صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبيّ صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد» وعن قرة بن خالد بن عبد الله بن يحيى قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه للنابغة الجعدى: أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من هناتك. فأسمعه كلمة. فقال له: وإنك لقائلها؟ قال: نعم، قال: طالما غنيت بها خلف جمال الخطاب. وعن عبد الله بن عوف قال أتيت باب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فسمعته يغنى بالركابية يقول:

فكيف ثَوَائِى بالمدينة بَعْدَمَا ... قَضَى وَطَرًا(٢) منها جَمِيلُ بن مَعْمرِ

وكان جميل بن معمر من أخصاء عمر، قال: فلما استأذنت عليه قال لى: أسمعت ما قلت؟ قلت: نعم. قال: إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس فى بيوتهم.

وقد أجازوا تحسين الصوت فى القراءة والأذان، فإن كانت الألحان مكروهة، فالقراءة والأذان أحق بالتنزيه عنها، وإن كانت غير مكروهة فالشعر أحوج إليها لأقامة الوزن. وما جعلت العرب الشعر موزونًا إلا لمد الصوت، والدندنة، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبز المنثور.

ومن حجة من كره الغناء أنه قال: إنه ينفر القلوب، ويستفز العقول، ويبعث على اللّهو، ويحض على الطرب، وهذا باطل فى أصله وتأولوا فى ذلك قوله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**

(١) رشحت: سال منها ما سال.
(٢) وطرًا: غاية.

﴿بغير علم ويتخذها هزوًا أولئك لهم عذاب مهين﴾[1] . وأخطأ من أوّل هذا التأويل، إنما نزلت هذه الآية فى قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير، والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن، ويقولون إنها أفضل منه، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزوًا. وقال رجل للحسن البصرى: ما تقول فى الغناء يا أبا سعيد؟ فقال: نعم العون على طاعة الله تعالى، يصل الرجل به رحمه، ويواسى به صديقه، قال: ليس عن هذا اسألك، قال: وعمّ سألتنى؟ قال: أن يغنى الرجل، قال: وكيف يغنى؟ فجعل الرجل يلوى شدقيه ويفتح منخريه، فقال الحسن: والله يا ابن أخى ما ظننت أن عاقلاً يفعل بنفسه هذا أبدًا، فلم ينكر الحسن عليه إلا تشويه وجهه وتعويج فمه. وسمع ابن المبارك سكرانًا يغنى هذا البيت:

أذلّنِى الهَوَى فأنَا الذّلِيلُ ... وليسَ إلى الذى أهوى سَبِيلُ

قال: فأخرج دواة وقرطاسًا وكتب البيت. فقيل له: أتكتب بيت شعر سمعته من رجل سكران؟ فقال: أما سمعتم المثل: رب جوهرة فى مزبلة؟ وكان لأبى حنيفة جار من الكيالين مغرم بالشراب وكان يغنى على شرابه بقول العرجى:

أضاعونى وأىّ فتى أضاعُوا ... ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثَغْرِ

قالوا: فأخذه العس ليلة وحبسه، ففقد أبو حنيفة صوته، واستوحش له. فقال لأهله: ما فعل جارنا الكيال؟ قالوا: أخذه العسس وهو فى الحبس، فلما أصبح أبو حنيفة توجه إلى عيسى بن موسى فاستأذن عليه فأسرع إذنه، وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتى أبواب الملوك، فأقبل عليه عيسى بن موسى وسأله عما جاء بسببه. فقال: أصلح الله الأمير: إن لى جارًا من الكيالين أخذه عسس الأمير ليلة كذا، فوقع فى حبسه. فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كل من فى الحبس إكرامًا لأبى حنيفة. فأقبل الكيال على أبى حنيفة يتشكر له، فلما رآه أبو حنيفة قال له: هل أضعناك يا فتى؟ يعرض له بشعره الذى ينشده. قال: لا والله ولكن بررت[2] وحفظت. وكان عروة بن أدية ثقة فى الحديث روى عنه مالك بن أنس، وكان شاعرًا مجيدًا لبقًا غزلاً، وكان يصوغ ألحان الغناء على شعره ويلحنها للمغنين. قيل: إنه وقفت عليه امرأة يومًا وحوله التلامذة فقالت له: أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح وأنت تقول:

إذا وجدتُ أوارَ[3] الحبِّ فى كبدى ... عَمَدتُ نحو سِقاءِ القومِ أبترِدُ

هَبْنى بردتُ ببردِ الماءِ ظاهره ... فمَنْ لنارٍ على الأحشاءِ تَتَقِدُ

وكان عبد الملك الملقب بالقس عند أهل مكة، بمنزلة عطاء بن أبى رباح فى العبادة. قيل: إنه مر يومًا بسلامة وهى تغنى فأقام يسمع غناءها فرآه مولاها فقال له: هل لك أن تدخل وتسمع؟ فأبى، فلم يزل به حتى دخل فغنته فأعجبته و لم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها، فلما شعرت بلحظه إياها غنته:

ربّ رَسُولَين لنا بَلّغا ... رسالةَ من قبلِ أن نبرحا

الطرفُ للطرفِ بعثناهما ... فقضَّيا حاجًّا وما صرَّحا

قال: فأغمى عليه وكاد يهلك فقالت له: إنى والله أحبك قال وأنا والله أحبك. قالت: وأحب أن أضع فمى على فمك. قال: وأنا والله كذلك، قالت: فما يمنعك من ذلك؟ قال: أخشى أن تكون صداقة ما بينى وبينك

---

(١) سورة لقمان:٦.
(٢) بررت: كنت باراً ووفيًّا.
(٣) الأوار: اللظى.

عداوة يوم القيامة. أما سمعت قوله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾(١)، ثم نهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها وأنشأ يقول:

قد كنت أَعْذلُ في السَّفَاهةِ أهلَهَا ... فَاعْجبْ لما تَأتي به الأيَّامُ

فاليومَ أعذرهُم وأعلم أنَّمَا ... سُبُلُ الضلالةِ والهدى أقسامُ

وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام فأنزله في دار عياله، وأظهر من إكرامه ما يستحقه فغاظ ذلك فاختة بنت قرظة زوج معاوية، فسمعت ذات ليلة غناء عبد الله بن جعفر، فجاءت إلى معاوية فقالت: هلم فاسمع ما في منزل الذي جعلته من لحمك ودمك وأنزلته بين حرمك، فجاء معاوية فسمع شيئًا حركه وأطربه، فقال: والله إني لأسمع شيئًا تكاد الجبال أن تخرّ له. ثم انصرف فلما كان في آخر الليل وسمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر وهو قائم يصلي فنبه فاختة وقال لها: اسمعي مكان ما أسمعتني، هؤلاء قومي ملوك بالنهار، ورهبان بالليل، ثم إن معاوية أرق ذات ليلة فقال لخادمه اذهب فانظر من عند عبد الله بن جعفر وأخبره أني قادم عليه، فذهب وأخبره، فأقام عبد الله كل من كان عنده، فلما جاء معاوية لم ير في المجلس غير عبد الله فقال: مجلس مَنْ هذا؟ قال عبد الله: هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: مره فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد، قال: مجلس من هذا؟ قال: مجلس رجل يداوي الآذان يا أمير المؤمنين. قال: إن أذني عليلة فمره أن يرجع إلى مجلسه، وكان مجلس بديح المغني، فأمره عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه. فقال له معاوية: داو أذني من علتها، فتناول العود وغنى وقال:

ودِّع سُعادَ فإن الركبَ مرتحلُ ... وهل تطيقُ وداعًا أيها الرجلُ

قال: فحرّك عبد الله بن جعفر رأسه. فقال له معاوية: لم حركت رأسك يا ابن جعفر؟ قال: أريحية أجدها يا أمير المؤمنين، لو لقيت لأبليت، ولو سئلت لأعطيت، وكان معاوية قد خضب. قال: فقال ابن جعفر لبديح: هات غير هذا، وكان عند معاوية جارية عن أعزّ جواريه عليه، وكانت تتولى خضابه فغنى بديح وقال:

أليسَ عندك شكرٌ للتي جعلَتْ ما ... ابيضَّ من قادماتِ الرأسِ كالحممِ(٢)

وجدَّدتْ منك ما قد كان أخلَقَهُ ... الزمانِ وطولُ الدهرِ والقدمِ

فطرب معاوية طربًا شديدًا، وجعل يحرّك رجله، فقال له ابن جعفر: يا أمير المؤمنين إنك سألتني عن تحريك رأسي فأجبتك وأخبرتك، وأنا أسألك عن تحريك رجلك فقال: كل كريم طروب. ثم قام وقال: لا يبرح أحد منكم حتى يأتي له إذني، ثم ذهب فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار، ومائة ثوب من خاصة كسوته، وإلى كل رجل منهم بألف دينار، وعشرة أثواب.

وحدث ابن الكلبي والهيثم بن عدي قالا: بينما عبد الله بن جعفر في بعض أزقة المدينة إذ سمع غناء فأصغى إليه فإذا صوت رقيق لقينة تغني وتقول:

قُلْ للكِرَامِ بَبابنا يلجُوا ... مَا فِي التَّصَابي(٣) على الفتى حرجُ

فنزل عبد الله عن دابته، ودخل على القوم بلا إذن فلما رأوه قاموا إجلالاً له ورفعوا مجلسه، فأقبل عليه صاحب المجلس وقال: يا ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدخل مجلسنا بلا إذن، وليس هذا من شأنك؟

(١) سورة الزخرف:٦٧.
(٢) أي: جعلته أسود.
(٣) التصابي: العبث كالصبيان.

فقال: عبد الله: لم أدخل إلا بإذن. فقال: ومن أذن لك؟ قال: قينتك هذه سمعتها تقول: «قل للكرام ببابنا يلجوا»، فولجنا، فإن كنا كرامًا فقد أذن لنا، وإن كنا لئامًا خرجنا مذمومين. فقبل صاحب المنزل يده، وقال: جعلت فداك، والله ما أنت إلا من أكرم الناس. فبعث عبد الله إلى جارية من جواريه فحضرت، ودعا بثياب وطيب فكسا القوم، وطيبهم، ووهب الجارية لصاحب المنزل وقال: هذه أحذق بالغناء من جاريتك. وسمع سليمان بن عبد الملك مغنيًا في عسكره فقال اطلبوه فجاءوا به. فقال: أعد عليّ ما غنيت به. فغنى واحتفل، وكان سليمان أغير الناس، فقال لأصحابه: كأنها والله جريرة الفحل في الشوك، وما أظنّ أنثى تسمع هذا إلا صبت إليه، ثم أمر به فخصي.

أصل الغناء ومعدنه: قال أبو المنذر هشام: الغناء على ثلاثة أوجه: النصب، والسناد، والهزج، فأما النصب: فغناء الفتيان والركبان، وأما السناد: فالثقيل الترجيع الكثير النغمات، وأما الهزج: فالخفيف كله، وهو الذي يستفز القلوب، ويهيج الحليم.

وقيل: كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى فاشيًا ظاهرًا، وهي المدينة، والطائف، وخيبر، وفدك، ووادي القرى، ودومة الجندل، واليمامة، وهذه القرى مجامع أسواق العرب. ويقال إن أوّل من صنع العود، لامك بن قاين بن آدم وبكى به على ولده. ويقال إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى، وهو كتاب اللحون الثمانية، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب التاسع والستون فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء فى مجالس الرؤساء

قيل: إن أوّل من غنى فى العرب قينتان للنعمان يقال لهما: الجرادتان، ومن غنائهما:

ألا يا قين ويحك قم فهينم[1] لعلَّ اللّهَ يَسْقِينَا غَماما

وإنما غنتا هذا حين حبس اللّه عنهم المطر. وقيل: أوّل مَنْ غنى فى الإسلام الغناء الرقيق طويس وهو الذى علّم ابن سريج والدلال نوبة الضحى، وكان يكنى أبا عبد النعيم، ومن غنائه وهو أوّل صوت غنى به فى الإسلام هذا البيت:

قَد بَرَانى الشَّوقُ حتى كِدْتُ من وَجْدِى أذوبُ

ثم نجم بعد طويس، ابن طنبور، وأصله من اليمن وكان أهزج الناس وأخفهم غناء ومن غنائه:

وفتيانٍ على شِرْبٍ جميعًا دلفتُ لهم بباطِيَةٍ[2] هدورِ

فلا تشرَبْ بلا طَرَبٍ فإنى رأيتُ الخيلَ تشربُ بالصفيرِ

ومنهم حكم الوادى، ومن غنائه:

امدَحِ الكأسَ ومَنْ أعملَهَا وَاهْجُ قَوْمًا قَتَلونا بالعَطَشْ

إنما الراحُ[3] ربيعٌ باكرٌ فإذا ما وافَتِ المرءَ انتعَشْ

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين، منهم إبراهيم الموصلى، وابن جامع السهمى وغيرهما، وكان له زامر يقال له: برصومًا، وكان إبراهيم أشدّهم تصرّفًا فى الغناء، وابن جامع أحلاهم نغمة، فقال الرشيد يومًا لبرصوما: ما تقول فى ابن جامع؟ قال: يا أمير المؤمنين، وما أقول فى العسل الذى من حيثما ذقته فهو طيب. قال: فإبراهيم الموصلى؟ قال: بستان فيه جميع الأزهار والرياحين. وكان ابن محرز يغنى كل إنسان بما يشتهيه كأنه خلق من قلب كل إنسان. وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات:

فليستْ عِشياتُ الحِمَى برواجعٍ عليك ولكن خلِّ عينيك تصدعا[4]

بكَتْ عينى اليسرى فلما نهيتها عَن الجهلِ بعد الحِلْمِ أسبلتا مَعًا

قال: فاستخف الرشيد الطرب فأمر له بمائة ألف درهم. وحدث ابن الكلبى عن أبيه قال: كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء، وأنبههم فيه وكان من أضيق الناس خلقًا، إذا قيل له: غَنِّ قال: لمثلى يقال: غَنِّ؟ علىّ عتق رقبة إن غنيت يومى هذا فلما كان فى بعض الأيام سال وادى العقيق فلم يبق فى المدينة مخبأة ولا مخدّرة، ولا شاب، ولا كهل، إلا خرج يبصره، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغنى وهو معتجر[5] بفضل ردائه. فنظر إليه الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنهم، وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق وبين يديه عبدان أسودان كأنهما ساريتان يمشيان أمام دابته فقال لهما: أقسم باللّه إن لم تفعلا ما آمركما به لأنكلن بكما. فقالا: يا مولانا قل ما تآمرنا به فلو أمرتنا أن نقتحم النار فعلنا. قال: اذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل ردائه

---

(١) فهينم: ترنّم.

(٢) بباطيَة: إناء زجاجى معد للخمر.

(٣) الراح: من أسماء الخمر.

(٤) تصدعا: يتفطر، وهذه الأبيات من حماسية ابن الصمة القشيرى.

(٥) معتجر: يلفه على رأسه.

فأمسكاه، فإن لم يفعل ما آمره به وإلا فأقذفا به فى العقيق. قال: فمضيا والحسن يقفوهما[١]، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بمنكبيه. فقال: من هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا ابن عائشة. فقال: لبيك وسعديك، بأبى أنت وأمى.

قال اسمع منى ما أقول لك، واعلم أنك مأسور فى أيديهما، وقد أقسمت إن لم تُغَنِّ مائة صوتٍ ليطرحانك فى العقيق. قال: فصاح ابن عائشة واويلاه، وأعظم مصيبتاه. فقال له الحسن: دعنا من صياحك، وخذ فيما ينفعنا. قال: اقترح، وأقم من يحصى، ثم أقبل يغنى فترك الناس العقيق وأقبلوا عليه فلما تمت أصواته مائة كبر الناس بلسان واحد تكبيرة ارتجت لها أقطار الأرض وقال للحسن صلى اللّه على جدك حيًّا وميتًا فما اجتمع لأحد من أهل المدنية سرور قط إلا بكم أهل البيت. فقال له الحسن: ما فعلت هذا بك يا ابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة.

فقال ابن عائشة: واللّه ما مرت بى شدة أعظم من هذه، لقد بلغت أطراف أعضائى، فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له: ما أشدّ يوم مرّ عليك؟ يقول: يوم العقيق.

وحدث أبو جعفر البغدادى قال: حدثنى عبد اللّه بن محمد كاتب بغداد عن أبى عكرمة قال: خرجت يومًا إلى المسجد الجامع فمررت بباب أبى عيسى بن المتوكل فإذا على بابه المشدود، وهو أحذق خلق اللّه تعالى بالغناء. فقال: أين تريد يا أبا عكرمة؟ قلت: المسجد الجامع لعلى أستفيد حكمة أكتبها. فقال: ادخل بنا إلى أبى عيسى. قلت: أمثل أبى عيسى فى قدره وجلالته يدخل عليه بلا إذن؟ فقال للحاجب: اعلم أمير المؤمنين بمكان أبى عكرمة، فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إلىّ، فحملونى حملاً فدخلت إلى دار ما رأيت أحسن منها بناء، ولا أظرف منها هيئة، فلما نظرت إلى أبى عيسى قال لى: ما يعيش من يحتشم، اجلس. فجلست. فأتينا بطعام كثير فلما انقضى أتينا بشراب. وقامت جارية تسقينا شرابًا كالشعاع فى زجاجة كأنها كوكب درى. فقلت: أصلح اللّه الأمير، وأتم عليه نعمه، ولا سلبه ما وهبه. قال: فدعا أبو عيسى بالمغنين. وهم المشدود، ودبيس، ورقيق؛ ولم يكن فى ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء. فابتدأ المشدود وغنّى يقول:

لما استقلَّ بأردافٍ تجاذَبُهُ ... واخضرَّ فوقَ بياضِ الدرِّ شاربُهُ
وأشرقَ الوردُ من نسرينِ وجنتِهِ ... واهتزَّ أعلاه وارتَجَّتْ حقائبُهُ
كلّمْتُهُ بجفونِ غيرِ ناطقةٍ ... فكانَ من رَدِّهِ ما قالَ حاجبُهُ

ثم سكت وغنّى دبيس:

الحبُّ حلوٌ أمرّته عواقبُهُ ... وصاحبُ الحبِّ صَبُّ القلبِ ذائبُهُ
أستودعُ اللّه مَنْ بالطرفِ ودَّعنى ... يومَ الفراقِ ودمعُ العينِ ساكبُهُ
ثم انصرفتُ وداعى الشوقِ يهتفُ بى ... ارفقْ بقلبِك قد عزَّتْ مطالبُهُ

ثم سكت، وغنى رقيق:

بَدرٌ من الأنسِ حَفّتْهُ كواكبُهُ ... قد لاحَ عارضُه واخضَرَّ شاربُهُ
إن يوعِدِ الوعدَ يومًا فهو مُخْلِفُهُ ... أو ينطقِ القولَ يومًا فهو كاذبُهُ
عاطَيْتُهُ كدمَ الأوداجِ صافيةً ... فقامَ يشدُو وقد مالَتْ جوانبُهُ

---

(١) يقفوهما: يتبعهما.

ثم سكت وابتدأ المشدود يقول:

يا ديرَ حنةَ(١) من ذات الاكيراحِ(٢) من ... يصحُ عنك فإنى لستُ بالصَّاحى

ثم سكت وغنى دبيس:

دعِ البساتينَ من آسٍ وتفاحِ ... واعدِلْ هديت إلى شيخِ الأكيراحِ

واعدِلْ إلى فتيةٍ ذابَتْ لحومُهُمُ ... من العبادةِ إلا نضو(٣) أشباحِ

وخمرةٍ عُتِّقَتْ فى دَنِّها حُقَبًا ... كأنها دمعةٌ فى جفنِ سياحِ

ثم سكت وغنى رقيق:

لا تحفلن بقولِ اللائمِ اللاحى(٤) ... واشرَبْ على الورد من مشمولةِ الراحِ

كاسًا إذا انحدرَتْ فى حَلْقِ شاربها ... أغناهُ لألاؤها عن كلِّ مصباحِ

ما زلتُ أسقى نديمى ثم ألثمُهُ ... والليلُ ملتحفٌ فى ثَوْبِ أمساحِ

فقام يشدُو وقد مالَتْ سوالفُهُ ... يا ديرَ حنةَ من ذاتِ الأكيراحِ

ثم أقبل أبو عيسى على المشدود وقال له: غَنِّ لى شعرى فغناه:

يا لجةَ الدمعِ هل للغمضِ مرجوعُ ... أمِ الكرى من جفونِ العَيْنِ ممنوعُ

مَا حِيلتى وفؤادى هائمٌ دَنِفٌ بعقرِ ... بالصدغِ من مولاى ملسوعُ

لا والذى تلفَتْ نفسى بفرقتِهِ ... فالقلبُ من فرقِ الأحزانِ مصدوعُ

ما أرقَّ العينَ إلا حبٌّ مبتدعٍ ... ثوبُ الجمالِ على خدَّيْهِ مخلوعُ

قال أبو عكرمة: فواللّه لقد حضرت من المجالس ما لا يحصى عدده إلا اللّه تعالى، فما حضرت مثل ذلك المجلس، ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا.

وحكى عن الرشيد أنه قال يومًا للفضل بن الربيع: مَنْ بالباب من الندماء؟ قال: جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بنى أمية، وأمير المؤمنين يشتهى سماعه. قال: فأذن له وحده فدخل فقال: هات يا هشام. فغناه من شعر جميل حيث يقول:

إذا ما تراجَعْنا الذى كان بيننا جرى ... الدمعُ من عينى بثينةَ بالكحلِ

فيا وَيْحَ نفسى حَسْبُ نَفْسى الذى بها ... ويا ويحَ أهلى ما أصبتُ به أهلى

خليلىَّ فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلاً بكى من حبِّ قاتِلِهِ قبلى

قال: فطرب الرشيد طربًا شديدًا، وقال: أحسنت للّه أبوك، ثم قلده عقدًا نفيسًا، فلما رآه هاشم ترقرقت عيناه بالدموع، فقال له الرشيد: ما يبكيك يا هاشم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنّ لهذا العقد حديثًا عجيبًا إن أذن لى أمير المؤمنين حدّثته به. قال: قد أذنت لك، قال: يا أمير المؤمنين، قدمت يومًا على الوليد وهو على بحيرة طبرية، ومعه قينتان لم ير مثلهما جمالاً وحسنًا، فلما وقعت عينه عليَّ، قال: هذا أعرابى قد ظهر من البوادى، ادعو به لنسخر به. فدعانى فسرت إليه و لم يعرفنى، فغنت إحدى الجاريتين بصوت هو لى فأخطأته الجارية، فقلت لها: أخطأت يا جارية، فضحكت ثم قالت: يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابى؟ يعيب علينا غناءنا. فنظر

---

(١) ديرَ حنةَ: اسم موضع.

(٢) الاكيراح: موضع للرهبنة.

(٣) نضو: ضعيف.

(٤) اللاحى: العاذل.

إلىّ كالمنكر. فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أبين لك الخطأ فلتصلح وتركذا، ووتر كذا ففعلت، وغنت شيئًا ما سمع منها إلا فى هذا اليوم. فقامت الجارية مكبة علىّ وقالت: أستاذى هاشم ورب الكعبة. فقال الوليد: أهاشم بن سليمان أنت؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. وكشفت عن وجهى وأقمت معه بقية يومنا فأمر لى بثلاثين ألف درهم. فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين أتأذن لى فى برّ أستاذى؟ فقال الوليد: ذلك إليك، فحلّت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عنقها، ووضعته فى عنقى وقالت: هو لك. ثم قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه، فركب فى السفينة وطلعت معه إحدى الجاريتين واتبعتها صاحبتى فأرادت أن ترفع رجلها وتطلع السفينة فسقطت فى الماء فغرقت لوقتها وطلبت فلم يقدر عليها. واتبعتها صاحبتى فأرادت أن ترفع رجلها وتطلع السفينة فسقطت فى الماء فغرقت لوقتها وطلبت فلم يقدر عليها. فاشتدّ جزع الوليد عليها وبكى بكاء شديدًا وبكيت أنا عليها أيضًا بكاءً شديدًا. فقال لى: يا هشام ما نرجع عليك بما وهبناه لك، ولكن نحبّ أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به، فبعنى إياه فعوّضنى عنه ثلاثين ألف درهم. فلما وهبتنى العقد يا أمير المؤمنين تذكرت قضيته، وهذا سبب بكائى. فقال الرشيد: لا تعجب، فإن اللّٰه كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم.

وقال علىّ بن سليمان النوفلى: غنى دحمان الأشقر عند الرشيد يومًا فأنشده:

إذا نحـنُ أدلجْنَـا وأنـتِ أمامنـا   كفـى لمطايانـا برؤيـاكِ هاديـا
ذكرتُـك بـالديرين يومًـا فأشـرَفَتْ   بنـاتُ الهـوى حتـى بلَغْنَـا التراقيـا
إذا مـا طـواكِ الدهـرُ يـا أمَّ مـالكٍ   فشـأنُ المنايـا القضايـاتِ وشـاينا

قال: فطرب الرشيد طربًا شديدًا واستعاده[١] منه مرات، ثم قال له: تمنّ على، قال: أتمنى الهنئ والمرئ، وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار فى كل سنة، فأمر له بهما، فقيل له: يا أمير المؤمنين إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لا يسمح بمثلهما، فقال الرشيد: لا سبيل إلى استرداد ما أعطيت، ولكن احتالوا فى شرائهما منه فساوموه فيهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار فرضى بذلك. فقال الرشيد: ادفعوها له، فقالوا: يا أمير المؤمنين فى إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن، ولكن نقطعها له. فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاها.

ومن ذلك ما حكى إسحاق الموصلى قال: كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء، وكان يضع الألحان العجيبة ويغنى بها شعره وشعر غيره، فقال له يومًا: يا أبا محمد لقد فقت أهل العصر فى كل شىء فغننى شعرًا أرتاح إليه، وأطرب عليه يومى هذا. قال إسحاق فغنيته هذه الأبيات:

مـا كنتُ أعلـمُ مـا فـى البَيْـنِ مـن حُـرقٍ   حتـى تنـادوا بـأنْ قـد جـئ بالسُـفنِ
قـامَتْ تودِّعنـى والدَّمـعُ يغلبهـا   فهمهَمَـتْ بعـضَ مـا قـالت ولم تـبنِ
مَـالَتْ إلىّ وضمَّتنـى لِترشـفنى   كمـا يميـلُ نسـيمُ الريـحِ بـالغصنِ
وأعرضَـتْ ثُـمَّ قـالتْ وهـى بَاكيـةٌ   يـا ليـتَ معرفتـى إيـاك لم تكـنِ

قال: فخلع على خلعة كانت عليه، وأمر لى بمائة ألف درهم. قال: وغنيته يومًا:

قفـى ودِّعينـا يـا سُـعادُ بنظـرةٍ   فقـد حـان منـا يـا سـعادُ رحيـلُ
فيـا جَنَّـةَ الدنيـا ويـا غايـةَ المُنـى   ويـا سُـؤلَ نفسـى هـلْ إليـك سـبيلُ
وكنـتُ إذا مـا جئـتُ جئـتُ لعلـةٍ   فـأفنيتُ عِلاتـى فكَيْـفَ أقـولُ

(١) أى طلب إعادته ليسمعه ويطرب به.

فمَا كلَّ يومٍ لى بأرضكِ حاجةٌ ولا كَلَّ يومٍ لى إليكِ وصولُ

فقال: والله لا سمعت يومى غيره، وألقى على خلعة من ثيابه، وأمر لى بصلة ما أمر لى قبلها بمثلها.

ومن حكايات الخلفاء ومكارم أخلاقهم ما حكى عن إبراهيم بن المهدى قال: قال جعفر بن يحيى يومًا لبعض ندمائه: إنى قد استأذنت أمير المؤمنين فى الخلوة غدًا فهل من مساعد؟ فقلت: جعلت فداءك أنا أسعد بمساعدتك، وأسرّ بمشاهدتك، فقال: بكر بكور الغراب. قال: فأتيته عند الفجر فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه، وهو ينتظرنى فى الميعاد، فما زلنا فى أطيب عيش إلى وقت الضحى، فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها من أفخر الطعام وأطيبه فأكلنا وغسلنا أيدينا، ثم خلعت علينا ثياب المنادمة، وضمخنا بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب، ومدّت الستائر وغنت القينات فظللنا بأنعم يوم. ثم إنه داخله الطرب فدعا بالحاجب، وقال له: إذا أتى أحد يطلبنا فأذِنْ له، ولو كان عبد الملك بن صالح بنفسه، فاتفق الأمر المقدّر أن عمّ الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا فى ذلك الوقت، وكان صاحب جلالة وهيبة ورفعة وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدّة ورعه، فلما قدم دخل به الحاجب علينا، فلما رأيناه رمينا ما فى أيدينا، وقمنا إجلالاً له نقبل يده، وقد ارتعنا لذلك وخجلنا، وزاد بنا الحياء، فقال: لا بأس عليكم كونوا على ما أنتم عليه. ثم صاح بغلام: فدفع له ثيابه، ثم أقبل علينا وقال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم. قال: فما كان بأسرع من أن طرحت عليه ثياب خزّ معلم وقدّمت له موائد الطعام والشراب فطعم وشرب الشراب لساعته، ثم قال: خففوا عنى فإنه شيء والله ما فعلته قط.

قال: فتهلل وجه جعفر ثم التفت إلى عبد الملك فقال له: جعلت فداءك قد علوت علينا وتفضلت، فهل من حاجة تبلغها مقدرتى، وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت؟ قال: بل إنّ فى قلب أمير المؤمنين بعض تغيُّرٍ علىَّ فتسأله الرضا عنى. فقال جعفر قد رضى عنك أمير المؤمنين. قال: وعلىّ عشرة آلاف دينار، فقال جعفر: هى حاضرة لك من مالى، ولك من مال أمير المؤمنين. مثلها. قال: وأريد أن أشدّ ظهر ابن إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين. قال: قد زوّجه أمير المؤمنين بابنته الغالية، قال: وأحبّ أن تخفق الألوية على رأسه، قال: وقد ولاه أمير المؤمنين مصر. فانصرف عبد الملك بن صالح، وبقيت متعجبًا من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان، وقلت: عسى أن يجيبه أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية والمال والرضا عنه، إلا المصاهرة. قال: فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى، ثم إبراهيم بن عبد الملك بن صالح، فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد، وعقد له على مصر، والرايات والألوية تخفق على رأسه، وخرج كلّ من فى القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح. قال: ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر، وقال: أظنّ أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح، وأحببتم سماع ذلك؟ قلنا: هو كما ظننت. قال: لما دخلت على أمير المؤمنين، ومثلت بين يديه، قال: كيف كان يومك يا جعفر بالأمس؟ فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح، فكان متكئًا فاستوى جالسًا، وقال: لله أبوك ما سألك؟ قلت: سألنى رضاك عنه يا أمير المؤمنين. قال: بم أجبته؟ قلت: قد رضى عنك أمير المؤمنين. قال: قد رضيت عنه، ثم ماذا؟ قلت: وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار. قال: فبم أجبته؟ قلت: قد قضاها عنك أمير المؤمنين. قال: وقد قضيتها. ثم ماذا؟ قلت: ورغب أن يشدّ أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه. قال: فبم أجبته؟ قلت: قد زوّجه أمير المؤمنين بابنته الغالية. قال: قد أجبته إلى ذلك. ثم ماذا؟ قلت: قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه. قال: فبم أجبته؟ قلت: قد ولاه أمير المؤمنين مصر. قال: قد وليته إياها

ثم نجز[١] له جميع ذلك من ساعته. قال إبراهيم بن المهدى فوالله ما أدرى أى الثلاثة أكرم، وأعجب فعلاً؟ ما ابتدأه عبد الملك بن صالح من المنادمة و لم يكن فعل ذلك قط، أم إقدام جعفر على الرشيد، أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر؟ فهكذا تكون مكارم الأخلاق.

وحكى أبو العباس عن عمر الرازى قال: أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير فى جمد[٢] من الأرض فسمعت غناء لم أسمع مثله فقلت: والله لأتوصلن إليه، فإذا هو عبد أسود. فقلت له: أعد علىّ ما سمعت. فقال: والله لو كان عندى قرى أقْريكه لفعلت، ولكنى أجعله قراك فإنى والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط، أو عطشان فأروى، ثم اندفع يغنى ويقول:

وكنتُ إذا ما جئتُ سعدى أزورها ... أرى الأرضَ تطوى لى ويدنو بعيدُها

من الخفراتِ البيضِ وَدَّ جليسُها ... إذا ما انقضَتْ أحدوثةٌ لو تَعِيدُها

قال عمر: فحفظته منه ثم تغنيت به على الحالات التى وصفها لى فإذا هى كما ذكر، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) نجز: تمّ ونفذ.

(٢) أى: أرض صلبة.

الباب السبعون فى ذكر القينات والأغانى

حكى عليّ بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المتوكل أهدى إليه عبد اللّه بن طاهر بن خراسان جارية يقال لها: محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت فى الجمال والأدب، وأجادت قول الشعر وحذاقة الغناء، فشغف بها أمير المؤمنين المتوكل حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة. ثم إنه حصل منه عليها بعد ذلك جفاء فهجرها. قال عليّ بن الجهم: فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذ أيقظنى فقال: يا عليّ. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: قد رأيت الليلة فى منامى كأنى رضيت على محبوبة وصالحتها. فقلت: خيرًا رأيت يا أمير المؤمنين أقرّ اللّه عينك، إنما هى جاريتك والرضا والجفاء بيدك، فواللّه أنا لفى حديثها إذا جاءت وصيفة فقالت: يا أمير المؤمنين، سمعت صوت عود من حجرة محبوبة، فقال: قم بنا يا على ننظر ما تصنع، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هى تضرب العود، وتقول:

أدورُ فى القصرِ لا أرى أحدًا ... أشكو إليهِ ولا يكلّمُنى
كأننى قدْ أتيتُ مَعصيةً ... ليس لها توْبةٌ تَخلّصُنى
فهلْ شَفيعٌ لنا إلى مَلِكٍ ... قد زارَنى فى الكَرى وصَالحنى
حتى إذا مَا الصَّباحُ لاحَ لَنا ... عَادَ إلى هَجرِهِ وصَارَمَنى

قال: فصاح أمير المؤمنين فلما سمعته تلقته، وأكبت على رجليه تقبلهما، فقال: ما هذا؟ قالت: يا مولاى رأيت فى منامى هذه الليلة كأنك قد رضيت عنى، فأنشدتُ ما سمعت. قال: وأنا واللّه رأيت مثل ذلك. ثم قال: يا على هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق؟! ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها، وكان من أمرهما ما كان. قيل: وكان أمير المؤمنين الواثق إذا شرب رقد فى موضعه الذى شرب فيه، ومَنْ كان معه من ندمائه شرب ورقد، و لم يخرج. فشرب يومًا وخرج مَنْ كان عنده إلا مغنيًا واحدًا أظهر التراقد فترك وكانت مغنية من حظايا الخليفة نائمة، فلما خلا المجلس كتب المغنى رقعة ورمى بها إليها فإذا فيها:

إنى رَأيتكِ فى المَنامِ ضَجيعَتى ... مُسْترشفًا مِن ريقِ فِيكِ البَاردِ
وكأنَّ كفَّكِ فى يدِى وكأننَا ... بِتْنا جميعًا فى لِحَافٍ وَاحِدِ
ثم انتَبَهْتُ ومنكَبَاكِ كِلاهُمَا ... فِى راحتىَّ وتحتَ خدِّكِ سَاعِدِى
فقطَعْتُ يومى كلّهُ مُتراقِدًا ... لأراكِ فِى نومِى وَلَستُ بِرَاقِدِ

فكتبت إليه على ظهرها تقول:

خيرًا رأيتَ وكلُّ ما أمّلتَه ... ستنالُه منىّ برغمِ الحاسِدِ
وتبيتُ بين خلاخِلى ودمالجى[(١)] ... وتحلُّ بين مراشفى ونواهِدِى
ونكونُ أنْعَمَ عَاشِقَيْنِ تَعاطيا ... مِلحَ الحديثِ بلا مخافةِ راصدِ[(٢)]

فلما مدّت يدها لترمى إليه بالرقعة، رفع الواثق رأسه فأخذها من يدها، وقال: ما هذا فحلفا له أنه لم يجر بينهما قبل ذلك كلام ولا كتاب ولا رسول. إلا أن العشق قد خامرهما، قال: فأعتقها من وقتها، وزوّجها به، وقال: خذها ولا تقربنا بعد اليوم.

---

(١) دمالجى: مفردها دملج: وهو سوار يحيط بالمعصم.

(٢) راصد: مراقب.

وكان لأسماء بنت المهدى جارية يقال لها: كاعب، وكانت بكرًا ناهدًا بنت ثلاث عشرة سنة، قال: فتلاعب عليها أبو نواس فتمنعت، فوقع فى قلبه منها ما وقع، وأحبته هى أيضًا، فجعل أبو نواس كلما أمسكها تمنعت، فظفر بها ليلة من الليالى فى ناحية من القصر فأمسكها فبكت. وقالت له: يا سيدى الموت دون ذلك. فقال أبو نواس هذا جزع الأبكار فاتفق أنه خرج يومًا من القصر، وقد ترقرق الدجا فوجدها نائمة فى سدلة، وهى سكرى لا تفيق، فتقرّب منها وحلّ سراويلها، ووقع عليها فإذا هى خالية من البكارة، فارتاع وظن أن يكون أتاها دم فلم يجد فقام عنها، وندم على ما كان منه وأنشد يقول:

ونـاهدةِ الثديَيْـنِ مـن خـدَمِ القصـرِ ... مُرقرقَـةِ الخدَّيْـنِ ليليَّـةِ الشـعرِ
كلفـتُ بهـا دهـرًا علـى حُسنِ وجهِهـا ... طويـلاً ومـا حـبُّ الكواعـب مـن أمـرى
فمـا زلـتُ بالأشـعارِ حتـى خدَعْتَهـا ... وروَّضْتَهـا والشعرُ مـن خِـدَعِ السـحرِ
أطالبُهـا شـيئًا فقـالت بعـبرةٍ ... أمـوتُ ولا هـذا ودمعَتَهـا تجـرى
فلمـا تعارَضْنـا توسَّـطت لجـة ... غرقـتُ بهـا يـا قـومُ فـى لجـج البحـرِ
فصِحْـتُ أغثنـى يـا غـلامُ فجـاءنى ... وقـد زلقَـتْ رجلـى وصـرتُ إلى الصـدرِ
ولـولا صيـاحى بـالغلامِ وأنـه ... تداركَنـى بـالحبلِ صـرتُ إلى القعـرِ
فأقسَـمْتُ عمـرى لا ركبـت سـفينةً ... ولا سرتُ طولَ الدهـرِ إلا علـى ظهـرِ[1]

ومن ذلك ما حدّث الشيبانى قال: كان عند رجل بالعراق قينة، وكان أبو نواس يختلف إليها، وكانت تظهر له أنها لا تحب غيره؛ وكان كلما دخل إليها وجد عندها شابًا يجالسها ويحادثها فقال فيها هذه الأبيات:

ومُظْهِـرةٍ لخلـقِ اللّـه وُدًّا ... وتلَقَـى بالتحيَّـة والسَّـلامِ
أتيـتُ لبابهَـا أشْـكو إليهـا ... فلـم أخلَـصْ إليـهِ مـن الزِّحَـامِ
فَيَـا مَـنْ ليـسَ يكفيهـا خليـلٌ ... ولا ألفَـا خليـلٍ كَـ ـلَّ عَـامِ
أراك بقيـةً مِـن قَـومِ مُوسَـى ... فهُـمْ لا يصـبرون علـى طَعَـامِ

وقال أبو سويد: حدّثنى أبو زيد الأسدى قال: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس فى إيوان مبلط بالرخام الأحمر، مفروش بالديباج الأخضر، وفى وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع، وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهنّ أحسن من صاحبتها. وقد غابت الشمس، وغنت الأطيار فتجاوبت، وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت، فقلت: السلام عليك أيها الأمير، ورحمة الله وبركاته. وكان مطرقًا نرفع رأسه، وقال: أبا زيد فى مثل هذا الحين تصاحبنا؟ فقلت: أصلح الله الأمير أو قامت القيامة؟ قال: نعم على أهل المحبة، ثم أطرق مليًا، ورفع رأسه، وقال: أبا زيد ما يطيب فى يومنا هذا؟ قلت: أصلح الله الأمير قهوة حمراء[2]، فى زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء مضمومة[3] لفاء، أشربها من كفها، وأمسح فمى بخدّها، فأطرق سليمان مليًا لا يردّ جوابًا، وتنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق. فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه، ثم رفع رأسه فقال: أبا زيد حضرت فى يوم فيه انقضاء أجلك، ومنتهى مدتك، وتصرّم عمرك، والله لأضربنّ عنقك أو لتخبرنى ما أثار هذه الصفة من قلبك. قلت: نعم أصلح الله الأمير؛ كنت جالسًا عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت من

(١) ظهرِ: يعرض بأنه يفضل اللواطة على الجماع المألوف.
(٢) قهوة حمراء: الخمر.
(٣) مضمومة: ممتلئة، عبلة.

باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد، عليها قميص سكب اسكندرانى يبين منه بياض بدنها وتدوير سرّتها، ونقش تكتها، وفى رجليها نعلان صراران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها، بذؤابتين تضربان إلى حقويها، لها صدغان كأنهما نونان، وحاجبان قد قوّسًا على محاجر عينيها، وعينان مملوءتان سحرًا، وأنف كأنه قصبة بلور، وفم كأنه جرح يقطرها دمًا، وهى تقول: عباد اللّه من لى بدواء ما لا يُشتكى، وعلاج ما لا يسمى، طال الحجاب، وأبطأ الجواب، والقلب طائر، والعقل عازب، والنفس والهة، والفؤاد مختلس، والنوم محتبس رحمة اللّه على قوم عاشوا تجلدًا، وماتوا كمدًا لو كان إلى الصبر حيلة، أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمرًا جميلاً. ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها فقلت لها: أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية؟ سماوية أنت أم أرضية؟ فقد أعجبنى ذكاء عقلك وأذهلنى حسن منطقك فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترنى ثم قالت: أعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد. والمقاساة لصب معاند. ثم انصرفت، فواللّه ما أكلت طعامًا طيبًا إلا غصصت به لذكرها، ولا رأيت حسنًا إلا سمج[1] فى عينى لحسنها. فقال سليمان: أبا زيد كان الجهل يستفزنى، والصبا يعاودنى، والحلم يعزب عنى لشجو ما سمعت، اعلم يا أبا زيد أن تلك التى رأيتها هى الذلفاء التى قيل فيها:

إنمــــا الذلفـــــاءُ ياقوتـــــةٌ أُخْرِجـــتْ مـــن كيـــسِ دهقـــان[2]

شراؤها على أخى ألف ألف درهم، وهى عاشقة لمن باعها، واللّه إن مات ما يموت إلا بحبها، ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفى الصبر سلوة، وفى توقيع الموت نهبة، قم أبا زيد فى دعة اللّه تعالى. ثم قال: يا غلام نفله ببدرة، فأخذتها وانصرفت.

قال: فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط فأخرج على دهناء الغوطة، وضرب فى روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر ما بين أصفر فاقع، وأحمر ساطع، وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغنّ يقال له: سنان به يأنس، وإليه يسكن، فأمر أن يضرب فسطاطه بالقرب منه، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان فى أكمل سرور، وأتمّ حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه، فنزل به جماعة من إخوانه فقالوا له: نريد قرى أصلحك اللّه، قال: وما قراكم؟ قالوا: أكل، وشرب، وسماع. قال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه عنه إلاّ ما كان في مجلسه، قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا. قال: فاختاروا صوتًا واحدًا أغنيكموه. قالوا: غننا صوت كذا.

فرفع صوته يغنى بهذه الأبيات:

مَحجوبــةٌ سَمِعَــتْ صوتِــى فأرَّقَهــا مِــن آخــرِ الليــلِ لمــا نبــه السحــرُ
فــى ليلــة البــدرِ مــا يــدرى مُضاجعُهــا أوَجْهُهَــا عنــده أبهَــى أم القمَــرُ
لم يَحجــبِ الصَّــوتَ أحــراسٌ ولا غلــقٌ فدَمْعُهــا لطــروقِ الصــوتِ مُنْحَــدرُ
لــو مكنــتْ لمشَــتْ نحــوى علــى قــدمِ تكــادُ مــن لينهــا فــى المشــىء تنفطــرُ

قال: فسمعت الذلفاء صوت سنان، فخرجت إلى صحن الفسطاط تسمع، فجعلت لا تسمع شيئًا من حسن خلق، ولطافة قدّ، إلا رأت ذلك كله فى نفسها وهيئتها، فحرّك ذلك ساكنًا من قلبها، فهملت عيناها، وعلا نحيبها، فانتبه سليمان فلم يجدها معه، فخرج إلى صحن الفسطاط، فرآها على تلك الحالة فقال: ما هذا يا ذلفاء؟

(١) سمج: قبح وغلظ.
(٢) الدهقان: التاجر.

فقالت:

ألا ربَّ صوتٍ رائعٍ من مشوّهٍ ... قبيحِ المحيا واضعِ الأبِ والجدِ
يروعُك منه صوته ولعله ... إلى أمةٍ يُعزى معًا وإلى عبدِ

فقال سليمان: دعينى من هذا، فواللّه لقد خامر قلبك منه ما خامر، ثم قال: يا غلام علىَّ بسنان. فدعت الذلفاء خادمًا لها فقالت له: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذرته فلك عشرة آلاف درهم، وأنت حرٌّ لوجه اللّه تعالى، فخرج الرسولان فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان، فلما أتى به قال يا سنان: ألم أنهك عن مثل هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين حملنى على ذلك حلمك، وأنا عبد أمير المؤمنين، وغرس نعمته، فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن عبده فليفعل. قال: قد عفوت عنك ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل، ودقت له الحجرة[1]، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة، وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة، إياك إياك والعَوْدَ إلى ما كان منك فيطول غمك.

وحكى أن الرشيد فصد يومًا، فأرسلت إليه بعض حظاياه قدحًا فيه شراب مع وصيفة لها جميلة الوجه حسنة الطلعة بديعة المحيا، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الأبيات:

فصدت عرقًا تبتغى صحةً ... ألبسكَ اللّهُ بهِ العافيَهْ
فاشرَبْ بهذا الكأسِ يا سيدى ... واهنأ بها من كفٍّ ذى الجاريَهْ
واجعَلْ لمن أنفذَهُ خلوةً ... تحظَى بها فِى الليلة الآتيَهْ

قال: فنظر الرشيد إلى الوصيفة التى جاءت بالقدح فاستحسنها فافتضها، ثم أرسلها، فعلمت مولاتها بذلك فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذا الأبيات:

بعثتُ الرسولَ فأبطأ قليلاَ ... علَى الرغمِ منى فصبرًا جميلا
وكنتَ الخليل، وكان الرسولا ... فصرتُ الرسول وصار الخليلا
كذا مَنْ يوجِّهْ فى حاجةٍ ... إلى من يُحِبُّ رسولا جميلا؟

قال: فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها: أنا عندك الليلة. وأهدى داود بن روح المهلبى إلى المهدى جارية فحظيت عنده، فواعدته المبيت عنده ليلة، فمنعها الحيض.

فكتب إليها يقول:

لأهجونَّ حبيبًا خانَ موعدَهُ ... وكانَ منه لصفوِ العيشِ تكديرُ

فأرسلت إليه تجيبه:

لا تهجرن حبيبًا خانَ موعده ... ولا تذمنَّ وعدًا فيه تأخيرُ
ما كان حسبى إلا من حدوثِ أذى ... لا يُستطاعُ له بالقولِ تفسيرُ

وقال محمد بن مروان يصف جارية له:

أمسَتْ تباعُ ولو تباعُ بوزنها ... درًّا بكى أسفًا عليها البائعُ

وكان للمأمون جويرية من أحسن الناس وأسبقهم إلى كلّ نادرة فحظيت عنده فحسدها الجوارى، وقلن: لا حسب لها، فنقشت على خاتمها. حسبى حسبى، فازداد بها المأمون عجبًا فسمتها الجوارى فماتت فجزع عليها

---

(١) أى: أنثاه.

المأمون جزعًا شديدًا، وقال:

اختلسَتْ رَيحانتى مِن يدى ... أبكِى عليها آخرَ الأبدِ
كانَتْ هى الأنسُ إذا استوحشَتْ ... نَفْسى من الأقربِ والأبعدِ
وروضةً كان بها مَرْتَعى ... وَمنهلاً كان بها مَوْردى
كانت يدى كان بها قوّتى ... فاختلسَ الدهرُ يدى من يدى

وللمتوكل فى قينة:

أمازحُها فتغضبُ ثم ترضَى ... فَكَلٌّ فعالها حَسنٌ جَميلُ
فإن غَضِبَتْ فَأَحْسَنُ ذى دلالِ ... وإنَ رضيَتْ فليس لها عديلُ

وحدث أبو عبد اللّه بن عبد البر قال: حدثنى إسحاق بن إبراهيم، عن الهيثم بن عدى قال: كان فى المدينة رجل من بنى هاشم، وكان له قينتان - يقال لإحداهما: رشا، ولأخرى جؤذر، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستظرفين. فأرسل الهاشمى إليه ذات يوم ليسخر به، فلما أتاه قال له: أصلحك اللّه إنك لفى لذتك، ولا لذة لى. قال: وما لذتك؟ قال: تحضر لى نبيذًا فإنه لا يطيب لى عيشٌ إلا به. فأمر الهاشمى بإحضار نبيذ، وأمر أن يطرح فيه سكر العشر. فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه، فتناوم الهاشمى، وغمز جاريته عليه فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرّز، قال فى نفسه: ما أظنّ هاتين المغنيتين إلاّ يمانيتين، وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض، فقال لهما: يا حبيبتيَّ أين المرحاض؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت يقول غنيانى:

رحضت[1] فؤادى فخليتنى ... أهيمُ من الحبّ فى كلّ وادِ

فاندفعتا تغنيانه. فقال فى نفسه: واللّه ما أظنهما فهمتا عنى، وما أظنهما إلاّ مكيتين، وأهل مكة يسمونها: المخارج. فقال: يا حبيبتى أين المخرج؟ فقالت أحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنيانى:

خرجتُ لها من بطن مكةَ بعدما ... أقام المنادى بالعشىّ فأعتما[2]

فاندفعتا تغنيانه. فقال فى نفسه: لم يفهما عنى، وما أظنهما إلا شاميتين، وأهل الشام يسمونها: المذاهب، فقال: يا حبيبتيّ أين المذهب؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول حبيبنا؟ قالت يقول غنيانى:

ذهبتُ من الهجران فى كلِّ مذهبٍ ... ولم يَكُ حقًا كلُّ هذا التجنّبِ[3]

فغنتاه الصوت. فقال: لا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم، لم يفهما عنى وما أظن القحبتين إلا مدنيتين، وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء، فقال: يا حبيبتى أين بيت الخلاء؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنيانى:

خلا علىَّ بِقاعُ الأرض إذا ظعنوا ... من بطنِ مكّة واسترعانى الحزن

قال: فغنتاه، فقال: إنا للّه وإنا إليه راجعون، ما أظن الفاسقتين إلا بصريتين، وأهل البصرة يسمونها الحشوش. فقال: يا حبيبتى أين الحشوش؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنيانى:

أوحشونى وعزَّ صبرى فيهم ... ما احتيالى وما يكونُ فعالى

---

(١) رحضت فؤادى: غسلته.
(٢) فأعتما: فدخلنا فى العتمة.
(٣) التجنب: التباعد.

قال: فاندفعتا تغنيانه. فقال: ما أراهما إلا كوفيتين، وأهل الكوفة يسمونها: الكنف. فقال لهما: يا حبيبتى أين الكنيف؟ فقالت أحداهما لصاحبتها: يعيش سيدنا ما رأيت أكثر اقتراحًا من هذا الرجل. قالت: ما يقول؟ قالت: يسأل أن تغني له:

تكنَفِنى الهَوَى طِفّلاً فَشيَّبنى وما اكتهَلا

فقال: واويلاه، وأعظم مصيبتاه، هذا والهاشمى يتقطع ضحكًا فقال لهما: يا زانيتان إن لم تعلمانى به، أنا أعلمكم، ثم رفع ثيابه وسلم[1] عليهما، وعلى الفراش، فانتبه الهاشمى، وقد غشى عليه من شدة الضحك وقال: ويلك ما هذا تسلح على وطائى. فقال الرجل: حياة نفسى أعز على من وطائك. وقيل إنه لما قيل: له: ويلك ما هذا؟ قال المضحك هذه الأبيات:

تكنّفنى الملاحُ وأضجَرُونى على ما بى بنيّاتُ الزوانى
فلما قلَّ عن ذاك اصطبارى قذَفْتُ بِه على وَجْهِ الغَوانِى

قال فانبسط الهاشمى، ودفع له مالاً، ومضى إلى سبيله.

وقال على بن الجهم قلت لقينة:

هل تعلمين وراء الحبِّ منزلةً تدنى إليك فإنَّ الحَبَّ أقصانى

قالت: تأتى من باب الذهب، وأنشدت:

اجعل شفيعَك منقوشًا تقدمه فلم يزل مُدّنيًا من ليس بالدانى

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة فجلس عندها يومًا يطارحها الغناء، فلما أراد الخروج قال لها: ناولينى خاتمك أذكرك به. قالت: إنه ذهب، وأنا أخافُ أن تذهب، ولكن خُذْ هذا العود فلعلك أن تعود وناولته عودًا من الأرض. وكان بعض القينات من الجمال والحسن بجانبه، ثم أصابتها علة فتغير حالها فكانت تنشد:

ولى كبدٍ مقروحة من يبيعنى بها كبدًا ليسَتْ بذاتِ قروحِ
أباهَا عَلَىَّ النَاسُ لا يشترونها ومن يشترى ذا علةٍ بصحيحِ

وكان المعتصم يحب قينة من حظاياه فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها، فذكرها فى بعض الطريق فاشتاق إليها فغلبه الوجد فدعا مغنيًا، وقال: ويحك قد ذكرت جاريتى فلانة فأقلقنى الشوق إليها، فعسى أن تغنينى شيئًا فى معنى ما ذكرته لك. فأطرق مليًا ثم غناه:

وددتُ من الشوق المبرح أننى أعار جناحَىْ طائرٍ فأطيرُ
فما لنعيمٍ ليس فيه بشاشَةٌ وما لسرورٍ ليس فيه سرورُ
وإنِ امرأة فى بلدةٍ نِصفُ قلبِهِ ونصف بأخرى غيرها لصبورُ

والحكايات فى معنى ذلك كثيرة، ولو أردت بسطها لاحتجت إلى مجلدات، ولكن ما قلَّ وجلَّ خير من كثير يُمِلُّ. وفيما نكرته كفاية، واللّه المسئول أن يمدنى منه باللطف والعناية، ونسأله التوفيق والهداية، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آلة وصحبه وسلم.

(١) سلم: أى قضى حاجته.

الباب الحادى والسبعون فى ذكر العشق ومن بلى به والافتخار بالعفاف وأخبار من مات بالعشق وما فى معنى ذلك وفيه فصول

الفصل الأول فى وصف العشق

قال الجاحظ: العشق اسم لما فضل عن المحبة، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود. وقال أعرابى: العشق خفىّ أن يرى، وجلىّ أن يخفى، فهو كامن ككمون النار فى الحجر إن قدحته أورى، وإن تركته توارى[1]، وقيل: أول العشق النظر، وأول الحريق الشرر. وكان العشاق فيما مضى يشق الرجل برقع حبيبته، والمرأة تشق رداء حبيبها، ويقولون: إنهما إذا لم يفعلا ذلك عرض البغض بينهما، وقال عبد بنى الحسحاس:

وكَمْ قَد شقَقْنا من رداءِ مُحَبَّر ... ومن برقعٍ عن طَفْلَةٍ غير عانسِ[2]

إذا شُقَّ بردٌ شقَّ بالبردِ برقعٌ ... من الحبِّ حتى كلّنا غيرِ لابس

وقيل لأعرابى: ما بلغ حبك لفلانة؟ قال: إنى لأذكرها وبينى وبينها عقبة الطائف، فأجد من ذكرها رائحة المسك. وقيل: رأى شبيب أخو بثينة جميلاً عندها فوثب عليه وآذاه، ثم إن شبيبًا أتى مكة وجميل فيها فقيل لجميل: دونك شبيبًا فخذ بثأرك منه، فقال:

وقالوا يَا جميلُ أتَى أخوُها ... فقلتُ أتَى الحبيبُ أخو الحبيبِ

وأنشد الأخفش الحداد يقول:

مطارقُ[3] الشوقِ منها فى الحشى أثرٌ ... يطرقن سندانَ قلبٍ حشوُه الفكرُ

ونارُ كورِ الهوى فى الجسمِ موقدةٌ ... ومبردُ الحبِّ لا يُبقى ولا يَذَرُ

وفى «الجليس الأنيس» لأبى العالية الشامى قال: سأل أميرُ المؤمنين المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرء، فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه. وقال ثمامة: العشق جليس ممتع. وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه ضيقة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة، ملك الأبدانّ وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها: وأعطى عنان طاعتها، وقوة تصريفها، توارى عن الأبصار مدخله، وخفى فى القلوب مسلكه.

وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور قال لسليمان بن عمرو ومن معه: أنتم أدباء وقد سمعتم الحكمة، ولكم حداء ونغم، فهل فيكم عاشق؟ قالوا: لا. قال: اعشقوا فإن العشق يطلق اللسان، ويفتح جبلة البليد والبخيل، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس، وتطييب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء، وتشريف الهمة.

وقال المجنون:

قالت جننتَ على ذِكْرِ فقلتُ لها ... الحبُّ أعظمُ مِمَّا بالمجانينِ

الحبُّ ليس يفيقُ الدَّهرُ صاحبُهُ ... وإنما يصرَعُ المجنونُ فى الحينِ

---

(١) توارى: اختفى.

(٢) عانسٍ: لم تجاوز مرحلة الصبا.

(٣) مطارقُ: هى أدوات الحدادة كما نلاحظ.

قال ذو الرياستين: إن بهرام جور كان له ابن، وكان قد رشحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقص الهمة، ساقط المروءة، خامل النفس، مسئ الأدب، فغمه ذلك فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه، وكان يسألهم عنه فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه، وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يومًا، فقال له المؤدب: قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء فى فلاحه، قال: وما ذاك الذى حدث؟ قال: رأى ابنة فلان الرزبان فعشقها فغلبت عليه، فهو لا يهدأ إلا بها، ولا يتشاغل إلا بها، فقال بهرام: الآن رجوت فلاحه ثم دعا بأبى الجارية فقال له: إنى مسرّ إليك سرًّا فلا يعدوك، فضمن له ستره، فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن ينكحها إياه، وأمره أن يأمرها بإطماعه فى نفسها، ومراسلته من غير أن يراها وتقع عينه عليها، فإذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وتهجره، فإن استعلمها أعلمته أنها لا تصلح إلا للملك، ثم لتعلمنى خبرها ولا تطلعهما على ما أسرّه إليك. فقبل أبوها ذلك منه. ثم قال للمؤدّب الموكل بأدبه: حضه وشجعه على مراسلة المرأة. ففعل ذلك وفعلت المرأة كما أمرها أبوها، فلما انتهت إلى التجنى عليه، وعلم الفتى السبب الذى كرهته لأجله أخذ فى الأدب، وطلب الحكمة، والعلم، والفروسية، والرماية، وضرب الصولجان حتى مهر فى ذلك. ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب، والآلات، والمطاعم، والملابس، والندماء وما أشبه ذلك، فسر الملك بذلك وأمر له بما طلب، ثم دعا مؤدّبه فقال له: إنّ الموضع الذى وضع به ابنى نفسه من خبر هذه المرأة، لا يدرى به، فتقدّم إليه ومره أن يرفع إلى ويسألنى أن أزوّجه إياها، ففعل المؤدّب ذلك فرفع الفتى ذلك لأبيه فدعا بأبيها وزوّجه إياها وأمر بتعجيلها إليه، وقال له إذا اجتمعت أنت وهى فلا تحدث شيئًا حتى أصير إليك. فلما اجتمعا صار إليه فقال: يا بنيّ لا يضعن قدرها عندك مراسلتها إياك، وليست فى خبائك، فإنى أمرتها بذلك، وهى أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذى تصلح معه للملك من بعدى فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك. ففعل الفتى وعاش مسرورًا بالجارية، وعاش أبوه مسرورًا به، وأحسن ثواب أبيها، ورفع منزلته لصيانة سرّه، وأحسن جائزة المؤدّب لامتثال أمره به. وكان عبد اللّه بن عبيدة الريحانى يهوى جارية فزارته يومًا فأقام يحدّثها ويشكو إليها ألم الفراق فحان وقت الظهر فناداه إنسان الصلاة يا أبا الحسن. فقال: رويدك حتى تزول الشمس، أى حتى تقوم الجارية. وقالت ليلى العامرية فى قيسها:

لم يكنِ المجنونُ فىَ حالةٍ   إلا وقد كنتُ كَمَا كانا
لكنه باحَ بِسرِّ الهَوَى   وإننى قد ذُبْتُ كتمانا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب:

وإنى ليرضينى الممرّ ببابها   وأقنعُ منها بالشتيمةِ والزجرِ

وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل:

أيها العاشقُ المعذّب صبرًا   فخطايا أخى الهوى مغفورَهْ
زفرةٌ فِى الهوى أَحَطّ لِذنْبٍ   مِن غزاةٍ وحِجَّةٍ مبرورَهْ

وقال عمر بن أبى ربيعة: كنت بين امرأتين، هذه تسارِرنى، وهذه تعضنى فما شعرت بعضة هذه من لذّة هذه. وأنشد شيبان العذرى يقول:

لو حزّ بالسيفِ رأسى فى مَحَبَّتِها   لطار يهوى سريعًا نحوها رأسى

وقال يحيى بن معاذ الرازى: لو أمرنى اللّه أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذابًا.

الفصل الثانى فيمن عشق وعفّ والافتخار بالعفاف

روى عن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من عشق فعفّ فمات فهو شهيد» وقال صلى اللّه عليه وسلم: «عفوا، تعف نساؤكم» وقال بعضهم رأيت امرأة مستقبلة البيت فى غاية الضعف، والنحافة، رافعة يديها تدعو. فقلت لها: هل من حاجة؟ فقالت: حاجتى أن تنادى فى الموقف بقولى:

تزوَّد كلُّ الناس زادًا يقيهم … وما لى زادٌ والسَّلامُ على نفسى

فناديت كما أمرتنى، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إلى فقال: أنا الزاد فمضيت به إليها، فما زاد على النظر والبكاء. ثم قالت له: انصرف بسلام، فقلت: ما علمت أن لقاءكما يقتصر على هذا، فقالت: أمسك يا هذا أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد. قال إبراهيم بن محمد المهلبى:

كم قد ظفرتُ بمن أهوى فيمنعُنى … مِنه الحياءُ وخوفُ اللّه والحذرُ
وكمْ خلوتُ بمنْ أهْوَى فيُقنِعُنى … منه الفكاهةَ والتأنيسُ والنظرُ
أهوى الملاحَ وأهوَى أن أجالِسَهُم … وليسَ لى فى حرامٍ منهم وطرُ
كذلك الحَبُّ لا إتيانُ معصيةٍ … لا خيرَ فى لذَّةٍ من بعدها سقرُ[1]

وقال بعض بنى كلب:

إن أكن طامحَ اللّحاظِ فإنى … والذى يَمْلكُ الفؤادَ عفيفُ

ونحو ذلك قول القائل:

فقالت بحقِّ اللّه إلاّ أتيْتَنا … إذا كان لونُ الليلِ شبهَ الطيالسِ
فجئتُ وما فى القوم يقظانُ غيرها … وقد نامَ عنها كل واشٍ وحارسِ
فبِتْنا بليلٍ طيِّبٍ نستلذّهُ … جميعًا ولم أقلِبْ لها كفَّ لامسِ

ونزل رجل على صديق له مستترًا خائفًا من عدو له فأنزله فى منزله وتركه فيه، وسافر لبعض حوائجه، وقال لأمرأته: أوصيك بضيفى خيرًا، فلما عاد بعد شهر قال لها كيف ضيفنا؟ قالت: ما أشغله بالعمى عن كل شىء، وكان الضيف قد أطبق عينيه، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه، ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره.

وكان عمر بن أبى ربيعة عفيفًا يصف ويعف ويحوم ولا يرد[2]. ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها: يا بثينة ما أرى فيك شيئًا مما كان يقوله جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إلى بعينين ليستا فى رأسك. قال: فكيف رأيتيه فى عشقه؟ قالت: كان كما قال الشاعر:

لا والذى تسجدُ الجباهُ له … ما لى بما تحت ذيلها خبرُ
ولا بفيها ولا هممتُ بها … ما كان إلا الحديثَ والنظرُ

وقد قدّمت هذين البيتين فى الجزء الأوّل فيما جاء فى الكناية على سبيل الرمز. وعن أبى سهل الساعدى قال: دخلت على جميل، وبوجهه آثار الموت. فقال لى: يا أبا سهل إن رجلاً يلقى اللّه، ولم يسفك دمًا، ولم يشرب خمرًا، ولم يأت فاحشة أفترجو له الجنة قلت: إى واللّه فمن هو؟ قال: إنى لأرجو أن أكون ذلك.

(١) سقرُ: جهنم.
(٢)لا يرد: لا يأتى ما يحوم حولَه. كناية عن عدم وقوعه فى الحرام.

فذكرت له بثينة فقال: إنى لفى آخر يوم من الدنيا، وأوّل يوم من الآخرة لا نالتنى شفاعة محمد صلى اللّه عليه وسلم إن كنت حدّثت نفسى بريبة قط. وعن عبد اللّه بن عبد المطلب والد النبىّ صلى اللّه عليه وسلم، أنه دعته بغىّ إلى نفسها، وبذلت له مالاً، وكانت تتكهن وتسمع بإتيان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وكانت جميلة فأرادت أن تخدع عبد اللّه رجاء أن يكون النبى صلى اللّه عليه وسلم منها للنور الذى رأته بين عينيه فأبى وقال:

أمَّا الحَرامُ فالحِمَامُ(١) دونَهُ ... والحِلُّ لا حِلَّ فأستبينَهُ
فكيفَ بالأمرِ الذِى تبغينَهُ ... يَحْمِى الكريمَ عرضُه ودينُهُ

وقال آخر:

وأحورَ مخضوبِ البنان محجبٍ ... دعانى فلم أعرِفْ إلى ما دعا وَجْها
بخلتُ بنفسى عن مقامٍ يشينها ولست ... مريدًا ذاك طوعًا ولا كرهًا

وراود شاب ليلى الأخيلية عن نفسها فاشمأزّت، وقالت:

وذى حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها ... فليسَ إليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونَهُ ... وأنتَ لأخرى صاحبٌ وخليلُ

وقال ابن ميادة:

موانعُ لا يعطين حبةَ خردل ... وهُنَّ دوانٍ فى الحديث أوانسُ
ويكرَهْنَ أن يسمَعْنَ فى اللّهوِ ريبةً ... كرهَتْ صوتَ اللجام الشوامسُ(٢)

وقال آخر:

حُورٌ حرائرُ ما همَمْنَ بريبةٍ ... كظباءِ مكَّةَ صيدهُنَّ حرامُ
يُحْسَبْنَ مِنْ لينِ الكلام فَواسِقًا ... وَيَصدُّهُنَّ عنِ الخَنىَ الإسْلامُ(٣)

وكان الأصمعى يستحسن بيتىّ العباس بن الأحنف:

أتأذنونَ لصبٍّ فى زيارتكم ... فعندَكُم شهواتُ السمع والبصرِ
لا يُظهرُ الشوقَ إن طال الجلوسُ به ... عفُّ الضمير ولكن فاسقُ النظرِ

واختفى إبراهيم بن المهدى فى هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبى جعفر فوكلت بخدمته جارية لها اسمها: ملك، وكانت واحدة زمانها فى الحسن والأدب، طلبت منها بخمسمائة ألف درهم، فهويها إبراهيم، وكره أن يراودها عن نفسها فغنى يومًا وهى قائمة على رأسه:

يَا غَزالاً لى إليهِ ... شَافعٌ مِنْ مُقلتَيْهِ
أنَا ضَيْفٌ وجَزَا ... ءُ الضَّيفِ إحْسَانٌ إليهِ

ففهمت الجارية ما أراد، فحكت ذلك لمولاتها فقالت: اذهبى إليه فأعلميه أنى قد وهبتك له، فعادت إليه فلما رآها أعاد البيتين فأكبت عليه.

فقال لها: كُفِّى، فلستُ بخائن. فقالت: قد وهبتنى لك مولاتى وأنا الرسول، فقال: أما الآن فنعم.

---

(١) الحِمامُ: الموت.

(٢) الشوامسُ: الخيل صعبة القيادة.

(٣) الخنى الإسلامُ: يصدهن عن الفحش وينهن.

وأنشد المبرّد:

مَا إِنْ دعانى الهوَى لِفَاحشةٍ إلا نهانى الحيَاءُ والكَرَمُ
فلا إلى فاحشٍ مَددتُ يَدى ولا مَشَتْ بِى لِزَلّةٍ قَدَمُ

وقال آخر:

يقولون لا تنظَرْ فَذاك بليّةٌ بَلى كَلُّ ذى عَينين لابُدَّ ناظرُ
وهل باكتحالِ العينِ بالعينِ ريبةٌ إذا عَفَّ فيما بينهن السَّرَائرُ

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لا ينشد شعرًا، ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة. قال: فبينما هو فى الطواف يومًا إذا نظر إلى شاب يتحدّث مع شابة جميلة الوجه. فقال له: يا هذا اتق اللّه أفى مثل هذا المكان؟ فقال: يا أمير المؤمنين واللّه ما ذاك لخنى، ولكنها ابنة عمى وأعز الناس علىّ، وإن أباها منعنى من تزوّجها لفقرى وفاقتى، وطلب منى مائة ناقة، ومائة أوقية من الذهب، ولم أقدر على ذلك. قال: فطلب الخليفة أباها ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه، ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها. ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر فقالت له جارية من حظاياه: أراك اليوم يا مولاى تنشد الشعر، أفنسيت ما نذرت، أم نراك قد هويت، فأنشد هذه الأبيات يقول:

تقولُ وليدتى لَمّا رَأتنى طرِبْتَ وكنتُ قد أسلَيْتَ حينا
أراكَ اليوم قد أحدَثْتَ عَهْدًا وَأَوْرَثَكَ الهوى داءً دفينا
بحقّكَ هل سمِعْتَ لها حديثًا فشاقَكَ أو رأيتَ لها جبينا
فقلتُ شَكَا إلى أخٌ مُحبٌّ كمثلِ زمانِنَا إذْ تعلمينا
وذو الشجو القديم وإن تعزّى مُحِبٌّ حينَ يلقى العاشقينا

ثم عدّ الأبيات، فإذا هى خمسة أبيات، فأعتق خمس رقاب. ثم قال: للّه درّك من خمس، أعتقت خمسة، وجمعت بين رأسين فى الحلال.

وروى عن عثمان الضحاك قال: خرجت أريد الحج فنزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة فأعجبنى حسنها فتمثلت بقول نصيب:

بزينب أَلِمْ قبلَ أن يرحلَ الركبُ وقل لا تمِلينا فما ملكَ القلبُ

فقالت: يا هذا، أتعرف قائل هذا البيت؟ قلت: بلى هو نصيب. فقالت: أتعرف زينبه؟ قلت: لا، قالت: أنا زينبه؟ قلت: حياك اللّه وحباك، قالت: أما واللّه إن اليوم موعده وعدنى العام الأول بالإجتماع فى هذا اليوم فلعلك أن تبرح حتى تراه. قال: فبينما هى تكلمنى إذا أنا براكب. قال: ترى ذلك الراكب. قلت: نعم. قالت: إنى لأحسبه إياه. فأقبل فإذا هو نصيب، فنزل قريبًا من الخيمة ثم أقبل، فسلم ثم جلس قريبًا منها فسألته أن ينشدها فأنشدها، فقلت فى نفسى: محبان قد طال التنائى بينهما فلابد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة. فقمت إلى بعيرى لأشد عليه، فقال: على رسلك إنّى معك. فجلست حتى نهض معى فسرنا وتسامرنا فقال لى: أقلت فى نفسك محبان التقيا بعد طول تناء، فلابد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة؟ قلت: نعم قد كان ذلك. قال: وربّ هذا البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلسًا هو أقرب من مجلسى هذا، فتعجبت لذلك وقلت: واللّه هذه هى العفة فى المحبة.

وعن محمد بن يحيى المدنى قال: سمعت بعض المدنيين يقول: كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولاً يفرح أن يرى مَنْ يراها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا، وتناشدا الأشعار. واليوم هو يشير إليها وتشير إليه

ويعدها وتعده، فإن التقيا لم يتشاكيا حبًّا، و لم يتناشدا شعرًا، بل يقوم إليها ويجلس بين شعبتيها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة.

وقال أصمعى: قلت لأعرابية: ما تعدون العشق فيكم. قالت: الضمة، والغمزة، والقبلة. ثم أنشأت تقول:

مَـا الحَـبُّ إلا قَبلَـةٌ ... وغمْـزُ كَـفَّ وعضَـدْ

مَـا الحَـبُّ إلا هَكَـذا ... إن نكـح الحـبُّ فسَـدْ

ثم قالت: كيف تعدون أنتم العشق؟ قلت: نمسك بقرنيها، ونفرق بين رجليها. قالت: لست بعاشق، أنت طالب ولد ثم أنشأت تقول:

قـد فَسدَ العِشـقُ وهـانَ الهَـوى ... وصـارَ مَـنْ يعشـقُ مسـتعجلا

يُريـد أن َينكـح أحبابَـهُ ... مِـن قبـلِ أن يُشـهِدَ أو ينحـلا[1]

وقيل لرجل قد زفت عشيقته على ابن عم لها: أيسرّك أن تظفر بها الليلة؟ قال: نعم، والذى أمتعنى بحبها وأشقانى بطلبها.

قيل: فما كنت صانعًا بها؟ قال: كنت أطيع الحبّ فى لثمها، وأعصى الشيطان فى إثمها، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم[2] عاره، وينشر قبيح أخباره إنى إذًا للئيم، لم يلدنى كريم.

ومرَّ سيدنا عمر رضى اللّه تعالى عنه ليلة فى بعض سكك المدينة فسمع امرأة تقول:

ألا طـالَ هـذا الليـلُ وازورَّ جانِبُـهُ ... وليـسَ إلى جـانبى خليـلٌ ألاَعبُـهْ

فواللّـهِ لـولا اللّـهُ تخشـى عواقبـه ... لحَرِّك مِـن هـذا السـريرِ جوانبُـهْ

مخافـةَ ربِّـى والحيـاءُ يعفّنـى ... وإكـرامُ بعلـى أن تَنـالَ مراتبُـهْ

قال: فسأل عمر رضى اللّه عنه عنها، فقيل له: إنها امرأة فلان، وله فى الغزاة ثمانية أشهر. فأمر عمر رضى اللّه تعالى عنه أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر. ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزى فى كتاب «تلقيح فهوم الأثر» عن محمد بن عثمان بن أبى خيثمة السلمى عن أبيه عن جدّه قال: بينما عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه يطوف ذات ليلة فى سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول:

هَـل مـن سـبيلٍ إلى خمـرٍ فأشـربها ... أمْ مـن سبيلٍ إلى نصرِ بـن حجـاجِ

إلى فتـىً مـاجدِ الإعـراقِ مقتبـلٍ ... سَـهْلِ المحيـا كريـم غـيرِ ملجـاجِ

تنميـه أعـراقُ صـدقٍ حـين تنسبُهُ ... أخـى وفـاءٍ عـن المكروبِ فَـرَّاجِ

فقال عمر رضى اللّه تعالى عنه: لا أرى معى بالمدينة رجلاً تهتف به العواتق فى خدورهنّ، علىَّ بنصر بن حجاج، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم شعرًا، فقال عمر: عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك، فأخذ من شعره، فخرج من عنده، وله وجنتان كأنهما شقتا قمر فقال له: اعتم[3] فأعتم فافتتن الناس بعينيه. فقال له عمر: واللّه لا تساكننى فى بلدة أنا فيها، فقال: يا أمير المؤمنين ما ذنبى؟ قال: هو ما أقول لك ثم سيره إلى البصرة، وخشيت المرأة التى سمع منها عمر ما سمع أن يبدر من عمر

---

(١) ينحلا: قبل مجيء شهود ودفع مهر وهى شروط عقد النكاح. أى يريد ثمرة النكاح دون الاثيان بعقد مائة من عقد وإشهار وصداق.

(٢) ذميم: فاسد.

(٣) أى: ارتد العمامة.

إليها شيء، فدست إليه المرأة أبياتًا وهي:

قَلْ للأمامِ الذى تُخشَى بوادرُه ... ما لى وللخمرِ أو نصرِ بن حجاج
لا تجعَلِ الظَّنَّ حقًا أن تبينه ... إن السبيلَ سبيلُ الخائفِ الراجي
إنِ الهوى زُمَّ بالتقوى فتحبسه ... حتى يقرَّ بإلجامٍ وإسراج

قال: فبكى عمر رضى الله تعالى عنه، وقال: الحمد لله الذى زم الهوى بالتقوى. قال: وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة فخرجت أمه يومًا بين الأذان والإقامة متعرّضة لعمر، فإذا هو قد خرج في إزار ورداء وبيده الدرّة. فقالت له: يا أمير المؤمنين، والله لأقفنّ أنا وأنت بين يدىّ الله تعالى، وليحاسبنك الله أيبتينّ عبد الله وعاصم إلى جنبيك، وبينى وبين ابنى الفيافى والأودية. فقال لها: ابنىّ لم تهتف لهما العواتق فى خدورهنّ. ثم أرسل عمر إلى البصرة بريدًا إلى عتبة بن غزوان فأقام أيامًا ثم نادى عتبة، من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين فليكتب فإن البريد خارج، فكتب نصر بن حجاج: بسم الله الرحمن الرحيم: سلام عليك يا أمير المؤمنين، أما بعد فاسمع منى هذه الأبيات:

لعمرى لئن سيَّرتنى أو حرمتنى ... وما نَلتَ من عِرضى عليك حرامُ
فأصبحتُ منفيًّا على غير ريبةٍ ... وقد كان لى بالمكّتَيْن مَقّامُ
لِئن غنّتِ الذّلفاءُ يومًا بمنية ... وبعضُ أمانىّ النساء غرامُ
ظننتَ بى الظنَّ الذى ليس بعده ... بقاءٌ وما لى جرمة فألامُ
فيمنعُنى مما تقولُ تكرّمى ... وآباءُ صدقٍ سالفونَ كِرامُ
ويمنعُها مِمَّا تقول صلاتُها ... وحالٌ لها فى قومها وصيامُ
فهاتان حالان فهل أنت راجعى ... فقد جُبَّ منى كاهلٌ وسنامُ

قال: فلما قرأ عمر رضى الله تعالى عنه هذه الأبيات. قال: أما ولى السلطان فلا، وأقطعه دارًا بالبصرة فى سوقها، فلما مات عمر ركب راحلته، وتوجه نحو المدينة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث فى ذكر من مات بالحب والعشق

حدّث أبو القاسم بن إسماعيل بن عبد الله المأمون قال: حدثنى أبى. قال: كانت بالمدينة قينة من أحسن الناس وجهًا، وأكملهم عقلاً، وأكثرهم أدبًا، قد قرأت القرآن، وروت الأشعار، وتعلمت العربية، فوقعت عند يزيد بن عبد الملك، فأخذت بمجامع قلبه، فقال لها ذات يوم، ويحك أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيفه، وأسدى إليه معروفًا؟ قالت: يا أمير المؤمنين: أما قرابة فلا، ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاى، وأحبّ أن ينالهم خير مما صرت إليه. فكتب إلى عامله بالمدينة في إحضارهم إليه، وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم. فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم فى الدخول عليه. فأذن لهم، وأكرمهم غاية الإكرام، وسألهم عن حوائجهم، فأما اثنان منهم فذكرا حوائجهما فقضاها، وأما الثالث فسأله عن حاجته فقال يا أمير المؤمنين ما لى حاجة. قال: ويحك أو لست أقدر على حوائجك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن حاجتى ما أظنك تقضيها. فقال: فاسألنى فإنك لا تسألنى حاجة أقدر عليها إلا قضيتها. قال: فلى الأمان يا أمير المؤمنين؟ فقال: نعم. قال: إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر جاريتك فلانة، التى أكرمتنا بسببها، أن تغنى ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال فافعل. قال: فتغير وجه يزيد ثم قام من مجلسه فدخل على الجارية فأعلمها، فقالت: وما عليك يا أمير المؤمنين، فأمر بالفتى فأحضر، وأمر بثلاثة كراسى من ذهب فنصبت فقعد يزيد على أحدها، والجارية على

لآخر، والفتى على الثالث، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت، ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت، ثم قال للفتى: سل حاجتك. فقال تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

لا أستطيع سلوًا عن مودّتها ... أوَ يصنع الحبُّ بى فوق الذى صنعا

أدعو إلى هَجْرِها قلبى فيسعدنى ... حتى إذا قلتُ هذا صادقٌ نَزعا

فأمرها فغنت، وشرب يزيد، وشرب الفتى، وشربت الجارية، ثم أمر بالأرطال فملئت، ثم قال للفتى سل حاجتك، فقال: مرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

تخيرت من نَعْمَانَ[1] عودَ أراكةٍ ... لهند ولكن مَنْ يبلغه هندا

ألا عرّجا بى باركَ اللّهُ فيكما ... وإن لم تكن هندٌ لأرضكما قصدا

فأمرها فغنت، وشرب يزيد، وشرب الفتى، وشربت الجارية، ثم أمر بالأرطال فملئت، ثم قال للفتى: سل حاجتك. قال: تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى هذا الشعر:

مِنىٌ الوِصَالُ ومنكم الهجرُ ... حتّى يفرقَ بيننا الدهرُ

واللّه لا أسلوكمو أبدًا ... ما لاح بدرٌ أو بدا فجرُ

فأمرها فغنت، قال: فلم تتمّ الأبيات حتى خرّ الفتى مغشيًا عليه، فقال يزيد للجارية: قومى انظرى ما حاله؟ فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت، فقال لها يزيد: ابكيه، فقالت: لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حىّ، فقال لها: أبكيه، فواللّه لو عاش ما انصرف إلا بك. فبكت الجارية، وبكى أمير المؤمنين، وأمر بالفتى فجهز ودفن، وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أيامًا قلائل وماتت.

وحكى عن عبد اللّه بن جعفر بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه أنه قدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره فتذاكرا الغناء والجوارى المغنيات، والعشق، فقال عبد الملك لعبد اللّه: حدّثنى بأمر ما مرَّ لك فى هذه الأغانى، وما رأيت من الجوارى. قال نعم يا أمير المؤمنين اشتريت جارية مولّدة بعشرة آلاف درهم، وكانت حاذقة مطبوعة فوصفت ليزيد بن معاوية فكتب إلىّ فى شأنها، فكتبت إليه واللّه لا تخرج منى ببيع، ولا هبة، فأمسك عنى فكانت عندى على تلك الحالة لا أزداد فيها إلا حبًّا، فبينما أنا ذات ليلة إذا أتتنى عجوز من عجائزنا فذكرت لى أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه، ويراه وتراها، وأنه يجئ كل ليلة متنكرًا فيقف بالباب فيسمع غناءها ويبكى شغفًا وحبًّا، فراعيت ذلك الوقت الذى قالت عليه العجوز، فإذا به قد أقبل مقنعًا رأسه، وقعد مستخفيًا فلم أدع بها فى تلك الليلة وجعلت أتأمل موضعها وموضعه فإذا بها تكلمه وكيلمها، ولم ار بينهما إلا عتبًا. ولم يزالا كذلك حتى ابيض الصبح فدعوت بها وقلت لقيمة الجوارى: أصلحى فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزينتها، فلما جاءت قبضت على يديها وفتحت الباب وخرجت فجئت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعورًا، فقلت: لا بأس عليك ولا خوف، هى هبة منى إليك، فدهش الفتى ولم يجبنى فدنوت إلى أذنه وقلت: قد أظفرك اللّه تعالى ببغيتك فقم وانصرف بها إلى منزلك، فلم يردّ جوابًا فحركته فإذا هو ميت. فلم أر شيئًا قط كان أعجب من أمره. قال عبد الملك: لقد جئتنى بعجب، فما صنعت الجارية؟ قلت: ماتت واللّه بعد بأيام بعد نحول عظيم وتعليل، وماتت كمدًا ووجدًا على الغلام.

وقيل: إن عبد اللّه بن عجلان الهندى رأى أثر كفٍّ عشيقته فى ثوب زوجها فمات. وذكر محمد بن واسع الهيتى أن عبد الملك بن مروان بعث كتابًا إلى الحجاج بن يوسف الثقفى يقول فيه: بسم اللّه الرحمن الرحيم من

---

(١) اسم موضع.

عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أمّا بعد إذا ورد عليك كتابى هذا وقرأته فسيّر لى ثلاث جوار مولدات أبكارًا يكون إليهنّ المنتهى فى الجمال، واكتب لى بصفة كل جارية منهنّ، ومبلغ ثمنها من المال. فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض، وأعطاهم المال وكتب لهم كتبًا إلى كلّ الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين فلا يزالوا من بلد، إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهن مثيل. قال: وكان الحجاج فصيحًا فجعل ينظر إلى كل واحدة منهنّ ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهنّ بقيمة، وأن ثمنهنّ ثمن واحدة منهنّ. ثم كتب كتابًا إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل: وصلنى كتاب أمير المؤمنين أمتعنى اللّه تعالى ببقائه يذكر فيه أن أتشرى له ثلاث جوار مولدات أبكارًا، وأن أكتب له صفة كل واحدة منهنّ وثمنها. فأما الجارية الأولى - أطال اللّه تعالى بقاء أمير المؤمنين- فإنها جارية عبيطاء السوالف[1]، عظيمة الروادف، كحلاء العينين، حمراء الوجنتين، قد أنهدت نهداها، والتفت فخذاها كأنها ذهب شيب بفضة وهى كما قيل:

بيضاءُ فيها إذا استقبلتها دعج كأنها فِضَّةٌ قد شابَها ذهبُ

وثمنها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألفد درهم.

وأما الثانية فإنها جارية فائقة فى الجمال معتدلة القدّ والكمال تشفى السقيم بكلامها الرخيم، وثمنها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم.

وأما الثالثة فإنها جارية فاترة الطرف، لطيفة الكفّ عميمة[2] الردف، شاكرة للقليل، مساعدة للخليل، بديعة الجمال كأنها خشف الغزال، وثمنها يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أطنب فى الشكر والثناء على أمير المؤمنين، وطوى الكتاب، وختمه، ودعا النخاسين فقال لهم: تجهزوا للسفر بهؤلاء الجوارى إلى أمير المؤمنين، فقال أحد النخاسين: أيد اللّه الأمير إنى رجل كبير ضعيف عن السفر، ولى ولد ينوب عنى أفتأذن لى فى ذلك؟ قال: نعم فتجهزوا وخرجوا ففى بعض مسيرهم نزلوا يومًا ليستريحوا فى بعض الأماكن فنامت الجوارى فهبت الريح فانكشفت بطن إحداهنّ وهى الكوفية فبان نور ساطع، وكان اسمها مكتوم، فنظر إليها ابن النخاس وكان شابًا جميلاً ففتن بها لساعته، فأتاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول:

أَمَكْتُومُ، عينى لا تَملُّ مِن البُكا وقلبى بأسهامِ الأسَى يَترشَّقُ
أَمَكْتُومُ كَمْ من عاشقٍ قَتَلَ الهوى وَقلبى رهينٌ كيف لا أتعشَّقُ

فأجابته تقول:

لو كان حقّا ما تقولُ لزرتنا ليلاً إذا هجَعَتْ عيونُ الحُسَّدِ

قال: فلما، جنّ الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه، وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه، فأخذها وأراد أن يهرب ففطن به أصحابه فأخذوه وكتفوه، وأوثقوه بالحديد، ولم يزل مأسورًا معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان، فلما مثلوا بالجوارى بين يديه أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجوارى، ولم توافق الثالثة ورأى فى وجهها صفرة وهى الجارية الكوفية، فقال للنخاسين: ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التى ذكرها الحجاج فى كتابه، وما هذا الصفرار بها والانتحال؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين نقول ولنا

---

(١) عُبيطاء السوالف: مرتفعة السوالف.

(٢) عميمة: غليظته.

الأمان؟ قال: إن صدقتم أمنتم، وإن كذبتم هلكتم، فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد[1] بالحديد، فلما قدّموه بين يدى أمير المؤمنين بكى بكاءً شديدًا وأيقن بالعذاب، ثم أنشأ يقول:

أميرَ المؤمنين أتيتُ رَغْما ... وقد شُدَّتْ إلى عنقى يديَّا

مُقرًّا بالقبيح وسوءِ فعلى ... ولستُ بما رُميتُ به بريَّا

فإن تقتلْ ففوق القتلِ ذنبى ... وإن تعفُو فمِن جودٍ عليَّا

فقال عبد الملك: يا فتى ما حملك على ما صنعت، استخفاف بنا، أم هوى الجارية؟ قال: وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك، ما هو إلا هوى الجارية. فقال: هى لك بما أعددته لها. فأخذها الغلام بكل ما أعدّه لها أمير المؤمنين من الحلى والحلل، وسار بها فرحًا مسرورًا إلى نحو أهله، حتى إذا كانا ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلاً فتعانقا وناما، فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نبهوهما فوجدوهما ميتين. فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق، ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما، وتعجب من ذلك.

ومن ذلك ما روى عن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم، أنه أخرج خالد بن الوليد المخزومى رضى اللّه تعالى عنه إلى مشركى خزاعة. قال خالد: فأخرجنى إليهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والبأس، قال: فجدّينا المسير إليهم فسبق إليهم الخبر فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالاً شديدًا، حتى تعالى النهار، وطار الشرار، وهاجت الفرسان، وتلاحمت الأقران، فلولا أن اللّه تعالى أيدنا بنصره لكادت الدائرة أن تكون علينا ولكن تداركنا اللّه برحمة منه فهزمناهم وقتلناهم قتلاً ذريعًا، ولم ندع لهم فارسًا إلا قتلناه، ثم طلبنا البيوت فنهبنا وسبينا، فلما هدأ القتال والنهب أمرت أصحابى بجمع السبايا لنقدم بهنّ على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فلما خرجنا وأحصيناهم خرج منهم غلام لم يراهق الحلم، ولم يجر عليه القلم وهو ماسك بشابة جميلة، فقلنا له: يا غلام انعزل عن النساء، فصاح صيحة مزعجة، وهجم علينا، فواللّه لقد قتل منا فى بقية نهارنا مائة رجل، قال خالد: فرأيت أصحابى قد كرهوا قتاله، وتأخروا عنه، فملك منهم جوادًا وعلا على ظهره، ونادى: البراز يا خالد، قال: فبرزت إليه بنفسى بعد أن أنشدت شعرًا، فواللّه لم يمهلنى حتى أتم شعرى بل حمل على فتطاعنا حتى تكسرت القنا، وتضاربنا بالسيوف حتى تفللت، فواللّه لقد اقتحمت الأهوال، ومارست الأبطال، فما رأيت أشد من حملاته، ولا أسرع من هجماته، فبينما نحن نعترك إذكبا به فرسه فصار بين قوائمه، فوثبت عليه وعلوت على صدره وقلت له: افد نفسك بقول أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا رسول اللّه، وأنا أردك من حيث جئت. قال: يا خالد ما أنصفتنى اتركنى حتى أجد من نفسى القوّة، قال خالد: فتركته وقلت لعله أن يسلم ثم شددته وثاقًا، وصفدته بالحديد وأنا أبكى إشفاقًا على حسن شبابه، ثم أوثقته على بعير لى، فلما علم أن لا خلاص له قال: يا خالد سألتك بحق إلهك إلا ما شددت ابنة عمى على ناقة أخرى إلى جانبى، قال خالد: فأخذتها وشددتها على ناقة أخرى إلى جانبه، ووكلت بهما جماعة من أشدّ القوم بالقواضب والرماح وسرنا، فلما استقامت مطاياهم جعل الغلام والجارية يتناشدان الأشعار، ويبكيان إلى آخر الليل فسمعته يذكر قصيدة يسبّ فيها الإسلام ويذكر أن لا يسلم أبدًا. فأخذت السيف وضربته فرميت رأسه فصاحت الجارية وأكبت صارخة فحرّكتها فوجدتها ميتة. فأبركنا الأباعر وحفرنا ودفناهما. فلما قدمنا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أقبلنا نحدّثه بعجيب ما رأينا مع الغلام فقال: لا تحدّثونى شيئًا أنا أحدّثكم به، فقلنا: مَنْ أعلمك به يا رسول اللّه؟قال:أخبرنى جبريل عليه السلام.وتعجب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من موافقتهما، وموافقة أجلهما.

(١) مصفد: به الأصفاد وهى القيود.

ومن ذلك ما حكاه الثورى قال: حدثنى جبلة بن الأسود وما رأيت شيخًا أصبح ولا أوضح منه قال: خرجت فى طلب إبل لى ضلت فما زلت فى طلبها إلى أن أظلم الظلام، وخفيت الطريق فصرت أطوف، وأطلب الجادّة فلا أجدها. فبينما أنا كذلك إذا سمعت صوتًا حسنًا بعيدًا وبكاء شديدًا فشجانى حتى كدت أن أسقط عن فرسى، فقلت: لأطلبن الصوت ولو تلفت نفسى، فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت واديًا، فإذا راع قد ضم غنمًا له إلى شجرة وهو ينشد ويترنم:

وكنتُ إذا ما جئتُ سعدى أزورُهَا ... أرى الأرضَ تَطوى لى ويدنو بعيدُها

مِن الخَفَراتِ البيضِ وَدَّ جليسُها ... إذا ما انقضَتْ أحْدُوثَةٌ لَوْ تعيدُها

قال: فدنوت منه وسلمت عليه، فردّ علىّ السلام وقال: من الرجل؟ فقلت: منقطع به المسالك أتاك يستجير بك ويستعينك. قال: مرحبًا وأهلاً انزل على الرحب والسعة فعندى وطاء وطئ، وطعام غير بطئ، فنزلت، فنزع شملته[1] وبسطها تحتى. ثم أتانى بتمر وزبد ولبن وخبز، ثم قال: اعذرنى فى هذا الوقت، فقلت: واللّه إنّ هذا لخير كثير، فمال إلى فرسى فرطبه وسقاه وعلفه. فلما أكلت توضأت وصليت، واتكأت فإنى لبين النائم واليقظان إذ سمعت حسّ شيء، وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادى فضحت الشمس حسنًا، فوثب قائمًا إليها، وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها وجعلا يتحادثان. فقلت: هذا رجل عربىّ ولعلها حرمة له، فتناومت وما بى نوم، فما زالا فى أحسن حديث، ولذة مع شكوى وزفرات إلا أنها لا يهم أحدهما لصاحبه بقبيح. فلما طلع الفجر عانقها، وتنفسا الصعداء، وبكى وبكت، ثم قال لها: يا ابنة العم سألتك باللّه لا تبطئى عنى كما أبطأت الليلة، قالت: يا ابن العم أما علمت أنى أنتظر الواشين والرقباء حتى يناموا، ثم ودّعته وسارت وكل واحد منهما يلتفت نحو الآخر ويبكى. فبكيت رحمة لهما وقلت فى نفسى: واللّه لا أنصرف حتى استضيفه الليلة، وانظر ما يكون من أمرهما، فلما أصبحنا قلت له: جعلنى اللّه فداءك، الأعمال بخواتيهما، وقد نالنى أمس تعب شديد، فأحب الراحة عندك اليوم، فقال: على الرحب والسعة، لو أقمت عندى بقية عمرك ما وجدتنى إلا كما تحبّ، ثم عمد إلى شاة فذبحها، وقام إلى نار فأججها وشواها وقدّمها إلىّ، فأكلت وأكل معى، إلا أنه أكل أكل من لا يريد الأكل، فلم أزل معه نهارى ذلك، و لم أر أشفق منه على غنمه، ولا ألين جانبًا ولا أحلى كلامًا إلا أنه كالولهان، و لم أعلمه بشئ ما رأيت. فلما أقبل الليل وطأت وطائى فصليت، وأعلمته أنى أريد الهجوع لما مرّ بى من التعب بالأمس. فقال لى: نم هنيئًا فأظهرت النوم و لم أنم فأقام ينتظرها إلى هنيهة من الليل، فأبطأت عليه فلما حان وقت مجيئها قلق قلقًا شديدًا، وزاد عليه الأمر فبكى ثم جاء نحوى فحركنى فأوهمته أنى نائم، فقال: يا أخى هل رأيت الجارية التى كانت تتعهدنى وجاءتنى البارحة؟ قلت: قد رأيتها قالت فتلك ابنة عمى، وأعز الناس على، وإنى لها محبّ، ولها عاشق، وهى أيضًا محبة لى أكثر من محبتى لها، وقد منعنى أبوها من تزويجها لى لفقرى وفاقتى وتكبره علىّ فصرت راعيًا بسببها، فكانت تزورنى فى كلّ ليلة، وقد حان وقتها الذى تأتى فيه، واشتغل قلبى عليها، وتحدثنى نفسى أن الأسد قد افترسها، ثم أنشأ يقول:

مَا بَالُ مَيَّةَ لا تَأتى كعادتِهَا ... أعاقَها طَربٌ أم صدَّها شُغلُ؟

نَفْسى فِداؤُكِ قد أحللتِ بى سقمًا[2] ... تكادُ مِن حَرِّهِ الأعضاءُ تَنْفَصِلُ

قال: ثم انطلق فغاب عنى ساعة وأتى بشئ فطرحه بين يدى فإذا هى الجارية قد قتلها الأسد، وأكل أعضاءها، وشوه خلقتها، ثم أخذ السيف وانطلق فأبطأ هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطرحه ثم أنشأ يقول:

---

(١) شملته: العباءة التى يرتديها.

(٢) سقمًا: مرضًا.

ألا أيهـا الليـثُ المـدلُّ بنفسـه هلكتَ لقد جريتَ حقًا لك الشرا
وخلفتنى فردًا وقد كنتُ آنسًا وقد عادتِ الأيامُ من بعدها غبرا

ثم قال: بالله يا أخى إلا ما قبلت ما أقول لك، فإنى أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة، فإذا أنا مت فخذ عباءتى هذه فكفننى فيها، وضم هذا الجسد الذى بقى منها معى، وادفنا فى قبر واحد، وخذ شويهاتى هذه. وجعل يشير إليها فسوف تأتيك امرأة عجوز هى والدتى فأعطها عصاى هذه، وثيابى وشويهاتى، وقل لها: مات ولدك كمدًا بحب فإنها تموت عند ذلك فادفنها إلى جانب قبرنا، وعلى الدنيا منى السلام. قال: فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح صيحة ووضع يده على صدره، ومات لساعته. فقلت: والله لأصنعنّ له ما أوصانى به. فغسلته وكفنته فى عباءته، وصليت عليه، ودفنته ودفنت باقى جسدها إلى جانبه وبت تلك الليلة باكيًا حزينًا. فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهى كالولهانة فقالت لى: هل رأيت شابًا يرعى غنمًا؟ فقلت لها: نعم. وجعلت أتلطف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكى، وأنا ألاطفها إلى أن أقبل الليل، وما زالت تبكى بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة فقصدت نحوها فإذا هى منكبة على وجهها، وليس لها نفس يصعد، ولا جارحة تتحرك. فحركتها فإذا هى ميتة. فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها، وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشددت فرسى، وجمعت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول:

كنا على ظهرها والدهرُ يجمعنا والشَّملُ مجتمعٌ والدَّارُ والوطنُ
فمزَّقَ الدَّهرُ بالتفريق ألْفَتَنا وَصَارَ يجمعُنا فى بطنها الكفنُ

قال: فأخذت الغنم، ومضيت إلى الحى لبنى عمهم فأعطيتهم الغنم، وذكرت لهم القصة فبكى عليهم أهل الحى بكاء شديدًا، ثم مضيت إلى أهلى، وأنا متعجب مما رأيت فى طريقى.

ومن ذلك ما حكى أن زوج عزّة أراد أن يحج بها فسمع كُثَيِّر الخبر فقال: والله لأحجّن لعلى أفوز من عزّة بنظرة. قال فبينما الناس فى الطواف إذ نظر كُثَيِّر لِعَزَّة وقد مضت إلى جمله فحيته ومسحت بين عينيه، وقالت: حييت يا جمل فبادر ليلحقها ففاتته فوقف على الجمل وقال:

حَيَّتْكَ عَزَّةُ بعد الحجِّ وانصرفَتْ فحىّ ويحك من حَيَّاك يا جملُ
لو كنتَ حييتها ما كنت ذا سرفٍ عندى ولا مَسَّكَ الإدلاج والعملُ

قال فسمعه الفرزدق فتبسم، وقال له: من تكون يرحمك الله؟ قال أنا كُثَيِّر عَزَّة، فمن أنت يرحمك الله؟ قال: أنا الفرزدق بن غالب التميمى قال: أنت القائل:

رحلَتْ جمالهم بكلّ أسيلة تركَتْ فؤادى هائمًا مخبولا
لو كنتُ أملكهم إذا لم يرحلوا حتى أودِّع قلبى المتبولا
ساروا بقلبى فى الحدوجِ وغادروا جسمى يعالجُ زفرةً وعويلا

فقال الفرزدق: نعم. قال كُثَيِّر: والله لولا أنى بالبيت الحرام، لأصيحنّ صيحة أفزع بها هشام بن عبد الملك وهو على سرير ملكه. فقال الفرزدق والله لأعرفن بذلك هشامًا، ثم تواعدا وافترقا. فلما وصل الفرزدق إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك فعرفه بما اتفق له مع كُثير. فقال له: اكتب إليه بالحضور عندنا لنطلق عَزَّة من زوجها، ونزوجه إياها. فكتب إليه بذلك فخرج كُثَيِّر يريد دمشق فلما خرج من حيه وسار قليلاً رأى غرابًا على بانة، وهو يفلى نفسه وريشه يتساقط فاصفر لونه، وارتاع من ذلك وجدّ فى السير، ثم إنه مال ليسقى راحلته من حى بنى فهد وهم زجرة الطير فبصر به شيخ من الحى فقال: يا ابن أخى أرأيت فى طريقك شيئًا فراعك؟ قال نعم يا عم رأيت غرابًا على بانة يتفلى وينتف ريشه. فقال له الشيخ: أما الغارب فإنه اغتراب،

والبانة بين، والتفلى فرقة فازداد كُثَيِّر حزنًا على حزنه لما سمع من الشيخ هذا الكلام وجدّ فى السير إلى أن وصل إلى دمشق، ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على جنازة فنزل وصلى معهم، فلما قضيت الصلاة صاح صائح: لا إله إلا اللّه ما أغفلك يا كُثَيِّر عن هذا اليوم؟ فقال: ما هذا اليوم يا سيدى فقال: إن هذه عَزَّة قد ماتت وهذه جنازتها فخر مغشيًا عليه فلما أفاق أنشأ يقول:

فمــا أعــرفَ الفهــدىَّ لا درّ درّه ... وأزجــره للطــير لا عَــزَّ نــاصرُهْ
رأيـتُ غُرابـاً قـد عَـلاَ فَـوقَ بانـةٍ ... ينتـفُ أعلــى ريشِــه وَيطَــايرُهْ
فقـال غُـرابٌ واغـترابٌ مـن النّـوى ... وبانـةٌ بـينِ مِــن حبيــبٍ تُعاشِــرُهْ

ثم شهق شهقة فارقت روحه الدنيا، ومات من ساعته، ودفن مع عَزَّة فى يوم واحد.

وحكى الأصمعى قال: بينما أنا أسير فى البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت:

أَيـا مَعْشَـرَ العُشّـاقِ باللّـه خـبِّروا ... إذ حلَّ عِشْقٌ بالفتى كيـفَ يصنـعُ

فكتبت تحته:

يُـدَارى هـواهُ ثـم يكتـمُ سِـرَّهُ ... ويخشَـعُ فـى كـلِّ الأمـورِ ويخضـعُ

ثم عدت فى اليوم الثانى فوجدت مكتوبًا تحته:

فكيـف يُدارى والهوَى قـاتلُ الفتـى ... وفـى كـل يـومٍ قلبُـه يتقطّـعُ

فكتبت تحته:

إذا لم يجـد صـبرًا لكتمـانِ سـرِّهِ ... فليس لـه شىءٌ سوى الموتِ أنفـعُ

ثم عدت فى اليوم الثالث، فوجدت شابًا ملقى تحت ذلك الحجر ميتًا، فقلت: لا حول ولا قوّة إلا باللّه العلى العظيم وقد كتب قبل موته:

سمعنـا أطعنـا ثـم متنـا فبلّغـوا ... سلامى علـى مَنْ كـان للوصل يمنـعُ

وحكى أيضًا عن الأصمعى رحمه اللّه تعالى أنه قال: بينما أنا نائم فى بعض مقابر البصرة إذا رأيت جارية على قبر تندب وتقول:

بروحـى فتـى أوفـى البَرِيَّـةَ كلهـا ... وأقواهم فى الحبِّ صبرًا على الحبِّ

قال: فقلت لها: يا جارية بم كان أوفى البرية، وبم كان أقواها؟ فقالت: يا هذا إنه ابن عمى هوينى فهويته، فكان إن أباح عنّفوه، وإن كتم لاموه، فأنشد بيتى شعر، وما زال يكرّرهما إلى أن مات، واللّه لأندبنه حتى أصير مثله فى قبر إلى جانبه، فقلت لها يا جارية فما البيتان؟ قالت:

يقولون لى إن بحتَ قد غرّكَ الهوى ... وإن لم أَبُـحْ بـالحبِّ قـالوا تصـبرا
فمـا لامـرئ يهـوى ويكتـم أمـره ... مـن الحـبِّ إلا أن يمـوت فيعـذرا

ثم إنها شهقت شهقة فارقت روحها الدنيا رحمة اللّه تعالى عليها.

والحكايات فى ذلك كثيرة، وفى الكتب مشهورة، ولولا الإطالة والخوف من الملالة لجمعنا فى هذا المعنى أشياء كثيرة، ولكن اقتصرنا على هذه النبذة اليسيرة، واللّه سبحانه وتعالى أعلم، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثانى والسبعون فى ذكر رقائق الشعر والموالى والدوبيت وكان كان والموشحات والزجل والحماق والقومة والألغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول فى الشعر

قد قسَّم الناس الشعر خمسة أقسام: مرقص كقول أبى جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس:

والشَّمْسُ لا تشــربُ خَمــرَ النــدى ... فى الروضِ إلا من كؤوس الشـقيقِ[١]

ومطرب كقول زهير:

تــراهُ إذا مَــا جِئتَــهُ متهلــلا ... كـأنك تعطيـه الـذى أنـت سـائلهُ

ومقبول كقول طرفة بن العبد:

ستُبدى لكَ الأيَّامُ مَا كُنت جاهلاً ... ويـأتيك بالأخبـارِ مَـن لَـمْ تَـزَوَّدِ

ومسموع مما يقام به الوزن دون أن يمجه[٢] الطبع كقول ابن المعتز:

سقَى المطـيرة ذات الظـلِّ والشَّـجَر ... وديـر عبـدون هطّـال مـن المطـر

ومتروك وهو ما كان كلا على السمع والطبع كقول الشاعر[٣] :

تقلقلـت بـالهمِّ الـذى قلقـل الحشـا ... قَلاَقــلُ هَــمّ كلّهــنَّ قَلاَقــلُ

وقد قسم الناس فنون الشعر إلى عشرة أبواب حسبما بوب أبو تمام فى الحماسة. وقال عبد العزيز بن أبى الأصبع: الذى وقع لى أن فنون الشعر ثمانية عشرة فنًّا، وهى: غزل، ووصف، وفخر، ومدح وهجاء، وعتاب، واعتذار، وأدب، وزهد، وخمريات، ومراث، وبشارة، وتهان، ووعيد، وتحذير، وتحريض، وملح، وباب مفرد للسؤال والجواب، ولنذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ما تيسر على سبيل الاختصار، ولنبدأ من ذلك بذكر الغزل المذكر.

ابن نباتة:

أأغْصَـانُ بَـانٍ مـا أرى أم شمـائلُ ... وأقمـارُ تَـمّ مـا تَضُـمُّ الغلائـلُ
وبيــضٌ رقــاقٌ أم جفــونٌ فواتــرٌ ... وسُـمرٌ دقـاقٌ أم قَـدودٌ قواتـلُ
وتلـكَ نبـالٌ أم لحـاظٌ رواشـقٌ ... لهـا هَـدفٌ مِنـى الحشَـا والمقـاتلُ
بروحـى أفـدى شـادِنًا قـد أَلِفتـهُ ... غدوتُ وبى شُغلٌ من الوَجْدِ شاغلُ
أمـيرُ جَمـالٍ والمـلاحُ جنـودُهُ ... يجُـورُ علينـا قـدُّهُ وهـو عـادلُ
له حاجبٌ عن مقلتى حَجَبَ الكرى ... ونـاظرُه الفتّـانُ فـى القلـبِ عـاملُ

---

(١) كؤوس الشقيق: شقائق النعمان.

(٢) يمجه: يرفضه.

(٣) هذا البيت لأبى الطيب المتنبى وقد عابه أقوام ومدحه آخرون بكثرة جناسه على اختلاف مشاربهم.

رفعتُ إليه قصَّةَ الدمعِ شاكيًا … فوقَعَ يجرى فهو فى الخدِّ سائلُ
شكوتُ فما ألوَى وقلتُ فما صَغَى … وجدَّ بقلبى حبُّه وهو هازلُ
طويلُ التَّوانى دلّه متواترٌ … مديدُ التجنّى وافرُ الحسنِ كاملُ[1]
أطارحُهُ بالنّحوِ يومًا تعلّلاً … فيبدُو وللإعْرابِ فيه دلائلُ
ويرفعُ وَصْلى وهو مفعولٌ فى الهوى … وينصبُ هَجْرى عامدًا وهو فاعلُ[2]
تفقّهْتُ فى عُشقِى له مثلَ ما غدا … خبيرًا بأحكامِ الخلافِ يجادلُ
فيا مَالكى ما ضرَّ لو كنتَ شافعى … بوصلِكَ فَافْعَلْ بى كما أنت فاعلُ
فَإنّى حنيفىُّ الهوَى مُتَحَنْبِلٌ … بعشقِكَ لا أُصغى وإنْ قالَ قائلُ[3]

كمال الدين بن النبية:

اللّهُ أكبرُ كلُّ الحسنِ فى العَرَبِ … كما تحتَ لمةِ ذا التركى من عَجَبِ
صُبحُ الجبينِ بليلِ الشَّعرِ منعقِدٌ … والخدُّ يجمعُ بين الماءِ واللّهبِ
تنفسَتْ عن عبيرِ الراحِ ريقتُهُ … و افترَّ مبسمُهُ الشهدىُّ عن حبَبِ
لا فى العذيبِ ولا فى بارقٍ غزلى … بل فى جَنَى فمهِ أو ريقِهِ الشنبِ
كأنّهُ حينَ يرمى عَن حنيتهِ … بردٌ رَمَى عن هلالِ الأفقِ بالشهُبِ
يَا جَاذبَ القَوْسِ تقريبًا لوجنتِهِ … والهائم الصَّبُّ منها غيرُ مقتربِ
أليس مِن نكَدِ الأيامِ يحرمُهَا … فمى ويلثمها سهمٌ من الخشَبِ
مَن لى بأغيدَ قاسىَ القَلبِ مُبتسمٍ … لا عَن رضًا معرقَ عنى بلا غضَبِ
فكم له فى وجودِ الذنبِ من سببٍ … وليسَ لى فى قيامِ العُذرِ من سبَبِ
تميلُ أعطافُه تيهًا بطرَّتِهِ … كما تميلُ رِمَاحُ الخطِّ بالعذبِ
أشَار نحوى وجُنْحُ الليلِ معتكرٌ … بمعصمٍ بشُعاعِ الكَأسِ مختضبِ
بكرٌ جلاها أبوها قبلَ ما جليَتْ … فى حجرةِ الدنِّ أو فى قشرةِ العنَبِ

البهاء زهير:

يعاهدُنى لا خانَنى ثُم ينكثُ … وأحلفُ لا كلّمتُهُ ثم أحنثُ
وذلكَ دأبى لا يزالُ دأبُه[4] … فيَا مَعشرَ العُشاقِ عنا تحدّثُوا
أقولُ له صِلْنى يقولُ نعم غدًا … ويكسرُ جفنَا هازئًا بى ويعبثُ
وما ضرَّ بعضَ الناسِ لو كان زارنى … وكنا خلَوْنا ساعةَ نتحدّثُ
أمولاى إنى فى هواكَ معذّبٌ … وحتّام أبقى فى الغرامِ وأمكثُ
فخذْ مرةً روحى ترِحْنى ولا أرى … أموتُ مرارًا فى النهارِ وأبعثُ
فإنى لهذا الضَّيمِ منكَ لحاملٌ … ومنتظرٌ لُطفًا من اللّهِ يحدُثُ

---

(١) كاملُ: يورى بأسماء بحور الشعر.
(٢) فاعلُ: يستخدم اصطلاحات النحو.
(٣) البيتان اشتملا على أسماء فقهاء المذاهب الأربعة الأئمة الأعلام.
(٤) الدأب: العادة والديدن.

أعيذك من هذا الجفاء الذى بدَا خلائقك الحسنى أرقُّ وأدْمثَ
تردَّدَ ظنُّ الناس فىَّ فأكثروا أحاديثَ فيها ما يطيبُ ويخبثَ
وقد كَرُمَتْ فى الحبِّ مِنى شمائلٌ ويَسألُ عنى مَن أرادَ ويبحثَ

النابلسى:

ما كنت أعلمُ والضمائرُ تصدقٌ أنَّ المسامع كالنواظرِ تعشقُ
حتى سمعتُ بذكركم فهوَيْتكم وكذاكَ أسبابُ المحبةِ تعلقُ
ولقد قنعتُ من اللقاء بساعةٍ إن لم يكنْ لى للدّوام تطرّقُ
قد يُنْعشُ العطشانَ بلةَ ريقهِ ويغصُّ بالماءِ الكثيرِ ويشرقُ(١)
فعسَى عيونى أن ترى لك سيِّدى وجهًا يكادُ الحسنُ فيه ينطقُ

أبو الحسن الجزار:

فى خدّه من بقايا اللثم تخميشُ وبى لتشويشِ ذاك الصدغِ تشويشُ(٢)
ظَبىٌ مِن التركِ أغنته لواحظَه عمَّا حوَته من النبلِ التراكيشُ(٣)
إذا تثنّى فقلبُ الغصن منكسِرٌ وإن تبدَّى فطرفُ البدرِ مدهوشُ
يا عاذلى إن تكنْ عن حسنِ صورتهِ أعمى فإنى عمَّا قلتَ أطروشُ
كم ليلةٍ بات يسقينى المُدَامَ على روضٍ له بثيابِ الغيمِ ترقيشُ
والغيثَ كالجيشِ يرتجُّ الوجودُ له والبرقُ رايتُهُ والرعدُ جاويشُ(٤)
فى مجلسٍ ضحكَتْ أرجاؤه طَلبًا لأنهُ ببديعِ الزهرِ مفروشُ

سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء:

تَرَى متى مِن فتورِ اللحظِ ينتشطَ من قلبِهِ بحبالِ الشعرِ مرتبطَ
قد رقّ لى خصرُه المضنى فناسَبَنى فقلتُ خيرُ الأمورِ الأنسبُ الوسطَ
وقد خفى الردفَ عنى من تثاقُلِهِ فقلتُ هذا على ضعفى هو الشططَ
وصدرُه الرحبُ قد عانقتُهُ سحرًا والقلبُ منبعثَ الآمالِ منبسطَ
وفيه تلكَ النّهودُ المُشتهاةَ تَرى رُمَّانها فيه قلبى أمرُه فرطَ
إنّ الصوابَ لتعجيلُ السرورِ فَقَم قَبْلَ الفَواتِ فأوقاتُ الهنا غلطَ

القاضى مجد الدين بن مكانس:

أهدَى تحيَّته وجادَ بوعدِهِ أفديه مِنْ قَمرٍ بَدَا فى سَعدِهِ
بَدرٌ جَرى ماءُ الحياة بثغرهِ وتردّدت فَضَلاتُهُ فِى خدِّهِ
أسكنتَه قلبى فأوقَدَ خدَّه نيرانُ أحْشائِى عليه ووجدِهِ
مَنْ لى بهِ حُلْوُ الشَّمائلِ أهيفٌ روتِ العوالى عن مثقّفِ قدِّهِ

(١) ويشرقُ: أى يغص.
(٢) تشويشُ: تخليط.
(٣) التراكيشُ: الكنانات.
(٤) جاويشُ: لفظة تركية ربما اشتقاقها من جيش.

يا عاذلي في حُبّه لَوْ أبصرتْ عيناك فوقَ الردفِ مسبلَ جعدِهِ
لعذَرْتَ كلّ متيَّمٍ في حبِّهِ وعلِمْتَ أن ضلالَهُ في رشدِهِ
فوحقِّ موتي في هواهُ صبابةً وحياةِ مبسَمِهِ الشهيِّ وبردِهِ
ما جادَ غيثُ الدمعِ إلا عمّنْ هوى خلعَ القلوبَ ببرقِهِ وبرعدِهِ
قُمْ يا رسولُ وأبلغِ العشاقَ ما ألقاهُ من جَورِ الحبيبِ وبُعدِهِ
وإذا سألتَك أن تؤدّى في الهوى خبرى فصِفْ فعلَ الغرامِ وأبدِهِ

عزّ الدين الموصلي: والصحيح أن هذه الأبيات لابن نباتة لأنها في ديوانه:

نفسٌ عن الحبِّ ما أغفتْ وما غفلتْ بأيِّ ذنبٍ وقاكَ اللّه قد قتلتْ
دَعْها ومدمعها الجارى لقد لقيتْ ما قدّمَتْ من أسى قلبى وما عملتْ
أفديكَ من ناشطِ الإجفانِ في تَلَفى والسحرُ يوهِمُ طرفى أنها كسلَتْ
وأوضَحَ الحسنُ لو شاءَتْ ذوائبُه في الأفقِ وَصْلَ دجا الظّلماء لاتصلَتْ
مُعَسَّلٌ بنُعاسٍ فِي لواحظِهِ أما تراها إلى كلّ القلوبِ حلَتْ
من لى بألحاظِ ظبيٍ يدّعى كسلاً وكم ثيابِ ضنى حاكَتْ وكم غزلَتْ
وحمرةٍ فوق خدّيه ومرشفِهِ هذى محاسنُها تزهو وذى ذبلَتْ
أما كفاني تكحيلُ الجفونِ أسىً حتّى المراشفُ منه باللمى كحلَتْ
أستودعُ اللّه أعطافًا شَوَتْ كبدى وكلما رمتُ تجديدَ الوصالِ قَلَتْ
ومهجةٍ لِىَ كم ألقتْ بسمعها إلى الملامِ ولا واللّه ما قبلَتْ

وغيره للفاضل:

شرخ الشباب بحبكم أفنيتُهُ والعمرُ في كَلفٍ بكم قضيتُهُ
وأنا الذى لو مرَّ بى من نحوِكم داعٍ وكنتُ بحفرتى لَبَّيْتُهُ
كيف التعرّضُ للسلوِّ وحبُّكم حسبٌ بأيامِ الشبابِ شريتُهُ
للّه داءٌ في الفؤادِ أجنه يزدادُ نكسًا كلّما داويتُهُ
قالوا حبيبُك في التجنّى مُسرفٌ قاسٍ على العشاقِ قلتُ فديتُهُ
أأرومُ من كلفي عليه تخلّصًا لا والذى بطحاءُ مكّةَ بيتُهُ
ولو استطَعْتُ بكلّ اسمٍ في الورى من لذّةِ الذكرى به سَمَّيْتُهُ

وللشيخ بدر الدين الدماميني:

سلّ سيفًا من الجفونِ صقيلا مذ تصدَّى جلاهُ رحتُ قتيلا
صحَّ عن جفنِهِ حديثُ فتورٍ وهوَ ما زالَ من قديمِ عليلا[1]
مَنْ أبدَى لنا منَ الخَصْرِ ردْفًا فأرَانا مع الخفيفِ ثقيلا
ذو قوامٍ كأنّهُ الغصنُ لكنْ بالهوَى نحوَ وَصْلِنَا لن يميلا

---

[1] عليلا: (صحيح-عليل) ألفاظ ومصطلحات في علم الحديث، والشاعر من المحدثين.

كـامل الحَسْنِ وافرُ الظلِّ، وجـدى فيـهِ يـا عـاذِلى مديـدًا طويـلا
فـاتكُ الجفـنِ ذو جمـال كثـير أتلـفَ العاشـقِينَ إلا قليـلا
قلـتُ إذ لاح طرفَـهُ ولمـاهُ فـاترُ اللحـظِ بكـرةً وأصيـلا
كيـفَ حـالى وهَـلْ لِصـبّ إليـه مـن سبيلٍ فقـالَ لى سَـلْ سـبيلا

وقال آخر:

لـو أنَّ قلبَـكَ لى يَـرقُّ ويرحـمُ مـا بـتُّ مـن ألمِ الجَـوى أتـألَمُ
ومـن العجـائبِ أننـى لا سَـهْمَ لى مِنْ نـاظرَيْكَ وفـى فـؤادِى أسـهُمُ
يـا جـامعَ الضِدَّيْـنِ فـى وجناتِـهِ مـاءٌ يـرقُّ عليـه نـارٌ تضـرمُ
عجَبى لطرفِكَ وهـو مـاضٍ لم يَـزَلْ فعـلامَ يكسِـرُ عندَمـا تتكلّـمُ
ومـن المـروءةِ أنْ تواصِـلَ مدنفًـا[1] والدهـرُ سَـمْحٌ والحـوادثَ نـوَّمُ

وقال آخر:

تَصَّدْقـا بوعـدٍ إنَّ دَمعـىَ سـائلٌ وزوِّدْ فـؤادِى نظـرةً فهـوَ راحِـلُ
فخـدُّك موجـودٌ بـه التـبرُ دائمًـا وحسـنُك معـدُومٌ لدَيْـهِ المماثلُ
أيـا قمـرًا مَنْ شَـمسُ طَلعـةِ وجهـهِ وظـلُّ عذارَيْـهِ الدُّجَـا والأصـائلُ[2]
تَنَقَّلـتُ مـن طَرْفٍ لقلبٍ مَعَ الهَوَى وهَـاتِيكَ للبـدرِ المنـيرِ منـازلُ
جَعَلْتـكَ للتمييـزِ نصبًـا لخـاطرى فهـلاَّ رفعتَ الهجـرَ والهجـرُ فـاعلُ

وقال ابن صابر:

قَـالتْ وجنَتَـهُ فـألفتَ جيـدَهْ خجـلاً ومـالَ بعَطْفِـهِ الميَّـاسِ
فـانهلَّ مِـن خدَّيْـهِ فـوقَ عِـذارِهِ عَـرَقٌ يُحـاكى الطـلَّ فـوقَ الآسِ
فكـأنني اسـتقطرتُ وردَ خـدودِهِ بتصـاعدِ الزَّفَـراتِ مـن أنفاسِـى

وقال آخر:

وغـزال كـلُّ مَـنْ شَـبَّهَهْ بهـلال أو بـدر ظلمَـهْ
قـال إذ قَبَّلـتُ وَهْمًـا فَمَـهُ قـد تعدَّيْـتَ وأسـرَفْتَ فمَـهْ

وقال آخر:

بـأبى غـلامٌ لسـتُ غـيرَ غلامِـهِ مُـذْ جَـاد لى بسَـلامِه وكَلامِـهِ
ذو حـاجبٍ مـا إن رأيـتُ كنُونِـهِ أبـدًا وصَـدْغٍ مـا رأيـتُ كَلاَمِـهِ

وقال جمال الدين بن مطروح:

ذَكَرَ الحِمَى فَصَبَا وكـانَ قَـدِ ارْعَوَى صَبٌّ علـى عَـرْشِ الغَرام قَـدِ استوى
تجـرِى مدامِعُـهُ ويخفـقُ قلبُـهُ مَهما جَـرَى ذكـرُ العقيقِ مع اللّوى

---

(١) المدنف: هو من براه المرض حتى أشفى على الموت، ويطلق على من مرض بالحب والغرام يقال: دنفه الحب.
(٢) الأصائلُ: الوقت من العصر إلى المغرب.

وإذا تــألّقَ بــارقٌ مــن بــارقٍ ... فهناكَ ينشرُ مِن هواهُ ما انْطَوَى
فخَذُوا أحاديثَ الهَوَى عن صادقٍ ... ما ضَلَّ في شرعِ الغَرامِ وما غَوَى
وبمُهْجَتي رشأٌ أطالَتْ عُذّلي ... فيه الملامُ وقد حَوَى ما قَدْ حَوَى
قالُوا أفيهِ سوى رشاقةِ قدِّهِ ... وفتورُ عينَيْهِ وهَل مَوْتي سوى
ما أبصرَتْهُ الشمسُ إلا واكْتَسَتْ ... خجلاً ولا غصنُ النقا إلا التوى
يروى الأراكُ محاسنًا عن ثغره ... يا طيبَ ما نقلَ الأراكُ وما رَوَى

وقال آخر:

عبثَ النسيمُ بقدِّهِ فتأوَّدَا ... وسَرَى الحياءُ بخدِّه فتورَّدَا
رشأٌ تفرَّدَ فيه قلبي بالهَوَى ... لما غدا بجَمَالِهِ مُتَفَرِّدا
قاسُوه بالغَصن الرطيبِ جهالةً ... تاللّه قد ظلمَ المشبَّهُ واعتدى
حُسْنُ الغصونِ إذا اكتَسَتْ أوراقَها ... وتراهُ أحسنَ ما يكونُ مجرَّدا

وقال غيره:

يا حسنًا ما لَكَ لم تحسنِ ... إلى قلوبٍ في الهَوَى متعبَهْ
رقمتَ بالوردِ وبالسوسنِ ... صفحةَ خدٍّ بالسَّنَا مذهبَهْ
وقد أبَى خدُّك أن أجْتَنِي ... منهُ وقَدْ ألسَعَني عقربَهْ[1]
يا حسنَهُ إذا قال ما أحسني ... ويَا لذاكَ اللفظِ ما أعذبَهْ
قلتُ له كلّك عندي سَنَا ... وكلُّ ألفاظِكَ مُسْتَعْذَبَهْ
ففوَّقَ السَّهْمَ[2] ولم يخطني ... ومذ رآني ميتًا أعجبَهْ

وقال:

كم من عاشقٍ حَبَّني ... وحبُّهُ إيَّاي قَد أتعبَهْ
يرحمُهُ اللّه على أنني ... قتلي له لم أدْرِ ما أوجبَهْ

وقال آخر:

مَلِيحٌ يَغَارُ الغصنُ عندَ اهتزازِهِ ... ويخجلُ بدرُ التّمِّ عندَ شُروقِهِ
فما فيهِ معنى ناقصٌ غيرُه خصرِهِ ... وما فيه شيءٌ باردٌ غيرُ ريقِهِ

وقال يحيى بن أكثم:

دناها جَرَى نَحْوي بمقلتِهِ الكحلا ... فلما رَأى ذُلّي ثَنَى عَطْفَهُ دَلاًّ[3].
فتيَمَني شوقًا وأنحلني أسىً ... وأفْقَدَني صبرًا وأعْدَمَني عقلا
شكَوْتُ فما ألوى وَوَلّى وما لَوَى ... وأعرَضَ مزوَرًّا فسلَّ الحشا سلاّ

---

(١) عقربَ الصدغ: سالفه.
(٢) السَّهْمَ: أعده وبراه.
(٣) دَلاًّ: تدللاً.

إذا ما دعاهُ فرطَ سُقمِي لِزورةٍ يناديهِ فرطَ العجبِ من عطفِهِ كَلاَّ

وقال أيضًا:

بأبي غزالاً غازَلَتْهُ مُقْلَتي بين العُذَيْبِ وبين شَطَّيْ بَارِقِ
وسألتُ منه زورةً تشفي الجَوَى فأجابَنِي عنها بوَعْدٍ صادق
بتْنا ونحن من الدُّجَا في خيمةٍ ومنَ النجومِ الزُّهرِ تحتَ سُرَادِقِ
عاطَيْتَهُ والليلُ يسحبُ ذَيْلَهُ صهباءَ كالمسكِ الذَّكِيِّ لنَاشِقِ(١)
وضمَمْتَهُ ضَمَّ الكَمِيِّ(٢) لسَيْفِهِ وذؤابتاهُ حمائلُ في عاتِقِي
حتى إذا مَالَتْ به سِنَةُ الكَرَى زحزَحْتَهُ عنِّي وكانَ مُعَانِقِي
أبعَدْتَهُ عن أضلعٍ تَشْتَاقُهُ كي لا ينامَ على فراشٍ خَافِقِ
لما رأيتُ الليلَ آخرَ عُمْرِهِ قد شابَ في لِمَمٍ لهُ ومفارِقِ
وَدَّعْتُ مَنْ أهْوَى وقلتُ تأسُّفًا صَعْبٌ على بأنْ أراكَ مُفَارِقِي

وقال ابن نباتة:

بَدَا ورَنَتْ لواحِظُهُ دَلالا فَمَا أبْهَى الغزالةَ والغَزَالا
وأسفَرَ عن سَنَا قمرٍ مُنيرٍ ولكِنْ قَدْ وَجَدْتُ بهِ الضَّلالا
صقيلُ الخدِّ أبصرَ مَنْ رآه سَوادَ العينِ فيه فخالَ خالا
وممنوعُ الوِصَالِ إذا تَبَدَّى وَجَدْتُ له مِن الألفاظِ لالا
عجبتُ لثغرِهِ البسَّامِ أبْدَى لنا دُرًّا وَقَد سَكَنَ الزُلالا
شهدْتُ بشهدِ ريقتِهِ لأني رأيتُ على سوالِفِهِ نمالا
فيا عجبًا لحُسْنٍ قد حواهُ وقد أهدى إلى قلبي الوَبَالا
سأشكو الحسنَ ما بقيَتْ حَيَاتي وأشكو من صنائِعِهِ الجمالا

القاضي فخر الدين بن مكانس:

يا غصنًا في الرِّياضِ مالا حملتني في هواكَ مالا
يا رائحًا بعد أن سباني حَسْبُك ربُّ السَّمَا تَعَالى

وله أيضًا:

أجَارَكَ اللّهُ قد رَثَتْ لي مما ألاقِي عِدًا وحُسَّدْ
وعاذِلي مُذ رَأى ضُلوعي تعدُّ سقمًا بَكَى وعَدَّدْ

ابن رفاعة:

يقولون هل مَنَّ الحبيبُ بزورةٍ ومنّاكُمُ المطلوبُ قلنا لهم منّا
فقالوا لنا غوصوا على قَدِّهِ وما يُحاكَى إذا ما اهتزَّ قلنا لهم غصنا

---

(١) لنَاشِق: مستنشق-شامّ.
(٢) الكَمِيُّ: الفارس الشجاع.

الشيخ برهان الدين القيراطي:

وورديّ خـد نرجسـيّ لواحـظٍ مشايخَ عِلْمِ السِّحرِ عن لحظِهِ رَوَوْا
وواواتُ صدغَيْـهِ حَكَيْـنَ عقاربًـا مِنَ المسكِ فوقَ الجلّنارِ قد التَـووا
ووجنتُـهُ الحَمْـرا تلـوحُ كجمـرةٍ عليها قلوبُ العاشقينَ قـد اكتَـووا
ووُدِّى لـه بـاقٍ ولسـتُ بسـامعٍ لقولـه حسـودٍ والعـواذلُ إذا عَـووا
وواللَّه ما أسْلو ولـو صِـرْتُ رِمَّـةً فكيفَ وأحشائي على حُبِّهِ انطوَوا

وللشيخ برهان الدين القيراطي أيضًا:

شـبَهُ السـيفِ والسـنانِ بيَنّـي مَـنْ لِقَتْلي بـينَ الأنـامِ استَحَلاَ
فـأبى السـيفُ والسـنانُ وقـالا حَدُّنـا دونَ ذاكَ حاشَـى وكـلاَ

وله أيضًا:

بـأبي أهيـفُ المعـاطنِ لَـدْنٌ حسـدَ الأسمَـرُ المثقّـفُ قَـدَّهْ(١)
ذو جفونٍ مذ رُمْـتَ منهـا كلامًـا كلّمَتْنـي سـيوفُهن محـدَّهْ

وقال آخر:

تملـكَ رِقّـي شـادنٌ قـد هويتُـهُ مِنَ الهندِ معسولَ اللمى أهيفَ القَدِّ
أقولُ لصَحْبي حينَ يَرْنو بطرفِهِ خـذوا حذرَكُمْ قد سَلَّ صارِمَـهُ الهِنـدى

ومما قيل في الغزل المؤنث للشيخ شمس الدين بن البديري:

خيـالُ سَلْمى عن الأجفانِ لم يَغِـبِ وطيفُهَا عـن عِيَـاني غـيرُ محتجـبِ
وذكرُهـا أنسُ روحـي وهـي نائيـةٌ والقلبُ ما زالَ عنهـا غـيرُ منقلـبِ
لم أصْغِ فيهـا لِـلاَحٍ راحَ يَعْذُلُنـي ولا لِـوَاشٍ خَلـيّ بَـاتَ يلعـبُ بـي
عذابُهـا فـي الهَـوَى عـذبٌ ألـذّ بـهِ ومرُّ هجرانِها أحْلَى من الضَّرَبِ(٢)
فإن نأتْ أو دَنَتْ وجدي كما علمَتْ تشيبُ فيـه الليـالي وهـو لم يشِـبِ
دَعْهَـا فـأمرُ هَـوَى المحبوبِ متَبـعٌ وغـيرُ طاعتِـه فـي الحـبِّ لم يجِـبِ

وقال عفا اللَّه عنه:

سـقَى طلـلاً حَلّتْـهُ سَـلمي مَعَـاهد وحيَّـاهُ مـن دَمعـي مُـذَابٌ وجَـامِدُ
فرَبْـعٌ بـه سـلمى مصيـفٌ ومربـعٌ وأرضٌ نـأتْ عنهـا قِفَـارٌ جلامـدُ
وحيـثُ ثَـوَتْ أرضًـا فـأعذبُ مـوردٍ ولـو كـدرَتْ منهـا علـيَّ المـواردُ
رعَـى اللّـهُ دَهـرًا سَـالمَتِني صُروفُـهُ وظلّـتْ لياليـهِ بسـلمى تسـاعدُ
وقـد غفـلَ الواشُـون عَنّـي وَلَـم أزَلْ ويقظـانُ طَـرفِ البَيْـنِ عنـى رَاقـدُ
وأيامُنـا بـالقربِ بيـضٌ أزاهـرٌ وأوقاتُنـا بـالوصلِ خَضـرٌ أمـالِدُ(٣)

---

(١) الأسمر: أي الرمح. والمثقف: أي المقوم.
(٢) الضرب: الخالص من عسل النحل، وهو أجوده.
(٣) أمالِدُ: مُلس.

وأرواحُنـا ممزوجـةٌ وقلوبُنـا — ونحنُ كأنّا فى الحقيقةِ واحدُ
وكم قد مَرَجْنَا فى مروجِ صبابةٍ — ولم يطّردْ فينا من البينِ طاردُ
تجرُّ ذيولَ اللّهوِ فى قمُصِ الهوى — تلوحُ علينا للغَرامِ شواهدُ
ولم يخطُرِ التفريقُ مِنّا بخاطرٍ — ولم نحسَبِ الأيامَ فينا تَعانِدُ
فهل أنتِ يا سلمى وقد حَكَمَ الهوى — كَما كُنتِ لى أم حادَ[1] بالقلبِ حائدُ
وهل وُدُّنا باقٍ وإلاّ تغيَّرَتْ — عَلَى عادةِ الأيامِ منكِ العوائدُ
وهل مُحِيَتْ آثارُ رسمِ حَديثِنا — وأنساكِ حِفظَ الودِّ هذا التباعدُ
وهل تذكَرينَ العَهدَ إذ نحنُ باللّوَى[2] — وقولُكِ لا عاشَ الخئونُ المعاهِدُ
وهل أنتِ غيَّرتِ الذى أنا حافظٌ — وهل أنتِ أحلَلْتِ الذى أنا عاقدُ
وهل بُدِلَتْ منكِ المودَّةَ بالجفَا — وفيكِ يقينى بالوَفا منكِ شاهدُ
وإنّى وما بَدَّلتُ عَهْدك فى الهَوَى — ولا اختلفَتْ فيما علمتُ العوائدُ
ولا بتُّ مسرورًا وعيشِكِ ليلةً — وكيف سُلُوِّى والحبيبُ مباعدُ
فإن كنتِ حبلَ الودِّ صرَّمْتِ طَرْفَهُ — فودِّى طريفٌ فى هواكِ وتالدُ[3]
وإن قلتِ إنَّ الحُبَّ غَيَّرَهُ النَّوَى — لَعَمْرِىَ وَجْدِى بالحشاشةِ واقدُ[4]
وإن أوردُوا يومًا صبابةَ عاشقٍ — فبى يُضربُ الأمثالَ مَنْ هو واردُ
فما شئتِ كونى إننى بكِ مُدنفٌ — صبورٌ على البَلْوى شكورٌ وحامدُ
ومنكِ تساوَى عندىَ الوصلُ والجفَا — وفيكِ لقد هانَتْ علىَّ الشدائدُ
ولو رمتُ ألوِى عن هواكِ أعِنّتى — لقادَ زمامى نحوَ حبِّكِ قائدُ
نَصَبتِ شِراكَ الحبِّ صِدتِ حشاشَتى — فكيفَ خَلاصِى والهوى منكِ صائدُ
بعدتُ وقلتُ البينُ يُسلى أخا الهَوَى — وهل يُسلى ذا الأشجانِ هذا التباعدُ
وما غيرُ التفريقِ ما تعهَدِينَهُ — وسُوقُ سُلُوِّى فى المحبين كأسدُ
وحلَّ مناىَ القربُ منكِ وإنما — إذا عظمَ المطلوبُ قلَّ المساعدُ

وقال عفا اللّه عنه:

تهدّدُنى بتبريحٍ وبينٍ — وتوعِدنى بتَفريقٍ وصَدٍّ
وتحلفُ لى لتلبسَنى سقامًا — تَهِى[5] جَلدى به وتَذيبُ جلْدِى
وتَرمِينى بنبلٍ من جفونٍ — فتضْنِينى وتَصْمِينى وتُردِى
وتحرقنى بنارِ الصدِّ حتّى — تذيبَ حشاشتى كمدًا وكبدِى
فقلتُ لها ودَمعى فى انسكابٍ — يفيضُ دمًا على صفحاتِ خدِّى

(١) حاد: أى مال.
(٢) اسم موطن.
(٣) طريف وتالدُ: حديث وعتيق.
(٤) واقدُ: متّقد فى قلبى.
(٥) تَهِي: تضعف.

وَمَنْ لى أنْ يقالَ قتيلُ وجدٍ واذكرُ من هواكِ ولو بِصَدّى

وقال عفا اللّه عنه:

سُلوّى عنكِ شىءٌ ليس يُروى وحبّى فيكِ سارَ مع الركابِ
ولم يمرُرْ سواكِ على ضميرى ووجْدى فيك أيسرُهُ عَذَابى
وما لكِ عن سوادِ العينِ يومًا وما لسوادِ قلبى من حجابِ
وما اخضرَّتْ دواعِى الشوقِ إلا هزَزْتُ إليكِ أجنحةَ التَّصابى

وقال عفا اللّه عنه:

قِفَا نَبْكِ دارًا شطّ[1] عنا مزارُهَا وأنحلنا بعد البعاد ادكارُها[2]
وعُوجَا بأطلالٍ مَحَتْهَا يدُ النَّوَى فأظلمَ بالنَّأى المُشِتِّ نهارُهَا
فقَدْنا بها ريمًا من الإنس إن رنَتْ بمقلتها يُصمى القلوبَ احورارُهَا[3]
تصيدُ قلوبَ العاشقين أنيسَةً ويحسن منها صدُّها ونفارُهَا
ويهزأ بالأغصانِ لينُ قوامِهَا إذا مالَ فوقَ الغصنِ منها خِمارُهَا
وليس لبدرِ التمِّ قامةَ قدِّهَا وما هو إلا حِجْلُهَا وسِوَارُهَا
منازلَهَا مِنّى الفؤادُ وإن نأى عنِ العينِ مَثْواها ففى القلبِ دارُهَا
يمثّلها بالوَهْمِ فكرى لناظرى وأكثرُ ما يُضنى النفوسَ افتكارُهَا
وهيَّجَ دَمعى حَرُّ نارِ صَبَابتى وما خمَدَتْ بالدمعِ منى نارُهَا
وسَاعَدَنى بالأيْكِ ليلاً حَمَائِمٌ تهاتِفُ شجوًا لا يقرُّ قرارُهَا[4]
بكَيْنَ ولم تَسفَحْ لهنَّ مدامعٌ وعينى فاضَتْ بالدموعِ بحَارُهَا

ولمؤلفه رحمه اللّه تعالى، وهو قول ضعيف على قدر حاله، لكنه يسأل الواقف عليه من أفضاله ستر ما يراه من عيوبه وأن يدعو له بمغفرة ذنوبه:

نسيم الصّبا بَلِّغْ سُلَيْمى رسائلى بلطفٍ وقل عن حالِ صَبِّك سائلى
فقد صارَ بالأسْقامِ صبًّا مُعَذَّبًا قريحَ جفونٍ من دمُوعٍ هَوَامِلِ
صَبُورًا على حَرِّ الغَرامِ وبَرْدِهِ حليفَ الضَّنى لم يُصْغِ يومًا لعاذلِ
يَبيتُ عَلَى جَمْرِ الغضى مُتقلّبًا يئِنُّ غرامًا فَارحَميهِ وواصِلى
ألا يا سُلَيْمى قد أضرَّ بِىَ الهوى وهاجَتْ بتبريحِ الغَرامِ بلابلى
رُميتُ بسهْمٍ من لحاظِكِ قاتلٍ فلم يَخْطَ قلبى والحشا ومقاتِلى
كتمتُ غَرامى فى هَواكِ ولم أَبُحْ بسرٍّ فباحَتْ أدْمُعى برسائِلى
سُلَيْمى سَلى ما قد جَرَى لى من النَوى فقد عادَ لى حَالٌ له رقَّ عاذلى
لَعلَّ تجُودى لِلْكئيبِ وتسمَحِى بوعدٍ وبعدَ الوعدِ إنْ شئتِ ماطلى

---

(١) شط: أى بَعُدَ.
(٢) ادكارُها: تذكرها.
(٣) الحور: شدة سواد العين مع شدة بياضها.
(٤) أى: لا تركن إلى الهدوء.

عسَى تَنْطَفِى بالوعْدِ نارى وأشتفى فبالسقم أعضائى وَهَتْ ومفاصلى
خفيتُ عن العُوّادِ لولا تأوُّهِى وعظمُ أنينى لا يرانى مسائلى
فَرِقّى فَقَد رَقّتْ عِدَاىَ لِذِلّتى وفاضَتْ عَلى حَالى عُيونُ عواذلى
قطَعْتُ زمانى فى عَسَى ولعلّها وما فزتُ فى الأيام منكِ بطائلِ
فما آن أنْ ترضَىْ علىَّ وترْحمى ضَنَى جسدى فالوجدُ لا شكَّ قاتلى
توسَّلْتُ بالمختَارِ فى جَمْعِ شملِنَا نَبىٌّ له فضلٌ عَلى كَلِّ فاضلِ

وله رحمه اللّه تعالى:

يَا ربَّةَ الحسنِ مَنْ بالصدِّ أوْصَاكِ حَتَى قَتَلتِ بِفرطِ الهَجْر مُضْنَاكِ
ويا فتاةً بفتّانِ القوامِ سَبَتْ مَنْ فى الورَى يا ترى بالقتلِ أفتاكِ
لقد جننتُ غرامًا مُذ رأى نظرى فى النَوم طَيْفَ خيالِ من محيَّاكِ
ومُذ رَآهُ جَفَا طِيبُ المَنام وقد أضْحَى عليلاً حَزينًا لم يَزلْ باكى
عذبتنى بالتجنّى وهو يَعْذُب لى فهل تَرى تَسْمَحى يومًا برؤياكِ
إن كنتِ لم تذكرينا بعدَ فرقتِنَا فاللّهُ يعلمُ أنّا ما نَسَيْنَاكِ
مَا آن أن تعطفى جُودًا علىَّ فقد أضْحَى فؤادِى أسيرًا لَحْظ عيناكِ
مَا كُنْتُ أحسبُ أنَّ العشقَ فيه ضنى ولا عذابَ نفوسٍ قَبْل أهواكِ
حتى تولّعَ قلبى بالغرامِ فما أمسَى أسيرًا سوى فِى حُسْنِ مَعْنَاكِ
رِقّى لعبدِك جُودًا واعطفى وذرِ ولا تَطيلى بحقِّ اللّه جَفْوَاكِ
يَا هِندُ رفقًا بقلبٍ ذابَ فيك أسىً ومُهْجَةَ تَلفَتْ يا هِنْدُ ما أقْساكِ
رَقَّ العذولُ لحالى فى الهوى ورَثَى وأنتِ يا هندُ لا ترثى لمضناكِ
واللّهِ لو متُّ مَا أسلاكِ يا أملى ولو فنيتُ غرامًا لَسْتُ أنساكِ

وقال آخر:

كأنَّ فؤادِى يومَ سِرتُ دليلُ يسيرُ أمامَ العيسِ وهو ذليلُ
فسرتُ عقيبَ الظاعِنِينَ لكى أرى فؤادى سَرَى فى الرَّكْبِ وهو عجولُ
وقائلةٍ لى كيفَ حالُكَ بعدَنا لتعلمَ ما هذا إليه يؤولُ
فقلتُ لها قد متُّ قبلَ ترحُّلى فمِنْ بَابِ أولَى أن يجدَّ رحيلُ
وقلتُ فلَيْلى طالَ همًّا فأنشدَتْ وما زال ليلُ العاشقينَ طويلُ
فقلتُ وجسمى لم يزَلْ مترجِّفًا فقالَتْ وجسمُ العاشقينَ نحيلُ
فقلتُ لها لو كنتُ أدرى فراقنا بيوم وداعٍ ما إليهِ سبيلُ
قلعتُ لعينى فى هواكِ بأصبعى لكيلا أرى يومًا علىَّ ثقيلُ

وقال الوأواء الدمشقي عفا الله عنه:

يَا مَـنْ نَفَـتْ عنـي لذيـذَ رُقـادي ... ما لي وما لك قـد أطْلَـتِ سُـهادي[1]
فبـأيِّ ذنـبٍ أم بأيَّـةِ حالـةٍ ... أبعَدْتنـي ولقـد سـكَنْتِ فـؤادِي
وصدَدْتِ عني حين قد مَلَكَ الهوى ... رُوحِي وقَلبـي والحَشـا وقِيَـادِي
ملكَـتْ لحاظَكِ مُهْجتي حتى غـدا ... قلبـي أسـيرًا مَـا لَـهُ مِـن فـادِي
لا غـروَ[2] أنْ قَتَلَتْ عُيونَـك مُغرمـاً ... فلكَـمْ صَرَعْـتِ بهـا مِـنَ الآسَـادِ[3]
يا مَنْ حَوَتْ كلَّ المحاسنِ في الورى ... والحُسنُ منهـا عَـاكفٌ فـي بـادي
رفقًـا بمـن أسَـرَتْ عُيونَـكِ قلبَـهُ ... وَدَعِي السُّيوفَ تقـرُّ فـي الأغمـادِ
وتَعَطَّفـي جـودًا علـيَّ بقُبْلَـةٍ ... فبميـمِ مبسـمكِ شِـفاءُ الصـادي
مـاتَتْ أطـالَ اللـه عُمْـرَكِ سَـلْوتي ... ولقـد فَنَى صَبْري وعـاشَ سُـهادي
ومن المنى لَـو دامَ لي فيـكِ الضنـى ... يـا حبَّـذا لأراك مِـن عُـوَّادِي
وأجيلُ منـك نواظـري فـي نـاضرٍ ... مِـن خـدِّكِ المـترقرقِ الوقّـادِ
وأولُ مـا شـئتِ اصنعـي يـا منيتـي ... مـا لي سـواكِ ولـو حرمـتِ مُـرادي
إلاّ مديـحُ المَصْطَفـى هُـو عُمْدَتـي ... وَبـه سَـأَلقَى اللّـهَ يَـومَ مَعَـادي

وقال البهاء زهير:

إذا جُنَّ ليلـى هَـامَ قلبـي بذكركَـم ... أنـوحُ كمـا نـاحَ الحمَـامُ المُطـوَّقُ
وفوقـي سَحَابٌ يمطِرُ الهَمَّ والأسَـى ... وتحتـي بحـارٌ بـالجوى تتدَفّـقُ
سَلُوا أمَّ عَمْرو كيف بَاتَ أسِـيرُهَا ... تفكُّ الأسـارى دونَـهُ وهـو مُوثَـقُ
فلا أنـا مقتـولٌ ففِـي القتـلِ راحـةٌ ... ولا أنـا ممنـونٌ عليـهِ فيعتَـقُ

وقال مجنون ليلى:

وقـد خـبروني أنَّ تيمـاءَ مَـنْزِلٌ ... لليلـى إذا مـا الليـلُ ألقـى المراسـيا
فهذي شهورُ الصيف عنا قد انقضت ... فمَـا للنّـوى يرمـى بليلـى المراميـا
أعـدُّ الليـالي ليلـةً بعـدَ ليلـةٍ ... وقـد عِشـتُ دَهـرًا لا أعـدُّ اللياليـا
وأخـرجُ مِـن بـينِ البيـوتِ لعلّنـي ... أحـدِّثُ عنـكِ النفسَ بـالليلِ خاليـا
ألا أيُّهـا الرَّكـبُ اليَمَـانُونَ عَرِّجُـوا ... علينـا فقـد أمْسَـى هَوَانـا يمانيـا
يمينـاً إذا كـانت يمينـاً فـإنْ تكـن ... شمـالاً ينـازعني الهـوى عـن شماليـا
أصلّـي فمَـا أدري إذا مـا ذكرتُهـا ... أثنتيـنِ صلّيـتُ الضُّحـى أمْ ثمانيـا
خليلـيَّ لا واللّـه لا أملـكُ الهـوى ... إذا علـمٌ مـن أرض ليلـى بَـدَا لِيَـا

---

(١) سهادي: أي سهري.
(٢) لا غرو: أي لا عجب.
(٣) جمع كلمة أسد.

خليلىَّ لا واللّـه لا أملـكُ الـذى ... قَضَى اللّهُ فـى ليلى ولا ما قضَا ليا
قضاهـا لغـيرى وابتلانـى بحبهـا ... فهَـلاّ بشـىءٍ غـيرِ ليلـى ابتلانيـا
ولـو أنَّ واشٍ باليمامـةِ دارُه ... ودارى بأعلى حَضْرَمَوْتَ اهتَـدى ليا
وددتُ علـى حبِّـى الحيـاةَ لـو أنـه ... يُـزادُ لهـا فـى عُمرِهَـا مـن حياتيـا
على أنَّنى راضٍ بـأنْ أحْمل الهـوى ... وأخلـصَ منـه لا علـىَّ ولا ليـا
إذا ما شكوتُ الحـبَّ قـالت كذبتنى ... فما لى أرى الأعضاءَ منك كواسيا
فلا حُبَّ حتى يلْصُقَ الجلدُ بالحشا ... وتخـرسُ حتـى لا تجيـبَ المناديـا

وقال آخر:

قـالَتْ لطيـفِ خيـالٍ زارنـى ومضَـى ... باللّـه صِفْـهُ ولا تَنْقِـصْ ولا تَـزِدِ
فقـال خَلَفْتّـه لـو مـاتَ مـن ظمـأٍ ... وقلـتُ قِـفْ عـن وُرودِ المـاءِ لم يـرِدِ
قالتْ عهدتُ الوَفَـا والصِّدقَ شِيمَتَهُ ... يا بردُ ذاك الذى قـالَتْ عَلَى كبـدِى

كمال الدين بن النبيه:

أمـا وبيـاضُ مبسـمِك النقـىِّ ... وسمـرةَ مسـكةِ اللمـس الشَّـهِىِّ
ورمـانٌ مـن الكـافور تَعْلـو ... عليـه طوالـعُ النـدِّ النَّـدِى
وقَـدٌّ كَـالقضيبِ إذا تَثَنَّـى ... خشـيتُ عليـه مـن ثقـلِ الحلـى
لقـد أقَمْـتِ بـالهجران جسـمى ... وأعْطَشْـنى وصـالَك بعـد رَىِّ
إلى كَـمْ أكتـمُ البَلْـوَى ودَمْعِـى ... يَبُـوحُ بمُضمَـرِ السِّـرِّ الخفـى
وكـم أشـكو للاهيـةِ غرامِـى ... فويـلٌ للشَّـجىِّ مِـن الخلـى

صفى الدين الحلى:

أبـتِ الوصَـالَ مخافـةَ الرقبـاء ... وأتَتْـكَ تحـتَ مـدارعِ الظلمـاءِ
أصْفَتْـكَ مِـن بَعـدِ الصـدودِ مـودّةً ... وكـذا الـدواءُ يكـونُ بعْـدَ الـداءِ
أحيَـتْ بزَوْرتهـا النفـوسَ وطالمـا ... ضَنَّـتْ بهـا فقضَـتْ علـى الأحيـاءِ
أمسَـتْ بليـلٍ والنجـومُ كأنهـا ... درٌّ ببـاطنِ خيمـةٍ زرقـاءِ
أمسَـتْ تَعَـاطِيني المـدامَ وبيننـا ... عَتَـبٌ غنيـتُ بـهِ عـنِ الصَّهْبـاءِ
آبَـتْ إلى جسـدى لتنظرَ ما انتهيـت ... مـن بعدِهـا فيـهِ يَـدُ البُرَحَـاءِ[1]
ألفَـتْ بـهِ وَقْـعَ الصفـاحِ فراعَهَـا ... جزعًا وما نظرَتْ جراحَ أحشائى
أمصيبـةٌ منـا بنَبـلِ لحاظِهَـا ... مـا أخطأتـه أسِـنّةَ الأعـداء
أعجبتَ ممَّا قـد رأيتَ وفـى الحشـا ... أضعـاف مـا عـايَنتَ فـى الأعضـاءِ
أمْسِـى ولَسْـتُ بسَـالمٍ مـن طعنـةٍ ... نجـلاءَ أو مـن مُقلـةٍ نجـلاءِ

(١) البُرَحَاء: الضنى.

وله رحمه الله تعالى:

قِفِـي وَدِّعينـا قبـلَ وشـكِ التفـرُّقِ ... فمـا أنـا مَـنْ يحيـا إلى حـينَ نلتقـي
قضيـتُ ومـا أودَى الحِمـامُ بمهجتـي ... وَشِبتُ ومـا حـلَّ البيـاضُ بمفرقـي
قنعتُ أنـا بـالذلِّ فـي مذهـبِ الهَوَى ... ولم تفرقـي بـين المنعَّـمِ والشَّـقي
قرنتُ الرضَا بالسخطِ والقربَ بالنوى ... ومزّقتُ شَمْلَ الوصلِ كُـلَّ مُمـزَّقِ
قبلتُ وَصايـا الهجرِ مـن غيرِ نـاصحٍ ... وأحببتُ قولَ الهجرِ من غيرِ مشفقِ
قطعـتُ زمـانى بـالصُّدودِ وزرتنـى ... عشـيةَ زَمَّـتْ للـترحُّلِ أينقـى[1]
قضَى الدهـرُ بـالتفريقِ فاصطبرى لـه ... ولا تذممـى أفعالَـهُ وتَرَفَّقِـى

وقال عفا الله عنه:

جَـاءتْ لتنظرَ مـا أبقَـتْ مـن المُهَـجِ ... فعطـرَتْ سَـائرَ الأرجَـاءِ بـالأرجِ
جَلَّـتْ علينـا محيـاً لـو جَلَتْـهُ لنـا ... فـى ظلمـةِ الليـلِ أغنتنـا عـن السـرجِ
جوريَّـةُ الخـدِّ تحمـى وردَ وجنَتِهَـا ... بحـارسٍ فـى نبـالِ الغنـجِ[2] والدعـجِ
جـزَتْ إسـاءةَ أفعـالى بمغفـرةٍ ... فكـانَ غُفْرانُهـا يُغنـى عـن الحجـجِ
جـادَتْ لعرفانها أنـى المريـضُ بهـا ... فمـا علـىَّ إذا أذنبـتُ مـن حـرجِ
جَسَّتْ يدى لترى مـا بـى فقلتُ لها ... كفِّـى فـذاك جـوى لـولاك لم يهـجِ
جَفَوْتـى فرأيـتُ الصـبرَ أجمـلَ بـى ... ولـذَّةُ الحـبِّ حـورُ النـاظرِ الغنـجِ

وقال ابن نباتة:

رقَّتْ لنـا حـين همَّ السَّـفْرُ بالسَّـفرِ ... وأقبلَتْ فى الدُّجَى تسعَى على حَذَرِ
رَاضَ الهَوى قلبَهـا القاسـى فَجَـادَ لنـا ... وكـان أبخـلَ مـن تمـوزَ بـالمطرِ
رَأتْ غداةَ النوى نَارَ الكليمِ وقـد شبّت ... فلـم تبـقَ مـن قلبـى ولم تـذرِ
رشـيقةٌ لـو تراهـا عندمـا سـفرَتْ ... والبـدرُ سَـاهٍ إليهـا سَـهوَ معتـذرِ
رأيـتَ بدرَيْـنِ مـن وجـهٍ ومـن قمـرٍ ... فى ظلّ جنحَيْـنِ مـن ليـلٍ ومـن شعرِ
رشَـفْتُ درَّ الحُمَيَّـا مـن مُقَبَّلِهـا ... إذا نبهتنـى إليهـا نَسْـمَةُ السَّـحَرِ
رَنَتْ نجومُ الدجى نحوى فمـا نظرت ... مَنْ يرشف الراحَ قبلى مـن فـمِ القمرِ
راقَ العتـابُ وأبـدَتْ لى سـرائرُها ... فـى ليلـةِ الوصـلِ بـل فـى غـرّةِ القمـ

وقال ابن الساعاتى:

قبَّلْتهَـا ورشَـفْتُ خمـرةَ ريقِهَـا ... فوجَـدْتُ نـارَ صبابـةٍ فـى كَوْثَـرِ
ودخلْـتُ جنـةَ وجهِهَـا فأبَـاحَنى ... رضوانُهـا المرجـوُّ شُـربَ المُسْـكرِ

---

(١) أينقى: تهيأت النوق للرحيل. والأنيق جمع قلة لناقة.

(٢) الغنج: الدّل. والدعج: وسعة فى العين.

وقال آخر:

بكَـتْ للفـراقِ وقـدْ راعَهَـا ... بُكَـاءُ المحبِّ لبُعْـدِ الديـارِ
كـأنّ الدمـوعَ علـى خدّهـا ... بقيّـةَ طـلّ علـى جلّنـارِ

وقال الوأواء الدمشقي (تضمين):

قالت متى الظعنُ يا هذا فقلتُ لها ... إما غدًا زعموا أو لا فَبَعدَ غدِ
فأمطرَتْ لؤلؤًا مِن نرجسٍ وسقَتْ ... وردًا وعضّتْ على العنّابِ بالبَرَدِ

ولابن نباتة:

عذولي لستُ أسمعُ منه قولاً ... على غيداءَ مثلِ البدرِ تمّا
له طرفٌ ضريرٌ عن سَنَاها ... ولي أذنٌ عن الفحشاءِ صَمَّا

وقال آخر:

وَرُبَّ ليالٍ في هَوَاها سهرتَها ... أراعي نجومَ الليلِ فيها إلى الفجرِ
حديثي عالٍ في السهاد لأنني ... رويتُ أحاديثَ السهادِ عن الزهري

السراج الوراق:

يَا لائمِي في هَوَاها ... أسرَفْتَ في اللّوْمِ جَهْلا
ما يعلمُ الشوقَ إلا ... ولا الصبابةَ إلا

وقال آخر:

وعَدَتْ أن تزورَ ليلا فألوَتْ ... وأنتَ في النهار تسحَبُ ذيلا
قلتُ لها صدقتِ في الوعد قالت ... كيف صدقتَ أن ترى الشمسَ ليلا

لعزّ الدين الموصلي:

قد سلونا عن الغزال بخودٍ ... ذاتِ وجهٍ بها الجمالُ تفتنْ
ورجعنا عن التهتّكِ فيه ... ودفعنَاهُ بالتي هي أحسنْ

وقال آخر:

قالت وناولَتها سواكا ... سادَ بفِيهَا على الأراكِ
سوى ما ذاق طعمَ ريقي ... قلتُ لها ذاقه سواكي

وقال آخر:

سألتَها أن تعيدَ لفظاً ... قالت محبٌّ دعوه يعذرُ
حديثَها سكرٌ شهيٌّ ... وأحسنُ السكرِ المكرّرُ

ابن نباتة:

وملولةٍ في الحبّ لما أن رأتْ ... أثرَ السقامِ بجسمي المنهاضِ
قالت تغيَّرنا فقلت لها نعم ... أنا بالسقامِ وأنتِ بالإعراضِ

وقال أبو الطيب المتنبي:

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربَا ... اللابساتُ من الحريرِ جلابيا
الناهباتُ عيونَنَا وقلوبَنَا ... وجناتهنَّ الناهباتُ الناهبا

الناعمـــاتُ القـــاتِلاتُ المحْيِيــــا تُ المبديَـاتُ مـن الـدلالِ غرائبـا
حــاوَلْنَ تفديتـى وخِفْـنَ مراقبًـا فوَضَعْـنَ أيديَهُــنَّ فــوق ترائبـا
وبسَـمْنَ عـن بَـردٍ خشيتُ أذيبـه مـن حـرِّ أنفاسـى فكنـتُ الذائبـا
يـا حبَّـذا المتحمِّلـونَ وحبَّـذا وادٍ لَثَمْـتُ بـه الغزالـة كاعبـا
كيفَ الرجاءُ من الخطوبِ تخلّصا من بعـدِ أن أنشَبْنَ فـىّ مخالبـا

وله أيضًا من جملة قصيدة:

ولمـا التقينـا والنـوى ورقيبنـا غفـولان عنّا ظلـتُ أبكـى وتبسمُ
فلم أرَ بـدرًا ضاحكًا قبـلَ وجهها ولم تَـرَ قبلـى ميتًـا يتكلّـمُ

الشريف الرضى:

وتميس بـين مزعفـرٍ ومعصفـرِ ومعنـبرٍ وممسَّـكٍ ومصَنـدلِ
هيفاءُ إن قال الشبابُ لها انهضى قـالت روادِفُهـا اقعـدى وتمهَّلـى
وإذا سألْتَ الوصل قـال جمالها جُـودى وقـال دلالها لا تفعلـى

ابن إسرائيل:

وَعَـدَتْ بوَصْلٍ والزمانُ مسوِّفُ حـوراءُ ناظرُهـا حسامٌ مرهَـفُ
نشـوانةٌ خصبـاءُ منهـلُ ثَغرِهَـا درٌّ وريقَتُهـا سـلافٌ قرقـفُ[(١)]
وتخالُ بـين البـدرِ منهـا والنَقَـا غصنًـا يميسُ بـه النسيمُ مهفهـفُ
لا تحسبَنَّ الخَلْـفَ شِـيمةً مثلهـا وعـدت ولكـنَّ الزمـانَ يسـوِّفُ
يـا بانـةَ قـد أطلعَـتْ أَغْصَانَهـا وَرْدًا جنيًّـا بـاللواحِظِ يقطـفُ
وغزالـةً يحكـى الغزالـةَ وجههـا ويعيرُ ناظرُهـا الحسـامُ الأوطـفُ[(٢)]
مـا تـأمرينَ لمغـرمٍ تسـطو بـه أجفـانُكِ المرضـى ولا تسـتعطفُ
قسمًا بوجهكِ وهو صبحٌ مشـرقٌ وسـادُ شعرِكِ وهوِ ليلٌ مسـدفُ[(٣)]
ويهزُّ غصنُ البانِ منك على النقـا مـا لى إلى أحـدٍ سـواك تشـوّفُ

ولنذكر إن شاء الله فى هذا الباب نبذة من ملح النظم ورقائق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب.

للشيخ شمس الدين بن البديرى:

ولما نأتْ سَلْمى وشَطَّ بها النّوَى وأيقَنْـتُ أنـى بـالغرامِ أذوبُ
علقـتُ بـأخرى غيرهـا متلاهيًـا ليُطفـى ضِرامٌ فـى الحشا ولهيـبُ
وكـانَ هيـامى والهـوى وصبباتى لَمـنْ هـو فـى الأولى إلىّ حبيـبُ

وله فى المعنى:

تلاهَيْتُ عنهـا فـى الغـرامِ بغيرِهـا وقلـتُ لقلبـى هـذه هـى زينـبُ

---

(١) قرقفُ: بقية خمر.

(٢) الأوطفُ: كثير شعر الحاجبين والعينين وكذا الأشفار. والغزالة الثانية هى الشمس.

(٣) مسدفُ: مظلم.

وقبّلْتُ فاهَا مبردًا لصبابتي ... فأضرَمْتُ نارًا في الحشا تتلهَّبُ
فكُنْتُ كمَنْ هو غريقًا بلجَّةٍ ... تمسَّكَ بالموجِ الذي يتقلَّبُ

وقال أيضًا:

سألتُ القلبَ هل ميلٌ لليلى ... وهل عندَ الفؤادِ لها التفاتُ
فقالَ الآنَ لا لكِنْ تأنّى ... فقلبُ الحبِّ فيه تقلّباتُ
فإن الحبَّ يهجمُ بعدَ يأسٍ ... ويعتادُ المحبَّ تغيُّراتُ
فلا تظهر لها يومًا سلوًا ... فتفضحكَ التّصَابى السَّوارداتُ
وتَرمى بالصُّدود وبالتّجَنى ... وتنحلُكَ الوعودُ الكاذباتُ
فكُنْ جَلدًا ولا تَكُ ذا لجاجٍ ... فما يُغنيكَ إن فاتَ الفواتُ

وقال البيطار:

يقولونَ هذى أُمُ عمروٍ قريبةٌ ... دَنَتْ بكَ أرضٌ نحوَهَا وسماءُ
ألا إنما قربُ الحبيبِ وبعده ... إذا هو لم يوصل إليه سواءُ

وقال غيره:

وقالوا بِعْ حبيبَكَ وَابْغِ عنه ... حبيبًا آخرَ تحيا سعيدًا
إذا كان القديمُ هو المصافى ... وخانَ فكيفَ آمنُ الجديدا

وقال آخر:

لم أنسَ إذا قلتُ من وَجدى لها غلطا ... ووجهُهَا مشرقٌ فى حندَسِ الظّلَمِ
سلوتُ عنكِ فقالت وهىَ ضاحكةٌ ... لتقرعَنَّ علىَّ السنَّ مِن ندَمِ

وقال آخر:

أمِنَ المروءةِ أن ابيتَ مسهدًا ... قلقًا أبلُّ ملابسى بدُمُوعى
وتبيت ريَّانَ الجفونِ منَ الكَرَى ... وأبيتُ منكِ بليلةِ الملسُوعِ

وقال آخر:

إلى اللّه أشكو جَوْرَ أهيفَ شادن ... وقعتُ فما لى من يدَيْه خلاصُ
جرحتُ بعينى خدَّهُ وهو جارحٌ ... بعينَيْهِ قلبى والجروحُ قصاصُ

وقال أيضًا:

قد كنتُ أسمَعُ بالهوى فأكذّبُ ... وأرى المحبَّ وما يقولُ فأعجبُ
حتى رميتُ بحلوهِ وبمرِّهِ ... مَنْ كان يتّهمُ الهوىَ فيجرّبُ

فقال آخر:

سألتُهَا التقبيلَ من خدِّها ... عَشرًا وما زادَ يكونُ احتسابُ
فمُذ تلاقَيْنَا وقبَّلتها ... غلطَتْ فى العَدِّ وضاعَ الحسابُ

وقال آخر:

يا مَنْ سُقامى من سُقام جفونِهِ ... سوادُ حظى من سَواد عيونِهِ

قد كنتُ لا أرضَى الوصالَ وفوقه والـيومَ أقنـعُ بالخَيـالِ ودونِـهِ

وقال آخر:

صَبَّحْتُهُ عنـدَ المسـاءِ فقـالَ لى تَهْـزِى بقَـدْرى أو تريـدُ مُزاحَـا
فأجَبْتُهُ إشـراقُ وجهِـكَ غرَّنـى حتـى توهَّمـتُ المسـاءَ صباحَـا

أبو عبد الله الغوّاص:

مَنْ عذيرى مِن عـذولٍ فـى رَشَـا قـامرِ القلـب هـواهُ فقمـر
قمـرٌ لم يبـقَ منـى حسـنه وهـواهُ غـيرُ مقلـوب قمـر[1]

وقال آخر:

جاذبَتَهَـا والريـحُ تجـذبُ برقعًـا من فوق خَدّ مثلِ قلبِ العقربِ
وطفقتُ ألثـمُ ثغرَهَـا فتحجَّبَـتْ وتسـتَّرتْ عنى بقلبِ العقـربِ[2]

وقال آخر:

لو متُّ من كـثرةِ الأشـواقِ وانبدلَتْ مَدَامِعِـى بـدمٍ مـن كـثرةِ السَّـهَرِ
ما اخترتُ عنكَ سلوًّا لا ولا نظرَتْ عينـى لغـير محيـا وجهِـكَ القمـرِ

إبراهيم بن العباس:

تمرّ الصَّبَا صفحًـا بسـاكنِ ذى الغَضَـا ويُسـرِعُ قلبـى إذ يهـبُّ هبوبُهَـا
قريبَـةَ عهـدٍ بـالحبيبِ وإنمـا هـوَى كـلُّ نفسٍ أين حـلَّ حبيبُهَـا

وقال النوفلى:

إذا اختلجَتْ عَينـى رأتْ مَـنْ تحبُّـهُ فـدامَ لعينـى مـا حييـتُ اختلاجُهَـا
ومـا ذقـتُ كأسًـا مُذْ علقتُ بحبِّهـا فأشـرَبُه إلا ودَمْعـى مزاجُهَـا

وقال آخر رحمه الله تعالى:

يـا ذا الـذى زار ومـا زارا كأنـه مقتبـسٌ نـارا
قـامَ ببـابِ الـدارِ مـن تيهِـهِ مـا ضـرَّهُ لـو دخـلَ الـدارا

وقال آخر:

ولقـد جعلتُكَ فـى الفـؤادِ مُحَدِّثِـى وأبحـتُ منـى ظـاهرى لجليسـى
فـالكلُّ منـى للجليـسِ مؤانـسٌ وحبيـبُ قلبـى فـى الفـؤادِ أنيسـى

وقال ابن نباتة:

أناشِدُهُ الرحمـنَ فِـى جَمْـعِ شَـمْلِنَا فيقسـمُ هـذا لا يكـونُ إلى الحشـرِ
إذا مـا غَـدا مثـلَ الحديـدِ فـؤادُهُ فوالعصرِ إنّ العاشـقين لفـى خسـرِ

وقال أمين الدين بن أبى الوفاء:

يـا نـازلا منـى فـؤادًا راحـلاً ومـنَ العجـائبِ نـازلاً فـى راحِـلِ

---

(١) مقلوب قمر: لم يبقَ منه غير «رمق».
(٢) بقلبِ العقربِ: أى بالبرقع.

أضرمــتَ قلــبَ متيَّــمٍ أهلَكْتَــهُ وســكَنْتَهُ والنّــارُ مثــوَى القــاتلِ

وقال آخر:

يـــا عـــاذِلى فـــى هـــواهُ إذا بَـــدَا كيـــفَ أسْـــلَو
يمـــرُّ بـــى كـــلَّ وقـــتٍ وكلّمـــا مـــرَّ يحلَـــو

وقال الحاجبى:

مــلأتُ فــؤادى مــن محبــةِ فــاتنٍ أميــلُ إليــه وهــو كــالظبى رائــغَ(١)
وقلــتُ لقلبــى قــمْ لتعشــقَ شــادِنَا سواهُ فقــالَ القلــبُ مــا أنــا فــارغَ

وقال ديك الجنّ:

ولى كبــدٌ حَــرَّى ونفــسٌ كأنهــا بكــفِّ عــدُوّ مــا يريــدُ ســراحَهَا
كــأنَّ علــى قلبــى قطــاةَ تذكّــرَتْ علــى ظمــإٍ وردًا فهــزَّت جناحَهَــا

وقال عبد الله بن طاهر:

أقــامَ ببلــدةٍ ورحلْــتُ عنــه كلانــا بعــدَ صاحبــهِ غريــبُ
أقــلُّ النــاسِ فــى الدنيــا سُــرُورا محــبٌّ قــد نــأى عنــهُ الحبيــبُ

وقال آخر:

ما اخترتُ تَـرْكَ وداعَكم يـومَ النوى واللّـــه لا ملـــلاً ولا لتجنّـــبِ
لكـن خشـيتُ بـأن أمـوتَ صبابـةً فيقـــالُ أنـــتَ قتلتَـــهُ فتُقَـــادَ بـــى

وقال ابن المعتز:

هَـــبْ لعَيْنـــى رقادَهَـــا وَانْـــفِ عنهـــا ســـهادَهَا(٢)
وارحَـــمِ المقلـــةَ التـــى كنـــتَ فيهـــا ســـوادَهَا
كَـــنْ صَلاحًـــا لهـــا كمـــا كنـــتَ دهـــرًا فســـادَهَا

وقال آخر:

وقـــالوا دَعْ مراقبـــةَ الثّرَيَّـــا ونَـــمْ فـــالليلُ مُسَـــوّدُّ الجنـــاحِ
فقلــتُ وهَــلْ أفــاقَ القلــبُ حتــى أفِــرِّقَ بــين ليلـــى والصبـــاحِ

وقال آخر:

ولى الفــؤادُ إذا طَــالَ الــنزاعُ بــهِ طــارَ اشــتياقًا إلى لَقيَــا معذّبــهِ
يفديـكَ بـالنفسِ صـبٌّ لـو يكـونُ لـه أعــزُّ مــن نفســه شــيءٍ فــداك بــهِ

وقال آخر:

ومـا هَجَرَتْـكِ النفسُ يـا مـيُّ إنهـا قَلَتْــكِ ولا أن قَــلَّ منــك نصيبُهَــا
ولكنهـم يـا أحسـنَ النـاسِ أولعـوا بقــولٍ إذا مــا جئــتُ هــذا حَبيبُهَــا

---

(١) رائغ: مائل عنى، مبتعد.
(٢) سهادَهَا: قلة النوم.

وقال المحاربي:

إذا أنتَ لم توقِنْ بما صَنَعَ الهوى ... بأهلِ الهَوَى فافْقِدْ حبيبًا وجرِّبِ
تَرَى حرقاتٍ يلدغُ القلبَ حرُّها ... بأنضجَ من كيٍّ الغَضَى المتلهبِ

وقال الأقرع بن معاذ:

أقول لِمُفْتٍ ذاتَ يومٍ لقيتَه ... بمكةَ والأنضاءُ ملقى رِحَالَهَا
بحقكَ أخبِرْني أمَا تأثَمُ التي ... أضرَّ بجسمي منذ مرَّ خيالَهَا
فقال بَلَى واللهِ أو سيصيبُهَا ... من اللهِ بلوى في الزمانِ تنالَهَا
فقلتُ ولم أملِكْ سوابقَ عبرةٍ ... سريعٍ على جَيْبِ القميصِ انهمالَهَا
عَفَا اللهُ عنها كلَّ ذنبٍ ولقّيتُ ... مُنَاهَا وإن كانت قليلاً نوالَهَا

وقال آخر:

باللهِ ربِّكما عَوِّجَا عَلَى سَكَنِي ... وعاتِبَاهُ لعلَّ العتْبَ يعطفَهُ
وَعَرِّضَا بي وقولا في حَديثِكُما ... ما ضرَّ لو بوصالٍ منكَ تسعفَهُ
فإن تبسَّمَ قولاً عن ملاطفةٍ ... مَا بَالَ عبدِك بالهجران تَتلِفَهُ
وإن بَدا لكما من سيدي غضبٌ ... فغالِطَاه وقولا ليسَ نعرِفَهُ

وقال عبد الله بن أبي الشيص:

ومُعرضةٍ تظنُّ الهجرَ فرضًا ... تخالُ لحاظَها للضعفِ مَرْضَى
كأني قد قتلتُ لها قتيلاً ... فما مِنّي بغيرِ الهجرِ تَرْضَى

وقال الحسين بن الضحاك:

بَعْضِي بنارِ الهجرِ مَاتَ حريقاً ... والبعضُ أضْحَى بالدموعِ غريقَا
لَم يَشْكُ عِشقًا عاشقٌ فسمعتَه ... إلا ظننتُكَ ذلكَ المعشوقَا

وقال آخر:

وأجيلُ فكري في هَوا ... كِ بلا لِسَانٍ ناطقِ
أدعو عليكِ بحرقةٍ ... من غيرِ قلبٍ صادقِ

وقال آخر:

يا وَيْحَ مَنْ خَبَلَ الأحبةَ قلبَهُ ... حتى إذا ظفرُوا به قَتَلُوهُ
عزُّوا ومالَ بهِ الهَوَى فأذلَّهُ ... إنّ العزيزَ عَلَى الذَّلِيلِ يتيهُ
انظُرْ إلى جَسَدٍ أضرَّ بهِ الجَوَى ... لولا تقلُّبُ طَرْفِهِ دفَنُوهُ
مَنْ كانَ خلوًا من تَبَاريحِ الهَوَى ... فأنا الهَوَى وحليفُهُ وأخُوهُ

وقال أحمد بن طاهر:

تقولُ العاذلاتُ تسلَّ عَنْهَا ... وداوِ عَلَيْكَ صَبْرَكَ بالسُّلُوِّ
فكيفَ ونظرةٌ منها اختلاسًا ... ألذُّ مِنَ الشَّماتةِ بالعَدُوِّ

وقال إسحاق بن مولى المهلب:

هَبِينِى يَا مُعَذّبَتِى أَسَأْتُ ... وبالهجرانِ قبلَكُم بدأتُ
فأينَ الفضلُ منكِ فَدَتْكِ نَفْسِى ... علىَّ إذا أسأتِ كما أسأتُ

وقال أبو العتاهية:

يقول أناسٌ لو نَعَتَّ لنا الهَوَى ... وواللّهِ ما أدْرى لَهُم كيفَ أنعتُ
سقامٌ على جسمى كثيرٌ موسعٌ ... ونومٌ على عَينى قليلٌ مفوَّتُ
إذا اشتدَّ ما بى كان أفضلَ حيلتى ... له وضعُ كَفّى فوقَ خدّى وأسكتُ

وقال بشار:

يا قُرّةَ العَينِ إنّى لا أُسمِّيكِ ... أكنّى بأخرى أسميَّها وأعنيكِ
أخشَى عليكِ من الجَارَاتِ حاسدةً ... أو سَهْمَ غَيرانَ يرمينى ويرميكِ
لولا الرقيبانِ إذا ودّعتُ غاديةً ... قَبَّلْتُ فاكِ وقلتُ النفسُ تفديكِ
يَا أطْيَبَ النّاسِ رِيقاً غير مختبرٍ ... إلاّ شهادةَ أطرافِ المساويكِ
قَد زُرْتِنَا مَرّةً فِى الدَّهرِ واحدةً ... باللّهِ لا تجعَلِيها بَيْضَةَ الدِّيكِ

وقال آخر:

ألم تعلمى يا أحسنَ الناس أننى ... أحِبُّكِ حبًّا مُسْتكِنّا وبادِيَا
أحِبُّكِ مَا لَو كانَ بَينَ قبائلٍ ... مِنَ النّاسِ أعداءٍ لجَرَّ التصافِيَا

وقال آخر:

أقولُ لشادنٍ فى الحسنِ أضحى ... يصيدُ بطَرْفِهِ قَلبَ المكىِّ
مَلَكتَ الحَسْنَ أجمعَ فى نصابٍ ... فَأدِّ زكاةَ مَنْظَركَ البَهىِّ
وذاكَ بأنْ تجودَ لمستهامٍ ... برشفٍ من مُقبِّلكَ الشهىِّ
فقال أبو حنيفةَ لى إمامٌ ... يَرى أن لا زكاةَ على الصَّبِىِّ

وقال آخر:

سَقَى اللّهُ ربعًا كنتُ أخلُو بوجهِكُم ... وثغرُ الهنا فِى روضةِ الحسنِ ضَاحكُ
أقَمْنَا زمانًا والعيونُ قريرةٌ ... وأصبَحْتُ يومًا والجفونُ سوافكُ

وقال آخر:

ألم تَعْلَمى يا عَذْبَةَ الماءِ أننى ... أظلُّ إذا لم أُسْقَ رِيقَكِ صَادِيَا
ومَا زِلتَ بى يَا بَيْن حَتّى لَوَ إننى ... من الوجدِ أستبكى الحمامَ بَكَى لِيَا

وقال أبو العباس الشهير بالنفيس:

يا راحلاً وجميلُ الصَّبْرِ يتبعُهُ ... هل مِن سبيلٍ إلى لَقياكَ يَتّفِقُ
ما أنصفَتْكَ جفونى وهى داميةٌ ... ولا وَفَى لكَ قلبى وهو يحترقُ

وقال الوزير ظهير الدين الملقب بأبى شجاع:

لأعَذِّبَنَّ العينَ غيرَ مفكرٍ ... فيها بكَتْ بالدمعِ أو فاضَتْ دَمَا
ولأهجرَنّ مِنَ الرقادِ لَذيذَهُ ... حتى يعودَ على الجفونِ محرمَا

هـى أوقَعَتنــى فــى حبــائلَ فتنــةٍ ... لـو لم تكـن نظـرَتْ لكنـت مُسـلما
سـفكَتْ دَمِـى فلأسـفحَنَّ دموعَهـا ... وهـى التـى بَـدَأَتْ فكـانَتْ أظلَمَـا

وقال العتبى:

أضحَـتْ بخـدّى للدّمـوعِ رسـومُ ... أسَفًا عليكِ وفـى الفـؤاد كلُـومُ[1]
والصَّبْرُ يُحْمَدُ فـى المواطِـن كلّهـا ... إلاّ عليـكِ فإنّـهُ مَذمُـومُ

وقال الرّفاء الأندلسى:

ومهفهـفٍ كـالغُصْنِ إلا أنّـه ... تتحـيَّرُ الألبـابُ عنـد لقائِـهِ
أضْحـى ينـامُ وقـد تكلّـلَ خـدُّهُ ... عرقًـا فقُلْـتُ الـوردُ رشَّ بمائِـهِ

وقال آخر:

اخضـرّ واصفَـرّ لاعتـلال ... فصـارَ كـالنرجسِ المضَّعـفْ
كـأنَّ نسـرينَ وجنَتَيْـهِ ... بشَـعْرِ أصداغِـهِ مغلّـفْ
يرشَـحُ منـهُ الجبـينُ مـاءً ... كأنـهُ لؤلـؤٌ منصّـفْ

فصل فى ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك

لابن عفيف فى قاض مليح:

وربَّ قـاضٍ لنـا مليـحٍ ... يُعـربُ عـن منطـقٍ لذيـذِ
إذا رنـا لى بسـهم لحـظٍ ... قلنـا لـه دائـمُ النفـوذِ

وقال فى فقيه مليح:

وبمهجتـى ظبـيٌ غـدا مُتفقّهًـا ... وهـو المهذّبُ فـى الرشـاقةِ والحَـوَرْ
أمسَـى بسـيطَ الشَّـعْرِ منـه مطـوّلا ... لكـنْ وجـيزُ الخصـرِ منـهُ المختَصَـرْ

وقال فى محدث مليح:

عَلِقتّـه محدِّثـا ... شـرَّد عـن جفنـى الوسَـنْ
حديثَـه ووجهُـه ... كلاهمـا عنـدى حَسَـنْ

وقال فى إمام:

جـاء يسـعَى إلى الصـلاةِ بوجـهٍ ... يَخجـل البـدرُ فـى ليـالى السـعودِ
فتمنّيْـتُ أنَّ وجهـى أرضٌ ... حـين يومـى بِوجهـه للسـجودِ

ابن الرومى فى عروضى وأجاد:

بـى عروضـى مليـحٌ ... مَوْتتـى فيـه حيـاةْ
عـاذلاتى فـى هـواه ... فـاعلاتٌ فـاعلاتُ

فى مؤذن مليح:

ومـؤذنِ أضحـى كريمًـا وجهُـهُ ... لكنّـهُ بـالوصلِ أىُّ شـحيحِ

---

(١) كلوم: أى جروح.

أبـدًا أمـوتُ بهجـرهِ لكنّنـي ... مـن بعـدِ ذاك أعيـشُ بالتسـبيحِ

لابن عربى:

وبنفِـس مـؤذّنٌ قـد سَـبَانى ... لم يُفِدْنـى شـكوى الغـرامِ إليـه
كيـف أصغـى لما يقـولُ حبيـبٌ ... وَاضِـعٌ أصبعَيْـه فـى أذنيـهِ

وقال آخر فى مريد:

مـرادُ قلبـى مريـدٌ ... مخبـأ فـى الزوايَـا
وليـسَ ذا بعجيـبٍ ... ففـى الزوايـا خبايَـا

وفى فقير مليح:

بـى فقـيرٌ يتغنَّـى ... بسـنَا وجـهٍ منـيرِ
لا تَلُمْنـى فـى افتضـاحِى ... فغرَامـى بالفقـيرِ

فى أمير شكار لابن دانيال:

بـى مِـن أمـيرِ شـكارٍ ... وَجْـدٌ يُذيـبُ الجـوارح
لَمَّـا حَكَـى الظبـىَ حسـنًا ... حَنَّـت إليـه الجـوارح

فى مليح مغن:

أبضحى يخرُّ لوجهـهِ قمـرُ الدجـى ... وغـدًا يلـينُ لحسـنِهِ الجلمـودُ
فـإذا بـدًا فكأنما هُـو يوسـفُ ... وإذا شـدًا فكأنـهُ داودُ

فى مليح عوّاد:

غنّى على العُودِ ظبىٌ سهمُ نـاظرِهِ ... أمسَى به قلبى المضنى على خطـرِ
دَنَـا إلىّ وجَسَّـتْ كفّـهُ وتـرًا ... فراحَـتِ الروحُ بين السـهمِ والوتـرِ

فى مليح كاتب:

بروحـى كاتبًـا كـالبدرِ حسـنًا ... بديعًـا مـا رأينـا منـه أجمَـلْ
علـى ريحـانِ عارضِـهِ المفـدَّى ... بوجنَتِـهِ غَـدًا دمعـى مسلسَـلْ

وقال غيره:

وراقَنَـا ذا المفـدَّى ... فيـه تزايـدَ عِشـقى
فلـو يجـودُ بوصـلٍ ... لكـانَ مـالكَ رِقّـى

وفيه أيضًا:

يـا حُسْـنَ ورّاقٍ أرى خـدَّه ... قـد راقَ فـى التقبيـلِ عنـد وَرَقْ
تميـلُ فـى الدكـانِ أعطافُـهُ ... مـا أحسـنَ الأغصـانَ بـين الـوَرَقْ

للسيد الشريف صلاح الدين الأسيوطى فيه أيضًا:

فديتَـك أيُّهـا الـورّاقُ قلبـى ... لمطلـك بالوصـالِ يكـادُ يبلَـى
وقـد طلـبَ الوفـاءَ وغـيرَ بـدعٍ ... محـبٌّ يسـألُ الـورَّاقَ وصـلا

فى مليح صيرفى:

يـا سـائلاً عـن حالى مـا حـالُ مَـنْ ... أمسَـى بعيـدَ الـدارِ فـاقدَ إلفِـهِ

بـــى صـــيرفيٌّ لا يـــرقُّ لحـــالتى قـد مُتَ من جَوْرِ الزمـان وصَرْفِـهِ

في مليح بخانقى:

تســـلطنَ فـــى المـــلاح بخـــانقى ولا يرضَـــى ببـــدرِ التّـــمِّ نـــائِبْ
وقـــد صفَّـــتْ لـــه الأتـــراكُ جنـــدًا وأصبـحَ راكبًـــا تحـــتَ العصـــائِبْ

في مليح فراء:

قلـــتْ لفـــرا فَـــرَى أديمـــى[1] وزادَ صـــدًا وطـــالَ هجـــرا
قـــد فـــرَّ نومـــى وفـــرَّ صَـــبْرى فقـــالَ لمـــا عشـــقتَ فـــرا

سيدى أبو الفضل بن أبي الوفاء في مزيِّن:

حبّـــــى المزيـــــنُ وافـــــى بعـــــدَ البعـــــادِ بشـــــنطَهْ
ومـــــصَّ دمـــــل قلبـــــى بكـــــأسِ راحٍ وبطَـــــهْ

في مليح قصاص:

أشـكو إلى اللّـه قصَّاصًـا يجرِّعنـى بـالهجرِ والصدّ أنواعًـا مـن الغصـصِ
إن تحسـن القـصَّ يمنـاه فمقلتـه أيضًـا تقـصُّ علينـا أحسـنَ القصـصِ

في مليح صياد:

ومولـــــــعٍ بفخـــــــاخ يمدُّهـــــــا وشـــــــراكِ
قـــالَتْ لـــه العـــينُ مـــاذا تصيـــدُ قـــال كراكـــى

في مليح رامى بندق:

وأهيـــفِ القـــدِ ذى دلالٍ طـــائرُ قلبـــى عليـــه واجـــبْ
كالشـــمسِ فـــى كفّـــه هـــلالٌ يرمـــى إلى البـــدرِ بـــالكواكِبْ

وقال آخر في راعٍ:

أفديـــه مـــن راعٍ كبـــدرِ الدجـــى قوامُـــه فـــاقَ الغصـــونَ الرشَـــاقْ
ضيَّفنـــى بـــالجدي ناديتـــه مـا القصـدُ يـا مـولاىَ إلا العَنـاقْ[2]

القيراطى في مليح طحان:

حُسْـــنُ طحـــانٍ ســـبانى بلحـــاظٍ وبقامَـــهْ
خـــافَ مـــن واشٍ فـــأضحى يجعـــلُ الغمـــزَ علامَـــهْ

القاضى بدر الدين البلقيني في ترَّاب:

رُبَّ تـــرَّابٍ مليـــح أورثَ القلـــبَ عذابـــا
قلـــتُ لمـــا أن بـــدًا لى ليتنـــى كنـــتُ ترابـــا[3]

---

(١) الأديم: الجلد.
(٢) العَناقْ: تورية عن الضم بالمواشى.
(٣) اقتباس قرآني النبأ ٤٠.

وقال آخر فى مليح عوّام:

يـا حسـنَ عـوّام كغصـنِ النقـا ... يبخـلُ بـالوَصْلِ لمـن هامـا
وتقنـعُ العشـاقُ منـه بـأن ... يُريهِـمُ الأردافَ إن عامـا

ابن نباتة فى مليح حبشى:

بروحىَ مشروطًا على الخدِّ أسمرا ... دنَا ووفى بعدَ التجنّبِ والسخطِ
وقال على اللثم اشترَطْنَا فلا تَزِدْ ... فقبَّلْتُه ألفًا على ذلك الشرطِ

وله أيضًا:

ومن عجبٍ تدعى للطفك سنبلا ... ونشرُك كافورٌ وذكرُك عنبرُ
وسعدُكَ إقبالٌ وحسنُكَ مرشدٌ ... وخلقُكَ ريحانٌ ولفظكَ جوهرُ

وقال آخر فيمن به صفرة:

قالوا به صفرةٌ شانَتْ محاسنَهُ ... فقلت ما ذاك من عيبٍ به نزلا
عيناهُ مطلوبةٌ فى ثأرِ مَنْ قَتَلَتْ ... فلستَ تلقَاهُ إلا خائفًا وَجِلا

للشيخ شهاب الدين بن حجر فى مليح اسمه زائر:

وزائرٍ قالَ قلبى ... للطرف يا طرفُ شاهِدْ
مدَحْتَهُ فتَجَنَّى ... تِيهًا علىّ بزائدْ

وقال آخر فى مليح أرمد:

شكا رمدًا فقلتُ الآن كلّتْ ... لواحظُهُ من الفتَكَات فينا
وقالوا سيفُ مقلتِهِ تصدَّى ... فقلتُ نَعَمْ لقتّلِ العاشقينا

لمجد الدين بن مكانس فيه:

تورَّمت مقلةَ المحبوبِ من رَمَدٍ ... وباتَ يشكو لهيبَ القلبِ والألما
وباتَ يرمى محبِّيهِ بأسهمِهِ ... فيا له من حبيبٍ قد شكا ورما

لابن أبى حجلة فى أعور:

ما شانَ مَنْ أهواه عينٌ أصبحَتْ ... مقلوعةً بمحاسنٍ متزايدَهْ
لولا استخفَّ العالمين بأسرِهِم ... ما ظلَّ ينظرُهُمْ بعينٍ واحدَهْ

وقال آخر فى مليح راهب:

رأيتُه يضربُ الناقوسَ قلتُ له ... مَنْ علّمَ البدرَ ضربًا بالنواقيسِ
وقلتُ للنفسِ أى الضرب يؤلمكِ ... ضَرْبُ النواقيسِ أم ضربُ النوى

القيراطى فى مليح اسمه بدر:

سمَّوهُ بدرًا وذاك لما ... أن فاقَ فى حسنِهِ وتمَّا
وأجمَعَ الناس إذ رأوْهُ ... بأنه اسمٌ على مُسَمَّى

وآخر فى مليح اسمه حمزة:

متـى يبـدو لحمـزةَ مـا بقلبـى ... ويرثـى لى وينظـرُ فـى بلائـى
وأشـفِى بالمـبرد مـن لمـاه ... وأجمـعُ بـين حمـزةَ والكسـائى[1]

وقال آخر:

كلفـتُ بـه ولم أبلَـغْ مـرادى ... غـزالٌ قـد تحكّـم فـى قيـادى
فتصحيـفُ اسمـه فـى وجنتيـهِ ... وفى معسولِ فِيـهِ وفـى فـؤادى[2]

فى مليح سروجى:

فتنـتُ بـه سـروجيًا بديعًـا ... به قد ذبتُ وَجْدًا مـن ضجيجى
إذا جـذبَ الغـرامُ لـه عِنَـانى ... يلـذّ لى الركـوبُ علـى السُّـروجِ

وقال آخر فى مليح محموم:

قـالوا حبيبُـك محمـومٌ فقلـتُ لهـم ... أنا الذى كنتُ فـى حمائـه السـبَبا
عانقتـه ولهيـبُ النـارِ فـى كبـدى ... فـأثرتْ فيـه تلـك النـارَ فالتهبـا

لأبى النواس فى مليح ألثغ:

ومهفهـفٍ دنـفِ الصبـا ذى لثغـةٍ[3] ... تصبُـو غليـه ذوو العقـولِ الرجـحِ
قبلـتُ فـاهُ فقـال لى متخوّفًـا ... من كاشحٍ[4] متدلّـلٍ بالثـا اثتحـى

وقال فى مليح خباز:

إن خبَّازَنَـا المليـحَ المفـدَّى ... فى حشا الصبِّ من جفاهُ كلـومُ
خِلْـتُ دكانَـه البديـعَ سمـاءً ... وهـو بـدرٌ والخبزُ فيـه نجـومُ

وقال فى مليح حائك:

وحـائكٍ يـا صـاحِ أبصَرْتَـهُ ... كـالبدرِ فـى كفَّيْـهِ ماسـورَهْ[5]
فلـم أرح إلا وروحـى لمـا ... عـايَنْتُ فـى كفَّيْـه ماسـورَهْ

وقال فى مليح لاعب شطرنج:

لعبـتُ بالشـطرنجِ مـع أهيـفٍ ... رشـاقةَ الأغصـانِ مـن قـدِّهِ
أحـلُّ عقـدَ البنـدِ مـن سـعدِهِ ... وألثـمُ الشـاماتِ مـن خـدِّهِ

وفيه أيضًا قال:

تلاعبتُ بالشطرنج مع مَنْ أحبـه ... فنادَمَنى حتى سكرتُ من الوَجْـدِ
وأنشـدَنى مـا لى أراك مفكّـرًا ... تدورُ على الشاماتِ وهى على الخدِ

فى مليح خياط:

خياطُنَـا الفـاتنُ المفـدَّى ... بديـعُ حسـنِ فريـدُ شَـكْلِ

---

(١) تورية باستخدام أعلام القراءات.
(٢) فؤادى: أى حُمرة فيه.
(٣) ذى لثغةٍ: نطق الحروف بشكل طفولى.
(٤) كاشحٍ: معادٍ.
(٥) كفَّيْهِ ماسورَهْ: تخفيف مأسورة.

فصَّلَ للجسم ثوبَ سقمٍ لما جفاني وكفَّ وَصْلي

وقال غيره:

فتنتُ بخياطٍ بديعِ ملاحةً له طلعةٌ أبهى ضياءً من الشمسِ
تراهُ على الكرسيِّ للوثبِ خائطًا فتقسم حقًا أنه آيةَ الكرسي

الصفى الحلى فى مليح قلع ضرسه:

لحا اللّه الطبيبَ لقد تعدَّى وجاءَ لقَلْعِ ضِرسِكَ بالمحالِ
أعاقَ الظبيُ فى كلتا يدَيْهِ وسلّط كلبتَيْن على غزالِ

وقال فى مليح سلم عليه:

تنبأ فيكَ قلبى فاسترابَتْ به قومٌ وعَمَّهُم الضلالُ
وصدَّقُهم الهوَى أن يؤمنوا بى وقالوا إن معجزَهُ محالُ
ومذ سلمتَ سلمتِ البرايا إلى وقيل كلَّمَهُ الغزالُ

وقال فى مليح يرمى بالسهام:

وظبى يشعرُ فوقَ طرف مفوّق بقوسٍ رمى فى النقع وحشا بأسهمِ
كبدرٍ بأفقٍ فوقَ برقٍ بكفه هلالٌ رمى لى الليل جنا بأنجمِ

وقال فى مليح يضرب بالعود:

فتنَ الأنامَ بعوده وبشَدْوِهِ شادٍ تجمَّعتِ المحاسنُ فيهِ
حتى كأنَّ لسانَهُ بيمينهِ وكأنَّ ما بيمينهِ فى فيهِ

وقال أيضًا فيه:

وأغنّ(١) قد أبدَى لنا من عودِهِ نغمًا أصحَّ به القلوبَ وأمرضا
بيدٍ إذا سخطت على أوتاره نالَ الرفاقُ بسخطها عينُ الرضا

وقال فى مليح مشبب(٢) :

يا نافخَ الصورِ بل يا باعثَ الصورِ من رقدةِ السكرِ لا من رقدةِ الحفرِ
قرنتَ حسنَكَ بالإحسانِ فيه لنا فكان فيك مرادُ السَّمْعِ والبَصَرِ
ضمنتَ للصحبِ إقبالَ السرورِ كما ضمنتْ نائِكَ نأىَ الهَمَّ والفكرِ(٣)
صوتٌ بسيطَ به أرواحنا انبسطَتْ إذ جئتَ فى اللفظِ والمعنى على قَدَرِ

قال فى مليح ساق:

وساقٍ من بنى الأتراكِ طفلٍ أتِيهُ بهِ على جَمْعِ الرفاقِ
أملكُهُ قيادى وهو رقّى وأفديهِ بعينى وهو سَاقِى

---

(١) أغنّ: غزال مصوّت.

(٢) يعزف على الشبابة.

(٣) الشطر الثاني مختل الوزن.

وقال أيضًا فى رسول مليح أتاه من عند من يحبه:

مَـــنْ كنـــتَ أنـــتَ رســـولَهُ ... كـــان الجـــوابُ قبولَـــهُ
يـــا طلعـــةَ الشـــمسِ الـــذى ... جـــاءَ الصبـــاحُ دليلَـــهُ
لم يبـــدُ وجهـــكَ قبلـــهُ ... إلا ارتقبْـــتَ وصولَـــهُ
فلـــذاكَ إذ واجهتنـــى ... بـــلَّ الفـــؤادُ غليلَـــهُ

فى مليح قارئ:

نفســى الفــداء لشــادن شــاهَدْتَه ... يــومَ الزيــارة قارئـًا فــى المصحــفِ
فــتنَ الأنــامَ بيهجــةٍ وبلهجــةٍ ... تسبى وتضنى كــل صــبّ مدنــفِ
فتــلا مليًّــا حــلَّ ســورةِ يوســف ... وجَــلاَ محيًّــا مثــل صــورةِ يوســفِ

وقال آخر فى مليح مكتمل العذار:

وكـــاملِ العـــارضِ قبَّلْتـــهُ ... فصَدَّنـــى وأزورَّ مـــن قُبْلتـــى
وقـــال كـــم أنهـــاكَ عـــن مثـــلِ ذا ... وأنـــتَ مـــا تفكّـــر فـــى لحيتـــى

وقال آخر فى مليح حجام:

كلفـــتُ بحجَّـــام تحكّـــم طرفـــه ... فغَـدًا علـى سَـفْكِ الدمـاء يواطـى
أضحَى كثـيرَ الاشـتطاطِ و لم تكـن ... منـه اللحـــاظَ كليلـــةِ المشــراط

فصل فى الألغاز

فى غزال:

اســـمُ مَـــنْ قـــد هويتـــه ... ظـــاهرٌ فـــى صروفِـــه
فـــإذا زالَ رُبعُـــه ... زال بـــاقى حروفِـــه

فى كوز فقاع:

ومحبـــوسٍ بـــلاَ ذنـــبٍ جنـــاهُ ... لـه فـى السِّـجن ثـوبٌ مـن رُصَـاصِ
إذ أطلقتـــه وثَـــبَ ارتفاعًـــا ... يقبِّـلُ فَــاكَ مِــن فَــرَحِ الخَــلاصِ

فى زر موزة:

مطيـــةٌ فارســـها راجـــلُ ... تحملُـــه وهـــو لهـــا حـــاملُ
واقفـــةٌ بالبـــابِ مزبولـــةٌ ... لا تشـــربُ الدهـــرَ ولا تـــأكلُ

وقال فى طاحون:

ومسـرعةٌ فـى سيرِها طُـولَ دهرهـا ... تراهـا مـدَى الأيـامِ تمشـى ولا تتعـبْ
وفى سيرها ما تقطعُ الأكلَ ساعةً وتأكلُ ... مـع طـول المـدى وهـى لا تشـربْ
ومـا قطعَـتْ فـى السـير خمسـةَ أذرعٍ ... ولا ثلـثَ ثمـنٍ مـن ذراع ولا أقـربْ

فى دواة:

ومرضعـــة أولادهـــا بعـــد ذبحهـــم ... لهـا لـبنٌ مـا لـذَّ قـطُّ لشـاربِ
وفـى بطنهـا السكينُ والـذى رأسُـها ... وأولادُهـــا مدخـــورةٌ للنوائـــبِ

فى دواة أيضًا:

ومـــا أمٌّ يجامِعُهَـــا بَنوهـــا ... وليـس عليهـم تجـبُ الحـدودُ
كـأنهم إذا ولجـوا حَشَـاها ... أفـاعى فـى أماكنهـا رقـودُ

فى قلم:

وأهيفَ مذبوحٍ علـى صـدرِ غـيره ... يـترجمُ عـن ذى منطقٍ وهـو أبكـمُ
تـراهُ قصـيرًا كلمـا طالَـه عمـرُهُ ... ويضحَـى بليغًـا وهـو لا يتكلّـمُ

وفيه أيضًا:

بصـير بمـا يوحَـى إليـه ومـا لـه ... لسـانٌ ولا قلـبٌ ولا هـو سـامعُ
كـأن ضمـيرَ القلـبِ بـاحَ بسـره ... إليـه إذا مـا حَرَّكَتْـهُ الأصـابعُ

وفيه أيضًا:

وأصفرَ عـار أنحـل السَّـقمُ جسـمَهُ ... يشـتّتُ شمـلَ الخطـب وهـو جمـوعُ
حمى الجيشَ مطفومًا كما كان تحتمـى ... بـه الأسـدُ فـى الغابـاتِ وهـو رضيـعُ

وفيه أيضًا:

وذى نحـولٍ راكـعٍ سـاجدٍ ... أعمـى بصـيرٍ دمعُـهُ جـارى
مـلازمُ الخمـسِ لأوقاتهـا ... مجتهـدٌ فـى طاعـةِ البـارى

فى مرملة:

معشـوقةٌ لـذوات العـزِّ قـد صُنعـت ... حزينـةٌ مـا تراهـا قـط تبتسـمُ
كأنهـا مـن صـروف الدهـر خائفـةٌ ... تبكـى دمـاءً علـى مـا سطَر القلـمُ

فى كتاب:

وذى أوجـهٍ لكنّـه غـيرُ بـائحٍ ... بسـرٍّ وذو الوجهـين للسـرِّ يظهـرُ
تنـاجيك بالأسـرارِ أسـرارُ وجهِـهِ ... فتسمعها بـالعينِ مـا دمـتّ تبصـرُ

فى سلطان حسن لابن أبى حجلة:

مـا اسـم محبـبٌ للقلـوبِ لأنّـه ... حسـنُ الحـروفِ يجـودُ بالإحسـانِ
تصحيفُـه أمسَـى حبيبًـا كلمـا ... صحفـت أحرفُـه بحسـنِ بيـانِ
لـو جـادَ لى يومًـا برؤيـةِ وجهِـهِ ... نلـتَ المـرادَ وعشـتَ بالسـلطانِ

فى شبابة:

ومـا صفـراءُ شـاحبة ولكـن ... تزينهـا النضـارةَ والشـبابُ
مكتبـةٌ وليـس لهـا بنـانٌ ... منقبـةٌ وليـس لهـا نقـابُ
تصيـحُ لهـا إذا قبَّلـتَ فاهـا ... أحـاديثَ تلـذّ وتسـتطابُ
ويحلـو المـدحُ والتشـبيبُ فيهـا ... وليسَـتْ لاسـعادٍ ولا الربـابُ

وفيها أيضًا:

ومقروحـةِ الأجفـانِ مثلـى شـجيةٍ ... تنـاءَتْ عـن الأهلين أسـقَمَهَا البعـدُ

تزوّجَهَا عَشْرٌ وذاك محرّمٌ ... ولا حرج كلا ولا وجَبَ الحدُّ
إذا ما وطئها القومُ تصرخ صرخةً ... يلينُ إليها القلبُ لو أنه صلدُ

وفيها أيضًا:

منقبة مهما خلت مع محبِّها ... يزوّدها لثمًا وينظرها شزرا
وتصحيفها فى كفِّ حاملها فقلْ إذا ... شئتَ فى اليمنى وأن شئتَ فى اليسرى

فى دملج:

إلى النساءِ يلتجى ... وعندهن يوجدُ
الجسمُ منه فضّةٌ ... والقلبُ منه جَلْمَدُ

فى خلخال:

أيا عجبًا من صابرٍ صامتٍ و لم ... يَفُهْ بكلامٍ قط فى ساعة الضربِ
أقامَ و لم يبرَحْ مكانا ثوى به ... على أنه أضحَى يدورُ على الكعبِ

وفى شعر اللحية:

وذى عددٍ كالرمل سامَ محله ... جميلٍ على كلِّ الملاح له حقٌّ
يحاذر من موسى ويرهبُ باسمه ... وفى قلبِ هارونَ له الهلك والمحقُ

فى التين:

أىُّ شىءٍ لذَّ طَعْمَا ... ناعمُ اللمس ولينُ
كيفَ لا يبدو وضوحًا ... وهو فى التصحيف بينُ

فى الموز:

ما اسمٌ لشىءٍ حسنٌ شكله ... تلقاهُ عند الناسِ موزونا
نراهُ معدودًا فإنْ زدته ... واوًا ونونًا صار موزونا

فى حمزة:

مَنْ لى بمعتدلِ القوامِ مهفهفٍ ... أزرى بغصنِ البانِ لينةَ قدِّهِ
فى فيهِ تصحيفُ اسمه وبخدّه ... وبلقبِ عاشقِهِ لشدَّةِ صدّهِ

وفيه أيضًا:

اسم الذى أنا أهواه وأعشقه ... وطولَ دهرى أخشَى من تجنّيهِ
تصحيفه فى فؤادى دائمًا أبدًا ... يبدُو وفى خدّه أيضًا وفى فيهِ

فى ساقية:

وجاريةٍ لولا الحوافرُ ما جَرَتْ ... أشاهدُها تجرى وليس لها رِجْلُ
وتَرضِعُ أطفالا ولا هى أمُّهم ... وليسَ لها ثَدىٌ وليس لها بعلُ

وفيها أيضًا:

وجارية تبكى إذا الليل جَنّها ... بلا ألمٍ فيها ولا ضَرْبِ ضاربِ
عليها رجالٌ شنّقوا بعد حرقهم ... وما كان شَنْقُ القومِ إلا بواجبِ

فى زرّ وعروة:

ومـا أخـتٌ يُجامِعُهـا أخوهـا ... وليس عليهما فِيه جُناحُ
تـرى بجـوازه الحكـامُ طـرًّا ... وفـى أعناقهم ذاكَ النكاحُ

فى راوية(١) :

وسوداءَ تشـربُ مِـنْ رَأسِـهَا ... وإن شئتَ تَسْقِيَك مـن فـرد يَـدْ
ولـونٌ لهـا مثـلُ لـون أختهـا ... وثنتاهمـا واحـدٌ فـى العـدَدْ
وتحبـلُ فـى الوقـت هـى وأختهـا ... وفـى سـاعةٍ يضعـان الولَـدْ

فى الشطرنج:

يـا ذا النهـى مـا اسمٌ لـه حالـةٌ ... يحـارُ فيهـا الذهـنُ والفكـرُ
لـه حـروفٌ خمسـةٌ إنمـا ... ثلاثـةٌ منهـا لـه شـطرُ

فى فيل:

أيمـا اسـمِ تركيبُـه مـن ثـلاثٍ ... وهـو ذو أربـعٍ تَعَـالى الإلـهُ
حيـوانٌ والقلـبُ منـه نبـاتٌ ... لم يكُـنْ عنـدَ جوعِـه يرعـاهُ
فيـكَ تصحيفُـه ولكـن إذا مـا ... رَمَـتْ عكسًـا يكـونُ لى ثلثـاهُ

فى بجع:

مَـا طَـائرٌ فـى قلبِـهِ ... يلـوحُ للنـاسِ عجَـبْ
منقـارُهُ فـى بطِنـهِ ... والعـينُ مِنْـهُ فـى الذنَـبْ

فى نار:

ومـا اسـم ثلاثـىٌ بـه النفـعُ والضـرر ... لـه طَلعةٌ تغنى عـن الشّمس والقمَـرْ
وليـس لـه وجـةٌ وليـس لـه قَفَـا ... وليـس لـه سَـمْعٌ وليـس لـه بَصَـرْ
يمـدّ لسـانًا يخنشـى الرمـحُ بأسَـه ... ويهـزأ يـومَ الضـرب بالصـارم الذكَـرْ
يمـوتُ إذا مـا قُمْـتَ تَسْـقيه عـامِدًا ... ويأكلُ ما يلقـى مـن النّبْـت والشَـجَرْ
فيـا قـارىءَ الأبيـاتِ دونـك شـرحُها ... وإلاّ فَنَـمْ عنهـا وَنَبِّـهْ لهـا عُمَـرْ

وفيها أيضًا:

وآكلـةٍ بغـيرِ فَـمٍ وبطـنِ ... لهـا الأشـجارُ والحيـوانُ قـوتُ
إذا أطعمتَهـا انتعشَـتْ وعاشَـتْ ... وإن أسـقَيْتَها مـاءً تمـوتُ

فى يد الهاون:

قـل لى فمَـا شـىءٌ يُـرَى ناعمًـا ... منتصـبِ القامـة طـولَ الزمـانْ
أطـولَ مـن شـبرٍ لـه حـزّةٌ ... مفيشـل الـرأس قـوىُّ الجنـانْ
يسـمعُ فـى القعـرِ لـه رَنّـةٌ ... ويظهـرُ الصفـقَ بـأعلى مكـانْ

(١) إناء جلدى يوضع فيه الماء.

وفيه أيضًا:

خبِّرونى أىُّ شىء ... أوسعَ ما فيه فمه

وابنَه فى بطِنه ... يرفسُه ويلكمه

وقد علا صياحُه ... ولم يجد مَنْ يرحمه

فى خشخاش:

وما قبةٌ مبنيَّةٌ فوقَ شاهقٍ ... لها علم يحكى الملاحةَ بالظرفِ

وأولادُها فى بطنها فى جماعةٍ ... يكونون ألفًا أو يزيدون عن ألفِ

ويأخذَها الطفلُ الصغيرُ بجهلِهِ ... ويقلبها عفوًّاى راحةِ الكفِّ

فى كوز زير:

وذى أذنٍ بلا سَمْعٍ ... لَه قَلّبٌ بلا لبٍّ

إذا استولى على صبّ ... فقلْ ما شئتَ فى الصَّبِّ

فى اسم على:

اسم الذى أعشقَه ... أوّله فى ناظره

إن فاتنى أوّلَه ... فإن لى فى آخره

فى موسى للصفدى:

وما شىءٌ له حدٌّ وخدٌّ ... يلكمُ من يلامسه بحقَه

وكلّ حلقه من تحتِ رأسى ... وهذا الرأسُ صارت تحتَ حلقه

فى حَلَب لابن الفارض رحمه الله تعالى:

ما بلدةٌ بالشام قلبُ اسمها ... تصحيفَه أخرى بأرض العجمِ

وثلثَه إن زال من قلبه ... وجدته طيرا شجى النغمِ

وقال فى سمرقند:

وما اسم سداسىٌّ إذا ما لمحتَهُ ... ترى فيه أجزاء تذمُ وتشكرُ

له ثلثٌ يأتى به الموت فجأة ... وثلثٌ مع الكتاب يُطوى ويَنشرُ

وثلث رعاكَ اللّه يا صاحبى له ... على مدِ الأيامِ نَشرٌ مِعْطرُ

وفى نصفِه لما تحرَّكَ بعضُهُ ... حديثٌ شهىٌّ فى الليالى يذكرُ

وفى نصفِه الثانى إذا ما أعَدْتَهُ ... إلى النارِ للتحليلِ والعقد سكرُ

ففسِّرْ لنا ذا اللغزَ إن كنت ذا حجى ... فليس على ذى العقل لغزٌ مُعْسِرُ

وقال فى كمون:

يا أيها العطارُ أعربْ لنا ... عن اسم شىءٍ قَلَّ فى سومِك

تراه بالعين فى يقظةٍ ... كما ترى بالقلب فى نومِك

وقال فى قالب الطوب:

وما آكل فى قعدةٍ ألفَ لقمةٍ ... ولقمتَه أضعافُ أضعافِ وزنه

إذا أنزلَ المأكول جنْبيه لم يقمْ سوى لحظةٍ أو لحظتين ببطنه

فى العين:

وباسطةٍ بلا عَصَبٍ جناحًا وتسبق مَا يَطيرُ ولا تطيرُ
إذا ألقمتها الحجرَ اطمأنت وتجزعُ أن يباشرَها الحريرُ

ويكفى من ذلك ما أشرت إليه، وما نبهت من هذا الفنّ عليه، وقد مضى القول من الفنون السبعة على فنّ الشعر القريض، وما فيه من الفنون المتقدّم ذكرها.

ولنذكر إنشاء الله تعالى بقية الفنون السبعة على وجه الاختصار. والفنون السبعة المذكورة عند الناس، هى: الشعر القريض، والموشح، والدوبيت، والزجل، والكان وكان، والقوما، ومنهم من جعل الحماق من السبعة، وفى ذلك اختلاف. وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبدًا، لا يغتفر اللحن فيها، وهى الشعر القريض، والموشح، والدوبيت، ومنها ثلاثة ملحونة أبدًا، وهى الزجل، والكان وكان، والقوما. منها واحد وهو البرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وهى المواليا، وقيل لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة، وبعضها ملحونة فإن هذا من أقبح العيوب التى لا تجوز وإنما يكون المعرب منه نوعًا بمفرده، ويكون الملحون فيه ملحونًا، لا يدخله إلا الإعراب، وقد أوضح قاعدة الجميع وأمثلتها صفى الدين أبو المحاسن الحلّى فى ديوانه وسماه: بالعاطل الحالى، والمرخص الغالى، ولو بسطت المقال لاتسع المجال، وكثر القال، ولكن الاختصار يذهب الأوجال، والحمد للّه رب العالمين على كل حال.

فصل فى بيان الفن الثانى وهو الموشح

لابن مبارك:

قد أنحل الجسم أسمر أكحل وأوحل القلب فيه مُذْ حلّ

دور:

أميلُ لَهُ فلا يميل يحول وعنه لا أحول
أقول إذا زادنى النحول
أما حل عقد الصدود ينحل ويرحل عن نجم المزحل

دور:

كم أبعد وكم أبيتُ مكمد ويعمد بهجره لا فقد
وأجهد لارتصاد من قد تحمل والحاسدون رحل
تمحل والوعد منه ما حل

دور:

مُتَوَّجُ بالحُسن هَذا الأبلج[1] مدبج عذاره البنفسج
مفلج وطرفه ذا الأدعج[2] مكحل وثغره منحل
مخلخل بعنبر معجل

---

(١) أى: الأبيض الحسن الوجه.

(٢) أى: شديد السواد.

دور:

برغـــم مـــن يســـتحل ظلمـــى ويرمـــى بحرْبِـــه لِسِـــلمى
وجســـمى مـــن الـــتزام ســـقمى منحـــل وقـــد غـــدا مرحـــل
فمـــــن حـــــلّ ســـــفك دمـــــى ومـــــا حـــــل

دور:

قلانـــى واشـــتط ذا الفلانـــى غزانـــى بطرفـــه اليمـــانى
ترانـــى أنشـــد لمـــن يرانـــى قـد أنحـل الجسـم أسمـر أكحـل
وأوحـــــل القلـــــب فيـــــه مذحـــــل

لابن سناء الملك:

كللى يا سحبُ تيجانَ الرُبَا بالحلى واجعلى سوارك منعطـف الجـدول

دور:

يا سما فيك وفى الأرض نجوم وما كلما أخفيت نجما أظهرت أنجما
وهـــــى مـــــا تهطـــــل إلا بـــــالطلى والدمـــــا
فاهطلى على قطوف الكرم كى تمتلى وانقلى للدنّ طعم الشهد والقرنفل

دور:

تقـد كـالكوكب الـدرىّ للمرتصـد يعتقـد فيهـا المجوسـى بمـا يعتقـد
فـــائتد يـــا ســـاقى الـــراح بهـــا واعتمـــد
وامل لى حتى ترانى عنك فى معزل قل لى فالراح كالعشق إن يزد يقتل

دور:

لا أليم فى شرب صهبا وفى عشق فالنعيم عيش جديد ومدام قديم
لا أهيـــم إلا بهذيـــن فقـــم يـــا نديـــم
واجل لى من أكؤس صيرت من فوفل ألـذّ لى من نكهة العنبر والمندل

دور:

خذهنى واعطنى كاسى مثل كأسك وأشقنى على رضاب الفطن الملسن
والهنـــى ببعـــض مـــا صيـــغ مـــن الألســـن
لو تلى مدح سناه مع رشا أكحل لـذ لى على سنا الصهباء والسلسل

دور:

أزهرت ليلتنا بالوصل مذ أسفرت أصدرت بزورة المحبوب إذا بشرت
أخـــرت فقلـــت للظلمـــاء مـــذ قصـــرت
طولى يا ليلة الوصل ولا تبخلى وأسلى سترك فالمحبوب فى منزلى

دور:

من ظلم فى دولة الحسن إذا ما حكم فالألم يجول فى باطنه والندم

والقلـــــم يكتـــب فيـــه عـــن لســـان الأمـــم

مـن ولى فـى دولـة الحسـن ولم يعـدل يعــزى لألحــاظ الرشــا الأكحــل

وله أيضًا:

تـرى هـل يشـتفى منـك الغليـل ويشـفى مـن صبابتـه العليـل

دور:

لقـد أسرفت فـى هجـرى وصـدى بـلا سـبب سـوى كفـى ووجـدى

ومـــاذا فـــى ســـلوّ عنـــك يجـــدى

خضـاب الوجـد ليـس لـه نصـول وأسـياف الهـوى فينـا تصـول

دور:

لئـن شـحيت عنـى بالسـلام وطيفـك قـد جفـا لجفـا المنـام

فقـــد جـــادت بأربعـــة ســـجام

جفـون بالبكـا كـادت تحـول علـى خـد أسـفً بـه النحـول

دور:

لقـد أرسـلت فـى طـى النسـيم حديث هـوى عـن الوجـد القديـم

فعـــادت وهـــى عـــاطرة الشـــميم

تخـبر أن ظعنهـم نـزول بـدار لا يـام لهـا نزيـل

دور:

تلقتـه المـوالى والمـوالى بألحـاظ وزرق مـن نصـال

وأعطـــاف وســـمـــر مـــن عـــوالى

فكـم بطـل هنـاك وكـم قتيـل بسـيف مـن لواحظـه قتيـل

وله أيضًا:

شمـس المحيـا أم القمـر أم بـارق الثغـر يـا بشـر

أم البهـا حفـه الخفـر بطـرز خديـك مسـتطر

سلسلة:

قـــم تباهـــا بمـــا تباهـــا ولا تلاهـــا

قفلة:

فكـل أحبابنـا حضـروا والعـود يشـجيك والوتـر

الدور:

أفديـك بالسـمع والبصـر يـا أهيـف وصلـه وطـرى

بـدر بـدا فـى دجـى الشـعر قـد لـذ فـى حبـه سـهرى

سلسلة:

إذا تجلـــى وقـــد تحلـــى عليـــك يجلـــى

قفلة:

تحـــير فـــى وصفــــه الفكـــر ... والعقــــل والســـمع والنظـــر

الدور:

فهـــاك حـــدّث عـــن الطـــرب ... وعـــن ســـلاف ابنـــة العنـــب

إذا ســـقاها مـــع الضـــرب ... بـــدرٌ بـــأفق الجمـــال ربـــى

سلسلة:

فـــى ظـــل بـــان علـــى المثـــانى[١] مـــن غـــير ثـــانى

قفلة:

إلا الندامـــــى إذا ســـــكروا ... والـــروض والمـــاء والشـــجر

وقال رحمه اللّه تعالى:

وانســـيم الســـحر هـــل لـــك خـــبر ... عـــن عريـــب[٢] همـــو بـــالمنحنى

فـــارقونى ولم أقـــض الوطـــر ... مـــن لقـــاهم ولا نلـــت المنـــى

قلـــت يـــا قلـــب صـــبرا مـــا صـــبر ... والنبـــى مـــا الهـــوى إلا عنـــا[٣]

مـــا كتمـــت الهـــوى إلا ظهـــر ... مـــن شـــهود المدامـــع والضنـــى[٤]

دور:

ليـــش تمنـــع وصـــالك يـــا حبيـــب ... عـــن محبـــك ولا يعشـــق ســـواك

راقـــب اللّـــه وراجـــع مـــن قريـــب ... قبـــل يبلـــى جســـمه فـــى هـــواك

لســـت ألقـــى لدائـــى مـــن طبيـــب ... غـــير رشـــفى حبيبـــى مـــن لمـــاك

لـــو رأى حـــالى العـــاذل عـــذر ... حينمـــا ينظـــر جمـــالك والســـنا

دور:

يـــا قمـــر فـــوق غصـــن مـــن نقـــا ... أثختنـــا مطـــالك والصـــدود

يـــا رعـــى اللّـــه لويـــلات اللقـــا ... ليتهـــا يـــا خـــلّ يومًـــا لى تعـــود

ليلـــة الســـعد مـــا فيهـــا شـــقا ... كيـــف تشـــقى وطالعهـــا ســـعود

صفوهـــا لا يمازجـــه كـــدر ... بالمســـرّات وأوقـــات الهنـــا

غيره:

حملـــت مـــذ ســـارت الحمـــول ... وجـــدا مضـــى العمـــر وهـــو بـــاقى

دور:

ســـاروا وســـار الفـــؤاد لكـــن ... جســـمى مقيـــم علـــى المســـاكن

وعنـــــــى الحـــــــب صـــــــار ظـــــــاعن

مـــالى إلى وصلـــه وصـــول ... لـــو ســـرت بالـــبرق والـــبراق

---

(١) المثانى: ثنايا الوادى.

(٢) عريب: أحدهم أو هى «غريب».

(٣) عنا: ذل وخضوع.

(٤) الضنى: السقم.

دور:

وغـــادة كـــالقضيب قـــدا والـــورد واليـــاسمين خـــدّا
كأنهــــا البــــدر إذا تبــــدّى
وشـــعرها أســـود طويـــل كأنـــه ليلـــة الفـــراق

دور:

هَوْنَـــا أتتنـــا تميـــل ميـــلا ســـحابة كالســـحاب ذيـــلا
فقلـــت شمـــس تـــزور ليـــلا
ومـــا درى كاشـــح عـــذول فـــذاك مـــن أعجـــب اتفـــاق

دور:

وســـدتها ســـاعدى لســـعدى وبـــتّ أرعـــى ريـــاض وردى
وخمـــر ريـــق كـــذوب شـــهد
لـــو ذاقهـــا مدنـــف عليـــل لعـــاش والـــروح فـــى الـــتراقى

دور:

لمـــا رأتنـــى أذوب ســـقما ومـــن ورد الرضـــاب أظمـــا
قـــالت كلمـــت الخـــدود لثمـــا
مـــا يشـــتفى منـــك ذا الغليـــل بغـــير نومـــى وشـــيل ســـاقى

فصل فى الفنّ الثالث وهو الدوبيت

لسيدى شرف الدين بن الفارض رحمه اللّه تعالى:

أهـــوى قمـــرا لـــه المعـــانى رقّ مـــن صبـــح جبينـــه أضـــاء الشـــرق
أتـــدرى باللّـــه مـــا يقـــول الـــبرق مـــا بـــين ثنايـــاه وبـــين فـــرق[(١)]

وقال أيضًا:

أهـوى رشـأ كـل الأسـى لى بعثـا مـذ عاينـه تصـبرى مـا لبثـا
نـاديت وقـد فكـرت فـى خلقتـه سـبحانك مـا خلقـت هـذا عبثـا

وقال أيضًا:

عـرج بطويلـع[(٢)] فلـى ثَـم هُـوَى واذكـر خـبر الغـرام واسـنده إلىّ
واقصص قصصى عليهـم وابـك علىّ قل مات ولم يحظ من الوصل بشىّ

وقال أيضًا:

روحـى لـك يـا زائرًا فـى الليـل فـدا يـا مؤنـس وحدتـى إذا الليـل هـدا
إن كـان فراقنـا مـع الصبـح بـدا لا أسـفر بعـد ذاك صبـح أبـدا

(١) فرق: أى لا فرق بين أسنانه والسنَا.
(٢) طويلع: موضع.

وقال آخر:

يـا شمـس ضحـى جبينــه وضــاح ... ســاعات وصــالك كلهـا أفــراح
عشـاقك لـو فعلـت مـا شـئت بهـم ... مـاتوا كمـدا وبـالهوى مـا بــاحوا

وقال آخر:

أهــواه مهفهفـــا ثقيـــل الـــردف ... كـالبدر يجـلّ حسنه عـن وصـف
مـا أحس واو صدغــه حـين بـدت ... يـا ربّ عسى تكون واو العطـف[1]

وقال التلعفرى:

قلبـــي ذهبــت لبعدكـــم راحتـــه ... مـا الصـبر علـى بعـادكم عادتـه
بتســم فرثـــي لمـــا بـــه شـــامته ... لا كـــان فراقكـــم ولا ســـاعته

وقال المنشد:

إحســانك طـول الدهــر لا أنســاه ... لا أذكـــر بعـــد خـــالقى إلاّهُ
إن أبعــدك الزمــان عنــى حســدا ... مـــولاى خليفتـــى عليــك اللّـــه

وقال آخر:

إن جئت ربـا الحمى ولاحـت نجـد ... فـاذكر ولهـى ومـا جنـاه البعـد
وقد كنت أقاسى الصدّ حتـى رحلوا ... يـا ليتهـم عـادوا وعـاد الصـد

فصل فى الفنّ الرابع وهو الزجل

حمل للغبارى:

قــــل لغــــزلان وادى مصــــر والشـــام يقصــــر وإذا النفــــار
لهــــم اجعــــل حشاشـــتى مرعـــى وفـــؤادى قفــــار

دور:

مصـــــر والشـــــام فيهــــا مـــــلاح أقمــــار بالمحاســــن تســــود
ذا أبيض وذا أحمر وذا مليـح أسمر لـو عيـون نجـل ... وذا غزال صار يفوق على الغزلان ويصيد الأسـود
وذا غصن بان أهيف قوام قد وقدّ الأغصان جهـار ... وذا بدر الكمال قد ظهر فى الليل وذا شمس النهار

دور:

تـــدر باللّـــه أيـــش قــــالت مليــــح الشـــام بعـــد، ذاك الصـــدود
قـد سمينـا بصحـة الأبـدان واعتـدال القـدود ... وتخضب تفاحنـا الأحمـر فـوق بيـاض الخـدود
وأنتـم يـا عشـاق لكـم قلنا والحسـود راح بنـار ... أنتـم التفـاح ومـا نقصـد منكـم إلا الخيـار

دور:

ومــــلاح مصـــر قـــالت إحنـــا أصحــــاب الوجـــوه المـــلاح
والحلاوة وطيبـة الأخـلاق فـى الخلائـق مبـاح ... إحنـا أقمـار وإحنا بـدور الليـل وشمـوس الصبـاح

---

(١) واو العطف: الجمع بيني وبينه.

وفى الألفاظ والظرف والمعنى ليس لنا حدّ صار وورثنا الحسن من يوسف واكتسبنا الفخار

دور:

حسن حبى الفراحى فرحه بدر فى السعد لاح
فرخ ناجب خرج من القشرة فاق ملاح الملاح كلما أعمل على رضاه يفسد بجفاه الصلاح
ومن البيضة قد خرج نافر رد جفنى بنار وجفانى وخد بياض جسمى خلطوا بالصفار

دور:

وقع الطل خط بالأبيض فى اخضرار الطروس
قم يا ساقى على بساط زهرى تحت ظلّ الغروس هاتها شمس راح شمول قرقف بكر عذار عروس
عروس لها صفو النسيم ولطف اللمى وابتهاج قد جلوها فى كأس زجاج أبيض فاكتسى باحمرار

دور:

خمر فيه سرّ لو جعل أسياف ردّ الأعمى بصير
أقطع القطف أسود يحاكى الليل شفق أحمر يصير يا ترى ذا السرّ فى كرمه أو يكون فى العصير
وترى النور دا عليه يلمح ذاك من أيش استنار وكذا الكأس يحاكى يا سمير من كساء جلنار

دور:

فهو عطار عندو شراب هندى وبرانى جفاه
كلّ من مص من لسانو ريقو يلتقى فيه شفاه ورد خدو وحبتو سودا شبه خال فى صفاه
جبل آس عارضوا أسر قلبى والكبار والصغار فى المحب غاروا على حسنو وكل من حبّ غار

دور:

دوّرونى الملاح على كعبى ونصوا نصوص
بلا دعوى التفّ لفّ اليسير فى هواهم خصوص وعليا صار نقشهم قاعد مثل نقش الفصوص
والبساط انطوى حين ما رأوا حلف له همه ولو قمرونى فى عشق هذا القمر والمحبة قمار

دور:

لحبيبى ثغر من جوهر والشفيفات عقيق
وعوارض ما ضرّهم عارض غير نبات الشقيق وخدود ورد من غير غمش ووصفنا عن حقيق
يحرس الورد خال عنبر تحت أهداب غزار فى صفاء وجهو أنزه طرفى عند خلع العذار

دور:

فى رياض صفوف من الأزهار قابلتها صفوف
كيف لا ترقص والنسيم بها موصول ورقها دفوف واعجب من النهر إذا سفق لو من الموج كفوف
والغيوم نقطت وحين جا النسيم طار أعلى مطار باختلاف الألحان سحر فى الروض صاح على

دور:

أشرف الخلق بين الإسلام والهدى والضلال
والشرائع حق والباطل والحرام والحلال نبى من بين أصابعه تحقيق نبع الماء الزلال
ولو أن النبات جميعه أقلام والمداد والبحار والخلائق تكتب مديحو تاه كل كاتب وحار

دور:

أســـــتاذ فـــــى الفــــن مـــــا ينطـــــاق ذاق عِــــداه المنـــــون

ما يعيبوا فى الفن غير ناقص عقل زايد جنون	شيخ مصدر لبيب قيم فى جميع الفنون

باتضعو مع الصغار مرفوع فوق رؤوس الكبار	وأهل الفنون تجرى وما تلحق للغبارى غبار

غيره لناصر الغيطى:

كنز روضى طالبوا يسعد يا خليع قم فى دجى	تلتقى در الندى يرهج فوق فصوص غرائب النوار

دور:

كـــنز روضـــى نزهـــة الطـــالب جوهـــر وبـــين النـــدى يرهـــج

ولجين الما بتيكسر يا خليع هيا تعا اتفرج	بين عنابر تلتقى الخلع كل حد مع إلفو يدرج

وامش فى عرض الرياض وارتع بين أغصان وما	فوق بساط زمرد وقضبان كل ورد أحكت لنا

وتـــرى اليـــاسمين بحـــال فضـــه ضربـــت لأهـــل الـــنزه صلبـــان

دور:

والشحارير لابسين أسود وقلانس كنهم رهبان	وكذا الكتان وهو أصفر بعمائم زرق للناس

وانجلت بين القسوس فى ألحان وعلينا دارهـا	والقطيع الراهبى يحكى الشماس لابس الزنار

دور:

الفـــراق نـــار والوصـــال جنـــة والخلائـــق بعضهـــم يعشـــق

دا حبيب قلبو عليه راضى ودا محبوبو عليه يشفق	ولهيب الهجر يتوقد والوصال من الملاح يشتق

والمليح عندى وأنا مطمن وسط روضا زهرها	فى نعيم مع حور ومع ولدان والعذول مسكين

دور ناصر الغيطى:

وعمـــل فـــى الـــروض سمـــاع بـــاكر بـــين الأغصـــان والزهـــور أنغـــام

والنسيم شيب والغدير صفق والخليع من كثر	والنخيل بأكمامها ترقص وأقبل الريحان بحال

والعصافير شيخهم زيق لو طريق بين الأزاهر طار	والبلبل بالغنا يشجى فكأنو ناى أو مزمار

دور ناصر الغيطى:

يـــا أحلـــى صحبـــت إنســـان أنكـــر الصحبـــة وعـــادانى

وبغضنى حين بقيت مسمى والإله بالفضل أسمانى	فى بلاد قبلى وأرض الشام يشكرونى ساير أقرانى

والشجيع الشاطر المذكور فى جميع الأرض لو	والبلط يوقع لو تعلق ما يحصل شئ مع الشطار

للغبارى:

جاز حبيبى فقلت ذا الحجاج جا يجور أو يزيد	لو عدل عشت بو مسرور ويكون الرشيد

دور:

اقلـــع القلـــب فـــى هـــوى العشـــاق والدمـــوع فـــى انحـــدار

وبحور الهوى إذا هاجت ليس لها من قرار	كنت أحسب قلبى معو ريس غرتو ذا البحار

صحت لما وحلت يا محبوب بحر عشقك يزيد	خفت فيه الغرق فقال أفرح من غرق مات شهيد

دور:

أنـــــا يــــــوم فــــــى الغبـــــوق بـــــاتفرج علــــــى شــــــط الغديــــــر

إذ رأيت على الشط واحد واقف شب صياد صغير　　نظـرت مقلتـى إلى منظـر مـا لحسـنو نظـير

قلت يـا عـين إن غـرّك الصياد بالجمال المصيـد　　يوقعك فى فخـاخ شباك عشـقو وكراكـى يصيـد

دور:

مـــــن نحبـــــو جديـــــد حبيـــــب قلبـــــى يـــــوم صدفتـــــو صـــــدف

قلت لين يا قاسـى لمـن دمعو سـال وحـالو وقـف　　دار وقال لى ما الاسم بالانجيل قلـت اسمى خلـف

قال علينا يكتـب ومـن يسـمع ذا الكـلام يستفيد　　فى الحقيقة من لا يكون داود مـا يلين لـو الحديـد

دور:

لـــــك عـــــوارض فـــــى الخـــــدّ مرقومـــــه ليـــــس لهـــــا مـــــن مثـــــال

وجفاك صار حماق وباب وصلك كـان وكـان يا　　وأنـت دوبيت موشح القاما يـا عزيـز الـدلال

ولـك ألفـاظ صـارت مواليـا بـالزجل والنشـيد　　وبشـعرك متـوّج القامـا وأنـت بيـت القصيـد

دور:

عـــــن محـــــرم شـــــرابنا ضمنـــــا ونفطـــــر بالثمـــــار

حين وجدنـا سفرجل البستان يذهـب الاصفرار　　وغنـا الطير بـه الجمـاد يطـرب وكـذا الجلنـار

فى ربيع حين رأى الثمـر قـاعد فيـه تعاليق عقيـد　　حسـب الروض النص مـن شعبان صـار يقيـد فيـه

دور:

مـــــن لهيـــــب مدمعـــــى جـــــرى الطوفـــــان للّهيـــــب مـــــا طفـــــى

وأنا هوى الغبارى فى العشـاق مـا جـرى لى كفـا　　حـين عليـا بـالصدّ والهجـران والبعـاد والجفـا

جار حبيبى فقلـت ذا الحجـاج جـا يجـرر أو يزيـد　　لـو عـدل عشـت بـو مسـرور ويكـون الرشـيد

غيره:

حـــــين ســـــكنت القلـــــب يـــــا عيســـــى أمســـــى مـــــن بعـــــدك الحـــــزن فرحـــــان

وتقـــــدّس بـــــك ولكنـــــو مـــــا جـــــرت فيـــــه يـــــا ابـــــن عـــــين ســـــلوان

دور:

عـــــارضو لم عشـــــق خـــــدو غـــــرت مـــــن وجـــــدى بقيـــــت حـــــاير

جيت إلى طرفو وناديت لـو أحرسو وكـون عليـه　　بعد حين نظرت فى خدو النقى العارض وهو داير

وعليـه قـد دب بالسـرقه جيت لطرفـو قلـت يـا　　هكذا فى عادة الحراس قال لى اعذرنى أنـا نعسـان

دور:

بـــــدر شـــــعبان منيـــــى لمـــــا فـــــى بـــــروج الســـــعد لاح نجمـــــو

فقلت لو أقضـى بغيـض أطلقـوا واجـراه علـى رسمـو　　قلت لو دام اللّه إطلاقك فالحزين قلبو المشـوم قسمو

ايش قد أذنب حين قطرتـوا دا بمغلـط قـول بالبهتـان　　قالى صوم عن الوصال ناديت ليش أصوم يا بدر فـى

دور:

حـــــين تدبـــــح احمـــــرار خـــــدّو بـــــاخضرار العـــــارض أســـــبانى

ضحك فابيض واتبسم واسوداد شعرى وأبكانى وحين أضحيت باصفرار لونى أشعت أغبر فى هواه
قال لى لونك قد صبح حايل وقد أبصر مدمعى ذقت تبريح الغرام ناديت فى هواك ذقت الهوان ألوان

دور:
قلت لو حين عنى تخلف للّه كن لى يا رشيد مهدى
قد تلون دمعى من بعدك وتجرى اليوم على خدى دار إلى إنسان مقلتى قال لو أنت ما عندك نظر
ما ترى ما قد جرى منك على الخدود قال يا فتان جرى الماء تحت من بعدك راقب اللّه فيّا يا إنسان

دور:
ذا الغزال النافر الأنسى للغزالة قد أعار النور
كسر قلبى كسير جفنو فاعجبوا للكاسر المكسور وبخمر الدن قد عربد وادّعى أنى أنا المخمور
وابتسم لى عن نقا ثغرو وخطر والبشر فيّا بان صحت يا قلبى صفا وردك أنت ما بين النقا والبان

للصفى الحلّى:
أنا يا قبلة الكرام زينة المال والبنين
اللّه يعطيك فوق ذا المقام ويعيدك على السنين

دور:
أنت يا شاما بين الأنام اللّه يحرس شمايلك
ويزيدك بالدوام كى نعيش فى فواضلك ما ينطوى ذكر الكرام لما تنشر فضايلك
ونهنيك لكلّ عام والخلائق تقول آمين قد بقينا بك فى أمان اللّه يحييك طول السنين

دور:
ما رأينا تحت ذا الفلك من ندى كفك أعمّ
كل من جا ليسألك ليس تقول له سوى نعم أملك أنت أو ملك ضاعف اللّه لك النعم
أنت في الجود كالغمام وسماك فوق ماردين درّ غيثك فى انسجام عمّ كل السائلين

دور:
لا عدمنا كل صوم ذا السحور فيك والهنا كل ليلة وكلّ يوم ينشر الذكر والثنا
اللّه يحييك من خير قوم بالغ القصد والمنى
حتى تقضى ذا الصيام ويليه باقى السنين وتعيش يا ذا الهمام بين ولدان وعين

وغيره:
خال عبد الرحيم نقطة حبر من غير قاف ولام وميم ثغر معشوقى الفتان نون وعين
شال السعد فوق راسو عين ولام وميم دا للى قد هواه قلبى صاد وبا ويا
مليح ما رأيت مثله ظا وبا ويا ما أحلاه عندما يلبى قاف وبا يا
ذقت من صدود حبى غين وصاد وصاد ولما رأيت صبرى نون وقاف وصاد
النوم من جفون عينى خا ولام وصاد وأصبحت وجود فكرى عين ودال وميم
قلت يوم لمن كان لى سين ونون ودال أعدل فى الذى صبر ونون وفا ودال

ولا تهجـر العشـاق بـا وعـين ودال | مـا أفلح قط يا ناس من طـا ولام وميـم

جمل فى الألغاز المطلع فى العين

ومـا طـير أكلـو الحجـر يـا كـرام | وجوهـر حبابـه يفسـد أهـل الصـلاح
ولمـس الحريـر يؤذيـه وريـش النعـام | يصول بين جناحين سود كبيض الصفاح

دور فى السراج:

ومـا بحر مـا هـو مـا وفـى الليـل يزيـد | وينقـص ولا هـو خـوض ولا هـو غريـق
وفيه شئ صفات حية بلا وكـر استفيد | لهـا جوهـرة فـى فمهـا يـا رفيـق
بـلا شـك ينظـره القريـب والبعيـد | ويخفـى ويظهـر كـلّ يـوم عـن حقيـق
يغيـب فـى النهـار لكـن إذا جـا الظـلام | تشـوفو يضـئ بـين الوجـوه الصبـاح
ويسـهر بحـال عاشـق حليـف الغـرام | قتيـل الهـوى بـين الربـا والبطـاح

دور فى جوزة الكنافة:

ومـا هى التى تركـب علـى ستين ألـف | ومـا مثـل ذاك فسـر لنـا يـا خبـير
مليحـة وقصيفـة وتلبـس تـرف | وتحمـل وتوضـع كـل يـوم فـى السـعير
لهـا عشـرة أعـوان حـالهم مختلـف | يشـيلو أودهـا الكبـير والصغـير
لهـا فحـل يخدمهـا عليـه السـلام | يجـادى سـراها فـى المجـى والـرواح
وأكـثر تعبهـا فـى ليـالى الصيـام | وذا اللغـز قلتـه مـن غـير مـزاح

دور فى الغربال:

ومـا هـو الـذى يـا سـعد كلـه عيـون | ولا يعلـم ضـوء الظـلام والضيـا
وهـو بـين خشـب مصلـوب لتلـك الفتـون | وميـت وهـو يحيـى أصـول الحيـا
إذا غـاب عـن أهلـه فـرد يـوم مـا يهـون | ولا حـدّ يعـوّض موضعـه لـو عيـا
وكـم مـن رقيـص فـى صنعتـه باهتمـام | مكـابد عجاجـه فـى المسـا والصبـاح
ويحتـاج لـه النـاس كـل يـوم فـى الـدوام | علـى شـان فنونـه دول فنـون مـلاح

فصل فى الفنّ الخامس فى الموالیا

وله وزن واحد، وأربع قوافي، فمن تلك الأربعة واحد لصفى الدين الحلى:

يـا طـاعن الخيـل والأبطـال قـد غـارت | والمخصـب الربـع والأمـواه قـد غـارت
هواطل السـحب من كفيـك قـد غـارت | والشـهب مـذ شـاهدت أضواك قـد غـارت

وقال أيضًا:

سـل مقلتيـك الكحـال عمـن سلاسـلها | ومرشـفيك مـن رشـف منهـا سلاسـلها
وعـارضيك التـى مـدّت سلاسـلها | كـم مـن أسـود ضـوارى فـى سلاسـلها

وقال آخر:

قـد أوعدونـا الغضابـا أننـا نخلـو | فـى ظـلّ بسـتان حـافف بـالتمر نخلـو

والطـلّ مـن فوقنـا قـد بلنـا نخلـو ومـن كـلام الأعـادى قـط مـا نخلـو

وقال آخر:

قسـمًا وباللّـه مفرّقهـا وجامعهـا ومـن أمرنـا بمسـجدها وجامعهـا
لـو حـل مـع بغيتـى عـايد وجامعهـا كـان افتـتن فـى محاسـنها وجامعهـا

ومن اثنين واثنين قال آخر:

قـوم اسـقنى مـا تبقـى فـى أبـاريقو أمـا تـرى الصبـح قـد لاحـت أبـاريقو
مـع شـادن كلمـا دارت شـفاريقو سـقى المدامـا وإن عـزت سـقى ريقـو

وقال:

البارحـة ريـت بعينـى فـى الدجـاجيين اثنـين مثـل البـدوره فـى الدجـى جيـين
نـاديتهم فـين كنتـم يـا خفـاجيين قـالوا لمـن قـد وعدنـا فـى الخفـاجيين

وقال:

قد زدت هجرك فجد بالعفو عن صبك وارحم خضوعى وخف فى قتلى ربك
يكفيك بهجر تكدر قلب من حبك ما ظنّ فى الناس أقسى قلب من قلبك

غيره حمرى عاطل:

كـاس الطـلا لطلاهـا طـال لمـا سـار وصـار لمـا حـوزى حمـراء مكلـل در
مـدام لـو طعـم كلـه حلـو مـا هـو مـر مـا حـلّ مملـوك إلا صـار ملـك حـر

غيره حربى:

لك يا إمام الوغى فى كل موقع حرب سماع يطرب له السامع وينفى الكرب
هـذا ولـك كلمـا دارت رحـاة الحـرب سـيوف تفنـى وكفـك لا يمـلّ الضـرب

الصفى الحلى فى المدح:

أغنت وأقنت كفوفك فى الندى والحرب فى القرب والبعد فى شرقها والغرب
وفيض جودك وسيفك بالعطا والضرب ذا الكرب فرج وهذا وقد رمى فى الكرب

وقال أيضًا:

مـن قـال جـودة كفوفـك والحيـا مثلـين أخطـأ القيـاس وفـى قولـه جمـع ضدّيـن
مـا جـدت إلا وثغـرك مبتسـم يـا زيـن وذاك مـا جـاد إلا وهـو بـاكى العـين

وقال فى التهنئة:

رأيـت ذا العيـد أوّل يـوم فـى عصـرك وريـت ذا اليـوم مع ذا الشهر فـى نصـرك
وريت ذا الشهر مع ذا العام طوع أمرك والكـلّ بـالكلّ أوّل مبتـدا عمـرك

فى المعاتبة:

عنـى تسـليت وأسـياف الجفـا سـليت ومـذ توليـت عـن طريـق الوفـا وليـت
لمـا تمليـت بالأعمـال لى مليـت إذا تخليـت تعـرف قـدر مـن خليـت

وقال أيضًا:

يـا قلـب إن غـدروا فـاغدر وإن خـانوا فخـن وإن هـم قسـوا فاقسـا وإن لانـوا

فلـــن وإن قربـــوا فـــاقرب وإن بـــانوا وكـــن لى معـــاهم كيفمـــا كـــانوا

وقال آخر:

حلـــف عَلَيَّـــا جكـــاره أن يقـــاطعنى وصـــدّ عنـــى وأقســـم مـــا يطـــاوعنى
كـــم ذا يصـــدّ وكـــم يرجـــع يصـــدّ عنّـــى وإن كنـــت أنـــا هـــو المطلـــق لا يراجعنـــى

وقال آخر هجورًا:

قطع قفا ابن أخت خالك وابن أخو عمك والحـق يصفـع أبـو بنتـك أو ابـن أمـك
وإن تكلمـت تصفـع بـل يسـيل دمـك وإن كنت تسكت يبول الكلب فى فمك

وقال آخر:

إن ردت تسـلم بطـول الدهـر مـا تـبرح لا تيأســـن ولا تقنـــط ولا تمـــرح
واســتعمل الصـبر لا تحـزن ولا تفـرح وإن ضاق صـدرك ففكـر فـى ألم نشـرح

وقال آخر:

إن كنـت عـاقل وربـك بـالتقى بـرّك ادفـع أذاك وهـات خـيرك ودع شـرّك
وإن تعـدّى حسـودك والحسـد ضـرّك ناديـه يـا أيهـا الإنسـان مـا غـرّك

وقال آخر:

يـا قلـب إن خـانك المحبـوب لا تدبـر عنـو وعـن قصـة السـلوان لا تخـبر
واسـتعمل الصـبر دائـم للعـدا تقهـر فـإنّ واللّـه مـا خـاب الـذى يصـبر

فصل فى الفنّ السادس كان وكان

وله وزن واحد وقافية. ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثانى فمنه هذه الوعظيات:

يا قاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر ومـن حرارة وعظـى قـد لانـت الأحجـار
أفنيت مالك وحالك فى كلّ ما لا ينفعك ليتك على ذى الحالة تقلـع عـن الإصـرار
تحضر ولكن قلبـك غـائب وذهنـك فكيـف يا متخلـف تَحْسَبُ مـن الحضـار
ويحك تنبـه فتـى وافهم مقالى واستمع ففى المجالس محاسن تحجب عن الإبصار
يحصى دقائق فعلك وغمز لحظك يعلمه وكيف تعزب عنه غوامـض الأسـرار
تلوت قولى ونصحى لمن تدبر واستمع مـا فـى النصيحة كـلا ولا وإنكـار

وقال أيضًا:

صرّح بذكر المحبة ما فى المعمى فائدة وقل نعم أنا عاشق صادق بلا تمويه
ودع حديث العواذل ليس الخبر مثل النظر أنا عاشق لحبيب كلّ المعانى فيه
من أين للبدر حسن يحيكه أو شمس الضحى حاشا لذاك المحيا من مشبه يحكيه
إن غبـــت فهـــو أنيســـى وإن حضـــرت نديمـــى
وإن شـــربت مدامـــى فالكـــأس هـــو ســـاقيه
فمنـــه روحـــى وراحـــى إذا ســـكرت وراحتـــى

وفيـــــه عـــــــزّى وذلى | بمهجتـــــــى أفديـــــــه
قولـــــوا لمـــــن يلحـــــانى | فـــى الحـــب قصـــر واعتـــبر
هـــذا الـــذى قـــد عشـــقته | قـــد حـــار وصفـــى فيـــه

الصفىّ الحلّى:

شـــاهدت فـــى الليـــل طـــيرى | وقمـــت حتـــى أنصـــب شـــرك
مـــا كـــلّ صيـــد يحصـــل | يفـــــرح الصيـــــاد
طـــيرى الـــذى كـــان إلفـــى | لـــو ردت مثلـــه مـــا حصـــل
وهـــو علـــىّ معـــوّد | وأنـــــا عليـــــه معتـــــاد
قـــد كـــان شـــرطى وخلقـــى | لـــبرج غـــيرى مـــا عـــرف
كأنـــا فـــى الصبحـــة | جينـــا علـــى ميعـــاد
مـــن قبلـــى مـــا أبصبـــص لـــه | يجـــئ ويدخـــل قصـــورى
وأنـــا أرصـــده فـــى مطـــاره | خـــائف عليـــه ينصـــاد

وقال آخر:

مـــا ذقـــت عمـــرى جرعـــة | أمـــر مـــن طعـــم الهـــوى
اللّـــه يصـــبر قلبـــى | علـــى الـــذى يهـــواه
النـــاس تعلـــم منـــى | حـــال الجـــلادة والقـــوى
ومـــا أطيـــق التجلـــد | علـــى أليـــم جفـــاه
لى حـــبّ مثـــل الخوخـــة | لـــو لـــون وطعـــم وريحـــة
مـــا أكـــثر مغـــابن حبيبـــى | ومـــا أقـــلّ وفـــاه
أنـــا عرّفتـــو حظـــى | وكـــلّ مـــا أحســـن لـــو يســـئ
لـــو كنـــت أعشـــق ظلـــى | مـــا كنـــت قـــط أراه

وله فى الفراقيات:

يـــا ســـادة هجرونـــى | وهـــم نـــزول بخـــاطرى
لا أوحـــش اللّـــه منكـــم | فـــى ســـائر الأوقـــات
أوحشـــتم العـــين منـــى | وأنســـكم فـــى خـــاطرى
والقلـــب فـــى نـــور منكـــم | والعـــين فـــى ظلمـــات
قـــد انتهـــى الصـــبر منـــى | ومـــا بقـــى فيـــا رمـــق
هيهـــات أنـــى أحيـــا | مـــن بعدكـــم هيهـــات
لم يبـــق غـــير خيـــالى | يلـــوح كالشـــبح الخفـــى
أعـــدّ بـــين الأحيـــا | وأنـــا مـــع الأمـــوات
ودّعتمونـــى وســـرتم | والقلـــب يتبـــع ركبكـــم
ايـــش ضـــر لـــو كـــان جســـمى | مـــن جملـــة التبعـــات

مــا مــرّ مــا ريــت ضــدّى — يقــول لى مــن فرحتــه
هنــا تشــقّ المرايــر — وتســكب العــبرات
لــو لم أســلى روحــى — وأرض نفســى بــالمنى
لكــان قلبــى تقطــع — مــن بعدكــم حســرات
وقفــت لمــا رحلتــم — حــيران بــين أظعــانكم
أخفــض جنــاح المذلــة — وأرفــع الأصــوات
طــول الليــل أســاهر — كنــى أريــد الكيميــا
أقطــر الدمــع منــى — وأحــد الزفــران
مــا أطــول ليــالى جفــاكم — ســاعتها مثــل الســنة
ومــا أقصــر أيــام وصلــى — كأنهــا ســاعات
مــا لى أرى حســناتى — بالســيئات تبدّلــت
وســيئات الأعــادى — ابتدّلــت حســنات
خــالفتمونى وعمــرى — مــا زلــت أتبــع أمركــم
كــذا العبيــد تتــابع — أوامــر الســادات
أســكت وأصــبر عنكمــو — ويفعــل اللّــه مــا يشــا
والدهــر مــن عاداتــه — يقلــب الحــالات

فصل فى الفنّ السابع فى القوما

قيل: أوّل من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر، والصحيح أنه مخترع من قبله، وكان الناصر يطرب له، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر فى نظم القوما، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليجريه على مفروضه فتعذّر عليه ذلك فصبر إلى دخول شهر رمضان، ثم أخذ أتباع والده من المسحرين، ووقف أوّل ليلة من الشهر تحت الطيارة، وغنى القوما بصوت رقيق، فأصغى الخليفة إليه وطرب له، فكان أوّل ما قاله قوله:

يــا ســيد الســادات — لــك بــالكرم عــادات
أنــا بنــى ابــن نقطــة — تعيــش أبويــا مــات

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار، فاستحضره وخلع عليه، وفرض له ضعفى ما كان لأبيه.

ومنها للصفّى الحلّى:

مــن كــان يهــوى البــدور — ووصــل بيــض الخــدور
بــالبيض والصفــر يســخو — وقــد جلــس فــى الصــدور
مــن حــب بيــض الخــدور — ورام لــزوم الصــدور
يســمح وإلا فبقــى — مــن بينهــم مهــدور
كــم بــين ســجف الخــدور — مــن عاشــق مصــدور
يرعــى الكواكــب تعلــو — يــرى جمــال البــدور
بــين الحلــل والخــدور — وجــوه مثــل البــدور

إشـراقها فـى المعـاجز ... وغروبهـا فـى الصـدور
قـد كنـت فـوق الصـدور ... بـين الظبـا والبـدور
فصـرت أحسـد مـن أبصـر ... خيـامهم والخـدود
نوائـب المقـدور ... مثـل الكواكـب تـدور
مـن بعـد طيـب الخواطـر ... يقضـى بضيـق الصـدور
غـيرى يـلازم الصـدور ... وأنـا عليكـم أدور
وأصطلـى الصـد وأنـا ... مـن بينهـم مهـدور

وقال أيضًا:

حـال الهـوى مخبـور ... يريـد جلـد صبـور
يصـون سـرّه وإلا ... يبقـى مـن أهـل القبـور
مـن كـان هـواه مسـتور ... يحظـى برفـع السـتور
ومـن هتـك سـرّ حبـو ... يمحـى مـن الدسـتور
أبـذل لبيـض النحـور ... أمـوال مثـل البحـور
إن أردت تملـك وتظفـر ... ولدانهـم والحـور
قـم فـابذل المدخـور ... وفـى العطـا لا تجـور
تريـد هـذى المحبـة ... قلـوب مثـل الصخـور
كـم حـول تلـك الخـدور ... مـن عاشـق مغـدور
مثـل الدواليـب تجـرى ... دموعهـا وتـدور
مـن يركـب المحـذور ... هـو فـى الهـوى معـذور
يظفـر بحبـه ويبلـغ ... قصـده ويوفـى النـذور
كـن بـالهوى مسـرور ... ولا تبيـت مغـرور
واجعـل تـراب أعتـابهم ... لأجفـان عينـك درور
طـرق المحبـة وعـور ... كـم بينهـا معـذور
مـن فتـك بيـض السـوالف ... علـى سـواد الشـعور
كـم عاشـق مذعـور ... فـى حـبّ بيـض الثغـور
يغـار قلبـه ولكـن ... مدامعـه مـا تغـور
كـم بينهـم يعفـور ... كـالظبى آنـس نفـور
مـن أهـل بـدر فديتـه ... إيـش مـا عمـل مغفـور

ومن ذلك ما نظمه بعضهم ليسحر بعض الخلفاء فى رمضان:

لا زال سـعدك جديـد ... دائـم وجـدّك سـعيد
ولا برحـت مهنـا ... بكـلّ صـوم وعيـد
فـى الدهـر أنـت الفريـد ... وفـى صفـاتك وحيـد

والخلــــق شــــعر منقــــح ... وأنـــت بيــت القصيـــد
يــا مـــن جنابــه شــديد ... ولطـــف رأيـــه ســـديد
ومــن يلاقـــى الشــدائد ... بقلـــب مثـــل الحديـــد
لا زلـــت فـــى تــأييد ... فـــى الصــوم والتعبيـــد
ولا برحـــــت مهنـــا ... بكـــلّ عـــام جديـــد
نحـــن لذكـــرك نشـــيد ... بقولنـــــا والنشـــــيد
ونبعـــث أوصـــاف مدحـــك ... علـــى خيـــول البـــريد
ظلـــك علينـــا مديـــد ... مـــا فـــوق وجـــودك مزيـــد
وكـــم غمـــرت بفضلـــك ... قريبنـــا والبعيـــد
لا زلـــت فـــى كـــلّ عيـــد ... تحظـــى بجـــد ســـعيد
عمـــرك طويـــل وقـــدرك ... وافـــر وظلـــك مديـــد
لا زال قـــدرك مجيـــد ... وظـــلّ جـــودك مديـــد
ولا برحـــت مُوَّقـــى ... كمـــا يوقـــى الوليـــد
مـــا زال بـــرّك يزيـــد ... علـــى أقـــلّ العبيـــد
ومـــا بـــرح جـــود كفـــك ... منـــا كحبـــل الوريـــد
لا زال بـــرّك مزيـــد ... دائـــم وبأســـك شـــديد
ولا عدمنـــا نوالـــك ... فـــى صـــوم فطـــر وعيـــد

ومما قيل فى فنّ الحماق:

أنـــا مـــا عبـــورى الحمـــام ... لجســـمى لكـــى ينظـــف
إلا لدمـــع جـــارى ... علـــى المـــاء ولا يوقـــف
وديـــك المجـــارى تجـــرى ... ودمعـــى يســـابقها
تقـــول الأنـــام فـــى الحمـــام ... لـــه أحبـــاب فارقهـــا

وقال آخر:

تـــرى كـــلّ مـــن نعشـــقو ... علينـــا يقيـــم أنفـــه
فاســـلاه واتـــرك هـــواه ... وســـدّ الطريـــق خلفـــه
وإن زاد علـــىّ عشـــقو ... وزاد بـــى الهـــوى والـــذل
تركتـــو ولـــو كـــان يحيـــى ... لأهـــل القبـــور الكـــلّ

وقد انتهى الكلام فيما أشرت إليه من الفنون السبعة، وذكرت منها ما تبتهـج بـه النفـوس، وتقـرّ بـه العيـون، واختصرت ذلك إلى الغاية، فجاء بتوفيق اللّه فى الحسن نهاية، وأسأل اللّـه التوفيـق بمنـه وكرمـه والمزيـد مـن بـرّه ونعمه، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثالث والسبعون فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهنّ وطلاقهنّ وما يحمد ويذمّ من عشرتهنّ وفيه فصول

الفصل الأول فى النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾(١) الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾(٣) الآية، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجَاء»(٤) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عوان عندكم»(٥). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامةً»(٦). وقال صلى الله عليه وسلم: «سوداء ولود، خير من حسناء عقيم». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحسن النساء بركة أحسنهنّ وجهًا، وأرخصهنّ مهرًا».

فينبغى للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب فى ذات الدين، وأن يختار الشرف والحسب. كما حكى أن نوح ابن مريم قاضى مرو أراد أن يزوج ابنته فاستشار جارًا له مجوسيًّا فقال: سبحان الله الناس يستفتونك، وأنت تستفتينى! قال: لابدَّ أن تشير على. قال: إن رئيسنا كسرى كان يختار المال، ورئيس القوم قيصر كان يختار الجمال، والعرب كانت تختار الحسب والنسب، ورئيسكم محمد كان يختار الدين. فانظر أنت بأيهم تقتدى.

وقال رجل للحسن: إنّ لى ابنة فمن ترى أنْ أزوجُها له؟ قال: زَوِّجْهَا ممن يتقى الله عز وجل؛ فإنْ أحبَّها أكرمها، وأنْ أبغضها لم يظلمها. وقيل لرجل من الحكماء: فلان يخطب فلانة، فقال: أموسر من عقل ودين؟ فقالوا: نعم. قال: فزوجوه إياها. ويستحبّ البكر لقوله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالأبكار فانهن أطيب أفواهًا وأنتق أرحامًا(٧) »(٨) وقالوا: أشهى المطى ما لم يركب، وأحبّ اللآلئ ما لم يثقب، وأنشد بعضهم:

قالوا نكَحْتَ صَغيرةً فَأَجبْتَهُم ... أَشْهى المَطَىِّ إلىَ مَا لم يُرْكَبِ
كَمْ بينَ حبَّةِ لؤلؤٍ مثقوبة ... نَظِمَتْ وَحبَّةِ لؤلؤٍ لم تَثْقَبِ

فأجابته امرأة:

إنَّ المطيَّةَ لاَ يَلِذُّ رُكوبُها ... حتّى تَذَلَّلَ بالزِّمَامِ وتَركَبَا
والدرُّ ليسَ بنافعٍ أربابَهُ ... حتّى يُؤلَفَ بالنِّظامِ ويُثْقَبَا

قال خالد بن صفوان:

عليك إذا ما كنتَ فى الناسِ ناكحًا ... بذاتِ الثنايا الغرِّ والأعين النجل

(١) سورة النساء:٣.
(٢) سورة النور:٣٢.
(٣) سورة البقرة:٢٣٥.
(٤) وجَاء: حفظ وحماية.
(٥) أخرجه: البخارى فى النكاح ٥١٨٦.
(٦) أخرجه: الترمذى فى كتاب الطهارة ٢.
(٧) أنتق أرحامًا: أكثر أولادًا.
(٨) أخرجه: ابن ماجة فى النكاح ١٨٦١.

وقيل: استشار رجل داود عليه السلام فى التزويج، فقال له: سل سليمان، وأخبرنى بجوابه. فصادفه ابن سبع سنين وهو يلعب مع الصبيان راكبًا قصبة. فسأله. فقال: عليك بالذهب الأحمر، أو الفضة البيضاء، واحذر الفرس لا يضربك، فلم يفهم الرجل ذلك، فقال له داود عليه الصلاة والسلام: الذهب الأحمر البكر، والفضة البيضاء الثيب الشابة ومن وراءهما كالفرس الجموح.

وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «تخيروا لنطفكم»[(١)] . وقال صلى اللّه عليه وسلم: «انظر فى أىّ شىء تضع ولدك، فإنّ العرق دساس» وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم وخضراء الدمن». قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول اللّه؟ قال: «المرأة الحسناء فى المنبت السوء» وأنشدوا فيه:

إذا تزوَّجْتَ فَكُنْ حَاذِقاً ... وأسألْ عنِ الغُصنِ وعَن مَنْبَته

وقال بعضهم:

وأوّل خبثِ الماءِ خَبْثَ ترابه ... وأوّلُ خَبثِ القومِ خبثَ المناكح

وعن علىّ رضى اللّه تعالى عنه، عن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم: قال: «لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء فإن اللبن يعدى». وقيل: إن جعفر بن سليمان بن علىّ عاب يومًا على أولاده وأنهم ليسوا كما يجب، فقال له ولده أحمد بن جعفر: إنك عمدت إلى فاسقات مكة والمدينة، وإماء الحجاز، فأوعيت فيهنّ نطفك ثم تريد أن يُنْجبْنَ، وإنما نحن كصاحب الحجاز هلا فعلت فى ولدك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلة قومها فزوّجها منك، وأنشدوا:

صِفَاتُ مَن يَسْتحبُّ الشَّرعُ خِطْبتها ... جَلَوْتُهـا لأولِى الألبـاب مختصِرا
صبيَّةٌ ذَاتُ دِينٍ زانَهُ أدبٌ ... بكرٌ ولودٌ حكَتْ فى نَفْسِها القمرا
غريبةٌ لم تكن مِنْ أهلِ خَاطِبِها ... تلك الصِّفاتُ التى أجلو لمن نظرا
فيها أحاديث جاءَت وهى ثابتةٌ ... أحاط علمًا بها مَنْ فى العلوم قرا

وقال آخر:

مطياتُ السرور فويقَ عشرٍ ... إلى العشرين ثم قف المطايا
فإن جزتَ المسيرَ فَسِرْ قليلاً ... وبنتُ الأربعين من الرزايا[(٢)]

وقال آخر:

فإيَّاك إيَّاك العَجُوز وَوَطْأها ... فمَا هُو إلا مِثْلُ سُمِّ الأراقم[(٣)]

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليلة الصالحة، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التى لا تسكن النفس إلى عشرتها، ولا تقرّ العيون برؤيتها. وفى حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها، والمرأة السفيهة تهدمه. وروى أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على خديجة بنت خويلد رضى اللّه عنها ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر خطب فقال: الحمد للّه الذى جعلنا من ذرّية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وعنصر مضر، وجعلنا حضَنَةَ بيته، وسوَّاس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوجًا، وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد بن عبد اللّه ابن أخى من لا يوزن به رجل من قريش إلا

(١) أخرجه: ابن ماجة فى النكاح ١٩٦٨.
(٢) الرزايا: المصائب.
(٣) الأراقم: الأفاعى.

رجح به برًّا وفضلاً وكرمًا ومجدًا ونبلاً؛ فإن كان فى المال قلّ فالمال ظل زائل، ورزق حائل، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالى كذا وكذا، وهو - والله - بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل.

ولما خطب عمر بن حجر الكندى إلى عوف بن محلم الشيبانى ابنته أم إياس وأجابه إلى ذلك أقبلت عليها أمها ليلة دخوله بها توصيها، فكان مما أوصتها به أن قالت: أى بنية إنك مفارقة بيتك الذى منه خرجت، وعُشك الذى منه درجت، إلى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكونى له أمةً ليكون لك عبدًا، واحفظى لى خصالاً عشرًا يكن لك ذخرًا، فأما الأولى والثانية: فالرضا والقناعة، وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح، وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه ومنامه فإن شدة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة: فالإحراز لماله والارعاء على حشمه وعياله، وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصى له أمرًا، ولا تفشى له سرًّا، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سرّه لم تأمنى غدره، وإياك ثم إياك والفرح بين يديه إذ كان مهتمًّا، والكآبة لديه إذا كان فرحًا. فقبلت وصية أمها فأنجبت له الحارث بن عمرو جد امرئ القيس الملك الشاعر.

وعن الهيثم بن عدى الطائى عن الشعبى قال: لقينى شريح، فقال لى: يا شعبى عليك بنساء بنى تميم فإنى رأيت لهن عقولاً، فقلت: وما رأيت من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهرًا فمررت بدورهنّ، وإذا أنا بعجوز على باب دار وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجوارى فعدلت إليها واستقيت وما بى عطش. فقال لى: أى الشراب أحبّ إليك؟ قلت: ما تيسر. قالت: ويحك يا جارية ائتيه بلبن؛ فإنى أظنّ الرجل غريبًا، فقلت للعجوز: ومن تكون هذه الجارية منك؟ قالت: هى زينب بنت جرير إحدى نساء بنى حنظلة، قلت: هى فارغة أم مشغولة؟ قالت: بل فارغة. قلت: أتزوّجينيها؟ قالت إن كنت كفؤًا، ولم تقل: كفؤ، وهى لغة بنى تميم، فتركتها ومضيت إلى منزل لأقيل[1] فيها فامتنعت منى القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بيد إخوانى من العرب الأشراف: علقمة، والأسود، والمسيب، ومضيت أريد عمها فاستقبلنا، وقال: ما شأنك أبا أمية؟ قلت: زينب ابنة أخيك. قال: ما بها عنك رغبة فزوّجنيها، فلما صارت فى حبالى ندمت، وقلت: أى شئ صنعت بنساء بنى تميم؟ وذكرت غلظ قلوبهن، فقلت: أطلقها. ثم قلت: ولكن أدخل بها؛ فإن رأيت ما أحب، وإلاّ كان ذلك. فلو شهدتنى يا شعبى وقد أقبلت نساؤها يهدينها حتى أدخلت علىّ فقلت: إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلى ركعتين، ويسأل الله تعالى من خيرها، ويتعوّذ من شرّها، فتوضأت فإذا هى تتوضأ بوضوئى وصليت فإذا هى تصلى بصلاتى. فلما قضيت صلاتى أتتنى جواريها فأخذن ثيابى، وألبسنى ملحفة قد صبغت بالزعفران. فلما خلا البيت دنوت منها فمددت يدى إلى ناصيتها. فقالت: على رسلك أبا أمية، ثم قالت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلى على محمد وآله، أما بعد فإنى امرأة غريبة لا علم لى بأخلاقك، فبَيِّنْ لى ما تحب فآتيه، وما تكره فأجتنبه فإنه قد كان لك منكح[2] فى قومك، ولى فى قومى مثل ذلك. ولكن إذا قضى الله أمرًا كان مفعولاً، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله تعالى به، إما إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان، أقول قولى هذا، وأستغفر الله العظيم لى ولك ولجميع المسلمين. قال: فأحوجتنى والله يا شعبى إلى الخطبة فى ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله أحمده وأستعينه وأصلى على محمد وآله. أما بعد فإنك قلت كلامًا إن ثبّت عليه يكن ذلك حظًا لى، وإن تدعيه يكن حجة عليك أحب كذا، وأكره كذا، وما رأيت من حسنة فابثثيها وما رأيت من

---

(١) لأقيل: أنام القيلولة.

(٢) منكح: مجال للزواج.

سيئة فاستريها. فقالت: كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت: ما أحب أن يملني أصهاري. قالت: فمن تحب من جيرانك يدخل دارك آذن له، ومن تكرهه أكرهه. قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء. قال: فبت معها يا شعبى بأنعم ليلة ومكثت معى حولاً لا أرى منها إلا ما أحب. فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، وإذا أنا بعجوز فى الدار تأمر وتنهى قلت: من هذه؟ قالوا: فلانة أمّ حليلتك. قلت: مرحبًا وأهلاً وسهلاً. فلما جلست أقبلت العجوز، فقالت: السلام عليك يا أبا أمية، فقلت: وعليك السلام ومرحبًا بك وأهلاً. قالت: كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة، وأوفق قرينة، لقد أدّبت فأحسنت الأدب، وريّضْت فأحسنت الرياضة، فجزاك خيرًا. فقالت: يا أبا أمية إنّ المرأة لا يرى أسوأ حالاً منها فى حالتين. قلت: وما هما؟ قالت: إذا ولدت غلامًا، أو حظيت عند زوجها، فإن رابك مريب فعليك بالسوط، فواللّه ما حاز الرجال فى بيوتهم أشرّ من الروعاء المدللة. فقلت: واللّه لقد أدّبت فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة. قالت: كيف تحبّ أن يزورك أصهارك؟ قلت: ما شاءوا، فكانت تأتينى فى رأس كل حول فتوصينى بتلك الوصية، فمكثت معى يا شعبى عشرين سنة لم أعب عليها شىء. وكان لى جار من كندة يفزع امرأته ويضربها، فقلت فى ذلك:

رأيتُ رِجالاً يضربون نساءَهُم ... فَشُلّت يمينى يومَ تَضربُ زينبُ
أأضربها من غيرِ ذنبٍ أتَتْ به ... فما العدلُ منى ضربُ مَنْ ليس يُذنِبُ
فزينبُ شمسٌ والنساءُ كواكبٌ ... إذا طلعَتْ لم يَبْدُ منهنّ كوكبُ

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد اللّه بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفى ألف فى السر، وخمسمائة ألف فى العلانية فأجابه إلى ذلك، وحملها إلى العراق، فأقامت عنده ثمانية أشهر، فلما خرج عبد اللّه بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافدًا نزل بدمشق فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ومعه الناس، فاستقبله ابن جعفر بالترحيب. فقال له الوليد: لكنك أنت لا مرحبًا بك، ولا أهلا. قال: مهلاً يا ابن أخى فلستُ أهلا لهذه المقالة منك. قال: بلى واللّه وبشّر منها، قال: وفيم ذلك؟ قال: لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب، وسيدة نساء بنى عبد مناف فعرّضتها لعبد ثقيف يتفخذها. قال: وفى هذا عتبت على يا ابن أخى؟ قال: نعم. فقال عبد اللّه: واللّه ما أحقّ الناس أن لا يلومنى فى هذا إلا أنت وأبوك؛ لأن مَنْ كان قبلكم من الولاة يصلون رحمى، ويعرفون حقى، وإنك وأباك منعتمانى رفدكما حتى ركبنى الدين. اما واللّه لو أن عبدًا حبشيًّا مجدعًا أعطانى بها ما أعطانى عبد ثقيف لزوّجتها منه، إنما فديت بها رقبتى، فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه، ومضى حتى دخل على عبد الملك. فقال: ما لك يا أبا العباس؟ قال: إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بنى عبد مناف، فأدركت عبد الملك غيرة فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل. قال: و لم يكن يقطع الحجاج عنها رزقًا ولا كرامة، يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا، وما زال واصلاً لعبد اللّه بن جعفر حتى مات. وما كان يأتى عليه حول إلا وعنده عير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف.

وحكى أن المغيرة بن شعبة لما ولى الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان، وهى فيه عمياء مترهبة فاستأذن عليها، فقالت: من أنت؟ قال: المغيرة بن شعبة الثقفى. قالت: وما حاجتك؟ قال: جئت خاطبًا. قالت: إنك لم تكن جئتنى لجمال ولا مال، ولكنك أردت أن تتشرف فى محافل العرب، فتقول: تزوّجت بنت النعمان بن المنذر، وإلا فأىّ خير فى اجتماع عمياء وأعور.

وكان عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق رضى اللّه عنهما قد تزوّج عاتكة بنت عمرو بن نفيل، وكانت من أجمل نساء قريش، وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجهًا، وأبرّهم بوالديه، فلما دخل بها غلبت على عقله،

وأحبها حبًّا شديدًا، فثقل ذلك على أبيه فمرّ به أبو بكر يومًا وهو فى غرفة له، فقال يا بنى: إنى أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك، وغلبت على عقلك فطلقها، قال: لست أقدر على ذلك. فقال: أقسمت عليك إلا ما طلقتها! فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها فجزع عليها جزعًا شديدًا، وامتنع عن الطعام والشراب، فقيل لأبى بكر: أهلكت عبد الرحمن؟ فمر به يومًا وعبد الرحمن لا يراه وهو مضطجع فى الشمس، ويقول هذه الأبيات:

فواللّهِ لا أنْساكِ ما ذرَّ شارقٌ ... وما ناحَ قمرىٌّ الحمامِ المطوّقُ
فلمْ أرَ مِثْلى طلّق اليوم مثلها ... ولا مثلَها فى غير شَىءٍ يُطَلّقُ
لها خلقٌ عفٌّ ودينٌ ومحتدٌ ... وخلقٌ سوىٌّ فى الحياء ومنطقُ

فسمعه أبوه فرقّ له وقال له: راجعها، وأقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وأصابه سهم فقتله، فجزعت عليه جزعًا شديدًا، وقالت ترثيه:

فآليتُ لا تنفكُّ نفسى حزينةً ... عليك ولا ينفكُّ جلدى أغبرا
فَتىً طَولَ عُمْرى مَا أرى مثله فتًى ... أكرّ وأحمى فى الهياجِ وأصبرا
إذا شرعَتْ فيه الأسنةَ خاضَها ... إلى القرنِ[1] حتى يتركَ الرُّمحَ أحمرا[2]

ثم تزوّجها بعده عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فى خلافته، ودعا الناس إلى وليمته فأتوه، فلما فرغ من الطعام وخرج الناس قال له على بن أبى طالب رضى اللّه عنه: يا أمير المؤمنين أئذن لى فى كلام عاتكة حتى أهنيها وأدعو لها بالبركة، فذكر عمر ذلك لعاتكة فقالت: إن أبا الحسن فيه مزاح فائذن له يا أمير المؤمنين. فأذن له فرفع جانب الخدر فنظر إليها، فإذا ما بدا من جسدها مضمخ بالخلوق، فقال لها: يا عاتكة ألست القائلة:

فآليتُ لا تنفكُّ نفسى حَزِينةً ... عليكَ ولا ينفكُّ جلْدِى أغبرا؟!

وقيل: إنّ عمر لما قتل عنها جزعت عليه جزعًا شديدًا، وتزوّجت بعده الزبير بن العوّام وكان رجلاً غيورًا. وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها فشقّ ذلك عليه، وكان يكره أن ينهاها عن الخروج إلى الصلاة، لحديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «ولا تمنعوا إماء اللّه مساجد اللّه» فعرض لها ليلة فى ظهر المسجد وهى لا تعرفه، فضرب بيده عجيزتها ثم انصرف. فقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد. وكان يقول لها: ألا تخرجين يا عاتكة؟ فتقول: كنا نخرج إذا الناس ناس، وما بهم من باس، وأما الآن فلا. ثم قتل عنها الزبير - قتله عمرو بن جرموز بوادى السباع وهو نائم - ثم تزوّجها بعده محمد بن أبى بكر فقتل عنها بمصر.

فقالت: لا أتزوّج بعده أبدًا، إنى لأحسبنى أنى لو تزوّجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم.

وحكى عن الحارث بن عوف بن أبى حارثة أنه قال لخارجة بن سنان: أترى أنى أخطب إلى أحد فيردّنى؟ قال: نعم. قال: ومن هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائى. قال: اركب بنا إليه، فركبنا إليه حتى أتينا أوس ابن حارثة فى بلاده فوجدناه فى فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحبًا بك يا حارث، ثم قال: ما جاء بك؟ قال: جئت خاطبًا. قال: لست هناك فانصرف و لم يكلمه، فدخل أوس على امرأته مُغْضبًا. فقالت له: مَن الرجل الذى سلم عليك فلم تطل معه الوقوف و لم تكلمه؟ فقال: ذلك سيد العرب الحارث بن عوف.

---

(١) القرن: الند.
(٢) الرمحَ أحمرا: يضرجه بالدم.

فقالت: فما لك لا تستنزله؟ قال: إنه استهجننى[1]، قالت: وكيف؟ قال: لأنه جاءنى خاطبًا. قالت: ألست تزعم أنه سيد العرب؟ قال: نعم، قالت: إذا لم تزوّج سيد العرب فى زمانه فمن تزوّج؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارك ما كان منك، قال: فماذا؟ قالت: بأن تلحقه فترده. قال: وكيف وقد فرط منى إليه ما فرط؟ قالت: تقول له إنك لقيتنى وأنا مغضب لأمر، فلك المعذرة فيما فرط منى فارجع ولك عندى كل ما طلبت. قال: فركب فى أثرهما.

قال خارجة بن سنان: فوالله إنا لنسير إذ حانت منى التفاتة فرأيته. فقلت للحارث وهو ما يكلمنى: هذا أوس فى أثرنا فقال: ما أصنع به؟ فلما رآنا لا نقف قال: يا حارث أربع على، فوقفنا له وكلمه بذلك الكلام فرجع مسرورًا. قال خارجة بن سنان فبلغنى أن أوسًا لما دخل منزله قال لزوجته: ادعى لى فلانة أكبر بناته فأتته. فقال لها: أى بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جاءنى خاطبًا، وقد أردت أن أزوجك منه، فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولم؟ قالت: لأن فى خلقى رداءة وفى لسانى حدة، ولست بابنه عمه فيراعى رحمى، ولا هو بجار لك فى البلد فيستحى منك، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون علىّ بذلك مسبة. قال لها: قومى بارك الله فيك. ثم دعا بنته الأخرى فقال لها مثل قوله لأختها. فأجابته بمثل جوابها. فقال لها: قومى بارك الله فيك، ثم دعا بالثالثة وكانت أصغرهنّ سنًا. فقال لها مثل ما قال لأختيها، فقالت: له أنت وذلك. فقال لها: إنى عرضت ذلك على أختيك فأبتاه ولم يذكر لها مقالتهما. فقالت له: والله إنى الجميلة وجهًا، الرفيعة خلقًا، الحسنة رأيًا، فإن طلقنى فلا أخلفَ الله عليه، فقال لها: بارك الله فيك. ثم خرج إليه، فقال زوجتك يا حارث ابنتى هنيسة. قال: قد قبلت نكاحها. وأمر أمها أن تهيئها له وتصلح شأنها ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إياه، ثم بعثها إليه فلما دخلت عليه لبث هنيهة ثم خرج إلىّ فقلت له: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله. قلت: وكيف ذلك؟ قال: لما مددت يدى إليها قالت: مه، أعند أبى وإخوتى؟ هذا والله لا يكون. ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا وسرنا ما شاء الله. ثم قال لى: تقدّم فتقدّمت فعدل عن الطريق فما لبث أن لحقنى فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله. قلت: ولم؟ قال: قالت: تفعل بى كما يفعل بالأمة السبية الأخيذة لا والله حتى تنحر الجزر والغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل مثلك لمثلى. فقلت: والله إنى لأرى همة وعقلا، فقال: صدقت. قال: وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة فوردنا إلى بلادنا فأحضر الإبل والغنم ونحر وأولم، ثم دخل عليها وخرج إلىّ، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله. قلت: ولم ذلك؟ قال: دخلت عليها أريدها فقلت لها: قد أحضرت من المال ما تريدين. قالت: والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك. قلت: ولم ذاك؟ قالت: أتتفرغ لنكاح النساء، والعرب يقتل بعضها بعضًا. وكان ذلك فى أيام حرب قيس وذبيان. قلت: فماذا تقولين؟ قالت: اخرج إلى القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد. فقلت: والله إنى لأرى عقلاً ورأيا سديدًا. قال: فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى، ثم تؤخذ الدية فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير فانصرفنا بأجمل ذكر، ثم دخل عليها فقالت له: أما الآن فنعم. فأقامت عنده فى ألذّ عيش وأطيبه، وولدت له بنين وبنات. وكان، من أمرهما ما كان والله أعلم بالصواب.

وحكى الفضل أبو محمد الطيبى قال: حدثنا بعض أصحابنا أنّ رجلاً من بنى سعد مرت به جارية لأمية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال وكان شجاعًا فارسًا، فلما رآها قال: طوبى لمن كان له امرأة مثلك. ثم اتبعها رسولاً يسألها: ألها زوج؟ ويذكره لها، وكان جميلاً فقالت للرسول: وما حرفته. فأبلغه الرسول

(١) استهجننى: استصغرنى.

ذلك فقال: ارجع إليها وقل لها:

وسائلةٍ مَا حِرْفتى قلتُ حرفتى ... مُقَارعةَ الأبطالِ فى كلّ شارقِ[1]

إذا عرضَتْ خَيلٌ لخيلٍ رأيتَنى ... أمامَ رعيلِ الخيلِ أحمى حقائقى[2]

أصبرُ نفسى حينَ لم أرَ صابرًا ... على ألمِ البيضِ الرقاقِ البوارقِ[3]

فلحقها الرسول فأنشدها ما قال. فقالت له: ارجع إليه وقل له: أنت أسد، فاطلب لك لبوة فلست من نسائك وأنشدته تقول:

ألا إنما أبغى جَوادًا بمالِهِ ... كريمًا محياه كثيرَ الصدائقِ

فَتىً همُّهُ مُذ كان خودُ خريدةٍ ... يعانقُها فى الليلِ فوقَ النّمارقِ

وحدث يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن الحكم عن الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه قال: تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة، فكانت الجارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول:

وما يستوى الرجلان رِجلٌ صحيحة ... وأخرى رَمَى فيها الزمانُ فَشُلّتِ

ثم تعود وتقول:

وما يستوى الثوبانِ ثَوبٌ به البلى ... وثوبٌ بأيدى البائعينَ جَديدُ

فمرّت الجارية القديمة على باب الجديدة يومًا، وقالت[4]:

نَقّلْ فؤادَكَ ما استطعْتَ مِن الهَوى ... مَا الحُبُّ إلاّ للحبيبِ الأوَّلِ

كم منزلٍ فى الأرض يألفُهُ الفتى ... وحنينُه أبدًا لأوَّلِ مَنزلِ

وقال عمرو بن العلاء وكان أعلم الناس بالنساء[5]:

فإنْ تسألونى بالنساء فإننى ... بَصيرٌ بأدواء النّساء طَبيبُ

إذا شَابَ رَأسُ المرءِ أو قَلَّ مالُهُ ... فَلَيسَ لهُ فى وُدِّهنَّ نصيبُ

وسئل المغيرة بن شعبة عن صفة النساء فقال: بنات العم أحسن مواساة، والغرائب أنجب، وما ضرب رؤوس الأقران مثل ابن السوداء.

وقال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية. قال الشاعر:

لا تشتمنَّ امرأ ممن يكونُ له ... أمٌّ من الرومِ أو سوداءُ عجماءُ

فإنما أمهاتُ القومِ أوعيةٌ ... مُسْتودعاتٌ وللأنسابِ آباءُ

وقال الأصمعى: أتانى رجل من قريش يستشيرنى فى امرأة يتزوجها فقلت: يا ابن أخى أقصيرة النسب أم طويلته؟ فلم يفهم عنى، فقلت: يا ابن أخى أما القصيرة النسب فالتى إذا ذكرت أباها اكتفت به، والطويلة النسب فهى التى لا تعرف حتى تطيل فى نسبها. فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيرًا من الدنيا مع دناءة فيهم فتضيع نسبك فيهم.

---

(١) فى كل مكان والشارق: الشمس.
(٢) حقائقى: راياتى.
(٣) البوارق: السيوف.
(٤) البيتان لأبى تمام.
(٥) وهذه الأبيات معروفة لعلقمة الفحل وهو شاعر جاهلى.

وخرج رجل من أهل الكوفة فى غزوةٍ فكسب جارية وفرسًا، وكان مملكًا على ابنة عمه، فكتب إليها يعيرها ويقول:

ألا بلّغوا أُمَّ البنين بأننا ... غنينا وأغنتنا الغطارفةُ النجدُ
بعيد مناط المنكبين إذا جرى ... وبيضاءُ كالتمثال زَيَّنها العقدُ
فهذا لأيامِ العَدوِّ وهذه ... لحاجة نفسى حين ينصرفُ الجندُ

فلما ورد عليها كتابه وقرأته قالت: يا غلام هات الدواة.

وكتبت جوابه تقول:

ألا فاقْرِه منى السَّلامَ وقُلْ له ... غَنينا وأغنَتْنَا غطارفةُ المُردِ
إذا شئت أغنانى غُلامٌ مرجّلٌ ... ونازعتُه فى ماءِ معتصرِ الوردِ
وإن شاء منهم ناشئٌ مدَّ كفه ... إلى عكَنٍ(١) ملساءَ أو كفلٍ نهدِ(٢)
فما كنتم تقضُون حاجةَ أهلِكُم ... شهودًا فتقضُوها على النأى والبعدِ
فعَجِّلْ إلينا بالسَّراح فإنَّهُ ... مُنَانا ولا ندعُو لكَ اللّه بالردِّ
فلا قَفَلَ الجُنْدُ الذى أنتَ فيهم ... وزادَكَ ربُّ الناس بُعْدًا على بُعْدِ

فلما ورد عليه كتابها لم يزد علي أن ركب الفرس، وأردف الجارية خلفه، ولحق بابنة عمه. فكان أوّل شئ بدأها به بعد السلام أن قال لها: باللّه عليك هل كنت فاعلة ذلك؟ فقالت له: اللّهُ فى قلبى أعظم وأجل، وأنت فى عينى أذل وأحقر من أن أعصى اللّه فيك، فكيف ذقت طعم الغيرة؟ فوهب لها الجارية وانصرف إلى الغزاة، واللّه تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الثانى فى صفات النساء المحمودة

كتب الحجاج إلى الحكَم بن أيوب: أن أخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة فى قومها، ذليلة فى نفسها، مؤاتية لبعلها.

فكتب إليه: قد أصبتها لولا عظم ثدييها، فكتب إليه: لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها فتدفئ الضجيع، وتروى الرضيع.

وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان: صف لى أحسن النساء. قال: خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين، ردماء الكعبين، ناعمة الساقين، ضخماء الركبتين، لفّاء الفخذين، ضخمة الذارعين، رخصة الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلاء العينين، زجّاء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شماء العرنين، شنباء الثغر، محلولكة الشعر، غيداء العنق، مكسرة البطن. فقال: ويحك! وأين توجد هذه؟ قال: تجدها فى خالص العرب، وفى خالص فارس.

وقال حكيم: عليكم من تربَّتْ فى النعيم ثم أصابتها فاقة، فأثر فيها الغنى، وأدبها الفقر. وقال رجل لخاطب: ابغ لى امرأة لا تؤنس جارًا، ولا توطن دارا، يعنى لا تدخل على الجيران، ولا تدخل الجيران عليها. وفى مثل هذه

---

(١) العكن: هى ما تثنى من البطن من كثرة السمن.
(٢) نهد: أى أن عجزها سمين.

الشاعر:

هيفـاءُ فيهـا إذا اسـتقبلتها صلـف عيطـاءُ غامضـةَ الكعبـين معطـارُ[١]

خـودٌ مـن الخفـراتِ البيـضِ لم يرهـا بسـاحةِ الـدارِ لا بعـلٌ ولا جـارُ

وقال الأعشى:

لم تمش ميلاً ولم تركَبْ على جَملٍ ولم تَـرَ الشَّـمسَ إلا دونهـا الكلـل[٢]

وكانت امراة عمران بن حطان من أجمل الناس وجهًا، وكان هو من أقبح الناس وجهًا، فقال لها يومًا: أنا وإياك في الجنة إن شاء الله تعالى، فقالت له: وكيف ذلك؟ فقال: لأنـي أعطيتُ مثلك فشكرتُ، وأعطيتِ مثلي فصبرتِ، والصابر والشاكر في الجنة. وقال بعضهم: رأيت في طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجهًا، فقعدت أنظر إليها، وأتعجب من جمالها، فجاء شيخ قصير فأخذ بردائها وسار بها ومضى، فلقيتها مرة أخرى فقلت لها: من هذا الشيخ؟ قالت: زوجي، قلت: كيف يرضى مثلك بمثله؟ فأنشدت:

أيَـا عجبًـا للخـود يجـرى وشـاحُها تَـزفُّ إلى شـيخٍ بـأقبحِ تمثـالِ

دعَـاني إليـه أنـهُ ذو قرابـةٍ يعزُّ علينـا مـن بنـى العَـمِّ والخـالِ

وسمع بعضهم قائلاً يقول شعرًا:

ومـن لا يُـردِ مدحـى فـإنَّ مدائحـى توافـقُ عنـد الأكرمـين توامـى[٣]

توافـق عنـد المشـترى الحمـد بـالندى نفـاق بنـاتِ الحـرث بـن هشـام

فقال: يا ابن أخي ما بلغ من نفاق بنات الحارث بن هشام؟ قال: كنّ من أجمل الناس وجوهًا، وكان أبوهنّ إذا زوّجهنّ يسوقهنّ ومهورهنّ إلى بعولتهنّ، فقال: يا ابن أخي لو فعل هذا إبليس ببناته لتنافست فيهنّ الملائكة المقرّبون. وقال عبد الملك لابن أبي الرقاع: كيف علمك بالنساء؟ قال: أنا والله أعلم الناس بهنَّ، وجعل يقول:

قضاعيَّـةَ الكعبـينِ كنديَّـةَ الحشـا خزاعيَّـةَ الأطـراف طائيَّـةَ الفـمِ

لهـا حِكَـمُ لقمـان وصُـورةَ يوسـفٍ ومنطـق دوادِ وعفَّـةَ مريـمِ

وقالوا: الوجه الحسن أحمر، وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث في الكنّ، والتضمخ بالطيب. وقالوا: إن الوجه الرقيق البشرة الصافي الأديم إذا خجل يحمر، وإذا فرق يصفر، ومنه قولهم: ديباج الوجه؛ يريدون تلونه من رقته. قال علي بن زيد في وصفه:

حمـرة خلـط صفـرة فـي بيـاض مثـل مـا حـاك حـائك ديباجـا

وقال علي بن عبد ربه:

بيضـاءُ يحمـرُّ خدّهـا إذا خجلَـتْ كما جرى ذهبٌ في صفحتي ورق

وقالوا: إن الجارية الحسناء تتلوّن بتلوّن الشمس، فهي بالضحى بيضاء، وبالعشيّ صفراء، قال ذو الرمة:

بيضـاءُ صفـراءُ قـد تنازَعَهـا لونـان مـن فضَّـةٍ ومـن ذَهـبِ

---

(١) أي: يفوح منها العطر.

(٢) الكلل: الستائر.

(٣) ربما هي التُوَم: اللآلئ.

قالوا: ليس المرأة الجميلة التى تأخذها ببصرك جملة على بعد، فإذا دنت منك لم تكن كذلك، بل الجميلة التى كلما كررت بصرك فيها زادتك حسنا. وقالوا: إن أردت أن ينجب ولدك، فأغضبها ثم قَعْ عليها. قال الشاعر:

ممن حملن به وهُنَّ عواقدٌ ... حبك النطاق معاش غير مهبلِ
حملت به فى ليلة مزورة ... كرهًا وعقدُ نطاقها لم يحللِ

الفصل الثالث فى صفة المرأة السوء نعوذ بالله تعالى منها

فى حكمة داود عليه السلام: إن المرأة السوء مثل شرك الصياد لا ينجو منها إلا من رضى اللّه تعالى عنه. وقيل: المرأة السوء غلّ يلقيه اللّه تعالى فى عنق مَنْ يشاء من عباده. وقيل لأعرابىّ كان ذا تجربة للنساء: صف لنا شرّ النساء، فقال: شرهن النحيفة الجسم، القليلة اللحم، المحياض الممراض، المصفرة الميشومة، العسرة المبشومة، السلطة البطرة، النفرة، السريعة الوثبة، كأن لسانها حربة، تضحك من غير عجب، وتبكى من غير سبب، وتدعو على زوجها بالحرب، أنف فى السماء، واست فى الماء، عرقوبها حديد، منتفخة الوريد، كلامها وعيد، وصوتها شديد، تدفن الحسنات، وتفشى السيئات، تعين الزمان على بعلها، ولا تعين بعلها على الزمان، ليس فى قلبها عليه رأفة، ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت، كثيرة الدعاء، قليلة الإرعاء، تأكل لمًّا، وتوسع ذمًّا، ضيِّقة الباع، مهتوكة القناع، صبيُّها مهزول، وبيتها مزبول، إذا حدّثت تشير بالأصابع، وتبكى فى المجامع، بادية من حجابها، نباحة عند بابها، تبكى وهى ظالمة، وتشهد وهى غائبة، قد دلى لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور، ابتلاها اللّه بالويل والثبور وعظائم الأمور.

ويقال: إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإنّ علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من ورائه، وإن كانت محبة له لا تقلع عن النظر إليه. قال بعضهم:

لقد كنتُ محتاجًا إلى موت زوجتى ... ولكنّ قرينَ السوء باقٍ مُعمّرُ
فيا ليتها صارَتْ إلى القبر عاجلا ... وعذّبَهَا فيه نكيرٌ ومنكرُ

وقال زيد بن عمير:

أعاتبهَا حتّى إذا قلت أقلعت[1] ... أبى اللّه إلا خزيَهَا فتعودُ
فإن طمثت قادَتْ طهرَتْ زَنَتْ ... فهاتيك تزنى دائمًا وتقودُ

وقال داود عليه الصلاة والسلام: المرأة السوء على بعلها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير، والمرأة الصالحة كالتاج المرصع بالذهب كلما رآها قرّت عينه برؤيتها، واللّه أعلم.

الفصل الرابع فى مكر النساء وغدرهن وذمهنّ ومخالفتهنّ

فى حكمة داود عليه الصلاة والسلام: وجدت فى الرجال واحدًا فى ألف، ولم أجد واحدة فى جميع النساء. وقيل: إن عيسى عليه الصلاة والسلام لقى إبليس، وهو يسوق أربعة أحمرة عليها أحمال فسأله فقال: أحمل تجارة وأطلب مشترين، فقال: ما أحدها؟ قال الجور. قال: من يشتريه؟ قال السلاطين. قال: فما الثانى؟ قال: الحسد، قال: فمن يشتريه؟ قال العلماء. قال: فما الثالث؟ قال الخيانة. قال: فمن يشتريها؟ قال: التجار. قال: فما الرابع؟ قال: الكيد. قال: فمن يشتريه؟ قال النساء.

---

(١) أقلعت: أقلت.

وقال حكيم: النساء شرّ كلهنّ، وشرّ ما فيهنّ قلة الاستغناء عنهنّ. وقالت الحكماء: لا تثق بامرأة ولا تغترّ بمال وإن كثر. وقيل: النساء حبائل الشيطان. قال الشاعر:

تَمَتَّعْ بها ما ساعَفَتْكَ[1] ولا تكُنْ ... جزوعًا إذا بانَتْ فسوف تبينُ
وخُنْهَا وإن كانتْ تَفِي لَكَ إنّها ... على قِدمِ الأيّامِ سوفَ تَخُونُ
وإن هي أعطَتْكَ الليانَ فإنّها ... لغيرِكَ مِن طُلّابِها سَتَلينُ
وإن حَلَفَتْ أن ليس تنقضُ عهدها ... فليس لمخضوبِ البَنانِ يَمينُ[2]
وإن سكَبَتْ يومَ الفراقِ دموعَهَا ... فليس لَعَمْرِ اللّهِ ذاك يقينُ

وقال ابن بشار:

رأيتُ مواعيدَ النساءِ كأنّها ... سَرابٌ لمرتادِ المناهلِ حافلُ
ومنتظرُ الموعودِ منهنّ كالذى ... يؤملُ يومًا أن تلين الجنادلُ

وقال بعض الحكماء: لم تنه المرأة عن شيء قط إلى فعلته. وقال الغنوى:

إنّ النساءَ متى ينهينَ عن خلق ... فإنّهُ وَاقعٌ لابُدَّ مَفعُولُ

وقال النخعي: من اقتراب الساعة طاعة النساء. ويقال: من أطاع عِرسه فقد أضاع نفسه. وقال عليٌّ رضى اللّه تعالى عنه: إياك ومشاورة النساء؛ فإن رأيهن إلى أَفَن، وعزمهن إلى وَهَن، اكفف أبصارهن بالحجاب؛ فإن شدة الحجاب خيرٌ لهنّ من الارتياب، وليس خروجهنّ بأضرَّ من دخول مَنْ لا يوثق به عليهن، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل. قال السمعاني:

لا تأمَنَنَّ على النّساءِ ولو أخَا ... ما في الرجالِ على النّساءِ أمينُ
إنَّ الأمينَ وإن تحفظ جهده ... لا بُدَّ أن بنظرةٍ سيخونُ

وقال غيره:

لا تركَنَنَّ إلى النساء ... ولا تثقْ بعهودِهِنَّ
فرضَاؤهنّ جَميعهُنَّ ... مُعلّقٌ بفرُوجِهِنَّ

وقال عليّ رضى اللّه تعالى عنه: لا تطلعوا النساء على حال، ولا تأمنوهن على مال، ولا تذروهن إلا لتدبير العيال، إن تركْنَ وما يُردْنَ أوردْنَ المهالك، وأفسدْنَ الممالك، ينسين الخير، ويحفَظْنَ الشرّ يتهافَتْنَ في البهات، ويتمادَيْنَ في الطغيان.

وقال أبو بكر رضى اللّه تعالى عنه: ذلَّ من أسندَ أمره إلى المرأة. وقيل: إنّ صيادًا أتى أبرويز بسمكة فأعجبه حسنها وسمنها فأمر له بأربعة آلاف درهم، فخطأته شيرين زوجته فقال لها: ماذا أفعل؟ فقالت له: إذا جاءك فقل له: أذكرًا كانت أم أنثى؟ فإن قال لك ذكر فاطلب منه الأنثى، وإن قال لك أنثى، فاطلب منه الذكر، فلما أتاه سأله فقال: كانت أنثى. فقال: ائتنى بذكرها. فقال: عمر اللّه الملك كانت بكرًا لم تتزوّج، فقال: زه، وأمر له بثمانية آلاف درهم. وقال: اكتبوا في الحكمة: الغدر ومطاوعة النساء يؤدّيان إلى الغرم الثقيل. وقال حكيم: اعص النساء وهواك، وافعل ما شئت. وقال عمر رضى اللّه تعالى عنه: أكثروا لهنّ من قول: لا؛ فإنّ نعم تغريهنّ على المسألة. وقال: استعيذوا باللّه من شرار النساء، وكونوا من خيارهنّ على حذر.

---

(١) ساعَفَتْكَ: آتتك.

(٢) أي: ليس للنساء يمين صادقة.

ومما قيل في الباءة: ذكر الجماع عند الإمام مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه فقال: هو نور وجهك، ومخّ ساقك، فأقلل منه أوكثر. وقال معاوية رضى الله تعالى عنه: ما رأيت نهماً فى النساء إلاّ عرفت ذلك فى وجهه. وخلا تمام بجارية له فعجز عنها فقال: ما أوسع حرك. فأنشأت تقول:

أنتَ الفِداءُ لمن قد كان يملؤه ... ويشتكى الضِّيقَ مِنه حِين يَلْقَاه

وقال آخر:

شِفاءُ الحبِّ تقبيلٌ ولَمْسٌ ... وَسَحْبٌ بالبطَون عَلَى البطَون
ورَهْزٌ تَذْرُفُ العينان مِنْهُ ... وأخذٌ بالمناكبِ والقَرُون

وقالت امرأة من أهل الكوفة: دخلت على عائشة بنت طلحة فسألت عنها، فقيل: هى مع زوجها فى القيطون، فسمعت شهيقًا وشخيرًا لم أسمع مثله. ثم خرجت إلىّ وجبينها يتصبب عرقًا، فقلت لها: ما ظننت حرّة تفعل هذا بنفسها! فقالت: إن الخيل تشرب بالصفير.

وعاتبت امرأه زوجها قلة إتيانها فأجابها يقول:

أنا شيخٌ ولى امرأةٌ عجوزُ ... تراودنى على ما لا يجوزُ
وقالَتْ رَقَّ أيرك[1] مذ كبرنا ... فقلتُ بَلَى قد اتسع القفيز[2]

وكان لرجل امرأة تخاصمه، وكلما خاصمته قام إليها فواقعها، فقالت: ويحك كلما تخاصمنى تأتينى بشفيع لا أقدر على ردّه. وأتى رجل إلى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وقال: إن لى امرأة كلما غشيتها تقول: قتلتنى، فقال: اقتلها بهذه القتلة وعلىَّ إثمها. وقالوا: من قلَّ جماعه فهو أصحُّ بدنًا، وأنقى جلدًا، وأطول عمرًا، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان وذلك أنه ليس فى الحيوان أطول أعمارً من البغال، ولا أقصر أعمارًا من العصافير وهى أكثرها سفادًا، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الخامس فى الطلاق وما جاء فيه

عن عبد الرحمن بن محمد ابن أخى الأصمعى قال: قال عمى للرشيد فى بعض حديثه: يا أمير المؤمنين بلغنى أن رجلاً من العرب طلق فى يوم واحد خمس نسوة، قال: وكيف ذلك؟ وإنما لا يجوز للرجل غير أربعة. قال: يا أمير المؤمنين كان متزوّجًا بأربعة فدخل عليهنّ يومًا، فوجدهنّ متنازعات، وكان شريرًا، فقال: إلى متى هذا النزاع؟ ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلانة اذهبى فأنت طالق. فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق، ولو أدّبتها بغير ذلك لكان أصلح، فقال لها: وأنت أيضًا طالق. فقالت له الثالثة: قبحك الله فوالله لقد كانتا إليك محسنتين. فقال لها: وأنت أيضًا أيتها المعدِّدة أياديهما[3] طالق. فقالت الرابعة وكانت هلالية: ضاق صدرك إلا أن تؤدّب نساءك بالطلاق! فقال لها: وأنت طالق أيضًا. فسمعته جارة له فأشرفت عليه، وقالت له: والله ما شهدت العرب عليك ولا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم، ووجدوه فيكم أبيت إلاّ طلاق نسائك فى ساعة واحدة. فقال لها: وأنت أيها المتكلمة فيما لا يعنيك طالق، إن أجازنى بعلك. فأجابه زوجها: قد أجزت لك ذلك، فعجب الرشيد من ذلك.

---

(١) ذكر الرجل.
(٢) القفيز: كناية عن فرج الأنثى.
(٣) أياديهما: نعمهما.

وطلق رجل امرأته فلما أرادت الارتحال قال لها: اسمعى وليسمع من حضر: إنى واللّه اعتمدتك برغبة، وعاشرتك بمحبة، و لم أجد منك زلّة، و لم يدخلنى عنك ملة، ولكن القضاء كان غالبًا. فقالت المرأة: جزيت من صاحب ومصحوب خيرًا، فما استقللت خيرك، ولا شكوت ضيرك، ولا تمنيت غيرك، ولا أجد لك فى الرجال شبيهًا، وليس لقضاء اللّه مدفع، ولا من حكمه علينا ممنع.

وقال رجل لابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما: ما تقول فى رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ فقال: يكفيه من ذلك عدد نجوم الجوزاء.

ذكر من طلق امرأته فتبعتها نفسه، قال الهيثم بن عدى: كانت تحت ابن الغربان بن الأسود بنت عمّ فطلقها فتبعتها نفسه، فكتب إليها يعرّض لها بالرجوع فكتبت إليه تقول:

إن كنتَ ذا حاجةٍ فاطلُبْ لها بدلا ... إنّ الغزال الذى ضيعت مشغولُ

فكتب إليها يقول:

إن كانَ ذا شغلٍ فاللّه يكلؤه ... فقد لَهَوْنَا به والحبلُ موصولُ
وقد قضَيْنَا من استظرافه وَطَرًا ... وفى الليالى وفى أيامها طولُ

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سُعْدى فلما تزوّجت اشتدّ ذلك عليه، وندم على ما كان منه، فدخل عليه أشعب، فقال له: هل لك أن تبلغ سُعْدى عنى رسالة، ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: أقبضنيها. فأمر له بها، فلما قبضها قال له: هات رسالتك، قال: ائتها فأَنْشِدْهَا:

أسُعْدَى هَل إليكِ لَنا سبيلُ ... ولا حتىَّ القيامة من تلاقِ
بلَى ولعلَّ دَهْرًا أن يُواتى ... بموتٍ من خليلك أو فراقِ

قال: فأتاها أشعب فاستأذن عليها فأذنت له فدخل. فقالت له: ما بَدا لك فى زيارتنا يا أشعب؟ فقال: يا سيدتى أرسلنى إليك الوليد برسالة، ثم أنشدها الشعر، فقالت لجواريها: عليكن بهذا الخبيث، فقال: يا سيدتى إنه دفع لى عشرة آلاف درهم فهى لك، وأعتقينى لوجه اللّه، فقالت: واللّه لا أعتقتك أو تبلغ إليه ما أقول لك. قال: يا سيدتى فاجعلى لى جعلا. قالت: لك بساطى هذا. قال: قومى عنه. فقامت فأخذه وألقاه على ظهره وقال: هات رسالتك فقالت:

أَتَبكِى عَلى سُعْدى وأنتَ تركتَهَا ... فَقَد ذهبَتْ سُعْدى فما أنت صانعُ

فلما بلغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأخذته كظمة، فقال لأشعب: اختر منى إحدى ثلاث، إما أن أقتلك، وإما أن أطرحك من هذا القصر، وإما أن ألقيك إلى هذه السباع فتفترسك. فتحير أشعب وأطرق مليًّا، ثم قال: يا سيدى ما كنت لتعذّب عينًا نظرت إلى سُعْدى، فتبسم وخلّى سبيله.

وممن طلق فتبعتها نفسه الفرزدق الشاعر طلق النوّار ثم ندم على طلاقها وقال:

ندمتُ نَدامةَ الكَسَعىِّ لَما ... غدتْ منى مطلقةٍ نوّارُ
فأصبحتُ الغداة ألومُ نفسى ... بأمرٍ ليس لى فيه اختيارُ
وكانَتْ جنتى فخرجتُ منها ... كآدمَ حين أخرجَهُ الضرارُ
ولو أنى ملكتُ بها يمينى ... لكان على للقدرِ الخيارُ

وممن طلق امرأته فتبعتها نفسه فندم قيس بن ذريح، وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها، وندم على ذلك فأنشد يقول:

فنى صبرى وعاودنى رداعى ... وكان فراقُ لُبْنى كالخداع

تكنّفنـــي الوشـــاةَ فـــأزعجوني ... فيـــا لَلنّـــاسِ لِلّواشـــي المطـــاعِ
فـــأصبحتُ الغـــداةَ ألـــومُ نفســـي ... علـــى أمـــرٍ وليـــس بمســـتطاعِ
كمغبـــونٍ يعـــضُّ علـــى يدَيْـــه ... تبيَّـــن غبنـــه عنـــد البيـــاعِ

وحدث العتبى قال: جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم، وهو على الكوفة، فقال: إن امرأتي هذه شجتني. فسألها عبد الرحمن، فقالت: نعم يا مولاى غير متعمدة لذلك، كنت أعالج طيبًا فوقع الفهر من يدى على رأسه، وليس عندى علم، ولا يقوى بدنى على القصاص. فقال للرجل: علام تمسكها، وقد فعلت بك ما أرى؟ فقال: يا مولاى إن صداقها على أربعة آلاف درهم ولا تطيب نفسى بفراقها. قال: فإن أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها؟قال:نعم.قال:هى لك.قال: فهى إذن طالق.فقال لها عبد الرحمن: احبسى علينا نفسك،وأنشأ يقول:

يـا شـيخَ يـا شـيخَ مـن دلاك بـالغزل ... قـد كنـتَ يـا شـيخَ عـن هـذا بمعتزلِ
رُضْت الصِّعابَ فلمْ تَحِسْن رِيَاضَتَها ... فـاعمدْ لنفسـك نحـو القـرحِ الذلـلِ

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والسبعون فى تحريم الخمر وذمها والنهى عنها

قد أنزل اللّه تعالى فى الخمر ثلاث آيات: الأولى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[1] الآية، فكان من المسلمين من شارب ومن تارك إلى أن شرب فدخل فى الصلاة فهجر فنزل قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[2]، فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها حتى شربها عمر رضى اللّه تعالى عنه فأخذ بلحى بعير، وشجّ به رأس عبد الرحمن بن عوف، ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الأسود بن يعفر يقول:

وكائن بالقليبِ[3] قليبِ بدرِ ... من الفتيانِ والعَرَبِ الكِرَامِ
أيوعدنى ابن كبشةَ إن سنحيا ... وكيف حياةَ أصداءٍ وهامِ
أيعجزُ أن يردَّ الموتَ عنى ... وينشرنى إذا بليَتْ عظامى
ألا مَنْ مُبلغ الرحمن عَنّى ... بأنى تاركٌ شهرَ الصيامِ
فقلْ للّه يمنعُنى شرابى ... وقل للّه يمنعنى طعامى

فبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فخرج مغضبًا يجر رداءه فرفع شيئًا كان فى يده فضربه به. فقال: أعوذ باللّه من غضبه وغضب رسوله؛ فأنزل اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾[4] فقال عمر رضى اللّه تعالى عنه: انتهينا انتهينا.

ومن الأخبار المتفق عليها فى تحريمها قول سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لا يدخل الجنة مدمن خمر»[5]، وقوله صلى اللّه عليه وسلم: «أول ما نهانى ربى بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر، وملاحاة الرجال»[6] . وممن تركها فى الجاهلية عبد اللّه بن جدعان وكان جوادًا من سادات قريش، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبى الصلت الثقفى فضربه على عينه فأصبحت عين أمية مخضرةً يخاف عليها الذهاب. فقال له عبد اللّه: مابال عينك؟ فسكت. فألحّ عليه فقال: ألست ضاربها بالأمس؟ فقال: أو بلغ منى الشراب ما أبلغ معه إلى هذا؟ لا أشربها بعد اليوم. ثم دفع له عشرة آلاف درهم. وقال: الخمر علىَّ حرام، لا أذوقها بعد اليوم أبدًا.

وممن حرّمها فى الجاهلية أيضًا قيس بن عاصم. وذلك أنه سكر ذات ليلة فقام لابنته أو لأخته فهربت منه، فلما أصبح سأل عنها، فقيل له: أو ما علمت ما صنعت البارحة؟ فأخبر بالقصة فحرم الخمر على نفسه. وممن حرمها فى الجاهلية أيضًا العباس بن مرداس، وقيس بن عاصم وذلك أن قيسًا شرب ذات ليلة فجعل يتناول القمر ويقول: واللّه لا أبرح حتي أنزله ثم يثب الوثبة بعد الوثبة، ويقع على وجهه فلما أصبح وأفاق قال: ما لى هكذا؟ فأخبروه بالقصة فقال: واللّه لا أشربها أبدًا. وقيل للعباس بن مرداس: لم تركت الشراب وهو يزيد فى سماحتك؟ فقال: أكره أن أصبح سيد قومى، وأمسى سفيههم.

ودخل نصيب على عبد الملك بن مروان فأنشده فأعجبه إنشاده وشعره، ووصله ثم دعا بالطعام فطعم منه، فقال له عبد الملك: يا نصيب هل لك فيما ينادم عليه؟ قال يا أمير المؤمنين جلدى أسود، وخلقى مشوّه، ووجهى

---

(١) سورة البقرة:٢١٩.
(٢) سورة النساء:٤٣.
(٣) القليب: مدفن قتلى المشركين فى غزوة بدر.
(٤) سورة المائدة:٩١.
(٥) أخرجه: النسائى فى الأشربة ٥٦٧٢.
(٦) أخرجه: البخارى فى بدء الوحى ١٤٣٨٦.

قبيح، وتكفيني بمجالستك ومؤاكلتك و لم يوصلني إلى ذلك إلا عقلي وأنا أكره أن يدخل عليه ما ينقصه. فأعجبه كلامه ووصله. وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج في وفدة وفدها عليه: هل لك في الشراب؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا خلاف لما أمرت، ولكن أنا أمنع أهل عملي منه، وأكره أن أمنعهم عن شيء ولا أمتنع منه وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[(٢)].

وقيل لأعرابي: لم لا تشرب النبيذ؟ فقال: لاشرب ما يشرب عقلي. وقال الضحاك بن مزاحم لرجل: ما تصنع بشرب النبيذ؟ قال: يهضم طعامي. قال: أما أنه يهضم من دينك وعقلك أكثر. وقال ابن أبي أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر:

ألا يا لقومي ليس في الخمرِ رِفْعةٌ فلا تقربُوا مِنْها فلَستُ بفاعِلِ
فإني رأيتُ الخمرَ شَيْئًا و لم يَزل أخُو الخمرِ دَخّالاً لشرّ المنازلِ

وقال الحسن: لو كان العقل يشترى لتغالى الناس في ثمنه، فالعجب ممن يشترى بماله ما يفسده. وقال عليه الصلاة والسلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنساء حبائل الشيطان، والخمر داعية إلى كل شر» وقال بعضهم:

بلوت[(٣)] نبيذَ الخمر في كلّ بلدةٍ فليسَ لإخوانِ النبيذ حفاظٌ[(٤)]
إذا دارَتِ الأرطالُ أرضوك بالمنى وإن فقدوها فالوجوهُ غلاظُ

وقال حكيم: إياك وإخوان النبيذ، فبينما أنت متوج عندهم مخدوم مكروم معظم، إذ زلت بك القدم، فجرّوك على شوك السلم فاحفظ قول القائل فيه:

وكلُّ أناسٍ يحفظون حَريمهم وليسَ لأصحابِ النبيذِ حريمُ
فإن قلتُ هَذا لَمْ أقلْ عَن جهالةٍ ولكنّني بالفاسِقِينَ عليمُ

وللأعرج الطائي:

تركتُ الشِّعرَ واستبدلتُ منه إذا داعي صلاةِ الصبح قاما
كتابُ اللّه ليس له شريكٌ وودّعتُ المدامةَ والنداما

وقال الصفدي:

دَعِ الخمرَ فالراحاتُ في تَرْكِ راحِها وفي كأسِها للمرءِ كسوةَ عارِ
وكم ألبست نفسَ الفتى بعد نورها مدارعَ قارِ في مدارِ عقارِ

نكتة: اجتمع نصراني ومحدث في سفينة فصبَّ النصراني خمرًا من زقٍّ كان معه في شربة وشرب، ثم صب فيها وعرض على المحدث، فتناولها من غير فكر ولا مبالاة، فقال النصراني: جعلت فداءك إنما هي خمر. قال: من أين علمت أنها خمر؟ قال: اشتراها غلامي من يهودي، وحلف أنها خمر. فشربها المحدث على عجل، وقال للنصراني: يا أحمق نحن أصحاب الحديث نضعف مثل سفيان بن عيينة، ويزيد بن هارون، أفنصدّق نصرانيًا عن غلامه، عن يهودي والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد.

---

(١) سورة هود:٨٨.
(٢) سورة البقرة:٤٤.
(٣) بلوت: اختبرت.
(٤) حفاظٌ: كرامة وأنفة.

ومن المجون فى ذلك ما حكى أن سكرانًا استلقى على طريق فجاء كلب فلحس شفتيه فقال: خدمك بنوك ولا عدموك. فبال على وجهه فقال: وماء حار أيضًا بارك الله فيك.

وقيل: حالة السكارى ثلاثة: قرد حرك رأسه فرقص، وكلب هارش فنبح، وحية زويت فنامت.

ومرّ عقال الناسك بمرداس بن خدام الأسدى فاستسقاه لبنًا فصبّ له خمرًا وعلاه بلبن فشربه وسكر ولم يتحرك ثلاثة أيام، فقال:

سقيت عقالاً بالعشيَّةِ شربة | فمالت بعقل الكاهلى عقالى
قرعتُ بأم الخلِّ حبةَ قلبِهِ | فلم ينتعش منها ثلاثَ ليالِ

ويقال: الخمر مصباح السرور، ولكنها مفتاح الشرور.

اللّهم تب علينا وعلى العصاة والمذنبين برحمتك يا أرحم الراحمين آمين.

الباب الخامس والسبعون فى المزاح والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول

الفصل الأول فى النهى عن المزاح

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «المزاح استدراج من الشيطان واختلاع من الهوى». وعن عليّ: ما مزح أحد إلا مج[١] من عقله مجة. وعنه: إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكًا، وإن حكيت ذلك عن غيرك. وكتب عمر رضى اللّه تعالى عنه إلى عماله: امنعوا الناس من المزاح فإن يذهب المروءة، ويوغر الصدور. وقال بعض الحكماء: تجنب سوء المزاح، ونكد الهزل، فإنهما بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد غمٍّ. وقال آخر: لكل شيء بذر، وبذر العداوة المزاح. وعن محمد بن المنكدر قال: قالت لى أمى: لا تمازح الصبيان تهن عندهم. وخرج أعرابى بالليل فإذا بجارية جميلة، فراودها، فقالت أما لك زاجر من عقلك إذا لم يكن لك واعظ من دينك؟ فقال: واللّه ما يرانا إلا الكواكب، فقالت له: يا هذا وأين مكوكبها؟ فأخجله كلامها فقال لها: إنما كنت مازحًا، فقالت:

فإيَّاك إيَّاكَ المزاحَ فإنَّهُ ... يُجرى[٢] عليك الطفلَ والرجلَ النذلا
ويُذهِبُ ماءَ الوجه بعد بهائه ... ويورثُ بعد العزِّ صاحبه ذَلاَّ

وقال الأحنف: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئًا عرف به.

ومما روى عن الصحابة رضوان اللّه عليهم: أنهم كانوا يتحادثون ويتناشدون الأشعار، فإذا جاء ذكر اللّه انقلبت حماليقهم[٣] كأنهم لم يعرفوا أحدًا.

الفصل الثانى فى الترخيص فى المزاح والبسط والتنعم

لا بأس بالمزاح ما لم يكن سفهًا، واللّه تعالى وعد فى اللمم بالتجاوز والعفو فقال: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾[٤] وقيل: إن يحيى بن زكريا لقى عيسى عليهما الصلاة والسلام فقال: ما لى أراك لاهيًا كأنك آمن، فقال له عيسى: ما لى أراك عابسًا كأنك آيس، فقالا: لا نبرحُ حتى ينزل علينا الوحى. فأوحى اللّه إليهما أن أحبكما إلىّ أحسنكما ظنًا بى... ويروى: أن أحبكما إلىّ الطلق البسَّام. وقال عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه لجارية: خلقنى خالق الخير وخلقك خالق الشرّ فبكت الجارية. فقال عمر: لا بأس عليك؛ فإن اللّه خالق الخير والشر.

قال الشاعر:

إنَّ الصديقَ يريدُ بَسْطَ مَازحًا ... فإذا رأى منك الملالةَ يقصرُ
وترَى العَدوّ إذا تيقّن ... يؤذيك بالمزحِ العنيفِ يكثرُ

وكان رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلم يمزح، ولا يقول إلاّ حقًا. فمن مزحه صلى اللّه عليه وسلم أنه جاءه رجل فقال يا رسول اللّه: احملنى على جمل، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أحملك إلا على ولد الناقة»، فقال:

---

(١) مج: اعترف.
(٢) يُجرى: يُجرئ.
(٣) الحِملاق: باطن الجفن.
(٤) سورة النجم: ٣٢.

يا رسول الله، إنه لا يطيقنى، فقال له الناس: ويحك هل الجمل إلا ولد الناقة. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة من الأنصار: الحقى زوجك ففى عينيه بياض». فسعت إلى زوجها مرعوبة فقال لها: ما دهاك؟ قالت: إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لى: إن فى عينيك بياضا. فقال: نعم والله وسوادًا. وأتته أيضًا عجوز أنصارية فقالت: يا رسول الله، ادع الله لى أن يدخلنى الجنة. فقال لها: «يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز. فولت المرأة تبكى، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال لها: «أما قرأت قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا**﴾»[1].

وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: سابقتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته فلما كثر لحمى سابقته فسبقنى فضرب بكتفى وقال: «هذه بتلك». وعنها أيضًا قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل وأنا ألعب مع صويحباتى ولا يعيب علىّ.

وسئل النخعى: هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان فى قلوبهم مثل الجبال الرواسى. وكان نُعَيْمان الصحابى من أولع الناس بالمزاح والضحك. قيل: إنه يدخل الجنة وهو يضحك. فمن مزحه أنه مرّ يومًا بمخرمة بن نوفل الزهرى وهو ضرير فقال له: قدنى حتى أبول فأخذ بيده حتى أتى به إلى المسجد فأجلسه فى مؤخره، فصاح به الناس: إنك فى المسجد. فقال: من قادنى؟ قالوا: نعيمان. قال: لله علىّ نذر أن اضربه بعصاى هذه إن وجدته. فبلغ ذلك نعيمان فجاء إليه وقال له: يا أبا المنور هل لك فى نعيمان؟ قال: نعم. قال: ها هو قائم يصلى، وأخذ بيده وجاء به إلى عثمان بن عفان وهو يصلى: وقال: هذا نعيمان، فعلاه بعصاه فصاح الناس: أمير المؤمنين. فقال: مَن قادنى؟ قالوا: نعيمان، فقال: والله لا تعرضت له بسوء بعدها.

وقال عطاء بن السائب: كان سعيد بن جبير يقصّ علينا حتى يبكينا، وربما لم يقم حتى يضحكنا. وكان رجل يسمى تاج الوعظ، يعظ الناس، ويقصّ عليهم حتى يبكيهم، ثم لم يقم حتى يضحكهم ويبسط آمالهم. فمن لطائفه أنه حكى يومًا بعد ما فرغ من ميعاده قال: سمعت الناس يتكلمون فى التصحيف وكنت لا أعرفه، فوقع فى قلبى أن أتعلمه فدخلت فى سوق الكتبية واشتريت كتابًا فى التصحيف فأوّل ما تصفحته وجدت فى سكباج تصحيفه شك تاج، فرميت الكتاب من يدى، وحلفت أنى لا أشتغل به أبدًا فضحك الناس حتى غشى عليهم.

ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان فوجده يتأوّه، فقال: يا أمير المؤمنين لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب ويباسطك استرحت، فقال: لست بصاحب لهو. فقال: ما الذى تشكوه يا أمير المؤمنين؟ قال: هاج بى عرق النسا فى ليلتى هذه فبلغ منى ما ترى، فقال: إن بديحا مولاى أرقى الخلق منه، فأمر بإحضاره. فلما مثل بين يديه قال عبد الملك: يا بديح ارق رجلى، فقال: يا مولاى أنا أرقى الناس لها، ثم وضع يده عليها، وجعل يقول ما لا يسمع، فقال عبد الملك: قد وجدت راحة بهذه الرقية، أين فلانة ائتونى بها تكتبها لئلا يهيج بى الوجع بالليل، فقال بديح: الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعجيل جائزتى، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقال: يا أمير المؤمنين الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جائزتى إلى بيتى، قالّ: تحمل فحملت. فقال: يا أمير المؤمنين الطلاق يلزمه ما رقيتت رجلك إلا مباسطة بقول نصيب حيث قال:

ألاَ إنَّ ليلى العامريةَ أصبحَتْ … على البعدِ منى ذنب غير تَنَقّمُ

فقال: ويلك ما تقول، فقال: الطلاق يلزمه ما رقيتك إلا بها، فقال: اكتمها على، فقال: كيف وقد سارت بها الركبان إلى أخيك بمصر، فضحك حتى فحص برجليه، وأعجبه هذا البسط.

---

(١) سورة الواقعة: ٣٥ - ٣٧.

وروى أن ابن سيرين كان ينشد قول الشاعر:

أنبئتُ أن فتاةً كنتُ أخطبها ... عرقوبها مثل شهرِ الصوم فى الطولِ

ثم يضحك حتى يسيل لعابه.

ومما جاء فى الشطرنج واللعب به والنهى عنه والترخيص فيه: أما النهى عنه فقد قيل: إن عليًّا كرّم اللّه وجهه مرّ بقوم يلعبون الشطرنج. فقال لهم: ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟! وكان أبو القاسم الكسروى يقول: لا ترى شطرنجيًّا غنيًّا إلا بخيلاً، ولا فقيرًا إلا طفيليًّا، ولا تسمع نادرة باردة إلا على الشطرنج. واحتضر شطرنجى فصار يقول: شاه مات، شاه مات، مكان الشهادتين حتى مات.

وأما الترخيص فيه فقد سئل الشعبى عن اللعب بالشطرنج، فقال: لا بأس به إذا لم يكن هناك تقامر وتبادل، وقال بعضهم: كنا فى السجن مع ابن سيرين فكان يرانا ونحن نلعب بالشطرنج فيقوم فيأتى ويقول: ارفع الفرس، ارفع كذا، افعل كذا، ولا يعيب علينا. وعن سعيد بن المسيب قال: كنت ألعب بالشطرنج مع صديقى فى بيته حين خفت الحجاج. وما قيل لعلىّ بن الجهم فى الشطرنج، وقيل للمأمون:

أرض مربعة حمراء من أدم ... ما بين حريين معروفين بالكرم

تذكرا الحرب فاحتالا لها فطنًا ... من غير أن يأثما فيها بسفك دم

هذا يغير على هذا وذاك على ... هذا يغير وعين الحزم لم تنم

فانظر إلى همم جاشت بمعركة ... فى عسكرين بلا طبل ولا علم

قالوا: إن سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يرون بقتال، فإذا تنازع ملكان فى كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج، فيأخذها الغالب من غير قتال، وقيل إنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر، القطعة منه بثلاثة آلاف دينار.

ومما جاء فى لعب الغلمان ما حكى أن غلمانًا من أهل البحرين خرجوا يلعبون بالصوالجة وأسقف البحرين قاعد فوقعت الكرة على صدره فأخذها فجعلوا يطلبونها منه فأبى. فقال غلام منهم: سألتك بحق محمد صلى اللّه عليه وسلم إلا رددتها علينا فأبي لعنه اللّه، وسبّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فأقبلوا عليه بصوالجهم فما زالوا يخبطونه حتى مات لعنة اللّه عليه، فرفع ذلك إلى عمر رضى اللّه تعالى عنه، فواللّه ما فرح بفتح ولا غنيمة كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف وقال: الآن عز الإسلام، إن أطفالاً صغارًا شتم نبيهم، فغضبوا له وانتصروا، وأهدر دم الأسقف.

واللّه سبحانه وتعالى أعلم، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس والسبعون فى النوادر وفيه فصول

الفصل الأول فى نوادر العرب

خرج المهدى يتصيد فغار به فرسه حتى وقع فى خباء أعرابى، فقال: يا أعرابى هل من قرى؟ فأخرج له قرص شعير فأكله، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه، ثم أتاه بنبيذ في ركوة فسقاه، فلما شرب قال: أتدرى من أنا؟ قال: لا! قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة. قال: بارك الله فى موضعك، ثم سقاه مرة أخرى فشرب، فقال: يا أعرابى أتدرى من أنا؟ فقال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة. قال: لا أنا من قواد أمير المؤمنين. قال رحبت بلادك وطال مرادك، ثم سقاه الثالثة فلما فرغ قال: يا أعرابى أتدرى من أنا؟ قال: زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين. قال: ولا ولكننى أمير المؤمنين قال: فأخذ الأعرابى الركوة فوكأها[١] وقال: إليك عنى فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله. فضحك المهدى حتى غشى عليه. ثم أحاطت به الخيل، ونزلت إليه الملوك والأشراف. فطار قلب الأعرابى فقال له: لا بأس عليك ولا خوف، ثم أمر له بكسوة ومال جزيل.

ووجد أعرابى يأكل ويتغوط ويفلى ثوبه، فقيل له في ذلك فقال: أخرج عتيقًا، وأدخل جديدًا، وأقتل عدوًّا.

وقيل لبعض الأعراب إن شهر رمضان قدم فقال: والله لأبدون شمله بالأسفار. وسمع أعرابى قارئًا يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى: ﴿**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا**﴾[٢] فقال: لقد هجانا، ثم بعد ذلك سمعه يقرأ: ﴿**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾[٣] . فقال: لا بأس هجا ومدح هذا كما قال شاعرنا:

هجوت زُهَيرًا ثُمَّ إنِّى مدحته ... وما زالتْ الأشرافُ تَهجى وتُمدح

وحضر أعرابى على مائدة يزيد بن مزيد فقال لأصحابه: أفرجوا لأخيكم. فقال الأعرابى: لا حاجة لى بإفراجكم إن أطنابى طوال - يعنى سواعده - فلما مد يده ضرط، فضحك يزيد فقال: يا أخا العرب أظن أن طنباً من أطنابك قد انقطع.

ورؤى أعرابى يغطس فى البحر ومعه خيط، وكلما غطس غطسة عقد عقدة، فقيل له: ما هذا؟ قال: جنابات الشتاء أقضيها فى الصيف.

وسرق أعرابى غاشية[٤] من على سرج ثم دخل المسجد يصلى، فقرأ الإمام: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ**﴾[٥] فقال: يا فقيه لا تدخل فى الفضول. فلما قرأ: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ**﴾[٦] قال: خذوا غاشيتكم، ولا يخشع وجهى لا بارك الله لكم فيها، ثم رماها من يده وخرج.

وحضر أعرابى مجلس قوم فتذاكروا قيام الليل فقيل له: يا أبا أمامة أتقوم الليل؟ فقال: نعم. قالوا: ما تصنع؟ قال: أبول، وأرجع أنام.

وسرق أعرابى صرة فيها دراهم، ثم دخل المسجد يصلى وكان اسمه موسى، فقرأ الإمام: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى**﴾[٧] فقال الأعرابى: والله إنك لساحر، ثم رمى الصرة وخرج.

---

(١) فوكأها: أغلقها.
(٢) سورة التوبة:٩٧.
(٣) سورة التوبة:٩٩.
(٤) الغاشية: غطاء الرأس.
(٥) سورة الغاشية:١.
(٦) سورة الغاشية:٢.
(٧) سورة طه:١٧.

وحكى الأصمعي قال: ضلت لى إبل فخرجت فى طلبها، وكان البرد شديدًا، فالتجأت إلى حيٍّ من أحياء العرب وإذا بجماعة يصلون، وبقربهم شيخ ملتف بكساء وهو يرتعد من البرد، وينشد:

أيا ربُّ إنّ البردَ أصبحَ كالحًا ... وأنت بحالى يا إلهى أعلمُ

فإن كنتُ يومًا فى جهنم مدخلى ... ففى مثل هذا اليوم طابَتْ جَهنمُ

قال الأصمعي: فتعجبت من فصاحته وقلت له: يا شيخ ما تستحى تقطع الصلاة وأنت شيخ كبير! فأنشد يقول:

أيطمع رَبِّى أن أصلّى عاريًا ... ويكسُو غيرى كسوةَ البرد والحرِ

فواللّه لا صليت ما عِشتُ عاريًا ... عشاء ولا وقت المغيبِ ولا الوترِ

ولا الصبحَ إلا يومَ شمسٍ دفيئةٍ ... وإن غيمَتْ فالويل للظهرِ والعصرِ

وإن يكسنى ربى قميصًا وجبَّةً ... أصلى له مهما أعيشُ من العمرِ

قال: فأعجبنى شعره وفصاحته فنزعت قميصًا وجبةً كانا علىَّ ودفعتهما إليه، وقلت له: البسهما وقم فصل. فاستقبل القبلة وصلى جالسًا وجعل يقول:

إليك اعتذارى من صلاتى جالسًا ... على غير طهرٍ موميًا نحو قبلتى

فما لى ببردِ الماء يَا ربِّ طاقة ... ورجلاى لا تقوى على ثَنْيِ ركبتى

ولكننى أستغفرُ للّه شاتيًا ... وأقضيكَها يا ربِّ ففى وَجْهِ صيفتى

وإن أنا لم أفعَلْ فأنتَ محكم ... بما شئت من صَفْعى ومن نَتْفِ لحيتى

قال: فعجبت من فصاحته، وضحكت عليه، وانصرفت.

وصلى أعرابى مع قوم فقرأ الإمام: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِي أَوْ رَحِمَنَا**﴾[1] فقال الأعرابى: أهلكك اللّه وحدك، إيش كان ذنب الذين معك، فقطع القوم الصلاة من شدة الضحك.

وقيل: دخلت أعرابية على قوم يصلون فقرأ الإمام: ﴿**فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ**﴾[2] وجعل يرددها، فجعلت الأعرابية تعدو وهى هاربة حتى جاءت لأختها فقالت: يا أختاه ما زال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا علىّ.

وصلى أعرابى خلف إمام فقرأ الإمام: ﴿**أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ**﴾ وكان فى الصف الأول فتأخر إلى الصف الآخر، فقرأ: ﴿**ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ**﴾ فتأخر. فقرأ: ﴿**كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ**﴾[3] وكان اسم البدوى مجرمًا، فترك الصلاة وخرج هاربًا وهو يقول: واللّه ما المطلوب غيرى، فوجده بعض الأعراب، فقال له: ما لك يا مجرم؟ فقال: إن الإمام أهلك الأولين، والآخرين، وأراد أن يهلكنى فى الجملة واللّه لا رأيته بعد اليوم.

وجلس بعض الأعراب يشرب مع ندمائه فاحتاج إلى بيت الخلاء فدلوه عليه، فلما دخل جعل يضرط ضرطًا شنيعًا فضحكوا عليه، فأنشد يقول:

إذا ما خلا الإنسان فى بيت غائطٍ ... تراخَتْ بلا شكٍّ مصاريعُ فقحته[4]

فمَنْ كان ذا عقلٍ فيعذر ضارطًا ... ومن كان ذا جهلٍ ففى وسط لحيته

---

(١) سورة الملك:٢٨.

(٢) سورة النساء:٣.

(٣) سورة المرسلات:١٦ - ١٧.

(٤) فقحته: دبره.

وكان لسابور ملك فارس نديم مضحك يسمى مرزوان، فظهر له من الملك جفوة، فلما زاد ذلك عليه تعلم نبيح الكلاب، وعوى الذئاب، ونهيق الحمير، وصهيل الخيل، وصوت البغال. ثم احتال حتى دخل موضعًا بقرب خلوة الملك وأخفى أمره، فلما خلا الملك بنفسه نبح نبيح الكلاب، فلم يشك الملك في أنه كلب، فقال: انظروا ما هذا؟ فعوى عواء الذئاب، فنزل الملك عن سريره، فنهق نهيق الحمير، فمضى الملك هاربًا ومضت الغلمان يتبعون الصوت، فلما دنوا منه صهل صهيل الخيل فاقتحموا عليه، وأخرجوه عريانًا. فما وصلوا به إلى الملك، ورآه مرزبان ضحك الملك ضحكًا شديدًا وقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إن اللّه عز وجل مسخني كلبًا، وذئبًا، وحمارًا، وفرسًا؛ لما غضب عليّ الملك. قال: فأمر الملك أن يخلع عليه، وأن يرد إلى مرتبته الأولى.

ومن الملح قول بعض الشعراء:

أيا مَنْ فاقَ حُسنًا واعتدالا ... ووَلَجَ في عطيَّته الشبابا

أما في مالِ رِفْدِكَ مِن زكاةٍ ... فتدخلَ فيه لي هذا النصابا

وحكى الأصمعي أن عجوزًا من الأعراب جلست في طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذًا، فسقوها قدحًا، فطابت نفسها فتبسمت، فسقوها قدحًا آخر، فاحمر وجهها وضحكت، فسقوها ثالثًا فقالت: خبروني عن نسائكم بالعراق أيشربون النبيذ؟ قالوا: نعم. قالت: زنين ورب الكعبة، واللّه إن صدقتم ما فيكم من يعرف أباه.

وصلى أعرابي خلف إمام فقرأ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾[1] ثم وقف وجعل يرددها فقال الأعرابي: أرسل لغيره يرحمك اللّه، وأرحنا وأرح نفسك.

وصلى آخر خلف إمام فقرأ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾[2] ووقف وجعل يرددها فقال الأعرابي: يا فقيه إذا لم يأذن لك أبوك في هذا الليل نظل وقوفًا إلى الصباح، ثم تركه وانصرف.

ولزم أعرابي سفيان بن عيينة مدة يسمع منه الحديث فلما أن جاء ليسافر قال له سفيان: يا أعرابي ما أعجبك من حديثنا؟ قال: ثلاثة أحاديث: حديث عائشة رضي اللّه تعالى عنها عن النبي صلى اللّه عليه وسلم: أنه كان يحب الحلوى والعسل، وحديثه عليه الصلاة والسلام: إذا وضع العشاء وحضرت الصلاة فابدأوا بالعشاء. وحديث عائشة أيضًا: ليس من البر الصوم في السفر.

وقيل لأعرابية: ما صفة الأير عندكم؟ قالت: عصبة ينفخ فيها الشيطان فلا يردُّ أمرها.

وانفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى فإذا هو بشيخ الأعراب على حمار، وهو رطب العينين، فقال له الفضل: هل أدلك على دواء لعينيك؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك. قال: خذ عيدان الهواء، وغبار الماء، فصيره في قشر بيض الذرّ، واكتحل به ينفعك، فانحنى الشيخ وضرط ضرطة قوية، وقال: خذ هذه في لحيتك أجرة وصفتك، وإن زدت زدناك، فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهر دابته.

وخرج معن بن زائدة في جماعة من خواصه للصيد فاعترضهم قطيع ظباء فتفرقوا في طلبه وانفرد معن خلف ظبي حتى انقطع عن أصحابه. فلما ظفر به نزل فذبحه، فرأى شيخًا مقبلاً من البرية على حمار، فركب فرسه، واستقبله فسلم عليه فقال: من أين؟ وإلى أين؟ قال: أتيت من أرض لها عشرون سنة مجدبة، وقد أخصبت في هذه السنة فزرعتها مقثأة[3] فطرحت في غير وقتها فجمعت منها ما استحسنته، وقصدت به معن بن زائدة لكرمه المشكور وفضله المشهور ومعروفه المأثور وإحسانه الموفور. قال: وكم أملت منه؟ قال: ألف دينار. قال: فإن قال

---

(١) سورة نوح: ١.

(٢) سورة يوسف: ٨٠.

(٣) مقثأة: أي قثاء الحمار (قتة).

لك: كثير؟ قال: خمسمائة. قال: فإن قال لك: كثير؟ قال: ثلثمائة. قال: فإن قال لك: كثير؟ قال: مائة. قال: فإن قال لك: كثير؟ قال: خمسين.

قال: فإن قال لك: كثير؟ قال: فلا أقل من الثلاثين. قال: فإن قال لك: كثير؟ قال: أدخل قوائم حمارى فى حرِّ أمه وأرجع إلى أهلى خائبًا، فضحك معن منه وساق جواده حتى لحق بأصحابه، ونزل فى منزله، وقال لحاجبه: إذا أتاك شيخ على حمار بقثاء فادخل به علىَّ. فأتى بعد ساعة فلما دخل عليه لم يعرفه لهيبته وجلالته وكثرة حشمه وخدمه، وهو متصدر فى دسته، والخدم والحفدة قيام عن يمينه وشماله وبين يديه، فلما سلم عليه قال: ما الذى أتى بك يا أخا العرب؟ قال: أملت الأمير، وأتيته بقثاء فى غير أوان، فقال: كم أملت فينا؟ قال: ألف دينار.

قال: كثير، فقال: والله لقد كان ذلك الرجل ميشومًا علىّ، قال: خمسمائة دينار. قال: كثير. فما زال إلى أن قال: خمسين دينارًا. فقال له: كثير. فقال: لا أقل من الثلاثين. فضحك معن، فعلم الأعرابى أنه صاحبه، فقال: يا سيدى إن لم تجب إلى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب، وها معن جالس. فضحك معن حتى استلقى على فراشه ثم دعا بوكيله فقال: أعطه ألف دينار، وخمسمائة دينار، وثلثمائة دينار، ومائة دينار، وخمسين دينارًا، وثلاثين دينارًا، ودع الحمار مكانه، فتسلم الأعرابى المال، وانصرف.

الفصل الثانى فى نوادر القراء والفقهاء

عن محمد بن عبد الله قال: كنا فى دهليز عثمان بن شيبة، فخرج إلينا فقال: ن والقلم فى أى سورة؟ ومر بعضهم بقارئ يقرأ: لم غلبت الترك فى أدنى الأرض، فقال له: الروم، فقال له: كلهم أعداؤنا قاتلهم الله. وكان جماعة يجلسون إلى أبى العيناء وفيهم رجل لا يتكلم، فقيل له يومًا: كيف علمك بكتاب الله؟ قال: أنا عالم به، فقيل له: هذه الآية فى أى سورة: الحمد لله لا شريك له؟ فقال له: فى سورة الحمد، فضحكوا عليه. وجاء رجل إلى فقيه، فقال: أفطرت يومًا فى رمضان؟ فقال: اقض يومًا مكانه، قال: قضيت. وأتيت أهلى وقد عملوا مأمونية فسبقتنى يدى إليها فأكلت منها. فقال: اقض يومًا آخر مكانه. قال: قضيت. وأتيت أهلى وقد عملوا هريسة فسبقتنى يدى إليها. فقال: أرى أن تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك.

وجاء رجل إلى بعض الفقهاء فقال له: أنا أعبد الله على مذهب ابن حنبل، وإنى توضأت وصليت فبينما أنا فى الصلاة إذا أحسست ببلل فى سراويلى يتلزق، فشممته فإذا رائحته خبيثة، قال الفقيه: عافاك الله، خريت بإجماع المذاهب.

وجاء رجل إلى فقيه قال: أنا رجل أفسو فى ثيابى حتى تفوح روائحى، فهل يجوز أن أصلى فى ثيابى؟ قال: نعم، لكن لا كثر الله فى المسلمين مثلك. ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما فدخل إليها وقال: إن أبا محمد شيخ كبير فلا يزهدنك فيه عمش عينيه، ودقة ساقيه، وضعف ركبتيه، ونتن إبطيه، وبخر فيه، وجمود كفيه. فقال له الأعمش: قم قبحك الله فقد أريتها من عيوبى ما لم تكن تعرفه.

وسكن بعض الفقهاء فى بيت سقفه يقرقع فى كل وقت فجاءه صاحب البيت يطلب الأجرة، فقال له: أصلح السقف فإنه يقرقع.

قال: لا تخف فإنه يسبح الله تعالى. قال: أخشى أن تدركه رقة فيسجد.

الفصل الثالث فى نوادر القضاة

كان لبعض القضاة بغلة فقرأ يومًا فى المصحف: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[١] فقال لغلامه: أطلق البغلة ورزقها على الله فصارت البغلة تدور الأسواق والأزقة، وتأكل من قشور الباذنجان، وقشور الرمان، وقشور البطيخ، وقمامات الطريق فماتت. فأمر الغلام بأحضار المشاعلية ليحملوها لظاهر المدينة فأحضرهم فطلبوا من القاضى عشرة دراهم أجرة حملها، وقالوا: ليس لنا شئ نرتزق منه إلاّ من مثل هذا، وسيدنا رجل غنى وله أشياء كثيرة العدالة والتزويج والعقود والوراقة والسجن والإطلاق وحاكمية اليكم وأجرة اليمين والتدريس والأوقاف. فقال لهم القاضى: ألمثلى يقال هذا؟ وأنتم لكم اثنا عشر بابًا من أبواب المنافع: منها الوسخ، والزفر، والهلع، والولع، وبيت النبذة، وشركة النفوس، وجباية الأسواق، وحرق النار، وسلب الشطار، ولكم الصياح، وثمن الإصلاح، وما تروّحوا من هذه البغلة بلا شىء، جلدها للدّباغين، وذنبها للغرابلية، ومعرفتها للشعار، وتطبيقتها للبيطار. قال: فتقدم أحدهم إليه وقال: بحق مَنْ تاب عليك ورد عاقبتك إلى خير وأراحك من هذا المعاش تصدق علينا بشئ، ولا تدعنا نروح بلاش. تفسير هذه الألفاظ، الزفر النساء والزانيات، والوسخ المراحيض، والهلع جباية الأسواق. والولع القمار. وبيت النبذة محل المزر، وشركة النفوس كل من حمل ميتا ولحقوه قبل أن يخرج من باب البلد كانوا شركاءه، وسلب الشطار كل من شنقوه لهم سلبه.

وولّى يحيى بن أكثم قاضيًا على أهل جبلة فبلغه أن الرشيد انحدر إلى البصرة فقال لأهل جبلة: إذا جتاز الرشيد فاذكرونى عنده بخير، فوعدوه بذلك، فلما جاء الرشيد تقاعدوا[٢] عنه، فسرح القاضى لحيته، وكبر عمته، وخرج فرأى الرشيد فى الحراقة ومعه أبو يوسف القاضى فقال: يا أمير المؤمنين نِعْمَ القاضى قاضى جبلة عدل فينا، وفعل كذا وكذا وجعل يثنى على نفسه. فلما رآه أبو يوسف عرفه فضحك فقال له الرشيد: ممّ تضحك؟ فقال: يا أمير المؤمنين المُثْنى على القاضى هو القاضى. فضحك الرشيد حتى فحص برجله الأرض ثم أمر بعزله فعزل.

وأحضر رجل ولده إلى القاضى فقال: يا مولانا إن ولدى هذا يشرب الخمر ولا يصلى. فأنكر ولده ذلك فقال أبوه: يا سيدى أفتكون صلاة بغير قراءة، فقال الولد: إنى أقرأ القرآن. فقال له القاضى: إقرأ حتى أسمع، فقال:

علق القلبُ الربابا ... بعد ما شَابتْ وشَابا

إنَّ دين اللّه حَقٌّ ... لا أرى فيه ارتيابا

فقال أبوه: إنه لم يتعلم هذا إلاّ البارحة، سرق مصحف الجيران، وحفظ هذا منه. فقال القاضى: وأنا الآخر أحفظ آية منها وهى:

فارحمى مضنى كئيبا ... قد رأى الهجر عذابا

ثم قال القاضى: قاتلك اللّه يعلم أحدكم القرآن ولا يعمل به.

وتقدم اثنان إلى أبى صمصامة القاضى فادعى أحدهما على الآخر طنبورًا، فأنكر فقال للمدعى: ألك بيّنة؟ فقال: لى شاهدان، فاحضر رجلين شهدا له. فقال المدعى عليه: سلهما يا سيدى عن صناعتهما. فأخبره أحدهما: أنه نباذ، وقال آخر: إنه قوّاد. فالتفت القاضى إلى المدّعى عليه، وقال: أتريد على طنبور أعدل من هذين ادفع إليه طنبوره.

---

(١) سورة هود:٦.

(٢) تقاعدوا: خذلوه.

وتحاكم الرشيد وزبيدة إلى أبى يوسف القاضى فى الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب، فقال أبو يوسف: أنا لا أحكم على غائب، فأمر الرشيد باحضارهما وقدما بين يدى أبى يوسف فجعل يأكل من هذا مرة، ومن هذا مرة حتى نصف الجامين، ثم قال: يا أمير المؤمنين ما رأيت أعدل منهما، كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته.

وأتى بعض المجّان لبعض القضاة فقال: يا سيدى، إن امرأتى قحبانا، فقال له القاضى: طلقناها. فقال: عشقانا، فقال: القوّدناها. وادعى رجل عند قاض على امرأة حسناء بدَيْنٍ فجعل القاضى يميل إليهم بالحكم فقال الرجل: أصلح الله القاضى، حجتى أوضح من هذا النهار. فقال له القاضى: اسكت يا عدو الله فإن الشمس أوضح من النهار قم لا حقَّ لك عليها. فقالت المرأة: جزاك الله عن ضعفى خيرًا فقد قويته. فقال الرجل: لا جزاك الله عن قوتى خيرًا فقد أوهيتها.

ورفعت امرأة زوجها إلى القاضى تبغى الفرقة، وزعمت أنه يبول فى الفراش كل ليلة، فقال الرجل للقاقضى: يا سيدى لا تعجل علىّ حتى أقص عليك قصتى؛ إنى أرى فى منامى كأنى فى جزيرة فى البحر، وفيها قصر عال، وفوق القصر قبة عالية، وفوق القبة جمل، وأنا على ظهر الجمل، وأن الجمل يطأطئ برأسه ليشرب من البحر، فإذا رأيت ذلك بلت من شدة الخوف. فلما سمع القاضى ذلك بال فى فراشه وثيابه، وقال: يا هذه أنا قد أخذنى البول من هول حديثه فكيف بمن يرى الأمر عيانا؟

وحكى أن تاجرًا عبر إلى حمص فسمع مؤذنًا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن أهل حمص يشهدون أن محمدًا رسول الله، فقال: والله لأمضينّ إلى الإمام وأسأله. فجاء إليه فرأه قد أقام الصلاة وهو يصلى على رجل، ورجله الأخرى ملوثة بالعذرة، فمضى إلى المحتسب ليخبره بهذا الخبر فسأل عنه فقيل: إنه فى الجامع الفلانى يبيع الخمرة ، فمضى إليه فوجده جالسًا، وفى حجره مصحف، وبين يديه باطية مملوءة خمرًا وهو يحلف للناس بحق المصحف إن الخمر صرف ليس فيها ماء وقد ازدحمت الناس عليه وهو يبيع، فقال: والله لأمضينّ إلى القاضى وأخبره، فجاء إلى القاضى فدفع الباب فانفتح فوجد القاضى نائمًا على بطنه وعلى ظهره غلام يفعل فيه الفاحشة، فقال التاجر: قلب الله حمص. فقال القاضى: لم تقول هذا؟ فأخبره بجميع ما رأى، فقال: يا جاهل أما المؤذن فإن مؤذننا مرض فاستأجرنا يهوديًا صيتًا يؤذن مكانه فهو يقول ما سمعت، وأما الإمام فإنهم لما أقاموا الصلاة خرج مسرعًا فتلوثت رجله بالعذرة، وضاق الوقت فأخرجها من الصلاة واعتمد على رجله الأخرى ولما فرغ غسلها، وأما المحتسب فإن ذلك الجامع ليس له وقف إلا كرم، وعنه بما يؤكل فهو يعصره خمرًا ويبيعه ويصرف ثمنه فى مصالح الجامع، وأما الغلام الذى رأيته فإن أباه مات وخلّف مالاً كثيرًا وهو تحت الحَجْر وقد كبر، وجاء جماعة شهدوا عندى أنه بلغ فأنا أمتحنه. فخرج التاجر من البلد، وحلف أن لا يعود إليها أبدًا.

الفصل الرابع فى نوادر النحاة

وقف نحوى على بياع يبيع أرزا بعسل، وبقلاً بخل، فقال: بكم الأرزز بالأعسل. والأخلل بالأبقل؟ فقال: بالأصفع فى الأرؤس، والأضرط فى الأذقن.

ووقع نحوى فى كنيف فجاء كناس ليخرجه فصاح به الكناس ليعلم أهو حى أم لا، فقال له النحوى: أطلب لى حبلاً دقيقًا، وشدنى شدًّا وثيقًا، واجذبنى جذبًا رقيقًا. فقال له الكناس: امرأتى طالق إن أخرجتك منه، ثم تركه وانصرف.

وكان لبعضهم ولد نحوى يتقعر فى كلامه، فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت، فاجتمع عليه أولاده، وقالوا له: ندعو لك فلانًا أخانا؟ قال: لا؛ إن جاءنى قتلنى. فقالوا: نحن نوصيه أن لا يتكلم. فدعوه، فلما

دخل عليه قال له: يا أبت قل: لا إله إلاّ اللّه تدخل الجنة، وتفوز من النار، يا أبت واللّه ما أشغلنى عنك إلا فلان فإنه دعانى بالأمس فأهرس وأعدس، واستبذج، وسكبج وطهبج، وأفرج ودجج، وأبصل وأمضر، ولوزج وافلوذج، فصاح أبوه: غمضونى فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحى.

وجاء نحوى يعود مريضًا فطرق بابه فخرج إليه ولده، فقال: كيف وجدت أباك؟ قال: يا عم ورمت رجليه. قال: لا تلحن، قل: رجلاه، ثم ماذا؟ قال: ثم وصل الورم إلى ركبتاه. قال: لا تلحن قل: إلى ركبتيه، ثم ماذا؟ قال: مات وأدخله اللّه فى بظر عيالك وعيال سيبويه ونفطويه وجحشويه.

وعاد بعضهم نحويًّا فقال: ما الذى تشكوه؟ قال: حمى جاسية، نارها حامية، منها الأعضاء واهية، والعظام بالية. فقال له: لا شفاك اللّه بعافية يا ليتها كانت القاضية.

الفصل الخامس فى نوادر المعلمين

قال الجاحظ: مررت بمعلم صبيان، وعنده عصا طويلة، وعصا قصيرة، وصولجان، وكرة، وطبل، وبوق، فقلت: ما هذه؟ فقال: عندى صغار أوباش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لى بضرطة، فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخر، فأضربه بالعصا الطويلة، فيفر من يدى، فأضع الكرة فى الصولجان وأضربه فأشجه، فتقوم إلىّ الصغار كلهم بالألواح فاجعل الطبل فى عنقى، والبوق فى فمى، وأضرب الطبل، وأنفخ فى البوق، فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إلىّ ويخلصونى منهم.

وحكى الجاحظ أيضًا قال: مررتُ على خربة فإذا بها معلم، وهو ينبح نبيح الكلاب. فوقفت أنظر إليه وإذا بصبى قد خرج من دار فقبض عليه المعلم، وجعل يلطمه ويسبُّه. فقلت: عرِّفنى خبره. فقالت: هذا صبىٌّ لئيم يكره التعليم، ويهرب ويدخل الدار ولا يخرج، وله كلب يلعب به، فإذا سمع صوتى ظنّ أنه صوت الكلب فيخرج فأمسكه.

وجاءت امرأة إلى المعلم بولدها تشكوه. فقال له: إما أن تنتهى وإلا فعلت بأمك. فقالت: يا معلم هذا صبىٌّ ما ينفع فيه الكلام فافعل ما شئت لعله ينظر بعينيه ويتوب. فقام وفعل بها أمام ولدها.

وقال الجاحظ رأيت معلمًا فى الكتّاب وحده فسألته فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون. فقلت: أحب أن أراهم. فقال: ما أشير عليك بذلك. فقلت: لابد. قال: فإذا جئت إلى رأس الدرب اكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعلم فيصفعونك حتى تعمى.

وقال بعضهم: رأيت معلمًا وقد جاء صغيران يتماسكان، فقال أحدهما: هذا عضّ أذنى. فقال الآخر: لا واللّه يا سيدنا هو الذى عضّ أذن نفسه. فقال المعلم: يا ابن الزانية هو كان جمل يعض أذن نفسه.

وقال بعضهم: رأيت معلمًا وهو يصلى العصر فلما ركع أدخل رأسه بين رجليه، ونظر إلى الصغار، وهم يلعبون وقال: يا ابن البقال قد رأيت الذى عملت، وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة.

حكى عن الجاحظ أنه قال: ألفت كتابًا فى نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل ثم رجعت عن ذلك، وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب، فدخلت يومًا مدينة فوجدت فيها معلمًا فى هيئة حسنة فسلمت عليه فرد علىّ أحسن ردّ، ورحب بى فجلست عنده، وباحثته فى القرآن فإذا هو ماهر فيه، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المنقول وأشعار العرب فإذا هو كامل الآداب. فقلت: هذا واللّه مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب. قال: فكنت أختلف إليه وأزوره. فجئت يومًا لزيارته فإذا بالكتّاب مغلق و لم أجده. فسألت عنه فقيل: مات له ميت فحزن عليه وجلس فى بيته للعزاء. فذهبت إلى بيته وطرقت الباب فخرجت إلىّ جارية. وقالت: ما تريد؟ قلت: سيدك. فدخلَتْ وخرجَتْ وقالت: باسم اللّه. فدخلتُ إليه وإذا به جالس فقلت: عظم اللّه أجرك لقد كان لكم

فى رسول اللّه أسوة حسنة كل نفس ذائقة الموت فعليك بالصبر. ثم قلت له: هذا الذى توفى ولدك؟ قال: لا، قلت: فوالدك؟ قال: لا، قلت: فأخوك؟ قال: لا، قلت: فزوجتك؟ قال: لا، فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتى. فقلت فى نفسى: هذه أوّل المناحس. فقلت: سبحان اللّه! النساء كثير، وستجد غيرها. فقال: أتظن أنى رأيتها؟ قالت: وهذه منحسة ثانية، ثم قلت: وكيف عشقت من لم تر؟ فقال: اعلم أنى كنت جالسًا فى هذا المكان، وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه برد، وهو يقول[1] :

يا أم عمرو جزاك اللّه مكرمة ... ردّى علىّ فؤادى أينما كانا
لا تأخذين فؤادى تلعبين به ... فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلت فى نفسى: لولا أنّ أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

لقد ذهب الحمارُ بأمِّ عمرٍو ... فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت، وأغلقت المكتب، وجلست فى الدار. فقلت: يا هذا إنى كنت ألفت كتابًا فى نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمى على إبقائه، وأول ما أبدأ بك إن شاء اللّه تعالى.

الفصل الساس فى نوادر المتنبئين

ادعى رجل النبوة فى أيام الرشيد فلما مثل بين يديه قال له: ما الذى يقال عنك؟ قال: إنى نبى كريم. قال: فأى شيء يدل على صدق دعواك؟ قال: سل عما شئت. قال: أريد أن تجعل هذه المماليك المرد القيام الساعة بلحى، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد بلحى، وأغير هذه الصورة الحسنة؟ وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مردًا فى لحظة واحدة. فضحك منه الرشيد، وعفا عنه، وأمر له بصلة.

وتنبأ إنسان فطالبوه بحضرة المأمون بمعجزة. فقال: أطرح لكم حصاة فى الماء فتذوب، قالوا: رضينا. فأخرج حصاة معه وطرحها فى الماء فذابت. فقالوا: هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا، ودعها تذوب. فقال: لستم أجل من فرعون، ولا أنا أعظم حكمة من موسى، ولم يقل فرعون لموسى: لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندى تجعلها ثعبانًا فضحك المأمون وأجازه.

وتنبأ رجل فى أيام المعتصم فلما حضر بين يديه قال: أنت نبىٌّ؟ قال: نعم. قال: وإلى من بُعِثْتَ؟ قال: إليك. قال: أشهد أنك لسفيه أحمق.

قال: إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم، فضحك المعتصم وأمر له بشيء.

وتنبأ رجل فى أيام المأمون وادعى أنه إبراهيم الخليل. فقال له المأمون: إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين. قال: وما براهينه؟ قال: أضرمت له نار وألقى فيها فصارت بردًا وسلامًا، ونحن نوقد لك نارًا ونطرحك فيها فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك. قال: أريد واحدة أخف من هذه، قال: فبراهين موسى. قال: وما براهينه؟ قال: ألقى عصاه فإذا هى حية تسعى، وضرب بها البحر فانفلق، وأدخل يده فى جيبه فأخرجها بيضاء. قال: وهذه علىّ أصعب من الأولى. قال: فبراهين عيسى. قال: وما هى؟ قال: إحياء الموتى. قال: مكانك قد وصلت. أنا أضرب رقبة القاضى يحيى بن أكثم، وأحييه لكم الساعة. فقال يحيى: أنا أوّل من آمن بك وصدّق.

(١) الأبيات لبشار بن برد.

وتنبأ آخر فى زمن المأمون، فقال المأمون: أريد منك بطيخًا فى هذه الساعة، قال: أمهلنى ثلاثة أيام، قال: ما أريده إلا الساعة، قال: ما أنصفتنى يا أمير المؤمنين، إذا كان اللّه تعالى الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ما يخرجه إلا فى ثلاثة أشهر، فما تصبر أنت علىّ ثلاثة أيام؟! فضحك منه ووصله.

وتنبأ آخر فى زمن المأمون فلما مثل بين يديه قال له: أنت نبىّ؟ قال: نعم. قال: فيما الدليل على صحة نبوّتك؟ قال: القرآن العزيز يشهد بنبوّتى فى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[1] وأنا اسمى نصر اللّه. قال: فما معجزتك؟ قال: ائتونى بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم فى الساعة ويؤمن بى. فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى: أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته. فقال الوزير: أما أنا فأشهد أنه نبى اللّه وإنما يعطى زوجته من لا يؤمن به، فضحك المتوكل وأطلقه.

وادعى رجل النبوّة فى زمن خالد بن عبد اللّه القسرى وعارض القرآن فأتى به إلى خالد، فقال له: ما تقول؟ قال: عارضت القرآن. قال: بماذا؟ قال: قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الآية، وقلت: إنّا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، ولا تطع كل ساحر. فأمر به خالد فضرب عنقه وصلب. فمّر به خلف بن خليفة الشاعر فضرب بيده على الخشبة وقال: إنا أعطيناك العود، فصل لربك من قعود، وأنا ضامن لك أن لا تعود.

وأتى المأمون برجل ادعى النبوّة فقال له: ألك علامة؟ قال: علامتى إنى أعلم ما فى نفسك. قال: وما فى نفسى؟ قال: فى نفسك أنى كاذب. قال: صدقت. ثم أمر به إلى السجن. فأقام فيه أيامًا ثم أخرجه، فقال له: أوحى إليك بشىء؟ قال: لا، قال: ولم؟ قال: لأن الملائكة لا تدخل الحبوس. فضحك منه وخلى سبيله.

وأُتى بامرأة تنبأت فى أيام المتوكل فقال لها: انت نبية؟ قالت: نعم. قال: نعم. قال: أتؤمنين بمحمد؟ قالت: نعم. قال: فإنه صلى اللّه عليه وسلم قال: لا نبى بعدى. قالت: فهل قال لانبية بعدى؟ فضحك المتوكل وأطلقها.

وتنبأ رجل يسمى نوحًا وكان له صديق نهاه فلم يقبل، فأمر السلطان بقتله، فصلب، فمر به صديقه فقال له: يا نوح ما حصلت من السفينة إلا على الصارى.

الفصل السابع فى نوادر السؤال

وقف أعرابى بباب يسأل فقال له صغير: من بباب الدار بورك فيك؟ فقال: قبح اللّه هذا الفم لقد تعلمت الشر صغيرًا.

ووقف سائل على باب فقال: يا أصحاب المنزل. فبادر صاحب الدار قبل أن يتم كلامه وقال: فتح اللّه عليك، فقال السائل: يا قرنان كنت تصبر لعلى جئت أدعوك إلى وليمة.

وقال أبو عثمان الجاحظ: وقف سائل بقوم فقال: إنى جائع. فقالوا له: كذبت. فقال: جربونى برطلين من الخبز، ورطلين من اللحم.

ووقف سائل على باب، فقالوا: يفتح اللّه لك. فقال: كسرة، فقالوا: ما نقدر عليها، قال: فقليل من بُرّ، أو فول، أو شعير. قالوا: لا نقدر عليه.

قال: فقطعة دهن، أو قليل زيت، أو لبن، قالوا: لا نجده، قال: فشربة ماء. قالوا: وليس عندنا ماء. قال: فما جلوسكم ههنا، قوموا فاسألوا؛ فأنتم أحق منى بالسؤال.

---

(١) سورة النصر: ١.

الفصل الثامن فى نوادر المؤذنين

قيل لمؤذن: ما نسمع أذانك فلو رفعت صوتك. فقال: إنى أسمع صوتى من مسيرة ميل. وقال بعضهم: رأيت مؤذنًا أذن ثم غدا يهرول. فقلت له: إلى أين؟ فقال: أحب أن أسمع أذانى أين بلغ.

واختصم رجلان فى جارية فأودعها عند مؤذن فلما أصبح، وفرغ من الأذان قال: لا إله إلا اللّه ذهبت الأمانة من الناس. فقالوا له: كيف ذهبت الأمانة من الناس؟ قال: هذه الجارية التى وضعت عندى قيل: إنها بكر، فلما أتيتها وجدتها ثيبًا.

وسمع مؤذن حمص فى سحور رمضان يقول: تسحروا فقد أمرتكم، وعجلوا فى أكلكم قبل أن أؤذن فيمسخ اللّه وجوهكم. وشوهد مؤذن يؤذن من رقعة، فقيل له: ما تحفظ الأذان؟ فقال: سلوا القاضى. فأتوه فقالوا: السلام عليكم. فأخرج دفترًا وتصفحه وقال: عليكم السلام، فعذروا المؤذن.

وسمعت امرأة مؤذنا يؤذن بعد طلوع الشمس ويقول: الصلاة خير من النوم. فقالت: النوم خير من هذه الصلاة.

ومرَّ سكران بمؤذن ردئ الصوت فجلد به الأرض، وجعل يدوس بطنه، فاجتمع إليه الناس فقال: واللّه ما بى رداءة صوته ولكنه شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين.

الفصل التاسع فى نوادر النواتية

حكى أن بعض النواتية تولى أحد الكراسى السلطانية لما ساعده الزمان، فبينما هو جالس فى داره إذ سمع صوتًا وراء الباب فقال لزوجته: إن أسمع غاغة فى البرّ حلى قلوعى واعملى أسفيرتى على جامورى، وقدمى إلى اسقالة الرجل، وقيمينى بمدرة[1] . فامتثلت كلامه فنزل وجلس على مصطبته، وقد علت مرتبته، واصطفت المقدمون بين يديه، ووقفت الحيرتية حواليه وإذا بشيخ قد أقبل وثيابه مقطعة، وعمامته فى حلقه، والدم نازل من أنفه، وهو يصيح بصوت عال: أنا باللّه وبالوالى. فقال له: تعالى يا شيخ ما لى أرى أرطمونك فى حلقك، وشبورتك مكسورة، وأنت بتزلع ماء متغير، وتقيم الهليلا فى الساحل، دخل عليك شرد غربى، وإلا دخلت على بواجى؟ فقال الشيخ: واللّه يا سيدى بعض نواتية البحر عمل بى هذا. فقال: يا أولاد، جيبوا غريمه، وبخنسوا عدته، وقشطوا ظهره، وجروه على مقدمه. فامتثلوا كلام الأمير، وجاءوا بالغريم فلما مثل بين يديه قال له: ويلك هو أنت بغنوس بسفر البحر، أنت الذى قطعت القلس وخرجت فى الشعث حتى لقيت هذا الرجل نطحت مخطمته، وكسرت اسقالته لو انصلح كنت عملتك فى بدراوة، وعقلك فى الصارى[2] . فلما سمع الرجل كلام الوالى علم أنه من أولاد المعيشة. فقال له بهمترة النواتية: واللّه يا خوند هو كارزنى فى معاشى اجصطن على الوحسة، وأنا عايم فى الليل إلا وشرد جانى من الشرق كابس هز أطرافى، وكسر شابورتى، وقطع لبانى وها هو بحمد اللّه على بر السلامة، وإن كان انصلح فيه شئ فأنا بمرسوم الأمير أجيب له القلفاط أسد فتحه، وأعيد له وسقه، وأخليه يروح فى طريقه. فقال له الوالى: أنت بتقدف فى وجهى، وتطرح مقاديفك حتى نعبر على الحجر، يا رجالة الصاحرى سلسلوا أطرافه، وعروا مقاديفه، وبلوا شيينة اللبان، وانزلوا عليه وأوسقوه الجنبين والظهر حتى تلعب الميه على بطونسته، هيا قوامك خلوا جنب برا وجنب جوا قدام الخن وراء الصارى. فأكل

(١) مدرة: يغرب فى ألفاظ حرفته (البحارة).

(٢) الصارى: عمود السفينة.

علقة من كعبه إلى أذنه. فقالت النواتية: يا خواندا هوّ خنفست عليه الطمية البحرية. قال: مدارتين وقيموه. فلما أقاموه باس يد الأمير وقال: يا خونـد سألتك بهبوب الرياح، وطيب النسيم، الرب لا يبليك بجر اللبان فى الحلافى، وأنت حافى فى الصيافى ويكفيك شر الأربعينات. قال: فرق عليه قلب الأمير وقال له: وحق من ضرب القلع باللبان الحلفا عند بخنسة الريح وفروغ الزاد بعيد من البلاد، وعياط الركاب عند قيام الموجة، وبعد البر فى أيام النيل، لولا شفاعة الركاب لكنت أهدّ أسقالتك، وأقعد فى زوايدك، حتى أخلى ظهرك جيفة. فقال له: والله يا خوند ما بقى جنبى يحمل هذا الوثق العظيم، ولكن إن عدت أعبر لهذا الوجه أخسف من أضلاعى، لوح وغرقنى بالقايم. فقال له الأمير: أحمد الله على السلامة، وأخرج فى دى الطيابة، وكتب له مرسوم وعلم عليه علامة الرياس البحرية النواتية الله لك الله لى يا عملات على أبوس[١] .

الفصل العاشر فى نوادر جامعة

سمعت امرأة فى الحديث أن صوم يوم عاشوراء كفارة سنة فصامت إلى الظهر، ثم أفطرت. وقالت: يكفينى كفارة ستة أشهر منها شهر رمضان. وأسلم مجوسى فى شهر رمضان فثقل عليه الصيام فنزل إلى سرداب، وقعد يأكل فسمع ابنه حسه، فقال: من هذا؟ فقال: أبوك الشقى يأكل خبز نفسه، ويفزع من الناس. وسئل بعض القصاص عن نصرانىّ قال: لا إله إلا الله لا غير إذا مات أين يدفن؟ قال: يدفن بين مقابر المسلمين والنصارى ليكون مذبذبًا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وأهدى إلى سالم القصاص خاتم بلا فَصٍّ فقال: إن صاحب هذا الخاتم يعطى فى الجنة غرفة بلا سقف. وبنى بعض المغفلين نصف دار، وبنى رجل آخر النصف الآخر فقال المغفل يومًا: قد عولت على بيع النصف الذى لى، وأشترى به النصف الآخر لتكمل لى الدار كلها. وسئل جامع الصيدلانى عن عمر ابنته فقال: لا أدرى إن أمها ذكرت أنها ولدت فى أيام البراغيث. وقيل لطفيلى: أى سورة تعجبك فى القرآن؟ قال: المائدة. قيل: فأى آية؟ قال: ﴿**ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا**﴾. قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿**آتِنَا غَدَاءَنَا**﴾، قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ**﴾. قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿**وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ**﴾.

وقيل لعثمان بن دراج الطفيلى يومًا: كيف تصنع بدار العرس إذا لم يدخلك أصحابها؟ قال: أنوح على بابهم فيتطيرون من ذلك فيدخلونى. وقيل له: أتعرف بستان فلان؟ قال: إى والله إنه الجنة الحاضرة فى الدنيا، قيل: لم لا تدخله وتأكل من ثماره، وتستظل بأشجاره، وتسبح فى أنهاره؟ قال: لأن فيه كلبًا لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال. وقيل له يومًا: ما هذه الصفرة التى فى لونك؟ قال: من الفترة بين الصحنين، وقال: مرت بنا جنازة يومًا ومعى ابنى، ومع الجنازة امرأة تبكى وتقول: الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه، ولا غطاء ولا وطاء، ولا خبز ولا ماء، فقال ابنى: يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون.

وحكى عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقًا شديدًا فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكى: إنى أرقت فى هذه الليلة، وضاق صدرى، ولم أعرف ما أصنع. وكان خادمه مسرور واقفًا أمامه فضحك، فقال له: ما يضحكك! استهزاء بى، أم استخفافًا؟ فقال: وقرابتك من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ما فعلت ذلك عمدًا، ولكن خرجت بالأمس أتمشى بظاهر القصر إلى جانب الدجلة فوجدت الناس مجتمعين، فوقفت فرأيت رجلاً واقفًا يضحك الناس يقال له: ابن المغازلى فتفكرت الآن فى شىء من حديثه وكلامه فضحكت والعفو يا أمير المؤمنين. فقال له الرشيد: ائتنى الساعة به. فخرج مسرور مسرعًا إلى أن جاء إلى ابن المغازلى فقال له: بل

---
(١) لم نستطع متابعته بالشرح الحوشى من الكلام حيث تعمد تتبعه والإغراب فيه.

اجعل لى النصف، ولك النصف. فأبى، فقال: الثلث، ولك الثلثان. فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم. فلما دخل على الرشيد سلم فأبلغ، وترجم فأحسن، ووقف بين يديه فقال له أمير المؤمنين: إن أنت أضحكتنى أعطيتك خمسمائة دينار، وإن لم تضحكنى أضربك بهذه الجراب ثلاثة ضربات. فقال ابن المغازلى فى نفسه وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب وظن فى نفسه أن الجراب فارغ. فوقف يتكلم ويتمسخر وفعل أفعالاً عجيبة تضحك الجلمود فلم يضحك الرشيد ولم يتبسم. فتعجب ابن المغازلى وضجر وخاف فقال له الرشيد: الآن استحققت الضرب، ثم إنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان فضربه، فلما وقعت الضربة فى رقبته صرخ صرخة عظيمة وتذكر الشرط الذى شرطه عليه مسرور. فقال: العفو يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمتين. قال: قل ما بدا لك. قال: إن مسرورًا شرط علىّ شرطًا، واتفقت أنا وإياه على مصلحة، وهو أن ما حصل لى من الصدقات يكون له فيه الثلثان، ولى فيه الثلث وما أجابنى إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم، وقد شرط علىّ أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصيبى منها واحدة، ونصيبه اثنتان، وقد أخذت نصيبى، وبقى نصيبه. قال: فضحك الرشيد ودعا مسرورًا فضربه، وقال: يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقى، فضحك الرشيد، وأمر لهما بألف دينار فأخذ كل واحد منهما خمسمائة، ورجع ابن المغازلى شاكرًا.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والسبعون فى الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول

الفصل الأول فى الدعاء وآدابه

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي﴾[1] اختلف فى سبب نزولها فقال مقاتل: إن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه واقع امرأته بعد ما صلى العشاء فى رمضان فندم على ذلك وبكى وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ورجع مغتمًا وكان ذلك قبل الرخصة فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: قالت اليهود: كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلظ كل سماء مثل ذلك، فنزلت هذه الآية. وقال الحسن: إن قومًا قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه، فنزلت هذه الآية. قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي﴾ أى أقبل عبادة من عبدنى، فالدعاء بمعنى العبادة والإجابة بمعنى القبول. وقال قوم: إن الله تعالى يجيب كل الدعاء فإما أن يعجل الإجابة فى الدنيا، وإما أن يكفر عن الداعى، وإما أن يدخر له فى الآخرة، لما رواه أبو سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم؛ إلا أعطاه الله بها ثلاثًا: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له ثوابها، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها».

وروى أنه إذا كان يوم القيامة واستقر أهل الجنة في الجنة، فبينما العبد المؤمن فى قصره، وإذا ملائكة من عند ربه يأتونه بتحف من عند الله فيقول: ما هذا؟ أليس الله قد أنعم علىّ وأكرمنى؟ فيقولون: ألست كنت تدعو الله فى الدنيا؟ هذا دعاؤك الذى كنت تدعوه قد أدخره[2] لك.

واعلم أن إجابة الدعاء لابد لها من شروط، فشرط الداعى أن يكون عالمًا بأن لا قادر إلا الله، وأن الوسائط فى قبضته ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب. فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب لاه، وأن يكون متجنبًا لأكل الحرام، ولا يمل من الدعاء.

ومن شروط المدعو فيه: أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعًا كما قال عليه الصلاة والسلام: «ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم» فيدخل فى الإثم كل ما يأثم به من الذنوب، ويدخل فى الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم. قال ابن عطاء الله: وإن للدعاء أركانا، وأجنحة، وأسبابًا، وأوقاتًا، فإن وافق أركانه قوى، وإن وافق أجنحته طار إلى السماء، وإن وافق أسبابه نجح، فأركانه حضور القلب والخشوع، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم، ومن شروط الدعاء أن يكون سليمًا من اللحن كما قال بعضهم:

ينادى ربه باللحن ليثٌ ... كذاك إذا دعاه لا يجاب

وقيل: إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عريف، ولا شرطى، ولا جاب، ولا عشار، ولا صاحب عرطبة - وهى الطنبور - ولا صاحب كوبة - وهى الطبل الكبير الضيق الوسط - ومن آداب الدعاء: أن يدعو الداعى مستقبلاً القبلة، ويرفع يديه لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله ربكم حيىٌ كريم ليستحى

---

(١) سورة البقرة:١٨٦.

(٢) أدخره: أحفظه.

من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرا»[١] وأن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء ولما روى عن عمر قال: كان رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: إذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه، وأن لا يرفع بصره إلى السماء لقوله صلى اللّٰه عليه وسلم: «لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء، أو ليخطفن اللّٰه ابصارهم»[٢] وأن يخفض الداعى صوته بالدعاء؛ لقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٣] . وعن أبى عبد الرحمن الهمدانى قال: صليت مع أبى إسحاق الغداة فسمع رجلاً يجهر فى الدعاء فقال: كن كزكريا: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾[٤] .

وينبغى للداعى أن لا يتكلف، وأن يأتى بالكلام المطبوع غير المسجوع؛ لقوله صلى اللّٰه عليه وسلم: «إياكم والسجع فى الدعاء؛ بحسب أحدكم أن يقول: اللّٰهم إنى أسألك الجنة، وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار، وما قرب إليها من قول وعمل». وقيل: ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ولا تدعوا بلسان الفصاحة والانطلاق. وكانوا لا يزيدون فى الدعاء على سبع كلمات فما دونها كما فى آخر سورة البقرة.

وعن سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فقد أجاب اللّٰه دعاء شر الخلق إبليس إذا قال: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٥] ، وعن النبى صلى اللّٰه عليه وسلم: «إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة، فليقل: الحمد للّٰه الذى بنعمته تتم الصالحات، ومن أبطأ عليه من ذلك شيء فليقل: الحمد للّٰه على كل حال». وعن سلمة بن الأكوع قال: ما سمعت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا قال: «سبحان ربى الأعلى الوهاب». وعن أبى سليمان الدارانى: من أراد أن يسأل اللّٰه حاجة فليبدأ بالصلاة على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم.

وينبغى للمؤمن أن يجتهد فى الدعاء، وأن يكون على رجاء من الإجابة، ولا يقنط من رحمة اللّٰه؛ لأنه يدعو كريمًا. وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة وذلك وقت السحر، ووقت الفطر، وما بين الأذان والإقامة، وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين إلى أن يسلم من الصلاة، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الجيش فى الجهاد فى سبيل اللّٰه تعالى، وفى الثلث الأخير من الليل، لما جاء فى الحديث: «إن فى الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل اللّٰه شيئًا إلا أعطاه» وفى حالة السجود لقوله عليه الصلاة والسلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»، وما بين الظهر والعصر فى يوم الأربعاء، وأوقات الاضطرار، وحالة السفر والمرض، هذا كله جاءت به الآثار.

قال جابر بن عبد اللّٰه رضى اللّٰه تعالى عنه: دعا رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فى مسجد الفتح ثلاثة أيام يوم الاثنين ويوم الثلاثاء، واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فعرفت السرور فى وجهه. قال جابر: ما نزل بى أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة. وفى بعض الكتب المنزلة: يا عبدى إذا سألت فاسألنى؛ فإنى غنى، وإذا طلبت النصرة فاطلبها منى فإنى قوى، وإذا أفشيت سرك فافشه إلىّ، فإنى وفى، وإذا أقرضت فأقرضنى فإنى ملى، وإذا دعوت فادعنى فإنى حفىٌّ. وعن أبى هريرة رضى اللّٰه تعالى عنه أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعونى فأستجيب له، من يسألنى فأعطيه، من يستغفرنى فأغفر له».

---

(١) صفرا: خِلواً.

(٢) أخرجه: ابن ماجة فى إقامة الصلاة ١٠٤٤.

(٣) سورة الأعراف:٥٥.

(٤) سورة مريم:٣.

(٥) سورة الأعراف:١٤.

وقال وهب بن منبه: بلغنى أن موسى مر برجل قائم يبكى ويتضرع طويلاً. فقال موسى: يا رب أما تستجيب لعبدك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى لو أنه بكى حتى تلفت نفسه ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجبت له. قال: يارب لم ذلك؟ قال: لأن فى بطنه الحرام. ومر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا: يا أبا إسحاق ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال: لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء، الأول: أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه. الثانى: زعمتم أنكم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تركتم سنته. الثالث: قرأتم القرآن و لم تعملوا به. الرابع: أكلتم نعمة الله و لم تؤدوا شكرها. الخامس: قلتم: إن الشيطان عدوكم ووافقتموه. السادس: قلتم: إن الجنة حق فلم تعملوا لها. السابع: قلتم: إن النار حق و لم تهربوا منها. الثامن: قلتم: إن الموت حق فلم تستعدوا له. التاسع: انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس، وتركتم عيوبكم. العاشر: دفنتم موتاكم و لم تعتبروا بهم.

وكان يحيى بن معاذ يقول: من أقرّ الله بإساءته جاد الله عليه بمغفرته، ومن لم يمنَّ على الله بطاعته أوصله إلى جنته، ومن أخلص لله فى دعوته منَّ الله عليه بإجابته. وقال على رضى الله تعالى عنه: ارفعوا أفواج البلايا بالدعاء. وعن أنس رضى الله تعالى عنه يرفعه: «ألا تعجزوا عن الدعاء؛ فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد».

الفصل الثانى فى الأدعية وما جاء فيها

كان من دعاء شريح رحمة الله تعالى: اللّهم إنى أسألك الجنة بلا عمل عملته، وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته. ودعت أعرابية عند البيت فقالت: إلهى لك أذل وعليك أدل. وكان من دعاء بعض الصالحين: اللّهم إن كنا عصيناك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك وهو الإشراك، وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك وهو شهادة أن لا إله إلا أنت وأن رسلك جاءت بالحق من عندك. ومن دعاء سلام بن مطيع: اللّهم إن كنت بلغت أحدًا من عبادك الصالحين درجة ببلاء فبلغنيها بالعافية. وقيل لفتح الموصلى: ادع الله لنا. فقال: اللّهم هبنا عطاءك، ولا تكشف عنا غطاءك. وكان من دعاء بعض السلف: اللّهم لا تحرمنى خير ما عندك لشر ما عندى؛ فإن لم تقبل تعبى ونصبى فلا تحرمنى أجر المصاب على مصيبته. اللّهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى الناس فنضيع.

وقال الحسن: من دخل المقابر فقال: اللّهم رب الأرواح الفانية، والأجساد البالية، والعظام النخرة التى خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنة أدخل عليها روحًا من عندك وسلامًا منك، كتب الله له بعدد من مات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة حسنات. وحكى عن معروف القاضى أن الحجيج كانوا يجتهدون فى الدعاء وفيهم رجل من التركمان ساكت لا يحسن أن يدعو فخشع قلبه وبكى فقال بلغته: اللّهم إنك تعلم أنى لا أحسن شيئًا من الدعاء فأسألك ما يطلبون منك بما دعوا، فرأى بعض الصالحين فى منامه أن الله قبل حج الناس بدعوة ذلك التركمانى لما نظر إلى نفسه بالفقر والفاقة. وقال الأصمعى: حسدت عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت وهى: اللّهم إن ذنوبى وإن كثرت وجلت عن الصفة فإنها صغيرة فى جنب عفوك فاعف عنى. وركب إبراهيم ابن أدهم فى سفينة فهاجت الريح وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك وكان إبراهيم نائمًا فى كساء فاستوى جالسًا وقال: أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك، فذهب الريح وسكن البحر.

وقال الثورى: كان من دعاء السلف: اللّهم زهدنا فى الدنيا، ووسع علينا فيها، ولا تزوها عنا، ولا ترغبنا فيها. وكان بعض الأعراب إذا أوى إلى فراشه قال: اللّهم إنى أكفر بكل ما كفر به محمد، وأؤمن بكل ما آمن به محمد، ثم يضع رأسه. وسمعت بدوية تقول فى دعائها: يا صباح يا مناح يا مطعم يا عريض الجفنة يا أبا المكارم. فزجرها رجل فقالت: دعنى أصف ربى، وأمجد إلهى بما تستحسنه العرب. وقال الزمخشرى فى كتابه «ربيع

الأبرار»: سمعت أنا من يدعو من العرب عند الركن اليماني: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، وهذا ونحوه منهم إنما يقصدون به الثناء على اللّه تعالى بالكرم والنزاهة عن القبيح على طريق الاستعارة؛ لأنه لا فرق عندهم بين الكريم وأبى المكارم، ولا بين الجواد، والعريض الجفنة، ولا بين المنزه والأبيض الوجه. وقيل لأعرابى: أتحسن أن تدعو ربك؟ قال: نعم، ثم قال: اللّهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك، فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك.

وذكر لعبد السلام بن مطيع أن الرجل تصيبه البلوى فيدعو فتبطئ عنه الإجابة، فقال: بلغنى أن اللّه تعالى يقول: «كيف أرحمه من شىء به أرحمه» وقال طاوس: بينما أنا فى الحِجْر ذات ليلة إذ دخل علىّ على بن الحسين فقلت: رجل صالح من أهل بيت الخير لأسمعنّ دعاءه، فسمعته يقول: عُبَيْدُكَ بفنائك، مسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، فما دعوت بهما فى كرب إلا فرج عني. ودعا أعرابى فقال: اللّهم إنا نبسات نعمتك. وقال ابن المسيب: سمعت من يدعو بين القبر والمنبر: اللّهم إنى أسألك عملاً بارًّا، ورزقًا دارًّا، وعيشًا قارًّا، فدعوت به فما وجدت إلا خيرًا. ودعت أعرابية بالموقف فقالت: أسألك سترك الذى لا تزيله الرياح، ولا تخرقه الرماح. وقيل: اتقوا مجانيق الضعفاء، أى دعواتهم. ودعا أعرابى فقال: اللّهم امح ما فى قلبى من كذب وخيانة، واجعل مكانه صدقًا وأمانة. وصلى رجل إلى جنب عبد اللّه بن المبارك وبادر القيام فجذب ثوبه وقال: أما لك إلى ربك حاجة؟.

وقال سفيان الثورى: سمعت أعرابيًّا يقول: اللّهم إن كان رزقى فى السماء فأنزله، وإن كان فى الأرض فأخرجه، وإن كان بعيدًا فقرّبه، وإن كان قريبًا فيسره، وإن كان قليلاً فكثره، وإن كان كثيرًا فبارك لى فيه، وقال أبو نواس:

أحببتُ من شعرِ بشارٍ وكلمتَهُ ... بيتًا لهجتُ به فى شعر بشارِ

يا رحمةَ اللّه حلّى فى منازلنا ... وجاورينا فدتك النفس من جارِ

وكان بشار يعنى بذلك جارية بصرية كان يحبها ويتغزل فيها، ونعنى بها هنا رحمة اللّه التى وسعت كل شىء.

وسمع على بن أبى طالب رضى اللّه عنه رجلاً يقول وهو متعلق بأستار الكعبة: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحين، أذقنى برد عفوك، وحلاوة مغفرتك. فقال على: والذى نفسى بيده لو قلتها وعليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك. ومن دعائه رضى اللّه عنه: اللّهم صن وجهى باليسار، ولا تبدل جاهى بالأقتار، فأسترزق طامعًا رزقك من غيرك، وأستعطف شرار خلقك، وأبتلى بحمد من أعطانى، وأفتتن بذم من منعنى، وأنت من وراء ذلك كله ولىّ الإجابة والمنع.

وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: ما انتهيت إلى الركن اليمانى قط إلا وجدت جبريل قد سبقنى إليه يقول: قل يا محمد: اللّهم إنى أعوذ بك من الكفر، والفقر، والفاقة. وهى من مواقف الخزى.

وهبط جبريل على يعقوب فقال: يا يعقوب إن اللّه تعالى يقول لك: قل: يا كثير الخير يا دائم المعروف رد علىَّ ابنىَّ. فقالها، فأوحى اللّه تعالى إليه: وعزتى لو كانا ميتين لنشرتهما لك. وكان أبو مسلم الخراسانى إذا نابه أمر، قال: يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين. وقال جعفر بن محمد: ما المبتلى الذى اشتد بلاؤه بأحق الدعاء من المعافى الذى لا يأمن وقوع البلاء. وكان الزهرى يدعو بعد الحديث بدعاء جامع فيقول: اللّهم إنى أسألك من خير ما أحاط به علمك فى الدنيا والآخرة، وأعوذ بك من شر ما أحاط به علمك فى الدنيا والآخرة. وعن عقبة بن عبد الغافر: دعوة فى السر أفضل من سبعين دعوة فى العلانية.

واعلم أن التوحيد والدعاء عند نوازل الملمات هو سفينة النجاة من الحوادث المهلكات. وعن أبى الدرداء قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر، فمر بنا كلب فما بلغت يده رجله حتى وقع ميتًا. فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته قال: «من الداعى على الكلب آنفًا؟» قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله. قال: «لقد دعوت الله باسمه الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى» قال: كيف دعوت الله؟ قال: قلت: «اللّهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت، المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام».

وقيل: إنه دخلت أذن رجل من أهل البصرة حصاة فعالجها الأطباء فلم يقدروا عليها حتى وصلت إلى صماخه، فأتى إلى رجل من أصحاب الحسن فشكا له ما أصابه من الحصاة فدعا له بدعاء العلاء بن الحضرمى وهو: يا على يا عظيم يا حليم يا عليم. قال الراوى: فما برحنا حتى خرجت الحصاة من أذنه ولها طنين حتى ضربت الحائط. وعن أنس: إذا قال العبد: يا رب يا رب يا رب يقول الله عز وجل: لبيك عبدى. وعنه قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل وهو يقول: يا أرحم الراحمين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سل حاجتك فقد نظر الله إليك». وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا فتح الله على عبد الدعاء فليكثر، فإن الله يستجيب له». وروى عن على بن أبى زفر عن أخ له وكان فاضلاً صالحًا فقال: دعوت الله أن يرينى الاسم الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، فقمت ليلة أصلى فسمعت قعقعة فى سقف البيت ثم هبط نور حتى صار تلقاء وجهى وإذا مكتوب بالنور فقرأته: يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام.

ومن دعاء الكرب: ما روى عن وهب أن ابن عباس رضى الله عنهما قال له: هل تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء تدعو به عند الكرب؟ قال: نعم. اللّهم إنى أسألك يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، فإن لكل مسألة منك سمعًا حاضرًا، وجوابًا عتيدًا، ولكل صامت منك علمًا ناطقًا محيطًا، أسألك بمواعيدك الصادقة، وأياديك الفاضلة، ورحمتك الواسعة أن تفعل بى كذا وكذا. فقال ابن عباس: هذا دعاء علمته فى النوم ما كنت أرى أن أحدًا يحسنه. وعن وهب أيضًا قال: لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة، فهبط إليه جبريل وقال: يا آدم هل أعلمك شيئًا تنتفع به فى الدنيا والآخرة؟ قال: بلى. قال: اللّهم أتمم النعمة حتى تهنينى المعيشة، اللّهم اختم لى بخير حتى لا تضرنى ذنوبى، اللّهم اكفنى مؤنة الدنيا، وكل هول فى القيامة حتى تدخلنى الجنة معافى.

وعن معروف الكرخى قال: اجتمعت اليهود - أخزاهم الله - على قتل عيسى عليه الصلاة والسلام بزعمهم وأهبط الله تعالى عليه جبريل، وفى باطن جناحيه مكتوب: اللّهم إنى أدعوك باسمك العظيم الوتر، وأدعوك اللّهم باسمك الأجل الأعز، وأدعوك اللّهم باسمك الأحد الصمد، وأدعوك اللّهم باسمك الكبير المتعالى الذى ملأ الأركان كلها، أن تكشف عنى ضر ما أصبحت وأمسيت فيه. فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن ارفع عبدى إلىّ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: عليكم بهذا الدعاء ولا تستبطئوا الإجابة؛ فإن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إسناد هذا متصل إلى معروف الكرخى ثم هو منقطع؛ ولو لم يكن فيه من البركة إلا رواية معروف لكان كافيًا فى قوله والعمل به.

حدث عبد الله بن أبان الثقفى رضى الله عنه قال: وجهنى الحجاج بن يوسف فى طلب أنس بن مالك، فظننت أنه يتوارى عنى فأتيته بخيلى ورجلى فإذا هو جالس على باب داره مادًّا رجليه، فقلت له: أجب الأمير. فقال: أى الأمراء؟ فقلت: أبو محمد الحجاج. فقال غير مكترث به: قد أذله الله، ما أرانى أعزه؛ لأن العزيز من عزّ بطاعة الله، والذليل من ذل بمعصية الله، وصاحبك قد بغى وطغى واعتدى وخالف كتاب الله والسنة والله لينتقم الله منه. فقلت له: أقصر عن الكلام وأجب الأمير. فقام معنا حتى حضر بين يدى الحجاج فقال له: أنت

أنس بن مالك؟ قال: نعم. قال: أنت الذى تدعو علينا وتسبنا؟ قال: نعم. قال: ومم ذاك؟ قال: لأنك عاص لربك، مخالف لسنة نبيك، تعز أعداء الله، وتذل أولياء الله. فقال له: أتدرى ما أريد أن أفعل بك؟ قال: لا. قال أريد أن أقتلك شر قتلة. قال أنس: لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك من دون الله. قال الحجاج: ولم ذاك؟ قال: لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنى دعاء وقال: من دعا به فى كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل وقد دعوت به فى صباحى هذا، فقال الحجاج: علمنيه. فقال: معاذ الله أن أعلمه لأحد ما دمت أنت فى الحياة. فقال الحجاج: خلوا سبيله. فقال الحاجب: أيها الأمير لنا فى طلبه كذا وكذا يومًا حتى أخذناه فكيف نخلى سبيله؟ قال: رأيت على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواههما. ثم إن أنسًا رضى الله عنه لما حضرته الوفاة علم الدعاء لإخوانه وهو: بسم الله الرحمن الرحيم، باسم الله خير الأسماء، باسم الله الذى لا يضر مع اسمه أذى، باسم الله الكافى، باسم الله المعافى، باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم، باسم الله على نفسى ودينى، باسم الله على أهلى ومالى، باسم الله على كل شيء أعطانيه ربى، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أعوذ بالله مما أخاف وأحذر، الله ربى لا أشرك به شيئًا، عز جارك، وجل ثناؤك، وتقدست أسماؤك، ولا إله غيرك، اللهم إنى أعوذ بك من شر كل جبار عنيد وشيطان مريد، ومن شر قضاء السوء، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم.

وهذا دعاء مشهور الإجابة وله شرح طويل تركناه لطوله وهو: اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر فى علمك، وانقياد كل شيء لعظمتك، وخضوع كل ذى سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك لا بيد غيرك، اجعل لى من كل هم وغم أصبحت أو أمسيت فيه فرجًا ومخرجًا، إنك على كل شيء قدير، اللهم إن عفوك عن ذنوبى، وتجاوزك عن خطيئتى، وسترك عن قبيح عملى، أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه منك مما قضيته لى، أدعوك آمنًا، وأسألك مستأنسًا لا خائفًا ولا وجلاً، لأنك أنت المحسن إلىّ، وأنا المسيء إلى نفسى فيما بينى وبينك، تتودد إلىّ بالنعم مع غناك عنى، وأتبغض إليك بالمعاصى مع افتقارى إليك، فلم أر مولى كريمًا أعطف منك على عبد لئيم مثلى، لكن الثقة بك حملتنى على الجراءة على الذنوب. فأسألك بجودك وكرمك وإحسانك وطولك أن تصلى على محمد وآله، وأن تفتح لى باب الفرج بطولك، وتحبس عنى باب الهم بقدرتك، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأعجز، ولا إلى الناس فأضيع، برحمتك يا أرحم الراحمين.

وروى الحافظ بإسناده عن الزهرى عن أبى مسلمة عن أبى هريرة قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل ساجد وهو يقول فى سجوده: اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك من مظالم كثيرة لعبادك قبلى، فأيما عبد من عبادك، أو أمة من إمائك كانت له قبلى مظلمة ظلمتها إياه من مال أو بدن أو عرض، علمتها أو لم أعلمها ولم أستطع أن أتحللها؛ فأسألك أن ترضيه عنى بما شئت وكيف شئت، ثم تهبها لى من لدنك، إنك واسع المغفرة. ولديك الخير كله. يا رب ما تصنع بعذابى ورحمتك وسعت كل شيء، فلتسعنى رحمتك فإنى لا شيء. وأسألك يا رب أن تكرمنى برحمتك، ولا تهنى بذنوبى، وما عليك أن تعطينى الذى سألتك يا رب يا الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ارفع رأسك فقد غفر الله لك، إن هذا دعاء أخى شعيب عليه السلام».

وقال صالح المزنى: قال لى قائل فى منامى: إذا أحببت أن يستجاب لك فقل: اللهم إنى أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطيب الطاهر المطهر المقدس. فما دعوت بها فى شيء إلا تعرفت الإجابة. وقيل: إن هذا الدعاء فيه اسم الله الأعظم وهو: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنى أسألك بالعزة التى لا ترام، والملك الذى لا يضام، والعين التى لا تنام، والنور الذى لا يطفأ، وبالوجه الذى لا يبلى، وبالديمومة التى لا تفنى، وبالحياة التى لا

تموت، وبالصمدية التى لا تقهر، وبالربوبية التى لا تستذل؛ أن تجعل لنا فى أمورنا فرجًا ومخرجًا حتى لا نرجو غيرك يا أرحم الراحمين.

وقال سعيد بن المسيب: دخلت المسجد فى ليلة مقمرة وأظن أنى قد أصبحت وإذا الليل على حاله، فقمت أصلى وجلست أدعو، وإذا بهاتف يهتف من خلفى: يا عبد اللّٰه قل. قلت: ما أقول؟ قال: اللّٰهم إنى أسألك بأنك ملك، وأنت على كل شىء قدير، وما تشاء من أمر يكون. قال سعيد: فما دعوت به قط فى شىء إلا رأيت نجحه. وعن الشيخ كمال الدين الدميرى قال: روينا عن قاضى القضاة عز الدين بن جماعة قال: أنبأنا الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مناع الفزارى خطيب دمشق قال: أنبأنا الشيخ زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف النابلسى بقراءتى عليه قال: أنبأنا الحافظ بهاء الدين ناصر السنة محمد بن الإمام أبى محمد بن الحافظ أبى القاسم علىّ بن الحسين بن هبة اللّٰه بن عساكر قراءة عليه وأنا أسمع قال: رويت بالإسناد، وذكر إسناده إلى الإمام الحجة التابعى الجليل محمد بن سيرين قال: نزلنا بنهر تيرا فأتانا أهل ذلك المنزل فقالوا لنا: ارحلوا، فإنه لم ينزل هذا المنزل أحد إلا أخذ متاعه، فرحل أصحابى وتخلفت فلما أمسينا قرأت آيات، فما تمت حتى رأيت أقوامًا قد أقبلوا وجاءوا إلى جهتى أكثر من ثلاثين نفرًا وقد جردوا سيوفهم، فلم يصلوا إلىّ، فلما أصبحت رحلت، فلقينى شيخ على فرس ومعه قوس عربية فقال لى: يا هذا إنسى أنت أم جنى؟ فقلت: بل أنا من بنى آدم. قال: فما بالك؟ لقد أتيناك فى هذه الليلة أكثر من سبعين مرة وفى كل ذلك يحال بيننا وبينك بسور من حديد. قلت: حدثنى ابن عمر رضى اللّٰه عنهما عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «من قرأ فى ليلة ثلاثًا وثلاثين آية لم يضره فى تلك الليلة لص طار، ولا سبع ضار، وعوفى فى نفسه وأهله وماله حتى يصبح». فنزل عن فرسه وكسر قوسه وأعطى اللّٰه تعالى عهدًا أن لا يعود لهذا الأمر. وهذه الآيات وهى أن تقرأ بعد الفاتحة الم ذلك الكتاب، إلى قوله المفلحون، وآية الكرسى إلى قوله وهم فيها خالدون، وآمن الرسول إلى آخر السورة، وإن ربكم اللّٰه الذى إلى قوله المحسنين، وقل ادعوا اللّٰه أو ادعوا الرحمن إلى آخر السورة، والصافات صفا إلى قوله لازب، ويا معشر الجن والانس إن استطعتم إلى قوله فلا تنتصران. لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا.. إلى آخرها، وأنه تعالى جدّ ربّنا إلى قوله شططا - زاد البونى إلى قوله: شهابًا رصدًا- واللّٰه من ورائهم محيط إلى قوله محفوظ. قال محمد بن سيرين: فذكرت هذا الحديث لشعيب بن حرب فقال: كنا نسميها آيات الحرز. ويقال: إن فيها شفاء من مائة داء وعدّوا منها الجذام وغير ذلك. قال محمد بن على قرأتها على شيخ لنا قد أفلج فأذهب اللّٰه تعالى عنه ذلك الفالج. قال البونى: هذه الآيات شرفها مشهور وفضلها مذكور، لا ينكرها إلا غبى أو غيور، وقد جربها المشايخ وعرف سرها من له فى العلم قدمٌ راسخٌ، وقدرٌ شامخٌ، وهى على ما رويناه أولها الفاتحة ثم أول البقرة إلى آخر الآيات.

وقال أبو العباس أحمد القسطلاني: سمعت الشيخ أبا عبد اللّٰه القرشى يقول: سمعت أبا زيد القرطبى يقول فى بعض الآثار: إن من قال لا إله إلا اللّٰه سبعين ألف مرة كانت فداءه من النار. فعملت ذلك رجاء بركة الوعد، ففعلت منها لأهلى، وعملت أعمالاً ادخرتها لنفسى، وكان إذ ذاك يبيت معنا شاب يكاشف بالجنة والنار، وكانت الجماعة ترى له فضلاً على صغر سنه، وكان فى قلبى منه شىء، فاتفق أن استدعانا بعض الإخوان إلى منزله فبينما نحن نتناول الطعام والشاب معنا إذ صاح صيحة منكرة واجتمع فى نفسه وهو يقول: يا عم هذه أمى فى النار، ويصيح بصياح عظيم لا يشك من سمعه أنه عن أمر، فلما رأيت ما به من الإنزعاج قلت: اليوم أجرب صدقه، فألهمنى اللّٰه تعالى السبعين ألفًا و لم يطلع على ذلك إلا اللّٰه تعالى. فقلت فى نفسى: الأثر حق والذين رووه لنا صادقون، اللّٰهم إن هذه السبعين ألفًا فداء أمّ هذا الشاب من النار، فما استتممت هذا الخاطر فى نفسى حتى

أن قال: يا عم هذه أمي أخرجت من النار والحمد لله، فحصل عندى فائدتان: امتحانى لصدق الأثر، وسلامتى من الشاب وعلمى بصدقه.

ومن خاف إنسانًا فليصل ركعتين بعد صلاة المغرب ثم يضع جبهته على التراب ويقول: يا شديد المحال، يا عزيز أذللت بعزتك جميع من خلقت صل على محمد وآله، واكفنى فلانًا بما شئت، كفاه الله تعالى شره. وروى الثقفى رحمه الله تعالى بإسناده إلى محمد بن على بن الحسين تعالى عنه أنه كان يقول لولده: يا بنىّ من أصابته مصيبة فى الدنيا أو نزلت به نازلة فليتوضأ وليحسن الوضوء وليصل أربع ركعات أو ركعتين، فإذا انصرف من صلاته يقول: يا موضع كل شكوى، ويا سامع كل نجوى، ويا شاهد كل بلوى، ويا منجى موسى والمصطفى محمد والخليل إبراهيم عليهم السلام، أدعوك دعاء من اشتدت فاقته، وضعفت حركته، وقلت حيلته، دعاء الغريب الغريق الفقير الذى لا يجد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. قال على بن الحسين رضى الله عنهما: لا يدعو به مبتلى إلا فرج الله عنه.

وقيل: الاسم الأعظم هو باسم الله الرحمن الرحيم، اللّهم إنى أسألك يا مؤنس كل وحيد، يا قريبًا غير بعيد، يا شاهدًا غير غائب يا غالبًا غير مغلوب، يا حى يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، أسألك باسمك الله الرحمن الرحيم الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، أسألك باسمك باسم الله الرحمن الرحيم الذى عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، ووجلت له القلوب، أن تصلى على محمد وعلى آله، وأن تعطينى كذا وكذا إنك على شىء قدير.

وهذه أبيات الفرج لأحمد بن حمزة البونى، قيل إن فيها اسم الله الأعظم وهى هذه:

إنى لأرجو عطفة اللّه ولا ... أقولُ إن قيل متى ذاك متى
لابد أن ينشر ما كان طوى ... جوادًا وإن يمطر ما كان خوى
وربما ينشر ما كان زوى ... وربما قدّر ما كان لوى
وكل شىءٍ إلى مدى ... والشىءُ يُرجى كشفَه إذا انتهى
لطائفُ اللّه وإن طال المدى ... كلمحة الطرف إذا الطرفُ رمى
كم فرجٍ بعد إياسٍ قد أتى ... وكم سرورٍ قد أتى بعد الأسى
مَنْ لاذ باللّه نجا فيمَنْ نجا ... مِن كل ما يخشى ونال ما رجا
سبحان من نهفو ويعفو دائمًا ... ولم يزل مهما هفا العبد عفا
يعطى الذى يخطى ولا يمنعه ... جلاله من العطا لذى الخطا

ومن المنظوم أيضًا:

يا مَنْ يَرَى ما فى الضمير ويَسْمَعُ ... أنْتَ المُعِدُّ لكلِّ ما يتوقَّعُ
يا مَنْ يُرجىَ للشَّدائِد كلِّها ... يا مَنْ إليه المُشْتَكى والمَفْزَعُ
يا مَنْ خزائنُ رزقِه فى قول كن ... أمنُنْ فإنَّ الخيرَ عِنْدك أجمعُ
مَا لى سِوَى فَقْرِى إليكَ وَسَيلَة ... فبالافتقار إليك فقرى أدفعُ
ما لى سوى قرعى لبابك حيلة ... فلئن رددت فأى باب أقرعُ
ومن ذا الذى أدعو وأهتف باسمه ... وإن كان فضلك عن فقيرك يمنعُ
حاشا لجودك أن تقنط عاصيًا ... الفضلُ أجزلُ والمواهب أوسعُ

ثـم الصـلاةَ علـى النبـىّ وآلـه | خـيرِ الأنـام ومـن بـه يتشـفّعُ

وقال آخر:

يـا خـالقَ الخلقِ يـا ربَّ العبـادِ ومَـنْ | قد قـال فـى مُحكَـم التّنزيل ادعونـى
إنـى دَعوتَـك مُضْطـرًا فخـذ بيـدى | يا جاعلَ الأمرِ بين الكـاف والنـون[1]
نَجَّيـتَ أيوبَ مـن بلـواه حين دعـا | بصبرِ أيـوب يـا ذا اللطـفِ نجّينـى
واطلِقْ سَرَاحِى وامْنن بـالخَلاصِ كمـا | نَجَّيت مـن ظلمـات البحرِ ذا النـون

ثم يقرأ ﴿**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[2] قال بعضهم:

يا ربُّ مـا زال لطـفٌ منـكَ يشملنى | وقـد تجـدَّد بـى مـا أنـت تعلمـه
فاصرِفْـهُ عنـى كمـا عوّدتنـى كَرَمًـا | فمَـنْ سِـوَاك لهـذا العبـد يرحمـه

وقال آخر:

يـا مَـنْ تَحـلُّ بذكـره | عقـد النوائـب والشـدائد
يـا مَـنْ إليـه المُشـتكى | وإليـه أمـرُ الخلـق عـائد
يـا حـىُّ يـا قيُّـومُ يـا | صَمَـد تـنزَّه عـن مضـادد
أنـت الرقيـبُ علـى العبـا | دِ وأنـت فـى الملكـوت واحـد
أنـتَ المعِـزُّ لمـن أطَـا | عَـكَ والمُـذِلُّ لكـلِّ جـاحد
إنـى دعوتُـك والهمـ | وم جيوشُـها نحـوى تطـارد
فـافرج بحولـك كربتـى | يـا مَـنْ لـه حسـنُ العوائـد
فخفـىُّ لطفـك يسـتعا | نُ بـه علـى الزمـنِ المعـاند
أنـتَ الميسِّـر والمسبـبِّ | ب والمسَـهِّل والمسـاعد
يسِّـرْ لنـا فرجًـا قـر | يبًـا يـا إلهـى لا تَبَـاعد
كـن راحمـى فلقـد يئسـتُ | مـن الأقـاربِ والأبـاعد
ثـم الصَّـلاةَ علـى النَّبـىِّ | وآلـه الغـرِّ الأمَـاجد
وعلـى الصَّحَابـةِ كلهـم | مـا خـرَّ للرَّحمن سَـاجد

دعاء عظيم مأثور

اللّهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى، إلى بغيض يتجهمنى، أو إلى قوىٍّ ملكته أمرى، إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن يحل بى غضبك، أو ينزل سخطك، فلك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك يا رب العالمين.

---

(١) الكاف والنون: أى من أمره ﴿كن﴾.

ومما جاء فى أدعية الناس بعضهم لبعض

دعاء رجل لآخر فقال: سرك بما ساءك فيما سرك. ودعا رجل لآخر فقال: لا أخلاك اللّه تعالى من ثناء صادق باق ودعاء صالح واق. ودعا أعرابى لآخر فقال: رحب واديك، وعز ناديك، ولا ألَمَّ بك ألم، ولا طاف بك عدم، وسلمك اللّه ولا أسلمك. وسمعت بعض العرب يدعو لرجل ويقول: سلمك اللّه تعالى من الرهق والوهق(١) وعافاك اللّه تعالى من الوحل والزحل(٢) ، وسلمك اللّه تعالى من الشاردات والواردات(٣) ، وسلمك اللّه بين الأعنة والأسنة(٤) . ودعا أعرابى لعبد اللّه بن جعفر رضى اللّه عنه فقال: ابتلاك اللّه تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار وتناسخت الظلم والأنوار. ودعا بعضهم لآخر فقال: زودك اللّه تعالى الأمن فى مسيرك، والسعد فى مصيرك، ولا أخلاك من شر تستجده، وخير من اللّه تستمده. وعزّى شبيب بن شبة يهوديًّا فقال: أعطاك اللّه على مصيبتك أفضل ما أعطى أحدًا من أهل ملتك.

ومما جاء فى الدعاء على الأعداء والظلمة ونحوهم: دعا أعرابى على ظالم فقال: لا ترك اللّه لك شفرًا ولا ظفرًا، أى عينًا ولا يدًا. ومن دعاء العرب: فتَّهُ اللّه فتًّا، وحَتَّهُ حتًّا، وجعل أمره شتى. وخرج أعرابى إلى سفر وكانت له امرأة تكرهه فأتبعته نواة، وقالت: شط نواك، ونأى سفرك، ثم أتبعته روثة وقالت: رثتك أهلك، وورث خيرك، ثم أتبعته حصاة، وقالت: حاص رزقك، وحص أثرك.

ودعا أعرابى على آخر فقال: أطفأ اللّه ناره، وخلع نعليه؛ أى جعله أعمى مقعدًا. ودعا أعرابى على آخر فقال: سقاه اللّه دم جوفه أى قتل ابنه، وأخذ ديته، فشرب لبنها. ودعا أعرابى على آخر فقال: بعث اللّه عليه سنة فاشورة تحلقه كما يحلق الشعر بالنورة. ودعا رجل على أمير فقال:

أزالَ اللّـه دولَتـه سريعًا ... فقد ثقلت على عنق الليالى

وقال امرأة من بنى ضبة فى زوجها:

ومـا دعـوتُ عليـه حـين ألعنـه ... إلا وآخـرُ يتلـوه بـآمين

فَلَيتـه كَـان أرْضُ الـرُّوم مْنزِلَـه ... وَلَيتنـى قَبْلَـه قـد صـرت للصِّـين

وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى خطبته يوم الأحزاب: اللّهم كِلَّ سلاحهم، واضرب وجوههم، ومزقهم فى البلاد تمزيق الريح للجراد. ودعا رجل فقال: اللّهم أكفنا أعداءنا ومن أرادنا بسوء؛ فلتحط به ذلك السوء إحاطة القلائد بترائب الولائد، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب الفيل، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل.

ولنختم هذا الباب بهذا الدعاء المبارك وهو: اللّهم إنك عرفتنا بربوبيتك، وغرقتنا فى بحار نعمتك، ودعوتنا إلى دار قدسك، ونعمتنا بذكرك وأنسك، إلهى إن ظُلمة ظلمنا لنفوسنا قد عمت، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمت، والعجز شامل، والحصر حاصل، والتسليم أسلم، وأنت بالحال أعلم، إلهى ما عصيتك جهلاً بعقابك، ولا تعرضًا لعذابك، ولكن سوّلتها نفوسنا، وأعانتنا شقوتنا، وغرنا سترك علينا، وأطمعنا فى عفوك برك بنا. فالآن من

---

(١) الوهق: التعب والوهق الحبل.

(٢) الزحل: التعثر والإزاحة.

(٣) الواردات: المصائب.

(٤) أى: فى الحرب.

عذابك من ينقذنا، وبحبل مَنْ نعتصم إن قطعت حبلك عنا، وا خحلتاه غدًا من الوقوف بين يديك، وا فضيحتاه إن عرضت فعالنا القبيحة عليك، اللّهم اغفر ما علمت، ولا تهتك ما سترت. إلهى إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل، حيث علمنا أن لنا ربًّا يغفر لنا ولا يبالى. إلهى لا تحرق بالنار وجهًا كان لك مصليًّا، ولسانًا كان لك ذاكرًا وداعيًا، لا بالذى دلنا عليك وأمرنا بالخشوع بين يديك وهو محمد صلى اللّه عليه وسلم خاتم أنبيائك وسيد أصفيائك؛ فإن حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك، كما أن منزلته لديك أشرف المنازل، سيد خلقك، ومعدن أسرارك، صل يا رب على محمد وآله وأصحابه وارحم عبادًا غرهم طول إمهالك، وأطمعهم كثرة إفضالك فقد ذلوا لعزك وجلالك، ومدوا أكفهم لطلب نوالك، ولولا ذلك لم يصلوا إلى ذلك.

اللّهم اغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين أجمعين وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن والسبعون فى القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل

اعلم أن كل ما يجرى فى العالم من حركة وسكون، خير وشر، ونفع وضر، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، فكل بقضاء الله وقدره وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه، ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه، ولا تطن بعوضة، ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته، كما لا يجرى شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به. واعلم أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة، كما أن ما فى علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب، وما قدّر الله وصوله إليك بعد الطلب فهو لا يصل إليك إلا بالطلب، والطلب أيضًا من القدر، فإن تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق شيء فبتيسيره. فمن رام أمرًا[١] من الأمور ليس الطريق فى تحصيله أنه يغلق بابه عليه، ويفوض أمره لربه، وينتظر حصول ذلك الأمر، بل الطريق أن يشرع فى طلبه على الوجه الذى شرعه الله له فيه، وقد ظاهر النبى صلى الله عليه وسلم بين درعين، واتخذ خندقًا حول المدينة حين تحزبت عليه الأحزاب يحترس به من العدوّ، وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد، وكان يلبس لأمة الحرب ويهيئ الجيوش، ويأمرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم، واسترقى وأمر بالرقية، وتداوى وأمر بالمداواة، وقال: الذى أنزل الداء أنزل الدواء.

فإن قيل: قد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: من استرقى أو اكتوى فهو برئ من التوكل. قلنا: أليس قد قال: اعقلها وتوكل. فإن قيل: فما الجمع بين ذلك؟ قلنا: معناه من استرقى أو اكتوى متكلاً على الرقية أو الكى وأن البرء من قبلهما خاصة، فهذا يخرجه عن التوكل، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله، وقد أمرنا بالكسب والتسبب، ألا ترى أن الله قال لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[٢]؟ فهلا أمرها بالسكون وحمل الرطب إلى فمها؟ وأنشدوا فى ذلك:

ألم تـرَ أن اللـه قـال لمريـم ... وهزى إليك الجذع يسَّاقطَ الرطب
ولو شاءَ أن تجنيه من غيرِ هزِّها ... جَنَتْهُ ولكن كل شىء له سبب

وقد تقدّم هذا الشعر فى باب الكسب والتسبب ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا»[٣] فلم يحمل أرزاقها إليها فى أوكارها بل ألهمها طلبها بالغدو والرواح، وقد جمعوا بين الطلب والقدر فقالوا إنهما كالعدلين على ظهر الدابة إن حمل فى واحد منهما أرجح مما فى الآخر سقط حمله، وتعب ظهره، وثقل عليه سفره، وإن عادل بينهما سلم ظهره، ونجح سفره، وتمت بغيته. وضربوا به مثالاً عجيبًا فقالوا: إن أعمى ومقعدًا كانا فى قرية بفقر وضر، لا قائد للأعمى، ولا حامل للمقعد، وكان فى القرية رجل يطعمهما قوتهما فى كل يوم احتساباً بالله تعالى، فلم يزالا بنعمة إلى أن هلك الرجل، فلبثا بعده أيامًا، واشتد جوعهما، وبلغ الضر منهما جهده، فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد، فيدله المقعد على الطريق ببصره. فاشتغل الأعمى بحمل المقعد ويدور به ويرشده إلى الطريق، وأهل القرية يتصدقون عليهما، فنجح أمرهما، ولولا ذلك لهلكا. فكذلك القدر سببه الطلب، والطلب سببه القدر، وكل واحد منهما معين لصاحبه، ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ثم قعد فى بيته لم يطأ زوجته، ولم يبذر أرضه معتمدًا فى ذلك على الله واثقًا به أن تلد امرأته من غير مواقعة، وأن ينبت الزرع من غير بذر كان عن المعقول خارجًا ولأمر الله كارهًا؟

---

(١) رام أمرًا: طلب.

(٢) سورة مريم: ٢٥.

(٣) أخرجه: الترمذى فى الزهد ٢٣٤٤.

قال الغزالى: أما المعيل فلا يخرج عن حل التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرًا لضعفهم، وتسكينًا لقلوبهم، وقد ادخر رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قوت سنة ونهى أم أيمن وغيرها أن تدّخر شيئًا. وقال: «أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا». وقال عبد اللّٰه بن الفرج: أطلعت على إبراهيم بن أدهم وهو فى بستان بالشام فوجدته مستلقيًا على قفاه وإذا بحية فى فمها باقة نرجس، فما زالت تذب عنه حتى انتبه. فحسبك توكُلٌ يؤدى إلى هذا. وعن عبد اللّٰه الهروى قال: كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبى قبيس، فقال: لو أن رجلاً صدق فى توكله على اللّٰه، ثم قال لهذا الجبل اهتز لاهتز، فواللّٰه لقد رأيت الجبل اهتز وتحرك. فقال له الفضيل رحمه اللّٰه تعالى: لم أعنك رحمك اللّٰه، فسكن.

وفى الإسرائيليات: أن رجلاً احتاج إلى أن يقترض ألف دينار فجاء إلى رجل من المتموّلين فسأله فى ذلك، وقال له: تمهل علىّ بدينك إلى أن أسافر إلى البلد الفلانى؛ فإنّ لى مالاً آتيك به وأوفيك منه، وتكون مدّة الأجل بينى وبينك كذا وكذا، فقال له: هذا غرر؛ فأنا ما أعطيك مالى إلا أن تجعل لى كفيلاً، إن لم تحضر طلبته منه. فقال الرجل: اللّٰه كفيل بمالك وشاهد علىّ أن لا أغفل عن وفائك؛ فأن رضيت فافعل. فداخل الرجل خشية اللّٰه تعالى، وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل، فأخذه ومضى إلى البلد الذى ذكره. فلما قرب الأجل الذى بينه وبين صاحبه جهز المال وقصد السفر فى البحر فعسر عليه وجود مركب. ومضت المدة وبعدها أيام وهو لا يجد مركبًا، فاغتم لذلك وأخذ الألف دينار وجعلها فى خشبة وسمر عليها ثم قال: اللّهم إنى جعلتك كفيلاً بإيصال هذه إلى صاحبها، وقد تعذر علىّ وجود مركب، وعزمت على طرحها فى البحر وتوكلت عليك فى إيصالها إليه. ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال طرحها فى البحر بيده، وأقام فى البلد مدّة بعد ذلك إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال فابتدأه، وقال: أنت سيرت الألف دينار فى خشبة صفتها كيت وكيت، وعليها منقوش كذا وكذا؟ قال: نعم. قال: قد أوصلها اللّٰه تعالى إلىّ، واللّٰه نعم الكفيل. فقال: فكيف وصلت إليك؟ قال: لما مضى الأجل المقدّر بينى وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرنى عنك، فوفقت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إلىّ، و لم ارَ لها طالبًا، فأخذها الغلام ليجعلها حطبًا، فلما كسرها وجد ما فيها، فأخبرنى بذلك، فقرأت ما عليها، فعلمت أنّ اللّٰه تعالى حقق أملك لما توكلت عليه حق التوكل.

وقيل: إن سبب بداية ذى النون المصرى رحمه اللّٰه تعالى أنه رأى طيرًا أعمى بعيدًا عن الماء والمرعى فبينما هو يتفكر فى أمر ذلك الطائر؛ فإذا هو بسكرجتين برزتا من الأرض إحداهما ذهب، والأخرى فضة، هذه فيها ماء، والأخرى فيها قمح، فلقط القمح وشرب الماء، ثم غاب بعد ذلك، فذهل ذو النون وانقطع إلى اللّٰه تعالى من ذلك الوقت.

وحكى أن رجلاً من أبناء الناس كانت له يد فى صناعة الصياغة، وكان أوحد أهل زمانه، فساء حاله، وافتقر بعد غناه، فكرة الإقامة فى بلده، فانتقل إلى بلد آخر، فسأل عن سوق الصاغة، فوجد دكانًا لمعلم السلطنة وتحت يده صناع كثيرون يعملون الأشغال للسلطنة وله سعادة ظاهرة ما بين مماليك وخدم وقماش وغير ذلك، فتوصل الصائغ الغريب إلى أن بقى من أحد الصناع الذين فى دكان هذا المعلم، وأقام يعمل عنده مدة، وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة، وتكون أجرة عمله تساوى عشرة دراهم، فيكسب عليه ثمانية دراهم فى كل يوم. فاتفق أن الملك طلب المعلم وناوله فردة سوار من ذهب مرصعة بفصوص فى غاية من الحسن قد عملت فى غير بلاده، كانت فى يد إحدى محاظيه[1] فانكسرت فقال له: الحمها، فأخذها المعلم وقد اضطرب عليه فى عملها،

(١) محاظيه: الجارية المملوكة ذات المكانة.

فلما أخذها وأراها للصناع الذين عنده، وعند غيره، فما قال له أحد إنه يقدر على عملها، فازداد المعلم لذلك غمًّا، ومضت مدة وهى عنده لا يعلم ما يصنع. فاشتد الملك على إحضارها، وقال: هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة، ولا يحسن أن يلحم سوارًا، فلما رأى الصانع الغريب شدة ما نال المعلم قال فى نفسه: هذا وقت المروءة أعملها ولا أؤاخذه ببخله علىَّ، وعدم إنصافه، ولعله يحسن إلىّ بعد ذلك، فحط يده فى درج المعلم، وأخذها وفك جواهرها وسبكها، ثم صاغها كما كانت ونظم عليها جواهرها، فعادت أحسن ما كانت، فلما رآها المعلم فرح فرحًا شديدًا ثم مضى بها إلى الملك، فلما رآها استحسنها وادعى المعلم أنها صنعته فأحسن إليه، وخلع عليه خلعة سنية، فجاء وجلس مكانه فبقى الصائغ يرجو مكافأته عما عامله به، فما التفت إليه المعلم، ولما كان النهار ما زاده على الدرهمين شيئًا. فما مضت إلا أيام قلائل وإذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة، فطلب المعلم ورسم له بكل ما يحتاج إليه، وأكد عليه فى تحسين الصنعة وسرعة العمل، فجاء إلى الصانع وأخبره بما قال الملك، فامتثل مرسومه، ولم يزل منتصبًا إلى أن عمل الزوجين وهو لا يزيده شيئًا على الدرهمين فى كل يوم، ولا يشكره، ولا يعده بخير، ولا يتحمل معه، فرأى المصلحة أن ينقش على زوج منهما أبياتًا يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك؛ فنقش فى باطن إحداهما هذه الأبيات نقشًا خفيفًا يقول:

مصائبُ الدهرِ كُفِّى ... إن لم تكفِّى فعِفِّى
خَرَجْتُ أطْلُبُ رِزْقى ... وجَدْتُ رِزْقى تَوفِّى
فلا بِرِزْقِى أَحْظَى ... ولا بِصَنْعَةِ كفِّى
كَم جاهلٍ فِى الثريَّا ... وعَالِمٍ مُتَخَفِّى

قال: وعزم الصانع على أنه إن ظهرت الأبيات للمعلم شرح له ما عنده، وإن غم عليه ولم يرها كان سبب توصله إلى الملك، ثم لفهما فى قطن وناولهما للمعلم، فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهله بالصنعة، ولما سبق له فى القضاء، فأخذها المعلم ومضى بهما فرحًا إلى الملك وقدمهما إليه، فلم يشك الملك فى أنهما صنعته، فخلع عليه وشكره، ثم جاء فجلس مكانه ولم يلتفت إلى الصانع وما زاده فى آخر النهار شيئًا على الدرهمين، فلما كان اليوم الثانى خلا خاطر الملك فاستحضر الحظية التى عمل لها السوارين الذهب فحضرت وهما فى يديها، فأخذهما ليعيد نظره فيهما، وفى حسن صنعتهما، فقرأ الأبيات، فتعجب وقال: هذا شرح حال صانعهما، والمعلم يكذب، فغضب عند ذلك وأمر بإحضار المعلم، فلما حضر قال له: من عمل هذين السوارين؟ قال: أنا أيها الملك، قال: فما سبب نقش هذه الأبيات؟ قال: لم يكن عليهما أبيات، قال: كذبت، ثم أراه النقش وقال: إن لم تصدقنى الحق لأضربن عنقك، فأصدقه الحق، فأمر الملك بإحضار الصانع، فلما حضر سأله عن حاله، فحكى له قصته وما جرى له مع المعلم، فرسم الملك بعزل المعلم، وأن تسلب نعمته وتعطى للصانع، وأن يكون عوضًا عنه فى الخدمة، ثم خلع عليه خلعة سنية وصار مقدمًا سعيدًا، فلما نال هذه الدرجة وتمكن عند الملك تلطف به حتى رضى عن المعلم الأول وصارا شريكين، ومكثا على ذلك إلى آخر العمر، ورحم الله من قال:

إذا كان سعدُ المرء فى الدهر مقبلاً ... تدانَتْ له الأشياءُ من كل جانبِ

وقال آخر:

ما سَلَّمَ اللَّه هو السَّالِم ... ليس كما يَزْعُم الزَّاعِمُ
تَجْرِى المَقَاديرُ التى قَدَّرَتْ ... وأنفُ من لا يرتضى راغمُ

وقال كعب بن زهير:

لو كنت أعجبُ من شىء لأعجبنى ... سَعْىُ الفَتَى وَهْوَ مَخْبُوءٌ له القَدرُ

يسعى الفتى لأمورٍ ليس يُدْرِكُها ... والنفسُ واحدةٌ والهمُّ منتشرُ
والمرءُ ما عاشَ ممدودٌ له أملٌ ... لا ينتهى ذاك حتى ينتهى العمرُ

وروى فى الإسرائيليات: أن نبيًّا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مر بفخ منصوب، وإذا بطائر قريب منه فقال له الطائر: يا نبى اللّه، هل رأيت أقل عقلاً ممن نصب هذا الفخ ليصيدنى به، وأنا أنظر إليه؟ قال: فذهب عنه ذلك النبى عليه السلام، ثم رجع وإذا بالطائر فى الفخ، فقال له: عجبًا لك! ألست القائل كذا وكذا آنفًا؟ فقال: يا نبى اللّه، إذا جاء الحين لم يبق أذن ولا عين. ويروى أن رجلاً قال لبزرجمهر: تعالى نتناظر فى القدر. قال: وما تصنع بالمناظرة؟ قال: رأيتُ شيئًا ظاهرًا استدللت به على الباطن، رأيت جاهلاً مبرورًا، وعالمًا محرومًا، فعلمت أن التدبير ليس للعباد. ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك قال له يزيد بن المهلب: أنت أدهى الناس وأعلمهم فكيف طرحت نفسك فى يد سليمان؟ فقال: إن الهدهد ينظر إلى الماء فى الأرض على ألف قامة، ويبصر القريب منه والبعيد على بعد فى التخوم[1] ، ثم ينصب له أهل الصبى الفخ بالدودة أو الحبة فلا يبصره حتى يقع فيه، وأنشدوا فى ذلك

وإذا خشيتَ من الأمور مُقَدَّرًا ... وفَرَرْتَ مِنْه فَنَحْوه تَتوجَّه

وقال آخر:

أقامَ على المَيَسَّرِ وقد أنيخَتْ ... مَطَايَاه وغَرَّد حَادِيَاها
وقال أخَافُ عَادِيةَ اللّيالى ... على نَفْسى وأن ألْقَى رَدَاها
مَشَيْناها خَطَا كُتِبَتْ علينا ... ومن كُتِبت عليه خطًا مشاها
ومن كانت منيَّته بأرضٍ ... فليس يموت فى أرض سواها

ولما قتل كسرى بزرجمهر وجد فى منطقته كتاب فيه: إذا كان القضاء حقًّا، فالحرص باطل، وإذا كان الغدر فى الناس طباعًا، فالثقة بكل أحد عجز، وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً؛ فالطمأنينة إلى الدنيا حمق. وقال ابن عباس وجعفر بن محمد رضى اللّه تعالى عنهما فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾[2] إنما كان الكنز لوحًا من ذهب مكتوب فيه: بسم اللّه الرحمن الرحيم عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب؟ وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل؟ وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه.

وحكى الطرطوشى رحمة اللّه تعالى فى كتابه «سراج الملوك» قال: من عجيب ما اتفق بالإسكندرية أن رجلاً من خدم نائب الإسكندرية غاب عن خدمته أيامًا، ففى بعض الأيام فقبض عليه صاحب الشرطة وحمله إلى دار النائب، فانفلت فى بعض الطرق؛ وترامى فى بئر، والمدينة إذ ذاك مسردبة بسرداب يمشى الماشى فيه قائمًا. فما زال الرجل يمشى إلى أن لاحت له بئر مضيئة، فطلع منه، فإذا البئر فى دار النائب، فلما طلع أمسكه النائب وأدبه، فكان فيه المثل السائر: الفار من القضاء الغالب، كالمنقلب فى يد الطالب، وأنشدوا فيه:

قالوا تقيمُ وقد أحا ... طَ بكَ العَدوُّ ولا تفرُّ
لا نلتُ خيرًا إن بَقيـ ... ـتُ ولا عَدَانى الدَّهر شرُّ
إن كنتُ أعلم أن غيـ ... ـرَ اللّه ينفعُ أو يضرُّ

---

(١) التخوم: الحد الفاصل بين أرضين وهى أيضًا المعالم التى يُهتدى بها فى الطريق.
(٢) سورة الكهف: ٨٢.

الباب التاسع والسبعون فى التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة وأمر اللّه تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] ووعد بالقبول فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[2] وفتح باب الرجاء فقال: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3] وروى فى الصحيح عن ابن عمر رضى اللّه تعالى عنهما أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى اللّه تعالى؛ فإنى أتواب إلى اللّه تعالى فى اليوم مائة مرة».

روى أحمد بن عبد الرحمن السلمانى قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال أحدهم: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «إن اللّه تعالى يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم»، فقال الثانى: أنت سمعت هذا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: «إن اللّه تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم». فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: «إن اللّه تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحوة» أو قال: «بضجعة». فقال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ قال: نعم. وأنا سمعته يقول: «إن اللّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[4] .

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى اللّه عنه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «للّه أفرح بتوبة عبده، من رجل نزل بأرض دوية مهلكة معه راحلته، فنام واستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال أرجع إلى المكان الذى ضللتها فيه وأموت، فأتى مكانه، فغلبته عينه فاستيقظ، وإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه. فاللّه أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده». وعن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «واللّه إنى لأستغفر اللّه وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» رواه البخارى. وعن أبى موسى عبد اللّه بن قيس الأشعرى رضى اللّه عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال: «إن اللّه تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[5] رواه مسلم. وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب اللّه عليه» رواه مسلم. وعن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه أن نبى اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعبد أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ قال: لا، فقتله وكمل به المائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فأتاه وقال له: إنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحل بينك وبين التوبة، انطلق إلى كذا وكذا؛ فإن بها أناسًا يعبدون اللّه تعالى فاعبد اللّه تعالى معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء؛ فانطلق حتى كان نصف الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاءنا تائبًا مقبلاً بقلبه إلى اللّه تعالى، فقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك فى صورة آدمى، فحكموه بينهم فقال: قيسوا ما بين

(١) سورة النور: ٣١.
(٢) سورة الشورى: ٢٥.
(٣) سورة الزمر: ٥٣.
(٤) يغرغر: تردد الروح فى الحلق.
(٥) هى علامة يوم القيامة.

الأرضين، فإلى أيهما كان أدنى؛ فهو أقرب لها، فقاسوه، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة». متفق عليه. وفي الصحيحين: «فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة بشبر فجعل من أهلها».

وعن أبي نجيد -بضم النون وفتح الجيم- عمران بن الحصين الخزاعي رضي اللّه عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهي حبلى من الزنا فقالت: يا رسول اللّه أصَبْتُ حدًّا فأقمه عليَّ، فدعا نبي اللّه صلى اللّه عليه وسلم فشدت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلى عليها. فقال عمر: يا رسول اللّه، تصلي عليها وقد زنت؟ قال: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم». وهل وجدت أفضل ممن جادت بنفسها للّه عز وجل». رواه مسلم. وعن أبي نضرة قال: لقيت مولى لأبي بكر رضي اللّه عنه فقلت له: سمعت من أبي بكر شيئًا؟ قال: نعم، سمعته يقول: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «ما أصرّ من استغفر، ولو عاد إلى الذنب في اليوم سبعين مرة».

وحكى أن نبهان التمار وكنيته أبو مقبل أتته امرأة حسناء تشتري تمرًا فقال لها: هذا التمر ليس بجيِّد وفي البيت أجود منه، فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق اللّه، فتركها وندم على ذلك؛ فأتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فذكر له ذلك، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾[1] إلى آخر الآية. وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت عليًّا يقول: إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول اللّه حديثًا ينفعني اللّه منه بما شاء ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر، أنه سمع رسول اللّه يقول: «ما من عبد يذنب ذنبًا فيحسن الطهور، ويصلي، ثم يستغفر اللّه إلا غفر له» وروى في الصحيح، عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «إذا أذنب العبد ذنبًا فقال: يا رب، أذنبت ذنبًا، فاغفره لي، قال اللّه عز وجل: علم عبدى أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به، فغفر له، ثم إذا مكث ما شاء اللّه وأصاب ذنبًا آخر فقال: يا رب، أذنبت ذنبًا، فاغفره لي، قال ربه: علم عبدى أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى، فليفعل ما شاء».

وكان قتادة رضي اللّه تعالى عنه يقول: القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، أما دوائكم فالاستغفار، وأما داؤكم: فالذنوب. وكان علي رضي اللّه تعالى عنه يقول: العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من قال عشرًا حين يصبح، وحين يمسي: استغفر اللّه العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل رمل عالج، ومن قال: سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءًا، فاغفر لي ذنوبي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت؛ غفرت ذنوبه ولو كانت مثل دبيب النمل». وقال أبو عبد اللّه الوراق: لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر، وزبد البحر، محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار، وهو هذا: اللّهم إني أسألك وأستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه، واستغفرك من كل ما وعدتك من نفسي، ثم لم أوف لك به، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليَّ فاستعنت بها على معصيتك. يقول اللّه عز وجل لملائكته: ويح ابن آدم يذنب الذنب ثم يستغفرني فأغفر له، ثم يذنب الذنب فيستغفرني فأغفر له، لا هو يترك الذنب من مخافتي، ولا ييأس من مغفرتي، أشهدكم يا ملائكتي، أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت له. وقال بشر الحافي: بلغني أن العبد إذا عمل الخطيئة أوحى اللّه تعالى إلى الملائكة الموكلين: ترفقوا عليه سبع ساعات؛ فإن استغفرني فلا تكتبوها، وإن لم يستغفرني فاكتبوها.

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٥.

نكتة: قيل: انقطع الغيث عن بنى إسرائيل فى زمن موسى عليه الصلاة والسلام حتى احترق النبات، وهلك الحيوان، فخرج موسى عليه الصلاة والسلام فى بنى إسرائيل وكانوا سبعين رجلاً من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله قد بسطوا أيدى صدقهم وخضوعهم، وقربوا قربان تذللهم وخشوعهم، ودموعهم تجرى على خدودهم ثلاثة أيام، فلم تمطر لهم، فقال موسى: اللّهم أنت القائل ادعونى أستجب لكم، وقد دعوتك، وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إن فيهم من غذاؤه حرام، وفيهم من يبسط لسانه بالغيبة والنميمة، وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبى، وأنت تطلب لهم الرحمة؟ كيف يجتمع موضع الرحمة وموضع العذاب؟ فقال موسى: ومن هم يا رب حتى نخرجهم من بيننا؟ فقال الله تعالى: يا موسى، لست بَهّتاك ولا نمام، ولكن يا موسى، توبوا كلكم بقلوب خالصة، فعساهم يتوبوا معكم فأجود بأنعامى عليكم. فنادى منادى موسى فى بنى إسرائيل أن اجتمعوا، فاجتمعوا، فأعلمهم موسى عليه الصلاة والسلام بما أوحى إليه، والعصاة يذرفون، فذرفت أعينهم، ورفعوا مع بنى إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا: إلهنا جئناك من أوزارنا هاربين، ورجعنا إلى بابك طالبين، فارحمنا يا أرحم الراحمين، فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى، اللّهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يا رب العالمين.

وأوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام: يا داود، لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم، ورفقى بهم، وشوقى إلى ترك معاصيهم؛ لماتوا شوقًا إلىّ، وتقطعت أوصالهم من محبتى. يا داود، هذه إرادتى فى المدبرين عنى، فكيف إرادتى بالمقبلين علىّ؟ ولقد أحسن من قال:

أسىء فيجزى بالإساءةِ إفْضَالاً ... وأعْصِى فيُولِينى بِرًّا وإمهالا
فحتى متى أجفوه وهو يَبَرُّنى ... وأبْعد عَنْه وهو يُبْدل إيصَالا
وكَمْ مَرَّة زُغْتُ عن نهج طاعة ... ولا حَالَ عن سِتْر القَبِيْح ولا زالا

وهذا آخر ما يسره الله تعالى فى هذا الباب والله أعلم بالصواب.

الباب الثمانون فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وما جاء فى السنة من العيادة وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول فى الأمراض والعلل وما جاء فى ذلك من الأجر والثواب

روى عن عبد اللّه بن أنس رضى اللّه تعالى عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «أيكم يحب أن يصح جسمه فلا يسقم؟» فقالوا: كلنا يا رسول اللّه. قال: «أتحبون أن تكونوا كالحمير الصوالة؟ ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا وأصحاب كفارات؟ والذى بعثنى بالحق نبيا، إن الرجل لتكونن له الدرجة فى الجنة فلا يبلغها بشىء من عمله، فيبتليه اللّه تعالى ليبلغ درجة لا يبلغها بعلمه». وقال صلى اللّه عليه وسلم: «ما من مسلم يمرض مرضًا، إلا حط اللّه من خطاياه كما تحط الشجرة ورقها». وكان يقول: لا تزال الأوصاب[1] والمصائب بالعبد حتى تتركه كالفضة البيضاء النقية المصفاة. قيل: إن الناس قد حُمّوا فى فتح خيبر، فشكوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: «أيها الناس إن الحمى رائد الموت، وسجن اللّه فى الأرض، وقطعه من النار، فإذا وجدتم ذلك فبردوا لها الماء فى الشنان[2]، ثم صبوا عليكم بين المغرب والعشاء» ففعلوا ذلك فزالت عنهم. وعن أنس رضى اللّه تعالى عنه قال: دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على شاب وهو فى الموت، فقال له: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو اللّه، وأخاف ذنوبى، فقال عليه الصلاة والسلام: «هما لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه اللّه ما يرجو وآمنه مما يخاف». وعن عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة الزاهدة رحمها اللّه تعالى أنها سمعت رجلاً يقول: ما أشد العمى على من كان بصيرًا. فقالت له: يا عبد اللّه، عمى القلب عن اللّه أشد من عمى العين عن الدنيا، واللّه لوددت أن اللّه وهب لى كنه معرفته، و لم يبق منى جارحة إلا أخذها. وكتب مبارك لأخيه سفيان الثورى يشكو إليه ذهاب بصره، فكتب إليه: أما بعد، فقد فهمت كتابك فيه شكاية ربك، فاذكر الموت يهن عليك ذهاب بصرك والسلام. وقيل لعطاء فى مرضه: ما تشتهى؟ قال: ما ترك خوف جهنم فى قلبى موضعًا للشهوة. وأصاب ابن أدهم بطن فتوضأ فى ليلة سبعين مرة. وقيل لأعرابى فى مرضه: ما تشتهى؟ قال: الجنة. فقيل: أفلا ندعو طبيبًا؟ قال: طبيبى هو الذى أمرضنى.

الفصل الثانى فى ذكر العلل كالبخر والعرج والعمى والصمم والرمد والفالج وغير ذلك

نسأل اللّه العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدنيا والآخرة.

قيل: تسارر أبخر وأصم، فقال له الأصم: قد فهمت، ثم فارقه. فسأله رجل فقال: واللّه لا أدرى غير أنه فسا فى أذنى. وقيل: إن عبد الملك بن مروان كان أبخر، فعض يومًا على تفاحة ورمى بها إلى زوجته، فدعت بسكين فقال: ما تصنعين بها؟ قالت: أميط الأذى عنها، فشق عليه ذلك منها فطلقها. وسارر أبو الأسود الدؤلى سليمان بن عبد الملك، وكان أبو الأسود أبخر، فستر سليمان أنفه بكمه، فعير أبو الأسود وهو يقول: لا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيوخ البخر. وقيل: طول انطباق الفم يورث البخر، وكل رطب سائل اللعاب سالم منه. وقيل: إن الزنج أطيب الناس أفواهًا. والسباع موصوفة بالبخر، والمثل مضروب بالأسد والصقر فى البخر، والكلب من بينهما طيب النفس، وليس فى البهائم أطيب أفواهًا من الظباء.

---

(١) الأوصاب: الأسقام.

(٢) الشنان: جمع شن وهى القربة.

وحكى أن أبخر تزوج بامرأة فلما ضاجعها عافته وتولت عنه بوجهها، ثم أنشدت تقول:

يـا حـب والرحمـن إنَّ فاكـا ... أهلكنـى فولَنـى قفاكـا

إذا غـدوتَ فـاتخذ مِسْـواكَا ... مـن عَرْفَـط إن لم تجـد أراكَـا

لاَ تَقْرَبَنِّـى بـالذى سَـوَّاكا ... إنّـى أَرَاكَ مَاضغـا خرَاكَـا

وفى ديوان المنثور: كم من ذى عرج فى درج المعالى عرج، وكم من صحيح قدم ليس له فى الخير قدم. وقيل: إن من الصم من يسمع السر، فإذا رفعت إليه الصوت لم يسمعه. ورأيت من العمش من لا ينظر صورة الإنسان من قريب. ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشى. وقيل: إن طريفًا الشاعر مدح عمرو بن هدّاب، وكان أبرص، فلما انتهى إلى قوله: «أبرص فياض اليدين مهذب» صاح به الناس وقالوا: قطع اللّه لسانك. فقال عمرو: مه، إن البرص مما تتفاخر به العرب، أما سمعتم قول سهل حيث قال:

أيشتمنى زيـدٌ بـأن كنـت أبرصـا ... وكـلُّ كَرِيـمٍ لا أبـا لـك أبـرص

وقال:

كفـى حزنـا أنـى أعاشـر معشـرًا ... يخوضون فى بعض الحديث وأمسك

ومـا ذَاكَ مِنْ عَـىّ ولا مِـنْ جَهَالَـة ... ولكنـه مـا فـىَّ للصَّـوتِ مَسْـلَك

فـإن سدّ منـى السـمع فاللّـه قـادرٌ ... علـى فتحِـهِ اللّـه للعبـد أملـكُ

ومما جاء فى العمى: ما روى عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «من عدم إحدى كريمتيه، ضمنت له على اللّه الجنة». وكان أبو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام يطعم الطعام وكان أعور، فجعل أعرابى يطيل النظر إليه حابسًا نفسه عن طعامه، فكلمه المغيرة فى ذلك فقال له: واللّه إنى ليعجبنى طعامك وتريبنى عينك. قال: فما يريبك من عينى؟ قال: أعور، وأراك تطعم الطعام، وهذه صفة الدجال، فقيل له: إن عينه أصيبت فى فتح الروم، فقال: إن الدجال لا تصاب عينه فى سبيل اللّه. وعن أنس رضى اللّه تعالى عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار». وقال على كرم اللّه وجهه: ربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده. وقال أبو علس البصير:

لئـن كـان يهدينـى الغـلامُ لوجهتـى ... ويقتـادنى فـى السير إذ أنـا راكـبُ

لقد يستضىءُ القومُ بى فى وجوههم ... ويخبـو ضيـاءُ العـينِ والقلـبُ ثـاقبُ

وقال:

إذا عُدِمـت طَلاّبـةَ العلـم مـا هـا ... من العلم إلا ما تسطّر فى الكُتْبُ

غـدوتُ بتشـمير وجـدّ عليهـمُ ... ومَحْبرتى سَمْعى وها دَفْتَرى قلبى

وقال:

إن يـأخذِ مـن عينـىَّ نُورَهُمـا ... فَفِى لِسَانى وسَمْعى منهما نورُ

فَهْمِى ذَكِىٌّ وقَلْبِى غَـيرَ ذى غَفَـلٍ ... وفى فمـى صَارِمٌ كالسَّيْف مَشْهورُ

وقال:

عَـزَاءَك أيُّهـا العَيْـن السَّـكُوب ... وحَقّـك إنهـا نَـوَبٌ تَنُـوب

وكُنْـت كَرِيمتـى وسـراجُ وجْهـى ... وكـانت لى بِـكَ الدُّنيـا تطِيْـب

علـى الدنيـا السـلام فمـا لشـيخ ... ضَرِيـر العَيـن فـى الدُّنيـا نَصِيـب

يموت المرء وهو يعدُّ حيًّا ويخلف ظنه الأمل الكذوب
إذا ما مات بعضك فابْكِ بعضا فإن البعض من بعض قريب

وحكى أن ربيعًا رمدت عينه فأرسل إلى امرأة كان يحبها ثم أنشد يقول:

عينا ربيعة رمداوان فاحتسبى بنظرة منك تشفيه من الرَّمد
إن تكتحل بك عيناه فلا رَمَد على رَبِيْعة يَخْشَى آخِر الأَمَد

وعن عبد الرحمن بن قيس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «داء الأنبياء الفالج واللقوة». قال الجاحظ: ومن المفاليج: سيدنا إدريس عليه الصلاة والسلام، وأكثر ما يعترى المتوسطين من الناس؛ لأن الشباب كثير الحرارة والشيخ كثير اليبس. وقيل: إن أبان بن عثمان كان أفلج حتى صار مثلاً، فكانت الناس تقول: لا رماك الله بفالج ابن عثمان. وكان معاوية ألوق، وعبد الملك بن مروان أبخر، وحسان أعمى، وابن سيرين أصم. وممن فلج: ابن أبى دؤاد قاضى قضاة المعتصم، كان من الشرف والكرم بمنزلة عظيمة قد ضرب المثل بفالجه. قال الشاعر فى رجل ضرب غلامه:

أتضرب مثله بالسوط عشرًا ضُربت بفالج ابن أبى دؤاد

وشجة عبد الحميد كانت مثلاً فى الحسن، وهو عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهم، وكان بارعًا فى الحسن والجمال فزادته حسنًا إلى حسنه، حتى أن النساء كن يخططن في وجوههن شجة عبد الحميد. وكان يقال لعمر بن عبد العزيز: أشج بنى أمية. وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول: إن من ولدى رجلاً بوجهه أثر فى جبهته. قال أصبغ: الله أكبر، هذا أشج بنى أمية يملأ الأرض عدلاً. وقال أعور لأبى الأسود: ما الشئ ونصف الشيء ولا شيء؟ فقال: أما الشيء فالبصير كأنا، وأما لا شيء فالأعمى، وأما نصف الشئ فأنت يا أعور. اللهم اكفنا شر العاهات برحمتك ومَنك وكرمك آمين.

الفصل الثالث فى التداوى من الأمرض والطب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تداووا فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء». وقال صلى الله عليه وسلم: «ما أنزل الله داء إلا وله دواء، عرفه من عرفه، وجهله من جهله». وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدواء والرقى هل يردان شيئًا من قضاء الله تعالى؟ قال: «هما من قدر الله تعالى». وقال عبد الله بن عكرمة: عجبت لمن يحتمى من الطعام خوف الداء، ولا يحتمى من الذنوب خوف النار. وقيل: إن الربيع بن خثيم لما مرض قالوا له: ألا ندعو لك طبيبًا؟ فقال لهم: إن مرضى من الطيب، وأنه متى أراد عافانى، ولا حاجة لى بطبيبكم، وأنشد:

فأصبحت لا أدعو طبيبًا لطبه ولكننى أدعوك يا منزل القطر

وعاد الفرزدق مريضًا فقال:

يا طالب الطّب من دَاء تَخوّفَه إن الطَّبيب الذى أبْلاك بالدَّاء
فهو الطَّبيب الذى يُرجى لِعَافِية لا من يُذِيبُ لك التِّرياق بالماء

قال: ولما مرض بشر الحافى رحمه الله تعالى قالوا: ندعو لك طبيبًا، فقال: إنى بعين الطبيب يفعل بى ما يريد. فألح عليه أهله، وقالوا: لابد أن ندفع ماءك إلى الطبيب. فقال لأخته: ادفعى إليهم الماء فى قارورة. وكان بالقرب منهم رجل ذمى وكان حاذقًا فى الطب، فأتوه بمائه فى القارورة. فلما رآه قال: حركوه، فحركوه ثم قال: ضعوه، ثم قال: ارفعوه، فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا. قال: وبم وصفت لكم؟ قالوا: بالحذق والمرعفة، قال: هو

كما تقولون. غير أن هذا الماء إن كان ماء نصرانى فهو راهب قد فتتت كبده العبادة، وإن كان مسلمًا فهو ماء بشر الحافى؛ فإنه أوحد أهل زمانه فى السلوك مع الله تعالى. قالوا: هو ماء بشر الحافى، فأسلم النصرانى وقطع زناره. فلما رجعوا إلى بشر قال لهم: أسلم الطبيب. فقالوا: ومن أعلمك؟ قال: لما خرجتم من عندى هتف بى هاتف، وقال: يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب، وصار من أهل الجنة. وفلج الربيع بن خيثم فقيل له: هلا تداويت؟ فقال: قد عرفت أن الدواء حق، ولكن عاد وثمود وقرون بين ذلك كثيرًا كانت فيهم الأوجاع كثيرة، والأطباء أكثر فلم يبق المداوى ولا المداوى وقد أبادهم الموت، ثم قال: هذا المفرد:

هلك المُدَاوى والمُدَاوى والذى ... جَلَب الدَّواء وباعه والمُشْتَرى

وقيل لجالينوس حين نهكته العلة: أما تتعالج؟ فقال: إذا كان الداء من السماء، بطل الدواء من الأرض، وإذا نزل قضاء الرب، بطل حذر المربوب. ومرّ قوم بماء من مياه العرب فوصف لهم ثلاث بنات متطببات وهم من أجمل الناس، فأحبوا أن يروهن، فحكوا ساق أحدهم حتى أدموها ثم قصدوهن فقالوا: هذا جريح مريض، فهل من طبيب؟ فخرجت صغراهن وهى كأنها الشمس الطالعة، فلما رأت جرحه قالت: ليس هو بمريض بل خدشه عود بالت عليه حية، فإذا صغراهن وهى كأنها الشمس الطالعة، فلما رأت جرحه قالت: ليس هو بمريض، بل خدشه عود بالت عليه حية، فإذا طلعت الشمس مات فكان الأمر كما قالت. وقيل: دواء كل مريض بعقاقير أرضه؛ فإن الطبيعة تتطلع لهوائها. وقالوا: من قدم إلى أرض غير أرضه وأخذ من ترابها وجعله فى مائها وشربه، لم يمرض فيها وعوفى من وبائها. واحتمى أحمد بن المعدل لعلة أصابته فبرئ فقال: الحمية طالع الصحة لأهل الدنيا تبرئهم من المرض، ولأهل الآخرة تبرئهم من النار. وقيل: إن الأبدان المعتادة بالحمية آفتها التخليط، والمعتادة بالتخليط آفتها الحمية لأن الحكماء تقول: عوّدوا كل جسد بما اعتاد. وكان كسرى أنوشروان يمسك عما تميل إليه شهوته ولا ينهمك عليه ويقول تركنا ما نحبه لنستغنى عن العلاج بما نكرهه. وقال لقمان: لا تطيلوا الجلوس على الخلاء؛ فأنه يورث الباسور. وكانت هذه الحكمة مكتوبة على أبواب الحشوش: أى الكنف. وقيل: كفى بالمرء عارًا أن يكون صريع[1] مأكله، وقتيل أنامله:

فكم أكلةَ أكِلَت نَفس حَرّ ... وكم أكْلَة جَلَبت كَلَّ ضُر

وقيل: من غرس الطعام أثمره الأسقام. وعن بعض أهل البيت النبوى عليهم السلام: أنه كان إذا أصابته علة جمع بين ماء زمزم والعسل واستوهب من مهر أهله شيئًا، وكان يقول: قال الله تعالى: «﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا**﴾»[2] وقال تعالى: ﴿**فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ**﴾[3] . وقال عليه الصلاة والسلام: «ماء زمزم لما شرب له» وقال تعالى: ﴿**فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا**﴾[4] فمن جمع بين ما بورك فيه وبين ما فيه شفاء وبين الهنيء والمريء يوشك أن يلقى العافية وقيل خمسة من المهلكات: دخول الحمام على الشبع، والمجامعة على الشبع، وأكل القديد، وشرب الماء البارد على الريق، ومجامعة المرأة العجوز. وقال: لا تنكح العجوز، ولا تخرج الدم وأنت مستغن عن إخراجه. وقال الإمام على رضى الله عنه:

تَوَقَّ مَدَى الأيَّام إدْخَال مُطْعَم ... على مُطْعَم من قبلِ هضمِ المطَاعمِ
وكلُّ طعام يعجز السنُّ مضغَه ... فلاَ تَقْرَبَنّه فهو شَرٌّ لَطَاعمِ
ووفِّرْ على الجسمِ الدِّماءَ فإنها ... لِقَوةِ جِسْمِ المَرء خيرُ الدعائمِ

---

(١) صريع: قتيل.
(٢) سورة ق: ٩.
(٣) سورة النحل: ٦٢.
(٤) سورة النساء: ٤.

وإيَّاكَ أن تنكح طواعنَ سنّهم   فإن لها سُمًّا كسُمِّ الأراقِم
وفى كلِّ أسبوعٍ عليك بقيئةٍ   تكن آمنًا من شرِّ كلِّ البلاغم

ومما يورث الهزال: النوم على غير وطاء، وكثرة الكلام برفع الصوت. وقال النظّام رحمه اللّه تعالى: ثلاثة تخرب العقل: طول النظر فى المرآة، وكثرة الضحك، والنظر إلى النجوم. وفى الحديث: احتجم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى أم مغيث، وهى وسط الرأس، وكان النبى صلى اللّه عليه وسلم يحتجم فى الأخدعين، ونهى عن الحجامة فى نقر القفا فإنها تورث النسيان، وأمر بالاستنجاء بالماء البارد فإنه أمان من الباسور. وخطب المأمون بمسجد مروان فوجد غالب أهل المسجد يشكون السعال، فقال فى آخر خطبته: من كان يشكو سعالاً فليتداوَ بالخل، ففعلوا، فعافاهم اللّه. وقال بعض الحكماء: إياك أن تطيل النظر فى عين أرمد، وإياك أن تسجد على حصير جديدة قبل أن تمسها بيدك، فرب شظية حقيرة قلعت عينًا خطيرة. وقيل كانت: الأدوية تنبت فى محراب سليمان عليه الصلاة والسلام ويقول: كل دواء يا نبى اللّه أنا دواء لكذا وكذا. وقال جالينوس: البطنة تقتل الرجل وتورث الفالج، والإسهال الذريع، وصنفًا من الجذام، يقال له الفهد لا يسمع صاحبه ولا يبصر. نسأل اللّه العفو والعافية. وقيل: البطنة تورث الصداع، والكمنة فى العينين، والضربان فى الأذنين والقولنج فى البطن. فعليك أيها الإنسان بالطريقة الوسطى، واتق الليل، وطعامه جهدك.

وقال جالينوس: الغم المفرط يميت القلب، ويجمد الدم فى العروق، فيهلك صاحبه، والسرور المفرط يلهب حرارة الجسم حتى يغلب الحرارة الغريزية، فيهلك صاحبه. وقيل: إنه وضع على مائدة المأمون فى يوم عيد أكثر من ثلاثين لونا، فكان يصف وهو على المائدة منفعة كل لون ومضرته، فقال يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين، إن خضنا فى الطب، فأنت جالينوس فى معرفته، أو فى النجوم، فأنت هرمس فى صناعته، أو فى الفقه، فأنت على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه فى علمه، أو فى السخاء، فأنت حاتم فى كرمه، أو فى الحديث، فأنت أبو ذر فى صدق لهجته، أو فى الوفاء، فأنت السموأل بن عادياء فى وفائه. فسر بكلامه، وقال: يا أبا محمد؛ إنما فضل الإنسان على غيره بالعقل، ولولا ذلك لكانت الناس والبهائم سواء.

وقال طبيب الهند: إن منفعة الحقنة للجسد كمنفعة الماء للشجر. وقال سفيان بن عيينة: أجمع أطباء فارس على أن الداء إدخال الطعام على الطعام. وقالوا: إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع فى البر. وقيل: الشرب فى آنية الرصاص أمان من القولنج. وعرض رجل على طبيب قارورته فقال له: ما هى قارورتك؟ لأنه ماء ميت، وأنت حى تكلمنى، فما فرغ من كلامه حتى خر الرجل ميتًا. وقيل: إن ملكًا من الملوك حصل عنده صداع فى رأسه، فأحضر الطبيب فأمر أن يضع قدميه فى الماء الحار، وكان عنده خصى فقال: أين القدمان من الرأس؟ فقال له الطبيب: وأين وجهك من خصيتيك؟ نزعتا، فذهبت لحيتك.

وقيل: إن المأمون حصل له صداع بطرسوس فأحضر طبيبًا كان عنده فلم ينفعه علاجه، فبلغ قيصر، فأرسل إليه فلنسوة وكتب له: بلغنى صداعك، فضعها على رأسك يزل ما بك، فخاف أن تكون مسمومة، فوضعها على رأس القاصد فلم يصبه شىء، ثم إنه أحضر رجلاً به صداع فوضعها على رأسه فزال ما به، فتعجب المأمون، ثم إنه فتحها فوجد فيها رقعة مكتوب فيها: بسم اللّه الرحمن الرحيم كم من نعمة للّه تعالى فى عرق ساكن، وغير ساكن، حمعسق، لا يصدعون عنها ولاينزفون، من كلام الرحمن خمدت النيران، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم.

وقال على رضى اللّه عنه: ادهنوا بالبنفسج؛ فإنه حار فى الشتاء بارد فى الصيف. وقال أيضًا رضى اللّه عنه: عليكم بالزيت؛ فإنه يذهب البلغم، ويشد العصب، ويحسن الخلق، ويطيب النفس، ويذهب الغم. وعنه رضى اللّه عنه: إن لم يكن فى شىء شفاء ففى شرطة حاجم أو شربة من عسل. وقال الحجاج لطبيبه: أخبرنا بجوامع

الطب، فقال: لا تنكح إلا فاتة. ولا تأكل من اللحم إلا فتيًّا، وإذا تغديت فنم، وإذا تعشيت فامش ولو على الشوك، ولا تدخل بطنك طعامًا حتى تستمرئ ما فيه، ولا تأو إلى فراشك حتى تدخل الخلاء، وكل الفاكهة فى إقبالها، وذرها فى إدبارها.

وأوصى حكيم خليفته وصية ووعده إذا لازمها لا يمرض إلا مرض الموت فقال: إياك أن تدخل طعامًا على طعام، ولا تمش حتى تعيا، ولا تجامع عجوزًا ولا تدخل حمامًا على شبع، وإذا جامعت فكن على حال وسط من الغذاء، وعليك فى أسبوع بقيئة، ولا تأكل الفاكهة إلا فى أوان نضجها، ولا تأكل القديد من اللحم، وإذا تغذيت فنم، وإذا تعشيت فامش أربعين خطوة. ونم على يسارك لتقع الكبد على المعدة فينهضم ما فيها، وتستريح الكبد من حرارة المعدة، ولا تنم على يمينك فيبطئ الهضم، ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع، ولا تنم ليلاً حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتج، واقعد على الطعام وأنت تشتهيه وقم عنه وأنت تشتهيه، قال بعضهم:

شرهُ النفوس على الجسومِ بليَّةٌ ... فتعوّذوا من كل نفسٍ تشرهُ
ما من فَتَى شَرِهَتْ له نَفسٌ وإن ... نَال الغنيُّ إلا رأى ما يَكرهُ

وقال أبو الفيقض القضاعى يمدح الفضل وقد فصد:

أرقتَ دمًا لو تسكبُ المزن مثله ... لأصبحَ وجهُ الأرض أخضرَ زاهيَا
دمًا طيبًا لو يطلقُ الشرعُ شربَهُ ... لكَان من الأسْقامِ للنّاسِ شَافيَا

الفصل الرابع فى العيادة وفضلها

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «ثلاثة فى ظل العرش: عائد المريض، ومشيع الموتى، وطائع والديه». وفى رواية: «ومعزى الثكلى». ومن السنة تخفيف الجلوس فى العيادة، مرض بكر بن عبد اللّه المزنى فعاده أصحابه فأطالوا الجلوس عنده فقال: المريض يعاد، والصحيح يزار. قال الشاعر:

يعدن مريضًا هُنَّ هيَّجن دَاءه ... ألا إنّمَا بعضُ العَوَائِد دِائيا

وقيل: إذا دخل العواد على الملك فحقهم أن لا يسلموا عليه فيحوجوه إلى رّد السلام، ويتعبوه، فإذا علموا أنه لاحظهم؛ دعوا له وانصرفوا. قيل: مرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه: كشف اللّه عنك ما بك من السقم، وطهرك بالعلة من الخطايا، ومتعك بأنس العافية، وأعقبك دوام الصحة.

ومرض إنسان فكتب إليه صديقه:

بإخوانك الأدنينَ لا بكَ كلُّ ما ... شَكَوت إلى القيَّام من ألم الوَردِ
فكلُّ امْرئٍ منهم بَقَدرِ احْتَماله ... وإن عَجَزُوا عَنه تحمَّلتهُ وحْدى

وقال آخر:

بىَ السُّوءُ والمكرُوهُ لا بكَ كلّما ... أرادَك كَانا بِى وكَان لَك الأجرُ

وقال عبد اللّه بن مصعب:

ما لى مرضتُ فلم يَعُدنى عَائدٌ ... مِنْكم ويَمْرضُ كلبُكم فأعودُ

فسمى بعد ذلك عائد الكلاب. وعاد مالك بن أنس رضى اللّه تعالى عنه بعض المرضى فقال:

عادَنى مَالكٌ فَلَسْت أبالى ... بُعْدَ مَنْ عادنى ومَنْ لم يَعُدنى

وقال على بن الجهم:

أراقـدَ الليـل مَسْـرورًا عَدِمــت إذا عيشى، وأحْمد يَرْعَى لَيْله وَصبا[١]
اللّـهَ يَعْلـمُ أنـى قـد نـذرتُ لـه صِيـام شَـهرٍ إذا مـا أحْمـدُ ركبـا

وقال آخر:

إذا مَرِضتّـم أتينـاكم نَعودكـمُ وتّذْنبُـون فَنَــأْتيكم ونَعْتــذرُ

وقال آخر:

أعـاذك اللّـه مـن أشـياء أربعـة الموتُ والعشقُ والإفـلاسُ والجـرب

وقيل: إن حق العيادة يوم بعد يوم أو يوم بعد يومين وعلى الأول قول الشاعر:

قـالَتْ مرضـتُ فعدتَهـا فتـبرَّمْتْ فهـى الصَّحيحـةَ والعليـلُ العـائدُ
واللّـه لـو أن القَلـوبَ كَقلبهـا مـا رَقَّ للولـدِ الصغـيرِ الوالـدُ

وعلى الثانى قول بعضهم:

حـقُّ العيـادة يـومٌ بعـدَ يومـينِ وجلسـةٌ مثـلُ خلسِ اللحـظِ بـالعين
لا تـبرمن عليـلاً فـى مُسَـاءلة يَكْفيـك مـن ذَاك تَسْـآلٌ بحرفـين

وفضل العيادة مشهور وشرفها مذكور وبها تعظم الأمور. وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب، واللّه الموفق للصواب.

---

(١) وصبا: مرضًا.

الباب الحادى والثمانون فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله

روى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات لأحدكم ميت، فأحسنوا كفنه، وعجلوا إنجاز وصيته، وأعمقوا له فى قبره، وجنبوه جار السوء». قيل: يا رسول الله، وهل ينفع الجار الصالح فى الآخرة؟ قال: «وهل ينفع فى الدنيا؟» قالوا: نعم. قال: «وذلك فى الآخرة». ومن وصية على رضى الله عنه لأبى ذر: زر القبور تذكر بها الآخرة، ولا تزرها فى الليل، وغسِّل الموتى يتحرك قلبك، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك؛ فإن الحزين فى ظل الله تعالى. ويقال: جزعك فى مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك فى مصيبتك أحسن من جزعك. ونظر فيلسوف إلى ميت يحمل إلى قبره فقال: حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد. ودخل عمرو بن العاص رضي الله عنه على معاوية فى مرضة مرضها. فقال له: أعائد أنت أم شامت؟ فقال له عمرو: لم تقول هذا؟ والله ما كلفتنى رهقًا[١]، ولا أصدعتنى زلقًا، ولا جرعتنى علقًا[٢]، فلم أستطل حياتك، و لم أستبطئ وفاتك.

فأنشد معاوية يقول:

فهَــل مِــن خَــالِدين إذا هَلَكنــا ... وهـل فـى المـوْتِ بـين النّـاس عـار

ولما مرض معاوية رضى الله عنه مرضه الذى مات فيه، وفد إليه الناس يعودونه فقال لأهله: مهدوا لى فراشًا، وأسندونى، وأوسعوا رأسى دهانًا، ثم اكحلوا عينى بالإثمد، ثم أئذنوا للناس يدخلوا ويسلموا علىَّ قيامًا، ولا تجلسوا عندى أحدًا، ففعلوا ذلك فلما خرجوا من عنده أنشد يقول[٣] :

وَتَجلــدى للشَّــامتين أرِيهــمُ ... أنــىَّ لرَيْــبِ الدهــر لا أَتَضعْضــعُ

وإذا المنيَّــةَ أنشــبَتْ أظفارَهَــا ... ألفَيْــتَ كــلَّ تميمــةٍ لا تنفــعُ

وقيل: لما دنا منه الموت تمثل بهذا البيت:

هو الموتُ لا منجىَ من الموت والـذى ... نحـاذرُ بعـدَ المـوتِ أدهـى وأفظـعُ

قال: ثم رفع يديه وقال: اللّهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولا يثق إلا بك؛ فإنك واسع المغفرة، وليس لذى خطيئة منك مهرب، ومات رحمة الله تعالى.

وذكر أبو العباس الشيبانى قال: وفد على أبى دلف عشرة من أولاد على بن أبى طالب رضى الله عنه فى العلة التى مات فيها، فأقاموا ببابه شهرًا لا يؤذن لهم لشدة العلة التى أصيب بها، ثم أفاق فقال لخادمه بشر: إن قلبى يحدثنى أن بالباب قومًا لهم إلينا حوائج، فافتح الباب ولا تمنعن أحدًا. قال: فكان أول من دخل، آل على رضى الله عنه، فسلموا عليه، ثم ابتدأ الكلام رجل منهم من ولد جعفر الطيار، فقال: أصلحك الله أنا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفينا من ولده وقد حطمتنا المصائب، وأجحفت بنا النوائب، فإن رأيت أن تجبر كسيرًا، وتغنى فقيرًا لا يملك قطميرًا، فافعل، فقال لخادمه: خذ بيدى وأجلسنى، ثم أقبل معتذرًا إليهم، ودعا بداوة وقرطاس، وقال: ليكتب كل منكم بيده أنه قبض منى ألف دينار، قالوا: فبقينا والله متحيرين، فلما أن كتبنا الرقاع ووضعناها بين يديه قال لخادمه: علىّ بالمال فوزن لكل واحد منا ألف دينار ثم قال لخادمه: يا بشر إذا أنا مت فادرج هذه الرقاع فى كفنى فإذا لقيت محمدًا صلى الله عليه وسلم فى القيامة كانت حجة لى أنى قد

---

(١) أى: تعبًا.

(٢) أى: شرب الدم الغليظ اليابس.

(٣) يتمثل بأبيات أبى ذؤيب الهذلى.

أغنيت عشرة من ولده، ثم قال: يا غلام، ادفع لكل واحد منهم ألف درهم ينفقها فى طريقه حتى لا ينفق من الألف دينار شيئًا حتى يصل موضعه، قال: فأخذناها ودعونا له وانصرفنا ثم مات رحمه الله.

لما دفن عمر بن عبد العزيز نزل عند دفنه مطر من السماء فوجدوا بردة مكتوب فيها بالنور: بسم الله الرحمن الرحيم أمان لعمر بن عبد العزيز من النار. وقيل لأعرابى: إنك تموت! قال: وإلى أين أذهب؟ قالوا: إلى الله تعالى، فقال: لا أكره أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه.

وبكى الخولانى عند موته فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لطول السفر، وقلة الزاد، وقد سلكت عقبة، ولا أدرى إلى أين أهبط، وإلى أى مكان أسقط. ودخل ملك الموت على داود عليه السلام فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذى لا يهاب الملوك، ولا تمنع منه القصور، ولا يقبل الرشا. فقال: إذن أنت ملك الموت، وإنى لم أستعد بعد، فقال له: يا داود، أين فلان جارك؟ أين فلان قريبك؟ قال: ماتا، قال: أما كان لك فى موت هؤلاء عبرة لتستعد بها، ثم قبضه عليه السلام. وفى الخبر من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: إن الملائكة تكتنف العبد وتحتبسه ولولا ذلك لكان يعدو فى الصحراء والبرارى من شدة سكرات الموت. وقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له زمن معلوم، فليكن المرء على أهبة من ذلك. وقيل: بينما حسان جالس وفى حجره صبى يطعمه الزبد بالعسل إذ شرق الصبى فمات فقال:

اعمَلْ وأنت صحيحٌ مطلقٌ فرحٌ مَا دُمتَ ويَحكَ يا مَغرُورُ فى مهلِ
يرجو الحياةَ صحيحٌ ربما كمنت له المنيَّةَ بين الزبدِ والعسلِ

وقيل: إن المأمون لما قربت وفاته دخل عليه بعض أصدقائه فوجده قد فرش له جلد دابة وبسط عليه الرماد وهو يتمرغ فيه ويقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه. ولما احتضر عمرو بن العاص دعا بغِلٍّ وقَيْدٍ، وقال: ألبسونى إياهما؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن التوبة مقبولة ما لم يغرغر ابن آدم بنفسه» ثم استقبل القبلة وقال: اللهم إنك أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فارتكبنا، وهذا مقام العائذ بك فإن تعف فأنت أهل العفو، وإن تعاقب فبما قدمت يداى، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. ثم مات وهو مغلول مقيد، فبلغ ذلك الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما فقال: استسلم الشيخ ولعلها تنفعه.

لما احتضر المعتصم جعلوا يهونون عليه فقال: هان على النظارة ما يمرّ بظهر المجلود[1] . سمع أبو الدرداء رجلاً فى الجنازة يقول: من هذا؟ فقال: أنت، فإن كرهت فأنا. وقيل: مات عكرمة مولى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، وكثير عزة فى يوم واحد فقال رجل: اللهم كما جمعتهما فى زيارة القبور فلا تفرق بينهما يوم النشور، فما بقى فى المدينة أحد إلا استحسن كلامه. ولما احتضر إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قال: هل رأيت خليلاً يقبض روح خليله؟ فأوحى الله إليه: هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله؟ قال: فاقبض روحى الساعة. وقيل: إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فيسيره إليه. وقال بعضهم:

إذا ما حمام المرء كان ببلدة دعته إليها حاجة فيطير

حكى أن شابًا تقيًا من بنى إسرائيل كان يجتمع مع سليمان عليه السلام ويحضر مجالسه، فبينما هو عند سليمان فى مجلسه إذ دخل ملك الموت عليه، فلما رآه الشاب أصفر لونه وارتعدت فرائصه، وقال: يا نبى الله إنى خفت من هذا الرجل فَمُرِ الريح أن تذهب بى إلى الهند. فأمر سليمان الريح فذهبت به، فما كان إلا قليل حتى دخل ملك الموت على سليمان وهو متعجب، فقال له سليمان: مما تعجب؟ قال: أعجب أنى أمرت بقبض روح الشاب الذى كان عندك بأرض الهند ودخلت عليك فوجدته عندك فصرت متعجبًا، ثم توجهت إلى الهند فرأيته

(١)وهو مثلٌ يقابل: من يأكل العصى ليس كمن يعدها.

هناك وقبضت روحه فهذا عجبى، فقال له سليمان: إنه لما رآك خاف وانزعج وطلب منى أن تحمله الريح إلى الهند، فأمرتها فحملته، وفى ذلك المعنى.

قال محمد بن الحسن:

وُمتعِبُ الـرُّوحَ مُرتـاح إلى بَلَـدٍ والمـوْت يَطلبُـه فـى ذَلِـك البلـد

وقيل: إن الإنسان يحصل له عند الموت قوة حركة نحو ما يحصل للسراج عند انطفائه من حركة سريعة، وضياء ساطع، وتسميها الأطباء النعشة الأخيرة والله أعلم. وقيل: إن الرشيد ماتت له جارية وكانت من خواص محاظيه، فجزع عليها جزعًا شديدًا فقال لبعض أصدقائه: أما ترى ما بليت به ما أحببت أحدًا إلا مات؟ فقال: يا أمير المؤمنين أحببنى فقال: ويحك إن الحب ليس هو الشئ يصنع، إنما هو شيء يقع فى القلب تسوقه الأسباب، فقال: قل أنا أحبك. قال: نعم أنا أحبك، قال: فحُمَّ من وقته ومات.

وفى الحديث المرفوع: «كسر عظم الميت ككسره فى حياته». وقال يزيد بن أسلم: لقد كان يمضى في الزمن الأول أربعمائة سنة ما يسمع فيها بجنازة. وعن ميمون بن مهران قال: شهدت جنازة ابن عباس رضى الله عنه بالطائف، فلما وضع ليصلى عليه جاء طائر أبيض حتى وقف على أكتافه ثم دخل فيها فالتمسناه فلم نجده، ولما سوينا عليه التراب سمعنا من يسمع صوته ولا نرى شخصه يقول: ﴿**يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ**﴾[1] الآية.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إن قبر آدم عليه السلام بمسجد الخيف بمنى. وقال عطاء: بلغنى أن قبره تحت المنارة التى وسط الخيف. وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى ما لا يبكيه عند ذكر الجنة والنار. فقيل له فى ذلك فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «القبر أول منازل الآخرة؛ فإن نجا العبد منه فما بعده أيسر منه». وعن معاذ بن رفاعة الزرقى قال: أخبرنى رجل من رجال قومى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جوف الليل معتجرًا بعمامة من استبرق فقال: يا محمد، مَنْ هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش؟ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر ثوبه مبادرًا إلى سعد بن معاذ رضى الله عنه فوجده قد قبض. وقال الحسن رضى الله عنه: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات فمن رآه على لهو، ولعب، أو معصية أو ضاحكًا حرك رأسه وقال له: مسكين هذا العبد، غافل عما يراد به، ثم يقول له: اعمل ما شئت؛ فإن لى فيك غمزة أقطع بها وتينك.

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لرجاء بن حيوة: يا رجاء، إذا وضعت فى لحدى فاكشف الثوب عن وجهى؛ فإن رأيت خيرًا فاحمد الله، وإن رأيت غير ذلك؛ فاعلم أن عمر قد هلك، قال رجاء: فلما دفناه كشفت عن وجهه فرأيت نورًا ساطعًا، فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير. وقال أيضًا: دخلت على عمر بن عبد العزيز وهو محتضر فقال: يا رجاء؛ إنى أرى وجوهًا كرامًا ليست بوجوه إنس ولا جان وهو يقلب طرفه يمينًا وشمالاً، ثم رفع يده فقال: اللَّهم أنت أمرتنى فقصرت، ونهيتنى فعصيت؛ فإن غفرت فقد مننت، وإن عاقبت فما ظلمت. ألا إنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك المصطفى، ونبيك المرتضى، بلّغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة فعليه السلام والرحمة ثم قضى نحبه رحمه الله. وعن أسماء بنت عميس قالت: كنت عند أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد ما ضربه ابن ملجم إذ شهق شهقة بعد أن أغمى عليه ثم أفاق وقال: مرحبًا ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ**

---

(١) سورة الفجر:٢٧ - ٢٨.

نَشَاءُ﴾[١] ، فقيل له: ما ترى؟ قال: هذا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وهذا أخى جعفر، وعمى حمزة وأبواب السماء مفتحة والملائكة ينزلون علىّ يبشروننى بالجنة، وهذه فاطمة قد أحاط بها وصفاؤها من الحور العين، وهذه منازلى، لمثل هذا فليعمل العاملون.

ولما احتضر عبد الملك بن مروان قال لابنه الوليد: إذا أنا متّ إياك أن تجلس وتعصر عينيك كالمرأة الوكعاء، لكن ائتزر وشمر، والبس جلد النمر، وضعنى فى حفرتى، وخلنى وشأنى، وعليك شأنك، وادع الناس إلى بيعتك، فمن قال برأسه هكذا، فقل له بسيفك هكذا، ثم بعث إلى محمد وخالد ابنى يزيد بن معاوية فقال: هل عندكما ندامة فى بيعة الوليد؟ فقالوا: لا نعرف أحدًا أحق منه بالخلافة، فقال: أما أنكما لو قلتما غير هذا لضربت الذى فيه أعينكما، ثم رفع كنار فراشه فإذا تحته سيف مسلول تحت يمينه. كل هذا وروحه تتردد فى حنجرته وهو يقول: الحمد للّه الذى لا يباليه، أصغيرًا أخذ، أم كبيرًا، لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، وبعد ساعة نفدت روحه، فدخل عليه الوليد ومعه بناته يبكون فتمثل بقول الشاعر:

ومُسْتخبر عَنا يُريد بنا الردَّى ... ومُستخبرات والعُيُون سَوَاكب

وقال محمد بن هارون:

كأنى بإخْوانى على جَنب حُفرتى ... يُهيْلون فوقى والعُيُون دما تجرى

فيا أيها المذرى علىّ دموعه ... ستعرض فى يومين عنى وعن ذكرى

عفا اللّه عنى أنزل القبر ثاويًا ... أزار فَلاَ أدرى وأجْفى فَلا أدرى

وكان يزيد الرقاشى يقول: من كان الموت موعده، والقبر بيته، والثرى مسكنه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف تكون حالته، ثم يبكى حتى يغشى عليه. فيجب على العاقل أن يحاسب نفسه بنفسه على ما فرط من عمره ويستعد لعاقبة أمره بصالح العمل، ولا يغتر بالأمل؛ فإن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. نسأل اللّه أن يلهمنا رشدنا، ويوفقنا لاتباع أوامره، واجتناب نواهيه، وأن يجعل الموت خير غائب ننتظره، وأن يختم لنا بالخير، وأن يتغمدنا برحمته. إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) سورة الزمر: ٧٤.

الباب الثانى والثمانون فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك

وفيه فصول

الفصل الأول فى الصبر

قال اللّه تعالى: ﴿وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[(١)] وقال صلى اللّه عليه وسلم: «ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قلَّ عهدها فأحدث استرجاعًا؛ إلا أحدثَ اللّه له مثله، وأعطاه مثل أجره ذلك يوم أصيب بها». وعن أنس بن مالك رضى اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من أصبح حزينًا، أصبح ساخطًا على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة؛ فكأنما يشكو اللّه، ومن تواضع لغنى سأله ما فى يده؛ أحبط اللّه ثلثى عمله، ومن أعطى القرآن و لم يعمل به وتهاون به حتى دخل النار؛ أبعده اللّه عن رحمته؛ لأنه هو الذى فعل ذاك بنفسه حيث لم يعرف حرمة القرآن». وروى عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «من مات له ثلاثة من الولد لم يلج النار إلا تحلة القسم»[(٢)]. يعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[(٣)] وعن أبى سلمة رضى اللّه تعالى عنها أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «من أصيب بمصيبة فقال كما أمر اللّه: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللّهم أجرنى فى مصيبتى، وأعقبنى خيرًا منها؛ إلا فعل اللّه به ذلك».

وروى أنه لما مات إبراهيم ابن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذرفت عيناه، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا رسول اللّه، ألم تنه عن البكاء؟ قال: «إنما نهيت عن الغناء، والصوتين الأحمقين والندب، ولكن هذه الرحمة جعلها اللّه تعالى فى قلوبنا، ومن لا يَرْحم لا يُرْحم، فإن القلب يخشع، والعين تدمع، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضى اللّه ربنا: إنا للّه وإنا إليه راجعون». وقال ابن عباس رضى اللّه تعالى عنهما: أول شىء كتبه اللّه فى اللوح المحفوظ: إننى أنا اللّه لا إله إلا أنا، محمد عبدى ورسولى، مَنْ استسلم لقضائى، وصبر على بلائى، وشكر نعمائى، كتبته صديقًا، وبعثته مع الصديقين، ومَنْ لم يستسلم لقضائى، و لم يصبر على بلائى، و لم يشكر نعمائى، فليتحذر سوائى. وقال ابن المبارك: إن المصيبة واحدة، فإذا جزع صاحبها فهما اثنتان؛ لأن إحداهما المصيبة بعينها، والثانية ذهاب أجره، وهو أعظم من المصيبة.

وعن العلاء بن عبد الرحمن، أن النبى صلى اللّه عليه وسلم لما حضرته الوفاة بكت فاطمة. فقال: «لا تبكى يا بنتاه، قولى إذا مت: إنا للّه وإنا إليه راجعون؛ فإن لكل إنسان مصيبة معوضة». قالت: ومنك يا رسول اللّه؟ قال:«ومنى». وعن عطاء بن أبى رباح قال: قال النبى صلى اللّه عليه وسلم: «من أصابته مصيبة، فليذكر مصيبتة بى فإنها أعظم المصائب». وعن أبى هريرة رضى اللّه تعالى عنه أنه قال: «من أخذت حبيبتاه - يعنى عينيه - فصبر واحتسب، أدخله اللّه الجنة»[(٤)]. وقيل: إن امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام قالت له: لو دعوت اللّه تعالى أن يشفيك. فقال لها: ويحك كنا فى النعماء سبعين عامًا، أفلا نصبر على الضراء مثلها. فلم يلبث إلا يسيرًا أن عوفى. وقيل: الصبر مفتاح الظفر، والتوكل على اللّه تعالى رسول النجاح. وقيل عنه: من لم يلق نوائب الدهر بالصبر طال عتبه عليه. وقيل: إن معاوية رضى اللّه تعالى عنه، خرج يومًا ومعه عبد العزيز بن زرارة الكلبى -

---

(١) سورة البقرة:١٥٥ - ١٥٦.

(٢) أخرجه: البخارى فى الجنائز ١٢٥١.

(٣) سورة مريم:٧١.

(٤) أخرجه: الدارمى فى المقدمة ٨٤.

وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب - فقال له معاوية: يا عبد العزيز، أتانى نعى سيد شباب العرب. فقال له: ابنى أو ابنك. قال: بل ابنك. قال: للموت تلد الوالدة. ومما قيل: اصبر لحكم من لا تجد معولاً إلا عليه، ولا مفزعًا إلا إليه. وقال سويد السدوسى:

فأوصيكما يا ابنى سدوس كلاكما ... بتقوى الذى أعطاكما وبراكما
بشكرٍ إذا ما أحدثَ اللّه نعمةً ... وصبرٍ لأمرِ اللّه فيما ابتلاكما

وقال:

أيا صَاحِبِى إن رُمْتَ أن تكسبَ العلا ... وترقى إلى العَلْيَاءِ غيرَ مزاحمِ
عليك بحسنِ الصبرِ فى كل حالةٍ ... فما صابرٌ فيما يروم بنادمِ

وقال آخر:

هو الدَّهْر قد جَرَبْتَهُ وبَلَوْتَه ... فصبرًا على مكروهه وتجلدا

وحدَّث الزبير قال: قامت عائشة بعدما دفن أبوها أبو بكر الصديق رضى اللّه تعالى عنه، فقالت: نضَّر اللّه وجهك، وشكر صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها، وللآخرة معزًّا بإقبالك عليها، ولئن كان رزؤك أعظم المصائب بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وأكبر الأحداث بعده، فإن كتاب اللّه تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر فى المصيبة، وأنا تابعة له فى الصبر، فأقول: إنا للّه وإنا إليه راجعون، ومستعيضة بإكثار الاستغفار لك، فسلام اللّه عليك توديع غير قالية لحياتك، ولا رازئة على القضاء فيك.

ولما مات ذرٌّ الهمدانى جاء أبوه فوجده ميتًا، وكان موته فجأة، وعياله يبكون عليه فقال: ما لكم، واللّه ما ظلمناه ولا قهرناه ولا ذهب لنا بحق، ولا أصبنا فيه ما أخطأ من كان قبلنا فى مثله. ولما وضعه فى حفرته قال: رحمك اللّه يا بنى، وجعل أجرى فيك لك، واللّه ما بكيت عليك، وإنما بكيت لك، فواللّه لقد كنت بى بارًّا، ولى نافعًا، وكنت لك محبًّا، وما بى إليك من وحشة، وما بى إلى أحد غير اللّه من فاقة، وما ذهبت لنا بعزة، وما أبقيت لنا من ذل، ولقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، يا ذرُّ لولا هول المطلع لتمنيت ما صرت إليه. فليت شعرى ماذا قلت وماذا قيل لك. ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللّهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك. اللّهم وقد وهبت ما جعلت لى من الأجر إلى ذرّ صلة منى، فلا تحرمنى ولا تعرفه قبيحًا، وتجاوز عنه فإنك رحيم بى وبه. اللّهم قد وهبت لك إساءته لى فهب لى إساءته إليك؛ فإنك أجود منى وأكرم. اللّهم إنك قد جعلت لك عليه حقًا، وجعلت لى عليه حقًا قرنته بحقك، فقلت: ﴿اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[1] اللّهم إنى قد غفرت له ما قصر فيه من حقى، فاغفر له ما قصر فيه من حقك؛ فإنك أولى بالجود والكرم، فلما أراد الانصراف قال: يا ذرّ قد انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا عندك ما نفعناك.

وفى الحديث: «إذا مات ولد العبد يقول اللّه تعالى للملائكة: ماذا قال عبدى عند قبض روح ولده، وثمرة فؤاده؟ فيقولون: إلهنا، حمدك واسترجع، فيقول اللّه تعالى: أشهدكم يا ملائكتى أنى بنيت له بيتًا فى الجنة وسميته بيت الحمد»[2] . وعن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه تعالى عنهما أنه دفن ابنًا له وضحك عند قبره، فقيل له: أتضحك عند القبر؟ قال: أردت أن أرغم أنف الشيطان. فينبغى للعبد أن يتفكر فى ثواب المصيبة فتسهل عليه، فإذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها، حتى يود لو أن أولاده وأهله وأقرابه ماتوا قبله لينال ثواب المصيبة.

---

(١) سورة لقمان: ١٤.
(٢) أخرجه: الترمذى فى الجنائز ١٠٢١.

وقد وعد الله تعالى فى المصيبة ثوابًا عظيمًا إذا صبر صاحبها واحتسب، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[2] الآية.

اللهم رضينا بقضائك وصبرنا على بلائك، واغفر لنا ولوالدينا، ولكل المسلمين يا رب العالمين.

الفصل الثانى فى التعازى والتأسى

روى الترمذى فى كتاب السنن للبيهقى، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من عزّى مصابًا؛ فله مثل أجره»[3] وروينا فى كتاب الترمذى أيضًا بسند متصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عزّى ثكلى، كُسي برداء فى الجنة»[4] . وروينا فى سنن ابن ماجه والبيهقى بإسناد حسن، عن عمرو بن حزم، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبته؛ إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة».

واعلم أن التعزية هى التصبر، وذكر ما يسلى صاحب الميت، ويخفف حزنه، ويهون مصيبته وهى مستحبة؛ فإنها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهى أيضًا داخلة فى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[5] وهى من أحسن ما يستدل به فى التعزية. وثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه». واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن وبعده. وتكره بعد ثلاثة أيام؛ لأن التعزية لتسكين قلب المصاب، والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام فلا يجدد الحزن. هكذا قال الجماهير من أصحاب الشافعى رضى الله تعالى عنه، وقيل: إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا فى صورتين، وهما: إذا كان المعزى أو صاحب المصيبة غائبًا حال الدفن، فاتفق رجوعه بعد الثلاثة. وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه، فبأى لفظ عزاه حصلت. واستحب أصحاب الشافعى أن يقول فى تعزية المسلم بالمسلم: عظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وغفر لميتك. وفى المسلم بالكافر: أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وفى الكافر بالكافر: أخلف الله عليك، ولا نقص لك عددًا. روى أن النبى صلى الله عليه وسلم فقد بعض أصحابه فسأل عنه، فقالوا: يا رسول الله بُنيّه الذى رأيته هلك. فلقيه النبى صلى الله عليه وسلم فسأل عن بُنيّه، فقال: يا رسول الله هلك، فعزاه فيه، ثم قال:« يا فلان، أيما كان أحب إليك أن تتمتع به عمرك، أولا تأتى غدًا بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته وقد سبقك إليه فيفتحه لك؟» فقال: يا رسول الله سَبْقُهُ إلى باب الجنة أحب إلىّ من التمتع به فى دار الدنيا، قال: «ذلك لك».

وروى البيهقى بإسناده فى مناقب الشافعى رحمهما الله: أن الشافعى قد بلغه أن عبد الرحمن بن مهدى مات له ابن فجزع عليه جزعًا شديدًا، فبعث إليه الشافعى رحمه الله يقول: يا أخى عَزِّ نفسك بما تعزى به غيرك، واستقبح من نفسك ما نستقبحه من غيرك، واعلم أن أَمَضَّ المصائب فقدُ سرور، وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وِزْر، ألهمك الله عند المصائب صبرًا، وأجزل لنا ولك بالصبر أجرًا.

وروى عن ابن المباركَ قال: مات لى ابن، فمر بى مجوسى، وقال: ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال: اكتبوها منه. وعن معاذ بن جبل أنه قال: مات لى ابن، فكتب إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل، سلام عليكم، فإنى أحمد الله الملك

(١) سورة محمد:٣١.
(٢) سورة البقرة:١٥٥.
(٣) أخرجه: الترمذى فى الجنائز ١٠٧٣.
(٤) أخرجه: الترمذى فى الجنائز ١٠٧٦.
(٥) سورة المائدة:٢.

الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، ثم اعلم أن أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنية، وعواريه المستودعة، يمتعنا بها إلى أجل معدود، ويقضبها لوقت المستودعة، متعك الله فى غبطة وسرور، وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت، فاصبر واحتسب، واعلم أن الجزع لا يرد ميتًا، ولا يطرد حزنًا. وروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان إذا عزى مرزأ قال: ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة، والموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده، فاذكر مصيبتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تهن عليك مصيبتك.

وعزى الإمام الشافعي رضى الله تعالى عنه صديقًا له فقال:

إنّا نَعزِّيك لا إنّا على ثِقَةٍ ... من الحَيَاة ولكن سُنّةَ الدِّينِ
فما المُعزَّىَ بِبَاقٍ بعدَ ميِّتِه ... ولا المعزِّى ولو عاش إلى حينِ

وكتب بعضهم إلى أخ له يعزيه: أنت يا أخى أعزك الله، عالم بالدنيا وما خلقت له من الفناء، وأنها لم تعط إلا أخذت، ولم تسر إلا أحزنت، وأن الموت سبيل محتوم على الأولين والآخرين لا دافع عنه ولا مؤخر لما قضى الله عز وجل منه، وإنا لله وإنا إليه راجعون. وعزى رجل بعض الخلفاء بابن له فكتب إليه يقول:

تَعَزَّ أميرَ المؤمنينَ فإنّه ... لِمَا قد تَرَى يَغْدُو الصَّغِيرُ ويُولَدُ
هل الابن إلاّ مِن سُلالة آدمٍ ... لِكُلٍّ عَلَى حوضِ المنية موردُ

وكتب بعضهم إلى صديق له وقد ماتت ابنته فقال:

الموتُ أخفى سوأةً للبنات ... ودفنها يُروى مِن المَكْرَمات
أما رأيت اللّه سبحانه ... وقد وضع النعش بجنب البنات[1]

وكتب بعضهم إلى صديق له يعزيه له يعزيه بأخيه ويسليه: ما تصنع يا أخى والقضاء نازل، والموت حكم شامل، وإن لم تَلُذْ بالصبر، فقد اعترضت على مالك الأمر، وأنت تعلم أن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر، فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة، والدمعة الساكبة، حاجبًا من فضلك، وحاجزًا من عقلك، ودافعًا من دينك، ومانعًا من يقينك. فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر؛ كانت كالمنح إذا لم تقابل بالشكر، فصبرًا صبرًا؛ ففحول الرجال لا تستفزها الأيام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها، فعزيز علىَّ أن أخاطب مولاى معزيًا، وأكاتبه مسليًا عن كبير أو صغير مما يتعلق بخدمته أو ينتمى إلى جملته، فكيف بالصنو الأكرام والذخر الأعظم، والركن الأشد، والسهم الأسد، والشهاب الأسطع، والحسام الأقطع. لكن التعزية سيرة سائرة، وسنة ماضية غابرة، وقدر الله هو المقدر، وأجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولولا أن الذكرى تنفع، والتعزية يستوى فيها الأشرف والأوضع، لأجللت مولاى أن أفاتحه معزيًا، وأخاطبه مسليًا، ولكن بحمد الله العالم لا يعلم، والسابق لا يتقدم، فبمولاى يقتدى فى الصبر على النوائب، وبنوره يهتدى فى مشكلات المذاهب، وكل ما كان من الردى أرجع كان الأجر عليه أوسع، جعل الله مولاى من الصابرين على المصيبة، وعظم أجره، وجعل الجنة نصيبه. وعزى رجل فتى عن أبيه فلم يجده كما أحب فقال: يا بنى، موء الخلف أضر علينا من فقد السلف.

ومات لبعض ملوك كندة ابنة فوضع بين يديه بدرة من المال، وقال: من بالغ فى تعزيته فهى له. فدخل عليه أعرابى وقال: عظم الله أجر الملك، كفيت المؤنة، وسترت العورة، ونعم الصهر القبر. فقال: قد أبلغت وأوجزت، ثم دفعها له.

---

(١) يقصد بهذا أن يورى بالمجموعة النجمية المعروفة باسم «بنات نعش» وهى مكونة من نجوم سبعة.

وعزت أعرابية قومًا فقالت: جافى الله عن ميتكم الثرى، وأعانه على طول البلى، وآجركم ورحمه.

وكان لعليٍّ بن الحسين جليس مات له ابن فجزع عليه جزعًا شديدًا، فعزاه على بن الحسين رحمه الله ووعظه، فقال: يا ابن رسول الله، إن ابنى كان مسرفًا على نفسه فقال: لا تجزع. فإن من ورائه ثلاث خلال أولهن: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن سيدنا محمدًا رسول الله. والثانية: شفاعة جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والثالثة: رحمة الله التى وسعت كل شىء، فأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه الخلال؟

وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إن فى كبدى جمرة لا يطفئها إلا عبرة. فقال عمر: اذكر الله يا أمير المؤمنين، وعليك بالصبر، فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته. فقال رجاء: أَفِضْها يا أمير المؤمنين فما بذلك من بأس، لقد دمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنه إبراهيم. وقال :«إن العين لتدمع، وإن القلب ليخشع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون». فأرسل سليمان عينيه حتى قضى أربه، ثم أقبل عليهم وقال: لولا أن نزفت هذه العبرة لانصدع كبدى، ثم إنه لم يبك بعدها.

وكتب الإسكندر إلى أمه قبل وفاته بقليل: إذا وصل إليك كتابى هذا فاجمعى أهل بلدك وأعدى لهم طعامًا، ووكلى بالأبواب من يمنع مَنْ أصابته مصيبة، فى أم أو أب أو أخ أو أخت أو ولد ففعلت. فلم يدخل إليها أحد فعلمت؛ أن الإسكندر عزاها فى نفسه.

ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه يعزيها فيه فقال لها: أماه، لا تحزنى على الفضل فأنا خلف منه. فقالت: كيف لا أحزن على ولد عوضنى عنه خليفة مثلك؟! فعجب المأمون من جوابها وكان يقول: ماسمعت قط أحسن منه، ولا أجلب للقلوب. فقال لها: عليك بالصبر؛ فإن فيه مزيد الأجر.

وممن جزع على ولده جعفر بن علية لما قتله الحرث قام نساء الحى يبكون عليه، وقام أبوه إلى ولد كل شاة وناقة فذبحه وألقاها بين أيديهن، وقال لهن: ابكين معى على جعفر، فما زالت النوق ترغو، والشياه تعير، والنساء يصرخن ويبكين، وهو يبكى معهن، فلم ير مأتم كان أوجع منه.

وقال يحيى بن خالد: التعزية بعد ثلاثة إيام تجدد الحزن، والتهنئة بعد سنة تجدد الفرح. ومما قيل فى التأسى والتسلى بالخلف عن السلف: قيل عزى بعض الشعراء يزيد بن معاوية فى والده فقال:

اصبِرْ يزيدُ فقد فارقت ذائقة ... واشكُرْ إلهك مَنْ بالملك حاباكا
لا رزء أصبح فى الأيام نعرفه ... كما رُزِئت ولا عُقْبى كعقباكا

وقال آخر:

لا بدَّ من فَقْدٍ ومن فاقدٍ ... هيهاتِ ما فى الناس من خالدِ

وقال آخر:

تبصَّر فلو أن البكا ردّ هالكا ... على أحدٍ فأكثِرْ بكاك على عمر

وكتب بعضهم إلى أولاد صديقه يعزيهم ويسليهم فى والدهم فقال:

فلو كان فيضُ الدمع ينفع باكيا ... لعَلمَّت غرب الدمع كيف يسيلُ
فإن غاب بدرٌ فالنجوم طوالعٌ ... ثوابت لا يقضى لهن أفولُ
يغاث بها فى ظُلْمَة الليل حائرٌ ... ويَسْرِى عليها بالرِّفاق دليلُ

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد وقد مات له ولد، وولد له فى تلك الليلة ولد، فقال: سرك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرك، وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر.

وقال بعضهم:

أليس لهذا صار آخر أمرنا ... فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فلا تعجبى يا نفس مما ترينه ... فكل أمور الناس هذا مصيرها

وسئل الأصمعى عن قول الخنساء فى نعيها صخرًا حين مات ونعته فقالت:

يُذَكِرُنى طلوع الشمس صخرًا ... وأنْدُبُه لكل غروب شمس

فقالوا له: لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب؟ فقال: لكونه كان يركب عند طلوع الشمس يشن الغارت، وعند غروبها يجلس مع الضيفان. فذكرته بهذا مدحًا؛ لأنه كان يغير على أعدائه، ويتقيد بضيفه.

وقد رثته بعد البيت الأول بأبيات منها:

ألا نفس لا تنسيه حتى ... أفارق عيشتى وأزور رَمْسِى[1]
ولولا كثرة الباكين حولى ... على أمواتهم لقتَّلْتُ نفسى
وما يكون مثلَ أخى ولكن ... أسلى النفسَ عنه بالتأسى

وقال آخر:

ولولا الأسى ما عشتُ فى الناس ساعةً ... ولكن إذا ناديت جاوبنى مثلى

وقال آخر:

وهوَّن وجدى عن خليلىَ أننى ... إذا شئتُ لاقيتُ الذى أنا صاحبه

وقال آخر:

ومما يؤدينى إلى الصبر والعزا ... تردد فكرى فى عموم المصائب

الفصل الثالث فى المراثى

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم رثاه جماعة من أصحابه، وآله بمراث كثيرة. منها: ما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، فإنه كان أقرب الناس إليه وهو أول من رثاه فقال:

لما رأيتُ نبينا مُتَجَنْدِلاً ... ضاقَتْ علىَّ بعرضهن الدورُ
فارتاعَ عند ذاك لموته ... والعظمُ منى ما حييت كسيرُ
أعتيق ويحك إن خِلَّكَ قد ثوى ... والصَّبرُ عندك ما بقيت يسيرُ
يا ليتنى من قبلك مُهلَكٍ صاحبى ... غيبت فى لحد عليه صخورُ
فلتحدثن بدائع من بعده ... تعيا بهنَّ جوانحٌ وصدورُ

وقال آخر:

فقدَتْ أرضنا هناك نبيًّا ... كان يغدو به النبات زكيًّا
خلقاً عالياً وديناً كريماً ... وصراطاً يهدى الأنام سويًّا
وسراجًا يجلو الظلام منيرا ... ونبياً مؤيداً عربيًّا
حازما عازما حليما كريما ... عائدا بالنوال برًّا تقيًّا

---

(١) رمسى: قبرى.

إن يومـاً أتـى عليـك ليـوم ... كـوِّرت شمسـه وكـتن خليًّـا
فعليـك السـلام منـا جميعـا ... دائـم الدهـر بكـرة وعشـيًا

ورثاه صلى اللّه عليه وسلم أبو سفيان بن الحرث فقال:

أرقـتُ فبـاتَ ليلـى لا يـزول ... وليـلُ أخـى المصيبـة فيـه طـولُ
وأسـعدنى البكـاء وذاك فيمـا ... أصيـب المسـلمون بـه قليـلُ
لقـد عظمـت مصيبتنـا وجلـت ... عشـية قيـل قـد قبـض الرسـولُ
وأضحـت أرضُنـا ممـا عراهـا ... تكـاد بنـا جوانبهـا تميـلُ
فقَدْنـا الوحـى والتـنزيل فينـا ... يـروح بـه ويغـدو جـبرَئيلُ
وذاك أحـقُّ مـا سـالت عليـه ... نفـوس النـاس أو كـادت تسـيلُ
نبـىٌّ كـان يجلـو الشـك عنّـا ... بمـا يوحَـى إليـه ومـا يقـولُ
ويهدينـا فـلا نخشَـى ملامًـا ... علينـا والرسـولُ لنـا دليـلُ
أفـاطمَ إن جزعـتِ فـذاك عـذرٌ ... وإن لم تجزعـى فهـو السـبيلُ
فقـبرُ أبيـك سـيِّدُ كـل قـبرِ ... وفيـه سـيِّدُ النـاسِ الرسـولُ

ولما مات أبو بكر الصديق رضى اللّه تعالى عنه رثاه عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه بهذه الأبيـات حين رجع من دفنه فقال:

ذهـب الذيـن أحِبُّهُـم ... فعليـك يـا دنيـا السـلامُ
لا تذكريـن العيـشَ لى ... فـالعيشُ بعدهُـمُ حـرامُ
إنـى رضيـعُ وصـاهم ... والطفـلُ يولمـه الفطـامُ

ورثى بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال:

سـألت النـدى والجـود مـا لى أراكمـا ... تبدلتمـا عـزًّا بـذلّ مؤبَّـدِ
ومـا بـال ركـنِ المجـد أمسـى مهدَّمـا ... فقـالا أصبنـا بـابن يحيـى محمـدِ
فقلـتُ فهـلاَّ متّمـا بعـد موتـه ... وقـد كنتمـا عبديـه فـى كـل مشـهدِ
فقـال أقَمْنـا كـى نعـزِّى بفقـده ... مسـافةَ يـومٍ ثـم نتلـوه فـى غـدِ

وقال آخر:

ولا أرتجـى فـى المـوت بعـدكَ طـائلاً ... ولا أتقـى للدهـر بعـدك مـن خطـبِ

وفى المعنى لبعضهم:

لقـد آمنـت نفسـى المصـائب بعـده ... فـأصبحت منهـا آمنـا أن أروَّعـا
فمـا أتقـى للدهـر بعـدك نكبـة ... ولا أرتجـى للعيـش بعـدك مرتعـا

ورثى أشجع السلمى عبد اللّه بن سعيد فقال:

مضى ابنُ سعيدٍ حيث لم يبقَ مشرقٌ ... ولا مغـربٌ إلا لـه فيـه مـادحُ
ومـا كنـتُ أدرى مـا فواضـلُ كفّـهِ ... علـى النـاسِ حتـى غيَّبَتْـهُ الصفـائحُ

وأصبحُ فـى لحـدٍ مـن الأرض ميتـا ... وكـان بـه حيًّا تضيـقُ الصحـاصحُ[1]
سأبكيكَ ما فاضَتْ دموعى فإن تَفِضْ ... فحسبُك منى مـا تكـنُّ الجوانـحُ
ومـا أنـا مـن رزءٍ وإن جـلَّ جـازع ... ولا بسـرورٍ بعـدَ فَقْـدِكَ فـارحُ
لئن حسـنت فيـك المراثـى بذكرهـا ... فقـد حسنَتْ من قبلُ فيـكَ المدائـحُ

وقال آخر:

إلى اللّـه أشـكو لا إلى النـاس إننـى ... أرى الأرضَ تبقى والأخلاّء[2] تذهـبُ
أخـلاى لـو غـير الحمـام أصـابكم ... عتبت ولكن مـا على الدهـر معتـبُ

وقال العباس بن الأحنف:

إذا مـا دعـوت الصـبر بعـدك والبكـا ... أجـاب البكـا طوعًـا و لم يجب الصـبر
فـإن ينقطـع منـك الرجـاء فإنـه ... سيبقى عليك الحزن مـا بقى الدهـر

وقال آخر يرثى صديقه:

خليلـى مـا أزداد إلا صبابـة ... إليـك ومـا تـزداد إلا تنائيـا
خليلى لـو نفس فـدت نفسَ ميـتٍ ... فديتـك مسـرورًا بنفسـى وماليـا
وقد كنت أرجـو أن تعيش وأن أمت ... فحـال قضـاء اللّـه دون رجائيـا
ألا فليمـت مـن شـاء بعـدك إنمـا ... عليـك مـن الأقـدار كـان حذاريـا

أخذها بعضهم فقال:

كنـتَ السـوادَ لمقلتـى ... يبكـى عليـك النـاظرُ
مـن شـاءَ بعـدك فليَمُـتْ ... فعليـكَ كنـتَ أحـاذرُ

وقال آخر يرثى بعض أولاده:

وقـاسمنى دهـرى بنىّ مشـاطراً ... فلمـا تقضـى شـطره عـاد فـى شـطرى
ألا ليـتَ أمـى لم تِلدْنـى وليتَنـى ... سـبقتك إذ كنـا إلى غايـة نجـرى
وقد كنـت ذا نـاب وظفـر علـى العـدا ... فأصبحت لا يخشـون نـابى ولا ظفـرى

وقال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه للخنساء: أخبرينى بأفضل بيت قلتيه فى أخيك فقالت:

وكنـت أعـير الدمـعَ قبلـك مـن بكـى ... فـأنت على مَنْ مـاتَ بعـدك شـاغله

ولأبى المحاسن الشواء فى صديق له مات وسقط الثلج عقيب موته:

لم أنسـه وبنـو الملـوك أمامـه ... يدمـون للأسـف الأكـفَّ عضاضًـا
والثلـج قـد غطـى الربـا فكأنهـا ... مـن حزنهـا لبسـت عليـه بياضـا

وقال آخر:

وليـس صريـرُ النعـشِ مـا تسـمعونه ... ولكنـه أصـلابُ قـومٍ تَقَصَّفـوا[3]

---

(١) الصحاصحُ: الأراضى المستوية.
(٢) الأخلاّء: الأصحاب.
(٣) تَقَصَّفُوا: تكسروا.

وليس نسيمُ المسكِ ريًّا حنوطِهِ ... ولكنه ذاك الثناءُ المخلّفُ

وقال مقاتل بن عطية يرثى الوزير نظام الملك:

كان الوزير نظامُ الملك لؤلؤةً ... يتيمةً صاغَها الرحمن من شرفِ
عزت و لم تعرف الأيام قيمتها ... فردها عندما عزت إلى الصدفِ

وقال آخر:

وقبرت وجهك وانصرفت مودعا ... بأبى وأمى وجهك المقبورُ
وأرى ديارك بعد وجهك قفرة[1] ... والقبر منك مشيد معمورُ
فالناس كلهم لفقدِك واجدٌ ... فى كل بيتٍ رنّة وزفيرُ
عجبًا لأربع أذرع فى خمسة ... فى جوفها جبلٌ أشمُّ كبيرُ

وكان رجل توفى ولده يوم عيد فقال:

لبس الرجال جديدهم فى عيدهم ... ولبستُ حزن أبى الحسين جديدا
أيسرُّنى عيدٌ و لم أر وجهه ... فيه ألا بُعْدًا لذلك عيدا
فارَقْتُه وبقيت أخلد بعده ... لا كان ذاك بقا ولا تخليدا
من لم يمت جزعًا لفَقْدِ حبيبه ... فهو الخؤونُ مودةً وعهودا
مت مع حبيبك إن قدرت ولا تعش ... من بعده ذا لوعة مكمودا
ما أم خشف قد ملا أحشاءها ... حذراً عليه وجفنها تسهيدا
إن نام لم تهجَعْ وطافَتْ حوله ... فيبيت مَكْلومًا بها مرصودا
مِنّى بأوجع إذ رأيتُ نوائحًا ... لأبى الحسين وقد لطمن خدودا
ولقد عدمت أبا الحسين جلادتى ... لما رأيتُ جمالك المفقودا
كنت الجليد[2] على الرزايا كلها ... وعلى فراقك لم أجد تجليدا
ولئن بقيت وما هلكت فان لى ... أجلا وإن لم أحصه معدودا
لا موت لى إلا إذا الأجل انقضى ... فهناك لا أتجاوز المحدودا
حزنى عليك بقدر حبك لا أرى ... يومًا على هذا وذاك مزيدا
ما هدَّ ركنى بالسنين وإنما ... أصبحت بعدك بالأسى مهدودا
يا ليت إنى لم أكن لك والدًا ... وكذاك أنك لم تكن مولودا
فلقد شقيتُ وربما شَقِىَ الفتى ... بفراق من يهوى وكان سعيدا
من ذَمَّ جفنًا باخلاً بدموعه ... فعليك جفنى لم يزل محمودا
فلأنظمن مراثيًا مشهورة ... تنسى الأنامَ كثيرًا ولبيدا
وجميع مَنْ نَظَمَ القريض مُفَارِقٌ ... ولدًا له أو صاحبًا مفقودا

---

(١) قفرة: خاوية.
(٢) الجليد: الصابر.

وقال الفقيه منصور بن إسماعيل المصرى:

سألت رسوم القبر عمن ثوى به ... لأعلم ما لاقى فقالت جوانبه
أتسأل عمن عاش بعد وفاته ... بإحسانه إخوانه وأقاربه

وقال الإمام السبكى رحمه اللّه تعالى يرثى فضل اللّه العالم:

مصابٌ ليس يشبهه مصاب ... لذى الألباب إذ فقد الشهابُ
إمام قد حوى من كل علم ... كنوزًا نحوها يسعى الركابُ
ليبكى كل ذى علم عليه ... فكم علم له ضم الترابُ
وكم كلم موانع قد أتته ... ثناها وهى عاصية صعابُ
فسلطان البلاغ بغير شك ... شهاب الدين ما فيه ارتيابُ
سقى اللّه الكريم ثراه صوبًا ... له من كل رضوان رضابُ

وقال الصدفى:

يا غائبًا فى الثرى تبلى محاسنه ... اللّه يوليك غفرانًا وإحسانا
إن كنت جرعت كأس الموت واحدة ... فى كل يوم أذوق الموت ألوانا

وقال محمد بن عبد اللّه العتبى يرثى ابنًا له:

أضحَتْ بخدى للدموع رسومُ ... أسفًا عليك وفى الفؤاد كَلُومُ
والصبرُ يحمد فى المواطن كلها ... إلا عليكَ فإنه مذمومُ

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرثى بنتًا له فقال:

عجبًا للمنونِ كيف أتتها ... وتخطت عبدَ الحميد أخاكا
شَمَلَتْنَا مصيبتان جميعًا ... فَقْدُنَا هذه ورؤية ذاكا

وله يرثى الأمير يلبغا:

ألا إنما الدنيا غرور وباطل ... فطوبى لمن كَفَاه منها تَفَرُّغَا
وما عجبى إلا لمن بات واثقًا ... بأيام دهر ما وعى حق يلبغا

وقال آخر:

إلى اللّه أشكو أرن كل قبيلة ... من الناس قد أفنى الحِمَام خيارها

وقال رجل يرثى صديقًا له توفى وكان من الكرماء:

ما درى نعشه ولا حاملوه ... ما على النعش من عفاف وجـ

ولبعض الكتاب فى ابن مقلة:

استشعر الكتاب فقدك سالفًا ... وقضت بصحة ذلك الأيام
فلذاك سوِّدت الدواة كآبة ... أسفًا عليك وشقت الأقلام

وقال الحسن بن مطير الأسدى يرثى معن بن زائدة رحمه اللّه تعالى:

هلما إلى معن وقولا لقبره ... سقتك الغوادى مربعًا ثم مربعا
فيا قبر معن كنت أوّل حفرة ... من الأرض خطت للسماحة مضجعا

ويا قبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ... ولو كان حيًّا ضقت حتى تصدعا
فتى عاش فى معروفه بعد موته ... أناس لهم بالبر قد كان أوسعا
ولما مضى معن مضى الجود كله ... وأصبح عِرْنِيْن المكارم أجدعا

وقال آخر:

عجبت لصبرى بعده وهو ميت ... وقد كنت أبكيه دمًا وهو غائب

وقال آخر:

فديتك لم أصبر ولى فيك حيلة ... ولكن دعانى اليأس منك إلى الصبر

وقالت ريطة بنت عاصم:

وقفت فأبكتنى ديار عشيرتى ... على رزئهن الباكيات الحواسر
غدوا كسيوف الهند وُرَّاد حومة ... من الموت أعيا وردهن المصادر
فوارس حاموا عن حريمى وحافظوا ... بدار المنايا والقِنَا متشاجر
ولو أن سلمى نالها مثل رزئنا ... لهدت ولكن محمل الرزء عامر

ولما قتل إبراهيم بن عبد اللّه بن عبد اللّه بن الحسين وحمل رأسه إلى المنصور، أنفذها المنصور مع الربيع إلى عميه إدريس ومحمد وكانا في حبسه، وكان أبوه قائمًا يصلي. فقال له محمد: أوجز فأوجز وسلم، فلما أتاه وضع الرأس فى حجره، فقال: أهلاً وسهلاً يا ابا القاسم، تاللّه لقد كنت من الناس الذين قال اللّه تعالى فى حقهم: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾[1] ثم قبله بين عينيه، وأنشأ يقول:

فتىً كان يحميه من العار سيفَهُ ... ويكفيه سوآت الأمور اجتنابها

ثم قال للربيع: قل لصاحبك المنصور: قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعمتك أيامٌ، والملتقى غدًا بين يدى اللّه تعالى. فكان ذلك فألا على المنصور، و لم ير بعد ذلك اليوم راحة.

وقيل لحسان: ما بالك لم ترث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ قال: لم أر شيئًا إلا رأيته يقصر عنه.

واللّه أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) سورة الرعد: ٢٠.

الباب الثالث والثمانون فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى﴾(١) فوصف سبحانه وتعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل، وأنت أيها الإنسان تعلم أنك ما أوتيت من القليل إلا قليلاً. ثم إن القليل إن تمتعت به فهو لعب ولهو؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٣) فلا تبغ أيها العاقل حياة قليلة تفنى بحياة كثيرة كما قال ابن عياض: لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى، والآخرة خزفًا يبقى، لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفنى. ثم تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا مثل ما أوتى سليمان عليه الصلاة والسلام، حيث ملكه الله تعالى جميع الدنيا من إنس وجن، وسخر له الريح، والطير، والوحوش ثم زاده الله تعالى أحسن منها حيث قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤) فوالله ما عدها نعمة مثل ما عددتموها ولا حسبها رفعة مثل ما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجًا من حيث لا يعلم فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾(٥) وهذا فصل الخطاب لمن تدبر هذا وقد قال لك والجميع أهل الدنيا: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٧) وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»(٨) . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أريك الدنيا بما فيها». قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بيدى وأتى إلى واد من أدوية المدينة، فإذا مزبلة فيها رؤوس الناس، وعذرات، وخرق بالية، وعظام البهائم، فقال: يا أبا هريرة، هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم، وتأمل آمالكم، وهى اليوم صارت عظامًا بلا جلد، ثم هى صائرة عظمًا رميمًا، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها فى الدنيا، فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية رياشهم أصبحت والرياح تصفقها(٩) ، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكيًا على الدنيا فليبك. قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا.

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو على سرير من الليف. وقد أثر الشريط فى جنبه فبكى عمر رضى الله تعالى عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: تذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من سعة الدنيا، وأنت رسول الله وقد أثر الشريط بجنبك. فقال صلى الله عليه وسلم: «هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا فى الآخرة». وروى عن الضحاك قال: لما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض ووجدا ريح الدنيا وفقدا ريح الجنة، غشى عليهما أربعين يومًا من نتن الدنيا. وعن ابن معاذ قال: الحكمة تهوى من السماء إلى القلوب فلا تسكن فى قلب فيه أربع خصال: ركون إلى الدنيا، وهم عدو، وحسد أخ، وحب شرف. وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى: «يا على، أربع خصال من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وبعد الأمل، وحب الدنيا». وروى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء العينين، أنيابها بادية،

---

(١) سورة النساء:٧٧.

(٢) سورة الحديد:٢٠.

(٣) سورة العنكبوت:٦٤.

(٤) سورة ص:٣٩.

(٥) سورة النمل:٤٠.

(٦) سورة الحجر:٩٢ - ٩٣.

(٧) سورة الأنبياء:٤٧.

(٨) أخرجه: الترمذى فى كتاب الزهد ٢٣٢٠.

(٩) تصفقها: تتلاعب.

مشوهة الخلق، لا يراها أحد إلا هرب منها، فتشرف على الخلائق أجمعين فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقولون: لا، نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال: هذه الدنيا التى تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها. وعن الفضيل بن عياض أنه قال: جعل الخير كله فى بيت واحد، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنايا، وجعل الشر كله فى بيت واحد، وجعل مفتاحه حب الدنيا.

وقيل: إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فرَّ، وإن تركته تبعك، وفيه قال بعضهم:

إنما الرزقُ الذى تطلبه ... يشبهُ الظلَّ الذى يمشى معَك
أنت لا تدركَه متبعًا ... وهو وإن ولَّيتَ عنه تَبَعَك

وقال: شبهها بعضهم بخيال الظل فقال:

رأيتُ خيالَ الظل أعظم عبرةً ... لمن كان فى علم الحقائق راقى
شخوصًا وأصواتًا يخالف بعضها ... لبعض وأشكالاً بغير وفاقِ
تجىء وتمضى بابة بعد بابة ... وتفنى جميعًا والمحرك باقى

وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك:

ما أنعم اللّه على عبدِهِ ... بنعمة أوفى من العافيَهْ
وكل من عوفى فى جسمه ... فإنه فى عيشة راضيَهْ
والمال حلو حسن جيد ... على الفتى لكنه عاريهْ
ما أحسن الدنيا ولكنه ... مع حسنها غدَّارة فانيَهْ

وتوفى رجل من كندة فكُتِب على قبره هذه الأبيات:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... أن الحِمام بكم علينا قادم
لو تنزلون بشعبنا لعرفتمو ... أن المفرط فى التزود نادم
لا تستغزوا بالحياة فإنكم ... تبنون والموت المفرق هادم
ساوى الردى ما بيننا فى حفرة ... حيث المخدَّم واحد والخادم

وقال آخر:

عن قليل أصير كوم تراب ... وتقول الرفاق هذا فلان
صار تحت التراب عظمًا رميمًا ... وجفاه الأصحاب والخلان

وما أحسن ما قال عبد اللّه بن طاهر:

أليس إلى ذا صار آخر أمرنا ... فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فلا تعجبى يا نفس مما ترينه ... فكل أمور الناس هذا مصيرها

وقال شرف الدين بن أسد:

يا من تَمَلَّكَ ملكًا لا بقاء له ... حَمَّلْتَ نفسك آثامًا وأوزارا
هل الحياة بذى الدنيا وإن عذبت ... إلا كطيف خيال فى الكرا زَارَا

وقال بعضهم:

وغاية هذى الدار لذة ساعة ... ويعقبها الأحزان والهم والندم
وهاتيك دار الأمن والعز والتقى ... ورحمة رب الناس والجود والكرم

وقال غيره:

حسَّنْتَ ظَنَّكَ بالأيام إذ حسنت ... ولم تَخَفْ سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

وقال آخر:

فإن كنت لا تدرى متى الموت فاعلَمَنْ ... بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

أين آدم؟ أين الأولون والآخرون؟ أين نوح شيخ المرسلين؟ أين إدريس رفيع رب العالمين؟ أين إبراهيم خليل الرحمن؟ أين موسى الكليم من بين سائر النبيين؟ أين عيسى روح الله الزاهدين وإمام السائحين؟ أين محمد خاتم النبيين؟ أين أصحابه الأبرار؟ أين الأمم الماضية؟ أين الملوك السالفة؟ أين القرون الخالية؟ أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان؟ أين الذين قهروا الأبطال والشجعان؟ أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب؟ أين الذين تمتعوا باللذات والمشارب؟ أين الذين تاهوا على الخلائق كبرًا وعتيًّا؟ أين الذين راحوا فى الحلل بكرة وعشيا؟ أين الذين اغتروا بالأجناد؟ أين أصحاب الوزراء والقواد؟ أين أصحاب السطوة والأعوان؟ أين أصحاب الإمارة والسلطان؟ أين أصحاب الأعمال والولايات؟ أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات؟ أين الذين قادوا الجيوش والعساكر؟ أين الذين عمروا القصور والدساكر؟ أين الذين أعطوا النصر فى مواطن الحروب والمواقف؟ أين الذين آمنوا بسطوتهم كل خائف؟ اين الذين ملأوا ما بين الخافقين فخرًا وعزًّا؟ أين الذين فرشوا القصور حريرًا وقزًّا؟ أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وعزًّا؟ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم رِكزًا؟ أفناهم الله مفنى الأمم، وأبادهم مبيد الرمم، وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور تحت الجنادل والصخور. فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، لم ينفعهم ما جمعوا، ولا أغنى ما اكتسبوا، أسلمهم الأحباء والأولياء وهجرهم الإخوان والأصفياء، ونسيهم الأقرباء والبعداء، لو نطقوا لأنشدوا:

مقيم بالحَجُوْنِ رَهِيْن رَمْسٍ ... وأهلى راحلون بكل واد
كأنى لم أكن لهمو حبيبًا ... ولا كانوا الأحبة فى السواد
فعوجوا بالسلام فإن أبيتم ... فأوموا بالسلام على العباد

وقالوا: لا فخر فيما يزول، ولا غنى فيما لا يبقى، وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء المتقدمين: قدر يغلى، وكنيف يملى؟ وفى هذا المعنى قال الشاعر:

ولقد سألت الدار عن أخبارهم ... فتبسمت عجبًا ولم تبد
حتى مررت على الكنيف فقال لى ... أموالهم ونوالهم عندى

ولقد أصاب ابن السماك حيث قال للرشيد لما قال له: عظنى وكان بيده شربة ماء، فقال له: يا أمير المؤمنين، لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. قال: يا أمير المؤمنين لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. فقال له: لا خير فى ملك لا يساوى شربة ولا بولة. وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيمًا لم ينفعه الطعام، وإذا كان القلب مغرمًا لم تنفعه الموعظة. وروى أن أبا العتاهية مرَّ بدكان وراق وإذا بكتاب فيه:

لا ترجع الأنفس عن غيها ... ما لم يكن منها لها زاجر

فقال: لمن هذا البيت. فقيل: لأبى نواس قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حب الجمال، وعشق الملاح، فقال: وددت أنه لى بنصف شعرى. وممن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وتقضيها وزوالها إبراهيم بن أدهم بن منصور كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ لما زهد الدنيا، زهد فى ثمانين سريرًا. قال

ابن بشار: سألت إبراهيم بن أدهم كيف كان بدء أمرك حتى صرت إلى هذا؟ فقال: كان أبى من ملوك خراسان، وكان قد حبب إلىّ الصيد، فبينا أنا راكب فرسى، وكلبى معى إذ رأيت ثعلبًا أو أرنبًا، فحركت فرسى نحوه، فسمعت نداء من ورائى: يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت. فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر أحدًا، فقلت: لعن الله الشيطان، ثم حركت فرسى، فسمعت نداء أعلى من الأول: يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر شيئًا فقلت: لعن الله الشيطان، ثم حركت فرسى فسمعت النداء من قربوس سرجى: يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت. فوقفت وقلت: هيهات جاءنى النذير من رب العالمين، والله لا عصيت ربى ما عصمنى بعد يومى هذا. فتوجهت إلى أهلى، وخلفت فرسى، وجئت إلى بعض رعاة أبى فأخذت جبته وكساءه، وألقيت إليه ثيابى، فلم أزل أرض تقلنى، وأرض تضعنى حتى صرت إلى العراق فعملت بها أيامًا، فلم يصفُ لى شىء من الحلال، فسألت بعض المشايخ عن الحلال. فقال: عليك بالشام، قال: فانصرفت إلى بلد يقال لها: المنصورية، فعملت بها أيامًا فلم يصفُ لى شىء من الحلال، فسألت بعض المشايخ. فقال: إن أردت الحلال فعليك بطرسوس، فإن المباحات بها والعمل فيها كثير، فانصرفت إليها. قال: فبينا أنا قاعد على باب البحر، إذ جاءنى رجل فاكترانى أنظر له بستانًا، فتوجهت معه فأقمت فى البستان أيامًا كثيرة، فإذا خادم له قد أقبل ومعه أصحاب له، ولو علمت أن البستان بخادم ما نظرته، فقعد فى مجلسه ثم قال: يا ناطورنا، فأجبته. قال: اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه، فأتيْتُه برمان، فكسر الخادم واحدة فوجدها حامضة فقال: يا ناطورنا، أنت منذ كذا وكذا فى بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماننا ولا تعرف الحلو من الحامض، فقلت: والله ما أكلت من فاكهتكم شيئًا، ولا أعرف الحلو من الحامض. قال: فغمز الخادم أصحابه وقال: ألا تعجبون من هذا؟ ثم قال لى: لو كنت إبراهيم بن أدهم ما كنت بهذه الصفة. قال: ثم تحدث الناس بذلك وجاءوا إلى البستان. فلما رأيت كثرة الناس اختفيت، والناس داخلون وأنا هارب منهم. وكان يأكل من كسب يده، وكان يحصد ويحفظ البساتين، ويعمل فى الطين فبينما هو يومًا يحرس كرمًا إذ مر به جندى فقال: اعطنا من هذا العنب، فقال له: إن صاحبه لم يأذن لى، فضربه بالسوط فطأطأ رأسه وقال: اضرب رأسًا طالما عصى الله يا سيدى الجندى. فاستحى الرجل وتركه ومضى.

وروى أن داود عليه الصلاة والسلام بينما هو يسيح فى الجبال إذا مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة من بنى آدم ملقى على ظهره وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه: أنا دوسم الملك، تملكت ألف عام، وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش، وفضضت ألف بكر من بنات الملوك، ثم صرت إلى ما ترى؛ التراب فراشى، والحجر وسادى، فمن رآنى فلا تغره الدنيا كما غرتنى.

وقال وهب بن منبه: خرج عيسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم مع أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك. فقالوا: يا نبى الله، إنا جياع، فأوحى الله تعالى إليه أن ائذن لهم فى قوتهم، فأذن لهم فتفرقوا فى الزرع يفركون ويأكلون، فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول: زرعى، وأرضى ورثتها من أبى وجدى، فبإذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال: فدعا عيسى ربه أن يبعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة فإذ عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة يقولون: أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، ففر الرجل منهم وكان قد بلغه أمر عيسى ولكن لا يعرفه. فلما عرفه قال: معذرة إليك يا نبى الله إنى لم أعرفك، زرعى ومالى حلال لك، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: ويحك، هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها ثم ارتحلوا عنها، وأنت مرتحل عنها ولاحقٌ بهم، ليس لك أرض ولا مال.

ولما مات إسكندر قال أرسطاطاليس: أيها الملك لقد حركتنا بسكونك. وقال بعض الحكماء من أصحابه: لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ من أمس.

أخذه أبو العتاهية فقال:

كفى حزنًا بدفنك ثم إنى ... نقضت تراب قبرك من يديا
وكانت فى حياتك لى عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقال عبد الله بن المعتز:

نسير إلى الآجال فى كل ساعة ... فأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم أر مثل الموت حتى كأنه ... إذا ما تخطته الأمانىُّ باطل
وما أقبح التفريط فى زمن الصبا ... فكيف به والشيب فى الرأس شاعل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى ... فعمرك أيام تعد قلائل

وقال عبد الله بن المعلم: خرجنا من المدينة حجاجًا فإذا أنا رجل من بنى هاشم من بنى العباس بن عبد المطلب قد رفض الدنيا وأقبل على الآخرة، فجمعتنى وإياه الطريق، فأنست به وقلت له: هل لك أن تعادلنى[1]، فإن معى فضلاً من راحلتى، فجزانى خيرًا وقال: لو أردت هذا لكان سهلاً، ثم أنس إلىَّ فجعل يحدثنى. فقال: أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كبر شديد ونعمة طائلة، ومال كثير وبذخ زائد، فأمرت خادمًا لى أن يحشوا لى فراشًا من حرير ومخدة بورد نثير ففعل؛ فإنى لنائم إذا بقمع وردة قد نسيه الخادم فقمت إليه فأوجعته ضربًا، ثم عدت إلى مضجعى بعد إخراج القمع من المخدة، فأتانى آت فى منامى فى صورة فظيعةٍ فهزنى وقال: أفق من غشيتك، وانتبه من رقدتك، ثم أنشأ يقول:

يا خل إنك تَوَسَّدُ لَيِّنًا ... وسدت بعد اليوم صم الجندل[2]
فامهد لنفسك صالحًا تسعد به ... فلتندمن غدًا إذا لم تفعل

فانتبهت مرعوبًا، وخرجت من ساعتى هاربًا إلى ربى كما ترانى ثم أنشأ يقول:

من كان يعلم أن الموت يدركه ... والقبر مسكنه والبعث يخرجه
وأنه بين جنات مزخرفة ... يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شىء سوى التقوى به سمج ... ومن أقام عليه منه اسمجه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنًا ... لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

قال وهب بن منبه: أصبت على قصر غُمَدَان وهو قصر سيف بن ذى يزن بأرض صنعاء اليمن وكان من الملوك الأجلة مكتوبًا بالقلم المسندى[3] فترجم بالعربى فإذا هى أبيات جليلة وموعظة عظيمة جميلة وهى هذه الأبيات:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا من أعالى عزَّ معقلهم ... فأسكنوا حفرة يا بئس ما نزلوا
ناداهمو صارخ من بعدها دفنوا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت محجبة ... وكان من دونها الأستار والكلل

(١) تعادلنى: تساوينى.
(٢) الجندل: الحجر فى القبر.
(٣) القلم المسندى: خط عربى قديم عرف فى نواحى اليمن.

فـأفصح القـبر عنهـم حـين سـاءلهم تلـك الوجـوه عليهـا الـدود يقتتـل
قد طالمـا أكلـوا دهـراً ومـا شـربوا فـأصبحوا بعد ذاك الأكـل قد أكلـوا

وروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب فى بعض سياحاته فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعامًا من هذه القرية وأعطاه ما يشترى به، فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلى، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة، فقعد ينتظر انصراف عيسى من الصلاة، فأبطأ عليه فأكل رغيفًا، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين. فقال له: أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل: ما كانا إلا رغيفين، فأكلاهما ثم مرا على وجوههم حتى أتيا على ظباء ترعى ، فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحدًا منها فجاء فذكاه وأكلا منه، فقال له عيسى: بالذى أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا اثنين. ثم مرا على وجوههما حتى جاء قرية، فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية، فأنطق اللّه له لبنة فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد، وصاحبه يتعجب مما رأى، فقال له عيسى: بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج، فأخذ عيسى صلوات اللّه عليه بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوزا النهر، فقال الرجل: سبحان اللّه ! فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: بالذى أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كان إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام، وقيل: ثلاثة أكوام من الرمل، فقال لها: كونى ذهبًا بإذن اللّه فكانت، فلما رآها الرجل قال: هذا مال، فقال عيسى: نعم واحدة لى، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث. فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف الثالث. فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: هى لك كلها، ثم فارقه عيسى. وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه، فمر به ثلاثة نفر فقتلوه، فقال: اثنان منهما للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام فانطلق، فلما غاب قال أحدهما للآخر: إذا جاء قتلناه، واقتسمنا المال بيننا، فقال الآخر: نعم، وأما الذى ذهب ليشترى الطعام، فأنه أضمر لصاحبيه السوء. وقال: أجعل لهما فى الطعام سمًّا فإذا أكلاه ماتا، وآخذ المال لنفسى، فوضع السم فى الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه، وأكلا الطعام فماتا. فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصروعون حولها. فقال: هكذا الدنيا تفعل بأهلها.

وقال الهيثم بن عدى: وجد غار فى جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب، وعند رأسه لوح من الذهب أيضًا مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس خدمت عيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر، وعشت بعده دهرًا طويلاً، ورأيت عجبًا كثيرًا، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبور أحبابه، ويعلم أنه صائر إليهم ثم لا يتوب، وقد علمت أن الأجلاف الجفاة يستنزلوننى عن سريرى، ويتولونه ، وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان، ويترأس الصبيان. فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلاً ومات ذليلاً.

وعن عمرو بن ميمون أنه قال: افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا بهرام ملك فارس كنت أعتاهم بطشًا، واقساهم قلبًا، وأطولهم أملاً، وأحرصهم على الدنيا، قد ملكت البلاد، وقتلت الملوك، وهزمت الجيوش، وأذللت الجبابرة، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلى، ولم أستطع أن أفتدى به من الموت إذ نزل بى.

ويروى فى الإسرائيليات أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينما هو فى سياحته إذ مر بجمجمة نخرة، فسأل اللّه فى أن تتكلم، فأنطقها اللّه له، فقالت: يا نبى اللّه، أنا بلوان بن حفص مالك اليمن عشت ألف سنة، ورزقت ألف ولد، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، وفتحت ألف مدينة، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم.

فمن سمع قصتي فلا يغتر بالدنيا، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديدًا حتى غشي عليه. ووجد مكتوب على قصر قد خربت أركانه، وباد أهله، وأظلمت نواحيه هذه الأبيات:

هــذى منــازل أقــوام عهدتم ... يوفون بـالعهد مـذ كـانوا وبـالذمم
تبكـى عليهـم ديـار كـان يطربهـا ... تـرنم المجـد بـين الجـود والكـرم

وقيل فى المعنى:

باللـه ربـك كـم قصـر مـررت بـه ... قـد كـان أعمـر بـاللذات والطـرب
نـادى غـرابُ المنايـا فـى جوانبـه ... وصـاح مـن بعـده بـالويل والخـرب

وفيه:

أيهـا الرافـع البنـاء رويـدًا ... لا يـرد المنـون عنـك البنـاء

وحكى أن رجلين تنازعا فى أرض، فأنطق اللّه تعالى لبنة من جدار تلك الأرض فقالت: إنى كنت ملكًا من الملوك، ملكت الدنيا ألف سنة، ثم صرت رميمًا ألف سنة، ثم أخذنى خزَّاف وعملنى إناء، فاستعملت ألف سنة، حتى تكسرت وصرت ترابًا، فأخذنى وعملنى لبنًا، وأنا فى هذا الجدار كذا وكذا سنة، فَلِمَ تتنازعان فى هذه الأرض، وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها منقلبون؟! واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

وروى أن ملكًا بنى قصرًا، وقال: انظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه، فقال رجل: أرى فيه عيبين: فقالوا له: وما هما؟. قال: يموت الملك، ويخرب القصر. قال: صدقت، ثم أقبل على اللّه، وترك القصر والدنيا.

وقيل: سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه فى الدنيا مع طول سياحته، وقطعه للقفار والفلوات[١]، فقال: أعجب شيء رأيته: أني مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها. فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا متى بنيت، وما زالت كذلك من عهد الطوفان، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ومررت بها فإذا هى خاوية على عروشها، ولم أرَ أحدًا أسأله. وإذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلتُ: أين المدينة التى هاهنا؟ فقالوا: سبحان اللّه ! لم يذكر أباؤنا ولا أجدادنا أنه كان هاهنا مدينة. ثم غبت خمسمائة سنة، ومررت بها، وإذا موضع تلك المدينة بحر، وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية. فقلت للغواصين: منذ كم هذا البحر هنا؟ فقالوا: سبحان اللّه لم يذكر أباؤنا ولا أجدادنا، إلا أن هذا البحر من عهد الطوفان، فغبت خمسمائة سنة وجئت، فإذا البحر قد غاض[٢] ماؤه، وإذا مكانه غيضة وصيادون يصيدون فيها السمك فى زوارق صغار. فقلت لبعضهم: أين البحر الذى كان ههنا؟ فقالوا: سبحان اللّه لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ههنا بحر، فغبت خمسمائة عام، ثم جئت إلى ذلك فإذا هو بالمدينة، فقالوا: سبحان اللّه ! لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت، فإذا عاليها سافلها، وهى تدخن بدخان شديد، فلم أر أحدًا أسأله، ثم أتيت راعيًا فسألته: أين المدينة؟ قال: سبحان اللّه لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان. فهذا أعجب شيء رأيته فى سياحتى فسبحان مبيد العباد ومفنى البلاد، ووارث الأرض ومن عليها، وباعث من خلق منها بعد رده إليه. ولبعضهم:

قــف بالديــار فهــذه آثــارهم ... تبكـى الأحبـة حسـرة وتشـوُّقا
كم قـد وقفـت بهـا أسـائل أهلهـا ... عـن حالهـا مترحمًـا أو مشـفقا

---

(١) الفلوات: مفردها فلاة: وهى الصحراء.

(٢) غاض: جفَّ.

فأجابنى داعى الهوى فى رسمها فارقت من تهوى وعزَّ الملتقى

ولبعضهم:

أيها الربع الذى قد دثرا كان عينًا ثم أضحى أثرا
أين سكانك ماذا فعلوا خبرن عنهم سقيت المطرا
فلقد نادى منادى دارهم رحلوا واستودعونى عبرا

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: أوحى اللّه إلى الدنيا من خدمنى فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه يا دنيا، مرى على أوليائى، ولا تحلى لهم فتفتنيهم. وقال بعض الحكماء: الدنيا كالماء المالح، كلما ازداد صاحبها شربًا إزداد عطشاً، أو كالكأس من عسل وفى أسفله سم؛ فللذائق منه حلاوة عاجلة، وفى أسفله الموت، أو كحلم النائم؛ يفرح فى منامه فإذا استيقظ زال فرحه، أو كالبرق يضئ قليلاً ثم يذهب. ولما بنى المأمون قصره الذى ضرب به المثل نام فيه فسمع قائلاً يقول:

أتبنى بناء الخالدين؟ وإنما بقاؤك فيها إن عقلت قليل
لقد كان فى ظلِّ الأراك كفاية لمن كان يوم يقتضيه رحيل

قال: فلم يلبث بعدها إلا قليلاً ومات، وقال:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابضٍ على الماء خانته فروج الأصابع

ووجد مكتوب على قصر باد أهله:

هذى منازل أقوام عهدتم فى خفض عيش نفيس ما له خطر
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا إلى القبور فلا عين ولا أثر

ولو قيل للدنيا صفى نفسك ما عدت ما وصفها به أبو نواس بقوله:

وما الناسُ إلاّ هَالِكٌ وابنُ هالك وذو نَسَبٍ فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت له عن عدوٍ فى ثياب صديق

وروى أن على بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه لما رجع: من صفين ودخل أوائل الكوفة رأى قبرًا. فقال: قبر من هذا؟ فقالوا: قبر خباب بن الأرت، فوقف عليه وقال: رحم اللّه خبابًا، أسلم راغبًا، وهاجر طائعًا، وعاش مجاهدًا، وابتلى فى جسمه آخرًا، ألا وإن اللّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ثم مشى فإذا هو بقبور فجاء حتى وقف عليها وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلفٌ، ونحن لكم تبعٌ، وبكم عمَّا قليلٌ لاحقون. اللّهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل ليوم الحساب، وقنع بالكفاف، ورضى عن اللّه تعالى، ثم قال: يا أهل القبور، أما الأزواج فقد نكحت، وأما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت، وهذا ما عندنا فما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه وقال: أما أنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى. واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

الباب الرابع والثمانون فى فضل الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخر الأبواب وبه يختم الكتاب

ولنذكر أربعين حديثًا فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم(١).

الحديث الأول: عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليَّ صلت عليه الملائكة، ومن صلت عليه الملائكة صلى الله عليه، ومن صلى الله عليه لم يبق شىء فى السموات ولا فى الأرض إلا صلى عليه».

الحديث الثانى: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليّ صلاة واحدة أمر الله حافظيه أن لا يكتبا عليه ذنبًا ثلاثة أيام».

الحديث الثالث: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليّ مرة خلق الله من قوله ملكًا له جناحان، جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب، رأسه وعنقه تحت العرش وهو يقول: اللهم صل على عبدك ما دام يصلى على نبيك».

الحديث الرابع: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليَّ ألفًا لم يعذبه الله بالنار».

الحديث الخامس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليّ مرة صلى الله عليه بها عشرًا، ومن صلى عليّ عشرًا صلى الله عليه مائة، ومن صلى عليّ مائة صلى الله عليه بها ألفًا ومن صلى عليّ ألفًا لم يعذبه الله بالنار».

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليّ مرة كتب الله له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات».

الحديث السادس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتانى جبريل يومًا قال: يا محمد جئتك ببشارة لم آت بها أحدًا قبلك، وهى أن الله تعالى يقول لك: «من صلى عليك من أمتك ثلاث مرات غفر الله له إن كان قائمًا قبل أن يقعد، وإن كان قاعدًا غفر له قبل أن يقوم»، فعند ذلك خر ساجدًا لله شاكرًا.

الحديث السابع: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليّ فى الصباح عشرًا محيت عنه ذنوب أربعين سنة».

الحديث الثامن: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليّ ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة غفر الله له خطيئة ثمانين سنة».

الحديث التاسع: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليّ ليلة الجمعة - أو يوم الجمعة - مائة مرة قضى الله له مائة حاجة، ووكل الله به ملكًا حين يدفن فى قبره يبشره كما يدخل أحدكم على أخيه بالهدية».

الحديث العاشر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليَّ فى يوم مائة مرة قضيت له فى ذلك اليوم مائة حاجة».

الحديث الحادى عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقربكم منى مجلسًا أكثركم عليّ صلاة».

(١) يراجع كتاب «جلاء الأفهام» لابن القيم.

الحديث الثانى عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليّ ألف مرة بشر بالجنة قبل موته».

الحديث الثالث عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جاءنى جبريل عليه السلام وقال لى: يا رسول الله، لا يصلى عليك أحد إلا ويصلى عليه سبعون ألفًا من الملائكة».

الحديث الرابع عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدعاء بعد الصلاة عليَّ لا يرد».

الحديث الخامس عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصلاة عليَّ نورٌ على الصراط». وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يلج النار من يصلى عليَّ».

الحديث السادس عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من جعل عبادته الصلاة عليّ قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة».

الحديث السابع عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من نسى الصلاة عليَّ أخطأ طريق الجنة».

الحديث الثامن عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ لله ملائكة فى الهواء، بأيديهم قراطيس من نور، لا يكتبون إلا الصلاة عليّ وعلى أهل بيتى».

الحديث التاسع عشر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو أن عبدًا جاء يوم القيامة بحسنات أهل الدنيا، و لم تكن فيها الصلاة عليّ ردت عليه، و لم تقبل منه».

الحديث العشرون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أولى الناس بى أكثرهم على صلاة».

الحديث الحادى والعشرون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليَّ فى كتاب لم تزل الملائكة تصلى عليه، ما لم يندرس اسمى من ذلك الكتاب».

الحديث الثانى والعشرون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغوننى الصلاة عليّ من أمتى فأستغفر لهم».

الحديث الثالث والعشرون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى على كنت شفيعه يوم القيامة، ومن لم يصل عليَّ فأنا برىء منه».

الحديث الرابع والعشرون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يؤمر بقوم إلى الجنة فيخطئون الطريق. قالوا: يا رسول الله لم ذاك؟ قال: سمعوا اسمى و لم يصلوا عليّ».

الحديث الخامس والعشرون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يؤمر برجل إلى النار فأقول: ردوه إلى الميزان فأضع له شيئًا كالأنملة معى فى ميزانه، وهو الصلاة عليّ، فيرجح ميزانه، وينادى: سَعُدَ فلان».

الحديث السادس والعشرون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما اجتمع قوم فى مجلس و لم يصل عليّ فيه إلا تفرقوا كقوم تفرقوا عن ميت و لم يغسلوه».

الحديث السابع والعشرون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى وكل بقبرى ملكًا أعطاه أسماء الخلائق كلها فلا يصلّى عليّ أحد يوم القيامة إلا بلغنى اسمه، وقال يا رسول الله: إن فلان ابن فلانة صلى عليك».

الحديث الثامن والعشرون: عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال: الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم أمحى للذنوب من الماء لسواد اللوح.

الحديث التاسع والعشرون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام إن أردت أن أكون إليك اقرب من كلامك إلى لسانك، ومن روحك لجسدك، فأكثر من الصلاة على النبى الأمى صلى الله عليه وسلم».

الباب الثلاثون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن ملكًا أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها فرحمها ذلك الملك، و لم يبادر إلى اقتلاعها فغضب الله عليه، وكسر أجنحته فمر به جبريل عليه السلام فشكا له حاله، فسأل الله فيه، فأمره أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم فصلى عليه فغفر الله له، وردّ عليه أجنحته ببركة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم».

الحديث الحادى والثلاثون: عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: من صلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر مرات، وصلى ركعتين، ودعا الله تعالى، تقبل صلاته، وتقضى حاجته، ودعاؤه مقبول غير مردود.

الحديث الثاني والثلاثون: عن زيد بن حارثة قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عليه فقال صلى الله عليه وسلم: «صلوا عليّ، واجتهدوا في الدعاء، وقولو: اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد».

الحديث الثالث والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله عنه قال تعالى: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صلُّوا عليَّ فإن صلاتكم عليّ زكاة لكم، واسألوا الله الوسيلة».

الحديث الرابع والثلاثون: عن سهل بن سعد الساعدى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لا صلاة لمن لم يصل على نبيه صلى الله عليه وسلم».

الحديث الخامس والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ».

الحديث السادس والثلاثون: عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال جزى الله عنا محمدًا خيرًا، وجزى الله نبينا محمدًا بما هو أهله فقد أتعب كاتبيه».

الحديث السابع والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ؛ فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم».

الحديث الثامن والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من أحد يصلى عليّ إلا رد الله روحى حتى أردَّ عليه».

الحديث التاسع والثلاثون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقربكم منى منزلة يوم القيامة أكثركم عليَّ صلاة».

الحديث الأربعون: نقل الشيخ كمال الدين الدميرى رحمه الله تعالى عن شِفاء الصدور لابن سبع أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من سره أن يلقى الله وهو عليه راضٍ فليكثر من الصلاة عليَّ؛ فإنه من صلى عليّ فى كل يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبدًا، وهدمت ذنوبه، ومحيت خطاياه، ودام سروره، واستجيب دعاؤه، وأعطى أمله، وأعين على عدوّه وعلى أسباب الخير، وكان ممن يرافق نبيه فى الجنان».اللّهم صل على سيد المرسلين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين الذى أنزل عليه في محكم الكتاب العزيز تعظيمًا له، وتوقيرًا: **﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾**[١] فهذا خطاب خاص الخاص، و لم يخاطب الله أحدًا من المرسلين ولا من الأنبياء ولا رسولاً بالرسالة، إلا سيد خلقه محمدًا صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى نادى أبا البشر: **﴿يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾**[٢]، **﴿يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾**[٣]، **﴿يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾**[٤]، **﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾**[٥]

---

(١) سورة الأحزاب: ٤٥ - ٤٧.
(٢) سورة البقرة:٣٥.
(٣) سورة هود:٤٨.
(٤) سورة هود:٧٦.
(٥) سورة ص:٢٦.

﴿يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾[(١)]، وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[(٢)] ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ﴾[(٣)]، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾[(٤)]. ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[(٥)]. ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[(٦)]. ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾[(٧)]. ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾[(٨)]. ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[(٩)]. وما ناداه باسمه يا محمد كغيره إلا في أربعة مواضع اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه محمد صلى الله عليه وسلم، الأول قوله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[(١٠)] لأن سبب إنزالها أن الشيطان صاح يوم أحد قد قتل محمد، وكان ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية، ولو قال وما رسولي لقال الأعداء: ليس هو محمد فذكره باسمه لأنهم ما كانوا ينكرون أن اسمه محمد. الثاني قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[(١١)]. الثالث قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾[(١٢)] فلو قال: وآمنوا مما نزل علي رسولي لقال الآعداء ليس هو فعرفه باسم محمد صلى الله عليه وسلم. الرابع قوله عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾[(١٣)] والحكمة في ذكره هنا باسمه أنه سبحانه وتعالى قال قبلها: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[(١٤)] فكان من الأعداء من يقول: من هو رسوله الذي أرسله فعرفه باسمه فقال: محمد رسول الله، وسماه تعالى باسمه أحمد في موضع واحد وله حكمة، وهي أن الله تعالى لما أرسل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال لقومه من بني إسرائيل: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[(١٥)] لأنهم كانوا يعرفونه في التوراة: أحمد فما ناداه سبحانه وتعالى باسمه محمد، وإنما ذكر ذلك إعلامًا به، وتعريفًا له، وما ناده إلا بالنبوة والرسالة فقال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[(١٦)] أي شاهدًا بالإيمان للمؤمنين، ومبشرًا لأهل التمجيد، ونذيرًا لأهل التجحيد، وقيل شاهدًا لأهل القرآن، ومبشرًا لهم بالغفران، ونذيرًا لأهل الكفر والعصيان، وقيل: شاهدًا لأمتك، ومبشرًا بشفاعتك، ونذيرًا لمن ارتكب مخالفتك، وقيل: شاهدًا بالمنة، ومبشرًا بالجنة. وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي: يدعو الناس بأمر الله تعالى إلى: لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[(١٧)] وسمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه داعيًا فقال أنا الداعي إلى الله وقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أي: يهتدى به كما يهتدى بالسراج في ظلمة الليل.

فإن قلت: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ و لم يقل: قمرًا منيرًا.

---

(١) سورة المائدة:١١٠.
(٢) سورة المائدة:٦٧.
(٣) سورة المائدة:٤١.
(٤) سورة الأنفال:٦٤ - ٦٥.
(٥) سورة التوبة:٧٣.
(٦) سورة الطلاق:١.
(٧) سورة التحريم:١.
(٨) سورة الأحزاب:١.
(٩) سورة الأحزاب:٤٥ - ٤٦.
(١٠) سورة آل عمران:١٤٤.
(١١) سورة الأحزاب:٤٠.
(١٢) سورة محمد: ١ - ٢.
(١٣) سورة الفتح:٢٩.
(١٤) سورة الفتح:٢٨.
(١٥) سورة الصف:٦.
(١٦) سورة الأحزاب:٤٥ - ٤٦.
(١٧) سورة الجن: ١٩.

فالجواب: عن ذلك أن لاسراج أعم من القمر، لأن المراد بالسراج هنا الشمس. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[(١)] والشمس أعم نفعًا ونورًا من القمر، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ السراج الذى يقتبس منه، لأن القمر لا تصل إليه الأيدى حتى يقتبسون منه، والسراج إذا كان في بلد يملأ ذلك البلد نورًا، لأن كل ما جاء يقتبس منه. والقمر ليس كذلك، ولهذا كانت الدنيا قبل ولادته صلى الله عليه وسلم ظلامًا، فلما ولد ظهر سراج دينه بمكة، فكان أول من اقتبس من الرجال أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الشباب على، ومن الموالى زيد، ومن العبيد بلال رضى الله تعالى عنهم أجمعين. وجاء سلمان من أرض فارس فاقتبس، وصهيب من الروم، وبلال من الحبشة، ووفد الوفود واقتبسوا، وأبو لهب إلى جانب البيت ولم يقتبس، واقتبس الناس من مشارق الأرض ومغاربها حتى امتلأت الأرض من نور سراجه، فهو صلى الله عليه وسلم أعظم الأنبياء، وأكرم المرسلين، وسيد الخلق أجمعين، لم يخلق الله أحسن ولا أجمل ولا أكمل ولا أفضل ولا أفصح ولا أرجح ولا أسمح ولا أصبح ولا أجلَّ ولا أعظم ولا أسخى ولا أكرم ولا أبهى ولا أنصف ولا أعدل منه صلى الله عليه وسلم.

فلو أن البحار مداد، والنبات أقلام، وجميع الخلق تكتب معجزاته صلى الله عليه وسلم لعجزوا عن وصف نزر النزر من معجزاته صلى الله عليه وسلم.

اللهم اجعلنا من خالص أمته، واحشرنا فى زمرته، وَأَمِتْنَا على محبته، ولا تخالف بنا عن ملته، ولا عمن جاء به برحمتك يا أرحم الراحمين آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى عدد ما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

(١) سورة نوح:١٦.

فهـــرس الموضوعات